سلسلة العقيدة في ضوء الكتاب والسنة

عمر الأشقر

	الكتاب	الصفحة
1	العقيدة في الله	2
2	عالم الملائكة الأبرار	332
3	عالم الجن والشياطين	444
4	الرسل والرسالات	668
5	القيامة الصغرى	949
6	القيامة الكبرى	1251
7	الجنة والنار	1534
8	القضاء والقدر	1807
+	أسماء الله وصفاته في معتقد أهل السنة والجماعة	1924.

قناة الكتب المدمجة

دمج وفهرسة الكتب ذات الأجزاء المتعددة

العقيدة في الله

حُقُوق الطّبْع مَحْفُوظَة

لدار النفائس

للنشر والتوزيع - الأردن

طبعة خاصة بمصر
والمغرب العربي واليمن

(يمنع تداولها في دول الخليج العربي)

١٤٣٣هـ / ٢٠١٢ م

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م
تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث ثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م هي عمر الجائزة تتويجًا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية
الإدارة : القاهرة : ٤٠ شارع أحمد أبو العلا - المتفرع مع شارع نور الدين بهجت - الموازي لامتداد شارع مكرم عبيد - مدينة نصر
هاتف : ٢٢٨٧٣٢٤٦ - ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +) فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)
فاكس : ٢٢٦٣٩٨٦١ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين
هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)
بريديًا : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

دار النفائس
للنشر والتوزيع - الأردن

العبدلي - مقابل عمارة جوهرة القدس
ص.ب : ٩٢٧٥١١ عمّان ١١١٩٠ الأردن
هاتف : ٥٦٩٣٩٤٠ - فاكس : ٥٦٩٣٩٤١
بريد إلكتروني : ALNAFAES@HOTMAIL.COM

العقيدة في ضوء الكتاب والسنة ١

العقيدة في الله

أ.د. عمر سليمان عبد الله الأشقر

دار النفائس
للنشر والتوزيع - الأردن

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الجديدة والمنقحة
من سلسلة العقيدة في ضوء الكتاب والسنة

الحمد لله الواحد المعبود، قيوم السموات والأرض، الذي هدانا إلى دينه القويم وصراطه المستقيم، وأصلي على خيرته من خلقه، وخاتم أنبيائه ورسله محمد ﷺ، وعلى آله الأبرار وصحبه الأخيار، وعلى من اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد:

فقد ابتدأت الكتابة في سلسلة (العقيدة في ضوء الكتاب والسنة) منذ خمس عشرة سنة تقريباً، ولم تكتمل الكتابة فيها إلا منذ سنوات، وقدر الله لهذه السلسلة أن تنتشر في بقاع الأرض، وأقبل على دراستها والانتفاع بها طلبة العلم في مختلف الأقطار، وكل هذا من فضل الله وحده، فهو الذي هداني إلى تدوينها وتأليفها، وهو الذي أنعم عليّ بإتمامها، وهو الذي جعل لها القبول عند عباده، فله الحمد والمنّة والثناء الحسن وحده، وأسأله تعالى أن يدخر لي أجرها وثوابها عند لقياه.

ومنذ أن أكملت تدوينها وأنا أطمع في أن أعيد النظر في أجزاء هذه السلسلة، خاصة الأجزاء الأولى منها، ولكن كان يحول دون تحقيق هذه الأمنية مشاغل وأعمال مع اعتلال في الصحة. وقد وجدت في الأشهر الماضية فسحة من الوقت اغتنمتها لإعادة النظر فيما دونته، فجاءت هذه الطبعة المزيدة والمنقحة للأجزاء الثلاثة الأولى منها، ولعلي أستطيع أن أتمّ مراجعة وتنقيح بقية أجزائها في مقبل الأيام بحول الله وقوته.

لم يحصل تغيير في مباحث وموضوعات الأجزاء المنقحة، ولكنني بذلت

جهداً في توثيق النصوص وعزوها وضبطها، كما أجريت بعض التقديم والتأخير في المباحث، وهناك بعض الزيادات في بعض الموضوعات اقتضى المقام بسط القول فيها أو تدعيمها بالأدلة، كما اختصرت أو حذفت بعض المباحث، وهذا في مواضع قليلة.

والتغيير والتبديل والإصلاح فيما يدونه الإنسان طبيعة البشر، فقد أبى الله أن يكون الكمال لغير كتابه.

والحمد لله رب العالمين.

عمر سليمان عبد الله الأشقر

كلية الشريعة- الجامعة الأردنية

١٩ من رجب ١٤١٤ هـ

٣١ من كانون ثاني (يناير) ١٩٩٤م

مقدمة الطبعة الأولى

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره ونستهديه، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْدِهِ الله فلا مضلَّ له، ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أما بعد:

فهذا مؤلف في العقيدة الإسلامية، أسأل الله تعالى أن ينفع به كاتبه وقارئه وناشره، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجعله لي ذخراً في يوم لقياه إنّه سميع مجيب.

وهذا المؤلف عنوانه ينبيك عنه، فهو مؤلف في العقيدة الإسلامية يرجع بها إلى مصدريها الأصليين: كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، وهذان المصدران هما اللذان بنيا عقيدة الرعيل الأول من هذه الأمة.

ولا أظن أن أحداً يخالف في أنّ عقيدة أولئك الرجال كانت هي العقيدة الصافية صفاء ماء البحيرة حال سكون الرياح القوية قوة الجبال الرواسي، المتينة متانة العروة الوثقى، وقد غيّر الله بأصحاب تلك العقيدة مسار التاريخ الإنساني، فهل نلام إذا عدنا بالعقيدة إلى منابعها، تلك المنابع التي نهل منها الأبرار الأخيار من سلفنا الصالح؟!

ودعوى الرجوع إلى الكتاب والسنة يدّعيها أقوام كثيرون بألسنتهم وخطبهم ومقالاتهم، ولكنّهم يخالفونها في مجال الاحتجاج والاستدلال، وفي مجال العمل والاهتداء.

فنراهم يقدمون آراء الرجال على النصوص القرآنية والحديثية، ونراهم

يهتدون بغير هدى الإسلام في السلوك والمعاملة. . . ؛ ولذا أطلت النفس في الباب الأول مؤكداً على الرجوع إلى هذين المصدرين: الكتاب وصحيح السنة في العقيدة والشريعة، وذكرت شُبه بعض المعرضين عن السنة.

وفي الباب الأول مباحث جمة غير هذه المسألة كتعريف العقيدة، وبيان موقعها من الشريعة والإيمان، وحكم منكرها أو منكر أصلٍ من أصولها، واستطردت قليلاً لبيان شبهة الطائفة القديمة الحديثة التي تكفّر الناس بمجرد الذنوب.

ولم أنس أن أبين في هذا الباب المنهج الإيماني القرآني الذي جاء به الإسلام، وكيف أنه يخالف المنهج الفلسفي الكلامي الذي جرّ على الأمة بلاء عظيماً، أرجو أن أكون قد وفقت في تحديد الفرق بين المنهجين في المنابع والمصادر، وفي المنهج والسبيل، وفي طريقة الاستدلال، وفي الجنى والعطاء. . .

ومن خلال ذلك البيان تلمح تفرد المنهج القرآني وخصائصه.

وفي الباب الثاني الذي عقدته لتجلية مباحث الإيمان بالله تعالى تجد الأدلة التي تدل على وجود الله، ومناقشة شبه الملحدين، والرد على القائلين إن الكون خلق مصادفة، أو هو من صنع الطبيعة.

وبعد ذلك أتينا على السبيلين اللذين يعرفاننا بربنا وهما آيات الله المنظورة، وآياته المسطورة، وقد استرشدنا في ذلك بالنصوص القرآنية والأحاديث النبوية، ومباحث هذه المسألة هي صلب الكتاب ولبّه.

ولما كانت هذه المسألة في غاية الأهمية، وهي السبب الأعظم في فُرقة الأمة وجدت أنه لا مناص من ذكر الأسس التي تفهم في ضوئها النصوص التي تتحدث عن أسماء الله وصفاته، والقواعد المهمة التي توضح ذلك ، وتردّ على الذين أخطؤوا السبيل الإيماني القرآني.

وفي الختام تعرضت لتوحيد الله: مفهومه، وكيفية تحقيقه، وعنوانه (لا إله إلا الله) وبينت معناها وشروطها، كما بينت ما يناقض التوحيد وينافيه وهو (الشرك).

ثم تعرضت لشيء من تاريخ العقيدة مبيناً بطلان نظرية تطور العقيدة.

وقد استعنت بما وقع تحت يديّ من مؤلفات قديمة وحديثة، وقد ذكرت طرفاً منها في الخاتمة، إلا أن اختياري من هذه المؤلفات كان محكوماً بالمنهج الذي يعلن عنه عنوان الكتاب.

قد يرضي هذا الكتاب فريقاً من الناس، وقد يُسخط فريقاً آخر، ويعلم الله أن رضوان ربي كان نصب عيني وأنا أسطر مباحثه، وليس معنى ذلك أن ما فيه صوابٌ كله. فالقلم قد ينبو، والعقل قد يشت، والفكر قد يحار، وليس من معصوم إلا المصطفى عليه الصلاة والسلام، وما دام في العمر بقية فأنا راجع عن كل خطأ وقعت فيه مخالفاً لما جاء عن الله أو عن رسوله ﷺ، فإن أخذ الله وديعته قبل أن أعلن ذلك فقولي قول الإمام الشافعي رحمه الله: «إذا صح الحديث فهو مذهبي، وإذا رأيتم قولي يخالف قول رسول الله - ﷺ - فاضربوا بقولي عرض الحائط».

وستصدر أجزاء أخرى تحت هذا العنوان تجلي بقية أصول الاعتقاد على النسق نفسه إن شاء الله، أسأله تعالى السداد في القول والعمل، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

د. عمر سليمان الأشقر

الكويت ١٨/ من رجب ١٣٩٨هـ

٢٤/ من يونيو ١٩٧٨ م

الباب الأول

المدخل لدراسة العقيدة

الفصل الأول

العقيدة تعريف وبيان

المبحث الأول: العقيدة لغة واصطلاحاً

تتردد كلمة العقيدة على ألسنة الناس وفي محاوراتهم ومحادثاتهم كثيراً، فتراهم يقولون: «أنا أعتقد كذا، وفلان عقيدته حسنة، والعقيدة الإسلامية السبب الأقوى الذي أدى إلى الانتصارات الإسلامية العظيمة في كلّ زمان ومكان، والحرب بيننا وبين اليهود حرب عقائدية في حقيقتها...».

فماذا يريد الناس من كلمة (عقيدة)؟ وما معنى هذه الكلمة في اللغة؟ وما مفهومها في الشرع؟

العقائد هي الأمور التي تصدق بها النفوس، وتطمئن إليها القلوب، وتكون يقيناً عند أصحابها، لا يمازجها ريب ولا يخالطها شك[1].

و«عَقْد الحبل» شدّ بعضه ببعض نقيض حله، ومادة «عقد» في اللغة مدارها على اللزوم والتأكد والاستيثاق، ففي القرآن: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ [المائدة: ٨٩]، وتعقيد الأيمان إنما يكون بقصد القلب وعزمه، بخلاف لغو اليمين التي تجري على اللسان بدون قصد.

---

(١) رسالة العقائد، للشيخ حسن البنا، انظر مجموع الرسائل: ٤٢٩، ومع أن العلماء المسلمين قديماً وحديثاً عنونوا لمباحث هذا العلم: بالعقائد فإنَّ كلمة عقيدة لم ترد في كتاب الله ولا سنة رسوله ﷺ.

و«العقود»: أوثق العهود، ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: ١]، وتقول العرب: «اعتقد الشيء: صلب واشتدّ»[١].

والعقيدة في الإسلام تقابل الشريعة، إذ الإسلام عقيدة وشريعة، والشريعة تعني التكاليف العملية التي جاء بها الإسلام في العبادات والمعاملات.

المبحث الثاني: العقائد علمية قلبية

والعقيدة ليست أموراً عملية، بل أمور علمية يجب على المسلم أن يعتقدها في قلبه، لأنّ الله أخبره بها بطريق كتابه، أو بطريق وحيه إلى رسوله ﷺ.

وأصول العقائد التي أمرنا الله باعتقادها هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وحدّدها الرسول ﷺ في حديث جبريل المشهور بقوله: (الإيمانُ: أنْ تُؤمِنَ بِالله، ومَلائِكَتِهِ، وكتابِهِ، ولقائه ،ورسله، وتؤمن بالبعث الآخر)[٢]. إذن العقيدة في الإسلام: هي المسائل العلمية التي صح بها الخبر عن الله ورسوله، والتي يجب أن ينعقد عليها قلب المسلم تصديقاً لله ورسوله.

---

(١) لسان العرب: مادة عقد: ٢/ ٨٣٦.

(٢) رواه البخاري، انظر صحيح البخاري بشرحه فتح الباري: ١/ ١١٤، ومسلم في صحيحه: ١/ ٣٩، ورقمه: ٥، واللفظ لمسلم.

المبحث الثالث: العقيدة يقين لا يقبل الشك

وحتى تصبح هذه الأصول عقيدة لا بد أن نصدق بها تصديقاً جازماً لا ريب فيه، فإن كان فيها ريب أو شك كانت ظناً لا عقيدة، يقول صاحب المعجم الوسيط: «العقيدة: الحكم الذي لا يقبل الشك فيه لدى معتقده»[1]، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات: ١٥]، وقال: ﴿الٓمٓ * ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ١-٢]، وقال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران: ٩]، وذم المشركين المرتابين: ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٥].

المبحث الرابع: المعتقدات غيب غير منظور

ويلاحظ أن المسائل التي يجب اعتقادها أمور غيبية، ليست مشاهدة منظورة، وهي التي عناها الله بقوله عندما مدح المؤمنين: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣].

فالله غيب، وكذلك الملائكة واليوم الآخر، أما الكتب والرسل فقد يتبادر أنّها تشاهد وتنظر، ولكنّ المراد هو الإيمان بنسبتها إلى الله، أي كون الرسل مبعوثين من عند الله، وأن الكتب منزلة من عند الله، وهذا أمر غيبي.

---

(١) المعجم الوسيط: ٢/ ٦١٤.

المبحث الخامس: العقيدة الصحيحة والعقيدة الفاسدة

العقيدة ليست مختصة بالإسلام، بل كل ديانة أو مذهب لا بدّ لأصحابه من عقيدة يقيمون عليها نظام حياتهم، وهذا ينطبق على الأفراد كما ينطبق على الجماعات، والعقائد منذ بدء الخليقة وإلى اليوم، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها قسمان:

الأول: يمثل العقيدة الصحيحة، وهي تلك العقائد التي جاءت بها الرسل الكرام، وهي عقيدة واحدة، لأنها منزلة من العليم الخبير، ولا يتصور أن تختلف من رسول إلى رسول ومن زمان إلى زمان.

والقسم الثاني: **يشمل العقائد الفاسدة** على كثرتها وتعددها، وفسادها ناشىء من كونها نتاج أفكار البشر، ومن وضع عقلائهم ومفكريهم، ومهما بلغ البشر من عظم الشأن، فإن علمهم يبقى محدوداً مقيداً بقيود متأثراً بما حولهم من عادات وتقاليد وأفكار.

وقد يأتي فساد العقيدة من تحريفها، وتغييرها وتبديلها، كما هو الحال بالنسبة للعقيدة اليهودية والنصرانية في الوقت الحاضر، فإنهما حُرّفتا منذ عهد بعيد، ففسادهما كان من هذا التحريف، وإن كانت كل واحدة منهما عقيدة سليمة في الأصل.

أين العقيدة الصحيحة اليوم؟

العقيدة الصحيحة اليوم لا توجد إلا في الإسلام، لأنّه الدين المحفوظ الذي تكفل الله بحفظه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] والعقائد في غير الإسلام، وإن كان في بعضها نتف من الحق، فإنها لا تمثل الحق ولا تجليه.

فمن أراد أن يعرف العقيدة السليمة فإنه لن يجدها في اليهودية، ولا في النصرانية، ولا في كلام الفلاسفة. . . ، وإنما يجدها في الإسلام في أصليه: الكتاب والسنة، نديّة طريّة صافية مشرقة، تقنع العقل بالحجة والبرهان، وتملأ القلب إيماناً ويقيناً ونوراً وحياة: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى: ٥٢].

المبحث السادس: أهمية العقيدة الإسلامية وضرورتها

العقيدة الإسلامية ضرورية للإنسان ضرورة الماء والهواء؛ إذ هو بدون هذه العقيدة ضائع تائه يفقد ذاته ووجوده. العقيدة الإسلامية وحدها هي التي تجيب عن التساؤلات التي شغلت، ولا تزال تشغل الفكر الإنساني، بل تحيّره: من أين جئت؟ ومن أين جاء هذا الكون؟ من الموجد؟ وما صفاته؟ وما أسماؤه؟ ولماذا أوجدنا وأوجد الكون؟ وما دورنا في هذا الكون؟ وما علاقتنا بالخالق الذي خلقنا؟ وهل هناك عوالم غير منظورة وراء هذا العالم المشهود؟ وهل هناك مخلوقات عاقلة مفكرة غير هذا الإنسان؟ وهل بعد هذه الحياة من حياة أخرى نصير إليها؟ وكيف تكون تلك الحياة إن كان الجواب بالإيجاب؟

لا توجد عقيدة سوى العقيدة الإسلامية اليوم تجيب على هذه الأسئلة إجابة صادقة مقنعة، وكل من لم يعرف هذه العقيدة، أو لم يعتنقها، فإن حاله لن يختلف عن حال ذلك الشاعر البائس[1] الذي لا يدري شيئاً:

جئت، لا أعلم من أين، ولكني أتيت
ولقد أبصرت قدامي طريقاً فمشيت

(١) هو إيليا أبو ماضي من قصيدة له طويلة بعنوان «الطلاسم» من ديوانه (الجداول) ص: ١٠٦.

وسأبقى سائراً إن شئت هذا أم أبيت
كيف جئت؟ كيف أبصرت طريقي؟

لست أدري

أجديد أم قديم أنا في هذا الوجود؟
هل أنا حرّ طليق أم أسير في قيود؟
هل أنا قائد نفسي في حياتي أم مقود؟
أتمنـــــى أننـــــي أدري ولكنّـــــي

لست أدري

وطريقي ما طريقي؟ أطويل أم قصير؟
هل أنا أصعد أم أهبط فيه وأغور؟
أأنا السائر في الدرب أم الدرب تسير؟
أم كلانا واقف والدهر يجري؟!

لست أدري

ليت شعري وأنا في عالم الغيب الأمين
أتراني كنت أدري أنني فيه دفين
وبأني سوف أبدو وبأني سأكون
أم تراني كنت لا أدرك شيئاً؟

لست أدري

أتـرانـي قبلمـا أصبحـت إنسـانـاً سـويّـاً
كنت محواً أو محالاً أم تراني كنت شيئاً
ألهــذا اللغــز حــلّ؟ أم سيبقــى أبــديــاً
لســت أدري... ولمــاذا لســت أدري؟

لست أدري

أي حيرة هذه! وأي قلق تجلبه هذه المجاهيل للنفس الإنسانية؟! ألا يستحق أبناء هذا القرن الذين فقدوا المعرفة بالحقائق الكبرى التي لا تستقيم حياتهم إلا بها هذه الهموم التي تملأ النفس وتسبب الأوجاع والعقد النفسية؟!

وأين هؤلاء من المسلم الذي يدري، ويعرف معرفة مستيقنة كل هذه الحقائق، فإذا به يجد برد اليقين، وهدوء البال، وإذا به يسير في طريق مستقيم إلى غاية مرسومة يعرف معالمها، ويدري غايتها.

واستمع إلى الشاعر البائس يتحدث عن الموت والمصير:

إن يكُ الموت قصاصاً! أي ذنب للطهارة؟
وإن كـان ثـوابـاً، أي فضـل للـدعـــارة؟
وإذا كـــان ومـــا فيــه جــزاء أو خســـارة
فلـــــم الأسمـــــــاء إثــم وصـــلاح؟

لست أدري

إن يـك المـــوت رقاداً بـعده صحو طويل
فلـمــاذا لـيس يبقى صحونا هذا الجميل؟

ولماذا المرء لا يدري متى وقت الرحيل؟
ومتى ينكشف الستر فيدري؟

لست أدري

إن يك الموت هجوعاً يملأ النفس سلاماً
وانعتاقاً لا اعتقالا وابتداء لا ختاماً
فلماذا لا أعشق النوم ولا أهوى الحماما؟
ولماذا تجزع الأرواح منه؟

لست أدري

أوراء القبر بعد الموت بعث ونشور؟
فحياة، فخلود، أم فناء فدثور؟
أكلام الناس صدق أم كلام الناس زور؟
أصحيح أن بعض الناس يدري؟

لست أدري

إن أكن أبعثُ بعد الموت جُثْماناً وعقلاً
أترى أبعث بعضاً أم ترى أبعث كُلاّ
أترى أبعث طفلاً أم ترى أبعث كهلاً؟
ثم هل أعرف بعد البعث ذاتي؟

لست أدري

إنه لا يدري إلى أين المصير، ومصير الإنسان يهمه ويعنيه، ويريد أن يطمئن على ذاك المصير، ونحن نرى لوعة الشاعر وأساه ؛ لأنّه لا يدري إلى أين يصير؟ وماذا سيصير؟ إنه الضلال عن الحقيقة، إنّه شقاء القلب المثقل المكدود، الذي أتعبه المسير، وكم في الحياة من أمثال هذا الشاعر البائس الضال، بعضهم يستطيع أن يفصح عن شقوته، وحيرته، وبعضهم يحس ويعاني، وتبقى أفكاره حبيسة نفسه الشقية.

«لست أدري» تلك هي الإجابة عن التساؤلات الخالدة، وليست هي قولة شاعر فحسب، «فسقراط» الفيلسوف الذي يُعدّ من عمالقة الفلاسفة، يقول بصريح العبارة: «الشيء الذي لا أزال أجهله جيداً أنني لست أدري»[1]، بل إنّ «اللاأدرية» مذهب فلسفي قديم.

بالإسلام وحده يصبح الإنسان يدري من أين جاء، وإلى أين المصير، يدري لماذا هو موجود، وما دوره في هذا الوجود، يدري ذلك حقاً وصدقاً، وفرق بين من يدري ومن لا يدري ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢].

---

(١) الدين، لدراز: ٦٩.

الفصل الثاني
علاقة العقيدة بالإيمان والشريعة

المبحث الأول: علاقة العقيدة بالإيمان

امتدح الله في كتابه الإيمان وأهل الإيمان في مثل قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١]، وقال فيهم: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥]، ووعدهم بالجنة: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠-١١].

والإيمان الذي أثنى الله على أهله ليس هو العقيدة فحسب، ولكنَّ العقيدة تمثل قاعدة الإيمان وأصله، فالإيمان: عقيدة تستقرّ في القلب استقراراً يلازمه، ولا ينفك عنه، ويعلن صاحبها بلسانه عن العقيدة المستكنّة في قلبه، ويُصدّق الاعتقاد والقول بالعمل وفق مقتضى هذه العقيدة.

إنّ العقيدة التي تستكنّ في القلب، ولا يكون لها وجود في العلانية عقيدة خاوية باردة، لا تستحق أن تسمى عقيدة، وقد نرى كثيراً من الناس يعرفون الحقيقة على وجهها، ولكنّهم لا ينصاعون لها، ولا يصوغون حياتهم وفقها، بل قد يعارضون الحق الذي استيقنوه ويحاربونه، فهذا إبليس يعرف الحقائق الكبرى معرفة يقينية، يعرف الله، ويعرف صدق الرسل والكتب، ولكنّه نذر نفسه لمحاربة الحق الذي يعرفه.

وفرعون كان يوقن بأن المعجزات التي جاء بها موسى إنما هي من عند الله، ولكنه جحد بها استكباراً وعلواً، كما قال الله في حقه وملئه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا

وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

وقد خاطب موسى فرعون قائلاً: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢].

وأهل الكتاب يعرفون أنّ محمداً مرسل من ربه: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]، ولكنّهم لا يقرّون بذلك.

واسمع إلى قول أبي طالب يخاطب الرسول ﷺ معتذراً لعدم إيمانه:

ولقد علمتُ بأنّ دين محمد ... من خير أديان البرية ديناً

لولا الملامة أو حذار مسبة ... لوجدتني سمحاً بذاك مبيناً

إذن ليس الإيمان مجرد معرفة باردة بالله، أو معرفة يستعلي صاحبها عن الإقرار بها، أو يرفض أن ينصاع لحكمها، بل هي عقيدة رضي بها قلب صاحبها، وأعلن عنها بلسانه، وارتضى المنهج الذي صاغه الله متصلاً بها.

ولذلك قال علماء السلف: «الإيمان: اعتقاد بالجنان، ونطق باللسان، وعمل بالأركان»[1].

---

(١) هذا قول عامة السلف، ومنهم الأئمة الثلاثة أحمد ومالك والشافعي. وخالف الإمام أبو حنيفة فقال: الإيمان: الاعتقاد والنطق، والعمل من لوازم الإيمان ولا يدخل في مسماه.

وذهب فريق آخر إلى أن الإيمان مجرد التصديق فقط، ولو لم يكن معه قول ولا عمل، هذا مذهب الجهمية والأشاعرة. وذهب الكرامية إلى أنّ الإيمان هو القول فقط. والرد على مذهبهم يعلم مما أشرنا إليه في الأصل.

المبحث الثاني: صلة العقيدة بالشريعة

الإيمان كما ذكرنا له شطران: عقيدة نقية راسخة تستكن في القلب، وعمل يظهر على الجوارح، فإذا فُقِد أحد الركنين، فإن الإيمان يزول أو يختل ؛ إذ الاتصال بين الطرفين وثيق جداً.

مثل الإيمان كشجرة طيبة ضاربة بجذورها في الأرض الطيبة، وباسقة بسوقها في السماء، مزهرة مثمرة مِعْطاءة، تعطي أكلها كلّ حين بإذن ربها، فالإيمان هو الشجرة، وجذورها العقيدة التي تغلغلت في قلب صاحبها، والسوق والفروع والثمار هي العمل.

ولا شك أنّ الجذور إذا خلعت أو تعفنت فسدت الشجرة، ويبست، ولم يبق لها وجود، وكذلك الإيمان لا يبقى له وجود إذا زالت العقيدة، أمّا إذا قطعت الساق والفروع، أو قطع بعض منها فإنّ الشجرة تضعف وتهزل، وقد تموت كلياً، لأن وجود الفروع والأوراق ضروري كي تحافظ الشجرة على بقائها، وكذلك الأعمال إذا تركت أو ترك جزء منها، فإنّ الإيمان ينقص أو يزول.

المبحث الثالث: العناية بالعمل

ومن هنا يجب الاعتناء بفعل الأعمال التي فرضها الله علينا، أو حبب إلينا القيام بها، وبترك ما نهى عنه من أعمال ؛ لأنّ ذلك جزء من الإيمان، فالعمل المتروك - وإن كان قليلاً - ينقص من الإيمان بذلك المقدار.

ومن هنا يجب أن ينتبه الذين يهوّنون من شأن العمل بسنة الرسول ﷺ والتزامها إلى خطورة موقفهم، وقد يتعدى بعض هؤلاء طوره، فيصف أموراً

من السنن أو الدين بأنها قشور، ونسأل الله أن يعفو عن هؤلاء، فإنّ الدين كله لباب لا قشور فيه، وإن تفاوتت أمور الدين في الأهمية.

ولا يفهم من قولنا أننا لا نُعنى بالأولويات في العلم والعمل والدعوة إلى الله، فهذا أمر ينبغي أن يكون مقرراً ومعلوماً، ولكن الذي ننكره هو ترك الجزئيات، ولوم الذين لا يُلزمون أنفسهم بالصغير والكبير من أمر الإسلام وسنة المصطفى ﷺ.

وكم يؤثر في نفسي مشهد عمر عندما طُعِن، ودخل عليه شاب، وقال لعمر قولاً حسناً، فلما أدبر الشاب ليخرج، إذا إزاره يمس الأرض، فدعاه عمر وقال له: «يا ابن أخي، ارفع ثوبك، فإنّه أنقى لثوبك، وأتقى لربك»[1]، ولم يمنعه الموت الذي نزل به من أن يرشد ذلك الرجل إلى أمر يعدّه كثير من الناس اليوم من القشور، التي لا يجوز أن يُعْنى بها.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، انظر صحيح البخاري بشرحه فتح الباري: ٧/ ٦٠، ورقم الحديث: ٣٧٠٠.

الفصل الثالث

الإيمان والكفر

المبحث الأول: حكم إنكار العقيدة

كل من أنكر العقيدة إنكاراً كلياً كالشيوعيين الذين ينكرون وجود الله، ويكذبون الرسل، والكتب، ولا يؤمنون بالمصير والجزاء، أو أنكر جزءاً من العقيدة، فإنّه كافر غير مسلم، ويجب أن يُعْلم أن العقيدة الإسلامية لا تقبل التجزئة أبداً ؛ لأنها وحدة مترابطة أشدّ الترابط.

فالإيمان بالله يقتضي الإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر، والإيمان بالكتب يتضمن بقية أصول الإيمان، والإيمان بالرسول ﷺ يعني تصديقه فيما أخبر، . . . لذا فقد عدّ الله من آمن بأصل وكفر بآخر كافراً حقاً، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۞ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١]. والتكذيب بجزئية من جزئيات الأصول الاعتقادية مما ثبت في الكتاب أو السنة ثبوتاً قاطعاً يُعدّ كفراً، كإنكار رسول من الرسل أو ملك من الملائكة.

المبحث الثاني: الأعمال والأقوال التي تعد كفراً

ليس الكفر هو إنكار الأصول الاعتقادية فحسب، بل هناك أعمال فِعلها كفر، ويمكن تحديدها بعبارة واحدة: (عبادة غير الله) فالعبادة حقّ الله وحده،

وصرفها لغير الله شرك، كالصلاة لغير الله، والذبح لغير الله، ودعاء غير الله...

وقد يكفر المرء باللفظ كالذي يسب الخالق جلّ وعلا، أو الإسلام أو الرسول أو يستهزىء بالإسلام، أو يفضّل على الإسلام المبادىء الضالة كالشيوعية أو البوذية، أو الأديان المحرّفة كاليهودية والنصرانية، أو يتهم الإسلام بالنقص والقصور، والتأخر والرجعية.

المبحث الثالث: الموقف من الكفار

يجب أن يعادي المسلم الكفار، فيكرههم لما تلبَّسوا به من كفر، كما يكره كفرهم، وعليه أن يحارب هذا الباطل وأهله بالقول والبيان، بأن يدعوهم إلى الحقّ، ويشرح لهم ما هم فيه من ضلال، ويعرض لهم الحقّ عرضاً قوياً نقياً، فنحن وإن كنّا نبغض الكافرين، إلا أنّنا نحبّ لهم الهداية، ونرجوها لهم.

وللكفار أحكام بينتها كتب الفقه منها: أننا لا نزوجهم المسلمات، ولا نتزوج من نسائهم إلا الكتابية، ولا نغسل موتاهم، ولا نصلي عليهم...

المبحث الرابع: الكافر عند الله

الذي بلغته الدعوة الإسلامية ورفضها عن علم كافر مخلد في نار جهنم، لا حجة له يوم القيامة.

أمّا الذين لم يبلغهم الإسلام لسبب من الأسباب كأن بعدت ديارهم، أو فقدوا السمع والبصر، أو بلغهم الإسلام وهم كبار لا يعقلون، فهؤلاء لا يعذّبون في يوم القيامة حتى يختبروا ويمتحنوا؛ لأنّ الحجة لم تقم عليهم، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

والدليل على أنهم يمتحنون الحديث الذي رواه الأسود بن سريع قال: قال رسول الله ﷺ: (أَرْبَعَةٌ يَحْتَجونَ يَوْمَ القِيَامةِ: رَجُلٌ أصَمّ لا يَسْمَعُ شَيْئاً، وَرَجُلٌ أحْمَقُ، وَرَجُلٌ هَرِمٌ، وَرَجُلٌ مَاتَ فِي فَتْرةٍ (لمْ تَبْلغُهُ دَعْوَةُ رَسُولٍ). فَأمّا الأصَمّ فَيَقُولُ: رَبّ قَدْ جاء الإسلام وما أسمع شيئاً، وأما الأحمق فيقول: ربّ قد جاء الإسلام والصبيان يحذفونني بالبعر، وأما الهرم فيقول: ربّ لقد جاء الإسلام وما أعقلُ شيئاً، وأمّا الذي مات في الفترة فيقول: رب ما أتاني لك رسول. فيأخذ الله مواثيقهم لَيُطِيعُنَّه، فيرسل إليهم أن ادخلوا النار، فوالذي نفس محمد بيده لو دخلوها، لكانت عليهم برداً وسلاماً)[1].

المبحث الخامس: ترك الواجبات وفعل المحرمات

المطلب الأول: موقف السلف من مرتكب الكبيرة

لا شك أنّ الذي يترك ما ألزمه الله به من الطاعات كالزكاة والصوم والحج وبرّ الوالدين، أو يفعل المحرمات كالزنا والربا وأكل مال اليتيم، قد شوّه وجه الإيمان، وتناقص إيمانه بمقدار الطاعات التي ترك، وبمقدار الذنوب التي فعل، ولكنْ هل يكفر بمجرد هذا الترك للواجبات، والفعل للمحرمات، إذا لم يكن جاحداً للأول، ولا مستحلاً للثاني؟

إن النصوص التي بين أيدينا تهدينا إلى أنّ المسلم لا يكفر بفعله للذنوب، ولا بتركه للواجبات، بل ينقص ذلك من إيمانه، ويكون أمره إلى الله إن شاء غفر له، وإن شاء عذّبه. ومن النصوص الصريحة في ذلك قوله تعالى:

---

(١) رواه أحمد في مسنده، وصححه البيهقي. راجع ابن كثير: عند تفسيره آية رقم: ١٥، من سورة الإسراء.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨]، فالذي لا يقبل الغفران: الشرك، أما ما دون الشرك فهو إلى الله، إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه.

وقد جاءت أحاديث توضح مدلول الآية ففي الحديث القدسي: (ابن آدَمَ لوْ أتيتني بقرابِ[1] الأرضِ خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً، أتيتك بقرابها مغفرة)[2].

وفي حديث قدسي آخر: (ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة، لا يشرك بي شيئاً، لقيته بمثلها مغفرة)[3].

وعن عتبان بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: (فإن الله حرّم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله)[4].

وعن جابر أن رسول الله ﷺ قال: (من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة)[5].

وفي حديث الشفاعة أن الله يقول: (وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي لأخرجن منها من قال لا إله إلا الله)[6].

وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: (يدخل أهل الجنة الجنّة، وأهل النار النار، ثم يقول الله تعالى: أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبةٍ من

---

(١) أي بما يقارب مِلأَها.

(٢) رواه الترمذي في سننه: ٤/ ٤٩ ورقمه: ٣٥٤٠، وقال فيه: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه». وانظر صحيح سنن الترمذي للألباني: ٣/ ١٧٥، ورقمه: ٢٨٠٥.

(٣) رواه مسلم في صحيحه: ٤/ ٢٠٦٨، ورقمه: ٢٦٨٧.

(٤) صحيح البخاري: ١/ ٥١٩، ورقمه: ٤٢٥.

(٥) صحيح مسلم: ١/ ٩٤. ورقمه: ٩٤.

(٦) صحيح البخاري: ١٣/ ٤٧٤.

خردلٍ من إيمان)[1].

وقال أبو سفيان: «جاورت جابر بن عبد الله بمكة ستة أشهر، فسأله رجل: هل كنتم تسمون أحداً من أهل القبلة كافراً؟ قال: معاذ الله! قال: فهل تسمونه مشركاً؟ قال: لا»[2].

هذه النصوص جعلت العلماء الأفذاذ من سلف الأمة يقولون في مرتكب الذنوب وتارك الواجبات: «هو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته». فهم أثبتوا له إيماناً، ولكنّه ليس الإيمان المطلق الذي يستحقه من فعل الطاعات، وانتهى عن المعاصي، بل إيمان مقيد بفسقه بسبب الذنب الكبير الذي ارتكبه.

المطلب الثاني: الخوارج الذين يكفرون بالذنوب

في مقابل هؤلاء اتجهت طائفة أخرى ترمي الناس بالكفر إذا قصّروا في واجب، أو فعلوا محرّماً، ولا زلنا نرى كثيراً من النّاس يسارعون إلى التكفير بمثل ذلك، وأول من تبنى هذا القول (الخوارج)، وهم طائفة خرجوا من جيش علي بن أبي طالب بعد أن أخفق المحكمان: أبو موسى الأشعري، وعمرو بن العاص في حسم الخلاف الناشب بين المسلمين بقيادة علي ومعاوية.

زعم الخوارج أن تحكيم الرجال خطأ شرعاً، وعدّوه كفراً، وكفَّروا جميع المسلمين الذين رضوا عن ذلك، وشهدوا على أنفسهم بالكفر، ثم آمنوا من جديد، وطالبوا علياً بالإقرار على نفسه بالكفر كشرط لعودتهم إلى صفوف جيشه، وناقشهم علي، وأرسل إليهم حبْر الأمة عبد الله بن عباس، فأقام عليهم

(١) صحيح البخاري: ١/ ٧٢، ورقمه: ٢٢.

(٢) رواه أبو عبيد القاسم ين سلام في كتاب الإيمان له بتحقيق الشيخ ناصر الدين الألباني: ص٩٨، وقال المحقق: إسناده صحيح على شرط مسلم. وأبو سفيان راوي الحديث تابعي.

الحجة، ونقض مذهبهم، وعاد منهم بضعة ألوف، وأصرَّ على ذلك القول ألفان حاربهم علي وقضى عليهم، إلا أن مذهبهم انتشر، وتبناه من بعدهم أناس كثيرون، ولا تزال فكرة التكفير تثور بين فترة وأخرى، وقد ثارت من جديد في أيامنا هذه.

أدلة الخوارج على تكفير مرتكب الكبيرة:

والخوارج[1] يزعمون أنّ مرتكب الكبيرة كافر خارج من الإسلام، حلال دمه وماله، ويقولون: هو خالد في النار، وهم يحتجون على ذلك بأدلة ظنوها مثبتة لما ذهبوا إليه، منها:

١- قالوا: أنتم توافقوننا على أنّ الأعمال داخلة في مسمى الإيمان، لأنّ الإيمان: اعتقاد، وقول، وعمل، وإذا زال جزء من الإيمان كالعمل زال الإيمان كله.

٢- واحتجوا بأنّ الله سمّى بعض الذنوب فسقاً كقوله: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات:٦]، فأطلق لفظ الفاسق هنا على الكاذب، وهذا ظاهر من التأمل في سياق الآيات.

وقال ﷺ: (سِبابُ المؤمن فسوق)[2].

وقالوا: سمى الله بعض الذنوب ظلماً كأكل مال اليتيم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ﴾ [النساء:١٠] وسمى من يُخرج

(١) هناك فرقة أخرى، وهم (المعتزلة) أتباع واصل بن عطاء، قالوا: إن مرتكب الكبيرة ليس مؤمناً، وليس كافراً، بل هو في منزلة وسط بين الكفر والإيمان، أما في الآخرة فيحكمون عليه بالخلود في النار.

(٢) صحيح مسلم: ١/ ٨٠، ورقمه ٦٤.

المرأة المتوفى عنها من بيت الزوجية في مدة محددة ظالماً ؛ لأنّه متعدّ لحدود الله، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [الطلاق: ١].

وقالوا: هذه الذنوب فسق وظلم، والفاسقون والظالمون كافرون بنصّ القرآن: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

وقالوا: وردت النصوص بنفي الإيمان عن الذي ارتكب ذنباً، فمن ذلك ما رواه مسلم أن النبيّ ﷺ قال: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن)[١]، وقوله: (لا يبغض الأنصار أحدٌ يؤمن بالله ورسوله)[٢]، وقوله: (والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا)[٣].

٣- وقالوا: تبرّأ الرسول ﷺ ممن فعل بعض الذنوب، كقوله ﷺ: (من حمل علينا السلاح فليس منا، ومن غشنا فليس منا)[٤]، وفي الحديث الآخر (من غشّ فليس مني)[٥]، وفي الحديث الذي يرويه البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن) قيل: ومَنْ يا رسول الله؟ قال: (الذي لا يأمن جاره بوائقه)[٦].

٤- وقالوا: جاء تسمية بعض الذنوب كفراً كقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ

---

(١) رواه مسلم في صحيحه: ١/ ٧٦، ورقمه: ٥٧.
(٢) صحيح مسلم: ١/ ٨٦.
(٣) صحيح مسلم: ١/ ٧٤، ورقمه: ٥٤.
(٤) صحيح مسلم: ١/ ٩٩، ورقمه: ١٠١.
(٥) صحيح مسلم: ١/ ١٠١، ورقمه: ١٠٢.
(٦) صحيح البخاري: ٦٠١٦.

ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

وقال الرسول ﷺ: (لا ترجعوا بعدي كفّاراً يضرب بعضكم رقاب بعض)[١].

وقال: (إذا كفّر الرجل أخاه فَقَدْ باء بها أحَدُهُما)[٢].

الرد على ما استدل الخوارج به:

هذه هي الحجج التي احتجوا بها على تكفير مرتكب الذنوب والمعاصي، وسنحاول أن نبين موطن الخطأ في هذه الحجج:

١- أما استدلالهم بأن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان فلا ننكر عليهم ذلك، ولكنّ خطأهم أنّهم عدّوها شرطاً في الإيمان، والصحيح أنّها ليست كذلك، فزوالها ينافي كمال الإيمان الواجب، أي إذا زالت زال من الإيمان جزء، وبقي ناقصاً، ومثل ذلك مثل الإنسان تُقطع يده أو رجله أو تُقلع عينه، أو أذنه، ويبقى مع ذلك إنساناً تتردد فيه الحياة، فإذا قُطع وسطه أو رأسه أو قلع قلبه كان كمن زال الإيمان منه، فزوال اليد أو الرجل أو العين تشبه زوال بعض الأعمال الواجبة أو فعل الأمور المحرمة، وزوال الرأس أو القلب يشبه زوال العقيدة.

٢- أمّا ما احتجوا به من أنّ الفسق والظلم كفر فهذا فهم خاطىء، إذ معنى الفسق الخروج عن طاعة الله، والخروج عن طاعة الله ليس على حد سواء، فقد يكون خروج كفر، وقد يكون خروجاً ليس بكفر، فمنكر الملائكة خارج

---

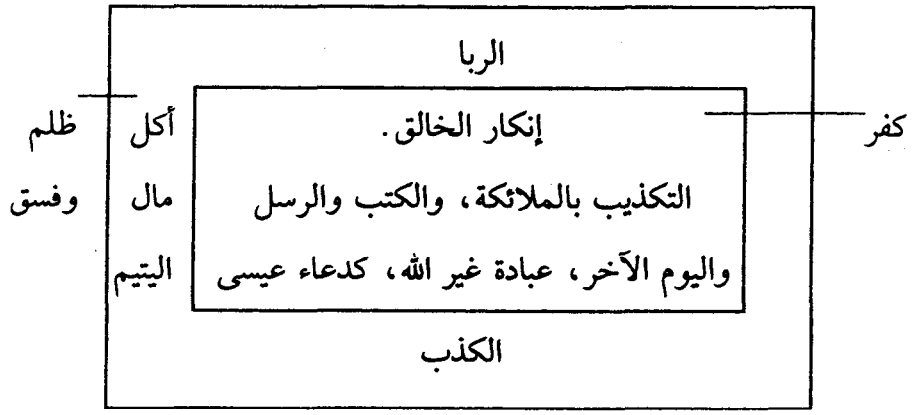
(١) رواه مسلم: ١/ ٨٢، ورقمه: ٦٥.

(٢) صحيح مسلم: ١/ ٧٩، ورقمه: ٧٩.

عن طاعة الله خروج كفر، وشارب الخمر خارج عن طاعة الله خروج معصية لا كفر.

وكذلك الظلم يتفاوت في نفسه، فقد يكون الظلم شديداً بالغاً درجة الكفر، وقد يكون أدنى من ذلك.

ويمكن أن نتصور ذلك إذا رسمنا دائرة كبيرة في وسطها دويرة صغيرة، الدائرة الكبرى تمثل الظلم والفسق، والصغرى تمثل الكفر، فيكون الكفر داخلاً في الظلم والفسق، لأنهما أعمّ من الكفر، بينما بعض الظلم والفسق ليس بكفر.



ومما يدل على أن الفسق قد لا يكون كفراً قوله ﷺ: (سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر)[1] ، فقد فرق الرسول ﷺ بينهما، وإن كان المراد بالكفر في الحديث الكفر الذي لا يخرج من الملة.

أما النصوص التي احتجوا بها وقالوا: إنها تنفي الإيمان بالذنوب، أو فيها

(١) صحيح مسلم: ١/ ٨٠، ورقمه: ٦٤.

براءة الرسول ﷺ ممن فعل ذنباً، أو نصّت على كفر من فعل ذنباً، فليس المراد منها أنّ الإيمان يزول بالذنوب والمعاصي، وأنّ الذنوب والمعاصي توجب الكفر، ولكنّها تنفي من الإيمان حقيقته وإخلاصه، الذي نعت الله به أهله، واشترطه عليهم في مواضع من كتابه، فقال: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّآئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١١-١١٢]، وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٥].

وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الأنفال: ٢-٣].

وقال أبو عبيد القاسم بن سلاّم[1]، بعد أن ساق هذه الآيات: «فهذه الآيات التي شرحت وأبانت شرائع الإسلام المفروضة على أهله، ونفت عنه المعاصي كلها، ثم فسَّرته السنة بالأحاديث التي فيها خِلال الإيمان، فلما خالطت هذه المعاصي هذا الإيمان المنعوت بغيرها، قيل ليس هذا من الشرائط التي أخذها الله على المؤمنين ولا الأمارات التي يعرف بها أنه الإيمان فنفت عنهم حينئذ حقيقته، ولم يزل عنهم اسمه».

ثم ناقش شبهة من يقول: كيف يجوز أن يقال ليس بمؤمن، واسم الإيمان

(١) هذه النصوص من كلام أبي عبيد منقولة من كتابه (الإيمان) ضمن رسائل أربع حققها الشيخ ناصر الدين الألباني ص: ٩٠-٩٦.

غير زائل عنه؟ مبيّناً أنّ هذا جرى على طريقة العرب في نفي العمل الذي لم يأت به صاحبه على وجهه، والقرآن نزل بكلام العرب وأساليبها «وكلام العرب المستفيض عندنا، غير المستنكر في إزالة العمل عن عامله إذا كان عمله على غير حقيقته، ألا ترى أنهم يقولون للصانع إذا كان ليس محكماً لعمله: ما صنعت شيئاً، ولا عملت شيئاً، إنما وقع معناها هنا على نفي التجويد، لا على الصنعة في نفسها، فهو عندهم عامل بالاسم، وغير عامل في الإتقان».

وبيّن أنّ العرب تتكلم بأشدّ من هذا «وذلك كرجل يَعُقُّ أباه ويبلغ منه الأذى، فيقال: ما هو بولد، وهم يعلمون أنّه ابن صلبه. ثم يقال مثله في الأخ والزوجة والمملوك، وإنّما مذهبهم في هذا المزايلة من الأعمال الواجبة عليهم من الطاعة والبر، وأما النكاح والرقّ والأنساب، فعلى ما كانت عليه إمكانها وأسماؤها».

ثم بين أن هذه النصوص التي تنفي الإيمان وردت على النسق نفسه، فقال: «فكذلك هذه الذنوب التي ينفى بها الإيمان، إنما أحبطت الحقائق منه الشرائع التي هي من صفاته، فأمّا الأسماء فعلى ما كانت قبل ذلك، ولا يقال لهم إلا المؤمنون، وبه الحكم عليهم».

واستشهد بآية آل عمران التي تُخبر أنّ الله أخذ ميثاق الذين أوتوا الكتاب ليبيننه للناس ولا يكتمونه، فنبذوه وراء ظهورهم، ومع ذلك فإنّه حكم لهم بحكم أهل الكتاب في آيات أخرى، وأباح لنا أكل ذبائحهم، ونكاح نسائهم، ثم قال: «فهم بالأحكام والأسماء في الكتاب داخلون، وهم لها بالحقائق مفارقون».

وأورد حديث المسيء صلاته الذي أخرجه الشيخان، وفيه يقول الرسول ﷺ: (ارْجع فصلّ فإنك لم تصل)[1] أكثر من مرة، مع أنّه كان في كل مرة يصلي، فإنه مُصلّ بالاسم، وغير مصلّ بالحقيقة.

(١) رواه البخاري: ٢/ ٢٧٧. ورقمه: ٧٩٣، ورواه مسلم: ١/ ٢٩٨، ورقمه: ٣٩٧.

المراد من النصوص التي تبرأ فيها الرسول ﷺ من مقترفي الذنوب:

قرر أبو عبيد: «أنّ البراءة هنا ليس معناها التبرؤ من رسول الله ﷺ ولا من ملته، إنما مذهبه عندنا أنّه ليس من المطيعين لنا، ولا من المقتدين بنا، ولا من المحافظين على شرائعنا».

المراد بالنصوص التي تكفِّر بالذنوب:

قال أبو عبيد: «وأما الآثار المرويات بذكر الكفر والشرك ووجوبها بالمعاصي، فإنّ معناها عندنا ليست تثبت على أهلها كفراً ولا شركاً يزيلان الإيمان عن صاحبه، إنما وجوهها أنها من الأخلاق والسنن التي عليها الكفار والمشركون، وقد وجد لهذين النوعين من الدلائل في الكتاب والسنة نحو ما وجدنا في النوعين الأولين».

وبين أنّ المراد بالذنوب التي سميت كفراً وشركاً «أنها أخلاق المشركين وتسميتهم وستهم وألفاظهم وأحكامهم، ونحو ذلك من أمورهم».

واستشهد على ذلك بقول ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال ابن عباس: «ليس بكفر ينقل عن الملة»، وقال عطاء: «كفر دون كفر». وأثر ابن عباس قال فيه محقق الكتاب: «أخرجه الحاكم في المستدرك من طريق طاووس عن ابن عباس، وصححه هو والذهبي»[1].

فالحكم بغير ما أنزل الله وإن سُمي كفراً إلا أنه غير ناقل عن ملة الإسلام، والدّين باق على حاله، وإن خالطه هذا الذنب، فالمعنى أنّ الحكم بغير ما أنزل

---

(١) كتاب الإيمان، لأبي عبيد القاسم بن سلام، منشور ضمن أربع رسائل، ص: ٩٤.

الله من سنن الكفار، ألا تسمع قوله تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠].

ثم قال: تأويله عند أهل التفسير أنّ من حكم بغير ما أنزل الله - وهو على ملة الإسلام - كان بذلك الحكم كأهل الجاهلية، إنما هو أنّ أهل الجاهلية كذلك كانوا يحكمون، وهذا كقوله: (ثلاثة من أمر الجاهلية: الطعن في الأنساب، والنياحة، والأنواء). حديث صحيح[1]، وكذلك حديث: (آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمِن خان)[2].

قال أبو عبيد: «ليس وجوه هذه الآثار أنّ راكبها يكون جاهلاً، ولا كافراً، ولا منافقاً، وهو مؤمن بالله وما جاء من عنده، ومؤدٍّ لفرائضه، ولكن معناها أنها تتبين من أفعال الكفار المحرمة المنهي عنها في الكتاب والسنة، ليتحاماها المسلمون، ويتجنبوها، فلا يتشبّهون بشيء من أخلاقهم، ولا شرائعهم».

وأورد حديث: (إذا استعطرت المرأة ثم مرَّت بقوم يوجد ريحها أنها زانية)[3]، فهل يكون هذا من الزنى الذي تجب فيه الحدود؟

ولعل مراد أبي عبيد القاسم بن سلام بقوله: « أنّ الحكم بغير ما أنزل الله ليس كفراً مخرجاً من الملة » هو حكم القاضي أو الحاكم المسلم في قضية ما بالهوى مع حكمه في بقية الأمور بحكم الله.

أما الحكم بالقوانين الكافرة، وتطبيقها على الشعوب الإسلامية بقوة الحديد والنّار، ومحاربة وتعذيب كل من نادى بتطبيق الإسلام، فهذا ليس من الإسلام

---

(١) صحيح الجامع الصغير: ١/ ٥٨٣. ورقمه: ٣٠٣٩، ولفظه فيه: «ثلاث من فعل أهل الجاهلية، لا يدعهنَّ أهل الإسلام: استسقاء بالكواكب، وطعن في النسب، والنياحة على الميت» وعزاه إلى البخاري في التاريخ، والطبراني في الكبير، وأحمد في مسنده، وابن حبان في صحيحه.

(٢) صحيح البخاري: ١/ ٨٩، ورقمه: ٣٣، وصحيح مسلم: ١/ ٧٨، ورقمه: ٥٩.

(٣) قال محقق كتاب الإيمان: ص: ٩٦، حديث صحيح، أخرجه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم في «صحاحهم» عن أبي موسى الأشعري مرفوعاً بلفظ (أيما امرأة استعطرت فمرت على قوم ليجدوا ريحها فهي زانية، وكل عين زانية) وأخرجه بنحوه أبو داود والترمذي وصححه.

في شيء ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

المطلب الثالث: القائلون إن مرتكب الكبيرة كامل الإيمان

جنح الخوارج إلى جانب واحد من النصوص، تلك النصوص التي تبين أنّ مرتكب الكبيرة قد شوّه إيمانه وأنقصه، ولم يدركوا النصوص الدالة على أن الإيمان لم يزل منه بالكلية، وفي مقابل هؤلاء فريق[1] آخر زعم أن مرتكب الكبيرة كامل الإيمان، وقرروا «أنه لا يضرّ مع الإيمان ذنب» وهؤلاء قالوا: الإيمان اعتقاد القلب، ونطق اللسان، والأعمال ليست من الإيمان. وقالوا: الإيمان القلبي شيء واحد لا يتفاوت فيه الناس، واحتجوا بالنصوص التي تدلّ على أنّ الذين ارتكبوا الكبائر مؤمنون يدخلون الجنة.

ويردّ عليهم أنّه ورد في أكثر من نصّ اعتبار الأعمال من الإيمان كقوله ﷺ: (الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطةُ الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان)[2].

ويردّ قولهم أيضاً نصوص الوعيد كقوله ﷺ: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن)[3].

وهذان الفريقان لهما آثار سيئة، فالأولون المكفرون ييئسون الناس من رحمة الله، والآخرون يجرئون النّاس على ارتكاب الذنوب والمعاصي، وسلف الأمة وسط بين هؤلاء وهؤلاء، فهم يثبتون لمرتكب الكبيرة إيماناً مقيداً في الدنيا، وفي الآخرة أمرهم إلى الله إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم.

---

(١) هؤلاء هم الذين يسمون «بالمرجئة»: لأنهم أرجؤوا «أخّروا» الأعمال عن الإيمان.

(٢) رواه البخاري: ١/ ٥١، ورقمه: ٩. ومسلم: ١/ ٦٣، ورقمه: ٣٥، واللفظ لمسلم.

(٣) رواه البخاري ومسلم، وقد سبق تخريجه.

الفصل الرابع

العقيدة والفلسفة وعلم الكلام

المبحث الأول

الفرق بين العقيدة الإسلامية والفلسفة وعلم الكلام

على الرغم من أنّ الموضوع الذي تعالجه الفلسفة هو الموضوع ذاته الذي يعالجه الدين، إذ يزعم الفلاسفة أنّ مباحثهم تهدف إلى معرفة أصل الوجود وغايته، ومعرفة السبيل الذي يحقق السعادة الإنسانية عاجلاً وآجلاً، وهذان هما موضوع علم الفلسفة بقسميها العلمي والعملي، وهما كذلك موضوع علم الدين[1] - أقول على الرغم من ذلك إلا أنّ الاختلاف بين الدّين والفلسفة اختلاف كبير. فهما يختلفان في المصادر والمنابع، وفي المنهج والسبيل، وفي قوة التأثير والسيطرة، وفي الأسلوب وطريقة الاستدلال، وفي آثار كل منهما. وسنحاول أن نبين ذلك كله حتى يزول هذا الخلط بين الدين والفلسفة.

١ - المصادر والمنابع:

الفلسفة في كل صورها «عمل إنساني» يتحكم فيه كل ما في طبيعة الإنسان من قيود وحدود وتدرج بطيء في الوصول إلى المجهول، وقابلية للتغير والتحول، وتقلب بين الهدى والضلال، واقتراب أو ابتعاد عن درجة الكمال.

---

(١) الدين، لدراز: ٥٩، ٦٠.

ولذا فإن أساطين الفلسفة لم يستطيعوا أن يتخلّصوا من التأثر بالبيئة، فكانت تصوراتهم ومعتقداتهم فيها صدى كبير لما يحيط بهم[١].

ولنأخذ على ذلك مثلاً (أفلاطون) فإنّا إذا درسنا نتاجه رأيناه يردد الأساطير التي سادت في عصره، بل إنّه ينشىء الأسطورة، ويضمنها أفكاره ومعتقداته، بل إن كثيراً من معتقداته وآرائه هي أساطير في ذاتها.

اسمع ما يقوله العقاد في (أفلاطون): «غلبت البيئة الوثنية أفلاطون على تفكيره بحكم العادة وتواتر المحسوسات، فأدخل في عقيدته أرباباً، وأنصاف أرباب لا محل لها في ديانات التوحيد»[٢].

ثم يعرض العقاد نظرية أفلاطون في الوجود تدليلاً على ما يقول: «فالوجود في مذهب أفلاطون طبقتان متقابلتان: طبقة العقل المطلق، وطبقة المادة الأولية أو (الهيولي)، والقدرة كلها من العقل المطلق، والعجز كله من (الهيولي)، وبين ذلك كائنات على درجات تعلو بمقدار ما تأخذ من العقل، وتسفل بمقدار ما تأخذ من الهيولي، وهذه الكائنات المتوسطة بعضها أرباب، وبعضها أنصاف أرباب، وبعضها نفوس بشرية»[٣].

والسبب الذي من أجله ارتضى أفلاطون وجود تلك الأرباب المتوسطة كما يقول العقاد «إنه أراد أن يعلل بها ما في العالم من شرّ ونقص وألم، فإنّ العقل المطلق كمال لا يحدّه الزمان والمكان، ولا يصدر عنه إلا الخير والفضيلة، فهذه الأرباب الوسطى هي التي تولت الخلق لتوسطها بين الإله القادر «والهيولي» العاجز، فجاء النقص والشر والألم من هذا التوسط بين الطرفين»[٤].

---

(١) المصدر السابق: ٧٣.

(٢) كتاب الله، للعقاد: ١٢٩.

(٣) كتاب الله، للعقاد: ١٢٩.

(٤) المصدر السابق.

ومن المعروف أيضاً أن أفلاطون يؤمن بعقيدة تناسخ الأرواح.

هذه هي الفلسفة في مصادرها.

أما العقيدة الإسلامية فهي وحي من الله، له كلّ ما للإلهيات من ثبات الحقّ الذي لا تبديل لكلماته، وصرامة الصدق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ثم هو فوق ذلك «منحة كريمة» تصل إلى حامليها وسفرائها عفواً بلا كدح ولا نصب، وتغمرهم بنورها في فترات خاطفة كلمح البصر أو هو أقرب[1].

٢- المنهج والسبيل[2]:

يختلف المنهج الفلسفي عن المنهج الإسلامي في خط سير كلٍّ منهما بداية ونهاية، فالفلاسفة كثير منهم يبدؤون بدراسة النفس الإنسانية، ويجعلونها الأصل الذي يبنون عليه، ويفرعون عنه، فتكلموا في إدراكهم للعلم: وأنه تارة يكون بالحسّ، وتارة بالعقل، وتارة بهما.

وجعلوا العلوم الحسيّة، والبدهية ونحوها: هي الأصل الذي لا يحصل علم إلا بها، ثم زعموا أنهم إنما يدركون بذلك الأمور القريبة منهم،من الأمور الطبعية والحسابية، والأخلاق، فجعلوا هذه الثلاثة هي الأصول التي يبنون عليها سائر العلوم، ولهذا يمثلون ذلك في أصول علم الكلام، بأن الواحد نصف الاثنين، وأن الجسم لا يكون بمكانين، وأن الضدّين -كالسواد والبياض- لا يجتمعان.

---

(١) الدين، لدراز: ٧٣.

(٢) راجع في هذا الموضوع مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام: ٢/ ١، ٢٥، وهذا الذي ذكره وأثبتناه هنا باختصار أصل عظيم يدل على فقه كبير منه رحمه الله.

وكثير من هؤلاء لا يجعلون الأخلاق مثل: العدل، والعفّة من الأصول، بل من الفروع التي تفتقر إلى الدليل.

وكثير من المصنفين في الفلسفة يبتدىء بالمنطق، ثم الطبيعي والرياضي، ثم ينتقل إلى العلم الإلهي، وتجد المصنفين في الكلام يبدؤون بمقدماته في الكلام: في النظر والعلم والدليل، وهو من جنس المنطق، ثم ينتقلون إلى حدوث العالم وإثبات مُحدثِه، ومنهم من ينتقل من تقسيم المعلومات إلى الموجود والمعدوم وأقسامه، كما يفعله الفيلسوف في أول العلم الإلهي.

وغالبية الفلاسفة يتوسعون في الأمور الطبعية، ثم يصعدون إلى الأفلاك وأحوالها، ثم المتألهون منهم يصعدون إلى واجب الوجود، وإلى العقول والنفوس، ومنهم من يثبت واجب الوجود ابتداء من جهة أن الوجود لا بدّ فيه من واجب.

وأما الغاية التي يرمي إليها المتكلمون الذين يقررون التوحيد في كتب الكلام والنظر هي إثبات وحدانية الخالق، وأنّه لا شريك له، ويظنون أنّ هذا هو المراد بـ (لا إله إلا الله).

هذا المنهج الفلسفي الكلامي يشغل الباحث والناظر فيه في قضايا ينقضي العمر، ولا ينتهي من بعضها، بل إنّ الذي يحصّله منها ينطوي على شبهات تجعل اليقين غير موجود، فيصاب الباحث بالحيرة والشك.

أما المنهج القرآني، فإنّه يجعل فاتحة دعوته ودعوة الرسل جميعاً: الدعوة إلى عبادة الله وحده ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] وكلّ رسول كان يطالب قومه في أول الأمر بأن يعبدوا الله وحده ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾[المؤمنون: ٢٣] يطالبهم بعبادته بالقلب، وعبادته باللسان، وعبادته بالجوارح، وعبادة الله متضمنة لمعرفته وذكره.

وأصل العلم عندهم هو العلم بالله سبحانه، لا الحس ولا البدهيات، فالله هو الأول الذي خلق الكائنات، والآخر الذي إليه تصير الحادثات، فهو الأصل الجامع، والعلم به أصل كل علم وجامعه، وذكره أصل كل ذكر وجامعه، والعمل له أصل كل عمل وجامعه.

ومن العلم به تتشعب أنواع العلوم، ومن عبادته وقصده تتشعب وجوه المقاصد الصالحة، والقلب بعبادته والاستعانة به معتصم مستمسك قد لجأ إلى ركن وثيق، واعتصم بالدليل الهادي، والبرهان الوثيق، فلا يزال إما في زيادة في العلم والإيمان، وإما في السلامة عن الجهل والكفران، فالعلم بالله أعظم سبيل لمعرفة الله، ومعرفة الحياة والأشياء، ومعرفة النفس الإنسانية.

يقول ابن أبي حاتم: «عرفنا كل شيء بالله». وسئل ابن عباس: بم عرفت ربك؟ قال: « من طلب دينه بالقياس لم يزل دهره في التباس، ظاعناً[1] في الاعوجاج، زائغاً[2] عن المنهج، أعرفه بما عرّف به نفسه، وأصفه بما وصف به نفسه».

وقد أخبر الرسول ﷺ معاذاً حين أرسله إلى اليمن للدعوة إلى الله: أنّه سيقدم على قوم أهل كتاب وأوصاه أن يكون أول ما يدعوهم إليه عبادة الله، فإذا عرفوا ذلك فيدعوهم إلى الفرائض، ولم يأمره ﷺ أن يدعوهم أولاً إلى الشك، أو النظر، أو القصد إلى النظر كما هي طريقة بعض المتكلمين.

ولذا ابتدأ البخاري كتابه بالأصل الذي يقوم عليه العلم والإيمان ألا وهو الوحي، فعقد كتاباً عنون له بـ (بدء نزول الوحي)، فأخبر عن صفة نزول العلم والإيمان على الرسول ﷺ أولاً، ثم أتبعه بكتاب الإيمان الذي هو الإقرار بما

---

(١) الظعن: السير، أي: أبعد في الاعوجاج.

(٢) زائغاً: مائلاً وحائداً.

جاء به، ثم بكتاب العلم الذي هو معرفة ما جاء به، فرتبه الترتيب الحقيقي الذي يدل على علمه وحكمته رحمه الله.

والله عندما يبعث الناس لا يسألهم عن العلوم الحسية والبدهية، والمنطق والطبعي، بل يسألهم عن استجابتهم للرسل أو عدمها ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ * وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ * فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك: ٨-١١]، والحجة لا تقوم على الناس إلا ببعثه الرسل ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥].

وكما أن الدعوة إلى عبادة الله هي نقطة البداية في المنهاج القرآني، ومعرفة الله هي الأصل الذي تتفرع منه العلوم، فإن نقطة النهاية أيضاً عبادة الله المتضمنة معرفته وتوحيده. أما مجرد الإقرار بوحدانية الخالق وإفراد الصانع التي هي نهاية مطلوب علماء الكلام، فإنها- على الرغم من أهميتها - جزئية في المنهج القرآني لا يكفي مجرد الإقرار بها، ولذا لم تنفع المشركين الذين حاربهم الرسول ﷺ مع إقرارهم بذلك ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [لقمان: ٢٥]. ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ [المؤمنون: ٨٦-٨٧].

أما الفلاسفة الذين بحثوا في العقول والنفوس فهم يخبطون في هذا المجال خبطاً لا قرار له، وحسبك دليلاً على ذلك أن التقدم العلمي الهائل في هذا العصر لم يكشف لنا حقيقة النفس الإنسانية «ولقد بذل الجنس البشري مجهوداً جباراً لكي يعرف نفسه، ولكن على الرغم من أننا نملك كنزاً من الملاحظات التي كدسها الفلاسفة والعلماء والشعراء وكبار الروحانيين في جميع الأزمان إلا أننا استطعنا أن نفهم جوانب معينة فقط من أنفسنا، إننا لا نفهم الإنسان ككل، . . . إننا نعرفه على أنّه مكون من أجزاء مختلفة، وحتى هذه الأجزاء

ابتدعتها وسائلنا ! فكل واحد منا مكوّن من موكب من الأشباح، تسير في وسطها حقيقة مجهولة.

وواقع الأمر أنّ جهلنا مطبق، فأغلب الأسئلة التي يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشري تظل بلا جواب، لأن هناك مناطق غير محدودة في دنيانا الباطنة ما زالت غير معروفة»[1].

إذا كانت هذه هي المعرفة التي بلغتها الأبحاث في القرن العشرين، فكيف تجعل النفس الإنسانية هي الأصل الذي يتفرع عنه مختلف العلوم، أمّا المعرفة بما وراء الطبيعة فإن الفلسفة ضلت فيها ضلالاً أبعد وأبين.

٣- قوة التأثير[2]:

العقيدة تمتاز بسلطان قوي قاهر على نفوس معتنقيها، وليس للفلسفة أن تطمح إلى نيل هذه الميزة، وإلا لجاوزت قدرها، وتناقضت في نفسها، والسبب في ذلك أنّ الفلسفة تبحث عن المعرفة والحقيقة بقدر الطاقة البشرية، ثم تعرض ما تظفر به في جوانب تلك الحقيقة، والفيلسوف هو أول من يعرف قصور العقل البشري، وقصور كل ما هو إنساني عن درجة الكمال، ولذلك كان التسامح والتواضع العلمي من أظهر خصائصه، فسقراط وهو مَنْ هو بين الفلاسفة يقول: «الشيء الذي لا أزال أعلمه جيداً هو أنني لست أعلم شيئاً».

أما صاحب العقيدة فيرى أنّ عقيدته التي يحملها مستمدة من العالِم بسر الوجود الذي أحاط بكل شيء علماً، فهي تمثل الحقيقة بلا غبش.

فهي بطبيعتها ملزمة، تتقاضى صاحبها الخضوع والتسليم، ولا تقبل منه في

---

(١) كتاب العلم يدعو إلى الإيمان.

(٢) راجع في هذا المبحث كتاب الدين، لدراز: ٦٩، وما بعدها.

حكمها جدالاً ولا مناقضة، بل لا تبيح له في نفسها بحثاً ولا ترديداً، فإن فعل ذلك في مسألة ما، كان في هذه المسألة بعينها متفلسفاً غير متدين، حتى يستقرّ فيها على رأي معين يدين به، فهنالك لا يقبل فيه مساومة، ولا يستطيع منه تحللاً؛ إذ يصبح عقيدة يخلص لها إخلاصاً خارقاً للعادة، حتى لا يبالي بأن يضحّي في سبيلها بحياته، ولا نكاد نجد هذا السلطان على النفس لفكرة أخرى: علمية أو سياسية أو غيرها.

ويبين الشيخ محمد عبد الله دراز السر في هذه الظاهرة فيقول: «السر في هذه الظاهرة - وهي قوة سلطان العقيدة وتميزها بذلك عن الفلسفة - يتمثل في الفارق بين حقيقة المعرفة وحقيقة الإيمان، وفي الفرق بين القوة النفسية التي تقوم بوظيفة المعرفة، والقوة النفسية التي تقوم بوظيفة الإيمان. فالواحد من الناس قد يدرك معنى الجوع والعطش وهو غير محس بآلامهما، وقد يفهم معنى الحبّ والشوق، وليس من أهلهما، وقد يرى الأثر الفني البارع فيفهم أسراره، ويقف على دقائق صنعه، ولكنه لا يتذوقه، ولا يتملك قلبه الإعجاب به. . .

هذه ضروب من المعرفة والعلم، يهديها إلينا الحس، أو الفكر، أو البديهة، فتلاحظها النفس، وكأنها غريبة عنها، أو تمرّ بها عابرة، فتمسها مساً جانبياً لا يبلغ إلى قرارتها، أو تختزنها وتدخرها، ولكنها لا تهضمها ولا تتمثلها، وكل حالة نفسية تقف بالأفكار والمبادىء عند هذه المراحل فليست من الإيمان في قليل ولا كثير.

الإيمان معرفة تتجاوب أصداؤها في أعماق الضمير، وتختلط مادتها بشغاف القلوب، فلا يجد الصدر منها شيئاً من الضيق والحرج، بل تحس النفس ببرد اليقين، الإيمان تذوق ووجدان يحمل الفكرة من سماء العقل إلى قرارة القلب، فيجعلها للنفس رياً وغذاء يدخل في كيانها، ويصبح عنصراً من عناصر حياتها، الإيمان يحول الفكرة قوة دافعة فعّالة خلاقة، لا يقف في سبيلها شيء في

الكون إلا استهانت به.

هذا هو فصل ما بين الدين والفلسفة، غاية الفلسفة المعرفة، وغاية الدّين الإيمان، مطلب الفلسفة فكرة جافة ترتسم في صورة جامدة، ومطلب الدين روح وثّابة وقوة محركة.

ويلاحظ دراز أن الفلسفة تعمل في جانب واحد من جوانب النفس، بينما الدين يستحوذ على النفس بجملتها، وأن الفلسفة ملاحظة وتحليل وتركيب، فهي صناعة تقطع أوصال الحقيقة وتزهق روحها، ثم تؤلف بينها لتعرضها من جديد في نسق صناعي على مرآة الفطنة، فتنطبع على سطح النفس قشرة يابسة، أما الدّين فهو حداء ونشيد يحمل الحقيقة جملة، فيعبر بها القشرة السطحية، لينفذ منها إلى أعماق القلوب وأغوارها، فتعطيها النفس كليتها وتملكها زمامها.

وهنا يستنبط دراز فرقاً دقيقاً بين الفلسفة والدين: فيلاحظ أنّ غاية الفلسفة نظرية حتى في قسمها العملي، وغاية الدّين عملية، حتى في جانبه العلمي، فأقصى مطالب الفلسفة أن تعرفنا الحق والخير ما هما، وأين هما؟ ولا يعنيها بعد ذلك موقفنا من الحقّ الذي تعرفه، والخير الذي تحدّده، أما الدّين فيعرفنا الحقّ لا لنعرفه فحسب، بل لنؤمن به ونحبه ونمجّده، ويعرفنا الواجب لنؤدّيه ونوفيه، ونكمل نفوسنا بتحقيقه.

وكي يزيد الأمر إيضاحاً قارن بين الآثار العملية الدينية والفلسفية، وبَيّنَ دراز أنّ الدّين يلفت النظر كي يتعرف الإنسان إلى خالقه، ويتوجه إليه، ويحبّه ويُقدّسه، على أنّ غاية الفلسفة مجرد المعرفة التي تربط بين الأسباب والمسببات.

وبين أنّ العقيدة الدينية تتدفق في الميدان الاجتماعي، فهي تهز صاحبها لتحقيق أهدافها بالنشر والدعوة، بينما الفلسفة لا يعنيها التوسع والانتشار، بل قد يضنّ بها أصحابها على غيرهم، فيحتكرونها، ويستأثرون بها.

٤- الأسلوب[١]:

الأسلوب الذي صيغت به العقيدة الإسلامية أسلوب خاص يمتاز بالحيوية والإيقاع، واللمسة المباشرة والإيحاء، الإيحاء بالحقائق الكبيرة التي لا تتمثل كلها في العبارة، ولكن توحي بها العبارة، كما يمتاز بمخاطبة الكينونة الإنسانية بكل جوانبها وطاقاتها ومنافذ المعرفة فيها، ولا تخاطب الفكر وحده في الكائن البشري.

أما الفلسفة فلها أسلوب آخر؛ إذ هي تحاول أن تحصر الحقيقة في العبارة، ولما كان نوع الحقيقة التي يتصدى لها يستحيل أن تنحصر في منطوق العبارة - فضلاً على أنّ جوانب أساسية من هذه الحقائق هي بطبيعتها أكبر من المجال الذي يعمل فيه الفكر البشري - فإنّ الفلسفة تنتهي حتماً إلى التعقيد والتخليط والجفاف، ومن هنا لا يجوز أن تُعرض العقيدة الإسلامية بأسلوب الفلسفة، لأنه يقتلها ويطفىء إشعاعها وإيحاءها، ويقصرها على جانب واحد من جوانب الكينونة الإنسانية.

ومن هنا يبدو التعقيد والجفاف والنقص والانحراف في كل المباحث التي تحاول عرض العقيدة بهذا الأسلوب الغريب على طبيعتها، وفي هذا القالب الذي يضيق عنها، ومسلك القرآن في بيان العقيدة الإسلامية مُتّسم بالبساطة والوضوح يجعل إدراكها سهلاً ميسراً لكافة مستويات النّاس على اختلاف مداركهم وفِطرهم، يأخذ كل حسب طاقته من التفكير والاقتناع، بخلاف تلك الأساليب الفلسفية والكلامية المعقدة الممتلئة بالمصطلحات، إذ لا يدرك محتوياتها إلا القليل من النّاس.

(١) راجع خصائص التصور الإسلامي، لسيد قطب ص: ١٦.

٥- طريقة الاستدلال:

وفي هذا الجانب يتميّز القرآن في ما جاء به من الأدلة عن الطريقة الفلسفية الكلامية، ويمكن أن نوضح هذه الفروق في النقاط التالية:

أ- استدل القرآن بالآيات المشهودة (الكونية) على وحدانية الخالق، وكذلك الفلاسفة والمتكلمون، ولكنّ طريقة القرآن مخالفة للطريقة الفلسفية الكلامية، فالقرآن يستدل بالآيات نفسها التي يستلزم العلم بها العلم بصانعها، كاستلزام العلم بشعاع الشمس العلم بالشمس من غير احتياج إلى إقامة الأقيسة التي أقامها المتكلمون للاستدلال على حدوث العالم.

فالعلم بكون هذه العوالم مخلوقة مربوبة أمر فطري لا يحتاج إلى إقامة الدليل والبرهان، فالإنسان يعلم بفطرته أنّ هذا الكون الذي يراه فقير إلى الخالق، مقهور مربوب، وهذا لا يحتاج إلى تلك الأقيسة التي أقاموها، كي نعلم حدوث العالم، وأن له مُحدثاً.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۚ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ * وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ * وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠-٣٣]

ب- الأدلة العقلية[1] التي جاء بها القرآن لائقة بجلال الله وكماله، فلم

(١) يخطىء كثير من المتكلمين والفلاسفة في ظنّهم أنَّ دلالة الكتاب والسنة إنما هي بطريق الخبر المجرد، وأنها لم تتعرض للأدلة العقلية، فالحقُّ أنَّ القرآن بين من الأدلة التي يحتاج إليها في العلم بالله ووحدانيته ما لا يقدر أحد من هؤلاء قدره. ونهاية ما يذكره المتكلمون جاء القرآن بخلاصته على=

يستعمل القرآن قياس الشمول وقياس التمثيل الذي تستوي أفراده في حقّ الله تعالى، لأنه يلزم منهما تسوية الخالق بالمخلوق.

وإنما يستعمل في حقه تعالى قياس الأولى الذي مضمونه أنّ كلّ كمال وجودي غير مستلزم للعدم ولا للنقص بوجه من الوجوه اتصف المخلوق به، فالخالق أوْلى أنْ يتصف به، لأنّه هو الذي وهب المخلوق ذلك الكمال، ولأنّه لو لم يتصف بذلك الكمال مع إمكان أن يتصف به، لكان في الممكنات من هو أكمل منه وهو محال، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠].

وكلّ نقص ينزّه عنه المخلوق، فالخالق أولى بالتنزه عنه.

جـ- ونلاحظ أيضاً أن الأدلة العقلية القرآنية تدلّ على الحقّ بأبلغ عبارة وأوجزها، أمّا الأدلة العقلية الكلامية والفلسفية فكثير منها لا ينهض للاستدلال به، وضعف الدليل الذي يستدلّ به على الحقّ يؤدي إلى كثرة الشك والاضطراب والحيرة، بل قد يؤدي إلى ردّ الحق، إذ يسهل على الخصم بيان عوار الدليل، فإذا ردّه ردّ الحقّ مع أنّ الحقّ قويّ في ذاته، والضعف إنّما هو في الدليل الموصل إليه، لأجل ذلك نجد أهل الكلام أكثر الناس انتقالاً من قول إلى قول، وجزماً بالقول في موضع وبنقيضه في موضع آخر، بل يكفّرون بقولٍ ما، وهم ممن قال به في مكان آخر، بخلاف أدلة الكتاب والسنة فإنّ أصحابها مستقرون عليها، آخذون بها، لا يتلجلجون، ولا يضطربون[1].

د- ونلاحظ أنّ بعض أدلة المتكلمين يلزم منها لوازم باطلة، إذ يلزم من بعضها ردّ الحق الثابت في الكتاب والسنة.

= أحسن وجه، وذلك كالأمثال المضروبة التي يذكرها الله تعالى في كتابه التي قال فيها: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الكهف: ٥٤]، والأمثال المضروبة هي (الأقيسة العقلية).

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية: ٤/ ٥٠.

فقد ردّوا النصوص التي تدلّ على أنّ الله في السماء بدعوى أنّ الله لا يكون في جهة، لأنّ كونه في جهة يُعدّ تحيّزاً، مع أنّ النصوص صريحة في كونه تعالى في السماء، وخطؤهم أنّهم ظنوا أنّ معنى كونه في السماء: أنّ السماء تحويه، وأخطؤوا أيضاً عندما طبقوا المقاييس البشرية على الذات الإلهية.

٦- الجنى والعطاء:

ومن الفُروق أيضاً أن القرآن يعطي إيماناً مفصّلاً كما قال جندب بن عبد الله: «تعلمنا الإيمان، ثم تعلمنا القرآن، فازددنا إيماناً».

فالقرآن يصف لنا ربنا، وأن له وجهاً ويداً وسمعاً وبصراً، ويعدّد لنا أسماءه وصفاته: فهو الرحمن الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز الجبار...، ويعرفنا بأفعاله ومخلوقاته، ويصف لنا القيامة وأهوالها والجنة والنّار كأننا نراهما.

أما طريقة المتكلمين فإنّ غاية ما عندهم إيمان مجمل، لا يعطي علماً وافياً، ولا تصوراً واضحاً.

لا لقاء:

لا لقاء بين الدّين والفلسفة فهما منهجان مختلفان: في البداية والنهاية، والطريقة والأسلوب، وفي التأثير والعطاء، وقبل ذلك كلّه في المنابع والمصادر.

والإسلام لا يحتاج إلى من يكمله، فقد أكمله العليم الخبير: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾[المائدة:٣]، ولا نحتاج إلى أن نوفّق بينه وبين الفلسفة، ولا بينه وبين اليهودية والنصرانية، ولا بينه وبين الشيوعية

والاشتراكية، فالإسلام حق لا باطل فيه ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢] وغيره إمّا باطل، وإما حق مخلوط بباطل، والإسلام ما جاء لتحكمه أفكار البشر، وإنما جاء ليهيمن على الحياة والأحياء، ويقوّم المعوجّ من العقائد والأفكار.

يجب علينا أن نبقي عقيدتنا وشريعتنا متميزة صافية نقية كما يريد ربنا ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦] وإن خلطها بغيرها يؤدي إلى اللبس الذي عابه الله على أهل الكتاب ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [آل عمران: ٧١].

المبحث الثاني: موقف العلماء من الفلسفة وعلم الكلام

قاوم العلماء الاتجاه الداعي إلى خلط مباحث العقيدة بالفلسفة وعلم الكلام، ذلك الخلط الذي أنشأه الذين يعرفون بفلاسفة الإسلام كابن سينا، وحاربوا الذين تأثروا بهذه الفلسفات.

والعلماء الأعلام قسمان: قسم تنبهوا إلى خطر هذا المسلك منذ الوهلة الأولى، فقاوموا هذا الاتجاه منذ البداية كالإمام أحمد، رحمه الله، وكذلك الشافعي الذي يقول: «حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال، ويطاف بهم في القبائل والعشائر، ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام».

وقسم خاض فيما خاض فيه المتكلمون، فأضناهم المسير، ولم يتنبهوا إلاّ وشمس العمر تميل إلى الغروب، فتندّموا ولات ساعة مندم، ولم يبق لهم سوى التأوه والتحسر، وسؤال الله أن يتجاوز عنهم، وأن يحذّروا مَنْ خلفهم

من سلوك الطريق الخاطىء الذي ساروا فيه.

من هؤلاء محمد بن عمر الرازي قال في كتابه أقسام اللذات[1]:

نهـــاية إقـدام العقـــول عقال وغاية سعي العالمـين ضـلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنـا وحـــاصـــل دنيـانا أذى ووبـال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أنْ جمعنا فيه قيلَ وقالوا
فكم قد رأينا مـن رجالٍ ودولة فبـادوا جميعاً مـسرعين وزالوا
وكـم من جبال قد علا شرفاتها رجـال فـزالوا والجبال جبـال

وقال الرازي: «لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً» وعاد إلى الطريقة القرآنية، وضرب مثلاً بمنهج القرآن في الصفات: «ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، أقرأ في الإثبات ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠].

وأقرأ في النفي: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى: ١١] ، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٠]، ثم قال: «من جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي»[2].

وهذا الشهرستاني يضرب على الوتر نفسه، ويقرر أنّه لم يجد عند الفلاسفة والمتكلمين بعد طول بحث إلا الحيرة والندم حيث يقول[3]:

لعمري لقد طفت المعاهد كلّها وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعاً كـف حـائر على ذقـــن أو قارعاً سن نادم

(١) الصواعق المرسلة، لابن القيم: ص: ٧، وكتاب اعتقادات فرق المسلمين، للرازي: ٢٣.
(٢) الفتوى الحموية الكبرى، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ص: ٧.
(٣) نهاية الإقدام في علم الكلام، للشهرستاني: ص: ٣.

وهذا الجويني - وهو من الجهابذة الذين اشتغلوا بعلم الكلام - يقول محذراً من الاشتغال به[1]: «يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام، فلو عرفت أنّ الكلام، يبلغ بي ما بلغ ما اشتغلت به».

وقال عند موته متندماً متحسراً: «لقد خضت البحر الخضم، وخليت أهل الإسلام وعلومهم، ودخلت في الذي نهوني عنه، والآن إن لم يتداركني الله برحمته، فالويل لابن الجويني، وها أنذا أموت على عقيدة أمي، أو قال على عقيدة العجائز».

وأبو حامد الغزالي - رحمه الله - من هؤلاء الذين أطالوا البحث والتنقيب والتنقل من فرقة إلى فرقة، وقد انتهى في آخر عمره إلى الوقف والحيرة في المسائل الكلامية، وألف كتابه: (إلجام العوام عن علم الكلام)، بل حرّم الاشتغال بعلم الكلام إلا في حالات خاصة «الحق أن علم الكلام حرام إلا لشخصين».

وقد أعرض في آخر عمره عن الاشتغال بعلم الكلام والطرق الكلامية، وأقبل على أحاديث الرسول ﷺ، فمات وصحيح البخاري على صدره.

وأبو الحسن الأشعري نشأ معتزلياً، وبقي كذلك أربعين عاماً، ثم رجع عن ذلك، وصرّح بتضليل المعتزلة، وبالغ في الرد عليهم[2].

ولقد نشأ فريق بعد ذلك سار على المنهج السليم، إلا أنّه استوعب علوم هؤلاء، وعرف مقاتلهم، فكان يردّ عليهم بالمنهج القرآني، ويحاربهم بسلاحهم أيضاً مبيناً ما فيه من عوار وضعف، وقائد هذا الفريق وحامل لوائه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى.

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، وانظر الفتوى الحموية: ص٧.

(٢) انظر كتابنا: معتقد الإمام أبي الحسن الأشعري ومنهجه.

المبحث الثالث: مقارنة بين صاحب الرأي و صاحب العقيدة

وقبل أن أنهي الكلام في هذا الموضوع أقول: نحن بحاجة إلى رجال عقيدة لا إلى رجال فلسفة، نحن نريد أقواماً يعالجون داء هذه الأمة وبلاءها، ولن يفعل ذلك أصحاب الفلسفة والرأي.

وقد عقد الأستاذ أحمد أمين -رحمه الله- مقارنة بين صاحب الرأي وصاحب العقيدة وأثر كل منهما في الحياة فقال:

فرق كبير بين أن ترى الرأي وأن تعتقده.

إذا رأيت الرأي فقد أدخلته في دائرة معلوماتك، وإذا اعتقدته جرى في دمك، وسرى في مخ عظامك، وتغلغل في أعماق قلبك.

ذو الرأي فيلسوف يقول: إني أرى صواباً ما قد يكون في الواقع باطلاً، وهذا ما قامت الأدلة عليه اليوم، وقد تقوم الأدلة على عكسه غداً، وقد أكون مخطئاً فيه، وقد أكون مصيباً.

أما ذو العقيدة فجازم بات، لا شك عنده ولا ظن، عقيدته هي الحق، لا محالة، وهي الحق غداً، خرجت عن أن تكون مجالاً للدليل، وسمت عن الشكوك والظنون.

ذو الرأي فاتر أو بارد، إن تحقق ما رأى ابتسم ابتسامة هادئة رزينة، وإن لم يتحقق ما رأى، فلا بأس، فقد احترز من قبل بأنّ رأيه صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيره خطأ يحتمل الصواب، ذو العقيدة حار متحمس، لا يهدأ إلا إذا حقق عقيدته.

ذو الرأي سهل أن يتحول وأن يتحوّر، هو عند الدليل، أو عند المصلحة تظهر في شكل دليل، أما ذو العقيدة فخير مظهر له ما قاله رسول الله: (لو وضعوا الشمس في يميني والقمرَ في شمالي، على أن أدَعَ هذا الذي جئتُ به ما تركته)[1].

الرأي جثة هامدة، لا حياة لها ما لم تنفخ فيها العقيدة من روحها، والرأي كهف مظلم لا ينير حتى تلقي عليه العقيدة أشعتها، والرأي مستنقع راكد يبيض فوقه البعوض، والعقيدة بحر زاخر لا يسمح للهوام الوضيعة أن تتوالد على سطحه.

والرأي سديم يتكون، والعقيدة نجم يتألق.

الرأي يخلق المصاعب، ويضاعف العقبات، ويصغي لأماني الجسد، ويثير الشبهات، ويبعث على التردد، والعقيدة تقتحم الأخطار، وتزلزل الجبال، وتلفت وجه الدهر، وتغير سير التاريخ، وتنسف الشك والتردد، وتبعث الحزم واليقين، ولا تسمح إلا لمراد الروح[2].

---

(١) هذا حديث ضعيف رواه الطبري في تاريخه: ٢/ ٣٢٦، والبيهقي في دلائل النبوة: ٢/ ١٨٧، من طريق ابن إسحاق، وسنده منقطع، انظر السيرة النبوية لابن هشام: ١/ ٣٣٠.

(٢) كتاب فيض الخاطر، لأحمد أمين نقلاً عن كتاب (الإيمان والحياة، للقرضاوي: ص٢٢).

الفصل الخامس

المبحث الأول: مناهج العلماء في إثبات العقائد[1]

هل نؤمن بعذاب القبر، وبالحوض والميزان وأمثال ذلك من الأمور الاعتقادية؟ وما الذي يجعلنا نؤمن بذلك أو ننفيه؟

١- يرى علماء السلف الصالح أنّ كلّ ما أخبرنا الله به، أو أخبرنا به رسوله ﷺ، ووصل إلينا بطريق صحيح، يجب الإيمان به وتصديقه. وهم لا يفرقون بين الخبر المتواتر وخبر الآحاد[2]، إذا كان صحيحاً، بل يثبتون العقائد بهما من غير تفريق.

ويستدلون على ذلك بالأدلة العامة التي تأمرنا بتصديق الله ورسوله فيما أخبرا به، وطاعتهما فيما أمرا به مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦] وقوله: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ٣٢].

٢- واحتجّت طائفة ممن ضعف معرفتها بالصحيح والضعيف من أحاديث الرسول ﷺ بالأحاديث الموضوعة والضعيفة[3] في هذا الباب ومن أمثال هذه الأحاديث الضعيفة والموضوعة:

حديث «انتهيت إلى ربي ليلة أسري بي إلى السماء، فرأيتُ ربي، بيني وبينه

---

(١) انظر كتابنا (أصل الاعتقاد) فقد حققت فيه القول في هذه المسالة.

(٢) الحديث المتواتر ما رواه جمع غفير يستحيل في العادة اتفاقهم وتواطؤهم على الكذب من مبدأ السند إلى منتهاه، والآحاد ما نقص عن درجة التواتر.

(٣) الموضوع: المكذوب أي ما في سنده كذاب، والضعيف ما لم تتوافر فيه شروط الصحيح.

حجاب بارزٌ، فرأيت كل شيء منه، حتى رأيت تاجاً مخوصاً من اللؤلؤ». حديث موضوع[1].

حديث: (إنّ الله يَجلسُ على القَنطرةِ الوسْطى بين الجنة والنار)[2]. ضعيف.

ويجب التحقق من الأحاديث قبل الاحتجاج بها سواء في العقيدة أو الأحكام، وإلا فإنّ النتيجة أنْ ننسب إلى دين الله ما ليس منه، ونقرر أموراً اعتقادية باطلة.

ومثل الذين يثبتون العقائد بالأحاديث الضعيفة والموضوعة أولئك الذين يثبتونها بالمنامات والخرافات والأساطير.

٣- ورفضت طائفة ثالثة الاحتجاج بالأدلة النقلية أي بالنصوص القرآنية والحديثية في إثبات العقائد، وقد زعموا أنّ «الأدلة النقلية لا تفيد اليقين، ولا تحصل الإيمان المطلوب، ولا تثبت بها عقيدة»[3]، وعللوا عدم إفادتها اليقين «بأنّ الأدلة النقلية مجال واسع لاحتمالات كثيرة تحول دون هذا الإثبات»[4].

وهذا قول متهافت لا يحتاج أن يتعب الناظر نفسه في الردّ عليه، إذ هو مخالف لإجماع الأمة، وإذا كانت النصوص مجالاً واسعاً للاحتمال فكيف يكون كلام البشر؟ وكيف لا تثبت العقائد بكلام الله ورسوله؟ سبحانك هذا بهتان عظيم.

٤- وذهب فريق رابع إلى رفض الاحتجاج بأحاديث الآحاد الصحيحة في

---

(١) الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة، للشوكاني: ٤٤١.

(٢) المصدر السابق: ٤٤٨.

(٣) الإسلام عقيدة وشريعة، لشلتوت: ص٥٣.

(٤) المصدر السابق.

باب العقائد، فلا يحتجون إلا بالقرآن أو المتواتر من الأحاديث، ولا يثبتون العقيدة بالقرآن والحديث المتواتر إلا إذا كان النصّ قطعي الدلالة[1]، وإذا لم يكن النص قطعي الدلالة فإنّه لا يجوز الاحتجاج به عندهم.

قال بذلك علماء الكلام قديماً، وتابعهم بعض علماء الأصول، وقد انتشر هذا القول في أيامنا، حتى كاد ينسى القول الحقّ، ويستغرب من قائله. والعلماء قديماً وحديثاً كانوا ولا يزالون يبينون فساد هذا القول وخطورته، ويكشفون شبهة القائلين به.

توضيح شبهة هؤلاء[2]:

بيّنا أنَّ شبهة هؤلاء زعمهم أنّ أدلة العقائد لا بدَّ أن تفيد اليقين، وأحاديث الآحاد والنصوص القرآنية والأحاديث المتواترة إذا كانت دلالتهما غير قطعية لا تفيد اليقين، بل هي ظنية، والظنّ لايجوز أن يحتج به في هذا المجال لقوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النجم: ٢٣]، ولقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٨] ونحو ذلك من الآيات التي يذمّ الله فيها المشركين لاتباعهم الظن.

واحتجاجهم بهذه الآيات وأمثالها مردود، لأنّ الظنّ في الآيات ليس هو

---

(١) يعنون بالقطعي الثبوت: القرآن والحديث المتواتر.

وبقطعي الدلالة: أن النص لا يحتمل معنى آخر، أي لا يحتمل التأويل، وقد ردوا لذلك النصوص الدالة على رؤية المؤمنين لربهم في يوم القيامة، أما الأحاديث فهي وإن كانت قطعية الدلالة فقد زعموا أنها أحاديث آحاد، وأما نصوص القرآن فقالوا: غير قطعية الدلالة وأولوها تأويلاً آخر (انظر إنكار الشيخ شلتوت لرؤية العباد لربهم في كتابه الإسلام عقيدة وشريعة: ص٥٧).

(٢) انظر «الحديث حجة بنفسه» و «وجوب الأخذ بأحاديث الآحاد في العقائد والأحكام»، للشيخ ناصر الدين الألباني، وكتابنا: «أصل الاعتقاد».

الظنّ الذي عنوه، فإنّ النصوص التي ردّوها ورفضوا الاحتجاج بها في مسائل العقائد تفيد الظن الراجح، والظن الذي ذمه الله في قوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ [النجم: ٢٣] هو الشك الذي هو الخرص والتخمين، فقد جاء في «النهاية» و«اللسان» وغيرهما من كتب اللغة «الظن: الشك يعرض لك في الشيء فتحققه وتحكم به».

هذا هو الظن الذي نعاه الله على المشركين، ومما يؤيد ذلك قول الله فيهم ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦] فجعل الظن هو الخرص الذي هو مجرد الحزر والتخمين، إذ لو كان الظن المنعي به على المشركين هو الظن الغالب فإنه لا يجوز الأخذ به في الأحكام أيضاً؛ لأنّ الله أنكر على المشركين الأخذ بالظنّ إنكاراً مطلقاً، ولم يخصه بالعقيدة دون الأحكام، ولأنّ الله صرح في بعض الآيات أنّ الظنّ الذي أخذه على المشركين يشمل القول به في الأحكام أيضاً، فاسمع إلى قوله تعالى الصريح في ذلك: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] وهذه عقيدة، ﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨] وهذا حكم، ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

ثم إننا لا نسلم لهم القول إنّ أحاديث الآحاد لا تفيد العلم، بل قد تفيده، يقول صديق حسن خان: «والخلاف في إفادة خبر الآحاد الظنّ أو العلم تقيد بما إذا لم يضم إليه ما يقويه، أما إذا انضم إليه ما يقويه أو كان مشهوراً أو مستفيضاً فلا يجري فيه الخلاف المذكور.

ولا نزاع في أنّ خبر الواحد إذا وقع الإجماع على العمل بمقتضاه فإنّه يفيد العلم، لأنّ الإجماع عليه قد صيره من المعلوم صدقه، وهكذا خبر الواحد إذا تلقته الأمة بالقبول، فكانوا بين عامل به ومتأول له، ومن هذا القسم أحاديث

صحيحي البخاري ومسلم ».

وقال العلامة السفاريني في «لوامع الأنوار البهية» :

«وخبر الآحاد إن كان مستفيضاً مشهوراً أفاد علماً نظرياً كما نقله العلامة ابن مفلح وغيره عن أبي إسحاق الأسفراييني وابن فورك، وقيل يفيد القطع».

ثم ذكر قولاً إن خبر الآحاد غير المستفيض يفيد الظن لاحتمال السهو والخطأ، ولكنّه نقل عن الإمام الموفق (ابن قدامة) وابن حمدان والطوفي وجمع أنّه يفيد العلم بالقرائن.

قال العلامة علاء الدين عليّ بن سليمان المرداوي في شرح التحرير: «وهذا أظهر وأصح» وضبط القرائن يكون (بسكون النفس إلى الخبر كسكونها إلى المتواتر أو قريب منه بحيث لا يبقى احتمال عنده ألبتة).

ونصَّ أيضاً على أنّ خبر الآحاد غير المستفيض يفيد العلم إذا نقله آحاد الأئمة المتفق عليهم وعلى إمامتهم وضبطهم.

ونقل عن القاضي أبي يعلى: «أنّ هذا هو المذهب (مذهب الحنابلة)، وقال أبو الخطاب: هذا ظاهر كلام أصحابنا».

وذكر السفاريني أن هذا القول اختاره ابن الزاغوني والإمام تقي الدين ابن تيمية، ثم ذكر أن الذي عليه «الأصوليون من أصحاب أبي حنيفة والشافعي وأحمد - رضي الله عنهم أجمعين - أنّ خبر الواحد إذا تلقته الأمّة بالقبول تصديقاً وعملاً به يوجب العلم».

ثم ذكر أنّ المخالفين في ذلك من أتباع الأئمة فرقة قليلة تابعت علماء الكلام، وذكر أنّ ممن قال بإفادة خبر الآحاد العلم «أبا إسحق وأبا الطيب، وذكره عبدالوهاب وأمثاله من المالكية والسرخسي وأمثاله من الحنفية» وقال:

«وهو الذي عليه أكثر الفقهاء وأهل الحديث والسلف وأكثر الأشعرية وغيرهم».

وقال ابن الصلاح: «ما أسنده البخاري ومسلم العلم اليقيني النظري واقع به، خلافاً لقول من نفى ذلك محتجاً بأنّه لا يفيد في أصله إلا الظن، وإنما تلقته الأمّة بالقبول، لأنه يجب عليهم العمل بالظن، قال: والظنّ قد يخطىء».

قال ابن الصلاح: «وقد كنت أميل إلى هذا وأحسبه قوياً، ثم بان لي أنّ المذهب الذي اخترناه أولاً هو الصحيح، لأنّ ظنّ من هو معصوم من الخطأ لا يخطىء، والأمة في إجماعها معصومة من الخطأ». وابن الصلاح يعني أن الأمة أجمعت على صحة أحاديث البخاري ومسلم.

قال السفاريني: «ولما وقف ابن كثير على اختيار ابن الصلاح من أنّ ما أسند في الصحيحين مقطوع بصحته، قال: وأنا مع ابن الصلاح فيما نصّ عليه وأرشد إليه».

ثم ذكر أنّ ابن كثير وقف على كلام لشيخه ابن تيمية مضمونه أنّه نقل القطع بالحديث الذي تلقته الأمة بالقبول عن جماعات، وبعد أن ذكر بعض أسمائهم قال: (أي ابن تيمية) «وهو مذهب أهل الحديث قاطبة ومذهب السلف عامة»[1].

والصواب من القول أن أحاديث الآحاد الصحيحة تفيد اليقين إذا احتفت بها قرائن ودلائل كما نقلنا ذلك عن جملة من أهل العلم، فالأحاديث التي وردت في كتب السنة وصححها أهل العلم ولم يطعن في صحتها واحد منهم تفيد

(١) لوامع الأنوار البهية: ص١٧، وبهذه النقول الكثيرة التي أثبتناها يتبين لك ما في قول الشيخ شلتوت من التجني حيث يقول: «وهكذا نجد نصوص العلماء متكلمين وأصوليين مجتمعة على أن خبر الآحاد لا يفيد اليقين، فلا تثبت به العقيدة، ونجد المحققين من العلماء يصفون ذلك بأنه ضروري لا يصح أن ينازع أحد في شيء منه..» راجع الإسلام عقيدة وشريعة: ص٧٥.

اليقين لإجماع الأمة على صحتها، ومن ذلك ما اتفق عليه صاحبا الصحيحين أو ورد في واحد من الصحيحين، ولم يطعن في صحته واحد من أهل العلم. ومن ذلك أن يكون الحديث مشهوراً أو مستفيضاً أو رواه الأئمة الكبار كمالك عن نافع عن ابن عمر.

خلاصة القول في المسألة: الصواب من القول أن علماء أهل السنة يقبلون أحاديث الآحاد الصحيحة في العقائد والأحكام من غير تفريق في ذلك، يدلك على هذا تخريج أئمة أهل السنة كمالك وأحمد والبخاري ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي والدارمي وغيرهم للأحاديث المثبتة للعقائد في مدوناتهم، والمتواتر منها قليل، ولو لم يرتضوا الاستدلال بها لما أتعبوا أنفسهم في روايتها وضبطها وتدوينها، ومن قال عنهم خلاف ذلك فإنه قد افترى عليهم، ولا دخل لكون الأحاديث الآحاد تفيد الظن الراجح أو اليقين في المسألة.

فالذين يقولون لا تفيد اليقين يرون الأخذ بها في العقائد إذا صحت ولا تلازم بين إفادتها الظن وردها في باب الاعتقاد.

فابن عبد البر رحمه الله تعالى مع قوله إنّ أخبار الآحاد لا تفيد اليقين إلا أنه يرى أنه يجب الأخذ بها في العقائد كما يؤخذ بها في الأحكام، وينسب ذلك إلى جماعة أهل السنة[1].

---

(١) راجع التمهيد، لابن عبد البر: ١/ ٧.

المبحث الثاني: النصوص الدالة على الاحتجاج بخبر الآحاد

وقد وردت نصوص كثيرة تدل على وجوب الأخذ بحديث الآحاد والاحتجاج بها في إثبات العقائد، منها:

١- قوله تعالى: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٢] فهذه الآية فيها حثّ للقبائل والعشائر وأهل النواحي والأقطار المختلفة من المؤمنين على أن ينفر من كلّ منهم طائفة ليتفقهوا في دينهم، ثم يرجعوا إلى قومهم فينذروهم، والطائفة في لغة العرب: تطلق على الواحد فما فوق، والتفقه في الدين: يشمل العقائد والأحكام، بل التفقه في العقائد أهم من التفقه في الأحكام، ولذا أطلق الإمام أبو حنيفة -رحمه الله- على وريقات كتبها في العقائد: (الفقه الأكبر)، ففي الآية دليل صريح على وجوب الأخذ بأحاديث الآحاد في العقيدة، وإلا لما جاز للطائفة أن تنذر قومها.

٢- قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ﴾ [الحجرات: ٦] وفي القراءة الأخرى (فتثبتوا)، فإنها تدلّ على أنّ من لم يكن فاسقاً بأن كان عدلاً إذا جاء بخبر ما فالحجة قائمة به، وأنّه لا يجب التثبت، بل يؤخذ حالاً.

٣- وقد ورد في السنة ما يوضح قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ ﴾ [التوبة: ١٢٢]، فقد روى البخاري في صحيحه عن مالك بن الحويرث قال: (أتينا إلى النبي ﷺ، ونحن شَبَبَة متقاربون، فأقمنا عنده عشرين يوماً وليلة، وكان رسول الله رحيماً رقيقاً، فلما ظن أنا قد اشتهينا أهلنا، أو قد

اشتقنا، سألنا عمن تركنا بعدنا، فأخبرناه، قال: ارجعوا إلى أهليكم، فأقيموا فيهم، وعلموهم، ومروهم وصلوا كما رأيتموني أصلي)[1].

فقد أمر كلَّ واحد من هؤلاء الشباب أن يعلِّم كلُّ واحد أهله، والتعليم يعمّ العقيدة، بل هي أول ما يدخل في العموم، فلو لم يكن خبر الآحاد مما تقوم به العقيدة لم يكن لهذا الأمر معنى.

٤- وفي صحيحي البخاري ومسلم أيضاً: أنّ أهل اليمن قدموا على رسول الله ﷺ فقالوا: «ابعث معنا رجلاً يعلمنا السنة والإسلام، قال فأخذ بيد أبي عبيدة» فقال: (هذا أمينُ هذه الأمة)[2].

فلو لم تقم الحجة بخبر الواحد لم يبعث الرسول ﷺ إليهم أبا عبيدة وحده، وكذلك يقال في بعثه ﷺ في نوبات مختلفة أو إلى بلاد متفرقة غيره من الصحابة: كعلي بن أبي طالب، ومعاذ بن جبل، وأبي موسى الأشعري، وأحاديثهم في الصحيحين وفي غيرهما.

ولا ريب أن هؤلاء كانوا يعلّمون العقائد في جملة ما يعلمون، فلو لم تكن الحجة قائمة بهم عليهم لم يبعثهم رسول الله ﷺ أفراداً.

قال الإمام الشافعي - رحمه الله - في كتابه (الرسالة):

«وهو لا يبعث بأمره، إلا والحجة للمبعوث إليهم وعليهم قائمة بقبول خبره عن رسول الله ﷺ»[3].

---

(١) صحيح البخاري: ٢/ ١١٠، ورقمه: ٦٢٧، ورواه مسلم: ١/ ٤٦٥ ورقمه: ٦٧٤، واللفظ للبخاري.

(٢) صحيح مسلم: ٤/ ١٨٨٨، ورقمه: ٢٤١٩، والذي في البخاري أنه أرسله إلى أهل نجران، صحيح البخاري: ٧/ ٩٣، ورقمه: ٣٧٤٥، ١٣/ ٢٣٢، ورقمه: ٧٢٥٤.

(٣) الرسالة، الشافعي: ٤١٢.

الرد على القائلين إن حديث الآحاد لا يؤخذ بها في العقيدة:

وقد ردَّ العلماء على الذين لا يأخذون بأحاديث الآحاد في العقيدة من وجوه كثيرة منها:

١- القول إن أحاديث الآحاد لا تثبت بها عقيدة قول مبتدع حادث لا أصل له في الشريعة، وكلّ ما كان كذلك فهو قول مردود.

٢- قولهم هذا في ذاته عقيدة (أي أنّ أحاديث الآحاد لا يحتج بها)، وعلى طريقتهم فإن هذه العقيدة تحتاج إلى دليل قطعي ينهى عن الأخذ بأحاديث الآحاد في العقيدة، ولا دليل على ذلك.

٣- لو وجد دليل قطعي يدل على أن أحاديث الآحاد لا تثبت بها عقيدة لعلمها الصحابة وصرحوا بها، وكذلك مَنْ بعدهم من السلف الصالح.

٤- هذا القول مخالف للمنهج العلمي الذي كان عليه الصحابة، فقد كان الواحد منهم يقبل خبر من حدثه عن الرسول ﷺ ويجزم به، ولا يرد قول أخيه بحجة أن الحديث الذي نقله إنما هو حديث آحاد.

٥- الأدلة الدالة على وجوب الأخذ بأدلة الكتاب والسنة تشمل العقائد والأحكام، فتخصيص هذه الأدلة بالأحكام دون العقائد إذا كانت آحاداً تخصيص من غير مخصص.

٦- أمر الله -تعالى- رسوله بالبلاغ المبين، ومعلوم أنّ البلاغ المبين هو الذي تقوم به الحجة على المُبلغ ويحصل به العلم، فلو كان خبر الواحد لا يحصل به العلم، لم يقع به التبليغ فإنّ الحجة إنّما تقوم بما يحصل من العلم.

٧- يلزم من هذا القول إبطال الأخذ بالأحاديث الآحاد في العقيدة مطلقاً من بعد الصحابة الذين سمعوه منه ﷺ مباشرة، لأنَ الأحاديث لم تصل للناس قبل

تدوينها إلا بطريق الآحاد، والذين وصلهم الحديث بطريق التواتر قليل، بل أقل من القليل، ثم إنّ إخبار هؤلاء غيرهم أن الحديث الفلاني متواتر لا يفيد العلم، لأنّ خبر هذا العالم خبر آحاد.

٨- هذا القول يقتضي ترك العمل بأحاديث الآحاد التي فيها عقيدة وعمل؛ لأنّ عدم الأخذ بها في العقائد ردّ لها، فكيف يؤخذ بها في الأحكام؟!

٩- لم يتفق الأصوليون على هذا القول -كما زعم الشيخ شلتوت- وقد نص الإمام مالك والشافعي وأصحاب أبي حنيفة وداود بن علي وأصحابه كابن حزم على أن خبر الواحد يفيد العلم، ونص عليه الحسين بن علي الكرابيسي والحارث بن أسد المحاسبي والقاضي أبو يعلى من الحنابلة.

المبحث الثالث: العقائد التي تثبت بالأحاديث

وقبل أن ننهي القول في هذه المسألة نسوق إليك جملة من العقائد الثابتة بالأحاديث الصحيحة:

١- القول بنبوة آدم عليه السلام وغيره من الأنبياء الذين لم يُنصّ في القرآن على نبوتهم.

٢- أفضلية نبينا محمد ﷺ على جميع الأنبياء والمرسلين.

٣- شفاعته ﷺ العظمى في المحشر.

٤- شفاعته ﷺ لأهل الكبائر من أمته.

٥- معجزاته ﷺ كلها ما عدا القرآن، ومنها معجزة انشقاق القمر، فإنها مع ذكرها في القرآن تأولوها بما ينافي الأحاديث الصحيحة المصرحة بانشقاق القمر.

٦- الأحاديث التي تتحدث عن بدء الخلق وصفة الملائكة والجن، والجنة والنار، وأنهما مخلوقتان، وأن الحجر الأسود من الجنة.

٧- كثير من خصوصياته ﷺ التي جمعها السيوطي في كتاب (الخصائص الكبرى) مثل دخول الجنة ورؤية أهلها، وما أعِدّ للمتقين فيها وإسلام قرينه من الجنّ.

٨- القطع بأن العشرة المبشرين بالجنّة من أهل الجنة.

٩- الإيمان بسؤال منكر ونكير في القبر.

١٠- الإيمان بعذاب القبر.

١١- الإيمان بضغطة القبر.

١٢- الإيمان بالميزان ذي الكفتين يوم القيامة.

١٣- الإيمان بالصراط.

١٤- الإيمان بحوضه ﷺ وأنّ من شرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبداً.

١٥- دخول سبعين ألفاً من أمته ﷺ الجنة بغير حساب.

١٦- الإيمان بكل ما صحّ في الحديث في صفة القيامة والحشر والنشر مما ليس في القرآن.

١٧- الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره، وأنّ الله تعالى كتب على كلّ إنسان سعادته أو شقاوته ورزقه وأجله.

١٨- الإيمان بالقلم الذي كتب كلّ شيء.

١٩- الإيمان بأنّ أهل الكبائر لا يخلدون في النّار.

٢٠- الإيمان بأنّ أرواح الشهداء في حواصل طير خضر في الجنّة.

٢١- الإيمان بأنّ الله حرّم على الأرض أنْ تأكل أجساد الأنبياء.

٢٢- الإيمان بأنّ لله ملائكة سياحين يبلّغون النبي ﷺ سلام أمته.

٢٣- الإيمان بمجموع أشراط الساعة كخروج المهدي، ونزول عيسى وخروج الدجال... وغير ذلك.

وليست أدلة هذه العقائد جميعاً أحاديث آحاد، بل منها ما دليله أحاديث متواترة، ولكن عدم علم هؤلاء بالسنة المتواترة منها والآحاد جعلهم يردّونها، أو يردون كثيراً منها، وإلا فإنّ أحاديث خروج الدجال، وخروج المهدي، ونزول عيسى ابن مريم أحاديث متواترة كما صرح بذلك علماء الحديث.

والأدهى من ذلك أن تُردّ العقائد التي وردت في الأحاديث المتواترة، بل وردت في القرآن بزعم أنّ دلالة هذه النصوص غير قطعية كما سبق، وقد ذكرنا قول الشيخ شلتوت، ولذا لم يثبتوا رؤية العباد لربهم في يوم القيامة مع تصريح القرآن بإثباتها ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، وقد تواترت الأحاديث بإثباتها.

وقد حمل أبو الحسن الأشعري على المعتزلة لردهم النصوص من الكتاب والسنة تقليداً لرؤسائهم وأهل الرأي فيهم، قال رحمه الله تعالى: «أما بعد فإن الزائغين عن الحق من المعتزلة وأهل القدر مالت بهم أهواؤهم إلى تقليد رؤسائهم، ومن مضى من أسلافهم، فتأولوا القرآن على آرائهم تأويلاً لم ينزل الله به سلطاناً، ولا أوضح به برهاناً، ولا نقلوه عن رسول رب العالمين، ولا عن السلف المتقدمين، وخالفوا روايات الصحابة عليهم السلام عن نبي الله صلوات الله عليه في رؤية الله بالأبصار، وقد جاءت في ذلك روايات من الجهات المختلفة، وتواترت بها الآثار، وتتابعت بها الأخبار، وأنكروا شفاعة رسول الله ﷺ للمذنبين، ودفعوا الروايات في ذلك عن المتقدمين، وجحدوا

عذاب القبر، وأن الكفار في قبورهم يعذبون »[1].

وقال أبو الحسن في موضع آخر: «وأنكرت المعتزلة الحوض، وأنكرت المعتزلة عذاب القبر»[2].

وقال أبو الحسن في مقالات الإسلاميين: « اختلفوا في عذاب القبر، فمنهم من نفاه ومنهم من أثبته وهم المعتزلة والخوارج »[3].

وقال في مقالاته: « اختلفوا في شفاعة رسول الله ﷺ هل هي لأهل الكبائر، فأنكرت المعتزلة ذلك وقالت بإبطاله »[4].

وذكر أيضاً في مواضع من مقالاته أن المعتزلة أنكروا العين واليد لله، كما أنكروا رؤيته بالأبصار ومجيئه يوم القيامة ونزوله إلى السماء الدنيا، وجزموا بتخليد الفساق في النار، وغير ذلك مما خالفوا فيه الأحاديث الصحيحة والمتواترة بل نصوص القرآن[5].

فمن نفى هذه العقائد التي صحت بها الأحاديث، فإنه سائر على درب المعتزلة، لا على طريق أهل السنة.

وقد رأيت من السابقين واللاحقين من جزم بأن جميع أشراط الساعة أحاديث آحاد، وردها بسبب ذلك، وما ظنه منها متواتراً لاحقه بالتأويل والتحريف.

---

(١) الإبانة عن أصول الديانة: ص٦.

(٢) المصدر السابق: ص٧٥.

(٣) مقالات الإسلاميين: ص٣٤٠.

(٤) مقالات الإسلاميين: ص٣٤٠.

(٥) راجع مقالات الإسلامين: ص١٥٧، ٢١٦، ١٩٥، ٤٧٤.

المبحث الرابع: حكم من أنكر ما ثبت بخبر الآحاد

نقل السفاريني القول بكفر من أنكر خبر الآحاد عن إسحاق بن راهويه، والأصح أنّه لا يكفر، ويبدو أن الذي قال بكفره نظر إلى الأحاديث التي تلقتها الأمة بالقبول، وأجمعت على صحتها.

وإننا، وإن لم نقل بكفره، نقول: لقد سلك هذا الذي ردّ أحاديث الرسول ﷺ الصحاح في الاحتجاج بها في العقائد مسلكاً بيّن الخطأ، ويخشى عليه أن يزيغ بسبب رده لهذه الأحاديث وأن يبتليه الله بالمضلات ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

المبحث الخامس: شبهتان تحتاجان إلى إيضاح وبيان

إنّنا نلتزم في هذه الدراسة التي نقدمها بالكتاب والسنة ؛ ولذلك كان لزاماً علينا أن نعرض العقيدة وفق المنهج الذي عرضه الكتاب والسنة ولا نتجاوز هذا النهج، فهو الطريق الذي أحيا قلوب الأوائل من هذه الأمة.

وهو السبيل الوحيد الذي سيصلح بقية الأمة، وصدق الإمام مالك - إمام المدينة المنورة وعالمها - إذ يقول: « لن يَصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ».

وقد قدّمنا تميز القرآن في نهجه عن الفلسفة في إقرار الدّين والاعتقاد، وهذا التميز يلزمنا بالأخذ به دون سواه.

وهناك شبهتان تحتاجان إلى إيضاح وبيان:

الشبهة الأولى: كيف نخاطب بالقرآن من لا يؤمن به:

يقول بعض الذين عندهم حظ من الدّين: كيف نعرض القرآن على من لا يؤمن بالله؟ يجب أن نخاطب النّاس اليوم بمنطق العلم المادي الحديث والأدلة العقلية، فإذا اقتنعوا بالإسلام خاطبناهم بالقرآن.

ونحن نقول لهؤلاء: بالله عليكم كيف أمر الله رسوله أن ينذر بالقرآن الكفار الذين يكذّبون بالله وبالقرآن وبالرسول ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ [الأنعام: ١٩] كيف أمره أن يتلو عليهم هذا القرآن؟ ألم يكن يقرؤه على المعاندين المكذبين فيهزّ نفوسهم، ويزلزل قلوبهم؟

ماذا فعلت آيات القرآن بأميّة بن خلف، والوليد بن عتبة، . . . وغيرهم على غلظ كفرهم وتمكن عداوتهم؟

قد يقال: فالقرآن اليوم يتلى في كل مكان حتى من إذاعة (لندن - وواشنطن) ومع ذلك فإنّ أبناء الإسلام الذين يقرؤون القرآن لا يؤمنون بما جاء به.

والجواب على هؤلاء أنّ العربي قديماً كان يسمع الآيات تتلى عليه، فتنسل إلى أعماق نفسه، لأنّه عربيّ يفقه معاني الآيات ومراميها، فلا حجاب بينه وبينها.

أمّا اليوم فتقوم بين النّاس والقرآن حواجز وحجب، بعضها يعود إلى اللغة، وبعضها إلى شبهات استقرت في الأذهان، وأصبحت عند النّاس مسلّمات.

ولذلك فإنّ مهمة حامل القرآن اليوم أنْ يقوم بترجمة القرآن إلى اللغة التي يفقهها النّاس، عليه أن يصل النّاس بالقرآن، ويصل القرآن بالنّاس، بأن يبين لهم معانيه ومراميه، ويجدد معاني هذا الكتاب في النفوس، فتعود مرة أخرى إلى تذوقه واستشعاره. . . ، وتصل معانيه إلى المكذّبين والمنكرين بهذه الطريقة، فتتحقق الدعوة التي تقوم بها الحجة على كلّ إنسان.

وقد سبق أن بيّنا أنّ القرآن يحتوي على الأدلة التي تناقش العقول، وتروي ظمأ القلوب، وليس هو مجرد أخبار فقط.

الشبهة الثانية: الدعوة إلى التقارب بين الأديان:

هذا هو السبيل: أن نتبين النهج الذي جاءنا الله به لإقرار الإيمان في النفوس، ونلتزمه في ذوات أنفسنا، وفي دعوة الناس، وفي تربيتهم وِفْقَهُ.

ويحاول أعداء الله، والمخدوعون من أبناء هذه الأمة، أن يشوهوا هذا السبيل، وذلك بالدعوة إلى التقارب بين الأديان، فقد أقيمت مؤتمرات وندوات من أجل ذلك.

وقد أخطأ الذين أمّوا هذه المؤتمرات والندوات من المسلمين خطأ كبيراً حين رضوا بأن يجعلوا الإسلام موضوعاً للبحث كاليهودية والنصرانية على حدٍّ سواء.

قد نجد لهؤلاء العذر لو ذهبوا إلى هناك يقولون للآخرين كما قال القرآن: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤] كان عليهم أن يبينوا باطل هؤلاء بالتي هي أحسن، ويعرضوا عليهم الدّين الحقّ، ويقيموا عليهم الحجة، لا أن يخطبوا ودّهم، ويجاملوهم في باطلهم.

ويخطىء الذين يخلطون الإسلام بغيره من الأديان والمذاهب والفلسفات، يزعمون أنهم يوفّقُون بين نصوص القرآن وكلام أولئك الأقوام، ليصلوا إلى مرحلة وسط يلتقي فيها الإسلام بغيره، وكذبوا في زعمهم، وضلوا في نهجهم، فالإسلام دين الله يهيمن على الحياة والأحياء، ولا يحتاج إلى أن نوفّق بينه وبين

غيره، فغيره فيه الباطل والصالح، والإسلام صلاح كله، ومهمتنا أن نُبقي كتاب ربّنا ودينه متميزين ﴿ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] حتى يفيء إليه النّاس فيجدوه صافياً غير مخلوط.

وقد ذمّ الله هذا الصنف من النّاس الذين يريدون مزج الإسلام بغيره والالتقاء في منتصف الطريق بزعم التوفيق، وأخبر أنّ هذا فعل المنافقين ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا * فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴾ [النساء: ٦١-٦٢].

البَابُ الثَّانِي

الإيمان بالله

تمهيد: أهمية هذا الأصل:

الأصل الأول من الأصول الاعتقادية هو الإيمان بالله، وهذا الأصل هو أهمّ الأصول الاعتقادية والعملية، وعليه مدار الإسلام، وهو لبّ القرآن ، ولا نبالغ إذا قلنا: إنّ القرآن كلّه حديث عن هذا الإيمان ؛ لأنّ القرآن إمّا حديث مباشر عن الله تعالى: ذاته وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، كآية الكرسي، وسورة الإخلاص.

وإمّا دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، وترك ما يُعبد من دونه من آلهة باطلة، وهذا كله تعريف بالله، ودعوة للقيام بحقّه، ونهيٌ عن صرف ذلك لغيره.

وإما أمر بطاعته سبحانه، ونهي عن معصيته، وهذا من لوازم الإيمان.

وإمّا إخبار عن أهل الإيمان وما فعل بهم في الدُّنيا من الكرامة، وما يثيبهم به في الآخرة، وهذا جزاء أهل الإيمان بالله.

وإمّا إخبار عن الكافرين، وما فعل الله بهم في الدّنيا من النكال، وما سيفعل بهم في الآخرة في دار العذاب، وهذا جزاء من أعرض عن الإيمان.

فالقرآن كله حديث عن الإيمان بالله، يوضح هذا أنّنا نجد أنّ ذكر الله قد تكّرر في القرآن باسم من أسمائه، أو صفة من صفاته (١٠٠٦٢) مرة أي في

الصفحة الواحدة قرابة عشرين مرة في المتوسط.

إننا نستطيع أن نقول: إنّ الإيمان بالله بالنسبة لبقية الأصول والفروع كأصل الشجرة بالنسبة للسوق والفروع، فهو أصل الأصول، وقاعدة الدّين، وكلما كان حظ المرء من الإيمان بالله عظيماً كانَ حظه في الإسلام كبيراً.

مسائل الإيمان بالله :

مسائل هذا الباب التي لا بدّ للباحث من عرضها وتمحيصها هي:

أولاً: أدلة وجود الله -تعالى- وردّ الشبهات التي تثار حول هذا الموضوع.

ثانياً: التعريف بالله -سبحانه- وهذا يتمّ في القرآن من خلال طريقين:

١- بيان ما في المخلوقات من إبداع وإعجاز تدل على عظيم قدرة الله وبديع صنعه.

٢- دراسة الآيات القرآنية التي تتحدث عن الله حديثاً مباشراً: ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله.

ثالثاً: توحيد الله بعبادته وحده لا شريك له، ونبذ ما يعبد من دونه.

رابعاً: نظرة في تاريخ العقيدة الإلهية، وتحقيق القول في ذلك.

الفصل الأول

أدلة وجود الخالق جل وعلا والرد على الملحدين في نشأة الكون

المبحث الأول أدلة وجود الخالق جل وعلا

الدليل الأول: دليل الفطرة

الفطرة السليمة تشهد بوجود الله من غير دليل:

لم يطل القرآن في الاستدلال على وجود الله تعالى، لأنّ القرآن يقرّر أنّ الفطر السليمة، والنفوس التي لم تتقذر بأقذار الشرك، تُقرّ بوجوده من غير دليل، وليس كذلك فقط، بل إنّ توحيده - سبحانه - أمر فطري بدهي ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠].

هذه الفطرة هي التي تفسر الظاهرة التي لاحظها الباحثون في تاريخ الأديان، وهي أنّ الأمم جميعاً - التي درسوا تاريخها - اتخذت معبودات تتجه إليها وتقدّسها[١].

وقد يقال هنا: لو كان التوجه إلى الله أمراً فطرياً لما عبد النّاس في مختلف

---

(١) حتى الشيوعيين اليوم الذين أرادوا أن يتحرروا من عبادة الآلهة بزعمهم يعبدون مؤسس المذهب، فتراهم يمرون أمام جثته المحنطة في الميدان الأحمر في ذكرى يوم وفاته خاضعين حانين رؤوسهم، لقد جعلوه إلهاً، وبدلاً من أن يعبدوا خالق البشر عبدوا ميتاً من البشر، فبعداً لهم.
هذا ما دونته قبل خمس عشرة سنة، وقبل سنوات هدم القائمون على المذهب الشيوعي مذهبهم، وألقوا جثث قادة المذهب، كما ألقوا عقائدهم وأفكارهم.

العصور آلهة شتى.

والجواب: أنّ الفطرة تدعو المرء إلى الاتجاه إلى الخالق، لكنّ الإنسان تحيط به مؤثرات كثيرة تجعله ينحرف حينما يتجه إلى المعبود الحق.

فما يغرسه الآباء في نفوس الأبناء، وما يلقيه الكتّاب والمعلمون والباحثون في أفكار الناشئة يبدّل هذه الفطرة ويقذرها، ويلقي عليها غشاوة، فلا تتجه إلى الحقيقة.

وقد نصّ الرسول ﷺ على صدق هذا الذي قررناه، ففي صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه)[1]. ولم يقل يُسلمانِه، لأنّ الإسلام مُوافقٌ للفطرة.

وقد يقال: إذا تركنا الطفل من غير أن نُؤثّر في فطرته هل يخرج موحداً عارفاً بربّه، فنقول: إذا ترَك شياطين الإنس البشر، ولم يدنّسوا فطرهم، فإنّ شياطين الجنّ لن يتركوهم، فقد أخذ الشيطان على نفسه العهد بإضلال بني آدم: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢-٨٣].

وأعطي الشيطان القدرة على أن يصل إلى قلب الإنسان، كما في الحديث الصحيح (إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شرّا) أو قال: (شيئاً)[2].

والقرآن وصف الشيطان المطلوب الاستعاذة منه بأنّه ﴿يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ [الناس: ٥]، وقد صح أيضاً أنّ لكل إنسان قريناً من الجنّ يأمره

(١) صحيح البخاري: ٣/ ٢٤٥، ورقمه: ١٣٨٥، ورواه مسلم في صحيحه: ٤/ ٢٠٤٧، ورقمه: ٢٦٥٨.

(٢) رواه مسلم في صحيحه: ٤/ ١٧١٢. ورقمه: ٢١٧٥.

بالشرّ، ويحثه عليه، وفي القرآن ﴿ ۞قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [ق: ٢٧].

ولا يتخلص المرء من هذا إلا بالالتجاء إلى الله ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ * مَلِكِ ٱلنَّاسِ * إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ * مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ * ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ * مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ [الناس: ١-٦].

وشياطين الجنّ يقومون بدور كبير في إفساد الفطرة وتدنيسها، وقد ثبت في صحيح مسلم عن عياض بن حمار أن رسول الله ﷺ خطب ذات يوم، فكان مما جاء في خطبته: (ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا: كلّ مال نحلته[1] عبادي حَلالٌ، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين، فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً)[2].

المصائب تصفي جوهر الفطرة:

وكثيراً ما تنكشف الحجب عن الفطرة، فتزول عنها الغشاوة التي رانت عليها عندما تصاب بمصاب أليم، أو تقع في مأزق لا تجد فيه من البشر عوناً، وتفقد أسباب النجاة، فكم من ملحد عرف ربّه وآب إليه عندما أحيط به، وكم من مشرك أخلص دينه لله لضرّ نزل به ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [يونس: ١٠].

وقد سمعنا كيف آب ركاب طائرة ما إلى ربهّم عندما أصاب طائرتهم خلل،

---

(١) نحلته: منحته.

(٢) صحيح مسلم: ٤/ ٢١٩٧، ورقمه: ٢٨٦٥.

فأخذت تهتز وتميل، وتتأرجح في الفضاء، والطيار لا يملك من أمره شيئاً فضلاً عن الركاب، هناك اختفى الإلحاد، وضجّت الألسنة بالدّعاء، ورغبت القلوب إلى ربها بصدق وإخلاص، ولم يبق للشرك والإلحاد وجود في مثل هذا الموقف الرهيب.

المشركون الذين بُعث إليهم الرسول كانوا يقرّون بوجود الخالق:

العرب الذين جابههم الرسول ﷺ كانوا مقرّين بوجود الله، وأنّه الخالق وحده للكون، كما يقرّون بأنّه وحده الرازق النافع الضارّ، . . . ولكنهم كانوا يعبدون غيره معه، ولا يخلصون دينهم لله وحده.

وفي معرض إلزام المشركين بالعبودية لله وحده، وإخلاص الدّين له كان يسألهم عن الخالق المالك للسماء والأرض، فكانوا يعترفون، ولا ينكرون، ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [لقمان: ٢٥].

وفي سورة المؤمنون ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩]. ومن المعروف أنّ العرب كانوا يُعظمون الكعبة، ويحجون، ولهم بقية من عبادات يتنسّكُون بها.

كفر النّاس - اليوم أعظم:

كان حريّاً بنا ألا نقف عند أدلة وجود الله كثيراً؛ لأنّ الفطرة الإنسانية تشهد بذلك، ولا يكاد يعرف منكر لوجود الخالق في الماضي إلا النزر اليسير، وهم لا يمثلون في البشرية نسبة تذكر.

إلا أن الانحراف اليوم وصل الدّرك الأسفل، فأصبحنا نرى أقواماً يزعمون أن لا خالق، ويجعلون هذه المقولة مذهباً يقيمون عليه حياتهم، وقامت دول على هذا المذهب تعدّ بمئات الملايين من البشر.

وانتشرت هذه المقولة في كل مكان، وألفت فيها كتب، وأصبح لها فلسفة تدرس، وحاول أصحابها أن يسموها بالمنهج العلمي، ويدللوا عليها.

من أجل ذلك كان لا بدّ أن نتوسع شيئاً ما في الاستدلال على هذه القضية.

الدليل الثاني: المخلوق لا بدّ له من خالق

يحتجّ القرآن على المكذّبين المنكرين بحجة لا بدّ للعقول من الإقرار بها، ولا يجوز في منطق العقل السليم رفضها، يقول تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥-٣٦].

يقول لهم: أنتم موجودون هذه حقيقة لا تنكرونها، وكذلك السموات والأرض موجودتان، ولا شك.

وقد تقرر في العقول أنّ الموجود لا بدّ من سبب لوجوده، وهذا يدركه راعي الإبل في الصحراء، فيقول: «البعرة تدلّ على البعير، والأثر يدلّ على المسير، فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج، ألا تدل على العليم الخبير». ويدركه كبار العلماء الباحثين في الحياة والأحياء.

وهذا الذي أشارت إليه الآية هو الذي يعرف عند العلماء باسم: (قانون السببية). هذا القانون يقول: إنّ شيئاً من (الممكنات) «لا يحدث بنفسه من غير شيء»؛ لأنه لا يحمل في طبيعته السبب الكافي لوجوده، «ولا يستقل بإحداث شيء»؛ لأنّه لا يستطيع أن يمنح غيره شيئاً لا يملكه هو.

ولنضرب مثالاً نوضح به هذا القانون:

منذ سنوات تكشفت الرّمال في صحراء الربع الخالي إثر عواصف هبت على المنطقة عن بقايا مدينة كانت مطموسة في الرمال، فأخذ العلماء يبحثون عن محتوياتها ويحاولون أن يحققوا العصر الذي بنيت فيه، ولم يتبادر إلى ذهن شخص واحد من علماء الآثار أو من غيرهم أن هذه المدينة وجدت بفعل العوامل الطبيعية من الرياح والأمطار والحرارة والبرودة لا بفعل الإنسان.

ولو قال بذلك واحد من النّاس لعده الناس مخرّفاً يستحقّ الشفقة والرحمة، فكيف لو قال شخص ما: إنّ هذه المدينة تكونت في الهواء من لا شيء في الأزمنة البعيدة، ثم رست على الأرض؟ إنّ هذا القول لا يقلّ غرابة عن سابقه، بل يفوقه.

لماذا؟ لأنّ العدم لا يوجد شيئاً، هذا أمر مقرر في بدائه العقول، ولأنّ الشيء لا يستطيع أن يوجد نفسه.

والمدينة على النحو الذي نعرفه لا بد لها من موجد، والفعل يشي، ويعرّف بصانعه، فلا بدّ أن تكون المدينة صناعة قوم عقلاء يحسنون البناء والتنسيق.

ولو رأينا إنساناً انتقل من أسفل بناية إلى أعلاها فلا نستنكر ذلك، ولا نستغربه، لأنّ الإنسان لديه القدرة على ذلك.

فإذا رأينا حجراً كان في ساحة البناية قد انتقل إلى أعلاها، فإنّنا نجزم بأنّه لم يتنقل بنفسه، بل لا بدّ من شخص رفعه ونقله ؛ لأنّ الحجر ليس لديه خاصية الحركة والصعود.

ومن الغريب أنّ النّاس يجزمون بأنّ المدينة لا يمكن أن توجد من غير

موجد، ولا يمكن أن تبني نفسها، ويجزمون بأنّه لا بدّ للحجر من شخص صعد به إلى أعلى، ولكن يوجد فيهم من يجيز أن يصنع الكون من غير صانع، ويوجد من غير موجد، مع أنّ بناء الكون أشدّ تعقيداً وأعظم خلقة ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧].

ولكنّ المنكرين عندما يواجهون بذلك بمنطق علمي يخاطب العقل، لا يستطيعون إلا أن يقروا أو يكابروا.

وبهذا الدليل كان علماء الإسلام ولا يزالون يواجهون الجاحدين، فهذا أحد العلماء يعرض له بعض الزنادقة المنكرين للخالق، فيقول لهم: ما تقولون في رجل يقول لكم: رأيت سفينة مشحونة بالأحمال، مملوءة من الأنفال، قد احتوشتها في لجة البحر أمواج متلاطمة، ورياح مختلفة، وهي من بينها تجري مستوية، ليس لها ملاح يُجريها، ولا متعهد يدفعها، هل يجوز في العقل؟.

قالوا: هذا شيء لا يقبله العقل.

فقال ذلك العالم: يا سبحان الله، إذا لم يجز في العقل سفينة تجري في البحر مستوية من غير متعهد ولا مجر، فكيف يجوز قيام هذه الدّنيا على اختلاف أحوالها، وتغيّر أعمالها، وسعة أطرافها، وتباين أكنافها من غير صانع ولا حافظ؟! فبكوا جميعاً، وقالوا: صدقت وتابوا.

هذا القانون الذي سلمت به العقول وانقادت له هو الذي تشير إليه الآية الكريمة: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥] وهو دليل يُرغم العقلاء على التسليم بأنّ هناك خالقاً معبوداً، إلا أن الآية صاغته صياغة بليغة مؤثرة، فلا تكاد الآية تلامس السمع حتى تزلزل النفس وتهزها.

روى البخاري في صحيحه عن جبير بن مطعم قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ

ٱلْخَٰلِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ * أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور: ٣٥-٣٧] كاد قلبي أن يطير »[١].

قال البيهقي[٢]: قال أبو سليمان الخطابي: « إنما كان انزعاجه عند سماع هذه الآية لحسن تلقيه معنى الآية، ومعرفته بما تضمنته من بليغ الحجة، فاستدركها بلطيف طبعه، واستشف معناها بزكي فهمه . . . ».

واختار الخطابي في معنى ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ [الطور: ٣٥] «فوجدوا بلا خالق، وذلك ما لا يجوز أن يكون، لأنّ تعلق الخلق بالخالق من ضرورة الأمر، فلا بدّ له من خالق، فإذ قد أنكروا الإله الخالق، ولم يجز أن يوجدوا بلا خالق خلقهم، أفهم الخالقون لأنفسهم؟ وذلك في الفساد أكثر، وفي الباطل أشد، لأنّ ما لا وجود له كيف يجوز أن يكون موصوفاً بالقدرة، وكيف يخلق؟ وكيف يتأتى منه الفعل، وإذا بطل الوجهان معاً قامت الحجة عليهم بأن لهم خالقاً، فليؤمنوا به.

ثم قال: ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٦] وذلك شيء لا يمكنهم أن يدّعوه بوجه، فهم منقطعون والحجة قائمة عليهم ».

وهذا الذي قرر الخطابي أن الكفار لا يمكن أن يدعوه فائدة ذكره والسؤال عنه قطع الحجاج والخصام ؛ إذ قد يوجد جاحد مكابر يقول: «أنا خلقت نفسي» كما زعم مثيل له من قبل بأنه يحيي ويميت ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

فماذا كان الجواب؟ سؤال آخر أبان عجزه وأكذبه في زعمه الأول ﴿قَالَ

---

(١) صحيح البخاري: ٨/ ٦٠٣، ورقمه: ٤٨٥٤.

(٢) الأسماء والصفات للبيهقي: ١/ ٣٩١.

﴿إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨] فكانت النتيجة: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وهنا هَبْ شخصاً قال: «أنا خلقت نفسي» فهل يستطيع أن يزعم أنّه خلق السمٰوات والأرض؟! فإذا كان العدم لا يُوجِد سماء ولا أرضاً، وإذا كانت السماء والأرض لم توجدا نفسيهما، وإذا كان هؤلاء لا يستطيعون الادعاء بأنّهم أوجدوا ذلك كله، فإنّه لا بدّ لهذا كله من موجد، وهذا الموجد هو الله سبحانه وتعالى.

موقف العلوم التجريبية من هذا القانون:

إنّ طاقة البشر، وطبيعة المخلوق، أعجز من أن تحصي مراحل الأسباب مرحلة مرحلة، وتتابع سلسلتها حلقة حلقة، حتى تشهد بداية العالم، ولذلك يئست العلوم التجريبية من معرفة أصول الأشياء، وأعلنت عدولها عن هذه المحاولة، وكان قصاراها أن تخطو خطوات معدودة إلى الوراء، تاركة ما بعد ذلك إلى ساحة الغيب التي يستوي في الوقوف دونها العلماء والجهلاء.

لا بدّ للعقل من الاعتراف:

ولكنّ هذا اليأس الإنساني من معرفة أطوار الكائنات تفصيلاً في ماضيها ومستقبلها، يقابله يقين إجمالي ينطوي كلّ عقل على الاعتراف به طوعاً أو كرهاً، وهو أنّه مهما طالت الأسباب الممكنة، وسواء أفرضت متناهية أو غير متناهية، فلا بدّ لتفسيرها وفهمها ومعقولية وجودها من إثبات شيء آخر يحمل في نفسه سبب وجوده وبقائه، بحيث يكون هو الأول الحقيقي الذي ليس قبله شيء، وإلا لبقيت كلّ هذه الممكنات في طيّ الكتمان (إن لم يكن لها مبدأ ذو وجود مستقل).

المبحث الثاني

الرد على شبهات الملحدين في نشأة الكون

نسمع ونقرأ شبهات قيلت في القديم، وتقال اليوم، يحاول أصحابها أن يعللوا بها وجود الكون، وسنحاول أن نعرض لبعض هذه الشبهات، ثم نبين ما فيها من باطل.

١- القول بالمصادفة

بعد توضيح الدليل القرآني الذي يخاطب العقول، ويلزمها بالاعتراف بوجود الخالق المعبود، يبدو القول إنّ هذا الكون خلق مصادفة من غير خالق ليس قولاً بعيداً عن الصواب فحسب، بل قول بعيد عن المعقول يدخل صاحبه في عداد المخرفين الذين فقدوا عقولهم أو كادوا، فهم يكابرون في الدليل الذي لا يجد العقل بُدّاً من التسليم به.

لقد وجد من يقول: «لو جلست ستة من القردة على آلات كاتبة، وظلت تضرب على حروفها بلايين السنين، فلا نستبعد أن نجد في بعض الأوراق الأخيرة التي كتبتها قصيدة من قصائد شكسبير، فكذلك الكون الموجود الآن، إنما وجد نتيجة لعمليات عمياء، ظلت تدور في «المادة» لبلايين السنين».

يقول وحيد الدين خان[1] بعد نقله لهذه الفقرة من كلام (هكسلي)[2]: «إنَّ

---

(١) الإسلام يتحدى: ص٦٦.

(٢) (هكسلي) هو الكاتب الملحد الذي كتب كتابه المعروف (الإنسان يقوم وحده)، فسخّر الله له عالماً من ملته هو (أ. كريستي موريسون رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك وعضو سابق في المجلس =

أيّ كلام من هذا القبيل لغو مثير بكل ما تحويه هذه الكلمة من معان، فإنّ جميع علومنا تجهل - إلى يوم النّاس هذا - أية مصادفة أنتجت واقعاً عظيماً ذا روح عجيبة، في روعة الكون».

وينقل عن عالم آخر إنكاره لهذه المقالة قوله: «إنّ القول إن الحياة وجدت نتيجة حادث اتفاقي شبيه في مغزاه بأن نتوقع إعداد معجم ضخم نتيجة انفجار صدفي يقع في مطبعة».

ويقرر وحيد الدين خان: «أنّ الرياضيات التي تعطينا نكتة المصادفة، هي نفسها التي تنفي أيّ إمكان رياضي في وجود الكون الحالي بفعل قانون المصادفة».

وخذ هذا المثال الذي نقله وحيد الدين خان عن العالم الأمريكي (كريستي موريسون) يبين فيه استحالة القول بوجود الكون مصادفة:

قال: «لو تناولت عشرة دراهم، وكتبت عليها الأعداد من واحد إلى عشرة، ثم رميتها في جيبك، وخلطتها جيداً، ثم حاولت أن تخرج من الواحد إلى العاشر بالترتيب العددي بحيث تلقي كلّ درهم في جيبك بعد تناوله مرة أخرى، فإمكان أن نتناول الدرهم المكتوب عليه واحد في المحاولة الأولى هو واحد في العشرة، وإمكان أن نخرج الدراهم من (١-١٠) بالترتيب واحد في عشرة بلايين»[1].

وعلى ذلك فكم يستغرق بناء هذا الكون لو نشأ بالمصادفة والاتفاق؟ إنَّ حساب ذلك بالطريقة نفسها يجعل هذا الاحتمال خيالياً يصعب حسابه فضلاً عن تصوره.

= التنفيذي لمجلس البحوث القومي بالولايات المتحدة)، فسطر كتابه القيم (الإنسان لا يقوم وحده) رداً على (هكسلي) وقد ترجم هذا الكتاب تحت عنوان (العلم يدعو إلى الإيمان).

(١) انظر: العلم يدعو إلى الإيمان: ص٥١.

إنَّ كلَّ ما في الكون يحكي أنَّه إيجاد موجد حكيم عليم خبير، ولكنَّ الإنسان ظلوم جهول ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ * مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ * ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ * ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ * ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ * كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ * فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ * أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾ [عبس: ١٧-٢٩].

كيف يمكن أن تتأتى المصادفة في خلق الإنسان وتكوينه، وفي صنع طعامه على هذا النحو المقدّر الذي تتشارك فيه الأرض والسماء، وصدق الله في وصفه للإنسان ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢][1].

٢- قالوا الطبيعة هي الخالق

وهذه فرية راجت في عصرنا هذا، راجت حتى على الذين نبغوا في العلوم المادّية، وعلل كثيرون وجود الأشياء وحدوثها بها، فقالوا: الطبيعة هي التي تُوجد وتُحدِث.

وهؤلاء نوجه لهم هذا السؤال: ماذا تريدون بالطبيعة؟ هل تعنون بالطبيعة ذوات الأشياء؟ أم تريدون بها السنن والقوانين والضوابط التي تحكم الكون؟ أم تريدون بها قوة أخرى وراء هذا الكون أوجدته وأبدعته؟

إذا قالوا: نعني بالطبيعة الكون نفسه، فإننا لا نحتاج إلى الردّ عليهم، لأنّ فساد قولهم معلوم ممّا مضى، فهذا القول يصبح ترديداً للقول السابق إنّ الشيء يوجد نفسه، أي: إنّهم يقولون الكون خلق الكون، فالسماء خلقت السماء، والأرض خلقت الأرض، والكون خلق الإنسان والحيوان، وقد بيّنا أنّ العقل الإنساني يرفض التسليم بأنّ الشيء يوجد نفسه، ونزيد الأمر إيضاحاً

(١) وسيأتي مزيد بحث لهذه المسألة عند الكلام على الآيات الكونية إن شاء الله تعالى.

فنقول: والشيء لا يخلق شيئاً أرقى منه، فالطبيعة من سماء وأرض ونجوم وشموس وأقمار لا تملك عقلاً ولا سمعاً ولا بصراً، فكيف تخلق إنساناً سميعاً عليماً بصيراً ! هذا لا يكون.

فإن قالوا: خُلق ذلك كله مصادفة، قلنا: ثبت لدينا يقيناً أن لا مصادفة في خلق الكون، وقد تبينا ذلك فيما سبق.

نظرية التولد الذاتي (شبهة ثبت بطلانها):

وكان مما ساعد على انتشار الوثنية الجديدة (القول إنّ الطبيعة هي الخالق) هو ما شاهده العلماء الطبيعيون من تكون (دود) على براز الإنسان أو الحيوان، وتكوّن بكتيريا تأكل الطعام فتفسده، فقالوا: ها هي ذي حيوانات تتولد من الطبيعة وحدها.

وراجت هذه النظرية التي مكنت للوثن الجديد (الطبيعة) في قلوب الضالين التائهين بعيداً عن هدى الله الحق، لكنّ الحق ما لبث أن كَشَفَ باطل هذه النظرية على يد العالم الفرنسي المشهور (باستير) الذي أثبت أنّ الدود المتكون، والبكتيريا المتكونة المشار إليها لم تتولد ذاتياً من الطبيعة، وإنّما من أصول صغيرة سابقة لم تتمكن العين من مشاهدتها، وقام بتقديم الأدلة التي أقنعت العلماء بصدق قوله، فوضع غذاء وعزله عن الهواء، وأمات البكتريا بالغليان، فما تكونت بكتيريا جديدة، ولم يفسد الطعام، وهذه النظرية التي قامت عليها صناعة الأغذية المحفوظة (المعلبات)[1].

---

(١) كتاب التوحيد، للزنداني: ٢/ ٧٤.

الطبيعة هي القوانين التي تحكم الكون:

ويرى فريق آخر أنّ الطبيعة هي القوانين التي تحكم الكون، وهذا تفسير الذين يدّعون العلم والمعرفة من القائلين إنّ الطبيعة هي الخالق، فهم يقولون: إنّ هذا الكون يسير على سنن وقوانين تسيّره وتنظم أموره في كل جزئية، والأحداث التي تحدث فيه تقع وفق هذه القوانين، مثله كمثل الساعة التي تسير بدقة وانتظام دهراً طويلاً، فإنها تسير بذاتها بدون مسيّر.

وهؤلاء في واقع الأمر لا يجيبون عن السؤال المطروح: من خلق الكون؟

ولكنهم يكشفون لنا عن الكيفية التي يعمل الكون بها، هم يكشفون لنا كيف تعمل القوانين في الأشياء، ونحن نريد إجابة عن موجد الكون وموجد القوانين التي تحكمه.

يقول وحيد الدين خان: «كان الإنسان القديم يعرف أنّ السماء تمطر، لكننا اليوم نعرف كلّ شيء عن عملية تبخر الماء في البحر، حتى نزول قطرات الماء على الأرض، وكلّ هذه المشاهدات صور للوقائع، وليست في ذاتها تفسيراً لها، فالعلم لا يكشف لنا كيف صارت هذه الوقائع قوانين؟ وكيف قامت بين الأرض والسماء على هذه الصورة المفيدة المدهشة، حتى إنّ العلماء يستنبطون منها قوانين علمية.

إنّ ادعاء الإنسان بعد كشفه لنظام الطبيعة أنّه قد كشف تفسير الكون ليس سوى خدعة لنفسه، فإنّه قد وضع بهذا الادعاء حلقة من وسط السلسلة مكان الحلقة الأخيرة.

إن الطبيعة لا تفسّر شيئاً (من الكون) وإنّما هي نفسها بحاجة إلى تفسير. واقرأ هذه المحاورة التي يمكن أن تجرى بين رجل نابه، وأحد الأطباء الأفذاذ في علمهم:

السائل: ما السبب في احمرار الدم؟

الطبيب: لأنّ في الدّمِ خلايا حمراء، حجم كل خلية منها: ١/ ٧٠٠ من البوصة.

السائل: حسناً، ولكن لماذا تكون هذه الخلايا حمراء؟

الطبيب: في هذه الخلايا مادة تسمى (الهميوجلوبين)، وهي مادة تحدث لها الحمرة حين تختلط بالأكسجين في القلب.

السائل: هذا جميل، ولكن من أين تأتي هذه الخلايا التي تحمل (الهميوجلوبين)؟

الطبيب: إنها تصنع في كبدك.

السائل: عجيب! ولكن كيف ترتبط هذه الأشياء الكثيرة من الدّم والخلايا والكبد وغيرها، بعضها ببعض ارتباطاً كلياً وتسير نحو أداء واجبها المطلوب بهذه الدّقة الفائقة؟

الطبيب: هذا ما نسميه بقانون الطبيعة.

السائل: ولكن ما المراد بقانون الطبيعة هذا يا سيادة الطبيب؟

الطبيب: المراد بهذا القانون هو الحركات الداخلية العمياء للقوى الطبيعية والكيماوية.

السائل: ولكن لماذا تهدف هذه القوى دائماً إلى نتيجة معلومة؟ وكيف تنظم نشاطها حتى تطير الطيور في الهواء، ويعيش السمك في الماء، ويوجد إنسان في الدّنيا، بجميع ما لديه من الإمكانات والكفاءات العجيبة المثيرة؟

الطبيب: لا تسألني عن هذا، فإنّ علمي لا يتكلم إلا عما يحدث، وليس له أن يجيب: لماذا يحدث؟

يتضح من هذه الأسئلة مدى صلاحية العلم الحديث لشرح العلل والأسباب وراء هذا الكون. إن مثل الكون كمثل آلة تدور تحت غطائها، لا نعلم عنها إلا أنها تدور «ولكن لو فتحنا غطاءها فسوف نشاهد كيف ترتبط هذه الآلة بدوائر وتروس كثيرة، يدور بعضها ببعض، ونشاهد حركاتها كلّها. هل معنى هذا أنّنا قد علمنا خالق هذه الآلة بمجرد مشاهدتنا لما يدور بداخلها؟ كيف يفهم منطقياً أن مشاهدتنا هذه أثبتت أن الآلة جاءت من تلقاء ذاتها، وتقوم بدورها ذاتياً؟!»[1].

الطبيعة قوة:

فإن وجد من يقول: إن الطبيعة قوة أوجدت الكون، وإنها قوة حيّة سميعة بصيرة حكيمة قادرة... فإنّنا نقول لهم: هذا صواب وحقّ، وخطؤكم أنكم سمّيتم هذه القوة (الطبيعة)، وقد دلتنا هذه القوة المبدعة الخالقة، على الاسم الذي تستحقه وهو (الله)، الله عرّفنا بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، فعلينا أن نسميه بما سمّى به نفسه سبحانه وتعالى.

كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم:

هؤلاء الذين نسبوا الخلق إلى الطبيعة لهم سلف قالوا قريباً من قولهم، وهم الدهرية الذين نسبوا الأحداث إلى الدهر، فقد شاهدوا أنّ الصغير يكبر، والكبير يهرم، والهرِم يموت بمرور الزمان، وتعاقب الليل والنهار، فنسبوا الحياة

(١) الإسلام يتحدى، لوحيد الدين خان: ٢٩-٣١، وقد ضمّن كلامه نقولاً عن غيره من علماء الغرب.

والموت إلى الدهر ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤].

أولئك نسبوا الأحداث إلى الزمان، وهؤلاء إلى ذوات الأشياء فهما صنوان في الضلال.

٣- نظرية دارون[١]

حاول أصحاب هذه النظرية أن يعللوا بها وجود الأحياء، وقد شاعت هذه النظرية، وعمل كثيرون على نشرها بحسن نية، لظنّهم أنّها حقيقة علمية، وعمل آخرون على نشرها بسوء نية، لأنّها وافقت أهواءهم، فهي تكذب بالأديان التي وصفت خلق الإنسان، وبذلك يجد الطاعنون في الدِّين دليلاً من العلم يرتكزون عليه، ويدلِّسون على النّاس به.

ماذا تقول هذه النظرية؟

تزعم هذه النظرية أنّ أصل المخلوقات حيوان صغير، نشأ من الماء، ثم أخذت البيئة تفرض عليه من التغييرات في تكوينه ممّا أدّى إلى نشوء صفات جديدة في هذا الكائن، أخذت هذه الصفات المكتسبة تورث في الأبناء حتى تحولت مجموع هذه الصفات الصغيرة الناشئة من البيئة عبر ملايين السنين إلى نشوء صفات كثيرة راقية جعلت ذلك المخلوق البدائي مخلوقاً أرقى، واستمر ذلك النشوء للصفات بفعل البيئة والارتقاء في المخلوقات، حتى وصل إلى هذه المخلوقات التي انتهت بالإنسان.

---

(١) كتاب التوحيد، للزنداني: ٣/ ٨١.

أساس النظرية:

١- تعتمد النظرية على أساس ما شوهد في زمن « دارون » من الحفريات الأرضية، فقد وجدوا أنّ الطبقات القديمة تحتوي على كائنات أولية، وأنّ الطبقات التي تليها تحتوي على كائنات أرقى فأرقى. فقال « دارون »: « إنَّ تلك الحيوانات الراقية قد جاءت نتيجة للنشوء والارتقاء من الحيوانات والكائنات الأولى».

٢- وتعتمد أيضاً على ما كان معروفاً في زمن « دارون » من تشابه جميع أجنّة الحيوانات في أدوارها الأولى، فهو يوحي بأنّ أصل الكائنات واحد، كما أنّ الجنين واحد، وحدث التطور على الأرض كما يحدث في أرحام الكائنات الحيّة.

٣- كما تعتمد النظريّة على وجود الزائدة الدودية في الإنسان التي هي المساعد في هضم النباتات، وليس لها الآن عمل في الإنسان مما يوحي بأنّها أثر بقي من القرود لم يتطور؛ لأنها تقوم بدورها في حياة القرود.

شرح « دارون » لعملية التطور وكيف تـمّت:

١- **الانتخاب الطبيعي**: تقوم عوامل الفناء بإهلاك الكائنات الضعيفة الهزيلة، والإبقاء على الكائنات القوية، وذلك ما يسمّى بزعمهم بقانون « البقاء للأصلح»، فيبقى الكائن القوي السليم الذي يورث صفاته القويّة لذريته، وتتجمع الصفات القوية مع مرور الزمن مكوّنة صفة جديدة في الكائن، وذلك هو « النشوء » الذي يجعل الكائن يرتقي بتلك الصفات الناشئة إلى كائن أعلى، وهكذا يستمر التطور، وذلك هو الارتقاء.

٢- **الانتخاب الجنسي**: وذلك بوساطة ميل الذكر والأنثى إلى التزوج بالأقوى والأصلح، فتورث بهذا صفات الأصلح، وتنعدم صفات الحيوان الضعيف لعدم الميل إلى التزاوج بينه وبين غيره.

٣- كلما تكونت صفة جديدة، ورثت في النسل.

تفنيد الأساس الذي قامت عليه النظرية:

علم الحفريات لا يزال ناقصاً، فلا يدّعي أحد أنّه قد كمل التنقيب في جميع طبقات الأرض وتحت الجبال والبحار، فلم يجد شيئاً جديداً ينقض المقررات السابقة.

وعلى فرض ثبات مقررات هذا العلم فإنّ وجود الكائنات الأولى البدائية أولاً، ثم الأرقى ليس دليلاً على تطور الكائنات الراقية من الكائنات الأدنى، بل هو دليل على ترتيب وجود هذه الكائنات فقط عند ملاءمة البيئة لوجودها على أي صورة كان هذا الوجود، وإذا كانت الحفريات في زمن « دارون » تقول: إنّ أقدم عمر للإنسان هو ستمائة ألف سنة، فإنّ الاكتشافات الجديدة في علم الحفريات قد قدّرت أنّ عمر الإنسان يصل إلى عشرة ملايين من السنين.

أليس هذا أكبر دليل على أنّ علم الحفريات متغيّر لا يبنى عليه دليل قطعيّ، وأنّه قد ينكشف في الغد من الحقائق عكس ما كنّا نؤمل؟

ولقد كتب الدكتور مصطفى شاكر سليم تعليقاً على كتاب «الإنسان في المرآة» للمؤلف (كلايد كلوكهون) حول إنسان (يناندرتال) الذي يزعم أنصار نظرية (دارون) أنّه أوّل إنسان تطور من القرود أو الغوريلا. فقال الدكتور مصطفى: ويتصف (إنسان يناندرتال) بالصفات الطبيعية الرئيسة الآتية: مخ أكبر حجماً من مخ الإنسان المعاصر، وجمجمة كبيرة عريضة. إلى أن قال: إلى

جانب أنّ السلسلة التي تغطيها الحفريات مقطعة غير متصلة بما يسمى (الحلقات المفقودة).

يقول الدكتور (سوريال) في كتابه « تصدّع مذهب دارون »:

١- **إنّ الحلقات المفقودة ناقصة بين طبقات الأحياء**، وليست بالناقصة بين الإنسان وما دونه فحسب، فلا توجد حلقات بين الحيوانات الأولية ذات الخلية الوحيدة والحيوانات ذوات الخلايا المتعددة، ولا بين الحيوانات الرخوية وبين الحيوانات المفصلية، ولا بين الحيوانات اللافقرية وبين الأسماك والحيوانات البرمائية، ولا بين الأخير وبين الزحافات والطيور، ولا بين الزواحف وبين الحيوانات الآدمية، وقد ذكرتها على ترتيب ظهورها في العصور الجيولوجية.

٢- **تشابه أجنة الحيوانات**: ذلك خطأ كبير وقع فيه بعض العلماء، نتيجة لعدم تقدم الآلات المكبّرة التي تبين التفاصيل الدقيقة التي تختلف بها أجنة الحيوانات بعضها عن بعض في التكوين والتركيب والترتيب، إلى جانب التزييف الذي قام به واضع صور الأجنّة المتشابهة العالم الألماني (أرنست هيكل) فإنّه أعلن بعد انتقاد علماء الأجنة له أنّه اضطرّ إلى تكملة الشبه في نحو ثمانية في المئة من صور الأجنّة لنقص الرسم المنقول.

٣- **أما وجود الزائدة الدودية في الإنسان** كعضو أثري للتطور القردي فليس دليلاً قاطعاً على تطور الإنسان من القرد، بل يكون سبب وجودها هو وراثتها من الإنسان الجدّ الذي كان اعتماده على النباتات، فخلقت لمساعدته في هضم تلك النباتات، كما أنّ العلم قد يكشف أنّ لها حقيقة لا تزال غائبة عنّا حتى اليوم.

فالعلم كل يوم إلى ازدياد، وإذا كانت الخنوثة من صفات الكائنات الأولية الدنيا، والزوجية من خصائص الكائنات الراقية، فإنّ الثدي من أمارات الأنوثة،

ونجد الفيل الذكر له ثدي كما للإنسان، في حين ذكور ذوات الحافر كالحصان والحمار لا ثدي لها إلا ما يشبه أمهاتها. فكيف بقي أثر الخنوثة في الإنسان، ولم يبق فيما هو أدنى منه؟ مع أنّ (دارون) يزعم أنّ الإنسان تطور مما هو أدنى منه.

تفنيد شرح دارون لعملية التطور:

١- يقول « دارون »: إنّ هناك ناموساً أو قانوناً يعمل على إفناء الكائنات الحية، فلا يبقى إلا الأصلح الذي يورث صفاته لأبنائه، فتتراكم الصفات القوية حتى تكون حيواناً جديداً، حقاً هناك نظام وناموس وقانون يعمل على إهلاك الكائنات الحيّة جميعها قويها وضعيفها، لأنّ الله قدّر الموت على كلّ حي ؛ إلا أنّ نظاماً وناموساً يعمل بمقابلة هذا النظام، ذلك هو قانون التكافل على الحياة بين البيئة والكائن، لأنّ الله قدّر الحياة فهيّأ أسبابها، فنجد الشمس والبحار والرياح والأمطار والنباتات والجاذبية، كلّ هذه وغيرها تتعاون للإبقاء على حياة الإنسان وغيره من الحيوانات.

فالنَّظر إلى عوامل الفناء وغض النظر عن عوامل البقاء يُحدث خللاً في التفكير، فإذا كان هناك سنة للهلاك، فهناك سنة للحياة، ولكلٍّ دورٌ في الحياة، وإذا كانت الظروف الطبيعية: من رياح ورعد وحرارة وماء وعواصف وغيرها قادرة على تشويه الخلق أو تدمير صنعه كطمس عين أو تهديم بناء، فإنّه من غير المعقول أن تقدر هذه الظروف الطبيعية الميتة الجامدة والبليدة أن تنشىء عيناً، لمن لا يملك عيناً، أو تصلح بناء فيه نقص.

إنَّ العقل يقبل أن تكون الظروف الطبيعية صالحة لإحداث الخراب والهلاك، لكنَّه من غير المعقول أن تكون هذه الظروف صالحة لتفسير الخلق البديع

والتصوير والتكوين المنظم المتقن، إن أي عضو من أعضاء الكائنات الحيّة قد رُسم بإتقان، وكوّن بنظام، ورتبت أجزاؤه بحكمة بالغة محيّرة، ونسق عمله مع غيره في غاية الإبداع، ومن المحال أن ينسب ذلك الإتقان والنظام البديع إلى خبط الظروف الطبيعية العشواء.

قال « جمال الدين الأفغاني » في كتابه « الردّ على الدهريين » بعد نقاش لهذه النظرية: وبعد ذلك فإني سائلهم كيف اطلع كلّ جزء من أجزاء المادة مع انفصالها على مقاصد سائر الأجزاء؟ وبأية آلة أفهم كلّ جزء منها بقية الأجزاء بما ينويه من مطلبه؟ وأي (برلمان، أو سينات) - مجلس الشيوخ - عقدت لإبداع هذه المكونات العالمية التركيب البديعة التأليف؟ وأنّى لهذه الأجزاء أن تعلم - وهي في بيضة العصفور - ضرورة ظهورها في هيئة الطير يأكل الحبوب، فمن الواجب أن يكون له منقار وحوصلة لحاجته في حياته؟.

إنّ هذا المبدأ الذي أطلقه (دارون) (البقاء للأصلح) قد دمّر الحياة البشرية، لأنّه أعطى المسوغ لكلّ ظالم فرداً كان أو حكومة، لأنّ الظالم وهو يمارس غصبه وظلمه وحربه ومكره لا يمارس رذائل خلقية، إنّما هو يمارس قانوناً من قوانين الفطرة كما زعم (دارون)، إنه يمارس قانون (البقاء للأصلح)، وذلك الزعم هو الذي أعطى حركة الاستعمار كلّ بشاعتها.

٢- أمّا الانتخاب الطبيعي الذي يكون به الميل في التناسل بين الأفراد القويّة مما سبب اندثار الأفراد الضعاف، وبقاء الأقوى، فليس ذلك دليلاً على حدوث تطور في النوع، بل يفهم منه بقاء النوع القوي من النوع نفسه واندثار النوع الضعيف.

أمّا إذا قيل: إنَّ تطوراً يحدث على كائن ما فإنّه يحدث فيه فتوراً جنسياً؛ لأنّ الألفة بين الذكور والإناث تنقص بقدر التباعد والاختلاف بينهما في

الشكل. ذلك ما يقوله (دوير زانسكي) أشهر المختصين بالجيولوجية النوعية عام ١٩٥٨ م بعد قرن من (دارون)، فمن قوله في هذا: «المخالفة في الشكل تضعف الميل التناسلي منه، فالميل إلى التناسل يضعف بين الأشكال والأنواع المختلفة بقدر ذلك الاختلاف. وليس صحيحاً أنّ الصفات المحسنة في فرد من الأفراد تنقل بوساطة الوراثة.

فمثلاً هذا الحداد القويّ العضلات لا تنتقل قوة عضلاته إلى ذريته، كما أنّ العالم الغزير العلم لا ينتقل علمه بالوراثة إلى أبنائه».

٣- أما القول بحدوث نشوء لبعض الخصائص والصفات العارضة، ثم توريثها في النسل، فذلك ما يرفضه علم الوراثة الحديث. فكلّ صفة لا تكمن في الناسلة، ولا تحتويها صبغة من صبغاتها فهي صفة عارضة، لا تنتقل إلى الذرية بالوراثة.

يقول الأستاذ (نبيل جورج) أحد ثقات هذا العلم: «إنّ الانتخاب الطبيعي لأجل هذا لا يصلح لتعليل مذهب النشوء، أو مذهب التطور ؛ لأنّه يعلل زوال غير الصالح ونشأة المزايا الموروثة بين الأفراد، والقائلون بالطفرة يقصدون أنّ الحيوان الذي لم يكن له عين تتكون له العين فجأة بوساطة بعض الأشعة.

فقد ثبت لدى المختصين أنّ الأشعة السينية تغيّر العدد في الناسلات، لكنّ أثر الأشعة تغيير لما هو موجود، لا إنشاء ما ليس له وجود، فعدد ناسلات القرد غير عدد ناسلات الإنسان، والأشعة لا تؤثر إلا في الناسلات الموجودة فضلاً من أن تحدث هذه الأشعة التي لا عقل لها ولا إدراك عقلاً للإنسان يتميز به عن القرد وغيره من سائر الحيوانات.

إنّ الأشعة تؤثر في الناسلات تأثيراً أقرب إلى التشويه منه إلى الإصلاح كما يحدث من الأشعة الذريّة. وإلى جانب مخالفة علم الوراثة (لنظرية دارون) فإنّ

التجربة تنقضه، فها هم اليهود والمسلمون من بعدهم يختنون أبناءهم، ولكن ذلك كله لم يسبب أن وُلد أطفالهم بعد مرور السنين مختونين، وهكذا فكلما تقدم العلم أثبت بطلان نظرية (دارون).

النظرية لا يؤيدها الواقع المشاهد:

١- لو كانت النظرية حقا لشاهدنا كثيراً من الحيوانات والإنسان تأتي إلى الوجود عن طريق التطور، لا عن طريق التناسل فقط. وإذا كان التطور يحتاج إلى زمن طويل فذلك لا يمنع من مشاهدة قرود تتحول إلى آدميين في صورة دفعات متوالية.

٢- لو سلمنا أنّ الظروف الطبيعية والانتخاب الطبيعي؛ قد طورت قرداً إلى رجل - مثلاً - فإنّا لن نسلم أبداً بأن هذه الظروف قد قرّرت أيضاً أن تكون امرأة لذلك الرجل، ليستمرا في التناسل والبقاء مع الموازنة بينهما.

٣- إن القدرة على التكيف التي نشاهدها في المخلوقات كالحرباء التي تتلون بحسب المكان، هي مقدرة كائنة في تكون المخلوقات، تولد معها، وهي عند بعضها وافرة، وعند بعضها الآخر تكاد تكون معدومة، وهي عند جميع المخلوقات محدودة لا تتجاوز حدودها، فالقدرة على التكيف صفة كامنة، لا صفة متطورة تكونها البيئة كما يزعم أصحاب النظرية، وإلا كانت البيئة فرضت التكيف على الأحجار والأتربة وغيرها من الجمادات.

٤- تمتاز الضفادع على الإنسان بمقدرة على الحياة في البر والماء، كما تمتاز الطيور عليه بمقدرة الطيران والانتقال السريع وذلك بدون آلة، كما أنّ أنف الكلب أشدّ حساسية من أنف الإنسان، فهل أنف الكلب أكثر رقياً من أنف الإنسان؟

وهل الضفادع والطيور أرقى من الإنسان في بعض الجوانب؟

كما أنَّ عين الجمل أو الحصان أو الحمار ترى في النهار وفي المساء على السواء، في حين تعجز عين الإنسان عن الرؤية في الظلام، كما أن عين الصقر أشدّ حدة من عين الإنسان. فهل الصقر أو الحمار أرقى من الإنسان؟ وإذا أخذنا الاكتفاء الذاتي أساساً للرقي كما هو بالنسبة لحال الدول فإنّ النبات يفوق الإنسان وجميع الحيوانات، لأنّه يصنع طعامه وطعام غيره دون أن يحتاج لغذاء من غيره.

وإذا أخذنا الضخامة أساساً للرقي، عندئذ يجب أن يكون الجمل والفيل وحيوانات ما قبل التاريخ الضخمة أرقى من الإنسان.

موقف علماء الطبيعة من النظرية:

١- المؤيدون للنظرية وتأييدهم كان أكثره انتصاراً لحرية الفكر الذي كانت الكنيسة تحاربه وتقاومه، فقد شن علماء الطبيعة حرباً ضد قسس الكنيسة وأفكارهم بعد أن نشبت حرب طاحنة بين الفريقين.

٢- المعارضون، وهم المطالبون بدليل محسوس على فعل (الانتخاب الطبيعي) في تحويل الأنواع، ولا سيما نوع الإنسان، فالمعترضون عليه طلباً للأدلة الطبيعية لا يقلون عدداً أو اعتراضاً عن المعترضين اللاهوتيين في أوربا.

وهذه بعض آراء العلماء المعارضين كما نقلها الأستاذ إبراهيم حوراني: «إنّ العلماء لم يثبتوا مذهب «دارون» بل نفوه، وطعنوا فيه، مع علمهم أنّه بحث فيه عشرين سنة». ومنهم العلامة «نشل»، والعلامة «دلاس» قال ما خلاصته: «إنَّ الارتقاء بالانتخاب الطبيعي لا يصدق على الإنسان، ولا بد من القول بخلقه رأساً».

ومنهم «فرخو» قال: «إنّه يتبين لنا من الواقع أن بين الإنسان والقرد فرقاً بعيداً، فلا يمكننا أن نحكم بأنّ الإنسان سلالة قرد أو غيره من البهائم، ولا يحسن أن نتفوّه بذلك».

ومنهم «ميفرت» قال بعد أن نظر في حقائق كثيرة من الأحياء: «إنّ مذهب «دارون» لا يمكن تأييده، وإنّه من آراء الصبيان».

ومنهم العلامة «فون بسكون» قال بعد أن درس هو و«فرخو» تشريح المقابلة بين الإنسان والقرد: «إنّ الفرق بين الاثنين أصلي وبعيد جداً..».

ومنهم العلامة «أغاسيز» قال في رسالة في أصل الإنسان تليت في ندوة العلم الفيكتورية، ما خلاصته: إنّ مذهب (دارون) خطأ على باطل في الواقع، وأسلوبه ليس من العلم في شيء، ولا طائل تحته.

ومنهم العلامة «هكسلي» وهو من (اللاأدرية) وصديق (لدارون) قال: إنّه بموجب ما لنا من البينات لم يثبت قط أن نوعاً من النبات أو الحيوان نشأ بالانتخاب الطبيعي أو الانتخاب الصناعي.

ومنهم العلامة «تندل» وهو مثل «هيكل» قال: «إنّه لا ريب في أنّ الذين يعتقدون بالارتقاء يجهلون أنّه نتيجة مقدمات لم يعلم بها، ومن المحقق عندي أنه لا بدّ من تغيير مذهب (دارون)».

نظرية لا حقيقة:

لذلك كله فقد أطلق على ما قاله (دارون) بشأن التطور (نظرية التطور)، وهناك فرق كبير لدى العلماء بين النظرية والحقيقة أو القانون. فالنظرية في اصطلاحهم هي ما تحتمل التصديق والتكذيب، أما الحقيقة أو القانون فلا يحتمل وجهاً من أوجه الباطل.

لماذا انتشرت إذن؟

سبب انتشار هذه النظرية هو مَجيئُها في وقت أذن الله فيه أن يظهر باطل ذلك الدّين المحرف المغير (النصرانية) على أيدي جماعة من أبنائه، فكان لتقدم العلوم أثر كبير في كشف زيف ذلك الدين، مما أدّى إلى نشوب معركة ضارية ذهب ضحيتها آلاف من علماء الطبيعة، وفي المعترك الحامي أخذ كل فريق في استخدام كل سلاح ضد خصمه، فانتشرت هذه النظرية سلاحاً أشهره علماء الطبيعة في وجه دينهم، ثمّ في وجه كلّ دين وطئت أقدامهم المستعمرة أرضه ؛ لاعتقادهم بصدق هذه النظرية، وانتقاماً من ذلك الدّين الباطل الذي وقف حجر عثرة أمام البحث في ميادين العلوم الطبيعية، ثم وسيلة لتحطيم أديان الأمم المستعمرة حتى يسهل على المستعمرين السيطرة على هذه الشعوب.

وهكذا فرض التعليم الاستعماري هذه النظرية بعد أن حطم دينها في مناهج الدراسة، وقدمها في ثوب (علمي) حتى يستطيع أن يقنع الطلاب بصدق هذه النظرية ليقرر ما ألقي في أذهان الطلاب من خلاف بين العلم الذي زيفوه والدّين، فيكفر الناس بدينهم.

ويكفي أن يعرف القارىء أنّه بوساطة هذه النظرية انحرف كثير من أبناء الإسلام عن دينهم، ولذلك فقد حرص الاستعمار على تعليم هذه النظرية لأبناء المسلمين في مدارسنا في الوقت الذي يحرّم فيه القانون الأمريكي تعليم هذه النظرية في المدارس منذ سنة ١٩٣٥م.

ولكن أوربا بعد أن قضت على دينها المحرف عادت لتعلن أنّ نظرية (دارون) التي استخدمتها في المعركة لدعم موقفها ليست حقيقة علمية، وإنما هي نظرية كلما تقدمت العلوم كشفت عن باطلها.

القرآن ونظرية دارون:

حين يتكلم القرآن في الحقائق الأزلية فعلى الناس أن يصغوا وينصتوا ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، لأنه من العليم الخبير الذي أحاط بكل شيء علماً، وما علم الإنسان! إنّه لا شيء بجانب علم الله ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وكيف لا يعلم أمر خلقه وهو الذي خلقهم ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

وكيف يسمح النّاس لأنفسهم أن يتحدثوا عن أصلهم البعيد وهم لم يشهدوا ذلك الخلق ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف: ٥١].

وما داموا لم يشهدوا، فإنّ صوابهم في هذا المجال قليل، وخطؤهم كثير.

عكس هذه النظرية هو الصواب:

الذي يقرره العليم الخبير خالق الإنسان مخالف تماماً لما قرره هؤلاء الجاهلون، فالله يخبرنا أنّه خلق الإنسان خلقاً مستقلاً مكتملاً، وقد أخبر ملائكته بشأن خلقه قبل أن يوجده ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

وحدثنا عن المادة التي خلقه منها، فقد خلقه من تراب ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥].

وفي الحديث عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: سمعت رسول

الله ﷺ يقول: (إنّ الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، منهم الأحمر والأبيض والأسود، وبين ذلك، والسهل والحزْنُ، والخَبِيثُ والطيبُ)[1].

والماء عنصر في خلق الإنسان ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ [النور: ٤٥]، فهو من ماء وتراب: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ [الأنعام: ٢].

هذا الطين تحوّل إلى صلصال كالفخار ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤].

وقد خلقه الله بيديه ﴿قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥].

وقد خلقه مجوّفاً منذ البداية، ففي الحديث عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: (لما صَوَّرَ الله آدَمَ فِي الجَنَّةِ تركَهُ مَا شَاءَ الله أنْ يَتْرُكَهُ، فَجعَلَ إبليسُ يَطيفُ بهِ يَنْظرُ، فَلَمّا رَآهُ أجْوفَ عَرَفَ أنّه خُلِقَ خلقاً لاَ يتمالك)[2].

هذا الطين نفخ الله فيه من روحه، فدبّت فيه الحياة، فأصبح سميعاً بصيراً متكلماً عاقلاً واعياً، فقد أمر الله الملائكة بالسجود لآدم حين ينفخ فيه الروح، وتدبّ فيه الحياة ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ﴾ [ص: ٧٢].

وأخبرنا الله بالمكان الذي أسكنه فيه بعد خلقه ﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥].

وبمجرد أن تمّ خلقه أخذ يتكلم ويفقه ما يقال له، ففي القرآن ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ * قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ * قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم

(١) رواه أحمد والترمذي وأبو داود (مشكاة المصابيح: ١/ ٣٦. ورقمه: ١٠٠).
(٢) صحيح مسلم: ٤/ ٢٠١٦، ورقمه: ٢٦١١.

بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ [البقرة: ٣١-٣٣].

وفي حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (لـمّا خَلقَ الله آدَمَ وَنَفَخَ فيهِ الرُّوحَ عَطسَ، فَقَالَ: الحَمْدُ لله، فَحَمِدَ الله بِإِذْنِهِ، فَقَالَ لَهُ رَبّهُ: يَرحَمُكَ الله يَا آدَم، اذْهَبْ إلى أولئكَ الملائِكةِ - إلى مَلأٍ مِنْهُمْ جُلوسٌ فَقُلْ: السّلامُ عَلَيْكُمْ. قَالوا: عَليْك السّلامُ وَرَحْمَةُ الله..)[1].

هذا الإنسان الأول هو آدم وهو أبو الناس كافة، وخلق الله من آدم زوجه حواء، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١].

ولم يكن خلق الإنسان ناقصاً ثم اكتمل، كما يقول أصحاب نظرية التطوّر؛ بل كان كاملاً، ثمّ أخذ يتناقص الخلق، ففي الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: (خلق الله آدَمَ وَطولُهُ: سِتّونَ ذِراعاً)[2].

ولذلك فالمؤمنون يدخلون الجنّة مكتملين على صورة آدم، ففي بقية الحديث السابق: (فَكُلّ مَنْ يَدخُلُ الجنّةَ عَلى صُورَةِ آدَمَ وطوله ستون ذراعاً)، ثم يقول ﷺ: (فلم يَزَل الخلقُ يَنْقُصُ بعده حَتّى الآن)[3].

وقد أخبرنا الحق أنه مسخ بعض الضالين من البشر قردة وخنازير، فالمستوى الراقي من الخلق يمكن أن ينحدر إلى المستوى الأدنى، أمّا أن تُحوّل القرود والخنازير بشراً فهذا لا يوجد إلا عند أصحاب العقول الضعيفة.

---

(١) رواه الترمذي: مشكاة المصابيح: ٢/ ٥٤٢، ورقمه: ٤٦٦٢. وقال محقق المشكاة: صححه الحاكم ووافقه الذهبي. وهو كما قالا.

(٢) صحيح البخاري: ٦/ ٣٦٢، ورقمه: ٣٣٢٦، ورواه مسلم في صحيحه: ٤/ ٢١٨٣، ورقمه: ٢٨٤١، واللفظ للبخاري.

(٣) المصدران السابقان، إلا أن اللفظ هنا لمسلم.

هذه لمحة مما حكاه القرآن وأخبرت به الأحاديث عن خلق الإنسان الأول، لم نستقص النصوص من الكتاب والسنّة في ذلك، وإلا فالقول في ذلك واسع وطويل، وهو يعطي صورة واضحة لأصل الإنسان ليس فيها غبش ولا خيال، وهذا الذي يبيّنه الإسلام أصل كريم يعتز الإنسان بالانتساب إليه، أمّا ذلك الإنسان الذي يصوّره أصحاب نظرية التطور، ذلك القرد الذي ترقى عن فأر أو صرصور فإنّه أصل يخجل الإنسان من الانتساب إليه.

وذلك الإنسان الذي يُدَرّسه علماء التاريخ للأطفال: الإنسان المتوحش الذي لا يفقه الكلام، ولا يحسن صنع شيء، الذي يتعلم من الحيوان... فيه الكثير من التجني على أصل الإنسان الكريم.

وبعد:

فقد آن لنا أن نفيق وأن نعود إلى ديننا الذي جاء به كتاب ربنا، ففيه الخير (فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من ابتغى الهدى من غيره أضله الله...).

آن لنا أن نعِفّ عن نتاج العقول الآسنة المتعفنة في مثل هذه المجالات، أعني المجالات التي قال الله فيها كلمة الفصل، ولم يترك لأحد فيها قولاً.

يجب أن تتوقف هذه الهزيمة الفكرية التي تجعلنا نسارع إلى قبول كل جديد بدون رويّة وتفكر، ثم لا نفيق على خطأ ما أخذناه إلا بعد أن يهدمه بناتُه.

الفصل الثاني
التعريف بالله وربط القلوب به

تمهيد:

ما كان لنا أن نطيل في عرض المسألة الأولى لولا ما أثير حولها من شكوك وشبهات تقتضي من الباحث أن يبين عوارها.

وقد آن لنا أن نبسط القول في المسألة الثانية، وهي أهم مسائل هذا الباب، وصلب هذه المباحث.

وقد سبق أن قررنا أن القرآن سلك سبيلين لتقرير هذه الحقيقة الكبيرة:

الأولى: الحديث عن بديع صنع الله في خلقه، وبيان ما في هذا الكون من إعجاز يشي بعظمة الخالق سبحانه.

الثانية: الحديث المباشر عن الله: ذاته، وأسمائه، وصفاته، ونعمه ومخلوقاته، وسنحاول - إن شاء الله تعالى - أن نفصل القول في ذلك، والله المستعان.

المبحث الأول

دلالة الآيات الكونية على خالقها ومبدعها

المطلب الأول: منهج القرآن في الاستدلال بالآيات الكونية

١- ارتياد الكون عبر آيات القرآن

يأخذنا القرآن في جولات وجولات نرتاد آفاق السماء، ونجول في جنبات الأرض، ويقف بنا عند زهرات الحقول، ويصعد بنا إلى النجوم في مداراتها، وهو في كلّ ذلك يفتح أبصارنا وبصائرنا، فيرينا كيف تعمل قدرة الله وتقديره في المخلوقات، ويكشف لنا أسرار الخلق والتكوين، ويهدينا إلى الحكمة من الخلق والإيجاد والإنشاء، ويبين عظيم النعم التي حبانا بها في ذوات أنفسنا وفي الكون من حولنا.

إنه حديث طويل في كتاب الله يطالعك في طوال سوره وقصارها، وهو حديث مشوق تنصت إليه النفس، ويلذه السمع، ويستثير المشاعر والأحاسيس.

ولقد طالعت الكثير مما توصل إليه العلم والعلماء في شتى جوانب الحياة يبينون أسرار الخلق، ودلالة الخلق على الخالق، فما وجدت في شيء من ذلك كلّه ما وجدته في القرآن من جمال وصف، ووفرة علم، واستثارة مشاعر، وحسن توجيه، ودقة استنتاج، وكيف لا يكون كذلك وهو تنزيل الحكيم الحميد !!

فعل الله في الكون:

تعال معي لنقوم بجولة مع الآيات القرآنية ؛ نرتاد هذا الكون ليرينا كيف تعمل قدرة الله في مختلف أرجاء الكون: في الحبّة تلقى في التربة فتنفلق، وتضرب بجذورها في التربة، فيخرج من الحبّة الجامدة حياة تتمثل في سوق، وأوراق، وأزهار تفوح بالشذى، وثمار يتغذى بها الإنسان والحيوان. وفي الإصباح وهو ينبلج... وفي سكون الليل.. ومسير الشمس والقمر.. ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ * فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [الأنعام: ٩٥-٩٦].

وانظر إلى مشهد السحاب كيف يصنعه الله، والبرد كيف يكوّنه ويصرفه ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۚ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [النور: ٤٣].

ويحدثنا الله عن فعله في الظلّ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ ۖ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا * ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ [الفرقان: ٤٥-٤٦].

وانظر إلى تصريفه شؤون الحياة والأحياء والليل والنهار: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ ۖ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٢٦-٢٧].

لا يكتفي القرآن بأن يرينا قدرة الله وهي تعمل في الكون، وعلمه يحيط

بالمخلوقات، وتصريفه للشؤون المختلفة... ولكنّه - مع ذلك - يعرفنا بالغاية التي خلق الكون من أجلها.

خلق الله هذه الأرض من أجل الإنسان ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] خلقها لنا على نحو يتوافق مع طبيعتنا وتكويننا ويحقق لنا الصلاح، وهذا ما سماه القرآن بالتسخير.

وهو لا يخبرنا بذلك مجرد إخبار، وإنّما يوقفنا على هذا التسخير الذي جعله الله في الكون، ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [لقمان: ٢٠] فالنجوم خلقت لنهتدي بها في ظلمات البر والبحر: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧].

والأرض والسماء، وإنزال الماء من السماء، والسفن السابحة في البحر، والأنهار الجارية في جنبات الأرض، والشمس والقمر، وتعاقب الليل والنهار... كلّ ذلك مخلوق لنا ولخيرنا ولصلاحنا ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ * وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ﴾ [إبراهيم: ٣٢-٣٤].

٢- نعم الله في الكون

عرّفنا القرآن بأنّ الله خلق هذا الكون وسخّره لنا، فجعله متوافقاً مع جبلتنا، وقدّره تقديراً تصلح به حياة الإنسان، والقرآن يتخذ من هذا الحديث والبيان سبيلاً ليشكر الإنسان ربّه، إذ الإنسان مفطور على حب من أحسن إليه ﴿ هَلْ

جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

ولذلك فقد أفاض القرآن في ذكر النعم التي حباها الله عباده في ذوات أنفسهم ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: ٢٣]، وفي الكون من حولهم: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ * وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ١٠-١٣].

وخلق لنا الشمس والقمر على نحو يحقق النفع والصلاح ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ﴾ [يونس: ٥].

والأنعام من الجمال والأبقار والأغنام، وكذلك الخيل والبغال والحمير خلقها لنا على نحو يفيدنا ويتناسب مع طبائعنا وتكويننا ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ * وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٥-٨].

والبحر مخلوق لنا أيضاً، وفي خلقه على ما هو عليه ما يحقق لنا الشيء الكثير ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤].

والنحل خلقه الله ليقوم بذلك العمل الرائع، ليتتج لنا ذلك الشراب المختلف الألوان، ليتغذى به البشر، ويكون لهم شفاء ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ

﴿ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٨-٦٩].

التعرف على الله من خلال آياته الكونية سبيلٌ حثَّ عليه القرآن:

حث القرآن عباد الله على النظر في آيات الله الكونية: الأرض، والسماء، وما فيهما وما بينهما، وجعل النظر والتأمل في ذلك من الذكرى التي تنفع المؤمنين.

وقد أعجبني تسمية بعض المعاصرين لهذا المنهج (بقانون السير والنظر) لكثرة حث الآيات القرآنية على ذلك، وقد يكون السير والنظر حسيّان، فيسير المرء بقدميه، وينتقل من بلد لآخر، كما قد يكون النظر بالبصر، وقد يكونان بالفكر والعقل.

وقد جاء الأمر في القرآن أمراً عاماً ﴿قُلِ ٱنظُرُوا مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]. وقد يأتي أمراً خاصاً ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق: ٥]، ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ [عبس: ٢٤].

٣- استدلال القرآن بالآيات الكونية على استحقاق الخالق الربوبية والألوهية وبطلان ما يعبد من دون الله

يتخذ القرآن من الآيات الكونية مادة يناقش بها المشركين، ويقيم بها الحجة عليهم ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ * وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ *

وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠-٣٣].

ويبين لهم فساد معتقداتهم في معبوداتهم، فهي لا تملك صفات الربوبية والألوهية التي تستحق أن تعبد بها، وتتخذ آلهة من دون الله: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ * أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل: ٥٩-٦٤]

إنّ الآيات تبين عدم صلاحية الآلهة المدعاة للعبادة، فالله وحده الخالق للسماء والأرض، المنزل للماء من السماء، والمنبت به الحدائق التي تسرّ النفس، وتبهج النظر، وهو الذي جعل الأرض قراراً وسيّر خلالها الأنهار، وثبتها بالجبال. . . ، فهو المعبود الحق، وغيره لم يفعل شيئاً، فلا يستحق أن يعبد من دون الله.

وعلينا أن نستخدم هذا النوع من الاستدلال في مواجهة الكفرة والملحدين، فقد استخدمه الرسل من قبل، وأكثروا من الاحتجاج به، فهذا إبراهيم خليل الرحمن يناقش الملحد، ويقيم عليه الحجة بهذا النوع من الاستدلال بحيث يخرس لسانه ويدهش فكره ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ

ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وهذا موسى كليم الله يستخدم الاستدلال نفسه في مواجهة طاغية عصره فرعون، ولا يزال يأتيه بالدليل في إثر الدليل حتى يعجزه، فيلجأ إلى التهديد والوعيد: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ * قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ * قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣-٢٩].

بل إن هذا النوع من الاستدلال طريقة جميع الرسل، ارجع إلى سورة إبراهيم (آية ٩، ١٠) واقرأ ما قالته الأقوام المكذبة قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم، ثم إجابة الرسل حيث قالوا: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم﴾ [إبراهيم: ١٠].

فاستدلوا على صدق دعوتهم بأن الله - سبحانه - فاطر السموات والأرض أي موجدهما وخالقهما.

الكفر مُستَنكَر مستعجب مع وضوح الأدلة:

ولذلك يسأل القرآن سؤالاً يشي بالعجب من كفر الكافرين مع وضوح الأدلة والبراهين ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨].

ويسأل في آية أخرى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ * ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ * فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٦-٨].

إن مقتضى نظر الإنسان في نفسه وفي الكون من حوله يوجب عليه التوجه إلى خالقه وتعظيمه، ولذلك كان غريباً كفر الكافرين، وجحد الجاحدين ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا * أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا * وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح: ١٣-١٨].

٤- الذين ينتفعون بآيات الكون هم أولو الألباب

إن آيات الله في الكون لا تتجلى على حقيقتها الموحية إلا للقلوب الذاكرة العابدة؛ لأن هذه القلوب انكشفت عنها الحجب وتفتحت واتصلت بالكون العجيب، فالقرآن أقام الوصلة بين القلب البشري وإيقاعات هذا الكون الهائل الجميل، وهذه الوصلة هي التي تجعل للنظر في كتاب الكون والتعرف إليه أثراً في هذا القلب البشري، وقيمة في الحياة البشرية. هذه هي الوصلة التي يقيمها القرآن بين المعرفة والعلم وبين الإنسان الذي يعلم ويعرف، ولذلك نصّ القرآن على أن الذي يهتدي بآيات الكون هم صنف معين من الناس ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

هؤلاء هم الذين ينتفعون بآيات الكون، لأنهم لم يقفوا عند حدود المنظر المشهود البادي للعيان ؛ بل نظروا إلى اليد التي تسيره والقدرة التي تصنعه، إنهم يستخدمون أبصارهم وأسماعهم وعقولهم وأفكارهم على خير وجه في هذا المجال، مسترشدين بآيات الكتاب التي تعين السمع والبصر والفكر والعقل على التوصل إلى خير ما يمكن للإنسان أن يصل إليه ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ

أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ * وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢١-٢٤].

فالآيات تتكشف للذين يتفكرون ويسمعون ويعقلون ؛ أي على وجه الحقيقة المؤدية إلى المطلوب.

أما الكفار فإنهم يشاهدون الحدث ولا يتجاوزونه بعقولهم وأفكارهم إلى صانعه وخالقه، ولا يدركون الحكمة من وراء الخلق ﴿يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الروم: ٧].

ولذلك لم ينتفعوا بالآيات الكونية ؛ لأنهم لم ينظروا إليها من خلال المنظار القرآني: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠].

ولذلك فإن القرآن ينكر على الكافرين والجاحدين تركهم النظر والاعتبار ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

٥- العلوم الحديثة تقطع الوشيجة بين الناس والكون

يقول سيد قطب - رحمه الله -: «إن مناهج البحث التي يسمونها «علمية» في هذا الزمان تقطع ما وصل الله من وشيجة بين الناس والكون الذي يعيشون فيه.

فالناس قطعة من هذا الكون لا تصح حياتهم ولا تستقيم إلا حين تنبض قلوبهم على نبض هذا الكون، وإلا حين تقوم وثيقة بين قلوبهم وإيقاعات هذا الكون الكبير، وكل معرفة بنجم من النجوم، أو فلك من الأفلاك، أو خاصة من خواص النبات والحيوان، أو خواص الكون كله على وجه الإجمال، وما فيه من عوالم حية وجامدة -إذا كانت هناك عوالم جامدة- أو أي شيء واحد جامد في هذا الوجود !

كل معرفة «علمية» يجب أن تستحيل في الحال إلى إيقاع في القلب البشري، وإلى ألفة مؤنسة بهذا الكون، وإلى تعارف يوثق أواصر الصداقة بين الناس والأشياء والأحياء، وكل معرفة أو علم أو بحث يقف دون هذه الغاية الحية الموحية المؤثرة في حياة البشر، هي معرفة ناقصة، أو علم زائف، أو بحث عقيم.

إن هذا الكون هو كتاب الحق المفتوح الذي يقرأ بكل لغة، ويدرك بكل وسيلة، ويستطيع أن يطالعه الساذج ساكن الخيمة وساكن الكوخ، والمتحضر ساكن العمائر والقصور، كل يطالعه بقدر إدراكه واستعداده، فيجد فيه زاداً من الحق، حين يطالعه بشعور التطلع إلى الحق، وهو قائم مفتوح في كل آن ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٨].

ولكن العلم الحديث يطمس هذه التبصرة، أو يقطع الوشيجة بين القلب البشري والكون الناطق المبين، لأنه في رؤوس مطموسة رانت عليها خرافة (المنهج العلمي)، المنهج الذي يقطع ما بين الكون والخلائق التي تعيش فيه.

والمنهج الإيماني لا ينقص شيئاً من ثمار «المنهج العلمي» في إدراك الحقائق المفردة، لكنه يزيد ربط هذه الحقائق المفردة بعضها ببعض، وردها

إلى الحقائق الكبرى، ووصل القلب البشري بها، أي وصله بنواميس الكون وحقائق الوجود، وتحويل هذه النواميس والحقائق إلى إيقاعات مؤثرة في مشاعر الناس وحياتهم، لا معلومات جامدة جافة متحيزة في الأذهان لا تفضي لها بشيء من سرّها الجميل، والمنهج الإيماني هو الذي يجب أن تكون له الكرة في مجال البحوث والدراسات ليربط الحقائق العلمية التي يهتدى إليها، بهذا الرباط الوثيق. .»[1].

٦- دلالة الخلق على صفات الخالق

إذا نظرنا إلى آلة دقيقة الصنع، بديعة التكوين، غاية في القوة والمتانة، تقوم بعملها على خير وجه، فلا بدّ أن ندرك بلا كثير تفكير أن صانعها يتصف بصفة الحياة والعلم ولديه قدرة وإرادة. . . إلى آخر تلك الصفات التي تنبئنا عنها الآلة.

وهذا الكون يشي ويعرّف بكثير من صفات الخالق، فمن ذلك:

قدرته وعلمه: هذا الكون الهائل الضخم الشاسع الواسع السائر وفق نظام دقيق لا بدّ أن يكون صانعه قديراً عليماً، والله خلق الخلق بهذا التكوين الهائل وهذا النظام الكامل ليعرفنا بقدرته وعلمه ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

ولا بد أن يكون العلم الذي يحكم هذا الكون شاملاً كاملاً ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

---

(١) في ظلال القرآن: تفسير سورة (ق)، آية ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾.

وهو حكيم: فالنظر في هذا الكون يشي بأنّه محكم متقن قد وضع كلّ شيء منه في موضعه المناسب، وخُلق بالمقدار المناسب، في غاية الجودة والإتقان ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ﴾ [النمل: ٨٨]، ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة: ٧].

ولذلك فإن الناظر المتبصر في خلق الله لا يرى إلا الكمال والإتقان، ولو بحث عن عيب في الخلق لأعجزه ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣-٤].

صفات أُخرى: ما ذكرناه من دلالة الخلق على بعض صفات خالقه أردنا به التمثيل، لا الحصر والاستقصاء، وهو تمثيل يفتح الباب للاستدلال والبحث، وإلا ففي الكون الكثير من الآيات الدالة على عظمة الله وعزته ولطفه، واستمع إلى الصفات الإلهية التي ذكرها الله في ختام كلّ آية من الآيات التالية ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ * لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج: ٦٣-٦٥].

٧- الله وحده المستحق للعبادة

الهداية التي يجلبها النظر والتفكر في الآيات الكونية توجه إلى عبادة الله وحده، فالله وحده هو الخالق المدبر المقيم للسموات والأرض الرازق المحيي المميت...؛ لذلك فهو المستحق للعبادة دون سواه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * ٱلَّذِى

جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣].

وبهذا الطريق - كما سبق - أثبت القرآن بطلان الآلهة المدعاة وعدم استحقاقها شيئاً من العبادة ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [لقمان: ١٠-١١].

ولذلك فإنه يذكّر خلقه بالآيات الكونية وتصريفه الأمور وتدبيره الشؤون ثم يعقب على ذلك في كثير من آي القرآن بقوله: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ [الزمر: ٦] أي ذلكم الإله الذي يستحق العبادة دون سواه.

استمع إلى هذه الآيات وتأمل التعقيب عليها: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ * خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ [الزمر: ٥-٦]

المطلب الثاني: العلماء يبينون عجائب صنع الله في خلقه

وكان العلماء ولا يزالون يبينون عجائب صنع الله في خلقه، ويعظون أنفسهم بذلك، كما يعظون غيرهم، وسننقل طرفاً مما توصل إليه العلماء في هذا المجال في القديم والحديث.

وأحب أن يضع القارىء نصب عينيه وهو يقرأ هذه المقتطفات قول موسى لفرعون: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]. فالله أعطى كل شيء خلقه الذي يناسبه، وهداه لما فيه صلاحه..، وسنرى نماذج من هذا الإعطاء وتلك الهداية.

١- تكون الأجسام من الخلايا وانقسامها

أ - مم تتكون أجسام الأحياء وكيف؟

يقول باحث معاصر هو الدكتور يوسف عز الدين مجلياً هذا الموضوع: «معظم الحيوانات والنباتات تتكون من عدد هائل من تلك الوحدات الدقيقة الحجم التي نسميها (الخلايا)، كما يتكون المبنى من مجموعة من الأحجار المرصوصة».

ب - لماذا تنقسم الخلايا دائماً؟

ويتابع الدكتور يوسف عز الدين كلامه مبيناً السر في انقسام الخلايا فيقول: «وخلايا أجسامنا وأجسام غيرنا من الحيوانات دائمة الانقسام، وذلك الانقسام قد يكون لنمو الجسم، أو لتعويض ما يفقد أو يموت من الخلايا لأسباب عديدة. وكلّ خلية من هذه الخلايا تتكون أساساً من مادة عجيبة نطلق عليها اسم «البروتوبلازم».

وتوجد بداخل كل خلية محتويات عديدة ذات وظائف محددة، ومن هذه

المحتويات أجسام دقيقة تحمل عوامل وراثية هي التي نطلق عليها اسم « الكروموسومات».

وعدد هذه « الكروموسومات » ثابت في خلايا كلّ نوع من أنواع الحيوانات والنباتات المختلفة، فعددها في خلايا القط - مثلاً - يختلف عن عددها في خلايا الكلب أو الفيل أو نبات الجزر أو الفول.

وفي كل خليّة من الخلايا التي يتكون منها جسم الإنسان يوجد ستة وأربعون من هذه (الكروموسومات).

وعندما تنقسم الخلية إلى خليتين داخل أجسامنا فإنّ كلّ خلية جديدة لا بدّ أن تحتوي على العدد نفسه من (الكروموسومات)، وهي ستة وأربعون، إذ لو اختل هذا العدد لما أصبح الإنسان إنساناً. والخلايا كما ذكرت دائمة الانقسام، يحدث هذا في جميع ساعات اليوم حتى في أثناء نومنا، ونحن حتى الآن لا ندرك حقيقة القوى المهيمنة على هذه العملية المذهلة: عملية انقسام الخلايا، بل يكتفي العلم بوصف الخطوات العملية التي يمكن ملاحظتها تحت عدسات (الميكروسكوب) العادي أو عن طريق (الميكروسكوب الإلكتروني) الذي يكبر الأشياء تكبيراً أكثر بكثير من تكبير الميكروسكوب العادي ».

جـ - لماذا تختلف الخلايا التناسلية عن غيرها؟

وذكر الدكتور يوسف: « أن جميع الخلايا الناتجة عن عمليات الانقسام في جسم الإنسان لا بدّ أن تحتوي على ستة وأربعين (كروموسوماً) فيما عدا نوعين من الخلايا، هما الخلايا التناسلية، أي الحيوان المنوي في الذكر والبويضة في الأنثى، وعندما تنقسم خلايا الأنسجة لتكوين هذه الخلايا التناسلية فإنها تنتج خلايا لا تحتوي على الستة والأربعين (كروموسوماً)، بل تحتوي على نصف هذا العدد، أي يصبح في كل خلية تناسلية ذكرية أو أنثوية ثلاثة وعشرون (كروموسوماً) فقط ».

ثم بين لماذا يحدث ذلك، فقال: «يحدث هذا لحكمة بالغة ولهدف عظيم، إذ إنّ الخلية الذكرية (الحيوان المنوي) لا بدّ أن تندمج مع الخلية الأنثوية (البويضة) لتكوين أول خلية في جسم الجنين، وهي التي نطلق عليها اسم (الخلية الملقحة)، حيث ينضم الثلاثة والعشرون (كروموسوماً) التي في الخلية الذكرية إلى الثلاثة والعشرين (كروموسوماً) التي في الخلية الأنثوية لكي يعود عدد (الكروموسومات) في الخلية الجديدة إلى العدد الأصلي،وهو ستة وأربعون (كروموسوماً).

وهذه الخلية الملقحة التي أصبحت تحتوي على ستة وأربعين (كروموسوماً) توالي انقسامها، فتصبح خليتين، ثم أربع خلايا، ثم ثماني خلايا وهكذا، حتى يتم تكوين الجنين الذي يخرج من رحم أمه، ويستمر نموه عن طريق انقسام الخلايا حتى يصبح إنساناً كامل النمو في كلّ خلية من خلاياه ستة وأربعون (كروموسوماً) كما هو الحال في خلايا جسد أبيه وأمه وأجداده وجميع أفراد الجنس البشري».

«إنَّ اختزال عدد (الكروموسومات) إلى النصف عند تكوين الخلايا التناسلية بالذات لكي تندمج فيعود العدد الأصلي (للكروموسومات) في الخلايا لا يمكن مطلقاً أن يكون نتيجة مصادفة عمياء، بل لا بدّ أن يكون نتيجة تقدير دقيق من قوة عليا تعلم ماذا تفعل.

وهي في الوقت نفسه لا يمكن أن تخضع للتجربة واحتمال الخطأ، إذ لو حدث خطأ مرة واحدة عند بدء الخلق لقضي على الكائن الحي قبل تكوين الجيل الثاني. أي أنّ هذا الترتيب لا بد أن يكون قد تم منذ تكوين أول جنين ظهر في الوجود، ألا يكفي هذا وحده دليلاً على وجود قوة عليا مدبرة مقدرة حكيمة؟».

د - لماذا لا تنقسم خلايا المخ؟

أما النوع الآخر من الخلايا التي تخالف بقية خلايا الجسم فهي خلايا الدماغ، وهي تخالف بقية الخلايا في كونها لا تنقسم، وعن السر في عدم

انقسامها يقول الدكتور يوسف عز الدين:

«لا يمكن أن يكون عن طريق التجربة واحتمال الخطأ والصواب أن الخلايا الوحيدة التي لا تنقسم هي الخلايا العصبية التي يتكون منها المخ وباقي الجهاز العصبي، لو انقسمت كما يحدث لباقي الخلايا لحدثت كارثة مروعة، إنّ خلايا المخ في هذه الحالة لن يمكنها الاحتفاظ بشخصية الإنسان، وسوف تتلاشى جميع معالم الذاكرة في خلال ساعات قلائل.

إنَّ عدد خلايا المخ عند ولادة الإنسان أو أي حيوان آخر لا تزيد عليها خلية واحدة حتى وفاته، بينما نجد أنّ الكرات الدموية الحمراء التي تسبح في الدم، ما هي إلا خلايا تموت، ويحلّ محلها خلايا جديدة كلّ نحو مائة يوم. وتتكون الخلايا الحمراء (الكرات الحمراء) في نخاع العظام، ثم تنطلق لكي تسبح في تيار الدم؛ لتحل محل الخلايا التي استهلكت».

هـ- السر في تفاوت قوة عضلات الجسم.

ويتحدث الدكتور عن هذا الموضوع فيقول: «أقوى عضلات في جسم الإنسان أو الحيوانات الثديية هي عضلات الرحم عند الأنثى، تلك التي تدفع الجنين ليخرج من بطن أمه، إذ لو لم تكن هذه العضلات بهذه القوة منذ بدء خلق الإنسان أو غيره من الحيوانات لما خرج إلى الوجود أول جنين من بطن أمه.

وتلي عضلات الرحم في القوة عضلات القلب والفكين، فعضلات القلب لا بد أن تكون قوية لتصمد للعمل ليلاً ونهاراً لدفع الدم إلى الأوعية الدموية لمدة قد تطول لأكثر من مائة عام، وكذلك الحال في عضلات الفكين التي ينبغي أن تظلّ قادرة على دفع الأسنان لينطبق بعضها على بعض لكي تمضغ أطناناً من الطعام طوال حياة الإنسان».

٢- مقاومة الأحياء لعوامل الفناء

ويقرر الدكتور يوسف: «وجود صفة مهمة تشترك فيها جميع الكائنات الحيّة من أدناها إلى أرقاها، هذه الصفة هي مقاومة عوامل الفناء، إذ إنّ خالق جميع هذه الكائنات يريد لها البقاء.

إنَّ (فيروس الأنفلونزا) يتشكل من آنٍ لآخر بأشكال مختلفة ؛ لتصعب مقاومته والقضاء عليه، والحشرات مع توالي الأجيال تكتسب مناعة ضدّ المبيدات الكيميائية؛ لكي تقاوم عوامل الفناء وانقراض الجنس.

بل في الإنسان نفسه لوحظ كثرة الإنجاب في فترات الحروب، كما لوحظ أنّ أية سيدة تواظب على تناول حبوب منع الحمل مدة طويلة ثم تسهو عن تناولها بعض الأيام - فإنّ النتيجة في معظم الأحيان تكون إنجاب عدة توائم ؛ لتعويض النقص في الذرية الذي حدث في أثناء فترة الامتناع عن الحمل. وإذا استأصل الإنسان إحدى الكليتين لسبب من الأسباب فإنّ الكلية الباقية يزداد حجمها وتؤدي عمل الكليتين، وكأن في الجسم عقلاً يدرك به ما حدث من نقص فيسرع لتعويضه.

الله وحده هو الذي زود هذه المخلوقات بهذه القدرة العجيبة على التوازن حتى لا تنقرض وتتعرض للفناء، كما زود العديد من الحيوانات بوسائل للدفاع عن أنفسها لا يختلف في ذلك الإنسان عن العقرب أو الثعبان أو أم أربعة وأربعين أو غيرها.

لا يمكن أن يكون هذا المبدأ أو القانون الذي يسود جميع الكائنات الحية من صنع مصادفة عمياء تتخبط في الظلام، إذ إنّ المصادفة لا يمكن أن تتخذ مظهر قانون عام تخضع له جميع الكائنات».

٣- هداية النحل وشيء من عجائب صنع الله فيه

ويحدثنا ابن القيم[١] رحمه الله تعالى عن بدائع صنع الله في خلقه، مبيناً هداية الله للنحل في أمور معاشه: «وأمر النحل في هدايتها من أعجب العجب وذلك أن لها أميراً ومدبراً، وهو اليعسوب، وهو أكبر جسماً من جميع النحل، وأحسن لوناً وشكلاً.

وإناث النحل تلد في إقبال الربيع[٢]، وأكثر أولادها يكنّ إناثاً، وإذا وقع فيها ذكر لم تدعه بينها، بل إما أن تطرده، وإما أن تقتله، إلا طائفة يسيرة منها، وذلك أن الذكور منها لا تعمل شيئاً ولا تكسب.

والنحل تقسم فرقاً فرقاً، فمنها فرقة تلزم الملك، ولا تفارقه، ومنها فرقة تهيء الشمع وتصنعه، والشمع هو ثفل العسل، وفيه حلاوة كحلاوة التين، وللنحل فيه عناية شديدة فوق عنايتها بالعسل، فينظفه النحل، ويصفيه، ويخلصه مما يخالطه من أبوالها وغيرها، وفرقة تبني البيوت، وفرقة تسقي الماء، وتحمله على متونها، وفرقة تكنس الخلايا وتنظفها من الأوساخ والجيف والزبل، وإذا رأت بينها نحلة مهينة بطالة قطعتها وقتلتها حتى لا تفسد عليهن بقية العمال، وتعديهن ببطالتها ومهانتها.

وأول ما يبنى في الخلية مقعد الملك وبيته، فيُبنى له بيت مربع يشبه السرير والتخت، فيجلس عليه، ويستدير حوله طائفة من النحل يشبه الأمراء والخدم والخواص، لا يفارقنه، ويجعل النحل بين يديه شيئاً يشبه الحوض يصب فيه

---

(١) شفاء العليل: ١٠١، وما نقلناه عن ابن القيم يدلنا على أن السلف الصالح كانوا يعنون بالتأمل في خلق الله، ويدلنا على أن ملاحظة العلماء المسلمين بلغت مبلغاً كبيراً، إلا أنها لم تخل من أخطاء، فالنحل ليس له ملك بل ملكة.

(٢) الذي يبيض من النحل ملكة النحل فحسب.

من العسل أصفى ما يقدر عليه، ويملأ منه الحوض، ويكون ذلك طعاماً للملك وخواصه.

ثم يأخذن في ابتناء البيوت على خطوط متساوية كأنها سكك ومحال، وتبني بيوتها مسدسة متساوية الأضلاع، كأنها قرأت كتاب إقليدس، حتى عرفت أوفق الأشكال لبيوتها ؛ لأنّ المطلوب من بناء الدور هو الوثاقة والسعة، والشكل المسدس دون سائر الأشكال إذا انضمت بعض أشكاله إلى بعض صار شكلاً مستديراً كاستدارة الرحى، ولا يبقى فيه فروج ولا خلل، ويشد بعضه بعضاً، حتى يصير طبقاً واحداً محكماً، لا يدخل بين بيوته رؤوس الإبر.

فتبارك الذي ألهمها أن تبني بيوتها هذا البناء المحكم الذي يعجز البشر عن صنع مثله، فعلمت أنها محتاجة إلى أن تبني بيوتها من أشكال موصوفة بصفتين: إحداهما: أن لا تكون زواياها ضيقة حتى لا يبقى الموضع الضيق معطلاً. والثانية: أن تكون تلك البيوت مشكلة بأشكال إذا انضم بعضها إلى بعض، وامتلأت العرصة منها فلا يبقى منها ضائعاً، ثم إنها علمت أن الشكل الموصوف بهاتين الصفتين هو المسدس فقط ؛ فإن المثلثات والمربعات، وإن أمكن امتلاء العرصة منها إلا أن زواياها ضيقة، وأما سائر الأشكال وإن كانت زواياها واسعة إلا أنها لا تمتلىء العرصة منها، بل يبقى فيما بينها فروج خالية ضائعة، وأما المسدس فهو موصوف بهاتين الصفتين، فهداها - سبحانه - إلى بناء بيوتها على هذا الشكل من غير مسطرة ولا آلة، ولا مثال يحتذى عليه، وأصنع بني آدم لا يقدر على بناء البيت المسدس إلا بالآلات الكبيرة.

فتبارك الذي هداها أن تسلك سبل مراعيها على قوتها وتأتيها ذللاً لا تستعصي عليها، ولا تضل عنها، وأن تجتني أطيب ما في المراعي وألطفه، وأن تعود إلى بيوتها الخالية، فتصب فيها شراباً مختلفاً ألوانه، فيه شفاء للناس، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون.

فإذا فرغت من بناء البيوت خرجت خماصاً تسيح سهلاً وجبلاً، فأكلت من الحلاوات المرتفعة على رؤوس الأزهار وورق الأشجار، فترجع بطاناً.

وجعل - سبحانه - في أفواهها حرارة منضجة تنضج ما جنته، فتعيده حلاوة ونضجاً، ثم تمجه في البيوت، حتى إذا امتلأت ختمتها، وسدت رؤوسها بالشمع المصفى، فإذا امتلأت تلك البيوت عمدت إلى مكان آخر إن صادفته، فاتخذت فيه بيوتاً، وفعلت كما فعلت في البيوت الأولى، فإذا برد الهواء، وأخلف المرعى، وحيل بينها وبين الكسب، لزمت بيوتها، واغتذت بما ادخرته من العسل، وهي في أيام الكسب والسعي تخرج بكرة وتسيح في المراتع، وتستعمل كل فرقة منها بما يخصها من العمل، فإذا أمست رجعت إلى بيوتها.

وأما الملك فلا يكثر الخروج من الخلية إلا نادراً إذا اشتهى التنزه، فيخرج، ومعه أمراء النحل والخدم، فيطوفُ في المروج والرياض والبساتين ساعة من النهار، ثم يعود إلى مكانه.

ومن عجيب أمره أنه ربما لحقه أذى من النحل أو من صاحب الخلية أو من خدمه، فيغضب ويخرج من الخلية، ويتباعد عنها، ويتبعه جميع النحل، وتبقى الخلية خالية.

فإذا رأى صاحبها ذلك، وخاف أن يأخذ النحل، ويذهب بها إلى مكان آخر احتال لاسترجاعه وطلب رضاه، فيتعرف موضعه الذي صار إليه بالنحل، فيعرفه باجتماع النحل إليه، فإنها لا تفارقه، وتجتمع عليه حتى تصير عليه عنقوداً، وهو إذا خرج غضباً جلس على مكان مرتفع من الشجرة، وطافت به النحل، وانضمت إليه، حتى يصير كالكرة، فيأخذ صاحب النحل رمحاً أو قصبة طويلة، ويشد على رأسه حزمة من النبات الطيب الرائحة العطر النظيف، ويدنيه إلى محل الملك، ويكون معه إما مزهر أو يراع أو شيء من آلات

الطرب فيحركه، وقد أدنى إليه ذلك الحشيش، فلا يزال كذلك إلى أن يرضى الملك، فإذا رضي وزال غضبه طفر ووقع على الضغث، وتبعه خدمه وسائر النحل، فيحمله صاحبه إلى الخلية، فينزل ويدخلها هو وجنوده، ولا يقع النحل على جيفة ولا حيوان ولا طعام.

ومن عجيب أمرها أنها تقتل الملوك الظلمة المفسدة،ولا تدين لطاعتها، والنحل الصغار المجتمعة الخلق هي العسالة، وهي تحاول مقاتلة الطوال القليلة النفع وإخراجها ونفيها عن الخلايا، وإذا فعلت ذلك جاد العسل، وتجتهد أن تقتل ما تريد قتله خارج الخلية صيانة للخلية عن جيفته.

ومنها صنف قليل النفع كبير الجسم، وبينها وبين العسالة حرب، فهي تقصدها وتغتالها وتفتح عليها بيوتها، وتقصد هلاكها، والعسالة شديدة التيقظ والتحفظ منها، فإذا هجمت عليها في بيوتها حاولتها وألجأتها إلى أبواب البيوت فتتلطخ بالعسل، فلا تقدر على الطيران، ولا يفلت منها إلا كلّ طويل العمر، فإذا انقضت الحرب وبرد القتال عادت إلى القتلى، فحملتها وألقتها خارج الخلية.

وفي النحل كرام عمال لها سعي وهمة واجتهاد، وفيها لئام كسالى قليلة النفع مؤثرة للبطالة، فالكرام دائماً تطردها وتنفيها عن الخلية، ولا تساكنها خشية أن تعدي كرامها وتفسدها.

والنحل من ألطف الحيوان وأنقاه، ولذلك لا تلقي زبلها إلا حين تطير، وتكره النتن والروائح الخبيثة، وأبكارها وفراخها أحرس وأشد اجتهاداً من الكبار، وأقل لسعاً وأجود عسلاً، ولسعها إذا لسعت أقل ضرراً من لسع الكبار.

ولما كانت النحل من أنفع الحيوان وأبركه فقد خصت من وحي الرب تعالى وهدايته بما لم يشركها فيه غيرها، وكان الخارج من بطونها مادة الشفاء من

الأسقام والنور الذي يضيء في الظلام بمنزلة الهداة من الأنام كان أكثر الحيوان له أعداء ؛ وكان أعداؤه من أقل الحيوان منفعة وبركة، هذه سنة الله في خلقه وهو العزيز الحكيم»[1].

الباحثون المعاصرون يتحدثون عن عالم النحل[2]

تقدم العلم اليوم، وبتقدمه تعرفنا على كثير من عجائب الخلق وأسرار الكون، لقد أكد لنا العلماء ما عرفناه من قبل من أن عالم النحل ينقسم إلى ثلاثة أقسام: النحلة الملكة، والنحلة الذكر، والنحلة الشغالة.

أما ملكة النحل فهي أم الخلية كلها، وجميع النحل في الخلية أبناؤها، ويكفي أن تعلم أن الملكة تضع في كل يوم تطلع فيها الشمس ما بين (١٥٠٠) بيضة إلى (٢٠٠٠) بيضة، بل يزيد العدد إلى (٣٥٠٠) بيضة. ويستمر هذا على امتداد موسم التكاثر الذي يبدأ من إقبال الربيع، وينتهي بانتهاء الصيف.

وما هذا العدد الهائل من البيض إلا لمواجهة النقص المستمر الذي يصيب خلية النحل، فالنحلة عمرها قصير، فهو يتراوح بين خمسة أسابيع وسبعة أسابيع، ولذلك فإنّ الخلية تحتاج إلى أجيال جديدة ترفد الخلية بأعداد كبيرة تواجه النقص الذي يلحق بها، كي تستمرّ الخلية في القيام بالواجبات التي يحتاج إليها عالم النحل، وحتى تستطيع الدفاع عن نفسها في مواجهة الأعداء والأخطار، ولولا ذلك لانقرضت الخلية وبادت.

ومن بديع صنع الله في ملكة النحل أنها تضع بيضها في البيوت التي تبنيها

---

(١) شفاء العليل: ص١٠١.

(٢) المعلومات التي أوردناها في هذا المبحث مأخوذة من كتاب: «النحلة تسبح الله»، لمحمد حسن حمصي، ولكن بتصرف كثير في الصياغة، والتقديم والتأخير والاختصار.

الشغالة بمقاسات مختلفة، فالمقاس الكبير يعده النحل لملكة المستقبل، والبيضة التي تضعها الملكة فيه تكون ملكة، والبيضة التي تضعها الملكة في البيت الأصغر حجماً ومقاسه ربع إنش تصبح نحلة ذكراً، أما البيضة التي تضعها في البيت الصغير ومقاسه خمس إنش فتنتج نحلة شغالة، بقي أن نعلم أن الملكة تضع مع بيضة النحلة الشغالة ثلاثة إلى أربعة حيوانات منوية لإخصابها، فتكون نحلة شغالة، بينما تضع، في بيت النحلة الذكر بيضة غير مخصبة.

ومن عجيب صنع الله في النحلة الملكة أنها لا تُلقّحُ إلا في الهواء في أثناء طيرانها، ولذلك سرّ عجيب، فالنحلة الذكر لا يمكنها تلقيح الملكة وهي رابضة على الأرض، ذلك أن عضو التذكير عندها كامن، ولا يمكن ظهوره إلا إذا حلقت في الفضاء، وعند ذلك تمتلىء أكياس موجودة في النحلة الذكر بالهواء، فتنتفخ في أثناء الطيران، ويؤدي انتفاخها إلى الضغط على عضو التذكير، فيخرج من مكمنه.

ومن عجائب صنع الله في الملكة العذراء قدرتها على دعوة الذكر لتلقيحها، وذلك بأصوات تصدرها تدعو بها الذكور إليها، وتخرج من خليتها حائمة حولها مصدرة تلك الأصوات، وتستقبل الذكور هذه الدعوة لا في الخلية وحدها، بل في جميع الخلايا المجاورة، وتنطلق أسراب الذكور خلف الملكة، وهي تغذ السير منطلقة في الفضاء الرحب، ويفوز بتلقيحها أقوى الذكور وأشدها وأسرعها، ولكنه يفقد حياته بعد ذلك، ذلك أنه بعد تلقيحه الملكة يفقد عضو تذكيره، إذ يبقى عضوه فيها مما يسبب له نزيفاً يفقده حياته.

ويسأل القارىء عن كيفية سماع الذكور لدعوة الملكة، والجواب: أن الله زود كل نحلة بقرني استشعار، وهذان القرنان يتألفان من حلقات متصل بعضها ببعض، عليها عدد كبير من الثقوب، ويبلغ عدد الحلقات في الذكر اثنتا عشرة حلقة، في حين أن عددها في الشغالة أو الملكة إحدى عشرة حلقة.

وتبلغ عدد ثقوب الحواس الكائنة على قرن الاستشعار عند الذكر (٢٨٠٠) ثقبٍ، وفي الشغالة (٢٤٠٠)، وفي الملكة (١٦٠٠).

والحقيقة أن قرني الاستشعار في النحلة بمنزلة هوائي الإذاعة يستخدمه لالتقاط الأصوات الصادرة من الملكة، ولغير ذلك من الأصوات، كما تستخدمه في الشم والسمع واللمس.

وإذا فقدت النحلة الشغالة أو الذكر أو الملكة قرني الاستشعار فإنها لا تستطيع أن تقوم بدورها، ففيه يتركز معظم حواسها: السمع والشم واللمس كما سبق.

وتكوين النحلة الذكر يتناسب مع المهمة التي خلق من أجلها، فهو كبير قوي، يأكل كثيراً، ولا يعمل شيئاً، فلا يجمع الرحيق، ولا يصنعه، ولا يبني، ولا يحرس، حتى طعامه، تضعه النحلة الشغالة في فمه، كل ما يستطيع القيام به هو تلقيح الملكة، ولذا فإن النحلة الشغالة بعد انتهاء مهمته تمتنع عن إمداده بالغذاء، وأكثر من هذا تهاجم الشغالة الذكور فتقتلها أو تطردها.

بقي أن نعلم أن عدد الذكور من النحل قليل بالنسبة لتعداد النحل، فلا يتجاوز عددها في الخلية الواحدة المائتين.

أما النحلة الشغالة فإنها تكون العدد الأكثر في الخلية، كما أنها العنصر الفعال فيها، وهي التي تقوم بالأعمال المختلفة، والمهمات الصعبة.

فهي التي تجني الرحيق، وتجمع غبار الطلع، وتصنع العسل، وتمدّ الملكة بغذائها الخاص، وتبني الأقراص التي يحفظ فيها العسل، وتربي فيها الأجيال الجديدة من النحل، وتحرس الخلية، وتقوم بتنظيفها، والمحافظة عليها، بل تقوم بتهويتها وتدفئتها.

والمهمات في الخلية موزعة في تخصصات وهذه التخصصات ترتبط بعمر النحلة، فلكل سن من النحل عمل يقوم به، وكلما امتد العمر بالنحلة فإنها تتحول إلى عمل آخر، وبذلك تقوم النحلة بعد أن تستكمل عمرها بالمرور على كل الأعمال والمهمات التي تحتاج إليها الخلية، ويلاحظ أن النحلة تبدأ بالأعمال السهلة التي لا تحتاج إلى جهد كبير، وتنتهي إلى أشق الأعمال وأصعبها وهي الجولان في الحقول، وجني الرحيق وغبار الطلع والماء، ثم صنع العسل وتخزينه، ونلاحظ أيضاً أنها تتدرج في الوظائف بحسب تكامل الخصائص التي يهبها الله إياها، فكل مهمة تصير إليها وتعمل فيها تتواءم مع تكامل أجهزتها التي تمكنها من القيام بالدور الجديد والمهمة الجديدة.

فالنحلة الشغالة في يومها الأول والثاني تقوم بمهمة تنظيف البيوت التي خرجت منها أجيال النحل التي تكامل خلقها، فتنظف هذه البيوت، وتعدها لأجيال أخرى، ولا تضع الملكة البيض في هذه البيوت إلا بعد أن تتفحصها وتجدها نظيفة تماماً.

وفي يومها الثالث والرابع تقوم بدور الحاضنة ليرقات النحل الشغالة والذكور التي يزيد عمرها على ثلاثة أيام، فتقدم لها ما يسميه العلماء (بخبز النحل) وهو مزيج من العسل وحبوب اللقاح، تأخذه مما خزنته النحل في العيون السداسية.

وبعد اليوم الخامس حتى اليوم الثاني عشر من عمر النحلة تقوم بتغذية النحلة الملكة بالغذاء الملكي طيلة عمرها، كما تمدّ بهذا الغذاء الفاخر صغيرات الشغالة والذكور في يومهن الأول والثاني والثالث، والنحل يقوم بهذه المهمة في هذه السن (٥ - ١٢) لنمو غدد خاصة في هذه الفترة في جانبي البلعوم، تتمكن بها النحل من صناعة الغذاء الملكي.

وبعد اليوم الثاني عشر تتمكن النحلة من الطيران، ولكنها لا تذهب بعيداً،

كل ما تفعله أن تتعلم وتتمرن، ومهمتها الرئيسية من اليوم الثاني عشر إلى اليوم الثامن عشر هو بناء الأقراص الشمعية التي تعد لتخزين العسل، وتربية أجيال النحل الجديدة.

والسبب في تخصصها بهذا الدور في هذه السن هو نمو أربعة أزواج من الغدد الموجودة على حلقات البطن، ومن هذا الشمع تقوم النحلة باستخدام فكيها في هذه السن ببناء تلك البيوت التي بلغت الغاية في الدقة والاتقان بأبعاد محددة وأشكال هندسية في غاية الروعة والتنظيم.

وفي اليوم التاسع عشر واليوم العشرين تقوم النحلة بتنظيف الخلية وحراستها، وبعد اليوم العشرين تقوم النحلة بالانطلاق إلى الحقول وجمع الرحيق وغبار الطلع وصنع العسل، وجلب الماء إلى الخلية، وهذه المرحلة الأخيرة تمثل الجزء الأكبر من عمر النحلة.

أجيال تذهب من النحل، وأجيال تأتي، ويترقى النحل في سلسلة متوالية من الأعمال تضمن القيام بالأعمال كلها باستمرار من غير أن تتخصص طائفة من النحل بعمل طيلة عمرها، ولكن التخصص يأتي في كل مرحلة من مراحل العمر.

سبحان الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي خلق هذه الكائنات الصغيرة، وعلمها أن تقوم بهذه الأعمال بمثل هذه الدقة والإتقان، إنه إبداع وإعجاز يدل على العليم الخبير.

ومن الإبداع الإلهي في النحلة هذا التكوين الذي أعطاه الله إياها، فقد جعل لها الباري سبحانه معدتين، إحداهما تستعملها لجمع المواد الأولية التي تستخلصها من رحيق الأزهار، أو تحمل بها الماء، وتنقله إلى الخلية، والمعدة الأخرى مخصصة للطعام الذي تهضمه وتتغذى به.

ومن عجب أن النحلة إذ تجمع في معدتها الأولى ما تجنيه من الرحيق، لا تكتفي بنقله، ولكنها في أثناء حملها له وتوصيله للخلية تقوم بعملية أولية لتحويله إلى العسل، وذلك بإفراز الخمائر اللازمة لتحقيق ذلك.

والنحلة تحتاج إلى غبار الطلع لأمور مختلفة في الخلية، وقد زودها خالقها بتجويف خاص لخزن هذه الحبوب في الوجه الخارجي لساق الرجل الخلفية، تسمى سلة الطلع، وجعل لها على الوجه الداخلي لرسغ الرجل الخلفية ما يشبه الفرشاة تستعملها الشغالة في تمشيط غبار الطلع وتكتيله تمهيداً لجمعه في سلة الطلع.

ومن العجائب المذهلة التي اكتشفها العلماء في النحلة، تلك الغدة التي في مؤخرة البطن، وقد سماها العلماء (غدة ناسانوف)، وهذه الغدة تفرز رائحة خاصة، ومن العجيب أن نحل كل خلية يتعارف على رائحة تميز نحلها عن غيره، وتستطيع النحلة أن تعود إلى بيتها من مكان بعيد تهديها تلك الرائحة المميزة عن رائحة غيرها من النحل، وبوابو الخلية وحراسها يعرفون النحلة التي تتبع الخلية عن طريق تلك الرائحة المميزة المنبعثة من النحلة.

والعجب أن النحل قادر على التعارف على رائحة جديدة عندما يحصل ما يستدعي ذلك، فمثلاً عندما تخرج طائفة من النحل لتشكل خلية جديدة، فإن الخلية الجديدة تتعارف على رائحة جديدة، وعندما مزج العلماء بطريقة علمية طائفة من النحل مع طائفة أخرى وجدوا أن النحل بعد دمجه تعارف على رائحة واحدة جديدة تميزه عن غيره.

ومن عجائب هداية النحل أنه يبني جدران البيوت السداسية من الشمع الخالص الذي لا ينفذ منه الهواء، ولكنه عندما يغلق أبواب البيوت التي تحوي يرقات النحل يخلط الشمع بحبوب اللقاح، وبهذا يتسرب الهواء من خلال

حبوب اللقاح، فتبقى اليرقات حيّة، ولو لم يهدها ربها إلى ذلك لماتت اليرقات، وزال النحل من فوق ظهر البسيطة.

وقد حدثنا ربنا فيما حدثنا عنه من آياته الباهرة التي تستدعي التأمل والتفكر إلى هدايته العجيبة للنحل ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ* ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٨-٦٩].

وقد اهتدى المسلمون للمنافع العظيمة التي في العسل، ولكن الضالون عن هدى الله لم يكتشفوا ما فيه من المنافع إلا في هذه الأيام، وقد اكتشف الباحثون حقائق مذهلة، فوجدوا أن العسل غذاء ودواء، وهو غذاء من نوع راق، يحوي على خصائص لا تكاد توجد في غيره، ووجدوا أنه علاج يكاد يصلح لجميع أنواع الأمراض، ولا يزال العلم يكتشف في كل يوم في العسل نفعاً جديداً.

كيف يدل النحل بعضه بعضاً على مكان الغذاء؟

مما لاحظه العلماء المعاصرون الطريقة التي يدل بها النحل بعضه بعضاً على مكان الغذاء، يقول الدكتور يوسف عز الدين: «لو اكتشف أحد عمال النحل حقلاً أو كمية من النباتات تعتبر مصدراً للغذاء، فإنّه يعود للمستعمرة ليخبر باقي العمال عن هذا الكنز الذي اكتشفه، وذلك عن طريق طقوس رقص عجيبة تفعلها النحلة بطريقة غريزية دون أن تدري لماذا تفعل هذا.

إنها ترقص رقصات غريبة ذات مدلولات معينة، إذ إن جسمها يصنع في أثناء الرقص زاوية تدل على زاوية الشمس، وإذا كان الحقل الذي اكتشفه قريباً من المستعمرة فإنّ الرقصة في هذه الحالة تختلف عنها في حالة بُعد الحقل

مسافة أطول.

ومن هذه الرقصات يفهم النحل أنّ حقلاً من البرسيم أو غيره من النباتات ذات الأزهار التي يحضر النحل غذاءه منها، يقع على بعد معين، والطريق إليه يقتضي السير بزاوية معينة بالنسبة لمكان الشمس.

فيؤدي بعض العمال الرقصة نفسها، عند ذلك تطمئن النحلة التي اكتشفت الحقل إلى أنّ باقي النحل قد فهم ما تريد أن تقوله، فيطير باقي الأفراد، ويصلون مباشرة إلى ذلك الحقل لإحضار مزيد من الغذاء.

إنّ النحلة المكتشفة قد نقلت إلى النحل الذي في المستعمرة عدداً من المعلومات برقصتها، ولو حاولنا نحن البشر أن نتوصل إلى ما توصل إليه النحل من فهم لهذه الطلاسم عن طريق رسم بياني لاستغرق منا وقتاً لا يقل عن ثلث ساعة إن كان لدينا إلمام كاف بالعلوم الرياضية، ولكن النحل يفهم كلّ ذلك في الحال، ويطير نحو الحقل في خط مستقيم ليحضر ما يلزمه من غذاء.

شيء مذهل لا يمكن تفسيره إلا إذا آمنا بوجود نفحة إلهية أودعها خالق الكون في هذه الكائنات الصغيرة التي لا تملك قدراً من العقل أو قدرة على التفكير تمكنها من القيام بما يلزمها ».

رؤية النحل ما لا نراه من الألوان

ويذكر لنا الدكتور يوسف أن من عجائب النحل رؤيته « لوناً لا نراه نحن البشر، ولا يمكن أن نتصوره، وهو اللون فوق البنفسجي الذي نراه نحن أسود، فالنحل يرى الأشعة فوق البنفسجية »، ثم يبين لنا الحكمة من وراء رؤية النحل لذلك اللون فيقول: « والحكمة في ذلك هي أن تلك الأشعة هي الوحيدة القادرة على اختراق السحاب.

والنحل قد يعيش في مناطق يكسوها السحاب معظم شهور السنة، ورؤية الشمس ضرورية لمعرفة مكان الحقول التي بها الغذاء، وهنا تكمن الحكمة في رؤية النحل لذلك اللون فوق البنفسجي، فإنها بذلك يصبح في إمكانها رؤية الشمس من خلال السحب، فلا يموت النحل جوعاً في حالة اختفاء الشمس خلف الغمام، حقيقة مذهلة تدلّ على وجود خالق مدبر ومقدر يعلم ما يصنع، إذ إن القدرة على رؤية ذلك اللون لا يمكن أن تكون قد اكتسبها النحل مع مرور الزمن، بل لا بد أن تكون قد وجدت منذ أول لحظة خلق الله فيها النحل، إذ لو لم توجد من أول الأمر، لانقرض النحل في تلك المناطق منذ أمد بعيد».

٤- هداية النمل وعجائب صنع الله فيه

ويحدثنا ابن القيم عن نوع آخر من مخلوقات الله، ويبين لنا هداية الله لها في معاشها فيقول:

«وهذا النمل من أهدى الحيوانات، وهدايتها من أعجب شيء، فإن النملة الصغيرة تخرج من بيتها وتطلب قوتها، وإن بعدت عليها الطريق، فإذا ظفرت به حملته وساقته في طرق معوجة بعيدة ذات صعود وهبوط في غاية من التوعر حتى تصل إلى بيوتها، فتخزن فيها أقواتها في وقت الإمكان.

فإذا خزنتها عمدت إلى ما ينبت منها ففلقته فلقتين ؛ لئلا ينبت فإن كان ينبت مع فلقه باثنتين فلقته بأربعة، فإذا أصابه بلل وخافت عليه العفن والفساد انتظرت به يوماً ذا شمس فخرجت به، فنشرته على أبواب بيوتها، ثم أعادته إليها، ولا تتغذى منها نملة مما جمعه غيرها.

ويكفي في هداية النمل ما حكاه الله - سبحانه - في القرآن عن النملة التي سمع سليمان كلامها وخطابها لأصحابها بقولها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ

مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨]، فاستفتحت خطابها بالنداء الذي يسمعه من خاطبته، ثم أتت بالاسم المبهم، ثم أتبعته بما يثبته من اسم الجنس إرادة للعموم، ثم أمرتهم بأن يدخلوا مساكنهم فيتحصنون من العسكر، ثم أخبرت عن سبب هذا الدخول، وهو خشية أن يصيبهم معرّة الجيش، فيحطمهم سليمان وجنوده، ثم اعتذرت عن نبي الله وجنوده بأنهم لا يشعرون بذلك، وهذا من أعجب الهداية.

وتأمل كيف عظم الله - سبحانه - شأن النمل بقوله: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٧]، ثم قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾ [النمل: ١٨]، فأخبر أنهم بأجمعهم مروا على ذلك الوادي، ودل على أن ذلك الوادي معروفٌ بالنمل كوادي السباع ونحوه، ثم أخبر بما دل على شدة فطنة هذه النملة ودقة معرفتها حيث أمرتهم أن يدخلوا مساكنهم المختصة بهم، فقد عرفت هي والنمل أن لكل طائفة منها مسكناً لا يدخل عليهم فيه سواهم، ثم قالت: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ [النمل: ١٨]، فجمعت بين اسمه وعينه، وعرفته بهما، وعرفت جنوده وقائدهم، ثم قالت: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨] فكأنها جمعت بين الاعتذار عن مضرة الجيش بكونهم لا يشعرون وبين لوم أمة النمل حيث لم يأخذوا حذرهم، ويدخلوا مساكنهم، ولذلك تبسم نبي الله ضاحكاً من قولها، وإنه لموضع تعجب وتبسم.

وقد روى الزهري عن عبد الله بن عبد الله بن عيينة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ «نَهَى عن قَتْلِ النمل والنحلة والهدهد والصرد»[1]، وفي الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة، فلدغته نملة، فأمر بجهازه فأخرج، وأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه: أنْ قرصتْك

(١) عزاه المجد ابن تيمية في المنتقى ص: ٧٥٩ إلى أحمد وأبي داود وابن ماجه بلفظ: نهى رسول الله ﷺ عن قتل أربع: «النملة، والنحلة، والهدهد، والصرد».

نملة أحرقت أمة من الأمم تُسبحُ! فهلا نملة واحدة!)[1].

وروى عوف بن أبي جميلة عن قسامة بن زهير، قال: قال أبو موسى الأشعري: إن لكل شيء سادة حتى للنمل سادة.

ومن عجيب هدايتها أنها تعرف ربها بأنه فوق سمواته على عرشه، كما رواه الإمام أحمد في كتاب الزهد من حديث أبي هريرة يرفعه، قال: (خَرج نَبيٌّ من الأنبياء بالناس يَسْتَسْقُون، فإذا هم بنملة رافعة قَوائِمها إلى السماء تدعو مُستلقية على ظهرها، فقال: ارجعوا فقد كفيتم أو سقيتم بغيركم) ولِهذا الأثر عدة طرق، ورواه الطحاوي في التهذيب وغيره.

وفي مسند الإمام أحمد: (أن سليمان بن داود خرج يستسقي، فرأى نملة مُستلقية على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء وهي تقولُ: اللهم إنا خلق من خلقك، ليس بنا غنى عن سقياك ورزقك، فإما أن تُسقينا وترزقنا، وإما أن تهلكنا، فقال: ارجعوا فقد سُقيتُمْ بدعوة غَيركم).

ولقد حُدّثت أن نملة خرجت من بيتها، فصادفت شق جرادة، فحاولت أن تحمله فلم تطق، فذهبت وجاءت معها بأعوان يحملنه معها، قال: فرفعتُ ذلك من الأرض، فطافت في مكانه فلم تجده، فانصرفوا وتركوها.

قال: فوضعته، فعادت تحاول حمله فلم تقدر، فذهبت، وجاءت بهم، فرفعته، فطافت فلم تجده فانصرفوا، قال: فعلت ذلك مراراً، فلما كان في المرة الأخرى استدار النمل حلقة ووضعوها في وسطها، وقطعوها عضواً عضواً، قال شيخنا: وقد حكيت له هذه الحكاية فقال: هذا النمل فطرها الله - سبحانه - على قبح الكذب وعقوبة الكذاب.

---

(١) صحيح البخاري: ٦/ ١٥٤، ورقمه: ٣٠١٩، وانظر: ٦/ ٣٥٦، ورقمه: ٣٣١٨، ورواه مسلم: ٤/ ١٧٥٩، ورقمه: ٢٢٤١، والحديث مأخوذ من مجموع الروايات الواردة فيه.

والنمل من أحرص الحيوان، ويضرب بحرصه المثل، ويذكر أن سليمان صلوات الله وسلامه عليه لما رأى حرص النملة وشدة ادخارها للغذاء استحضر نملة، وسألها: كم تأكل النملة من الطعام كل سنة؟ قالت: ثلاث حبات من الحنطة، فأمر بإلقائها في قارورة، وسد فم القارورة، وجعل معها ثلاث حبات حنطة، وتركها سنة بعد ما قالت، ثم أمر بفتح القارورة عند فراغ السنة، فوجد حبة ونصف حبة، فقال: أين زعمك؟ أنت زعمت أن قوتك كل سنة ثلاث حبات.

فقالت: نعم، ولكن لما رأيتك مشغولاً بمصالح بني جنسك حسبت الذي بقي من عمري فوجدته أكثر من المدة المضروبة، فاقتصرت على نصف القوت، واستبقيت نصفه استبقاء لنفسي، فعجب سليمان من شدة حرصها، وهذا من أعجب الهداية والعطية.

ومن حرصها أنها تكدّ طول الصيف، وتجمع للشتاء علماً منها بإعواز الطلب في الشتاء، وتَعَذّرِ الكسب فيه، وهي على ضعفها شديدة القوى، فإنها تحمل أضعاف أضعاف وزنها، وتجره إلى بيتها.

وليس للنمل قائد ورئيس يدبرها كما يكون للنحل إلا أن لها رائداً يطلب الرزق، فإذا وقف عليه أخبر أصحابه فيخرجن مجتمعات، وكل نملة تجتهد في صلاح العامة منها غير مختلسة من الحب شيئاً لنفسها دون صواحباتها.

ومن عجيب أمرها أن الرجل إذا أراد أن يحترز من النمل لا يسقط في عسل أو نحوه، فإنه يحفر حفيرة ويجعل حولها ماء أو يتخذ إناء كبيراً، ويملؤه ماء، ثم يضع فيه ذلك الشيء، فيأتي الذي يطيف به فلا يقدر عليه، فيتسلق في الحائط، ويمشي على السقف إلى أن يحاذي ذلك الشيء، فتلقي نفسها عليه، وجربنا نحن ذلك.

وأحمى صانع مرة طوقاً بالنار ورماه على الأرض ليبرد. واتفق أن اشتمل الطوق على نمل، فتوجه في الجهات ليخرج، فلحقه وهج النار، فلزم المركز ووسط الطوق، وكان ذلك مركزاً له، وهو أبعد مكان من المحيط »[1] .

النمل الأبيض غذاؤه ومساكنه:

يحدثنا الأستاذ يوسف عز الدين: عما كشف العلم من أسرار هذا الكائن: « ومن الغرائز التي وهبها الله لمثل هذه الكائنات الضئيلة ما هو مذهل، يجعل كل ذي عقل من البشر يخرّ ساجداً للخالق العظيم.

على سبيل المثال ما نراه في مستعمرة نوع من الحشرات نطلق عليه اسم (النمل الأبيض)، تعيش هذه الحشرات أيضاً في مستعمرات، إذا زاد أفراد المستعمرة عن الحد المعقول بالنسبة لكمية الغذاء المتاحة، فإنّ هذه الحشرات تدرك هذه الحقيقة عن طريق الغريزة، فتبدأ الأفراد في التهام عدد كبير من البيض، وبذلك يسهم في حلّ مشكلة زيادة أفراد المستعمرة ومشكلة الغذاء، إذ أن التهام البيض يعتبر تغذية، وفي الوقت نفسه يقلل من عدد الذرية.

إنّ هذه الحشرات لا تدرك لماذا تفعل ذلك، ولكنّها النفحة الإلهية التي تلهمها لعمل ما لا يمكن أن تدركه من الأشياء التي تعود عليها بالفائدة وتجنبها الفناء.

هذه الحشرات نفسها تتغذى على الأخشاب وتلتهمها بشراهة، إذ في بعض الأماكن الموبوءة بها قد يتناول أفراد الأسرة طعامهم على منضدة الطعام، ثم يذهبون في الصباح لتناول إفطارهم، فيجدون تلك المنضدة قد تقوضت أركانها، وانهارت في ليلة واحدة.

---

(١) شفاء العليل، لابن القيم: ص١٠٤.

وفي بعض جهات استراليا الموبوءة بتلك الحشرات المدمرة قد يسأل أحد السائحين وهو ناظر من نافذة القطار عن اسم القرية التي رآها على مدى البصر، فيعتريه الذهول عندما يخبرونه أن تلك القرية لا تضم آدميين، ولكنها المساكن التي أقامها النمل الأبيض ليعيش بها.

هذه المساكن ترتفع عن سطح الأرض عدة أمتار وتصنعها الحشرات من مادة غريبة، هي خليط من لعابها وبعض المواد الأخرى، وهي أقوى من الإسمنت المسلح، ولا يمكن أن تخترقها الحشرات أو يتسرب إليها الماء من خلال جدرانها، وبداخلها أنفاق متشعبة يعيش فيها النمل الأبيض.

وتستخدم هذه الحشرات للتخابر عن بعد نوعاً من الشيفرة تشبه شيفرة التلغراف، إذ تدق على جدران النفق برأسها عدة دقات فيفهم باقي النمل ما تريد عن طريق تلك الدقات الشفرية، تفعل ذلك دون أن تدري ماذا تفعل، إذ إنها تفعلها عن طريق الإلهام الإلهي المسمى الغريزة.

ولقد احتار العلماء فترة طويلة من الزمن في تفسير إمكان حياة مثل هذه الحشرات عن طريق الغذاء على الأخشاب، والخشب لا يحتوي على أية مواد عضوية قابلة للهضم، وأخيراً اكتشفوا السر.

لقد وجدوا في داخل الجهاز الهضمي لأفراد هذه الحشرات حيوانات دقيقة أولية يتكون جسمها من خلية واحدة، وهذه الحيوانات الأولية تفرز أجسامها إفرازات تحول الخشب إلى مواد غذائية قابلة للهضم هي التي تغذي النمل الأبيض.

ومن العجيب أنّه لم يحدث إطلاقاً أن اكتشفت نملة بيضاء واحدة تخلو أمعاؤها من هذه الحيوانات الأولية، ولو لم توجد هذه الحيوانات داخل أمعاء النمل الأبيض منذ بدء خلقها لما أمكنها الحياة، ولانقرضت منذ أول جيل من

أجيالها، هل من الممكن أن يحدث هذا عن طريق المصادفة أم هو شيء مقدر مدبر مرسوم؟»

النمل يربي المواشي ويفلح الأرض:

ومن عجائب النمل ما ذكره الدكتور يوسف عز الدين، فقد ذكر أن النمل استأنس مئات من الأجناس من الحيوانات الأدنى منه شأناً، بينما لم يستأنس الإنسان سوى نحو عشرين من الحيوانات الوحشية التي سخرها لمنفعته ومتعته، ولقد عرف النمل الزرع والرعي عن طريق الغريزة.

إنَّ حشرات المن التي يطلق عليها أحياناً اسم (قمل النبات) التي نراها على أوراق بعض النبات يرعاها النمل ليستفيد منها. ففي الربيع الباكر يرسل النمل الرسل لتجمع له بيض هذا المن، فإذا جاؤوا به وضعوه في مستعمراتهم حيث يضعون بيضهم، ويهتمون ببيض هذه الحشرات كما يهتمون ببيضهم، فإذا فقس بيض المن وخرجت منه الصغار أطعموها وأكرموها، وبعد فترة قصيرة يأخذ المن يدر سائلاً حلواً كالعسل كما تدر البقرة اللبن، ويتولى النمل حلب هذا المن للحصول على هذا السائل وكأنها أبقار.

ولا يعتني النمل بتربية «المواشي» هذه وحدها، بل يعتني كذلك بالزرع وفلاحة الأرض، لقد شاهد أحد العلماء في إحدى الغابات قطعة من الأرض قد نما بها أرز قصير من نوع نصف بري، كانت مساحة القطعة خمسة أقدام طولاً في ثلاثة عرضاً، وكان طول الأرز نحو ستة «سنتيمترات»، ويتراءى للناظر إلى هذه البقعة من الأرض أنّ أحداً لا بد يعتني بها، فالطينة حول الجذور كانت مشققة، والأعشاب الغريبة كانت مستأصلة، والغرْيب أنّه لم يكن على مقربة من هذا المكان عود آخر من الأرز، فهذا الأرز لم ينم من تلقاء نفسه، وإنّما زرعه زارع.

ولوحظ أن طوائف النمل تأتي إلى هذا المزروع وتذهب عنه، فانبطح العالم على الأرض يلاحظ ما يصنعه، ولم يلبث أن عرف أنّ هذا النمل هو القائم بزراعة الأرز في تلك البقعة من الأرض، وأنه اتخذ من زراعتها مهنة له، تشغل كل وقته، فبعضه كان يشق الأرض ويحرثها، وبعض آخر كان يزيل الأعشاب الضارة، فإذا ظهر عود من عشب غريب قام إليه بعض النمل، فيقضمونه، ثم يحملونه بعيداً عن المزرعة.

نما الأرز حتى بلغ طوله ستين سنتيمتراً، وكانت حبوب الأرز قد نضجت، فلما بدأ موسم الحصاد شاهد صفاً من شغالة النمل لا ينقطع متجهاً نحو العيدان، فيتسلقها إلى أن يصل إلى حبوب الأرز، فتنزع كل شغالة من النمل حبة من تلك الحبوب، وتهبط بها سريعاً إلى الأرض، ثم تذهب بها إلى مخازن تحت الأرض.

بل الأعجب من ذلك أنّ طائفة من النّمل كانت تتسلق الأعواد، فتلتقط الحب، ثم تلقي به، بينما طائفة أخرى تتلقاه، وتذهب به إلى المخازن..

ويعيش هذا النوع من النمل عيشة مدنية في بيوت كبيوتنا ذات شقق وطبقات، أجزاء منها تحت الأرض، وأجزاء فوق الأرض، في هذه المدن نجد الخدم والعبيد.

بل الأعجب من ذلك نجد الممرضات اللاتي تعنى بالمرضى ليلاً ونهاراً، ونجد منها من يرفع جثث من يموت من النمل...

يفعل ذلك النوع من النمل كلّ هذا بدون تفكير، إذ يتم بالغريزة التي أودعها الله في أجسامهم الصغيرة.

٥- هداية الهدهد وعجائب صنع الله فيه

ويحدثنا ابن القيم بأسلوبه السهل الأخاذ عن نوع آخر من مخلوقات الله التي لها في كتاب الله ذِكْر، ألا وهو الهدهد، متحدثاً عن هداية الله له فيقول:

«وهذا الهدهد من أهدى الحيوان وأبصره بمواضع الماء تحت الأرض، لا يراه غيره، ومن هدايته ما حكاه الله عنه في كتابه أنه قال لنبي الله سليمان، وقد فقده وتوعده، فلما جاءه بَدَره بالعذر قبل أن ينذره سليمان بالعقوبة، وخاطبه خطاباً هيجه به على الإصغاء إليه والقبول منه، فقال: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ [النمل: ٢٢]، وفي ضمن هذا أني أتيتك بأمر قد عرفته حق المعرفة بحيث أحطت به، وهو خبر عظيم له شأن، فلذلك قال: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢]، والنبأ هو الخبر الذي له شأن، والنفوس متطلعة إلى معرفته، ثم وصفه بأنه نبأ يقين، لا شك فيه ولا ريب، فهذه مقدمة بين يدي إخباره لنبي الله بذلك النبأ استفرغت قلب المخبر لتلقي الخبر، وأوجبت له التشوق التام إلى سماعه ومعرفته، وهذا نوع من براعة الاستهلال وخطاب التهييج.

ثم كشف عن حقيقة الخبر كشفاً مؤكداً بأدلة التأكيد، فقال: ﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ [النمل: ٢٣]، ثم أخبر عن شأن تلك الملكة، وأنها من أجلّ الملوك بحيث أوتيت من كل شيء يصلح أن تؤتاه الملوك، ثم زاد في عظيم شأنها بذكر عرشها الذي تجلس عليه، وأنه عرش عظيم، ثم أخبره بما يدعوه إلى قصدهم، وغزوهم في عقر دارهم بعد دعوتهم إلى الله، فقال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٢٤].

وحذف أداة العطف من هذه الجملة، وأتى بها مستقلة غير معطوفة على ما قبلها، إيذاناً بأنها هي المقصودة، وما قبلها توطئة لها، ثم أخبر عن المغوي لهم، الحامل لهم على ذلك، وهو تزيين الشيطان لهم أعمالهم، حتى صدهم

عن السبيل المستقيم، وهو السجود لله وحده، ثم أخبر أن ذلك الصد حال بينهم وبين الهداية والسجود لله الذي لا ينبغي السجود إلا له.

ثم ذكر من أفعاله - سبحانه - إخراج الخبء في السموات والأرض، وهو المخبوء فيهما من المطر والنبات والمعادن وأنواع ما ينزل من السماء، وما يخرج من الأرض، وفي ذكر الهدهد هذا الشأن من أفعال الرب تعالى بخصوصه إشعار بما خصه الله به من إخراج الماء المخبوء تحت الأرض.

قال صاحب الكشاف: وفي إخراج الخبء إمارة على أنه من كلام الهدهد لهندسته ومعرفته الماء تحت الأرض، وذلك بإلهام مَنْ يخرج الخبء في السموات والأرض جلت قدرته ولطف علمه، ولا يكاد يخفى على ذي الفراسة الناظر بنور الله مخايل كل شخص بصناعة أو فن من العلم في روائه ومنطقه وشمائله، فما عمل آدمي عملاً إلا ألقى الله عليه رداء عمله».

٦- هداية الحمام وعجائب صنع الله فيه

أما حديث ابن القيم عن الحمام وبدائع صنع الله فيه، وعجيب هدايته إلى ما هداه إليه فحديث طويل ممتع، يدل على أن التفكير في خلق الله منهج أخذ به أهل العلم أنفسهم تحقيقاً لأمر الله لعباده، وفي هذا يقول ابن القيم:

وهذا الحمام من أعجب الحيوان هداية، حتى قال الشافعي: أعقل الطير الحمام، وبُردُ الحمام هي التي تحمل الرسائل والكتب، وربما زادت قيمة الطير منها على قيمة المملوك والعبد، فإن الغرض الذي يحصل به لا يحصل بمملوك ولا بحيوان غيره؛ لأنه يذهب ويرجع إلى مكانه من مسيرة ألف فرسخ فما دونها، وتنهي الأخبار والأغراض والمقاصد التي تتعلق بها مهمات الممالك والدول.

والقيمون بأمرها يعتنون بأنسابها اعتناء عظيماً، فيفرقون بين ذكورها وإناثها وقت السفاد، وتنقل الذكور عن إناثها إلى غيرها، والإناث عن ذكورها، ويخافون عليها من فساد أنسابها وحملها من غيرها، ويتعرفون صحة طرقها ومحلها، ولا يأمنون أن تفسد الأنثى ذكراً من عرض الحمام فتعتريها الهجنة، والقيمون بأمرها لا يحفظون أرحام نسائهم ويحتاطون لها كما يحفظون أرحام حمامهم ويحتاطون لها.

والقيمون لهم في ذلك قواعد وطرق يعتنون بها غاية الاعتناء بحيث إذا رأوا حماماً ساقطاً لم يخف عليهم حسبها ونسبها وبلدها، ويعظمون صاحب التجربة والمعرفة، وتسمح أنفسهم بالجعل الوافر له.

ويختارون لحمل الكتب والرسائل الذكور منها، ويقولون: هو أحن إلى بيته لمكان أنثاه، وهو أشد متناً، وأقوى بدناً وأحسن اهتداء، وطائفة منهم يختار لذلك الإناث، ويقولون: الذكر إذا سافر وبعد عهده حنّ إلى الإناث وتاقت نفسه إليهن، فربما رأى أنثى في طريقه ومجيئه فلا يصبر عنها، فيترك السير، ومال إلى قضاء وطره منها.

وهدايته على قدر التعليم والتوطين، والحمام موصوف باليُمْن والإلف للناس، ويحب الناس ويحبونه، ويألف المكان ويثبت على العهد والوفاء لصاحبه، وإن أساء إليه، ويعود إليه من مسافات بعيدة، وربما صد فترك وطنه عشر حجج، وهو ثابت على الوفاء، حتى إذا وجد فرصة واستطاعة عاد إليه.

والحمام إذا أراد السفاد يلطف للأنثى غاية اللطف، وإذا علم الذكر أنه أودع رحم الأنثى ما يكون منه الولد يقوم هو والأنثى بطلب القصب والحشيش وصغار العيدان، فيعملان منه أفحوصة، وينسجانها نسجاً متداخلاً في الوضع الذي يكون بقدر حيمان الحمامة، ويجعلان حروفها شاخصة مرتفعة، لئلا

يتدحرج عنها البيض، ويكون حصناً للحاضن، ثم يتعاودان ذلك المكان، ويتعاقبان الأفحوص يسخنانه، ويطيبانه وينفيان طباعه الأول، ويحدثان فيه طبعاً آخر مشتقاً ومستخرجاً من طباع أبدانهما ورائحتهما، لكي تقع البيضة إذا وقعت في مكان هو أشبه المواضع بأرحام الحمام، ويكون على مقدار من الحر والبرد والرخاوة والصلابة.

ثم إذا ضربها المخاض بادرت إلى ذلك المكان، ووضعت فيه البيض، فإن أفزعها رعد قاصف رمت بالبيضة دون ذلك المكان الذي هيأته كالمرأة التي تُسقط من الفزع.

فإذا وضعت البيض في ذلك المكان لم يزالا يتعاقبان الحضن، حتى إذا بلغ الحضن مداه وانتهت أيامه انصدع عن الفراخ، فأعاناه على خروجه، فيبدآن أولاً بنفخ الريح في حلقه حتى تتسع حوصلته، علماً بأن الحوصلة تضيق عن الغذاء، فتتسع الحوصلة بعد التحامها، وتنفتق بعد ارتتاقها.

ثم يعلمان أن الحوصلة وإن كانت قد اتسعت شيئاً فإنها في أول الأمر لا تحتمل الغذاء، فيزقانه بلعابهما المختلط بالغذاء، وفيه قوى الطعم.

ثم يعلمان أن طبع الحوصلة تضعف عن استمرار الغذاء، وأنها تحتاج إلى دفع وتقوية، لتكون لها بعض المتانة، فيلقطان من الغيطان الحب اللين الرخو، ويزقانه الفرخ، ثم يزقانه بعد ذلك الحب الذي هو أقوى وأشد.

ولا يزالان يزقانه بالحب والماء على تدريج بحسب قوة الفرخ، وهو يطلب ذلك منهما، حتى إذا علما أنه قد أطاق اللقط منعاه بعض المنع، ليحتاج إلى اللقط ويعتاده، وإذا علما أن رئته قد قويت ونمت، وأنهما إن فطماه فطماً تاماً قوي على اللقط وتبلغ لنفسه ضرباه إذا سألهما الزق، ومنعاه.

ثم تنزع تلك الرحمة العجيبة منهما، وينسيان ذلك التعطف المتمكن حين

يعلمان أنه قد أطاق القيام بالتكسب بنفسه، ثم يبتدآن ابتداء ذلك النظام.

ومن عجيب هداها أنها إذا حملت الرسائل سلكت الطرق البعيدة عن القرى ومواضع الناس؛ لئلا يعرض لها من يصدها، ولا يرد مياههم، بل يرد المياه التي لا يردها الناس.

ومن هداية الحمام أن الذكر والأنثى يتقاسمان أمر الفراخ، فتكون الحضانة والتربية والكفالة على الأنثى، وجلب القوت والزق على الذكر، فإنّ الأب هو صاحب العيال والكاسب لهم، والأم هي التي تحبل وتلد وترضع.

ومن عجيب أمرها ما ذكره الجاحظ: أن رجلاً كان له زوج حمام مقصوص، وزوج طيار، وللطيار فرخان، قال: ففتحت لهما في أعلى الغرفة كوة للدخول والخروج وزق فراخهما، قال: فحبسني السلطان فجأة، فاهتممت بشأن المقصوص غاية الاهتمام، ولم أشك في موتهما؛ لأنهما لا يقدران على الخروج من الكوة، وليس عندهما ما يأكلان ويشربان.

قال: فلما خلي سبيلي، لم يكن لي هم غيرهما، ففتحت البيت فوجدت الفراخ قد كبرت، ووجدت المقصوص على أحسن حال، فعجبت، فلم ألبث أن جاء الزوج الطيار، فدنا الزوج المقصوص إلى أفواههما يستطعمانهما كما يستطعم الفرخ فزقاهما.

فانظر إلى هذه الهداية، فإن المقصوصين لما شاهدا تلطف الفراخ، للأبوين وكيف يستطعمانهما إذا اشتد بهما الجوع والعطش، فعلا كفعل الفرخين، فأدركتهما رحمة الطيارين، فزقاهما كما يزقان فرخيهما.

ومن هدايتها أيضاً أنه إذا رأى الناس في الهواء عرف أي صنف يريده، وأي نوع من الأنواع ضده، فيخالف فعله ليسلم منه، ومن هدايته أنه في أول نهوضه يغفل، ويمر بين النسر والعقاب، وبين الرخم والبازي، وبين الغراب والصقر،

فيعرف من يقصده، ومن لا يقصده، وإن رأى الشاهين فكأنه يرى السم الناقع، وتأخذه حيرة كما يأخذ الشاة عند رؤية الذئب، والحمار عند مشاهدة الأسد.

مزيد من عجائب هداية الله مخلوقاته

ويعرض علينا ابن القيم جملة من عجائب هداية الله في مخلوقاته مما توصل إليه أهل العلم في زمانه، ولاحظوه من الوقائع في عهدهم فمن ذلك:

٧- كلبة ترضع طفلاً مات أهله

قال الجاحظ: لما وقع الطاعون الجارف أتى على أهل دار، فلم يشك أهل تلك المحلة أنه لم يبق منهم أحد، فعمدوا إلى باب الدار فسدوه، وكان قد بقي صبي صغير يرضع، ولم يفطنوا له، فلما كان بعد ذلك بمدة تحول إليها بعض ورثة القوم، ففتح الباب، فلما أفضى إلى عرصة الدار إذا هو بصبي يلعب مع جراء كلبة قد كانت لأهل الدار فراعه ذلك، فلم يلبث أن أقبلت كلبة قد كانت لأهل الدار، فلما رآها الصبي حبا إليها، فأمكنته من أطبائها، فمصها، وذلك أن الصبي لما اشتد جوعه ورأى جراء الكلبة يرتضعون من أطباء الكلبة حبا إليها، فعطفت عليه، فلما سقته مرة أدامت له ذلك، وأدام هو الطلب.

٨ - المكاء يقتل الأفعى

وذكر ابن الاعرابي قال: أكلت حية بيض مكاء، فجعل المكاء يصوت ويطير على رأسها، ويدنو منها، حتى إذا فتحت فاها وهمت به ألقى حسكة، فأخذت بحلقها حتى ماتت، وأنشد أبو عمر الشيباني في ذلك قول الأسدي:

إن كنت أبصرتني عيلاً ومصطلماً فربما قتل المكاء ثعبانا

٩- هداية الثعلب وحيله

ومن عجيب هداية الثعلب أنه إذا امتلأ من البراغيث أخذ صوفة بفمه، ثم عمد إلى ماء رقيق، فنزل فيه قليلاً، حتى ترتفع البراغيث إلى الصوفة، فيلقيها في الماء ويخرج.

ومن عجيب أمره أن ذئباً أكل أولاده، وكان للذئب أولاد وهناك زبية، فعمد الثعلب وألقى نفسه فيها، وحفر فيها سرداباً يخرج منه، ثم عمد إلى أولاد الذئب فقتلهم، وجلس ناحية ينتظر الذئب، فلما أقبل وعرف أنها فعلته هرب قدامه، وهو يتبعه، فألقى نفسه في الزبية، ثم خرج من السرداب، فألقى الذئب نفسه وراءه فلم يجده، ولم يطق الخروج، فقتله أهل الناحية.

ومن عجيب أمره أن رجلاً كان معه دجاجتان، فاختفى له، وخطف إحداهما وفر، ثم أعمل فكره في أخذ الأخرى، فتراءى لصاحبها من بعيد وفي فمه شيء شبيه بالطائر، وأطمعه في استعادتها بأن تركه وفر، فظن الرجل أنها الدجاجة، فأسرع نحوها، وخالفه الثعلب إلى أختها، فأخذها وذهب.

ومن عجيب أمره أنه أتى إلى جزيرة فيها طير، فأعمل الحيلة كيف يأخذ منها شيئاً فلم يطق، فذهب وجاء بضغث من حشيش وألقاه في مجرى الماء الذي نحو الطير ففزع منه، فلما عرفت أنه حشيش رجعت إلى أماكنها، فعاد لذلك مرة ثانية، وثالثة، ورابعة، حتى تواظب الطير على ذلك وألفته، فعمد إلى جرزة أكبر من ذلك، فدخل فيها وعبر إلى الطير، فلم يشك الطير أنه من جنس ما قبله، فلم تنفر منه، فوثب على طائر منها وعدا به.

ومن عجيب أمره أنه إذا اشتد به الجوع انتفخ، ورمى بنفسه في الصحراء كأنّه جيفة، فتتداوله الطير، فلا يظهر حركة ولا نفساً، فلا تشك أنه ميت، حتى

إذا نقر بمنقاره، وثب عليها، فضمها ضمة الموت.

ومن عجيب أمره أنه إذا أصاب القنفذ، قَلَبَهُ لِظهره لأجل شوكه، فيجتمع القنفذ حتى يصير كبة شوك، فيبول الثعلب على بطنه ما بين مغرز عجبه إلى فكيه، فإذا أصابه البول اعتراه الأسر، فانبسط، فيسلخه الثعلب من بطنه، ويأكل مسلوخه.

١٠- من عجائب الذئاب

ومن عجيب الذئب أنه عرض لإنسان يريد قتله، فرأى معه قوساً وسهماً، فذهب وجاء بعظم رأس جمل في فيه، وأقبل نحو الرجل، فجعل الرجل كلما رماه بسهم اتقاه بذلك العظم حتى أعجزه، وعاين نفاد سهمه، فصادف من استعان به على طرد الذئب.

١١- من عجائب القرود

ومن عجيب أمر القرود ما ذكره البخاري في صحيحه، عن عمرو بن ميمون الأودي، قال: رأيت في الجاهلية قرداً وقردة زنيا، فاجتمع عليهما القرود فرجموهما حتى ماتا، فهؤلاء القرود أقاموا حد الله حين عطله بنو آدم.

١٢- من عجائب البقر

وهذه البقر يضرب ببلادتها المثل، وقد أخبر النبي ﷺ (أنّ رجلاً بينما هو يسُوق بقرة إذ ركبها فقالت: لم أخلق لهذا) فقال الناس: سبحان الله بقرة تتكلم؟! فقال: (فإني أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر، وما هما ثَمّ).

قال: (وبينما رجل يرعى غنماً له إذ عدا الذئبُ على شاة منها فاستنقذها منه، فقال الذئب: هذه استنقذتها مني، فمن لها يوم السبُع يوم لا راعي لها غيري)، فقال الناس: سبحان الله ذئب يتكلم؟! فقال رسول الله ﷺ (إني أومنُ بهذا أنا وأبو بكر وعمر وما هما ثمّ).

١٣- من عجائب الفئران

ومن عجيب أمر الفئران أنها إذا شربت من الزيت الذي في أعلى الجرة فنقص وعزّ عليها الوصول إليه ذهبت، وحملت في أفواهها ماءً وصبته في الجرة، حتى يرتفع الزيت فتشربه.

١٤- من عجائب الحيوان استخدامه الدواء

والأطباء تزعم أن الحقنة أخذت من طائر طويل المنقار، إذا تعسر عليه الذرق جاء إلى البحر المالح، وأخذ بمنقاره منه واحتقن به، فيخرج الذرق بسرعة.

وهذا ابن عرس والقنفذ إذا أكلا الأفاعي والحيات عمدا إلى الصتر النهري، فأكلاه كالترياق لذلك.

وهذا الثعلب إذا أصابه صدع أو جرح يأتي إلى صبغ معروف، فيأخذ منه، ويضعه على جرحه كالمرهم، والدبّ إذا أصابه جرح يأتي إلى نبت قد عرفه، وجهله صاحب الحشائش، فيتداوى به فيبرأ!

١٥- تعلم الإنسان من الحيوان

وكثير من العقلاء يتعلم من الحيوانات البهم أموراً تنفعه في معاشه وأخلاقه وصناعته وحربه وحزمه وصبره، وهداية الحيوان فوق هداية أكثر الناس قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤] قال أبو جعفر الباقر: والله ما اقتصر على تشبيههم بالأنعام، حتى جعلهم أضل سبيلاً منها، فمن هدى الأنثى من السباع إذا وضعت ولدها أن ترفعه في الهواء أياماً تهرب به من الذر والنمل، لأنها تضعه كقطعة من لحم، فهي تخاف عليه الذر والنمل، فلا تزال ترفعه وتضعه وتحوله من مكان إلى مكان حتى يشتد.

وقال ابن الأعرابي: قيل لشيخ من قريش: مَنْ علمك هذا كله، وإنما يعرف مثله أصحاب التجارب والتكسب؟ قال: علمني الله ما علم الحمامة تقلب بيضها حتى تعطي الوجهين جميعاً نصيبهما من حضانتها، ولخوف طباع الأرض على البيض إذا استمر على جانب واحد.

وقيل لآخر: مَنْ علمك اللجاج في الحاجة والصبر عليها وإن استعصت حتى تظفر بها؟ قال: مَنْ علم الخنفساء إذا صعدت في الحائط تسقط، ثم تصعد، ثم تسقط مراراً عديدة، حتى تستمر صاعدة.

وقيل لآخر: مَنْ علمك البكور في حوائجك أول النهار لا تخل به؟ قال: من علم الطير تغدو خماصاً كل بكرة في طلب أقواتها على قربها وبعدها، لا تسأم ذلك، ولا تخاف ما يعرض لها في الجو والأرض.

وقيل لآخر: مَنْ علمك السكون والتحفظ والتماوت حتى تظفر بأربك، فإذا ظفرت به وثبت وثوب الأسد على فريسته؟ فقال: الذي علم السِّنَّورة أن ترصد

جحر الفأرة، فلا تتحرك ولا تتلوى، ولا تختلج كأنها ميتة، حتى إذا برزت لها الفأرة وثبت عليها كالأسد.

وقيل لآخر: مَنْ علمك الصبر والجلد والاحتمال وعدم السكون؟ قال: من علم أبا أيوب صبره على الأثقال والأحمال الثقيلة، والمشي والتعب وغلظة الجمّال وضربه، فالثقل والكل على ظهره، ومرارة الجوع والعطش في كبده، وجهد التعب والمشقة ملأ جوارحه، ولا يعدل به ذلك عن الصبر.

وقيل لآخر: مَنْ علمك حسن الإيثار والسماحة بالبذل؟ قال: من علم الديك يصادف الحبة في الأرض، وهو يحتاج إليها فلا يأكلها ؛ بل يستدعي الدجاج ويطلبهن طلباً حثيثاً، حتى تجيء الواحدة منهن فتلقطها، وهو مسرور بذلك طيب النفس به، وإذا وضع له الحب الكثير فرّقه هنا وها هنا، وإن لم يكن هناك دجاج، لأن طبعه قد ألف البذل والجود، فهو يرى من اللؤم أن يستبد وحده بالطعام.

وقيل لآخر: مَنْ علمك هذا التحيل في طلب الرزق ووجوه تحصيله؟ قال: من علم الثعلب تلك الحيل التي يعجز العقلاء عن علمها وعملها، وهي أكثر من أن تذكر.

ومَنْ علم الأسد إذا مشى وخاف أن يقتفى أثره ويطلب، عفى أثر مشيته بِذَنَبِهَ، ومن علمه أن يأتي إلى شبله في اليوم الثالث من وضعه، فينفخ في منخريه، لأن اللبوة تضعه جرواً كالميت، فلا تزال تحرسه حتى يأتي أبوه فيفعل به ذلك !.

ومن ألهم كرام الأسود وأشرافها أن لا تأكل إلا من فريستها، وإذا مر بفريسة غيره لم يدن منها ولو جهده الجوع !

ومن علم الأنثى من الفيلة إذا دنا وقت ولادتها أن تأتي إلى الماء فتلد فيه،

لأنها دون الحيوانات لا تلد إلا قائمة، لأن أوصالها على خلاف أوصال الحيوان، وهي عالية، فتخاف أن تسقطه على الأرض فينصدع أو ينشق، فتأتي ماء وسطاً تضعه فيه يكون كالفراش اللين والوطاء الناعم.

ومن علم الذباب إذا سقط في مائع أن يتقي بالجناح الذي فيه الداء دون الآخر !

ومَنْ علم الكلب إذا عاين الظباء أن يعرف المعتل من غيره، والذكر من الأنثى، فيقصد الذكر مع علمه بأنّ عدوه أشد وأبعد وثبة، ويدع الأنثى على نقصان عدوها ؛ لأنّه قد علم أن الذكر إذا عدا شوطاً أو شوطين حقن ببوله، وكل حيوان إذا اشتد فزعه فإنه يدركه الحقن، وإذا حقن الذكر لم يستطع البول مع شدة العدو، فيقل عدوه، فيدركه الكلب، وأما الأنثى فتحذف بولها لسعة القبل وسهولة المخرج، فيدوم عدوها !.

ومَنْ علمه أنه إذا كسا الثلج الأرض أن يتأمل الموضع الرقيق الذي قد انخسف، فيعلم أن تحته جحر الأرانب، فينبشه، ويصطادها علماً منه بأن حرارة أنفاسها تذيب بعض الثلج فيرق !

ومن علم الذئب إذا نام أن يجعل النوم نوباً بين عينيه، فينام بإحداهما، حتى إذا نعست الأخرى نام بها، وفتح النائمة ! حتى قال بعض العرب:

ينـام بإحـــدى مقلـتيـه ويتقي بأخرى المنايا فهو يقظان نائم

ومَنْ علم العصفورة إذا سقط فرخها أن تستغيث، فلا يبقى عصفور بجوارها حتى يجيء، فيطيرون حول الفرخ، ويحركونه بأفعالهم، ويحدثون له قوة وهمة وحركة، حتى يطير معهم !

قال بعض الصيادين: ربما رأيت العصفور على الحائط، فأومي بيدي كأني أرميه فلا يطير، وربما أهويت إلى الأرض كأني أتناول شيئاً فلا يتحرك، فإن

مسست بيدي أدنى حصاة أو حجر أو نواة طار قبل أن تتمكن منها يدي.

ومن علم «اللبب» وهو صنف من العناكب أن يلطأ بالأرض، ويجمع نفسه، فيرى الذبابة أنه لاه عنها، ثم يثب عليها وثوب الفهد!

ومن علم العنكبوت أن تنسج تلك الشبكة الرفيعة المحكمة، وتجعل في أعلاها خيطاً ثم تتعلق به، فإذا تعرقلت البعوضة في الشبكة تدلت إليها فاصطادتها !

ومن علم الظبي أن لا يدخل كناسه إلا مستدبراً، ليستقبل بعينه ما يخافه على نفسه وخشفه !

ومن علم السنور إذا رأى فأرة في السقف أن يرفع رأسه كالمشير إليها بالعود، ثم يشير إليها بالرجوع، وإنما يريد أن يدهشها فتزلق فتسقط !

ومن علم اليربوع أن يحفر بيته في سفح الوادي حيث يرتفع عن مجرى السيل ليسلم من مدق الحافر ومجرى الماء، ويعمقه ثم يتخذ في زواياه أبواباً عديدة، ويجعل بينها وبين وجه الأرض حاجزاً رقيقاً، فإذا أحس بالشر فتح بعضها بأيسر شيء، وخرج منه، ولما كان كثير النسيان لم يحفر بيته إلا عند أكمة أو صخرة علامة له على البيت، إذا ضل عنه !

ومن علم الفهد إذا سمن أن يتوارى لثقل الحركة عليه حتى يذهب ذلك السمن، ثم يظهر!

ومن علم الأيل إذا سقط قرنه أن يتوارى، لأنّ سلاحه قد ذهب، فيسمن لذلك، فإذا كمل نبات قرنه تعرض للشمس والريح، وأكثر من الحركة ليشتد لحمه، ويزول السمن المانع له من العدو.

وهذا باب واسع جداً، ويكفي فيه قوله - سبحانه - ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ

وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ * وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٨-٣٩].

وجه المماثلة بين الحيوانات وبني الإنسان:

قال ابن عباس في رواية عطاء: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨]، ويريد: يعرفونني، ويوحدونني، ويسبحونني، ويحمدونني، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]، ومثل قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ [النور: ٤١].

ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ [الحج: ١٨] وقوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٤٩]، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠]، ويدل عليه قوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨]، وقوله: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ﴾ [النمل: ١٨]، وقول سليمان ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ [النمل: ١٦].

وقال مجاهد: أمم أمثالكم، أصناف مصنفة تعرف بأسمائها، وقال الزجاج: أمم أمثالكم في أنها تبعث.

وقال ابن قتيبة: أمم أمثالكم في طلب الغذاء، وابتغاء الرزق، وتوقي المهالك.

وقال سفيان بن عيينة: ما في الأرض آدمي إلا وفيه شبه من البهائم، فمنهم من يهتصر اهتصار الأسد، ومنهم من يعدو عدو الذئب، ومنهم من ينبح نباح الكلب، ومنهم من يتطوس كفعل الطاووس، ومنهم من يشبه الخنازير التي لو

ألقي إليها الطعام الطيب عافته، فإذا قام الرجل عن رجيعه ولغت فيه، فلذلك تجد من الآدميين من لو سمع خمسين حكمة لم يحفظ واحدة منها، وإن أخطأ رجل ترّواه وحفظه.

قال الخطابي: ما أحسن ما تأول سفيان هذه الآية واستنبط منها هذه الحكمة، وذلك أن الكلام إذا لم يكن حكمه مطاوعاً لظاهره وجب المصير إلى باطنه، وقد أخبر الله عن وجود المماثلة بين الإنسان وبين كل طائر ودابة، وذلك ممتنع من جهة الخلقة والصورة، وعدم من جهة النطق والمعرفة، فوجب أن يكون منصرفاً إلى المماثلة في الطباع والأخلاق.

والله - سبحانه - قد جعل بعض الدواب كسوباً محتالاً، وبعضها متوكلاً غير محتال، وبعض الحشرات يدخر لنفسه قوت سنته، وبعضها يتكل على الثقة بأن له في كل يوم قدر كفايته رزقاً مضموناً وأمراً مقطوعاً، وبعضها لا يعرف ولده ألبتة، وبعض الإناث تكفل ولدها لا تعدوه، وبعضها تضيع ولدها، وتكفل ولد غيرها، وبعضها لا تعرف ولدها إذا استغنى عنها، وبعضها يدخر، وبعضها لا تكسب له، وبعض الذكور يعول ولده، وبعضها لا تزال تعرفه وتعطف عليه.

وجعل بعض الحيوانات يُتمها من قِبل أمهاتها، وبعضها يُتمها من قبل آبائها، وبعضها لا يلتمس الولد، وبعضها يستفرغ الهم في طلبه، وبعضها يعرف الإحسان ويشكره، وبعضها ليس ذلك عنده شيئاً، وبعضها يؤثر على نفسه، وبعضها إذا ظفر بما يكفي أمة من جنسه لم يدع أحداً يدنو منه.

وبعضها يألف بني آدم ويأنس بهم، وبعضها يستوحش منهم، وينفر غاية النفار، وبعضها لا يأكل إلا الطيب، وبعضها لا يأكل إلا الخبائث، وبعضها يجمع بين الأمرين.

وبعضها لا يؤذي إلا من بالغ في أذاها، وبعضها يؤذي من لا يؤذيها، وبعضها حقود لا ينسى الإساءة، وبعضها لا يذكرها ألبتة، وبعضها لا يغضب، وبعضها يشتد غضبه، فلا يزال يسترضى حتى يرضى، وبعضها عنده علم ومعرفة بأمور دقيقة لا يهتدي إليها أكثر الناس، وبعضها لا معرفة له بشيء من ذلك ألبتة، وبعضها يستقبح القبيح وينفر منه، وبعضها الحسن والقبيح سواء عنده، وبعضها يقبل التعليم بسرعة، وبعضها مع الطول، وبعضها لا يقبل ذلك بحال.

وهذا كله من أدل الدلائل على الخالق لها سبحانه، وعلى إتقان صنعه، وعجيب تدبيره، ولطيف حكمته، فإن فيما أودعها من غرائب المعارف، وغوامض الحيل، وحسن التدبير، والتأني لما تريده، ما يستنطق الأفواه بالتسبيح، ويملأ القلوب من معرفته ومعرفة حكمته وقدرته، وما يعلم به كل عاقل أنه لم يخلق عبثاً، ولم يترك سدى، وأن له - سبحانه - في كل مخلوق حكمة باهرة وآية ظاهرة وبرهاناً قاطعاً، يدل على أنه رب كل شيء ومليكه، وأنه المتفرد بكل كمال دون خلقه، وأنه على كل شيء قدير، وبكل شيء عليم.

١٦- هداية الخالق الكائنات لطريقة التكاثر

يقول الدكتور يوسف عز الدين موضحاً هذا الموضوع: «من الأشياء العجيبة التي تشترك فيها جميع الكائنات الحية القدرة على التكاثر، لتكوين ذرية يكون من شأنها الاستمرار بالحياة، واستمرار بقاء النوع وعدم انقراضه.

وتتم عملية إنجاب الذرية في الكائنات الحيّة المختلفة بطرق شتى، ولكنّها تصل إلى الهدف المنشود. (فالبكتريا) (وهي من النباتات) تتكاثر، وكذلك

تفعل باقي النباتات والحيوانات على اختلاف درجة رقيها. ولا يمكن من وجهة نظر العلوم الرياضية أن تحدث مصادفات يكون من شأنها إيجاد ذكر أو أنثى في آلاف من النباتات والحيوانات لهدف مرسوم ومحدد وهو إنجاب ذرية تبقى بعد الفناء.

ومن الحيوانات والنباتات ما لا يتميز فيها ذكر وأنثى، ومع ذلك فإنّها تتكاثر وتنجب ذرية، فحيوان صغير الحجم أوّلي مثل حيوان (الأميبا) الذي يعيش في الماء والمكّون جسمه من خلية واحدة يتكاثر بطريقة عجيبة، إذ إنّ الحيوان الواحد ينقسم إلى قسمين، وكل قسم يتحول إلى حيوان، والحيوانات المتكونة من الانقسام تنقسم بدورها إلى حيوانين وهكذا... يحدث هذا عندما تكون ظروف الحياة ملائمة وعادية.

أمّا إذا شعر هذا الحيوان بما ينذر بالخطر فإنّه يتحوصل؛ أي يفرز حول جسمه حوصلة، وينقسم إلى حيوانين، بل عشرات الحيوانات داخل الحوصلة؛ لكي يعوض الوقت الذي قد يضيع هباء داخل الحوصلة إلى حين رجوع الظروف الملائمة لحياته.

ويحدث التكاثر عن طريق الانقسام في حيوانات أوليه عديدة غير (الأميبا) مثل الحيوان المسمى: (البراميسيوم) وهو يعيش في الماء، ويتكاثر أيضاً بالانقسام الثنائي في الظروف الملائمة كما تنقسم (الأميبا)، ولكنه من آن لآخر يحتاج إلى تجديد نشاطه وحيويته، فيلجأ إلى طريقة أخرى للتكاثر بالغة التعقيد يكون من شأنها تجنيد النَّوَىٰ (ولكل خلية نواة كما هو معلوم) حيث ينجب كل فرخ في هذه الحالة أربعة أفراد بدلاً من انقسام حيوان إلى حيوانين فقط.

وفي الحيوانات الأرقى من هذه الحيوانات الأولية، إذا كانت ظروف الحياة تحول دون سهولة التقاء الأنثى بالذكر لإنجاب الذرية، فإنّ الحيوان في هذه

الحالة يصبح أنثى وذكراً في الوقت نفسه، أي يصبح خنثى حيث يضم جسمه أعضاء التناسل الأنثوية والذكرية جنباً إلى جنب، فيستطيع بذلك أن ينجب ذريته دون حاجة إلى انتظار فرصة التقاء الجنسين، يحدث هذا مثلاً في الدودة الكبدية التي تعيش في القنوات المرارية لبعض الحيوانات حيث يصعب على أحد الجنسين التنقل والتجول في هذا المكان الضيق للعثور على الجنس الآخر، وفي الوقت نفسه إذا حدث أن التقى حيوانان من هذه الديدان من الممكن أن يلقح أحدهما الآخر حيث يصبح أحدهما وكأنه أنثى، ويصبح الآخر وكأنه ذكر.

إن حدوث ملايين المصادفات في آن واحد لهدف معين مشترك وفي حيوانات مختلفة وبوسائل متباينة شيء لا يقره العلم، ولا تقره علوم الرياضيات، وفي هذه الحالة لا بدّ أن يسلم بوجود قوة خالقة عاملة وراء هذا كله.

ومنذ وجود أول حيوان ثديي على هذه الأرض، والأنثى مزودة بمصنع لإنتاج اللبن، وذلك لكي يضمن الصغير الحصول على غذائه بمجرد خروجه من بطن أمه، ولو لم يوجد هذا الثدي الذي يبرز من جسم الأم منذ أول حيوان ثديي لما أتيحت فرصة النمو والبقاء على قيد الحياة لأول مولود، أي أنها عملية مدبرة ومقدرة منذ البداية، ولا تخضع للتجربة والخطأ، إذ إنها لا تحتمل الخطأ مرة واحدة.

فهل يمكن أن يتصور أيّ إنسان عاقل أن تزويد الأم بطعام الصغير المولود يأتي نتيجة مصادفة عمياء؟ ولبن أنثى الحيوانات الثديية - علاوة على فائدته الغذائية - نجده مزوداً بمواد تحمل للمولود مناعة ضد الأمراض إلى أن يشب عن الطوق، ويمكن جسمه من الدفاع عن نفسه. وجميع الجهود التي تضافرت لصنع الألبان اللازمة لتغذية الصغار فشلت في صنع الألبان التي تحمل نفس صفات اللبن الذي أمد الله به الأنثى».

أهمية الغريزة الجنسية:

ويحدثنا الدكتور يوسف عن الغريزة الجنسية وأهميتها وعظيم أثرها فيقول: «ومن الأشياء التي حيرت العلماء كنه الغريزة الجنسية، تلك الغريزة التي تجعل الذكر ينجذب إلى الأنثى، والأنثى تنجذب إلى الذكر.

والغريزة الجنسية هي أقوى الغرائز؛ لأنها أهمها بالنسبة لبقاء النوع وعدم انقراضه، والهدف الرئيسي لبقاء بعض الحيوانات هو إتمام الالتقاء الجنسي، ثم يموت بعد ذلك.

فالطور الكامل للحشرات المسماة (ذباب مايو)، لا يزيد عن بضعة أيام، وهي في طورها الكامل هذا لا تتغذى إذ لا توجد بها أجزاء للفم تصلح لتناول الطعام إطلاقاً، وإنما وظيفتها الرئيسية في هذه الفترة القصيرة من العمر هي التقاء الذكر بالأنثى لإنجاب الذرية، حيث تموت الأم بعد ذلك مباشرة بعد أن تكون أدّت رسالتها وكذلك يموت الأب».

١٧- هداية الخالق الحيوان تعويض ما يفقده من أجزاء جسمه

ويتعرض الدكتور يوسف في مقالاته في جريدة الأهرام عما زود الله به مخلوقاته من خاصية تعويض الحيوان عما يفقده من أجزاء جسده فيقول: «ومن الصفات الأخرى المذهلة التي نجدها في جميع الحيوانات والنباتات القدرة على تعويض الأجزاء المفقودة، وتوجد بدرجات مختلفة في الكائنات الحية.

ففي حيوانات عديدة مثل ذلك الحيوان المسمى «الهيدرا» نجد شيئاً عجيباً يكتفي العلم بوصفه، ولكنّه لا يستطيع له تفسيراً، هذا الحيوان يعيش في الماء،

وهو أنبوبي الشكل لا يزيد طوله عن بضعة مليمترات، ذو قاعدة مقفلة وفتحة أمامية تستخدم كفم لدخول الطعام، وفي الوقت نفسه تستعمل كفتحة « است » تخرج منها الفضلات. وحول تلك الفتحة نجد عدداً من الزوائد المجوفة، يتصل تجويفها بتجويف الجسم.

إذا قطعنا هذا الحيوان إلى نصفين، نصف علوي، ونصف سفلي، فإننا نجد أنّ بعض الخلايا في كل نصف تتكاثر بحيث تستكمل الأجزاء الناقصة، فتكون النتيجة تكوين حيوانين يشبهان الحيوان الأصلي، ولا يقتصر الأمر على ذلك، إذ إننا لو قطعنا ذلك الحيوان، إلى عدة أجزاء فإنّ كل جزء ينمو ويعوض جميع الأجزاء المفقودة، ويصبح حيواناً كامل التكوين.

ويتركب جدار الجسم لهذا الحيوان من طبقتين من الخلايا: طبقة خارجية وطبقة داخلية تحيط بالتجويف الداخلي للجسم، وفي كل طبقة من الطبقتين توجد أنواع مختلفة من الخلايا لكل نوع منها وظيفة محددة، ومعظم خلايا الطبقة الخارجية وظيفتها الأساسية حماية جسم الحيوان، أما الطبقة الداخلية فوظيفتها الرئيسة هضم الغذاء الذي يبتلعه الحيوان من خلال فتحة الفم.

ولو قلبنا ذلك الحيوان كما يقلب الجورب، فإنّ الخلايا التي كانت خارجية تصبح داخلية، أي تحيط بتجويف الجسم، بينما الخلايا التي كانت داخلية تصبح خارجية، فماذا يحدث في هذه الحالة؟ لقد وجد العلماء الذين أجروا هذه التجارب أن الخلايا التي أصبحت الآن خارجية تهاجر نحو الداخل، بينما الخلايا التي أصبحت داخلية تهاجر نحو الخارج لكي يعود تركيب الحيوان إلى ما كان عليه، ولو لم يحدث ذلك لمات الحيوان، إذ إن الخلايا التي تحيط بتجويف الجسم لا بدّ أن تكون الخلايا الهاضمة، لتتم عملية هضم المواد الغذائية التي في تجويف الجسم، بينما الخلايا الخارجية لا بدّ أن تكون الخلايا الوقائية التي تحفظ الجسم وتقيه من التلف.

وإذا قطعنا دودة الأرض إلى جزءين، فإنّ كلّ جزء ينمو، ويعوض الجزء المفقود.

وفي حيوانات أخرى (كالجمبري، أو الكابوريا) وغيرهما إذا فقدت إحدى الأرجل فإنّ رجلاً جديدة تتكون بدلاً من المفقودة.

والبرص إذا استشعر خطراً أو أمسكه من ذنبه إنسان أو حيوان فإنه يفصل ذلك الذنب عن جسمه، وينجو من الخطر، وينمو له ذنب جديد.

ونحن إذا جرحنا أنفسنا في أثناء الحلاقة أو لأي سبب آخر، فإن خلايا جديدة تتكون بدلاً من الخلايا التي أتلفها الجرح، ولو لم يحدث ذلك لما أصبح في الإمكان إجراء أية عملية جراحية.

وإذا كسرت لنا عظمة فإنّ خلايا جديدة تتكون ويلتئم الكسر.

لا يمكن أن يحدث هذا نتيجة للمصادفة، بل لا بدّ أن يكون نتيجة تدبير يتجه نحو هدف معين، وهو المحافظة على حياة الفرد، وتحكمه قوى كامنة في الحيوان لم يتوصل العلم إلى كنهها، إنها قوى أودعها الله في الحيوان، والحيوان لا يعلم عنها شيئاً، ولا يدرك ماذا يفعل».

١٨- اتفاق جميع الأحياء في التنفس وإن اختلفت طرائقه

ويعرض الدكتور يوسف في مقالاته القيمة لهذا الموضوع، فيقول:

«إن عملية التنفس التي نجدها في جميع الكائنات الحية من أدناها إلى أرقاها عملية عجيبة، وهي في جميع الحالات ليست سوى عملية أكسدة، أي اتحاد الأكسجين بالمواد الغذائية التي في خلايا الجسم، ونتيجة لهذه الأكسدة تنطلق الطاقة اللازمة للكائن الحي التي لولاها لما استطاع القيام بأيّ نشاط من أنشطته المختلفة.

تتم هذه الأكسدة في الحيوانات المختلفة بطرق متباينة، ولكن النتيجة في جميع الأحوال واحدة، وهي انطلاق الطاقة، وفي الوقت نفسه يتكون الماء (وثاني أوكسيد الكربون) نتيجة لهذه العملية، ولذا فالمظهر الواضح لعملية التنفس هو أخذ (الأوكسجين) اللازم (لأكسدة) المواد الغذائية وبإخراج (ثاني أوكسيد الكربون) والماء الناتجين عن هذه العملية.

ففي حيوان بسيط (كالأميبا) حيث يتكون الجسم من خلية واحدة، تتم عملية التنفس بطريقة غاية في البساطة، إنّ هذا الحيوان الذي يشبه قطعة دقيقة من (الجيلاتين) الرخو يعيش في الماء، ويوجد بالماء المحيط به قدر من (الأوكسجين) المذاب، هذا (الأوكسجين) الذائب في الماء ينفذ إلى جسم (الأميبا) حيث يؤكسد المواد الغذائية التي في جسمها، فتنطلق الطاقة اللازمة لحركتها ونموها، وغيرها من العمليات الضرورية للحياة.

ويتكون (ثاني أوكسيد الكربون) والماء نتيجة لعملية (الأكسدة)، علاوة على انطلاق الطاقة.

وتتخلص (الأميبا) من الماء الزائد بطريقة تثير الدهشة، حيث تتجمع قطيرات الماء حتى تتكون فجوة مليئة بالماء، هذه الفجوة تتحرك نحو حافة جسم الحيوان، ثم تنفجر ملقية بالماء خارج الجسم، ثم تعود لتتكون من جديد. . . وهكذا.

أما ثاني (أوكسيد الكربون) فينفذ من داخل الجسم إلى الماء المحيط به.

وتحدث عملية التنفس في الحشرات عن طريق فتحات على جانبي الجسم توصل إلى شبكة من الأنابيب الدقيقة تتفرع داخل جسم الحشرة إلى أنابيب أصغر فأصغر، حتى تصل في النهاية إلى جميع الخلايا تقريباً، وبهذا التنظيم يدخل (الأوكسجين) من الفتحات الخارجية، ويصل مباشرة إلى خلايا الجسم.

أمّا في الإنسان وفي عديد من الحيوانات الأخرى فإنّ (الأوكسجين) يصل إلى أنسجة الجسم عن طريق الخلايا الدموية الحمراء التي تسبح في الدم، ويوجد بداخل هذه الخلايا الدموية المادة المسماة (بالهيموجلوبين).

ومن الخواص العجيبة لهذه المادة سرعة اتحادها (بالأوكسجين، وثاني أوكسيد الكربون) والقدرة على الانفصال عنهما بسهولة. فإذا وصلت هذه الخلايا الدموية إلى الرئتين، فإنها تتحمل بالأوكسجين، وتسير مع الدورة الدموية حتى تصل إلى الشعيرات الدموية الدقيقة التي في الأنسجة، فينفصل الأوكسجين عنها وينفذ إلى الأنسجة من خلال الجدران الرقيقة للشعيرات الدموية حيث يستخدم (لأكسدة) المواد الغذائية، وينفذ إليها من الأنسجة (ثاني أوكسيد الكربون) الناتج من عملية (الأكسدة) الذي تحمله إلى الرئتين حيث ينفصل عن (الهيموجلوبين)، ويتخلص منه الجسم عن طريق الزفير، ثم يتحمل من جديد (بالأوكسجين)... وهكذا.

ويحدث التنفس بوسائل عديدة في الحيوانات المختلفة، ولكن النتيجة في جميع الحالات واحدة، وهي وصول (الأوكسجين) إلى خلايا الجسم، والتخلص من (ثاني أوكسيد الكربون).

وهذا يدل دلالة قاطعة على شيئين:

الأول: أنّ هذا التقدير الدقيق لا بد أن يكون من فعل خالق مدبر مقدر، إذ إنّه لا يمكن أن يحدث شيء بطرق مختلفة، ليؤدي لنتيجة واحدة عن طريق المصادفة.

والشيء الثاني: أنّ الخالق واحد أحد، إذ إن أسلوب الخلق مبني على أساس واحد، ويؤدي إلى نتيجة واحدة لا تتغير».

١٩- حصول الأحياء على الغذاء بطرق مختلفة

ويحدثنا الدكتور يوسف عن هذا الموضوع فيقول: «وجميع الكائنات الحية نباتات وحيوانات لا بدّ أن تتغذى، وتتغذى النباتات بطريقة تختلف تمام الاختلاف عن طريقة تغذية الحيوانات، فالنباتات ثابتة في مكانها، لا يمكنها أن تتحرك لتحصل على غذائها كما يفعل الحيوان، ولذا فهي تصنع غذاءها وهي مغروسة في مكانها مستخدمة في ذلك الطاقة الشمسية.

أمّا الحيوان فيحصل على غذائه جاهزاً من مواد نباتية أو حيوانية، والغذاء الذي يتناوله الحيوان لا بدّ أن يهضم ليمتصه الجسم ويستفيد منه، وعمليات الهضم عمليات بالغة التعقيد من شأنها تحويل المواد المعقدة التركيب إلى مواد بسيطة التركيب يستطيع الجسم امتصاصها والإفادة منها.

والمواد الغذائية قد تكون دهنية أو بروتينية أو نشوية... إلخ.

وكل نوع من الغذاء يقوم بهضمه أنزيم معين يؤثر في مادة بعينها، ولا يؤثر في المواد الأخرى الموجودة معها جنباً إلى جنب، فأنزيم يؤثر في المواد الدهنية، ولا يؤثر في المواد البروتينية، وآخر يؤثر في المواد البروتينية، ولا يؤثر في المواد الدهنية.

فهل من الممكن أن يحدث كلّ ذلك نتيجة خبط عشواء أو مصادفة عمياء أو نتيجة تجارب عديدة تحتمل الخطأ والصواب؟

إنّ أيّ عقل قادر على التفكير لا بد أن يدرك أن هذا من المستحيل، كما ترفضه رفضاً باتاً نظرية الاحتمالات في العلوم الرياضية.

ففي حيوان (الأميبا) الدقيق الحجم المكون من خلية واحدة تتم عملية التغذية بطريقة غريبة، إذ تمتد منه أذرع تلتف حول المادة الغذائية الموجودة حوله في

الماء، والتي قد تكون حيواناً ضئيل الحجم أو نباتاً وحيد الخلية أصغر حجماً من الأميبا، والمواد الغذائية في هذه الحالة قد تكون متحركة إذا كانت حيواناً صغيراً، وقد تكون ثابتة إذا كانت نباتاً أولياً وحيد الخلية كبعض الطحالب.

ومن العجيب أنّ حيوان (الأميبا) البسيط التركيب الذي لا يوجد به مخ أو جهاز عصبي يستطيع التفرقة بين المواد الغذائية الثابتة والمواد الغذائية المتحركة، فإذا كان الغذاء حيواناً متحركاً، فإنّ أذرع (الأميبا) تمتدّ في حذر بعيداً عن الحيوان لكي لا يهرب، أما إذا كان الغذاء ثابتاً غير متحرك، فإنّ الأذرع تمتدّ حوله ملاصقة له بلا احتياط أو احتراس، إن المادة الغذائية في هذه الحالة لن تستطيع الهرب، فكيف يدرك هذه الأشياء حيوان ضئيل (كالأميبا) - لا تكاد تراه العين إلا من خلال عدسات الميكروسكوب - لا مخّ له ولا أعصاب أو عيون أو أية أعضاء للإحساس!.

فإذا أطبقت الأذرع على المادة الغذائية أصبحت في داخل الجسم محاطة بقطرة ماء، عند ذلك يبدأ جسم (الأميبا) في إفراز أنزيم هاضم حامض ليقتل الفريسة التي التهمتها (الأميبا) إذا كانت لا تزال على قيد الحياة، ثم تفرز (أنزيماً قلوياً)، ولذلك حكمة، إذ إنّ أهم (الأنزيمات) وهو (الأنزيم) الذي يهضم المواد (البروتينية) لا يعمل إلا في وسط قلوي».

٢٠- دوران الدم في جميع أجزاء أجسام الأحياء

ويحدثنا الدكتور يوسف عن الدورة الدموية قائلاً:

«والدورة الدموية في شعب وظائف الحيوانات المختلفة تتم بطرق عديدة، كما يختلف تركيب القلب في المجموعات المختلفة للحيوانات، ولكنها تؤدي إلى نتيجة واحدة، وهي دوران الدم في جميع أجزاء الجسم.

وإذا تأملنا تركيب القلب والجهاز الدوري في الإنسان، وفي عديد من الحيوانات، وجدنا أنّ القلب - ذلك العضو الرائع التصميم - يتكون من حجرات يُوصل بعضها مع بعض فتحات ذات صمامات، ووظيفة هذه الصمامات السماح للدم بالمرور في اتجاه واحد، وتمنع رجوعه في الاتجاه المضاد.

ونجد مثل هذه الصمامات في الأوعية الدموية الكبرى للغرض نفسه.

وشبكة الأوعية الدموية بأوردتها وشرايينها وشعيراتها الدموية تصميم مذهل، إنّ الشرايين تتفرع إلى أنابيب أصغر فأصغر، حتى تصبح شعيرات دموية رقيقة الجدران، والحكمة من رقة جدران الشعيرات الدموية هي إمكان تبادل غازي (الأوكسجين) من (هيموجلوبين) الكرات الدموية الحمراء، وينفذ إلى أنسجة الجسم، وفي الوقت نفسه ينفذ (ثاني أوكسيد الكربون) من الأنسجة إلى الشعيرات الدموية، فتلتقطه الكرات الحمراء، ثم تتجمع الشعيرات الدموية لتكوين أوردة تحمل الدم إلى الرئتين، حيث تتخلص الكرات الدموية من (ثاني أوكسيد الكربون)، وتلتقط (أوكسجيناً) جديداً وهكذا.

والقلب ينبض نبضات إيقاعية مدى الحياة، حيث تتمدد بعض حجراته وتنقبض حجرات أخرى دافعاً الدم النقي الحامل (للأوكسجين) في الأوعية الدموية، ومستقبلاً له بعد دورانه في الجسم محملاً (بثاني أوكسيد الكربون)، ليرسله إلى الرئتين حيث يتحمل (الأوكسجين)، ويتخلص من (ثاني أوكسيد الكربون).

ويتجول داخل جسم الإنسان، وعديد من الحيوانات الأخرى سوائل ذات وظائف محددة مثل الدم (واللمف). و(اللمف) وسيط بين الدم والأنسجة. وللدم وظائف عديدة، منها توصيل المواد الغذائية إلى جميع أجزاء الجسم،

وإذا لم يوجد الدم في أجسام بعض الحيوانات كالدودة الكبدية مثلاً، فإنّ تركيب الجسم في مثل هذه الحيوانات نجده مصمماً بحيث تتم عملية نقل الأغذية وغيرها بوسائل أخرى.

ويتكون الدم في أجسامنا وأجسام عديد من الحيوانات الأخرى، من سائل يسبح فيه عدد هائل من الخلايا المختلفة الأشكال والوظائف نطلق عليها أحياناً اسم الكرات الدموية الحمراء، والكرات الدموية البيضاء.

والكرات الحمراء - كما ذكرت - ذات وظيفة تنفسية، أما الكرات البيضاء فمتعددة الأشكال والوظائف، بعضها ملتهم، وظيفته التهام أي جرثومة تتسرب إلى جسم الإنسان أو الحيوان، فتلتهمها بطريقة تشبه التهام الأميبا لغذائها، ونحن نستنشق من الهواء ملايين الجراثيم طول النهار والليل، ولكنّنا لا نمرض كلّ يوم، لأنّ هذه الخلايا العجيبة السابحة في الدم، والتي من الممكن أن تخترق تيار الدم وتنفذ إلى الأنسجة في حالة الطوارىء تلتهم هذه الجراثيم وتقضي عليها، ولا يعترينا المرض إلا إذا ضعفت مقاومة الجسم لأيّ سبب من الأسباب، أي إذا ازداد عدد الجراثيم عن الحدّ المألوف».

٢١- تركيب الحواس في الأحياء

ويبين لنا الدكتور يوسف أن «لمعظم الحيوانات أعضاء للحس كحاسة الإبصار والشم واللمس والسمع، والتركيب الأساسي للعين يتشابه في جميع الثدييات وغيرها، وهو تركيب مذهل وشديد التعقيد، فللعين عدسة تستقبل الضوء، وفتحة ينفذ الضوء من خلالها ؛ ليخترق العدسة، وتلك الفتحة التي ينفذ منها الضوء في العين تتسع تلقائياً في الضوء الخافت، وتضيق تلقائياً إذا

كان الضوء شديداً، والحكمة من ذلك واضحة، ففي حالة الضوء الخافت تحتاج عملية الإبصار إلى كمية كبيرة من الضوء، أمّا في حالة الضوء الشديد فتكفي كمية قليلة منه لكي تتضح الأشياء المرئية.

والعين ترى الأشياء في ضوء خافت، ولم يتمكن عقل الإنسان من اختراع آلة تصوير يمكنها التقاط صور المرئيات في مثل هذا الضوء.

وكما أنّ النحل قادر على رؤية الأشعة فوق البنفسجية، فإنّ البومة في إمكانها رؤية الأشعة تحت الحمراء التي لا نراها، وهي أشعة حرارية، ولذا فالبومة تستطيع أن تبصر الفأر في الظلام الدامس عن طريق الأشعة الحرارية تحت الحمراء التي تشع من جسده الدافىء.

وينفذ شعاع الضوء من العدسة ليقع على الشبكية عند قاع العين، وتتكون الشبكية من تسع طبقات مختلفة، ولا تزيد في مجموعها عن سمك ورقة رقيقة، والطبقة التي في أقصي قاع العين تتكون من ملايين من الأعواد والمخروطات منتظمة في تناسب محكم يمكنها أن تميز الألوان. ويتولى العصب البصري نقل هذا الإحساس إلى مركز معين في المخ يترجم الإحساس إلى صورة مرئية تبصرها العين بوضوح.

وتلك التنظيمات العجيبة للعدسات والأعواد والمخروطات والأعصاب لا بدّ أن تكون قد حدثت في وقت واحد.. إذ إنه إذا لم توجد جميعها معاً في وقت واحد فإنّ الإبصار يصبح مستحيلاً، فكيف استطاعت جميع هذه العوامل أن يُكمّل بعضُها بعضاً في وقت واحد؟

إن العلوم الرياضية تقول لنا: إن حدوث هذه الأشياء دفعة واحدة عن طريق المصادفة أمر مستحيل، إن آلة التصوير التلفزيونية ما هي إلا محاكاة بدائية لعملية الإبصار التي تتم عن طريق العين، بل كل ما ابتكره الذهن البشري من

اختراعات ما هو سوى محاكاة بدائية لما هو موجود في الخلق، وإذا كانت آلة التصوير البسيطة يلزمها فكر وعقل لابتكارها، فهل من المعقول أن تكون العين في الإنسان وغيره من الحيوانات تكونت عن طريق المصادفة؟

ومن العجيب أنّ كلّ من هو في حاجة إلى الإبصار من الحيوانات خلق الله له عيوناً يرى بها، ولو أنّ تلك العيون قد تختلف في تركيبها عن عيوننا اختلافاً كبيراً، ولكنّها توصل إلى الهدف نفسه وهو الإبصار، فنجد في دودة الأرض مثلاً خلايا في جلدها ذات حساسية للنور والظلام، وهذا هو كلّ ما تحتاج إليه مثل هذه الدودة التي تعيش في الأنفاق من الطين داخل التربة.

وللحشرات عيون تختلف في تركيبها عن عين الإنسان أو القرد أو البقرة أو السلحفاة أو السمكة، ولكن على الرغم من هذا الاختلاف إلا أن الحشرات ترى بها الأشياء التي تنظر إليها، واختلاف الوسائل مع تشابه الهدف لا يمكن أن يأتي عن طريق المصادفة ؛ بل يأتي نتيجة لتخطيط يقصد من ورائه الوصول إلى هدف معين.

ولقد منح الله كلّ كائن حيّ من الحواس والإدراك على قدر حاجته فالذبابة المنزلية مثلاً بحاجة إلى عين ترى بها الغذاء، وتدرك أيّ حركة يقصد بها الاعتداء على حياتها ؛ ولذا فقد زودها الخالق كما هي الحال في معظم الحشرات بزوج من العيون المركبة ؛ إذ إنّ كلّ عين من هذه العيون مكونة من مئات الوحدات المتشابهة المتراصة بعضها بجوار بعض، كلّ وحدة من هذه الوحدات ترى نقطة من الشيء المرئي، وتتجمع هذه النقط فترى الذبابة الشيء كاملاً، كما زودها خالقها بنوع آخر إضافي من العيون نسميه العيون البسيطة، إذ توجد ثلاثة من هذه العيون البسيطة عند قمة رأسها، وظيفتها إدراك أيّة حركة،وهذه العيون هي التي تجعل الإمساك بالذبابة يكاد يكون في حكم المستحيل».

٢٢- كيفية تصميم العظام والمفاصل

والعظام في أجسامنا وأجسام عديد من الحيوانات نحركها عند المفاصل، فتنقبض عضلات معينة وتنبسط عضلات أخرى في الوقت نفسه في توافق عجيب، فتتحرك اليد أو الساق أو الأصبع وغيرها في الاتجاه الذي يرغب فيه الإنسان أو الحيوان، وتركيب المفاصل مصمم بشكل يسمح بالانزلاق، فلا يشعر الحيوان بأي احتكاك.

كما أن تصميم الفقرات في العمود الفقري من شأنه تحمل الضغط، وتجنب الاحتكاك، وترابط الفقرات مع بعضها، فهو مصمم تصميماً مذهلاً، ويحيط العمود الفقري بالحبل العصبي لحمايته، كما تحمي الجمجمة المخ الذي بداخلها، وتنفذ الأعصاب من الحبل العصبي من خلال ثقوب بالفقرات، وجميع هذه التصميمات لا بدّ أن تكون قد تكونت في وقت واحد، إذ لو اختل جانب منها لأصبحت حركة الحيوان غير ممكنة، فهل من المعقول أن تحدث كل هذه الترتيبات في وقت واحد نتيجة مصادفة؟

٢٣- الحكمة في تجلط الدم

ومن المعروف أنّه إذا حدث جرح في أجسامنا فإنّ الدم الذي يخرج من الأوعية الدموية المجروحة لا يلبث أن يتجلط عند مكان الجرح، وهذا تصميم مقصود له حكمته إذ إنّ الدم المتجمد يقفل الوعاء الدموي المجروح، فيوقف بذلك استمرار تدفق الدم من الجرح، ولو لم يحدث هذا التجلط لظلّ الدّم ينزف حتى الموت.

ومما يدلّ على أنّ هذا تدبير مقصود من الخالق لحفظ الكائن الحي أنّنا نجده يحدث بطرق متباينة في الحيوانات المختلفة، ولكنّ النتيجة في جميع الحالات واحدة، ففي معظم الحشرات إذا جرح جسم حشرة كالصرصار مثلاً، فإنّ عدداً من الخلايا يتجمع، ويكون سدادة تقفل الجرح حتى لا ينزف الدم، بينما نجد أنّ الدم يتجلط في بعض الحشرات كما يتجلط دمنا.

والوصول إلى هدف معين بطرق مختلفة.. كما سبق أن ذكرت... دليل قاطع على وجود خالق يدبر ويقدر بشتى الطرق للتوصل إلى نتيجة معينة يكون من شأنها حفظ الكائن الحي.

٢٤- قرنا الاستشعار عند البعوض

ولا يمكن أن يكون عن طريق المصادفة أن قرني استشعار ذكر البعوض به شعيرات أطول من تلك التي في قرني استشعار أنثاه، وكان الاعتقاد فيما مضى أنّ هذه الشعيرات الطويلة مظهر من مظاهر الزينة، لكي يبدو الذكر جميلاً في عين الأنثى، ولكن اتضح أنّ هذه الشعيرات التي في قرني استشعار الذكر قادرة على التقاط أصوات خاصة تحدثها أنثى البعوض وهي بعيدة عن الذكر بعداً شاسعاً، وأصوات الأنثى هذه ذات موجات خاصة تشبه إلى حد كبير موجات الإذاعة.

ويحرك الذكر قرني استشعاره في شتى الاتجاهات كما نحرك نحن هوائي التلفزيون لتصبح الصورة الملتقطة أكثر وضوحاً، وفي وضع خاص يلتقط قرنا الاستشعار صوت الأنثى واضحاً، وعن طريق زاوية قرن استشعاره يدرك الذكر غريزياً مكان الأنثى التي تحدث الصوت، فيطير نحوها بأقصى سرعته حيث يتم التزاوج بينهما.

وهكذا نرى أنّ البعوض قد منحه خالقه هذه القدرة العجيبة التي تمكنه من إدراك صوت الأنثى البعيدة عنه بعشرات « الأمتار » على الرغم من وجود أصوات أخرى عديدة يموج بها الجو، ولو لم يحدث ذلك لما تمكن الذكر من العثور على الأنثى بسهولة، ولما تمكن البعوض من البقاء جيلاً بعد جيل.

إنها محطة استقبال إذاعي في قرني استشعاره استخدمها البعوض قبل أن يتمكن الإنسان من التوصل إلى أسرار الإرسال اللاسلكي بملايين السنين، فهل يمكن أن يحدث مثل هذا عن طريق مصادفة عمياء؟

٢٥- حيوانات تومض في الظلام

ومن الحشرات ما تنبعث من أنثاها أضواء تومض في الظلام ومضات ذات تردد معين يميزها ذكر هذا النوع من الحشرات بالذات، ولا تختلط عليه مع ومضات ضوئية لحشرات أخرى ذات تردد مختلف. عندما يرى الذكر هذه الومضات التي لا تكاد تدركها عيوننا يطير إلى أنثاه، فيحدث التزاوج ليستمر بقاء النوع.

إن العلوم الرياضية تثبت أنّ مثل هذا التنظيم والترتيب لا يمكن مطلقاً أن يكون من صنع «طبيعة» لا عقل لها، بل هو تخطيط من صنع خالق يعلم ماذا يصنع ويرتب ويقدر أروع تقدير لبلوغ هدف معين.

٢٦- عملية الهضم في الحيوان

ونحن نعلم أن تقطيع الطعام إلى أجزاء صغيرة أمر ضروري لتسهيل عملية الهضم، والأسنان ذات تركيب وتنظيم متباين في الحيوانات المختلفة، ولكنّها تؤدي الوظيفة نفسها وهي تقطيع الطعام.

وترتيب الأسنان في الإنسان ترتيب مذهل إذ توجد قواطع وأنياب وأضراس مرتبة ترتيباً خاصاً يجعل لكلّ نوع منها وظيفة معينة. ولا توجد أسنان للحيوانات التي لا تحتاج إليها، كتلك التي تتغذى على السوائل حيث تزود بوسائل خاصة لارتشاف الغذاء السائل وتوصيله إلى القناة الهضمية. وفي أثناء المضغ في الحيوانات ذات الأسنان تفرز الغدد اللعابية إفرازها ليختلط بالغذاء حيث تبدأ عملية هضمه.

وفي المعدة والأمعاء - كما ذكرت فيما سبق - يفرز الحيوان (أنزيمات) يؤثر كلّ واحد منها في نوع معين من الغذاء، ولا يؤثر في الأنواع الأخرى.

٢٧- تكون الجنين

وعملية تكوين الجنين في أي حيوان عملية مذهلة، يكتفي العلم بملاحظة وشرح خطواتها، ولكنّه يقف عاجزاً عن معرفة كنهها، والقوى التي تدفع بها نحو هدف محدود هو تكون جنين لحيوان معين.

تبدأ هذه العملية بانجذاب الخلية الذكرية (الحيوان المنوي للذكر) نحو الخلية الأنثوية (بويضة الأنثى) فتتكون الخلية الملقحة، وتبدأ الخلية الملقحة بعد ذلك في الانقسام بوساطة قوة عجيبة كامنة فيها، فتصبح الخلية خليتين، ثم أربع خلايا، ثم ثماني خلايا، وهكذا.. حتى يصل عدد الخلايا إلى حد معين، فتصبح على هيئة كرة جوفاء جدارها مكون من طبقة واحدة من الخلايا، ثم ينغمد نصف الكرة داخل النصف الآخر، فتصبح ذات جدارين خلويين.

وفي معظم الحيوانات - ومنها الإنسان - تتكون بين الطبقتين طبقة خلوية ثالثة، وتستمر الخلايا في الانقسام، فتتكون من كلّ طبقة من الطبقات الثلاث أعضاء معينة.

فمن الطبقة الخارجية يتكون الجلد والجهاز العصبي، وبعض أجزاء أخرى، ومن الطبقة الوسطى تتكون العضلات والعظام، ومن الطبقة الداخلية تتكون بعض أجزاء الجهاز الهضمي، ويستمر انقسام الخلايا، حتى يتم تكون الجنين داخل الرحم في الحيوانات الثديية أو داخل البيضة في الحيوانات التي تبيض، وعند اكتمال تكوين الجنين يلفظ الرحم ذلك الجنين خارج الجسم في الحيوانات الثديية، ويكسر البيضة ويخرج منها في الحيوانات التي تضع بيضاً.

٢٨- تركيب الأذن

وتركيب الأذن في الإنسان وفي عدد من الحيوانات الأخرى لا يمكن لأي عاقل أن يتصور حدوثه عن طريق المصادفة، فللأذن طبلة تستقبل الموجات الصوتية فتتذبذب، وهذه الذبذبات تؤثر في ثلاث عظام دقيقة مرتبة ترتيباً رائعاً. والضغط على جانبي الطبلة ينبغي أن يكون متساوياً، ولهذا الغرض تمتد أنبوبة خلف الطبلة توصل إلى تجويف الأنف، ويصل بالجزء الداخلي للأذن عظمة تشبه القوقعة في شكلها، ووظيفتها تحليل الصوت، وتمييز الأنغام المختلفة، كما أنّ من وظيفتها أيضاً إحداث الاتزان، إذ لولاها لما استطعنا أن نخطو خطوة واحدة دون أن نترنح ونسقط.

وتنتقل الذبذبات بعد ذلك عن طريق الأعصاب إلى مركز السمع بالمخ، ليدرك الإنسان أو الحيوان سماع الأصوات المختلفة بعضها عن بعض. هل يمكن أن يحدث كل هذا في وقت واحد عن طريق المصادفة؟ إن نظرية الاحتمالات في العلوم الرياضية تنفي إمكان ذلك نفياً قاطعاً.

٢٩- ديدان الفلاريا

وتحدث في الكائنات الحية أشياء عجيبة، لا تعد ولا تحصى، تدلّ على وجود قوة عليا ترتب وتقدر لاستمرار بقاء الكائنات، أشياء لا يمكن أن تحدث عن طريق المصادفة، منها مثلاً: ما يحدث في دورة حياة الديدان التي تسبب المرض المسمى بمرض الفيل، وهي التي نسميها ديدان (الفيلاريا).

تغيض هذه الديدان في طورها الكامل في الأوعية اللمفاوية والغدد اللمفاوية للإنسان، وتسد الأوعية اللمفاوية، فتسبب تضخم بعض الأعضاء، وعلى الأخص الساقين أو إحداهما، حيث تصبح ساق الإنسان في حجم ساق الفيل.

وتتزاوج هذه الديدان في أثناء وجودها داخل الأوعية اللمفاوية للإنسان، وتنتج ديداناً صغيرة تنتقل من الأوعية اللمفاوية إلى الأوعية الدموية، وإذا بقيت هذه الديدان في الأوعية الدموية للإنسان فإنها تعجز عن إتمام دورة حياتها إذ لابد لها من أن تنتقل إلى جسم بعض أنواع البعوض لكي تتم تلك الدورة، وتصبح قادرة على عدوى الإنسان، فإذا امتصت البعوضة دم إنسان مصاب فإنّها تمتص مع الدّم عدداً من هذه الديدان الصغيرة التي تنمو داخل جسم البعوض حتى يكتمل نموها، وتصبح قادرة على عدوى الإنسان إذا حقنتها البعوضة في دمه في أثناء عملية امتصاصها لدم الإنسان الذي تتغذى عليه.

ولقد حاول العلماء الحصول على هذه الديدان من دم المصابين بهذا المرض ولكن جميع محاولاتهم كانت تبوء بالفشل إلى أن حدث شيء عجيب.

في إحدى الليالي كان أحد العلماء ساهراً في معمله حتى ساعة متأخرة من الليل، فأخذ عينة من دم إنسان مصاب وفحصها تحت الميكروسكوب، وفوجىء بعدد هائل من هذه الديدان في العينة التي أخذها، وفي أثناء النهار في

اليوم التالي أخذ عينة من المصاب نفسه فلم يجد للديدان أثراً، احتار في تفسير هذه الظاهرة العجيبة، لماذا توجد هذه الديدان في عينة الدم إذا أخذها من المصاب ليلاً، ولا تظهر إذا أخذها نهاراً؟

واتضح أنّ تلك الديدان الصغيرة تهرب إلى الأوعية الدموية الداخلية في أثناء النهار، ثم تعود إلى الأوعية الدموية القريبة من سطح الجلد في أثناء الليل، والحكمة من ذلك هي أنّ البعوض الذي يتغذى على دم الإنسان في هذه الأماكن لا ينشط إلا في أثناء الليل ؛ ولذا فإنّ الديدان تنتقل إلى الأوعية الدموية القريبة من سطح الجلد ؛ لكي يتمكن البعوض من امتصاصها مع الدم لتتم دورة حياتها داخل جسم البعوضة، ومن الطبيعي أن هذه الديدان لا تدرك شيئاً ولا تعلم شيئاً عن البعوض التي ستتم دورة حياتها داخل جسمه ؛ بل تفعل هذا عن غريزة، أي أنّ هناك قوة عليا تملي عليها هذا التصرف لكي تستمر حياتها.

ومن العجيب أنّه في الأماكن التي تنشط أنواع البعوض التي تمتص الدّم نهاراً ولا تنشط ليلاً نجد أنّ الديدان تفعل العكس، حيث تبقى في الأوعية الدموية الداخلية ليلاً، وتهاجر إلى الأوعية الدموية نهاراً، ليتمكن البعوض في هذه الحالة أيضاً من امتصاصها مع الدم، فهل من الممكن أن يحدث هذا عن طرق المصادفة؟

٣٠- مغناطيسية الأرض

إذا تركنا تركيب الكائنات الحية وما فيه من إعجاز تتيه فيه العقول، وتأملنا في الكون الرحب وجدنا عجباً، أولى هذه العجائب المغناطيسية الكامنة في الكرة الأرضية، وهي التي تربطنا بالأرض، وتمنعنا من أن نتبعثر في الفضاء في أثناء دورانها.

هـذه المغنـاطيسيـة تختلـف عـن المغنـاطيسية التـي نجـدهـا فـي القضيـب المغناطيسي. . . ، إننا نعلم أنّ القضيب المغناطيسي قادر على جذب بعض الأشياء، ولكنّه يعجز عن جذب أشياء أخرى كاللحم والورق والزجاج والحجارة والرمل والماء وغيرها. . . ، ولكن مغناطيسية الأرض تجذب كلّ شيء، تجذب أجسامنا، وتجذب الزجاج والرمل والماء والحجارة والورق، إذ لو لم تجذب الأرض إليها هذه الأشياء لما بقي على سطحها شيء.

٣١- أحجام الأجرام السماوية وأبعادها ومداراتها

ولقد ذكر (فردهويل) أستاذ الفلك بجامعة لندن في كتابه (طبيعة الكون) أن من الكواكب ما يبلغ حجماً مذهلاً لا يكاد يتصوره العقل، إذ تبدو الكرة الأرضية بالنسبة لأحد هذه الكواكب العملاقة كحبة الرمل.

يقول العالم الأمريكي الكبير(كريستي موريسون) الرئيس السابق لأكاديمية العلوم بنيويورك: «إنّ وضع الأجرام السماوية ليس مجرد مصادفة عشواء ؛ بل هي موضوعة في الفضاء بحسبان ؛ إذ إن القمر مثلاً لو كان أقرب إلى الأرض بمقدار ربع المسافة التي تفصلنا عنه لأصبح المد والجزر عنيفين حيث يغرق المد جميع أجزاء اليابسة، فتموت غرقاً جميع حيوانات اليابسة نتيجة لذلك، كما أن محور الأرض لو لم يكن منحرفاً بمقدار نحو ثلاث وعشرين درجة لترتب على ذلك وجود ليل دائم عند القطبين، وتكوّن من بخار ماء المحيطات كميات هائلة من الجليد تضغط على القطبين فيتفرطح خط الاستواء، ويقل هطول الأمطار بدرجة تجعل الحياة مستحيلة على الكرة الأرضية.

وتبلغ سرعة دوران الأرض نحو ألف ميل في الساعة، فلو فرضنا أنها تدور بسرعة مائة ميل في الساعة فقط، لطال كل من الليل والنهار، وترتب على ذلك

أن جميع النباتات والحيوانات تحترق نهاراً من شدة الحرارة، وتَتجمد ليلاً من شدة البرد ».

وفي كتاب ضخم للدكتور جود أستاذ الفلسفة بجامعة لندن تناول بالدراسة ضمن ما تناوله شتى احتمالات نشأة الكون، ونشأة الحياة من الوجهة العلمية والفلسفية، وخلص من هذه الدراسة المستفيضة إلى أن الكون لا بد أن يكون نشأ نتيجة لعملية خلق رائعة، وصدق الله إذ يقول: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

المبحث الثاني
التعرف إلى الله من خلال النصوص

(مباحث الصفات والأسماء)

ذكرنا أن السبيل الثاني الذي يعرفنا بالله هو النصوص القرآنية والحديثية التي تتحدث عن الله حديثاً مباشراً مبينة صفاته وأسماءه وأفعاله.

وهذا السبيل سبيل نيّر مأمون العواقب ؛ لأن التعرف إلى الله من خلال كلامه وكلام رسوله لا يبقي مجالاً للشك والالتباس.

وقد حرصنا على أن نسوق النصوص ذاتها في أكثر الموضوعات ؛ فإنها أقدر على التعبير والتوضيح من نصوص البشر وكلامهم، كما حرصت على ألا أزيف النصوص بالتأويل والتحريف كما فعل كثير من السابقين كي توافق آراء البشر ومقاييسهم، والواجب أن يغير البشر من آرائهم ومقاييسهم كي توافق النصوص.

المطلب الأول: مدى إدراك العقل لصفات الله

صفات الله التي جاء بها القرآن وتحدثت عنها السنة النبوية قسمان:

الأول: ما لا يستطيع العقل الإنساني التعرف عليه وإدراكه بنفسه، أي من غير طريق النصوص كإثبات اليد والوجه لله.

الثاني: ما يمكن أن يستدلّ عليه بالعقل كاتصافه بالقدرة والحكمة، ونحن

لن نستقصي ذكر صفات الله، ولكن سنذكر جملة منها توضح المراد، وتحرر المقصود، وتعطي تصوراً وافياً إن شاء الله تعالى.

المطلب الثاني

جملة من الصفات التي جاءت بها النصوص

١ - لله ذات

لله - سبحانه - ذات متصفة بصفات الكمال منزّهة عن صفات النقص، والذي يقرأ حديث القرآن عن الله يعلم علماً قاطعاً بأنّ له ذاتاً ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾[الإخلاص]، وعندما أراد الكفار قتل خبيب أنشد[1]:

ولستُ أبالي حين أُقتل مسلماً ... على أيّ شقٍّ كان لله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلوٍ ممزّع

وذات الله لا تشبه ذوات المخلوقين، كما أنّ صفاته لا تشبه شيئاً من صفات المخلوقين، فالله هو الكمال الذي لا كمال بعده، وكلّ مخلوق لا بدّ أن يكون فيه نقص في جانب من الجوانب، أدناها حاجته وفقره إلى غيره.

يقول تعالى نافياً المشابهة بينه وبين خلقه: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١].

---

(١) صحيح البخاري بشرحه فتح الباري: ١٣/ ٣٨١.

٢- نفسه سبحانه

لله تعالى نفس تليق بكماله وجلاله، لا تشبه نفوس المخلوقات، وقد أخبرنا الله بذلك في محكم كتابه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤].

فقد أخبر -سبحانه- أنّ له نفساً، وأنّه كتب على نفسه الرحمة، ونصّ الله على ذلك في آية أخرى ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ﴾ [الأنعام: ١٢].

وقد فسرّ الرسول ﷺ شيئاً من هذه الكتابة، ففي الحديث الذي يرويه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قال: (لمّا قَضى الله الخلقَ كَتبَ كتاباً، فهو عنده فوق العرش: إنّ رحمتي تسبق غضبي)، وفي رواية (تغلب غضبي)، متفق عليه[١]، وإثبات النفس لله منهج الرسل من قبل، فهذا عيسى يقول لرب العزة: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦]، وقال الله لرسوله موسى: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَـٰمُوسَىٰ * وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ [طه: ٤٠-٤١].

وقد حذرنا الحقّ نفسه فقال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠].

والله يذكر عباده في عباده الذين يذكرونه في أنفسهم، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة أنّ الرسول ﷺ قال: (يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم)[٢].

---

(١) مشكاة المصابيح ١/٧٢٦، ورقمه: ٢٣٦٤. صحيح البخاري: ٣١٩٤، ٧٤٠٤. وصحيح مسلم: ٢٧٥١.

(٢) صحيح البخاري: ٧٤٠٥. وصحيح مسلم: ٢٦٧٥.

وذكر الله يرضي نفس ربنا تبارك وتعالى، ففي حديث مسلم عن ابن عباس عن جويرية: أنّ النبي ﷺ خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح، وهي في مسجدها، ثم رجع بعد أن أضحى، وهي جالسة، فقال: (ما زلت على الحال التي فارقتك عليها؟). قالت: نعم.

قال النبي ﷺ: (لقد قلت بعدك أربع كلمات، ثلاث مرات، لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده، عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته)[1].

٣- وجه ربنا سبحانه

لله - سبحانه - وجه لا يشبه وجوه المخلوقين، نصدّق بذلك ونؤمن به؛ لأنّ الله أخبرنا بذلك في كتابه، ونصّ عليه الرسول ﷺ في أحاديثه.

قال تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، يقول ابن جرير عند تفسيره لهذه الآية: و﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ من نعت الوجه، فلذلك رفع (ذو)[2].

وقد نفى بعض السابقين إثبات الوجه لله تعالى، وزعموا أنّ الوصفَ بقوله: ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ إنمّا هو للرب فالمنعوت بـ ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ عندهم الربّ لا الوجه.

وقد ردّ هذا الزعم الإمام ابن خزيمة، فقال: «هذه دعوى يدّعيها جاهل بلغة العرب، لأنّ الله - جلّ وعلا - قال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ فذكر الوجه مضموماً في هذا الموضع مرفوعاً، وذكر الرب بخفض الباء بإضافة

(١) رواه مسلم في صحيحه: ٤/ ٢٠٩٠، ورقمه: ٢٧٢٦.

(٢) تفسير الطبري: انظر تفسير آية رقم: ٢٧ من سورة الرحمن.

الوجه، ولو كان قوله: ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ مردوداً إلى ذكر الرب في هذا الموضع لكانت القراءة ذي الجلال والإكرام مخفوضاً. . .»[1].

ومن النصوص التي جاء فيها إثبات الوجه لله قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨].

أثر الإيمان بوجه الله تعالى

أ- قصد وجه الله بصالح الأعمال

إذا علمنا ما قرره الله فعلينا أن نقصد وجه ربنا بأعمالنا كما أرشد الله إلى ذلك في محكم كتابه، فالعمل الذي لا يقصد به وجهه باطل: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨].

ومن ذلك إنفاق المال ابتغاء وجهه: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩].

وقد وصف عباده الصالحين بأنّهم يريدون بعملهم وجهه، ولا شيء غير وجهه ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩]، ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ * إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الليل: ١٩-٢٠]، ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨].

وفي الصحيحين من حديث عتبان بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: (فإن الله قد حرم على النار من قال: لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله)[2].

---

(١) التوحيد، لابن خزيمة: ص: ٢١.

(٢) صحيح البخاري بشرحه فتح الباري: ١/ ٥١٩، ورقمه: ٤٢٥، وصحيح مسلم: ١/ ٤٥٥.

ب - الاستعاذة بوجهه سبحانه

وقد فعل ذلك الرسول ﷺ فقد روى جابر بن عبد الله أنّه «لما نزلت هذه الآية: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ [الأنعام: ٦٥]، قال النبي ﷺ: (أعوذ بوجهك) فقال: ﴿ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾[الأنعام: ٦٥]، فقال النبي ﷺ: (أعوذ بوجهك)، قال: ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ [الأنعام: ٦٥] فقال النبي ﷺ: (هذا أيسر)[١].

وعن علي بن أبي طالب: أن رسول الله ﷺ كان يقول عند مضجعه: (اللهم إني أعوذ بوجهك الكريم، وبكلماتك التامات من شرّ كل دابة أنت آخذ بناصيتها). رواه أبو داود[٢].

جـ - إجابة من سألك بوجه الله

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (من استعاذ بالله فأعيذُوهُ، ومن سألكم بوجه الله فأعطوه)[٣].

د - الطمع في رؤية وجه الله

عن عمار بن ياسر أن الرسول ﷺ كان يدعو فيقول: (اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني ما علمت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا علمت الوفاة خيراً لي.

---

(١) صحيح البخاري: ١٣/ ٣٨٨. ورقمه: ٧٤٠٦.

(٢) جامع الأصول: ٤/ ٢٧١. ورقمه: ٢٢٦٣، وإسناده حسن، كما ذكر محقق جامع الأصول.

(٣) رواه أبو داود في سننه، انظر صحيح سنن أبي داود: ٣/ ٩٦١، ورقمه: ٤٢٦٠، وقال الألباني فيه: حسن صحيح، والأسماء والصفات، للبيهقي: ١/ ٣٠٦.

اللهم وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة.

وأسألك كلمة الحق والعدل في الغضب والرّضا.

وأسألك القصد في الفقر والغنى.

وأسألك نعيماً لا يبيدُ.

وأسألك قرة عين لا تنقطع.

وأسألك الرضا بعد القضاء.

وأسألك برد العيش بعد الموت.

وأسألك لذة النظر إلى وجهك.

وأسألك الشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة.

اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين)[1].

وقد فسر النبي ﷺ الزيادة المذكورة في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[يونس: ٢٦] بأنها النظر إلى وجه ربنا عزّ وجلّ، ونقل القول بذلك عن أبي بكر وحذيفة ثم قال: (الآثار في معنى هذا عن الصحابة والتابعين - رضي الله عنهم - كثيرة)[2].

وروى مسلم في صحيحه عن صهيب عن النبي ﷺ قال: (إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيّض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة، وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عزّ وجل) ثمّ تلا هذه الآية:

---

(١) رواه ابن خزيمة في التوحيد: ص: ١٢، والنسائي في سننه: انظر صحيح سنن النسائي: ١/ ٢٨٠، ورقمه: ١٢٣٧، ١٢٣٨، وإسناده صحيح.

(٢) الأسماء والصفات، للبيهقي: ص: ٣٠٨.

﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦][1].

وقد جاء في الصحيحين أنّ رسول الله ﷺ قال: (جنتان من فضة: آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب: آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداءُ الكبرياء على وجهه في جنة عدن)[2].

حجاب وجهه تبارك وتعالى:

عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله - عزّ وجلّ - لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعملُ النهار قبل عمل الليل، حِجَابُهُ النور (وفي رواية أبي بكر: النار) لو كشفه لأحرقتْ سبحاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه)[3].

وهذا التردد من الراوي في لفظ النّور والنّار لا يضرّ، فإن مثل هذه النّار الصافية التي كلم الله بها موسى يقال لها: نور ونار كما سمّى الله نار المصباح نوراً، بخلاف النّار المظلمة كنار جهنّم فتلك لا تسمى نوراً.

وهذه الحجب تحجب العباد عن الإدراك، كما قد يحجب الغمام والسقوف عنهم الشمس والقمر، فإذا زالت تجلت الشمس والقمر، وليس المراد أنها تحجب الله عن الرؤية، فهذا لا يقوله مسلم، فإنّ الله لا يخفى عليه شيء في السماء ولا في الأرض، ولكن يحجب أنواره إلى مخلوقاته. كما قال: (لو

---

(١) رواه مسلم في صحيحه: ١/ ١٦٣، ورقمه: ١٨٠.

(٢) رواه البخاري في صحيحه: ١٣/ ٤٢٣، ورقمه: ٧٤٤٤، ورواه أيضاً في: ٨/ ٦٢٣، ورقمه: ٤٨٧٨، بلفظ مقارب، ورواه مسلم في صحيحه: ١/ ١٦٣، ورقمه: ١٨٠، ورواه ابن خزيمة بلفظ: (وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى وجه ربهم)، وقال محقق كتاب التوحيد معلقاً على الحديث: ورواه البيهقي في الأسماء والصفات ص: ٢٢٢.

(٣) رواه مسلم في صحيحه: ١/ ١٦١، ورقمه: ١٧٩.

كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه) فالبصر يدرك الخلق كلهم، وأما السبحات فهي محجوبة بحجابه النور أو النّار.

٤- لله سبحانه يدان

ولله - سبحانه وتعالى - يدان تليقان بجلاله وكماله، لا تشبهان شيئاً من أيدي المخلوقين، قال تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقال مقرّعاً إبليس حين رفض السجود لآدم: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥].

تمجيد الله بذكر يديه:

وردت أحاديث عديدة فيها تمجيد الرب - تبارك وتعالى - بذكر يديه، وأن الخير فيهما، فأهل الجنة يناديهم ربهم فيقول لهم: (يا أهل الجنّة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير في يديك)[١].

وينادي ربنا آدم عليه السلام يوم القيامة، فيقول آدم مجيباً: (لبيّك وسعديك، والخير كله في يديك)[٢].

وكان من دعاء الرسول ﷺ إذا قام إلى الصلاة من الليل: (لبيك وسعديك، والخير في يديك)[٣].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه: ١٣/ ٤٨٧، ورقمه: ٧٥١٨.

(٢) رواه البخاري في صحيحه: ١١/ ٣٨٨، ورقمه: ٦٥٣٠، وانظر أيضاً: ٦/ ٣٨٢. رقم: ٣٣٤٨. ورواه مسلم: ١/ ٢٠١. ورقمه: ٢٠١.

(٣) رواه مسلم: ١/ ٥٣٤، ورقمه: ٧٧١.

وكان من تلبية ابن عمر: « لبيك وسعديك، والخير في يديك »[1].

بسط الربّ يديه:

وهو - سبحانه - كريم يبسط يديه بالعطاء والإنفاق ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤].

كما أنّه يبسط يديه بالليل والنهّار ليتوب العباد، ففي صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (إن الله يبسط يده بالليل، ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار، ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها)[2].

الأشياء التي خلقها الرحمن بيده:

لا يعجز الله شيء، فإذا أراد شيئاً خلقه بكلمة (كن)، فيكون كما أراد، إلا أنّه خلق بيده أشياء مما يدلّ على تكريمها، ورفع منزلتها، وعناية الله بها، والمخلوقات التي خلقها الله بيده، وذكرها لنا في كتابه أو وردت في سنة رسوله هي:

أ- آدم:

وفي ذلك يقول تعالى لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥].

وفي حديث الشفاعة الطويل: (فيأتون آدم فيقولون: أنت آدم أبو الناس،

---

(١) رواه مسلم: ٢/ ٨٤١، ورقمه: ١١٨٤.

(٢) صحيح مسلم: ٤/ ٢١١٣، ورقمه: ٢٧٦.

خلقك الله بيده، وأسكنك جنته) متفق عليه[1].

وفي حديث احتجاج آدم وموسى، قال موسى لآدم: (أنت الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من رُوحه)[2].

فأخبر الحقّ - تبارك وتعالى - أنه خلق آدم بيده، وأخبر الرسول ﷺ أنّ الناس يستشفعون إلى آدم، ويذكرون أعظم ما فضله الله به، وهو خلق الله له بيده، وكذلك موسى عليه السلام ذكر ما فَضّلَ الله به آدم، وهو خلقه بيده، وذكر هذه الخصوصية تدل على أمر امتاز به آدم عن غيره، وإلا فلو كانت اليد هنا القدرة فأي فضل لآدم على غيره، حتى يمتدح بذلك.

ب - كتب التوراة بيده:

ورد في بعض روايات حديث المحاجّة بين آدم وموسى، أن آدم قال لموسى: (أنت موسى اصطفاك الله بكلامه، وخط لك التوراة بيده)[3]. وفي رواية في الصحيحين: (اصطفاك الله بكلامه، وخط لك بيده)[4].

جـ - كتب بيده كتاباً موضوعاً عنده:

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (لما قضى الله الخلق كتب كتاباً عنده: غلبت - أو قال: سبقت - رحمتي غضبي، فهو عنده فوق العرش).

وفي رواية: (إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق: أن رحمتي سبقت غضبي، فهو مكتوب عنده فوق العرش)[5].

---

(١) مشكاة المصابيح: ٣/ ٦٩، ورقمه: ٥٥٧٢.

(٢) رواه مسلم: ٤/ ٢٠٤٣، ورقمه: ٢٦٥٢.

(٣) صحيح سنن أبي داود: ٣/ ٨٩١، ورقم الحديث: ٣٩٣٤، وصحيح سنن ابن ماجه: ١/ ٢٠، ورقمه: ٦٥.

(٤) صحيح البخاري: ١١، ورقمه: ٦٦١٤، وصحيح مسلم: ٤/ ٢٠٤٢، ورقمه: ٢٦٥٢.

(٥) صحيح البخاري: ١٣/ ٥٢٢، ورقمه: ٧٥٥٤. والحديث في صحيح مسلم: ٤/ ٢١٠٧، =

ورواه ابن ماجه عن أبي هريرة بلفظ: (كتب ربكم على نفسه بيده قبل أن يخلق الخلق : رحمتي سبقت غضبي)[1].

ورد إثبات كتابة الرحمن الكتاب بيده في كتاب السنة لابن أبي عاصم، ولفظه: (لما قضى الله تعالى الخلق كتب بيده في كتاب عنده: غلبت أو قال: سبقت رحمتي غضبي، فهو عنده فوق العرش) أو كما قال[2].

د - غرس جنة عدن بيده:

ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: (سأل موسى ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال هو رجل يجيء بعدما أدْخل أهل الجنة الجنة، فيُقال له: ادخل الجنة، فيقول: أي رب، وقد نزل الناس منازلهم، وأخذوا أخذاتهم؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل ملك من مُلوك الدنيا؟ فيقول: رضيتُ ربّ، فيقول: لك ذلك، ومِثلهُ ومِثلهُ ومِثلهُ، فقال في الخامسة: رضيت ربّ، فيقولُ: هذا لك، وعشرة أمثاله، ولك ما اشتهت نفسك، ولذت عينك فيقول: رضيت ربّ.

قال: ربّ فأعلاهُم منزلة؟ قال: أولئك الذين أردت، غرست كرامتهم بيدي، وختمت عليها، فلم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر، قال: ومصداقه في كتاب الله -عزّ وجلّ- ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧][3]. فقد أخبر: أنه غرس جنتهم بيده سبحانه.

= ورقمه: ٢٧٥١.

(١) ابن ماجه. انظر صحيح سنن ابن ماجه: ١/ ٣٧، ورقمه: ١٥٦.

(٢) كتاب السنة، لابن أبي عاصم: ١/ ٢٧٠. ورقمه: ٦٠٨.

(٣) صحيح مسلم: ١/ ١٧٦، ورقمه: ١٨٩.

عظم يدي الرب سبحانه وتعالى:

جاء في كتاب الله قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: (يقبض الله - تبارك وتعالى - الأرض يوم القيامة، ويَطوي السّماء بيمينِهِ، ثُمّ يَقُول: أنا الملك، أين مُلوك الأرض)[1].

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: (يطوِي الله - عزّ وجلّ- السَموات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المُتكبرون؟ ثمّ يطوي الأرضين بشماله، ثم يقولُ: أنا الملك، أين الجبارون، أين المتكبرون؟).

وفي لفظ قال: رأيت رسول الله ﷺ على المنبر وهو يقول: (يأخُذُ الجبار - عزّ وجلّ- سمواته وأرضيه بيديه، فيقول: أنا الله (ويقبض أصابعه ويبسطها) أنا الملك)، «حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفلِ شيء منه، حتى إنّي لأقول: أساقطٌ هو برسول الله ﷺ»[2].

كلتا يديه - سبحانه - يمين:

ورد في رواية في صحيح مسلم: (ثم يطوي الأرضين بشماله) وقد ضعف هذه الرواية البيهقي من ناحية الإسناد فقال: «ذكر الشمال فيه، تفرد به عمر بن حمزة عن سالم، وقد روى هذا الحديث نافع وعبيدالله بن مقسم عن ابن

(١) رواه البخاري: ٨/ ٥٥١، ورقمه: ٤٨١٢، ورواه مسلم: ٤/ ٢١٤٨، ورقمه: ٢٧٨٧.
(٢) رواه مسلم: ٤/ ٢١٤٨، ورقمه: ٢٧٨٨.

عمر، لم يذكرا فيه الشمال»[1].

وضعفها من ناحية المتن فقال: «وكيف يصِحّ ذلك وقد صحّ عن النبي ﷺ أنّهُ سمّى كلتا يديه يَميناً »[2].

وعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: (إن المقسطين عند الله على منابر من نُور على يمين الرحمن - عزّ وجلّ - وَكلتا يديه يمينٌ، الذين يعدِلون في حكمهم وأهليهم وما وُلوا)[3].

٥- أصابع الرحمن

ولله - سبحانه - أصابع لا تشبه شيئاً من أصابع المخلوقين، وهي تليق بكماله وجلاله سبحانه وتعالى، ففي صحيحي البخاري ومسلم من حديث عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه: « أن يهودياً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، إن الله يمسك السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والجبال على إصبع، والشجر على إصبع، والخلائق على إصبع، ثم يقول: أنا الملك، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، ثم قرأ ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧]».

وفي لفظ «فضحك رسول الله ﷺ تعجباً وتصديقاً »[4].

وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - أنه سمع النبي ﷺ قال: (إن قُلوب بني آدم كُلها بين أصبعين من أصابع

(١) الأسماء والصفات، للبيهقي: ١/ ٣٢٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) رواه مسلم في صحيحه: ٣/ ١٤٥٨، ورقمه: ١٨٢٧.

(٤) رواه البخاري في صحيحه: ١٣/ ٣٩٣، ورقمه: ٧٤١٤. ومسلم: ٤/ ٢١٤٧. ورقمه: ٢٧٨٦.

الرحمن كقلب واحد يصرّفه كيف يشاء)، ثم قال عليه الصلاة والسلام: (اللهم مُصرف القلوب صرف قُلوبنا إلى طاعتِكَ)[1].

٦- ما ذكر في القدم

عنون البيهقي بالعنوان السابق في كتابه (الأسماء والصفات: ٣٤٨) وذكر فيه عدة أحاديث:

١- منها الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: (لا تزال جهنم تقول: هل من مزيد حتى يضع فيها ربّ العزّة قدمه، فتقول: قط قط وعزتك، ويُزْوَى بعضها إلى بعض) وفي بعض الروايات: (ولا يزال في الجنة فضلٌ حتى يُنْشىء الله لها خلقاً، فيسكنهم فضل الجنة)[2].

٢- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (تحاجّت الجنة والنار، فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والـمُتجبرين، وقالت الجنةُ: فما لي لا يدخُلني إلا ضُعفاء النّاس وَسقَطهُمُ وَغرّهُمُ، قال الله للجنّة: أنت رحْمتي أرحم بكِ من أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي ،ولكُلّ واحدةٍ منكما ملؤُها، فأمّا النّار فلا تمتلىء حتى يضع الله - تبارك وتعالى - رجله، فتقول: قط قط قط، فهنالك تمتلىء وَيُزْوَى بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله من خلقه أحداً، وأمّا الجنةُ فإنّ الله يُنشىء لها خَلقاً)[3].

---

(١) صحيح مسلم: ٤/ ٢٠٤٥، ورقمه: ٢٦٥٥.

(٢) صحيح البخاري: ٨/ ٥٩٤، ورقمه: ٤٨٤٨، ٤٨٤٩، ورواه مسلم: ٤/ ٢١٨٧، ٢١٨٨، ورقمه: ٢٨٤٨. واللفظ لمسلم.

(٣) صحيح البخاري: ٨/ ٥٩٥، ورقمه: ٤٨٥٠، ورواه مسلم: ٤/ ٢١٨٦، ورقمه: ٢٨٤٦، واللفظ لمسلم.

٣- وعن ابن عباس أنّه قال في الكرسي: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]: (موضع القدمين)[١].

٧- لله سبحانه ساق

يجب علينا أن نصدق بذلك ولا نكذّبه، لأنّه -سبحانه- قد أخبرنا بذلك، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم: ٤٢] وقد ورد في الصحيحين ما يفسر هذه الآية ويوضحها، فعن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يكشف ربنا عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رئاء وسمعة، فيذهب ليسجد، فيعود ظهرُهُ طبقاً واحداً)[٢].

وينبغي أن ننبه هنا إلى أن إثبات الساق لله كإثبات اليد والسمع والبصر وغيرها من الصفات، وما ورد عن ابن عباس أنه فسر كشف الساق بمعنى شدة الأمر معارض بما ثبت عن ابن مسعود أن ربنا يكشف عن ساقه[٣].

وما أحسن ما قاله الشوكاني حيث قال: «قد أغنانا الله سبحانه في تفسير هذه الآية بما صح عن رسول الله، وذلك لا يستلزم تجسيماً ولا تشبيهاً، فليس كمثله شيء»[٤].

---

(١) انظر مختصر العلو، للذهبي ص: ١٠٢، وقال فيه محققه الشيخ ناصر الدين الألباني: صحيح موقوف، وعزاه إلى ابن خزيمة، في التوحيد: ٧١-٧٢، والدارمي في الرد على المريسي: ٧١، ٧٣-٧٤، وابن أبي شيبة، في العرش: ٢/ ١١٤.

(٢) رواه البخاري في صحيحه: ٨/ ٦٦٤، ورقمه: ٤٤١٩، ورواه مسلم: ١/ ١٦٧، ورقمه: ١٨٣، واللفظ للبخاري.

(٣) فتح القدير للشوكاني: ٥/ ٣١٩.

(٤) المصدر السابق: ٥/ ٣٢٠.

وقد أورد ابن جرير الطبري وابن كثير تفسير ابن عباس كما أوردا روايات الحديث المفسر للنص القرآني، ولم يؤولا الحديث بحمله على غير ظاهره مما يدل على أنه لا تعارض عندهما بين الحديث وكلام ابن عباس، فإن الأمر شديد في يوم القيامة، ولا ينافي هذا أن يكشف عن ساقه.

٨- استواؤه على العرش

العرش أعظم المخلوقات كلها، وقد نصّ الله في سبعة مواضع من كتابه على استوائه على العرش بقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥].

والدليل على أنّ العرش مخلوق من مخلوقات الله قوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧] أي في يوم القيامة، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٧] فقد أخبر أنّ للعرش حملة، وأنهم يستغفرون للمؤمنين، وهذا ينفي قول من يقول إن العرش هو الملك.

وفي الحديث الذي يرويه البخاري: (إذا سألتم الله فسلوه الفردوس، فإنّه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تُفجّرُ أنْهارُ الجنة)[١].

وروى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (لا تخيّروني على موسى، فإنّ الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فإذا موسى باطش بجانبي العرش، فلا أدري أكان موسى فيمن صعق، فأفاق قبلي، أو كان ممن استثنى الله)[٢].

---

(١) صحيح البخاري: ١٣/ ٤٠٤، ورقمه: ٧٤٢٣.

(٢) صحيح البخاري: ١١/ ٣٦٧، ورقمه: ٦٥١٧، ٦٥١٨، والحديث في مسلم أيضاً: ٤/ ١٨٣٤، ورقمه: ٢٣٧٣.

وفي رواية في الصحيح عن أبي سعيد الخدري: (فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش)[1].

فكيف لا يكون العرش خلقاً من خلق الله وهو سقف الفردوس، وكيف يمكن لموسى أن يمسك بقائمة من قوائمه لو كان غير مخلوق !!

وقد أخبر الرسول ﷺ: (أن الله لما قضى الخلق كتب عنده فوق عرشه أن رحمتي سبقت غضبي)[2].

عِظَم العرش:

وصف الله العرش بأنه عظيم ﴿وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون: ٨٦].

وقد بين الرسول ﷺ عظمة العرش بوجهين من البيان:

الأول: بإخباره عن عظم الملائكة الذين يحملون العرش، ففي سنن أبي داود بإسناد صحيح إلى الرسول ﷺ: (أذن لي أن أحدّث عن ملك من ملائكة الله، من حملة العرش: ما بين شحمة أذنِهِ إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام)[3].

والوجه الثاني: بين الرسول عِظَمَهُ بأن صوّر سعة العرش بالنسبة للسموات والأرض، وصغرهما بالنسبة إليه، قال ﷺ: (ما السموات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي، كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة)[4].

---

(١) صحيح البخاري: ١٣/ ٤٠٥، ورقمه: ٧٤٢٧.

(٢) صحيح البخاري: ١٣/ ٤٠٤، ورقمه: ٧٤٢٢.

(٣) صحيح سنن أبي داود: ٣/ ٨٩٥، ورقمه: ٣٩٥٣.

(٤) أخرجه محمد بن أبي شيبة في كتاب العرش، والبيهقي في الأسماء والصفات، وابن جرير وغيرهم، وهو صحيح بمجموع طرقه، انظر كلام الشيخ الألباني على إسناده في سلسلة الأحاديث الصحيحة، حديث رقم: ١٠٩.

تمجيد الله نفسه باستوائه على العرش وأنه ربّ العرش:

وقد امتدح الربّ نفسه بأنّه مستو على عرشه، كقوله ﴿طه * مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ * إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ * تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى * ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ١-٥]. وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

وامتدح نفسه في أكثر من آية بأنه صاحب العرش ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ* فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٥-١٦] ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٢].

وامتدح نفسه بأنه رب العرش ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩]، ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون: ٨٦].

ومن شعر عبد الله بن رواحة يمجد ربّه سبحانه وتعالى:

شهدت بأن وعد الله حق ... وأنّ النّار مثوى الكافرينا

وأن العرش فوق الماء طاف ... وفوق العرش ربّ العالمينا

وتحمله ملائكة كرام ... ملائكة الإله مسوّمينا

روى هذا الشعر ابن عبد البر في الاستيعاب، وقال: رويناه من وجوه صحاح.

معنى استوائه على العرش:

نحن نجهل كيفية استوائه سبحانه، لأننا نجهل كيفية ذاته، ولكنّنا نعرف

معنى استوى في لغة العرب، فالعرب عندما يُعدّون استوى بـ«على» يقصدون بهذه الكلمة معاني أربعة هي: استقر، وعلا، وارتفع، وصعد، كما حقق ذلك ابن القيم[1].

وقد نقل أبو الحسن الأشعري عن المعتزلة أنهم فسروا (استوى على العرش) بمعنى استولى عليه[2]، فالذي يؤول الاستواء هذا التأويل سلفه في هذا المعتزلة، وبئس السلف هم.

أما أهل السنة وأصحاب الحديث فإنهم يثبتون استواءه على العرش، ولا ينفونه، ولا يكيفونه كما نقل ذلك عنهم أبو الحسن الأشعري رحمه الله[3].

وقد نقل لنا أهل اللغة أن العلماء بالعربية الذين لم تتدنس فطرهم بقاذورات الفلسفات الوافدة أبوا أن يفسروا استوى باستولى.

قال داود بن علي الأصبهاني: كنت عند ابن الأعرابي، فأتاه رجل فقال: ما معنى قوله عزّ وجلّ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] فقال ابن الأعرابي: هو على عرشه كما أخبر، فقال: يا أبا عبدالله: إنما معناه استولى، فقال ابن الأعرابي: فما يدريك؟ العرب لا تقول استولى على الشيء حتى يكون له مضاد، فأيهما غلب فقد استولى عليه، أما سمعت قول النابغة:

إلا لمثلك أو من أنت سابقه سبق الجواد إذا استولى على الأمد[4]

وهذا النهج، وهو معرفة معنى الاستواء وجهل الكيفية والنهي عن البحث فيها هو منهج السلف الصالح، فعندما سئل الإمام مالك: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] كيف استوى؟

---

(١) انظر شرح الواسطية للهراس: ص ٨٠.
(٢) مقالات الإسلاميين: ص ١٥٧، ٢١١.
(٣) مقالات الإسلاميين: ص ٢١١، ٢٩٠.
(٤) لسان العرب: ٢/ ٢٤٩.

أطرق مالك، وأخذته الرحضاء، ثم رفع رأسه فقال: «الرحمن على العرش استوى كما وصف نفسه، ولا يقال: كيف؟ وكيف عنه مرفوع، وأنت صاحب بدعة، أخرجوه»[1].

وفي رواية عن مالك أنه قال: «الكيف غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»[2].

وقوله: «غير مجهول» أي: معلوم، والمعلوم منه معناه، فإن له في لغة العرب معنى تفقهه العرب، وتعيه، ويمكن للعالم أن يفسره، ويترجمه، ولذا فإن كثيراً من الذين حكوا عن الإمام مالك مقالته السابقة ينقلونها عنه بالمعنى، فيذكرون أنه قال في الرد على الرجل: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»[3]. ولا فرق في الحقيقة بين القول إن الاستواء معلوم، أو أنه غير مجهول، فمعناهما واحد.

يقول القرطبي رحمه الله تعالى: «كان السلف الأول -رضي الله عنهم- لا يقولون بنفي الجهة ولا ينطقون بذلك، بل نطقوا هم والكافة بإثباتها لله تعالى كما نطق كتابه وأخبرت رسله.

ولم ينكر أحد أنه استوى على عرشه حقيقة، وخص العرش بذلك لأنه أعظم مخلوقاته، وإنما جهلوا كيفية الاستواء، فإنه لا تعلم حقيقته.

قال مالك: «الاستواء معلوم -يعني في اللغة- والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة، وكذا قالت أم سلمة رضي الله عنها. وهذا قدر كاف»[4].

---

(١) رواه البيهقي، وصححه الذهبي: انظر مختصر العلو للعلي الغفار، للذهبي: ص ١٤١ حديث رقم: ١٣١.

(٢) انظر مختصر العلو: ص ١٤١، وحديث رقم: ١٣٢.

(٣) تفسير القرطبي: ٢/ ٢١٩.

(٤) تفسير القرطبي: ٢/ ٢١٩.

٩- أين الله؟

أخبرنا - سبحانه - أنّه في السماء، مستو على عرشه ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٦-١٧].

وقد أخبر الرسول ﷺ عن ربّه أنّه في السماء، ففي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أنّ رسول الله ﷺ قال: (ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء، يأتيني خبر السماء صباح مساء)[١].

وشهد للجارية بالإيمان عندما أخبرته أن الله في السماء، ففي صحيح مسلم وسنن أبي داود: أنّ معاوية بن الحكم السلمي ضرب جارية له لتقصيرها في الحفاظ على أغنامه، ثم ندم فجاء إلى الرسول ﷺ نادماً يستأذنه في إعتاقها، فطلبها الرسول ﷺ وسألها (أين الله؟) قالت: في السماء. قال: (من أنا؟) قالت: أنت رسول الله، قال: (أعتقها فإنها مؤمنة)[٢].

وقد أرشد الرسول ﷺ المريض أن يدعو لنفسه أو يدعو له أخوه بهذا الدعاء - وفيه النص على أنه تعالى في السماء - (ربنا الله الذي في السماء تقدّس اسمك، أمرُك في السماء والأرض، كما رحمتك في السماء فاجعل رحمتك في الأرض، اغفر لنا حوبنا وخطايانا، أنت رب الطيبينَ، أنزل رحمة من رحمتك وشفاء من شفائك على هذا الوجع فيبرأ)[٣].

---

(١) صحيح البخاري: ٨/ ٦٦، ورقمه: ٤٣٥١، وصحيح مسلم: ٢/ ٧٤٢، ورقمه: ١٠٦٤.

(٢) رواه مسلم في صحيحه: ١/ ٣٨٢، ورقم الحديث: ٥٣٧، ورواه أبو داود في سننه، انظر صحيح سنن أبي داود: ١/ ١٧٥، ورقمه: ٨٢٣، وانظر: ٣/ ٦٣٢، ورقمه: ٢٨٠٩.

(٣) سنن أبي داود: ٤/ ١٦، ورقمه: ٣٨٩٢.

وفي حديث عبدالله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: (الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء)[1].

معنى كونه في السماء:

وليس المراد بأنه في السماء أنّ جرم السماء تحويه -سبحانه وتعالى عن ذلك- بل المراد بالسماء العلو والفوقية، فقد وصف نفسه -سبحانه- بأنه الأعلى ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، وبأنه العلي العظيم: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وأخبر تعالى أنّه فوق عباده: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام: ١٨] وفي تمجيد الرسول ﷺ لربّه في دعائه يقول: (وأنت الظاهر فليس فوقك شيء)[2].

وكانت زينب تفخر على زوجات الرسول ﷺ وتقول: (زوجكن أهاليكن وزوّجني الله من فوق سبع سموات)[3].

ولا يمكن لمسلم يفقه عقيدته حق الفقه أن يظن أنّ الله في السماء بمعنى أنّ السماء تحويه، وأنّه في جرم السماء، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، كيف والسموات ليس بشيء بالنسبة إليه سبحانه ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ﴾ [الزمر: ٦٧]، ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

---

(١) رواه الترمذي، انظر صحيح سنن الترمذي: ٢/ ١٨٠، ورقمه: ١٥٦٩، وقال الترمذي فيه: حديث حسن صحيح.

(٢) رواه مسلم في صحيحه: ٤/ ٢٠٨٤، ورقمه: ٢٧١٣.

(٣) صحيح سنن الترمذي: ٣/ ٩٢، ورقمه: ٢٥٦٦.

كثرة الأدلة:

والأدلة من الكتاب والسنة على أنّه تعالى في السماء فوق عباده ظاهر عليهم كثيرة جداً، ويحتاج استقصاؤها إلى صفحات طويلة، ويمكن أن نصنفها على النحو التالي:

١- الأدلة الدالة نصاً على أنّه في السماء، وقد ذكرناها.

٢- الأدلة الدالة على أنّه مستو على العرش، وقد سبقت.

٣- الأدلة الدالة على علوه، وأنه فوق عباده، وقد ذكرنا طرفاً منها.

٤- النصوص الدالة على أن بعض مخلوقاته عنده، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

وقال في الشهداء: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

وهي نصوص كثيرة.

٥- النصوص المخبرة برفع بعض الأشياء أو عروجها وصعودها إليه، كالآيات المصرحة برفع عيسى ابن مريم ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨] والمخبرة بصعود الأعمال إليه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]، والنصوص المخبرة بصعود أرواح المؤمنين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأعراف: ٤٠].

فدل النصّ على أنّ المؤمنين تفتح لهم، وقد جاءت الأحاديث مفسرة ذلك وموضحة له.

ومن ذلك عروج الملائكة إليه ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤].

٦- ومنها إخباره بإنزال الملائكة ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ [النحل: ٢]، وإخباره بإنزال الكتب ﴿وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ٩٢].

٧- ومنها رفع الأيدي والأبصار إليه، وقد وردت أحاديث كثيرة ذكر فيها رفع الرسول ﷺ يديه في الدعاء، وكلّ منْ حزَبه أمرٌ فإنه يرفع يديه إلى العلو يدعو الله.

وكذلك رفع البصر، فإنه ثبت في الدعاء بعد الوضوء.

٨- ومن ذلك إشارته ﷺ بأصبعه إلى العلو كما في حديث حجة الوداع عندما قالوا: نشهد أنّك قد بلغت وأديت ونصحت، فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: (اللهم اشهد، اللهم اشهد)[1].

وإن أحببت المزيد من ذكر الأدلة وأقوال سلف الأمة فراجع ما جمعه أهل العلم في مدوناتهم في هذا الموضوع.

علوه - سبحانه - لا ينافي قربه:

فهو قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، ويعلم سرّه ونجواه، وهو أقرب إلى داعيه من عنق راحلته، ويعلم ما توسوس به النفوس، وهو أقرب إليه من حبل الوريد، وهو يعلم السرّ وأخفى، ويعلم ما يلج في الأرض، وما يخرج منها، وما ينزلُ من السماء، وما يعرج فيها، وهو مع خلقه بعلمه وقدرته، لا تخفى عليه منهم خافية، وما يعزب عن ربك مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، فهو - سبحانه- القريب في علوّه، العلي في دنوّه، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن.

---

(١) رواه أبو داود: ١/٣٥٨، ورقمه: ١٩٠٥، وأصل الحديث في الصحيحين، ولكني لم أجد فيهما رفع الرسول ﷺ أصبعه إلى السماء ونكتها إليهم.

١٠- ضحك ربنا سبحانه

وهو - سبحانه - يضحك متى شاء، كيف شاء، نؤمن بذلك ونصدّقه، ولا ندري كيفيته، ولسنا مطالبين بأن ندري.

وقد ثبت في ذلك أخبار صحاح منها:

١- عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنّ رسول الله ﷺ قال: (يضحك الله إلى رجُلين يقتل أحدهما الآخر، يدخلان الجنة، يُقاتل هذا في سبيل الله فيُقتَلُ، ثم يتوب الله على القاتل فيستشهد)[١].

٢- عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رجلا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أصابني الجهد، فأرسل إلى نسائه، فلم يجد عندهن شيئاً.

فقال رسول الله ﷺ: (ألا رجل يضيفه الليلة يرحمه الله). فقام رجل من الأنصار، فقال: أنا يا رسول الله.

فذهب إلى أهله فقال لامرأته: ضيف رسول الله لا تدخريه شيئاً.

فقالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية.

قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم، وتعالي، فأطفئي السراج، ونطوي بطوننا الليلة، ففعلت.

ثمّ غدا على رسول الله ﷺ فقال: (لقد عجب - عزّ وجلّ - أو ضحك من فلان وفلانة)، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩][٢].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه: ٦/ ٣٩. ورقمه: ٢٨٢٦، ورواه مسلم: ٣/ ١٥٠٤. ورقمه: ١٨٩٠، واللفظ للبخاري.

(٢) رواه البخاري في صحيحه: ٨/ ٦٣١، ورقمه: ٤٨٨٩. ورواه مسلم: ٣/ ١٦٢٥. ورقمه: ٢٠٥٤ واللفظ للبخاري.

٣- وفي صحيح البخاري من حديث طويل عن أبي هريرة يرفعه: (ثمّ يفرغ الله تعالى من القضاء بين العباد، ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار، هو آخر أهل النار دخولاً الجنة، فيقول: أي ربّ اصرف وجهي عن النار، فإنّهُ قد قَشَبَني ريحها، وأحرقني ذكاؤها، فيدعو الله ما شاء أن يدعوه.

ثم يقول الله: هل عسيت إن أعطيت ذلك أن تسألني غيره؟ فيقول: لا وعزتك، لا أسألك غيره، ويعطي ربه من عهود ومواثيق ما شاء، فيصرف الله وجهه عن النار.

فإذا أقبل على الجنة ورآها سكت ما شاء الله أن يسكت، ثم يقول: أي ربّ قدّمني إلى باب الجنة، فيقول الله له: ألسْتَ قد أعطيت عهودك ومواثيقك لا تسألني غير الذي أعطيت أبداً، ويلك يا ابن آدم ما أغدرك. فيقول: أي ربّ ويدعُو الله حتى يقول: هل عسيت إن أعطيتك ذلك أن تسْأل غيره؟ فيقول: لا وعزّتك لا أسألك غيره. ويُعْطِي ما شاءَ مِنْ عُهودٍ ومواثيق.

فيُقَدّمه إلى بَاب الجَنّةِ، فإذا قَامَ إلى باب الجنة انْفَهَقَتْ لهُ الجنة، فرأى ما فيها من الحَبْرَةِ والسرور، فَيَسْكتُ ما شاء الله أن يسكت، ثمّ يقول: أي ربّ أدْخِلني الجنة، فيقول الله: ألست قد أعطيت عُهُودَكَ ومواثيقك أن لا تسأل غير ما أعطِيت. فيقول: ويلك يا ابن آدم ما أغدرك، فيقول: أي ربِّ لا أكون أشقى خلقك، فلا يزال يدعو حتى يضحك الله منه، فإذا ضحك الله منه، قال: ادخل الجنة)[1].

وفي رواية عند مسلم في حديث عبدالله بن مسعود: أنّ الله يقول لهذا الرجل: (أيرضيك أن أعطيك الدنيا ومثلها معها؟ فيقول: يا رَبّ أتستهزِئُ مني وأنت ربّ العالمين؟) وضحك رسول الله ﷺ، فقالوا: مم تضحك يا رسول

(١) رواه البخاري: ١٣/ ٤٢٠، ورقمه: ٧٤٣٧.

الله؟ قال: (من ضحِكِ رَبّ العالمين حين قال: أتستهزىء مني وأنت ربّ العالمين؟ فيقول: إني لا أستهزِىء منك، ولكني على ما أشاء قادر)[1].

١١، ١٢- نزوله - سبحانه - ومجيئه

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: (ينزل ربنا -تبارك وتعالى- كل ليلة إلى سماء الدّنيا، حين يبقى ثلث الليل الآخر، يقول: من يدعونِي فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له)[2].

وقد نصّ القرآن على أنّ الله يأتي يوم القيامة لفصل القضاء ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢١-٢٢].

وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: (يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم أربعين سنة، شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء، وينزلُ الله في ظُللٍ من الغمامِ من العرش إلى الكُرسي)[3].

---

(١) رواه مسلم: ١/ ١٧٥. ورقمه: ١٨٧.

(٢) رواه البخاري: ٣/ ٢٩. ورقمه: ١١٤٥. ورواه مسلم: ١/ ٥٢١. ورقمه: ٧٥٨، واللفظ للبخاري.

(٣) رواه ابن منده، وقال الذهبي: إسناده حسن، وصححه جمع من حفاظ الحديث ونقاده كالحاكم والمنذري والهيثمي.

١٣- كلام الله

والله - سبحانه - يتكلم متى شاء كيف يشاء، لا يشبه كلامه كلام المخلوقين، وقد كلم الله بعض خلقه وكلموه، منهم نبي الله موسى ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤]، ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وقد ذكر لنا الله ما دار بينه وبين موسى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ * قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٣-١٤٤].

وكلم الله آدم وحواء ﴿ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف: ٢٢].

ويكلم الله جبريل، ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إنّ الله تبارك وتعالى إذا أحب عبداً نادى جبريل: إنّ الله أحبّ فلاناً فأحبه، فيُحبهُ جبريل، ثم ينادي جبريل في أهل السماء: إنّ الله قد أحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء ، ويوضع له القبول في الأرض)[1].

وتسمع الملائكة ربهم حين يتكلم، ففي الصحيح عن أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ، قال: (إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خُضعاناً لقوله، كأنّه سلسلة على صفوان، فإذا فزّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال

---

(١) رواه البخاري: ١٣/ ٤٦١، ورقمه: ٧٤٨٥. ورواه مسلم: ٤/ ٢٠٣٠. ورقمه: ٢٦٣٧، واللفظ للبخاري.

ربكم، قالوا: الحقّ، وهو العلي الكبير)[1].

وهذا الحديث أورده البخاري تفسيراً لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]

فقد جعل البخاري هذه الآية باباً، ثم قال: «ولم يقل ماذا خلق ربكم»، وأورد في هذا الباب ما رواه مسروق عن ابن مسعود معلقاً موقوفاً عليه: «إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السموات شيئاً، فإذا فزع عن قلوبهم، وسكن الصوت، عرفوا أنه الحق، ونادوا: ماذا قال ربكم».

وأورد حديثاً معلقاً يرويه جابر عن عبد الله بن أنيس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يحشر الله العباد فيناديهم بصوت، يسمعه من بَعُدَ، كما يسمعه من قَرُبَ: أنا الملك أنا الديان)[2].

وقال البخاري في كتابه (خلق أفعال العباد) معلقاً على هذا الحديث: «في هذا دليل أن صوت الله لا يشبه أصوات الخلق؛ لأن صوت الله جلّ ذكره يسمع مِن بُعْدٍ كما يُسمع من قُرْبٍ، وأن الملائكة يصعقون من صوته»[3].

ويتكلم الله - سبحانه - بصوت لا يشبه شيئاً من أصوات الخلق كما في الحديث الذي يرويه البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (يقول الله يا آدمُ، فيقول: لبيك وسعديك. فيُنَادِي بصوت: إنّ الله يأمرك أن تخرج من أمتك بعثاً إلى النار)[4].

---

(١) رواه البخاري: ١٣/ ٤٥٣، ورقمه: ٧٤٨١.

(٢) صحيح البخاري: ١٣/ ٤٥٢.

(٣) خلق أفعال العباد: ص ١٤٩.

(٤) رواه البخاري: ١٣/ ٤٥٣، ورقمه: ٧٤٨٣، وانظر: ٨/ ٤٤١. رقم: ٤٧٤١، ورواه مسلم: ١/ ٢٠١، ورقمه: ٢٢٢. واللفظ للبخاري.

وفي يوم القيامة يكلم الملائكة ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠-٤١].

ويخاطب الكفرة المكذبين مقرّعاً ومبكتاً ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّىٰ إِذَا جَاءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٨٣-٨٤].

ويخاطب الله أهل الجنة ويكلمهم، فعن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إنّ الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك وسعديك والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك. فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب، وأيّ شيء أفضلُ من ذلك؟ فيقول: أحل عليكمُ رضواني، فلا أسخطُ عليكم بعدهُ أبداً)[1].

كلام الله لا يحصى ولا يستقصى:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

القرآن كلام الله حقيقة:

والقرآن كلام الله حقيقة لا شك في ذلك، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، وقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ [الفتح: ١٥].

---

(١) رواه البخاري: ١٣/ ٤٨٧، ورقمه: ٧٥١٨، ورواه مسلم: ٤/ ٢١٧٦، ورقمه: ٢٨٢٩، واللفظ للبخاري.

وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ [لقمان: ٢٧].

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية[١]: «يقول الله تعالى مخبراً عن عظمته، وكبريائه، وجلاله، وأسمائه الحسنى، وصفاته العلا، وكلماته التامة التي لا يحيط بها أحد، ولا اطلاع لبشر على كنهها وإحصائها، كما قال سيد البشر: (لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك)[٢] فقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ ﴾ [لقمان: ٢٧] أي: ولو أنَّ جميع أشجار الأرض جعلت أقلاماً، وجعل البحر مداداً، ومدّه سبعة أبحر معه، فكتبت بها كلمات الله تعالى الدالة على عظمته وصفاته وجلاله لتكسّرت الأقلام، ونفد ماء البحر، ولو جاء أمثالها مدداً».

وقال الحسن البصري: «لو جعل شجر الأرض أقلاماً، وجعل البحر مداداً، وقال الله تعالى: إن من أمري كذا، ومن أمري كذا، لنفد ما في البحور، وتكسّرت الأقلام» وصدق الله إذ يقول: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥].

١٤- محبة الله

جاء في الكتاب والسنة أنّ الله تعالى يحب أفعالاً معينة، كما يحب كلاماً معيناً، ويحبّ بعض خلقه الذين اتصفوا بصفات خاصة بيّنها.

وما أخبرنا بذلك إلا لكي نبادر إلى الاتصاف بما يحبّه من الأخلاق، والقيام بالأعمال التي يحبها، والإكثار من ذكر الكلام الذي يحبه، وبذلك يحبنا سبحانه وتعالى.

---

(١) تفسير ابن كثير: ٥/ ٣٩٤.

(٢) رواه مسلم: ١/ ٣٥٣، ورقمه: ٤٨٦.

والله تعالى يحبّ المتقين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤]، ويحب المحسنين: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، ويحبّ التوابين والمتطهرين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ويحب الصابرين: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، ويحب العادلين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢]، ويحب المتوكلين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ويحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن، سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم)[١].

وعن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: (أَحبُّ الكلام إلى الله أربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، لا يضُرّك بأيهن بدأت)[٢].

وقال ﷺ لأشج عبد القيس: (إنّ فيك خَصلتين يُحبهما الله: الحلمُ، والأناةُ)[٣].

وعن عبادة بن الصامت أن النبي ﷺ قال: (من أحبّ لِقاء الله أحبّ الله لقاءهُ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءهُ)[٤].

وجماع الأعمال والأخلاق والأقوال التي يحبها الله هو ما جاء به الرسول

---

(١) رواه البخاري: ١١/ ٢٠٦، ورقمه: ١٤٠٦، ورواه مسلم: ٤/ ٢٠٧٢. ورقمه: ٢٦٩٤.

(٢) رواه مسلم: ٣/ ١٦٨٥. ورقمه: ٢١٣٧.

(٣) رواه مسلم في صحيحه: ١/ ٤٨. ورقمه: ١٧.

(٤) رواه مسلم: ٤/ ٢٠٦٥، ورقمه: ٢٦٨٤.

ﷺ، وما اتصف به عليه السلام، ولذا فقد بيّن الله في آية جامعة أن السبيل إلى محبته هو اتباع الرسول ﷺ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١]

١٥- ١٦- كراهة الله وبغضه

هناك أعمال لا يحبها الله، بل يكرهها ويبغضها، وكراهيته وبغضه - سبحانه - حق على وجه يليق بذاته الكريمة، من هذه الأعمال الفساد ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، ولذا فإنه ﴿ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [المائدة: ٦٤].

وجاء في النصوص أنّه لا يحب: الكافرين، والظالمين، والمسرفين، والمستكبرين، والمعتدين، والخائنين، والفرحين. ولا يحب كل مختال فخور، وكفّار أثيم، وخوّان أثيم. وفي القرآن ﴿ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ ﴾ [التوبة: ٤٦].

وسبق ذكر الحديث الذي فيه: (ومن كره لِقاء الله كَره الله لقاءهُ)[١].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال ﷺ: (أبغض الرجال إلى الله الألدّ الخَصِمُ)[٢].

وعن البراء بن عازب أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول في الأنصار: (من أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله)[٣].

---

(١) رواه مسلم: ٤/ ٢٠٦٥. ورقمه: ٢٦٨٤.

(٢) رواه البخاري: ١٣/ ١٨٠. ورقمه: ٧١٨٨، ورواه مسلم: ٤/ ٢٠٥٤. ورقمه: ٢٦٦٨. والألد: شديد الخصومة. والخصم: الحاذق بالخصومة.

(٣) رواه البخاري: ٧/ ١١٣، ورقمه: ٣٧٨٣، ورواه مسلم: ١/ ٨٥، ورقمه: ٧٥.

١٧- رؤية الله

لا يُرى الله في الدنيا، وقد طمع موسى في رؤية الله، فأخبره ربّه أنّه لن يراه في الدّنيا، ولا يستطيع ذلك، بل الجبل القويّ الصلد لا يطيق ذلك ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۖ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وقد اختلف العلماء في رؤية الرسول ﷺ ربّه حين عُرج به إلى السماء، والصحيح أنّه لم ير ربّه في المعراج، وقد صحّ عن عائشة - رضي الله عنها- أنها قالت: و(من زعم أنّ محمداً ﷺ رأى ربّه فقد أعظم على الله الفرية)[1].

هذا في الدنيا، أمّا في الآخرة فالأمر مختلف، فإنّ العباد يخلقون خلقاً جديداً، ألا ترى أنّ الشمس تدنو من رؤوس الناس في يوم القيامة حتى لا يكون بينها وبينهم إلا ميل واحد، ومع ذلك فلا يذوبون ولا ينصهرون! ألا ترى أنّ الناس بعد البعث والنشور غير قابلين للموت! بل يدخل الكفار النّار كلما نضجت جلودهم بدّلهم الله جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب، أمّا الموت فلا.

نعم في يوم القيامة يطيق المؤمنون رؤية ربهم، بل إنّ أعظم نعيم يعطاه العباد في الجنّة هو النظر إلى وجه ربهم العظيم الكريم سبحانه.

هذا النعيم العظيم يحرمه الكفار ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ﴾ [المطففين: ١٥] أما الذين اصطفاهم الله وحسَّن وجوههم فلا يحجبون، ﴿ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢] وهؤلاء هم الأبرار ﴿ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين: ٢٢-٢٣]، وهذا النظر إلى وجهه الكريم هو الزيادة التي

---

(١) رواه مسلم: ١/ ١٥٩. ورقمه: ١٧٧.

وُعد بها المؤمنون ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦].

وهو المزيد المذكور في هذه الآية: ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق: ٣٥].

وقد جاءت الأحاديث المتواترة مصرّحة بذلك غاية التصريح، ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنّ ناساً قالوا لرسول الله ﷺ: يا رسول الله هل نرى ربّنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: (هل تُضارّونَ في رؤية القمر ليلة البدر؟) قالوا: لا، يا رسول الله، قال: (هل تُضارّون في رؤية الشمس ليس دُونها سحاب؟) قالوا: لا، يا رسول الله، قال: (فإنّكُم ترونه كذلك)[1].

وفي الصحيح عن جرير بن عبدالله رضي الله عنه، قال: (كنا جلوساً عند النبي ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: (إنّكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامّون، فإنْ استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس، وصلاة قبل غروب الشمس فافعلوا)[2].

وفي صحيح مسلم عن صهيب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (إذا دخل أهلُ الجنة الجنة، يقول الله تبارك وتعالى: تريدُون شيئاً أزيدكم؟ يقولون: ألم تُبيضْ وُجُوهنا؟ ألم تُدخلنا الجنة وتُنجِنا مِنَ النّار؟) قال: فيكشفُ الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عزّ وجلّ، ثمّ تَلا هذه الآية: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦][3].

---

(١) رواه البخاري: ١٣/ ٤١٩. ورقمه: ٧٤٣٧، ورواه مسلم: ١/ ١٦٣. ورقمه: ١٨٢. واللفظ لمسلم.

(٢) رواه البخاري: ١٣/ ٤١٩. ورقمه: ٧٤٣٤.

(٣) رواه مسلم: ١/ ١٦٣. ورقمه: ١٨١.

وفي الصحيحين عن أبي موسى - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: (جنّتان من فضة آنيتُهُما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربّهم إلا رداءُ الكبرياء على وجهه في جنة عدنٍ)[1].

١٨- علم الله

ونعلم أن الله -سبحانه- متصف بصفة العلم، وقد سمى نفسه -سبحانه- بعدة أسماء تفيد هذه الصفة، منها (العليم) ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢٢٠]، ومنها: (الخبير) ويختص بأن يعلم ما يكون قبل أن يكون. ومنها (الحكيم) ويختص بأن يعلم دقائق الأوصاف. ومنها: (الشهيد) ويختص بأن يعلم الغائب والحاضر. ومعناه أنّه لا يغيب عنه شيء. ومنها (الحافظ) ويختص بأنّه لا ينسى ما علم. ومنها (المحصي) ويختص بأنه لا تشغله الكثرة عن العلم مثل ضوء النور، واشتداد الريح، وتساقط الأوراق، فيعلم عند ذلك عدد أجزاء الحركات في كل ورقة.

علمه تعالى شامل للكليات والجزئيات:

زعم الفلاسفة أنّ الله يعلم الكليات، ولا يعلم الجزئيات، وكذبوا في قولهم، فعلم الله محيط شامل لا تخفى عليه خافية في الأرض، ولا في السماء، يعلم كل حركة في برّ أو بحر، فما من ورقة تسقط من شجرة، أو حبّة تندثر في الرمال، أو نبتة صغيرة تشق الأرض، أو نبتة تيبس أو تموت إلا وعلم الله محيط بها ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

---

(١) رواه البخاري: ١٣/ ٤٢٣. ورقمه: ٧٤٤٤. ورواه مسلم: ١/ ١٦٣. ورقمه: ١٨٠.

وهذه الأعداد التي لا حصر لها من الدواب لا يخفى على الله منها شيء ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود: ٦]، وليس من شيء يصل إلى الأرض، أو يصعد من الأرض إلى السماء إلا وقد أحاط الله به علماً ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [سبأ: ٢].

وهذا الإنسان لا يخفى على الله منه شيء، فعلم الله به محيط يعلم عمله البادي الظاهر، ويعلم ما استكن في أعماق نفسه، ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٢٩]، ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾ [الأنعام: ٣]، وهو علم محيط بالجزئيات من أمور الإنسان ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ ﴾ [يونس: ٦١].

وانظر إلى هذا العلم الذي لا تفلت منه الذرة الصغيرة ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: ١٦].

لقد استوى في علم الله السرّ والعلانية، والصغير والكبير، والغيب والشهادة: ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ * عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ * سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴾ [الرعد: ٨-١٠].

وصدق الله إذ يقول: ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس: ٦١].

١٩، ٢٠- حياته وقيوميته سبحانه

وهو حيّ حياة أزلية ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [غافر: ٦٥] وحياته منافية لحياة الأحياء من الخلق فكلهم يموت ويفنى، ولا يبقى إلا الله سبحانه: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧].

وفي الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان يقول: (أعوذ بعزّتك الذي لا إله إلا أنت الذي لا يموت والجنّ والأنسُ يموتُون)[١].

ومن كان كذلك فهو الذي يستحق أن يعتمد عليه ويتوكل عليه ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].

وهو قيوم سبحانه، فهو قيوم بنفسه مقيم لغيره، وجميع المخلوقات مفتقرة إليه، ولا قوام لها بدونه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم: ٢٥].

جمعه - سبحانه - بين هذين الاسمين:

وقد جمع - سبحانه - في أكثر من آية بين هذين الاسمين ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ٢].

من تمام حياته وقيوميته:

ومن تمام حياته وقيوميته - سبحانه - أنّه لا ينام ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥] والسنة: أوائل النوم، والسنة والنوم نقص يتنزه الخالق عنهما، ففي صحيح مسلم عن أبي موسى - رضي الله عنه - قال:

(١) رواه البخاري: ١٣/ ٣٦٨. ورقمه: ٧٣٨٣.

قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات، فقال: (إنّ الله - عزّ وجلّ - لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النّهار قبل عمل الليل)[1].

تمجيده تعالى بذكر حياته وقيوميته:

وقد مجّد نفسه - سبحانه - بوصف نفسه بالحياة والقيومية، كما سبق في النصوص التي ذكرناها، وقد كان الرسول ﷺ يمجد ربّه بذكر هذه الصفات، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجد قال: (اللهمّ لك الحمد، أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمدُ، لَكَ مُلْك السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت نُور السموات والأرض، ولك الحمد أنت ملك السموات والأرض...)[2].

٢١، ٢٢- سمعه وبصره - سبحانه وتعالى -

وهاتان الصفتان ثابتتان لله تعالى بنصّ القرآن ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾[الحج: ٦١].

وقال لموسى وهارون: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

عِظَم سمع الله وبصره:

يقول تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ [الكهف: ٢٦]، قال ابن جرير: «وذلك في معنى المبالغة في المدح

---

(١) رواه مسلم: ١/ ١٦٢. ورقمه: ١٧٩.

(٢) رواه البخاري: ٣/ ٣. ورقمه: ١١٢٠. ورواه مسلم: ١/ ٥٣٢. ورقمه: ٧٩٩. واللفظ للبخاري.

كأنّه قيل: ما أبصره وأسمعه، وتأويل الكلام: ما أبصر الله لكل موجود، وأسمعه لكل مسموع، لا يخفى عليه من ذلك شيء»[1].

وهو يسمع ويرى الصالحين، فيثيبهم ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ * إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢١٨-٢٢٠].

وهو - سبحانه - يرى الطالحين فيجزيهم ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١].

تقول عائشة - رضي الله عنها - مبينة سعة سمع الله: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات»[2]، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه في جانب البيت ما أسمع ما تقول، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾[3] [المجادلة: ١].

وفي صحيح البخاري عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - قال: كنّا مع النبي ﷺ في سفر، فكنّا إذا علونا كبرنا، فقال: (أربعُوا على أنفُسِكُمْ، فإنكُم لا تدْعُونَ أصمّ ولا غائِباً، تدعون سميعاً بصيراً قريباً)[4].

جهل المشركين بنفاذ سمع الله:

روى البخاري في صحيحه عن عبد الله - رضي الله عنه - قال: اجتمع عند البيت (الكعبة) ثقفيان وقرشي، أو قرشيان وثقفي، كثيرةٌ شحم بطونِهم، قليلة

(١) تفسير ابن جرير: ١٥/ ٢٣٢.

(٢) رواه البخاري في صحيحه تعليقاً: ١٣/ ٣٧٢: وقال ابن حجر في الفتح: ١٣/ ٣٧٣. «ووصله أحمد والنسائي وابن ماجه باللفظ المذكور هنا».

(٣) هذه التكملة رواها أحمد والنسائي وابن ماجه، كما أفاده الحافظ في الفتح: ١٣/ ٣٧٤.

(٤) رواه البخاري: ١٣/ ٣٧٢. ورقمه: ٧٣٨٦.

فقه قلوبِهم، فقال أحدهم: أترون أنّ الله يسمع ما نقول؟ قال الآخر: يسمع إن جهرنا، ولا يسمع إن أخفينا، وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهرنا فإنّه يسمع إذا أخفينا، فأنزل الله -عزّ وجلّ- ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٢][1].

المطلب الثالث

أسماء الله الحسنى[2]

لله تعالى أسماء كلها حسنى ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] منها ما ذكره الله في سورة الحشر ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ * هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[الحشر: ٢٢-٢٤].

١- عدد أسمائه

ورد في صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال النبي ﷺ: (إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل

---

(١) رواه البخاري: ٨/ ٥٦٢. ورقمه: ٤٨١٧.

(٢) ألفت في أسماء الله وصفاته مؤلفاً مستقلاً عنونت له بـ (أسماء الله وصفاته في معتقد أهل السنة والجماعة) فإن شئت التوسع في الموضوع فارجع إليه.

الجنة، وإن الله وِتْرٌ يُحبّ الوتْر)[1].

هذا الحديث يدل على أنّ لله - سبحانه - عدداً محدداً من الأسماء وقد نصّ على أنّها تسعة وتسعون.

ولكن يشكل على هذا ما رواه ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال:

(ما أصاب أحداً قط همّ ولا حزنٌ فقال: اللهم إني عبدُك، ابن عبدِك، ابن أمتِك؛ ناصيتي بيدك، ماض فيّ حكمك، عدلٌ فيّ قضاؤك، أسألك بكلّ اسم هو لك، سميت به نفسك، أو علمْتهُ أحداً من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أنْ تجعل القرآن ربيع قلبي، ونُورَ صدري، وجلاء حُزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله همه وحزنه، وأبدله مكانه فرحا)[2].

وجاء في ثناء الرسول على ربه سبحانه (لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك)[3]. والإشكال في هذا الحديث أنّه يدلّ على أنّ من أسماء الله تعالى أسماء لم ينزلها في كتابه، بل اختص بها بعض عباده، أو اختص بها نفسه، فلم يعرّفها أحداً من خلقه، بينما حديث أبي هريرة يدلّ على أن أسماء الله التسعة والتسعين كلها منزلة معروفة بدلالة قوله (من أحصاها)، فالإحصاء لها لا يمكن ما لم تكن منزلة معروفة معلومة، ومن هذا ينتج أنّ ما استأثر الله بعلمه أو اختص به بعض خلقه غير التسعة والتسعين.

والحق الذي ينبغي أن يصار إليه أنّ عدد الأسماء التي عرّفنا الله إياها في

---

(١) رواه البخاري في صحيحه: ١١/ ٢١٤. ورقمه: ٦٤١٠، ورواه مسلم في صحيحه: ٤/ ٢٠٦٢، ورقمه: ٢٦٧٧، واللفظ لمسلم.

(٢) رواه أحمد في مسنده: ١/ ٣٩١، وعزاه ابن حجر في فتح الباري إلى أحمد وابن حبان، فتح الباري: ١١/ ٢٢٠.

(٣) صحيح مسلم: ١/ ٣٥٣، ورقمه: ٤٨٦.

كتابه، أو ذكرها رسوله ﷺ، تسعة وتسعون لا تزيد، لنصّ الرسول ﷺ على هذا العدد، ولقوله: (مَنْ أحصاها)، وأنّ ما زاد على هذه التسعة والتسعين فهو مما لا نعرفه، لأنّه من مكنون علم الله أو مما اختص الله به بعض خلقه، وإلا فما فائدة تحديد عدد أسماء الله بتسعة وتسعين؟!

٢- تحديد أسماء الله الحسنى

أخبر الرسول ﷺ أنّ أسماء الله تعالى المنزلة التي يمكننا معرفتها وإحصاؤها تسعة وتسعون اسماً.

ولم يرد حديث صحيح يسرد هذه الأسماء سرداً لا يترك مجالاً للخلاف في تحديدها، بل وردت هذه الأسماء متفرقة في كتاب الله وفي سنة الرسول ﷺ، تذكر الآية الاسم والاسمين أو أكثر، أو تختم الآية بواحد أو أكثر، وقد تسرد الآيات جملة من هذه الأسماء.

وقد عني العلماء بجمع أسماء الله من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ كما عنوا بتفسيرها وشرحها.

فالقرطبي له كتاب (معاني أسماء الله الحسنى)، وقد سردها ابن جرير الطبري، وأبو بكر ابن العربي، وابن حجر العسقلاني، وغيرهم. وقد اتفق العلماء في عدّ جملة كبيرة من أسماء الله تعالى، واختلفوا في جملة قليلة، فبعضهم عدّها من أسمائه تعالى، ومنهم من نازع في ذلك[1].

والسبب في هذا الخلاف أن بعض العلماء ظن أنّ كلّ ما أطلقه القرآن على الله - سبحانه - يجوز عده اسماً، ويجوز إطلاقه مجرداً على الله تعالى. فأبو بكر ابن العربي عدّ في أسمائه: رابع ثلاثة، وسادس خمسة، أخذاً من قوله

(١) راجع تلخيص الحبير: ٤/ ١٧٢.

تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧].

كما عدّ في أسمائه الفاعل والزارع أخذاً من قوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

ومن قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ الزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣-٦٤].

والحق أن هذه ليست أسماء لله تعالى، بمعنى أنّه لا يطلق على الله تعالى رابع ثلاثة، وسادس خمسة، والفاعل، والزارع[1].

وقد ورد في القرآن أفعال أطلقها الله -عزّ وجلّ- على نفسه على سبيل الجزاء والعدل والمقابلة، وهي فيما سيقت فيه مدح وكمال، ولكن لا يجوز أن يشتق لله تعالى منها أسماء، ولا تطلق عليه في غير ما سيقت فيه من الآيات كقوله: ﴿إِنَّ الْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢] وقوله: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٥٤] وقوله: ﴿نَسُوا۟ اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، وقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤-١٥].

فلا يطلق على الله مخادع، ماكر، ناس، مستهزى، ونحو ذلك مما يتعالى الله عنه، ولا يقال: الله يستهزى، ويخادع، ويمكر، وينسى، على سبيل الإطلاق. وقد أخطأ الذين عدوا ذلك من أسمائه الحسنى خطأ كبيراً، لأنّ الخداع والمكر يكون مدحاً ويكون ذماً، فلا يجوز أن يطلق على الله إلا مقيداً بما يزيل الاحتمال المذموم منه كما ورد مقيداً في الآيات[2].

---

(١) معارج القبول: ١/ ٧٧.

(٢) معارج القبول: ١/ ٧٦.

ومن أجل ذلك لم يرد في أسمائه تعالى: المتكلم، المريد، الفاعل، الصانع؛ لأنّ مسمياتها تنقسم إلى ممدوح ومذموم. ولو جاز أن يشتق لله من أفعاله أسماء مثل: الماكر، المخادع، بحجة إطلاق أفعالها في القرآن على الله لجاز أن يجعل من أسمائه: الداعي، والآتي، والجائي، والذاهب، والقادم، والناسي، والقاسم، والساخط، والغضبان، واللاعن... وغير ذلك من تلك التي أطلق القرآن أفعالها على نفسه.

فالله لم يصف نفسه بالكيد والمكر والخداع إلا على وجه الجزاء لمن فعل ذلك بغير حق، والمجازاة على ذلك تعدّ حسنة من المخلوق فكيف من الخالق؟.

ومن أسماء الله تعالى ما لا يُطلق عليه إلا مقترناً بمقابله، فإنه إذا أطلق وحده أوهم نقصاً، فمن ذلك: المانع، الضار، القابض، المذل، الخافض، فلا تطلق على الله منفردة، بل يجب قرنها بما يقابلها، فيقال: المعطي المانع، الضارّ النافع، القابض الباسط، المعزّ المذل، الخافض الرافع.

ومن ذلك المنتقم، لم يأت في القرآن إلا مضافاً إلى: (ذو) كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [المائدة: ٩٥] أو مقيداً بالمجرمين: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢].

٣- الاسم الأعظم

أخبرنا الرسول ﷺ في أكثر من حديث أنّ لله اسماً أعظم له مميزات عن بقية أسمائه سبحانه وتعالى، فمن هذه الأحاديث:

١- عن بريدة الأسلمي، أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول: «اللهمّ إني أسألك بأنك أنت الله، لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد

ولم يكن له كفواً أحد »، فقال: (دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دُعِي به أجاب). رواه الترمذي وأبو داود[1].

٢- وعن أنس قال: كنت جالساً مع النبي ﷺ في المسجد ورجل يصلي، فقال: « اللهمّ إني أسألك بأنّ لك الحمد، لا إله إلا أنت الحنان المنان، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حيّ يا قيوم، أسألك » فقال النبي ﷺ: (دعا الله باسمِه الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئلَ به أعطى). رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجة والدارمي[2].

٣- وفي سنن ابن ماجه عن أبي أمامة: أن رسول الله ﷺ قال: (اسمُ الله الأعظم في سُور من القرآن ثلاث: في (البقرة)، وَ (آل عمران) وَ (طه). أخرجه ابن ماجة، والطحاوي في مشكل الآثار، وابن معين في التاريخ والعلل، وغيرهم[3].

٤- وقد ورد تحديد آيتي البقرة وآل عمران اللتين ورد فيهما اسم الله الأعظم، فقد روى الترمذي، وأبو داود، وابن ماجة، والدارمي عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها: أن النبي ﷺ قال: (اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣] وفاتحة (آل عمران): ﴿الم * اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ١-٢][4].

والذي يظهر من المقارنة بين النصوص التي ورد فيها اسم الله الأعظم أنّه: (الله)، فهذا الاسم هو الاسم الوحيد الذي يوجد في جميع النصوص التي قال

---

(١) مشكاة المصابيح: ١/ ٧٠٣، ورقمه: ٢٢٨٩، وحكم محقق المشكاة على إسناده بالصحة.

(٢) مشكاة المصابيح: ١/ ٧٠٤، ورقمه: ٢٢٩٠، وحكم محقق المشكاة على إسناده بالصحة.

(٣) انظر تخريجه في سلسلة الأحاديث الصحيحة، للشيخ ناصر الدين الألباني: ٢/ ٣٨٢، ورقمه: ٧٤٦.

(٤) مشكاة المصابيح: ١/ ٧٠٤، ورقمه: ٢٢٩١.

الرسول ﷺ إنّ اسم الله الأعظم ورد فيها.

ومما يُرجِّح أن (الله) هو الاسم الأعظم أنه تكرر في القرآن الكريم (٢٦٩٧) سبعاً وتسعين وستمائة وألفين (حسب إحصاء المعجم المفهرس) وورد بلفظ (اللهم) خمس مرات في حين أنّ اسماً آخر مما يختص بالله تعالى وهو (الرحمن) لم يرد ذكره إلا سبعاً وخمسين مرة، ويرجحه أيضاً ما تضمنه هذا الاسم من المعاني العظيمة الكثيرة.

٤- وجوب الإيمان بأسمائه

وقد اتفق السلف الصالح على أنه يجب الإيمان بجميع أسماء الله الحسنى، وما دلت عليه من الصفات، وما ينشأ عنها من الأفعال، فمثلاً: اسم الله القدير يجب الإيمان بأنّه سبحانه على كل شيء قدير، والإيمان بكمال قدرته، والإيمان بأنّ قدرته نشأت عنها جميع الكائنات.

٥- كيف يحصي المسلم أسماء الله الحسنى[١]

ورد في الحديث الترغيب بإحصاء أسماء الله الحسنى، فقد وعد من أحصاها بدخول الجنة.

واختلف العلماء في معنى قوله ﷺ: « من أحصاها ».

قال الخطابي يحتمل وجوهاً:

أحدها: أن يعدّها حتى يستوفيها بمعنى أن لا يقتصر على بعضها فيدعو الله بها كلها، ويثني عليه بجميعها، فيستوجب الموعود عليها من الثواب.

---

(١) راجع في هذا الموضوع: معارج القبول: ١/ ٨٤. وما بعدها.

وهذا الوجه هو الذي اختاره البخاري، فقد فسّر الإحصاء بالحفظ، وذلك لورود رواية أخرى فيها « من حفظها ».

ثانيها: المراد بالإحصاء الإطاقة، والمعنى من أطاق القيام بحق هذه الأسماء والعمل بمقتضاها، وهو أن يعتبر معانيها، فيلزم نفسه بموجبها، فإذا قال: « الرزّاق » وثق بالرزق، وكذا سائر الأسماء.

ثالثها: المراد بها الإحاطة بجميع معانيها.

وقيل: أحصاها عمل بها، فإذا قال: « الحكيم » سلم لجميع أوامره وأقداره، وأنها جميعها على مقتضى الحكمة.

وقال ابن بطال: طريق العمل بها:

١- ما يسوغ الاقتداء به كالرحيم والكريم، فيمرن العبد نفسه على أن يصح له الاتصاف بها، يعني فيما يقوم به.

٢- وما كان يختص به نفسه كالجبار والعظيم، فعلى العبد الإقرار بها، والخضوع لها، وعدم التحلي بصفة منها.

٣- وما كان فيها معنى الوعد يقف فيه عند الطمع والرغبة.

٤- وما كان فيها معنى الوعيد يقف منه عند الخشية والرهبة.

والظاهر أنّ معنى إحصائها حفظها، والقيام بعبوديتها كما أنّ القرآن لا ينفع حفظ ألفاظه من لا يعمل به، بل جاء في صفة المرَّاق من الدّين أنهّم يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم[1].

---

(١) تبين لنا بعد أن توسعنا في دراسة هذا الموضوع في كتابنا (أسماء الله وصفاته في معتقد أهل السنة) أن القول الراجح في معنى (أحصاها): حفظها.

٦- سرد أسماء الله تعالى

ولعلّ ابن حجر العسقلاني قد قارب الصواب عندما عدّ تسعة وتسعين اسماً آخذاً إياها من القرآن الكريم، وبذلك يوافق حديث أبي هريرة في عددها، ونحن نسوقها كما سردها:

١- الله	٢- الرب	٣- الإله	٤- الواحد	٥- الرحمن
٦- الرحيم	٧- الملك	٨- القدوس	٩- السلام	١٠- المؤمن
١١- المهيمن	١٢- العزيز	١٣- الجبار	١٤- المتكبر	١٥- الخالق
١٦- البارى	١٧- المصور	١٨- الأول	١٩- الآخر	٢٠- الظاهر
٢١- الباطن	٢٢- الحي	٢٣- القيوم	٢٤- العليّ	٢٥- العظيم
٢٦- التواب	٢٧- الحليم	٢٨- الواسع	٢٩- الحكيم	٣٠- الشاكر
٣١- العليم	٣٢- الغني	٣٣- الكريم	٣٤- العفو	٣٥- القدير
٣٦- اللطيف	٣٧- الخبير	٣٨- السميع	٣٩- البصير	٤٠- المولى
٤١- النصير	٤٢- القريب	٤٣- المجيب	٤٤- الرقيب	٤٥- الحسيب
٤٦- القوي	٤٧- الشهيد	٤٨- الحميد	٤٩- المجيد	٥٠- المحيط
٥١- الحفيظ	٥٢- الحقّ	٥٣- المبين	٥٤- الغفّار	٥٥- القهار
٥٦- الخلاق	٥٧- الفتاح	٥٨- الودود	٥٩- الغفور	٦٠- الرؤوف
٦١- الشكور	٦٢- الكبير	٦٣- المتعال	٦٤- المقيت	٦٥- المستعان
٦٦- الوهاب	٦٧- الحفي	٦٨- الوارث	٦٩- الولي	٧٠- القائم

٧١- القادر ٧٢- الغالب ٧٣- القاهر ٧٤- البر ٧٥- الحافظ
٧٦- الأحد ٧٧- الصمد ٧٨- المليك ٧٩- المقتدر ٨٠ - الوكيل
٨١ - الهادي ٨٢ - الكفيل ٨٣ - الكافي ٨٤ - الأكرم ٨٥ - الأعلى
٨٦ - الرزاق ٨٧ - ذو القوة المتين ٨٨ - غافر الذنب
٨٩ - قابل التوب ٩٠- شديد العقاب ٩١- ذو الطول
٩٢- رفيع الدرجات ٩٣- سريع الحساب ٩٤- فاطر السموات والأرض
٩٥- بديع السموات والأرض ٩٦- نور السموات والأرض
٩٧- مالك الملك ٩٨، ٩٩ - ذو الجلال والإكرام

٧- خواص أسماء الله الحسنى

ذكر الشيخ حسن البنا في كتابه: (العقائد)[١] ، أن بعض النّاس يذكر لكلّ اسم من أسماء الله تعالى خواصّ وأسراراً تتعلق به على إفاضة فيها أو إيجاز، وقد يغالي بعض الناس فيتجاوز هذا القدر إلى زعم أن لكل اسم خادماً روحانيّاً يخدم من يواظب على الذكر به.

ويذكر أن بعض النّاس يدعي أن اسم الله الأعظم سرّ من الأسرار، يمنح لبعض الأفراد، فيفتحون به المغلقات، ويخرقون به العادات، ويكون لهم به من الخواص ما ليس لغيرهم من الناس.

وهؤلاء الذين أشار إليهم الشيخ قالوا بغير علم، ونطقوا بأمور لم يأت بها نص صحيح من كتاب ربنا، وسنة رسوله ﷺ، وما كان كذلك فلا اعتبار له،

(١) مجموع الرسائل: ٤٤٤-٤٤٧، والشيخ البنا رحمه الله ذكر هذا منكراً له.

ولا حجّة فيه ؛ عملاً بقول الرسول ﷺ: (كُلّ عملٍ ليس عليه أمرُنا فهو ردٌّ).

وهذه الأقوال والادعاءات فتحت الباب للخرافة، فبذلت الجهود وضاعت الساعات في سبل خاطئة، وحصل من ذلك ضلال كبير.

والفضيلة التي نصّ عليها الرسول ﷺ لاسم الله الأعظم أنه إذا دعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى.

٨ - فائدة العلم بهذه الأسماء

أمّا الفوائد الحقيقية التي يجنيها المسلم من هذه المعرفة بأسماء الله وصفاته فيمكن أن نوجزها في عدة أمور:

١- التعرف على الله سبحانه وتعالى، فأسماء الله وصفاته هي أعظم وسيلة تعرفنا بربنا سبحانه وتعالى، وبدون ذلك سيبقى الإيمان بالله فكرة غامضة لا تعطي ثماراً طيبة، وقد فصّلنا القول في صفاته وأسمائه فيما سبق، ولله الحمد والمنة.

٢- تمجيده والثناء عليه بأسمائه وصفاته، وتمجيد الله بأسمائه وصفاته أعظم ما نمجد الله به ونثني عليه به، وهو من أعظم الذكر الذي أمرنا به في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١].

٣- دعاؤه بأسمائه وصفاته، كما قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]. وقد أخبر الرسول ﷺ أكثر من مرة أنّ واحداً من الصحابة دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أجاب.

٤- زيادة الإيمان: فكلما علم العبد شيئاً عن الله وصفاته ازداد إيمانه.

٥- الشعور بالقوة والثبات؛ لأن العبد يركن إلى القوي القادر الغالب.

٦- تعليق القلب بالله، فالذي يعلم أن الرزق من عند الله يطلب منه الرزق، والذي يعلم أن الله جبار يخاف منه، والذي يعلم أن الله عليم يراقبه... وهكذا.

٧- الأجر العظيم الذي نحصله من وراء هذه المعرفة، فتعلم هذه الأسماء والصفات أشرف ما يمكن أن يدرس، وتعلمها وتعليمها خير عمل يقام به.

نماذج من تمجيد الرسول عليه السلام لربه وثنائه عليه ودعائه له:

أحب أن نسوق نماذج من الكلام النبوي فيه تمجيد وثناء وحمد الله بأسمائه وصفاته، ودعاء له بها علاوة على ما تقدم:

١- عن أبي هريرة: أن أبا بكر الصديق - رضي الله عنه - قال لرسول الله ﷺ: « مرني بشيء أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت. قال: (قل: اللهم عالمَ الغيب والشهادة، فاطر السموات والأرض، ربّ كلّ شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي، ومن شر الشيطان وشركه). رواه الترمذي وأبو داود والدارمي[1].

٢- عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: كان رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع قال: (ربّنا لك الحمدُ، ملءُ السموات والأرض، ومِلءُ مَا شِئْتَ من شيء بعد، أهل الثناء والمجد، أحقّ ما قال العبدُ، وكُلّنا لك عبدٌ، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجدّ)[2].

---

(١) مشكاة المصابيح: ١/ ٧٣٤. ورقمه: ٢٣٩٠.

(٢) رواه مسلم: ١/ ٣٤٧. ورقمه: ٤٧٧.

٣- عن ثوبان - رضي الله عنه - قال: كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً، وقال: (اللهم أنت السلامُ، ومنكَ السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام)[١].

٤- عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب: (لا إله إلا الله العظيمُ الحليمُ، لا إله إلا الله ربّ العرشِ العظيم، لا إله إلا الله ربّ السموات وربّ الأرض، ربّ العرش الكريم)[٢].

٥- عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: (أحبّ الكلام إلى الله أربعٌ: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، لا يضرك بأيهن بدأت) وفي وجه آخر: (أفضلُ الكلام: سُبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر)[٣].

٦- وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمنِ: سبحان الله وبِحمدِهِ، سُبْحانَ الله العظيم)[٤].

---

(١) رواه مسلم: ١/ ٤١٤. ورقمه: ٥٩٢.

(٢) صحيح البخاري: ١١/ ١٤٥. ورواه مسلم: ٤/ ٢٠٩٣. ورقمه: ٢٧٣٠.

(٣) رواه مسلم: انظر مشكاة المصابيح: ١/ ٧٠٦، ورقمه: ٢٢٩٤.

(٤) رواه مسلم: ٤/ ٢٠٧٢، ورقمه: ٢٦٩٤.

المطلب الرابع

المنهج الذي تُفهم صفات الله في ضوئه[1]

ذكر الشيخ محمد الأمين الشنقيطي - رحمه الله - أن القرآن العظيم دلّ على أن مبحث الصفات يرتكز على ثلاثة أسس، من جاء بها كلها فقد وافق الصواب، وكان على الاعتقاد الذي كان عليه النبي - ﷺ - وأصحابه والسلف الصالح، ومن أخلّ بواحد من تلك الأسس الثلاثة فقد ضلّ.

وذكر أنّ كلّ هذه الأسس الثلاثة يدلّ عليها القرآن العظيم:

الأساس الأول: تنزيهه - جلّ وعلا - عن أن يشبه شيء من صفاته شيئاً من صفات المخلوقين. وهذا الأصل يدل عليه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤] ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤].

الأساس الثاني: هو الإيمان بما وصف الله به نفسه، لأنّه لا يصف الله أعلم بالله من الله ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠].

والإيمان بما وصفه به رسوله ﷺ لأنّه لا أعلم بالله بعد الله من رسول الله ﷺ الذي قال في حقّه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤].

---

(١) راجع: منهج و دراسات لآيات الأسماء والصفات، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله.

ضلال الذين أخذوا بأحد هذين الأصلين دون الآخر:

وقد حمل الشيخ - رحمه الله - تعالى على من أخلّ بأحد هذين الأصلين، وعدّ من نفى عن الله وصفاً أثبته لنفسه بأنه متنطع بين يدي رب السموات والأرض، وعدّ فعل هذا النافي عن الله ما أثبته لنفسه متجرئاً على الله جرأة عظيمة.

وعدّ الشيخ هذا ضلالاً ليس بعده ضلال، لأن هذا النافي عمد إلى ما أثبته الله لنفسه من صفات الكمال والجلال، فتقدم هذا الجاهل المسكين بين يدي جبار السموات والأرض قائلاً: هذا الذي وصفت به نفسك لا يليق بك، ويلزمه من النقص كذا، فأنا أؤوله وأنفيه، وآتي ببدله من تلقاء نفسي، من غير أن يستند فيما ذهب إليه إلى كتاب ولا سنة.

ومثله في الضلال ذلك الذي أثبت الصفات لله - تبارك وتعالى - ولكنه شبه صفات الباري بصفات خلقه.

والمفلح الناجي السائر على الصراط المستقيم هو الذي آمن بهذين الأصلين، ولم يفرق بينهما، آمن بما أثبته الله لنفسه من الصفات، ونزهه في الوقت نفسه عن أن تشبه صفاته صفات خلقه، فهو مؤمن منزه سالم من ورطة التشبيه والتعطيل.

دلت على هذا الأصل آية من كتاب الله:

وقد دلّ على هذين الأصلين آية من كتاب الله، هي قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

فالحق يثبت في هذه الآية لنفسه السمع والبصر في الوقت الذي يقرر فيه أنه

ليس كمثله شيء،وفي هذا إشارة واضحة إلى أنه لا يجوز للخلق أن ينفوا عن الله سمعه وبصره بدعوى أن المخلوقات الحادثة تملك سمعاً وأبصاراً، وأن إثبات السمع والبصر لله يؤدي إلى تشبيه الله بمخلوقاته.

إن المعنى الذي تدل الآية عليه أن الله يتصف بالسمع والبصر، وسمع الله وبصره لا يشبهه شيء من أسماع المخلوقات وأبصارها، فسمع الله وبصره يليقان بجلال الله وكماله، وأسماع المخلوقات وأبصارها تناسب حالهم، فلا تشابه بين صفات الله وصفات المخلوقات.

والأساس الثالث: الذي ترتكز عليه مباحث الصفات - كما يقول الشيخ الشنقيطي - قطع الأطماع عن إدراك حقيقة الكيفية، لأنّ إدراك حقيقة الكيفية مستحيل. وهذا نص الله عليه في سورة (طه) حيث قال: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٠] فقوله: (يحيطون) فعل مضارع، والفعل الصناعي الذي يسمى بالفعل المضارع وفعل الأمر والفعل الماضي ينحلّ عند النحويين عن (مصدر، وزمن).

وقد حرّر علماء البلاغة في بحث الاستعارة التبعية أنّه ينحلّ عن (مصدر، وزمن، ونسبة) فالمصدر كامن في مفهومه إجماعاً، (فيحيطون) تكمن في مفهومها (الإحاطة)، فيتسلط النفي على المصدر الكامن في الفعل، ويكون معه كالنكرة المبنية على الفتح، فيصير المعنى: لا إحاطة للعلم البشري بربّ السموات والأرض.

فينفي جنس أنواع الإحاطة عن كيفيتها، فالإحاطة المسندة للعلم منفية عن ربّ العالمين.

وهذا الذي ذكره الشيخ العلامة من استحالة معرفة كيفية الله أو صفاته منطق سليم؛ لأنّ العقل الإنساني مهما بلغ من الذكاء وقوة الإدراك قاصر غاية القصور

وعاجز نهاية العجز عن معرفة حقائق الأشياء.

إنّ الإنسان عاجز عن معرفة حقيقة الروح التي تتردد بين جنبيه، وعاجز عن معرفة حقيقة الضوء الذي هو من أظهر الأشياء لديه، وعاجز عن إدراك حقيقة المادة، وحقيقة الذرات التي تتألف منها المادة، فكيف يطمح إلى معرفة حقيقة الذات والصفات الإلهية؟

المنحرفون عن المنهج السليم وأسباب انحرافهم

والانحراف عن المنهج السليم في أسماء الله تعالى وصفاته قد جاء من الإخلال بأصل من الأصول الثلاثة التي ذكرناها، ونستطيع أن نقسم انحراف الناس قديماً وحديثاً في أسماء الله وصفاته إلى ثلاثة أقسام:

أولاً: انحراف المشركين:

وانحراف المشركين، ذكره ابن عباس وابن جريج، ومجاهد، فالمشركون عدلوا بأسماء الله تعالى عما هي عليه، فسموا بها أوثانهم، فزادوا ونقصوا، فاشتقوا اللات من الله، والعزّى من العزيز، ومناة من المنان.

ومن إلحادهم تكذيبهم بجملة من أسماء الله تعالى، كتكذيبهم باسم الرحمن ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠]، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠].

ويدخل في زمرة هؤلاء الذين يصفون الله بصفات النقص، كقول خبثاء اليهود: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وقولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟﴾ [المائدة: ٦٤].

ثانياً: انحراف المشبهة:

وهؤلاء أثبتوا لله ما أثبته لنفسه، ولكنّهم لم ينزهوا الله تعالى عن مشابهة المخلوقين، فأعملوا من الآية الكريمة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] عجزها، ولم يعملوا صدرها، إذ لو أعملوا صدرها لعلموا أنّ الله لا يشبهه شيء، ولما اجترؤوا على أن يقولوا قولتهم التي تقشعرّ لهولها الأبدان، وتضطرب لها القلوب: إنّ لله يداً وبصراً وسمعاً كيدنا وسمعنا وبصرنا، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

وهؤلاء جعلوا معبودهم كالأصنام، ولذا قال علماء السلف: (المشبه يعبد وثناً)، وقد كفروا بمقالتهم هذه وخرجوا عن الملّة، ومن هؤلاء داود الجواربي، وهشام بن الحكم الرافضي، وهذان الفريقان إلحادهما متقابل: فالأولون من المشركين جعلوا المخلوق بمنزلة الخالق وسووه به، والمشبهة جعلوا الخالق بمنزلة الأجسام المخلوقة، وشبهوه بها، تعالى الله وتقدس عن إفكهم وضلالهم.

ثالثاً: انحراف النفاة وهم ثلاث فرق:

١- فريق نفوا الأسماء وما تدلّ عليه من المعاني، ووصفوا الله تعالى بالعدم المحض، وهؤلاء هم الجهمية، والحقيقة أنّ تحريف هؤلاء تكذيب لله كتحريف المشركين.

٢- وفريق أثبتوا ألفاظ أسمائه دون ما تضمنته من صفات الكمال، فقالوا: رحمن رحيم بلا رحمة، حكيم بلا حكمة، قدير بلا قدرة، سميع بلا سمع.. إلخ، وهؤلاء هم المعتزلة.

٣- وفريق ثالث: أثبت سبعاً من صفات المعاني، وهي: الحياة، والعلم،

والقدرة، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام، ونفوا، ما عداها، وهؤلاء هم الأشاعرة[1].

والمكذبون بأسماء الله وصفاته، والمشبهون صفاته بصفات خلقه، والنافون لأسمائه وصفاته - ضلالهم واضح، إذ هم مشاقون لله ورسوله، مكذبون للكتاب والسنة، وأمرهم معلوم لا يحتاج إلى بيان.

أمّا الذين يحتاج إلى كشف ما في مقالتهم من زيف، فهم أهل الكلام الذي يزعمون أنّهم ينزهون الله تعالى عن مشابهة المخلوقين، وبهذا ينفون صفات الله تعالى التي وردت في الكتاب والسنة،بحجة أنّها توهم التشبيه، ويلجؤون في سبيل ذلك إلى تأويل هذه الصفات تأويلاً يصرفها عن معانيها الحقة[2].

المطلب الخامس

أقسام الصفات عند علماء الكلام

بين الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي - رحمه الله تعالى - منهج علماء الكلام في تقسيماتهم لصفات الله تعالى، وبيان ما أثبتوه منها وما نفوه، وما وقعوا فيه من أخطاء ومغالطات، ثم بيّن دلالة القرآن على اتصاف الله بهذه

(١) لم يذهب أبو الحسن الأشعري رحمه الله هذا المذهب كما سيأتي ذكر معتقده في صفات الباري تبارك وتعالى.

(٢) حاول بعض المعاصرين كالشيخ حسن البنا والشيخ حسن أيوب وغيرهما أن يهونوا من خطيئة هؤلاء الذين عرفوا باسم (الخلف)، وأن يقربوا بين وجهة نظر السلف والخلف، ولكنَّ الحقيقة التي يجب أن تدرك أن مذهب الخلف الزاعمين أن ظاهر الصفات غير مراد المؤولين لها مذهب بعيد عن الصواب، ولا لقاء بينه وبين مذهب السلف. ولا يشفع لبعض الخلف حسن نيتهم، فحسن النية لا يجعل الباطل حقاً.

الصفات، وعدم جواز نفيها عن الله بحجة أن المخلوقين يتصفون بها ؛ لأنّ صفات الله لائقة بجلاله وصفات المخلوقين مناسبة لعجزهم.

فقد بيّن الشيخ أنّ المتكلمين الذين خاضوا في الكلام، وجاؤوا بأدلة يسمونها أدلة عقلية، ركبوها في أقيسة منطقية، قسموا صفات الله إلى ستة أقسام هي:

١- صفة نفسية. ٢- صفة معنى. ٣- صفة معنوية.

٤- صفة فعلية. ٥- صفة سلبية. ٦- صفة جامعة.

أما الصفات الإضافية، فقد جعلوها أموراً اعتبارية لا وجود لها في الخارج، وسببوا بذلك إشكالات عظيمة

محاكمة المنهج الكلامي إلى الكتاب والسنة

بين الشيخ الشنقيطي - رحمه الله تعالى - ما جاء في القرآن العظيم من وصف الخالق - جلّ وعلا - بتلك الصفات، ووصف المخلوقين بتلك الصفات، وبيان القرآن العظيم أنّ صفة خالق السموات والأرض حق، وأنّ صفة المخلوقين حقّ، وأنه لا مناسبة بين صفة الخالق وصفة المخلوق، فصفة الخالق لائقة بذاته، وصفة المخلوق مناسبة لعجزه وافتقاره، وبين الصفة والصفة من الفرق كمثل ما بين الذات والذات.

صفات المعاني عند المتكلمين

وبين الشيخ أن صفات المعاني عند علماء الكلام سبع صفات فقط، وينكرون ما عدا هذه السبع.

وضابط صفة المعنى عند علماء الكلام: ما دلّ على معنى وجودي قائم بالذات.

والصفات السبع التي أثبتوها هي: القدرة، والإرادة، والعلم، والحياة، والسمع، والبصر، والكلام. وأنكر هذه المعاني السبعة المعتزلة، وأثبتوا أحكامها، فقالوا: هو قادر بذاته، سميع بذاته، عليم بذاته، حيّ بذاته، ولم يثبتوا لله قدرة، ولا علماً، ولا حياة، ولا سمعاً، ولا بصراً، فراراً من تعدد القديم، وهو مذهبٌ كل العقلاء يعرفون ضلاله وتناقضه، وأنه إذا لم يقم بالذات علم استحال أن تقول: هي عالمة بلا علم، وهو تناقض واضح بأوائل العقول.

ثم أورد الشيخ أدلة صفات المعاني، وذكر الفرق بين صفات الباري وصفات المخلوق:

١- وصفوا الله تعالى بالقدرة، وأثبتوا له القدرة، والله -جلّ وعلا- يقول في كتابه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠] ونحن نقطع أنه تعالى متصف بصفة القدرة على الوجه اللائق بكماله وجلاله.

كذلك وصف بعض المخلوقين بالقدرة فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ٣٤] فأسند القدرة لبعض الحوادث ونسبها إليهم.

ونحن نعلم أنّ كلّ ما في القرآن حقّ، وأنّ للمولى - جلّ وعلا - قدرة حقيقية تليق بكماله وجلاله، كما أن للمخلوقين قدرة حقيقية مناسبة لحالهم وعجزهم وفنائهم وافتقارهم، وبين قدرة الخالق وقدرة المخلوق من المنافاة والمخالفة كمثل ما بين ذات الخالق وذات المخلوق، وحسبك بوناً بذلك.

٢، ٣- ووصف تبارك وتعالى نفسه بالسمع والبصر في غير ما آية من كتابه، قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

ووصف بعض الحوادث بالسمع والبصر، قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]، ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨].

ونحن لا نشك أن ما في القرآن حقّ، فلله - جلّ وعلا - سمع وبصر حقيقيان لائقان بجلاله وكماله، كما أن للمخلوق سمعاً وبصراً حقيقيين مناسبين لحاله من فقره وفنائه وعجزه. وبين سمع وبصر الخالق وسمع وبصر المخلوق من المخالفة كمثل ما بين ذات الخالق والمخلوق.

٤- ووصف نفسه بالحياة، فقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [غافر: ٦٥]، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].

ووصف أيضاً بعض المخلوقين بالحياة، قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٥]، ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ [الروم: ١٩].

ونحن نقطع بأن لله - جلّ وعلا - صفة حياة حقيقية لائقة بكماله، وجلاله، كما أن للمخلوقين حياة مناسبة لحالهم، وعجزهم وفنائهم وافتقارهم، وبين صفة الخالق وصفة المخلوق من المخالفة كمثل ما بين ذات الخالق وذات المخلوق، وذلك بون شاسع بين الخالق وخلقه.

٥- ووصف -جلّ وعلا- نفسه بالإرادة قال: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

ووصف بعض المخلوقين بالإرادة قال: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنفال: ٦٧]، ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣]، ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ﴾ [الصف: ٨]

ولا شك أن لله إرادة حقيقية لائقة بكماله، كما أن للمخلوقين إرادة مناسبة لحالهم وعجزهم وفنائهم وافتقارهم. وبين إرادة الخالق والمخلوق كمثل ما بين ذات الخالق والمخلوق.

٦- ووصف نفسه - جلّ وعلا - بالعلم، قال: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥]، ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٦]، ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف: ٧].

ووصف بعض المخلوقين بالعلم قال: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨]، ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ [يوسف: ٦٨].

ولا شك أن للخالق - جل وعلا - علماً حقيقياً لائقاً بكماله وجلاله محيطاً بكل شيء. كما أن للمخلوقين علماً مناسباً لحالهم وفنائهم وعجزهم وافتقارهم، وبين علم الخالق وعلم المخلوق من المنافاة والمخالفة كمثل ما بين ذات الخالق وذات المخلوق.

٧- ووصف نفسه - جلّ وعلا - بالكلام، قال: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦].

ووصف بعض المخلوقين بالكلام قال: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤]، ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ﴾ [يس: ٦٥]. ولا شكّ أن للخالق تعالى كلاماً حقيقياً يليق بكماله وجلاله، كما أن للمخلوقين كلاماً مناسباً لحالهم وفنائهم وعجزهم وافتقارهم، وبين كلام الخالق وكلام المخلوق من المنافاة والمخالفة كمثل ما بين ذات الخالق وذات المخلوق.

الكلام على الصفات السلبية عند المتكلمين

بين الشيخ الشنقيطي - رحمه الله تعالى - ضابط الصفة السلبية عند المتكلمين فقال: هي الصفة التي دلت على عدم محض. والمراد بها أن تدل على سلب ما لا يليق بالله عن الله، من غير أن تدل على معنى وجودي قائم بالذات.

والذين قالوا هذا جعلوا الصفات السلبية خمساً لا سادس لها، وهي عندهم: القدم، والبقاء، والمخالفة للخلق، والوحدانية، والغنى المطلق الذي يسمونه القيام بالنفس، الذي يعنون به الاستغناء عن الحيز والمحل.

١، ٢ - القدم والبقاء:

ونبه الشيخ رحمه الله تعالى إلى أن القدم والبقاء اللذين وصف المتكلمون بهما الله -جلّ وعلا- زاعمين أنه وصف بهما نفسه هما المرادان بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ [الحديد: ٣].

والقدم عندهم عبارة عن سلب العدم السابق، إلا أنه عندهم أخص من الأزل، لأن الأزل عبارة عما لا افتتاح له، سواء أكان وجودياً كذات الله وصفاته، أو عدمياً، والقدم عندهم عبارة عما لا أول له، بشرط أن يكون وجودياً، كذات الله متصفة بصفات الكمال والجلال.

وبين الشيخ -رحمه الله- أن الله -عزّ وجلّ- وصف المخلوقين بالقدم، قال: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥]، ﴿كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩]، ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ﴾ [الشعراء: ٧٦].

ووصف المخلوقين بالبقاء قال: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧]، ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦] ولا شك أن ما وصف به الله من

هذه الصفات مخالف لما وصف به الخالق.

وصف الله بالقدم والبقاء لم يرد في الكتاب والسنة:

وبين الشيخ - رحمه الله - تعالى أن الله لم يصف في كتابه نفسه بالقدم، وبعض السلف كره وصفه بالقدم ؛ لأنه قد يطلق مع سبق العدم، نحو ﴿كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩]، ﴿إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥]، ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ﴾ [الشعراء: ٧٦].

وقد زعم بعضهم أنه جاء فيه حديث، وبعض العلماء يقول: هو يدل على وصفه بهذا، وبعضهم يقول: لم يثبت.

أما الأولية والآخرية التي نص الله عليهما في قوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ [الحديد: ٣]، فقد وصف المخلوقين أيضاً بالأولية والآخرية، قال: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ* ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ﴾ [المرسلات: ١٦-١٧]. ولا شك أن ما وصف الله به نفسه من ذلك لائق بجلاله وكماله كما أن للمخلوقين أوليه وآخرية مناسبة لحالهم وفنائهم وعجزهم وافتقارهم.

٣، ٤- الوحدانية والغنى بالنفس:

وصف نفسه بأنه واحد، قال: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [البقرة: ١٦٣] ووصف بعض المخلوقين بذلك، قال: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ [الرعد: ٤].

ووصف نفسه بالغنى ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨]، ﴿فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦] ووصف بعض المخلوقين بذلك، قال: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ [النساء: ٦]، ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٢].

فهذه صفات السلب، جاء في القرآن وصف الخالق ووصف المخلوق بها. ولا شك أن ما وصف به الخالق منها لائق بكماله وجلاله، وما وصف به المخلوق مناسب لحاله وعجزه وفنائه وافتقاره.

تحقيق القول في الصفات المعنوية

ثم تكلم الشيخ على ما أسماه علماء الكلام بالصفات السبع المعنوية التي هي كونه تعالى قادراً ومريداً وعالماً وحياً وسميعاً وبصيراً ومتكلماً، وبين أن حقيقتها هي كيفية الاتصاف بالمعاني السبعة التي ذكرنا.

ومن عدّها من المتكلمين عدها بناء على ثبوت ما يسمونه الحال المعنوية التي يزعمون أنها واسطة ثبوتية، لا معدومة ولا موجودة.

ولم يرتض الشيخ إثبات هذا النوع من الصفات، فقال: «والتحقيق أن هذه خرافة وخيال، وأن العقل الصحيح لا يجعل بين الشيء ونقيضه واسطة ألبتة، فكل ما ليس بموجود فهو معدوم قطعاً، وكل ما ليس بمعدوم فهو موجود قطعاً، ولا واسطة ألبتة، كما هو معروف عند العقلاء».

صفات الأفعال

ثم تكلم الشيخ على صفات الأفعال، فقال: وهذه صفات الأفعال جاء في القرآن كثيراً وصف الخالق بها ووصف المخلوق بها، ولا شك أن ما وصف به الخالق منها مخالف لما وصف به المخلوق، كالمخالفة التي بين ذات الخالق وذات المخلوق، ومن هذه الصفات:

١ - الرزق: وصف الله نفسه - جلّ وعلا - أنه يرزق خلقه فقال: ﴿مَآ أُرِيدُ

مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٧-٥٨]، ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾[سبأ: ٣٩]، ﴿ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [الجمعة: ١١].

ووصف بعض المخلوقين بصفة الرزق، قال: ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ ﴾ [النساء: ٨]، ﴿ وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا ﴾ [النساء: ٥]، ﴿ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

ولا شك أن ما وصف الله به من هذا الفعل مخالف لما وصف به منه المخلوق، كمخالفة ذات الله لذات المخلوق.

٢- **العمل**: ووصف نفسه -جلّ وعلا- بصفة الفعل وهو العمل، قال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴾ [يس: ٧١].

ووصف المخلوقين بصفة الفعل التي هي العمل قال: ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور: ١٦]، ولا شك أن ما وصف به المخلوق مخالف له كمخالفة ذات الخالق ذات المخلوق.

٣- **التعليم**: وصف نفسه بأنه يعلم خلقه: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ * عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ * عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ [الرحمن: ١-٤]، ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ٣-٥]، ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٣].

ووصف بعض خلقه بهذه الصفة أيضاً، قال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [الجمعة: ٢]، وجمع المثالين في قوله: ﴿ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [المائدة: ٤].

٤- الإنباء: ووصف نفسه - جلّ وعلا - بأنه ينبىء، ووصف المخلوق بأنه ينبىء، وجمع بين الفعل في الأمرين في قوله جلّ وعلا: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [التحريم: ٣]. ولا شك أنّ ما وصف الله به من هذا الفعل مخالف لما وصف به منه العبد، كمخالفة ذات الخالق لذات المخلوق.

٥- الإيتاء: ووصف نفسه بصفة الفعل الذي هو الإيتاء. قال جلّ وعلا: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦٩]، ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود: ٣].

ووصف المخلوقين بالفعل الذي هو الإيتاء، قال: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾ [النساء: ٢٠]، ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [النساء: ٤].

ولا شك أن ما وصف الله به من هذا الفعل مخالف لما وصف به العبد من هذا الفعل كمخالفة ذاته لذاته.

الصفات الجامعة

ثم تكلم الشيخ محمد الأمين الشنقيطي - رحمه الله - على الصفات الجامعة، كالعلو والعظم والكِبَر والملك والكِبْر والجبروت والعزة والقوة وما جرى مجرىٰ ذلك من الصفات الجامعة.

١ - ٣: صفات العلو والكبر والعظم:

وصف الله نفسه بالعلو والكبر والعظم فقال: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال في وصف نفسه بالعلو والكبر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ

عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤]، ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩].

ووصف بعض المخلوقين بالعظم قال: ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣]، ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: ٤٠]، ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣] ووصف بعض المخلوقين بالعلو قال: ﴿وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧]، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٠]. ووصف بعض المخلوقات بالكبر: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: ١١]، ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣].

ولا شك أن ما وصف الله به نفسه من هذه الصفات الجامعة كالعلو والكبر والعظم مناف لما وصف به المخلوق منها، كمخالفة ذات الخالق ـ جلّ وعلا ـ لذات المخلوق، فلا مناسبة بين ذات الخالق وذات المخلوق، كما لا مناسبة بين صفة الخالق وصفة المخلوق.

٤ ـ صفة الملك:

ووصف نفسه بالملك، قال: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ﴾ [الجمعة: ١]، ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥].

ووصف بعض المخلوقين بالملك، قال: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ﴾ [يوسف: ٤٣]، ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ﴾ [يوسف: ٥٠]، ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩]، ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦].

ولا شكّ أن لله ـ جلا وعلا ـ ملكاً حقيقياً لائقاً بكماله وجلاله، كما أن للمخلوقين ملكا مناسباً لحالهم وفنائهم وعجزهم وافتقارهم.

٥، ٦ - صفة الجبروت والكبرياء:

ووصف نفسه بأنه جبار متكبر في قوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣] ووصف بعض المخلوقين بأنه جبار متكبر قال: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥]، ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠]، ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠] ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٥].

ولا شك أن ما وصف به الخالق من هذه الصفات مخالف لما وصف به المخلوق كمنافاة ذات الخالق لذات المخلوق.

٧ - صفة العزة:

وصف - جلّ وعلا - نفسه بالعزة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾ [ص: ٩].

ووصف بعض المخلوقين بالعزة، قال: ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ [يوسف: ٥١]، ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣]، وجمع المثالين في قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

ولا شك أن ما وصف به الخالق من هذا الوصف مناف لما وصف به المخلوق، كمخالفة ذات الخالق لذات المخلوق.

٨ - صفة القوة:

ووصف نفسه - جلّ وعلا - بالقوة، قال: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٧-٥٨]، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]

ووصف بعض المخلوقين بالقوة، قال: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٢]، وقال - جلّ وعلا: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم: ٥٤].

وجمع بين المثالين في قوله: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥].

الصفات التي اختلف فيها المتكلمون

ثم تكلم الشيخ على الصفات التي اختلف فيها المتكلمون، هل هي صفات فعل أو صفات معنى؟ والذي حققه الشيخ أنها صفات معان قائمة بذات الله - جلّ وعلا - ومن هذه الصفات:

١، ٢ - صفة الرأفة والرحمة: وصف نفسه بأنه رؤوف رحيم، قال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٧]. ووصف بعض المخلوقين بذلك، فقال في وصف نبينا صلوات الله وسلامه عليه: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

٣- صفة الحلم: وصف نفسه - سبحانه - بالحلم، قال: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [الحج: ٥٩] ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَّلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، ﴿۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٣].

ووصف بعض المخلوقين بالحلم، قال: ﴿فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١]، ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَّلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

٤- صفة المغفرة: وصف نفسه - سبحانه - بالمغفرة، فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٧٣]، ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

ووصف بعض المخلوقين بالمغفرة، قال: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣]، ﴿ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ﴾ [البقرة: ٢٦٣]، ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ١٤].

ولا شك أن ما وصف به خالق السموات والأرض من هذه الصفات حق لائق بكماله وجلاله لا يجوز أن ينفى خوفاً من التشبيه بالخلق، وأن ما وصف به الخلق من هذه الصفات حق مناسب لحالهم وفنائهم وعجزهم وافتقارهم.

حال النافين لصفات الكمال والجلال

وبعد أن بين الشيخ ما في منهج علماء الكلام من خلل، وفصل القول في المنهج القرآني الإيماني الذي كشف الحق وأنار الدرب ختم كلامه قائلاً:

«وعلى كل حال فلا يجوز للإنسان أن يتنطع إلى وصف أثبته الله -جلّ وعلا - لنفسه فينفي هذا الوصف عن الله متهجماً على ربّ السموات والأرض، مدعياً عليه أن هذا الوصف الذي تمدح به نفسه أنه لا يليق به، وأنه ينفيه عنه، ويأتيه بالكمال من كيسه الخاص، فهذا جنون وهوس ، ولا يذهب إليه إلا من طمس الله بصائرهم».

صفة الاستواء صفة كمال لا صفة نقص

ولبيان عظم جناية علماء الكلام على صفات الباري ضرب الشيخ الشنقيطي - رحمه الله - مثلا بصفة عظيمة من صفاته هي صفة الاستواء، فقال: فهذه

صفة الاستواء التي كثر فيها الخوض، ونفاها كثير من الناس بفلسفة منطقية، وأدلة جدلية أبطلوا بها الحق، وأحقوا بها الباطل، قد تجرأ الآلاف ممن يدعون الإسلام فنفوها عن ربِّ السمٰوات والأرض بأدلة منطقية.

فيقولون مثلاً: لو كان مستوياً على عرشه لكان مشابهاً للخلق، لكنه غير مشابه للخلق، فينتج أنه غير مستو على العرش. وهذه النتيجة باطلة لمخالفتها صريح القرآن.

وبين الشيخ - رحمه الله - أن صفة الاستواء صفة كمال وجلال، تمدح بها رب السموات والأرض نفسه، والقرينة على أنها صفة كمال وجلال أن الله ما ذكرها في موضع من كتابه إلا مصحوبة بما يبهر العقول من صفات جلاله وكماله، التي هي منها، ثم استعرض النصوص التي وردت فيها هذه الصفة للتدليل على صحة ما قرره:

١- أول سورة ذكر الله فيها صفة الاستواء حسب ترتيب المصحف سورة الأعراف، قال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فهل لأحد أن ينفي شيئاً من هذه الصفات الدالة على الجلال والكمال؟

٢- الموضع الثاني في سورة يونس، قال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ * هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ

ٱلْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * إِنَّ فِى ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣-٦].

فهل لأحد أن ينفي شيئاً من هذه الصفات الدالة على هذا الكمال والجلال؟

٣- الموضع الثالث في سورة الرعد، في قوله - جلّ وعلا -: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ * وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٢-٤]، فهل لأحد أن ينفي شيئاً من هذه الصفات الدالة على الجلال والكمال؟

٤- الموضع الرابع في سورة طه: ﴿طه * مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ * إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ * تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلْعُلَى * ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ * لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ * وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى * ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ١-٨].

فهل لأحد أن ينفي شيئاً من هذه الصفات الدالة على الجلال والكمال؟

٥- الموضع الخامس في سورة الفرقان في قوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا * ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٨-٥٩].

فهل لأحد أن ينفي شيئاً من هذه الصفات الدالة على هذا الكمال والجلال؟

٦- الموضع السادس في سورة السجدة في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ * ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٣-٩].

فهل لأحد أن ينفي شيئاً من هذه الصفات الدالة على الغاية من الجلال والكمال؟

٧- الموضع السابع في سورة الحديد في قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٣-٤].

فالشاهد أن هذه الصفات التي يظن الجاهلون أنها صفة نقص ويتهجمون على رب السموات والأرض بأنه وصف نفسه بصفة نقص. ثم يسببون عن هذا أن ينفوها ويؤولوها، مع أن الله - جلّ وعلا - تمدّح بها، وجعلها من صفات الجلال والكمال، مقرونة بما يبهر من صفات الجلال والكمال، وهذا يدل على جهل وهوس من ينفي بعض صفات الله - جلّ وعلا - بالتأويل.

المطلب السادس

قواعد مهمة في صفات الله وأسمائه

هناك عدة قواعد مهمة، ونقاط رئيسة، نبه إليها العلماء في هذا الباب نسوقها موجزة مختصرة.

القاعدة الأولى: القول في بعض الصفات كالقول في بعضها الآخر[1]:

بهذه القاعدة نرد على عدة طوائف:

أ - **الذين يثبتون بعض الصفات وينفون بعضها**، كالذين يثبتون لله الحياة، والعلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والكلام، والإرادة، ويجعلونها صفات حقيقية، ثم ينازعون في محبة الله ورضاه، وغضبه وكراهيته، ويجعلون ذلك مجازاً، أو يفسرونه بالإرادة، أو يفسرونه بالنعم والعقوبات.

فيقال لهؤلاء: لا فرق بين ما أثبتموه وما نفيتموه، بل القول في أحدهما كالقول في الآخر، فإن كنتم تقولون: حياته وعلمه كحياة المخلوقين وعلمهم، فيلزمكم أن تقولوا في رضاه ومحبته كذلك.

وإن قلتم له حياة وعلم وإرادة تليق به ولا تشبه حياة المخلوقين وعلمهم وإرادتهم، فيلزمكم أن تقولوا في رضاه ومحبته وغضبه كذلك.

وإن قلتم: إن الغضب غليان دم القلب لطلب الانتقام، فكذلك يقال: الإرادة ميل النفس إلى جلب مصلحة أو دفع مضرة، فإن قلتم: هذه إرادة

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٣/ ١٧.

مخلوق، قلنا: هذا غضب مخلوق.

ب - الذين يثبتون الأسماء وينفون الصفات، فيقولون حي بلا حياة، عليم بلا علم... الخ.

فهؤلاء يقال لهم: لا فرق بين إثبات الأسماء، وإثبات الصفات، فإنك إن قلت إثبات الحياة والعلم والقدرة يقتضي التشبيه أو التجسيم لأنا لا نجد متصفاً بالصفات إلا وهو جسم، قلنا: وكذلك في الأسماء، إذ لا نجد ما هو مسمى بحي وعليم وقدير إلا ما هو جسم، فانف أسماء الله، فإن قالوا: هذه الأسماء تليق بكماله وجلاله، قلنا: وكذلك صفاته.

جـ - الذين ينفون الأسماء والصفات، فإنهم بزعمهم ينفون ذلك حتى لا يشبهوا الله بالموجودات، فيقال لهم: نفيتم علمه وحياته كما نفيتم أنه عليم حي خشية أن تشبهوه بالموجودات، ولكن يلزم قولكم هذا تشبيه الله بالمعدومات.

القاعدة الثانية[1]: القول في الصفات كالقول في الذات:

فالله - سبحانه - له ذات لا تشبه ذوات المخلوقين، وكذلك صفاته وأفعاله لا تشبه ذوات المخلوقين وأفعالهم.

إذ يلزم من أقر بأن الله حقيقة ثابتة في نفس الأمر مستوجبة لصفات الكمال لا يماثلها شيء أن يقول: إن سمعه وبصره وكلامه الثابت في نفس الأمر لا يشابهه سمع المخلوقين ولا بصرهم ولا كلامهم.

فإن قال قائل: أنا أنفي استواء الله خشية من تشبيه الله بخلقه، فيقال له: انف وجود الله وذاته، لأنه يلزم من ذلك تشبيه الله بخلقه، فإن قال: لله وجود

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٣/ ٢٥.

يخصه، وذات تخصه لا تشبه ذوات المخلوقين، قلنا: وكذلك نزوله واستواؤه.

القاعدة الثالثة: الاتفاق في الأسماء لا يقتضي التساوي في المسميات:

فإننا نعلم أن ما أخبرنا الله تعالى به مما في الجنة من لبن وعسل وخمر حق، وهذه الحقائق وإن كانت موافقة في الأسماء للحقائق الموجودة في الدنيا فإنها لا تماثلها، بل بينها وبين ما في الدنيا من المباينة ما لا يعلمه إلا الله تعالى، فالخالق أعظم مباينة للمخلوقات من مباينة المخلوق للمخلوق، بل قد تسمي في الدنيا عدة أشياء باسم واحد، ويكون لكل واحد حقيقة تخصه، فإننا نقول مثلاً: يد الجمل، ويد الباب، ويد الإنسان، واليد في كل لفظة من الألفاظ الثلاثة لها معنى يخصها.

القاعدة الرابعة: لا يوصف الله بالنفي المحض:

أثبت الله سبحانه وتعالى لنفسه أسماء وصفات، ونفى عن نفسه أسماء وصفات.

والإثبات والنفي في أسمائه وصفاته مجمل ومفصل، فالإثبات المجمل يكون بإثبات الثناء المطلق، والحمد المطلق، والمجد المطلق لله تعالى، ونحو ذلك كما يشير إليه قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠].

وأما التفصيل في الإثبات فهو متناول لكل اسم أو صفة وردت في الكتاب والسنة.

والنفي المجمل يكون بأن ينفي عن الله - عزّ وجلّ - كل ما يضاد كماله من

أنواع العيوب والنقائص مثل قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

وأما التفصيل في النفي فهو أن ينزه الله عن كل واحد من هذه العيوب والنقائص بخصوصه، فينزه عن الوالد والولد والشريك والصاحبة والند والجهل والعجز والسنة والنوم والعبث... إلخ.

إلا أن منهج القرآن في النفي أن لا ينفي نفياً محضاً، فلا ينفي القرآن صفة نقص عن الله إلا إذا كانت متضمنة صفة مدح وكمال، فلا ينفي نفياً مجرداً، كما تفعل بعض الفرق[1]، فقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فيه نفي السنة والنوم عن الله تعالى، ونفيهما يتضمن كمال الحياة والقيام، فمن كمال حياته: ألا تأخذه سنة (وهي أوائل النوم) ولا نوم، وقوله: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥] مستلزم لكمال قدرته وتمامها، إذ المعنى (لا يكرثه ولا يثقله).

ومثل ذلك قوله: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٣] فإن نفي العزوب مستلزم لعلمه بكل ذرة في السموات والأرض.

وكذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨] فإن نفي اللغوب (وهو التعب والإعياء) دل على كمال القدرة ونهاية القوة. وكذلك قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] أي: لا تحيط به الأبصار فهو وإن رئي في الآخرة، ولكنه لعظمته - سبحانه - لا تحيط به الأبصار.

---

(١) الجهمية المحضة. انظر مجموع الفتاوى: ٣/ ٣٩.

وكذلك كل ما نفاه الله عن نفسه، فإنه يستلزم صفة ثبوتية يمدح الله بها.

ولم يصف الله نفسه بنفي محض لا يستلزم صفة ثبوتية، وبذلك يتضح أن الذين يتجهون إلى الإكثار من النفي (أو ما يسمونه السلوب) أخطؤوا؛ لأن النفي ليس فيه مدح ولا كمال ما لم يتضمن إثباتاً؛ لأن النفي المحض عدم محض، والعدم المحض ليس بشيء.

وقد أكثر المبتدعون من النفي المحض فقالوا: لا يتكلم، ولا يرى، وليس فوق العالم، وغلا بعضهم فقالوا: ليس بداخل العالم ولا خارجه، ولا مباينا للعالم، ولا مخالطاً له... إلى آخر هذا الكلام الغث الذي يجعلون الله به عدماً... تعالى وتقدس.

القاعدة الخامسة: الألفاظ الموهمة حقاً وباطلاً[1]:

الصفات التي وردت في الكتاب والسنة حق يجب الإيمان بها، وإن لم نفقه معناها.

أما ما يطلقه الناس على الله - سبحانه - مما لم يرد في الكتاب والسنة مما يتنازع فيه الناس فلا نثبته ولا ننفيه حتى نتبين مراد قائله منه.

فمثلاً يقال لمن نفى الجهة: ماذا تعنى بالجهة؟ إن كنت تعني أن الله في داخل جرم السماء، وأن السماء تحويه، فلا يجوز أن نقول: إن الله في جهة، وإن كنت تريد أن الله فوق مخلوقاته فوق السموات فهذا حق.

وكذلك التحيز، إن كان المراد أن الله تحوزه المخلوقات فهذا باطل قطعاً، وإن أراد أنه منحاز عن المخلوقات، أي: مباين لها فهذا حق.

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٣/ ٤١.

القاعدة السادسة: التعطيل سببه اعتقاد التشبيه أولا:

وقد وضح هذه القاعدة العلامة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله تعالى، وبين أن أصل البلاء وأسه هو تنجس القلب وتلطخه وتدنسه بأقذار التشبيه، فإذا سمع ذو القلب المتنجس بأقذار التشبيه صفة من صفات الكمال، التي أثنى الله بها على نفسه، كنزوله إلى سماء الدنيا في ثلث الليل الأخير، وكاستوائه على عرشه، وكمجيئه يوم القيامة، وغير ذلك من صفات الجلال والكمال، فإن أول ما يخطر في ذهنه أن هذه الصفة تشبه صفة الخلق، فيكون قلبه متنجساً بأقذار التشبيه، لا يقدّر الله حق قدره، ولا يعظم الله حق عظمته، حيث يسبق إلى ذهنه أن صفة الخالق تشبه صفة المخلوق، فيكون أولا نجس القلب متقذراً بأقذار التشبيه، فيدعوه شؤم هذا التشبيه إلى أن ينفي صفة الخالق - جلّ وعلا - عنه، بادعاء أنها تشبه صفات المخلوق، فيكون أولاً مشبهاً، وثانياً معطلاً، فصار ابتداء وانتهاءً متهجماً على رب العالمين، ينفي صفاته عنه بادعاء أن تلك الصفة لا تليق به.

وذكر الشيخ - رحمه الله تعالى - قاعدة أصولية أطبق عليها من يعتد به من أهل العلم. وهي أن النبي ﷺ لا يجوز في حقه تأخير البيان عن وقت الحاجة، ولا سيما في العقائد. ولو مشينا على فرضهم الباطل، أن ظاهر آيات الصفات الكفر، فالنبي ﷺ لم يؤول الاستواء (بالاستيلاء)، ولم يؤول شيئاً من هذه التأويلات، ولو كان المراد بها هذه التأويلات لبادر النبي ﷺ إلى بيانها ؛ لأنه لا يجوز في حقه تأخير البيان عن وقت الحاجة.

وبين الشيخ - رحمه الله تعالى - أن الواجب على المسلم إذا سمع وصفاً وصف به خالق السموات والأرض نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ أن يملأ صدره من التعظيم، ويجزم بأن ذلك الوصف بالغ من غايات الكمال والجلال

والشرف والعلو ما يقطع جميع علائق أوهام المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين، فيكون القلب منزّها معظما له جلّ وعلا، غير متنجس بأقذار التشبيه، فتكون أرض قلبه قابلة للإيمان والتصديق بصفات الله التي تمدّح بها، وأثنى عليه بها نبيه ﷺ، على غرار قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، والشر كل الشر في عدم تعظيم الله، وأن يسبق في ذهن الإنسان أن صفة الخالق تشبه صفة المخلوق، فيضطر المسكين أن ينفي صفة الخالق بهذه الدعوى الكاذبة الخائنة.

القاعدة السابعة: آيات الصفات ليست من المتشابه:

ذكر الشيخ الشنقيطي - رحمه الله - أن كثيراً من الناس يطلق على آيات الصفات اسم المتشابه، وهذا من جهة غلط، ومن جهة قد يَسُوغ كما بينه الإمام مالك بن أنس بقوله: « الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والسؤال عنه بدعة، والإيمان به واجب ».

كذلك يقال في النزول: النزول غير مجهول، والكيف غير معقول، والسؤال عنه بدعة، والإيمان به واجب، واطرده في جميع الصفات ؛ لأن هذه الصفات معروفة عند العرب، إلا أن ما وصف به خالق السموات والأرض منها أكمل وأجل وأعظم من أن يشبه شيئاً من صفات المخلوقين، كما أن ذات الخالق - جلّ وعلا - حق، والمخلوقون لهم ذوات، وذات الخالق - جلّ وعلا - أكمل وأنزه وأجل من أن تشبه شيئاً من ذوات المخلوقين.

القاعدة الثامنة: ليس ظاهر الصفات التشبيه حتى تحتاج إلى تأويل:

المقرر في الأصول أن الكلام إن دل على معنى لا يحتمل غيره فهو المسمى (نصاً) كقوله تعالى: مثلاً ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٦]، فإذا كان يحتمل

معنيين أو أكثر فلا يخلو من حالتين: إما أن يكون أظهر في أحد الاحتمالين من الآخر، وإما أن يتساوى بينهما.

فإن كان الاحتمال يتساوى بينهما فهذا الذي يسمى في الاصطلاح: (المجمل) كما لو قلت: (عدا اللصوص البارحة على عين زيد) فإنه يحتمل أن تكون عينه الباصرة عوروها، أو عينه الجارية غوروها، أو عينه ذهباً وفضة سرقوها، فهذا مجمل، وحكم المجمل أن يتوقف عنه إلا بدليل يدل على التفصيل.

أما إذا كان نصا صريحاً، فالنص يعمل به، ولا يعدل عنه إلا بثبوت النسخ.

فإذا كان أظهر في أحد الاحتمالين فهو المسمى بـ (الظاهر)، ومقابله يسمى (محتملاً مرجوحاً)، والظاهر يجب الحمل عليه إلا لدليل صارف عنه، كما لو قلت: « رأيت أسداً » فهذا ظاهر في الحيوان المفترس، محتمل للرجل الشجاع.

وعلى ذلك فهل المتبادر من آيات الصفات من نحو قوله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] وما جرى مجرى ذلك هو مشابهة الخلق، حتى يجب علينا أن نؤول ونصرف اللفظ عن ظاهره؟ أو ظاهرها المتبادر منها تنزيه رب السموات حتى يجب علينا أن نقره على الظاهر من التنزيه، والجواب: أن كل وصف أسند إلى رب السموات والأرض، فظاهره المتبادر منه عند كل مسلم هو التنزيه الكامل عن مشابهة الخلق.

فإقراره على ظاهره هو الحق، وهو تنزيه رب السموات والأرض عن مشابهة الخلق في شيء من صفاته. فهل ينكر عاقل أن المتبادر للأذهان السليمة أن الخالق ينافي المخلوق في ذاته وسائر صفاته. لا والله لا يعارض في هذا إلا مكابر.

القاعدة التاسعة: حقيقة التأويل[1]:

التأويل الذي فتن به الخلق، وضل به الآلاف من هذه الأمة يطلق في الاصطلاح مشتركاً بين ثلاثة معان:

١- يطلق على ما تؤول إليه حقيقة الأمر في ثاني حال، وهذا هو معناه في القرآن نحو قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ [يونس: ٣٩]، ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾ [الأعراف: ٥٣]؛ أي ما تؤول إليه حقيقة الأمر في ثاني حال.

٢- ويطلق التأويل بمعنى التفسير، وهذا قول معروف كقول ابن جرير: القول في تأويل قوله تعالى كذا، أي تفسيره.

٣- أما في اصطلاح الأصوليين فالتأويل: هو صرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه لدليل.

وصرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه له عند علماء الأصول ثلاث حالات:

أ - إما أن يصرفه عن ظاهره المتبادر منه لدليل صحيح من كتاب أو سنة، وهذا النوع من التأويل صحيح مقبول لا نزاع فيه. ومثال هذا النوع ما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: (الجار أحق بصقبه)[2] فظاهر هذا الحديث ثبوت الشفعة للجار.

وحمل هذا الحديث على الشريك المقاسم حمل للفظ على محتمل مرجوح غير ظاهر متبادر، إلا أن حديث جابر الصحيح (فإذا وقعت الحدود وصرفت الطرق فلا شفعة)[3] دل على أن المراد بالجار الذي هو أحق بصقبه خصوص

---

(١) ألفت في هذا الموضوع رسالة بعنوان: التأويل خطورته وآثاره.

(٢) رواه أحمد والنسائي وابن ماجه. (منتقى الأخبار: ص: ٤٩٢. ورقمه: ٣١٧٧).

(٣) رواه البخاري وأبو داود والترمذي وأحمد. (منتقى الأخبار: ص: ٤٩٢).

الشريك المقاسم. فهذا النوع من صرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه لدليل واضح من كتاب وسنة يجب الرجوع إليه، وهذا تأويل يسمى تأويلاً صحيحاً وتأويلاً قريباً.

ب - الثانية هو صرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه لشيء يعتقده المجتهد دليلاً، وهو في نفس الأمر ليس دليلاً، فهذا يسمى تأويلاً بعيداً، ويقال له: فاسد. ومثل له بتأويل أبي حنيفة لفظ: (امرأة) في قوله ﷺ: (أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل)[1] قالوا: حمل هذا على خصوص المكاتبة تأويل بعيد، لأنه صرف للفظ عن ظاهره المتبادر منه، لأن (أي) في قوله (أي امرأة) صيغة عموم.

وأكدت صيغة العموم بما المزيدة للتوكيد، فحمل هذا على صورة نادرة هي المكاتبة حمل للفظ على غير ظاهره من غير دليل.

جـ - أما حمل اللفظ على غير ظاهره لا لدليل: فهذا لا يسمى تأويلا في الاصطلاح بل يسمى لعباً، لأنه تلاعب بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ. ومن هذا تفسير غلاة الروافض قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧] قالوا: عائشة.

ومن هذا النوع صرف آيات الصفات عن ظواهرها إلى محتملات ما أنزل الله بها من سلطان، كقولهم: (استوى) بمعنى: استولى. فهذا لا يدخل في اسم التأويل، لأنه لا دليل عليه ألبتة. وإنما يسمى في اصطلاح أهل الأصول: لعباً، لأنه تلاعب بكتاب الله - جلّ وعلا - من غير دليل ولا مستند. فهذا النوع لا يجوز؛ لأنه تهجّم على كلام رب العالمين، والقاعدة المعروفة عند علماء السلف أنه لا يجوز صرف شيء من كتاب الله ولا سنة رسوله عن ظاهره المتبادر منه، إلا بدليل يجب الرجوع إليه.

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وأحمد (منتقى الأخبار: ٥٣٩، ورقمه: ٣٤٥٢).

المطلب السابع

مذهب أهل السنة والجماعة في صفات الله

لخص ابن تيمية مذهب السلف الصالح في هذا الباب فقال:

« فالأصل في هذا الباب أن يوصف بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ نفياً وإثباتاً، فيثبت لله ما أثبته لنفسه، وينفي عنه ما نفاه عن نفسه.

وقد علم أن طريقة سلف الأمة وأئمتها إثبات ما أثبته من الصفات من غير تكييف ولا تمثيل، ومن غير تحريف ولا تعطيل »[1].

وقد حذرنا الله من الانحراف عن النهج الذي قرره الله في كتابه في أسمائه تعالى وصفاته، فقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٨٠]. وأصل الإلحاد في كلام العرب العدول عن القصد والميل والجور والانحراف، ومنه اللحد في القبر لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمة القبر »[2].

وقال تعالى منزهاً نفسه عما يصفه به الملحدون في أسمائه الضالون المشركون: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٥٩]، ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠]، ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: ١٦٠]، وفي الآية الأخرى سلم على المرسلين لسلامة ما قالوه: ووصفوا الله به ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٨١].

---

(١) مجموع الفتاوى: ٣/ ٣. وقد قرر عقيدة السلف جمع كبير من العلماء، منهم الطحاوي، وقد شرح عقيدته محمد بن أبي العز الحنفي في مؤلف معنون بـ (بشرح العقيدة الطحاوية)، وأبو الحسن الأشعري في كتابه الجليل (الإبانة عن أصول الديانة)، والصابوني في كتابه (عقيدة السلف)، وغيرهم كثير، ونحن اقتفينا أثرهم، وسرنا على دربهم، سائلين الله أن يحشرنا في زمرتهم في يوم الدين.

(٢) معارج القبول: ١/ ٨٨.

عقيدة الإمام أبي الحسن الأشعري في صفات الله

يشغب بعض من لم يرتض مذهب أهل السنة على أهل السنة مدعياً أن مذهب الأشاعرة يخالف هذا الذي قررناه، ويدعي أن مذهبهم مذهب أهل السنة، ونحن نورد هنا المذهب الذي حكاه أبو الحسن الأشعري عن أهل السنة وأصحاب الحديث، ونص في ختامه أنه معتقده قائل به.

عنون لهذا المبحث بقوله: « هذه حكاية جملة قول أصحاب الحديث وأهل السنة » ثم قال: « جملة ما عليه أهل الحديث والسنة الإقرار بالله وملائكته وكتبه ورسله، وما جاء من عند الله، وما رواه الثقات عن رسول الله ﷺ لا يردّون من ذلك شيئاً[1]، وأن الله سبحانه إلهٌ واحد فرد صمد لا إله غيره لم يتخذ صاحبة ولا ولداً وأن محمداً عبده ورسوله، وأن الجنة حقٌّ، وأن النار حقٌّ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور.

وأن الله سبحانه على عرشه كما قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، وأن له يدين بلا كيف كما قال: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] وكما قال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] وان له عينين بلا كيف كما قال: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤]، وأنّ له وجها كما قال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧].

وأن أسماء الله لا يقال: إنها غير الله كما قالت المعتزلة والخوارج، وأقرّوا أن لله سبحانه علماً كما قال: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٦] وكما قال: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ [فاطر: ١١].

وأثبتوا السمع والبصر ولم ينفوا ذلك عن الله كما نفته المعتزلة، وأثبتوا لله

---

(١) لاحظ كيف جعل صحيح الحديث حجّة في العقائد؛ لأن كلامه هنا في العقائد لا الأحكام، فهو لا يفرق بين المتواتر والآحاد، وفعله في استدلاله على مسائل الاعتقاد في كتبه يدل على صحة ما قررناه.

القوة كما قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

ويقولون إنّ القرآن كلام الله غير مخلوق، والكلام في الوقف واللفظ من قال باللفظ أو بالوقف فهو مبتدع عندهم، لا يقال: اللفظ بالقرآن مخلوق، ولا يقال: غير مخلوق.

ويقولون إنّ الله سبحانه يُرى بالأبصار يوم القيامة كما يرى القمر ليلة البدر، يراه المؤمنون، ولا يراه الكافرون؛ لأنهم عن الله محجوبون قال عز وجل ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، وأن موسى عليه السلام سأل الله سبحانه الرؤية في الدنيا، وأن الله سبحانه تجلى للجبل فجعله دكاً، فأعلمه بذلك أنه لا يراه في الدنيا، بل يراه في الآخرة.

ويصدّقون بالأحاديث التي جاءت عن رسول الله ﷺ أن الله سبحانه ينزل إلى السماء الدنيا فيقول: (هل من مستغفر) كما جاء الحديث عن رسول الله ﷺ، ويقرون أن الله سبحانه يجيء يوم القيامة كما قال: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]، وأن الله يقرب من خلقه كيف شاء كما قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

وختم أبو الحسن الأشعري جملة ما حكاه عن أهل السنة وأصحاب الحديث بقوله: « فهذه جملة ما يأمرون به ويستعملونه ويرونه، وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول، وإليه نذهب، وما توفيقنا إلا بالله، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وبه نستعين، وعليه نتوكل، وإليه المصير »[1].

وبهذا النقل يتضح لك موافقة معتقد أبي الحسن الأشعري لمعتقد أهل السنة والجماعة في باب أسماء الله وصفاته[2].

---

(١) راجع مقالات الإسلاميين: ص ٢٩٠-٢٩٧، وقد اقتصرنا على نقل ما يتعلق بصفات الله فحسب، أما بقية معتقد أهل السنة وأهل الحديث الذي رضيه فلم ننقله منه.

(٢) وقد ألفت رسالة لطيفة تبين معتقد أبي الحسن الأشعري ومنهجه.

الفصل الثالث

توحيد الله[1]

المبحث الأول: معناه وأقسامه

الله - سبحانه - واحد في ذاته، ليس له مثيل ولا نظير، تعالى عن الصاحبة والولد ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١-٤] وهو سبحانه متصف بصفات الكمال، لا يشبهه شيء من مخلوقاته في صفة من صفاته: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] وهو وحده الخالق المحيي المميت قيوم السموات والأرض، ولا يعد مؤمناً من لم يعلم علماً يقينياً بأن الله متفرد بذلك كله.

لا يكفي التوحيد العلمي، بل لا بدّ من التوحيد العملي:

إلا أن هذا التوحيد النظري لا يكفي كي يعد المرء مؤمناً، بل لا بد من اتخاذه وحده إلهاً معبوداً بالتوجه إليه بالعبادة دون سواه.

لأن الخالق الرزاق المنعم المتفضل المحيي المميت المتصف بصفات

(١) التوحيد الحق: الاعتقاد بوحدانية الله سبحانه في ذاته وصفاته، ثم عبادته وحده لا شريك له، وقد حرف هذا المفهوم، فزعم قوم أن التوحيد يقتضي نفي صفات الله، لأنه يلزم منه بزعمهم تعدد الواجب، وزعم بعض الصوفية أن التوحيد الذي أشرنا إليه توحيد العامة، أما توحيد الخاصة فهو الذي يثبت بالحقائق، وزعموا أن هناك توحيد خاصة الخاصة، وكل ذلك ضلال.

الكمال المنزه عن صفات النقص هو المستحق أن يُعبَد دون سواه، فغيره مربوب مألوه لا يملك لنفسه ضراً ولانفعاً، فكيف يعبد من دون الله تعالى؟

تناقض الذين لا يعبدون الله وحده:

والكفرة من مشركي العرب وكثير غيرهم كانوا يعتقدون بوحدانية الله في الخلق والإيجاد، وتفرده في الرزق والإحياء والإماتة والملك، ولكنهم يرفضون عبادته وحده دون غيره، وقصده دون سواه، وهذا تناقض شنيع، فالمتفرد بالخلق والإيجاد هو المستحق للعبادة والخضوع والتعظيم، وقد أطال القرآن في مناقشة المشركين وبيان تناقضهم في هذا وبين لهم أن الذي أقروا به من تفرده بالخلق والرزق. . . إلخ يلزمهم بعبادته وإخلاص الدين له.

المبحث الثاني

كلمة التوحيد: معناها، فضلها، شروطها

(لا إله إلا الله) كلمة التوحيد، جمعت الإيمان واحتوته، وهذه الكلمة عنوان الإسلام وأساسه.

ومعناها: لا معبود يستحق العبادة إلا الله سبحانه، وقد أخطأ من فسرها بأنه لا موجود إلا الله، لأن معنى الإله: المعبود، فيصبح المعنى بناء على قول هؤلاء، لا معبود موجود إلا الله، وهذا غير صحيح؛ لأنه يلزم منه أنّ كلّ معبود بحق أو باطل هو الله، فيكون ما عبده المشركون من شمس وقمر ونجوم... إلخ هو الله، فكأنه قيل: ما عُبِد على هذا التقدير إلا الله، وهذا من أبطل الباطل.

فالمعنى الصحيح المتعين هو ما ذكرناه أولاً: أنه لا معبود يستحق العبادة إلا الله وحده.

وقد جاءَت النصوص دالة على فضل (لا إله إلا الله)، وعظيم نفعها، وقد سبق ذكر النصوص الدالة على أن من قال: (لا إله إلا الله خالصاً من قلبه دخل الجنة). وبهذه الكلمة يعصم العبد ماله ودمه، ويصبح مسلماً.

ولكن ليس المراد بهذه الكلمة مجرد النطق، فلا تنفع هذه الكلمة قائلها عند ربه إلا بسبعة شروط:

١- العلم بمعناها: قال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] وقال: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦].

وفي الصحيح عن عثمان بن عفان - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: (من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة)[1].

٢- اليقين: بأن يكون القائل مستيقناً بمدلول هذه الكلمة يقيناً جازماً، فإن الإيمان لا يغني فيه إلا اليقين لا الظن، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات: ١٥] فاشترط في صدق إيمانهم كونهم لم يرتابوا، أي لم يشكوا، وفي الصحيح من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: (أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاكّ فيهما فيحجب عن الجنة)[2].

وفي الصحيح أيضاً أن الرسول ﷺ أرسل أبا هريرة بنعليه قائلاً له: (من لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه فبشره بالجنة)[3] فاشترط دخول قائلها الجنة أن يكون مستيقناً بها قلبه غير شاكّ فيها، وإذا انتفى الشرط انتفى المشروط.

٣- القبول لما اقتضته هذه الكلمة بقلبه ولسانه، وقد حدثنا القرآن أن الله عذب المكذبين من الأمم الذين رفضوا هذه الكلمة، واستكبروا عنها: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٣٥-٣٦] جعل الله علة تعذيبهم وسببه هو استكبارهم عن قول لا إله إلا الله، وتكذيبهم من جاء بها.

٤- الانقياد لما دلت عليه، قال: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾ [الزمر: ٥٤] وقال: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ

(١) رواه مسلم: ١/ ٥٥. ورقمه: ٢٦.
(٢) رواه مسلم: ١/ ٥٧. ورقمه: ٢٧.
(٣) رواه مسلم: ١/ ٦٠. ورقمه: ٣١.

بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: ٢٢]، ومعنى يسلم وجهه أي ينقاد، وهو محسن؛ أي موحد، والعروة الوثقى فسرت (بلا إله إلا الله).

٥- **الصدق**: وهو أن يقولها صادقاً من قلبه، يواطىء قلبه لسانه، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ * يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٨-٩]. فهم كاذبون في قولهم، يبطنون غير ما يعلنون، وفي الصحيحين عن معاذ بن جبل - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: (ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار)[1]، فاشترط في النجاة من النار أن يقولها صدقاً من قلبه.

٦- **الإخلاص**: وهو تصفية العمل بصالح النية عن جميع شوائب الشرك، قال الله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣] وقال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥].

وفي الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: (أسعد الناس بشفاعتي من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه ونفسه)[2].

وفي الصحيح عن عتبان بن مالك - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: (إن الله قد حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله عزّ وجلّ)[3].

٧- **المحبة**: لهذه الكلمة ولما اقتضته ودلت عليه ولأهلها العاملين بها الملتزمين لشروطها وبغض ما ناقض ذلك، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ

---

(١) رواه البخاري: ١/ ٢٢٦. ورقمه: ١٢٨.

(٢) رواه البخاري: ١/ ١٩٣. ورقمه: ٩٩.

(٣) رواه البخاري: ١/ ٥١٩. ورقمه: ٤٢٥.

﴿مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] فأخبر أن عباده المؤمنين أشد حباً له، وذلك لأنهم لم يتخذوا من دونه أنداداً، وعلامة حب العبد ربه تقديم محابه، وإن خالفت هواه، وبغض ما يبغض ربه وإن مال إليه هواه، وموالاة من والى الله ورسوله، ومعاداة من عاداه الله ورسوله، واتباع رسول الله ﷺ واقتفاء أثره وقبول هداه.

إشارة السلف إلى بعض هذه الشروط:

قال الحسن البصري للفرزدق - الشاعر المعروف - وهو يدفن امرأته: ما أعددت لهذا اليوم؟ قال: شهادة أن لا إله إلا الله منذ سبعين سنة. قال الحسن: نعم العدّة، لكن للا إله إلا الله شروطاً، فإياك وقذف المحصنات.

وقيل للحسن البصري: إن ناساً يقولون: من قال لا إله إلا الله دخل الجنة، فقال: من قال: لا إله إلا الله فأدى حقها وفرضها دخل الجنة.

وقال وهب بن منبه لمن سأله: أليس مفتاح الجنة لا إله إلا الله؟ قال: بلى، ولكن ما من مفتاح إلا له أسنان، فإن أتيت بمفتاح له أسنان فتح لك، وإلا لم يفتح لك.

المبحث الثالث: العبادة

المطلب الأول: تعريف العبادة

التوحيد لا يتحقق إلا بأمرين:

الأول: الشهادة لله بالوحدانية في ذاته وصفاته.

الثاني: قصده وإرادته وحده دون سواه في جميع العبادات.

والعبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، فالظاهرة كالتلفظ بالشهادتين والصلاة والصوم، والباطنة كالإيمان بالله وملائكته والكتب والرسل والخوف والرجاء....

المطلب الثاني

العابد هو الذي يتقلب بين الخوف والرجاء

العبادة الحقة هي التي يتقلب صاحبها بين حب الله، والخوف منه والتذلل له، ورجائه والطمع في رحمته.

فالعابد لا حباً ولا خوفاً ولا رجاءً إنما يؤدي حركات جوفاء لا تعني بالنسبة له شيئاً.

والعابد حباً بلا تذلل ولا خوف ولا رجاء كثيراً ما يقع في الذنوب

والمعاصي، فيزعم أنه يحب الله ويترك العمل ويتجرأ على الذنوب، وقديماً زعم قوم حب الله من غير عمل فاختبرهم الله بقوله: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١] فمن ادعى محبة الله ولم يكن متبعاً رسوله فهو كاذب.

وقال الشافعي رحمه الله تعالى: « إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء، ويطير في الهواء فلا تصدقوه حتى تعلموا متابعته لرسول الله ».

وكذلك الرجاء وحده إذا لم يقترن بخوف الله وخشيته فإن صاحبه يتجرأ على معاصي الله، ويأمن مكره: ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٩].

وكذلك الخوف إذا لم يقترن بالرجاء فإن العابد يسوء ظنه بالله، ويقنط من رحمته، ويأس من روحه، وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف: ٨٧].

فالعبادة الحقة هي التي يكون صاحبها بين الخوف والرجاء ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ [الإسراء: ٥٧]، ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ [الزمر: ٩] كما يكون بين الرغبة والرهبة كما قال تعالى في آل زكريا عليهم السلام: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

فالعبد الصالح تارة يمده الرجاء والرغبة، فيكاد يطير شوقاً إلى الله، وطوراً يقبضه الخوف والرهبة فيكاد أن يذوب من خشية الله تعالى، فهو دائب في طلب مرضاة ربه مقبل عليه خائف من عقوباته، ملتجىء منه إليه، عائذ به منه، راغب فيما لديه.

المطلب الثالث: أركان العبادة

للعبادة أركان ثلاثة:

الأول: الإخلاص: بأن يقصد العبد وجه ربه والدار الآخرة، قال ﷺ: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرى ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأةٍ ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه)[1] وترك الإخلاص يبطل العبادة.

الثاني: الصدق: ونريد به الصدق في العزيمة، بأن يبذل العبد جهده في امتثال أمر الله واجتناب نهيه، والاستعداد للقائه، وترك العجز، وترك التكاسل عن طاعة الله.

الثالث: متابعة الرسول ﷺ، فلا يعبد الله إلا وفق ما شرعه الله، وما جاء به الرسول ﷺ، أمّا أن يعبد الناس ربهم بغير علم فهذه هي البدعة التي حذر منها الرسول ﷺ وذم فاعلها، وأخبر أن عمله ضلالة. فقال: «كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار». وصاحب البدعة عمله مردود عليه غير مقبول منه.

ففي الصحيحين عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» وفي رواية لمسلم: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»[2].

---

(١) رواه البخاري ومسلم، وهو حديث مشهور تغني شهرته عن تخريجه. وانظر كتابنا «مقاصد المكلفين» ص: ٥١٩، فقد ذكرنا فيه طرقه ومخرجيه.

(٢) عزاه ابن الأثير في جامع الأصول: ١/ ٢٨٩، ورقمه: ٧٥ إلى البخاري ومسلم وأبي داود.

لا عبادة إلا بهذه الأركان:

فما لم توجد العزيمة الصادقة لا توجد العبادة، إذ تصبح العبادة تمنيات وآمالاً لا يكاد يهم المرء بفعلها حتى تخبو إرادته وتنحل. وما لم يوجد الإخلاص ومتابعة الرسول ﷺ فإن العبادة لا يقبلها الله تعالى.

المطلب الرابع

أنواع العبادات التي لا يجوز أن يقصد بها غير الله

والعبادات التي لا يجوز أن يقصد ويراد بها غير الله أنواع:

الأول: عبادات اعتقادية:

وهذه أساس العبادات كلها، وهي أن يعتقد العبد أن الله هو الرب الواحد الأحد الذي له الخلق والأمر، وبيده النفع والضر، الذي لا شريك له، ولا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، وأنه لا معبود بحق غيره.

الثاني: عملية قلبية:

والعبادات القلبية التي لا يجوز أن يقصد بها إلا الله وحده، وصرفها لغيره شرك كثيرة، كالخوف والرجاء، والرغبة والرهبة، والخشوع والخشية، والحب، والإنابة، والتوكل، والخضوع.

الثالث: قولية:

كالنطق بكلمة التوحيد ؛ إذ لا يكفي اعتقاد معناها، بل لا بد من النطق بها، وكالاستعاذة بالله، والاستعانة والاستغاثة به، والدعاء له، وتسبيحه، وتمجيده، وتلاوة القرآن.

الرابع: بدنية:

كالصلاة، والصوم، والحج، والذبح، والنذر، وغير ذلك.

الخامس: مالية:

كالزكاة، وأنواع الصدقات، والكفارات، والأضحية، والنفقة.

المبحث الرابع

ما يضاد التوحيد وينافيه

الذي ينافي التوحيد ويضاده الشرك، يقال: شركته في الأمر إذا صرت له شريكاً، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ [طه: ٣٢] أي اجعله شريكي فيه.

الشرك نوعان: وفي مصطلح الشريعة الإسلامية الشرك نوعان:

الأول: الشرك الأكبر:

والمشرك شركاً أكبر هو الذي يجعل مع الله رباً آخر كشرك النصارى الذي جعلوه ثالث ثلاثة، وشرك المجوس القائلين بإسناد حوادث الخير إلى النور، وحوادث الشر إلى الظلمة، وكشرك الصابئة الذين ينسبون إلى الكواكب العلوية تدبير أمر العالم، ومثل هؤلاء كثير من عُبّاد القبور الذين يزعمون بأن أرواح الأولياء تتصرف بعد الموت، فيقضون الحاجات، ويفرّجون الكربات، وينصرون من دعاهم، ويحفظون من التجأ إليهم، ولاذ بحماهم. ومن الشرك الأكبر أن يجعل مع الله إلهاً آخر: ملكاً، أو رسولاً، أو ولياً، أو شمساً، أو قمراً، أو حجراً، أو بشراً، يُعبد كما يُعبد الله، وذلك بدعائه والاستعانة به، والذبح له والنذر له، وغير ذلك من أنواع العبادة.

لا تشترط مساواة الشريك لله حتى يصبح شركاً:

ولا يشترط أن يساوي المشرك في شركه مع الله غيره من كل وجه، بل يسمى مشركاً في الشرع بإثباته شريكاً لله، ولو جعله دونه في القدرة والعلم مثلاً.

فأما حكايته تعالى عن المشركين قولهم: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ * إِذْ

﴿نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧-٩٨]، فهي التسوية في المحبة والخوف والرجاء والطاعة والانقياد، لا في القدرة على الخلق والإيجاد، لأنهم كانوا يقولون بوحدانيته في الخلق والإيجاد.

خطورة هذا الشرك:

الشرك الأكبر في غاية الخطورة فهو يحبط العمل، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

وقال الله لرسوله ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

وصاحبه خالد مخلّد في نار جهنم لا يغفر الله له، ولا يدخله الجنّة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

أعظم جريمة وأفظع ظلم:

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ أي الذنب أكبر عند الله؟ قال: (أن تدعو لله نداً وهو خلقك) متفق عليه[1]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وقال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

النوع الثاني: الشرك الأصغر:

والشرك الأصغر كيسير الرياء، والتصنع للمخلوق، وعدم الإخلاص لله

---

(١) مشكاة المصابيح: ١/ ٢١، ورقمه: ٤٩.

تعالى في العبادة، بل يعمل لحظ نفسه تارة، ولطلب الدنيا تارة، ولطلب المنزلة والجاه تارة، فلله من عمله نصيب، ولغيره منه نصيب، ويتبع هذا النوع الشرك بالله في الألفاظ كالحلف بغير الله، وقول: ما شاء الله وشئت، وما لي إلا الله وأنت.

وقد يكون شركاً أكبر بحسب قائله ومقصده.

وهذا النوع من الشرك: (الشرك الأصغر) وإن كان لا يُخْرِجُ من الملة فإن صاحبه على خطر عظيم، ينقص من أجره شيء كثير، وقد يحبط منه العمل، ففي الصحيحين عن أبي موسى - رضي الله عنه - قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ:(من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله)[1].

وفي صحيح مسلم فيما يرويه الرسول ﷺ عن ربه: (أنا أغنى الشركاء عن الشرك، مَنْ عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه)[2].

وفي المسند أن الرسول ﷺ قال: (إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر) قالوا: يا رسول الله وما الشرك الأصغر؟ قال:(الرياء). وزاد البيهقي في شعب الإيمان: (يقول الله لهم يوم يجازي العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً وخيراً)[3].

وفي النهي عن هذا الشرك نزل قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

---

(١) رواه البخاري: ٦/ ٢٨. ورقمه: ٢٨١. ورواه مسلم: ٣/ ١٥١٢. ورقمه: ١٩٠٤.

(٢) رواه مسلم. انظر جامع الأصول: ٤/ ٥٤٥. ورقمه: ٢٦٥١.

(٣) مشكاة المصابيح: ٢/ ٦٨٧، ورقمه: ٥٣٣٤.

الفصل الرابع
نظرة في تاريخ العقيدة

المبحث الأول: هل تطورت العقيدة عبر الزمان

يرى كثير من الباحثين الغربيين أن الإنسان لم يعرف العقيدة على ما يعرفها عليه اليوم مرة واحدة، ولكنها ترقت، وتطورت في فترات وقرون متعاقبة.

ولا عجب أن يقول بهذا القول الباطل قوم لم يمنحهم الله كتابه الذي يحكي تاريخ العقيدة بوضوح لا لبس فيه، إلا أن العجيب أن يذهب هذا المذهب رجال يعدون أنفسهم باحثين مسلمين.

فهذا عباس محمود العقاد يرى في كتابه (الله)[1] - وهو كتاب يبحث في نشأة العقيدة الإلهية - أن « الإنسان ترقى في العقائد »، ويرى أن ترقي الإنسان في العقائد موافق تماماً لترقيه في العلوم.

ويقول: « كانت عقائد الإنسان الأولى مساوية لحياته الأولى، وكذلك كانت علومه وصناعاته، فليس أوائل العلم والصناعة بأرقى من أوائل الأديان والعبادات، وليس عناصر الحقيقة في واحدة منها بأوفر من عناصر الحقيقة في الأخرى ».

بل يرى أن تطور العقيدة لدى الإنسان كان أشق من تطور العلوم والصناعات، يقول في هذا: « وينبغي أن تكون محاولات الإنسان في سبيل

(١) نشرته دار الهلال - القاهرة: انظر: ص: ١٠ وما بعدها.

الدّين أشق وأطول من محاولاته في سبيل العلوم والصناعات؛ لأن حقيقة الكون الكبرى أشق مطلباً وأطول طريقاً من حقيقة هذه الأشياء المتفرقة التي يعالجها العلم تارة والصناعة تارة أخرى».

ويرى أن الحقيقة الإلهية لم تتجل للناس مرة واحدة، يقول: «فالرجوع إلى أصول الأديان في عصور الجاهلية الأولى لا يدلّ على بطلان التدين، ولا على أنها تبحث عن محال، كل ما يدلّ عليه أنّ الحقيقة الكبرى أكبر من أن تتجلى للناس كاملة في عصر واحد».

ثم أخذ يستعرض آراء الباحثين في تاريخ العقيدة، فمنهم من يرى أنّ السبب في نشأة العقيدة هو ضعف الإنسان بين مظاهر الكون وأعدائه من قوى الطبيعة والأحياء، . . . وبعضهم يرى أن العقيدة الدينية حالة مرضية في الآحاد والجماعات، ويرى بعضهم أن أصل العقيدة الدينية عبادة «الطوطم»، كأن تتخذ بعض القبائل حيواناً (طوطمياً) تزعمه أباً لها. وقد يكون شجراً أو حجراً يقدسونه، إلى آخر تلك الفروض التي قامت في أذهان الباحثين الغربيين.

ومع الأسف فقد سرت هذه النظرية[1] إلى كثير من الكتّاب، واعتنقها جملة من الدارسين[2]، والذي أوقع هؤلاء في هذا الخطأ أمور:

الأول: أنهم قدّروا أن الإنسان الأول خُلق خلقاً ناقصاً، غير مؤهل لأن يتلقى الحقائق العظمى كاملة، بل إن تصوراتهم عن الإنسان الأول تجعله أقرب إلى الحيوان منه إلى الإنسان.

الثاني: أنهم ظنوا أن الإنسان اهتدى إلى العقيدة بنفسه بدون معلم يعلمه،

---

(١) ممن جنح إلى القول بهذه النظرية مصطفى محمود في كتابه (الله).

(٢) لست أدري أي عقيدة هذه التي تطورت، أهي العقيدة اليهودية المحرفة، أم النصرانية المبدلة، أم عقيدة الفلاسفة. . . إن هذه العقائد لا تمثل إلا انحرافات عقائدية، ولا تمثل العقيدة السليمة.

ومرشد يوضح له. فما دام الأمر كذلك فلا بد أن يترقى في معرفته بالله كما ترقى في العلوم والصناعات.

الثالث: أنهم عندما بحثوا في الأديان ليتبينوا تاريخها لم يجدوا أمامهم إلا تلك الأديان المحرفة أو الضالة، فجعلوها ميدان بحثهم، فأخضعوها للدراسة والتمحيص، وأنى لهم أن يعرفوا الحقيقة من تلك الأديان التي تمثل انحراف الإنسان في فهم العقيدة.

القرآن وحده يوضح تاريخ العقيدة:

ليس هناك كتاب في الأرض يوضح تاريخ العقيدة بصدق إلا كتاب الله سبحانه وتعالى، ففيه علم غزير في هذا الموضوع، وعلم البشر لا يمكن أن يدرك هذا الجانب إدراكاً وافياً لأسباب:

الأول: أن ما نعرفه عن التاريخ قبل خمسة آلاف عام قليل، أما ما نعرفه قبل عشرة آلاف عام فيعتبر أقل من القليل، وما قبل ذلك فيعتبر مجاهيل لا يدري علم التاريخ من شأنها شيئاً، لذا فإن كثيراً من الحقيقة ضاع بضياع التاريخ الإنساني.

الثاني: أن الحقائق التي ورثها الإنسان اختلطت بباطل كثير، بل ضاعت في أمواج متلاطمة في محيطات واسعة من الزيف والدجل والتحريف، ومما يدل على ذلك أن كتابة تاريخ حقيقي لشخصية أو جماعة ما في العصر الحديث تعتبر من أشقّ الأمور، فكيف بتاريخ يمتدّ إلى فجر البشرية؟!

الثالث: أن قسماً من التاريخ المتلبس بالعقيدة لم يقع في الأرض، بل في السماء.

لذا فإن الذي يستطيع أن يمدنا بتاريخ حقيقي لا لبس فيه هو الله - سبحانه وتعالى - ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥].

المبحث الثاني
تاريخ العقيدة كما يرويه القرآن الكريم

أعلمنا الله سبحانه أنه خلق آدم خلقاً مستقلاً سوياً متكاملاً، ثم نفخ فيه من روحه، وأسكنه جنته، وأباح له أن يأكل هو وزوجته منها كيف شاءا إلا شجرة واحدة، فأغراه عدوّه إبليس بالأكل من الشجرة، فأطاع عدوه، وعصى ربّه، فأهبطه الله من الجنة إلى الأرض، وقبل الهبوط وعده الله - سبحانه - بأن ينزل عليه وعلى ذريته هُداه، كي يعرف الإنسان بربه ومنهجه وتشريعه، ووعد المستجيبين بالهداية في الدنيا والسعادة في الأخرى، وتوعّد المستكبرين بالمعيشة الضنكة في الدّنيا وبالشقاء في الآخرة: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨-٣٩].

وفي سورة طه يقول: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٣-١٢٦].

الجيل الأول من البشرية كان على التوحيد:

هبط آدم إلى الأرض، وأنشأ الله من ذريته أمة كانت على التوحيد الخالص كما قال الله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[البقرة: ٢١٣]، أي على التوحيد والدين الحق فاختلفوا ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ

بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وفي حديث أبي أمامة أن رجلاً سأل الرسول ﷺ قال: يا رسول الله أنبي كان آدم؟ قال: (نعم، مكلم) قال: قال: فكم بينه وبين نوح؟ قال (عشرة قرون) رواه أبو حاتم ابن حبان في صحيحه. وقال ابن كثير: « هذا على شرط مسلم، ولم يخرجه »[١].

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس قال: (وكان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام)[٢].

ومقدار القرن مائة سنة، وعلى ذلك يكون بين آدم ونوح ألف سنة.

وقد تكون المدة بينهما أكثر من ذلك، إذ قيد ابن عباس هذه القرون العشرة بأنها كانت على الإسلام، فلا ينفي أن يكون بينهما قرون أخرى على غير الإسلام.

وقد يكون المراد بالقرن الجيل من الناس كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧]، وقوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ [نوح: ٢٣][٣].

أول انحراف عن العقيدة وأول رسول:

وبعد أن كان الناس أمة واحدة على التوحيد حصل الزيغ والانحراف، وكان أول انحراف حدث هو الغلو في تعظيم الصالحين، ورفعهم إلى مرتبة الآلهة المعبودة.

ففي صحيح البخاري من حديث ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس عند

---

(١) البداية والنهاية: ١/ ١٠١.

(٢) البداية والنهاية: ١/ ١٠١.

(٣) راجع البداية والنهاية: ١/ ١٠١.

تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]. قال: «هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك، وانتسخ العلم (نُسي ودرس) عُبدت»[1].

فهذا أول انحراف وجد في تاريخ البشرية عن التوحيد، فأرسل الله إليهم أول رسله نوحاً عليه السلام مصداقاً لوعده الذي أعطاه لأبي البشر آدم بإرسال الرسل وإنزال الكتب هداية للبشرية.

والدليل على أن نوحاً كان أول رسول مبعوث حديث الشفاعة الثابت في الصحيح، وفيه: (أن الناس يأتون بعد آدم نوحاً فيقولون له فيما يقولون: يا نوح، أنت أول الرسل إلى الأرض، وسماك الله عبداً شكوراً)[2]. والنصوص التي بين أيدينا من كتاب ربنا تدل دلالة واضحة على أن نوحاً قد دعا إلى التوحيد الخالص، فقد قال لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وقال: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود: ٢٦] وقال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣].

والذين استجابوا لدعوته للتوحيد هم ضعفاء الناس، وتنكّر لها السادة والزعماء الذين يظنون في أنفسهم العقل والذكاء حيث استكبروا عن متابعة الحق: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠] والملأ المذكورون في الآية هم السادة والكبراء، وقالوا له: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ [هود: ٢٧]؛ أي: اتبعوك بدون تأمل عميق،

(١) صحيح البخاري: ٨/ ٦٦٧. ورقمه: ٤٩٢٠.
(٢) رواه مسلم: ١/ ١٨٥. ورقمه: ١٩٤.

وتفكير ونظر، وهذا الذي رموهم به هو ما يجب أن يُمدحوا به، فإن الحق إذا ظهر لا يحتاج إلى نظر، بل يجب اتباعه.

وتعجبوا أن يبعث الله رسولاً بشراً فقالوا: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ [هود: ٢٧]، ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المؤمنون: ٢٤]، وطلبوا منه أن يطرد الضعفاء والمساكين الذين تابعوه فرفض طلبهم ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [هود: ٢٩].

وقد تطاول الزمان وكثرت المجادلة بينه وبينهم كما قال الله تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤] فدعا عليهم: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦-٢٧] فأهلكهم الله بالطوفان: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ [الفرقان: ٣٧]، وأنجى نوحاً والمؤمنين برحمة منه، وخلت الأرض من الظالمين، ولم يبق فيها إلا الموحدون، فلما انحرفوا عن التوحيد أرسل الله إليهم رسولاً ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ * فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [المؤمنون: ٣١-٣٢]، فدعاهم إلى توحيد الله ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [المؤمنون: ٣٢].

وهكذا استمرت رحمة الله وعنايته ببني آدم كلما ضلوا وزاغوا أنزل إليهم هُداه يضيء لهم الظلمات: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٤].

هذه هي قصة البشرية الحقيقية صراع طويل بين الحق والباطل، بين الرسل الذين يعرضون الهدى والحق، وبين الضالين المعرضين عن التوحيد المتمسكين بما ألفوا عليه الآباء والأجداد، وبأهوائهم ومعتقداتهم الباطلة: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟

﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ * ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم: ٩-١٠].

وبالتأمل في دعوة الرسل التي عرضها القرآن تتبين لنا الحقائق التالية:

الأولى: أن الله خلق الإنسان منذ البداية خلقاً سوياً مكتملاً لغاية محددة، هي عبادته، وأنه خلقه مؤهلاً لذلك.

الثانية: أن الله عرفه على نفسه منذ البداية، ولم يتركه لفكره يتعرف على ربه بطريق التفكير والتأمل، بل أرسل إليه رسلاً، وقد كان هؤلاء الرسل من الكثرة بحيث إنهم بلّغوا البشرية كلها ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

لذا فإننا لا نعلم أسماء جميع الرسل الذين أرسلهم الله ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

ومما يدل على ذلك أن الأمم المكذبة في يوم القيامة تقر وتعترف بتبليغ الرسل لها دعوة الله قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ [الملك: ٨-٩].

وما هذا التتابع في إرسال الرسل على مدار التاريخ إلا رحمة من الله بعباده، ووفاء بوعده الذي وعد به آدم أبا البشرية، وإعذاراً منه لخلقه: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

الثالثة: دعوة الرسل واحدة، فأصل دعوتهم جميعاً ولبها التوحيد، بتعريف الناس على ربهم ومعبودهم، وبيان الطريقة التي يعبدونه بها.

الرابعة: أن دين الرسل جميعاً الإسلام لا دين لهم سواه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥] فنوح يقول: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢]. وقال الله عن التوراة: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال موسى لقومه: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]، وأمر الله خليله إبراهيم بالإسلام، فقال: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]، ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

وعندما سأل يعقوب بنيه عن معبودهم من بعده ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣]، وملكة سبأ قالت: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤]، ويوسف كان من دعائه: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، والرسول ﷺ يقول: (والأنبياء إخوة لعلاّتٍ، أمهاتُهم شتى ودينهم واحد)[1] [2].

وهذا التنوع الذي نراه في الشرائع لا يدل على أن دينهم كان مختلفاً؛ لأن الله قد يشرع أمراً لحكمة، ثم يشرع أمراً آخر في وقت آخر لحكمة أخرى، بل قد يكون هذا في الشريعة الواحدة، كما شرع الله في بداية الأمر الاتجاه إلى بيت المقدس في الصلاة، ثم نسخ ذلك بأن أمر بالتوجه إلى البيت الحرام،

(١) رواه البخاري: ٦/ ٤٧٨، ورقمه: ٣٤٤٣.

(٢) إخوة لعلات هم الأخوة لأب، أبوهم واحد وأمهاتهم مختلفة، وكذلك الأنبياء دينهم واحد وشرائعهم مختلفة.

فكان الإسلام أولاً التوجه إلى القدس، ثم أصبح التوجه إلى الكعبة، وكذلك شرائع الأنبياء، فالمتأخر ينسخ المتقدم، وأصبحت الشريعة المنزلة على محمد ﷺ هي الشريعة الخاتمة الناسخة لما قبلها من الشرائع.

الخامسة: ليس الترقي في الاعتقاد عبر القرون هو السبب في الشرك واتخاذ معبودات من دون الله كما ذهب إليه (العقاد) والذين تابعهم من الغربيين، بل سببه انحراف أتباع الرسل عما جاءت به الرسل، وتركهم ما جاءت به الرسل ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه: ١٢٤]، واتباعهم الظن والهوى وتركهم الهدى: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴾ [النجم: ٢٣]، ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ٧٧].

وقال في اليهود: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ [المائدة: ١٣]، وقال في النصارى: ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ [المائدة: ١٤] وقال فيهم مبيناً انحرافهم عن التوحيد الذي أمروا به: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١].

لذا فإن الرسل يتبرؤون من الذين انحرفوا عن منهجهم ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ [المائدة: ١١٦-١١٧].

الفصل الثاني
تصورات الأمم الضالة للمعبود

لا نريد من وراء هذا البحث في هذا الموضوع أن نؤرخ للجانب المنحرف في العقيدة، فذلك ليس في مكنة الباحث لكثرة أنواع الانحراف، وما الفائدة من التأريخ للجانب المظلم والكفر ملة واحد! إنما مرادنا من وراء ذلك أن ندرك شيئاً مما وقعت فيه الأمم، كي نعلم القيمة العظيمة التي تمتاز بها العقيدة الإسلامية.

إنّ الذين يدركون الباطل ويعرفونه هم أقدر على معرفة الحقّ إذا اعتنقوه، وإنّ الذين يتبعون الإسلام ولا يعلمون الجانب المقابل له، وهو الباطل يخشى عليهم من الانزلاق في طرق الباطل، وصدق عمر بن الخطاب حيث يقول: «توشك أن تنقض عُرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية»، ولا شك أنّ الذي يعرف ظلام الليل أقدر على معرفة ضوء النهار، والصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى.

وقد أدرك هذه الحقيقة سيد قطب حيث يقول: «الإنسان لا يدرك ضرورة هذه الرسالة، وضرورة هذا الانفكاك عن الضلالات التي كانت البشرية تائهة في ظلماتها، وضرورة الاستقرار على يقين واضح في أمر العقيدة... حتى يطّلع على ضخامة ذلك الركام، وحتى يرتاد ذلك التيه، من العقائد والتصورات، والفلسفات والأساطير، والأفكار والأوهام، والشعائر والتقاليد، والأوضاع والأحوال، التي جاء الإسلام فوجدها ترين على الضمير البشري في كل مكان، حتى يدرك حقيقة البلبلة والتخليط والتعقيد التي كانت تتخبط فيها بقايا العقائد

السماوية التي دخلها التحريف والتأويل، والإضافات البشرية إلى المصادر الإلهية والتي التبست بالفلسفات والوثنيات والأساطير».

ونكتفي بثلاثة نماذج: واحد منها يمثل عقيدة دولة من الدول التي يعدها الناس متمدنة في القديم. والثاني انحراف أهل ديانة سماوية عن الحق. والثالث الوثنية العربية قبل عهد الرسول ﷺ.

المبحث الأول

الرب عند الرومان[1]

يعد الباحثون الرومان من الأمم المتحضرة في القديم، فلننظر إلى عقيدة هذه الأمة الضالة. يزعمون أنّ «جوبيتر» هو ربّ الأرباب عندهم، وكانت صورته عندهم أقرب إلى صورة الشيطان منها إلى صورة الأرباب المنزهين، فقد كان حقوداً لدوداً مشغولاً بشهوات الطعام والغرام، لا يبالي من شؤون الأرباب والمخلوقات إلا ما يعينه على حفظ سلطانه والتمادي في طغيانه، وكان يغضب على «أسقولاب» إله الطب، لأنّه يداوي المرضى، فيحرمه جباية الضريبة على أرواح الموتى الذين ينتقلون من ظهر الأرض إلى باطن الهاوية.

ويزعمون أنه كان يغضب على «برومثيوس» إله المعرفة والصناعة، لأنّه يعلّم الإنسان أن يستخدم النّار في الصناعة، وأن يتخذ من المعرفة قوة تضارع قوة الأرباب، وقد حكم عليه بالعقاب الدائم، فلم يقنع بموته ولا بإقصائه عن حظيرة الآلهة، بل تفنن في اختراع ألوان العذاب له، فقيّده إلى جبل سحيق، وأرسل عليه جوارح الطير تنهش كبده طوال النهار، حتى إذا جنّ الليل عادت سليمة في بدنه، لتعود الجوارح إلى نهشها بعد مطلع الشمس...، ولا يزال هكذا دواليك في العذاب الدائم مردود الشفاعة مرفوض الدعاء.

ومما تخيله الشاعر الوثني الفيلسوف «هزيود» عن علة غضب الإله على «برومثيوس»: أنّه قسم له نصيبه من الطعام في وليمة الأرباب، فأكثر فيه من العظام، وأقل فيه من اللحوم والشحوم، فاعتقد «جوبيتر» أنه تعالى عليه

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه.

بمعرفته وحكمته وفطنته، لأنه اشتهر بين الآلهة بمعرفة وافرة وفطنة نافذة لم يشتهر بها الإله الكبير.

وقد اجتهد (هزيود) الشاعر الفيلسوف قصارى اجتهاده في تنزيه «جوبيتر» وتصويره للناس في صورة القداسة والعظمة، تناسب صورة الإله المعبود بعد ارتقاء العبادة شيئاً ما في ديانة اليونان الأقدمين.

ومع ذلك فإن الباحثين الرومان يتحدثون عن «جوبيتر» أنّه كان يخادع زوجته «هيرة» ويرسل إله الغمام لمدارة الشمس في مطلعها حذراً من هبوب زوجته الغيرى عليه مع مطلع النهار ومفاجأته بين عشيقاته على عرش «الأولمب».

وحدث مرة أنّها فاجأته وهو يقبل ساقيه «جانيميد» راعي الضأن الجميل الذي لمحه في الخلاء، فاختطفه، وصعد به إلى السماء، . . . . فلم يتنصل «جوبيتر» من تهمة الشغف بساقيه، ومضى يسوغ مسلكه لزوجته بما جهلته من لذة الجمع بين رحيق الكأس ورحيق الشفاه.

هذا نموذج للعقيدة الشركية الضالة صنعتها الخرافة والوهم، فغدت أساطير. إنّ الآلهة عند الرومان آلهة متعددة تتصارع وتتقاتل، ويعذب بعضها بعضاً، وهي كالبشر تأكل وتشرب، وتتزوج، ويخون الإله زوجته، ويلوط ويبرر خطأه، فكيف يكون أثر هذه العقيدة في نفوس معتنقيها؟ وكيف يكون أثرها في سلوكهم أفراداً ومجتمعات؟ وأي قيم تقرها هذه العقيدة الشركية الضالة المنحرفة؟

المبحث الثاني
الإله عند اليهود[1]

حفلت ديانة بني إسرائيل - اليهودية - بالتصورات الوثنية وباللوثة القومية على السواء، فبنو إسرائيل - وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام - جاءتهم رسلهم، وفي أولهم إسرائيل، بالتوحيد الخالص الذي علمهم إياه أبوهم إبراهيم، ثم جاءهم نبيهم الأكبر موسى عليه السلام بدعوة التوحيد أيضاً مع الشريعة الموسوية المبنية على أساسه، ولكنّهم انحرفوا على مدى الزمن، وهبطوا في تصوراتهم إلى مستوى الوثنيات، وأثبتوا في كتبهم (المقدسة) وفي صُلب التوراة أساطير وتصورات عن الله - سبحانه - لا ترتفع عن أحط التصورات الوثنية للإغريق وغيرهم من الوثنيين الذين لم يتلقوا رسالة سماوية، ولا كان لهم من عند الله كتاب.

ولقد كانت عقيدة التوحيد التي أنزلها الله على إبراهيم عقيدة خالصة ناصعة شاملة متكاملة، واجه بها الوثنية مواجهة حاسمة كما صورها القرآن الكريم، ووصى بها إبراهيم بنيه كما وصى بها يعقوب بنيه قبل أن يموت: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ * قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ * ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ * وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ * وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ *

(١) خصائص التصور الإسلامي، لسيد قطب بتصرف يسير . . . ص ١١ .

رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ * وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٦٩-٨٤].

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ * أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٠-١٣٣].

ومن هذا التوحيد الخالص وهذه العقيدة الناصعة وهذا الاعتقاد في الآخرة انتكس الأحفاد، وظلوا في انتكاستهم حتى جاءهم موسى عليه السلام بعقيدة التوحيد والتنزيه من جديد، ولكنهم لم يستقيموا عليها، بل انحرفوا عنها.

ولقد بدأ انحرافهم وموسى عليه السلام بين أظهرهم، من ذلك عبادتهم للعجل الذي صنعه لهم السامري من الذهب الذي حملوه معهم من حليّ نساء المصريين ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ * فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ [طه: ٨٧-٨٨].

وقبل ذلك طلبوا من موسى - عليه السلام - أن يقيم لهم صنماً يعبدونه: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

وحكى القرآن الكثير عن انحرافهم وسوء تصورهم لله - سبحانه - وشركهم ووثنيتهم، فنسبوا لله الولد ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] ونعتوه - سبحانه - بالبخل والفقر: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ

أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤]، ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ١٨١].

ومن لوثة القومية واعتقادهم أنّ إلههم قومي، لا يحاسبهم بقانون الأخلاق إلا في سلوك بعضهم مع بعض، أما الغرباء (غير اليهود) فهو لا يحاسبهم على سلوك معيب بهم.

من هذه اللوثة كان قولهم الذي حكاه القرآن الكريم: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥]، وقد تضمنت كتبهم المحرفة أوصافاً لإلههم لا ترتفع كثيراً على أوصاف الإغريق في وثنيتهم لآلهتهم.

جاء في الإصحاح الثالث من سفر التكوين: «بعد ارتكاب آدم لخطيئة الأكل من الشجرة (وهي كما يقول كاتب الإصحاح شجرة معرفة الخير والشر) وسمعا صوت الرب الإله ماشياً في الجنة عند هبوب ريح النهار، فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله في وسط الجنة، فنادى الرب الإله آدم، وقال له: أين أنت؟ فقال: سمعت صوتك في الجنة، فخشيتك، لأني عريان، فاختبأت، فقال: من أعلمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك ألا تأكل منها؟.

وقال الرب الإله: هوذا الإنسان صار كواحد منا عارفاً الخير والشر، والآن لعله يمد يده، ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً، أو يأكل ويحيا إلى الأبد، فأخرجه الربّ الإله من جنة عدن، ليعمل في الأرض التي أخذ منها، فطرد الإنسان وأقام شرقي جنة عدن الكروبيم، ولهيب سيف متقلب لحراسة شجرة الحياة».

واضح ما في هذه النقول من وصف الله - سبحانه - بالجهل، وأنه لا يدري أين آدم حتى عرّفه هو، وأنه كالبشر يتمشى كما يتمشى البشر، وأن السبب في إخراج آدم من الجنة ليس هو معصية آدم لربه كما وضحه القرآن، وإنما هو خوف الله تعالى من أن يأكل الإنسان من شجرة الحياة فيكون من الخالدين ! وأن الله لم يُعَرّف الإنسان الخير والشر، وإنما علم ذلك عندما أكل من الشجرة، وكل ذلك كذب وافتراء على الله سبحانه وتعالى.

ويفهم من كلامهم أن حياة الله التي لا آخر لها إنما كانت بسبب أكله من شجرة الحياة - سبحانه - عما يقولون.

وكما نسبوا إلى الله - سبحانه - الجهل نسبوا إليه الحزن والندم على فِعْلٍ فَعَلَه، فهم يذكرون أنه حزن على خلق الإنسان لما كثر شرّه وفساده في عهد نوح: « ورأى الربّ أن شرّ الإنسان قد كثر في الأرض، وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم، فحزن الربّ أنه عمل الإنسان في الأرض، وتأسف في قلبه، فقال الربّ: أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته. الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء، لأني حزنت أني عملتهم، وأما نوح فوجد نعمة في عيني الرب.

واستمع إلى هذه الخرافة التي وردت في الإصحاح الحادي عشر من سفر التكوين: « بعدما عمرت الأرض بذرية نوح، وكانت كلّها لساناً واحداً ولغة واحدة، وحدث في ارتحالهم شرقاً أنهم وجدوا نعمة في أرض شنعار، وسكنوا هناك، وقال بعضهم لبعض: هلم نصنع لبناً ونشويه شياً، فكان لهم اللبن مكان الحجر، وكان لهم الحجر مكان الطين، وقالوا: هلم نبني لأنفسنا مدينة وبرجاً رأسه في السماء ونصنع اسماً، لئلا نتبدد على وجه كل الأرض.

فنزل الرب لينظر المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم يبنونهما، وقال الرب: هوذا شعب واحد، ولسان واحد لجميعهم، وهذا ابتداؤهم بالعمل، والآن لا

يمتنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه. هلم ننزل ونبلبل هناك لسانهم، حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض، فبددهم الرب من هناك على وجه كل الأرض، فكفوا عن بنيان المدينة، لذلك دعي اسمها بابل، لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض، ومن هناك بددهم الرب على وجه الأرض».

أي خرافة هذه التي تزوّر الحقيقة، وتكاد تمحو معالمها!، وأي إله هذا الذي ترسمه هذه الخرافة؟ هذا الإله الذي يخاف البشر، ويخاف تكتلهم واجتماعهم، فإذا به يحاربهم قبل أن تجتمع كلمتهم، ويصلب عودُهم، ويشتتهم في أقطار الأرض بعد أن يبلبل ألسنتهم.

ونسب اليهود إلى الله فعل الشر، كما نسبوا إليه الندم على ما فعل، ففي سفر صموئيل الثاني، الإصحاح الرابع والعشرون: «فجاء الربّ وباء في إسرائيل من الصباح إلى الميعاد، فمات من الشعب من دان إلى بئر السبع سبعون ألف رجل، وبسط الملاك يده على أورشليم ليهلكها، فندم الرب على الشر. فقال للملاك المهلك الشعب: كفى الآن، رويدك».

فإذا تركنا ما حكاه القرآن عن ضلالة اليهود في وصفهم لربهم، وما في التوراة من تحريف وزيف ونظرنا في (التلمود) وهو الكتاب الذي سطره علماء اليهود وحاخاماتهم، وله من الأهمية في نظرهم فوق ما للتوراة، لو نظرنا فيه لهالنا ذلك الضلال الذي وقع فيه اليهود لا في العقيدة فحسب، بل في شتى مناحي الشريعة.

وسأكتفي بأن أنقل من كتاب «الكنز المرصود في قواعد التلمود» ما يتعلق بالعزة الإلهية، فمن ذلك أن الله عندهم يحتاج إلى أن يقرأ ويتعلم، كما أنه يهزل ويلعب سبحانه وتعالى، فقد ورد في تلمودهم «أن النهار اثنتا عشرة ساعة: في الثلاثة الأولى منها يجلس ويطالع الشريعة، وفي الثلاثة الثانية

يحكم، وفي الثلاثة الثالثة يطعم العالم، وفي الثلاثة الأخيرة يجلس ويلعب مع الحوت ملك الأسماك ».

واسمع ما هو أدهى وأعظم: «أنه لا شغل لله غير تعلمه التلمود مع الملائكة»، وليس الملائكة فقط، بل مع (أسمودية) ملك الشياطين في مدرسة السماء.

وما الحوت الذي يلعب معه الرب؟ إنه حوت كبير جداً يمكن أن يدخل في حلقه سمكة طولها ثلاثمائة فرسخ بدون أن تضايقه، وبما أن له هذا الحجم فإن الله خاف إذا ما تناسل أن يهلك الدنيا، ولذا فإنه رأى أن يحرمه زوجته، لأنه لو لم يفعل ذلك لامتلأت الدنيا وحوشاً أهلكت من فيها، ولذلك حبس الله الذكر بقوته الإلهية، وقتل الأنثى وملحها وأعدها لطعام المؤمنين في الفردوس.

ويضيفون إلى هذه الخرافات التي أصبحت عقائد لهم أن: « الله لم يلعب مع الحوت بعد هدم الهيكل، ولم يمل بعد هدم الهيكل إلى الرقص مع حواء بعدما زينها بملابسها، وعقص لها شعرها ».

تباً لهم وبُعداً، إنهم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل، قول الأمم الضالة المشركة، فإلههم حسب تصورهم لا يختلف عن البشر، يفكر تفكيرهم، ويفعل فِعلهم، يلعب، ويرقص، ويحزن، ويبكي، على ماذا؟ على هدم هيكل اليهود الذي بناه لهم سليمان.

والهيكل يرمز إلى مجد اليهود، وقد جعلوا الله من ذلك التاريخ الذي هُدم فيه الهيكل إلى اليوم يبكي ثلاثة أرباع الليل يزأر كالأسد قائلاً: « تباً لي لأني صرّحت بخراب بيتي وإحراق الهيكل ونهب أولادي ».

بل يغالون في التحريف والتدجيل، فيقولون: إن الله تضاءلت ذاته - سبحانه وتعالى - عما يقولون علواً عظيماً - بسبب حزنه على خراب الهيكل « وشغل الله مساحة أربع سموات بعد أن كان ملء السموات والأرض في جميع الأزمان ».

ويصفون العلي المجيد بأنه يحقر نفسه - سبحانه - عندما يمجّده عباده - ويقصدون بهم اليهود طبعاً - «ولما يسمع الباري - تعالى - تمجيد الناس له، يطرق رأسه ويقول: ما أسعد الملك الذي يمدح ويبجل مع استحقاقه لذلك، ولكن لا يستحق شيئاً من المدح الأب الذي يترك أولاده في الشقاء».

قاتلهم الله أنىّ يؤفكون.

ومما افتروه على ربّ العزة - جلّ وتقدّس عما يقولون - أنه يلطم ويبكي، وتتساقط دموعه، كل ذلك على شقاء اليهود وما حلّ بهم. «يتندم الله على تركه اليهود في حالة التعاسة، حتى إنه يلطم ويبكي كل يوم، فتسقط من عينه دمعتان في البحر، فيسمع دويهما من بدء العالم إلى أقصاه، وتضطرب المياه، وترتجف الأرض في أغلب الأحيان، فتحصل الزلازل».

وينسبون إليه الخطأ والاعتراف بالذنب، والتكفير عن الذنب، فيزعمون كذباً وزوراً أن القمر خطأ الله سبحانه، وقال للرب - سبحانه - عما يقولون: «أخطأت حيث خلقتني أصغر من الشمس، فأذعن الله لذلك، واعترف بخطئه، وقال: اذبحوا لي ذبيحة أكفر بها عن ذنبي، لأني خلقت القمر أصغر من الشمس» ولا أدري كيف ساغ أن يزعموا أن الله يكفِّر، وترى لمن يكفر؟!

إن العقول التي تفتري هذا الافتراء سخيفة سخافة كبيرة، وإن العقول التي تؤمن بهذه السخافة وتصدقها لا تقل عنها سخافة، والحمد لله الذي هدانا للحق والنور المبين.

ومن جملة سخافاتهم التي هي عقائد عندهم «أن الله يستولي عليه الطيش، كما حصل ذلك منه يوم غضب على بني إسرائيل، وحلف بحرمانهم من الحياة الأبدية، ولكنه ندم على ذلك بعد ذهاب الطيش منه ، ولم ينفذ ذلك اليمين، لأنه فَعَلَ ضد العدالة».

ولم يقف الأمر عند كونه يحلف، ويحلف جهلاً وطيشاً، ويظلم ويكفِّر، بل زعموا أنه يحتاج إلى التكفير عن يمينه، فقد جاء في تلمودهم «إن الله إذا حلف يميناً غير قانونية احتاج إلى من يحلله من يمينه، وقد سمع أحد العقلاء من الإسرائيليين أن الله تعالى يقول: من يحللني من اليمين التي أقسمت بها؟ ولما علم باقي الحاخامات أنه لم يحلله منها اعتبروه حماراً، لأنه لم يحلل الله من يمينه، ولذلك نصبوا ملكاً بين السماء والأرض اسمه (مي) لتحليل الله من أيمانه ونذوره عند اللزوم»[1].

هذه نماذج من العقيدة اليهودية المحرفة المزيفة التي تشكل قاعدة دينهم، وهي لا تقل في انحطاطها عن أساطير الإغريق والوثنيين في آلهتهم.

---

(١) هذا قليل من كثير مما سطرته أيدي اليهود في (تلمودهم).

المبحث الثالث
انحراف العرب عن التوحيد

كان العرب على دين التوحيد دين أبيهم إبراهيم عليه السلام، واستمروا على ذلك إلى ما قبل البعثة بأربعمائة سنة حيث ظهر فيهم رئيس مسموع الكلمة مطاع لا يخالَف، فغير دينهم، ذلك هو عمرو بن عامر الخزاعي.

ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قُصْبَهُ في النار، كان أول من سيب السوائب)[1]، وفي صحيح البخاري أيضاً عن عائشة عن النبي ﷺ قال: (رأيت جهنم يحطم بعضها بعضاً، ورأيت عمراً يجر قُصْبهُ، وهو أول من سيب السوائب)[2].

فعمرو هذا غيّر دين العرب بدعوتهم لعبادة الأصنام، وباستحداث بدع في دين الله تعالى، أحلّ فيها وحرّم بهواه، ومن ذلك ما ذكره الله في كتابه: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣][3].

---

(١) رواه البخاري: ٨/ ٢٨٣. ورقمه: ٤٦٢٣.

(٢) رواه البخاري في صحيحه: ٨/ ٢٨٣. ورقمه: ٤٦٢٤.

(٣) البحيرة: الناقة تبحر أذنها، أي تشق ثم ترسل، وتكون هذه علامة تعرفها العرب، فلا يركبها أحد ولا يحملون عليها، يفعلون بها ذلك إذا ولدت خمس بطون آخرها ذكر.
والسائبة: أن ينذر الرجل إذا حدث أمر ما يحبه أن يسيب ناقة وتجعل كالبحيرة في عدم الانتفاع بها.
والوصيلة: كانت العرب إذا ولدت الناقة أنثى لهم، وإذا ولدت ذكراً لآلهتهم، وإذا ولدتهما قالوا: وصلت أخاها فيحرم ذبح الذكر.
والحام: الفحل يحمل من ظهره عشرة أبطن، فيحرم ذبحه وظهره، ولا يمنع من مرعى ولا ماء. وهم إنما يفعلون هذا بالأنعام تقرباً بذلك إلى طواغيتهم.

وتختلف الروايات في الكيفية التي نشر عمرو بها الأصنام في الجزيرة العربية، فمن قائل إنّ عمراً كان له رئيٌ من الجن هو الذي دله على الأصنام التي كانت مدفونة منذ عهد نوح، وكان قوم نوح يعبدونها، فاستخرجها عمرو، ووزعها في العرب، وقيل: إنه جاء بالأصنام من بلاد الشام، عندما رآهم يعبدونها، فطلب منهم صنماً، فأعطوه واحداً نصبه بمكة[1].

والسبب في أن العرب تابعت عمرو بن لحي أنه كان ذا مكانة فيهم، فقد كان سيد خزاعة في حال غلبتها على مكة وعلى البيت بعد أن نفت قبيلة جرهم من مكة، وكانت العرب قد جعلته رباً، لا يبتدع بدعة إلا اتخذوها شرعة، لأنه كان يطعم الناس ويكسوهم في الموسم، فربما نحر في الموسم عشرة آلاف بدنة، وكسا عشرة آلاف حلة.

ويقال: إن عمراً هذا هو الذي دعا الناس إلى عبادة اللات، وكان رجلاً يلت السويق للحاج بالطائف على صخرة هناك، فلما مات زعم عمرو بن لحي أنه لم يمت، وأنه دخل في الصخرة التي يلت عليها، وأمرهم بعبادتها.

ومما يذكر عنه أيضاً أنه هو الذي غير التلبية التي كانت تعلن التوحيد لله وحده، فقد كانت التلبية من عهد إبراهيم عليه السلام (لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك) واستمر الحال حتى كان عمرو بن عامر، فبينما هو يطوف بالكعبة يلبي تمثل له الشيطان في صورة شيخ يلبي معه، فقال: (لبيك لا شريك لك)، فقال الشيخ: إلا شريكاً هو لك، فأنكر هذا عمرو، فقال: ما هذا؟ فقال الشيخ: قل تملكه وما ملك، فإنه لا بأس بهذا، فقالها عمرو، فدانت بها العرب.

---

(١) راجع: السيرة النبوية، لابن هشام: ١/ ١٢١.

بداية الانحراف:

ويذكر لنا ابن إسحاق كيف كانت بداية الانحراف عند العرب من نسل إسماعيل عليه السلام في عبادتهم الأحجار، فقد كان «أول أمرهم أنهم كانوا يعظمون الحرم، فلا يرتحلون منه حتى كثروا وضاق بهم، فأخذوا يرتحلون عنه طالبين السعة والفسح في البلاد، فكان لا يظعن ظاعن منهم عن الحرم إلى غيره إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً له، فحيث ما نزلوا وضعوه، فطافوا به كطوافهم بالكعبة، ثم أدى بهم ذلك إلى عبادة هذه الأحجار، ثم كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة»[1].

وانظر إلى ما صار إليه أمرهم وحالهم: عن أبي رجاء العطاردي قال: «كنا نعبد الحجر في الجاهلية، فإذا وجدنا حجراً أحسن منه نلقي ذلك ونأخذه، فإذا لم نجد حجراً جمعنا حثية من تراب، ثم جئنا بغنم فحلبنا عليه ثم طفنا به». ومن عجائب أمر الجاهلية أن الرجل منهم كان إذا سافر حمل معه أربعة أحجار، ثلاثة لقدره والرابع يعبده.

أصنام العرب:

واتخذوا الأصنام والأوثان، قال هشام بن محمد بن السائب الكلبي: «وكان من أقدم أصنامهم (مناة)، وكان منصوباً على ساحل البحر الأحمر من ناحية (المشلل) بقديد بين مكة والمدينة، وكانت العرب جميعاً تعظمه، وكانت الأوس والخزرج ومن ينزل المدينة ومكة وما قارب من المواضع يعظمونه، ويذبحون له، ويهدون له، ولم يكن أحد أشد إعظاماً له من الأوس والخزرج، وبلغ من تعظيم الأوس ومن جاورهم من عرب يثرب له أنهم كانوا يحجون،

(١) السيرة، لابن هشام: ١/ ١٢٢.

فيقفون مع الناس المواقف كلها، ولا يحلقون رؤوسهم، فإذا نفروا أتوه فحلقوا عنده رؤوسهم، وأقاموا عنده لا يرون لحجهم تماماً إلا بذلك.

وكانت (مناة) لهذيل وخزاعة فبعث رسول الله ﷺ علياً عام الفتح فهدمها، ثم اتخذوا (اللات) بالطائف وهي أحدث من مناة، وكانت صخرة مربعة، وكانت سدنتها من ثقيف، وكانوا قد بنوا عليها، وكانت قريش وجميع العرب يعظمونها، وبها كانت تسمى زيد اللات، وتيم اللات، وكانت في موضع منارة مسجد الطائف اليسرى اليوم، فلم تزل كذلك حتى بعث رسول الله ﷺ المغيرة ابن شعبة، وأبا سفيان بن حرب لما أسلمت ثقيف، فهدماها وحرقاها بالنار.

غير أن ابن جرير يروي في تفسيره عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ [النجم:١٩] قال: كان اللات يلت السويق للحاج، فمات فعكفوا على قبره، وكذلك قال أبو الجوزاء عن ابن عباس: كان يلتّ السويق للحاج. رواه البخاري بنحوه.

ثم اتخذوا (العزى) وهي أحدث من اللات، اتخذها ظالم بن سعد بوادي نخلة فوق ذات عرق، وبنوا عليها بيتاً، فكانوا يسمعون منها الصوت، قال الكلبي فيما يرويه عن ابن عباس قال: كانت للعزى شيطانة تأتي ثلاث سمرات ببطن نخلة.

فلما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد فقال: ائت بطن نخلة، فإنك ستجد ثلاث سمرات، فاعضد الأولى، فأتاها فعضدها، فلما جاء إليه قال: هل رأيت شيئاً؟ قال: لا. قال: فاعضد الثانية، فعضدها، ثم أتى النبي ﷺ قال: هل رأيت شيئاً؟ قال لا، قال: فاعضد الثالثة، فأتاها فاذا هو بحبشية نافشة شعرها واضعة يديها على عاتقها تضرب بأنيابها وخلفها سادنها، فقال خالد:

كفرانك لا سبحانك، إني رأيت الله قد أهانك.

ثم ضربها ففلق رأسها فإذا هي حممة، ثم عضد الشجرة، وقتل السادن، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره، فقال: (تلك العزى، ولا عزى بعدها للعرب). وكانت العزى لأهل مكة في موضع قريب من عرفات، وكانت شجرة يذبحون عندها، ويدعون.

وقال الكلبي في كتابه الأصنام: «وكانت لقريش أصنام في جوف الكعبة وحولها، وأعظمها عندهم (هبل)، وكان فيما بلغني من عقيق أحمر على صورة الإنسان، وكانوا إذا اختصموا في أمر أو أرادوا سفراً أتوه، فاستقسموا عنده بالقداح.

ومن أصنامهم إساف ونائلة، ويروي بعض الرواة أن رجلاً وامرأة زنيا في البيت الحرام، فمسخهما الله حجرين، ووضعتهما قريش عند الكعبة ليتعظ بهما الناس، فلما طال مكثهما وعبدت الأصنام عبدا معها.

ولما فتح الرسول ﷺ مكة وجد حول البيت ثلاثمائة وستين صنماً، فجعل يطعن بقوسه في وجوهها وعيونها ويقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩] وهي تتساقط على رؤوسها، ثم أمر بها فأخرجت من المسجد وحرقت. أخرجاه في الصحيحين عن ابن مسعود بنحوه ولم يذكرا «وهي تتساقط... إلخ» وعندهما يطعنها بعود كان في يده.

وقد انتشرت عبادة الأصنام حتى إنه كان لكل دار في مكة صنم يعبده أهلها، فإذا أراد أحدهم السفر فكان أول ما يصنع في منزله أن يتمسح به، وإذا قدم من سفر كان أول ما يصنع إذا دخل منزله أن يتمسح به.

قال ابن إسحاق الكلبي: «وكان (ذو الخلصة) لدوس وخثعم وبجيلة ومن كان ببلادهم من العرب، وكان مَرْوَةً بيضاء منقوشاً عليها كهيئة التاج، وكان له بيت، فقال رسول الله ﷺ لجرير بن عبدالله البجلي: (ألا تكفيني ذا الخلصة؟)

فسار إليه بأحمس، فقاتلته خثعم وباهلة، فظفر بهم، وهدم بيت ذي الخلصة، وأضرم فيه النار».

وفي البخاري ومسلم عن جرير بن عبدالله قال: قال لي رسول الله ﷺ (ألا تريحني من ذي الخَلصَةَ)، وكان بيتاً في خثعم يسمى الكعبة اليمانية، فانطلقت في خمسين ومائة فارس من أحمس إلى ذي الخلصة، وكانوا أصحاب خيل، فقلت: يا رسول الله، إني لا أثبت على الخيل، فضرب بيده في صدري حتى رأيت أثر أصابعه في صدري وقال: (اللهم ثبته واجعله هادياً مهدياً)، فانطلق إليها فكسرها.

والأصنام التي كانت منتشرة في الجاهلية أكثر من هذا الذي ذكرناه.

ظلمة دامسة عند البعثة:

ولم يكن قبل بعثة الرسول ﷺ من بقايا النور السماوي الذي جاءت به الأنبياء إلا أضواء خافتة لا تكفي للهداية والاستقامة على المنهج الرباني، لضياع ذلك المنهج واختلاطه بذلك الباطل الكثير، وفي الحديث: (إن الله نظر -قبيل البعثة- إلى أهل الأرض، فمقتهم عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب).

وقد حفظت لنا النصوص التاريخية أن أربعة من عقلاء قريش اعتزلوا قومهم في أحد أعياد قريش عند وثن من الأوثان، وهم ورقة بن نوفل، وعبيدالله بن جحش، وعثمان بن الحويرث بن أسد بن عبدالعزى، وزيد بن عمرو بن نفيل.

فقال بعضهم لبعض: تعلمون والله ما قومكم على شيء، ولقد أخطؤوا دين أبيهم إبراهيم، ما حجر نطيف به، لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع؟ يا قوم التمسوا لأنفسكم دينا، فإنكم -والله- ما أنتم على شيء، فتفرقوا في البلدان يلتمسون دين إبراهيم.

فأما ورقة بن نوفل فاستحكم في النصرانية، واتبع الكتب من أهلها، حتى

علم علماً من أهل الكتاب.

وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم، ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان مسلمة، فلما قدمها تنصر، وترك الإسلام حتى هلك نصرانياً.

وأما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر ملك الروم فتنصر، وحسنت منزلته عنده.

وأما زيد فوقف، فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية، وفارق قومه، فاعتزل الأوثان، واجتنب الميتة والدم والذبائح التي تذبح على الأوثان، ونهى عن قتل الموءودة، وقال: أعبد رب إبراهيم، وبدأ قومه بعيب ما هم عليه.

وفي صحيح البخاري عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: «أن النبي ﷺ لقي زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بلدح (واد غربي مكة) قبل أن ينزل على النبي ﷺ الوحي، فقدمت إلى النبي ﷺ سفرة، فأبى أن يأكل منها، ثم قال زيد:

إني لست آكل مما تذبحون على أنصابكم، ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه، وإن زيد بن عمرو كان يعيب على قريش ذبائحهم، ويقول: الشاة خلقها الله، وأنزل لها من السماء ماء، وأنبت لها من الأرض، ثم تذبحونها على غير اسم الله؟ إنكاراً لذلك وإعْظاماً له»[1].

قال موسى بن عقبة حدثني سالم بن عبدالله - ولا أعلمه يحدث به إلا عن ابن عمر - «إن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويتبعه، فلقي عالماً من اليهود، فسأله عن دينهم فقال: إني لعلي أن أدين دينكم، فأخبرني، فقال: لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله، قال زيد: ما أفر إلا من غضب الله، ولا أحمل من غضب الله شيئاً أبداً، وأنى

(١) رواه البخاري: ٧/ ١٤٢، ورقمه: ٣٨٢٦.

أستطيعه ! فهل تدلني على غيره؟ قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفاً، قال زيد: وما الحنيف؟ قال: دين إبراهيم، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، ولا يعبد إلا الله.

فخرج زيد فلقي عالماً من النصارى، فذكر مثله. فقال: لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله. قال: ما أفر إلا من لعنة الله، ولا أحمل من لعنة الله ولا غضبه شيئاً، وأنى استطيع، هل تدلني على غيره؟ قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفاً. قال: وما الحنيف؟ قال دين إبراهيم، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً.

فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم عليه السلام خرج، فلما برز رفع يديه، فقال: اللهم إني أشهدك أني على دين إبراهيم»[1].

قال: وقال الليث: كتب إليّ هشام بن عروة، عن أبيه، عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت: «رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائماً مسنداً ظهره إلى الكعبة يقول: يا معشر قريش، والله ما منكم على دين إبراهيم غيري. وكان يحيي الموءودة. ويقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته: لا تقتلها، أنا أكفيك مؤونتها، فيأخذها، فإذا ترعرعت قال لأبيها: إن شئت دفعتها إليك، وإن شئت كفيتك مؤونتها»[2].

ولقد سئل الرسول ﷺ عن زيد هذا فقال: (يُحشر ذاك أمة وحده بيني وبين عيسى ابن مريم) قال ابن كثير إسناده جيد حسن.

وعن عائشة أن الرسول ﷺ قال: (دخلت الجنة فرأيت لزيد بن عمرو بن نفيل دوحتين) قال ابن كثير: وهذا إسناد جيد.

وبعد هذه الظلمة الشديدة أذن الله ببزوغ فجر الإسلام، فاستنار الناس بنوره، واهتدوا بهديه فله الحمد والمنة.

---

(١) رواه البخاري: ٧/ ١٤٢. ورقمه: ٣٨٢٧.

(٢) رواه البخاري: ٧/ ١٤٣. ورقمه: ٣٨٢٨.

أهم المراجع

- الإبانة لأبي الحسن الأشعري. مطبوعات الجامعة الإسلامية. المدينة المنورة.
- الإسلام عقيدة وشريعة لشلتوت. دار الشروق. القاهرة. التاسعة. ١٣٩٧ هـ ١٩٧٧ م
- أسماء الله وصفاته في معتقد أهل السنة والجماعة. د. عمر سليمان الأشقر. دار النفائس عمان. الأردن الثانية ١٣١٤. هـ. ١٩٩٤م
- الأسماء والصفات للبيهقي. طبعة مصورة. بيروت.
- أصل الاعتقاد. د. عمر سليمان الأشقر. دار النفائس. الكويت. الأولى. ١٤١٠هـ. ١٩٩٠م
- اعتقادات فرق المسلمين للرازي. دار الكتب العلمية. بيروت ١٤٠٢هـ. ١٩٨٢ م
- البداية والنهاية لابن كثير. مكتبة المعارف، بيروت. الثانية. ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م.
- التأويل خطورته وآثاره . د.عمر سليمان الأشقر. دار النفائس. عمان الأردن. الأولى. ١٤١٢هـ. ١٩٩٢ م.
- تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن). دار الكتاب العربي. القاهرة. الثانية- ١٣٨٧هـ ١٩٦٧م.
- تلخيص الحبير لابن حجر العسقلاني. نشره عبدالله هاشم اليماني. المدينة المنورة. ١٣٨٤هـ ١٩٦٤م.
- التوحيد لابن خزيمة. مكتبة الكليات الأزهرية. القاهرة.
- التوحيد للزنداني. دار الخير. الأولى. ١٤١١ هـ. ١٩٩٠ م.
- جامع الأصول في أحاديث الرسول لابن الأثير. تحقيق عبدالقادر الأرناؤوط. نشرته مكتبة الحلواني وآخرون. ١٣٨٩هـ ١٩٦٩م.
- خلق أفعال العباد. البخاري. دار السلفية. الكويت. الأولى. ١٤٠٥ هـ. ١٩٨٥م.
- سلسلة الأحاديث الصحيحة لناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي. دمشق. الأولى.
- السيرة النبوية لابن هشام مع شرح أبي ذر الخشني. مكتبة المنار. الأردن. الأولى ١٤٠٩ هـ ١٩٨٨م.
- شرح العقيدة الطحاوية لمحمد بن محمد بن أبي العز الحنفي. المكتب الإسلامي. بيروت- ١٣٩١هـ.
- شرح النووي على مسلم. المطبعة المصرية ومكتبتها. القاهرة.
- صحيح البخاري (الجامع الصحيح) بشرحه فتح الباري. المطبعة السلفية ومكتبتها. القاهرة.
- صحيح الجامع الصغير. المكتب الإسلامي. بيروت. الأولى.
- صحيح سنن ابن ماجة للألباني. نشره مكتب التربية العربي لدول الخليج. الثانية-١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.
- صحيح سنن أبي داود. المكتب الإسلامي. بيروت. الأولى. ١٤٠٩هـ. ١٩٨٠م.
- صحيح سنن الترمذي للألباني. نشره مكتب التربية العربي لدول الخليج. الأولى- ١٣٠٨هـ ١٩٨٨م.
- صحيح سنن النسائي. المكتب الإسلامي. بيروت. الأولى. ١٤٠٩هـ. ١٩٨٨م.

- صحيح مسلم (الجامع الصحيح). تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي. طبعة دار إحياء الكتب العربية. مصر. الأولى. ١٣٧٥هـ ١٩٥٦م.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري. لابن حجر العسقلاني. المكتبة السلفية. القاهرة.
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في التفسير للشوكاني. دار إحياء التراث. بيروت.
- الفتوى الحموية الكبرى. لشيخ الإسلام ابن تيمية. المكتبة السلفية. القاهرة. الرابعة. ١٤٠١هـ
- في ظلال القرآن لسيد قطب. طبعة دار الشروق. ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م.
- لسان العرب. ترتيب يوسف خياط ونديم مرعشلي. دار لسان العرب. بيروت. الأولى.
- لوامع الأنوار البهية. للسفاريني. طبع دولة قطر.
- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية. (جمع ابن قاسم) طبعته حكومة المملكة العربية السعودية. الأولى. ١٣٨١هـ.
- مشكاة المصابيح للخطيب التبريزي. المكتب الإسلامي. دمشق. الأولى ١٣٨٠هـ.
- معارج القبول للشيخ حافظ بن أحمد الحكمي. مطبوعات دائرة الإفتاء بالمملكة العربية السعودية.
- معتقد الإمام أبي الحسن الأشعري. د. عمر سليمان الأشقر. الأولى. دار النفائس عمان. الأردن. ١٤١٤هـ ١٩٩٤م.
- مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري. دار إحياء التراث العربي. بيروت.
- المنتقى من أحاديث الأحكام لمجد الدين ابن عبدالسلام ابن تيمية. المطبعة السلفية. القاهرة.
- منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات. محمد الأمين الشنقيطي. منشورات الجامعة الإسلامية المدينة المنورة. الثانية ١٣٨٨هـ.
- الأسماء والصفات للبيهقي. طبعة مصورة. بيروت.
- الصواعق المرسلة لابن القيم. مطبعة الإمام. القاهرة.
- مختصر العلو للذهبي. اختصره الألباني. المكتب الإسلامي. الثانية ١٤١٢هـ. ١٩٩١م.
- المعجم الوسيط. لإبراهيم أنيس وزملاؤه. دار إحياء التراث العربي. بيروت. الثانية.
- كتاب الله للعقاد. دار الهلال. القاهرة.
- الفوائد المجموعة للشوكاني. مطبعة السنة المحمدية ١٣٨٠هـ. ١٩٦٠م. القاهرة.
- الرسالة - للشافعي. دار الفكر - بيروت.
- نحلة تسبح الله. لمحمد حسن حمصي. دار الرشيد. دمشق. الثالثة ١٩٧٧ م.
- رد الدارمي على المريسي. للدارمي. دار الكتب العلمية. بيروت.
- شرح العقيدة الواسطية. محمد خليل الهراس. منشورات الجامعة الإسلامية. المدينة المنورة. الرابعة.
- الإيمان لأبي عبيد القاسم بن سلام. حققه الشيخ ناصر الدين الألباني. ضمن مجموع بعنوان: من كنوز السنة - رسائل أربع. المطبعة العمومية - دمشق.

الفهرس

مقدمة الطبعة الجديدة ٥
مقدمة الطبعة الأولى ٧
الباب الأول: مدخل لدراسة العقيدة ١١
الفصل الأول: العقيدة تَعريفٌ وَبيَان ١١
المبحث الأول: العقيدة لغة واصطلاحاً ١١
المبحث الثاني: العقائد علمية قلبية ١٢
المبحث الثالث: العقيدة يقين لا تقبل الشك ١٣
المبحث الرابع: المعتقدات غيب غير منظور ١٣
المبحث الخامس: العقيدة الصحيحة والعقيدة الفاسدة ١٤
المبحث السادس: أهمية العقيدة الإسلامية وضرورتها ١٥
الفصل الثاني: علاقة العقيدة بالإيمان والشريعة ٢١
المبحث الأول: علاقة العقيدة بالإيمان ٢١
المبحث الثاني: صلة العقيدة بالشريعة ٢٣
المبحث الثالث: العناية بالعمل ٢٣
الفصل الثالث: الإيمان والكفر ٢٥
المبحث الأول: حكم إنكار العقيدة ٢٥
المبحث الثاني: الأعمال والأقوال التي تعدّ كفراً ٢٥
المبحث الثالث: الموقف من الكفار ٢٦
المبحث الرابع: الكافر عند الله ٢٦
المبحث الخامس: ترك الواجبات وفعل المحرمات ٢٧
المطلب الأول: موقف السلف من مرتكب الكبيرة ٢٧
المطلب الثاني: الخوارج الذين يكفرون بالذنوب ٢٩
المطلب الثالث: القائلون إن مرتكب الكبيرة كامل الإيمان ٣٨
الفصل الرابع: العقيدة والفلسفة وعلم الكلام ٣٩
المبحث الأول: الفرق بين العقيدة الإسلامية والفلسفة وعلم الكلام ٣٩
١- المصادر والمنابع ٣٩
٢- المنهج والسبيل ٤١
٣- قوة التأثير ٤٥
٤- الأسلوب ٤٨
٥- طريقة الاستدلال ٤٩

٦- الجنى والعطاء ٥١
المبحث الثاني: موقف العلماء من الفلسفة وعلم الكلام ٥٢
المبحث الثالث: مقارنة بين صاحب الرأي وصاحب العقيدة ٥٥
الفصل الخامس: مناهج العلماء في إثبات العقائد ٥٧
المبحث الأول: مناهج العلماء في إثبات العقائد ٥٧
المبحث الثاني: النصوص الدالة على الاحتجاج بخبر الآحاد ٦٤
الرد على القائلين إن حديث الآحاد لا يؤخذ بها في العقيدة ٦٦
المبحث الثالث: العقائد التي ثبتت بالأحاديث ٦٧
المبحث الرابع: حكم من أنكر ما ثبت بخبر الآحاد ٧١
المبحث الخامس: شبهتان تحتاجان إلى إيضاح وبيان ٧١
الباب الثاني: الإيمان بالله ٧٥
تمهيد: أهمية هذا الأصل ٧٥
مسائل الإيمان بالله ٧٦
الفصل الأول: أدلة وجود الخالق والرد على الملحدين في نشأة الكون ٧٧
المبحث الأول: أدلة وجود الخالق جلّ وعلا ٧٧
أولاً: دليل الفطرة ٧٧
الدليل الثاني: المخلوق لا بدّ له من خالق ٨١
موقف العلوم التجريبية من هذا القانون ٨٥
المبحث الثاني: الرد على شبهات حول نشأة الكون ٨٦
١- القول بالمصادفة ٨٦
٢- قالوا الطبيعة هي الخالق ٨٨
نظرية التولد الذاتي (شبهة ثبت بطلانها) ٨٩
الطبيعة هي القوانين التي تحكم الكون ٩٠
الطبيعة قوة ٩٢
٣- نظرية دارون ٩٣
ماذا تقول هذه النظرية؟ ٩٣
أساس النظرية ٩٤
تفنيد الأساس الذي قامت عليه النظرية ٩٥
تفنيد شرح دارون لعملية التطور ٩٧
النظرية لا يؤيدها الواقع المشاهد ١٠٠
موقف علماء الطبيعة من النظرية ١٠١

القرآن ونظرية دارون ١٠٤
عكس هذه النظرية هو الصواب ١٠٤
الفصل الثاني: التعريف بالله وربط القلوب به ١٠٩
المبحث الأول: دلالة الآيات الكونية على خالقها ومبدعها ١١٠
المطلب الأول: منهج القرآن في الاستدلال بالآيات الكونية ١١٠
١- ارتياد الكون عبر آيات القرآن ١١٠
٢- نعم الله في الكون ١١٢
٣- استدلال القرآن بالآيات القرآنية على استحقاق الخالق الربوبية والألوهية وبطلان ما يعبد من دون الله . ١١٤
الكفر مستنكر مستعجب مع وضوح الأدلة ١١٦
٤- الذين ينتفعون بآيات الكون هم أولو الألباب ١١٧
٥- العلوم الحديثة تقطع الوشيجة بين الناس والكون ١١٨
٦- دلالة الخلق على صفات الخالق ١٢٠
٧- الله وحده المستحق للعبادة ١٢١
المطلب الثاني: العلماء يبينون عجائب صنع الله في خلقه ١٢٣
١ـ تكون الأجسام من الخلايا وانقسامها ١٢٣
٢- مقاومة الأحياء لعوامل الفناء ١٢٧
٣- هداية النحل وشيء من عجائب صنع الله فيه ١٢٨
الباحثون المعاصرون يتحدثون عن عالم النحل ١٣٢
كيف يدل النحل بعضه بعضاً على مكان الغذاء؟ ١٣٨
رؤية النحل ما لا نراه من الألوان ١٣٩
٤- هداية النمل وعجائب صنع الله فيه ١٤٠
النمل يربي المواشي ويفلح الأرض ١٤٦
٥- هداية الهدهد وعجائب صنع الله فيه ١٤٨
٦- هداية الحمام وعجائب صنع الله فيه ١٤٩
٧- كلبة ترضع طفلاً مات أهله ١٥٣
٨ - المكاء يقتل الأفعى ١٥٣
٩- هداية الثعلب وحيله ١٥٤
١٠- من عجائب الذئاب ١٥٥
١١- من عجائب القرود ١٥٥
١٢- من عجائب البقر ١٥٥
١٣- من عجائب الفئران ١٥٦

١٤- من عجائب الحيوان استخدامه الدواء ١٥٦
١٥- تعلم الإنسان من الحيوان ١٥٧
١٦- هداية الخالق الكائنات لطريقة التكاثر ١٦٣
١٧- هداية الخالق الحيوان تعويض ما يفقده من أجزاء جسمه ١٦٦
١٨- اتفاق جميع الأحياء في التنفس وإن اختلفت طرائقه ١٦٨
١٩- حصول الأحياء على الغذاء بطرق مختلفة ١٧١
٢٠- دوران الدم في جميع أجزاء أجسام الأحياء ١٧٢
٢١- تركيب الحواس في الأحياء ١٧٤
٢٢- كيفية تصميم العظام والمفاصل ١٧٧
٢٣- الحكمة في تجلط الدم ١٧٧
٢٤- قرنا الاستشعار عند البعوض ١٧٨
٢٥- حيوانات تومض في الظلام ١٧٩
٢٦- عملية الهضم في الحيوان ١٧٩
٢٧ـ تكون الجنين ١٨٠
٢٨- تركيب الأذن ١٨١
٢٩- ديدان الفلاريا ١٨٢
٣٠- مغناطيسية الأرض ١٨٣
٣١- أحجام الأجرام السماوية وأبعادها ومداراتها ١٨٤
المبحث الثاني: التعرف إلى الله من خلال النصوص ١٨٦
المطلب الأول: مدى إدراك العقل لصفات الله ١٨٦
المطلب الثاني: جملة من الصفات التي جاءت بها النصوص ١٨٧
١- لله ذات ١٨٧
٢- نفسه سبحانه ١٨٨
٣- وجه ربنا سبحانه ١٨٩
أثر الإيمان بوجه الله تعالى ١٩٠
أ - قصد وجه الله بصالح الأعمال ١٩٠
ب - الاستعاذة بوجهه سبحانه ١٩١
جـ - إجابة من سألك بوجه الله ١٩١
د - الطمع في رؤية وجه الله ١٩١
٤- لله سبحانه يدان ١٩٤
تمجيد الله بذكر يديه ١٩٤

بسط الربّ يديه ١٩٥
الأشياء التي خلقها الرحمن بيده ١٩٥
عظم يدي الرب سبحانه وتعالى ١٩٨
كلتا يديه - سبحانه - يمين ١٩٨
٥- أصابع الرحمن ١٩٩
٦- ما ذكر في القدم ٢٠٠
٧- لله سبحانه ساق ٢٠١
٨- استواؤه على العرش ٢٠٢
عظم العرش ٢٠٣
تمجيد الله نفسه باستوائه على العرش وأنه ربّ العرش ٢٠٤
معنى استوائه على العرش ٢٠٤
٩- أين الله؟ ٢٠٧
معنى كونه في السماء ٢٠٨
علوه - سبحانه - لا ينافي قربه ٢١٠
١٠- ضحك ربنا سبحانه ٢١١
١١، ١٢- نزوله - سبحانه - ومجيئه ٢١٣
١٣- كلام الله ٢١٤
كلام الله لا يحصى ولا يستقصى ٢١٦
القرآن كلام الله حقيقة ٢١٦
١٤- محبة الله ٢١٧
١٥- ١٦ - كراهة الله وبغضه ٢١٩
١٧- رؤية الله ٢٢٠
١٨- علم الله ٢٢٢
١٩، ٢٠ - حياته وقيوميته سبحانه ٢٢٤
جمعه - سبحانه - بين هذين الاسمين ٢٢٤
من تمام حياته وقيوميته ٢٢٤
تمجيده تعالى بذكر حياته وقيوميته ٢٢٥
٢١، ٢٢ سمعه وبصره سبحانه - وتعالى ٢٢٥
عظم سمع الله وبصره ٢٢٥
المطلب الثالث: أسماء الله الحسنى ٢٢٧
١- عدد أسمائه ٢٢٧

٢- تحديد أسماء الله الحسنى ٢٢٩
٣- الاسم الأعظم ٢٣١
٤- وجوب الإيمان بأسمائه ٢٣٣
٥- كيف يحصي المسلم أسماء الله الحسنى ٢٣٣
٦- سرد أسماء الله تعالى ٢٣٥
٧- خواص أسماء الله الحسنى ٢٣٦
٨- فائدة العلم بهذه الأسماء ٢٣٧
نماذج من تمجيد الرسول عليه السلام لربه وثنائه عليه ودعائه له ٢٣٨
المطلب الرابع : المنهج الذي تُفهم صفات الله في ضوئه ٢٤٠
المنحرفون عن المنهج السليم وأسباب انحرافهم ٢٤٣
أولاً: انحراف المشركين ٢٤٣
ثانياً: انحراف المشبهة ٢٤٤
ثالثاً: انحراف النفاة وهم ثلاث فرق ٢٤٤
المطلب الخامس: أقسام الصفات عند علماء الكلام ٢٤٥
محاكمة المنهج الكلامي إلى الكتاب والسنة ٢٤٦
صفات المعاني عند المتكلمين ٢٤٦
الكلام على الصفات السلبية عند المتكلمين ٢٥٠
١ ، ٢ - القدم والبقاء ٢٥٠
وصف الله بالقدم والبقاء لم يرد في الكتاب والسنة ٢٥١
٣ ، ٤ - الوحدانية والغنى بالنفس ٢٥١
تحقيق القول في الصفات المعنوية ٢٥٢
صفات الأفعال ٢٥٢
١ - الرزق ٢٥٢
٢ - العمل ٢٥٣
٣ - التعليم ٢٥٣
٤ - الإنباء ٢٥٤
٥ - الإيتاء ٢٥٤
الصفات الجامعة ٢٥٤
١ - ٣: صفات العلو والكبر والعظم ٢٥٤
٤ - صفة الملك ٢٥٥
٥ ، ٦ - صفة الجبروت والكبرياء ٢٥٦

٧ - صفة العزة ٢٥٦
٨ - صفة القوة ٢٥٦
الصفات التي اختلف فيها المتكلمون ٢٥٧
١، ٢ - صفة الرأفة والرحمة ٢٥٧
٣- صفة الحلم ٢٥٧
٤ - صفة المغفرة ٢٥٨
حال النافين لصفات الكمال والجلال ٢٥٨
صفة الاستواء صفة كمال لا صفة نقص ٢٥٨
المطلب السادس: قواعد مهمة في صفات الله وأسمائه ٢٦٢
القاعدة الأولى: القول في بعض الصفات كالقول في بعضها الآخر ٢٦٢
القاعدة الثانية: القول في الصفات كالقول في الذات ٢٦٣
القاعدة الثالثة: الاتفاق في الأسماء لا يقتضي التساوي في المسميات ٢٦٤
القاعدة الرابعة: لا يوصف الله بالنفي المحض ٢٦٤
القاعدة الخامسة: الألفاظ الموهمة حقاً وباطلاً ٢٦٦
القاعدة السادسة: التعطيل سببه اعتقاد التشبيه أولاً ٢٦٧
القاعدة السابعة: آيات الصفات ليست من المتشابه ٢٦٨
القاعدة الثامنة: ليس ظاهر الصفات التشبيه حتى تحتاج إلى تأويل ٢٦٨
القاعدة التاسعة: حقيقة التأويل ٢٧٠
المطلب السابع: مذهب أهل السنة والجماعة في صفات الله ٢٧٢
عقيدة الإمام أبي الحسن الأشعري في صفات الله ٢٧٣
الفصل الثالث: توحيد الله ٢٧٥
المبحث الأول: معناه وأقسامه ٢٧٥
لا يكفي التوحيد العلمي، بل لا بدّ من التوحيد العملي ٢٧٥
تناقض الذين لا يعبدون الله وحده ٢٧٦
المبحث الثاني: كلمة التوحيد: معناها، فضلها، شروطها ٢٧٧
إشارة السلف إلى بعض هذه الشروط ٢٨٠
المبحث الثالث: العبادة ٢٨١
المطلب الأول: تعريف العبادة ٢٨١
التوحيد لا يتحقق إلا بأمرين ٢٨١
الأول: الشهادة لله بالوحدانية في ذاته وصفاته ٢٨١
الثاني: قصده وإرادته وحده دون سواه في جميع العبادات ٢٨١

المطلب الثاني : العابد هو الذي يتقلب بين الخوف والرجاء ٢٨١
المطلب الثالث: أركان العبادة ٢٨٣
الأول: الإخلاص ٢٨٣
الثاني: الصدق ٢٨٣
الثالث: متابعة الرسول ﷺ ٢٨٣
المطلب الرابع: أنواع العبادات التي لا يجوز أن يقصد بها غير الله ٢٨٤
الأول: عبادات اعتقادية ٢٨٤
الثاني: عملية قلبية ٢٨٤
الثالث: قولية ٢٨٥
الرابع: بدنية ٢٨٥
الخامس: مالية ٢٨٥
المبحث الرابع: ما يضاد التوحيد وينافيه ٢٨٦
الشرك نوعان ٢٨٦
الأول: الشرك الأكبر: ٢٨٦
خطورة هذا الشرك ٢٨٧
أعظم جريمة وأفظع ظلم ٢٨٧
النوع الثاني: الشرك الأصغر ٢٨٧
الفصل الرابع: نظرة في تاريخ العقيدة ٢٨٩
المبحث الأول: هل تطورت العقيدة عبر الزمان؟ ٢٨٩
القرآن وحده يوضح تاريخ العقيدة ٢٩١
المبحث الثاني: تاريخ العقيدة كما يرويه القرآن الكريم ٢٩٢
الجيل الأول من البشرية كان على التوحيد ٢٩٢
أول انحراف عن العقيدة وأول رسول ٢٩٣
الفصل الخامس: تصورات الأمم الضالة للمعبود ٢٩٩
المبحث الأول: الرب عند الرومان ٣٠١
المبحث الثاني: الإله عند اليهود ٣٠٣
المبحث الثالث: انحراف العرب عن التوحيد ٣١١
بداية الانحراف ٣١٣
أصنام العرب ٣١٣
ظلمة دامسة عند البعثة ٣١٦
أهم المراجع ٣١٩
الفهرس ٣٢١

رقم الإيداع 2005/5866 **الترقيم الدولي** I.S.B.N 977-342-284-4

عالم الملائكة الأبرار

حُقُوق الطّبْع مَحْفُوظَة

لدار النفائس

للنشر والتوزيع - الأردن

طبعة خاصة بمصر
والمغرب العربي واليمن

(يمنع تداولها في دول الخليج العربي)

١٤٣٢هـ / ٢٠١١ م

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م هي عشر الجائزة تتويجًا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية
الإدارة : القاهرة : ٤٠ شارع أحمد أبو العلا - المتفرع من شارع نور الدين بهجت - الموازي لامتداد شارع مكرم عبيد - مدينة نصر
هاتف : ٢٢٨٧٣٢٤٦ - ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +) فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)
فاكس : ٢٢٦٣٩٨٦١ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين
هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)
بريديًا : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

دار النفائس
للنشر والتوزيع - الأردن

العبدلي - مقابل عمارة جوهرة القدس
ص.ب : ٩٢٧٥١١ عمّان ١١١٩٠ الأردن
هاتف : ٥٦٩٣٩٤٠ - فاكس : ٥٦٩٣٩٤١
بريد إلكتروني : ALNAFAES@HOTMAIL.COM

العقيدة في ضوء الكتاب والسنة



عالم الملائكة الأبرار

أ.د. عمر سليمان عبدالله الأشقر

دار النفائس
للنشر والتوزيع - الأردن

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وبعد:

فالإيمان بالملائكة أصل من أصول الاعتقاد، لا يتم الإيمان إلا به، والملائكة عالم من عوالم الغيب التي امتدح الله المؤمنين بها، تصديقاً لخبر الله سبحانه وإخبار رسوله ﷺ.

وقد بَسَطت النصوص من الكتاب والسنة هذا الموضوع وبينت جوانبه، ومن يطالع هذه النصوص في هذا الجانب، يصبح الإيمان بالملائكة عنده واضحاً، وليس فكرةً غامضة، وهذا مما يعمق الإيمان ويرسخه ؛ فإن المعرفة التفصيلية أقوى وأثبت من المعرفة الإجمالية.

وما أطالت النصوص التفصيل والتوضيح في هذا الموضوع إلا لأن العقل الإنساني لا يستطيع التوصل إلى ما يهمه معرفته عن الملائكة بنفسه، فحواس الإنسان أعجز من أن ترى الملائكة، وتسمع أحاديثهم، ولا شك أنّ هذا العجز في صالح الإنسان، فلو كان الإنسان يسمع ويرى كل ما يحيط به، لما أطاق الحياة، وحسبنا أن نتصور أنّ إنساناً تلتقط أذنه ما يلتقطه المذياع من أصوات ؛ لنعلم البلاء الذي يحلّ بهذا المسكين الذي لا بدّ أن يصاب بالذهول والجنون.

ولا يظنن أحدٌ أن دراسة هذا الأصل من فضول العلم ؛ فإن الحقائق التي تسوقها النصوص في هذا الموضوع لها تأثير كبير في نفي الخرافة والزيف عن العقول في هذا الأصل، فقد انتشر منذ القديم القول بألوهية الملائكة، أو أنّ الملائكة بنات الله، ويرى بعض الفلاسفة أنّ الملائكة هم الأفلاك التي نراها في الفضاء.

وهذه الحقائق التي جاءت بها النصوص تعمق في نفوسنا الإيمان بالإله المعبود، المهيمن على هذا الوجود، الذي وضع جنوده من الملائكة؛ للقيام على مختلف أمور الكون.

وعلاقة الملائكة بنا، تكويناً وإيجاداً ومراقبة، توحي للإنسان بأهميته وقيمته، وتنفي من فكره القول بتفاهته وحقارته، وبذلك يقدّر قدر نفسه، ويسعى جاهداً لتحقيق الدور العظيم الذي عليه أن يقوم به.

ولو ذهبنا نعدد الآثار الطيبة التي يجنيها المرء من إيمانه بالملائكة، ودراسة النصوص التي تتحدث عنهم، لطال القول في هذه المقدمة، إلا أنني أترك للقارىء أن يعيش مع النصوص، فتمده - حين يتأمل فيها - بموحياتها وآثارها.

والله تعالى نسأل أن ينفع بهذا الكتاب، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، إنه نعم المولى ونعم النصير.

عمر سليمان عبد الله الأشقر

٢٠/ ذي القعدة/ ١٣٧٨هـ

٢٢/ ٩/ ١٩٧٨م

الكويت

المقدمة

التعريف بالملائكة والإيمان بهم:

الملائكة عالم غير عالم الإنس وعالم الجن، وهو عالم كريم، كله طهر وصفاء ونقاء، وهم كرام أتقياء، يعبدون الله حق العبادة، ويقومون بتنفيذ ما يأمرهم به، ولا يعصون الله أبداً.

وسنرى عبر نصوص الكتاب والسنة صفاتهم التي حدثتنا بها النصوص.

والملك أصله: أَلَكَ، والمألكة، والمألكُ: الرسالة. ومنه اشتق الملائك؛ لأنهم رسل الله.

وقيل: اشتق من (لَ أ ك) والملأكة: الرسالة، وألكني إلى فلان؛ أي: بلغه عني، والملأك: الملك؛ لأنه يبلغ عن الله تعالى.

وقال بعض المحققين: الملك من الملك. قال: والمتولي من الملائكة شيئاً من السياسات يقال له مَلَك، ومن البشر مَلِك[1].

والإيمان بالملائكة أصل من أصول الإيمان، لا يصح إيمان عبد ما لم يؤمن بهم، قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

---

(١) راجع: بصائر ذوي التمييز، للفيروز آبادي: ٤/ ٥٢٤.

كيف يكون الإيمان بالملائكة

نقل السيوطي عن البيهقي في كتابه (شعب الإيمان): «أن الإيمان بالملائكة ينتظم في معانٍ:

أحدها: التصديق بوجودهم.

الثاني: إنزالهم منازلهم، وإثبات أنهم عباد الله وخلقه، كالإنس والجن مأمورون مكلفون، لا يقدرون إلا على ما أقدرهم الله عليه، والموت عليهم جائز، ولكنّ الله تعالى جعل لهم أمداً بعيداً، فلا يتوفاهم حتى يبلغوه، ولا يوصفون بشيء يؤدي وصفهم به إلى إشراكهم بالله تعالى، ولا يدعون آلهة كما دعتهم الأوائل.

الثالث: الاعتراف بأنّ منهم رسلاً يرسلهم الله إلى من يشاء من البشر، وقد يجوز أن يرسل بعضهم إلى بعض، ويتبع ذلك الاعتراف بأنّ منهم حملة العرش، ومنهم الصافّون، ومنهم خزنة الجنّة، ومنهم خزنة النار، ومنهم كتبة الأعمال، ومنهم الذين يسوقون السحاب، فقد ورد القرآن بذلك كله أو بأكثره»[1].

وهذا الكتاب فيه تفصيل لما جاءَت به النصوص في الإيمان بالملائكة.

---

(١) الحبائك في أخبار الملائك، للسيوطي: ص ١٠. وانظر مختصر شعب الإيمان: ١/ ٤٠٥-٤٠٦.

الفصل الأول

صفاتهم وقدراتهم

سنحاول في هذا الفصل أن نتبين من خلال النصوص الصحيحة صفات الملائكة الخَلقية والخُلُقية، ثم نتحدث عن القدرات التي وهبهم الله إياها.

المبحث الأول

الصفات الخلقية وما يتعلق بها

المطلب الأول: مادة خلقهم ووقته

إنّ المادة التي خلقوا منها هي النور ؛ ففي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها وعن أبيها: أن رسول الله ﷺ قال: (خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم)[1].

ولم يبين لنا الرسول ﷺ أي نور هذا الذي خلقوا منه، ولذلك فإننا لا نستطيع أن نخوض في هذا الأمر لمزيد من التحديد؛ لأنه غيب لم يرد فيه ما يوضحه أكثر من هذا الحديث.

---

(١) صحيح مسلم: ٤/ ٢٢٩٤. ورقمه: ٢٩٩٦.

وبعض الذين ينسبون إلى العلم يردون هذا الحديث وأمثاله زاعمين أنه حديث آحاد، وأن حديث الآحاد لا تثبت به عقيدة ، وقد ناقشت هذا القول وبينت بطلانه في رسالة بعنوان: (أصل الاعتقاد).

وما روي عن عكرمة أنه قال: (خلقت الملائكة من نور العزة، وخلق إبليس من نار العزة)، وما روي عن عبد الله بن عمرو أنه قال: (خلق الله الملائكة من نور الذراعين والصدر)، لا يجوز الأخذ به، وعلى فرض صحته عن هؤلاء العلماء الأفاضل فهم غير معصومين، ولعلهم قد استقوه من الإسرائيليات[1].

وأما ما ذكره ولي الله الدهلوي من: «أن الملأ الأعلى ثلاثة أقسام: قسم علم الحقُّ أن نظام الخير يتوقف عليهم، فخلق أجساماً نورية بمنزلة نار موسى، فنفخ فيها نفوساً كريمة.

وقسم اتفق حدوث مزاج في البخارات اللطيفة من العناصر استوجب فيضان نفوس شاهقة شديدة الرفض ؛ (أي الترك) للألواث البهيمية.

وقسم هم نفوس إنسانية قريبة المأخذ من الملأ الأعلى، ما زالت تعمل أعمالاً منجية تفيد اللحوق بهم، حتى طرحت عنها جلابيب أبدانها، فانسلكت في سلكهم، وعدّت منهم»[2]. فلا يوجد دليل صحيح يدل على صحة هذا التقسيم بهذا التفصيل والتحديد.

ولا ندري متى خُلقوا، فالله -سبحانه- لم يخبرنا بذلك، ولكننا نعلم أنّ خلقهم سابق على خلق آدم أبي البشر، فقد أخبرنا الله أنه أعلم ملائكته أنه جاعل في الأرض خليفة: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠]، والمراد بالخليفة آدم عليه السلام، وأمرهم بالسجود له حين خلقه: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٢٩].

---

(١) راجع سلسلة الأحاديث الصحيحة: ١/ ١٩٧.

(٢) الحجة البالغة: ص٣٣.

رؤية الملائكة:

ولما كانت الملائكة أجساماً نورانية لطيفة، فإن العباد لا يستطيعون رؤيتهم، خاصة أن الله لم يعط أبصارنا القدرة على هذه الرؤية.

ولم ير الملائكة في صورهم الحقيقية من هذه الأمة إلا الرسول ﷺ، فإنه رأى جبريل مرتين في صورته التي خلقه الله عليها، وقد دلت النصوص على أن البشر يستطيعون رؤية الملائكة، إذا تمثل الملائكة في صورة بشر.

المطلب الثاني: عِظَم خلقهم

قال الله تعالى في ملائكة النار: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

وسأكتفي بسوق الأحاديث التي تتحدث عن ملكين كريمين فحسب.

١- عِظم خلق جبريل عليه السلام:

رأى رسول الله ﷺ جبريل عليه السلام على صورته الملائكية التي خلقه الله عليها مرتين، هما المذكورتان في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣]، وفي قوله: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ۞ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ۞ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ﴾ [النجم: ١٣-١٥]، عندما عرج به إلى السموات العلا.

وقد ورد في صحيح مسلم: أن عائشة رضي الله عنها سألت الرسول ﷺ عن هاتين الآيتين فقال ﷺ: (إنما هو جبريل، لم أره على صورته التي خُلق عليها غير هاتين المرتين.

رأيته منهبطاً من السماء، ساداً عِظَمُ خَلْقه ما بين السماء إلى الأرض)[1].

وسئلت عائشة رضي الله عنها عن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ [النجم:٨]، فقالت: «إنما ذلك جبريل عليه السلام، كان يأتيه في صورة الرجال، وإنه أتاه في هذه المرة في صورته، التي هي صورته، فسدّ أفق السماء»[2].

وورد في صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود أنه قال: «رأى محمد ﷺ جبريل له ستمائة جناح»[3].

وقال ابن مسعود أيضاً في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم:١٨] «أي رفرفاً أخضر قد سدّ الأفق»[4]. وهذا الرفرف الذي سدّ الأفق هو ما كان عليه جبريل، فقد ذكر ابن حجر أن النسائي والحاكم رويا من طريقهما عن ابن مسعود قال: «أبصر نبي الله ﷺ جبريل عليه السلام على رفرف قد ملأ ما بين السماء والأرض»[5].

---

(١) صحيح مسلم: ١/ ١٥٩. ورقم الحديث: ١٧٧.

(٢) صحيح مسلم: ١/ ١٦٠. ورقمه: ١٧٧.

(٣) صحيح البخاري: ٨/ ٦١٠. ورقمه: ٤٨٥٦، ٤٨٥٧.

(٤) صحيح البخاري: ٨/ ٦١١. ورقمه: ٤٨٥٨.

(٥) فتح الباري: ٨/ ٦١١.

وذكر ابن حجر أن ابن مسعود قال في رواية النسائي: « رأى محمد ﷺ جبريل له ستمائة جناح قد سدّ الأفق »[1].

وفي مسند الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال: « رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته، وله ستمائة جناح، كل جناح منها قد سدّ الأفق. يسقط من جناحه التهاويل[2] من الدرر واليواقيت ».

قال ابن كثير في هذا الحديث: « إسناده جيد »[3].

وقال في وصف جبريل: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ [التكوير: ١٩-٢١]، والمراد بالرسول الكريم هنا: جبريل، وذي العرش: رب العزة سبحانه.

٢- عِظم خلقة حَمَلة العرش:

روى أبو داود عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: (أُذن لي أن أُحدِّث عن ملك من ملائكة الله، من حملة العرش، إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام)[4].

ورواه ابن أبي حاتم وقال: (تخفق الطير). قال محقق مشكاة المصابيح: « إسناده صحيح »[5].

---

(١) فتح الباري: ٨/ ٦١١.

(٢) التهاويل: الأشياء المختلفة الألوان.

(٣) البداية والنهاية: ١/ ٤٧.

(٤) صحيح سنن أبي داود: ٣/ ٨٩٥. ورقمه: ٩٣٥٣.

(٥) مشكاة المصابيح: ٣/ ١٢١. وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة، حديث رقم: ١٥١.

وروى الطبراني في معجمه الأوسط بإسناد صحيح عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: (أذن لي أن أحدث عن ملك من حملة العرش، رجلاه في الأرض السفلى، وعلى قرنه العرش، وبين شحمة أذنيه وعاتقه خفقان الطير سبعمائة عام، يقول ذلك الملك: سبحانك حيث كنت)[1].

المطلب الثالث: أهم الصفات الخلقية

أولاً: أجنحة الملائكة:

للملائكة أجنحة كما أخبرنا الله تعالى، فمنهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، أو أربعة، ومنهم من له أكثر من ذلك: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١].

والمعنى أن الله جعلهم أصحاب أجنحة، بعضهم له جناحان، وبعضهم له ثلاثة أو أربعة، أو أكثر من ذلك.

وقد سبق ذكر الأحاديث التي يخبر فيها الرسول ﷺ أن لجبريل ستمائة جناح.

ثانياً: جمال الملائكة:

خلقهم الله على صور جميلة كريمة كما قال تعالى في جبريل: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ ۖ فَٱسْتَوَىٰ﴾ [النجم: ٥-٦]. قال ابن عباس: (ذو مرة):

---

(١) صحيح الجامع الصغير. الطبعة الثالثة: ١/٢٠٨. ورقمه: ٨٥٣.

ذو منظر حسن، وقال قتاده: ذو خَلْقٍ طويل حسن. وقيل: ذو مرة: ذو قوة. ولا منافاة بين القولين، فهو قوي وحسن المنظر.

وقد تقرر عند الناس وصف الملائكة بالجمال، كما تقرر عندهم وصف الشياطين بالقبح، ولذلك تراهم يشبهون الجميل من البشر بالملك، انظر إلى ما قالته النسوة في يوسف الصديق عندما رأينه: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١].

ثالثاً: هل بين الملائكة والبشر شبه في الشكل والصورة:

روى مسلم في صحيحه، والترمذي في سننه عن جابر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: (عُرض عليَّ الأنبياء، فإذا موسى ضرب من الرجال[1]، كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى ابن مريم، فإذا أقرب من رأيت به شبهاً عروة بن مسعود، ورأيت إبراهيم صلوات الله عليه، فإذا أقرب من رأيت به شبهاً صاحبُكم، (يعني نفسه).

ورأيت جبريل عليه السلام، فإذا أقرب من رأيت به شبهاً (دحية) وفي رواية: (دحية بن خليفة)[2].

فهل هذا الشبه كائن بين صورة جبريل الحقيقية وصورة دحية الكلبي، أم هو بين الصورة التي يكون بها جبريل عندما يتمثل في صورة بشر؟! الأرجح هذا الأخير؛ لما سيأتي أن جبريل كان يتمثل في صورة دحية كثيراً.

---

(١) الضرب من الرجال: هو الرجل المتوسط في كثرة اللحم وقلته. وقيل: الخفيف اللحم.

(٢) صحيح مسلم: ١/ ١٥٣. ورقمه: ١٦٧.

رابعاً: تفاوتهم في الخلق والمقدار:

الملائكة ليسوا على درجة واحدة في الخلق والمقدار، فبعض الملائكة له جناحان، وبعضهم له ثلاثة، وجبريل له ستمائة جناح، ولهم عند ربهم مقامات متفاوتة معلومة: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤].

وقال في جبريل: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ١٩-٢٠]؛ أي له مكانة ومنزلة عالية رفيعة عند الله.

وأفضل الملائكة هم الذين شهدوا معركة بدر، ففي صحيح البخاري عن رفاعة بن رافع: أن جبريل جاء للنبي ﷺ فقال: (ما تعدّون أهل بدر فيكم؟ قال: من أفضل المسلمين، أو كلمة نحوها، قال: وكذلك من شهد بدراً من الملائكة)[1].

خامساً: لا يوصفون بالذكورة والأنوثة:

من أسباب ضلال بني آدم في حديثهم عن عوالم الغيب أن بعضهم يحاول إخضاع هذه العوالم لمقاييسه البشرية الدنيوية، فنرى واحداً من هؤلاء يعجب في مقال له من أن جبريل كان يأتي الرسول ﷺ بعد ثوان من توجيه سؤال إلى الرسول ﷺ يحتاج إلى جواب من الله، فكيف يأتي بهذه السرعة الخارقة، والضوء يحتاج إلى ملايين السنوات الضوئية؛ ليصل إلى بعض الكواكب القريبة في السماء.

وما درى هذا المسكين أن مثله كمثل بعوضة، تحاول أن تقيس سرعة

---

(١) رواه البخاري: ٧/ ٣١٢. ورقمه: ٣٩٩٢.

الطائرة بمقياسها الخاص، لو تفكر في الأمر، لعلم أن عالم الملائكة له مقاييس تختلف تماماً عن مقاييسنا نحن البشر.

ولقد ضلّ في هذا المجال مشركو العرب الذين كانوا يزعمون أن الملائكة إناث، واختلطت هذه المقولة المجافية للحقيقة عندهم بخرافة أعظم وأكبر ؛ إذ زعموا أن هؤلاء الإناث بنات الله.

وناقشهم القرآن في هاتين القضيتين، فبين أنهم - فيما ذهبوا إليه - لم يعتمدوا على دليل صحيح، وأن هذا القول قول متهافت، ومن عجب أنهم ينسبون لله البنات، وهم يكرهون البنات، وعندما يبشر أحدهم بأنه رزق بنتاً يظل وجهه مسوداً وهو كظيم، وقد يتوارى من الناس خجلاً من سوء ما بُشر به، وقد يتعدى هذا المأفون طوره، فيدس هذه المولودة في التراب، ومع ذلك كله ينسبون لله الولد، ويزعمون أنهم إناث، وهكذا تنشأ الخرافة، وتتفرع في عقول الذين لا يتصلون بالنور الإلهي.

استمع إلى الآيات التالية تحكي هذه الخرافة وتناقش أصحابها: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ * أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ * أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴾ [الصافات: ١٤٩-١٥٦].

وقد جعل الله قولهم هذا شهادة سيحاسبهم عليها، فإن من أعظم الذنوب القول على الله بغير علم: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف: ١٩][1].

(١) ومن هنا يجب أن يحذر المسلم في أن يتقول في مثل هذه الأمور بلا علم، فهؤلاء الذين يزعمون =

سادساً: لا يأكلون ولا يشربون:

أشرنا من قبل أنهم لا يوصفون بالذكورة والأنوثة، وكذلك هم لا يحتاجون إلى طعام البشر وشرابهم، فقد أخبرنا الله أن الملائكة جاؤوا إبراهيم في صورة بشر، فقدّم لهم الطعام، فلم تمتد أيديهم إليه، فأوجس منهم خيفة، فكشفوا له عن حقيقتهم، فزال خوفه واستغرابه: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٤-٢٨].

وفي آية أخرى قال: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٠].

ونقل السيوطي عن الفخر الرازي: أن العلماء اتفقوا على أن الملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولا يتناكحون[1].

سابعاً: لا يملّون ولا يتعبون:

والملائكة يقومون بعبادة الله وطاعته وتنفيذ أوامره، بلا كلل ولا ملل، ولا يدركهم ما يدرك البشر من ذلك، قال تعالى في وصف ملائكته: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠].

ومعنى لا يفترون: لا يضعفون. وفي الآية الأخرى: ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ

= أن أصل الإنسان حيوان: قرد، أو غيره، يقال لهم القول نفسه: ﴿أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ﴾، والله يقول: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف: ٥١].

(١) الحبائك في أخبار الملائك: ص٢٦٤.

رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩﴾ [فصلت:٣٨] تقول العرب: سئم الشيء، أي: ملّه.

وقد استدل السيوطي بقوله: ﴿لَا يَفْتُرُونَ﴾ على أن الملائكة لا ينامون، ونقله عن الفخر الرازي[1].

ثامناً: منازل الملائكة:

منازل الملائكة ومساكنها السماء، كما قال تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى:٥]

وقد وصفهم الله تعالى بأنهم عنده: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩﴾ [فصلت:٣٨].

وينزلون إلى الأرض بأمر الله لتنفيذ مهمات نيطت بهم، ووكلت إليهم: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم:٦٤]. ويكثر نزولهم في مناسبات خاصة كليلة القدر: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر:٣-٤].

تاسعاً: أعداد الملائكة:

الملائكة خلق كثير لا يعلم عددهم إلا الذي خلقهم: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:٣١].

وإذا أردت أن تعلم كثرتهم، فاسمع ما قاله جبريل عن البيت المعمور،

---

(١) الحبائك في أخبار الملائك: ص٢٦٤.

عندما سأله الرسول ﷺ عنه عندما بلغه في الإسراء: (هذا البيت المعمور يصلي فيه في كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه آخر ما عليهم)[1].

وفي صحيح مسلم عن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: (يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها)[2]. فعلى ذلك فإن الذين يأتون بجهنم يوم القيامة أربعة مليارات وتسعمائة مليون ملك.

وإذا تأملت النصوص الواردة في الملائكة التي تقوم على الإنسان علمت مدى كثرتهم، فهناك ملك موكل بالنطفة، وملكان لكتابة أعمال كل إنسان، وملائكة لحفظه، وقرين ملكي لهدايته وإرشاده.

عاشراً: أسماء الملائكة:

للملائكة أسماء، ونحن لا نعرف من أسماء الملائكة إلا القليل، وإليك الآيات التي ورد فيها أسماء بعض الملائكة:

١، ٢ - جبريل وميكائيل:

قال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ * مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٧-٩٨].

وجبريل هو الروح الأمين المذكور في قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ

---

(١) رواه البخاري: ٦/ ١٠٣. ورقمه: ٣٢٠٧. ورواه مسلم: ١/ ١٤٦. ورقمه: ١٦٢. واللفظ للبخاري.

(٢) صحيح مسلم: ٤/ ٢١٨٤. ورقمه: ٢٨٤٢.

* عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤].

وهو الروح المعني في قوله: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ [القدر: ٤].

وهو الروح الذي أرسله إلى مريم: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾[مريم: ١٧].

٣- إسرافيل:

ومن الملائكة إسرافيل الذي ينفخ في الصور.

وجبريل وميكائيل وإسرافيل هم الذين كان يذكرهم الرسول ﷺ، في دعائه عندما يستفتح صلاته من الليل: (اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحقّ بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم)[1].

٤ - مالك:

ومنهم مالك خازن النار: ﴿ وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

٥- رضوان:

قال ابن كثير: «وخازن الجنّة ملك يقال له رضوان، جاء مصرحاً به في بعض الأحاديث»[2].

---

(١) رواه مسلم عن عائشة أم المؤمنين: ١/ ٥٣٤. ورقمه: ٧٧٠.

(٢) البداية والنهاية: ١/ ٥٣.

٦، ٧ - منكر ونكير:

ومن الملائكة الذين سماهم الرسول ﷺ منكر ونكير، وقد استفاض في الأحاديث ذكرهما في سؤال القبر.

٨، ٩ - هاروت وماروت:

ومنهم ملكان سماهما الله باسم (هاروت وماروت) قال تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢].

ويبدو من سياق الآية أن الله بعثهما فتنة للناس في فترة من الفترات، وقد نُسجت حولهما في كتب التفسير وكتب التاريخ أساطير كثيرة، لم يثبت شيء منها في الكتاب والسنة، فيكتفى في معرفة أمرهما بما دلت عليه الآية الكريمة.

عزرائيل:

وقد جاء في بعض الآثار تسمية ملك الموت باسم عزرائيل، ولا وجود لهذا الاسم في القرآن، ولا في الأحاديث الصحيحة[1].

رقيب وعتيد:

يذكر بعض العلماء أن من الملائكة من اسمه رقيب وعتيد، استدلالاً

(١) البداية والنهاية: ١/ ٥٠.

بقوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧-١٨].

وما ذكروه غير صحيح، فالرقيب والعتيد هنا وصفان للملكين اللذين يسجلان أعمال العباد، ومعنى رقيب وعتيد ؛ أي: ملكان حاضران شاهدان، لا يغيبان عن العبد، وليس المراد أنهما اسمان للملكين.

الحادي عشر: موت الملائكة:

الملائكة يموتون كما يموت الإنس والجن، وقد جاء ذلك صريحاً في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

فالملائكة تشملهم الآية ؛ لأنهم في السماء، يقول ابن كثير عند تفسيره هذه الآية: «هذه هي النفخة الثانية، وهي نفخة الصعق، وهي التي يموت بها الأحياء من أهل السموات والأرض إلا من شاء الله، كما جاء مصرحاً به مفسراً في حديث الصور المشهور، ثم يقبض أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت، وينفرد الحي القيوم، الذي كان أولاً، وهو الباقي آخراً بالديمومة والبقاء، ويقول: لمن الملك اليوم؟ ثلاث مرات، ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]».

ومما يدلّ على أنهم يموتون قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]

وهل يموت أحد منهم قبل نفخة الصور؟ هذا ما لا نعلمه، ولا نستطيع الخوض فيه ؛ لعدم وجود النصوص المثبتة له أو النافية.

المبحث الثاني
الصفات الخُلُقية

الملائكة كرام بررة:

وصف الله الملائكة بأنهم كرام بررة: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٥-١٦]؛ أي القرآن بأيدي سفرة، أي: الملائكة؛ لأنهم سفراء الله إلى رسله وأنبيائه، قال البخاري: «سفرة: الملائكة واحدهم سافر، سفرتُ: أصلحت بينهم، وجعلت الملائكة - إذا نزلت بوحي الله تعالى وتأديته - كالسفير الذي يصلح بين القوم»[(١)].

وقد وصف الله تعالى هؤلاء الملائكة بأنهم ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾؛ أي: خلقهم كريم حسن شريف، وأخلاقهم وأفعالهم بارة طاهرة كاملة، ومن هنا ينبغي لحامل القرآن أن يكون في أفعاله وأقواله على السداد والرشاد.

روى البخاري عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ: (مثل الذي يقرأ القرآن وهو حافظ له مع السفرة الكرام، ومثل الذي يقرأ القرآن وهو يتعاهده، وهو عليه شديد، فله أجران)[(٢)].

---

(١) صحيح البخاري: ٨/ ٦٩١.

(٢) صحيح البخاري: ٨/ ٦٩١. ورقمه: ٤٩٣٧. ورواه مسلم: ١/ ٥٤٩. ورقمه: ٧٩٨، واللفظ للبخاري.

استحياء الملائكة:

من أخلاق الملائكة التي أخبرنا الرسول ﷺ بها: الحياء؛ ففي الحديث الذي يرويه مسلم في صحيحه عن عائشة: أن الرسول ﷺ كان مضطجعاً في بيتها، كاشفاً عن فخذيه أو ساقيه، فاستأذن أبو بكر، فأذن له وهو على تلك الحال، فتحدث، ثمّ استأذن عمر، فأذن له وهو كذلك، فتحدث، ثم استأذن عثمان، فجلس الرسول ﷺ وسوّى ثيابه، فدخل، فتحدث، فلما خرج قالت عائشة: دخل أبو بكر، فلم تهتش له، ولم تُبَالِه، ثم دخل عمر، فلم تهتش له ولم تباله، ثم دخل عثمان، فجلست، وسويت ثيابك، فقال: (ألا استحيي من رجل تستحيي منه الملائكة)[1].

وقولها: لم تهتش له: الهشاشة والبشاشة: طلاقة الوجه، وحسن اللقاء.

وقولها: لم تباله: لم تحتفل به.

---

(١) رواه مسلم: ٤/١٨٦٦. ورقمه: ٢٤٠١.

المبحث الثالث
قدراتهم

١ - قدرتهم على التشكل:

أعطى الله الملائكة القدرة على أن يتشكلوا بغير أشكالهم، فقد أرسل الله جبريل إلى مريم في صورة بشر: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٦-١٩].

وإبراهيم - عليه السلام - جاءته الملائكة في صورة بشر، ولم يعرف أنهم ملائكة حتى كشفوا له عن حقيقة أمرهم، ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ * فَلَمَّا رَأَىٰٓ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٦٩-٧٠].

وجاؤوا إلى لوط في صورة شباب حسان الوجوه، وضاق لوط بهم، وخشي عليهم قومه، فقد كانوا قوم سوء يفعلون السيئات، ويأتون الذكران من العالمين: ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: ٧٧].

يقول ابن كثير: «تبدى لهم الملائكة في صورة شباب حسان امتحاناً

واختباراً حتى قامت على قوم لوط الحجة، وأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر»[1].

وقد كان جبريل يأتي الرسول ﷺ في صفات متعددة، فتارة يأتي في صورة دحية بن خليفة الكلبي (صحابي كان جميل الصورة)، وتارة في صورة أعرابي.

وقد شاهده كثير من الصحابة عندما كان يأتي كذلك.

في الصحيحين عن عمر بن الخطاب قال: «بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ، وأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام». وفي الحديث أنه سأله عن الإيمان والإحسان والساعة وأمارتها[2].

وقد أخبر الرسول ﷺ فيما بعد أن السائل جبريل، جاء يعلم الصحابة دينهم.

ورأت عائشة الرسول ﷺ واضعاً يده على معرفة فرس دحية الكلبي يكلمه، فلما سألته عن ذلك، قال ﷺ: (ذلك جبريل، وهو يقرئك السلام)[3].

---

(١) البداية والنهاية: ١/ ٤٣.

(٢) رواه مسلم: ١/ ٣٧. ورقمه: ٨. ورواه البخاري عن أبي هريرة: ١/ ١١٤. ورقمه: ٤٩. واللفظ لمسلم.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، وابن سعد في الطبقات، بإسناد حسن.
وحديث إقراء جبريل عائشة السلام من غير رؤيتها له، رواه البخاري في صحيحه: ٦/ ٣٠٥. ورقمه: ٣٢١٧. ورواه أيضاً: ٧/ ١٠٦. ورقمه: ٣٧٦٨.

وقد حدثنا الرسول ﷺ عن الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفساً، وأنه لما هاجر تائباً جاءه الموت في منتصف الطريق إلى الأرض التي هاجر إليها، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فحكّموا فيه ملكاً جاءَهم في صورة آدمي، يقول عليه السلام: (فأتاهم ملك في صورة آدمي، فجعلوه بينهم، فقال: قيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له)، ولا بدّ أنهم حكموه بأمر الله، فأرسل الله لهم هذا الملك في صورة آدمي، والقصة في صحيح مسلم، في باب التوبة[1].

وسيأتي في قصة الثلاثة الذين ابتلاهم الله من بني إسرائيل الأبرص والأقرع والأعمى، وأن الملك تشكل لهم بصورة بشر.

وقد خاض بعض أهل العلم في كيفية تشكل الملائكة بنظرة عقلية مجردة، فجاؤوا بكلام غث، وما كان أغناهم عن الخوض في هذا المبحث الغيبي، فالله أعلمنا بتشكلهم، ولم يعلمنا بكيفية ذلك، وكان يسع هؤلاء ما وسع رسول الله وأصحابه من بعده، فيقفوا حيث وقفوا، وإن شئت أن ترى شيئاً من كلام من تكلم في هذا الموضوع، فارجع إلى كتاب السيوطي: (الحبائك في أخبار الملائك)[2].

٢ - عظم سرعتهم:

أعظم سرعة يعرفها البشر هي سرعة الضوء، فهو ينطلق بسرعة (١٨٦) ألف ميل في الثانية الواحدة.

---

(١) صحيح مسلم: ٤/٢١١٨. ورقمه: ٢٧٦٦.

(٢) ص: ٢٦١.

أمّا سرعة الملائكة فهي فوق ذلك، وهي سرعة لا تقاس بمقاييس البشر، كان السائل يأتي إلى الرسول ﷺ فلا يكاد يفرغ من سؤاله حتى يأتيه جبريل بالجواب من ربّ العزة سبحانه وتعالى، واليوم لو وُجدت المراكب التي تسير بسرعة الضوء، فإنها تحتاج إلى (مليار) سنة ضوئية حتى تبلغ بعض الكواكب الموجودة في آفاق هذا الكون الواسع الشاسع.

٣ - علمهم:

والملائكة عندهم علم وفير علّمهم الله إيّاه، ولكن ليس عندهم القدرة التي أعطيت للإنسان في التعرف على الأشياء: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣١-٣٢].

فالإنسان يتميز بالقدرة على التعرف على الأشياء، واكتشاف سنن الكون، والملائكة يعلمون ذلك بالتلقي المباشر عن الله سبحانه وتعالى.

ولكنّ الذي علمهم الله إياه أكثر مما يعرفه الإنسان، ومن العلم الذي أعطوه علم الكتابة: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ * كِرَامًا كَٰتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢].

وسيأتي إيضاح هذا في مبحث (الملائكة والإنسان).

اختصام الملأ الأعلى:

والملائكة تتحاور فيما بينها فيما خفي عليها من وحي ربها، ففي سنن الترمذي، ومسند أحمد عن ابن عباس: أن الرسول ﷺ قال: (أتاني الليلة

ربي - تبارك وتعالى - في أحسن صورة - قال: أحسبه قال: في المنام - فقال: يا محمد، هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قال: قلت: لا. قال: فوضع يده بين كتفيّ، حتى وجدت بردها بين ثدييّ، فعلمت ما في السموات، وما في الأرض.

فقال: يا محمد! هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: نعم، في الكفارات والدرجات، والكفارات: المكث في المساجد بعد الصلاة، والمشي على الأقدام إلى الجماعات، وإسباغ الوضوء في المكاره، والدرجات: إفشاء السلام، وإطعام الطعام، والصلاة بالليل والناس نيام.

قال: صدقت، ومن فعل ذلك عاش بخير، ومات بخير، وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه.

وقال: يا محمد، إذا صليت فقل: اللهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحبّ المساكين، وأن تغفر لي، وترحمني، وتتوب عليّ، وإذا أردت بعبادك فتنة، فاقبضني إليك غير مفتون)[1].

قال ابن كثير في هذا الحديث بعد ذكره له: «هذا حديث المنام المشهور، ومن جعله يقظة فقد غلط، وهو في السنن من طرق، وهذا الحديث رواه الترمذي من حديث جهضم بن عبد الله اليمامي به.

وقال الحسن: صحيح، وليس هذا الاختصام هو الاختصام المذكور في القرآن في قوله: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ * إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [ص: ٦٩-٧٠].

---

(١) صحيح سنن الترمذي: ٣/٩. ورقمه: ٢٥٨٠، ٢٥٨١.

فإن الاختصام المذكور في الحديث، قد فسره الرسول ﷺ.

والاختصام المذكور في القرآن فسرته الآيات بعده: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ * فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [ص: ٧١-٧٤].

فالاختصام المذكور في القرآن كان في شأن آدم - عليه السلام - وامتناع إبليس من السجود له، ومحاجته ربّه في تفضيله عليه»[(١)].

٤ - منظمون في كل شؤونهم:

الملائكة منظمون في عبادتهم، وقد حثنا الرسول ﷺ على الاقتداء بهم في ذلك فقال: (ألا تصفّون كما تصفّ الملائكة عند ربها)؟ قالوا: يا رسول الله، وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: (يتمون الصفوف، ويتراصون في الصف)[(٢)].

وفي يوم القيامة يأتون صفوفاً منتظمة: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]، ويقفون صفوفاً بين يدي الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨]، والروح: جبريل.

وانظر إلى دقة تنفيذهم للأوامر، ففي صحيح مسلم، ومسند أحمد عن أنس رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: (آتي باب الجنة فأستفتح، فيقول

---

(١) راجع تفسير ابن كثير: ٦/ ٧٣-٧٤.

(٢) رواه مسلم: ١/ ٣٢٢. ورقمه: ٤٣٠.

الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك)[1].

ويمكن أن نلاحظ دقة تنفيذهم للأوامر من استعراض حديث الإسراء؛ إذ كان جبريل يستأذن في كل سماء، ولا يُفْتَحُ له إلا بعد الاستفسار.

٥ - عصمة الملائكة:

نقل السيوطي عن القاضي عياض: أن المسلمين أجمعوا على أن الملائكة مؤمنون فضلاء، واتفق أئمة المسلمين أن حكم المرسلين منهم حكم النبيين سواء في العصمة مما ذكرنا عصمتهم منه، وأنهم في حقوق الأنبياء والتبليغ إليهم كالأنبياء مع الأمم.

واختلفوا في غير المرسلين منهم، فذهب طائفة إلى عصمتهم جميعاً عن المعاصي، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وبقوله: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ * وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ * وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: ١٦٤-١٦٦]، وبقوله: ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ﴾ الآية [الأنبياء: ١٩]، وقوله: ﴿كِرَامِۭ بَرَرَةٖ﴾ [عبس: ١٦]، وقوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩] ونحوه من السمعيات.

وذهبت طائفة إلى أن هذا خصوص للمرسلين منهم والمقربين، واحتجوا بقصة هاروت وماروت وقصة إبليس، والصواب عصمتهم جميعاً

---

(١) صحيح مسلم: ١/١٨٨. ورقمه: ١٩٧.

وتنزيه جنابهم الرفيع عن جميع ما يحط من رتبهم وينزلهم عن جليل مقدارهم.

قال: والجواب عن قصة هاروت وماروت أنها لم يرو فيها شيء لا سقيم ولا صحيح عن رسول الله ﷺ، وعن قصة إبليس أن الأكثر ينفون أنه من الملائكة ويقولون: إنه أبو الجن، كما أن آدم أبو البشر، انتهى»[1].

وتعرض لهذه المسألة الصفوي الأرموي فيما نقله عنه السيوطي فقال: «الملائكة معصومون، والدليل عليه من وجوه:

أحدهما: قوله تعالى في وصفهم: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦] وقوله تعالى: ﴿وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٧] وهما يتناولان فعل المأمورات وترك المنهيات؛ لأن النهي أمر بالترك، ولأنه سيق في معرض التمدح، وهو إنما يحصل بمجموعها.

وثانيها: قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:٢٠]، وهو يفيد المبالغة التامة في الاشتغال بالعبادة، وهو يفيد المطلوب.

وثالثها: الملائكة رسل الله لقوله تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر:١] والرسل معصومون؛ لأنه قال في تعظيمهم: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤]، وهو يفيد المبالغة التامة في التعظيم»[2].

---

(١) الحبائك في أخبار الملائك، للسيوطي: ص٢٥٢.

(٢) الحبائك في أخبار الملائك: ص٢٥٣.

الفصل الثاني

عبادة الملائكة

نظرة في طبيعة الملائكة:

الملائكة مطبوعون على طاعة الله، ليس لديهم القدرة على العصيان: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

فتركهم للمعصية، وفعلهم للطاعة جبلّة، لا يكلفهم أدنى مجاهدة ؛ لأنه لا شهوة لهم.

ولعلّ هذا هو السبب الذي دعا فريقاً من العلماء إلى القول: إن الملائكة ليسوا بمكلفين، وإنهم ليسوا بداخلين في الوعد والوعيد[1].

ويمكن أن نقول: إن الملائكة ليسوا بمكلفين بالتكاليف نفسها التي كلف بها أبناء آدم. أما القول بعدم تكليفهم مطلقاً، فهو قول مردود، فهم مأمورون بالعبادة والطاعة: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩﴾ [النحل: ٥٠]. وفي الآية أنهم يخافون ربهم، والخوف نوع من التكاليف الشرعية، بل هو من أعلى أنواع العبودية، كما قال فيهم: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

---

(١) لوامع الأنوار البهية: ٢/ ٤٠٩.

مكانة الملائكة:

خير ما يوصف به الملائكة أنهم عباد الله، ولكنهم عباد مكرمون، وقد سبق أن أشرنا إلى أن دعوى المشركين في أنّ الملائكة - بنات الله - دعوى باطلة، لا نصيب لها من الصحة، وقد أكذب الله القائلين بهذا القول، وبين حقيقة الملائكة ومكانتهم في أكثر من موضع، قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ * ﴾ ﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٩].

الملائكة عباد يتصفون بكل صفات العبودية، قائمون بالخدمة، منفذون للتعاليم، وعلم الله بهم محيط، لا يستطيعون أن يتجاوزوا الأوامر، ولا أن يخالفوا التعليمات الملقاة إليهم، خائفون وجلون. وعلى احتمال أن بعضهم تعدى طوره، فإن الله يعذبه جزاء تمرده.

ومن تمام عبودية الملائكة أنهم لا يتقدمون بين يدي ربهم مقترحين، ولا يعترضون على أمر من أوامره، بل هم عاملون بأمره، مسارعون مجيبون: ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٧]، وهم لا يفعلون إلا ما يؤمرون به، فالأمر يحركهم، والأمر يوقفهم، ففي صحيح البخاري عن ابن عباس[1] قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: (ألا تزورنا أكثر مما تزورنا؟) قال: فنزلت: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤].

---

(١) صحيح البخاري: ٦/ ٣٠٥. ورقمه: ٣٢١٨.

نماذج من عبادتهم:

الملائكة عباد الله، مكلفون بطاعته، وهم يقومون بالعبادة والتكاليف بيسر وسهولة. وسنورد - هنا - بعض العبادات التي حدثنا الله، أو رسوله ﷺ أنهم يقومون بها.

١- التسبيح: الملائكة يذكرون الله تعالى، وأعظم ذكره التسبيح، يسبحه تعالى حملة عرشه: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [غافر: ٧]، كما يسبحه عموم ملائكته: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ٥].

وتسبيحهم لله دائم لا ينقطع، لا في الليل، ولا في النهار: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠].

ولكثرة تسبيحهم فإنهم هم المسبحون في الحقيقة، وحق لهم أن يفخروا بذلك: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: ١٦٥-١٦٦].

وما كثرة تسبيحهم إلا لأن التسبيح أفضل الذكر، روى مسلم في صحيحه عن أبي ذر، قال: سئل رسول الله ﷺ أي الذكر أفضل ؟ قال: (ما اصطفى الله لملائكته أو لعباده: سبحان الله وبحمده)[1].

٢ - **الاصطفاف**: سبق ذكر الحديث الذي يحث الرسول ﷺ فيه أصحابه على الاقتداء بالملائكة في الاصطفاف للصلاة: (ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها؟). وعندما سئل عن كيفية اصطفافهم قال:

---

(١) صحيح مسلم: ٤/ ٢٠٩٣. ورقمه: ٢٧٣١.

(يتمون الصفوف، ويتراصون في الصف). رواه مسلم[1].

وفي القرآن عن الملائكة: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ [الصافات: ١٦٥]. وهم يقومون، ويركعون، ويسجدون، ففي مشكل الآثار للطحاوي، وفي المعجم الكبير للطبراني عن حكيم بن حزام قال:

«بينما رسول الله ﷺ في أصحابه إذ قال لهم: (أتسمعون ما أسمع؟). قالوا: ما نسمع من شيء، قال: (إني لأسمع أطيط السماء، وما تلام أن تئط، ما فيها موضع شبر إلا عليه ملك ساجد أو قائم)[2].

٣ - **الحج**: للملائكة كعبة في السماء السابعة يحجون إليها، هذه الكعبة هي التي أسماها الله تعالى: البيت المعمور، وأقسم به في سورة الطور: ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾ [الطور: ٤].

قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: «ثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال في حديث الإسراء، بعد مجاوزته السماء السابعة: (ثمّ رفع بي إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفاً، لا يعودون إليه آخر ما عليهم)[3]؛ يعني يتعبدون فيه، ويطوفون به كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم، والبيت المعمور هو كعبة أهل السماء السابعة، ولهذا وَجَد إبراهيمَ الخليل - عليه الصلاة والسلام - مسنداً ظهره إلى البيت المعمور؛ لأنه باني الكعبة الأرضية، والجزاء من جنس العمل».

---

(١) صحيح مسلم: ١/ ٣٢٢. ورقمه: ٤٣٠.

(٢) قال فيه الألباني: (صحيح على شرط مسلم). سلسلة الأحاديث الصحيحة: حديث رقم: ٨٥٢.

(٣) صحيح البخاري: ٦/ ١٠٣. ورقمه: ٣٢٠٧. وصحيح مسلم: ١/ ١٤٦. ورقمه: ١٦٢. وفي اللفظ بعض الاختلاف عما هو في الصحيحين.

وذكر ابن كثير أن البيت المعمور بحيال الكعبة، أي فوقها، لو وقع لوقع عليها، وذكر أن في كل سماء بيتا يتعبد فيه أهلها، ويصلون إليه، والذي في السماء الدنيا يقال له: بيت العزة.

وهذا الذي ذكره ابن كثير من أن البيت المعمور بحيال الكعبة مروي عن علي بن أبي طالب، أخرج ابن جرير من طريق خالد بن عرعرة: أن رجلاً قال لعلي - رضي الله عنه -: ما البيت المعمور؟ قال: «بيت في السماء بحيال البيت، حرمة هذا في السماء كحرمة هذا في الأرض، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ولا يعودون إليه»[1].

قال فيه الشيخ ناصر الدين الألباني[2]: ورجاله ثقات غير خالد بن عرعرة وهو مستور... ثم ذكر أن له شاهداً مرسلاً صحيحاً من رواية قتادة، قال: ذكر لنا أن النبي ﷺ قال يوماً لأصحابه: (هل تدرون ما البيت المعمور؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه مسجد في السماء، تحته الكعبة، لو خرّ لخر عليها...).

ثم قال المحقق (الألباني): «وجملة القول أن هذه الزيادة (حيال الكعبة) ثابتة بمجموع طرقها».

٤- **خوفهم من الله وخشيتهم له**: ولما كانت معرفة الملائكة بربهم كبيرة، كان تعظيمهم له، وخشيتهم له، عظيمة، قال الله فيهم: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

---

(١) نقله عن الطبري وإسحاق: ابن حجر في فتح الباري: ٦/ ٣٠٨، وأطال في الكلام على إسناده وطرقه.

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة: ١/ ٢٣٦.

ويبين شدة خوفهم من ربهم ما رواه البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كالسلسلة على صفوان).

قال علي، وقال غيره: «صفوان ينفذهم ذلك. فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحق، وهو العلي الكبير»[1].

وفي معجم الطبراني الأوسط بإسناد حسن عن جابر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: (مررت ليلة أُسري بي بالملأ الأعلى، وجبريل كالحلس البالي من خشية الله تعالى)[2].

«والحلس: كساء يبسط في أرض البيت».

---

(١) صحيح البخاري: ٣/ ٣٨٠. ورقمه: ٤٧٠١.

(٢) صحيح الجامع: ٥/ ٢٠٦.

الفصل الثالث
الملائكة والإنسان

المبحث الأول
الملائكة وآدم

سؤالهم عن الحكمة من خلق الإنسان:

عندما أراد الله سبحانه أن يخلق آدم أعلم ملائكته بمراده، فسألوه عن الحكمة من وراء ذلك؛ لأنهم علموا أنه سيقع من بني آدم إفساد، وسفك دماء، وعصيان، وكفر، فأخبرهم سبحانه، أن من وراء خلقه لآدم حِكَماً لا يعلمونها: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

سجودهم له عند خلقه:

أمر الله ملائكته بالسجود لآدم حين يتمّ خلقه، وتنفخ فيه الروح: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص: ٧١-٧٢].

وقد استجابوا لأمر الله إلا إبليس: ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [ص: ٧٣-٧٤][1].

توجيه الملائكة لآدم:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (خلق الله آدم على صورته، طوله ستون ذراعاً، فلما خلقه قال: اذهب فسلم على أولئك، نفر من الملائكة جلوس، فاستمع ما يحيونك، فإنها تحيتك وتحيّة ذريتك، فقال: السلام عليكم. فقالوا: السلام عليك ورحمة الله (فزادوه ورحمة الله)[2].

غسل الملائكة آدم عند موته:

عندما توفي آدم لم يعرف أولاده كيف يفعلون به، فأعلمتهم الملائكة، ففي مستدرك الحاكم، ومعجم الطبراني الأوسط، بإسناد صحيح، عن أبيّ رضي الله عنه عن النبي ﷺ: (لما توفي آدم غسلته الملائكة بالماء وتراً، وألحدوا له، وقالوا: هذه سنة آدم في ولده)[3].

وقد ثبت في صحاح الأحاديث أن الملائكة غسلت شهيداً من هذه

---

(١) هذه الآية ظاهرة الدلالة في أن الملائكة جميعاً سجدوا لآدم، وفي هذا ردٌّ على الذين قالوا إن الذين سجدوا هم جزء من الملائكة، أو أنهم ملائكة الأرض فحسب، والأثر الوارد في أنهم ملائكة الأرض المنسوب إلى ابن عباس فيه نكارة وانقطاع. ويرى ابن تيمية أن الآية نص لا يحتمل التأويل، ولا يجوز مخالفتها.

(٢) صحيح البخاري: ١١/ ٣. ورقمه: ٦٢٢٧. ورواه مسلم: ٤/ ٢١٨٤. ورقمه: ٢٨٤١.

(٣) صحيح الجامع: ٥/ ٤٨.

الأمّة هو حنظلة بن أبي عامر، الذي استشهد في معركة أحد، فقد قال الرسول ﷺ لأصحابه بعد مقتل حنظلة: (إنّ صاحبكم تغسله الملائكة، يعني حنظلة)، فسأل الصحابة زوجته، فقالت: إنّه خرج لما سمع الهائعة وهو جنب. فقال رسول الله ﷺ: (لذلك غسلته الملائكة).

رواه الحاكم والبيهقي وإسناده حسن، وقد ذكر ابن عساكر بإسناد صحيح: أنّ الأوس افتخروا بأن منهم غسيل الملائكة: حنظلة بن الراهب[1].

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة: حديث رقم: ٣٢٦.

المبحث الثاني
الملائكة وبني آدم

علاقة الملائكة بذرية آدم علاقة وثيقة، فهم يقومون عليه عند خلقه، ويُكَلَّفون بحفظه بعد خروجه إلى الحياة، ويأتونه بالوحي من الله، ويراقبون أعماله وتصرفاته، وينزعون روحه إذا جاء أجله.

المطلب الأول: دورهم في تكوين الإنسان

روى مسلم في صحيحه عن أبي ذر، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إذا مرّ بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة، بعث الله إليها ملكاً، فصورها، وخلق سمعها وبصرها، وجلدها ولحمها وعظامها، ثمّ قال: أي ربّ: أذكر أم أنثى؟ فيقضي ربك ما شاء ويكتب الملك)[1].

وعن ابن مسعود، قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق قال: (إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثمّ يكون علقة مثل ذلك، ثمّ يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه ملكاً يؤمر بأربع كلمات، ويقال له: اكتب عمله ورزقه، وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح)[2].

---

(١) صحيح مسلم: ٤/ ٢٠٣٧. ورقمه: ٢٦٤٥.

(٢) رواه البخاري: ٦/ ٣٠٣. ورقمه: ٣٢٠٨. ورواه مسلم: ٤/ ٢٠٣٦. ورقمه: ٢٦٤٣.

وفي الصحيحين أيضاً، عن أنس عن النبي ﷺ قال: (وكّل الله بالرحم ملكاً، فيقول: أي ربّ نطفة، أي ربّ عَلَقَة، أي ربّ مضغة، فإذا أراد الله أن يقضي خَلْقَها قال: أي ربّ ذكر أم أنثى؟ أشقيّ أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيكتب كذلك في بطن أمه)[1].

المطلب الثاني: حراستهم لابن آدم

قال تعالى: ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ * لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الرعد: ١٠-١١].

وقد بين ترجمان القرآن ابن عباس أن المعقبات من الله هم الملائكة جعلهم الله ليحفظوا الإنسان من أمامه ومن ورائه، فإذا جاء قدر الله - الذي قدّر أن يصل إليه - خلوا عنه.

وقال مجاهد: «ما من عبد إلا له ملك موكل بحفظه في نومه ويقظته من الجنّ والإنس والهوام، فما منها شيء يأتيه إلا قال له الملك وراءك، إلا شيء أذن الله فيه فيصيبه».

وقال رجل لعلي بن أبي طالب: «إن نفراً من مراد يريدون قتلك، فقال (أي علي): إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدّر، فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه، إن الأجل جنّة حصينة»[2].

---

(١) رواه البخاري: ١١/ ٤٧٧. ورقمه: ٦٥٩٥. ورواه مسلم: ٤/ ٢٠٣٨. ورقمه: ٢٦٤٦. واللفظ للبخاري.

(٢) راجع البداية والنهاية: ١/ ٥٤.

والمعقبات المذكورة في آية الرعد هي المرادة بالآية الأخرى: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١]، فالحفظة الذين يرسلهم الله يحفظون العبد حتى يأتي أجله المقدر له.

المطلب الثالث: سفراء الله إلى رسله وأنبيائه

وقد أعلمنا الله أن جبريل يختص بهذه المهمة: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [البقرة: ٩٧].

وقال: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤].

وقد يأتي بالوحي غير جبريل - وهذا قليل - كما في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن ابن عباس قال: (بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضاً من فوقه، فرفع رأسه، فقال: هذا باب من السماء فتح اليوم، لم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قطّ إلا اليوم، فسلّم، وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته)[1].

وفي التاريخ لابن عساكر عن حذيفة: أن رسول الله ﷺ قال: (أتاني ملك فسلم عليّ - نزل من السماء،لم ينزل قبلها - فبشرني أن الحسن

(١) صحيح مسلم: ١/ ٥٥٤. ورقمه: ٨٠٦.

والحسين سيدا شباب أهل الجنّة، وأن فاطمة سيدة نساء أهل الجنّة)[1].

وفي مسند أحمد وسنن النسائي عن حذيفة: أن الرسول ﷺ قال: (أما رأيت العارض الذي عرض لي قبيل؟) قال: قلت: بلى، قال: (فهو ملك من الملائكة لم يهبط الأرض قبل هذه الليلة، فاستأذن ربه أن يسلم عليّ، ويبشرني أن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنّة، وأن فاطمة سيّدة نساء أهل الجنة)[2].

ليس كل من جاءه ملك فهو رسول أو نبي:

ليس كل من جاءه ملك يعدّ رسولاً أو نبياً، فهذا وَهْم، فالله قد أرسل جبريل إلى مريم، كما أرسله إلى أم إسماعيل عندما نفد الماء والطعام منها.

ورأى الصحابة جبريل في صورة أعرابي، وأرسل الله ملكاً إلى ذلك الرجل الذي زار أخاً له في الله يبشره بأن الله يحبه لحبه لأخيه...، وهذا كثير وإنما المراد التنبيه.

كيف كان يأتي الوحي الرسول ﷺ:

في صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها: أن الحارث بن هشام -رضي الله عنه- سأل الرسول ﷺ، فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟

---

(١) صحيح الجامع: ١/ ٨٠.

(٢) مسند أحمد: ٥/ ٣٩١، واللفظ له. وصحيح سنن النسائي: ٣/ ٢٢٦. ورقمه: ٢٩٧٥.

فقال الرسول ﷺ: (أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشدّه عليّ، فيُفصَم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً، فيكلمني، فأعي ما يقول)[1].

فجبريل كان يأتي الرسول ﷺ وهو في حالته الملكية، وهذه شديدة على الرسول ﷺ، والحالة الثانية كان جبريل ينتقل من حالته الملكية إلى البشرية، وهذه أخف على الرسول ﷺ.

وقد رأى الرسول ﷺ جبريل على صورته التي خلقه الله عليها مرتين:

الأولى: بعد البعثة بثلاث سنوات؛ ففي صحيح البخاري عن جابر ابن عبد الله: أن الرسول ﷺ قال: (بينما أنا أمشي، إذ سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه، فرجعت، فقلت: زملوني)[2].

والثانية: عندما عرج به إلى السماء.

وهاتان المرتان مذكورتان في سورة النجم في قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ * مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ * أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ * وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ * عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ * إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ * مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ٥-١٧].

---

(١) صحيح البخاري: ١/١٨. ورقمه: ٢.

(٢) صحيح البخاري: ١/٢٧. ورقمه: ٤.

لا تقتصر مهمة جبريل على تبليغ الوحي:

لم تقتصر مهمة جبريل على تبليغ الوحي من الله تعالى، فقد كان يأتيه في كل عام في رمضان في كل ليلة من لياليه، فيدارسه القرآن. والحديث أورده البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال: «كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة في رمضان، فيدارسه القرآن، فلرسول الله أجود بالخير من الريح المرسلة»[1].

إمامته للرسول:

وقد أمّ جبريلُ الرسول ﷺ؛ كي يعلمه الصلاة كما يريدها الله تعالى، ففي صحيح البخاري وسنن النسائي عن أبي مسعود: أن الرسول ﷺ قال: (نزل جبريل فأمني فصليت معه، ثم صليت معه، ثم صليت معه، ثم صليت معه، ثم صليت معه، يحسب بأصابعه خمس مرات)[2].

وفي السنن عن ابن عباس: أن الرسول ﷺ قال: (أمني جبريل عليه السلام عند البيت مرتين، فصلى بي الظهر، حين زالت الشمس، وكانت قدر الشراك، وصلى بي العصر حين كان ظلّ الشيء مثله، وصلى بي - يعنى المغرب - حين أفطر الصائم، وصلى بي العشاء حين غاب الشفق، وصلى بي الفجر حين حرم الطعام والشراب على الصائم.

---

(١) صحيح البخاري: ١/ ٣٠. ورقمه: ٦.

(٢) صحيح البخاري: ٦/ ٥-٣. ورقمه: ٣٢٢١. صحيح سنن النسائي: ١/ ١٠٨. ورقمه: ٤٨٠.

فلما كان الغد، صلى بي الظهر حين كان ظل الشيء مثله، وصلى بي العصر حين كان ظل الشيء مثليه، وصلى بي المغرب حين أفطر الصائم، وصلى بي العشاء إلى ثلث الليل، وصلى بي الفجر فأسفر. ثم التفت إليّ فقال: يا محمد، هذا وقت الأنبياء من قبلك، والوقت ما بين هذين الوقتين)[1].

رقية جبريل للرسول ﷺ:

روى مسلم في صحيحه عن أبي سعيد: أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال: (يا محمد اشتكيت؟ قال: نعم، قال: بسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من شر كلّ ذي نفس، أو عين حاسد، الله يشفيك، بسم الله أرقيك)[2].

أعمال أخرى:

ومن ذلك أنّه حارب مع الرسول ﷺ في بدر والخندق، وصحب الرسول ﷺ في الإسراء وغير ذلك.

لماذا لا يرسل الله رسله من الملائكة:

والله لا يرسل رسله إلى البشر من الملائكة؛ لأن طبيعة الملائكة مخالفة لطبيعة البشر، فاتصالهم بالملائكة ليس سهلاً ميسوراً؛ ولذا فإن

---

(١) صحيح سنن أبي داود، واللفظ له: ١/ ٧٩. ورقمه: ٣٧٧. وصحيح سنن الترمذي: ١/ ٥٠. ورقمه: ١٢٧. وصحيح سنن النسائي عن أبي هريرة: ١/ ١٠٩. ورقمه: ٤٨٨.

(٢) صحيح مسلم: ٤/ ١٧١٨. ورقمه: ٢١٨٦.

الرسول ﷺ كان يشق عليه مجيء جبريل إليه بصفته الملائكية كما مضى، وعندما رأى جبريل على صورته فزع، وجاء زوجته يقول: دثّروني دثّروني.

فلما كانت الطبائع مختلفة، شاء الله أن يرسل لهم رسولاً من جنسهم، ولو كان سكان الأرض ملائكة، لأنزل إليهم ملكاً رسولاً، قال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥].

وعلى فرض أن الله اختار رسله إلى عموم البشر من الملائكة، فإنه لا ينزلهم بصورهم الملائكية، بل يجعلهم يتمثلون في صفة رجال يلبسون ما يلبس الرجال، كي يتمكن الناس من الأخذ عنهم: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ * وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٨-٩].

وقد أخبر تعالى أن طلب الكَفَرَة رؤية الملائكة، ومجيء رسول من الملائكة، إنما هو تعنت، وليس طلباً للهداية، وعلى احتمال حدوثه فإنهم لن يؤمنوا: ﴿ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١١١].

المطلب الرابع: تحريك بواعث الخير في نفوس العباد

وكّل الله بكل إنسان قريناً من الملائكة، وقريناً من الجنّ، ففي صحيح مسلم عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: (ما منكم من أحد إلا وقد وكّل به قرينه من الجن، وقرينه من الملائكة)، قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: (وإياي، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير)[1].

ولعلّ هذا القرين من الملائكة، غير الملائكة الذين أمروا بحفظ أعماله، قيّضه الله له ليهديه ويرشده.

وقرين الإنسان من الملائكة وقرينه من الجنّ يتعاوران الإنسان، هذا يأمره بالشر ويرغبه فيه، وذاك يحثه على الخير ويرغبه فيه، فعن ابن مسعود رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إن للشيطان لمة بابن آدم، وللملك لمة، فأمّا لمة الشيطان، فإيعاد بالشر، وتكذيب بالحق، وأمّا لمة الملك، فإيعاد بالخير، وتصديق بالحق، فمن وجد من ذلك شيئاً فليعلم أنّه من الله، وليحمد الله، ومن وجد الأخرى، فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم قرأ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨]».

قال ابن كثير، بعد إيراده لهذا الحديث: «هكذا رواه الترمذي والنسائي في كتابي التفسير من سننهما جميعاً، عن هناد بن السري. وأخرجه ابن حبان في صحيحه، عن أبي يعلى الموصلي، عن هناد به، وقال الترمذي: حسن غريب، وهو حديث أبي الأحوص، يعني سلام بن سليم...».

---

(١) صحيح مسلم: ٤/٢١٦٨. ورقمه: ٢٨١٤.

وانظر إلى الحديث التالي كي تعرف كيف يتسابق القرين الجني والقرين الملكي على توجيه الإنسان، ذكر الحافظ أبو موسى من حديث أبي الزبير عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا أوى الإنسان إلى فراشه، ابتدره ملك وشيطان، فيقول الملك: اختم بخير، ويقول الشيطان: اختم بشرّ، فإذا ذكر الله تعالى حتى يغلبه - يعني النوم - طرد الملك الشيطان، وبات يكلؤه.

فإذا استيقظ، ابتدره ملك وشيطان، فيقول الملك: افتح بخير، ويقول الشيطان: افتح بشر، فإن قال: الحمد لله الذي أحيا نفسي بعدما أماتها، ولم يمتها في منامها، الحمد لله الذي يمسك التي قضى عليها الموت، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى، الحمد لله الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده، الحمد لله يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، طرد الملك الشيطان وظل يكلؤه)[1].

وهذه الأحاديث توجهنا إلى الإكثار من الأعمال الخيرة التي تصلح نفوسنا، وتقرب الملائكة منّا، ففي قرب الملائكة منا خير عظيم. وقد سبق ذكر حديث ابن عباس الذي يبين فيه تأثير لقيا الرسول ﷺ بجبريل في شهر رمضان، لمدارسته القرآن، وأن الرسول ﷺ يكون حين ذاك أجود بالخير من الريح المرسلة[2].

---

(١) قال محقق كتاب الوابل الصيب معلقاً على هذا الحديث: « ورواه بمعناه ابن حبان رقم: (٢٣٦٢) « موارد ». والحاكم: (١/٥٤٨) وصححه، ووافقه الذهبي ورجاله ثقات، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد: (١٠/ ١٢٠) وقال: رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح، غير إبراهيم الشامي وهو ثقة. نقول وصوابه: إبراهيم بن الحجاج السامي بالسين المهملة ».

(٢) صحيح البخاري: ١/ ٣٠. ورقمه: ٦.

المطلب الخامس: تسجيل صالح أعمال بني آدم وسيئها

الملائكة موكلون بحفظ أعمال بني آدم من خير وشرّ، وهؤلاء هم المعنيون بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢].

وقد وكل الله بكل إنسان ملكين حاضرين، لا يفارقانه، يحصيان عليه أعماله وأقواله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ * إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٦-١٨].

ومعنى قعيد، أي: مترصد. ورقيب عتيد، أي: مراقب معد لذلك لا يترك كلمة تفلت.

والظاهر أن الملائكة الموكلة بالإنسان تكتب كل ما يصدر عن الإنسان من أفعال وأقوال، لا يتركون شيئاً ؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ [ق: ١٨].

ولذلك فإن الإنسان يجد كتابه قد حوى كلّ شيء صدر منه، ولذلك فإنّ الكفار ينادون عندما يرون كتاب أعمالهم يوم القيامة قائلين: ﴿يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها

بالاً يهوي بها في جهنم)[1].

وذكر ابن كثير في تفسيره عن الحسن البصري أنه تلا هذه الآية: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٧]، ثم قال: «يا ابن آدم بسطت لك صحيفة، ووكّل بك ملكان كريمان، أحدهما عن يمينك، والآخر عن يسارك، فأمّا الذي عن يمينك، فيحفظ الحسنات، وأما الذي عن يسارك، فيحفظ السيئات، فاعمل ما شئت، أقلل أو أكثر، حتى إذا مت طويت صحيفتك، وجعلت في عنقك معك في قبرك، حتى تخرج يوم القيامة، فعند ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا * ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣-١٤]

ثم يقول الحسن: عدل والله فيك من جعلك حسيب نفسك.

وذكر ابن كثير أيضاً عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] قال: «يكتب كلّ ما تكلم به من خير أو شر، حتى إنّه ليكتب قوله: أكلت، شربت، ذهبت، جئت، رأيت. حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله، فأقر منه ما كان فيه من خير أو شر، وألقى سائره؛ وذلك قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩].

وذكر ابن كثير عن الإمام أحمد أنّه كان يئنّ في مرضه، فبلغه عن طاووس أنه قال: «يكتب الملك كل شيء حتى الأنين، فلم يئن أحمد حتى مات رحمه الله».

---

(١) صحيح البخاري: ١١/٣٠٨. ورقمه: ٦٤٧٨.

صاحب اليمين يكتب الحسنات والآخر السيئات:

في معجم الطبراني الكبير بإسناد حسن عن أبي أمامة: أنّ رسول الله ﷺ قال: (إن صاحب الشمال ليرفع القلم ست ساعات عن العبد المسلم المخطىء، فإن ندم واستغفر الله منها ألقاها، وإلا كتبت واحدة)[1].

هل تكتب الملائكة أفعال القلوب؟

استدلّ شارح الطحاوية[2] على أنّ الملائكة تكتب أفعال القلوب بقوله تعالى ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٢]، فالآية شاملة للأفعال الظاهرة والباطنة.

واستدل أيضاً بالحديث الذي يرويه مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (قال الله عزّ وجلّ: إذا همّ عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه، فإن عملها فاكتبوها سيئة، وإذا همّ بحسنة فلم يعملها، فاكتبوها حسنة، فإن عملها فاكتبوها عشراً)[3].

وفي الحديث الآخر المتفق عليه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (قالت الملائكة: ربّ ذاك عبد يريد أن يعمل سيئة، وهو أبصر به، فقال: ارقبوه، فإن عملها فاكتبوها له بمثلها، وإن تركها فاكتبوها له حسنة، إنّما تركها من جرّاي)[4].

---

(١) صحيح الجامع: ٢/ ٢١٢.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية: ص٤٣٨.

(٣) صحيح مسلم: ١/ ١١٧. ورقمه: ١٢٨.

(٤) صحيح مسلم: ١/ ١١٧. ورقمه: ١٢٩، واللفظ له، ورواه البخاري: ١٣/ ٤٦٥. ورقمه: ٧٥٠١.

شبهة:

قد يقال: ألا يتناقض علم الملائكة بإرادة الإنسان وقصده مع قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩].

فالجواب: أن هذا ليس من خصائص علم الله تعالى، فهو وإن خفي عن البشر، فلا يعلم واحدهم ما في ضمير أخيه، فلا يلزم أن يخفى عن الملائكة.

وقد يقال: إن الملائكة تعلم بعض ما في الصدور، وهو الإرادة والقصد، أمّا بقية الأمور كالاعتقادات، فلا دليل على كونها تعلمها.

دعوة العباد إلى فعل الخير:

ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: (ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط مُنفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهمّ أعط مُمسكاً تلفاً)[1].

المطلب السادس: ابتلاء بني آدم

وقد يرسل الله بعض ملائكته لابتلاء بني آدم واختبارهم، ففي البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنه سمع النبي ﷺ يقول: (إن ثلاثة في بني إسرائيل: أبرص، وأقرع، وأعمى، فأراد الله أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكاً.

(١) صحيح البخاري: ٣/ ٣٠٤. ورقمه: ١٤٤٢. ورواه مسلم: ٢/ ٧٠٠. ورقمه: ١٠١٠.

فأتى الأبرص، فقال: أي شيء أحب إليك؟ فقال: لون حسن، وجلد حسن، ويذهب عني الذي قذرني الناس، قال: فمسحه، فذهب عنه قذره، وأعطي لوناً حسناً وجلداً حسناً. قال: فأيّ المال أحبّ إليك؟ قال: الإبل، (أو قال: البقر، شكّ إسحاق، إلا أن الأبرص أو الأقرع قال أحدهما: الإبل وقال الآخر: البقر)، فأعطي ناقة عشراء. فقال: بارك الله لك فيها.

قال: فأتى الأقرع، فقال: أيّ شيء أحبّ إليك؟ قال: شعر حسن، ويذهب عني هذا الذي قذرني الناس. قال: فمسحه، فذهب عنه، وأعطي شعراً حسناً. قال: فأيّ المال أحبّ إليك؟ قال: البقر، فأعطي بقرة حاملاً، وقال: بارك الله لك فيها.

قال: فأتى الأعمى فقال: أيّ شيء أحبّ إليك؟ قال: أن يرد الله إليّ بصري، فأبصر به الناس، قال: فمسحه، فردّ الله بصره. قال: فأيّ المال أحبّ إليك؟ قال: الغنم. فأعطي شاة والداً، فأُنتج هذان، ووَلّدَ هذا.

قال: فكان لهذا واد من الإبل، ولهذا واد من البقر، ولهذا واد من الغنم.

ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله، ثم بك، أسألك - بالذي أعطاك اللون الحسن، والجلد الحسن، والمال - بعيراً أتبلغ به في سفري، فقال: الحقوق كثيرة، فقال له: كأني أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرك الناس، فقيراً فأعطاك الله؟ فقال: إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر. فقال: إن كنت كاذباً، فصيرك الله إلى ما كنت.

قال: وأتى الأقرع في صورته وهيئته، فقال له مثل ما قال لهذا، وردّ عليه مثل ما ردّ هذا، فقال: إن كنت كاذباً، فصيرك الله إلى ما كنت.

قال: وأتى الأعمى في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين وابن سبيل. انقطت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله، ثم بك، أسألك - بالذي ردّ عليك بصرك - شاة أتبلغ بها في سفري، فقال: قد كنت أعمى فردّ الله إلي بصري، فخذ ما شئت، ودع ما شئت، فوالله لا أجهدك اليوم شيئا أخذته لله، فقال: أمسك مالك، فإنّما ابتليتم، فقد رضي الله عنك، وسخط على صاحبيك)[1].

المطلب السابع: نزع أرواح العباد عندما تنتهي آجالهم

اختص الله بعض ملائكته بنزع أرواح العباد عندما تنتهي آجالهم التي قدرها الله لهم، قال تعالى: ﴿ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ [السجدة: ١١].

والذين يقبضون الأرواح أكثر من ملك: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ * ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴾ [الأنعام: ٦١-٦٢].

وتنزع الملائكة أرواح الكفرة والمجرمين نزعاً شديداً عنيفاً بلا رفق ولا هوادة: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ

(١) رواه البخاري: ٦/ ٥٠٠. ورقمه: ٣٤٦٤. ورواه مسلم: ٤/ ٢٢٧٥. ورقمه: ٢٩٦٤. واللفظ لمسلم.

﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠].

وقال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ [محمد: ٢٧]

أما المؤمنون فإن الملائكة تنزع أرواحهم نزعاً رفيقاً.

تبشيرهم المؤمنين عند النزع:

وإذا جاء الموت، ونزل بالعبد المؤمن، فإن الملائكة تتنزل عليه، تبشره وتثبته: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣٠-٣١].

وهي تبشر الكفرة بالنار وغضب الجبار وتقول لهم: ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾[الأنعام: ٩٣].

موسى يفقأ عين ملك الموت:

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (جاء ملك الموت إلى موسى عليه السلام، فقال له: أجب ربك)، قال: (فلطم موسى عين ملك الموت ففقأها). قال: (فرجع الملك إلى الله تعالى، فقال: إنك أرسلتني إلى عبد لك لا يريد الموت،

وقد فقأ عيني). قال: (فردّ الله إليه عينه، وقال: ارجع إلى عبدي فقل: الحياةَ تريد؟ فإن كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثور، فما توارت يدك من شَعْرة، فإنك تعيش بها سنة، قال: ثمّ مه؟ قال: ثمّ تموت. قال: فالآن من قريب)[1]. «وملك الموت كان يأتي الناس عياناً، فأتى موسى فلطمه وفقأ عينه»[2].

وذكر ابن حجر العسقلاني أن بعض المبتدعة أنكر هذا الحديث. وذكر في الرد عليهم: «أن موسى لطم ملك الموت، لأنه رأى آدمياً دخل داره بغير إذنه، ولم يعلم أنه ملك الموت، وقد أباح الشارع فقء عين الناظر في دار المسلم بغير إذن، وقد جاءَت الملائكة إلى إبراهيم وإلى لوط في صورة آدميين فلم يعرفهم ابتداءً، ولو عرفهم إبراهيم لما قدم لهم المأكولات، ولو عرفهم لوط لما خاف عليهم من قومه»[3].

والتكذيب بالأحاديث الصحيحة التي تخبر عن الغيوب بنظر عقلي مجرد ينافي الإيمان، فأول صفات المتقين أنهم يؤمنون بالغيب، كما ذكر الله ذلك في مطلع سورة البقرة، فإذا صحّ الخبر عن الله أو عن رسوله فليس هناك إلا التصديق: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧].

---

(١) رواه البخاري: ٣/ ٢٠٦. ورقمه: ١٣٣٩. ورواه مسلم: ٤/ ١٨٤٣. ورقمه: ٢٣٧٣. واللفظ لمسلم.

(٢) هذه الرواية رواها أحمد في مسنده، والطبري. انظر: فتح الباري: ٦/ ٤٤٢.

(٣) فتح الباري: ٦/ ٤٤٢.

المطلب الثامن

علاقة الملائكة بالعبد في قبره ومحشره والدار الآخرة

سيأتي في مبحث الإيمان باليوم الآخر إن شاء الله تعالى ما يكون من الملائكة نحو العباد بعد الموت من سؤال الملكين للعبد في قبره، وهذان هما منكر ونكير، وأن منهم ملائكة ينعّمون العباد في قبورهم، وآخرون يعذبون الكفرة والمجرمين، واستقبالهم للمؤمن في يوم القيامة، ونفخ إسرافيل في الصور، وحشرهم الناس للحساب، وسوقهم الكفرة إلى جهنم، والمؤمنين إلى الجنة، وقيامهم على تعذيب الكفار في النار، وسلامهم على المؤمنين في الجنة.

المبحث الثالث
الملائكة والمؤمنون

تحدثنا في المبحث السابق عن الدور الذي كلف الله الملائكة القيام به تجاه بني آدم كلهم ؛ مؤمنهم وكافرهم، فما ذكرناه من تشكيلهم للنطفة، وحراستهم للعباد، وتبليغهم للوحي، ومراقبتهم للعباد، وكتابة الأعمال، ونزع الأرواح، لا تختص بقسم من بني آدم دون قسم، ولا بمؤمن دون كافر.

وللملائكة بعد ذلك دور مختلف مع المؤمنين والكفار، وسنتناول دورهم وموقفهم من كلا الفريقين بالبيان والتوضيح.

المطلب الأول: دور الملائكة تجاه المؤمنين

١ - محبتهم للمؤمنين:

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (إذا أحب الله عبداً نادى جبريل: إن الله يحب فلاناً فأحببه، فيحبه جبريل. فينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحبّ فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثمّ يوضع له القبول في الأرض)[1].

(١) صحيح البخاري: ٦/ ٣٠٣. ورقمه: ٣٢٠٩. ورواه مسلم: ٤/ ٢٠٣٠. ورقمه: ٢٦٣٧.

٢- تسديد المؤمن:

روى البخاري في صحيحه عن حسّان بن ثابت: أن رسول الله ﷺ دعا له، فقال: (اللهمّ أيده بروح القدس)[١].

وفي الصحيح أيضاً عن أبي هريرة قال: (قال سليمان عليه السلام: لأطوفنّ الليلة بمائة امرأة، تلد كل امرأة غلاماً يقاتل في سبيل الله.

فقال له الملك: قل: إن شاء الله، فلم يقل، ونسي، فأطاف بهنّ، ولم تلد إلا امرأة منهنّ نصف إنسان).

قال النبي ﷺ: (لو قال: إن شاء الله لم يحنث، وكان أرجى لحاجته)[٢].

فالملك سدد نبي الله سليمان وأرشده إلى الأصوب والأكمل.

٣ - صلاتهم على المؤمنين:

أخبرنا الله أن الملائكة تصلي على الرسول ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ [الأحزاب:٥٦]. وهم يصلون على المؤمنين أيضاً: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣].

---

(١) صحيح البخاري: ٦/ ٣٠٤.

(٢) رواه البخاري: ٩/ ٣٣٩. ورقمه: ٥٢٤٢. وقال ابن حجر في (فتح الباري: ٦/ ٤٦٠) ما ملخصه: «في رواية المغيرة (سبعين) امرأة، وفي رواية شعيب في الأيمان والنذور: (تسعين)، ورجحها المؤلف هناك». ورواه مسلم في صحيحه: ٣/ ١٢٧٦. ورقمه: ١٦٥٤، وفي إحدى رواياته: ستون، وفي الأخرى: سبعون، وفي ثالثة: تسعون.

والصلاة من الله تعالى ثناؤه على العبد عند ملائكته، حكاه البخاري عن أبي العالية، وقال غيره: الصلاة من الله - عز وجل - الرحمة، وقد يقال: لا منافاة بين القولين.

وأمّا الصلاة من الملائكة فبمعنى الدعاء للناس، والاستغفار لهم، وهذا ما سنوضحه فيما يأتي.

نماذج من الأعمال التي تصلي الملائكة على صاحبها:

أ - معلّم الناس الخير:

روى الترمذي في سننه عن أبي أمامة أن الرسول ﷺ قال: (إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت، ليصلون على معلم الناس الخير)[1].

ب - الذين ينتظرون صلاة الجماعة:

في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مجلسه، تقول: اللهمّ اغفر له، اللهم ارحمه. مالم يحدث)[2].

ج - الذين يصلون في الصف الأول:

في سنن أبي داود عن البراء بن عازب رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: (إن الله وملائكته يصلون على الصفوف الأول)[3].

---

(١) صحيح سنن الترمذي: ٢/ ٣٤٣. ورقمه: ٢١٦١.

(٢) رواه البخاري: ٢/ ١٣١. ورقمه: ٦٤٧، ورواه مسلم: ١/ ٤٥٩. ورقمه: ٦٤٩، واللفظ لمسلم.

(٣) صحيح سنن أبي داود: ١/ ١٣٠. ورقمه: ٦١٨.

وفي سنن النسائي: (على الصفوف المتقدمة)[1].

وفي سنن ابن ماجة من حديث البراء، وحديث عبدالرحمن بن عوف: (إن الله وملائكته يصلون على الصف الأول)[2].

د - الذين يسدّون الفرج بين الصفوف:

في سنن ابن ماجة عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: (إن الله وملائكته يصلون على الذين يصلون الصفوف، ومن سدّ فرجة رفعه الله بها درجة)[3].

هـ - الذين يتسحرون:

في صحيح ابن حبان ومعجم الطبراني الأوسط بإسناد حسن، عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: (إن الله تعالى وملائكته يصلون على المتسحرين)[4].

و - الذين يصلون على النبي ﷺ:

روى أحمد في مسنده، والضياء في المختارة عن عامر بن ربيعة بإسناد حسن: أن رسول الله ﷺ قال: (ما من عبد يصلي عليّ إلا صلتْ عليه الملائكة، ما دام يصلي عليّ، فليقلّ العبد من ذلك أو ليكثر)[5].

---

(١) صحيح سنن النسائي: ١/ ١٧٥. ورقمه: ٧٨١.

(٢) صحيح سنن ابن ماجه: ١/ ١٦٤. ورقمه: ٨١٦.

(٣) صحيح سنن ابن ماجه: ١/ ١٦٤. ورقمه: ٨١٤.

(٤) صحيح الجامع: ٢/ ١٣٥.

(٥) صحيح الجامع: ٥/ ١٧٤.

ز - الذين يعودون المرضى:

روى أبو داود عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي ﷺ، قال: (ما من رجل يعود مريضاً ممسياً، إلا خرج معه سبعون ألف ملك يستغفرون له حتى يصبح، وكان له خريف في الجنّة، ومن أتاه مصبحاً خرج معه سبعون ألف ملك، يستغفرون له حتى يمسي، وكان له خريف في الجنة)[1].

هل لصلاة الملائكة علينا أثر:

يقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الأحزاب: ٤٣].

تفيد الآية أن ذكر الله لنا في الملأ الأعلى، ودعاء الملائكة للمؤمنين واستغفارهم لهم، له تأثير في هدايتنا وتخليصنا من ظلمات الكفر والشرك والذنوب والمعاصي إلى النور الذي يعني وضوح المنهج والسبيل، بالتعرف على طريق الحق الذي هو الإسلام، وتعريفنا بمراد الله منا، وإعطائنا النور الذي يدلنا على الحق: في الأفعال والأقوال والأشخاص.

٤ - التأمين على دعاء المؤمنين:

الملائكة يؤمّنون على دعاء المؤمن، وبذلك يكون الدعاء أقرب إلى الإجابة، ففي صحيح مسلم وسنن ابن ماجة عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: (دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك،

(١) صحيح سنن أبي داود: ٢/٥٩٨. ورقمه: ٢٦٥٥، وصرّح أبو داود بتصحيحه مرفوعاً، وأورد رواية صحيحة عن علي موقوفاً عليه.

كلما دعا له بخير قال الملك الموكل به: آمين، ولك بمثل)[1].

ولما كان الدعاء المؤمّن عليه حرياً بالإجابة، فإنه لا ينبغي للمؤمن أن يدعو على نفسه بشر، ففي صحيح مسلم عن أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ: (لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير، فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون)[2].

٥ - استغفارهم للمؤمنين:

أخبرنا الله أن الملائكة يستغفرون لمن في الأرض: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشورى: ٥].

وأخبر في آية سورة غافر أن حملة العرش والملائكة الذين حول العرش ينزهون ربهم، ويخضعون له، ويخصون المؤمنين التائبين بالاستغفار، ويدعونه بأن ينجيهم من النار، ويدخلهم الجنة، ويحفظهم من فعل الذنوب والمعاصي: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٧-٩].

---

(١) صحيح مسلم: ٤/ ٢٠٩٤. ورقمه: ٢٧٣٣. وصحيح سنن ابن ماجه: ٢/ ١٤٩. ورقمه: ٢٣٤٠، واللفظ لمسلم.

(٢) صحيح مسلم: ٢/ ٦٣٤. ورقمه: ٩٢٠.

٦- شهودهم مجالس العلم وحلق الذكر وحفهم أهلها بأجنحتهم:

في صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: (إن لله ملائكة يطوفون في الطرق، يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا: هلموا إلى حاجتكم). قال: (فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا)[١].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفّتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده)[٢].

وفي سنن الترمذي عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع)[٣]؛ أي تتواضع له.

فالأعمال الصالحة - كما ترى - تقرب الملائكة منا، وتقربنا منهم، ولو استمر العباد في حالة عالية من السمو الروحي، لوصلوا إلى درجة مشاهدة الملائكة ومصافحتهم كما في الحديث الذي يرويه مسلم، عن حنظلة الأسيدي، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (والذي نفسي بيده إن لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر، لصافحتكم الملائكة

---

(١) رواه البخاري: ١١/٢٠٨. ورقمه: ٦٤٠٨. ورواه مسلم: ٤/٢٠٦٩. ورقمه: ٢٦٨٩. واللفظ للبخاري.

(٢) صحيح مسلم: ٤/٢٠٧٣. ورقمه: ٢٦٩٩.

(٣) صحيح سنن الترمذي: ٢/٣٤٢. ورقمه: ٢١٥٩.

على فرشكم وفي طرقكم)[1].

وفي رواية الترمذي عن حنظلة قال: قال رسول الله ﷺ: (لو أنكم تكونون كما تكونون عندي لأظلتكم الملائكة بأجنحتها)[2].

٧ - تسجيل الملائكة الذين يحضرون الجمعة:

وهؤلاء الملائكة يسجلون بعض أعمال العباد، فيسجلون الذين يؤمون الجُمَع الأول فالأول. فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا كان يوم الجمعة وقفت الملائكة على باب المسجد يكتبون الأول فالأول، فإذا خرج الإمام طووا صحفهم، وجلسوا يستمعون الذكر). متفق عليه[3].

ويسجلون ما يصدر عن العباد من أقوال طيبة، ففي صحيح البخاري وغيره عن رفاعة بن رافع الزرقي قال: (كنا يوماً نصلي وراء النبي ﷺ فلما رفع رأسه من الركعة، قال: (سمع الله لمن حمده) قال رجل وراءَه: ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه. فلما انصرف، قال: (من المتكلم؟) قال: أنا. قال: (لقد رأيت بضعة وثلاثين ملكاً يبتدرونها أيهم يكتبها أول)[4]. فهؤلاء الكتبة من الملائكة غير الملكين اللذين يسجلان صالح أعماله وطالحها بالتأكيد؛ لكونهم بضعة وثلاثين ملكاً.

---

(١) صحيح مسلم: ٤/ ٢١٠٦. ورقمه: ٢٧٥٠.

(٢) صحيح سنن الترمذي: ٢/ ٢٩٨. ورقمه: ١٩٩٤.

(٣) مشكاة المصابيح: ١/ ٤٣٦. ورقمه: ١٣٨٤.

(٤) رواه البخاري: ٢/ ٢٨٤. ورقمه: ٧٩٩.

٨ - تعاقب الملائكة فينا:

وهؤلاء الملائكة الذين يطوفون في الطرق يلتمسون الذكر، ويشهدون الجمع والجماعات يتعاقبون فينا، فطائفة تأتي، وطائفة تذهب، وهم يجتمعون في صلاة الصبح، وصلاة العصر، ففي صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة، رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: (إن لله ملائكة يتعاقبون فيكم، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم ربهم، وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون)[1].

ولعل هؤلاء هم الذين يرفعون أعمال العباد إلى ربهم، ففي صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعري، رضي الله عنه، قال: (قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات، فقال: (إنّ الله عزّ وجلّ لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل. . .)[2] الحديث.

وقد عظّم الله شأن صلاة الفجر؛ لأن الملائكة تشهدها، قال: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾

٩- تنزّلهم عندما يقرأ المؤمن القرآن:

ومنهم من يتنزّل من السماء حين يقرأ القرآن؛ ففي صحيح مسلم عن

---

(١) رواه البخاري: ٦/ ٣٠٦. ورقمه: ٣٢٢٣. ورواه مسلم: ١/ ٤٣٩. ورقمه: ٦٣٢.

(٢) صحيح مسلم: ١/ ١٦٢. ورقمه: ١٧٩. وفي رواية لمسلم: (بأربع كلمات).

البراء بن عازب قال: (قرأ رجل سورة الكهف، وفي الدار دابة، فجعلت تنفر، فإذا ضبابة أو سحابة قد غشيته، قال فذكر ذلك للنبي ﷺ. فقال: (اقرأ فلان، فإنها السكينة تنزلت عند القرآن، أو تنزلت للقرآن)[1].

وعن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه: أن أسيد بن حضير بينما هو في ليلة يقرأ في مربده[2]، إذ جالت[3] فرسه، فقرأ، ثم جالت أخرى، فقرأ، ثم جالت أيضاً. قال أسيد: فخشيت أن تطأ يحيى، فقمت إليها، فإذا مثل الظلة فوق رأسي، فيها أمثال السرج، عرجت في الجوّ حتى ما أراها.

قال: فغدوت على رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، بينما أنا البارحة من جوف الليل أقرأ في مربدي، إذ جالت فرسي، فقال رسول الله ﷺ: (اقرأ ابن حضير) قال: فقرأت، ثمّ جالت أيضاً، فقال رسول الله ﷺ: (اقرأ ابن حضير): قال: فقرأت، ثم جالت أيضاً، فقال رسول الله ﷺ: (اقرأ ابن حضير). قال: فانصرفت، وكان يحيى قريباً منها، خشيت أن تطأه، فرأيت مثل الظلة فيها أمثال السرج، عرجت في الجوّ حتى ما أراها.

فقال رسول الله ﷺ: (تلك الملائكة كانت تستمع لك، ولو قرأت لأصبحت يراها الناس ما تستتر منهم)[4].

---

(١) صحيح مسلم: ١/٥٤٨. ورقمه: ٧٩٦.

(٢) المربد: الموضع الذي ييبس فيه التمر، كالبيدر.

(٣) جالت: وثبت.

(٤) رواه البخاري: ٩/٦٣. ورقمه: ٥٠١٨. من رواية محمد بن إبراهيم عن أسيد بن حضير. ورواه مسلم: ١/٥٤٨. ورقمه: ٧٩٦. واللفظ لمسلم.

١٠ - يبلّغون الرسول ﷺ عن أمته السلام:

روى النسائي والدارمي عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: (إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني عن أمتي السلام)[١].

١١ - تبشيرهم المؤمنين:

فقد حملوا البشرى إلى إبراهيم بأنه سيرزق بذرية صالحة: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٤-٢٨].

وبشرت زكريا بيحيى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٩].

وليس هذا مقصوراً على الأنبياء والمرسلين، بل قد تبشر المؤمنين، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (إنّ رجلاً زار أخاً له في قرية أخرى، فأرصد الله[٢] له على مدرجته (طريقه) ملكاً، فلما أتى عليه، قال: أين تريد؟ قال: أريد أخاً لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تربّها؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله عزّ وجلّ، قال: فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه)[٣].

---

(١) مشكاة المصابيح: ١/ ٢٩١. ورقمه: ٩٢٤. وقال محقق المشكاة، الشيخ ناصر الدين الألباني: إسناده صحيح، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

(٢) أرصد على مدرجته: أقعد على طريقه.

(٣) صحيح مسلم: ٤/ ١٩٨٨. ورقمه: ٢٥٦٧.

وفي صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (أتاني جبريل، فقال: يا رسول الله! هذه خديجة قد أتتك معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي قد أتتك، فاقرأ عليها السلام، من ربّها ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب)[1].

١٢ - الملائكة والرؤيا في المنام:

روى البخاري في صحيحه في باب التهجد، عن عبدالله بن عمر، رضي الله عنهما، قال: «كان الرجل في حياة النبي ﷺ إذا رأى رؤيا قصّها على رسول الله ﷺ، فتمنيت أن أرى رؤيا فأقصها على رسول الله ﷺ، وكنت غلاماً شاباً، وكنت أنام في المسجد على عهد رسول الله ﷺ، فرأيت في النوم كأن ملكين أخذاني فذهبا بي إلى النار، فإذا هي مطوية كطيّ البئر، وإذا لها قرنان كقرني البئر، وإذا فيها أناس قد عرفتهم، فجعلت أقول: أعوذ بالله من النار، قال: فلقيهما ملك آخر، فقال لي: لم ترع»[2]؛ أي لا تخف.

وفي صحيح البخاري عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: قال لي رسول الله ﷺ: (أريتك في المنام يجيء بك الملك في سَرَقَةٍ من حرير، فقال لي: هذه امرأتك، فكشفتُ عن وجهك الثوب، فإذا أنت هي، فقلت: إن يك هذا من الله يمضه)[3].

---

(١) رواه البخاري: ٧/ ١٣٣. ورقمه: ٣٨٢٠. ورواه مسلم: ٤/ ١٨٨٧. ورقمه: ٢٣٢. واللفظ لمسلم.

(٢) رواه البخاري: ٣/ ٦. ورقمه: ١١٢١. ورواه مسلم: ٤/ ١٩٢٧. ورقمه: ٢٤٧٩.

(٣) رواه البخاري بهذا اللفظ في كتاب النكاح: ٩/ ١٨٠. ورقمه: ٥١٢٥. ورواه في مناقب الأنصار:=

١٣ - يقاتلون مع المؤمنين ويثبتونهم في حروبهم:

وقد أمد الله المؤمنين بأعداد كثيرة من الملائكة في معركة بدر: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩]، ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ * بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٣-١٢٥].

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس: أن الرسول ﷺ قال في يوم بدر: (هذا جبريل آخذ برأس فرسه، عليه أداة حرب)[١].

وقد بين الله الحكمة والغاية من هذا الإمداد، وهو تثبيت المؤمنين، والمحاربة معهم، وقتال أعداء الله، وقتلهم بضرب أعناقهم وأيديهم: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٠]، ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢].

وقال في سورة آل عمران: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٦-١٢٧].

= ٧/ ٢٢٣. ورقمه: ٣٨٩٥. وفي التعبير: ١٢/ ٣٩٩. ورقمه: ٧٠١١، ٧٠١٢، ورواه مسلم: ٤/ ١٨٨٩. ورقمه: ٢٤٣٨.

(١) صحيح البخاري: ٧/ ٣١٢. ورقمه: ٣٩٩٥.

وقد سمع أحد المقاتلين من المسلمين صوت ضربة ملك، ضرب بها أحد الكفار، وصوته وهو يزجر فرسه، ففي صحيح مسلم عن ابن عباس قال: (بينما رجل من المسلمين يومئذٍ يشتدّ في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم، فنظر إلى المشرك أمامه، فخرّ مستلقياً، فنظر إليه، فإذا هو قد خُطم أنفه، وشقّ وجهه، كضربة السوط، فاخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري، فحدث بذلك رسول الله ﷺ فقال: (صدقت، ذلك من مدد السماء الثالثة)[1].

وقد حاربت الملائكة في مواقع أخر ؛ ففي غزوة الخندق أرسل الله ملائكته: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ [الأحزاب:٩]، والمراد بالجنود التي لم يروها الملائكة، كما ثبت في الصحاح وفي غيرها: (أن جبريل جاء الرسول ﷺ بعد رجوعه ﷺ من الخندق وقد وضع سلاحه واغتسل، فأتاه جبريل وهو ينفض رأسه من الغبار، فقال للرسول ﷺ: وضعت السلاح؟ والله ما وضعناه، أخرج إليهم. فقال رسول الله ﷺ: (فأين؟ فأشار إلى بني قريظة)[2].

وفي صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: « كأني أنظر إلى الغبار ساطعاً في زقاق بني غنم، موكب جبريل حين سار رسول الله ﷺ إلى بني قريظة »[3].

---

(١) صحيح مسلم: ٣/ ١٣٨٤. ورقمه: ١٧٦٣.

(٢) رواه البخاري: ٧/ ٤٠٧. ورقمه: ٤١١٧. ورواه مسلم في صحيحه: ٣/ ١٣٨٩. ورقمه: ١٧٦٩.

(٣) رواه البخاري: ٧/ ٤٠٧. ورقمه: ٤١١٨.

١٤ - حمايتهم للرسول ﷺ:

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قال: فقيل: نعم، فقال: واللات والعزى، لئن رأيته يفعل ذلك لأطأنّ على رقبته، أو لأعفرنّ وجهه في التراب.

قال: فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلى، زعم ليطأ على رقبته. قال: فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبه، ويتقي بيديه، قال: فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقاً من نار، وهولاً وأجنحة. فقال رسول الله ﷺ: (لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً)[١].

ورواه البخاري بأخصر من رواية مسلم هذه، في كتاب التفسير[٢].

١٥ - حمايتهم ونصرتهم لصالحي العباد وتفريج كربهم:

وقد يرسلهم الله لحماية بعض عباده الصالحين من غير الأنبياء والمرسلين، وقد يكون من هذا ما حصل لرجل ذكر ابن كثير خبره. ففي تفسير ابن كثير عند قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢] قال:

ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة رجل حكى عنه أبو بكر محمد بن داود الدينوري المعروف بالدقي الصوفي، قال هذا الرجل: (كنت أكاري على بغل لي من دمشق إلى بلد الزبداني، فركب معي ذات مرة رجل،

(١) صحيح مسلم: ٤/ ٢١٥٤. ورقمه: ٢٧٩٧.

(٢) صحيح البخاري: ٨/ ٧٢٤. ورقمه: ٤٩٥٨.

فمررنا على بعض الطريق على طريق غير مسلوكة، فقال لي: خذ في هذه فإنها أقرب، فقلت: لا خيرة لي فيها، فقال: بل هي أقرب، فسلكناها.

فانتهينا إلى مكان وعر، وواد عميق، وفيه قتلى كثيرة، فقال لي: أمسك رأس البغل، حتى أنزل، فنزل وتشمر وجمع عليه ثيابه، وسلّ سكيناً معه وقصدني، ففررت من بين يديه وتبعني، فناشدته الله، وقلت: خذ البغل بما عليه، فقال: هو لي؛ وإنما أريد قتلك، فخوفته الله والعقوبة، فلم يقبل.

فاستسلمت بين يديه، وقلت: إني أريد أن تتركني حتى أصلي ركعتين، فقال: عجّل، فقمت أصلي، فأُرتِج عليَّ القرآن، فلم يحضرني منه حرف واحد، فبقيت واقفاً متحيراً، وهو يقول: هيه، افرغ، فأجرى الله على لساني قوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢]، فإذا أنا بفارس قد أقبل من فم الوادي وبيده حربة، فرمى بها الرجل، فما أخطأت فؤاده، فخرّ صريعاً، فتعلقت بالفارس، وقلت: بالله من أنت؟ فقال: أنا رسول الذي يجيب المضطر، إذا دعاه، ويكشف السوء. قال: فأخذت البغل والحمل، ورجعت سالماً».

ومن ذلك إرسال الله جبريل لإغاثة أم اسماعيل في مكة، ففي صحيح البخاري عن ابن عباس عن النبي ﷺ في قصة مهاجرة إبراهيم بابنه إسماعيل وأمّه هاجر إلى أرض مكة - وهي قصة طويلة - وفيها أن أمّ اسماعيل سعت سعي الإنسان المجهود بين الصفا والمروة سبع مرات تبحث عن الماء، (فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً، فقالت: صه تريد نفسها، ثمّ تسمعت أيضاً، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث،

فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه، أو قال: بجناحه، حتى ظهر الماء... فقال لها الملك: لا تخافوا الضّيعة فإن ههنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله)[1].

وهذا الملك الذي جاءها هو جبريل، ففي المسند عن ابن عباس عن أبيّ بن كعب قال: (إن جبريل لما ركض زمزم بعقبه، جعلت أم اسماعيل تجمع البطحاء، فقال النبي ﷺ: (رحم الله هاجر أم إسماعيل، لو تركتها لكانت عيناً معيناً)[2].

١٦ - شهود الملائكة لجنازة الصالحين:

قال الرسول ﷺ في سعد بن معاذ: (هذا الذي تحرّك له العرش، وفتحت له أبواب السماء، وشهده سبعون ألفاً من الملائكة، لقد ضُمّ ضمة، ثمّ فرّج عنه). رواه النسائي عن ابن عمر[3].

١٧ - إظلالها للشهيد بأجنحتها:

في البخاري عن جابر، قال: (جيء بأبي إلى النبي ﷺ وقد مثل به، ووضع بين يديه، فذهبت أكشف عن وجهه، فنهاني قومي، فسمع صوت نائحة، فقيل: ابنة عمرو - أو أخت عمرو -. فقال النبي ﷺ: (لمَ تبكي، أو لا تبكي، ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها).

---

(١) صحيح البخاري: ٦/ ٣٩٧. ورقمه: ٣٣٦٤.

(٢) مسند أحمد: ٥/ ١٢١.

(٣) حديث اهتزاز العرش لموت سعد. رواه البخاري: ٧/ ١٢٢. ورقمه: ٣٨٠٢. ورواه مسلم عن جابر: ٤/ ١٩١٥. ورقمه: ٢٤٦٦. أما شهود الملائكة لجنازته ففي سنن النسائي. انظر صحيح سنن النسائي: ٢/ ٤٤١. ورقمه: ١٩٤٢.

وقد عنون له البخاري بقوله: (باب ظل الملائكة على الشهيد)[1].

١٨ - الملائكة الذين جاؤوا بالتابوت:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

والذي يعنينا من هذه الآية ما أخبرنا الله به، أن الملائكة جاءت بني إسرائيل، في تلك الفترة، بتابوت، تطميناً لهم وتثبيتاً؛ كي يعلموا أن طالوت مختار من الله تعالى، فيتابعوهُ ويطيعوهُ.

١٩ - حمايتهم للمدينة ومكة من الدجال:

يدخل الدجال عندما يخرج كل بلد إلا مكة والمدينة؛ لحماية الملائكة لهما، كما ثبت ذلك في صحيح مسلم من حديث فاطمة بنت قيس من قصة تميم الداري: أن الدجال قال: (إني أنا المسيح الدجال، وإني أوشك أن يؤذن لي في الخروج، فأخرج فأسير في الأرض، فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة، غير مكة وطيبة، فهما محرمتان عليّ كلتاهما، كلما أردت أن أدخل واحدة، أو أحداً منهما، استقبلني ملك بيده السيف صلتاً، يصدني عنهما، وإن على كل نَقْب منها ملائكة يحرسونها).

قالت: قال رسول الله ﷺ، وطعن بمخصرته في المنبر: (هذه طيبة، هذه طيبة، هذه طيبة)، يعني: المدينة[2].

---

(١) صحيح البخاري: ٦/ ٣٢. ورقمه: ٢٨١٦.

(٢) رواه مسلم: ٤/ ٢٢٦٣. ورقمه: ٢٩٤٢.

وروى البخاري عن أبي بكرة، عن النبي ﷺ قال: (لا يدخل المدينة رعب المسيح الدجال، ولها يومئذ سبعة أبواب، على كل باب ملكان)[1].

وفي صحيح البخاري أيضاً عن أبي هريرة: أن الرسول ﷺ قال: (على أنقاب المدينة ملائكة، لا يدخلها الطاعون ولا الدجال)[2].

٢٠ - نزول عيسى بصحبة ملكين:

في سنن الترمذي عن النواس بن سمعان عن النبي ﷺ: في ذكره حديث الدجال، وفيه: (فبينما هو كذلك إذ هبط عيسى ابن مريم عليه السلام بشرقي دمشق، عند المنارة البيضاء، بين مهرودتين، واضعاً يَدَيْهِ على أجنحة ملكين)[3].

٢١ - الملائكة باسطة أجنحتها على الشام:

عن زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يا طوبى للشام، يا طوبى للشام). قالوا يا رسول الله وبم ذلك؟ قال: (تلك ملائكة الله باسطو أجنحتها على الشام)[4].

---

(١) صحيح البخاري: ١٣/ ٩٠. ورقمه: ٧١٢٥.

(٢) صحيح البخاري: ١٣/ ١٠١. ورقمه: ٧١٢٣.

(٣) نزول عيسى عليه السلام ثابت في صحيح مسلم: ٤/ ٢٢٥٩. حديث رقم: ٢٩٤٠، أما الحديث المذكور فرواه الترمذي. انظر صحيح سنن الترمذي: ٢/ ٢٤٩. ورقمه: ١٨٢٥.

(٤) قال الشيخ ناصر، في تخريج أحاديث فضائل الشام، للربعي: «هو حديث صحيح أخرجه الترمذي، والحاكم في المستدرك، وأحمد في المسند، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وهو كما قالا، وقال المنذري في الترغيب والترهيب: ورواه ابن حبان في صحيحه، والطبراني بإسناد صحيح».

٢٢ - ما في موافقة الملائكة من أجر وثواب:

ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: (إذا أمّن الإمام، فأمِّنوا، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة، غفر له ما تقدم من ذنبه)[١].

وفي صحيح البخاري: (إذا قال أحدكم: آمين، وقالت الملائكة في السماء: آمين، فوافقت إحداهما الأخرى، غفر له ما تقدم من ذنبه)[٢].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: (إذا قال الإمام: سمع الله لمن حمده، فقولوا: اللهمّ ربنا لك الحمد، فإنه من وافق قوله قول الملائكة، غفر له ما تقدم من ذنبه)[٣].

المطلب الثاني: واجب المؤمن تجاه الملائكة

الملائكة عباد الله اختارهم واصطفاهم، ولهم مكانة عند ربهم، والمؤمن الذي يعبد الله، ويتبع رضوانه لا مناص له من أن يتولى الملائكة بالحب والتوقير، ويتجنب كل ما من شأنه أن يسيء إليهم ويؤذيهم، وفي المبحث التالي نتناول شيئاً من ذلك بالبيان والتوضيح.

١- عدم إيذاء الملائكة:

شدَّد العلماء النكير على من يسبُّ الملائكة أو يتكلم بكلام يعيبهم، قال

---

(١) صحيح البخاري: ٢/ ٢٦٢. ورقمه: ٧٨٠. ورواه مسلم: ١/ ٣٠٧. ورقمه: ٤١٠.

(٢) صحيح البخاري: ٢/ ٢٦٦. ورقمه: ٧٨١.

(٣) صحيح البخاري: ٢/ ٢٨٣. ورقمه: ٧٩٦.

العلامة السيوطي رحمه الله تعالى: «قال القاضي عياض في الشفا: قال سحنون: من شتم ملكاً من الملائكة فعليه القتل، وقال أبو الحسن القابسي في الذي قال لآخر: كأنه وجه مالك الغضبان: لو عرف أنه قصد ذم الملك قتل.

قال القاضي عياض: وهذا فيمن تكلم فيهم بما قلناه على جملة الملائكة، أو على معين ممن حققنا كونه من الملائكة، ممن نص الله عليه في كتابه، أو حققنا علمه بالخبر المتواتر، والمشتهر المتفق عليه بالإجماع القاطع، كجبريل، وميكائيل، ومالك، وخزنة الجنة وجهنم، والزبانية، وحملة العرش، وعزرائيل، وإسرافيل، ورضوان، والحفظة، ومنكر ونكير.

فأما من لم تثبت الأخبار بتعيينه، ولا وقع الإجماع على كونه من الملائكة كهاروت وماروت، فليس الحكم فيهم، والكافر بهم كالحكم فيمن قدمناه ؛ إذ لم تثبت لهم تلك الحرمة»[1].

ونقل السيوطي عن القرافي المالكي قوله: «اعلم أنه يجب على كل مكلف تعظيم الأنبياء بأسرهم، وكذلك الملائكة، ومن نال من أعراضهم شيئاً فقد كفر، سواء كان بالتعريض أو بالتصريح، فمن قال في رجل يراه شديد البطش: هذا أقسى قلباً من مالك خازن النار، وقال في رجل رآه مشوه الخلق: هذا أوحش من منكر ونكير، فهو كافر، إذا قال ذلك في معرض النقص بالوحاشة، والقساوة»[2].

---

(١) الحبائك في أخبار الملائك، للسيوطي: ٢٥٤.

(٢) الحبائك في أخبار الملائك، للسيوطي: ٢٥٥.

٢- البعد عن الذنوب والمعاصي:

أعظم ما يؤذي الملائكة الذنوب والمعاصي والكفر والشرك، ولذا فإن أعظم ما يُهْدَى للملائكة ويرضيهم أن يخلص المرء دينه لربه، ويتجنب كل ما يغضبه.

ولذا فإنَّ الملائكة لا تدخل الأماكن والبيوت التي يعصى فيها الله تعالى، أو التي يوجد فيها ما يكرهه الله ويبغضه، كالأنصاب والتماثيل والصور، ولا تقرب من تلبس بمعصية كالسكران.

قال ابن كثير[١]: ثبت في الحديث المروي في الصحاح والمسانيد والسنن من حديث جماعة من الصحابة عن رسول الله ﷺ أنه قال: (لا يدخل الملائكة بيتا فيه صورة ولا كلب ولا جُنب).

وفي رواية عن عاصم بن ضمرة عن علي: (ولا بول)، وفي رواية رافع عن أبي سعيد مرفوعاً: (لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب أو تمثال)، وفي رواية ذكوان أبي صالح السماك عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تصحب الملائكة رفقة معهم كلب أو جرس)[٢].

وروى البزار بإسناد صحيح عن بريدة، رضي الله عنه: أن الرسول ﷺ قال: (ثلاث لا تقربهم الملائكة: السكران، والمتضمخ بالزعفران، والجنب)[٣].

---

(١) البداية والنهاية: ١/ ٥٥.

(٢) البداية والنهاية: ١/ ٥٥.

(٣) صحيح الجامع: ٣/ ٧٠.

وفي سنن أبي داود بإسناد حسن، عن عمار بن ياسر أن الرسول ﷺ قال: (ثلاثة لا تقربهم الملائكة: جيفة الكافر، والمتضمخ بالخلوق، والجنب إلا أن يتوضأ)[1].

٣ - الملائكة تتأذى مما يتأذى منه ابن آدم:

ثبت في الأحاديث الصحيحة أن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم، فهم يتأذون من الرائحة الكريهة، والأقذار والأوساخ.

روى البخاري ومسلم عن جابر بن عبدالله عن النبيّ ﷺ قال: (من أكل الثوم والبصل والكراث، فلا يقربنّ مسجدنا ؛ فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم)[2].

وقد بلغ الأمر بالرسول ﷺ أن أمر بالذي جاء إلى المسجد - ورائحة الثوم أو البصل تنبعث منه - أن يخرج إلى البقيع. (وهذا ثابت في صحيح مسلم)[3].

٤ - النهي عن البصاق عن اليمين في الصلاة:

نهى الرسول ﷺ عن البصاق عن اليمين في أثناء الصلاة ؛ لأن المصلي إذا قام يصلي يقف عن يمينه ملك، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (إذا قام أحدكم إلى الصلاة، فلا يبصق أمامه، فإنما

---

(١) صحيح سنن أبي داود: ٢/ ٨٧٢.

(٢) أحاديث نهي من أكل البصل والثوم عن قربان المسجد في صحيح البخاري ومسلم وغيرهما، إلا أن هذا اللفظ رواه مسلم: ١/ ٣٩٤. ورقمه: ٥٦٧.

(٣) صحيح مسلم: ١/ ٣٩٦. ورقمه: ٥٦٧.

يناجي الله ما دام في مصلاه، ولا عن يمينه ؛ فإن عن يمينه ملكاً، وليبصق عن يساره، أو تحت قدمه فيدفنها)[1].

٥ - موالاة الملائكة كلهم:

وعلى المسلم أن يحب جميع الملائكة، فلا يفرق في ذلك بين ملك وملك ؛ لأنهم جميعاً عباد الله عاملون بأمره، تاركون لنهيه، وهم في هذا وحدة واحدة، لا يختلفون ولا يفترقون. وقد زعم اليهود أن لهم أولياء وأعداء من الملائكة، وزعموا أن جبريل عدو لهم، وميكائيل ولي لهم، فأكذبهم الله تعالى - في مدعاهم - وأخبر أن الملائكة لا يختلفون فيما بينهم: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ * مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٧-٩٨].

فأخبر سبحانه أن الملائكة كلهم وحدة واحدة فمن عادى واحداً منهم، فقد عادى الله وجميع الملائكة، أمّا تولي بعض الملائكة ومعاداة بعض آخر، فهي خرافة لا يستسيغها إلا مثل هذا الفكر اليهودي المنحرف، وهذه المقولة التي حكاها القرآن عن اليهود عذر واهٍ عللوا به عدم إيمانهم، فزعموا أن جبريل عدوهم ؛ لأنّه يأتي بالحرب والدمار، ولو كان الذي يأتي الرسول ﷺ ميكائيل لتابعوه.

وراجع النصوص الواردة في سبب نزول هذه الآية في تفسير ابن كثير وغيره.

---

(١) صحيح البخاري: ١/ ٥١٢. ورقمه: ٤١٦.

المبحث الرابع
الملائكة والكفار والفساق

وضحنا فيما سبق موقف الملائكة من المؤمنين، وقد اتضح من خلال ذلك موقفهم من الكفرة، فهم لا يحبون الكفرة الظالمين المجرمين، بل يعادونهم ويحاربونهم، ويزلزلون قلوبهم، كما حدث في معركة بدر والأحزاب، ونزيد الأمر هنا تفصيلاً وإيضاحاً بذكر ما لم نذكره هناك.

١ - إنزال العذاب بالكفار:

عندما كان يكذّب رسول من الرسل، ويصرّ قومه على التكذيب، كان الله ينزل في كثير من الأحيان بهم عذابه، وكان الذي يقوم بالتعذيب أحياناً الملائكة.

٢ - إهلاكهم قوم لوط:

جاء الملائكة المأمورون بتعذيب قوم لوط في صورة شبان حسان الوجوه، واستضافهم لوط، ولم يعلم قومه بهم، فدلت زوجة لوط قومها عليهم، فجاؤوا مسرعين، يريدون بهم الفاحشة، فدافعهم لوط، وحاورهم، فأبوا عليه، فضربهم جبريل بجناحه، فطمس أعينهم، وأذهب بصرها: ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ * وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ

رَّشِيدُ * قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ * قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ * قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ﴾ [هود: ٧٧-٨١].

قال ابن كثير[1]: وذكروا أن جبريل - عليه السلام - خرج عليهم، فضرب وجوههم خفقة بطرف جناحه، فطمست أعينهم، حتى قيل غارت بالكلية، ولم يبق لها محل ولا أثر... قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ [القمر: ٣٧].

وفي الصباح أهلكهم الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٢-٨٣] قال ابن كثير في تفسيره: قال مجاهد: «أخذ جبريل قوم لوط من سرحهم ودورهم، حملهم بمواشيهم وأمتعتهم، ورفعهم حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم، ثم كفأها، وكان حملهم على خوافي جناحه الأيمن». وذكر أقوالاً مقاربة لهذا القول، ولم يورد حديثاً يشهد لهذا.

٣- لعن الكفرة:

قال تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ * أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [آل عمران: ٨٦-٨٧]، وقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة: ١٦١].

---

(١) البداية والنهاية: ١/ ١٩٧.

ولا تلعن الملائكة الكفرة فحسب، بل قد تلعن من فعلوا ذنوباً معينة ومن هؤلاء:

أ - لعن الملائكة المرأة التي لا تستجيب لزوجها:

ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت أن تجيء، لَعَنَتْها الملائكة حتى تصبح)[1] وفي رواية في الصحيح: (حتى ترجع)[2].

ب - لعنهم الذي يشير إلى أخيه بحديدة:

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال أبو القاسم: (من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه، حتى وإن كان أخاه لأبيه وأمّه)[3].

ولعن الملائكة يدل على حرمة هذا الفعل، لما فيه من ترويعٍ لأخيه، ولأنّ الشيطان قد يطغيه فيقتل أخاه، خاصة إذا كان السلاح من هذه الأسلحة الحديثة، التي قد تنطلق لأقل خطأ، أو لمسة غير مقصودة، وكم حدث أمثال هذا.

ج - لعنهم من سبّ أصحاب الرسول:

في معجم الطبراني الكبير عن ابن عباس بإسناد حسن: أن الرسول ﷺ قال: (من سبّ أصحابي، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين).

---

(١) صحيح البخاري: ٩/ ٢٩٣. ورقمه: ٥١٩٣.

(٢) المصدر السابق: ٩/ ٢٩٤. ورقمه: ٥١٩٤.

(٣) صحيح مسلم: ٤/ ٢٠٢٠. ورقمه: ٢٦١٦.

فيا عجباً لأقوامٍ جعلوا سبّ أصحاب الرسول ﷺ ديناً لهم يتقربون به إلى الله، مع أن جزاءَهم ما ذكره الرسول ﷺ هنا، وهو جزاء رهيب.

د - لعنهم الذين يحولون دون تنفيذ شرع الله:

في سنن النسائي وسنن ابن ماجة، بإسناد صحيح، عن ابن عباس، رضي الله عنهما: أنّ رسول الله ﷺ قال: (من قَتَلَ عمداً فَقَود يديه، فمن حال بينه وبينه فعليه لعنة الله، والملائكة، والناس أجمعين)[1]. فالذي يحول دون تنفيذ حكم الله في قتل القاتل عمداً بالجاه أو المال... فعليه هذه اللعنة، فكيف بالذي يحول دون تنفيذ الشريعة كلها؟!

هـ - لعنهم الذي يؤوي محدثاً:

من الذين تلعنهم الملائكة كما يلعنهم الله الذين يحدثون في دين الله، بالخروج على أحكامه، والاعتداء على تشريعه، أو يؤوون من يفعل ذلك، ويحمونه، كما في الحديث الصحيح: (من أحدث حدثاً أو آوى محدثاً، فعليه لعنة الله، والملائكة، والناس أجمعين)[2].

والحدث في المدينة فيه زيادة في الإجرام، ففي الصحيحين عن علي ابن أبي طالب قال: قال النبيّ ﷺ أنه قال: (المدينة حرم، ما بين عَيْر إلى ثور، فمن أحدث فيها حدثاً، أو آوى محدثاً، فعليه لعنة الله، والملائكة، والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً، ولا عدلاً)[3].

---

(١) صحيح سنن النسائي: ٣/ ٤٩٢. ورقمه: ٤٤٥٦، ٤٤٥٧. وصحيح سنن ابن ماجه: ٢/ ٩٦. ورقمه: ٢١٣١.

(٢) صحيح سنن أبي داود: ٣/ ٨٥٩. ورقمه: ٣٧٩٧. وصحيح سنن النسائي: ٣/ ٩٨٢. ورقمه: ٤٤١٢.

(٣) صحيح البخاري: ٤/ ٨١. ورقمه: ١٨٧٠. =

٤ - طلب الكفار رؤية الملائكة:

وقد طلب الكفار رؤية الملائكة للتدليل على صدق الرسول ﷺ، فأخبرهم الله أن اليوم الذي يرون فيه الملائكة يوم شؤم عليهم ؛ إذ الكفار يرون الملائكة عندما يحلّ بهم العذاب، أو عندما ينزل بالإنسان الموت، ويكشف عنه الغطاء: ﴿ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا * يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٢١-٢٢].

= ورواه مسلم: ٢/ ٩٩٤. ورقمه: ١٣٧٠. واللفظ لمسلم.

الفصل الرابع

الملائكة وبقية المخلوقات

في الفصل الماضي بينت العلاقة بين الملائكة وبني آدم، وليس هذا كل ما وُكل إلى الملائكة؛ فإن الملائكة يقومون على مختلف شؤون الكون مما نشاهده، وما لا نشاهده.

وسأكتفي بذكر بعض ما جاء في ذلك من النصوص.

١- حملة العرش:

العرش أعظم المخلوقات، محيط بالسموات وفوقها، والرحمن مستو عليه، ويحمله من الملائكة ثمانية: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧][1].

٢- ملك الجبال:

وللجبال ملائكة، وقد أرسل الله ملك الجبال إلى عبده ورسوله محمد ﷺ يستأمره في إهلاك أهل مكة؛ ففي صحيح البخاري ومسلم عن عائشة أنها قالت للنبي ﷺ: (يا رسول الله، هل أتى عليك يوم كان أشدّ من يوم أحد؟ فقال: لقد لقيت من قومك، وكان أشدّ ما لقيت منهم يوم

(١) وقد سبق أن بيّنا عظيم خلقهم في الفصل الذي تحدثنا فيه عن صفاتهم وقدراتهم.

العقبة[1]، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت.

فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم استفق إلا بقرن الثعالب[2] فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني، فقال: إن الله عزّ وجل قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم.

قال: فناداني ملك الجبال، وسلّم علي، ثمّ قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربّك إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟[3] فقال النبي ﷺ: (بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً)[4].

٣ - الموكلون بالقطر والنبات والأرزاق:

يقول ابن كثير[5]: «ميكائيل موكل بالقطر والنبات اللذين يخلق منهما الأرزاق في هذه الدار، وله أعوان يفعلون ما يأمرهم به بأمر ربه، يصرفون الرياح والسحاب، كما يشاء الرب جلّ جلاله.

---

(١) موضع بمنى.

(٢) موضع بين مكة والطائف.

(٣) جبلان بمكة.

(٤) صحيح مسلم: ٣/ ١٤٢٠. ورقمه: ١٧٩٥. واللفظ له. ورواه البخاري: ٦/ ٣١٢. ورقمه: ٣٢٣١.

(٥) البداية والنهاية: ١/ ٥٠.

ومن الملائكة ما هو موكل بالسحاب، ففي سنن الترمذي عن ابن عباس: أن الرسول ﷺ قال: (الرعد ملك من الملائكة موكل بالسحاب، معه مخاريق من نار، يسوق بها السحاب حيث شاء الله)[1]، وقد يسقي بلاداً دون بلاد، أو قرية دون أخرى.

وقد يؤمر بأن يسقي زرع رجل واحد دون سواه، كما في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (بينا رجل بفلاة من الأرض، فسمع صوتاً في سحابة: اسق حديقة فلان؛ فتنحى ذلك السحاب، فأفرغ ماءَه في حرّة، فإذا شرجة من تلك الشراج[2] قد استوعبت ذلك الماء كله.

فتتبع الماء، فإذا رجل قائم في حديقته، يحول الماء بمسحاته، فقال له: يا عبد الله، ما اسمك؟ قال: فلان، للاسم الذي سمع في السحابة، فقال له: يا عبد الله، لِمَ تسألني عن اسمي؟ قال: إني سمعت صوتاً في السحاب الذي هذا ماؤه يقول: اسق حديقة فلان، لاسمك، فما تصنع فيها؟ قال: أمّا إذ قلت هذا، فإني أنظر إلى ما يخرج منها، فأتصدق بثلثه، وآكل أنا وعيالي ثلثاً، وأرد فيها ثلثه)[3].

وعلى كل فالملائكة موكلون بالسموات والأرض، فكل حركة في العالم فهي ناشئة عن الملائكة، كما قال تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥]، وقال: ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات: ٤]، ويزعم المكذبون للرسل المنكرون للخالق أن النجوم هي التي تقوم بذلك كله، وكذبوا،

---

(١) صحيح سنن الترمذي: ٣/ ٦٤. ورقمه: ٢٤٩٢.

(٢) الشرجة: مسيل الماء.

(٣) صحيح مسلم: ٤/ ٢٢٨٨. ورقمه: ٢٩٨٤.

فالذي يدبر ذلك كله الملائكة بأمر الله تعالى، كما قال: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا * فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا * وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا * فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا * فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ [المرسلات: ١-٥].

وقال: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا * وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا * وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا * فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا * فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ١-٥]، وقال: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا * فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا * فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ [الصافات: ١-٣]

فكل هذه الآيات حديث عن الملائكة حال قيامها بتدبير شؤون السموات والأرض.

الفصل الخامس

المفاضلة بين الملائكة وبني البشر

الخلاف في المسألة قديم:

قال ابن كثير[1]: «قد اختلف الناس في تفضيل الملائكة على البشر على أقوال: فأكثر ما توجد هذه المسألة في كتب المتكلمين، والخلاف فيها مع المعتزلة ومن وافقهم.

وأقدم كلام رأيته في هذه المسألة ما ذكره الحافظ ابن عساكر في تاريخه في ترجمة أمية بن عمرو بن سعيد بن العاص: «أنّه حضر مجلساً لعمر بن عبدالعزيز وعنده جماعة، فقال عمر: ما أحد أكرم على الله من كريم بني آدم، واستدل بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٧]. ووافقه على ذلك أمية بن عمرو بن سعيد.

فقال عراك بن مالك: ما أحد أكرم على الله من ملائكته، هم خدمة داريه، ورسله إلى أنبيائه، واستدل بقوله تعالى: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠].

فقال عمر بن عبد العزيز لمحمد بن كعب القرظي: ما تقول أنت يا أبا حمزة؟ فقال: قد أكرم الله آدم فخلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد

---

(١) البداية والنهاية: ١/ ٥٨.

له ملائكته، وجعل من ذريته الأنبياء، والرسل ومن يزوره الملائكة.

فوافق عمر بن عبدالعزيز في الحكم واستدل بغير دليله».

وهذا الذي ذكره ابن كثير من كلام عمر بن عبدالعزيز وجلسائه في هذه المسألة يبين خطأ ما قاله تاج الدين الفزاري، حيث يقول: «هذه المسألة من بدع علم الكلام، التي لم يتكلم فيها الصدر الأول من الأمة، ولا من بعدهم من أعلام الأئمة»[1]، بل قد ثبت أن بعض الصحابة تكلموا في شيء من ذلك، فهذا عبد الله بن سلام يقول: «ما خلق الله خلقاً أكرم عليه من محمد. فقيل له: ولا جبريل ولا ميكائيل»؟

فقال للسائل: «أتدري ما جبريل وميكائيل؟ إنما جبريل وميكائيل خلق مسخر كالشمس والقمر، وما خلق الله خلقاً أكرم عليه من محمد ﷺ». رواه الحاكم في مستدركه وصححه هو والذهبي[2].

الأقوال في المسألة:

يذكر شارح الطحاوية أنه ينسب إلى أهل السنة تفضيل صالحي البشر والأنبياء فقط على الملائكة، وأن المعتزلة يفضلون الملائكة، وأتباع الأشعري على قولين، منهم من يفضل الأنبياء والأولياء، ومنهم من يقف، ولا يقطع في ذلك قولاً، وحكي عن بعضهم ميل إلى تفضيل الملائكة، وحكي ذلك عن غيرهم من أهل السنة وبعض الصوفية.

وقالت الشيعة: إن جميع الأئمة أفضل من جميع الملائكة. ومن الناس

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية: ٣٣٩.

(٢) راجع تحقيق الألباني على شرح العقيدة الطحاوية، ص: ٣٤٢.

من فصّل تفصيلاً آخر.

ولم يقل أحد ممن له قول يؤثر: إن الملائكة أفضل من بعض الأنبياء دون بعض، وذكر أن أبا حنيفة، رحمه الله، توقف في الجواب عن هذه المسألة، وإلى التوقف جنح شارح الطحاوية رحمه الله[1].

وذكر السفاريني[2] أنّ الإمام أحمد، رحمه الله، كان يقول: «يخطىء من فضَّل الملائكة، وقال: كل مؤمن أفضل من الملائكة».

موطن النزاع:

لا خلاف في أن الكفرة والمنافقين غير داخلين في المفاضلة، فهؤلاء أضل من البهائم: ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ولا نعني بالمفاضلة: التفضيل بين حقيقة البشر وحقيقة الملائكة، وإنّما المفاضلة بين صالحي البشر والملائكة، وإن ذهب بعض الناس إلى أن الملائكة أفضل من سائر المؤمنين، والنزاع عندهم في المفاضلة بين الأنبياء والملائكة.

حجة الذين يفضلون صالحي البشر على الملائكة:

بعد أن حررنا محل النزاع نبين حجة الذين ذهبوا إلى تفضيل البشر.

الدليل الأول: أن الله أمر الملائكة بالسجود لآدم، فلولا فضله لما أمروا بالسجود له: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ

(١) شرح العقيدة الطحاوية: ٣٣٨.

(٢) لوامع الأنوار البهية: ٢/ ٣٩٨.

وَٱسْتَكْبَرَ﴾ [البقرة: ٣٤].

ورد بعضهم أن السجود كان لله، وآدم إنما كان قبلة لهم، ولو كان هذا صحيحاً لقال: اسجدوا إلى آدم، وما قال: ﴿ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾ [الإسراء: ٦١].

ولو كان المقصود اتخاذ آدم قبلة لما امتنع من السجود، ولما زعم أنّه خير من آدم، فإنّ القبلة تكون أحجاراً، وليس في اتخاذها قبلة تفضيل لها.

صحيح أن سجود الملائكة لآدم كان عبادة لله، وطاعة له، وقربة يتقربون بها إليه، إلا أنه تشريف لآدم وتكريم وتعظيم.

ولم يأتِ أن آدم سجد للملائكة، بل لم يؤمر آدم وبنوه بالسجود إلا لله رب العالمين ؛ لأنّهم - والله أعلم - أشرف الأنواع، وهم صالحو بني آدم، ليس فوقهم أحد يحسن السجود له إلا الله رب العالمين.

الدليل الثاني: قوله قصصاً عن إبليس: ﴿ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ ﴾ [الإسراء: ٦٢] فإن هذا نص في تكريم آدم على إبليس إذ أمر بالسجود له.

الدليل الثالث: أن الله تعالى خلق آدم بيده، وخلق الملائكة بكلمته.

الدليل الرابع: قوله تعالى: ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠]. فالخليفة يفضل على من ليس خليفة، وقد طلبت الملائكة أن يكون الاستخلاف فيهم، والخليفة منهم حيث قالوا: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾ [البقرة: ٣٠] فلولا أن الخلافة درجة عالية أعلى من درجاتهم لما طلبوها وغبطوا صاحبها.

الدليل الخامس: تفضيل بني آدم عليهم بالعلم حين سألهم الله عزّ وجلّ عن علم الأسماء، فلم يجيبوه ؛ بل اعترفوا أنهم لا يحسنونها، فأنبأهم آدم بذلك، وقد قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

الدليل السادس: ومما يدل على تفضيلهم أن طاعة البشر أشقّ، والأشق أفضل، فإن البشر مجبولون على الشهوة، والحرص، والغضب، والهوى، وهي مفقودة في الملك.

الدليل السابع: أن السلف كانوا يحدثون الأحاديث المتضمنة فضل صالحي البشر على الملائكة، وتروى على رؤوس الناس، ولو كان هذا منكراً لأنكروه، فدلّ على اعتقادهم ذلك.

الدليل الثامن: مباهاة الله بهم الملائكة: فالله يباهي بعباده الملائكة، إذا أدوا ما أوجبه عليهم وأمرهم به. فإذا صلوا الفريضة باهى بهم الملائكة، ففي المسند وابن ماجة عن عبد الله: أن الرسول ﷺ قال: (أبشروا، هذا ربكم قد فتح باباً من أبواب السماء، يباهي بكم الملائكة، يقول: انظروا إلى عبادي قد قضوا فريضة، وهم ينتظرون أخرى)[1].

وعن أبي هريرة: أن الرسول ﷺ قال: (إن الله يباهي بأهل عرفات أهل السماء، فيقول لهم: انظروا إلى عبادي هؤلاء جاؤوني شعثاً غبراً). إسناده صحيح، رواه ابن حبان في صحيحه، والحاكم، والبيهقي في السنن[2].

---

(١) صحيح الجامع: ١/ ٦٧.

(٢) صحيح الجامع: ٢/ ١٤١.

والذين فضلوا الملائكة احتجوا بمثل حديث: (من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم).

واحتجوا بأن بني آدم فيهم النقص والقصور، وتقع منهم الزلات والهفوات، واحتجوا بمثل قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٥٠]. وهذا يدل على فضل الملائكة على البشر.

تحقيق القول في ذلك:

وتحقيق القول في ذلك ما ذكره ابن تيمية من أن صالحي البشر أفضل باعتبار كمال النهاية، وذلك إنما يكون إذا دخلوا الجنة، ونالوا الزلفى، وسكنوا الدرجات العلا، وحياهم الرحمن، وخصهم بمزيد قربه، وتجلى لهم، يستمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم، وقامت الملائكة في خدمتهم بإذن ربهم.

والملائكة أفضل باعتبار البداية، فإن الملائكة الآن في الرفيق الأعلى، منزهون عمّا يلابسه بنو آدم، مستغرقون في عبادة الرب، ولا ريب أن هذه الأحوال الآن أكمل من أحوال البشر.

قال ابن القيم: وبهذا التفصيل يتبين سرّ التفضيل، وتتفق أدلة الفريقين، ويصالح كل منهم على حقه[1]. والله أعلم بالصواب.

---

(١) ومن أراد مزيداً من البحث في هذه المسألة فليرجع إلى (مجموع الفتاوى): ١١/ ٣٥٠، وإلى (لوامع الأنوار البهية: ٢/ ٣٦٨)، وإلى (شرح العقيدة الطحاوية: ٣٣٨). وقد طبع كتاب السيوطي (الحبائك في أخبار الملائك). وفيه مبحث طويل في المفاضلة بين الملائكة وبني آدم من ص: ٢٠٣ إلى ص: ٢٥١.

أهم المراجع

- البداية والنهاية لابن كثير. مكتبة المعارف، بيروت. الثانية. ١٣٩٤هـ. ١٩٧٤م.
- بصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية. القاهرة. ١٣٨٣هـ.
- تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم). دار الأندلس. بيروت. الأولى. ١٣٨٥هـ ١٩٦٦م.
- الحبائك في أخبار الملائك للسيوطي. دار الكتب العلمية. بيروت. الأولى ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م.
- سلسلة الأحاديث الصحيحة لناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي. دمشق. الأولى.
- شرح العقيدة الطحاوية لمحمد بن محمد بن أبي العز الحنفي. المكتب الإسلامي. بيروت١٣٩١هـ.
- صحيح البخاري (الجامع الصحيح) بشرحه فتح الباري. المطبعة السلفية ومكتبتها. القاهرة.
- صحيح الجامع الصغير. المكتب الإسلامي. بيروت. الأولى.

- صحيح سنن ابن ماجه للألباني. نشره مكتب التربية العربي لدول الخليج. الثانية ١٤٠٨هـ. ١٩٨٨م.
- صحيح سنن أبي داود. المكتب الإسلامي. بيروت. الأولى. ١٤٠٩هـ. ١٩٨٠م.
- صحيح سنن الترمذي للألباني. نشره مكتب التربية العربي لدول الخليج. الأولى ١٤٠٨هـ. ١٩٨٨م.
- صحيح سنن النسائي. المكتب الإسلامي. بيروت. الأولى. ١٤٠٩هـ. ١٩٨٨م.
- صحيح مسلم (الجامع الصحيح). تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي. طبعة دار إحياء الكتب العربية. مصر. الأولى. ١٣٧٥هـ. ١٩٥٦م.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري. لابن حجر العسقلاني. المكتبة السلفية. القاهرة.
- لوامع الأنوار البهية. للسفاريني. طبع دولة قطر.
- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية. (جمع ابن قاسم) طبعته حكومة المملكة العربية السعودية. الأولى. ١٣٨١هـ.
- مشكاة المصابيح للخطيب التبريزي. المكتب الإسلامي. دمشق. الأولى ١٣٨٠هـ.

الفهرس

المقدمة ٧

التعريف بالملائكة والإيمان بهم ٧

كيف يكون الإيمان بالملائكة ٨

الفصل الأول: صفاتهم وقدراتهم ٩

المبحث الأول: الصفات الخَلْقية وما يتعلق بها ٩

المطلب الأول: مادة خلقهم ووقته ٩

رؤية الملائكة: ١١

المطلب الثاني: عِظم خلقهم ١١

عِظم خلق جبريل عليه السلام ١١

عِظم خلقة حَمَلة العرش ١٣

المطلب الثالث: أهم الصفات الخلقية ١٤

أولاً : أجنحة الملائكة ١٤

ثانياً : جمال الملائكة ١٤

ثالثاً : هل بين الملائكة والبشر شبه في الشكل والصورة ١٥

رابعاً : تفاوتهم في الخلق والمقدار ١٦

خامساً: لا يوصفون بالذكورة والأنوثة ١٦

سادساً: لا يأكلون ولا يشربون ١٨
سابعاً : لا يملّون ولا يتعبون ١٨
ثامناً : منازل الملائكة ١٩
تاسعاً : أعداد الملائكة ١٩
عاشراً : أسماء الملائكة ٢٠
١، ٢ - جبريل وميكائيل ٢٠
٣ - إسرافيل ٢١
٤ - مالك ٢١
٥ - رضوان ٢١
٦، ٧ - منكر ونكير ٢٢
٨، ٩ - هاروت وماروت ٢٢
عزرائيل ٢٢
رقيب وعتيد ٢٢
الحادي عشر: موت الملائكة ٢٣
المبحث الثاني: الصفات الخُلُقية ٢٤
الملائكة كرام بررة ٢٤
استحياء الملائكة ٢٥
المبحث الثالث: قُدراتهم ٢٦
١ - قدرتهم على التشكل ٢٦

٢ - عظم سرعتهم ٢٨
٣ - علمهم ٢٩
٤ - منظمون في كل شؤونهم ٣١
٥ - عصمة الملائكة ٣٢
الفصل الثاني: عبادة الملائكة ٣٥
نظرة في طبيعة الملائكة ٣٥
مكانة الملائكة ٣٦
نماذج من عبادتهم ٣٧
الفصل الثالث: الملائكة والإنسان ٤١
المبحث الأول: الملائكة وآدم ٤١
سؤالهم عن الحكمة من خلق الإنسان ٤١
سجودهم له عند خلقه ٤١
توجيه الملائكة لآدم ٤٢
غسل الملائكة آدم عند موته ٤٢
المبحث الثاني: الملائكة وبني آدم ٤٤
المطلب الأول: دورهم في تكوين الإنسان ٤٤
المطلب الثاني: حراستهم لابن آدم ٤٥
المطلب الثالث: سفراء الله إلى رسله وأنبيائه ٤٦
ليس كل من جاءه ملك فهو رسول أو نبي ٤٧

كيف كان يأتي الوحي الرسول ﷺ ٤٧
لا تقتصر مهمة جبريل على تبليغ الوحي ٤٩
إمامته للرسول ٤٩
رقية جبريل للرسول ﷺ ٥٠
لماذا لا يرسل الله رسله من الملائكة ٥٠
المطلب الرابع: تحريك بواعث الخير في نفوس العباد ٥٢
المطلب الخامس: تسجيل صالح أعمال بني آدم وسيئها ٥٤
صاحب اليمين يكتب الحسنات والآخر السيئات ٥٦
هل تكتب الملائكة أفعال القلوب؟ ٥٦
دعوة العباد إلى فعل الخير ٥٧
المطلب السادس: ابتلاء بني آدم ٥٧
المطلب السابع: نزع أرواح العباد عندما تنتهي آجالهم ٥٩
تبشيرهم المؤمنين عند النزع ٦٠
موسى يفقأ عين ملك الموت ٦٠
المطلب الثامن: علاقة الملائكة بالعبد في قبره ومحشره ٦٢
المبحث الثالث: الملائكة والمؤمنون ٦٣
المطلب الأول: دور الملائكة تجاه المؤمنين ٦٣
١ - محبتهم للمؤمنين ٦٣
٢ - تسديد المؤمن ٦٤

٣ - صلاتهم على المؤمنين ٦٤
نماذج من الأعمال التي تصلي الملائكة على صاحبها ٦٥
أ - معلّم الناس الخير ٦٥
ب - الذين ينتظرون صلاة الجماعة ٦٥
ج - الذين يصلون في الصف الأول ٦٥
د - الذين يسدّون الفرج بين الصفوف ٦٦
هـ - الذين يتسحرون ٦٦
و - الذين يصلون على النبي ﷺ ٦٦
ز - الذين يعودون المرضى ٦٧
٤ - التأمين على دعاء المؤمنين ٦٧
٥ - استغفارهم للمؤمنين ٦٨
٦ - شهودهم مجالس العلم وحلق الذكر وحفهم أهلها بأجنحتهم ... ٦٩
٧ - تسجيل الملائكة الذين يحضرون الجمعة ٧٠
٨ - تعاقب الملائكة فينا ٧١
٩ - تنزّلهم عندما يقرأ المؤمن القرآن ٧١
١٠- يبلّغون الرسول ﷺ عن أمته السلام ٧٣
١١- تبشيرهم المؤمنين ٧٣
١٢- الملائكة والرؤيا في المنام ٧٤
١٣- يقاتلون مع المؤمنين ويثبتونهم في حروبهم ٧٥

١٤- حمايتهم للرسول ﷺ ٧٧
١٥- حمايتهم ونصرتهم لصالحي العباد وتفريج كربهم ٧٧
١٦- شهود الملائكة لجنازة الصالحين ٧٩
١٧- إظلالها للشهيد بأجنحتها ٧٩
١٨- الملائكة الذين جاؤوا بالتابوت ٨٠
١٩- حمايتهم للمدينة ومكة من الدجال ٨٠
٢٠- نزول عيسى بصحبة ملكين ٨١
٢١- الملائكة باسطة أجنحتها على الشام ٨١
٢٢ - ما في موافقة الملائكة من أجر وثواب ٨٢
المطلب الثاني: واجب المؤمن تجاه الملائكة ٨٢
١ - عدم إيذاء الملائكة ٨٢
٢ - البعد عن الذنوب والمعاصي ٨٤
٣ - الملائكة تتأذى مما يتأذى منه ابن آدم ٨٥
٤ - النهي عن البصاق عن اليمين في الصلاة ٨٥
٥ - موالاة الملائكة كلهم ٨٦
المبحث الرابع: الملائكة والكفار والفساق ٨٧
١ - إنزال العذاب بالكفار ٨٧
٢ - إهلاكهم قوم لوط ٨٧
٣ - لعن الكفرة ٨٨

أ - لعن الملائكة المرأة التي لا تستجيب لزوجها ٨٩
ب - لعنهم الذي يشير إلى أخيه بحديدة ٨٩
ج - لعنهم من سبّ أصحاب الرسول ٨٩
د - لعنهم الذين يحولون دون تنفيذ شرع الله ٩٠
هـ - لعنهم الذي يؤوي محدثاً ٩٠
٤ - طلب الكفار رؤية الملائكة ٩١
الفصل الرابع: الملائكة وبقية المخلوقات ٩٣
١ - حملة العرش ٩٣
٢ - ملك الجبال ٩٣
٣ - الموكلون بالقطر والنبات والأرزاق ٩٤
الفصل الخامس: المفاضلة بين الملائكة وبني البشر ٩٧
الخلاف في المسألة قديم ٩٧
الأقوال في المسألة ٩٨
موطن النزاع ٩٩
حجة الذين يفضلون صالحي البشر على الملائكة ٩٩
تحقيق القول في ذلك ١٠٢
المراجع ١٠٣

رقم الإيداع

2005/5865

الترقيم الدولي I.S.B.N

977 - 342 - 283 - 6

عالم الجن والشياطين

حُقُوق الطّبْع مَحْفُوظَة

لدار النفائس

للنشر والتوزيع - الأردن

طبعة خاصة بمصر
والمغرب العربي واليمن

(يمنع تداولها في دول الخليج العربي)

١٤٣٢هـ / ٢٠١١ م

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م هي عشر الجائزة تتويجًا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية
الإدارة : القاهرة : ٤٠ شارع أحمد أبو العلا - المتفرع من شارع نور الدين بهجت - الموازي لامتداد شارع مكرم عبيد - مدينة نصر
هاتف : ٢٢٨٧٣٢٤٦ - ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +) فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)
فاكس : ٢٢٦٣٩٨٦١ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين
هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)
بريديًا : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

دار النفائس
للنشر والتوزيع - الأردن

العبدلي - مقابل عمارة جوهرة القدس
ص.ب : ٩٢٧٥١١ عمان ١١١٩٠ الأردن
هاتف : ٥٦٩٣٩٤٠ - فاكس : ٥٦٩٣٩٤١
بريد إلكتروني : ALNAFAES@HOTMAIL.COM

العقيدة في ضوء الكتاب والسنة ٣

عالم الجن والشياطين

أ.د. عمر سليمان عبد الله الأشقر

دار النفائس
للنشر والتوزيع - الأردن

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وبعد:

فقد يظن بعض الناس أن الكتابة في هذا الموضوع من قبيل الترف العلمي، ويحبذ هؤلاء أن يمرّ الإنسان بهذا الموضوع مروراً عابراً، فلا يأخذ من تفكيره إلا القليل، وهؤلاء يظنون أن الفائدة المرجوة من وراء هذه الدراسة محدودة، وأن الجهل به لا يضير.

وأنا لن أذهب بعيداً في الردّ على هؤلاء، فالبشر اليوم يبذلون في البحث عن الحياة والأحياء في الكواكب المنتشرة في الفضاء من المال ما يبني المدن، ويشيد الدول، ويقضي على الفقر في بقاع شاسعة، وقد قام العلماء في هذا السبيل بجهود جبارة، كلفتهم من الوقت والمال الكثير.

فما بالكم بعالم من الأحياء العقلاء، يعيشون معنا في أرضنا، ويخالطوننا في مساكننا، ويأكلون ويشربون معنا، وقد يفسدون علينا تفكيرنا وقلوبنا، وقد يدفعوننا إلى أن نحطم أنفسنا بأنفسنا، وأن يسفك بعضنا دم بعض، وقد يعبِّدوننا لأنفسهم، أو لأي مخلوق؛ كي يجلبوا لنا غضب ربنا، فيحل بنا سخطه، وينزل بنا غضبه، ثمّ تكون عاقبة الشاردين عن ربهم ناراً تلظى.

إن المعلومات التي جاءتنا بها النصوص القرآنية، والأحاديث النبوية الموثقة في هذا الجانب لا تقدر بمال.

فهي تكشف لنا أسرار هذا العالم: عالم الجن، وتمدنا بفيض من المعلومات التي تكشف تفاصيل حياتهم، كما تخبرنا عما يكنّه بعض هؤلاء من عداء تجاه الإنسانية، وما يقومون به من جهود متلاحقة لا تنقطع لإضلالنا وتدميرنا.

وحسبك دليلاً، ينبيك عن أهمية الأمر، أن تَتَبع الآيات التي تحدثت عن الجن والشياطين؛ لتعلم عظم المساحة التي شغلتها هذه النصوص من كتاب الله.

ومن يطالع هذه النصوص، يعلم أن حياة الإنسان ليست إلا صراعاً بينه وبين الشيطان، الشيطان يريد أن يقضي عليه بأن يوبقه ويهلكه، والإنسان الذي أمده الله بنوره يجاهد كي يستقيم على صراط ربّه، ويقيم غيره على هذا الصراط، وفي سبيل ذلك لا بدّ له من أن يصارع هذا العدو في حنايا نفسه، وخطرات قلبه، وآماله وأحلامه وتطلعاته، لا بدّ له أن يتفحص أهدافه وغاياته القريبة والبعيدة باستمرار ؛ كي يتبين مدى قربه وبعده من ربه، ومدى تخلصه من عدوه، الذي يحاول أن يحتنكه ويقوده كما يقود المزارع حماره.

ولقد جمعت النصوص التي تحدثت عن هذا العالم، وكلام الأئمة الأعلام عليها، وتأملت في ذلك كله، فجاء هذا الكتاب في ستة فصول.

الفصل الأول: تعريف وبيان بهذا العالم: أصلهم، وخلقهم، وأسمائهم، وأصنافهم، وطعامهم، وشرابهم، وزواجهم، ومساكنهم،

ودوابهم، وقدراتهم التي وهبهم الله إياها.

وستجد في غضون هذا الفصل الأدلة التي تثبت وجودهم، وترد على المنكرين لهم.

الفصل الثاني: بيان الغاية التي خلقوا من أجلها، وطريقة تبليغهم المبادى والأحكام الربانية، وعموم رسالة محمد ﷺ.

والفصل الثالث: صلب هذه الرسالة، وفيه عدة مباحث:

الأول : أسباب العداء بين الإنسان والشيطان، والتدليل على قوة العداء وعمقه، وتحذير الله لنا من هذا العدو.

الثاني: الأهداف القريبة والبعيدة للشيطان.

الثالث: أساليب الشيطان في إضلال الإنسان.

الرابع: قيادته للمعركة، وجنده فيها.

الخامس: مصائد الشيطان التي يكيد بها الإنسان.

وختمت هذا الفصل بالحديث عن وسوسة الشيطان، التي هي سلاحه في إفساد النفوس، وزرع الفساد في القلوب.

الفصل الرابع: تعرضت فيه لعدة قضايا تُضلّ بها الشياطين العباد:

الأولى: تمثل الشياطين وتكليمها لبعض العباد، وما ترتب على ذلك من الفساد.

الثانية: تحضير الأرواح، ومدى صحة ذلك، وعلاقة هذا بالشيطان.

الثالثة: مدى معرفة الجن بعالم الغيب، وما ترتب على اعتقاد الناس بأن الجن يعلمون الغيب من فساد.

الرابعة: الجن والأطباق الطائرة.

الفصل الخامس: تحديد الأسلحة التي لا بدّ للمسلم أن يتسلح بها، وهو يخوض المعركة مع الشيطان.

الفصل السادس والأخير: تحدثت فيه عن الحكمة من خلق الشيطان.

أسأل الله تعالى أن ينفع بهذا المؤَلَّف كاتبه وناشره وقارئه، وأن يجزل للجميع المثوبة، وأن يعيذنا من الشيطان، وأن يتولانا بعونه ورعايته، إنه نعم المولى والنصير.

وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

د. عمر سليمان عبد الله الأشقر

الكويت ٢٨/ شوال / ١٣٩٨ هـ

٣٠/ سبتمبر/ ١٩٧٨م

الفصل الأول
التعريف بعالم الجن والشياطين

تمهيد: الجن عالم مستقل:

الجن عالم غير عالم الإنسان وعالم الملائكة، بينهم وبين الإنسان قدر مشترك من حيث الاتصاف بصفة العقل والإدراك، ومن حيث القدرة على اختيار طريق الخير والشر، ويخالفون الإنسان في أمور أهمها أن أصل الجان مخالف لأصل الإنسان.

لماذا سمّوا جنّاً:

وسموا جنّاً لاجتنانهم، أي: استتارهم عن العيون، قال ابن عقيل: «إنما سمّي الجن جنّاً لاجتنانهم واستتارهم عن العيون، ومنه سمي الجنين جنيناً، وسمّي المجنّ مجناً لستره للمقاتل في الحرب»[1].

وجاء في محكم التنزيل: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧].

---

(١) آكام المرجان في أحكام الجان: ص ٧.

المبحث الأول
أصلهم وخلقهم

المطلب الأول: أصلهم الذي منه خلقوا

أخبرنا الله - جلّ وعلا - أن الجنّ قد خُلقوا من النار في قوله: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧]، وفي سورة الرحمن: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٥]. وقد قال ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، والحسن وغير واحد في قوله: ﴿مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾: طرف اللهب، وفي رواية: من خالصه وأحسنه[١]: وقال النووي في شرحه على مسلم: «المارج: اللهب المختلط بسواد النار»[٢].

وفي الحديث الذي أخرجه مسلم عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: (خلقتْ الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم)[٣].

---

(١) البداية والنهاية: ١/ ٥٩.

(٢) شرح النووي على مسلم: ١٨/ ١٢٣.

(٣) صحيح مسلم: ٤/ ٢٢٩٤. ورقمه: ٢٩٩٦.

المطلب الثاني: ابتداء خلقهم

لا شك أن خلق الجن متقدم على خلق الإنسان ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٦-٢٧]، فقد نصّ في الآية أن الجان مخلوق قبل الإنسان. ويرى بعض السابقين أنهم خلقوا قبل الإنسان بألفي عام، وهذا لا دليل عليه من كتاب ولا سنّة.

المطلب الثالث: صفة خلقة الجن

نحن لا نعرف من خلقتهم وصورهم وحواسهم إلا ما عرفنا الله منها، فنعلم أن لهم قلوباً قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

فقد صرح - تبارك وتعالى - بأن للجن قلوباً، وأعيناً وآذاناً، وللشيطان صوتاً، لقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤]. وثبت في الأحاديث أن للشيطان لساناً، وأن الجان يأكلون، ويشربون، ويضحكون، وغير ذلك مما تجده مبثوثاً في هذا الكتاب.

المطلب الرابع: أسماء الجن في لغة العرب وأصنافهم

قال ابن عبد البر: «الجن عند أهل الكلام والعلم باللسان على مراتب:

١ - فإذا ذكروا الجن خالصاً قالوا: جنّي.

٢ - فإذا أرادوا أنه مما يسكن مع الناس، قالوا: عامر، والجمع: عمّار.

٣ - فإن كان مما يعرض للصبيان قالوا: أرواح.

٤ - فإن خبث وتعرض، قالوا: شيطان.

٥ - فإن زاد على ذلك، فهو مارد.

٦ - فإن زاد على ذلك وقوي أمره، قالوا: عفريت، والجمع: عفاريت»[١].

وأخبرنا الرسول ﷺ أنّ (الجن ثلاثة أصناف: فصنف يطير في الهواء، وصنف حيّات وكلاب، وصنف يحلون ويظعنون). رواه الطبراني، والحاكم، والبيهقي في الأسماء والصفات، بإسناد صحيح[٢].

---

(١) آكام المرجان: ٨.

(٢) صحيح الجامع: ٣/ ٨٥.

المبحث الثاني
اثبات وجود الجن

المطلب الأول: لا مجال للتكذيب بعالم الجن

أنكرت قلة من الناس وجود الجنّ إنكاراً كلياً، وزعم بعض المشركين: أن المراد بالجن أرواح الكواكب[1].

وزعمت طائفة من الفلاسفة: أن المراد بالجن نوازع الشر في النفس الإنسانية وقواها الخبيثة، كما أن المراد بالملائكة نوازع الخير فيها[2].

وزعم فريق من المحْدَثين (بفتح الدال المخففة): أن الجن هم الجراثيم والميكروبات التي كشف عنها العلم الحديث.

وقد ذهب الدكتور محمد البهي إلى: أن المراد بالجن الملائكة، فالجن والملائكة عنده عالم واحد لا فرق بينهما، ومما استدل به: أن الملائكة مستترون عن الناس، إلا أنه أدخل في الجن من يتخفى من عالم الإنسان في إيمانه وكفره، وخيره وشره[3].

---

(١) مجموع الفتاوى: ٢٤/ ٢٨٠.

(٢) مجموع الفتاوى: ٤/ ٣٤٦.

(٣) تفسير سورة الجن: ص ٨.

عدم العلم ليس دليلاً:

وغاية ما عند هؤلاء المكذبين أنه لا علم عندهم بوجودهم، وعدم العلم ليس دليلاً[1]، وقبيح بالعاقل أن ينفي الشيء لعدم علمه بوجوده، وهذا مما نعاه الله على الكفرة: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ [يونس:٣٩]. وهذه المخترعات الحديثة التي لا يستطيع أحد أن يكابر فيها، أكان يجوز لإنسان عاش منذ مئات السنين أن ينكر إمكان حصولها لو أخبره صادق بذلك ؟ وهل عدم سماعنا للأصوات التي يعج بها الكون في كل مكان دليل على عدم وجودها، حتى إذا اخترعنا (الراديو)، واستطاع التقاط ما لا نسمعه بآذاننا صدقنا بذلك؟!

يقول الأستاذ سيد قطب - رحمه الله - في ظلاله متحدثا عن النفر من الجن الذين صرفهم الله إلى رسوله، فاستمعوا منه القرآن:

«إنَّ ذكر القرآن لحادث صَرْفِ نفر من الجن ليستمعوا القرآن من النبي ﷺ، وحكاية ما قالوا وما فعلوا، هذا وحده كافٍ بذاته لتقرير وجود الجن، ولتقرير وقوع الحادث، ولتقرير أنّ الجن هؤلاء يستطيعون أن يستمعوا للقرآن بلفظه العربي المنطوق، كما يلفظه رسول الله ﷺ، ولتقرير أن الجن خلق قابلون للإيمان وللكفران، مستعدون للهدى وللضلال، وليس هنالك من حاجة إلى زيادة تثبيت أو توكيد لهذه الحقيقة، فما يملك إنسان أن يزيد الحقيقة التي يقررها سبحانه ثبوتاً.

---

(١) ليس لهم أن يحتجوا بما ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس أنه كان ينكر مخاطبة الرسول ﷺ للجن وتكليمهم له، فإن إنكاره هنا للمشافهة لا للجن، ومع ذلك فغير ابن عباس كابن مسعود - يثبت مشافهة الرسول ﷺ لهم. ومن حفظ حجة على من لم يحفظ.

ولكنّا نحاول إيضاح هذه الحقيقة في التصور الإنساني.

إنّ هذا الكون من حولنا حافل بالأسرار، حافل بالقوى والخلائق المجهولة لنا كنهاً وصفةً وأثراً، ونحن نعيش في أحضان هذه القوى والأسرار، نعرف منها القليل، ونجهل منها الكثير، وفي كل يوم نكشف بعض هذه الأسرار، وندرك بعض هذه القوى، ونتعرف إلى بعض هذه الخلائق تارة بذواتها، وتارة بصفاتها، وتارة بمجرد آثارها في الوجود من حولنا.

ونحن ما نزال في أول الطريق، طريق المعرفة لهذا الكون، الذي نعيش نحن وآباؤنا وأجدادنا، ويعيش أبناؤنا وأحفادنا، على ذرة من ذراته الصغيرة ؛ هذا الكوكب الأرضي الذي لا يبلغ أن يكون شيئاً يذكر في حجم الكون أو وزنه !

وما عرفناه اليوم - ونحن في أول الطريق - يُعدّ بالقياس إلى معارف البشرية قبل خمسة قرون فقط عجائب أضخم من عجيبة الجن، ولو قال قائل للناس قبل خسمة قرون عن شيء من أسرار الذرة التي نتحدث عنها اليوم، لظنوه مجنوناً، أو لظنوه يتحدث عما هو أشد غرابة من الجن قطعاً!

ونحن نعرف ونكشف في حدود طاقتنا البشرية، المعدة للخلافة في هذه الأرض، ووفق مقتضيات هذه الخلافة، وفي دائرة ما سَخّرَه الله لنا؛ ليكشف لنا عن أسراره، وليكون لنا دلولاً، كيما نقوم بواجب الخلافة في الأرض، ولا تتعدى معرفتنا وكشوفنا في طبيعتها وفي مداها مهما امتد بنا الأجل - أي بالبشرية - ومهما سُخّر لنا من قوى الكون، وكُشِفَ لنا من أسراره - لا تتعدى تلك الدائرة؛ ما نحتاج إليه للخلافة في هذه الأرض،

وفق حكمة الله وتقديره.

وسنكشف كثيراً، وسنعرف كثيراً، وستتفتح لنا عجائب من أسرار هذا الكون وطاقاته، مِمّا قد تعدّ أسرار الذرة بالقياس إليه لعبة أطفال! ولكننا سنظل في حدود الدائرة المرسومة للبشر في المعرفة، وفي حدود قول الله سبحانه: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] قليلاً بالقياس إلى ما في هذا الوجود من أسرار وغيوب لا يعلمها إلا خالقه وَقَيّومه، وفي حدود تمثيله لعلمه غير المحدود، ووسائل المعرفة البشرية المحدودة بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧].

فليس لنا والحالة هذه أن نجزم بوجود شيء أو نفيه، وبتصوره أو عدم تصوره، من عالم الغيب والمجهول، ومن أسرار هذا الوجود وقواه، لمجرد أنه خارج عن مألوفنا العقلي، أو تجاربنا المشهودة، ونحن لم ندرك بعد كل أسرار أجسامنا وأجهزتها وطاقاتها، فضلاً عن إدراك أسرار عقولنا وأرواحنا!

وقد تكون هنالك أسرار، ليست داخلة في برنامج ما يُكشَف لنا عنه أصلاً، وأسرار ليست داخلة في برنامج ما يُكْشَف لنا عن كنهه، فلا يُكْشَف لنا إلا عن صفته أو أثره، أو مجرد وجوده؛ لأن هذا لا يفيدنا في وظيفة الخلافة في الأرض.

فإذا كَشَفَ الله لنا عن القدر المقسوم لنا من هذه الأسرار والقوى، عن طريق كلامه - لا عن طريق تجاربنا ومعارفنا الصادرة من طاقتنا الموهوبة لنا من لدنه أيضاً - فسبيلنا في هذه الحالة أن نتلقّى هذه الهبة بالقبول

والشكر والتسليم، نتلقاها كما هي، فلا نزيد عليها، ولا ننقص منها؛ لأن المصدر الوحيد الذي نتلقّى عنه مثل هذه المعرفة لم يمنحنا إلا هذا القدر بلا زيادة، وليس هنالك مصدر آخر نتلقى عنه مثل هذه الأسرار!».

والقول الحق أن الجن عالم ثالث غير الملائكة والبشر، وأنهم مخلوقات عاقلة واعية مدركة، ليسوا بأعراض ولا جراثيم، وأنهم مكلفون مأمورون منهيون.

المطلب الثاني: الأدلة الدالة على وجود الجن

١ - وجودهم معلوم من الدين بالضرورة:

يقول ابن تيمية[1]: «لم يخالف أحد من طوائف المسلمين في وجود الجن، ولا في أن الله أرسل محمداً ﷺ إليهم، وجمهور طوائف الكفار على إثبات الجن. أمّا أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فهم مقرّون بهم كإقرار المسلمين، وإن وجد فيهم من ينكر ذلك، كما يوجد في المسلمين من ينكر ذلك... كالجهمية والمعتزلة، وإن كان جمهور الطائفة وأئمتها مقرّين بذلك.

وهذا لأن وجود الجن تواترت به أخبار الأنبياء تواتراً معلوماً بالضرورة، ومعلوم بالضرورة أنهم أحياء عقلاء فاعلون بالإرادة، بل مأمورون منهيون، ليسوا صفات وأعراضاً قائمة بالإنسان أو غيره، كما يزعمه بعض الملاحدة، فلما كان أمر الجن متواتراً عن الأنبياء تواتراً تعرفه العامة والخاصة، فلا

(١) مجموع الفتاوى: ١٩/ ١٠.

يمكن لطائفة من المنتسبين إلى الرسل الكرام أن تنكرهم».

وقال أيضاً: «جميع طوائف المسلمين يقرون بوجود الجن، وكذلك جمهور الكفار كعامة أهل الكتاب، وكذلك عامة مشركي العرب وغيرهم من أولاد حام، وكذلك جمهور الكنعانيين واليونان من أولاد يافث، فجماهير الطوائف تقرّ بوجود الجن»[1].

وذكر إمام الحرمين: «أن العلماء أجمعوا في عصر الصحابة والتابعين على وجود الجن والشياطين، والاستعاذة بالله تعالى من شرورهم، ولا يراغم هذا الاتفاق متدين متشبث بمسكة من الدين»[2].

٢ - النصوص القرآنية والحديثية:

جاءَت نصوص كثيرة تقرر وجودهم كقوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الجن: ١]، وقوله: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦]. وهي نصوص كثيرة ذكرنا غالبها في ثنايا هذه الرسالة، وإن كانت كثرتها وشهرتها تغني عن ذكرها.

٣ - المشاهدة والرؤية:

كثير من الناس في عصرنا وقبل عصرنا شاهد شيئاً من ذلك، وإن كان كثير من الذين يشاهدونهم ويسمعونهم لا يعرفون أنهم جنّ؛ إذ يزعمون أنّهم أرواح، أو رجال الغيب، أو رجال الفضاء...

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٩/ ١٣.

(٢) آكام المرجان: ص ٤.

وأصدق ما يروى في هذا الموضع رؤية الرسول ﷺ للجن، وحديثه معهم، وحديثهم معه، وتعليمه إياهم، وتلاوته القرآن عليهم، وسيأتي ذكر ذلك في مواضعه.

رؤية الحمار والكلب للجن:

إذا كنا لا نرى الجن فإنّ بعض الأحياء يرونهم كالحمار والكلب، ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: (إذا سمعتم صياح الديكة، فاسألوا الله من فضله، فإنها رأت ملكاً، وإذا سمعتم نهيق الحمار، فتعوذوا بالله من الشيطان، فإنه رأى شيطاناً)[1].

وروى أبو داود عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا سمعتم نباح الكلاب ونهيق الحمير، فتعوذوا بالله، فإنهن يرون مالا ترون)[2].

ورؤية الحيوان لما لا نرى ليس غريباً، فقد تحقق العلماء من قدرة بعض الأحياء على رؤية مالا نراه، فالنحل يرى الأشعة فوق البنفسجية، ولذلك فإنّه يرى الشمس حال الغيم، والبومة ترى الفأر في ظلمة الليل البهيم...

---

(١) رواه البخاري: ٦/ ٣٥٠. ورقمه: ٣٣٠٣. ورواه مسلم: ٤/ ٢٠٩٢. ورقمه: ٢٧٢٩. وأبو داود في سننه. انظر صحيح سنن أبي داود: ٣/ ٩٦١. ورقمه: ٤٢٥٥.

(٢) صحيح سنن أبي داود: ٣/ ٩٦١. ورقمه: ٤٢٥٦.

المطلب الثالث

الرد على الذين يزعمون أن الجن هم الملائكة

سبق أن ذكرنا الحديث الذي يخبر فيه الرسول ﷺ: (أن الملائكة خلقوا من نور، وأن الجن خلقوا من نار)، ففرق الرسول ﷺ بين الأصلين، وهذا يدل على أنهما عالمان لا عالماً واحداً.

ومن نظر في النصوص المتحدثة عن الملائكة والجن، أيقن بالفرق الكبير بينهما، فالملائكة لا يأكلون ولا يشربون، ولا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، والجن يكذبون ويأكلون ويشربون، ويعصون ربهم، ويخالفون أمره.

نعم هما عالمان محجوبان عنا، لا تدركهما أبصارنا، ولكنهما عالمان مختلفان في أصلهما وصفاتهما.

المبحث الثالث
الشيطان والجان

المطلب الأول: التعريف بالشيطان

الشيطان الذي حدثنا الله عنه كثيراً في القرآن من عالم الجنّ، كان يعبد الله في بداية أمره، وسكن السماء مع الملائكة، ودخل الجنة، ثمّ عصى ربه عندما أمره أن يسجد لآدم، استكباراً وعلواً، فطرده الله من رحمته.

والشيطان في لغة العرب يطلق على كل عاتٍ متمرد، وقد أطلق على هذا المخلوق لعتوّه وتمرده على ربّه (شيطان). وأطلق عليه لفظ (الطاغوت): ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]. وهذا الاسم معلوم عند غالبية أمم الأرض باللفظ نفسه، كما يذكر العقاد في كتابه (إبليس)، وإنما سمي طاغوتاً لتجاوزه حده، وتمرده على ربه، وتنصيبه نفسه إلهاً يعبد.

وقد يئس هذا المخلوق من رحمة الله، ولذا أسماه الله (إبليس). والبَلَس في لغة العرب: من لا خير عنده، وأبلس: يئس وتحيّر.

والذي يطالع ما جاء في القرآن والحديث عن الشيطان يعلم أنه مخلوق يعقل ويدرك ويتحرك و...، وليس كما يقول بعض الذين لا يعلمون: «إنه روح الشّر متمثلة في غرائز الإنسان الحيوانية التي تصرفه - إذا تمكنت من قلبه - عن المثل الروحية العليا»[1].

(١) دائرة المعارف الحديثة: ص ٣٥٧.

المطلب الثاني: أصل الشيطان

سبق القول أن الشيطان من الجن، وقد نازع في هذه المسألة بعض المتقدمين والمتأخرين، وحجتهم في ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٣٤]. وهذه الآية وأمثالها يستثني الله فيها إبليس من الملائكة، والمستثنى لا يكون إلا من جنس المستثنى منه عادة.

وقد نقلت لنا كتب التفسير والتاريخ أقوال عدد من العلماء، يذكرون أن إبليس كان من الملائكة، وأنه كان خازناً للجنة، أو للسماء الدنيا، وأنه كان من أشرف الملائكة، وأكرمهم قبيلة... إلى آخر تلك الأقوال.

قال ابن كثير: «وقد روي في هذا آثار كثيرة عن السلف، وغالبها من الإسرائيليات التي تنقل لينظر فيها، والله أعلم بحال كثير منها، ومنها ما يقطع بكذبه؛ لمخالفته للحقّ الذي بأيدينا.

وفي القرآن غنية عن كل ما عداه من الأخبار المتقدمة؛ لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان، وقد وضع فيها أشياء كثيرة، وليس لهم من الحفّاظ المتقنين الذين ينفون عنها تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، كما لهذه الأمة من الأئمة، والعلماء، والسادة، والأتقياء، والبررة، والنجباء من الجهابذة النقاد، والحفاظ الجياد الذين دونوا الحديث، وحرروا وبينوا صحيحه، من حسنه، من ضعيفه، من منكره، وموضوعه، ومتروكه، ومكذوبه، وعرفوا الوضاعين، والكذابين، والمجهولين، وغير ذلك من أصناف الرجال. كل ذلك صيانة للجناب النبوي، والمقام المحمدي خاتم الرسل، وسيد البشر - ﷺ - أن ينسب إليه كذب، أو

يحدث عنه بما ليس فيه»[1].

وما احتجوا به من أن الله استثنى إبليس من الملائكة... ليس دليلاً قاطعاً، لاحتمال أن يكون الاستثناء منقطعاً، بل هو كذلك حقا، للنصّ على أنّه من الجن في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ... ﴾ [الكهف: ٥٠].

وقد ثبت لدينا بالنص الصحيح أن الجن غير الملائكة والإنس، فقد أخبر المصطفى ﷺ: (أن الملائكة خلقوا من نور، وأن الجن خلقوا من مارج من نار، وأن آدم خلق من طين). والحديث في صحيح مسلم.

قال الحسن البصري: «لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين»[2]. والذي حققه ابن تيمية: «أن الشيطان كان من الملائكة باعتبار صورته، وليس منهم باعتبار أصله، ولا باعتبار مثاله»[3].

هل الشيطان أصل الجن أم واحد منهم ؟

ليس لدينا نصوص صريحة تدلنا على أن الشيطان أصل الجن، أو واحد منهم، وإن كان هذا الأخير أظهر لقوله: ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ ﴾ [الكهف: ٥٠].

وابن تيمية رحمه الله يذهب إلى أن الشيطان أصل الجن، كما أنّ آدم أصل الإنس[4].

---

(١) تفسير ابن كثير: ٤/ ٣٩٧.
(٢) البداية والنهاية: ١/ ٧٩.
(٣) مجموع الفتاوى: ٤/ ٣٤٦.
(٤) راجع مجموع الفتاوى: ٤/ ٢٣٥، ٣٤٦.

المطلب الثالث: قبح صورة الشيطان

الشيطان قبيح الصورة، وهذا مستقر في الأذهان، وقد شبه الله ثمار شجرة الزقوم التي تنبت في أصل الجحيم برؤوس الشياطين، لما علم من قبح صورهم وأشكالهم، ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [الصافات: ٦٤-٦٥].

وقد كان النصارى في القرون الوسطى يصورون الشيطان على هيئة رجل أسود ذي لحية مدببة، وحواجب مرفوعة، وفم ينفث لهباً، وقرون وأظلاف وذيل[١].

المطلب الرابع: الشيطان له قرنان

في صحيح مسلم عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: (لا تَحَرّوا بصلاتكم طلوع الشمس، ولا غروبها، فإنّها تطلع بقرني شيطان)[٢].

وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: (إذا طلع حاجب الشمس فأخروا الصلاة حتى تبرز الشمس، وإذا غاب حاجب الشمس فأخروا الصلاة حتى تغيب، ولا تَحَيّنُوا بصلاتكم طلوع الشمس، ولا غروبها، فإنّها تطلع بين قرني شيطان)[٣].

---

(١) دائرة المعارف الحديثة: ٣٥٧.

(٢) صحيح مسلم: ١/ ٥٦٧. ورقمه: ٨٢٨.

(٣) رواه البخاري: ٦/ ٣٣٥. ورقمه: ٣٢٧٢، ٣٢٧٣. ورواه مسلم إلى قوله: (حتى تغيب): ١/ ٥٦٨. ورقمه: ٨٢٩.

والمعنى أن طوائف المشركين كانوا يعبدون الشمس، ويسجدون لها عند طلوعها، وعند غروبها، فعند ذلك ينتصب الشيطان في الجهة التي تكون فيها الشمس، حتى تكون عبادتهم له.

وقد جاء هذا مصرحا به في صحيح مسلم، فقد سأل عمرو بن عبسة السلمي الرسول عن الصلاة. فقال ﷺ: (صل صلاة الصبح، ثم أقصر الصلاة حتى تطلع الشمس، حتى ترتفع، فإنها تَطلع حين تطلع بين قرني شيطان، وحينئذ يسجد لها الكفار، ثمّ صلِّ، فإن الصلاة مشهودة محضورة).

ثم نهاه عن الصلاة بعد العصر (حتى تغرب الشمس، فإنها تغرب بين قرني شيطان، وحينئذ يسجد لها الكفار)[1].

وقد نهينا عن الصلاة في هذين الوقتين، والصحيح أن الصلاة في هذين الوقتين جائزة، إذا كان لها سبب كتحية المسجد، ولا تجوز بلا سبب كالنفل المطلق ؛ لقوله ﷺ: (لاتَحَيّنوا) ؛ أي لا تتقصدوا.

ومما ورد فيه ذكر قرن الشيطان حديث البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: رأيت رسول الله ﷺ يشير إلى المشرق، فقال: (ها إنَّ الفتنة هـٰهنا، إن الفتنة هـٰهنا من حيث يطلع قرن الشيطان)[2]. والمراد بقوله: (حيث يطلع الشيطان)؛ أي جهة الشرق.

---

(١) رواه مسلم: ١/ ٥٦٩، ورقمه: ٨٣٢.

(٢) رواه البخاري: ٦/ ٣٣٦. ورقمه: ٣٢٧٩.

المبحث الرابع
طعام الجن وشرابهم ونكاحهم

المطلب الأول: طعامهم وشرابهم

الجن - والشيطان منهم - يأكلون ويشربون، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي - ﷺ - أمره أن يأتيه بأحجار يستجمر بها وقال له: (ولا تأتيني بعظم ولا روثة)، ولما سأل أبو هريرة الرسول - ﷺ - بعد ذلك عن سرّ نهيه عن العظم والروثة، قال: (هما من طعام الجن، وإنّه أتاني وفد جن نصيبين - ونعم الجن - فسألوني الزاد، فدعوت الله لهم: أن لا يمروا بعظم ولا بروثة إلا وجدوا عليها طعماً)[1].

وفي سنن الترمذي بإسناد صحيح عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تستنجوا بالروث، ولا بالعظام، فإنّه زاد إخوانكم من الجن)[2].

وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود: أن رسول الله ﷺ قال: (أتاني داعي الجن، فذهبت معه، فقرأت عليهم القرآن)، قال: فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم، وسألوه الزاد فقال: (لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه

---

(١) رواه البخاري: ٧/ ١٧١. ورقمه: ٣٨٦٠. والطعم: الطعام. قال ابن حجر (فتح الباري: ٧/ ٧٣): «في رواية السرخسي: (إلا وجدوا عليها طعاماً).

(٢) صحيح سنن الترمذي: ١/ ٨. ورقمه: ١٧.

يقع في أيديكم، أوفر ما يكون لحماً، وكل بعرة علفٌ لدوابكم). فقال رسول الله ﷺ: (فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم)[1].

وكون الروث طعاماً للجن أو لدوابهم ليس العلة الوحيدة للنهي عن الاستنجاء بالروث، فقد ذكر الرسول ﷺ علة أخرى، فقد صرح بأن الروث رجس[2].

وقد أخبرنا الرسول ﷺ أنَّ الشيطانِ يأكل بشماله، وأمرنا بمخالفته في ذلك، روى مسلم في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنّ النبي ﷺ قال: (إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه، وإذا شرب فليشرب بيمينه، فإن الشيطان يأكل بشماله، ويشرب بشماله)[3].

وفي صحيح مسلم: (إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله وعند طعامه، قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء، وإذا دخل فلم يذكر الله عند دخوله، قال الشيطان: أدركتم المبيت، وإذا لم يذكر الله عند طعامه، قال: أدركتم المبيت والعشاء)[4]. ففي هذه النصوص دلالة قاطعة على أن الشياطين تأكل وتشرب.

وكما أن الإنس منهيون عن أكل ما لم يذكر اسم الله عليه من اللحوم، فكذلك الجن المؤمنون جعل لهم الرسول ﷺ طعاماً كل عظم ذكر اسم الله عليه، فلم يبح لهم متروك التسمية، ويبقى متروك التسمية لشياطين كفرة

---

(١) رواه مسلم: ١/ ٣٣٢. ورقمه: ٤٥٠. صحيح سنن الترمذي: ٣/ ١٠٤. ورقمه: ٢٥٩٥. إذا كنّا نهينا عن إفساد طعام الجن فيحرم علينا من باب أولى إفساد طعام الإنس.

(٢) هذا الحديث رواه البخاري في صحيحه: ١/ ٢٥٦. ورقمه: ١٥٦.

(٣) رواه مسلم: ٣/ ١٥٩٨. ورقمه: ٢٠٢٠.

(٤) صحيح مسلم: ٣/ ١٥٩٨. ورقمه: ٢٠١٨.

الجن، فإن الشياطين يستحلون الطعام إذا لم يذكر عليه اسم الله، ولأجل ذلك ذهب بعض العلماء إلى أن الميتة طعام الشياطين؛ لأنه لم يذكر اسم الله عليها.

واستنتج ابن القيم من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [المائدة: ٩٠] أن المسكر شراب الشيطان، فهو يشرب من الشراب الذي عمله أولياؤه بأمره، وشاركهم في عمله، فيشاركهم في شربه، وإثمه وعقوبته.

ويدل على صحة استنتاج ابن القيم ما رواه النسائي عن عبدالله بن يزيد قال: كتب إلينا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «أما بعد: فاطبخوا شرابكم حتى يذهب منه نصيب الشيطان؛ فإن له اثنين، ولكم واحد»[1].

المطلب الثاني: تزاوج الجن وتكاثرهم

الذي يظهر أن الجن يقع منهم النكاح، وقد استدل بعض العلماء على ذلك بقوله تعالى في أزواج أهل الجنة: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٥٦]. والطمث في لغة العرب: الجماع، وقيل هو الجماع الذي يكون معه تدمية تنتج عن الجماع.

وذكر السفاريني حديثاً يحتاج إلى نظر في إسناده، يقول: (إن الجن يتوالدون، كما يتوالد بنو آدم، وهم أكثر عدداً)[2].

---

(١) صحيح سنن النسائي: ٣/ ١١٥٤. ورقمه: ٥٢٧٥.

(٢) رواه ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في: العظمة، عن قتادة.

وسواء أصح هذا الحديث أم لم يصح، فإن الآية صريحة في أن الجن يتأتى منهم الطمث، وحسبنا هذا دليلاً.

وأخبرنا ربنا أن الشيطان له ذرية، قال تعالى مبكتاً عباده الذين يتولون الشيطان وذريته: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ﴾ [الكهف: ٥٠]، وقال قتادة: «أولاد الشيطان يتوالدون كما يتوالد بنو آدم، وهم أكثر عدداً»[١].

المطلب الثالث: دعوى بعض أهل العلم أن الجن لا يأكلون ولا يشربون ولا يتناكحون

وقد زعم قوم أن الجن لا يأكلون ولا يشربون، ولا يتناكحون، وهذا القول تبطله الأدلة التي سقناها من الكتاب والسنة.

وذكر بعض العلماء أن الجن أنواع: منهم من يأكل ويشرب، ومنهم من ليس كذلك؛ يقول وهب بن منبه: «الجنّ أجناس، فأمّا خالص الجن فهم ريح لا يأكلون، ولا يشربون، ولا يموتون، ولا يتوالدون، ومنهم أجناس يأكلون، ويشربون، ويتوالدون، ويتناكحون، ويموتون، قال: وهي هذه السعالي والغول وأشباه ذلك». أخرجه ابن جرير[٢].

وهذا الذي ذكره وهب يحتاج إلى دليل، ولا دليل.

---

(١) لقط المرجان: ص ٥١.

(٢) لوامع الأنوار: ٢/ ٢٢٢.

وقد حاول بعض العلماء الخوض في الكيفية التي يأكلون بها، هل هو مضغ وبلع، أو تشمم واسترواح، والبحث في ذلك خطأ لا يجوز؛ لأنّه لا علم لنا بالكيفية، ولم يخبرنا الله ورسوله ﷺ بها.

المطلب الرابع: زواج الإنس من الجن[1]

لا زلنا نسمع أن فلاناً من الناس تزوج جنية، أو أن امرأة من الإنس خطبها جني، وقد ذكر السيوطي آثاراً وأخباراً عن السلف والعلماء تدل على وقوع التناكح بين الإنس والجن[2]. يقول ابن تيمية[3]: «وقد يتناكح الإنس والجن ويولد بينهما ولد، وهذا كثير معروف».

وعلى فرض إمكان وقوعه فقد كرهه جمع من العلماء كالحسن وقتادة والحكم وإسحاق. والإمام مالك - رحمه الله - لا يجد دليلاً ينهى عن مناكحة الجن، غير أنّه لم يستحبه، وعلل ذلك بقوله: «ولكني أكره إذا وجدت امرأة حاملاً فقيل من زوجك ؟ قالت: من الجن، فيكثر الفساد»[4].

وذهب قوم إلى المنع من ذلك، واستدلوا على مذهبهم بأنّ الله امتنّ على عباده من الإنس بأنّه جعل لهم أزواجاً من جنسهم: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً

(١) إن شئت التوسع في هذه المسألة فارجع إلى آكام المرجان: ص ٦٦.
(٢) لقط المرجان: ص ٥٣.
(٣) مجموع الفتاوى: ١٩/ ٣٩.
(٤) آكام المرجان: ص ٦٧.

وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

فلو وقع فلا يمكن أن يحدث التآلف والانسجام بين الزوجين لاختلاف الجنس، فتصبح الحكمة من الزواج لاغية ؛ إذ لا يتحقق السكن والمودة المشار إليهما في الآية الكريمة.

وعلى كلٍّ فهذه مسألة يزعم بعض الناس وقوعها في الحاضر والماضي، فإذا حدثت فهي شذوذ، قلما يسأل فاعلها عن حكم الشرع فيها، وقد يكون فاعلها مغلوباً على أمره لا يمكنه أن يتخلص من ذلك.

ومما يدل على إمكان وقوع التناكح بين الإنس والجن قوله تعالى في حور الجنة: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٥٦]، فدلت الآية على صلاحيتهن للإنس والجن على حد سواء.

المبحث الخامس
أعمار الجن وموتهم

لا شك أن الجن - ومنهم الشياطين - يموتون ؛ إذ هم داخلون في قوله تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٨].

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان يقول: (أعوذ بعزتك، الذي لا إله إلا أنت، الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون)[1].

أما مقدار أعمارهم فلا نعلمها، إلا ما أخبرنا الله عن إبليس اللعين، أنه سيبقى حيّاً إلى أن تقوم الساعة: ﴿ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾[الأعراف: ١٤-١٥].

أما غيره فلا ندري مقدار أعمارهم، إلا أنهم أطول أعماراً من الإنس.

ومما يدلّ على أنهم يموتون أن خالد بن الوليد قتل شيطانة العزى، (الشجرة التي كانت تعبدها العرب)، وأن صحابياً قتل الجني الذي تمثل بأفعى، كما سيأتي بيانه.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه: ٤/١٩٠٦. ورقمه: ٢٤٥١.

المبحث السادس
مساكن الجن ومجالسهم وأماكنهم

الجن يسكنون هذه الأرض التي نعيش فوقها، ويكثر تجمعهم في الخراب والفلوات، ومواضع النجاسات كالحمامات والحشوش والمزابل والمقابر، ولذلك - كما يقول ابن تيمية - يأوي إلى كثير من هذه الأماكن، التي هي مأوى الشياطين: الشيوخ الذين تقترن بهم الشياطين. وقد جاءت الأحاديث ناهية عن الصلاة في الحمام؛ لأجل ما فيها من نجاسة، ولأنها مأوى الشياطين، وفي المقبرة؛ لأنها ذريعة إلى الشرك.

ويكثر تجمعهم في الأماكن التي يستطيعون أن يفسدوا فيها كالأسواق، فقد أوصى سلمان بعض أصحابه قائلا: «لا تكونن، إن استطعت، أول من يدخل السوق، ولا آخر من يخرج منها، فإنها معركة الشياطين، وبها ينصب رايته»[1].

والشياطين تبيت في البيوت التي يسكنها الناس، وتطردها التسمية، وذكر الله، وقراءة القرآن، خاصة سورة البقرة، وآية الكرسي منها، وأخبر الرسول ﷺ أن الشياطين تنتشر، وتكثر بحلول الظلام، ولذا أمرنا أن نكف صبياننا في هذه الفترة، وهو حديث متفق عليه.

والشياطين تهرب من الأذان، وفي رمضان تُصَفّد الشياطين.

والشياطين تحب الجلوس بين الظل والشمس؛ ولذا نهى الرسول ﷺ عن الجلوس بينهما، وهو حديث صحيح مروي في السنن وغيرها.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه: ٤/١٩٠٦. ورقمه: ٢٤٥١.

المبحث السابع
دواب الجن ومراكبهم

في حديث ابن مسعود في صحيح مسلم: أنَّ الجن سألوا الرسول ﷺ الزاد، فقال: (لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه، يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحماً، وكل بعرة علف لدوابكم)[1].

فأخبر أن لهم دواباً، وأن علف دوابهم بعر دواب الإنس.

وأخبرنا ربنا أن للشيطان خيلاً يجلب بها على أعدائه من بني آدم قال تعالى: ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ [الإسراء: ٦٤].

حيوانات تصاحبها الشياطين:

من هذه الحيوانات الإبل، يقول الرسول ﷺ: (إن الإبل خلقت من الشياطين، وإن وراء كل بعير شيطاناً). رواه سعيد بن منصور في سننه بإسنادٍ مرسل حسن[2]. ومن أجل ذلك نهى الرسول ﷺ عن الصلاة في مبارك الإبل، فعن البراء بن عازب أن الرسول ﷺ قال: (لا تصلوا في مبارك الإبل، فإنها من الشياطين، وصلوا في مرابض الغنم، فإنها بركة)[3].

---

(١) رواه مسلم: ٣/ ٣٣٢. ورقمه: ٤٥٠.

(٢) صحيح الجامع: ٢/ ٥٢.

(٣) رواه أبو داود. انظر صحيح سنن أبي داود: ١/ ٣٧. ورقمه: ١٦٩.

وعن عبدالله بن مغفل قال: قال رسول الله ﷺ: (صلوا في مرابض الغنم، ولا تصلوا في أعطان الإبل، فإنها خلقت من الشياطين)[1].

وهذه الأحاديث ترد على من قال: إنّ علة النهي عن الصلاة في مبارك الإبل نجاسة أبوالها وروثها، فالصحيح أن روث وبول ما يؤكل لحمه غير نجس.

وقد تساءَل أبو الوفاء ابن عقيل عن معنى قول النبي ﷺ: (إن الكلب الأسود شيطان)، ومعلوم أنه مولود من كلب، و (أن الإبل خلقت من الشياطين) مع كونها مولودة من الإبل.

وأجاب: أنّ هذا على طريق التشبيه لها بالشياطين، لأن الكلب الأسود أشرّ الكلاب وأقلها نفعاً، والإبل تشبه الجن في صعوبتها وصولتها، كما يقال: فلان شيطان؛ إذا كان صعباً شريراً[2].

ويدل لصحة قول ابن عقيل أن الأحياء في عالمنا الأرضي مخلوقة من الماء، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، والشياطين مخلوقة من النار.

---

(١) صحيح سنن ابن ماجه: ١/١٢٨. ورقمه: ٦٢٣.

(٢) آكام المرجان: ص ٢٢. لقط المرجان: ص٤٢.

المبحث الثامن
قدرات الجن وعجزهم

المطلب الأول: ما أعطاه الله للجن من قدرات

أعطى الله الجنّ قدرة لم يعطها للبشر، وقد حدثنا الله عن بعض قدراتهم، فمن ذلك:

أولاً: سرعة الحركة والانتقال:

فقد تعهد عفريت من الجن لنبي الله سليمان بإحضار عرش ملكة اليمن إلى بيت المقدس في مدة لا تتجاوز قيام الرجل من جلوسه، فقال الذي عنده علم من الكتاب: أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ * قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى...﴾ [النمل: ٣٩-٤٠].

ثانياً: سبقهم الإنسان في مجالات الفضاء:

ومنذ القدم كانوا يصعدون إلى أماكن متقدمة في السماء، فيسترقون أخبار السماء، ليعلموا بالحَدَث قبل أن يكون، فلما بعث الرسول ﷺ زيدت الحراسة في السماء: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا

وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٨-٩].

وقد وضح الرسول ﷺ كيفية استراقهم السمع، فعن أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ: (إذا قضى الله الأمر في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله، كأنه سلسلة على صفوان، فاذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحق، وهو العلي الكبير.

فيسمعها مسترقو السمع، ومسترقو السمع هكذا بعضه فوق بعض - ووصف سفيان بكفه، فحرفها وبدد بين أصابعه - فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة. فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟، فيصدّق بتلك الكلمة التي سمع من السماء)[1].

خرافة جاهلية:

ومعرفة السبب الذي من أجله يرمي بشهب السماء قضى على خرافة كان يتناقلها أهل الجاهلية، فعن عبدالله بن عباس قال: أخبرني رجل من أصحاب النبي ﷺ من الأنصار: أنهم بينما هم جلوس ليلة مع رسول الله ﷺ رمي بنجم فاستنار، فقال لهم رسول الله ﷺ: (ماذا كنتم تقولون في الجاهلية إذا رمي بمثل هذا)؟

قالوا: الله ورسوله أعلم، كنا نقول: ولد الليلة رجل عظيم، ومات

(١) رواه البخاري في صحيحه: ٨/ ٥٣٨. ورقمه: ٤٨٠٠.

رجل عظيم، فقال رسول الله ﷺ: (فإنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته؛ ولكنَّ ربنا - تبارك وتعالى اسمه - إذا قضى أمراً سبّح حملة العرش، ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم، حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء الدنيا، ثمّ قال الذين يلون حملة العرش لحملة العرش: ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم ماذا قال، قال فيستخبر بعض أهل السموات بعضاً؛ حتى يبلغ الخبر هذه السماء الدنيا، فتخطف الجنّ السمع، فيقذفون إلى أوليائهم، ويرمون به، فما جاؤوا به على وجهه فهو حق، ولكنهم يَقْرِفون فيه ويزيدون)[1].

وقد يكون استراقهم السمع بطريق أهون عليهم من الطريق الأولى، وذلك بأن تستمع الشياطين إلى الملائكة الذين يهبطون إلى العنان بما يكون من أحداث قدرها الله، فعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: (الملائكة تتحدث في العنان - والعنان الغمام - بالأمر يكون في الأرض، فتستمع الشياطين الكلمة، فتقرها في أذن الكاهن كما تقرّ القارورة، فيزيدون معها مائة كذبة)[2].

ثالثاً: علمهم بالإعمار والتصنيع:

أخبرنا الله أنه سخر الجن لنبيّه سليمان، فكانوا يقومون له بأعمال كثيرة تحتاج إلى قدرات، وذكاء، ومهارات: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ * يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ [سبأ: ١٢-١٣].

---

(١) رواه مسلم: ٤/ ١٧٥٠. ورقمه: ٢٢٢٩.
ومعنى يقرفون فيه أي الصدق بالكذب: يقذفون.

(٢) رواه البخاري: ٦/ ٣٣٨. ورقمه: ٣٢٨٨.

ولعلهم قد توصلوا منذ القدم إلى اكتشاف مثل (الراديو والتلفزيون)، فقد ذكر ابن تيمية أن بعض الشيوخ الذين كان لهم اتصال بالجن أخبره وقال له: «إن الجن يرونه شيئاً براقاً مثل الماء والزجاج، ويمثلون له فيه ما يطلب منه من الأخبار به، قال فأخبر الناس به، ويوصلون إليّ كلام من استغاث بي من أصحابي، فأجيبه، فيوصلون جوابي إليه»[1].

رابعاً: قدرتهم على التشكل:

للجن قدرة على التشكل بأشكال الإنسان والحيوان، فقد جاء الشيطان المشركين يوم بدر في صورة سراقة بن مالك، ووعد المشركين بالنصر، وفيه أنزل: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨].

ولكن عندما التقى الجيشان، وعاين الملائكة تتنزل من السماء، ولى هارباً: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ [الأنفال: ٤٨].

وقد جرى مع أبي هريرة قصة طريفة رواها البخاري وغيره؛ قال أبو هريرة: (وكلني رسول الله بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام، فأخذته، وقلت: والله لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، قال: إني محتاج، وعليّ عيال، ولي حاجة شديدة، قال: فخليت عنه، فأصبحت، فقال النبي ﷺ: يا أبا هريرة، (ما فعل أسيرك البارحة ؟)

قال: قلت: يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالاً، فرحمته، فخليت

---

(١) مجموع الفتاوى: ١١/ ٣٠٩.

سبيله، قال: (أما إنه كذبك وسيعود)، فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ: إنه سيعود، فرصدته، فجاءَ يحثو من الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ؛ قال: دعني فإني محتاج، وعليّ عيال، لا أعود، فرحمته، فخليت سبيله، فأصبحت، فقال لي رسول الله ﷺ: (يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك ؟) قلت: يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالاً، فرحمته، فخليت سبيله.

قال: (أما إنه كذبك وسيعود)، فرصدته الثالثة، فجعل يحثو من الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، وهذا آخر ثلاث مرات، إنك تزعم لا تعود، ثمّ تعودُ ! قال: دعنى أعلمك كلمات ينفعك الله بها، قال: قلت: ما هنّ؟

قال: إذا أويت إلى فراشك، فاقرأ آية الكرسي ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [البقرة:٢٥٥] حتى تختم الآية، فإنّك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربنّك شيطان حتى تصبح، فخليت سبيله، فقال لي رسول الله ﷺ: (ما فعل أسيرك البارحة ؟) قلت: يا رسول الله زعم أنّه يعلمني كلمات ينفعني الله بها، فخليت سبيله، قال: ما هي ؟ قلت: قال لي: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الآية ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [البقرة:٢٥٥] وقال لي: لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، وكانوا أحرص شيء على الخير.

قال النبي: (أما إنه قد صدقك وهو كذوب، تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة؟) قال: لا، قال: (ذاك شيطان)[1].

(١) صحيح البخاري: ٤/٤٨٦. ورقمه: ٢٣١١. ويرى بعض العلماء أن الحديث منقطع؛ لأنه لم=

فقد تشكل هذا الشيطان في صورة إنسان.

وقد يتشكل في صورة حيوان: جمل، أو حمار، أو بقرة، أو كلب، أو قط، وأكثر ما تتشكل بالأسود من الكلاب والقطط. وقد أخبر الرسول ﷺ أن مرور الكلب الأسود يقطع الصلاة، وعلل ذلك بأن (الكلب الأسود شيطان)[1]. يقول ابن تيمية: «الكلب الأسود شيطان الكلاب، والجن تتصور بصورته كثيراً، وكذلك بصورة القط الأسود؛ لأن السواد أجمع للقوى الشيطانية من غيره، وفيه قوة الحرارة».

جنان البيوت:

تتشكل الجان بشكل الحيات وتظهر للناس، ولذا نهى الرسول ﷺ عن قتل حيات البيوت، خشية أن يكون هذا المقتول جنياً قد أسلم، ففي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: (إنّ بالمدينة جنّاً قد أسلموا، فإذا رأيتم منهم شيئاً فآذنوه ثلاثة أيام، فإن بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه، فإنما هو شيطان)[2].

وقد قتل أحد الصحابة حيّة من حيات البيوت، فكان في ذلك هلاكه، روى مسلم في صحيحه: أن أبا السائب دخل على أبي سعيد الخدري في بيته، فوجده يصلي، قال: (فجلست أنتظره حتى يقضي صلاته، فسمعت تحريكاً في عراجين في ناحية البيت، فالتفت، فإذا حيّة، فوثبت لأقتلها،

= يصرح بالسماع من شيخه عثمان بن الهيثم، والحديث وصله النسائي وغيره. انظر: فتح الباري: ٤/٤٨٨.

(١) رواه مسلم: ١/٣٦٥. ورقمه: ٥١٠.

(٢) رواه مسلم: ٤/١٧٥٦. ورقمه: ٢٢٣٦.

فأشار إليّ؛ أن اجلس، فجلست.

فلما انصرف أشار إلى بيت في الدار، فقال: أترى هذا البيت؟ فقلت: نعم. قال: كان فيه فتى منّا حديث عهد بعرس، قال: فخرجنا مع رسول الله إلى الخندق، فكان ذلك الفتى يستأذن رسول الله ﷺ بأنصاف النهار، فيرجع إلى أهله، فاستأذنه يوماً فقال له رسول الله ﷺ: (خذ عليك سلاحك، فإني أخشى عليك قريظة).

فأخذ الرجل سلاحه، ثمّ رجع، فإذا امرأته بين البابين قائمة، فأهوى إليها الرمح ليطعنها به، وأصابته غيرة، فقالت له: اكفف رمحك، وادخل البيت حتى تنظر ما الذي أخرجني.

فدخل فإذا بحية عظيمة منطوية على الفراش، فأهوى إليها بالرمح فانتظمها به، ثم خرج، فركزه في الدار، فاضطربت عليه، فما يدرى أيهما كان أسرع موتاً: الحية أم الفتى!

قال: فجئنا إلى رسول الله ﷺ، فذكرنا ذلك له، وقلنا: ادع الله يحييه لنا فقال: (استغفروا لصاحبكم)، ثم قال: (إنّ بالمدينة جنّاً قد أسلموا، فإذا رأيتم منهم شيئاً فآذنوه ثلاثة أيام، فإن بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه، فإنّما هو شيطان)[1].

تنبيهات مهمة حول قتل حيات البيوت:

١- هذا الحكم، وهو النهي عن قتل الحيوانات خاص بالحيات دون غيرها.

---

(١) رواه مسلم: ٤/١٧٥٦. ورقمه: ٢٢٣٦.

٢- وليس كل الحيات؛ بل الحيات التي نراها في البيوت دون غيرها، أمّا التي نشاهدها خارج البيوت فنحن مأمورون بقتلها.

٣- إذا رأينا حيات البيوت فنؤذنها؛ أي نأمرها بالخروج، كأن نقول: أقسم عليك بالله أن تخرجي من هذا المنزل، وأن تبعدي عنّا شرّك وإلا قتلناك. فإن رؤيت بعد ثلاثة أيام قتلت.

٤- والسبب في قتلها بعد ثلاثة أيام أننا تأكدنا أنها ليست جنّاً مسلماً، لأنها لو كانت كذلك، لغادرت المنزل. فإن كانت أفعى حقيقية فهي تستحق القتل، وإن كانت جنّا كافراً متمرداً فهو يستحق القتل؛ لأذاه وإخافته أهل المنزل.

٥- يستثنى من جنان البيوت نوع يقتل بدون استئذان، ففي صحيح البخاري عن أبي لبابة أن الرسول ﷺ قال: (لا تقتلوا الجِنَّان، إلا كلّ أبتر ذي طُفْيَتَيْن؛ فإنه يسقط الولد، ويذهب البصر، فاقتلوه)[١].

وهل كل الحيات من الجنّ أم بعضها ؟ يقول الرسول ﷺ: (الحيّات مسخ الجنّ صورة، كما مسخت القردة والخنازير من بني إسرائيل)[٢].

خامساً : الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم من العروق:

في صحيحي البخاري ومسلم عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم)[٣]، وفي الصحيحين عن صفية

---

(١) رواه البخاري: ٦/ ٣٥١. ورقمه: ٣٣١١.

(٢) رواه الطبراني، وأبو الشيخ في العظمة، باسناد صحيح، راجع الأحاديث الصحيحة: ١٠٤.

(٣) صحيح البخاري: ١٣/ ١٥٩. ورقمه: ٧١٧١. ورواه مسلم: ٤/ ١٧١٢. ورقمه: ٢١٧٥.

بنت حيي زوج النبي ﷺ قالت: «كان رسول الله ﷺ معتكفاً، فأتيته أزوره ليلاً، فحدثته، ثمّ قمت فانقلبت، فقام معي ليقلبني (يردني) وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد، فمرّ رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا، فقال النبي ﷺ: (على رسلكما، إنها صفية بنت حيي)، فقالا: سبحان الله يا رسول الله !! قال: (إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما سوءاً)، أو قال: (شيئاً)»[1].

المطلب الثاني: جوانب ضعف الجن وعجزهم

الجن والشياطين كالإنس فيهم جوانب قوة، وجوانب ضعف، قال تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، وسنعرض لبعض هذه الجوانب التي عرفنا الله ورسوله بها.

أولاً: لا سلطان لهم على عباد الله الصالحين:

لم يعط الرَّب - سبحانه - الشيطان القدرة على إجبار الناس، وإكراههم على الضلال والكفر: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٥]. ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ [سبأ: ٢١].

ومعنى ذلك أن الشيطان ليس له طريق يتسلط بها عليهم، لا من جهة الحجة، ولا من جهة القدرة، والشيطان يدرك هذه الحقيقة: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ

(١) رواه البخاري: ٦/ ٣٣٦. ورقمه: ٣٢٨١.

أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩-٤٠].

وإنما يتسلط على العباد الذين يرضون بفكره، ويتابعونه عن رضا وطواعية: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢]. وفي يوم القيامة يقول الشيطان لأتباعه الذين أضلهم وأهلكهم: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وفي آية أخرى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٠٠].

والسلطان الذي أعطيه الشيطان هو تسلطه عليهم بالإغواء والإضلال، وتمكنه منهم، بحيث يؤزهم على الكفر والشرك ويزعجهم إليه، ولا يدعهم يتركونه، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣]، ومعنى تؤزهم: تحركهم وتهيجهم.

وسلطان الشيطان على أوليائه ليس لهم فيه حجّة وبرهان، وإنما استجابوا له بمجرد دعوته إياهم، لما وافقت أهواءَهم وأغراضهم، فهم الذين أعانوا على أنفسهم، ومكنوا عدوهم من سلطانه عليهم بموافقته ومتابعته، فلما أعطوا بأيديهم، واستأسروا له، سُلّط عليهم عقوبةً لهم. فالله لا يجعل للشيطان على العبد سلطاناً، حتى يجعل له العبد سبيلاً بطاعته والشرك به، فجعل الله حينئذ له عليه تسلطاً وقهراً.

تسليطه على المؤمنين بسبب ذنوبهم:

ففي الحديث: (إن الله - تعالى - مع القاضي ما لم يَجُر، فإذا جار تبرأ منه، وألزمه الشيطان). رواه الحاكم، والبيهقي بإسناد حسن[1].

ويروي لنا أبو الفرج ابن الجوزي - رحمه الله - عن الحسن البصري- رحمه الله - قصة طريفة، وبغض النظر عن مدى صحتها فهي تصور قدرة الإنسان على قهر الشيطان إذا أخلص دينه لله، وكيف يصرع الشيطان الإنسان إذا ضلّ وزاغ.

يقول الحسن: كانت شجرة تعبد من دون الله، فجاء إليها رجل، فقال: لأقطعن هذه الشجرة، فجاء ليقطعها غضباً لله، فلقيه إبليس في صورة إنسان، فقال: ما تريد ؟ قال: أريد أن أقطع هذه الشجرة التي تعبد من دون الله، قال: إذا أنت لم تعبدها فما يضرك من عبدها ؟ قال: لأقطعنها.

فقال له الشيطان: هل لك فيما هو خير لك ؟ لا تقطعها، ولك ديناران كل يوم إذا أصبحت عند وسادتك. قال: فمن أين لي ذلك ؟ قال: أنا لك. فرجع، فأصبح فوجد دينارين عند وسادته، ثمّ أصبح بعد ذلك، فلم يجد شيئاً. فقام غضباً ليقطعها، فتمثل له الشيطان في صورته، وقال: ما تريد ؟ قال: أريد قطع هذه الشجرة التي تعبد من دون الله تعالى، قال: كذبت، ما لك إلى ذلك من سبيل.

فذهب ليقطعها، فضرب به الأرض، وخنقه حتى كاد يقتله، قال: أتدري من أنا ؟ أنا الشيطان، جئت أول مرة غضباً لله، فلم يكن لي عليك

(١) انظر صحيح الجامع: ٢/ ١٣٠.

سبيل، فخدعتك بالدينارين، فتركتها، فلما جئت غضباً للدينارين سلطت عليك[1].

وقد حدثنا الله في كتابه عن شخص آتاه الله آياته، فعلمها، وعرفها، ثمّ إنه ترك ذلك كله، فسلط الله عليه الشيطان، فأغواه، وأضله، وأصبح عبرة تروى، وقصة تتناقل: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦]. وواضح أن هذا مثل لمن عرف الحق وكفر به كاليهود الذين يعلمون أن محمداً مرسل من ربه، ثم هم يكفرون به.

أما هذا الذي عناه الله هنا، فقال بعضهم: هو بلعام بن باعورا، كان صالحاً ثم كفر، وقيل: هو أمية بن أبي الصلت من المتألهين في الجاهلية، أدرك الرسول ﷺ، ولم يؤمن به حسداً، وكان يرجو أن يكون هو النبي المبعوث، وليس عندنا نص صحيح يعرفنا بالمراد من الآية على وجه التحديد.

وهذا الصنف (الذي يؤتى الآيات ثم يكفر) صنف خطر، به شَبَه من الشيطان ؛ لأنّ الشيطان كفر بعد معرفته الحق، ولقد تخوف الرسول ﷺ هذا النوع على أمته، روى الحافظ أبو يعلى عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: (إن مما أتخوف عليكم رجلاً قرأ القرآن حتى إذا رئيت بهجته عليه، وكان رداؤه الإسلام اعتراه إلى ما شاء الله انسلخ منه، ونبذه

(١) تلبيس إبليس: ٤٣.

وراء ظهره، وسعى على جاره بالسيف، ورماه بالشرك). قال: قلت: يا رسول الله: أيهما أولى بالسيف: الرامي أم المرمي ؟ قال: (بل الرامي)، قال ابن كثير: وهذا إسناد جيد[1].

ثانياً: خوف الشيطان من بعض عباد الله وهربه منهم:

إذا تمكن العبد في الإسلام، ورسخ الإيمان في قلبه، وكان وقّافاً عند حدود الله، فإنّ الشيطان يفرق منه، ويفرّ منه، كما قال الرسول ﷺ لعمر بن الخطاب: (إن الشيطان ليخاف منك يا عمر)[2]، وقال فيه أيضاً: (إني لأنظر إلى شياطين الجنّ والإنس قد فرّوا من عمر)[3]، وفي صحيح البخاري عن سعد بن أبي وقاص أن رسول الله ﷺ قال لعمر بن الخطاب: (والذي نفسي بيده، ما لقيك الشيطان سالكاً فجاً إلا سلك فجاً غير فجك)[4].

وليس ذلك خاصاً بعمر، فإن مَن قوي إيمانه يقهر شيطانه، ويذله، كما في الحديث: (إن المؤمن لينصي شيطانه كما ينصي أحدكم بعيره في السفر). رواه أحمد. قال ابن كثير[5] بعد أن ساق هذا الحديث: «ومعنى لينصي شيطانه: ليأخذ بناصيته، فيغلبه، ويقهره، كما يفعل بالبعير إذا شرد ثم غلبه».

---

(١) انظر تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٥٢.

(٢) صحيح سنن الترمذي: ٣/ ٢٠٦. ورقمه: ٢٩١٣.

(٣) صحيح سنن الترمذي: ٣/ ٢٠٦. ورقمه: ٢٩١٤.

(٤) رواه البخاري: ٦/ ٣٣٩. ورقمه: ٣٢٩٤.

(٥) البداية والنهاية: ١/ ٧٣، وفي رواية أخرى: (لينضي شيطانه) أي يهزله ويجعله نضواً أي مهزولاً لكثرة إذلاله له وجعله أسيراً تحت قهره وتصرفه.

وقد يصل الأمر أن يؤثر المسلم في قرينه الملازم له فيسلم، أخرج مسلم في صحيحه عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: (ما منكم من أحد إلا وقد وُكّل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة)، قالوا: وإياك يا رسول الله ؟ قال: (وإياي، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير)[1].

ثالثاً : تسخير الجن لنبي الله سليمان:

سخر الله لنبيه سليمان - في جملة ما سخر - الجن والشياطين، يعملون له ما يشاء، ويعذب ويسجن العصاة منهم: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ * وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ * وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ [ص: ٣٦-٣٨].

وقال في سورة سبأ: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ * يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ [سبأ: ١٢-١٣].

وهذا التسخير على هذا النحو استجابة من الله لعبده سليمان حين دعاه وقال: ﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ﴾ [ص: ٣٥]. وهذه الدعوة هي التي منعت نبينا محمداً ﷺ من ربط الجني الذي جاء بشهاب من نار، يريد أن يرميه في وجهه، ففي صحيح مسلم عن أبي الدرداء قال: قام رسول الله ﷺ، فسمعناه يقول: (أعوذ بالله منك) ثم قال: (ألعنك بلعنة الله ثلاثاً)، وبسط يده كأنه يتناول شيئاً.

---

(١) رواه مسلم: ٤/ ٢١٦٧. ورقمه: ٢٨١٤.

فلما فرغ من الصلاة قلنا: يا رسول الله! لقد سمعناك تقول في الصلاة شيئاً، لم نسمعك تقوله قبل ذلك، ورأيناك بسطت يدك، فقال: (إن عدوّ الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي، فقلت: أعوذ بالله منك ثلاث مرات، ثم قلت: ألعنك بلعنة الله التامة، فلم يستأخر ثلاث مرات، ثم أردت أخذه، والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقاً يلعب به ولدان أهل المدينة)[1].

وقد تكرر هذا أكثر من مرة، ففي الصحيحين عن أبي هريرة أن الرسول ﷺ قال: (إن عفريتاً من الجن جعل يفتك علي البارحة ليقطع عليّ الصلاة، وإن الله أمكنني منه، فَذَعَتُّهُ، فلقد هممت أن أربطه إلى جنب سارية من سواري المسجد، حتى تصبحوا تنظرون إليه أجمعون، (أو كلكم)، ثمّ ذكرت قول أخي سليمان: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾، فرده الله خاسئاً)[2]. ومعنى يفتك: الفتك: الأخذ غفلة. وقوله: (ذعته)، أي: خنقته.

كذب اليهود على نبي الله سليمان:

يزعم اليهود وأتباعهم الذين يستخدمون الجن بوساطة السحر أن نبي الله سليمان كان يستخدم الجنّ به، وقد ذكر غير واحد من علماء السلف أنَّ سليمان لما مات كتبت الشياطين كتب السحر والكفر، وجعلتها تحت كرسيه، وقالوا: كان سليمان يستخدم الجن بهذه، فقال بعضهم: لولا أن هذا حق جائز لما فعله سليمان، فأنزل الله قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ

(١) رواه مسلم: ١/ ٣٨٥. ورقمه: ٥٤٢.

(٢) رواه البخاري: ٦/ ٥٤٧. ورقمه: ٣٤٢٣. ورواه مسلم: ١/ ٣٨٤. ورقمه: ٥٤١.

عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١]، ثم بين أنهم اتبعوا ما كانت تتلوه الشياطين على عهد ملك سليمان، وبرأ سليمان من السحر والكفر: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟﴾ [البقرة: ١٠٢].

رابعاً: عجزهم عن الإتيان بالمعجزات:

لا تستطيع الجن الإتيان بمثل المعجزات التي جاءت بها الرسل تدليلاً على صدق ما جاءت به.

فعندما زعم بعض الكفرة أن القرآن من صنع الشياطين قال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ * وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠-٢١٢].

وتحدى الله بالقرآن الإنس والجن: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

خامساً: لا يتمثلون بالرسول ﷺ في الرؤيا:

والشياطين تعجز عن التمثل في صورة الرسول ﷺ في الرؤيا:

ففي الحديث الذي يرويه الترمذي عن أبي هريرة عن الرسول ﷺ: (من رآني فإني أنا هو، فإنه ليس للشيطان أن يتمثل بي)[1].

---

(١) صحيح سنن الترمذي: ٢/ ٢٦٠. ورقمه: ١٨٥٩.

وفي الصحيحين عن أنس قال: قال النبي ﷺ: (من رآني في المنام فقد رآني، فإن الشيطان لايتمثل بي). رواه مسلم من رواية أبي هريرة. وفي صحيح البخاري: (وإن الشيطان لا يتراءَى بي).

وفيه من رواية أبي سعيد: (من رآني فقد رأى الحقّ، فإن الشيطان لا يتكونني).

وفي الصحيحين من رواية أبي هريرة: (ولا يتمثل الشيطان بي).

وفي صحيح مسلم من حديث جابر: (من رآني في المنام فقد رآني، إنه لا ينبغي للشيطان أن يتمثل في صورتي). وفي رواية أخرى عن جابر: (فإنه لا ينبغي للشيطان أن يتشبه بي)[1].

والظاهر من الأحاديث أن الشيطان لا يتزيّا بصورة الرسول ﷺ الحقيقية، ولا يمنعه هذا من التمثل في غير صورة الرسول ﷺ والزعم بأنّه رسول الله، وهذا ما فقهه ابن سيرين رحمه الله، فيما نقله عنه البخاري[2]

ولذلك فلا يجوز أن يحتج بهذا الحديث على أن كل من رأى الرسول ﷺ في المنام أنّه رآه حقّاً، إلا إذا كانت صفته هي الصفة التي روتها لنا كتب الحديث. وإلا فكثير من الناس يزعم أنّه رآه على صورة مخالفة للصورة المروية في كتب الثقات.

---

(١) انظر أحاديث عدم قدرة الشيطان على التمثل بالرسول ﷺ في البخاري: ١٢/ ٣٨٣. وأرقامها: ٦٩٩٣-٦٩٩٧. وفي صحيح مسلم: ٤/ ١٧٧٥. وأرقامها: ٢٢٦٦-٢٢٦٨.

(٢) صحيح البخاري: ١٢/ ٣٨٣.

سادساً : لا يستطيع الجن أن يتجاوزوا حدودهم في أجواز الفضاء :

قال تعالى: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ [الرحمن: ٣٣-٣٥]

فمع قدراتهم وسرعة حركتهم لهم حدود لا يستطيعون أن يتعدوها، وإلا فإنهم هالكون.

سابعاً : لا يستطيعون فتح باب أغلق وذكر اسم الله عليه :

روى البخاري في صحيحه عن جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا كان جنح الليل - أو أمسيتم - فكفوا صبيانكم، فإن الشياطين تنتشر حينئذٍ، فإذا ذهب ساعة من الليل فحلوهم، وأغلقوا الأبواب، واذكروا اسم الله، فإن الشيطان لا يفتح باباً مغلقاً)[1].

وفي لفظ لمسلم عن جابر: (غطوا الإناء، وأوكوا السقاء، وأغلقوا الباب، وأطفئوا السراج، فإن الشيطان لا يحلّ سقاءً، ولا يفتح باباً، ولايكشف إناء)[2].

---

(١) صحيح البخاري: ٦/ ٣٥٠، ١٠/ ٨٨. ورقمهما: ٣٣٠٤، ٥٦٢٣. ورواه مسلم: ٣/ ١٥٩٥. ورقمه: ٢٠١٢.

(٢) صحيح مسلم: ٣/ ١٥٩٤. ورقمه: ٢٠١٢.

الفصل الثاني
تكليف الجن

المبحث الأول
الغاية من خلقهم

خلق الله الجن للغاية نفسها التي خلق الإنس من أجلها: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

فالجن على ذلك مكلفون بأوامر ونواهٍ، فمن أطاع رضي الله عنه، وأدخله الجنة، ومن عصى وتمرد، فله النار، يدلّ على ذلك نصوص كثيرة.

ففي يوم القيامة يقول الله مخاطباً كفرة الجن والإنس موبخاً مبكتاً: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

ففي هذه الآيات دليل على بلوغ شرع الله الجن، وأنه قد جاءهم من ينذرهم ويبلغهم.

والدليل على أنهم سيعذبون في النار قوله تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ

خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨]، وقال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقال: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]. والدليل على أن المؤمنين من الجن يدخلون الجنة قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ * فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦-٤٧].

والخطاب هنا للجن والإنس ؛ لأن الحديث في مطلع السورة معهما، وفي الآية السابقة امتنان من الله على مؤمني الجن بأنهم سيدخلون الجنة، ولولا أنهم ينالون ذلك لما امتن عليهم به.

يقول ابن مفلح في كتابه الفروع: «الجن مكلفون في الجملة إجماعاً، يدخل كافرهم النار إجماعاً، ويدخل مؤمنهم الجنة وفاقاً لمالك والشافعي رضي الله عنهما، لا أنهم يصيرون تراباً كالبهائم، وإن ثواب مؤمنهم النجاة من النار، خلافاً لأبي حنيفة، والليث بن سعد ومن وافقهم».

قال: «وظاهر الأول أنهم في الجنة كغيرهم بقدر ثوابهم، خلافاً لمن قال لا يأكلون ولا يشربون كمجاهد، أو أنهم في ربض الجنّة، حول الجنة كعمر بن عبد العزيز، قال ابن حامد في كتابه: «الجن كالإنس في التكليف والعبادات»[1].

وقد عقد الشبلي باباً قال فيه: «باب في أن الجن مكلفون بإجماع أهل النظر». نقل فيه عن أبي عمر بن عبد البر: أن الجن عند الجماعة مكلفون مخاطبون لقوله تعالى: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣]. وقال الرازي في تفسيره: «أطبق الكل على أن الجن كلهم مكلفون».

---

(١) لوامع الأنوار البهية: ٢/ ٢٢٢-٢٢٣.

ونقل الشبلي عن القاضي عبدالجبار قوله: «لا نعلم خلافاً بين أهل النظر في أنّ الجن مكلفون، وقد حكى عن بعض المؤلفين في المقالات أن الحشوية قالوا: إنهم مضطرون إلى أفعالهم، وأنهم ليسوا مكلفين».

قال: «والدليل على أنهم مكلفون ما في القرآن من ذمّ الشياطين ولعنهم، والتحرز من غوائلهم وشرهم، وذكر ما أعد الله لهم من العذاب، وهذه الخصال لا يفعلها الله تعالى إلا لمن خالف الأمر والنهي، وارتكب الكبائر، وهتك المحارم، مع تمكنه من أن لا يفعل ذلك، وقدرته على فعل خلافه، ويدل على ذلك أيضاً أنه كان من دين النبي ﷺ لعن الشياطين، والبيان عن حالهم، وأنهم يدعون إلى الشر والمعاصي، ويوسوسون بذلك. وهذا كله يدل على أنهم مكلفون، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الجن: ١] إلى قوله: ﴿فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: ٢]»[1].

تكليفهم بحسبهم:

يقول ابن تيمية: «الجن مأمورون بالأصول والفروع بحسبهم، فإنهم ليسوا مماثلين للإنس في الحدّ والحقيقة؛ فلا يكون ما أمروا به ونهوا عنه مساوياً لما على الإنس في الحدّ، لكنهم مشاركون الإنس في جنس التكليف بالأمر والنهي، والتحليل والتحريم، وهذا ما لم أعلم فيه نزاعاً بين المسلمين»[2].

---

(١) غرائب وعجائب الجن، للشبلي: ص٤٩.

(٢) مجموع الفتاوى: ٤/ ٢٣٣.

المبحث الثاني
كيف يعذبون بالنار وقد خلقوا من النار

يورد بعض الناس شبهة فيقولون: أنتم تقررون أن الجن خلقوا من نار، ثمّ تقولون: إنّ كافرهم يعذب في نار جهنم، ومسترق السمع منهم يقذف بشهب من نار، فكيف تؤثر النار فيهم وقد خلقوا منها ؟

الجواب: أنّ الأصل الذي خلقوا منه النار، أمّا بعد خلقهم فليسوا كذلك، إذ أصبحوا خلقاً مخالفاً للنار، يوضح هذا أن الإنسان خلق من تراب، ثم بعد إيجاده أصبح مخالفاً للتراب، ولو ضربت إنساناً بقطعة مشوية من الطين لقتلته، ولو رميته بالتراب لآذاه، ولو دفنته فيه لاختنق، فمع أنه من تراب إلا أن التراب يؤذيه، فكذلك الجن.

قال أبو الوفاء ابن عقيل: «أضاف الشياطين والجان إلى النار حسب ما أضاف الإنسان إلى التراب والطين والفخار، والمراد به في حق الإنسان أن أصله الطين، وليس الآدمي طيناً حقيقة، لكنه كان طيناً، كذلك الجان كان ناراً في الأصل»[1].

لا نسب بين الجن ورب العزة:

هذا الذي ذكرناه من أن الجن خلق من خلق الله، وعباد من جملة عباده، خلقهم لطاعته، وكلفهم بشريعته، يقضي على الخرافات التي تنشأ

(١) لقط المرجان في أحكام الجان: ص ٣٣.

عن الانحراف في التصور، وعن ضمور العلم وكثرة الجهل، فمن ذلك ما شاع عند اليهود ومشركي العرب، من أن الله - تعالى وتقدس- خطب من سروات الجنّ وتزوج منهم، وكان الملائكة ثمرة هذا الزواج، وقد حكى الله هذه الخرافة وبين بطلانها: ﴿ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [الصافات: ١٥٨-١٦٠].

قال ابن كثير عند تفسيره هذه الآيات: «قال مجاهد: قال المشركون: الملائكة بنات الله - تعالى عما يقولون - فقال أبو بكر - رضي الله عنه -: فمن أمهاتهنّ ؟ قالوا: بنات سروات الجنّ. وبمثل قول مجاهد قال قتادة وابن زيد...، وقال العوفي عن ابن عباس: زعم أعداء الله أنه - تبارك وتعالى - هو وإبليس أخوان، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً»[1].

(١) تفسير ابن كثير: ٤/ ٢٤.

المبحث الثالث
رسل الله إلى الجن

بما أنهم مكلفون فلا بدّ أن يبلغهم الله وحيه، ويقيم عليهم الحجة، فكيف حصل ذلك ؟ هل لهم رسل منهم، كما للبشر رسل منهم، أم أن رسلهم هم رسل البشر ؟.

إن قوله: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ [الأنعام: ١٣٠] يدلّ على أن الله أرسل إليهم رسلاً، ولكنها لم تصرح بأن هؤلاء الرسل من الجن أو من الإنس؛ لأن قوله: ﴿مِّنكُمۡ﴾ يحتمل الأمرين ؛ فقد يكون المراد أن رسل كل جنس منهم، وقد يراد أن رسل الإنس والجن من مجموعهما، فيصدق على أحدهما وهم الإنس. وقد اختلف في ذلك على قولين:

الأول: أن للجن رسلاً منهم، وممن قال بهذا القول الضحاك، وقال ابن الجوزي: وهو ظاهر الكلام، وقال ابن حزم: «لم يبعث إلى الجن نبي من الإنس ألبتّة قبل محمد ﷺ».

الثاني: أن رسل الجن من الإنس: قال السيوطي: «جمهور العلماء، سلفاً وخلفاً، على أنه لم يكن من الجن قط رسول ولا نبي، كذا روي عن ابن عباس ومجاهد والكلبي وأبي عبيد»[1].

(١) لوامع الأنوار البهية: ٢/ ٢٢٣-٢٢٤، وانظر لقط المرجان: ٧٣.

ومما يرجح أن رسل الإنس هم رسل الجن قول الجن عند سماع القرآن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ [الأحقاف: ٣٠]، ولكنه ليس نصّاً في المسألة.

وهذه المسألة لا يبنى عليها عمل، وليس فيها نص قاطع.

المبحث الرابع

عموم رسالة محمد ﷺ إلى الإنس والجن

رسولنا محمد ﷺ مرسل إلى الجنّ والإنس، يقول ابن تيمية[1]: «وهذا أصل متفق عليه بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة المسلمين، وسائر طوائف المسلمين: أهل السنة والجماعة، وغيرهم.

يدل على ذلك تحدي القرآن الجن والإنس، ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

وقد سارع فريق من الجن إلى الإيمان عندما استمعوا القرآن: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا * يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ١-٢].

وهؤلاء الذين استمعوا القرآن وآمنوا هم المذكورون في سورة الأحقاف: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ * قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ * يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَن لَّا

(١) مجموع الفتاوى: ١٩/ ٩.

يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣٢]. استمعوا للقرآن، وآمنوا به، ورجعوا دعاة يدعون قومهم إلى التوحيد والإيمان، ويبشرونهم وينذرونهم.

وقصة هؤلاء الذين استمعوا للرسول ﷺ يرويها البخاري ومسلم عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «انطلق النبي ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب، قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، وانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء.

فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ وهو بنخلة، عامدين إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن، استمعوا له، فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك حين رجعوا إلى قومهم فقالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا * يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ١-٢].

فأنزل الله على نبيه ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ١]، وإنما أوحي إليه قول الجن»[1].

وفود الجن الذين تلقوا العلم من الرسول ﷺ:

تلك كانت بداية معرفة الجنّ برسالة محمد ﷺ، استمعوا لقراءة القرآن بدون علم الرسول ﷺ، فآمن فريق منهم، وانطلقوا دعاة هداة.

(١) رواه البخاري: ١/ ٢٥٣. ورقمه: ٧٧٣. ورواه مسلم ١/ ٣٣١، ورقمه: (٤٤٩).

ثمّ جاءَت وفود الجنّ بعد ذلك تتلقى العلم من الرسول ﷺ، وأعطاهم الرسول ﷺ من وقته، وعلمهم مما علمه الله، وقرأ عليهم القرآن، وبلغهم خبر السماء. . . وكان ذلك في مكة قبل الهجرة.

روى مسلم في صحيحه عن عامر، قال: سألت علقمة: هل كان ابن مسعود شهد مع رسول الله ﷺ ليلة الجن ؟ قال: فقال علقمة: أنا سألت ابن مسعود، فقلتُ: هل شهد أحدٌ منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ قال: لا، ولكنا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة، ففقدناهُ، فالتمسناهُ في الأودية والشعابِ، فقلنا: استطير أو اغتيل، قال فبتنا بشر ليلة بات بها قومٌ، فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء، قال: فقلنا: يا رسول الله ! فقدناك فطلبناك فلم نجدك، فبتنا بشر ليلةٍ بات بها قومٌ. فقال: (أتاني داعي الجنّ، فذهبتُ معه، فقرأتُ عليهم القرآن). قال: فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم، وسألوه الزاد، فقال: (لكم كلُّ عظمٍ ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم؛ أوفر ما يكون لحماً. وكل بعرةٍ علفٌ لدوابّكم).

فقال رسول الله ﷺ: (فلا تستنجوا بهما، فإنهما طعامُ إخوانكم)[1].

ومما قرأه عليهم سورة الرحمن، قال السيوطي: «أخرج الترمذي، وابن المنذر، وأبو الشيخ في العظمة، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: «خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها، فسكتوا فقال: (ما لي أراكم سكوتاً، لقد قرأتها على الجن ليلة

---

(١) رواه مسلم: ١/ ٣٣٢. ورقمه: ٤٥٠.

الجن، فكانوا أحسن مردوداً منكم، كنت كلما أتيت على قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا: ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد)[1].

ولم تكن تلك الليلة هي الليلة الوحيدة، بل تكرر لقاؤه ﷺ بالجنّ بعد ذلك، وقد ساق ابن كثير في تفسير سورة الأحقاف - الأحاديث التي وردت بشأن اجتماعه ﷺ بالجن، وفي بعضها أن ابن مسعود كان قريباً من الرسول ﷺ في إحدى تلك الليالي.

وقد ورد في بعض الروايات في صحيح البخاري: أن بعض الجن الذين أتوه كانوا من ناحية من نواحي اليمن من مكان يسمى (نصيبين)، فقد روى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (أتاني وفد نصيبين - ونعم الجن - فسألوني الزاد، فدعوت الله لهم ألا يمروا بعظم ولا روثة إلا وجدوا عليها طعاماً)[2].

---

(١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور، للسيوطي: ٧/ ٦٩٠.

(٢) رواه البخاري: ٧/ ١٧١. ورقمه: ٣٨٦٠.

المبحث الخامس
دعوتهم الإنس إلى الخير وشهادتهم للمسلم ومراتبهم في الصلاح والفساد

وفي الأحاديث أن بعض الجن كان له دور في هداية الإنس، ففي صحيح البخاري: أن عمر بن الخطاب سأل رجلاً كان كاهناً في الجاهلية عن أعجب ما جاءته به جنيته. قال: (بينما أنا يوماً في السوق جاءتني أعرف فيها الفزع، فقالت:

ألم تر الجنّ وإبْلاسها ويأسها بعد إنْكاسها

ولحوقها بالقلاص وأحْلاسها[1]

قال عمر: صدق، بينما أنا نائم عند آلهتهم، إذ جاء رجل بعجل فذبحه، فصرخ به صارخ، لم أسمع صارخاً قط أشد صوتاً منه، يقول: يا جليح، أمر نجيح، رجل فصيح، يقول: لا إله إلا الله، قال: فوثب القوم، قلت: لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا، ثم نادى: يا جليح، أمر نجيح، رجل فصيح، يقول: لا إله إلا الله، فقمت، فما نَشِبْنا أن قيل: هذا نبي»[2].

---

(١) الإبلاس: اليأس، والحزن، والانكسار. والإنكاس: الضعف، والهوان، والقلاص: جمع قلوص، وهي الناقة الشابة، والحلس: ما يوضع فوق ظهر الدابة كالسرج.

(٢) صحيح البخاري: ٧/ ١٧٧. ورقمه: ٣٨٦٦.

قال ابن كثير في تفسير سورة الأحقاف بعد أن ساق هذا الحديث: (هذا سياق البخاري، وقد رواه البيهقي من حديث ابن وهب بنحوه، ثم قال: وظاهر هذه الرواية يوهم أن عمر - رضي الله عنه - بنفسه سمع الصارخ يصرخ من العجل الذي ذبح، وكذلك هو صريح في رواية ضعيفة عن عمر رضي الله عنه، وسائر الروايات تدل على أن الكاهن هو الذي أخبر بذلك عن رؤيته وسماعه، والله أعلم، ثم قال: وهذا الرجل (الكاهن) هو سواد بن قارب).

وسيأتي الحديث الذي يخبر فيه الرسول ﷺ بأن قرينه من الجن أسلم، فلا يأمره إلا بخير.

وقد قال أبو سعيد الخدري لأبي صعصعة: (إني أراك تحب الغنم والبادية، فإذا كنت في غنمك أو باديتك فأذنت بالصلاة، فارفع صوتك بالنداء، فإنّه لا يسمع مدى صوت المؤذن جنّ ولا إنس، ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة)، قال أبو سعيد: سمعته من رسول الله ﷺ[1]. فقد أخبر أن الجن يشهدون يوم القيامة لمن يسمعون صوت أذانه.

وهم في الصلاح والفساد مراتب:

فمنهم الكامل في الاستقامة والطيبة وعمل الخير، ومنهم من هو دون ذلك، ومنهم البله المغفلون، ومنهم الكفرة، وهم الكثرة الكاثرة.

يقول الله سبحانه في حكايته عن الجن الذين استمعوا إلى القرآن: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ [الجن: ١١]؛ أي منهم الكاملون

---

(١) رواه البخاري: ٢/٨٨. حديث رقم: ٦٠٩.

في الصلاح، ومنهم أقل صلاحاً، فهم مذاهب مختلفة، كما هو حال البشر.

ويقول الله عنهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا * وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٤-١٥]؛ أي: أنّ منهم المسلمين، والظالمين أنفسهم بالكفر، فمن أسلم منهم، فقد قصد الهدى بعمله، ومن ظلم نفسه، فهو حطب جهنم.

المبحث السادس
طبيعة الشيطان وهل يمكن أن يسلم

أعطى الله الجنّ القدرة على الإيمان والكفر، ولذلك كان الشيطان عابداً مع الملائكة ثم كفر.

فلما تحوّل إلى الكفر، ورضي به، وأصبح محباً للشرّ، طالباً له، يتلذذ بفعله والدعوة إليه، ويحرص عليه بمقتضى خبث نفسه، وإن كان موجباً لعذابه: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص: ٨٢-٨٣].

وهذا يكون في الإنسان، فالإنسان إذا فسدت نفسه أو مزاجه، يشتهي ما يضره، ويلتذ به، بل يعشق ذلك عشقاً يفسد عقله ودينه وخلقه وبدنه وماله، وحسبك أن تتأمل في حال شارب الخمر وشارب الدخان، فإنّ هذين المشروبين يقتلان شاربيهما، ويفتكان بهما، ولا يستطيعان منهما خلاصاً إلا بشق الأنفس.

هل يمكن أن يسلم الشيطان ؟

الشيطان الأكبر الذي هو إبليس لا يمكن أن يسلم لخبر الله فيه أنه سيبقى على الكفر، أما غيره فالذي يظهر لنا أن الشيطان يمكن أن يسلم، بدليل أن شيطان الرسول ﷺ أسلم[1]، إلا أنّ بعض العلماء يرفض ذلك

(١) الحديث الذي يخبر فيه الرسول ﷺ أن الله أعانه على شيطانه فأسلم، فلا يأمره إلا بالخير، رواه=

ويقول: إن الشيطان لا يكون مؤمناً، منهم شارح الطحاوية ووجه قوله: (فأسلم) ؛ أي فانقاد واستسلم[1].

وبعض العلماء يرى أن الرواية (فأسلمُ) برفع الميم، أي فأنا أسلمُ منه، ومع أن شارح الطحاوية يرى أنّ رواية الرفع تحريف للفظ، إلا أن النووي في شرحه على مسلم قال: «هما روايتان مشهورتان» وعزا إلى الخطابي أنّه رجح رواية الضم، وحكى عن القاضي عياض أنه اختار الفتح، وهو اختيار النووي[2].

وممن يرى أن الشيطان يمكن أن يسلم ابن حبان، قال معلقاً على الحديث: «في هذا الخبر دليل على أن شيطان المصطفى ﷺ أسلم، حتى إنه لم يكن يأمره إلا بخير، إلا أنّه كان يسلم منه وإن كان كافراً».

وما ذهب إليه شارح الطحاوية من أنّ الشيطان لا يكون إلا كافراً فيه نظر، فإن كان يرى أن الشيطان لا يطلق إلا على كافر الجن، فهذا صحيح، وإن كان يرى أن الشيطان لا يمكن أن يتحول إلى الإسلام، فهو بعيد جدّا، والحديث حجّة عليه، وحسبنا أن نعلم أن الشيطان كان مؤمناً ثمّ كفر، وأن الشياطين مكلفون بالإيمان، معذبون على كفرهم، فالإيمان والكفر حالتان تعتوران هذا المخلوق كالإنسان.

= مسلم في صحيحه: ٤/ ٢١٦٨. ورقمه: ٢٨١٤.

(١) شرح العقيدة الطحاوية: ص ٤٣٩.

(٢) شرح النووي على مسلم: ١٧/ ١٥٨.

الفصل الثّالث
العداء بين الانسان والشيطان

المبحث الأوّل
أسباب العداء وتاريخه وشدة هذا العداء

العداء بين الإنسان والشيطان عداء بعيد الجذور، يعود تاريخه إلى اليوم الذي صور الله فيه آدم، قبل أن ينفخ فيه الروح، فأخذ الشيطان يطيف به، ففي صحيح مسلم عن أنس: أنّ رسول الله ﷺ قال: (لما صوّر الله آدم في الجنة، تركه ما شاء الله أن يتركه، فجعل إبليس يُطيف به، ينظر ما هو، فلما رآه أجوف، عرف أنه خلق خلقاً لا يتمالك)[1].

فلما نفخ الله في آدم الروح، وأمر الملائكة بالسجود لآدم، وكان إبليس يتعبد الله مع ملائكة السماء، فشمله الأمر، ولكنه تعاظم في نفسه واستكبر، وأبى السجود لآدم: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

لقد فتح أبونا آدم عينيه، فإذا به يجد أعظم تكريم، يجد الملائكة ساجدين له، ولكنّه يجد عدواً رهيباً يتهدده وذريته بالهلاك والإضلال.

---

(١) رواه مسلم: ٤/٢٠١٦، ورقمه: ٢٦١١.

وطرد الله الشيطان من جنة الخلد بسبب استكباره، وحصل على وعد من الله بإبقائه حيّاً إلى يوم القيامة: ﴿ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤-١٥]، وقد قطع اللعين على نفسه عهداً بإضلال بني آدم: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦-١٧].

وقوله هذا يصور مدى الجهد الذي يبذله لإضلال ابن آدم، فهو يأتيه من كل طريق، عن اليمين وعن الشمال، ومن الأمام ومن الخلف؛ أي من جميع الجهات، قال الزمخشري في تفسير هذه الآية: «ثم لآتينهم من الجهات الأربع التي يأتي منها العدو في الغالب، وهذا مثل لوسوسته إليهم، وتسويله لهم ما أمكنه وقدر عليه كقوله: ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤][1].

تحذير الرحمن من الشياطين:

وقد أطال القرآن في تحذيرنا من الشيطان لعظم فتنته، ومهارته في الإضلال، ودأبه وحرصه على ذلك. ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وقال: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ﴾ [فاطر: ٦]، وقال: ﴿ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١١٩]. وعداوة الشيطان لا تحول ولا تزول؛ لأنه يرى أن طرده

---

(١) تفسير الكشاف: ٢/ ٧١.

ولعنه وإخراجه من الجنة كان بسبب أبينا آدم، فلا بدّ أن ينتقم من آدم وذريته من بعده: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢].

وأرباب السلوك اعتنوا بذكر النفس وعيوبها وآفاتها، ولكنهم قصّروا في التعرف على عدوهم اللدود.

المبحث الثاني
أهداف الشيطان

المطلب الأول: الهدف البعيد

هناك هدف وحيد يسعى الشيطان لتحقيقه في نهاية الأمر، هو أن يلقي الإنسان في الجحيم، ويحرمه من الجنّة، ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

المطلب الثاني: الأهداف القريبة

ذلك هو هدف الشيطان البعيد، أما أهدافه القريبة فإنها كثيرة منها:

١ - إيقاع العباد في الشرك والكفر:

وذلك بدعوتهم إلى عبادة غير الله، والكفر بالله وبشريعته: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ﴾ [الحشر: ١٦].

وروى مسلم في صحيحه عن عياض بن حمار أن النبي ﷺ خطب ذات يوم، فقال في خطبته: (يا أيها الناس، إن الله أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا، كل مال نحلته عبداً حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين، فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم

ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً)[1].

٢- إيقاعهم في الذنوب والمعاصي:

فإذا لم يستطع إيقاعهم في الشرك والكفر، فإنه لا ييأس، ويرضى بما دون ذلك من إيقاعهم في الذنوب والمعاصي، وغرس العداوة والبغضاء في صفوفهم، ففي سنن الترمذي: (ألا وإن الشيطان قد أيس أن يعبد في بلادكم هذه أبداً، ولكن ستكون له طاعة فيما تحتقرون من أعمالكم، فسيرضى به)[2].

وفي صحيح مسلم عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم)[3]؛ أي بإيقاع العداوة والبغضاء بينهم، وإغراء بعضهم ببعض، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١].

وهو يأمر بكل شر: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٩].

وخلاصة الأمر: أن كل عبادة محبوبة لله بغيضة إلى الشيطان، وكل معصية مكروهة للرحمن محبوبة للشيطان.

٣ - إيقاعهم في البدعة:

وهي أحب إلى الشيطان من الفسوق والمعاصي ؛ لأن ضررها في

---

(١) رواه مسلم: ٤/ ٢١٩٧. ورقمه: ٢٨٦٥.

(٢) صحيح سنن الترمذي: ٢/ ٢٣٠. ورقمه: ١٧٥٣.

(٣) مشكاة المصابيح: ١/ ٢٧. ورقمه: ١٠.

الدين، قال سفيان الثوري: «البدعة أحب إلى إبليس من المعصية ؛ لأن المعصية يتاب منها، والبدعة لا يتاب منها»[1].

٤ - صدّه العباد عن طاعة الله:

وهو لا يكتفي بدعوة الناس إلى الكفر والذنوب والمعاصي، بل يصدهم عن فعل الخير، فلا يترك سبيلاً من سبل الخير، يسلكه عبد من عباد الله إلا قعد فيه، يصدّهم ويميل بهم، فعن سبرة بن أبي فاكه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام، فقال: تسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء آبائك ؟! فعصاه، فأسلم.

ثم قعد له بطريق الهجرة، فقال: تهاجر وتدع أرضك وسماءك ؟ وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطول[2]. فعصاه، فهاجر.

ثم قعد له بطريق الجهاد، فقال: تجاهد فهو جهد النفس والمال، فتقاتل فتقتل، فتنكح المرأة ويقسم المال ؟! فعصاه، فجاهد.

فمن فعل ذلك، كان حقّا على الله أن يدخله الجنّة، ومن قتل، كان حقّاً على الله أن يدخله الجنّة، وإن غرق، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، أو وقصته دابته، كان حقّاً على الله أن يدخله الجنة)[3].

ومصداق ذلك في كتاب الله ما حكاه الله عن الشيطان أنه قال لرب

---

(١) غرائب وعجائب الجن، للشبلي: ص ٢٠٦.

(٢) الطول: الحبل الطويل، يشد أحد طرفيه في وتد أو غيره، والطرف الآخر في يد الفرس ليدور فيه، ويرعى ولا يذهب لوجهه.

(٣) صحيح سنن النسائي: ٢/ ٦٥٧. ورقمه: ٢٩٣٧.

العزة: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦-١٧].

وقوله: ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ﴾ أي: على صراطك، فهو منصوب بنزع الخافض، أو هو منصوب بفعل مضمر، أي: لألزمنّ صراطك، أو لأرصدَنّه، أو لأعوجنه.

وعبارات السلف في تفسير الصراط متقاربه، فقد فسره ابن عباس: بأنه الدين الواضح، وابن مسعود: بأنه كتاب الله، وقال جابر: هو الإسلام، وقال مجاهد: هو الحق.

فالشيطان لا يدع سبيلاً من سبل الخير إلا قعد فيه يصد الناس عنه.

٥ - إفساد الطاعات:

إذا لم يستطع الشيطان أن يصدهم عن الطاعات، فإنه يجتهد في إفساد العبادة والطاعة، كي يحرمهم الأجر والثواب، ومن ذلك أن الصحابي عثمان بن أبي العاص أتى إلى النبي ﷺ فقال: «إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي، يَلبِسها عليّ».

فقال رسول الله ﷺ: (ذلك شيطان يقال له: خِنْزب، فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه، واتفل على يسارك ثلاثاً). قال: ففعلت ذلك، فأذهبه الله عني»[1].

فإذا دخل العبد صلاته أجلب عليه الشيطان يوسوس له، ويشغله عن طاعة الله، ويذكِره بأمور الدنيا؛ ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة

(١) رواه مسلم: ٤/١٧٢٨. ورقمه: ٢٢٠٣.

رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: (إذا نودي للصلاة أدبر الشيطان وله ضراط، حتى لا يسمع التأذين، فإذا قضي النداء أقبل، حتى إذا ثوب بالصلاة أدبر، حتى يخطر بين المرء ونفسه، يقول اذكر كذا، اذكر كذا، لما لم يكن يذكر، حتى يظل الرجل لايدري كم صلى)[1].

دفع الشيطان الإنسان للمرور بين يدي المصلي:

عن أبي صالح السمّان قال:: رأيت أبا سعيد الخدري في يوم الجمعة يصلي إلى شيء يستُرُهُ من الناس، فأراد شابٌّ من بني أبي مُعيط أن يجتاز بين يديه، فدفع أبو سعيد في صدره، فنظر الشاب فلم يجد مساغاً إلا بين يديه، فعاد ليجتاز فدفعه أبو سعيد أشد من الأولى، فنال من أبي سعيد، ثم دخل مروان فشكا إليه ما لقي من أبي سعيد، ودخل أبو سعيد خلفه على مروان، فقال: مالك ولابن أخيك يا أبا سعيد ؟ قال: سمعتُ النبي ﷺ يقول: (إذا صلى أحدكم إلى شيء يستُرُهُ من الناس فأراد أحدٌ أن يجتاز بين يديه فليدفعه، فإن أبى، فليقاتله، فإنما هو شيطان)[2].

والمراد بقوله: (فإنما هو شيطان)؛ أي فعله فعل شيطان كما يقول ابن حجر العسقلاني.

إلا أن ابن حجر ذكر احتمالاً آخر أصح من الأول، فإنه قال: (ويحتمل أن يكون المعنى: فإنما الحامل على ذلك الشيطان، وقد وقع في رواية الإسماعيلي: (فإن معه الشيطان)، ونحوه لمسلم من حديث ابن عمر

---

(١) رواه البخاري: ٢/ ٨٤. ورقمه: ٦٠٨. وانظر رقم: ١٢٢٢، ١٢٣١، ١٢٣٢. ورواه مسلم: ١/ ٢٩١. ورقمه: ٣٨٩.

(٢) رواه البخاري: ١/ ٥٨٢. ورقمه: ٥٠٩.

بلفظ: (فإن معه القرين)[1].

كل مخالفة للرحمن فهي طاعة للشيطان:

يقول تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا * لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: ١١٧-١١٨]. فكل من عبد غير الله من صنم أو وثن، أو شمس وقمر، أو هوى، أو إنسان، أو مبدأ، فهو عابد للشيطان، رضي أم أبى؛ لأن الشيطان هو الآمر بذلك والمرغب فيه، ولذلك فإن عبّاد الملائكة يعبدون الشيطان في الحقيقة: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ * قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠-٤١]. يعني أن الملائكة لم تأمرهم بذلك، وإنما أمرتهم بذلك الجن، ليكونوا عابدين للشياطين الذين يتمثلون لهم، كما يكون للأصنام شياطين.

الخلاصة:

والشيء الذي نخلص إليه أن الشيطان يأمر بكل شرّ، ويحث عليه، وينهى عن كلّ خير، ويخوف منه؛ كي يرتكب الأول، ويترك الثاني.

كما قال تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ [البقرة: ٢٦٨]. وتخويفه إيانا الفقر بأن يقول: إن أنفقتم أموالكم افتقرتم، والفحشاء التي يأمرنا بها: هي كل فعلة فاحشة خبيثة من البخل والزنا وغير ذلك.

---

(١) فتح الباري: ١/ ٥٨٤.

٦ - الإيذاء البدني والنفسي:

كما يهدف الشيطان إلى إضلال الإنسان بالكفر والذنوب، فإنه يهدف إلى إيذاء المسلم في بدنه ونفسه، ونحن نسوق بعض ما نعرفه من هذا الإيذاء:

أ - مهاجمة الرسول ﷺ:

ذكرنا في غير هذا الموضع الحديث الذي يخبر فيه الرسول ﷺ بمهاجمة الشيطان له، ومجيء الشيطان بشهاب من نار ليرميه في وجه الرسول ﷺ.

ب - الحلم من الشيطان:

للشيطان قدرة على أن يري الإنسان في منامه أحلاماً تزعجه وتضايقه، بهدف إحزانه وإيلامه.

فقد أخبر الرسول ﷺ: أن الرؤى التي يراها المرء في منامه ثلاثة أنواع، فعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (الرؤيا ثلاث: فبشرى من الرحمن، وحديث نفس، وتخويف من الشيطان).

وفي رواية عن عوف بن مالك: (إن الرؤيا ثلاث: منها أهاويل من الشيطان؛ ليحزن بها ابن آدم)[1].

وفي صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (إذا رأى أحدكم رؤيا يحبها، فإنما هي من الله، فليحمد الله عليها، وليحدّث بها، وإذا رأى غير ذلك مما يكره، فإنما هي من الشيطان،

(١) رواهما ابن ماجه. انظر صحيح ابن ماجه: ١/ ٣٤٠. ورقمهما: ٣١٥٤-٣١٥٥.

فليستعذ من شرها، ولا يذكرها لأحد، فإنها لا تضره)[1].

ج - إحراق المنازل بالنار:

وذلك بوساطة بعض الحيوانات التي يغريها بذلك، ففي سنن أبي داود بإسناد صحيح أن الرسول ﷺ قال: (إذا نمتم فأطفئوا سُرُجكم، فإن الشيطان يدلّ مثل هذه (الفأرة) على هذا (السراج) فيحرقكم)[2].

د - تخبط الشيطان الإنسان عند الموت:

وقد كان الرسول ﷺ يستعيذ من ذلك فيقول: (اللهم إني أعوذ بك من التردي، والهدم، والغرق، والحريق، وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت، وأعوذ بك أن أموت في سبيلك مدبراً، وأعوذ بك أن أموت لديغاً)[3].

هـ - إيذاؤه الوليد حين يولد:

في صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (كلّ بني آدم يمسّه الشيطان يوم ولدته أمّه إلا مريم وابنها)[4].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (كل بني آدم يطعن الشيطان في جنبيه بإصبعه حين يولد غير عيسى ابن مريم، ذهب يطعن، فطعن الحجاب)[5].

---

(١) رواه البخاري: ١٢/ ٣٦٩. ورقمه: ٦٩٨٥.

(٢) صحيح سنن أبي داود: ٣/ ٩٨٥. ورقمه: ٤٣٦٩.

(٣) صحيح سنن النسائي: ٣/ ١١٢٣. ورقمه: ٥١٠٤.

(٤) رواه مسلم: ٤/ ١٨٣٨. ورقمه: ٢٣٦٦.

(٥) رواه البخاري: ٦/ ٣٣٧. ورقمه: ٣٢٨٦.

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما من بني آدم مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد، فيستهل صارخاً من مس الشيطان، غير مريم وابنها)[1].

والسبب في حماية مريم وابنها من الشيطان استجابة الله دعاء أم مريم حين ولدتها: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦]. ولذا فإن أبا هريرة قرأ هذه الآية بعد روايته للحديث السابق[2].

فلما كانت أم مريم - عليها السلام - صادقة في طلبها استجاب الله لها، فأجار مريم وابنها من الشيطان الرجيم.

وممن أجاره الله أيضاً عمار بن ياسر، ففي صحيح البخاري: أن أبا الدرداء سأل علقمة، وكان من أهل الكوفة، فقال: «أفيكم الذي أجاره الله من الشيطان على لسان نبيه ﷺ ؟» قال المغيرة: «الذي أجاره الله على لسان نبيه ﷺ يعني عماراً»[3].

و - مرض الطاعون من الجن:

أخبر الرسول ﷺ أن (فناء أمته بالطعن والطاعون ؛ وخز أعدائكم من الجنّ، وفي كلّ شهادة)[4]، وفي مستدرك الحاكم: (الطاعون وخز أعدائكم من الجن، وهو لكم شهادة)[5].

وما أصاب نبي الله أيوب كان بسبب الجن كما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١].

---

(١) رواه البخاري: ٦/ ٤٦٩. ورقمه: ٣٤٣١.
(٢) انظر صحيح البخاري: ٦/ ٤٦٩. ورقمه: ٣٤٣١. وصحيح مسلم: ٤/ ١٨٣٨. ورقمه: ٢٣٦٦.
(٣) صحيح البخاري: ٦/ ٣٣٧. ورقمه: ٣٢٨٧. وانظر أيضاً: ٧/ ٩٠. ورقمه: ٣٧٤٢-٣٧٤٣.
(٤) صحيح الجامع الصغير: ٤/ ٩٠. وانظر إرواء الغليل: ٦/ ٧٠، ورقمه: ١٦٣٧.
(٥) راجع إرواء الغليل: ٦/ ٧٠.

ز - بعض الأمراض الأخرى:

قال ﷺ للمرأة المستحاضة، وهي حمنة بنت جحش: (إنما هذه ركضة من ركضات الشيطان)[1].

ح - مشاركته لبني آدم في طعامهم وشرابهم ومساكنهم:

ومن الأذى الذي يجلبه الشيطان للإنسان أنه يعتدي على طعامه وشرابه فيشركه فيهما، ويشركه في المبيت في منزله، ويكون ذلك منه إذا خالف العبد هدي الرحمن، أو غفل عن ذكر الله، أمّا إذا كان ملتزماً بالهدى الذي هدانا الله إليه، لا يغفل عن ذكر الله، فإن الشيطان لا يجد سبيلاً إلى أموالنا وبيوتنا.

فالشيطان لا يستحل الطعام إلا إذا تناول منه أحد بدون أن يُسَمّي، فإذا ذكر اسم الله عليه، فإنّه يحرم على الشيطان، روى مسلم في صحيحه عن حذيفة، قال: «كنا إذا حضرنا مع النبي ﷺ طعاماً لم نضع أيدينا حتى يبدأ رسول الله ﷺ، فيضع يده، وإنّا حضرنا معه مرة طعاماً، فجاءَت جارية كأنها تدفع، فذهبت لتضع يدها في الطعام، فأخذ رسول الله ﷺ بيدها، ثم جاء أعرابي كأنما يدفع، فأخذ بيده».

فقال رسول الله ﷺ: (إنّ الشيطان ليستحل الطعام أن لا يذكر اسم الله عليه، وإنه جاء بهذه الجارية ليستحلّ بها، فأخذت بيدها، فجاء بهذا الأعرابي ليستحلّ به، فأخذت بيده، والذي نفسي بيده إن يده في يدي مع يدها)[2].

---

(١) صحيح سنن أبي داود: ١/ ٥٦. ورقمه: ٢٦٧، وصحيح سنن النسائي: ١/ ٤٠، ورقمه: ١١٠. ولفظ النسائي: (إنما هي ركضة من الشيطان).

(٢) رواه مسلم: ٣/ ١٥٩٧. ورقمه: ٢١٧.

وقد أمرنا الرسول ﷺ أن نحفظ أموالنا من الشيطان وذلك بإغلاق الأبواب، وتخمير الآنية، وذكر اسم الله ؛ فإن ذلك حرز لها من الشيطان، ففي صحيح مسلم عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (أغلقوا الأبواب، واذكروا اسم الله، فإن الشيطان لا يفتح باباً مغلقاً، وأوكوا قربكم، واذكروا اسم الله، وخمروا آنيتكم، واذكروا اسم الله، ولو أن تعرضوا عليها شيئاً، وأطفئوا مصابيحكم)[1].

ويشرب الشيطان مع الإنسان إذا شرب واقفاً، عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ رأى رجلاً يشرب قائماً، فقال له: (قِهْ)، قال: لمه؟ قال: (أيسرك أن يشرب معك الهر؟) قال: لا، قال: (فإنه قد شرب معك من هو شرّ منه الشيطان)[2].

وكي تطرد الشياطين من المنزل لا تنس أن تذكر اسم الله عند دخول المنزل، وقد أرشدنا الرسول ﷺ لذلك، حيث يقول: (إذا دخل الرجل بيته، فذكر الله عند دخوله وعند طعامه، قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء، وإن دخل، فلم يذكر الله عند دخوله، قال الشيطان: أدركتم المبيت، وإن لم يذكر الله عند طعامه، قال: أدركتم المبيت والعشاء)[3].

ط - مس الشيطان للإنسان (الصرع):

يقول ابن تيمية[4]: «دخول الجن في بدن الإنسان ثابت باتفاق أئمة أهل السنة والجماعة، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا

---

(١) رواه مسلم: ٣/ ١٥٩٤. ورقمه: ٢٠١٢.

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة: ج١، ورقم الحديث: ١٧٥.
وقال فيه الهيثمي: رواه أحمد والبزار، ورجال أحمد ثقات. مجمع الزوائد: ٣/ ٧٩.

(٣) رواه مسلم: ٣/ ١٥٩٨. ورقمه: ٢٠١٨.

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٢٤/ ٢٧٦.

﴿يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وفي الصحيح عن النبي ﷺ: (إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم)[١].

وقال عبدالله بن الإمام أحمد بن حنبل: «قلت لأبي: إن أقواماً يقولون: إن الجني لا يدخل في بدن المصروع، فقال: يا بني يكذبون، هذا يتكلم على لسانه».

يقول ابن تيمية: «هذا الذي قاله مشهور، فإنّه يصرع الرجل، فيتكلم بلسان لا يعرف معناه، ويُضْرب على بدنه ضرباً عظيماً، لو ضرب به جمل، لأثر به أثراً عظيماً، والمصروع مع هذا لا يحس الضرب، ولا بالكلام الذي يقوله، وقد يُجَرّ المصروعُ، وغير المصروع، ويجر البساط الذي يجلس عليه، ويحول الآلات... ويجري غير ذلك من الأمور من شاهدها أفادته علماً ضرورياً، بأن الناطق على لسان الإنس، والمحرك لهذه الأجسام، جنس آخر غير الإنسان».

ويقول رحمه الله: «وليس في أئمة المسلمين من ينكر دخول الجن في بدن المصروع وغيره، ومن أنكر ذلك، وادعى أن الشرع يكذب ذلك، فقد كذب على الشرع، وليس في الأدلة الشرعية ما ينفي ذلك».

وذكر أنّ ممن أنكر دخول الجن بدن المصروع طائفة من المعتزلة، كالجبائي وأبي بكر الرازي[٢].

وسنحاول أن نلقي مزيداً من الضوء على هذا الموضوع في الفصل الخامس.

---

(١) صحيح البخاري: ٦/ ٣٣٦. ورقمه: ٣٢٨١. ورواه مسلم: ٤/ ١٧١٢. ورقمه: ٢١٧٥.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ١٩/ ١٢.

المبحث الثالث
قائد المعركة في الصراع
الدائر بين عالم الشياطين وعالم البشر

إبليس هو الذي يخطط للمعركة مع بني الإنسان ويقودها، ومن قاعدته يرسل البعوث والسرايا في الاتجاهات المختلفة، ويعقد مجالس يناقش جنوده وجيوشه فيما صنعوه، ويثني على الذين أحسنوا وأجادوا في الإضلال وفتنة الناس.

روى الإمام مسلم في صحيحه عن جابر - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: (إن إبليس يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقولُ: ما صنعت شيئاً. قال: ثمّ يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته قال: فيدنو منه، ويقول: نعم أنت)[1].

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد أن الرسول ﷺ قال لابن صائد وقد لقيه في بعض طرق المدينة ؛ (وكان يشك ﷺ أنّه الدجال): (ما ترى) ؟ قال: أرى عرشاً على الماء، فقال رسول الله ﷺ: (ترى عرش إبليس على البحر)[2].

---

(١) رواه مسلم: ٤/ ٢١٦٧. ورقمه: ٢٨١٤.

(٢) صحيح مسلم: ٤/ ٢٢٤١. ورقمه: ٢٠٢٥.

والشيطان له خبرة طويلة مديدة في مجال الإضلال، ولذلك فإنّه يجيد وضع خططه، ونصب مصايده وأحابيله، فهو لم يزل حيّاً يضل الناس منذ وجد الإنسان إلى اليوم وإلى أن تقوم الساعة: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: ٣٦-٣٨].

وهو دؤوب على القيام بالشر الذي نذر نفسه له، لا يكل ولا يمل، ففي الحديث: (إن الشيطان قال: وعزتك وجلالك لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الرب: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني). رواه أحمد والحاكم بإسناد حسن[1].

جنود الشيطان من الجن والإنس:

والشيطان له فريقان من الجنود: فريق من الجان، وفريق من بني الإنسان.

وقد سبق ذكر حديث إرساله سراياه من الشياطين لإضلال الناس، وفي القرآن: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ . . .﴾ [الإسراء: ٦٤] فله جنود يهاجمون راكبين راجلين، يرسلهم على العباد، يحركونهم إلى الشر تحريكاً: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣].

لكل إنسان قرين:

وكل إنسان له شيطان يلازمه لا يفارقه، كما في حديث عائشة عند

---

(١) صحيح الجامع الصغير: ٢/ ٧٢.

مسلم: أن رسول الله ﷺ خرج من عندها ليلاً، قالت: فغرت عليه، فجاء، فرأى ما أصنع، فقال: (ما لك يا عائشة؟ أغرت ؟) فقلت: وما لي لا يغار مثلي على مثلك ؟ فقال ﷺ: (أقد جاءك شيطانك). قالت: يا رسول الله، أو معي شيطان ؟ قال: (نعم)، قلت: ومع كل إنسان ؟ قال: (نعم)، قلت: ومعك يا رسول الله ؟ قال: (نعم، ولكن ربي أعانني عليه حتى أسلم)[1].

وروى مسلم عن عبدالله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: (ما منكم من أحد إلا وقد وُكّلَ به قرينه من الجن، وقرينه من الملائكة)، قالوا: وإياك يا رسول الله ؟ قال: (وإياي، إلا أنّ الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير)[2].

وفي القرآن: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف: ٣٦]، وفي الآية الأخرى: ﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ [فصلت: ٢٥].

وللشيطان أتباع من الإنس اتخذوه وليّاً، يسيرون على خطاه، ويرضون بفكره، مع أنه العدو الأول الذي يسعى في إهلاكهم، وقبيح بالإنسان العاقل أن يتخذ عدوه وليّاً: ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٠].

ولقد خسروا باتخاذه ولياً خسراناً مبيناً: ﴿ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١١٩]. خسروا لأن

---

(١) رواه مسلم: ٤/٢١٦٨. ورقمه: ٢٨١٥.

(٢) رواه مسلم: ٤/٢١٦٨، ورقمه: ٢٨١٤.

الشيطان سيدسّي نفوسهم ويفسدها، ويحرمهم من نعمة الهداية، ويرمي بهم في الضلالات والشبهات: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢٥٧]، وخسروا لأنه سيقودهم إلى النار: ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦]، وهؤلاء أولياء الشيطان يتخذهم الشيطان مطية وجنوداً، ينفذ بهم مخططاته وأهدافه.

كيده وخذلانه لأوليائه:

يتولى كثير من الناس الشيطان، ولكنه يكيد لهم ويوردهم الموارد التي فيها هلاكهم وعطبهم، ويتخلى عنهم، ويسلمهم، ويقف يشمت بهم، ويضحك منهم، فيأمرهم بالقتل والسرقة والزنا، ويدلُّ عليهم، ويفضحهم، فعل ذلك بالمشركين في معركة بدر عندما جاءَهم متمثلاً في صورة سراقة بن مالك، ووعدهم بالنصر والغلب: ﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾ [الأنفال:٤٨]، فلما رأى عدو الله الملائكة نزلت لنصرة المؤمنين، ولى هارباً وأسلمهم، كما قال حسان بن ثابت:

دلاهم بغُرُور ثمّ أسلمهم ... إن الخبيث لمن والاه غرارُ

وكذلك فعل بالراهب الذي قتل المرأة وولدها، فإنه أمره بالزنا، ثمّ بقتلها، ثمّ دلّ أهلها عليه، وكشف أمره لهم، ثمّ أمره بالسجود له، فلما فعل فرّ عنه وتركه، كما سيأتي بيانه.

وفي يوم القيامة يقول لأوليائه بعد دخوله ودخولهم النار: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، فأوردهم شرّ الموارد، ثمّ تبرأ منهم كل البراءَة.

وستأتي قصة ذلك الذي يدّعي أنّه عالم روحاني، وكيف تخلت عنه الشياطين بعد أن بلغ مبلغاً كبيراً من الشهرة،فأصبح حائراً لايدري ما يفعل.

الشيطان يجند أولياءَه لخدمته ومحاربة المؤمنين:

الناس فريقان: أولياء الرحمن، وأولياء الشيطان. وأولياء الشيطان هم الكَفَرَة على اختلاف مللهم ونحلهم: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧].

والشيطان يسخّر هؤلاء لتضليل المؤمنين بما يلقونه من الشبه: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وما هذه الشبهات التي يقوم بها المستشرقون والصليبيون واليهود والملحدون إلا من هذا القبيل.

ويدفع الشيطان أولياءَه لإيذاء نفوس المؤمنين: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [المجادلة: ١٠]. فقد كان يدفع المشركين للتناجي حين وجود المسلمين على مقربة منهم، فيظن المسلم أنهم يتآمرون عليه...

بل يدفعهم إلى حرب المسلمين وقتالهم: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

وهو دائماً يخوف المؤمنين أولياءه: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ ۖ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[آل عمران: ١٧٥]، وأولياؤه جمع كبير: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠].

المبحث الرابع
أساليب الشيطان في إضلال الإنسان

لا يأتي الشيطان إلى الإنسان ويقول له: اترك هذه الأمور الخيرة، وافعل هذه الأمور السيئة ؛ كي تشقى في دنياك وأخراك ؛ لأنه لو فعل ذلك فلن يطيعه أحد، ولكنه يسلك سبلاً كثيرة، يغرر بها بعباد الله.

١ - تزيين الباطل:

هذا هو السبيل الذي كان الشيطان، ولا يزال، يسلكه لإضلال العباد، فهو يظهر الباطل في صورة الحق، والحق في صوة الباطل، ولا يزال بالإنسان يحسن له الباطل، ويكرهه بالحق، حتى يندفع إلى فعل المنكرات، ويعرض عن الحق، كما قال اللعين لربّ العزة: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [الحجر: ٣٩-٤٠].

يقول ابن القيم في هذا الصدد: «ومن مكايده أنه يسحر العقل دائماً حتى يكيده، ولا يسلم من سحره إلا من شاء الله، فيزين له الفعل الذي يضره، حتى يخيل إليه أنّه أنفع الأشياء، وينفره من الفعل الذي هو أنفع الأشياء له، حتى يخيل له أنه يضره، فلا إله إلا الله، كم فتن بهذا السحر من إنسان! وكم حال به بين القلب وبين الإسلام والإيمان والإحسان! وكم جلا الباطل وأبرزه في صورة مستحسنة، وشنع الحق وأخرجه في

صورة مستهجنة! وكم بهرج من الزيوف على الناقدين، وكم روج من الزغل على العارفين!

فهو الذي سحر العقول حتى ألقى أربابها في الأهواء المختلفة والآراء المتشعبة، وسلك بهم من سبل الضلال كل مسلك، وألقاهم من المهالك في مهلك بعد مهلك، وزين لهم عبادة الأصنام، وقطيعة الأرحام، ووأد البنات، ونكاح الأمهات، ووعدهم بالفوز بالجنات، مع الكفر بصفات الرب تعالى وعلوه وتكلمه بكتبه ووضعهم ذلك في قالب التنزيه، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قالب التودد إلى الناس، وحسن الخلق معهم، والعمل بقوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، والإعراض عما جاء به الرسول ﷺ في قالب التقليد، والاكتفاء بقول من هو أعلم منهم، والنفاق والإدهان في دين الله في قالب العقل المعيشي الذي يندرج به العبد بين الناس»[1].

وبهذا السبيل كاد إبليس اللعين آدم عليه السلام ؛ إذ زين له الأكل من الشجرة التي حرمها الله عليه، فما زال به يزعم له أن هذه هي شجرة الخلد، وأن الأكل منها يجعله خالداً في الجنة، أو ملكاً من الملائكة، حتى أطاعه، فخرج من الجنة.

وانظر إلى أولياء الشيطان اليوم كيف يستخدمون هذا السبيل في إضلال العباد.

فهذه الدعوات إلى الشيوعية والاشتراكية...، يزعمون أنها هي المذاهب التي تخلص البشرية من الحيرة والقلق والضياع والجوع،... وهذه الدعوات التي تدعو إلى خروج المرأة كاسية عارية باسم الحرية،

---

(١) إغاثة اللهفان: ١/ ١٣٠.

وتدعو إلى هذا التمثيل السخيف الذي تداس فيه الأعراض والأخلاق، وتنتهك فيه الحرمات باسم الفن.

وتلك الأفكار المسمومة التي تدعو إلى إيداع المال في البنوك بالربا؛ لتحقيق الأرباح باسم التنمية والربح الوفير.

وتلك الدعوات التي تزعم أن التمسك بالدين رجعية وجمود وتأخر، والتي تسم دعاة الإسلام بالجنون والعمالة لدول الشرق والغرب... إلخ.

كل ذلك امتداد لسبيل الشيطان الذي كاد به آدم منذ عهد بعيد، وهو تزيين الباطل وتحسينه، وتقبيح الحق وتكريه الناس به: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [النحل: ٦٣].

وهو -والله- سبيل خطر؛ لأن الإنسان إذا زين له الباطل فرآه اندفع بكل قواه؛ لتحقيق ما يراه حقاً، وإن كان فيه هلاكه: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُمۡ بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا * ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤].

وهؤلاء يندفعون لصدّ النّاس عن دين الله ومحاربة أولياء الله، وهم يظنون أنفسهم على الحقّ والهدى، ﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٧].

وهذا هو السبب الذي من أجله آثر الكفار الدنيا، وأعرضوا عن الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ [فصلت: ٢٥]. فالقرناء هم الشياطين، زينوا لهم ما بين أيديهم من أمر الدنيا حتى آثروها، ودعوهم إلى التكذيب بالآخرة، وزينوا لهم ذلك حتى أنكروا البعث والحساب والجنّة والنار.

تسمية الأمور المحرمة بأسماء محببة:

ومن تغرير الشيطان بالإنسان وتزيينه الباطل أن يسمّي الأمور المحرمة، التي هي معصية لله، بأسماء محببة للنفوس خداعاً للإنسان وتزويراً للحقيقة، كما سمّى الشجرة المحرمة بشجرة الخلد، كي يزين لآدم الأكل منها: ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠].

يقول ابن القيم: «ومنه ورث أتباعه تسمية الأمور المحرمة بالأسماء التي تحب النفوس مسمياتها، فسموا الخمر: أم الأفراح، وسموا أخاها بلقمة الراحة، وسموا الربا بالمعاملة، وسموا المكوس بالحقوق السلطانية...».

واليوم يسمون الربا الفائدة، والرقص والغناء والتمثيل وصناعة التماثيل فناً.

٢ - الإفراط والتفريط:

يقول ابن القيم في هذه المسألة: «وما أمر الله - عزّ وجلّ - بأمر إلا وللشيطان فيه نزعتان: إما تقصير وتفريط، وإما إفراط وغلوّ، فلا يبالي بما ظفر من العبد من الخطيئتين، فإنّه يأتي إلى قلب العبد فيشامّه، فإن وجد فيه فتوراً وتوانياً وترخيصاً أخذه من هذه الخطة، فثبطه وأقعده، وضربه بالكسل والتواني والفتور، وفتح له باب التأويلات والرجاء وغير ذلك، حتى ربما ترك العبد المأمورَ جملة.

وإن وجد عنده حذراً وجِدّاً، وتشميراً ونهضة، وأيس أن يأخذه من هذا الباب، أمره بالاجتهاد الزائد، وسوّل له أن هذا لا يكفيك، وهمتك فوق

هذا، وينبغي لك أن تزيد على العاملين، وأن لا ترقد إذا رقدوا، وأن لا تفطر إذا أفطروا، وأن لا تفتر إذا فتروا، وإذا غسل أحدهم يديه ووجهه ثلاث مرات، فاغسل أنت سبعاً، وإذا توضأ للصلاة، فاغتسل أنت لها، ونحو ذلك من الإفراط والتعدي، فيحمله على الغلو والمجاوزة، وتعدي الصراط المستقيم، كما يَحْمِلُ الأول على التقصير دونه وألا يقربه.

ومقصوده من الرجلين إخراجهما عن الصراط المستقيم: هذا بألا يقربه ولا يدنو منه، وهذا بأن يجاوزه ويتعداه، وقد فتن بهذا أكثر الخلق، ولا يُنجي من ذلك إلا علم راسخ، وإيمان وقوة على محاربته، ولزوم الوسط. والله المستعان»[1].

٣ - تثبيطه العباد عن العمل ورميهم بالتسويف والكسل:

وله في ذلك أساليب وطرق، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: (يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم (القافية: مؤخر الرأس)، إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب مكان كل عقدة، عليك ليل طويل فارقد، فإن استيقظ فذكر الله، انحلت عقدة، فإن توضأ، انحلت عقدة، فإن صلى، انحلت عقدة، فأصبح نشيطاً طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان)[2].

وفي البخاري ومسلم: (إذا استقظ أحدكم من منامه فتوضأ، فليستنثر ثلاثاً، فإن الشيطان يبيت على خيشومه)[3].

---

(١) الوابل الصيب: ص ١٩.

(٢) رواه البخاري: ٣/ ٢٤. ورقمه: ١١٤٣.

(٣) صحيح البخاري: ٦/ ٣٣٩. ورقمه: ٣٢٩٥. ورواه مسلم: ١/ ٢١٣. ورقمه: ٢٣٨، واللفظ للبخاري.

وفي صحيح البخاري: أن الرسول ﷺ ذكر عنده رجل نام ليلة حتى أصبح، فقال: (ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه)[1].

وهذا الذي ذكرناه تكسيل وتثبيط من الشيطان بفعله، وقد يثبط الإنسان بالوسوسة، وسبيله في ذلك أن يحبب للإنسان الكسل، ويسوّف العمل، ويسند الأمر إلى طول الأمل، يقول ابن الجوزي في هذا: (كم قد خطر على قلب يهودي ونصراني حبّ الإسلام، فلا يزال إبليس يثبطه، ويقول: لا تعجل وتمهل النظر، فيسوفه حتى يموت على كفره، وكذلك يسوف العاصي بالتوبة، فيعجل له غرضه من الشهوات، ويمنيه الإنابة، كما قال الشاعر:

لا تعجل الذنب لما تشتهي ... وتأمل التوبة من قابل

وكم من عازم على الجدّ سوفه! وكم ساع إلى مقام فضيلة ثبّطه! فلربما عزم الفقيه على إعادة درسه، فقال: استرح ساعة، أو انتبه العابد في الليل يصلي، فقال له: عليك وقت، ولا يزال يحبب الكسل، ويسوف العمل، ويسند الأمر إلى طول الأمل.

فينبغي للحازم أن يعمل على الحزم، والحزم تدارك الوقت، وترك التسويف، والإعراض عن الأمل، فإنّ المخوف لا يؤمن، والفوات لا يبعث، وسبب كل تقصير، أو ميل إلى شرّ طول الأمل، فإن الإنسان لا يزال يحدّث نفسه بالنزوع عن الشر، والإقبال على الخير، إلا أنه يَعِدُ نفسه بذلك، ولا ريب أنه من أمّل أن يمشي بالنهار سار سيراً فاتراً. ومن أمل أن يصبح عمل في الليل عملاً ضعيفاً، ومن صوّر الموت عاجلاً جدّ. . . .

(١) رواه البخاري: ٣/ ٢٨. ورقمه: ١١٤٤.

وقال بعض السلف: أنذركم (سوف)، فإنها أكبر جنود إبليس، ومثل العامل على الحزم والساكن لطول الأمل، كمثل قوم في سفر، فدخلوا قرية، فمضى الحازم، فاشترى ما يصلح لتمام سفره، وجلس متأهباً للرحيل، وقال المفرط: سأتأهب فربما أقمنا شهراً، فضرب بوق الرحيل في الحال، فاغتبط المحترز (المتوقي الحازم)، وتحير الأَسِفُ المفرط.

فهذا مثل الناس في الدنيا، منهم المستعد المستيقظ، فإذا جاء ملك الموت لم يندم، ومنهم المغرور المسوّف يتجرع مرير الندم وقت الرحلة. فإذا كان في الطبع حب التواني وطول الأمل، ثم جاء إبليس يحث على العمل بمقتضى ما في الطبع، صعبت المجاهدة، إلا أنه من انتبه لنفسه علم أنه في صف حرب، وأن عدوّه لا يفتر عنه، فإن فتر في الظاهر، بطّن له مكيدة، وأقام له كميناً»[1].

٤ - الوعد والتمنية:

وهو يعد الناس بالمواعيد الكاذبة، ويعللهم بالأماني المعسولة ؛ كي يوقعهم في وهدة الضلال: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

يعد الكفرة في قتالهم المؤمنين بالنصر والتمكين والعزة والغلبة، ثم يتخلى عنهم، ويولي هارباً: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨].

---

(١) تلبيس إبليس: ٤٥٨.

ويعد الأغنياء الكفرة بالثروة والمال في الآخرة بعد الدنيا، فيقول قائلهم: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦]، فيدمر الله جنته في الدنيا، فيعلم أنّه كان مغروراً مخدوعاً.

ويشغل الإنسان بالأماني المعسولة، التي لا وجود لها في واقع الحياة، فيصده عن العمل الجاد المثمر، ويرضى بالتخيل والتمني، وهو لا يفعل شيئاً.

٥ - إظهار النصح للإنسان:

يدعو الشيطان المرء إلى المعصية، يزعم أنه ينصح له ويريد خيره، وقد أقسم لأبينا على أنه ناصح له: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١].

وقد روى وهب بن منبه هذه القصة الطريفة عن أهل الكتاب[1]، نسوقها لنعلم أسلوباً من أساليب الشيطان في إضلاله العباد، وكي نحذر نصحه، ونخالفه فيما يدعونا إليه.

يقول وهب: «إن عابداً كان في بني اسرائيل، وكان من أعبد أهل زمانه، وكان في زمانه ثلاثة إخوة، لهم أخت، وكانت بكراً، ليس لهم أخت غيرها، فخرج البعث على ثلاثتهم، فلم يدروا عند من يخلفون أختهم، ولا من يأمنونه عليها، ولا عند من يضعونها.

قال: فأجمع رأيهم على أن يخلفوها عند عابد بني إسرائيل، وكان ثقة

(١) هذه القصة وأمثالها من الإسرائليات لا تصدق ولا تكذب، ويجوز التحديث بها يقول الرسول ﷺ: (وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج).

في أنفسهم، فأتوه فسألوه على أن يخلفوها عنده، فتكون في كنفه وجواره إلى أن يرجعوا من غزاتهم، فأبى ذلك عليهم، وتعوذ بالله منهم ومن أختهم، قال: فلم يزالوا به حتى أطاعهم. فقال: أنزلوها في بيت حذاء صومعتي. فأنزلوها في ذلك البيت، ثم انطلقوا وتركوها.

فمكثت في جوار ذلك العابد زمناً ينزل إليها بالطعام من صومعته، فيضعه عند باب الصومعة، ثم يغلق بابه ويصعد إلى الصومعة، ثم يأمرها فتخرج من بيتها، فتأخذ ما وضع لها من الطعام، قال: فتلطف له الشيطان، فلم يزل يرغبه في الخير، ويعظم عليه خروج الجارية من بيتها نهاراً، ويخوفه أن يراها أحد فيعلقها، فلو مشيت بطعامها حتى تضعه على باب بيتها كان أعظم أجراً. قال: فلم يزل به حتى مشى إليها بطعامها، ووضعه على باب بيتها، ولم يكلمها.

قال: فلبث على هذه الحال زماناً، ثم جاءَه إبليس فرغّبه في الخير والأجر وحضه عليه، وقال: لو كنت تمشي إليها بطعامها حتى تضعه في بيتها كان أعظم لأجرك، فلم يزل به حتى مشى إليها بالطعام، ثم وضعه في بيتها، فلبث على ذلك زماناً.

ثم جاءه إبليس فرغّبه في الخير وحضّه عليه، فقال: لو كنت تكلمها وتحدثها فتأنس بحديثك، فإنها قد استوحشت وحشة شديدة، فلم يزل به حتى حدثها زماناً يطّلع إليها من فوق صومعته.

ثم أتاه إبليس بعد ذلك، فقال: لو كنت تنزل إليها فتقعد على باب صومتعك وتحدثها، وتقعد هي على باب بيتها، فتحدثك كان آنس لها. فلم يزل به حتى أنزله وأجلسه على باب صومعته يحدثها وتحدثه، وتخرج

الجارية من بيتها حتى تقعد على باب بيتها، فلبثا زماناً يتحدثان.

ثم جاءَه إبليس فرغبه في الأجر والثواب فيما يصنع بها، وقال: لو خرجت من باب صومتعك، ثم جلست قريباً من بيتها، فحدثتها كان آنس لها، فلم يزل به حتى فعل. فلبثا زمناً على ذلك.

ثم جاءه إبليس، فقال: لو دخلت البيت معها فحدثتها، ولم تتركها تبرز وجهها لأحد كان أحسن بك، فلم يزل به حتى دخل البيت فجعل يحدثها، نهارها كله، فإذا مضى النهار صعد صومعته.

ثم أتاه إبليس بعد ذلك، فلم يزل يزينها له حتى ضرب العابد على فخذها وقبلها، فلم يزل به إبليس يحسنها في عينه، ويسول له حتى وقع عليها، فأحبلها فولدت له غلاماً، فجاء إبليس فقال: أرأيت إن جاء إخوة الجارية، وقد ولدت منك كيف تصنع ؟ لا آمن عليك أن تفتضح أو يفضحوك، فاعمد إلى ابنها فاذبحه وادفنه، فإنها ستكتم ذلك عليك مخافة إخوتها أن يطلعوا على ما صنعت بها، ففعل.

فقال له: أتراها تكتم إخوتها ما صنعت بها وقتلت ابنها، خذها واذبحها، وادفنها مع ابنها، فلم يزل به حتى ذبحها، وألقاها في الحفرة مع ابنها، وأطبق عليهما صخرة عظيمة، وسوّى عليهما، وصعد إلى صومعته يتعبد فيها، فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث، حتى أقبل إخوتها من الغزو، فجاؤوا فسألوه عنها، فنعاها لهم، وترحم عليها وبكاها. وقال: كانت خير امرأة، وهذا قبرها، فانظروا إليه. فأتى إخوتها القبر فبكوا أختهم، وترحموا عليها، فأقاموا على قبرها أياماً، ثمّ انصرفوا إلى أهاليهم.

فلما جنّ عليهم الليل، وأخذوا مضاجعهم، جاءَهم الشيطان في النوم على صورة رجل مسافر، فبدأ بأكبرهم، فسأله عن أختهم، فأخبره بقول العابد وموتها وترحمه عليها، وكيف أراهم موضع قبرها فأكذبه الشيطان. وقال: لم يصدقكم أمر أختكم إنه قد أحبل أختكم وولدت منه غلاماً، فذبحه وذبحها معه فزعاً منكم، وألقاهما في حفيرة احتفرها خلف باب البيت الذي كانت فيه عن يمين من دخله، فإنكم ستجدونها كما أخبرتكم هناك جميعاً. وأتى الأوسط في منامه، فقال له مثل ذلك. ثم أتى أصغرهم، فقال له مثل ذلك.

فلما استيقظ القوم، أصبحوا متعجبين مما رأى كل واحد منهم، فأقبل بعضهم على بعض يقول كل واحد منهم: لقد رأيت الليلة عجباً، فأخبر بعضهم بعضاً بما رأى.

فقال كبيرهم: هذا حلم ليس بشيء، فامضوا بنا ودعوا هذا عنكم، قال أصغرهم: والله لا أمضي حتى آتي إلى هذا المكان، فأنظر فيه. قال: فانطلقوا جميعاً حتى أتوا البيت الذي كانت فيه أختهم، ففتحوا الباب، وبحثوا الموضع الذي وصف لهم في منامهم، فوجدوا أختهم وابنها مذبوحين في الحفيرة، كما قيل لهم، فسألوا عنها العابد فصدّق قول إبليس فيما صنع بهما، فاستَعْدَوْا عليه ملكهم، فأنزل من صومعته، وقدّم ليصلب.

فلما أوثقوه على الخشبة، أتاه الشيطان، فقال له: قد علمت أني أنا صاحبك الذي فتنتك بالمرأة، حتى أحبلتها، وذبحتها وابنها، فإن أنت أطعتني اليوم، وكفرت بالله الذي خلقك وصوّرك، خلصتك مما أنت فيه،

فكفر العابد، فلما كفر بالله تعالى، خلى الشيطان بينه وبين أصحابه فصلبوه»[1].

وهذه القصة يذكرها المفسرون عند قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ﴾ [الحشر: ١٦]، ويذكرون أن المعنيّ بالإنسان هذا العابد وأمثاله. والله أعلم.

٦ - التدرج في الإضلال:

ومن القصة السابقة نعلم أسلوباً من أساليب الشيطان في الإضلال، وهو أن يسير بالإنسان خطوة خطوة، لايكل ولا يملّ، كلما روّضه على معصية ما، قاده إلى معصية أكبر منها، حتى يوصله إلى المعصية الكبرى، فيوبقه ويهلكه، وتلك سنة الله في عباده، أنهم إذا زاغوا سلط عليهم الشيطان، وأزاغ قلوبهم: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

٧ - إنساؤه العبد ما فيه خيره وصلاحه:

ومن ذلك ما فعله بآدم، فما زال يوسوس له حتى أنساه ما أمره به ربّه: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]، وقال صاحب موسى لموسى: ﴿فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ [الكهف: ٦٣].

ونهى الله رسوله أن يجلس هو أو واحد من أصحابه في المجالس التي يستهزأ فيها بآيات الله، ولكن الشيطان قد ينسي الإنسان أمر ربه، فيجالس

---

(١) تلبيس إبليس: ص ٣٩.

هؤلاء المستهزئين: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ٦٨].

وطلب نبي الله يوسف إلى السجين الذي ظنّ بأنه سينجو من القتل، ويعود لخدمة الملك أن يذكره عند مليكه، فأنسى الشيطان هذا الإنسان أن يذكر لملكه نبي الله يوسف، فمكث يوسف في السجن بضع سنين: ﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢].

وإذا تمكن الشيطان من الإنسان تمكناً كلياً، فإنه ينسيه الله بالكلية: ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩]. وهؤلاء هم المنافقون، كما دلت عليه الآية السابقة لهذه الآية. وسبيل التذكر هو ذكر الله ؛ لأنه يطرد الشيطان: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤].

٨ - تخويف المؤمنين أولياءَه:

ومن وسائله أن يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه، فلا يجاهدونهم، ولا يأمرونهم بالمعروف، ولا ينهونهم عن المنكر، وهذا من أعظم كيده بأهل الإيمان، وقد أخبرنا سبحانه عن هذا فقال: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

والمعنى: يخوفكم بأوليائه، قال قتادة: «يعظمهم في صدوركم، ولهذا قال: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، فكلما قوي إيمان العبد زال من

قلبه خوف أولياء الشيطان، وكلما ضعف إيمانه قوي خوفه منهم».

٩ - دخوله إلى النفس من الباب الذي تحبه وتهواه:

يقول ابن القيم في هذا الموضوع: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، حتى يصادف نفسه ويخالطها، ويسألها عمّا تحبه وتؤثره، فإذا عرفه استعان بها على العبد، ودخل عليه من هذا الباب، وكذلك عَلّم إخوانه وأولياءَه من الإنس، إذا أرادوا أغراضهم الفاسدة من بعضهم بعضاً أن يدخلوا عليهم من الباب الذي يحبونه ويهوونه، فإنّه باب لا يخذل عن حاجته من دخل منه، ومن رام الدخول من غيره، فالباب عليه مسدود، وهو عن طريق مقصده مصدود»[1].

ومن هٰهنا دخل الشيطان على آدم وحواء كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠]. يقول ابن القيم: «فشام عدو الله الأبوين، فأحس منهما إيناساً وركوناً إلى الخلد في تلك الدار في النعيم المقيم، فعلم أنّه لا يدخل عليهما من غير هذا الباب، فقاسمهما بالله إنّه لهما لمن الناصحين، وقال: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠]».

١٠ - إلقاء الشبهات:

ومن أساليبه في إضلال العباد زعزعة العقيدة بما يلقيه من شكوك وشبهات، وقد حذرنا الرسول ﷺ من بعض هذه الشبهات التي يلقيها،

(١) إغاثة اللهفان: ١/ ١٣٢.

ففي حديث البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا وكذا ؟ من خلق كذا ؟ حتى يقول: من خلق ربك ؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله وليْنتهِ)[1].

ولم يسلم الصحابة - رضوان الله عليهم - من شبهاته وشكوكه، وجاء بعضهم إلى الرسول ﷺ يشكون ما يعانونه من شكوكه ووساوسه، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: جاء ناس من أصحاب رسول الله ﷺ إلى النبي ﷺ فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به ! قال: (أو قد وجدتموه ؟) قالوا: نعم. قال: (ذلك صريح الإيمان)[2].

وصريح الإيمان دفعهم وسوسة الشيطان وكراهيتهم واستعظامهم لها، وقد سئل الرسول ﷺ عن الوسوسة فقال: (تلك محض الإيمان)[3].

وانظر إلى شدّة ما كان يعانيه الصحابة من شكوكه، روى أبو داود في سننه عن ابن عباس قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن أحدنا يجد في نفسه - يعرض بالشيء - لأن يكون حممة أحبّ إليه من أن يتكلم به، فقال: (الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة)[4].

ومن جملة ما يلقيه في النفوس مشككاً ما حدثنا الله عنه في قوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ

---

(١) رواه البخاري: ٦/ ٣٣٦. ورقمه: ٣٢٧٧. ورواه مسلم: ١/ ١٢٠. ورقمه: ١٣٤.

(٢) رواه مسلم: ١/ ١١٩. ورقمه: ١٣٢.

(٣) رواه مسلم: ١/ ١١٩. ورقمه: ١٣٣.

(٤) صحيح سنن أبي داود. ٣/ ٩٦٤. ورقمه: ٤٢٧١.

فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ * وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج: ٥٢-٥٤].

والمراد بالتمني هنا حديث النفس، والمراد أن النبي ﷺ كان إذا حدث نفسه ألقى الشيطان في حديثه على جهة الحيلة، فيقول: لو سألت الله - عز وجل - أن يغنمك ليتسع المسلمون، أو يتمنى إيمان الناس جميعاً. . . فينسخ الله ما يلقيه الشيطان بوسواسه في أمنية النبي ﷺ، وذلك بتنبيهه إلى الحق، وتوجيهه إلى مراد الله. . .، وما قيل من أن مراد الآية أن الشيطان يدخل في القرآن ما ليس منه ففيه بعد، ويرده أن الرسول ﷺ معصوم في التبليغ.

يقول شقيق، مبيناً بعض الشبهات التي قذفها الشيطان في نفس الإنسان: ما من صباح إلا قعد لي الشيطان على أربعة مراصد: من بين يدي، ومن خلفي، وعن يميني، وعن شمالي، فيقول: لا تخف فإن الله غفور رحيم، فأقرأ: ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [طه: ٨٢]، وإما من خلفي فيخوفني الضيعة على من أخلفه، فأقرأ: ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود: ٦]، ومن قبل يميني، يأتيني من قبل النساء، فأقرأ: ﴿ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، ومن قبل شمالي، فيأتيني من قبل الشهوات، فأقرأ: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ [سبأ: ٥٤].

١١ - ١٤ - الخمر والميسر والأنصاب والأزلام:

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

والخمر: كل مايسكر، والميسر: القمار، والأنصاب: كل ما نصب كي يعبد من دون الله، من حجر، أو شجر، أو وثن، أو قبر، أو علم. والأزلام: القداح كانوا يستقسمون بها الأمور؛ أي: يطلبون بها علم ما قسم لهم.

وهذه قد تكون أقداحاً أو سهاماً أو حُصَيّات أو غير ذلك، يكون مكتوباً على واحد منها أمرني ربي، وعلى الآخر نهاني ربي، فإذا شاء أحدهم زواجاً أو سفراً أو نحو ذلك، أدخل يده في الشيء الذي فيه هذه القداح أو السهام، فإن خرج الذي فيه الأمر بالفعل فعل، وإن خرج الآخر ترك.

فالشيطان يحض الناس على هذه الأربع؛ لأنها ضلال في نفسها، وتؤدي إلى نتائج وخيمة، وآثار سيئة، فالخمر تفقد شاربها عقله، فإذا فقد عقله فعل الموبقات، وارتكب المحرمات، وترك الطاعات، وآذى عباد الله.

ذكر ابن كثير في تفسيره عن عثمان بن عفان قال: «اجتنبوا الخمر، فإنها أمّ الخبائث، إنه كان رجل فيمن خلا قبلكم يتعبد ويعتزل الناس، فعلقته امرأة غويّة، فأرسلت إليه جاريتها أن تدعوه لشهادة، فدخل معها، فطفقت كلما دخل باباً تغلقه دونه، حتى أفضى إلى امرأة وضيئة، عندها غلام، وباطية خمر.

فقالت: إني والله ما دعوتك لشهادة، ولكن دعوتك لتقع عليّ، أو تقتل هذا الغلام، أو تشرب هذا الخمر، فسقته كأساً، فقال: زيدوني، فلم يرم حتى وقع عليها، وقتل النفس، فإنها لا تجتمع هي والإيمان أبداً إلا أوشك أحدهما أن يخرج صاحبه»[1].

وروى ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والنحاس في ناسخه عن سعد بن أبي وقاص: أن رجلاً من الأنصار صنع طعاماً لبعض الصحابة، ثمّ سقاهم خمراً قبل أن ينزل تحريمها، فلما سكروا تفاخروا، فتعاركوا، وأصاب سعد بن أبي وقاص من هذا العراك أذى، فقد ضربه أحدهم بلحي بعير، فأصاب أنفه، فأثر فيه أثراً صاحبه طيلة حياته[2].

وتقدم أحدُ الصحابة يصلي بالناس وهو سكران، قبل نزول تحريم الخمر فقرأ: (قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون) فأنزل الله: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣][3].

وقد رأينا الرجل الذي بلغ من الكبر عِتِيّاً عندما يشرب الخمر يتصرف تصرفات المجانين، ويضحك منه الكبار والصغار، ويفترش الطريق تدوسه الناس بأقدامها.

والميسر مرض خطير كالخمر، إذا تأصل في نفس الإنسان صعب الشفاء منه، وهو سبيل لضياع الوقت والمال، والميسر ينشىء الأحقاد،

---

(١) رواه البيهقي، وصحح ابن كثير إسناده.

(٢) راجع: الدر المنثور، للسيوطي: ٣/ ١٥٨.

(٣) راجع روايات الحديث في الدر المنثور: ٧/ ٥٤٥.

ويدفع إلى الحرام.

والشيطان يدعو إلى إقامة النصب كي تتخذ بعد ذلك آلهة تُعبد من دون الله، وقد انتشرت عبادة الأنصاب قديماً وحديثاً، والشياطين تلازم هذه الأصنام، وتخاطب عبادها في بعض الأحيان، وتريهم بعض الأمور التي تجعل عابديها يثقون بها، فيقصدونها بالحاجات، ويدعونها في الكربات، ويستنصرون بها في الحروب، ويقدمون لها الذبائح والهدايا، ويرقصون حولها ويطربون، ويقيمون لها الأعياد والاحتفالات، وقد أضلّ بهذا الكثير، كما قال إبراهيم داعياً ربه: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٥-٣٦].

ولا تزال عبادة القبور منتشرة بين المسلمين، يقصدونها بالدعاء والألطاف والذبائح... وانتشرت بدعة جديدة اليوم - يضحك بها الشيطان على بني الإنسان - تلك هي نصب الجندي المجهول، يزعمون أنه رمز الجندي المقاتل، ويكرمونه بالهدايا والورود والتعظيم، وكلما زار البلاد التي فيها مثل هذه النصب زعيم، جاء هذا النصب وقدم له هدية، وكل هذا من عبادة الأنصاب، التي هي من عمل الشيطان.

الاستقسام بالأزلام:

الأمور المستقبلية من مكنون علم الله، ولذلك شرع لنا الرسول ﷺ الاستخارة، إذا أردنا سفراً أو زواجاً أو غير ذلك، نرجو من الله أن يختار لنا خير الأمور.

وأبطل الاستقسام بالأزلام، فإن السهام والقداح لا تعلم أين الخير ولا تدريه، فاستشارتها خلل في العقل، وقصور في العلم.

ومثل ذلك زجر الطير: كان من يريد سفراً، إذا خرج من بيته، ومرّ بطائر زجره، فإن تيامن، كان سفراً ميموناً، وإن مرّ عن شماله، كان سفراً مشؤوماً. . . ، وكل ذلك من الضلال.

١٥ - السحر[١]:

ومما يضل به الشيطان أبناء آدم السحر، فهم يعلمونهم هذا العلم، الذي يضر ولا ينفع، ويكون هذا العلم سبيلاً للتفريق بين المرء وزوجه، والتفريق بين الزوجين: يعدّه الشيطان من أعظم الأعمال التي يقوم بها جنوده كما سبق أن ذكرنا.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

هل للسحر حقيقة ؟

اختلف العلماء في ذلك فمن قائل: إنّه تخييل لا حقيقة له: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦]، ومن قائل: إن له حقيقة كما دلت عليه آية البقرة، والصحيح أنّه نوعان: نوع هو تخييل، يعتمد على الحيل العلمية وخفة الحركة، ونوع له حقيقة، يفرق به بين

(١) بسطت القول في السحر في مؤلف مستقل عنونت له بعنوان: عالم السحر والشعوذة.

المرء وزوجه، ويؤذى به...

سحر اليهود للرسول ﷺ:

روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت:

«سَحَر رسولَ الله ﷺ رجلٌ من بني زُرَيق، يقال له لبيد بن الأعصم، حتى كان رسول الله ﷺ، يُخيّل إليه أنه يفعل الشيء وما فعله.

حتى إذا كان ذات يوم، أو ذات ليلة - وهو عندي، لكنه دعا ودعا، ثم قال:

(يا عائشة، أشعرتِ أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه[1]؟ أتاني رجلان، فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجليّ.

فقال أحدهما لصاحبه: ما وجع الرجل ؟ قال: مطبوب[2]. قال: ومن طبّه ؟ قال: لبيد بن الأعصم. قال: في أي شيء ؟ قال: في مُشط ومُشاطة[3] وجُفّ طلع نخلة ذكر[4].

قال: وأين هو ؟ قال: في بئر ذروان).

فأتاها رسول الله ﷺ في ناس من أصحابه، فجاء فقال: (يا عائشة، كأن ماءها نقاعة الحناء، وكأنّ رؤوس نخلها رؤوس الشياطين).

قلت: يا رسول الله، أفلا استخرجته ؟ قال: (قد عافاني الله، فكرهت

---

(١) أي أجابني فيما طلبته.

(٢) أي مسحور.

(٣) المشاطة: شعر سقط من الرأس بعد تسريحه.

(٤) جف طلع نخلة، أي: غشاء الطلع.

أن أثير على الناس فيه شراً، فأمر بها فدُفنت)[1].

ولا يقال: إن سحر الرسول ﷺ يوجب له لبساً في النبوة والرسالة؛ لأن أثر السحر لم يتجاوز ظاهر الجسم الشريف، فلم يصل إلى القلب والعقل. فهو كسائر الأمراض التي قد تعرض له، والتشريع محفوظ بحفظ الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

١٦ - ضعف الإنسان:

في الإنسان نقاط ضعف كثيرة، هي في الحقيقة أمراض، والشيطان يعمق هذه الأمراض في نفس الإنسان، بل تصبح مداخله إلى النفس الإنسانية، ومن هذه الأمراض: الضعف، واليأس، والقنوط، والبطر، والفرح، والعجب، والفخر، والظلم، والبغي، والجحود، والكنود، والعجلة، والطيش، والسفه، والبخل، والشح، والحرص، والجدل، والمراء، والشك، والريبة، والجهل، والغفلة، واللدد في الخصومة، والغرور، والادعاء الكاذب، والهلع، والجزع، والمنع، والتمرد، والطغيان، وتجاوز الحدود، وحب المال، والافتتان بالدنيا.

فالإسلام يدعو إلى إصلاح النفس، والتخلص من أمراضها، وهذا يحتاج إلى جهد يبذل، كما يحتاج إلى صبر على مشقّات الطريق.

أمّا اتباع الهوى، وما تمليه النفس الأمارة بالسوء، فإنه سهل ميسور، فالأول مثله مثل من يصعد بصخرة إلى أعلى الجبل، ومثل الثاني كمن يهوي من أعلى الجبل إلى أسفله، ولذلك كانت الاستجابة للشيطان كثيرة،

---

(١) صحيح البخاري: ١٠/ ٢٢١. ورقمه: ٥٧٦٣.

وَوَجد دعاة الحق صعوبة، وأي صعوبة في الدعوة إلى الله تعالى.

ونحن نسوق إليك بعض كلام السلف ؛ لنوضح كيف يستغل الشيطان نقاط الضعف في الإنسان.

حكى المعتمر بن سليمان عن أبيه أنه قال: «ذكر لي أن الشيطان الوسواس ينبعث في قلب ابن آدم عند الحزن والفرح،فإذا ذكر الله خنس»[1].

وقال وهب بن منبه: «قال راهب للشيطان وقد بدا له: أي أخلاق ابن آدم أعون لك عليهم ؟ قال: الحدّة (صفة تعتري الإنسان كالغضب)، إن العبد إذا كان حديداً، قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة»[2].

ويذكر ابن الجوزي أيضاً عن ابن عمر: «أن نوحاً سأل الشيطان عن الخصال التي يهلك بها الناس، فقال: الحسد والحرص».

وليس بعيداً عنّا ما فعله الشيطان بيوسف وإخوته، وكيف أوغر صدور الإخوة على أخيهم، وقد قال يوسف: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ﴾ [يوسف: ١٠٠].

١٧ - النساء وحب الدنيا:

وقد أخبرنا الرسول ﷺ أنه ما ترك بعده فتنة أشد على الرجال من النساء، ولذلك أمرت المرأة بستر جسدها كله إلا الوجه والكفين، وأمر الرجال بغض أبصارهم، ونهى الرسول ﷺ عن الخلوة بالمرأة، وأخبر أنّه

---

(١) تفسير ابن كثير: ٧/ ٤٢٣.

(٢) تلبيس إبليس: ٤٢.

ما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما. وفي سنن الترمذي بإسناد صحيح: (المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان)[1].

ونحن اليوم نشاهد عظم فتنة خروج النساء كما وصفهم الرسول ﷺ كاسيات عاريات، قامت مؤسسات في الشرق والغرب تستخدم جيوشاً من النساء والرجال لترويج الفاحشة بالصورة المرئية، والقصة الخليعة، والأفلام التي تحكي الفاحشة وتدعو لها !

أما حبّ الدنيا فهو رأس كل خطيئة، وما سفكت الدماء، وهتكت الأعراض، وغصبت الأموال، وقطعت الأرحام، . . . إلا لأجل حيازة الدنيا، والصراع على حطامها الفاني، وحرصاً على متعها الزائلة.

١٨ - الغناء والموسيقا:

الغناء والموسيقا طريقان يفسد الشيطان بهما القلوب، ويخرب النفوس، يقول ابن القيم: «ومن مكايد عدو الله ومصايده التي كاد بها من قل نصيبه من العلم والعقل والدين، وصاد بها قلوب الجاهلين والمبطلين: سماع المكاء والتصدية، والغناء بالآلات المحرمة، الذي يصد القلوب بها عن القرآن، ويجعلها عاكفة على الفسوق والعصيان، فهو قرآن الشيطان، والحجاب الكثيف عن الرحمن، وهو رقية اللواط والزنى، كاد به الشيطان النفوس المبطلة، وحسنه لها مكراً وغروراً، وأوحى لها الشبه الباطلة على حسنه، فقبلت وحيه، واتخذت لأجله القرآن مهجوراً. . .»[2].

---

(١) صحيح سنن الترمذي: ١/ ٣٤٣. ورقمه: ٩٣٦. وقوله: استشرفها، أي: زينها في نظر الرجال.

(٢) إغاثة اللهفان: ١/ ٢٤٢.

ومن عجب أن بعض الناس، الذين يدّعون التعبد، يتخذون الغناء والرقص والتمايل طريقاً للتعبد، يتركون السماع الرحماني، ويذهبون إلى السماع الشيطاني، وقد عدّ ابن القيم[1] لهذا السماع بضعة عشر اسماً: اللهو، واللغو، والباطل، والزور، والمكاء، والتصدية، ورقية الزنى، وقرآن الشياطين، ومنبت النفاق في القلب، والصوت الأحمق، والصوت الفاجر، وصوت الشيطان، ومزمور الشيطان، والسمود.

وأطال النفس في بيان تحريمه، وما فيه من زور وبهتان، فراجعه إن شئت.

الجرس مزامير الشيطان:

أخبرنا الرسول ﷺ أن: (الجرس مزامير الشيطان). رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة[2]. ولذا فإن الملائكة (لا تصحب رفقة فيها كلب ولا جرس). رواه مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة[3].

١٩ - تهاون المسلمين في تحقيق ما أمروا به:

إذا التزم المسلم بإسلامه فإن الشيطان لا يجد سبيلاً لإضلاله والعبث به، فإذا تهاون وتكاسل في بعض الأمور، فإن الشيطان يجد فرصة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة:٢٠٨].

---

(١) إغاثة اللهفان: ١/ ٢٥٦.

(٢) صحيح مسلم: ٣/ ١٦٧٢. ورقمه: ٢١١٤.

(٣) صحيح مسلم: ٣/ ١٦٧٢. ورقمه: ٢١١٣.

فالدخول في الإسلام في كل الأمور هو الذي يخلص من الشيطان، فمثلا إذا كانت صفوف المصلين مرصوصة، فإن الشياطين لا تستطيع أن تتخلل المصلين، فإذا تُركت فُرجٌ بين الصفوف، فإن الشياطين تتراقص بين صفوف المصلين ؛ ففي الحديث: (أقيموا صفوفكم، لا تتخللكم الشياطين كأنّها أولاد الحَذَف). قيل يا رسول الله: وما أولاد الحذف؟ قال: (سود جُرد بأرض اليمن). رواه أحمد والحاكم بإسناد صحيح[1].

وفي الحديث الآخر: (أقيموا صفوفكم، وتراصوا، فوالذي نفسي بيده، إني لأرى الشياطين بين صفوفكم كأنها غنم عُفْر). رواه أبو داود الطيالسي بإسناد صحيح[2].

---

(١) صحيح الجامع: ١/ ٣٨٤. وأولاد الحَذَف: الغنم الصغار، والمراد الشياطين، فإنها تدخل في أوساط الصفوف كأولاد الحذف. جُرد، أي: ليس على جلدها شعر.

(٢) صحيح الجامع: ١/ ٣٨٤.

المبحث الخامس
كيف يصل الشيطان بوسوسته إلى نفس الإنسان

المطلب الأول: الوسوسة

الشيطان يستطيع أن يصل إلى فكر الإنسان وقلبه بطريقة لا ندركها، ولا نعرفها، يساعده على ذلك طبيعته التي خلق عليها، وهذا هو الذي نسميه بالوسوسة، وقد أخبرنا الله بذلك إذ سماه: ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ * ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٤-٥]. قال ابن كثير في تفسيره: ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾: الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس، فإذا ذكر الله خنس.

وقد ثبت في الصحيحين عن أنس أن الرسول ﷺ قال: (إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم)[1].

وبهذه الوسوسة أضل آدم وأغواه بالأكل من الشجرة: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠].

وقد تتمثل الشياطين في صورة بشر، وقد يحدّثون الإنسان، ويُسمِعونه، ويأمرونه، وينهونه، بمرادهم... كما سيأتي بيانه.

---

(١) مشكاة المصابيح: ١/٢٦. ورقمه: ٦٨.

المطلب الثاني: تمثل الشياطين

أحياناً تأتي الشياطين الإنسان لا بطريق الوسوسة ؛ بل تتراءى له في صورة إنسان، وقد يسمع الصوت، ولا يرى الجسم، وقد تتشكل بصور غريبة. . . وهي أحياناً تأتي الناس وتعرفهم بأنها من الجن، وفي بعض الأحيان تكذب في قولها، فتزعم أنها من الملائكة، وأحياناً تسمي نفسها برجال الغيب، أو تدعي أنها من عالم الأرواح. . .

وهي في كل ذلك تحدث بعض الناس، وتخبرهم بالكلام المباشر، أو بوساطة شخص منهم يسمى الوسيط، تتلبس وتتحدث على لسانه، وقد تكون الإجابة بوساطة الكتابة. . .

وقد تقوم بأكثر من ذلك، فتحمل الإنسان، وتطير به في الهواء، وتنقله من مكان إلى مكان، وقد تأتي له بأشياء يطلبها، ولكنها لا تفعل هذا إلا بالضالين، الذين يكفرون بالله ربّ الأرض والسموات، أو يفعلون المنكرات والموبقات. . .

وقد يتظاهر هؤلاء بالصلاح والتقوى، ولكنهم في حقيقة أمرهم من أضلّ الناس وأفسقهم، وقد ذكر القدامى والمحدثون من هذا شيئاً كثيراً، لا مجال لتكذيبه والطعن فيه ؛ لبلوغه مبلغ التواتر.

فمن ذلك ما ذكره ابن تيمية عن الحلاج قال: «وكان صاحب سيمياء وشياطين تخدمه أحياناً، كانوا معه (بعض أتباعه) على جبل أبي قبيس، فطلبوا منه حلاوة، فذهب إلى مكان قريب، وجاء بصحن حلوى، فكشفوا الأمر فوجدوا ذلك قد سرق من دكان حلاوي باليمن، حمله شيطان تلك البقعة».

قال: «ومثل هذا يحدث كثيراً لغير الحلاج ممن له حال شيطاني، ونحن نعرف كثيراً من هؤلاء في زمننا وغير زمننا، مثل شخص هو الآن (في زمن ابن تيمية) بدمشق، كان الشيطان يحمله من جبل الصالحية إلى قرية حول دمشق، فيجيء من الهواء إلى طاقة البيت، فيدخل وهم يرونه، ويجيء بالليل إلى باب الصغير (باب من أبواب دمشق الستة التي كانت يومئذ)، فيعبر منه هو ورفيقه، وهو من أفجر الناس.

وآخر كان بالشوبك (قلعة حصينة في أطراف الشام) من قرية يقال لها: الشاهدة، يطير في الهواء إلى رأس الجبل والناس يرونه، وكان شيطان يحمله، وكان يقطع الطريق.

وأكثرهم شيوخ الشرّ، يقال لأحدهم: (البوشي أبي المجيب) ينصبون له خركاه في ليلة مظلمة، ويصنعون خبزاً على سبيل القربات، فلا يذكرون الله، ولا كتاب فيه ذكر الله، ثم يصعد ذلك البوشي في الهواء وهم يرونه، ويسمعون خطابه للشيطان، وخطاب الشيطان له. ومن ضحك أو سرق من الخبز ضربه الدف، ولا يرون من يضرب به.

ثم إن الشيطان يخبرهم ببعض ما يسألونه عنه، ويأمرهم بأن يقربوا له بقراً وخيلاً وغير ذلك، وأن يخنقوها خنقاً، ولا يذكرون اسم الله عليها، فإذا فعلوا قضى حاجتهم».

ويذكر ابن تيمية أيضاً عن «شيخ أخبر عن نفسه أنه كان يزني بالنساء ويتلوط الصبيان، وكان يقول: يأتيني كلب أسود بين عينيه نكتتان بيضاوان، فيقول لي: فلان ابن فلان نذر لك نذراً، وغداً نأتيك به، فيصبح ذلك الشخص يأتيه بذلك النذر، ويكاشفه هذا الشيخ الكافر».

ويذكر عن هذا الشيخ أنه قال: «وكنت إذا طلب مني تغيير مثل (اللادن) (صمغ يستعمل عطراً ودواء) أقول: حتى أغيب عن عقلي، وإذا باللادن في يدي أو في فمي، وأنا لا أدري من وضعه.

قال: وكنت أمشي وبين يدي عمود أسود عليه نور.

قال: فلما تاب هذا الشيخ، وصار يصلي ويصوم، ويجتنب المحارم، ذهب الكلب، وذهب التغيير، فلا يأتي باللادن ولا غيره.

ويحكى عن شيخ آخر كان له شياطين يرسلهم يصرعون بعض الناس، فيأتي أهل ذلك المصروع إلى الشيخ يطلبون إبراءَه، فيرسل إلى أتباعه، فيفارقون ذلك المصروع، ويعطون ذلك الشيخ دراهم كثيرة، وكان أحياناً تأتيه الجن بدراهم وطعام تسرقه من الناس، حتى إن بعض الناس كان له تين في كوارة، فيطلب الشيخ من شياطينه تيناً فيحضرونه له، فيطلب أصحاب الكوارة التين، فيجدونه قد ذهب.

ويذكر عن آخر أنه كان مشتغلاً بالعلم فجاءَته الشياطين وأغوته، وقالوا له: نحن نسقط عنك الصلاة، ونحضر لك ما تريد، فكانوا يأتونه بالحلوى، حتى حضر عند بعض الشيوخ العارفين بالسنة فاستتابه، وأعطى أهل الحلاوة ثمن حلاوتهم التي أكلها ذلك المفتون بالشيطان»[1].

وبين شيخ الإسلام بعض طرق الشيطان في الإغواء، فقال[2]: «أنا أعرف من تخاطبه النباتات بما فيها من المنافع، وإنما يخاطبه الشيطان الذي دخل فيها، وأعرف من يخاطبهم الشجر والحجر، وتقول: هنيئاً لك

(١) جامع الرسائل لابن تيمية: ص ١٩٠-١٩٤.

(٢) مجموع الفتاوى: ١١/ ٣٠٠.

يا ولي الله، فيقرأ آية الكرسي فيذهب ذلك، وأعرف من يقصد صيد الطير، فتخاطبه العصافير وغيرها، وتقول: خذني حتى يأكلني الفقراء، ويكون الشيطان قد دخل فيها كما يدخل في الإنسان ويخاطبه بذلك.

ومنهم من يكون في البيت وهو مغلق، فيرى نفسه خارجه، وهو لم يفتح، وبالعكس، وكذلك في أبواب المدينة، وتكون الجن قد أدخلته وأخرجته بسرعة يتصورون بصورة صاحبه، فإذا قرأ آية الكرسي مرة بعد مرة ذهب ذلك كله».

ويقول رحمه الله: «وأعرف من يخاطبه مخاطب ويقول له: أنا من أمر الله، ويعده بأنه المهدي الذي بشر به الرسول ﷺ، ويظهر له الخوارق، مثل أن يخطر بقلبه تصرف في الطير والجراد في الهواء، فإذا خطر بقلبه ذهاب الطير أو الجراد يميناً أو شمالاً ذهب حيث أراد، وإذا خطر بقلبه قيام بعض المواشي، أو نومه، أو ذهابه، حصل له ما أراد من غير حركة منه في الظاهر، وتحمله إلى مكة وتأتي به، وتأتيه بأشخاص في صورة جميلة، وتقول له: هؤلاء الملائكة الكروبيون جاؤوا لزيارتك، فيقول في نفسه: كيف تصوروا بصورة المردان؟! فيرفع رأسه فيجدهم بلحى، ويقولون له: علامة أنك المهدي أنك تنبت في جسدك شامة، فتنبت ويراها، وغير ذلك، وكله من مكر الشيطان»[1].

وبين رحمه الله «أن أهل الضلال والبدع الذين فيهم زهد وعبادة على غير الوجه الشرعي، ولهم أحياناً مكاشفات وتأثيرات، يأوون كثيراً إلى مواضع الشياطين التي نُهي عن الصلاة فيها؛ لأن الشياطين تتنزل عليهم

(١) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام: ١١/ ٣٠٠.

بها، وتخاطبهم الشياطين ببعض الأمور كما تخاطب الكهان، وكما كانت تدخل في الأصنام، وتكلم عابدي الأصنام، وتعينهم في بعض المطالب كما تعين السحرة، وكما تعين عباد الأصنام وعباد الشمس والقمر والكواكب، إذا عبدوها بالعبادات التي يظنون أنها تناسبها، من تسبيح لها ولباس وبخور وغير ذلك؛ فإنه قد تنزل عليهم شياطين يسمونها روحانية الكواكب، وقد تقضي بعض حوائجهم»[1].

الذين تخدمهم الشياطين يتقربون إليها بالمعاصي:

هؤلاء الذين يزعمون الولاية - والحقيقة أن الشياطين تخدمهم - لا بدّ أن يتقربوا إلى الشياطين بما تحبه من الكفر والشرك؛ كي يقضوا بعض أغراضه، ويذكر ابن تيمية[2]: أن كثيراً من هؤلاء يكتبون كلام الله بالنجاسة، وقد يقلبون حروف كلام الله عزّ وجلّ، إمّا حروف الفاتحة، وإما حروف ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، وإما غيرهما - ويذكر أنهم قد يكتبون كلام الله بالدم أو بغيره من النجاسات، وقد يكتبون غير ذلك مما يرضاه الشيطان، أو يتكلمون بذلك.

فإذا قالوا أو كتبوا ما ترضاه الشياطين، أعانتهم على بعض أغراضهم: إما تغوير ماء من المياه، وإما أن يحمل في الهواء إلى بعض الأمكنة، وإما أن يأتيه بمال من أموال بعض الناس، كما تسرقه الشياطين من أموال الخائنين، ومن لم يذكر اسم الله عليه، وتأتي به، وإما غير ذلك.

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٩/ ٤١.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٩/ ٣٥.

رجال الغيب:

يذكر شارح الطحاوية: «أن من الشياطين ما يسميه الناس رجال الغيب، وأن بعض الناس يخاطبونهم، وتحصل لهؤلاء خوارق يزعمون بها أنهم أولياء الله، وأن بعض هؤلاء يعين المشركين على المسلمين، ويقول: إن الرسول أمره بقتال المسلمين مع المشركين، لكون المسلمين عَصَوْا».

ويعقب شارح الطحاوية على ذلك قائلاً: «هؤلاء في الحقيقة إخوان المشركين، وذكر أنّ الناس من أهل العلم في رجال الغيب ثلاثة أحزاب:

١- حزب يكذبون بوجود رجال الغيب، ولكن قد عاينهم الناس، وثبت عمن عاينهم، أو حدثه الثقات بما رأوه، وهؤلاء إذا رأوهم وتيقنوا وجودهم، خضعوا لهم.

٢- وحزب عرفوهم، ورجعوا إلى القدر، واعتقدوا أن ثَمّ في الباطن طريقاً إلى الله غير طريقة الأنبياء.

٣- وحزب ما أمكنهم أن يجعلوا ولياً خارجاً عن دائرة الرسول، فقالوا: يكون الرسول هو محمداً للطائفتين. فهؤلاء معظمون للرسول جاهلون بدينه وشرعه».

ثم قال مبيناً حقيقة هؤلاء وأتباعهم: «والحق أن هؤلاء من أتباع الشياطين، وأن رجال الغيب هم الجن، ويسمون رجالاً، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦]، وإلا فالإنس يؤنسون، أي يشهدون ويرون، وإنما يحتجب الإنس أحياناً، لا يكون دائم الاحتجاب عن أبصار الإنس، ومن ظنهم من الإنس فمن غلطه وجهله».

ثم بين أن السبب في الاختلاف فيهم وفي افتراق هذه الأحزاب الثلاثة عدم الفرقان بين أولياء الشيطان وأولياء الرحمن، وبيّن أنه يجب عرض أفعال الناس وأقوالهم وحالهم على الكتاب والسنة، فما وافقهما كان صالحاً، وما خالفهما كان غالطاً، ومهما فعل الإنسان وتبدى من حاله لا يكون مؤمناً ولا ولياً لله - وإن طار في الهواء، ومشى على الماء ما لم يكن ملتزماً بالكتاب والسنة[1].

فلا بد أن يكون عند العبد الميزان الذي يفرق به بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، والصالحين والطالحين، وإلا ضّل وزاغ، وظن أعداء الله أولياءَه، هذا الميزان هو الكتاب والسنة، فإذا كان العبد ملتزماً بهما فنعم، وإلا فإنّه ليس على شيء، ولو رأيناه يحيي الأموات، ويحول المعادن الخسيسة إلى معادن نفيسة.

يقول ابن تيمية: «ومن لم يميز بين الأحوال الرحمانية والنفسانية اشتبه عليه الحق بالباطل، ومن لم ينوّر الله قلبه بحقائق الإيمان واتباع القرآن، لم يعرف طريق المحق من المبطل، والتبس عليه الأمر والحال، كما التبس على الناس حال مسيلمة صاحب اليمامة وغيره من الكذابين في زعمهم أنهم أنبياء وإنما هم كذابون»[2].

وقد ألف ابن تيمية كتاباً عظيماً، إذا عرفته، تبين لك الفارق الكبير بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان بحيث لا يشتبه عليك بعد ذلك أمر أولياء الشيطان، وقد أسماه «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان».

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية: ٥٧١-٥٧٢.

(٢) جامع الرسائل: ص ١٩٧.

لا تسخر الجن لأحد بعد نبي الله سليمان:

استجاب الله لنبيه سليمان، ووهب له ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، فإذا حصل طاعة من الجن لأحد من الإنس، فلا يكون على سبيل التسخير، وإنما برضى الجني، وهل يجوز ذلك ؟

يقول ابن تيمية[1]: «الجن مع الإنس على أحوال: فمن كان من الإنس يأمر الجن بما أمر الله به ورسله من عبادة الله وحده وطاعة نبيه، ويأمر الإنس بذلك، فهذا من أفضل أولياء الله تعالى، وهو في ذلك من خلفاء الرسول ﷺ ونوابه.

ومن كان يستعمل الجن في أمور مباحة له، فهو كمن استعمل الإنس في أمور مباحة له،وهذا كأن يأمرهم بما يجب عليهم، وينهاهم عما حرّم عليهم، ويستعملهم في مباحات له، فيكون بمنزلة الملوك، الذين يفعلون مثل ذلك، وهذا إذا قدّر أنه من أولياء الله، فغايته أن يكون في عموم أولياء الله مثل النبي الملك مع العبد الرسول، كسليمان ويوسف مع إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ومن كان يستعمل الجنّ فيما ينهى الله عنه ورسوله إما في الشرك، وإما في قتل معصوم الدم، أو في العدوان عليهم بغير القتل، كتمريضه وإنسائه العلم، وغير ذلك من الظلم، وإما في فاحشة، كجلب من يطلب منه الفاحشة، فهذا قد استعان بهم على الإثم والعدوان، ثمّ إن استعان بهم على الكفر فهو كافر، وإن استعان بهم على المعاصي فهو عاص: إما فاسق، وإما مذنب غير فاسق.

---

(١) مجموع الفتاوى: ١١/ ٣٠٧.

وإن لم يكن تام العلم بالشريعة، فاستعان بهم فيما يظن أنه من الكرامات، مثل أن يستعين بهم على الحج، أو يطيروا به عند السماع البدعي، أو أن يحملوه إلى عرفات، ولا يحج الحج الشرعي الذي أمره الله به ورسوله، وأن يحملوه من مدينة إلى مدينة، ونحو ذلك، فهذا مغرور قد مكروا به».

المطلب الثالث: تحضير الأرواح

انتشر في عصرنا القول بتحضير الأرواح، وصدّق بهذه الفِرية كثير من الذين يعدّهم الناس عقلاء وعلماء.

وتحضير الأرواح المزعوم سبيله ليس واحداً، فمنه ما هو كذب صراح، يستعمل فيه الإيحاء النفسي، والمؤثرات المختلفة، والحيل العلمية، ومنه ما هو استخدام للجنّ والشياطين.

وقد كشف الأستاذ الدكتور محمد محمد حسين في كتابه (الروحية الحديثة) كثيراً من خداع هؤلاء وتزويرهم للحقيقة، فهم لا يجرون تجاربهم كلها إلا في ضوء أحمر خافت، هو أقرب إلى الظلام، وظواهر التجسيد، والصوت المباشر، ونقل الأجسام، وتحريكها تجرى في الظلام الدامس، ولا يستطيع المراقب أن يتبين مواضع الجالسين، ولا مصدر الصوت، ولا يستطيع كذلك أن يميز شيئاً من تفاصيل المكان، كجدرانه أو أبوابه أو نوافذه.

وتكلم الدكتور محمد عن (الخباء) وهو حجرة جانبية معزولة عن

الحاضرين أو جزء من الحجرة التي يجلسون فيها تفصل بحجاب كثيف، وهذا المكان المنفصل معدّ لجلوس الوسيط الذي تجرى على يديه ظواهر التجسد المزعوم. ومن هذا المكان المحجوب بستار يضاف إلى حجاب الظلام السابق تخرج الأرواح المزعومة متجسدة، وإليه تعود بعد قليل، ولا يسمح للحاضرين بلمس الأشباح.

ويرى الدكتور أن الروحيين لا يعْدِمون في مثل هذا الجو المظلم قوالب علمية يصبون فيها حيلهم.

والتدليس على الناس بالحيل طريقة قديمة معروفة، يضلّ بها شياطين الإنس عباد الله، يطلبون الوجاهة عند الناس، كما يطلبون مالهم، فقد ذكر ابن تيمية[1] عن فرقة في عصره كانت تسمى (البطائحية): أنهم كانوا يدّعون علم الغيب والمكاشفة، كما يدعون أنهم يرون الناس رجال الغيب، ثم كشف شيئاً من دجلهم، فقد كانوا يرسلون بعض النساء إلى بعض البيوت يستخبرون عن أحوال أهلها الباطنة، ثم يكاشفون صاحب البيت بما علموه، زاعمين أن هذا من الأمور التي اختصوا بالاطلاع عليها.

ووعدوا رجلاً - كانوا يمنونه بالملك - أن يروه رجال الغيب، فصنعوا خشباً طوالا، وجعلوا عليها من يمشي كهيئة الذي يلعب بأكر الزجاج، فجعلوا يمشون على جبل المزة، وذلك المخدوع ينظر من بعيد، فيرى قوماً يطوفون على جبل، وهم يرتفعون عن الأرض، وأخذوا منه مالاً كثيراً، ثم انكشف له أمرهم.

ودلسوا على آخر كان يدعى (قفجق)، إذ أدخلوا رجلاً في القبر يتكلم،

---

(١) مجموع الفتاوى: ١١/٤٥٨.

وأوهموه أن الموتى تتكلم ؛ وأتوا به إلى مقابر باب الصغير إلى رجل زعموا أنه الشعراني الذي بجبل لبنان، ولم يقربوه منه، بل من بعيد، لتعود عليه بركته، وقالوا: إنه طلب منه جملة من المال، فقال (قفجق): الشيخ يكاشف وهو يعلم أن خزائني ليس فيها هذا كله، وتقرب قفجق، وجذب الشعر، فانقلع الجلد الذي ألصقوه على جلده من جلد الماعز.

وقد بين الدكتور محمد محمد حسين أن الوسيط - وهو شخص يزعم أهل هذا المذهب الروحيون أن فيه استعداداً فطرياً يؤهله لأن يكون أداة يجري عن طريقها التواصل - غالباً ما يكون دجالاً كبيراً، وغشاشاً مدلساً، وبين كيف أن كثيراً من هؤلاء الوسطاء لا يكون على خلق ولا دين، بل إن الروحانيين لا يشترطون في الوسيط شيئاً من ذلك، وقد ذكر حادثة جرت معه شخصياً تبين له بعد تحقيق منه في الموضوع أن الوسيط كان دجالاً كاذباً.

وبين كيف أن بعض الحضور يكونون متواطئين مع المحضرين، وكيف يحترس في انتقاء الذين يسمح لهم بحضور مثل هذه الجلسات، وكيف يعللون إخفاقهم إذا وجد في الحضور بعض الأذكياء النبهاء.

وقد أفاض الدكتور محمد محمد حسين في الكشف عن الطريق الأولى التي يزعم الروحانيون أنهم يحضرون بها الأرواح، وهي طريق الدجل والكذب، واستعمال المؤثرات النفسية والحيل العلمية.

وأشار مجرد إشارة إلى الطريق الثانية وهي استخدام الجن، وأرى أن غالب الدعوات التي يزعم أصحابها تحضير الأرواح هي من هذا القبيل.

تحضير الأرواح دعوة قديمة:

دعوى تحضير الأرواح ليست جديدة، بل هي قديمة، وقديمة جداً، وقد نقلنا فيما سبق كيف كان بعض الناس يتصلون بالجن، بل حفظت لنا كتب الثقات أن بعض الناس كانوا يزعمون أن أرواح الموتى تعود إلى الحياة بعد الموت، يقول ابن تيمية: «ومن هؤلاء (أي أهل الحال الشيطاني من الكفرة والمشركين والسحرة ونحوهم) من إذا مات لهم ميت يعتقدون أنه يجيء بعد الموت يكلمهم، ويقضي ديونه، ويرد ودائعه، ويوصيهم بوصايا، فإنهم تأتيهم تلك الصورة التي كانت في الحياة، وهو شيطان تمثل في صورته، فيظنونه إياه»[1].

تجربة معاصرة:

هذه تجربة حصلت مع الكاتب أحمد عز الدين البيانوني، ذكرها في كتاب الإيمان بالملائكة، حرصت على نقلها بنصها في هذا الموضوع يقول الكاتب:

«لقد شغل (استحضار الأرواح) المزعوم أفكار الناس في الشرق والغرب، فكُتبت فيه مقالات، بلغات مختلفات، نُشرت في مجلات عربية وغير عربية، وألفت فيه مؤلفات، وبحث فيه باحثون، وجربه مجربون، اهتدى بعد ذلك العقلاء منهم إلى أنه كذب وبهتان، ودعوة إلى كفر وطغيان.

---

(١) جامع الرسائل: ص ١٩٤-١٩٥.

إن استحضار الأرواح، الذي يزعمه الزاعمون، كذبٌ ودجل وخداع، وما الأرواح المزعومة إلا شياطين تتلاعب بالإنسان، وتخادعه.

وليس في استطاعة أحد أن يستحضر روح أحد؛ فالأرواح بعد أن تفارق الأجساد، تصير إلى عالم البرزخ.

ثم هي إما في نعيم وإما في عذاب، وهي في شغل شاغل عما يدعيه مستحضرو الأرواح.

وقد دُعيتُ أنا إلى ذلك، من قبل هذه الأرواح، وجربته بنفسي تجربة طويلة، وظهر لي أنه كذب ودجل وخداع، على أيدي شياطين تتلاعب، غرضهم من ذلك تضليل الناس وخداعهم، وموالاة من يواليهم...».

بدء التجربة:

ويتابع أحمد عزّ الدين كلامه قائلاً:

«عرفت منذ أكثر من عشر سنوات تقريباً رجلاً، يزعم أنه يستخدم الجن في أمور صالحة في خدمة الإنسان، وذلك بوساطة وسيط من البشر.

ويزعم أنه توصّل إلى ذلك بتلاوات وأذكار طويلة، قضى فيها زمناً طويلاً، دلّه عليها بعض من يزعم أنه على معرفة بهذا العلم!

جاءني الوسيط ذات يوم يبلغني دعوة فلانٍ وفلانة من الجن، لحديث هامّ، لي فيه شأن عظيم.

فذهبت في الموعد المحدد، متوكلاً على الله، فرحاً بذلك، لأطلع في هذه التجربة على جديد».

كيف بدأت المخادعة ؟

«من أول أساليب الخداع التي سُلكت معي، أن طريقة الاستحضار، استغفار وتهليل وأذكار، مما يجعل الإنسان لأول وهلة، يظن أنه يتحدث مع أرواح علوية صادقة طاهرة.

دخلت بيت الوسيط، وخلونا معاً في غرفة، وجلس هو على فراش، وبدأنا - بدلالته طبعاً نستغفر ونهلل - حتى أخذته إغفاءة، فأضجعته أنا على فراشه، وسجيته بغطاء، كما علمني أن أفعل، وإذا بصوت خافت، يسلم صاحبه عليّ، ويظهر حفاوته بي وحبه، ويعرفني بنفسه، إنه مخلوق، يزعم أنه ليس من الملائكة، ولا من الجنّ، ولكنه خلق آخر، من نوع آخر، وُجد بقوله تعالى «كن» فكان.

وهذا على زعمه أنّ الجن لا يصدرون إلا عن أمره، وأن بينه وبين الله تعالى في تلقي الأوامر خمس وسائط فقط، خامسهم جبريل عليه السلام.

وأخذ يثني عليّ، ويقول: إنهم سيقطعون كل علاقة لهم بالبشر، وسيكتفون بلقائي، لأني على زعمهم صاحب الخصوصية في هذا العصر، وموضع العناية من الله تعالى، وأن الله تعالى هو الذي اختارني لذلك.

ووعدني بوعود رائعة، فيها العجب العجاب.

واستسلمت لهذه التجربة الجديدة، والدعوة الخادعة، متوكلاً على الله عزّ وجلّ، سائلاً الله تعالى أن يعصمني من الزلل، وأن يهديني إلى الحقّ المبين، مستضيئاً بنور العلم، سالكاً سبيل الاستقامة، والحمد لله تعالى.

ولما انقضى اللقاء الأول، دعاني إلى لقاء آخر، في موعد آخر، ثم

دلني هو نفسه على تلاوة خاصة ؛ لإيقاظ الوسيط من غيبوبته.

وكان ذلك، وجلس الوسيط، وعرك عينيه، كأنه انتبه من نوم عميق، ولا علم له بشيء مما جرى.

ورجعت في الموعد المحدد أيضاً، وتم بيننا بعد لقاءات مدة طويلة، وفي كل لقاء، تتجدد الوعود الحسنة، ويوصف لي المستقبل الرائع الذي ينتظرني، والنفع العظيم الذي تلقاه الأمة على يديّ.

تطور الموضوع:

وتطور الأمر، فأخذ كثير من الأرواح يزورونني في كل لقاء، بمقدمات من الأذكار، وبغير مقدمات، فقد أكون مع الوسيط على طعام، أو على تناول كأس من الشاي، فتأخذه الإغفاءة المعهودة، فيميل رأسه إلى الأمام، وتلتصق ذقنه بصدره، ويحدثني الزائر الذي يزعم أنه من الملائكة، أو من الجن، أو من الصحابة، أو من الأولياء، حديثاً يغلب عليه طابع الاحترام والإجلال، والتبرك بزيارتي، وتبشيري بالمستقبل الزاهر المبارك، ثم ينصرف، ويجيء غيره وغيره...».

من الزائرون ؟

«زارني فيما زعموا أفراد من الملائكة، وأفراد من الجن، وأبو هريرة رضي الله عنه من الصحابة، وطائفة من الأولياء، أمثال أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه، وطائفة من أهل العلم والفضل، المشهود لهم بالعلم والولاية، أمثال الشيخ أحمد الترمانيني رحمه الله تعالى، وبعض من أدركتهم من أهل العلم والفضل، ثم أدركتهم الوفاة، ومنهم والدي رحمه الله تعالى.

وبشروني بزيارة والدي إياي، في وقت عينوه، وانتظرت الموعد بلهف، ولما كان الموعد المنتظر، كلفوني أن أقرأ سورة «الواقعة» جهراً، فقرأتها، ولما فرغت من قراءَتها، قالوا:

سيحضر والدك بعد لحظات، فاسمع ما يقول، ولا تسأله عن شيء!!!».

بدء انتباهي:

«وبعد دقائق جاءني، جاء من يزعم أنه أبي، فسلم علي، وأظهر سروره بلقائي، وفرحه بي على صلتي بهذه الأرواح، وأوصاني أن أعتني بالوسيط وأهله ! وأن أرعاه رعاية عطف وإحسان، إذ لا مورد له من المال إلا من هذا الطريق.

وختم حديثه بالصلاة الإبراهيمية، وأنا أعلم أنه رحمه الله تعالى، كان شديد الولع بالصلاة على النبي ﷺ، ولا سيما الإبراهيمية.

وكان من العجب أن لهجة المتحدث شبيهة إلى حدّ ما بلهجة الوالد. ثم سلم وانصرف.

وأخذت أتسائل في نفسي: لم أوصوني أن لا أسأله عن شيء ؟!

في الأمر سر ولا شك !

السر الخفي الذي انكشف لي آنذاك، أنه ليس بوالدي، ولكنه قرينه من الجن، الذي صحبه مدة حياته، فجاءني يمثل لي صوته، ويتشبه بخصوصية من خصوصياته.

أوصوني أن لا أسأله عن شيء؛ لأن القرين من الجن، مهما عرف من

شأن والدي وحفظ من أحواله، فلن يستطيع أن يحفظ كل جزئية يعرفها الولد من أبيه، فحذروا أن أسأله عن شيء من ذلك، فلا يجيبني، فيفتضح الأمر.

ثم سلكوا معي في لقائي مع الآخرين، أن لا يعرفوني بأسمائهم إلا عند انصرافهم، فيقول أحدهم: أنا فلان، ويسلم، وينصرف على الفور.

وفي ذلك من السر ما ذكرت: فلو أخبرني واحد منهم عن نفسه، وهو مشهود له بالعلم، فبحثت معه في إشكال علمي، لعجز عن الجواب، وانكشف الأمر.

وقد أتاني آتٍ مرة يناقشني في إباحة كشف وجه المرأة، وأنه ليس بعورة، فرددت عليه، ورد عليّ رداً ليس فيه رائحة العلم، واحتدم الجدال بيننا.

فقلت له: وماذا تجيب عن أقوال الفقهاء الذي قالوا:

إن وجه المرأة عورة، أو يجب ستره خشية الفتنة ؟

وانتهى الجدال إلى غير جدوى، ثم أخبرني أنه الشيخ أحمد الترمانيني، وانصرف.

فانكشف لي أنه الكذب لا شك فيه، لأن الشيخ المذكور من كبار فقهاء الشافعية، والسادة الشافعية يقولون: المرأة كلها عورة، ولو عجوزاً شمطاء.

فلو أنه كان هو الشيخ المذكور، وانكشف له من العلم جديد، وهو في عالم البرزخ، لأخبرني بذلك، وأرشدني إلى دليله.

ولكنه الكذب والخداع، وإرادة التضليل. وأبى الله تعالى - والحمد لله - إلا هداي، وثباتي على الحق والهدى.

فكشفُ المرأة وجهها، ولا سيما في هذا الزمان الفاسد والمجتمع المريض، أمر لا يُقره ذو عقل ودين».

انكشاف الحقيقة !

«ولم تزل تنكشف لي الحقيقة على وجهها مرة بعد مرة، وفي تجربة بعد تجربة، حتى تحقق عندي أن الأمر كله كذب وبهتان، ودجل وطغيان، لا أساس له من تقوى، ولا قائمة له على دين.

فالوسيط الذي يعتنون بشأنه، ويوصون بحسن رعايته وإكرامه، تارك صلاة، ولا يأمرونه بها.

وهو يحلق لحيته، ولا يأمرونه بإطلاقها.

ثم هو يأكل أموال الناس بالباطل، وبالوعود الخادعة، ولا مورد له إلا من هذا الطريق الخبيث.

جاءني رجل بعدما عرف صلتي بهذا الوسيط، يشكو إليّ أنه خدعه، فأخذ منه ثلاثمائة ليرة سورية، وهو فقير، وفي أشد الحاجة إليها.

فألزمت الوسيط بردّها إليه، فاستجاب لذلك حرصاً منه ومن شياطينه على بقاء صلتي بهم.

والوسيط وأسرته تقوم حياتهم على الكذب في أكثر شؤونهم).

الخاتمة:

وختم الشيخ أحمد عزالدين كلامه على هذه التجربة بقوله:

«حاولت هذه الأرواح بعدما انكشف لي أمرها أن تسلك معي مسلك التهديد، فلم يزلزل ذلك من قلبي شيئاً، والحمد لله.

وقد كنت كتبت في هذه المدة الطويلة مما حدثوني به ما ملأ دفترين كبيرين، جمعت فيهما أكثر ما حدثوني به.

ولما ظهر الباطل ظهوراً لا يحتمل التأويل، قطعت الصلة بهم، وحكمت عليهم بما حكمت، وأحرقت الدفترين اللذين امتلأا بالكذب والخداع.

فهذه الأرواح التي تدّعي أنها أرواح رجال من الصحابة والأولياء والصالحين، كلها شياطين، لا ينبغي لمؤمن عاقل أن ينخدع بها.

وجميع الصور التي اعتادها مستحضرو الأرواح كذب وباطل.

سواء في ذلك طريقة الوسيط التي ذكرتها وجربتها، وطريقة المنضدة والفناجين التي ذكرها لي بعض من جربها، ووصل إلى النتيجة التي وصلت إليها.

ومن عجيب الأمر أني قرأت بعد ذلك كتباً مؤلفةً في هذا الموضوع، فإذا بالمجربين العاقلين وصلوا إلى مثل ما وصلت إليه، وحكموا على تلك الأرواح، أنها قرناء بني آدم من الجن، كما هداني الله تعالى إلى ذلك من قبل، والحمد لله.

وقد أديت بكلمتي هذه النصح الواجب، والله الهادي والموفق».

خطر هذه الدعوات:

هذه الدعوات التي تزعم أن بإمكانها تحضير الأرواح اتخذها شياطين الجن والإنس سبيلاً لإفساد الدين، فهذه الأرواح التي تُحضّر، وهي في الحقيقة شياطين تتكلم بكلام يحطم الدين وينسفه، وتقر مبادىء ومثلاً جديدة تعارض الحق كل المعارضة، ففي واحدة من هذه الجلسات زعمت الروح (الشيطان) على لسان الوسيط أن جبريل قد حضر هذه الجلسة، ولما كان الحضور لا يعرفون جبريل قالت: «ألا تعرفون جبريل الذي كان ينزل بالقرآن على محمد ؟ ! إنه يبارك هذا الاجتماع».

وينقل الدكتور محمد محمد حسين عن مجلة (عالم الروح) من مقال لها بعنوان (حديث الروح الكبير هوايت هوك) ما يأتي: (يجب أن نتحد في هذه الحركة، في هذا الدين الجديد، يجب أن تسودنا المحبة، ويجب أن تكون لنا قدرة على الاحتمال والتفاهم...

رسالتي (المتحدث هنا الروح أي الشيطان) أن أواسي المحروم، وأساعد الإنسان على تحرره في نفسه من الله تعالى، (وصدق وهو كذوب فهذه رسالته، أي يجعله يكفر بالله) الإنسان إله مكسو بعناصر الأرض (هكذا ينفخ في الإنسان، ويكذب عليه ليضله)، وهو لن يدرك ما في مقدوره ما لم يحس بجزئه الملائكي الإلهي...، الروحية ستكون أقدر من غيرها على تأسيس دين جديد واسع للعالم كله».

وينقل عن هذه المجلة أيضاً تعريفاً بالمنظمة التي أسست لهذه الغاية «إن هذه المنظمة ستكون لكل البشرية، وعن طريقها سوف يوضح لنا سكان العالم الروحي طريقة جديدة للحياة، ويعطوننا فكرة جديدة عن الله

ومشيئته، إنهم سوف يأتون لنا بالسلام والطمأنينة الروحية وبسعادة النفس والقلب، سوف يحطمون الحواجز بين الشعوب والأفراد، وبين العقائد والأديان (هكذا)... إنّ العضوية في هذه المنظمة بدون نظر للوطن أو اللون أو الدين أو المذهب السياسي».

وقد تزعم الأرواح أنها مرسلة من عند الله، فالدكتور محمد محمد حسين يذكر أن محمد فريد وجدي نقل عن هذه الأرواح (الشياطين) قولها: «نحن مرسلون من عند الله كما أرسل المرسلون قبلنا، غير أن تعاليمنا أرقى من تعاليمهم، فإلهنا هو إلههم، إلا أن إلهنا أظهر من إلههم، وأقل صفات بشرية وأكثر صفات إلهية...، لا تخضع لأي عقيدة مذهبية، ولا تقبل بلا بصر ولا روية تعاليم لا تستند إلى العقل».

وهم يزعمون أنّ الرسل والأنبياء ما هم إلا وسطاء على درجة عالية من الوساطة، وأن المعجزات التي جرت على أيديهم ليست إلا ظواهر روحية، كالظواهر التي تحدث في حجرة تحضير الأرواح، ويزعمون أنهم يستطيعون أن يعيدوا أحداث ما نسب للمسيح عن طريق الأرواح.

وقد قامت بعض الصحف بحملة دعائية كبيرة، زعمت أن أحد محضري الأرواح في أمريكا يستطيع أن يقوم بمثل معجزات المسيح، فهو يعيد البصر إلى الأعمى، والنطق إلى الأبكم، والحركة للمشلول، بقي أن تعلم أن الطبيب المزعوم طفل في العاشرة من عمره يدعى (ميشيل). وعندما يأتيه المريض يضع أنامله عليه، ويتمتم ببعض الأدعية والكلمات فتحدث المعجزة. ويقولون: إن هذا الطفل ورث الموهبة الروحانية عن والده، وهو لا يتقاضى شيئاً من المال عما يقوم به من أعمال[1].

(١) ملحق جريدة القبس الكويتية: ١٧/ ١٠/ ١٩٧٧م.

ووراثة هذا الطفل الأعمال من أبيه تذكرنا بقصة تروى في بعض نواحي فلسطين، يقول الرواة: إن أحد الرجال الذين كانوا يظهرون الصلاح والتقى، كان يفعل عجباً، فقد كان - في ذلك الوقت الذي لم تظهر فيه الطائرة والسيارة - ينطلق إلى الحج في ليلة عرفة، فيشهد ذلك اليوم مع الحجيج، ويسلمهم رسائل من أقاربهم وذويهم، ويأخذ منهم رسائل إلى أقاربهم وذويهم، ويعود في الليلة الأخرى، وكان كثير من الناس يعتقد فيه الصلاح والخير، على الرغم من أنه ما كان يقوم بمناسك الحج، ولا يمكث في منى المدة المقررة، ولا يرمي الجمرات.

ثم شاء الله أن يكشف باطله، ويظهر أمره للناس، فعندما جاءَه الموت استدعى ابنه الأكبر، وأخبره أن جملاً سيأتيه ليلة عرفة، ويحمله إلى عرفات في كل عام، ولما جاء الجمل وركبه الابن، وسار مسافة وقف، وتحدث إلى الابن وأخبره أنه شيطان، وأن أباه كان يعبده، ويسجد له،وفي مقابل ذلك يخدمه مثل هذه الخدمات، ولما رفض الابن السجود له، واستعاذ بالله منه، تركه في الصحراء، وقدر الله له الرجوع، وكشف حقيقة أبيه الكافر.

وقد أشار إلى هذه القصة البيانوني في كتابه (الملائكة) بأخصر مما أثبتناه هنا.

هل يمكن استحضار الأرواح ؟

لقد وضعت مجلة (سينتفيك أمريكان) جائزة مالية ضخمة لمن يقيم الحجة على صدق الظواهر الروحية، ولا تزال الجائزة قائمة لم يظفر بها أحد على الرغم من انتشار الروحيين ونفوذهم وبراعتهم في أمريكا، وقد

ضم إلى هذه الجائزة جائزة أخرى تبرع بها الساحر الأمريكي دننجر للغرض نفسه، ولم يظفر بها أحد أيضاً.

حكم الشريعة في تحضير الأرواح:

ما موقف الإسلام من إمكان إحضار روح المتوفى؟ إن التأمل في النصوص التي وردت في هذا تجعل الباحث يعطي حكماً جازماً أن ذلك مستحيل، فقد أخبرنا الله أن الروح من عالم الغيب الذي لا سبيل إلى إدراكه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

وأخبر الحقّ - تبارك وتعالى - أنه يتوفى الأنفس، وأنه يمسك النفوس عند موتها: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ﴾ [الزمر: ٤٢]. وقد وكّل الله بالأنفس ملائكة يعذبونها إن كانت شقية كافرة، وينعمونها إن كانت صالحة تقية.

وقد بين لنا الرسول ﷺ كيف يقبض ملك الموت الأرواح وما يفعل بها بعد ذلك.

والأرواح إذا كانت مُمْسكة عند ربها وكل الله بها حفظة أقوياء مهرة، فلا يمكن أن تتفلت منهم، وتهرب لتأتي إلى هؤلاء الذين يتلاعبون بعقول العباد.

وبعض هؤلاء يزعم أنه حضّر روح عبد من عبيد الله الصالحين من الأنبياء والشهداء، فكيف يتركون جنان الخلد إلى حجرة التحضير

المظلمة، فقد أخبرنا الله أن الشهداء أحياء عند ربهم: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

وقد بين الرسول ﷺ (أن أرواح الشهداء في أجواف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءَت، ثمّ تأوي إلى تلك القناديل). رواه مسلم في صحيحه[1]، فكيف يزعم دجالو العصر أنهم يحضرون أرواح هؤلاء ؟ كيف ؟ ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ [الكهف: ٥].

شبهة وجوابها:

يقولون: فكيف تعللون معرفة الأرواح بأخلاق وأعمال الرجل الذي تزعم أنها كانت تسكنه ؟

قلنا: هذا الذي يزعم أنه روح إنما هو شيطان، ولعل هذا الشيطان هو القرين الذي كان يلازم الإنسان، وقد ذكرنا النصوص التي تدلّ على أن لكل إنسان شيطاناً، فهذا القرين الملازم للإنسان يعلم عنه الكثير من أخلاقه وعاداته وصفاته، ويعرف أقاربه وأصدقاءه.

فعندما يُخْتَبَرُ ما أسهل أن يجيب ؛ لأنه على علم ودراية، فإن قيل: كيف تفسرون الإجابات العلمية التي قد نحصل عليها من الأرواح ؟ نقول: سبق أن بينا أن الشياطين والجن لديهم القدرات العلمية التي تمكنهم من الإجابة والإفادة.

ولكنها إفادة تحمل في طياتها الإضلال العظيم، فهم لا يفيدوننا إلا

---

(١) مشكاة المصابيح: ٢/ ٣٥١. ورقمه: ٣٨٠٤.

بمقدار، كي نثق بهم، ثم يوجهوننا الوجهة الضالة السيئة، التي توبقنا في دنيانا وأخرانا.

تخلي الشياطين عن أتباعها:

هؤلاء الذين يُدعون بالروحانيين، ويزعمون أنهم يحضرون الأرواح ويعالجون بها كاذبون، وما هذه الأرواح إلا شياطين، وقد تتخلى الشياطين عن هؤلاء فتذلهم وتخذلهم، نشرت جريدة القبس الكويتية[1] مقالاً جاء فيه: «بريطانيا بأسرها تتحدث هذه الأيام عن العالم الروحاني (بيتر غودوين) الذي كان يتمتع بمواهب (روحانية) خارقة، يستطيع بوساطتها أن يشفي المرضى من الأمراض المستعصية، ويكشف الأشياء المفقودة، ويسخر الأرواح لخدمة الإنسان.

وكان (بيتر غودوين) يتمتع بقدرة فريدة يستطيع بوساطتها أن يوجد في أكثر من مكان في وقت واحد، فقد كان يشاهده أصدقاؤه في لندن مثلاً، ويشاهده آخرون في اللحظة نفسها في ليفربول، وآخرون في مانشستر، بينما يؤكد فريق رابع أنه لم يكن في هذا المكان ولا ذلك، وإنما كان يجلس في منزله بين زوجته وأولاده.

وأحياناً كانت أجساده الأثيرية المختلفة تتجمع في مكان واحد، فيكون جالساً بين أصدقائه مثلاً، وفجأة... تدخل عليهم جميع شخصياته الأخرى... وتشاركهم الجلسة... فتأتي شخصيته الثانية والثالثة، والرابعة والخامسة، ويصبح (بيتر غودوين) عبارة عن خمس شخصيات

(١) ملحق جريدة القبس، تاريخ ١٢/٦/١٩٧٨م.

تجالس الحضور، وتتحدث إليهم، أو تتحدث بعضها مع بعض...، بينما يكون الجميع مبهورين...، وفجأة خسر (بيتر غودوين) كلّ شيء وتحول إلى إنسان عادي، ولم يعد قادراً على شفاء المرضى، ولا اكتشاف الأشياء المفقودة، ولا كشف المستقبل، ولا تسخير الأرواح لخدمة الناس.

وقد بدأت مأساة (غودوين) في السنة الماضية عندما حاول استغلال المواهب التي منحت له لتحقيق مكاسب مادية...، وهو ينظر الآن إلى الماضي القريب ويقول: إن ما حدث لي لم يكن في الحسبان، فقد غضبت الأرواح مني، وسلبتني بركتها.

المطلب الرابع: الجن وعلم الغيب

شاع لدى كثير من الناس أن الجنّ يعلمون الغيب، ومردة الجن يحاولون أن يؤكدوا هذا الفهم الخاطئ عند البشر، وقد أبان الله للناس كذب هذه الدعوى، عندما قبض روح نبيه سليمان، وكان قد سخر له الجن يعملون بين يديه بأمره، وأبقى جسده منتصباً، واستمر الجنّ يعملون، وهم لا يدرون بأمر وفاته، حتى أكلت دابة الأرض عصاه المتكىء عليها، فسقط، فتبين للناس كذبهم في دعواهم، أنهم يعلمون الغيب: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤].

وقد سبق القول كيف أنهم كانوا يسترقون خبر السماء، وكيف زيد في حراسة السماء بعد البعثة، فقلما يستطيع الجن استراق السمع بعد ذلك.

العرّافون والكهان:

وبذلك يعلم عظم الخطأ الذي يقع فيه عوام الناس باعتقادهم أن بعض البشر كالعرافين والكهان يعلمون الغيب، فتراهم يذهبون إليهم يسألونهم عن أمور حدثت من سرقات وجنايات، وأمور لم تحدث مما سيكون لهم ولأبنائهم، ولقد خاب السائل والمسؤول، فالغيب علمه عند الله، لا يظهر الله عليه إلا من شاء من رسله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا * لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾ [الجن: ٢٦-٢٨].

والاعتقاد بأن فلاناً يعلم الغيب اعتقاد آثم ضال، يخالف العقيدة الإسلامية الصحيحة التي تجعل علم الغيب لله وحده.

أما إذا تعدى الأمر إلى استفتاء أدعياء الغيب، فإن الجريمة تصبح من العظم بمكان، ففي صحيح مسلم عن بعض أزواج النبي عن النبي ﷺ قال: (من أتى عرافاً فسأله عن شيءٍ، لم تقبل له صلاة أربعين ليلة)[1].

وتصديق هؤلاء كفر، ففي السنن ومسند أحمد عن أبي هريرة مرفوعاً: (من أتى كاهناً، فصدقه بما يقول، فقد برىء مما أنزل على محمد)[2].

قال شارح العقيدة الطحاوية: «والمنجم يدخل في اسم (العراف) عند بعض العلماء، وعند بعضهم هو في معناه»، ثم قال: فإذا كانت هذه حال السائل، فكيف بالمسؤول؟» ومراده إذا كان السائل لا تقبل له صلاة أربعين يوماً، وإذا كان الذي يصدق الكاهن والعراف يكفر بالمنزل على الرسول ﷺ، فكيف يكون حكم الكاهن والعراف ؟

---

(١) رواه مسلم: ٤/ ١٧٥١. ورقمه: ٢٢٣٠.

(٢) مشكاة المصابيح: ٢/ ٥٢٥. ورقمه: ٤٥٩٩.

سؤال العرافين والكهنة على وجه الامتحان:

يرى ابن تيمية أن سؤال الكهنة، بقصد امتحان حالهم، واختبار باطنهم، ليميز صدقهم من كذبهم، جائز، واستدل بحديث الصحيحين: أن النبي ﷺ سأل ابن صياد، فقال: (ما ترى؟) فقال: يأتيني صادق وكاذب، قال: خلط الأمر عليك. قال النبي ﷺ: (إني قد خبأت لك خبيئاً)، قال: هو الدخ، قال النبي ﷺ: (اخسأ، فلن تعدو قدرك)[1]. فأنت ترى أن الرسول ﷺ سأل هذا المدّعي، ليكشف أمره، ويبين للناس حاله.

المنجمون:

وصناعة التنجيم التي مضمونها: الأحكام والتأثير، وهو الاستدلال على الحوادث الأرضية بالأحوال الفلكية، أو التمزيج بين القوى الفلكية والقوابل الأرضية: صناعة محرمة بالكتاب والسنة؛ بل هي محرمة على لسان جميع المرسلين، قال تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه:٦٩]. وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء:٥١]. قال عمر بن الخطاب: الجبت السحر[2].

---

(١) رواه البخاري: ٦/ ١٧٢. ورقمه: ٣٠٥٥. ورواه مسلم: ٤/ ٢٢٤٤. ورقمه: ٢٩٣٠.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية: ٥٦٨. وراجع في علم النجوم: أبجد العلوم لصديق حسن القنوجي: ص٥٤٢.

تعليل صدق المنجمين والعرافين في بعض الأحيان:

قد يزعم قائل أن العرافين والكهنة والمنجمين يصدقون أحياناً، والجواب: أن صدقهم في كثير من الأحيان يكون من باب التلبيس على الناس، فإنهم يقولون للناس كلاماً عاماً يحتمل وجوهاً من التفسير، فإذا حدث الأمر، فإنه يفسره لهم تفسيراً يوافق ما قال.

وصدقهم في الأمور الجزئية إما أنه يرجع إلى الفراسة والتنبؤ، وإما أن تكون هذه الكلمة الصادقة مما خطفه الجن من خبر السماء. ففي الصحيحين عن عائشة، قالت: سئل رسول الله ﷺ عن الكهان ؟ فقال: (ليسوا بشيء). قالوا: يا رسول الله، إنهم يحدثوننا بالشيء فيكون حقاً ! فقال رسول الله ﷺ: (تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني، فيقذفها في أذن وليه، فيخلطون معها مائة كذبة)[1].

وإذا كانت القضية التي صدق فيها من الأمور التي حدثت كمعرفته بالسارق، أو معرفته باسم الشخص الذي يقدم عليه لأول مرة وأسماء أبنائه وأسرته، فهذا قد يكون بحيلة ما، كالذي يضع شخصاً ليسأل الناس، وتكون عنده وسيلة لاستماع أقوالهم قبل أن يمثلوا بين يديه، أو يكون هذا من فعل الشياطين، وعلم الشياطين بالأمور التي حدثت ووقعت ليس بالأمر المستغرب.

الكهنة رسل الشياطين:

يقول ابن القيم[2]: «الكهنة رسل الشيطان؛ لأن المشركين يهرعون

---

(١) جامع الأصول لابن الأثير: ٥/ ٦٣.

(٢) إغاثة اللهفان: ١/ ٢٧١.

إليهم، ويفزعون إليهم في أمورهم العظام، ويصدقونهم، ويتحاكمون إليهم، ويرضون بحكمهم، كما يفعل أتباع الرسل بالرسل، فإنهم يعتقدون أنهم يعلمون الغيب، ويخبرون عن المغيبات التي لا يعرفها غيرهم، فهم عند المشركين بهم بمنزلة الرسل، فالكهنة رسل الشيطان حقيقة، أرسلهم إلى حزبه من المشركين، وشبههم بالرسل الصادقين، حتى استجاب لهم حزبه، ومثل رسل الله بهم لينفر عنهم، ويجعل رسله هم الصادقين العالمين بالغيب، ولما كان بين النوعين أعظم التضاد قال رسول الله ﷺ: (من أتى عرافا أو كاهناً، فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد)[1].

فإن الناس قسمان: أتباع الكهنة، وأتباع الرسل، فلا يجتمع في العبد أن يكون من هؤلاء وهؤلاء، بل يبعد عن الرسول صلى الله عليه وسلم بقدر قربه من الكاهن، ويكَذّبُ الرسول بقدر تصديقه للكاهن.

أقول: ومن يدرس تواريخ الأمم يعلم أن الكهان والسحرة كانوا يقومون مقام الرسل، ولكنهم رسل الشياطين، فالسحرة والكهنة كانت لهم الكلمة المسموعة في أقوامهم، يحلون ويحرّمون، ويأخذون المال، ويأمرون بأنواع من العبادة والطقوس ترضي الشياطين، ويأمرون بقطيعة الأرحام، وانتهاك الأعراض، وقد بين العقاد شيئاً من ذلك في كتابه المسمى بـ(إبليس).

واجب الأمة نحو هؤلاء:

ما يدعيه المنجمون، والعرافون، والسحرة، ضلال كبير ومنكر لا

---

(١) رواه بهذا اللفظ أحمد: ٢/ ٤٢٩ والطبراني في الأوسط: (١٤٥٣) ورواه أبو داود: ٤/ ٢٢٥ رقم: (٣٩٠٤)، والترمذي: ١/ ١٦٤ رقم: (١٣٥)، وابن ماجه: ١/ ٢٠٩ رقم: (٦٣٩)، والدارمي: ١/ ٢٠٧ رقم (١١٣٦) بلفظ: (من أتى حائضاً أو امرأة في دبرها أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمد).

يستهان به، وعلى الذين أعطاهم الله دينه، وعلمهم كتابه وسنة نبيه أن ينكروا هذا الضلال بالقول، ويوضحوا هذا الباطل بالحجة والبرهان، وعلى الذين في أيديهم السلطة أن يأخذوا على أيدي هؤلاء الذين يدّعون الغيب من العرافين والكهنة وضاربي الرمل والحصى، والناظرين في اليد (والفنجان)، وعليهم أن يمنعوا نشر خزعبلاتهم في الصحف والمجلات، ويعاقبوا من يتظاهر ببضاعته وضلالاته في الطرقات، وقد ذمّ الله بني إسرائيل لتركهم التناهي عن المنكر: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٩].

وفي السنن عن النبي ﷺ برواية الصديق - رضي الله عنه - أنه قال: (إن الناس إذا رأوا منكراً فلم يغيروه يوشك أن يعمهم الله بعقابه). رواه ابن ماجة والترمذي وصححه[1].

المطلب الخامس: الجن والأطباق الطائرة

كثر الحديث في هذه الأيام عن الأطباق الطائرة، فلا يكاد يمر أسبوع إلا ونسمع أن شخصاً أو عدة أشخاص رأوا طبقاً طائراً، رأوه في الجوّ محلقاً، أو على الأرض جاثماً، أو رأوا مخلوقات مخالفة لشكل الإنسان تخرج منه، ووصل الأمر إلى الادعاء بأن بعض هذه المخلوقات طلبت إلى بعض الناس مصاحبتها إلى الطبق، وأجرت فحوصاً عليه.

ولا يدعي هذه الدعوى أناس مغمورون فحسب، بل يزعم ذلك رجال

---

(١) مشكاة المصابيح: ٢/ ٦٤٣. ورقمه: ٥٤١٢.

بارزون أمثال رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، فإنه يعتقد أنّه لمح شيئاً طائراً لم يتعرف على ماهيته في سماء ولاية جورجيا عام ١٩٧٣.

وهو يبدي اهتماماً خاصاً بالمخلوقات الأخرى التي بدأت تغزو الأرض، فقد أمضى الرئيس الأمريكي (كما نشرت الصحف) أمسية يناقش أحد العلماء المقتنعين بأن الإنسان ليس المخلوق الوحيد في الكون، وكان يرافق الرئيس كارتر (فرانك برس) مستشاره للشؤون العلمية، وبعد ذلك شاهد كارتر داخل المرصد القومي أفلاماً توجز آخر ما توصلت إليه الأبحاث حول المخلوقات التي تعيش خارج نطاق الأرض، وقام بعرض هذه الأفلام (كارل ساجان)، مدير معمل الدراسات الكونية بجامعة (كورنل)، الذي ترجع إليه دائماً وكالة الفضاء الأمريكية في الأمور المتعلقة بالمخلوقات التي تعيش خارج نطاق كوكب الأرض[١].

وينسب ملحق صحيفة الهدف الكويتية الصادر بتاريخ ٧٨/٣/٢٣ إلى الرئيس الصيني الأسبق (ماوتسي تنغ) أنه كان يؤمن بوجود مخلوقات غيرنا في الكواكب الأخرى.

ويذكر كاتب المقال أن حوالي ٦١٪ من الشعب الأمريكي مقتنعون بذلك، وتزعم الصحف الأمريكية أن قرابة نصف مليون أمريكي شاهدوا هذه الأطباق، وبعض هؤلاء استطاعوا أن يتصلوا بهم اتصالاً مباشراً.

وقد أخرج السينمائي الأمريكي (ستيفن سبيلبرغ) (فيلماً) سينمائياً بعنوان (مواجهة من النوع الثالث) بلغت تكاليفه اثنين وعشرين مليوناً من الدولارات الأمريكية.

---

(١) راجع جريدة السياسة الكويتية العدد (٣٣٩٩): ٥/ ١٢/ ٧٧.

وقد وضع الفيلم بعد تجميع المعلومات من الذين شاهدوا الأطباق الطائرة، أو اتصلوا بها.

وقد عرض الفيلم لأول مرة في البيت الأبيض، وكان الرئيس الأمريكي أول مشاهديه.

وبعد خروج هذا الفيلم اقتنعت وكالة الفضاء الأمريكية بضرورة البحث في هذا المجال، وخصصت مليون دولار لأبحاث عام ١٩٧٩، وقد أطلقت على المشروع السري اسم (سيتي). ويتلخص في إطلاق أجهزة خاصة للفضاء الخارجي ؛ للبحث عن رسائل لاسلكية قادمة من كواكب أخرى.

ويمكننا بعد هذا العرض أن نقرر ما يأتي:

١- لا مجال للتكذيب بوجود مخلوقات غريبة غير الإنسان، إذ تواترت الرؤية من عشرات الألوف بل مئات الألوف، وقد تابعتُ ما قيل في هذا الموضوع فترة طويلة، فكنت أجد مقالاً كل أسبوع تقريباً أو أكثر أو أقل حول رؤية جماعة أو شخص لشيء من هذا[١].

٢- احتار الناس في تفسير حقيقة هذه الأطباق، وحقيقة المخلوقات التي تستخدمها، خاصة أن سرعة هذه الأطباق خيالية تفوق سرعة أي مركبة اخترعها الإنسان.

٣- أكاد أجزم بأن هذه المخلوقات هي من عالم الجن الذي يسكن أرضنا هذه، والذين تحدثنا عنهم فيما سبق، وبينا ما لديهم من قدرات

(١) وآخر ذلك ما حدث في الكويت، فقد قرر أكثر من شخص أنه رأى طبقاً طائراً، وقد نشرت الصحف الكويتية النبأ في حينه.

وإمكانات تفوق قدرة البشر، ولقد أعطوا سرعة تفوق سرعة الصوت والضوء، كما أعطوا القدرة على التشكل، وهم يستطيعون أن يتمثلوا للإنسان في صور وأشكال مختلفة.

وبذلك يتبين لنا فضل الله علينا إذ عرفنا بهذه الحقائق، خاصة ونحن نشعر بالحيرة والقلق لدى الذين لا يعلمون ما علمناه، وبذلك نوفر طاقاتنا العقلية وقدراتنا العلمية وأموالنا ؛ كي نوجهها وجهة نافعة.

وقد يتساءل بعضنا عن السرّ في ظهور هذه الأطباق في أيامنا هذه، وعدم ظهورها في العصور الخالية، فالجواب أن الجن يلبسون لكل عصر لبوسه، وهذا العصر عصر التقدم العلمي، ولذلك فإنهم يضللون البشر بالطريقة التي تثير انتباههم، وتشد نفوسهم، والناس اليوم يتطلعون إلى معرفة شيء عن الفضاء الواسع، وعن إمكانية وجود مخلوقات غيرهم فيه.

وقد تحدثنا في كتابنا «عالم الملائكة» عن تنزل الملائكة لقراءة القرآن، وأن بعض الصحابة رأى ظلة فيها مثل المصابيح، وتنزل الملائكة على هذا النحو ليس قصراً على عهد النبوة.

الفصل الرابع
أسلحة المؤمن في حربه مع الشيطان

أولاً : الحذر والحيطة:

هذا العدو الخبيث الماكر حريص على إضلال بني آدم، وقد علمنا أهدافه ووسائله في الإضلال، فبمقدار علمك بهذا العدو: أهدافه ووسائله والسبل التي يضلنا بها تكون نجاتنا منه، أما إذا كان الإنسان غافلاً عن هذه الأمور فإن عدوه يأسره ويوجهه الوجهة التي يريد.

وقد صور ابن الجوزي هذا الصراع بين الإنسان والشيطان تصويراً بديعاً حيث يقول: «واعلم أن القلب كالحصن، وعلى ذلك الحصن سور، وللسور أبواب وفيه ثلم[1]، وساكنه العقل، والملائكة تتردد على ذلك الحصن، وإلى جانبه ربض[2] فيه الهوى، والشياطين تختلف إلى ذلك الربض من غير مانع، والحرب قائمة بين أهل الحصن وأهل الربض، والشياطين لا تزال تدور حول الحصن تطلب غفلة الحارس والعبور من بعض الثلم.

فينبغي للحارس أن يعرف جميع أبواب الحصن الذي قد وكل بحفظه وجميع الثلم، وألا يفتر عن الحراسة لحظة، فإن العدو لا يفتر. قال رجل

---

(١) الثلمة في السور: الموضع المتهدم منه.

(٢) الربض: المكان الذي يُؤوى إليه.

للحسن البصري: أينام إبليس ؟ قال: لو نام لوجدنا راحة.

وهذا الحصن مستنير بالذكر مشرق بالإيمان، وفيه مرآة صقيلة يتراءى فيها صورة كل ما يمرّ به، فأول ما يفعل الشيطان في الربض إكثار الدخان، فتسودّ حيطان الحصن، وتصدأ المرآة، وكمال الفكر يرد الدخان، وصقل الذكر يجلو المرآة، وللعدو حملات، فتارة يحمل فيدخل الحصن، فيكر عليه الحارس فيخرج، وربما دخل فعاث، وربما أقام لغفلة الحراس، وربما ركدت الريح الطاردة للدخان، فتسود حيطان الحصن، وتصدأ المرآة فيمر الشيطان ولا يدري به، وربما جرح الحارس لغفلته، وأسر واستخدم، وأقيم يستنبط الحيل في موافقة الهوى ومساعدته»[1].

ثانياً: الالتزام بالكتاب والسنّة:

أعظم سبيل للحماية من الشيطان هو الالتزام بالكتاب والسنة علماً وعملاً، فالكتاب والسنة جاءا بالصراط المستقيم، والشيطان يجاهد كي يخرجنا عن هذا الصراط قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣].

وقد شرح الرسول ﷺ هذه الآية فعن عبد الله بن مسعود قال: «خط لنا رسول الله ﷺ خطاً، ثمّ قال: (هذا سبيل الله) ثمّ خط خطوطاً عن يمينه وشماله وقال: (هذه سبل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه) وقرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام:١٥٣]. رواه الإمام أحمد

(١) تلبيس إبليس: ٤٩.

والنسائي والدارمي[1].

فاتباع ما جاءنا من عند الله من عقائد وأعمال وأقوال وعبادات وتشريعات، وترك كل ما نهى عنه، يجعل العبد في حرز من الشيطان، ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [البقرة:٢٠٨].

والسلم: هو الإسلام. وقيل طاعة الله، وفسره مقاتل بأنه العمل بجميع الأعمال ووجوه البر، وعلى ذلك فقد أمرهم بالعمل بجميع شعب الإيمان وشرائع الإسلام ما استطاعوا، ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان، فالذي يدخل في الإسلام مبتعد عن الشيطان وخطواته، والذي يترك شيئاً من الإسلام فقد اتبع بعض خطوات الشيطان، ولذلك كان تحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل الله، أو الأكل من المحرمات والخبائث، كل ذلك من اتباع خطوات الشيطان التي نهينا عنها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [البقرة:١٦٨].

إن الالتزام بالكتاب والسنة قولاً وعملاً يطرد الشيطان ويغيظه أعظم إغاظة، روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا قرأ ابنُ آدم السجدة فسجد، اعتزل الشيطان يبكي، يقول: يا ويله، (وفي رواية أبي كريب: يا ويلي) أمر ابن آدم بالسجود فسجد، فله الجنّة، وأُمرتُ بالسجود فأبيت، فلي النار)[2].

---

(١) مشكاة المصابيح: ١/ ٥٨. ورقمه: ١٦٦. وقال محقق المشكاة: وإسناده حسن.

(٢) صحيح مسلم: ١/ ٨٧. ورقمه: ٨١.

ثالثاً : الالتجاء إلى الله والاحتماء به :

خير سبيل للاحتماء من الشيطان وجنده هو الالتجاء إلى الله والاحتماء بجنابه، والاستعاذة به من الشيطان، فإنه عليه قادر. فإذا أجار عبده فأنى يخلص الشيطان إليه، قال تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ * وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ١٩٩-٢٠٠].

وقد أمر الله رسوله ﷺ بالاستعاذة بالله من همزات الشياطين وحضورهم: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ [المؤمنون: ٩٧-٩٨].

وهمزات الشياطين: نزغاتهم ووساوسهم، فالله يأمرنا بالاستعاذة به من العدو الشيطاني لا محالة ؛ إذ لا يقبل مصانعة ولا إحساناً، ولا يبتغي غير هلاك ابن آدم، لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم.

يقول ابن كثير في تفسيره: «والاستعاذة هي الالتجاء إلى الله تعالى، والالتصاق بجنابه من شرّ كل ذي شرّ. . . ، ومعنى (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)؛ أي: أستجير بجناب الله من الشيطان الرجيم، أن يضرني في ديني ودنياي، أو يصدني عن فعل ما أمرت به، أو يحثني على فعل ما نهيت عنه، فإن الشيطان لا يكفّه عن الإنسان إلا الله ؛ ولهذا أمر تعالى بمصانعة شيطان الإنس ومداراته بإسداء الجميل إليه ليرده طبعه عما هو فيه من الأذى، وأمر بالاستعاذة به من شيطان الجنّ ؛ لأنه لا يقبل رشوة، ولا يؤثر فيه جميل؛ لأنه شرير بالطبع، ولا يكفه عنك إلا الذي خلقه»[1].

(١) تفسير ابن كثير: ١/٢٨.

وقد كان ﷺ يكثر من الاستعاذة بربه من الشيطان بصيغ مختلفة، فكان يقول بعد دعاء الاستفتاح في الصلاة: (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه)، روى ذلك أصحاب السنن الأربعة وغيرهم عن أبي سعيد[1]، وقد فسر همز الشيطان بالموتة وهي الخنق، والنفخ بالكبر، والنفث بالشعر.

مواضع الاستعاذة:

١- الاستعاذة عند دخول الخلاء:

وكان إذا دخل الخلاء يستعيذ من الشياطين ذكورهم وإناثهم، كما في الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا دخل الخلاء، قال: (اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث)[2].

وفي سنن أبي داود بإسناد صحيح عن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله ﷺ: (إن هذه الحشوش محتضرة، فإذا أتى أحدكم الخلاء فليقل: أعوذ بالله من الخبث والخبائث)[3].

٢ - الاستعاذة عند الغضب:

عن سليمان بن صُرَد قال: استب رجلان عند النبي ﷺ ونحن عنده جلوس، وأحدهما يسب صاحبه مغضباً، قد احمرّ وجهه، فقال النبي ﷺ:

---

(١) حديث صحيح، انظر تخريجه، وكلام الشيخ ناصر الدين الألباني عليه في إرواء الغليل: ٢/ ٥١. ورقمه: ٣٤١.

(٢) رواه البخاري: ١/ ٢٤٢. ورقمه: ١٤٢، ورواه مسلم: ١/ ٢٨٣. ورقمه: ٣٧٥.

(٣) صحيح سنن أبي داود: ١/ ٤. ورقمه: ٤.

(إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم). رواه البخاري ومسلم[1].

وقد علَّم الرسول ﷺ أبا بكر إذا أصبح وإذا أمسى أن يقول: (اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، لا إله إلا أنت، ربّ كل شيء ومليكه، أعوذ بك من شر نفسي، ومن شرّ الشيطان وشركه، وأن أقترف على نفسي سوءاً، أو أجره إلى مسلم)[2]. رواه الترمذي.

٣ - الاستعاذة عند الجماع:

وحثنا على الاستعاذة حين يأتي الرجل أهله، فعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: (لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره شيطان أبداً). متفق عليه[3].

٤ - الاستعاذة عند نزول وادٍ أو منزل:

وإذا نزل المرء وادياً أو منزلاً، فعليه أن يستعيذ بالله، لا كما كان يفعل أهل الجاهلية يستعيذون بالجن والشياطين، فيقول قائلهم: أعوذ بزعيم هذا الوادي من سفهاء قومه، فكانت العاقبة أن استكبرت الجن وآذتهم، كما حكى الله عنهم ذلك في سورة الجن: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦]؛ أي الجن زادت الإنس رهقاً.

---

(١) مشكاة المصابيح: ١/ ٧٤٣. ورقمه: ٢٤١٨.

(٢) صحيح سنن الترمذي: ٣/ ١٧٢. ورقمه: ٢٧٩٨.

(٣) مشكاة المصابيح: ١/ ٧٣٢. ورقمه: ٣٤١٦.

وقد علمنا الرسول ﷺ كيف نستعيذ بالله عندما ننزل منزلاً، فعن خولة بنت حكيم: أن النبي ﷺ وسلم قال: (لو أن أحدكم إذا نزل منزلاً قال: أعوذ بكلمات الله التامة من شرّ ما خلق، لم يضره في ذلك المنزل شيء، حتى يرتحل منه). رواه ابن ماجة بإسناد صحيح[1].

٥ - التعوذ بالله من الشيطان عند سماع نهيق الحمار:

يقول الرسول ﷺ: (إذا نهق الحمار فتعوذوا بالله من الشيطان الرجيم). رواه الطبراني في معجمه الكبير بإسناد صحيح[2]، وقد أخبرنا الرسول ﷺ أن الحمار إذا نهق فإنه يكون قد رأى شيطاناً[3].

٦ - التعوذ حين قراءة القرآن:

قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ * إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل: ٩٨-٩٩].

وقد بين ابن القيم الحكمة في الاستعاذة بالله من الشيطان حين قراءة القرآن، فقال:

١- «إن القرآن شفاء لما في الصدور يذهب لما يلقيه الشيطان فيها من الوساوس والشهوات والإرادات الفاسدة، فهو دواء لما أمره الشيطان فيها، فأمر أن يطرد مادة الداء، ويخلي منه القلب، ليصادف الداء محلاً خالياً، فيتمكن منه، ويؤثر فيه، كما قيل:

---

(١) صحيح سنن ابن ماجه: ٢/ ٢٧٣. ورقمه: ٢٨٥٧.

(٢) راجع صحيح الجامع: ١/ ٢٨٦.

(٣) الحديث رواه البخاري ومسلم. انظر مشكاة المصابيح: ١/ ٧٤٣. ورقمه: ٢٤١٩.

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكنا

فيجيء هذا الدواء الشافي إلى القلب، وقد خلا من مزاحم ومضاد له، فينجع فيه.

٢- ومنها: أن القرآن مادة الهدى والعلم والخير في القلب، كما أنّ الماء مادة النبات، والشيطان نار يحرق النبات أولاً فأولاً، فكلما أحسّ بنبات الخير من القلب، سعى في إفساده وإحراقه، فأمر أن يستعيذ بالله - عزّ وجلّ - منه، لئلا يفسد عليه ما يحصل له بالقرآن.

والفرق بين هذا الوجه والوجه الذي قبله أن الاستعاذة في الوجه الأول لأجل حصول فائدة القرآن، وفي الوجه الثاني لأجل بقائها وحفظها.

٣- ومنها: أن الملائكة تدنو من قارىء القرآن، وتستمع لقراءته، كما في حديث أسيد بن حضير لما كان يقرأ ورأى مثل الظلة فيها المصابيح، فقال عليه الصلاة والسلام: (تلك الملائكة)، والشيطان ضد الملك وعدوه، فأمر القارىء أن يطلب من الله تعالى مباعدة عدوه عنه، حتى يحضره خاص ملائكته، فهذه منزلة لا يجتمع فيها الملائكة والشياطين.

٤- ومنها: أن الشيطان يجلب على القارىء بخيله ورجله، حتى يشغله عن المقصود بالقرآن، وهو تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به سبحانه، فيحرص بجهده على أن يحول بين قلبه وبين مقصود القرآن، فلا يكمل انتفاع القارىء به، فأمر عند الشروع في القراءة أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم.

٥- ومنها: أن القارىء يناجي الله تعالى بكلامه، والله أشد أذناً للقارىء الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته، والشيطان

إنما قراءَته الشعر والغناء، فأمر القارىء أن يطرده بالاستعاذة عند مناجاة الله تعالى واستماع الربّ قراءَته.

٦- ومنها: أن الله سبحانه أخبر أنّه ما أرسل من رسول ولا نبي إلا إذا تمنّى ألقى الشيطان في أمنيته، والسلف كلهم على أن المعنى: إذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته...، فإذا كان هذا مع الرسل عليهم الصلاة والسلام، فكيف بغيرهم. ولهذا يغلط الشيطان القارىء تارة، ويخلط عليه القراءَة، ويشوشها عليه، فيخبط عليه لسانه، أو يشوش عليه ذهنه وقلبه، فإذا حضر عند القراءَة، لم يعدم منه القارىء هذا أو هذا، وربما جمعها له.

٧- ومنها: أن الشيطان أحرص ما يكون على الإنسان عندما يهم بالخير، أو يدخل فيه، فهو يشتد عليه حينئذ؛ ليقطعه عنه»[١].

٧ - تعويذ الأبناء والأهل:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان الرسول ﷺ يعوذ الحسن والحسين: (أعيذكما بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة). ويقول: (إن أباكما كان يعوذ بها إسماعيل وإسحاق). رواه البخاري[٢].

قال أبو بكر ابن الأنباري: «الهامة: واحد الهوام، ويقال: هي كل نسمة تهم بسوء، واللامة: الملمة، وإنما قال: لامة ليوافقه لفظ هامة، فيكون أخف على اللسان»[٣].

---

(١) إغاثة اللهفان: ١/١٠٩.

(٢) مشكاة المصابيح: ١/٤٨٨. ورقمه: ١٥٣٥.

(٣) تلبيس إبليس: ٤٧.

خير ما يتعوذ به المتعوذون:

وخير ما يتعوذ به المتعوذون سورتا الفلق والناس، فقد أمر الرسول ﷺ عبد الله بن خبيب أن يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، والمعوذتين حين يمسي، وحين يصبح، ثلاثاً. وقال له: (يكفيك الله كل شيء).

وفي رواية أخرى أمره بقراءَة المعوذتين، ثم قال له: (ما تعوذ الناس بأفضل منهما).

وفي بعض الروايات: أن هذه القصة كانت مع عقبة بن عامر. وفي رواية أن الرسول ﷺ قال لابن عابس الجهني: (إن أفضل ما تعوذ به المتعوذون المعوذتان). وقال الرسول ﷺ في بعض روايات حديث عقبة: (ما سأل سائل بمثلهما، ولا استعاذ مستعيذ بمثلهما)[1].

كيف تصنع بالشيطان إذا سوّل لك الخطايا؟

حكي عن أحد علماء السلف أنه قال لتلميذه: «ما تصنع بالشيطان إذا سوّل لك الخطايا؟ قال: أجاهده. قال: فإن عاد؟ قال: أجاهده. قال: فإن عاد؟ قال: أجاهده.

قال هذا يطول، أرأيت إن مررت بغنم فنبحك كلبها، أو منعك من العبور ما تصنع؟ قال: أكابده جهدي وأرده. قال: هذا أمر يطول، ولكن استعن بصاحب الغنم يكفّه عنك»[2].

---

(١) انظر هذه الأحاديث في صحيح سنن النسائي: ٣/ ١١٠٤-١١٠٧. وأرقامها: ٥٠١٧-٥٠٢٩.

(٢) تلبيس إبليس: ٤٨.

وهذا فقه عظيم من هذا العالم الجليل، فإن الاحتماء بالله، والالتجاء إليه، هو السبيل القوي الذي يطرد الشيطان ويبعده، وهذا ما فعلته أم مريم إذ قالت: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦].

لماذا لا يذهب الشيطان عندما يستعيذ منه الإنسان ؟

يقول بعض الناس: إننا نستعيذ بالله، ومع ذلك فإننا نحس بالشيطان يوسوس لنا، ويحرضنا على الشر، ويشغلنا في صلاتنا.

والجواب: أن الاستعاذة كالسيف في يد المقاتل، فإن كانت يده قوية، أصاب من عدوه مقتلاً، وإلا فإنه قد لا يؤثر فيه، ولو كان السيف صقيلاً حديداً.

وكذلك الاستعاذة إذا كانت من تقيّ ورع كانت ناراً تحرق الشيطان، وإذا كانت من مخلط ضعيف الإيمان فلا تؤثر في العدو تأثيراً قوياً.

قال أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله: «واعلم أن مثل إبليس مع المتقي والمخلط، كرجل جالس بين يديه طعام ولحم، فمرّ به كلب، فقال له: اخسأ، فذهب. فمرّ بآخر بين يديه طعام ولحم فكلّما أخسأه (طرده) لم يبرح. فالأول مثل المتقي يمر به الشيطان، فيكفيه في طرده الذكر، والثاني مثل المخلط لا يفارقه الشيطان لمكان تخليطه، نعوذ بالله من الشيطان»[1].

فعلى المسلم الذي يريد النجاة من الشيطان وأحابيله أن يشتغل بتقوية إيمانه، والاحتماء بالله ربه، والالتجاء إليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

---

(١) تلبيس إبليس: ٤٨.

رابعاً : الاشتغال بذكر الله:

ذكر الله من أعظم ما ينجي العبد من الشيطان، وفي الحديث: أن الله أمر نبي الله يحيى أن يأمر بني إسرائيل بخمس خصال، ومن هذه: (وآمركم أن تذكروا الله تعالى، فإن مثل ذلك مثل رجل خرج العدوّ في أثره سراعاً، حتى إذا أتى إلى حصن حصين، فأحرز نفسه منهم، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله).

يقول ابن القيم[1]: «فلو لم يكن في الذكر إلا هذه الخصلة الواحدة لكان حقيقاً بالعبد أن لا يفتر لسانه من ذكر الله تعالى، وأن لا يزال لهجاً بذكره، فإنّه لا يحرز نفسه من عدوه إلا بالذكر، ولا يدخل عليه العدو إلا من باب الغفلة، فهو يرصده، فإذا غفل، وثب عليه وافترسه، وإذا ذكر الله تعالى، انخنس عدو الله وتصاغر، وانقمع، حتى يكون كالوَصع [طائر أصغر من العصفور]، وكالذباب، ولهذا سمي (الوسواس الخناس) ؛ لأنه يوسوس في صدور الناس، فإذا ذكر الله خنس، أي كف وانقبض. وقال ابن عباس: الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس، فإذا ذكر الله تعالى خنس».

ويقول ابن القيم: « الشياطين قد احتوشت العبد وهم أعداؤه، فما ظنك برجل قد احتوشه أعداؤه المحنقون عليه غيظاً، وأحاطوا به، وكل منهم يناله بما يقدر عليه من الشرّ والأذى، ولا سبيل إلى تفريق جمعهم عنه إلا بذكر الله عزّ وجلّ ».

ثم ساق - رحمه الله - حديث عبدالرحمن بن سمرة، قال: خرج

---

(١) الوابل الصيب: ص ٦٠.

علينا رسول الله ﷺ يوماً، وكُنّا في صُفّةٍ بالمدينة، فقام علينا وقال: (إنّي رأَيْتُ البارحَةَ عَجَباً: رأَيتُ رجلاً من أمتي أَتاه ملَك الموت ليَقْبض رُوحهُ، فجاءَه بِرّه بوالديه، فرد ملك الموت عنه.

ورأيت رجلاً قد بُسط عليه عذاب القبر، فجاءه وضوؤه، فاستنقذه من ذلك.

ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته الشياطين، فجاءه ذكر الله عزّ وجلّ، فطرد الشياطين عنه.

ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته ملائكة العذاب، فجاءته صلاته، فاستنقذته من أيديهم.

ورأيت رجلاً من أمتي يلتهب - وفي رواية: يلهث - عطشاً، كلما دنا من حوض منع وطرد، فجاءه صيام شهر رمضان، فأسقاه وأرواه.

ورأيت رجلاً من أمتي ورأيت النبيين جلوساً حِلَقاً حِلَقاً، كلما دنا إلى حلقة طردَ، فجاءه غسلُهُ من الجنابة، فأخذ بيده، فأقعده إلى جنبي.

ورأيتُ رجلاً من أمتي، بين يديه ظلمة، ومن خلفه ظلمة، وعن يمينه ظلمة، وعن يساره ظلمة، ومن فوقه ظلمة، ومن تحته ظلمة، وهو متحيّر فيها، فجاءه حجه وعمرته، فاستخرجاه من الظلمة، وأدخلاه في النور.

ورأيت رجلاً من أمتي يتقي بيده وهج النار وشرره، فجاءته صدقته، فصارت سترة بينه وبين النار، وظللت على رأسه.

ورأيت رجلاً من أمتي يكلم المؤمنين ولا يكلمونه، فجاءته صلته لرحمه فقالت: يامعشر المسلمين، إنه كان وصولاً لرحمه فكلموه، فكلمه

المؤمنون، وصافحوه وصافحهم.

ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته الزبانية، فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، فاستنقذه من أيديهم، وأدخله في ملائكة الرحمة.

ورأيت رجلاً من أمتي جاثياً على ركبتيه، وبينه وبين الله عزّ وجلّ حجاب، فجاءه حُسن خلقه، فأخذ بيده، فأدخله على الله عزّ وجلّ.

ورأيت رجلاً من أمتي قد ذهبت صحيفته من قبل شماله، فجاءه خوفه من الله عزّ وجلّ، فأخذ صحيفته، فوضعها في يمينه.

ورأيت رجلاً من أمتي خفّ ميزانه فجاء أفراطه[1]، فثقلوا ميزانه.

ورأيت رجلاً من أمتي قائماً على شفير جهنم، فجاءه رجاؤه في الله عزّ وجل، فاستنقذه من ذلك ومضى.

ورأيت رجلاً من أمتي قد أهوى في النار، فجاءته دمعته التي بكى من خشية الله عزّ وجلّ فاستنقذته من ذلك.

ورأيت رجلاً من أمتي قائماً على الصراط يرعد كما ترعد السّعَفة في ريح عاصف، فجاءه حُسْنُ ظنهِ بالله عزّ وجلّ، فسَكن رعدَتَهُ ومضى.

ورأيت رجلاً من أمتي يزحفُ على الصراط، ويحبو أحياناً، ويتعلق أحياناً، فجاءته صلاته، فأقامته على قدميه، وأنقذته.

ورأيت رجلاً من أمتي انتهى إلى أبواب الجنة، فغلقت الأبواب دونه، فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله، ففتحت له الأبواب، وأدخلته الجنة).

رواه الحافظ أبو موسى المديني في كتاب (الترغيب في الخصال

---

(١) جمع فرط، والمراد به: من مات له من الأطفال.

المنجية، والترهيب من الخلال المردية)، وبنى كتابه عليه وجعله شرحاً له، وقال: هذا حديث حسن جداً، رواه عن سعيد بن المسيب: عمرو بن آزر، وعلي بن زيد بن جدعان، وهلال أبو جبلة. وكان شيخ الإسلام ابن تيمية، قدس الله روحه، يعظم شأن هذا الحديث، وبلغني عنه أنه كان يقول: شواهد الصحة عليه.

والمقصود منه قوله ﷺ: (ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته الشياطين، فجاءه ذكر الله عزّ وجلّ، فطرد الشيطان عنه) فهذا مطابق لحديث الحارث الأشعري[1].

وقوله فيه: (وآمركم بذكر الله عزّ وجلّ، وإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو، فانطلقوا في طلبه سِراعاً، وانطلق حتى أتى حصناً حَصيناً، فأحرز نفسه فيه).

فكذلك الشيطان لا يحرز العباد أنفسهم منه إلا بذكر الله عزّ وجلّ، فعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا خرج من بيته فقال: بسم الله، توكلتُ على الله، لا حَولَ ولا قُوّة إلا بالله، يقال له حينئذٍ: هُدِيت وكُفيتَ ووُقِيتَ، فيتَنَحّى له الشيطان، ويقول شيطان آخر: كيف لك برجل قد هدِي وكُفي ووُقي؟). رواه أبو داود، وروى الترمذي إلى قوله: (له الشيطان)[2].

وصح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، في يوم مائة مرة، كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه

---

(١) الوابل الصيب: ص ١٤٤.

(٢) مشكاة المصابيح: ١/ ٧٤٩. ورقمه: ١٤٤٢.

مائة سيئة، وكانت له حِرْزاً من الشيطان يومه ذلك، حتى يمسي). متفق عليه[1].

وقال أبو خلاد المصري: من دخل في الإسلام، دخل في حصن، ومن دخل المسجد، فقد دخل في حصنين، ومن جلس في حلقة يذكر الله عزّ وجلّ فيها، فقد دخل في ثلاثة حصون.

وفي صحيح البخاري، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة قال: «ولاّني رسول الله ﷺ زكاة رمضانَ أن احتفظ بها، فأتاني آتٍ، فجعل يَحْثُو الطعام، فأخذته، فقال: دعني فإني لا أعود...». فذكر الحديث، وقال: فقال في الثالثة: «أعلمك كلمات ينفعك الله بهن، إذا أويتَ إلى فراشك، فاقرأ آية الكرسي من أولها إلى آخرها، فإنه لا يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح» فخلى سبيله، فأصبح، فأخبر النبي ﷺ بقوله، فقال: (صَدَقَكَ، وهو كذوب).

وذكر الحافظ أبو موسى من حديث أبي الزبير عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: (إذَا أوى الإنسانُ إلى فراشه، ابْتدرهُ ملكٌ وشيطانٌ، فيقول الملكُ: اختم بخير، ويقول الشيطان: اختم بشر. فاذا ذكر الله، ثم نام، بات الملك يكلؤه.

وإذا استيقظ، قال الملك: افتح بخير، وقال الشيطان: افتح بشر، فإن قال: الحمد الله الذي ردَّ علي نفسي، ولم يمتها في منامها، الحمد الله الذي يمسك السمٰوات والأرض أن تزولا، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده، الحمد لله الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا

(١) مشكاة المصابيح: ١/٧٠٨. ورقمه: ٢٣٠٢.

بإذنه، فإن وقع عن سريره فمات دخل الجنة).

رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح غير إبراهيم بن الحجاج الشامي وهو ثقة»[1].

وفي الصحيحين عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: (لو أن أحدكُم إذا أراد أن يأتي أهلَهُ فقال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطانَ، وجنبِ الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقدّر بينهما ولد في ذلك لا يضرهُ شيطانٌ أبداً)[2].

وقد ثبت في «الصحيح» أن الشيطان يهرب من الأذان.

قال سهيل بن أبي صالح: «أرسلني أبي إلى بني حارثة ومعي غلام- أو صاحب لنا - فناداه منادٍ من حائط باسمه قال: وأشرف الذي معي على الحائط، فلم ير شيئاً، فذكرت ذلك لأبي، فقال: لو شعرت أنك تلقى هذا لم أرسلك، ولكن إذا سمعت صوتاً فناد بالصلاة، فإني سمعت أبا هريرة يحدث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إنّ الشيطان إذا نودي بالصلاة، ولى وله حصاص)[3].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا نودي للصلاة أدبر الشيطان وله ضراط حتى لا يسمع التأذين، فإذا قضي النداء أقبل، حتى إذا قضي التثويب، أقبل حتى يخطر بين المرء ونفسه...)[4].

---

(١) مجمع الزوائد: ١٠/ ١٢٠. أقول: وصوابه السامي بالسين.

(٢) رواه البخاري: ١٣/ ٣٧٩. ورقمه: ٧٣٩٦. ورواه مسلم: ٢/ ١٠٥٨. ورقمه: ١٤٣٤.

(٣) رواه مسلم: ١/ ٢٩٠. ورقمه: ٣٨٩.

(٤) رواه البخاري: ٢/ ٤٨. ورقمه: ٨٠٦. وانظره أيضاً برقم: ١٢٢٢، ١٢٣١، ١٢٣٢، ٣٢٨٥. ورواه مسلم: ١/ ٢٩٠. ورقمه: ٣٨٩.

روى الإمام أحمد أن أبا تميمة سمع أحد الصحابة يحدث أنه كان رديف رسول الله ﷺ قال: عثر بالنبي ﷺ حماره، فقلت: تعس الشيطان، فقال النبي ﷺ: (لا تقل: تعس الشيطان، فإنك إذا قلت: تعس الشيطان تعاظم، وقال: بقوتي صرعته، وإذا قلت: باسم الله تصاغر، حتى يصير مثل الذباب). قال ابن كثير[1]: تفرد به أحمد، وإسناده جيد.

خامساً: لزوم جماعة المسلمين:

ومما يبعد المسلم عن الوقوع في أحابيل الشيطان أن يعيش في ديار الإسلام، ويختار لنفسه الفئة الصالحة التي تعينه على الحق، وتحضّه عليه، وتذكره بالخيرات، فإن في الاتحاد والتجمع قوة وأي قوة، عن ابن عمر قال: خطبنا عمر بالجابية، فقال: يا أيها الناس، إني قمت فيكم كمقام رسول الله ﷺ فينا، فكان مما قال: (عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد..)[2].

والجماعة جماعة المسلمين، وإمام المسلمين، ولا قيمة للجماعة في الإسلام ما لم تلتزم بالحق: الكتاب والسنة، فعن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما من ثلاثة في قرية ولا بدو، لا تقام فيهم الصلاة، إلا قد استحوذ عليهم الشيطان، فعليك بالجماعة، فإنما يأكل الذئب القاصية)[3].

وروى أبو داود في سننه من حديث معاوية بن أبي سفيان أنه قام فقال:

---

(١) مسند الإمام أحمد: ٥/ ٥٩، البداية والنهاية: ١/ ٦٥.

(٢) صحيح سنن الترمذي: ٢/ ٢٣٢. ورقمه: ١٧٥٨.

(٣) صحيح سنن أبي داود: ١/ ١٠٩. ورقمه: ٥٤١.

ألا إن رسول الله ﷺ قام فينا فقال: (ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين، ثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، وهي الجماعة)[1].

سادساً: كشف مخططات الشيطان ومصائده[2]:

على المسلم أن يتعرف على سبله ووسائله في الإضلال، ويكشف ذلك للناس، وقد فعل ذلك القرآن، وقام بهذه المهمة الرسول ﷺ خير قيام، فالقرآن عرفنا الأسلوب الذي أغوى الشيطان به آدم. والرسول ﷺ كان يعرف الصحابة كيف يسترق الشيطان السمع، ويلقي بالكلمة التي سمع في أذن الكاهن أو الساحر ومعها مائة كذبة، يبين ذلك لهم كي لا ينخدعوا بأمثال هؤلاء، وبين لهم كيف يوسوس لهم ويشغلهم في صلاتهم وعبادتهم، وكيف يحاول الشيطان أن يوهمهم بأن وضوءهم قد فسد، والأمر ليس كذلك، وكيف يفرق بين المرء وزوجه، وكيف يوسوس للمرء، فيقول له: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟

---

(١) صحيح سنن أبي داود: ٣/ ٨٦٩. ورقمه: ٣٨٤٢.

(٢) إذا رغبت في الوقوف على تفاصيل مخططات الشيطان ومكائده ومصائده، وكيف ألبس على الناس دينهم في العقائد والعبادات والمعاملات، وكيف تلاعب باليهود والنصارى والمجوس وعباد الأوثان - فلا غنى لك عن قراءة كتابين:

الأول: تلبيس إبليس، لابن الجوزي.

الثاني: إغاثة اللهفان، لابن القيم.

سابعاً: مخالفة الشيطان:

يأتي الشيطان في صورة ناصح حريص على الإنسان كما سبق، فعلى المرء أن يخالف ما يأمر به، ويقول له: لو كنت ناصحاً أحداً لنصحت نفسك، فقد أوقعت نفسك في النار، وجلبت لها غضب الجبّار، فكيف ينصح غيره من لا ينصح نفسه.

يقول الحارث بن قيس: «إذا أتاك الشيطان وأنت تصلي، فقال: إنك ترائي فزدها طولاً»[1]. وهذا فقه جيد منه، رحمه الله.

وإذا علمنا أنّ أمراً ما يحبّه الشيطان، ويتصف به، فعلينا أن نخالفه، فمثلاً الشيطان يأكل بشماله، ويشرب بشماله، ويأخذ بشماله، لذا وجبت علينا مخالفته. روى أبو هريرة: أن النبي ﷺ قال: (ليأكل أحدكم بيمينه، وليشرب بيمينه، وليأخذ بيمينه، وليعط بيمينه، فإن الشيطان يأكل بشماله، ويشرب بشماله، ويعطي بشماله، ويأخذ بشماله)[2].

والشيطان يشاركنا في الشرب إذا شربنا، ونحن وقوف، ولذا أرشدنا الرسول ﷺ إلى الشرب ونحن جلوس.

ورغّبنا الرسول ﷺ في القيلولة، معلّلاً ذلك بأن الشياطين لا تقيل، (قيلوا، فإنّ الشياطين لا تقيل). رواه أبو نعيم في الطبّ، بإسناد حسن[3].

وحذرنا القرآن من الإسراف، وقد عدّ المبذرين إخوان الشياطين، وما ذلك إلا لأن الشياطين تحب إضاعة المال وإنفاقه في غير وجهه.

---

(١) تلبيس إبليس: ٣٨.

(٢) صحيح سنن ابن ماجه: ١/ ٢٢٥. ورقمه: ٢٦٤٣.

(٣) صحيح الجامع: ٤/ ١٤٧.

ومن الإسراف الإكثار من الأثاث والفراش الذي لا لزوم له، روى مسلم في صحيحه عن جابر بن عبدالله: أن رسول الله ﷺ ذكر الفرش فقال: (فراش للرجل، وفراش لامرأته، وفراش للضيف، والرابع للشيطان)[1].

ومن هذا المنطلق أمرنا الرسول ﷺ بأن نميط الأذى عن اللقمة التي تسقط من أحدنا، ولا نتركها للشيطان، عن جابر رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن الشيطان يحضر أحدكم عند كل شيء من شأنه، حتى يحضره عند طعامه، فإذا سقطت اللقمة، فليمط ما كان بها من أذى، ثم ليأكلها، ولا يدعها للشيطان، فإذا فرغ فليلعق أصابعه، فإنه لا يدري في أي طعامه تكون البركة)[2].

مراكب الشيطان:

هذه الخيول والدواب التي يقامر عليها ويراهن عليها تعدّ من مراكب الشياطين، يقول الرسول ﷺ: (الخيل ثلاثة: ففرس للرحمن، وفرس للشيطان، وفرس للإنسان، فأما فرس الرحمن ؛ فالذي يربط في سبيل الله، فعلفه، وروثه، وبوله في ميزانه، وأمّا فرس الشيطان، فالذي يقامر أو يراهن عليه، وأما فرس الإنسان، فالفرس يرتبطها الإنسان يلتمس بطنها، فهي ستر من الفقر). رواه أحمد بإسناد صحيح[3].

---

(١) صحيح مسلم: ٣/ ١٦٥١. ورقمه: ٢٠٨٤. وصحيح سنن أبي داود: ٢/ ٧٨٠. ورقمه: ٣٤٨٩.

(٢) صحيح مسلم: ٣/ ١٦٠٧. ورقمه: ٢٠٣٣.

(٣) صحيح الجامع: ٣/ ١٣٧

العجلة من الشيطان:

من الصفات التي يحبها الشيطان العجلة ؛ لأنها توقع الإنسان في كثير من الأخطاء، يقول الرسول ﷺ: (التأني من الرحمن والعجلة من الشيطان). رواه البيهقي في شعب الإيمان بإسناد حسن[1]. فعلينا أن نخالف الشيطان في ذلك، ونتبع ما يرضي الرحمن. ولذلك قال الرسول ﷺ لأشج عبدالقيس: (إن فيك لخصلتين يحبهما الله؛ الحلم والأناة)[2].

التثاؤب:

ومما يحبه الشيطان من الإنسان التثاؤب ؛ ولذا أمرنا الرسول ﷺ بكظمه ما استطعنا، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (التثاؤب من الشيطان، فإذا تثاءَب أحدكم فليرده ما استطاع، فإن أحدكم إذا قال: ها، ضحك منه الشيطان)[3]. وذلك لأن التثاؤب علامة الكسل، والشيطان يعجبه ويفرحه من الإنسان كسله وفتوره ؛ إذ بذلك يقل عمله وبذله الذي يرفعه عند ربه.

ثامناً: التوبة والاستغفار:

ومما يواجه به العبد كيد الشيطان أن يسارع بالتوبة والأوبة إلى الله إذا أغواه الشيطان، وهذا دأب عباد الله الصالحين، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ

---

(١) صحيح الجامع: ٣/ ٥٧.

(٢) رواه مسلم في صحيحه: ١/ ٤٨-٤٩. ورقمه: (١٧)، (١٨).

(٣) رواه البخاري: ٦/ ٣٣٨. ورقمه: ٣٢٨٩. ورواه مسلم: ٤/ ٢٢٩٣. ورقمه: ٢٩٩٤. واللفظ للبخاري. ورواه الترمذي. انظر صحيح سنن الترمذي: ٢/ ٣٥٥. ورقمه: ٢٢٠٦.

﴿ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

وقد فسر الطائف بالهمّ بالذنب، أو إصابة الذنب، وقوله: ﴿تَذَكَّرُوا۟﴾ أي عقاب الله وجزيل ثوابه، ووعده ووعيده، فتابوا، وأنابوا، واستعاذوا بالله، ورجعوا إليه من قريب. ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ أي قد استقاموا، وصحوا مما كانوا فيه. وهذا يدل على أن الشيطان يكاد يجعل الإنسان في عماية لا يرى الحق ولا يبصره بما يلقيه عليه من غشاوة، وما يغشي به القلب من الشبهات والشكوك.

وأخبرنا الرسول ﷺ أن الشيطان قال لرب العزة: (وعزتك يا رب لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الربّ: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني). رواه أحمد في مسنده، والحاكم في مستدركه[1].

هذه حال عباد الله: الرجوع من قريب، والتوبة والإنابة إلى الله، ولهم في ذلك أسوة بأبيهم آدم، فإنه لما أكل من الشجرة، تلقى من ربه كلمات فتاب عليه، وتوجه آدم وزوجه إلى الله قائلين: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

أما أولياء الشيطان فهم كما قال الله فيهم: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٢].

والمراد بإخوانهم هنا: إخوان الشياطين من الإنس كقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الإسراء: ٢٧]، وهم أتباعهم والمستمعون لهم،

---

(١) صحيح الجامع: ٢/ ٧٢.

القابلون لأوامرهم، يمدونهم في الغيّ: أي بالتزيين والتحسين للذنوب والمعاصي، بلا كلل ولا ملل. كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣].

تاسعاً: أزل اللبس والغموض الذي يدخل الشيطان منه إلى النفوس

لا تقف مواقف الشبهة، وإذا حدث ذلك فَوَضِّحْ للناس حالك، حتى لا تدع للشيطان فرصة الوسوسة في صدور المسلمين، ولك أسوة في رسول الله ﷺ في هذا.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن صفية بنت حيي زوج النبي ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ معتكفاً، فأتيته أزوره ليلاً فحدثته، ثم قمت فانقلبت، فقام معي ليَقْلبني[1]، وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد، فمرّ رجلان من الأنصار، فلمّا رأيا النبي ﷺ أسرعا، فقال رسول الله ﷺ: (على رسلكما، إنها صفية بنت حيي)، فقالا: سبحان الله، يا رسول الله!! قال: (إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شراً)، أو قال: (شيئاً)[2].

قال الخطابي: «في هذا الحديث من العلم استحباب أن يحذر الإنسان من كل أمر من المكروه مما تجري به الظنون، ويخطر بالقلوب، وأن يطلب السلامة من الناس بإظهار البراءَة من الريب».

ويحكى في هذا عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال: «خاف النبي ﷺ

---

(١) ليردني إلى منزلي.

(٢) صحيح البخاري: ٦/ ٣٣٦. ورواه مسلم: ٤/ ١٧١٢. ورقمه: ٢١٧٥. واللفظ لمسلم.

أن يقع في قلوبهما شيء من أمره فيكفرا، وإنما قاله ﷺ شفقة منه عليهما لا على نفسه»[1].

ومما أرشدنا الله إليه القول الحسن مع الآخرين، حتى لا يدخل الشيطان بيننا وبين إخواننا، فيوقع العداوة بيننا والبغضاء، قال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ﴾ [الإسراء: ٥٣].

وهذا أمر تساهل فيه بعض الناس، فتراهم يقولون الكلام الموهم الذي يحتمل وجوهاً عدة بعضها سيِّء، وقد يرمي أحدهم أخاه بألفاظ يكرهها، وينابيه بألقاب يمقتها، فيكون ذلك مدخلاً للشيطان، فيفرق بينهما، ويحل العداء محل الوفاق والألفة.

النفس البشرية في معترك الصراع:

في ختام هذا الفصل أحب أن أثبت مبحثاً مهماً من كلام ابن القيم صوّر فيه - رحمه الله - حقيقة الصراع وطبيعته، يقول ابن القيم ما ملخصه: «اختار الله الإنسان من بين خلقه فكرمه واصطفاه، وجعله محلاً للإيمان والتوحيد والإخلاص والمحبة والرجاء، وابتلاه بالشهوة والغضب والغفلة، وابتلاه بعدوه إبليس، لا يفتر عنه»[2].

ثم يقول ابن القيم ما نصه: «فهو (أي الشيطان) يدخل عليه من الأبواب التي هي من نفسه وطبعه، فتميل نفسه معه؛ لأنه يدخل عليها بما تحب، فيتفق هو ونفسه وهواه على العبد: ثلاثة مسلطون آمرون، فيبعثون

---

(١) تلبيس إبليس: ٤٦.

(٢) الوابل الصيب: ص ٢١.

الجوارح في قضاء وطرهم، والجوارح آلة منقادة، فلا يمكنها إلا الانبعاث، فهذا شأن هذه الثلاثة، وشأن الجوارح، فلا تزال الجوارح في طاعتهم كيف أمروا وأين يمموا.

هذا مقتضى حال العبد، فاقتضت رحمة ربه العزيز الرحيم به أن أعانه بجند آخر، وأمدّه بمدد آخر، يقاوم به هذا الجند الذي يريد هلاكه، فأرسل إليه رسوله، وأنزل عليه كتابه، وأيده بملك كريم يقابل عدوه الشيطان، فإذا أمره الشيطان بأمر، أمره الملك بأمر ربّه، وبين له ما في طاعة العدو من الهلاك، فهذا يلم به مرة، وهذا مرة، والمنصور من نصره الله عز وجل، والمحفوظ من حفظه الله تعالى.

وجعل الله له مقابل نفسه الأمارة نفساً مطمئنة، إذا أمرته النفس الأمارة بالسوء، نهته عنه النفس المطمئنة، وإذا نهته الأمارة عن الخير، أمرته به النفس المطمئنة، فهو يطيع هذه مرة، وهذه مرة، وهو الغالب عليه منهما، وربما انقهرت إحداهما بالكلية قهراً لا تقوم معه أبداً.

وجعل له مقابل الهوى الحامل له على طاعة الشيطان والنفس الأمارة نوراً وبصيرة، وعقلاً يرده عن الذهاب مع الهوى، فكلما أراد أن يذهب مع الهوى، ناداه العقل والبصيرة والنور: الحذر الحذر، فإن المهالك والمتالف بين يديك، وأنت صيد الحرامية، وقطّاع الطريق، إن سرت خلف هذا الدليل.

فهو يطيع الناصح مرة، فيبين له رشده ونصحه، ويمشي خلف دليل الهوى مرة، فيقطع عليه الطريق، ويؤخذ ماله، وتسلب ثيابه، فيقول: ترى من أين أتيت؟

والعجب أنه يعلم من أين أُتي، ويعرف الطريق التي قطعت عليه، وأخذ فيها، ويأبى إلا سلوكها، لأنّ دليله تمكن منه، وتحكم فيه، وقوي عليه، ولو أضعفه بالمخالفة له، وزجره إذا دعاه، ومحاربته إذا أراد أخذه، لم يتمكن منه، ولكن هو مكنه من نفسه، وهو أعطاه يده.

فهو بمنزلة الرجل يضع يده في يد عدوه، فيباشره ثم يسومه سوء العذاب، فهو يستغيث فلا يغاث، فهكذا يستأسر للشيطان والهوى ولنفسه الأمارة، ثم يطلب الخلاص، فيعجز عنه.

فلما أن بُلي العبد بما بُلي به، أعين بالعساكر والعدد والحصون، وقيل: قاتل عدوك وجاهده، فهذه الجنود خذ منها ما شئت، وهذه الحصون تحصن بأي حصن شئت منها، ورابط إلى الموت، فالأمر قريب، ومدة المرابطة يسيرة جداً، فكأنك بالملك الأعظم وقد أرسل إليك رسله، فنقلوك إلى داره، واسترحت من هذا الجهاد، وفرق بينك وبين عدوك، وأطلقت في دار الكرامة تتقلب فيها كيف شئت، وسجن عدوك في أصعب الحبوس وأنت تراه.

فالسجن الذي كان يريد أن يودعك فيه قد أدخله وأغلقت عليه أبوابه، وأيس من الروح والفرج، وأنت فيما اشتهت نفسك، وقرّت عينك، جزاءً على صبرك في تلك المدة اليسيرة، ولزومك الثغر للرباط، وما كانت إلا ساعة ثمّ انقضت، وكأن الشدة لم تكن.

فإن ضعفت النفس عن ملاحظة قصر الوقت وسرعة انقضائه، فليتدبر قوله عز وجل: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف: ٣٥] وقوله عز وجل: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾

[النازعات: ٤٦]، وقوله عزّ وجل: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ * قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٢-١١٤]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا * يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا * نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٢-١٠٤].

وخطب النبي ﷺ أصحابه يوماً، فلما كانت الشمس على رؤوس الجبال، وذلك عند الغروب قال: (إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه). رواه أحمد في المسند، والترمذي في سننه، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

فليتأمل العاقل الناصح لنفسه هذا الحديث، وليعلم أي شيء حصل له من هذا الوقت الذي قد بقي من الدنيا بأسرها، ليعلم أنه في غرور وأضغاث أحلام، وأنه قد باع سعادة الأبد والنعيم المقيم بحظ خسيس لا يساوي شيئاً، ولو طلب الله تعالى والدار الآخرة لأعطاه ذلك الحظ هنيئاً موفوراً وأكمل منه، كما في بعض الآثار: «ابن آدم، بع الدنيا بالآخرة تربحهما جميعاً، ولا تبع الآخرة بالدنيا تخسرهما جميعاً».

وقال بعض السلف: «ابن آدم، أنت محتاج إلى نصيبك من الدنيا، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوج، فإن بدأت بنصيبك من الدنيا، أضعت نصيبك من الآخرة، وكنت من نصيب الدنيا على خطر، وإن بدأت بنصيبك من الآخرة، فزت بنصيبك من الدنيا فانتظمته انتظاماً».

وكان عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه يقول في خطبته: «أيها الناس، إنكم لم تخلقوا عبثاً، ولم تتركوا سدى، وإن لكم معاداً يجمعكم الله -

عزّ وجلّ - فيه للحكم فيكم، والفصل بينكم، فخاب وشقي عبد أخرجه الله - عزّ وجلّ - من رحمته التي وسعت كل شيء، وجنته التي عرضها السموات والأرض.

وإنما يكون الأمان غداً لمن خاف الله تعالى واتقى، وباع قليلاً بكثير، وفانياً بباقٍ، وشقاوة بسعادة، ألا ترون أنكم في أصلاب الهالكين، وسيخلفه بعدكم الباقون ؟ ألا ترون أنكم في كل يوم تشيعون غادياً رائحاً إلى الله قد قضى نحبه، وانقطع أمله، فتضعونه في بطن صدع من الأرض غير موسّد ولا ممهد، قد خلع الأسباب، وفارق الأحباب، وواجه الحساب؟».

والمقصود أن الله - عز وجل - قد أمد العبد في هذه المدة اليسيرة بالجنود، والعدد، والأمداد، وبين له بماذا يحرز نفسه من عدوه، وبماذا يَفتكّ نفسه إذا أسر.

وقد روى الإمام أحمد رضي الله عنه، والترمذي، من حديث الحارث الأشعري، عن النبي ﷺ أنه قال: (إنّ الله - سبحانه وتعالى - أمر يحيى ابن زكريا ﷺ بخمس كلماتٍ: أن يعمل بها،ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، وأنه كادَ أن يُبطيء بها، فقال له عيسى عليه السلام: إن الله - تعالى - أمركَ بخمس كلمات لتعمل بها، وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، فإما أن تأمرهم، وإما أن آمرَهُم، فقال يحيى: أخشى إن سبقتني بها أن يخسف بي وأعذب، فجمع يحيى الناس في بيت المقدس، فامتلأ المسجد، وقعدوا على الشرف، فقال: إن الله - تبارك وتعالى - أمرني بخمس كلمات أن أَعمَلَهُنّ، وآمركُم أن تعملُوا بهن).

وخامس هذه الخمسة التي أمرهم بها الذكر، (وآمركم أن تذكروا الله تعالى فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعاً، حتى أتى على حصن حصين، فأحرز نفسه منهم، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله تعالى). قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

ومما أمرهم به في الحديث الصلاة: (آمركم بالصلاة، فاذا صليتم فلا تلتفتوا، فان الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت). والالتفات المنهي عنه في الصلاة قسمان؛ أحدهما: التفات القلب عن الله عزّ وجلّ إلى غير الله تعالى. والثاني: التفات البصر. وكلاهما منهي عنه. ولا يزال الله مقبلاً على عبده ما دام العبد مقبلاً على صلاته، فاذا التفت بقلبه أو بصره، أعرض الله تعالى عنه. وقد سألت عائشة رضى الله عنها رسول الله ﷺ عن الالتفات في الصلاة فقال: (هو اختلاسٌ يَخْتلِسُهُ الشيطانُ من صلاة العبد)[1].

وفي أثر: يقول الله تعالى: (إلى خير مني، إلى خير مني؟). ومثل من يلتفت في صلاته ببصره أو بقلبه مثلُ رجل قد استدعاه السلطان، فأوقفه بين يديه، وأقبل يناديه ويخاطبه، وهو في خلال ذلك يلتفت عن السلطان يميناً وشمالاً، وقد انصرف قلبه عن السلطان، فلا يفهم ما يخاطبه به؛ لأن قلبه ليس حاضراً معه، فما ظنّ هذا الرجل أن يفعل به السلطان؟ أفليس أقل المراتب في حقّه أن ينصرف من بين يديه ممقوتاً مبعداً قد سقط من عينيه؟.

فهذا المصلي لا يستوي والحاضر القلب المقبل على الله تعالى في صلاته، الذي قد أشعر قلبه عظمة من هو واقف بين يديه، فامتلأ قلبه من

---

(١) رواه البخاري: ٢/ ٢٣٤. ورقمه: ٧٥١.

هيبته، وذلت عنقه له، واستحيى من ربه تعالى أن يقبل على غيره، أو يلتفت عنه. وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض، قال حسان بن عطية: إن الرجلين ليكونان في الصلاة الواحدة، وإن ما بينهما في الفضل كما بين السماء والأرض، وذلك أن أحدهما مقبل بقلبه على الله عز وجل، والآخر ساهٍ غافل. فاذا أقبل العبد على مخلوق مثله، وبينه وبينه حجاب، لم يكن إقبالاً ولا تقريباً، فما الظن بالخالق عزّ وجل؟

وإذا أقبل على الخالق عزّ وجل، وبينه وبينه حجاب الشهوات والوساوس، والنفس مشغوفة بها، ملأى منها، فكيف يكون ذلك إقبالاً وقد ألهته الوساوس والأفكار، وذهبت به كل مذهب؟

والعبد إذا قام في الصلاة غار الشيطان منه، فإنه قد قام في أعظم مقام، وأقربه وأغيظه للشيطان، وأشده عليه، فهو يحرص ويجتهد كل الاجتهاد أن لا يقيمه فيه، بل لا يزال به يعده ويمنّيه وينسيه، ويجلب عليه بخيله ورجله حتى يهوّن عليه شأن الصلاة، فيتهاون بها فيتركها.

فإن عجز عن ذلك منه، وعصاه العبد، وقام في ذلك المقام، أقبل عدو الله تعالى حتى يخطر بينه وبين نفسه، ويحول بينه وبين قلبه، فيذكره في الصلاة ما لم يكن يذكر قبل دخوله فيها، حتى ربما كان قد نسي الشيء والحاجة، وأيس منها، فيذكره إياها في الصلاة ليشغل قلبه بها، ويأخذه عن الله عزّ وجلّ، فيقوم فيها بلا قلب، فلا ينال من إقبال الله تعالى وكرامته وقربه ما يناله المقبل على ربه عزّ وجلّ بقلبه في صلاته؛ فينصرف من صلاته مثل ما دخل فيها بخطاياه وذنوبه وأثقاله، لم تخف عنه بالصلاة، فإن الصلاة إنما تكفر سيئات من أدى حقها، وأكمل خشوعها، ووقف بين يدي الله تعالى بقلبه وقالبه.

فهذا إذا انصرف منها وجد خفة من نفسه، وأحس بأثقال قد وضعت عنه، فوجد نشاطاً وراحة وروحاً، حتى يتمنى أنه لم يكن خرج منها، لأنها قرة عينيه، ونعيم روحه، وجنة قلبه، ومستراحه في الدنيا، فلا يزال كأنه في سجنٍ وضيقٍ حتى يدخل فيها، فيستريح بها، لا منها، فالمحبون يقولون: نصلي فنستريح بصلاتنا، كما قال إمامهم وقدوتهم ونبيهم: (يا بلالُ أرِحنا بالصلاةِ)، ولم يقل: أرحنا منها، وقال ﷺ: (جُعِلت قُرة عيني في الصلاةِ). فمن جعلت قرة عينه في الصلاة، كيف تقر عينه ﷺ بدونها، وكيف يطيق الصبر عنها ؟

وقد روي أن العبد إذا قام يصلي، قال الله عز وجل: « ارفعوا الحجب، فإذا التفت، قال: أرخوها »، وقد فُسرِّ هذ الالتفات بالتفات القلب عن الله عز وجل إلى غيره، فإذا التفت إلى غيره، أرخى الحجاب بينه وبين العبد، فدخل الشيطان، وعرض عليه أمور الدنيا، وأراه إياها في صورة المرآة، وإذا أقبل بقلبه على الله ولم يلتفت، لم يقدر الشيطان على أن يتوسط بين الله - تعالى - وبين ذلك القلب، وإنما يدخل الشيطان إذا وقع الحجاب، فإن فر إلى الله تعالى، وأحضر قلبه فر الشيطان، فإن التفت حضر الشيطان، فهو هكذا شأنه وشأن عدوه في الصلاة.

كيف يجعل المصلي قلبه حاضراً في الصلاة؟

وإنما يقوى العبد على حضوره في الصلاة واشتغاله فيها بربه عزّ وجلّ، إذا قهر شهوته وهواه، وإلا فقلب قد قهرته الشهوة، وأسره الهوى، ووجد الشيطان فيه مقعداً تمكن فيه، كيف يخلص من الوساوس والأفكار؟!

والقلوب ثلاثة: قلب خالٍ من الإيمان وجميع الخير، فذلك قلب مظلم قد استراح الشيطان من إلقاء الوساوس إليه؛ لأنه قد اتخذه بيتاً ووطناً، وتحكم فيه بما يريد، وتمكن منه غاية التمكن.

القلب الثاني: قلب قد استنار بنور الإيمان، وأوقد فيه مصباحه، لكن عليه ظلمة الشهوات وعواصف الأهوية، فللشيطان هناك إقبال وإدبار، ومجالات ومطامع، فالحرب دول وسجال.

وتختلف أحوال هذا الصنف بالقلة والكثرة، فمنهم مَنْ أوقات غلبته لعدوه أكثر، ومنهم مَنْ أوقات غلبة عدوه له أكثر، ومنهم من هو تارة وتارة.

القلب الثالث: قلب محشو بالإيمان قد استنار بنور الإيمان، وانقشعت عنه حجب الشهوات، وأقلعت عنه تلك الظلمات، فلنوره في صدره إشراق، ولذلك الإشراق إيقاد لو دنا منه الوسواس لاحترق به، فهو كالسماء التي حرست بالنجوم، فلو دنا منها الشيطان يتخطاها لرجم فاحترق، وليست السماء بأعظم حرمة من المؤمن، وحراسة الله تعالى له أتم من حراسة السماء، والسماء متعبد الملائكة، ومستقرّ الوحي، وفيها أنوار الطاعات، وقلب المؤمن مستقر التوحيد والمحبة، والمعرفة والإيمان، وفيه أنوارها، فهو حقيق أن يحرس ويحفظ من كيد العدو، فلا ينال منه شيئاً إلا خطفة.

وقد مثّل ذلك بمثال حسن، وهو ثلاثة بيوت:

بيت للملك فيه كنوزه وذخائره وجواهره.

وبيت للعبد فيه كنوز العبد، وذخائره، وجواهره، وليس جواهر الملك وذخائره.

وبيت خال صفر لا شيء فيه، فجاء اللص يسرق من أحد البيوت، فمن أيها يسرق ؟

فإن قلت: من البيت الخالي، كان محالاً ؛ لأن البيت الخالي ليس فيه شيء يسرق، ولهذا قيل لابن عباس رضي الله عنهما: إن اليهود تزعم أنها لا توسوس في صلاتها، فقال: وما يصنع الشيطان بالقلب الخراب؟

وإن قلت: يسرق من بيت الملك، كان ذلك كالمستحيل الممتنع، فإن عليه من الحرس واليزَك[1] ما لا يستطيع اللص الدنو منه، كيف وحارسه الملك بنفسه، وكيف يستطيع اللص الدنو منه وحوله من الحرس والجند ما حوله ؟ فلم يبق للص إلا البيت الثالث، فهو الذي يشن عليه الغارات.

فليتأمل اللبيب هذا المثال، ولينزله على القلوب، فإنها على منواله.

فقلب خلا من الخير كله، وهو قلب الكافر والمنافق، فذلك بيت الشيطان، قد أحرزه لنفسه واستوطنه، واتخذه سكناً ومستقراً، فأي شيء يسرق منه، وفيه خزائنه وذخائره وشكوكه وخيالاته ووساوسه؟

وقلب قد امتلأ من جلال الله - عزَّ وجلَّ - وعظمته ومحبته ومراقبته والحياء منه، فأي شيطان يجترىء على هذا القلب ؟ وإن أراد سرقة شيء منه، فماذا يسرق ؟ وغايته أن يظفر في الأحايين منه بخطفة ونهب يحصل له على غرة من العبد وغفلة لابد له منها، إذ هو بشر، وأحكام البشرية

(١) يزك ويسك (بالتركية): بمعنى المنع والحظر والزجر.

جارية عليه من الغفلة والسهو والذهول وغلبة الطبع.

وقلب فيه توحيد الله تعالى، ومعرفته، ومحبته، والإيمان به، والتصديق بوعده، وفيه شهوات النفس وأخلاقها، ودواعي الهوى والطبع.

وقلب بين هذين الداعيين ؛ فمرة يميل بقلبه داعي الإيمان والمعرفة والمحبة لله تعالى وإرادته وحده، ومرة يميل بقلبه داعي الشيطان والهوى والطباع، فهذا القلب للشيطان فيه مطمع، وله منه منازلات ووقائع، ويعطي الله النصر من يشاء: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران:١٢٦]. وهذا لا يتمكن الشيطان منه إلا بما عنده من سلاحه، فيدخل إليه الشيطان، فيجد سلاحه عنده، فيأخذه ويقاتل به، فإن أسلحته هي الشهوات والشبهات والخيالات والأماني الكاذبة، وهي في القلب، فيدخل الشيطان فيجدها عتيدة، فيأخذها ويصول بها على القلب، فإن كان عند العبد عدة عتيدة، من الإيمان تقاوم تلك العدة وتزيد عليها، انتصف من الشيطان، وإلا فالدولة لعدوه عليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله. فإذا أذن العبد لعدوه، وفتح له باب بيته، وأدخله عليه، ومكنه من السلاح يقاتله به، فهو الملوم.

فنفْسك لُم ولا تَلُم المطايا ومُت كمداً فليس لك اعتذارُ

الفصل الخامس
علاج الصرع

تحدثنا في ما مضى أن الشيطان قد يصيب الإنسان، وهو ما نسميه الصرع أو مس الجن، وسنحاول أن نبين أسباب الصرع وعلاجه:

أسباب الصرع:

بيّن ابن تيمية[1]: «أن الصرع للإنس قد يكون عن شهوة وهوى وعشق، كما يتفق للإنس مع الإنس...، وقد يكون - وهو الأكثر - عن بغض ومجازاة، مثل أن يؤذيهم بعض الإنس، أو يظنوا أنهم يتعمدون أذاهم إما ببول على بعضهم، وإمّا بصب ماء حار، واما بقتل بعضهم، وإن كان الإنس لا يعرف ذلك، وفي الجن جهل وظلم، فيعاقبونه بأكثر مما يستحقه، وقد يكون عن عبث منهم وشرّ بمثل سفهاء الإنس».

واجبنا تجاه هؤلاء:

ذكرنا أن الجن عباد مأمورون متعبدون بالشريعة، فإذا استطاع المسلم أن يصل إلى مخاطبتهم، كما يحدث مع الجني الذي يصرع الإنسان، وجب القيام بذلك.

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ١٩/ ٣٩.

فإذا كان صرع الجني للإنسي من الباب الأول (عن شهوة وهوى)، فهو من الفواحش التي حرمها الله تعالى على الإنس والجن، ولو كانت برضا الطرف الآخر، فكيف مع كراهته، فإنّه فاحشة وظلم. فيخاطب الجن بذلك، ويعرفون أن هذا فاحشة محرمة، أو فاحشة وعدوان ؛ لتقوم الحجة عليهم بذلك، ويعلموا أنه يحكم فيهم بحكم الله ورسوله الذي أرسله إلى جميع الثقلين: الإنس والجن.

وما كان من الثاني (إيذاء بعض الإنس لهم)، فإن كان الإنسي لم يَعْلَمْ، فيخاطبون بأن هذا لم يعلم، ومن لم يتعمد الأذى لا يستحق العقوبة، وإن كان قد فعل ذلك في داره وملكه عرفوا بأنها ملكه، فله أن يتصرف فيها بما يجوز، وأنتم ليس لكم أن تمكثوا في ملك الإنس بغير إذنهم، بل لكم ما ليس من مساكن الإنس كالخراب والفلوات. . .

ويقول ابن تيمية[1]: «والمقصود أن الجن إذا اعتدوا على الإنس، أخبروا بحكم الله ورسوله، وأقيمت عليهم الحجة، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، كما يفعل بالإنس ؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الأنعام: ١٣٠]؟

النهي عن قتل حيّات البيوت:

يقول ابن تيمية: «ولهذا نهى النبي ﷺ عن قتل حيّات البيوت حتى تؤذن ثلاثاً»، وقد سبق ذكر النصوص المبينة لذلك، وقد ساق ابن تيمية

(١) مجموع الفتاوى: ١٩/ ٤٢.

تلك النصوص، ثمّ بين السبب الذي من أجله نهى عن قتل جنان البيوت فقال: «وذلك أن قتل الجن بغير حق لا يجوز، كما لا يجوز قتل الإنس بلا حق، والظلم محرم في كل حال، فلا يحلّ لأحد أن يظلم أحداً، ولو كان كافراً، بل قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

فإذا كانت حيات البيوت قد تكون جنّاً فتؤذن ثلاثاً، فإن ذهبت وإلا قتلت، فإنها إن كانت حية قتلت، وإن كانت جنية، فقد أصرت على العدوان بظهورها للإنس في صورة حية تفزعهم بذلك، والعادي هو الصائل الذي يجوز دفعه بما يدفع ضرره ولو كان قتلاً، وأما قتلهم بدون سبب يبيح ذلك، فلا يجوز».

سب الجان وضربهم:

وذكر ابن تيمية أن واجب المؤمن نصرة أخيه المظلوم، وهذا المصروع مظلوم، ولكن النصرة تكون بالعدل كما أمر الله، فإذا لم يرتدع الجني بالأمر والنهي والبيان، فإنّه يجوز نهره وسبه وتهديده ولعنه، كما فعل الرسول ﷺ مع الشيطان عندما جاء بشهاب ليرميه في وجه الرسول ﷺ فقال عليه السلام: (أعوذ بالله منك، ألعنك بلعنة الله ثلاثاً).

وذكر أنه قد يحتاج في إبراء المصروع ودفع الجني عنه إلى الضرب، فيضرب ضرباً كثيراً جدّاً، والضرب إنما يقع على الجني، ولا يحسه المصروع، حتى يفيق المصروع، ويخبره أنه لم يحس شيئاً من ذلك، ولا يؤثر في بدنه، ويكون قد ضرب بعصا قوية على رجليه نحو ثلاثمائة أو

أربعمائة ضربة أو أكثر أو أقل، بحيث لو كان على الإنسي لقتله، وإنما هو على الجني، والجني يصيح ويصرخ، ويحدث الحاضرين بأمور متعددة، ويذكر ابن تيمية أنه فعل هذا وجربه مرات كثيرة، يطول وصفها.

أقول: وقد يستغل الضرب فيمن يظن أن فيه صرع وهو ليس كذلك، فيكون فيه هلاك المضروب، ولذلك ينبغي تجنبِه.

الاستعانة على الجان بالذكر وقراءَة القرآن:

وخير ما يستعان به على الجني الذي يصرع الإنسان ذكر الله وقراءَة القرآن، ومن أعظم ذلك قراءَة آية الكرسي، (فإن من قرأها لا يزال عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح). كما صح الحديث بذلك.

يقول ابن تيمية[1]: «ومع هذا فقد جرب المجربون الذين لا يحصون كثرة أن لها من التأثير في دفع الشياطين وإبطال أحوالهم ما لاينضبط من كثرته وقوته، فإن لها تأثيراً عظيماً في دفع الشياطين عن نفس الإنسان وعن المصروع، وعمن تعينه الشياطين، مثل أهل الظلم والغضب، وأهل الشهوة والطرب، وأرباب سماع المكاء والتصدية، إذا قرئت عليهم بصدق، دفعت الشياطين، إذ كانت الشياطين يوحون إلى أوليائهم بأمور يظنها الجهال من كرامات أولياء الله المتقين، وإنما هي من تلبيسات الشياطين على أوليائهم المغضوب عليهم والضالين».

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٩/ ٥٥.

طرد الرسول ﷺ للجن من بدن المصروع:

فعل ذلك الرسول ﷺ أكثر من مرة، فعن أم أبان بنت الوازع بن زارع ابن عامر العبدي، عن أبيها، أن جدها الزارع انطلق إلى رسول الله ﷺ، فانطلق معه بابن له مجنون، أو ابن أخت له.

قال جدي: فلما قدمنا على رسول الله قلت: إن معي ابناً لي، أو ابن أخت لي مجنون، أتيتك به فتدعو الله له، قال: (ائتني به) فانطلقت إليه، وهو في الركاب، فأطلقت عنه، وألقيت عنه ثياب السفر، وألبسته ثوبين حسنين، وأخذت بيده حتى انتهيت به إلى رسول الله ﷺ.

فقال: (أدنه مني، واجعل ظهره مما يليني). قال: فأخذ بمجامع ثوبه من أعلاه وأسفله، فجعل يضرب ظهره، حتى رأيت بياض إبطيه، ويقول: (اخرج عدو الله، اخرج عدو الله).

فأقبل ينظر نظر الصحيح، ليس بنظره الأول. ثم أقعده رسول الله ﷺ بين يديه، فدعا له، فمسح وجهه، فلم يكن في الوفد أحد بعد دعوة رسول الله ﷺ يفضل عليه. رواه الطبراني[1].

وفي المسند أيضاً عن يعلى بن مرّة قال: «لقد رأيت من رسول الله ﷺ ثلاثاً ما رآها أحد قبلي، ولايراها أحد بعدي.

لقد خرجت معه في سفر، حتى إذا كنا ببعض الطريق مررنا بامرأة جالسة معها صبي لها، فقالت يا رسول الله: هذا الصبي أصابه بلاء

---

(١) مجمع الزوائد: ٩/ ٢. وقال الهيثمي فيه: وأم أبان لم يرو عنها غير مطر. وذكر الهيثمي الحديث من رواية أحمد في مسنده بأخصر مما ذكره الطبراني. وقال: فيه هند بنت الوازع لم أعرفها، وبقية رجاله ثقات.

وأصابنا منه بلاء، يؤخذ في اليوم ما أدري كم مرة، قال: (ناولينيه)، فرفعته إليه، فجعلته بينه وبين واسطة الرحل، ثم فغر (فاه)، فنفث فيه ثلاثاً، وقال (بسم الله، أنا عبدالله، اخسأ عدو الله)، ثم ناولها إياه، فقال: (القينا في الرجعة في هذا المكان، فأخبرينا ما فعل) قال: فذهبنا، ورجعنا، فوجدناها في ذلك المكان، معها ثلاث شياه، فقال: (ما فعل صبيك ؟)، فقالت: والذي بعثك بالحق ما حسسنا منه شيئاً حتى الساعة، فاجترر هذه الغنم، قال: (انزل خذ منها واحدة، ورد البقية)[1].

وعن عثمان بن أبي العاص ؛ قال: لما استعملني رسول الله ﷺ على الطائف، جعل يعرض لي شيء في صلاتي، حتى ما أدري ما أُصلي، فلما رأيت ذلك، رحلت إلى رسول الله ﷺ. قال:

(ابْنُ أَبِي العْاصِ؟) قلت: نعم: يا رسول الله! قال: (ما جاء بك؟)، قلت: يا رسول الله ! عرض لي شيء في صلواتي، حتى ما أدري ما أصلي. قال: (ذلك الشيطانُ. فادْنُهْ) فدنوت منه. فجلست على صدور قدمي. قال، فضرب صدري بيده، وتفل في فمي، وقال: (اخرُجْ. عَدُوّ الله!) ففعل ذلك ثلاث مرات. ثم قال: (الحق بعَمَلكَ)[2].

وإذا ابتلي المصروع، ولم يجد علاجاً فصبر على بلواه، فإن له عند الله أجراً عظيماً، ففي صحيح البخاري عن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي عطاء بن أبي رباح: (قال لي ابن عباس: ألا أريك امرأة من أهل الجنة ؟ قلت: بلى. قال: هذه المرأة السوداء، أتت النبي ﷺ فقالت: إني أصرع

---

(١) رواه أحمد في مسنده: ٤/ ١٧٠، وروى الدارمي، (١/ ١٥. ورقمه: ١٧) هذه القصة بلفظ مقارب عن جابر رضي الله عنه.

(٢) صحيح سنن ابن ماجه: ٢/ ٢٧٣. ورقمه: ٢٨٥٨.

وإني أتكشف، فادع الله لي. قال: (إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك). فقالت: أصبر. فقالت: إني أتكشف، فادع الله لي أن لا أتكشف، فدعا لها».

حدثنا محمدٌ أخبرنا مخلدٌ عن ابن جريج أخبرني عطاء: أنه رأى أم زفر، تلك المرأة الطويلة السوداء، على ستر الكعبة[1]. وذكر ابن حجر أن هذه المرأة قالت: «إني أخاف الخبيث أن يجردني»[2].

فالرسول ﷺ أخرج الجني بالأمر والنهر واللعن، ولكن هذه لا تكفي وحدها، فإنّ لقوة الإيمان وثبات اليقين وحسن الصلة بالله أثراً كبيراً في هذا، يدلك على ذلك ما سنورده في الواقعة التالية.

الإمام أحمد يأمر الجني بالخروج فيستجيب:

روي أنّ الامام أحمد كان جالساً في مسجده، إذ جاءَه صاحب له من قبل الخليفة المتوكل، فقال:

إن في بيت أمير المؤمنين جارية بها صرع، وقد أرسلني إليك، لتدعو الله لها بالعافية.

فأعطاه الإمام نعلين من الخشب، وقال:

اذهب إلى دار أمير المؤمنين، واجلس عند رأس الجارية، وقل للجني: قال لك أحمد: أيما أحب إليك: تخرج من هذه الجارية، أو تصفع بهذا النعل سبعين ؟

---

(١) صحيح البخاري: ١٠/ ١١٤. ورقمه: ٥٦٥٢.

(٢) فتح الباري: ١٠/ ١١٥.

فذهب الرجل ومعه النعل إلى الجارية، وجلس عند رأسها، وقال كما قال له الإمام أحمد.

فقال المارد على لسان الجارية: السمع والطاعة لأحمد، لو أمرنا أن نخرج من العراق لخرجنا منه، إنه أطاع الله، ومن أطاع الله أطاعه كل شيء، ثم خرج من الجارية، فهدأت، ورزقت أولاداً.

فلما مات الإمام، عاد لها المارد، فاستدعى لها الأمير صاحباً من أصحاب أحمد، فحضر، ومعه ذلك النعل، وقال للمارد: أخرج وإلا ضربتك بهذا النعل.

فقال المارد: لا أطيعك ولا أخرج، أما أحمد بن حنبل، فقد أطاع الله فأمرنا بطاعته.

ما ينبغي أن يكون عليه المعالج:

وينبغي للمعالج أن يكون قوي الإيمان بالله معتمداً عليه، واثقاً بتأثير الذكر وقراءَة القرآن، وكلما قوي إيمانه وتوكله قوي تأثيره، فربما كان أقوى من الجني فأخرجه، وربما كان الجني أقوى فلا يخرج، وربما كان المخرج للجني ضعيفاً، فتتقصد الجن إيذاءَه، فعليه بكثرة الدعاء والاستعانة عليهم بالله، وقراءَة القرآن، خاصة آية الكرسي.

الرقى والتعاويذ:

يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى[1]: «وأما معالجة المصروع بالرقى،

(١) مجموع الفتاوى: ٢٤/ ٢٧٧.

والتعويذات فهذا من وجهين:

فإن كانت الرقى والتعاويذ مما يعرف معناها، ومما يجوز في دين الإسلام أن يتكلم به الرجل، داعياً الله، ذاكراً له، ومخاطباً لخلقه، ونحو ذلك، فإنه يجوز أن يرقي بها المصروع، ويعوذه، فإنه قد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ قال:(اعرضوا عليَّ رقاكم، لا بأس بالرقى: ما لم يكن فيه شرك)[1]، وقال: (من استطاع منكم أن ينفع أخاه فلينفعه)[2].

وإن كان في ذلك كلمات محرمة، مثل أن يكون فيها شرك، أو كانت مجهولة المعنى، يحتمل أن يكون فيها كفر، فليس لأحد أن يرقي بها ولا يعزم، ولا يقسم، وإن كان الجني قد ينصرف عن المصروع بها، فإنّ ما حرمه الله ورسوله ضرره أكثر من نفعه...

وذكر في موضع آخر[3]: أن أرباب العزائم الشركية كثيراً ما يعجزون عن دفع الجني، وكثيراً ما تسخر منهم الجن إذا طلبوا منهم قتل الجني الصارع للإنس أو حبسه، فيخيلوا إليهم أنهم قتلوه أو حبسوه، ويكون ذلك تخييلاً وكذباً.

استرضاء الجن:

وبعض الناس يحاولون استرضاء الجني الذي يصرع الإنسان بالذبح له، وهذا من الشرك الذي حرمه الله ورسوله، وروي أنه نهى عن ذبائح الجن.

---

(١) صحيح مسلم: ٤/ ١٧٢٧. ورقمه: ٢٢٠٠.

(٢) صحيح مسلم: ٤/ ١٧٢٧. ورقمه: ٢١٩٩.

(٣) مجموع الفتاوى: ١٩/ ٤٦.

وقد يزعم بعض الناس أن هذا من باب التداوي بالحرام، وهذا خطأ كبير، فالصواب أن الله لم يجعل الشفاء في شيء من المحرمات، وعلى القول بجواز التداوي بالمحرمات كالميتة والخمر، فلا يجوز أن يستدل بذلك على الذبح للجني؛ لأن التداوي بالمحرمات فيه نزاع لبعض العلماء، أمّا التداوي بالشرك والكفر، فلا خلاف بين العلماء في تحريمه، ولا يجوز التداوي به باتفاق.

وفي الختام أحب أن أنبه أن ليس كل صرع فهو من الجان، فمنه ما هو أمراض عارضة لها أسبابها التي قد يعلمها الأطباء، وقد لا يعلمونها، وهذا لا ينفي معالجة أمثال هؤلاء بالقرآن والرقى، فالقرآن والرقى لها أثر في الشفاء من جميع الأدواء

الفصل السادس
الحكمة من خلق الشيطان

الشيطان منبع الشرور والآثام، فهو القائد إلى الهلاك الدنيوي والأخروي، ورافع الراية في كل وقت ومكان، يدعو الناس إلى الكفران، ومعصية الرحمن، فهل في خلقه من حكمة؟ وما هذه الحكمة؟

أجاب عن هذا السؤال ابن القيم رحمه الله تعالى فقال[1]: «في خلق إبليس وجنوده من الحكم ما لا يحيط بتفصيله إلا الله».

فمن ذلك:

١- ما يترتب على مجاهدة الشيطان وأعوانه من إكمال مراتب العبودية:

فمنها أن يكمل لأنبيائه وأوليائه مراتب العبودية بمجاهدة عدو الله وحزبه، ومخالفته ومراغمته في الله، وإغاظته وإغاظة أوليائه، والاستعاذة به منه، واللجوء إليه أن يعيذهم من شرّه وكيده، فيترتب على ذلك من المصالح الدنيوية والأخروية ما لم يحصل بدونه... والموقوف على الشيء لا يحصل بدونه.

---

(١) شفاء العليل: ص ٣٢٢.

٢- خوف العباد من الذنوب:

ومنها خوف الملائكة والمؤمنين من ذنبهم بعدما شاهدوا من حال إبليس ما شاهدوه، وسقوطه من المرتبة الملكية إلى المنزلة الإبليسية يكون أقوى وأتم، ولا ريب أن الملائكة لما شاهدوا ذلك، حصلت لهم عبودية أخرى للرب تعالى، وخضوع آخر، وخوف آخر، كما هو المشاهد من حال عبيد الملك إذا رأوه قد أهان أحدهم الإهانة التي بلغت منه كل مبلغ، وهم يشاهدونه، فلا ريب أن خوفهم وحذرهم يكون أشد.

٣- جعله الله عبرة لمن اعتبر:

ومنها أن الله جعله عبرة لمن خالف أمره، وتكبر عن طاعته، وأصرّ على معصيته، كما جعل ذنب أبي البشر عبرة لمن ارتكب نهيه، أو عصى أمره، ثم تاب وندم ورجع إلى ربه، فابتلى أبوي الجن والإنس بالذنب، وجعل هذا الأب عبرة لمن أصرّ وأقام على ذنبه، وهذا الأب عبرة إن تاب ورجع إلى ربه، فلله كم في ضمن ذلك من الحكم الباهرة، والآيات الظاهرة.

٤- جعله فتنة واختباراً لعباده:

ومنها أنّه محك امتحن الله به خلقه، ليتبين به خبيثهم من طيبهم، فإنه - سبحانه - خلق النوع الإنساني من الأرض، وفيها السهل والحزن، والطيب والخبيث، فلا بد أن يظهر ما كان في مادتهم، ففي الحديث عن أبي موسى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، منهم الأحمر

والأبيض والأسود، والسهل والحزن، والطيب والخبيث). رواه أحمد والترمذي وأبو داود[1].

فما كان في المادة الأصلية فهو كائن في المخلوق منها، فاقتضت الحكمة الإلهية إخراجه وظهوره، فلا بدّ إذاً من سبب يظهر ذلك، وكان إبليس محكّاً يميز به الطيب من الخبيث، كما جعل أنبياءه ورسله محكّاً لذلك التمييز، قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، فأرسل رسله إلى المكلفين، وفيهم الطيب والخبيث، فانضاف الطيب إلى الطيب، والخبيث إلى الخبيث.

واقتضت حكمته البالغة أن خلطهم في دار الامتحان، فإذا صاروا إلى دار القرار يميز بينهم، وجعل لهؤلاء داراً على حدة، ولهؤلاء داراً على حدة، حكمة بالغة، وقدرة باهرة.

٥- إظهاره كمال قدرته سبحانه بخلق الأضداد:

ومن هذه الحكم أن يظهر كمال قدرته بخلق الأضداد، مثل جبريل والملائكة وإبليس والشياطين، وذلك من أعظم آيات قدرته ومشيئته وسلطانه؛ فإنه خالق الأضداد كالسماء والأرض، والضياء والظلام، والجنة والنار، والماء والنار، والحر والبرد، والطيب والخبيث.

٦- الضد يظهر حسنه الضد:

ومن هذه الحكم أنَّ خلق أحد الضدين من كمال حسن ضده، فإنَّ

---

(١) مشكاة المصابيح: ١/ ٣٦. ورقمه: ١٠٠.

الضد إنما يظهر حسنه بضده، فلولا القبيح لم تعرف فضيلة الجميل، ولولا الفقر لم يعرف قدر الغنى.

٧- الابتلاء به إلى تحقيق الشكر:

ومن هذه الحكم أنه سبحانه، يحبّ أن يشكر بحقيقة الشكر وأنواعه، ولا ريب أن أولياءَه نالوا بوجود عدو الله إبليس وجنوده، وامتحانهم به من أنواع شكره، ما لم يكن ليحصل لهم بدونه، فكم بين شكر آدم وهو في الجنة، قبل أن يخرج منها، وبين شكره بعد أن ابتلي بعدوه، ثم اجتباه ربه، وتاب عليه وقبله.

٨- في خلق إبليس قيام سوق العبودية:

ومنها أن المحبة والإنابة والتوكل والصبر والرضا ونحوها أحب العبودية إلى الله سبحانه، وهذه العبودية إنما تتحقق بالجهاد وبذل النفس لله، وتقديم محبته على كل ما سواه، فالجهاد ذروة سنام العبودية، وأحبها إلى الرب سبحانه، فكان في خلق إبليس وحزبه قيام سوق هذه العبودية وتوابعها التي لا يحصي حكمها وفوائدها، وما فيها من المصالح إلا الله.

٩- وترتب على ذلك ظهور آياته وعجائب قدرته:

ومن هذه الحكم أن في خلق من يضاد رسله ويكذبهم ويعاديهم، من تمام ظهور آياته، وعجائب قدرته، ولطائف صنعه ما وجوده أحب إليه وأنفع لأوليائه من عدمه، كظهور آية الطوفان، والعصا، واليد، وفلق البحر، وإلقاء الخليل في النار، وأضعاف ذلك من آياته، وبراهين قدرته،

وعلمه، وحكمته، فلم يكن بُدّ من وجود الأسباب التي يترتب عليها ذلك.

١٠- الخلق من النار آية:

ومن هذه الحكم أن المادة النارية فيها الإحراق والعلو والفساد، وفيها الإشراق والإضاءَة والنور، فأخرج منها - سبحانه - هذا وهذا، كما أنّ المادة الترابية الأرضية فيها الطيب والخبيث، والسهل والحزن، والأحمر والأسود والأبيض، فأخرج منها ذلك كله حكمة باهرة وقدرة قاهرة، وآية دالة على أنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

١١- ظهور متعلقات أسمائه:

ومن هذه الحكم أن من أسمائه الخافض الرافع، المعزّ المذِّل، الحكم العدل، المنتقم، وهذه الأسماء تستدعي متعلقات يظهر فيها أحكامها، كأسماء الإحسان والرزق والرحمة ونحوها، ولا بدّ من ظهور متعلقات هذه وهذه.

١٢- ظهور آثار تمام ملكه وعموم تصرفه:

ومن هذه الحكم أنه سبحانه الملك التام الملك، ومن تمام ملكه عموم تصرفه وتنوعه بالثواب والعقاب، والإكرام والإهانة والعدل، والفضل والإعزاز والإذلال، فلا بدّ من وجود من يتعلق به أحد النوعين، كما أوجد من يتعلق به النوع الآخر.

١٣- وجود إبليس من تمام حكمته تعالى:

ومن هذه الحكم أن من أسمائه الحكيم، والحكمة من صفاته -سبحانه- وحكمته تستلزم وضع كل شيء في موضعه الذي لا يليق به سواه، فاقتضت خلق المتضادات، وتخصيص كل واحد منها بما لا يليق به غيره من الأحكام والصفات والخصائص، وهل تتم الحكمة إلا بذلك ؟ فوجود هذا النوع من تمام الحكمة، كما أنه من كمال القدرة.

١٤- حمده تعالى على منعه وخفضه:

ومنها أن حمده -سبحانه- تام كامل من جميع الوجوه، فهو محمود على عدله ومنعه، وخفضه ورفعه، وانتقامه وإهانته، كما هو محمود على فضله وعطائه، ورفعه وإكرامه، فله الحمد التام الكامل على هذا وهذا، وهو يحمد نفسه على ذلك كله، ويحمده عليه ملائكته، ورسله وأولياؤه، ويحمده عليه أهل الموقف جميعهم، وما كان من لوازم كمال حمده وتمامه، فله في خلقه وإيجاده الحكمة التامة، كما له عليه الحمد التام، فلا يجوز تعطيل حمده، كما لا يجوز تعطيل حكمته.

١٥- وبخلقه يظهر الله لعباده حلمه وصبره:

ومنها أنه - سبحانه - يحب أن يظهر لعباده حلمه وصبره، وأناته، وسعة رحمته، وجوده، فاقتضى ذلك خلق من يشرك به، ويضاده في حكمه، ويجتهد في مخالفته، ويسعى في مساخطه، بل يشبهه سبحانه وتعالى، وهو مع ذلك يسوق إليه أنواع الطيبات، ويرزقه، ويعافيه، ويمكن له من أسباب ما يلتذ به من أصناف النعم، ويجيب دعاءَه،

ويكشف عنه السوء، ويعامله من بره وإحسانه بضد ما يعامله هو به من كفره وشركه وإساءَته، فلله كم في ذلك من حكمة وحمد.

ويتحبب إلى أوليائه ويتعرف بأنواع كمالاته، كما في الصحيح عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ:(ما أحد أصبر على أذى يسمعه من الله، يدعون له الولد ثم يعافيهم ويرزقهم). متفق عليه[1].

وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (قال الله تعالى: كذبني ابن آدم، ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته، وأمّا شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمد الذي لم ألد ولم أولد، ولم يكن لي كفواً أحد). رواه البخاري[2].

وهو سبحانه مع هذا الشتم له، والتكذيب له، يرزق الشاتم المكذب، ويعافيه، ويدفع عنه، ويدعوه إلى جنته، ويقبل توبته إذا تاب إليه، ويبدله بسيئاته حسنات، ويلطف به في جميع أحواله، ويؤهله لإرسال رسله، ويأمرهم أن يلينوا له القول، ويرفقوا به.

قال الفضيل بن عياض: «ما من ليلة يختلط ظلامها إلا نادى الجليل- جلّ جلاله - مَن أعظم مني جوداً، الخلائق لي عاصون، وأنا أكلؤهم في مضاجعهم، كأنهم لم يعصوني، وأتولى حفظهم، كأنهم لم يذنبوا، أجود بالفضل على العاصي، وأتفضل على المسيء.

---

(١) مشكاة المصابيح: ١/ ١٤. ورقمه: ٢٣.

(٢) مشكاة المصابيح: ١/ ١٤. ورقمه: ٢٠.

من ذا الذي دعاني فلم ألبه؟ ومن ذا الذي سألني فلم أعطه؟

أنا الجواد ومني الجود، أنا الكريم ومني الكرم، ومن كرمي أني أعطي العبد ما سألني، وأعطيه ما لم يسألني، ومن كرمي أني أعطي التائب كأنه لم يعصني، فأين عني يهرب الخلق، وأين عن بابي ينتحي العاصون ؟».

وفي أثر إلهي: (إني والإنس والجن في نبأ عظيم: أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر سواي).

وفي أثر حسن: (ابن آدم ما أنصفتني: خيري إليك نازل، وشرّك إلي صاعد، كم أتحبب إليك بالنعم، وأنا غني عنك، وكم تتبغض إلي بالمعاصي، وأنت فقير إلي، ولا يزال المَلَكُ الكريم يَعْرُج إلي منك بعمل قبيح).

وفي الحديث الصحيح: (لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون، فيغفر لهم).

١٦ - خلق الله خلقه بحيث يظهر فيهم أحكام أسمائه وصفاته وآثارها:

فالله سبحانه لكمال محبته لأسمائه وصفاته اقتضى حمده، وحكمته أن يخلق خلقاً يظهر فيهم أحكامها وآثارها، فلمحبته للعفو خلق من يحسن العفو عنه، ولمحبته للمغفرة خلق من يغفر له، ويحلم عنه، ويصبر عليه، ولا يعاجله، بل يكون يحب أمانه وإمهاله.

ولمحبته لعدله وحكمته خلق من يظهر فيهم عدله وحكمته، ولمحبته للجود والإحسان والبر خلق من يعامله بالإساءَة والعصيان، وهو سبحانه يعامله بالمغفرة والإحسان، فلولا خلقه من يجري على أيديهم أنواع

المعاصي والمخالفات، لفاتت هذه الحكم والمصالح وأضعافها وأضعاف أضعافها، فتبارك الله رب العالمين، وأحكم الحاكمين، ذو الحكمة البالغة، والنعم السابغة، الذي وصلت حكمته إلى حيث وصلت قدرته، وله في كل شيء حكمة باهرة، كما أن له فيه قدرة قاهرة وهدايات.

١٧- ما حصل بسبب وجود الشيطان من محبوبات للرحمن:

فكم حصل بسبب هذا المخلوق البغيض للرب، المسخوط له من محبوب له تبارك وتعالى، يتصل في حبه ما حصل به من مكروه، والحكيم الباهر الحكمة هو الذي يحصل أحب الأمرين إليه باحتمال المكروه الذي يبغضه ويسخطه، إذا كان طريقاً إلى حصول ذلك المحبوب. ووجود الملزوم بدون لازمه محال.

فإن يكن قد حصل بعدو الله إبليس من الشرور والمعاصي ما حصل، فكم حصل بسبب وجوده، ووجود جنوده من طاعة هي أحب إلى الله وأرضى له من جهاد في سبيله، ومخالفة هوى النفس وشهوتها له، ويحتمل المشاق والمكاره في محبته ومرضاته، وأحبّ شيء للحبيب أن يرى محبّه يتحمل لأجله من الأذى والوصب ما يصدق محبته.

من أجلك قد جعلت خدي أرضا

بغبتي للشامت والحسود حتى ترضى

ومن أثر إلهي: (بغيتي ما يتحمل المتحملون من أجلي)، فلله ما أحب إليه احتمال محبيه أذى أعدائه لهم فيه، وفي مرضاته، وما أنفع ذلك الأذى لهم، وما أحمدهم لعاقبته، وماذا ينالون به من كرامة حبيبهم وقربه

قرة عيونهم به، ولكن حرام على منكري محبة الرب تعالى أن يشموا لذلك رائحة، أو يدخلوا من هذا الباب، أو يذوقوا من هذا الشراب.

قــل للعـيـون العمي للشمس أعين

ســـواك يــراهــا في مغيب ومطـلع

وســامـح بـؤسـاً لـم يؤهـل لحبهم

فما يحسن التخصيص في كل موضع

فإن أغضب هذا المخلوق ربه، فقد أرضاه فيه أنبياؤه ورسله وأولياؤه، وذلك الرضا أعظم من ذلك الغضب، وإن أسخطه ما يجري على يديه من المعاصي والمخالفات، فإنّه سبحانه أشدّ فرحاً بتوبة عبده من الفاقد لراحلته، التي عليها طعامه وشرابه، إذا وجدها في المفاوز المهلكات، وإن أغضبه ما جرى على أنبيائه ورسله من هذا العدو اللعين، فقد سرّه وأرضاه ما جرى على أيديهم من حربه ومعصيته ومراغمته وكبته وغيظه، وهذا الرضا أعظم عنده وأبرّ لديه من فوات ذلك المكروه المستلزم لفوات هذا المرضي المحبوب.

وإن أسخطه أكل آدم من الشجرة، فقد أرضاه توبته وإنابته، وخضوعه وتذلله بين يديه وانكساره له.

وإن أغضبه إخراج أعدائه لرسوله ﷺ من حرمه وبلدته ذلك الخروج، فقد أرضاه أعظم الرضا دخوله إليها ذلك الدخول.

وإن أسخطه قتلهم أولياءه وأحبابه، وتمزيق لحومهم، وإراقة دمائهم، فقد أرضاه نيلهم الحياة التي لا أطيب منها، ولا أنعم، ولا ألذّ في قربه

وجواره.

وإن أسخطه معاصي عباده، فقد أرضاه شهود ملائكته وأنبيائه ورسله وأوليائه سعة مغفرته وعفوه وبرّه وكرمه وجوده والثناء عليه بذلك، وحمده وتمجيده بهذه الأوصاف التي حمده بها والثناء عليه بها، أحب إليه، وأرضى له من فوات تلك المعاصي، وفوات هذه المحبوبات.

واعلم أن الحمد هو الأصل الجامع لذلك كله، فهو عقد نظام الخلق والأمر، والرب تعالى له الحمد كلّه بجميع وجوهه واعتباراته وتصاريفه، فما خلق شيئاً، ولا حكم بشيء إلا وله فيه الحمد، فوصل حمده إلى حيث وصل خلقه وأمره، حمداً حقيقياً يتضمن محبته والرضا به وعنه، والثناء عليه، والإقرار بحكمته البالغة في كل ما خلقه وأمر به، فتعطيل حكمته غير تعطيل حمده... فكما أنه لا يكون إلا حميداً فلا يكون إلا حكيماً، فحمده وحكمته كعلمه وقدرته، وحياته من لوازم ذاته، ولا يجوز تعطيل شيء من صفاته وأسمائه ومقتضياتها وآثارها، فإن ذلك يستلزم النقص الذي يناقض كماله وكبرياءه وعظمته.

١٨- محبته سبحانه أن يكون ملاذاً ومعاذاً لأوليائه:

وفي هذا يقول ابن القيم: «كما أن من صفات الكمال وأفعال الحمد والثناء أنه يجود ويعطي ويمنح، فمنها أنّه يعيذ وينصر ويغيث، فكما يحب أن يلوذ به اللائذون يحب أن يعوذ به العائذون، وكمال الملوك أن يلوذ بهم أولياؤهم، ويعوذوا بهم، كما قال أحمد بن حسين الكندي في ممدوحه:

يا من ألوذ به فيما أؤمله ... ومن أعوذ به مما أحاذره

لايجبر الناس عظماً أنت كاسره ولا يهيضون عظماً أنت جابره

ولو قال ذلك في ربه وفاطره لكان أسعد به من مخلوق مثله.

والمقصود أن ملك الملوك يحب أن يلوذ به مماليكه، وأن يعوذوا به، كما أمر رسوله أن يستعيذ به من الشيطان الرجيم في غير موضع من كتابه، وبذلك يظهر تمام نعمته على عبده إذا أعاذه وأجاره من عدوه، فلم يكن إعاذته وإجارته منه بأدنى النعمتين، والله تعالى يحب أن يكمل نعمته على عباده المؤمنين، ويريهم نصره لهم على عدوهم، وحمايتهم منه، وظفرهم به،فيا لها من نعمة كمل بها سرورهم ونعيمهم، وعدل أظهره في أعدائه وخصمائه.

وما منهما إلا له فيه حكمة يقصر عن إدراكها كل باحث

الحكمة في بقاء إبليس إلى آخر الدهر:

تحدث ابن القيم، رحمه الله، عن ذلك في (شفاء العليل)[1] ووضحه، فمن ذلك:

١- امتحان العباد:

فمما ذكره رحمه الله تعالى: أنّ الله جعله محكّاً ومحنة يخرج به الطيب من الخبيث، ووليّه من عدوه، ولذا اقتضت حكمته إبقاءَه ليحصل الغرض المطلوب بخلقه، ولو أماته لفات ذلك الغرض، كما أن الحكمة اقتضت بقاء أعدائه الكفار في الأرض إلى آخر الدهر، ولو أهلكهم ألبتة لتعطلت

(١) شفاء العليل: ٣٢٧.

الحكم الكثيرة في إبقائهم، فكما اقتضت حكمته امتحان أبي البشر، اقتضت امتحان أولاده من بعده به، فتحصل السعادة لمن خالفه وعاداه، وينحاز إليه من وافقه ووالاه.

٢- وأبقاه مجازاة له على صالح عمله السابق:

ومنها أنه لما سبق حكمه وحكمته أنه لا نصيب له في الآخرة، وقد سبق له طاعة وعبادة، جزاه بها في الدنيا بأن أعطاه البقاء فيها إلى آخر الدهر، فإنه سبحانه لا يظلم أحداً حسنة عملها، فأمّا المؤمن، فيجزيه بحسناته في الدنيا وفي الآخرة، وأمّا الكافر، فيجزيه بحسناته ما عمل في الدنيا، فإذا أفضى إلى الآخرة، لم يكن له شيء، كما ثبت هذا المعنى في الصحيح عن النبي ﷺ.

٣ - أملى له ليزداد إثماً:

وبقاؤه إلى يوم القيامة لم يكن كرامة في حقه، فإنّه لو مات كان خيراً له، وأخف لعذابه، وأقل لشره، ولكن لما غلظ ذنبه بالإصرار على المعصية ومخاصمة من ينبغي التسليم لحكمه، والقدح في حكمته، والحلف على اقتطاع عباده، وصدهم عن عبوديته، كانت عقوبة الذنب أعظم عقوبة بحسب تغلظه، فأبقي في الدنيا، وأملى له ليزداد إثماً، على إثم ذلك الذنب، فيستوجب العقوبة التي لا تصلح لغيره، فيكون رأس أهل الشرّ في العقوبة، كما كان رأسهم في الشر والكفر. ولما كان مادة كل شر فعنه تنشأ، جوزي في النار مثل فعله، فكل عذاب ينزل بأهل النار يبدأ فيه، ثم يسري منه إلى أتباعه عدلاً ظاهراً وحكمة بالغة.

٤- وأبقاه ليتولى المجرمين:

ومن حكم إبقائه إلى يوم الدين أنّه قال في مخاصمته لربّه: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]. وعلم الله - سبحانه - أن في الذرية من لا يصلح لمساكنته في داره، ولا يصلح إلا لما يصلح له الشوك والروث أبقاه له، وقال له بلسان القدر: هؤلاء أصحابك وأولياؤك، فاجلس في انتظارهم، وكلما مرّ بك واحد منهم فشأنك به، فلو صلح لي ما ملكتك منه، فإني أتولى الصالحين، وهم الذين يصلحون لي، وأنت ولي المجرمين من الذين غنوا عن موالاتي وابتغاء مرضاتي، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٩-١٠٠].

فأما إماتة الأنبياء والمرسلين، فلم يكن ذلك لهوانهم عليه، ولكن ليصلوا إلى محل كرامته، ويستريحوا من نكد الدنيا وتعبها ومقاساة أعدائهم وأتباعهم، وليحيا الرسل بعدهم، يري رسولاً بعد رسول، فإماتتهم أصلح لهم وللأمة، أما هم فلراحتهم من الدنيا، ولحوقهم بالرفيق الأعلى في أكمل لذة وسرور، ولا سيما أنه قد خيرهم ربهم بين البقاء في الدنيا واللحاق به.

وأمّا الأمم فيعلم أنهم لم يطيعوهم في حياتهم خاصة، بل أطاعوهم بعد مماتهم، كما أطاعوهم في حياتهم، وأن أتباعهم لم يكونوا يعبدونهم، بل يعبدون الله بأمرهم ونهيهم، والله هو الحي الذي لا يموت، فكم في إماتتهم من حكمة ومصلحة لهم وللأمة. هذا وهم بشر، ولم يخلق الله

البشر في الدنيا على خلقة قابلة للدوام، بل جعلهم خلائف في الأرض، يخلف بعضهم بعضاً، فلو أبقاهم لفاتت المصلحة والحكمة في جعلهم خلائف، ولضاقت بهم الأرض، فالموت كمال لكل مؤمن، ولولا الموت لما طاب العيش في الدنيا، ولا هناء لأهلها بها، فالحكمة في الموت كالحكمة في الحياة.

إلى أي مدى نجح الشيطان في إهلاك بني آدم؟

عندما رفض الشيطان السجود لآدم، وطرده الله من رحمته وجنته، وغضب عليه ولعنه، أخذ على نفسه العهد أمام ربّ العزة بأن يضلنا ويغوينا، ويعبدنا لنفسه: ﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا * وَلَأُضِلَّنَّهُمْ . . . ﴾ [النساء: ١١٨-١١٩]، ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٦٢].

فإلى أي مدى حقق الشيطان مراده من بني الإنسان؟

إن المسرّح نظره في تاريخ البشرية يهوله ما يرى من ضلال الناس، وكيف كذبوا الرسل والكتب، وكفروا بالله ربهم، وأشركوا به مخلوقاته، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٣]، ولذا حق عليهم غضب الله وانتقامه: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۖ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [المؤمنون: ٤٤].

وفي الحاضر حيثما نظرنا أبصرنا أولياء الشيطان تعج بهم الحياة،

يرفعون رايته، وينادون بمبادئه، ويعذبون أولياء الله، ويدلنا على مدى تحقيق الشيطان لمراده، أن الله يأمر آدم يوم القيامة أن يخرج من ذريته بعث النار، فلما يستفسر عن مقدار هذا البعث يقول له: تسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة، وفي رواية: تسعمائة وتسعة وتسعون في النار، وواحد في الجنة[1].

وبذلك يصدق ظنه في هذه الذرية التي لم تعتبر بما جرى لأبيها، ولا بما جرى لأسلافها، ويبقى هذا اللعين يقودها إلى هلاكها، بل أحياناً تسابقه إلى الجحيم.

وما أقبح أن يصدق ظن العدو في عدوه: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠]. قبيح بالإنسان أن يتحقق فيه ظن الشيطان، فيطيع هذا العدو، ويعصي ربّه. ولقد بلغ الأمر حدّاً لا يوصف ولا يتصور، فهذه طائفة في العراق وفي جهات أخرى تطلق على نفسها: عباد الشيطان، وبعض الكتاب نراهم يحلفون (بحق الشيطان)، فما أعجب أمرهم!

لا تفكر بكثرة الهالكين:

حريّ بالعاقل اللبيب أن لا يغتر بكثرة الهالكين، فالكثرة ليس لها اعتبار في ميزان الله، إنما الاعتبار بالحقّ ولو قَلّ عدد متبعيه.

فكن من أتباع الحق الذين رضوا بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد

---

(١) الحديثان رواهما البخاري وغيره. صحيح البخاري: ١١/ ٣٨٧، ٣٨٨ وراجع مؤلفنا: الجنة والنار، ص: ٧٦.

رسولاً، الذين عرفوا الشيطان وأتباع الشيطان، فحاربوهم بالحجة والبرهان، والسيف والسنان، وقبل ذلك بالالتجاء إلى الرحمن، والتمسك بدينه.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ * فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ [البقرة: ٢٠٨-٢٠٩].

نسأل الله أن يجعلنا بمنه وكرمه من الذين دخلوا في السلم دخولاً كلياً، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

أهم المراجع

- إرواء الغليل لناصر الدين الألباني. طبعة المكتب الإسلامي. بيروت.
- إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن القيم. دار المعرفة. بيروت.
- آكام المرجان في أحكام الجان، لبدر الدين أبي عبد الله الشبلي. الثانية ١٤٠٣هـ.
- البداية والنهاية لابن كثير. مكتبة المعارف، بيروت. الثانية. ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤ م.
- تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم). دار الأندلس. بيروت. الأولى. ١٣٨٥هـ- ١٩٦٦م.
- جامع الأصول في أحاديث الرسول لابن الأثير. تحقيق عبدالقادر الأرناؤوط. نشرته مكتبة الحلواني وآخرون. ١٣٨٩هـ. ١٩٦٩م.
- الحبائك في أخبار الملائك للسيوطي. دار الكتب العلمية. بيروت. الأولى ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.
- الدر المنثور للسيوطي. دار الفكر. بيروت. الأولى. ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.
- سلسلة الأحاديث الصحيحة لناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي. دمشق. الأولى.
- سنن الدارمي. دار القلم دمشق وبيروت. الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.
- شرح العقيدة الطحاوية لمحمد بن محمد بن أبي العز الحنفي. المكتب الإسلامي. بيروت. ١٣٩١هـ.
- شرح النووي على مسلم. المطبعة المصرية ومكتبتها. القاهرة.
- صحيح البخاري (الجامع الصحيح) بشرحه فتح الباري. المطبعة السلفية ومكتبتها. القاهرة.
- صحيح الجامع الصغير. المكتب الإسلامي. بيروت. الأولى.

- صحيح سنن ابن ماجة للألباني. نشره مكتب التربية العربي لدول الخليج. الثانية. ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.
- صحيح سنن أبي داود. المكتب الإسلامي. بيروت. الأولى. ١٤٠٩هـ. ١٩٨٨م.
- صحيح سنن الترمذي للألباني. نشره مكتب التربية العربي لدول الخليج. الأولى١٤٠٨هـ. ١٩٨٨م.
- صحيح سنن النسائي. المكتب الإسلامي. بيروت. الأولى. ١٤٠٩هـ. ١٩٨٨م.
- صحيح مسلم (الجامع الصحيح). تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي. طبعة دار إحياء الكتب العربية. مصر. الأولى. ١٣٧٥هـ. ١٩٥٦م.
- غرائب وعجائب الجن للشبلي، مكتبة القرآن القاهرة. (هذا الكتاب هو كتاب أحكام المرجان للشبلي لكن المحقق غير عنوانه).
- لقط المرجان في أحكام الجان للسيوطي. دار الكتب العلمية. بيروت. الأولى. ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦ م.
- لوامع الأنوار البهية. للسفاريني. طبع دولة قطر.
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد. للهيثمي. دار الكتاب العربي بيروت. الثالثة. ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية. (جمع ابن قاسم) طبعته حكومة المملكة العربية السعودية. الأولى. ١٣٨١هـ.
- مسند الإمام أحمد. طبعة مصورة. المكتب الإسلامي. بيروت.
- مشكاة المصابيح للخطيب التبريزي. المكتب الإسلامي. دمشق. الأولى١٣٨٠هـ.

الفهرس

الفصل الأول: التعريف بعالم الجن والشياطين ٩
المبحث الأول : أصلهم وخلقهم ١٠
المطلب الأول: أصلهم الذي منه خلقوا ١٠
المطلب الثاني: ابتداء خلقهم ١١
المطلب الثالث: صفة خلقة الجن ١١
المطلب الرابع: أسماء الجن في لغة العرب وأصنافهم ١٢
المبحث الثاني: إثبات وجود الجن ١٣
المطلب الأول: لا مجال للتكذيب بعالم الجن ١٣
المطلب الثاني: الأدلة الدالة على وجود الجن ١٧
المطلب الثالث: الرد على الذين يزعمون أن الجن هم الملائكة ٢٠
المبحث الثالث: الشيطان والجان ٢١
المطلب الأول: التعريف بالشيطان ٢١
المطلب الثاني: أصل الشيطان ٢٢
المطلب الثالث: قبح صورة الشيطان ٢٤
المطلب الرابع: الشيطان له قرنان ٢٤
المبحث الرابع: طعام الجن وشرابهم ونكاحهم ٢٦
المطلب الأول: طعامهم وشرابهم ٢٦
المطلب الثاني: تزاوج الجن وتكاثرهم ٢٨
المطلب الثالث: دعوى بعض أهل العلم أن الجن لايأكلون ٢٩
المطلب الرابع: زواج الإنس من الجن ٣٠
المبحث الخامس: أعمار الجن وموتهم ٣٢
المبحث السادس: مساكن الجن ومجالسهم وأماكنهم ٣٣
المبحث السابع: دواب الجن ومراكبهم ٣٤

المبحث الثامن: قدرات الجن وعجزهم ٣٦
المطلب الأول: ما أعطاه الله للجن من قدرات ٣٦
أولاً : سرعة الحركة والانتقال ٣٦
ثانياً : سبقهم الإنسان في مجالات الفضاء ٣٦
ثالثاً : علمهم بالإعمار والتصنيع ٣٨
رابعاً : قدرتهم على التشكل ٣٩
خامساً : الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم من العروق ٤٣
المطلب الثاني: جوانب ضعف الجن وعجزهم ٤٤
أولاً : لاسلطان لهم على عباد الله الصالحين ٤٤
ثانياً : خوف الشيطان من بعض عباد الله ٤٨
ثالثاً : تسخير الجن لنبي الله سليمان ٤٩
رابعاً : عجزهم عن الإتيان بالمعجزات ٥١
خامساً : لا يتمثلون بالرسول ﷺ في الرؤيا ٥١
سادساً : لا يستطيع الجن أن يتجاوزوا حدودهم ٥٣
سابعاً : لا يستطيعون فتح باب أغلق وذكر اسم الله عليه ٥٣
الفصل الثاني: تكليف الجن ٥٥
المبحث الأول : الغاية من خلقهم ٥٥
المبحث الثاني : كيف يعذبون بالنار وقد خلقوا من النار ٥٨
المبحث الثالث: رسل الله إلى الجنّ ٦٠
المبحث الرابع : عموم رسالة محمد ﷺ ٦٢
المبحث الخامس: دعوتهم الإنس إلى الخير ٦٦
وهم في الصلاح والفساد مراتب ٦٧
المبحث السادس: طبيعة الشيطان وهل يمكن أن يسلم ٦٩
الفصل الثالث: العداء بين الإنسان والشيطان ٧١
المبحث الأول: أسباب العداء وتاريخه وشدّة هذا العداء ٧١
المبحث الثاني: أهداف الشيطان ٧٤

المطلب الأول: الهدف البعيد ٧٤
المطلب الثاني: الأهداف القريبة ٧٤
١ - إيقاع العباد في الشرك والكفر ٧٤
٢ - إيقاعهم في الذنوب والمعاصي ٧٥
٣ - إيقاعهم في البدعة ٧٥
٤ - صدّه العباد عن طاعة الله ٧٦
٥ - إفساد الطاعات ٧٧
٦ - الإيذاء البدني والنفسي ٨٠
أ - مهاجمة الرسول ﷺ ٨٠
ب - الحلم من الشيطان ٨٠
ج - إحراق المنازل بالنار ٨١
د - تخبط الشيطان الإنسان عند الموت ٨١
هـ - إيذاؤه الوليد حين يولد ٨١
و - مرض الطاعون من الجن ٨٢
ز - بعض الأمراض الأخرى ٨٣
ح - مشاركته لبني آدم في طعامهم وشرابهم ومساكنهم ٨٣
ط - مس الشيطان للإنسان (الصرع) ٨٤
المبحث الثالث: قائد المعركة في الصراع ٨٦
المبحث الرابع: أساليب الشيطان في إضلال الإنسان ٩٢
١ - تزيين الباطل ٩٢
٢ - الإفراط والتفريط ٩٥
٣ - تثبيطه العباد عن العمل ورميهم بالتسويف والكسل ٩٦
٤ - الوعد والتمنية ٩٨
٥ - إظهار النصح للإنسان ٩٩
٦ - التدرج في الإضلال ١٠٣
٧ - إنساؤه العبد ما فيه خيره وصلاحه ١٠٣

٨ - تخويف المؤمنين أولياءَه ١٠٤
٩ - دخوله إلى النفس من الباب الذي تحبه وتهواه ١٠٥
١٠ - إلقاء الشبهات ١٠٥
١١ - ١٤ - الخمر والميسر والأنصاب والأزلام ١٠٨
١٥ - السحر ١١١
١٦ - ضعف الإنسان ١١٣
١٧ - النساء وحب الدنيا ١١٤
١٨ - الغناء والموسيقا ١١٥
١٩ - تهاون المسلمين في تحقيق ما أمروا به ١١٦
المبحث الخامس: كيف يصل الشيطان بوسوسته إلى نفس الانسان ١١٨
المطلب الأول: الوسوسة ١١٨
المطلب الثاني: تمثل الشياطين ١١٩
الذين تخدمهم الشياطين يتقربون إليها بالمعاصي ١٢٣
رجال الغيب ١٢٤
لا تسخر الجن لأحد بعد نبي الله سليمان ١٢٦
المطلب الثالث: تحضير الأرواح ١٢٧
تحضير الأرواح دعوة قديمة ١٣٠
تجربة معاصرة ١٣٠
حكم الشريعة في تحضير الأرواح ١٤١
المطلب الرابع: الجن وعلم الغيب ١٤٤
العرّافون والكهان ١٤٥
تعليل صدق المنجمين والعرافين في بعض الأحيان ١٤٧
الكهنة رسل الشياطين ١٤٧
المطلب الخامس: الجن والأطباق الطائرة ١٤٩
الفصل الرابع: أسلحة المؤمن في حربه مع الشيطان ١٥٣
أولاً - الحذر والحيطة ١٥٣

ثانياً - الالتزام بالكتاب والسنّة ١٥٤
ثالثاً - الالتجاء إلى الله والاحتماء به ١٥٦
١ - الاستعاذة عند دخول الخلاء ١٥٧
٢ - الاستعاذة عند الغضب ١٥٧
٣ - الاستعاذة عند الجماع ١٥٨
٤ - الاستعاذة عند نزول وادٍ أو منزل ١٥٨
٥ - التعوذ بالله من الشيطان عند سماع نهيق الحمار ١٥٩
٦ - التعوذ حين قراءَة القرآن ١٥٩
٧ - تعويذ الأبناء والأهل ١٦١
رابعاً - الاشتغال بذكر الله ١٦٤
خامساً - لزوم جماعة المسلمين ١٧٠
سادساً - كشف مخططات الشيطان ومصائده ١٧١
سابعاً - مخالفة الشيطان ١٧٢
ثامناً - التوبة والاستغفار ١٧٤
تاسعاً - أزل اللبس والغموض الذي يدخل الشيطان منه ١٧٦
النفس البشرية في معترك الصراع ١٧٧
كيف يجعل المصلي قلبه حاضراً في الصلاة ؟ ١٨٤
الفصل الخامس: علاج الصرع ١٨٩
أسباب الصرع ١٨٩
سب الجان وضربهم ١٩١
الاستعانة على الجان بالذكر وقراءَة القرآن ١٩٢
طرد الرسول ﷺ للجن من بدن المصروع ١٩٣
الإمام أحمد يأمر الجني بالخروج فيستجيب ١٩٥
ما ينبغي أن يكون عليه المعالج ١٩٦
الرقى والتعاويذ ١٩٦

الفصل السادس: الحكمة من خلق الشيطان ١٩٩
١ - ما يترتب على مجاهدة الشيطان وأعوانه ١٩٩
٢ - خوف العباد من الذنوب ٢٠٠
٣ - جعله الله عبرة لمن اعتبر ٢٠٠
٤ - جعله فتنة واختباراً لعباده ٢٠٠
٥ - إظهاره كمال قدرته سبحانه بخلق الأضداد ٢٠١
٦ - الضد يظهر حسنه الضد ٢٠١
٧ - الابتلاء به إلى تحقيق الشكر ٢٠٢
٨ - في خلق إبليس قيام سوق العبودية ٢٠٢
٩ - وترتب على ذلك ظهور آياته وعجائب قدرته ٢٠٢
١٠ - الخلق من النار آية ٢٠٣
١١ - ظهور متعلقات أسمائه ٢٠٣
١٢ - ظهور آثار تمام ملكه وعموم تصرفه ٢٠٣
١٣ - وجود إبليس من تمام حكمته تعالى ٢٠٤
١٤ - حمده تعالى على منعه وخفضه ٢٠٤
١٥ - وبخلقه يظهر الله لعباده حلمه وصبره ٢٠٤
١٦ - خلق الله خلقه بحيث يظهر فيهم أحكام أسمائه وصفاته ٢٠٦
١٧ - ما حصل بسبب وجود الشيطان من محبوبات للرحمن ٢٠٧
١٨ - محبته سبحانه أن يكون ملاذاً ومعاذاً لأوليائه ٢٠٩
الحكمة في بقاء إبليس إلى آخر الدهر ٢١٠
١ - امتحان العباد ٢١٠
٢ - وأبقاه مجازاة له على صالح عمله السابق ٢١١
٣ - أملى له ليزداد إثماً ٢١١
٤ - وأبقاه ليتولى المجرمين ٢١٢
إلى أي مدى نجح الشيطان في إهلاك بني آدم؟ ٢١٣
المراجع ٢١٦

رقم الإيداع
2005/5864
الترقيم الدولي I.S.B.N
977 - 342 - 282 - 8

الرسل والرسالات

حُقُوق الطّبْع مَحْفُوظَة

لدار النفائس

للنشر والتوزيع - الأردن

طبعة خاصة بمصر
والمغرب العربي واليمن

(يمنع تداولها في دول الخليج العربي)

١٤٣٣هـ / ٢٠١٢ م

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م
تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م هي عشر الجائزة تتويجا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية
الإدارة : القاهرة : ٤٠ شارع أحمد أبو العلا - المتفرع مع شارع نور الدين بهجت - الموازي لامتداد شارع مكرم عبيد - مدينة نصر
هاتف : ٢٢٨٧٣٢٤٦ - ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +) فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)
فاكس : ٢٢٦٣٩٨٦١ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين
هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)
بريديًا : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

دار النفائس
للنشر والتوزيع - الأردن

العبدلي - مقابل عمارة جوهرة القدس
ص.ب : ٩٢٧٥١١ عمّان ١١١٩٠ الأردن
هاتف : ٥٦٩٣٩٤٠ - فاكس : ٥٦٩٣٩٤١
بريد إلكتروني : ALNAFAES@HOTMAIL.COM

العقيدة في ضوء الكتاب والسنة



الرسل والرسالات

أ.د. عمر سليمان عبد الله الأشقر

دار النفائس
للنشر والتوزيع - الأردن

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ * قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف: ١-٢].

الحمد لله الذي أنزل إلينا كتاباً فيه نبأ ما قبلنا، وخبر ما بعدنا، وحكم ما بيننا، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسن، ولا تنقضي عجائبه، ولا يشبع منه العلماء، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم[1].

وأصلي وأسلم على عبده ورسوله محمد «أرسله الله بالهدى ودين الحقِّ بين يديِّ الساعة بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، فختم به الرسالة، وهدى به من الضلالة، وعلّم به من الجهالة، وفتح برسالته أعيناً عمياً، وآذاناً صمّاً، وقلوباً غلفاً، فأشرقت برسالته الأرض بعد ظلماتها، وتألفت به القلوب بعد شتاتها، فأقام به الملة العوجاء، وأوضح به المَحَجّة

(١) هذا اقتباس من حديث يرويه الترمذي في سننه (٢٩٠٦) وإسناده ضعيف، قال فيه الترمذي: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسناده مجهول، وفي حديث الحارث مقال»، ومعناه حسن وجميل، ولم نذكره في المتن على أنه حديث منسوب إلى الرسول ﷺ.

البيضاء، وشرح له صدره، ووضع عنه وزره، ورفع ذكره، وجعل الذلَّة والصَّغار على من خالف أمره، أرسله ﷺ على حين فترة من الرسل، ودروس من الكتب، حين حُرّف الكلم، وبُدِّلت الشرائع، واستند كلُّ قوم إلى ظُلَم آرائهم، وحكموا على الله وبين عباده بمقالاتهم الفاسدة وأهوائهم، فهدى الله به الخلائق، وأوضح به الطرائق، وأخرج به الناس من الظلمات إلى النور، وأبصر به من العمى، وأرشد به من الغيّ، وجعله قسيم الجنّة والنار، وفرّق به ما بين الأبرار والفجار، وجعل الهدى والفلاح في اتِّباعه، وموافقته، والضلال والشقاء في معصيته ومخالفته، وامتحن به الخلائق في قبورهم، فهم في القبور عنه مسؤولون، وبه ممتحنون»[1]. وأصلي على آله الأطهار، وصحبه الأخيار، أبرّ هذه الأمة قلوباً، وأفضلها علماً، وأقلها تكلفاً، وعلى من سلك سبيلهم، واستنار بنور الإسلام، واستمسك بهدي القرآن، وتابع الرسول الخاتم، وبعد:

فهذا هو الجزء الرابع من سلسلة «العقيدة في ضوء الكتاب والسنة» وهو كالكتب التي سبقته، جاء ليجلي العقيدة في ضوء المصادر الأصلية، بعيداً عن التعقيد والجفاف والمصطلحات الفلسفية والكلامية.

ومباحث الرسل والرسالات متداخلة تداخلاً كبيراً، ولذا رأيت أن يصدر هذان الأصلان في جزء واحد، ومن أجل هذا التداخل طال الباب الأول الذي يبحث في الرسل، وضمر الباب الثاني الذي يبحث في الرسالات، وما ذلك إلاّ لأنّ مباحث الرسل تضمنت كثيراً من مباحث الرسالات.

وقد اشتمل الباب الأول على ثمانية فصول، عرّفت في الفصل الأول

---

(١) هذا الكلام الطيب من كلام العالم الرباني شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله انظر: (لوامع الأنوار البهية: ٢/ ٢٦٢).

النبي والرسول، وبينت الفرق بينهما، ووجوب الإيمان بالأنبياء والرسل، وكفر من زعم الإيمان بالله وكفر بالرسل، أو فرق بين الرسل، كما بينت عدد الرسل، وأسماء الرسل والأنبياء الذين ذكروا في الكتاب والسنة.

وفي الفصل الثاني بينت مدى حاجتنا إلى الرسل والرسالات، وعدم استغناء الإنسان بعقله عن وحي الله وشرعه.

وفي الفصل الثالث توسعت في بيان وظائف الرسل ومهماتهم.

وفي الفصل الرابع بينت الطريق الذي يعلم الله به أنبياءه ورسله وهو الوحي، وبينت مقامات الوحي، وصفة مجيء ملك الوحي إلى الرسول.

وذكرت صفات الرسل في الفصل الخامس، وبينت أن الأنبياء بشر، وبينت مقتضى هذه البشرية، كما دللت على أنَّ الأنبياء حازوا الكمال البشريّ.

وفي الختام ذكرت الأمور التي تفرد بها الرسل عن سائر البشر.

وفي الفصل السادس تحدثت بشيء من التفصيل عن عصمة الرسل، وبينت الأمور التي هي محل للعصمة، والأمور التي لم يعصموا منها، وذكرت آراء بعض الفرق المخالفة ووجهة نظرها، وبطلان قولها.

وقد طال الحديث في الفصل السابع عن دلائل النبوة، فقد ذكرت آيات الرسل السابقين، وتوسعت شيئاً ما في ذكر آيات نبينا محمد ﷺ، وتحدثت عن بشارات الأنبياء برسولنا محمد ﷺ، وسقت طرفاً منها، وبينت أن من أدلة صدق الرسل أحوال الرسل، ودعوتهم، فإنَّ النظر في هذين لا بدَّ أن يهدي إلى الحق من أوتي بصيرة ورغبة في الهداية، والدليل الخامس الذي ذكرته هو تأييد الله لرسله وأنبيائه.

والفصل الثامن خصصته لبيان فضل الأنبياء وتفاضلهم، فالأنبياء أفضل

الخلق، ثمَّ هم متفاضلون فيما بينهم، وقد ضلَّ أقوام فضلوا غير الأنبياء على الأنبياء، فخالفوا إجماع المسلمين، وقد بينت فساد قولهم.

والباب الثاني جعلته للرسالات السماوية، ويقع في فصلين.

الفصل الأول: في الإيمان بالرسالات، بينت فيه وجوب الإيمان بها كلها، وكيف يكون هذا الإيمان.

وقارنت -في الفصل الثاني- بين الرسالات السماوية وذلك لبيان الأمور الآتية:

أولاً: مصدر هذه الرسالات والغاية من إنزالها.

ثانياً: العموم والخصوص فيها.

ثالثاً: حفظها من التغيير والتبديل.

رابعاً: مواضع الاتفاق والاختلاف في هذه الرسالات.

خامساً: الطول والقصر ووقت النزول.

وفي نهاية الباب بينت موقف الرسالة الخاتمة من الرسالات السابقة.

وفي الختام أسأل الله تعالى أن يبارك لنا في أوقاتنا وأعمالنا، وأن يجعل عملنا خالصاً لوجهه، وأن يعصمنا من الزلل في القول والعمل، وأن ينفع بهذا الكتاب عباده، إنه سميع قريب مجيب، وصلى الله على عبده ورسوله وعلى آله وصحبه وسلم.

د. عمر سليمان عبد الله الأشقر

الكويت

٢ من ربيع الأول ١٤٠١ هـ

٨ من يناير ١٩٨١ م

الباب الأول

الرسل والأنبياء

الفصل الأول
تعريف وبيان

المبحث الأول
التعريف بالنبيّ والرسول والفرق بينهما

المطلب الأول: تعريف النبي[1]

النبي -في لغة العرب- مشتق من النبأ وهو الخبر، قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النبأ: ١-٢].

وإنّما سمّي النبيُّ نبيّاً لأنه مُخْبِرٌ مُخْبَر، فهو مُخْبَر، أي: أنَّ الله أخبره، وأوحى إليه ﴿قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [التحريم: ٣]، وهو مُخْبِرٌ عن الله تعالى أمره ووحيه ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩] ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحجر: ٥١].

وقيل: النبوة مشتقة من النَّبْوَة، وهي ما ارتفع من الأرض، وتطلق العرب لفظ النبيّ على علم من أعلام الأرض التي يهتدى بها، والمناسبة بين لفظ النبي والمعنى اللغوي، أنَّ النبيَّ ذو رفعة وقدر عظيم في الدنيا والآخرة، فالأنبياء هم أشرف الخلق، وهم الأعلام التي يهتدي بها الناس فتصلح دنياهم وأخراهم.

---

(١) راجع في هذه المسألة: لسان العرب: ٣/ ٥٦١، ٥٧٣، بصائر ذوي التمييز: ٥/ ١٤، لوامع الأنوار البهية: ١/ ٤٩، ٢/ ٢٦٥.

المطلب الثاني: تعريف الرسول[1]

الإرسال في اللغة التوجيه، فإذا بعثت شخصاً في مهمة فهو رسولك، قال تعالى حاكياً قول ملكة سبأ: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ٣٥]، وقد يريدون بالرسول ذلك الشخص الذي يتابع أخبار الذي بعثه، أخذاً من قول العرب: «جاءت الإبلُ رَسَلاً» أي: متتابعة.

وعلى ذلك فالرُّسل إنّما سمّوا بذلك لأنّهم وُجّهوا من قبل الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ [المؤمنون: ٤٤]، وهم مبعوثون برسالة معينة مُكلَّفون بحملها وتبليغها ومتابعتها.

المطلب الثالث: الفرق بين الرسول والنبيّ

لا يصحُّ قول من ذهب إلى أنه لا فرق بين الرسول والنبيّ، ويدلُّ على بطلان هذا القول ما ورد في عدة الأنبياء والرسل، فقد ذكر الرسول ﷺ أنَّ عدة الأنبياء مائة وأربعة وعشرون ألف نبي، وعدَّة الرسل ثلاثمائة وبضعة عشر رسولاً[2]، ويدلّ على الفرق أيضاً ما ورد في كتاب الله من عطف النبيِّ على الرسول ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ [الحج: ٥٢]، ووصف بعض رسله بالنبوة والرسالة مما يدُل على أن الرسالة أمر زائد على النبوة، كقوله في حقِّ موسى عليه السلام: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥١].

---

(١) راجع في هذه المسألة: لسان العرب: (٢/ ١١٦٦-١١٦٧)، المصباح المنير: ص ٢٢٦.

(٢) حديث صحيح رواه أحمد في مسنده حديث رقم: (٢١٥٤٦، ٢١٥٥٢) طبعة الرسالة.

والشائع عند العلماء أنَّ النبي أعم من الرسول، فالرسول هو من أُوحي إليه بشرع وأُمر بتبليغه، والنبيُّ من أوحي إليه ولم يؤمر بالبلاغ، وعلى ذلك فكلُّ رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً[1].

وهذا الذي ذكروه هنا بعيد لأمور: الأول: أن الله نصَّ على أنهّ أرسل الأنبياء كما أرسل الرسل في قوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ... ﴾ [الحج: ٥٢]، فإذا كان الفارق بينهما هو الأمر بالبلاغ فالإرسال يقتضي من النبيّ البلاغ.

الثاني: أنَّ ترك البلاغ كتمان لوحي الله تعالى، والله لا ينزل وحيه ليكتم ويدفن في صدر واحد من الناس، ثمَّ يموت هذا العلم بموته.

الثالث: قول الرسول ﷺ فيما يرويه عنه ابن عباس: «عرضت عليَّ الأمم، فجعل يمرُّ النبي معه الرجل، والنبي معه الرجلان، والنبي معه الرهط، والنبي ليس معه أحد»[2].

فدلّ هذا على أنَّ الأنبياء مأمورون بالبلاغ، وأنَّهم يتفاوتون في مدى الاستجابة لهم.

والتعريف المختار أنَّ «**الرسولَ مَنْ أُوحي إليه بشرع جديد، والنبيَّ هو المبعوث لتقرير شرع من قبله**»[3].

وقد «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبيٌّ خلفه نبيٌّ»

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية: (١٦٧)، لوامع الأنوار البهية: (١/ ٤٩)، وانظر كلام الشيخ ناصر الدين الألباني على أسانيده في سلسلة الصحيحة: ٢٦٦٨.

(٢) رواه البخاري: ٥٧٥٢، ومسلم: ٢٢٠، واللفظ للبخاري.

(٣) تفسير الآلوسي: (٧/ ١٥٧).

كما ثبت في الحديث[1]، وأنبياء بني إسرائيل كلّهم مبعوثون بشريعة موسى: التوراة، وكانوا مأمورين بإبلاغ قومهم وحي الله اليهم ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ . . .﴾ [البقرة: ٢٤٦] فالنبي كما يظهر من الآية يُوحَى إليه شيء يوجب على قومه أمراً، وهذا لا يكون إلا مع وجوب التبليغ.

واعتبر في هذا بحال داود وسليمان وزكريا ويحيى فهؤلاء جميعاً أنبياء، وقد كانوا يقومون بسياسة بني إسرائيل، والحكم بينهم وإبلاغهم الحق، والله أعلم بالصواب.

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة: ٣٤٥٥.

المبحث الثاني

أهمية الإيمان بالرسل

المطلب الأول: الإيمان بالأنبياء والرسل من أصول الإيمان

الإيمان بالرسل أصل من أصول الإيمان، قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٤].

ومن لم يؤمن بالرسل ضل ضلالاً بعيداً، وخسر خسراناً مبيناً ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

المطلب الثاني

الصلة بين الإيمان بالله والإيمان بالرسل والرسالات

الذين يزعمون أنَّهم مؤمنون بالله ولكنّهم يكفرون بالرسل والكتب هؤلاء لا يقدرون الله حقَّ قدره، ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]. فالذين يقدرون الله حقَّ قدره، ويعلمون صفاته التي اتصف بها من العلم والحكمة والرحمة لا بدَّ أن يوقنوا بأنَّه أرسل الرسل وأنزل الكتب، لأن هذا مقتضى صفاته، فهو لم يخلق الخلق عبثاً، ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦].

ومن كفر بالرسل وهو يزعم أنَّه يؤمن بالله فهو عند الله كافر لا ينفعه إيمانه، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۞ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١].

فقد نصَّت الآية على كفر من زعم الإيمان بالله وكفر بالرسل ﴿ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾، يقول القرطبي في هذه الآية: «نصّ سبحانه على أنَّ التفريق بين الله ورسله كفر، وإنّما كان كفراً لأنَّ الله فرض على الناس أن يعبدوه بما شرعه على ألسنة الرسل، فإذا جحدوا الرسل ردّوا عليهم شرائعهم، ولم يقبلوها منهم، فكانوا ممتنعين من التزام العبودية التي أُمروا بالتزامها، فكان كجحد الصانع سبحانه، وجحد الصانع كفر لما فيه من ترك التزام الطاعة والعبودية، وكذلك التفريق بين الله ورسله»[1].

المطلب الثالث: وجوب الإيمان بجميع الرسل

الكفر برسول واحد كفر بجميع الرسل، قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٠٥]، وقال: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٢٣]، وقال: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٤١]، وقال: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٦٠]، ومن المعروف أنَّ كلَّ أمةٍ كذَّبت رسولها، إلا أن التكذيب برسول واحد يعدّ تكذيباً بالرسل كلِّهم، ذلك أنَّ الرسل حملة رسالة واحدة، ودعاة دين واحد، ومرسلهم واحد، فهم وحدة، يبشر المتقدم منهم بالمتأخر، ويصدق المتأخر المتقدم.

(١) تفسير القرطبي: (٦/٥).

ومن هنا كان الإيمان ببعض الرسل والكفر ببعض كفراً بهم جميعاً، وقد وسم الله من هذا حاله بالكفر ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۞ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١]، وقد أمرنا الله بعدم التفريق بين الرسل والإيمان بهم جميعاً ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦]، ومن سار على هذا النهج فقد اهتدى ﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ﴾ [البقرة: ١٣٧]، والذي يخالفه فقد ضلَّ وغوى ﴿ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧].

وقد مدح الله رسول هذه الأمة والمؤمنين الذين تابعوه لإيمانهم بالرسل كلهم، ولعدم تفريقهم بينهم، قال تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ووعد الله الذين لم يفرقوا بين الرسل بالمثوبة والأجر الكريم ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٥٢].

وقد ذم الله أهل الكتاب لإيمانهم ببعض الرسل وكفرهم ببعض ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ﴾ [البقرة: ٩١].

فاليهود لا يؤمنون بعيسى ولا بمحمد، والنصارى لا يؤمنون بمحمد ﷺ.

المبحث الثالث

عدد الأنبياء والطريق إلى معرفتهم

المطلب الأول: الأنبياء والرسل جمّ غفير

اقتضت حكمة الله -تعالى- في الأمم قبل هذه الأمّة أن يرسل في كلّ منها نذيراً، ولم يرسل رسولاً للبشرية كلّها إلاّ محمداً ﷺ، واقتضى عدله ألاّ يعذب أحداً من الخلق إلاّ بعد أن تقوم عليه الحجة: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]. من هنا كثر الأنبياء والرسل في تاريخ البشرية كثرة هائلة، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

وقد أخبرنا رسول الله ﷺ بعدّة الأنبياء والمرسلين، فعن أبي ذرّ قال: قلت: يا رسول الله، كم المرسلون؟ قال: «ثلاثمائة وبضعة عشر جمّاً غفيراً» وقال مرة: «خمسة عشر»، وفي رواية أبي أمامة، قال أبو ذر: قلت: يا رسول الله، كم وفاء عدة الأنبياء؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، الرُّسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جمّاً غفيراً»[1].

---

(١) عزاه التبريزي في مشكاة المصابيح: (٣/ ١٢٢) إلى أحمد في مسنده، وقد حكم الألباني عليه بالصحة، وقد أطال الشيخ الألباني الكلام في تخريجه من كتب السنة، وبيان أسانيده في كتب السنن وأقوال العلماء فيه في (سلسلة الصحيحة: ورقمه فيها (٢٦٦٨) وقال مجملاً القول فيه: «وجملة القول: إن عدد الرسل المذكورين في حديث الترجمة صحيح لذاته، وأن عدد الأنبياء المذكورين في أحد طرقه، وفي حديث أبي ذر من ثلاث طرق، فهو صحيح لغيره» وانظر الحديث في مسند أحمد برقم: (٢١٥٤٦، ٢١٥٥٢، ٢٢٢٨٨) طبعة مؤسسة الرسالة، فقد حكم الشيخ شعيب الأرنؤوط على طرقه وأسانيده بالضعف.

من الأنبياء والرسل من لم يقصصهم الله علينا:

وهذا العدد الكبير للأنبياء والرسل يدلنا على أنَّ الذين نعرف أسماءهم من الرسل والأنبياء قليل، وأنَّ هناك أعداداً كثيرة لا نعرفها، وقد صرّح القرآن بذلك في أكثر من موضع، قال تعالى: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ ﴾ [النساء: ١٦٤]، وقال: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۚ ﴾ [غافر: ٧٨].

فالذين أخبرنا الله بأسمائهم في كتابه أو أخبرنا بهم رسوله -ﷺ- لا يجوز أنّ نكذّبَ بهم، ومع ذلك فنؤمن أنَّ لله رسلاً وأنبياء لا نعلمهم.

المطلب الثاني: الأنبياء والرسل المذكورون في القرآن

ذكر الله في كتابه خمسة وعشرين نبياً ورسولاً، فذكر في مواضع متفرقة آدم وهوداً وصالحاً وشعيباً وإسماعيل وإدريس وذا الكفل ومحمداً عليهم السلام.

قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ . . ﴾ [آل عمران: ٣٣]، وقال: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ ﴾ [هود: ٥٠]، ﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ ﴾ [هود: ٦١]، ﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ ﴾ [هود: ٨٤]، ﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٥] ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ . . ﴾ [الفتح: ٢٩].

وذكر ثمانية عشر منهم في موضع واحد في سورة الأنعام ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ كُلًّا هَدَيْنَا ۖ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ *

وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٣-٨٦].

أربعة من العرب:

من هؤلاء الخمسة والعشرين أربعة من العرب، فقد جاء في حديث أبي ذر في ذكر الأنبياء والمرسلين: «منهم أربعة من العرب: هود، وصالح، وشعيب، ونبيك يا أبا ذر»[1].

ويقال للعرب الذين كانوا قبل إسماعيل: العرب العاربة، وأمّا العرب المستعربة فهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل[2]، وهود وصالح كانا من العرب العاربة.

الأسباط:

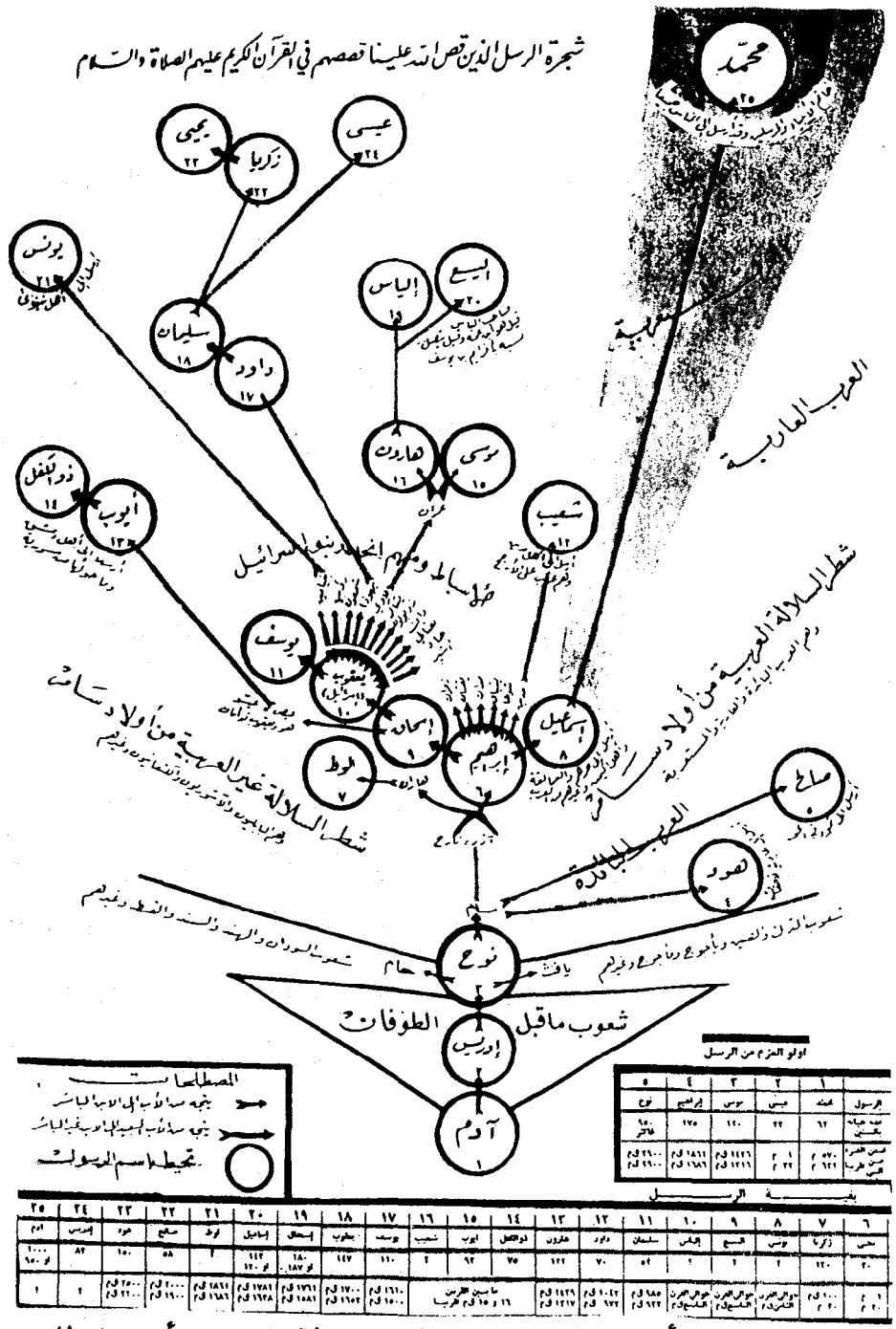
الأنبياء الذين سبق ذكرهم مذكورون في القرآن بأسمائهم، وهنا بعض الأنبياء أشار القرآن إلى نبوتهم، ولكننا لا نعرف أسماءهم، وهم الأسباط، والأسباط هم أولاد يعقوب، وقد كانوا اثني عشر رجلاً عرّفنا القرآن باسم واحد منهم وهو يوسف، والباقي وعددهم أحد عشر رجلاً لم يعرفنا الله بأسمائهم، ولكنه أخبرنا بأنّه أوحى اليهم، قال تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ [البقرة: ١٣٦]

وقال: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ..﴾ [البقرة: ١٤٠].

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه: ٢/ ٧٦ (٣٦١)، وقال الشيخ شعيب: إسناده ضعيف جداً «صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان» طبعة مؤسسة الرسالة، البداية والنهاية: (١/ ١٢٠).

(٢) البداية والنهاية: (١/ ١١٩-١٢٠).



هذه الشجرة مأخوذة من كتاب العقيدة الإسلامية وأسسها للشيخ عبد الرحمن حبنكة.

المطلب الثالث: أنبياء عرفناهم من السنّة

هناك أنبياء عرفناهم من السنة، ولم ينصّ القرآن على أسمائهم، وهم:

١- شيث:

يقول ابن كثير: «وكان نبيّاً بنصّ الحديث الذي رواه ابن حبان في صحيحه عن أبي ذر مرفوعاً أنّه أنزل عليه خمسون صحيفة»[١].

٢- يوشع بن نون:

روى أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «غزا نبيٌّ من الأنبياء، فقال لقومه: لا يتبعني رجل قد ملك بضع امرأة، وهو يريد أن يبني بها، ولمّا يبنِ، ولا آخر قد بنى بنياناً ولما يرفع سقفها، ولا آخر قد اشترى غنماً أو خلفات وهو منتظر ولادها، قال: فغزا، فأدنىٰ للقرية حين صلاةِ العصر، أو قريباً من ذلك، فقال للشمس: أنت مأمورة، وأنا مأمور، اللهمَّ احبسها عليَّ شيئاً، فحبست عليه حتى فتح الله عليه»[٢].

والدليل على أنَّ هذا النبيّ هو يوشع قوله ﷺ: «إنَّ الشمس لم تحبس إلاّ ليوشع ليالي سار إلى بيت المقدس»[٣].

---

(١) البداية والنهاية: (١/ ٩٩).

(٢) رواه البخاري: ٣١٢٤، ومسلم: ١٧٤٧، واللفظ لمسلم.

(٣) قال ابن كثير في البداية والنهاية: (١/ ٣٢٣) انفرد به أحمد من هذا الوجه وهو على شرط البخاري. وهو في «مسند أحمد» ١٤/ ٦٥ (٨٣١٥) طبعة مؤسسة الرسالة.

المطلب الرابع: صالحون مشكوكٌ في نبوتهم

١- ذو القرنين:

ذكر الله خبر ذي القرنين في آخر سورة الكهف، ومما أخبر الله به عنه أنه خاطبه ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف: ٨٦].

فهل كان هذا الخطاب بواسطة نبيّ كان معه، أو كان هو نبيّاً؟ جزم الفخر الرازي بنبوته[١]، وقال ابن حجر: «وهذا مرويٌّ عن عبد الله بن عمرو، وعليه ظاهر القرآن»[٢] ومن الذين نفوا نبوته عليُّ بن أبي طالب[٣].

٢- تبع:

ورد ذكر تبع في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [الدخان: ٣٧]، وقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: ١٢-١٤]، فهل كان نبيّاً مرسلاً إلى قومه فكذبوه فأهلكهم الله؟ الله أعلم بذلك.

الأفضل التوقف في أمر ذي القرنين وتُبّع:

والأفضل أن يتوقف في إثبات النبوة لهذين، لأنّه صحّ عن الرسول ﷺ

---

(١) فتح الباري: (٦/ ٣٨٢).

(٢) المصدر السابق.

(٣) هذا الأثر أخرجه الحاكم عن علي، وقال: سنده صحيح، انظر فتح الباري: (٦/ ٣٨٢).

أنه قال: «ما أدري أتُبّع نبيّاً أم لا، وما أدري ذا القرنين نبياً أم لا»[1]. فإذا كان الرسول ﷺ لا يدري، فنحن أحرى بأن لا ندري.

٣- الخضر:

الخضر هو العبد الصالح الذي رحل إليه موسى ليطلب منه علماً، وقد حدثنا الله عن خبرهما في سورة الكهف.

وسياق القصة يدلّ على نبوته من وجوه[2]:

أحدها: قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥]، والأظهر أنّ هذه الرحمة هي رحمة النبوة، وهذا العلم هو ما يوحى إليه به من قبل الله.

الثاني: قول موسى له: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا * قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا * قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا * قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٦٦-٧٠] فلو كان غير نبيّ لم يكن معصوماً، ولم يكن لموسى - وهو نبيٌّ عظيم، ورسول كريم، واجب العصمة - كبيرُ رغبةٍ، ولا عظيم طلبة في علم وَليٍّ غير واجب العصمة، ولما عزم على الذهاب إليه، والتفتيش عنه، ولو أنّه يمضي حقباً من الزمان، قيل: ثمانين سنة، ثمَّ لما اجتمع به، تواضع له، وعظّمه، واتبعه في صورة مستفيد منه، دلّ على أنه نبيٌّ مثله، يوحى إليه كما يوحى إليه، وقد خصّ من العلوم اللدنيّة والأسرار النبويّة بما لم يطلع الله عليه موسى

---

(١) رواه الحاكم والبيهقي: (انظر صحيح الجامع الصغير: (٥/ ١٢١).

(٢) ذكر هذه الوجوه ابن كثير في البداية والنهاية: (١/ ٣٢٦).

الكليم، نبيّ بني إسرائيل الكريم.

الثالث: أنّ الخضر أقدم على قتل ذلك الغلام، وما ذاك إلا للوحي إليه من الملك العلام، وهذا دليل مستقلٌّ على نبوّته، وبرهان ظاهر على عصمته[1]، لأنَّ الولي لا يجوز له الإقدام على قتل النفوس بمجرد ما يلقى في خلده، لأنَّ خاطره ليس بواجب العصمة، إذ يجوز الخطأ عليه بالاتفاق، ولما أقدم الخضر على قتل ذلك الغلام الذي لم يبلغ الحلم علماً منه بأنّه إذا بلغ يكفر، ويحمل أبويه على الكفر لشّدة محبتهما له، فيتابعانه عليه، ففي قتله مصلحة عظيمة تربو على بقاء مهجته صيانة لأبويه عن الوقوع في الكفر وعقوبته دلّ ذلك على نبوته وأنّه مؤيد من الله بعصمته.

الرابع: أنّه لمّا فسر الخضر تأويل تلك الأفاعيل لموسى، ووضح له عن حقيقة أمره وجلاَّه، قال بعد ذلك كلّه: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ﴾ [الكهف: ٨٢]، يعني ما فعلته من تلقاء نفسي، بل أمرت به، وأوحي إليّ فيه[2].

---

(١) ضلَّ أقوام من هذه الأمة إذ ينتكهون الحرمات، ويرتكبون المنهيات، فإذا أنكر عليهم منكر، قالوا: حقيقة الأمر الخافية غير المظهرة البائنة، ويحتجون على ذلك بقصة الخضر، وإفساده للسفينة، وقتله للغلام، وهذا ضلال كبير، يفتح باب الشر ولا يستطاع إغلاقه بعد ذلك، والقول بنبوة الخضر يغلق هذا الباب، ثمَّ ليس لأحد من هذه الأمة أن يخالف الشريعة الإسلامية، فالحلال ما أحله الله، والحرام ما حرّمه الله، فمن رام خلاف الشريعة عوقب معاقبة المخالف، وإن زعم ما زعم.

ومما ينبغي التنبيه إليه أن موسى صاحب شريعة لم يكن له أن يخالفها، ولذلك أنكر على الخضر قتله الغلام، لأنّه محرم في شريعته، ومن هنا اختار فراقه، والعودة إلى قومه.

(٢) ذهب جمع كثير من العلماء إلى أن الخضر حي لم يمت، وقد وردت في ذلك أخبار كثيرة، وقد فتح القول بحياته باباً للخرافة والدجل، فأخذ كثير من الناس يزعم أنّهم قابلوا الخضر، وأنّه وصّاهم بوصايا، وأمرهم بأوامر، ويروون في ذلك حكايات غريبة، وأخباراً يأباها العقل السليم. =

المطلب الخامس: لا نثبت النبوة لأحد إلّا بدليل

يذكر علماء التفسير والسير أسماء كثير من الأنبياء نقلاً عن بني إسرائيل، أو اعتماداً على أقوال لم تثبت صحتها، فإن خالفت هذه النقول شيئاً مما ثبت عندنا من كتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ رفضناها، كقول الذين قالوا: «إنَّ الرسل الثلاثة الذين أرسلوا إلى أصحاب القرية المذكورة قصتهم في سورة يس كانوا من أتباع عيسى، وأن جرجيس وخالد بن سنان كانا نبيين بعد عيسى»[1].

نردّ هذا كله، لأنّه ثبت في الحديث الصحيح أنّه ليس بين عيسى ابن

= وقد ذهب إلى تضعيف هذه الأخبار جمع من كبار المحدثين منهم البخاري، وابن دحية، وابن كثير، وابن حجر العسقلاني، وأقوى ما يردُّ به على هؤلاء القائلين بحياته أنه لم يصح في ذلك حديث، وأنه لو كان حياً لكان فرض عليه أن يأتي إلى الرسول ﷺ ويتابعه وينصره، فقد أخذ الله العهد على الأنبياء من قبل بالإيمان بمحمد ونصرته إذا أدركهم زمانه ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١]، وقد أخبر الرسول ﷺ أنه لو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعه.

وقد سأل إبراهيم الحربي أحمد بن حنبل عن تعمير الخضر وإلياس، وأنهما باقيان يريان ويروى عنهما، فقال أحمد: من أحال على غائب لم ينصف منه، وما ألقى هذا إلا الشيطان. (مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٤/ ٣٣٧).

وسُئل البخاري عن الخضر وإلياس: هل هما في الأحياء؟ فقال: كيف يكون هذا وقد قال النبي ﷺ: «لا يبقى على رأس مائة سنة ممن هو على وجه الأرض أحد» (مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٤/ ٣٣٧).

وقد أطال جماعة من محققي العلماء في إيراد الأدلة المبطلة لهذه الخرافة، منهم ابن كثير في البداية والنهاية (١/ ٣٢٦) والشيخ محمد الأمين الشنقيطي في أضواء البيان (٤/ ١٨٤)، وقد ألف ابن حجر العسقلاني رسالة في ذلك سمّاها: الزهر النضر في نبأ الخضر، وهي مطبوعة ضمن مجموعة الرسائل المنيرية: ٢/ ١٩٥.

(١) فتح الباري: (٦/ ٤٨٩).

مريم وبين رسولنا صلوات الله وسلامه عليهما نبيٌّ[1]، فالرسل المذكورون في آية سورة يس إما رسل بعثوا قبل عيسى، وهذا هو الراجح، أو هم -كما يقول بعض المفسرين- مبعوثون من قبل عيسى وهذا بعيد، لأن الله أخبر أنّه مرسلهم، والرسول عند الإطلاق ينصرف إلى الاصطلاح المعروف، وما ورد من أنَّ خالد بن سنان نبي عربي ضيعه قومه فهو حديث لا يصحُّ، وهو مخالف لحديث صحيح أخبر الرسول ﷺ فيه أنَّ عدد الأنبياء الذين من العرب أربعة[2].

أما ما ورد عن بني إسرائيل من أخبار بتسمية بعض الأنبياء مما لا دليل عليه من الكتاب والسنة، فلا نكذِّبه، ولا نصدّق به، لأنَّ خبرهم يحتمل الصدق والكذب.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري: (٣٤٤٢) ومسلم: (٢٣٦٥) ونصه: «ليس بيني وبينه نبي».

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه: ٢/ ٧٦ (٣٦١).

الفصل الثاني
حاجة البشرية الى الرسل والرسالات

تمهيد:

إذا كان الناس في القديم يجادلون الرسل، ويرفضون علومهم، ويعرضون عنهم فإن البشر اليوم في القرن العشرين -حيث بلغت البشرية ذروة التقدم المادي، فغاصت في أعماق البحار، وانطلقت بعيداً في أجواز الفضاء، وفجرت الذرة، وكشفت كثيراً من القوى الكونية الكامنة في هذا الوجود- أشدُّ جدالاً للرسل، وأكثر رفضاً لعلومهم، وأعظم إعراضاً عنهم، وحال البشر اليوم من الرسل وتعاليمهم كحال الحمر المستنفرة حين ترى الأسد فتفرّ لا تلوي على شيء، قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٤٩-٥١].

والبشر -اليوم- يأبون أكثر من قبل التسليم للرسل وتعاليمهم اغتراراً بعلومهم، واستكباراً عن متابعة رجال عاشوا في عصور متقدمة على عصورهم ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦].

واليوم ينفخ شياطين الإنس في عقول البشر يدعونهم إلى التمرد على الله وعلى شريعة الله، ورفض تعاليم الرسل، بحجة أنَّ في شريعة الله حجراً على عقولهم، وتوقيفاً لركب الحياة، وتجميداً للحضارة والرقيّ،

وقد أقامت الدول اليوم نظمها وقوانينها وتشريعاتها على رفض تعاليم الرسل، بل إنَّ بعض الدول تضع الإلحاد مبدأ دستورياً، وهو الذي يسمى بالعلمانية، وكثير من الدول التي تتحكم في رقاب المسلمين تسير على هذا النهج، وقد ترضى عوامّ الناس بأن تضع مادة في دستورها تقول: دين الدولة الإسلام، ثمَّ تهدم هذه المادة بالموادّ السابقة واللاحقة، والتشريعات التي تحكم العباد.

فهل صحيح أنَّ البشرية بلغت -اليوم- مبلغاً يجعلها تستغني عن الرسل وتعاليم الرسل؟ وهل أصبحت البشرية اليوم قادرة على أن تقود نفسها بعيداً عن منهج الرسل؟

يكفي في الإجابة أن ننظر في حال تلك الدول التي نسميها متقدمة متحضرة كأمريكا وبريطانيا وفرنسا وروسيا والصين -لنعلم مدى الشقاء الذي يغشاهم، نحن لا ننكر أنَّهم بلغوا في التقدّم المادي شأواً بعيداً، ولكنّهم في الجانب الآخر الذي جاء الرسل وجاءت تعاليمهم لإصلاحه انحدروا انحداراً بعيداً.

لا ينكر أحد أنَّ الهموم والأوجاع النفسية والعقد النفسية -اليوم- سمة العالم المتحضر، الإنسان في العالم المتحضر اليوم فقد إنسانيته، خسر نفسه، ولذلك فإن الشباب هناك يتمردون، يتمردون على القيم والأخلاق والأوضاع والقوانين، أخذوا يرفضون حياتهم التي يعيشونها، وأخذوا يتبعون كل ناعق من الشرق أو الغرب يلوِّح لهم بفلسفة أو دروشة أو سفسطة يظنون فيه هناءهم، لقد تحوّل عالم الغرب إلى عالم تنخر الجريمة عظامه، وتقوده الانحرفات والضياع، لقد زلزلت الفضائح أركان الدول

الكبرى، والخافي أعظم وأكثر من البادي، إن الذين يسمّون -اليوم- بالعالم المتحضر يخربون بيوتهم بأيديهم، حضارتهم تقتلهم، حضارتهم تفرز سموماً تسري فيهم فتقتل الأفراد، وتفرق المجتمعات، الذين نسميهم اليوم بالعالم المتحضر كالطائر الجبّار الذي يريد أن يحلق في أجواز الفضاء بجناح واحد.

إننا بحاجة إلى الرسل وتعاليمهم لصلاح قلوبنا، وإنارة نفوسنا، وهداية عقولنا . . . نحن بحاجة إلى الرسل كي نعرف وجهتنا في الحياة، وعلاقتنا بالحياة وخالق الحياة.

نحن بحاجة إلى الرسل كيلا ننحرف أو نزيغ فنقع في المستنقع الآسن.

ابن القيم يبين مدى الحاجة إلى الرسل:

يقول ابن القيم مبيناً حاجة العباد إلى الرسل وتعاليمهم:

«ومن هاهنا تعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول، وما جاء به، وتصديقه فيما أخبر به، وطاعته فيما أمر، فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا، ولا في الآخرة إلاّ على أيدي الرسل، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلاّ من جهتهم، ولا يُنال رضا الله ألبتة إلاّ على أيديهم، فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلاّ هديهم وما جاؤوا به، فهم الميزان الراجح، الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم توزن الأخلاق والأعمال، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه، والعين إلى نورها، والروح إلى حياتها، فأيّ ضرورة وحاجة فرضت فضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير.

وما ظنك بمن إذا غاب عنك هديه وما جاء به طرفة عين فسد قلبك، وصار كالحوت إذا فارق الماء، ووضع في المقلاة، فحال العبد عند مفارقة قلبه لما جاء به الرسل كهذه الحال، بل أعظم، ولكن لا يحسُّ بهذا إلاّ قلبٌ حيٌّ.

ما لجرح بميت إيلام[1]

وإذا كانت سعادة العبد في الدارين معلقة بهدي النبي ﷺ فيجب على كل من نصح نفسه، وأحبَّ نجاتها وسعادتها أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه ما يخرج به عن الجاهلين، ويدخل به في عداد أتباعه وشيعته وحزبه، والناس في هذا بين مستقلٍّ، ومستكثر، ومحروم، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو فضل عظيم»[2].

ابن تيمية يبين الحاجة إلى الرسل والرسالات:

وممن جلى هذه المسألة وبينها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى قال: «الرسالة ضرورية للعباد، لا بدَّ لهم منها، وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شيء، والرسالة روح العالم ونوره وحياته، فأيُّ صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور؟ والدنيا مظلمة ملعونة إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة، وكذلك العبد ما لم تشرق في قلبه شمس الرسالة، وينالله من حياتها وروحها فهو في ظلمة، وهو من الأموات، قال الله

(١) عجز بيت للمتنبي وصدره:

من يهن يسهل الهوان عليه

وهو في ديوانه: ٤/ ٢٧٧ من قصيدة يمدح بها أبا الحسن علي بن أحمد المري الخراساني.

(٢) زاد المعاد: (١/ ١٥).

تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، فهذا وصف المؤمن كان ميتاً في ظلمة الجهل، فأحياه الله بروح الرسالة ونور الإيمان، وجعل له نوراً يمشي به في الناس، وأمّا الكافر فميت القلب في الظلمات».

وبين رحمه الله تعالى: «أن الله سمّى رسالته روحاً، والروح إذا عدم فقدت الحياة، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، فذكر هنا الأصلين، وهما: الروح، والنور، فالروح الحياة، والنور النور» وبين رحمه الله تعالى: «أن الله يضرب الأمثال للوحي الذي أنزله حياة للقلوب ونوراً لها بالماء الذي ينزله من السماء حياة للأرض، وبالنّار التي يحصل بها النور، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

يقول شيخ الإسلام رحمه الله معقباً على الآية: «فشبه العلم بالماء المنزل من السماء لأن به حياة القلوب، كما أنَّ بالماء حياة الأبدان، وشبّه القلوب بالأودية، لأنّها محلّ العلم، كما أنَّ الأودية محل الماء، فقلب يسع علماً كثيراً، وواد يسع ماءً كثيراً، وقلب يسع علماً قليلاً، وواد يسع ماءً قليلاً، وأخبر تعالى أنّه يعلو على السيل من الزبد بسبب مخالطة الماء، وأنّه يذهب جفاءً، أي: يرمى به، ويخفى، والذي ينفع الناس يمكث في الأرض ويستقر، وكذلك القلوب تخالطها الشهوات والشبهات، ثم تذهب جفاءً، ويستقر فيها الإيمان والقرآن الذي ينفع صاحبه والناس، وقال:

﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ [الرعد: ١٧]. فهذا المثل الآخر وهو الناري، فالأول للحياة، والثاني للضياء.

وبين رحمه الله أن لهذين المثالين نظيراً «وهما المثالان المذكوران في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ * صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ * أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ١٧-١٩].

وبعد أن بيَّن الشيخ رحمه الله وصف المؤمن، بين وصف الكافر، فقال: «وأمّا الكافر ففي ظلمات الكفر والشرك غير حيّ، وإن كانت حياته حياة بهيمية، فهو عادم الحياة الروحانية العلوية التي سببها الإيمان، وبها حصل للعبد السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة، فإنّ الله -سبحانه- جعل الرسل وسائط بينه وبين عباده في تعريفهم ما ينفعهم وما يضرهم، وتكميل ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم، وبعثوا جميعاً بالدعوة إلى الله وتعريف الطريق الموصل إليه، وبيان حالهم بعد الوصول إليه».

ثم بيّن رحمه الله هذه الأصول التي أشار إليها هنا فقال: «فالأصل الأول يتضمن إثبات الصفات والتوحيد والقدر، وذكر أيام الله في أوليائه وأعدائه، وهي القصص التي قصّها الله على عباده والأمثال التي ضربها لهم.

والأصل الثاني يتضمن تفصيل الشرائع والأمر والنهي والإباحة، وبيان ما يحبه الله وما يكرهه. والأصل الثالث يتضمن الإيمان باليوم الآخر،

والجنّة والنار والثواب والعقاب».

ثم بيّن أنَّ «على هذه الأصول الثلاثة مدار الخلق والأمر، والسعادة والفلاح موقوفة عليها، ولا سبيل إلى معرفتها إلاّ من جهة الرسل، فإنَّ العقل لا يهتدي إلى تفاصيلها ومعرفة حقائقها، وإن كان قد يدرك وجه الضرورة إليها من حيث الجملة، كالمريض الذي يدرك وجه الحاجة إلى الطب ومن يداويه، ولا يهتدي إلى تفاصيل المرض، وتنزيل الدواء عليه»[1].

مقارنة بين حاجة العباد إلى علم الرسل وعلم الطب:

عقد ابن القيم رحمه الله في كتابه القيم «مفتاح دار السعادة» مقارنة بيّن فيها أنّ حاجة الناس إلى الشريعة أعظم من حاجتهم إلى علم الطب مع شدّة حاجة الناس إليه لصلاح أبدانهم، فحاجتهم إلى الرسالة أعظم من حاجتهم إلى غيرها من العلوم، قال: «حاجة الناس إلى الشريعة ضرورية، فوق حاجتهم إلى كل شيء، ولا نسبة لحاجتهم إلى علم الطب إليها، ألا ترى أنَّ أكثر العالم يعيشون بغير طبيب، ولا يكون الطبيب إلا في بعض المدن الجامعة، وأمَّا أهل البدو كلهم، وأهل الكفور كلّهم، وعامة بني آدم -لا يحتاجون إلى طبيب، وهم أصحُّ أبدانا، وأقوى طبيعة ممن هو متقيد بالطبيب، ولعّل أعمارهم متقاربة، وقد فطر الله بني آدم على تناول ما ينفعهم، واجتناب ما يضرهم، وجعل لكلّ قوم عادة وعرفاً في استخراج ما يهجم عليهم من الأدواء، حتى إنَّ كثيراً من أصول الطب إنما أخذت من

(١) النصوص السابقة من هذا المبحث منقولة من مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ١٩/ ٩٣-٩٦.

عوائد الناس، وعرفهم وتجاربهم.

وأمّا الشريعة فمبناها على تعريف مواقع رضا الله وسخطه في حركات العباد الاختيارية، فمبناها على الوحي المحض، والحاجة إلى التنفس فضلاً عن الطعام والشراب، لأنّ غاية ما يقدر في عدم التنفس والطعام والشراب موت البدن، وتعطل الروح عنه، وأما ما يقدر عند عدم الشريعة ففساد الروح والقلب جملة، وهلاك الأبد، وشتان بين هذا وهلاك البدن بالموت، فليس النّاس قطّ إلى شيء أحوج منهم إلى معرفة ما جاء به الرسول ﷺ والقيام به، والدعوة إليه، والصبر عليه، وجهاد من خرج عنه حتى يرجع إليه، وليس للعالم صلاح بدون ذلك ألبتة، ولا سبيل إلى الوصول إلى السعادة والفوز الأكبر إلاّ بالعبور على هذا الجسم»[1].

هل يمكن أن يستغني العقل عن الوحي:

يزعم الناس في عالم اليوم أنّه يمكنهم الاستغناء عن الرسل والرسالات بالعقول التي وهبهم الله إياها، ولذلك نراهم يسنُّون القوانين، ويحلُّون ويحرمون، ويخططون ويوجهون، ومستندهم في ذلك كلّه أن عقولهم تستحسن ذلك أو تقبحه، وترضى به أو ترفضه، وهؤلاء لهم سلف قالوا مثل مقالتهم هذه «فالبراهمة -وهم طائفة من المجوس- زعموا أن إرسال الرسل عبث، لا يليق بالحكيم، لإغناء العقل عن الرسل، لأنّ ما جاءت به الرسل إن كان موافقاً للعقل حسناً عنده فهو يفعله، وإن لم يأت به، وإن كان مخالفاً قبيحاً -فإن احتاج إليه فعله وإلاّ تركه»[2].

---

(١) مفتاح دار السعادة: (٢/ ٢).

(٢) لوامع الأنوار البهية: (٢/ ٢٥٦).

ولا يجوز في مجال الحجاج والنزاع أن يبادر المسلم إلى إنكار قدرة العقل على إدراك الحسن والقبح، «فإنّ الله قد فطر عباده على الفرق بين الحسن والقبيح، وركب في عقولهم إدراك ذلك، والتمييز بين النوعين، كما فطرهم على الفرق بين النافع والضار والملائم لهم والمنافر، وركب في حواسهم إدراك ذلك، والتمييز بين أنواعه.

والفطرة الأولى: (وهي فطرته العباد على الفرق بين الحسن والقبيح) هي خاصة الإنسان التي تميز بها عن غيره من الحيوانات، وأما الفطرة الثانية (وهي فطرته للعباد على الفرق بين النافع والضار..) فمشتركة بين أصناف الحيوان»[1] والذي ينبغي أن ينازع فيه أمور:

الأول: أنّ هناك أموراً هي مصلحة للإنسان لا يستطيع الإنسان إدراكها بمجرد عقله، لأنها غير داخلة في مجال العقل ودائرته، «فمن أين للعقل معرفة الله -تعالى- بأسمائه وصفاته..؟ ومن أين له معرفة تفاصيل شرعه ودينه الذي شرعه لعباده؟ ومن أين له معرفة تفاصيل محبته، ورضاه، وسخطه، وكراهيته؟ ومن أين له معرفة تفاصيل ثوابه وعقابه، وما أعدّ لأوليائه، وما أعدّ لأعدائه، ومقادير الثواب والعقاب، وكيفيتهما، ودرجاتهما؟ ومن أين له معرفة الغيب الذي لم يُظهِر اللهُ عليه أحداً من خلقه إلاّ من ارتضاه من رسله إلى غير ذلك مما جاءت به الرسل، وبلغته عن الله، وليس في العقل طريق إلى معرفته»[2].

الثاني: أن الذي يدرك العقل حسنه أو قبحه يدركه على سبيل الإجمال، ولا يستطيع أن يدرك تفاصيل ما جاء به الشرع، وإن أدركت

(١) مفتاح دار السعادة: ٢/ ١١٦.

(٢) مفتاح دار السعادة: ٢/ ١١٧.

التفاصيل فهو إدراك لبعض الجزئيات وليس إدراكاً كلياً شاملاً: «فالعقل يدرك حسن العدل، وأما كون هذا الفعل المعين عدلاً أو ظلماً فهذا مما يعجز العقل عن إدراكه في كلّ فعل وعقد»[1].

الثالث: أن العقول قد تحار في الفعل الواحد، فقد يكون الفعل مشتملاً على مصلحة ومفسدة، ولا تعلم العقول مفسدته أرجح أو مصلحته، فيتوقف العقل في ذلك، فتأتي الشرائع ببيان ذلك، وتأمر براجح المصلحة، وتنهى عن راجح المفسدة، وكذلك الفعل يكون مصلحة لشخص مفسدة لغيره، والعقل لا يدرك ذلك، وتأتي الشرائع ببيانه، فتأمر به من هو مصلحة له، وتنهى عنه من حيث هو مفسدة في حقّه، وكذلك الفعل يكون مفسدة في الظاهر، وفي ضمنه مصلحة عظيمة لا يهتدي إليها العقل، فتجيء الشرائع ببيان ما في ضمنه من المصلحة، والمفسدة الراجحة»[2].

وفي هذا يقول ابن تيمية: «الأنبياء جاؤوا بما تعجز العقول عن معرفته، ولم يجيئوا بما تعلم العقول بطلانه، فهم يخبرون بمحارات العقول لا بمحالات العقول»[3].

الرابع: ما يتوصل إليه العقل وإن كان صحيحاً، فإنه ليس إلا فرضيات، قد تجرفها الآراء المتناقضة، والمذاهب الملحدة.

ولو استطاعت البقاء فإنها - في غيبة الوحي - ستكون تخمينات شتى، يلتبس فيها الحق بالباطل.

---

(١) مفتاح دار السعادة: ٢/ ١١٧.
(٢) مفتاح دار السعادة: ٢/ ١١٧.
(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٢/ ٣١٢.

بطلان قول البراهمة:

والبراهمة الذين يزعمون أنّ العقل يغني عن الوحي لا نحتاج إلى إيراد الحجج لإبطال قولهم، وكل ما نفعله أن نوجه الأنظار إلى ما قادتهم إليه عقولهم التي زعموا أنهم يستغنون بها عن الوحي، هذا زعيم من زعمائهم في القرن العشرين يقول مفاخراً[1]: «عندما أرى البقرة لا أجدني أرى حيواناً، لأني أعبد البقرة، وسأدافع عن عبادتها أمام العالم أجمع». ولقد قاده عقله إلى تفضيل أمّه البقرة على أمّه التي ولدته: «وأمي البقرة تفضل أمّي الحقيقية من عدة وجوه، فالأمّ الحقيقية ترضعنا مدة عام أو عامين، وتتطلب منّا خدمات طول العمر نظير هذا، ولكنّ أمنا البقرة تمنحنا اللبن دائماً، ولا تطلب منّا شيئاً مقابل ذلك سوى الطعام العادي..» ومضى عابد البقر يقارن بين أمّه البقرة وأمّه الحقيقية مورداً الحجج والبراهين على أفضلية أمّه البقرة على أمّه الحقيقية إلى أن قال: «إنّ ملايين الهنود يتجهون للبقرة بالعبادة والإجلال، وأنا أعدّ نفسي واحداً من هؤلاء الملايين».

وقد قرأت منذ مدة في مجلة العربي التي تصدر في الكويت عن معبد فخم مكسو بالرخام الأبيض ترسل إليه الهدايا والألطاف -من شتى أنحاء الهند، بقي أن تعلم أنّ الآلهة التي تقدم لها القرابين وترسل لها النذور في ذلك المعبد الفخم إنّما هي الفئران.

هذه بعض الترهات التي هدتهم إليها عقولهم التي زعموا أنّ فيها غنية عن الوحي الإلهي.

---

(١) هو زعيم الهند غاندي، انظر أقواله هذه في كتاب مقارنة الأديان: ٤/ ٣٢ (نظرات في النبوة ص ٢٧).

مجالات العقل:

إن الذين يريدون أن يستغنوا عن الوحي بالعقل يظلمون العقل ظلماً كبيراً، ويبددون طاقة العقل في غير مجالها، «إن للعقل اختصاصه وميدانه وطاقته، فإذا اشتغل خارج اختصاصه جانبه الصواب، وحالفه الشطط والتخبط، وإذا أجري في غير ميدانه كبا وتعثر، وإذا كلف فوق طاقته كان نصيبه العجز والكلال.

إن العالم المادي المحسوس أو عالم الطبيعة هو ميدان العقل الفسيح الذي يصول فيه ويجول، فيستخرج مكنوناته، ويربط بين أسبابه وعلله، ومقدماته ونتائجه، فيكشف ويخترع، ويتبحّر في العلوم النافعة في مختلف ميادين الحياة، وتسير عجلة التقدم البشري إلى أمام.

أما إذا كلف النظر خارج اختصاصه أعني ما وراء الطبيعة فإنه يرجع بعد طول البحث والعناء بما لا يروي غليلاً ولا يشفي عليلاً، بل يرجع بسخافات وشطحات»[1].

موقع العقل من الوحي:

يزعم كثير من الناس أنّ الوحي يلغي العقل ويطمس نوره، ويورثه البلادة والخمول، وهذا زعم كاذب، ليس له من الصحة نصيب، فالوحي الإلهي وجّه العقول إلى النظر في الكون والتدبر فيه، وحث الإنسان على استعمار هذه الأرض، واستثمارها، وفي مجال العلوم المنزلة من الله وظيفة العقل أن ينظر فيها، ليستوثق من صحة نسبتها إلى الله تعالى، فإن

---

(١) نظرات في النبوة: ص ١٧.

تبين له صحة ذلك فعليه أن يستوعب وحي الله إليه، ويستخدم العقل الذي وهبه الله إياه في فهم وتدبر الوحي، ثم يجتهد في التطبيق والتنفيذ.

والوحي مع العقل كنور الشمس أو الضوء مع العين، فإذا حجب الوحي عن العقل لم ينتفع الإنسان بعقله، كما أنّ المبصر لا ينتفع بعينه إذا عاش في ظلمة، فإذا أشرقت الشمس، وانتشر ضوؤها انتفع بناظريه، وكذلك أصحاب العقول إذا أشرق الوحي على عقولهم وقلوبهم أبصرت واهتدت ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

الفصل الثالث
وظائف الرسل ومهماتهم

لقد بين لنا القرآن الكريم والسنة النبوية مهمّة الرسل ووظائفهم، وسنحاول أن نبين ذلك فيما يأتي.

المبحث الأول
البلاغ المبين

الرسل سفراء الله إلى عباده، وحملة وحيه، ومهمتهم الأولى هي إبلاغ هذه الأمانة التي تحملوها إلى عباد الله: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [المائدة: ٦٧]، والبلاغ يحتاج إلى الشجاعة وعدم خشية الناس، وهو يبلغهم ما يخالف معتقداتهم، ويأمرهم بما يستنكرونه، وينهاهم عمّا ألفوه، ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

والبلاغ يكون بتلاوة النصوص التي أوحاها الله من غير نقصان ولا زيادة ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا ﴾ [البقرة: ١٥١]، فإذا كان الموحى به ليس نصاً يتلى، فيكون البلاغ ببيان الأوامر والنواهي والمعاني والعلوم التي أوحاها الله من غير تبديل ولا تغيير.

ومن البلاغ أن يوضح الرسول الوحي الذي أنزله الله لعباده، لأنّه أقدر من غيره على التعرف عل معانيه ومراميه، وأعرف من غيره بمراد الله من وحيه، وفي ذلك يقول الله لرسوله ﷺ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

والبيان من الرسول للوحي الإلهي قد يكون بالقول، فقد بين الرسول -ﷺ- أموراً كثيرة استشكلها أصحابه، كما بين المراد من الظلم في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، فقد بين الرسول -ﷺ- أن المراد به الشرك، لا ظلم النفس بالذنوب.

وكما بيّن الرسول -ﷺ- الآيات المجملة في الصلاة والزكاة والحج وغير ذلك بقوله.

وكما يكون البيان بالقول يكون بالفعل، فقد كانت أفعال الرسول -ﷺ- في الصلاة والصدقة والحج وغير ذلك بياناً لكثير من النصوص القرآنية.

وعندما يتولى الناس، ويعرضون عن دعوة الرسل، فإن الرسل لا يملكون غير البلاغ ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ [آل عمران: ٢٠].

المبحث الثاني
الدّعوة إلى الله

لا تقف مهمّة الرسل عند حدّ بيان الحقّ وإبلاغه، بل عليهم دعوة الناس إلى الأخذ بدعوتهم، والاستجابة لها، وتحقيقها في أنفسهم اعتقاداً وقولاً وعملاً، وهم في ذلك ينطلقون من منطلق واحد، فهم يقولون للناس: أنتم عباد الله، والله ربكم وإلهكم، والله أرسلنا لنعرفكم كيف تعبدونه، ولأننا رسل الله مبعوثون من عنده، فيجب عليكم أن تطيعونا وتتبعونا، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. وكل رسول قال لقومه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٠٨، ١٢٦، ١٤٤، ١٥٠، ١٦٣، ١٧٩].

وقد بذل الرسل في سبيل دعوة الناس إلى الله جهوداً عظيمة، وحسبك في هذا أن تقرأ سورة نوح لترى الجهد الذي بذله على مدار تسعمائة وخمسين عاماً، فقد دعاهم ليلاً ونهاراً، سراً وعلانية، واستعمل أساليب الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، وحاول أن يفتح عقولهم، وأن يوجهها إلى ما في الكون من آيات، ولكنهم أعرضوا، ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ [نوح: ٢١].

مثال يوضح دور الرسل:

وقد ضربت الملائكة للرسول ﷺ مثلاً يوضح دوره، ويبين وظيفته، فعن جابر بن عبد الله قال: «جاءت ملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائم فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمةٌ والقلبَ يقظانُ، فقالوا: إن لصاحبكم هذا مثلاً، قال: فاضربوا له مثلاً. فقال بعضهم: إنه نائمٌ، وقال بعضهم: إن العينَ نائمةٌ والقلبَ يقظان، فقالوا: مَثَلُهُ كمثل رجل بنى داراً وجَعَلَ فيها مأدُبة وبعث داعياً، فمن أجاب الداعيَ دخلَ الدارَ وأكلَ من المأدبة، ومن لم يجبِ الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة. فقالوا: أولوها له يفقهها، فقال بعضهم: إنه نائمٌ، وقال بعضهم: إن العينَ نائمةٌ والقلبَ يقظانُ، فقالوا: فالدارُ الجنة والداعي محمدٌ ﷺ، فمن أطاعَ محمداً ﷺ فقد أطاعَ الله، ومن عصى محمداً ﷺ فقد عصى الله، ومحمدٌ فرق بين الناس»[1].

---

(١) صحيح البخاري: ٧٢٨١.

المبحث الثالث
التبشير والإنذار

ودعوة الرسل إلى الله تقترن دائماً بالتبشير والإنذار، ولأنَّ ارتباط الدعوة إلى الله بالتبشير والإنذار وثيق جداً فقد قصر القرآن مهمة الرسل عليهما في بعض آياته ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [الكهف:٥٦]، وقد ضرب الرسول -ﷺ- لنفسه مثلاً في هذا، فقال: «إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به، كمثل رجل أتى قوماً، فقال: يا قوم، إني رأيت الجيش بعينيَّ، وإني أنا النذير العُريان، فالنجاء، فأطاعه طائفة من قومه، فأدلجوا، فانطلقوا على مهلهم، فنجوا، وكذَّبته طائفة منهم، فأصبحوا مكانهم، فصبحهم الجيش، فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني، فاتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذّب بما جئت به من الحق»[1].

وتبشير الرسل وإنذارهم دنيوي وأخروي، فهم في الدنيا يبشرون الطائعين بالحياة الطيبة، ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل:٩٧]. ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه:١٢٣]، ويعدونهم بالعزّ والتمكين والأمن ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا

(١) صحيح البخاري: ٧٢٨٣، وصحيح مسلم: ٢٢٨٣.

يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥].

ويخوّفون العصاة بالشقاء الدنيوي ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤] ويحذرونهم العذاب والهلاك الدنيوي ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣]، وفي الآخرة يبشرون الطائعين بالجنة ونعيمها ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣].

ويخوفون المجرمين والعصاة عذاب الله في الآخرة، ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ١٤].

ومن يطالع دعوات الرسل يجد أنّ دعوتهم قد اصطبغت بالتبشير والإنذار، ويبدو أنّ التبشير والإنذار على النحو الذي جاءت به الرسل هو مفتاح النفس الإنسانية، فالنفس الإنسانية مطبوعة على طلب الخير لذاتها، ودفع الشر عنها، فإذا بصّر الرسل النفوس بالخير العظيم الذي يحصّلونه من وراء الإيمان والأعمال الصالحة فإن النفوس تشتاق إلى تحصيل ذلك الخير، وعندما تُبيَّن لها الأضرار العظيمة التي تصيب الإنسان من وراء الكفر والضلال فإنّ النفوس تهرب من هذه الأعمال، ونعيم الله المبشر به نعيم يستعذبه القلب، وتلذُّه النفس، ويهيم به الخيال، اسمع إلى قوله تعالى يصف نعيم المؤمنين في جنات النعيم: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ * مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ * وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ * وَحُورٌ

عِينٌ * كَأَمْثَالِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ * جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا * وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ * فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ * وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ * وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ * وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ * وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ * إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً * فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا * لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ١٥-٣٨].

وانظر إلى عذاب الكفرة في دار الشقاء ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ * فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ * لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ * إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ [الواقعة: ٤١-٤٥] ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ * لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ * فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ * فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ * فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ * هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الواقعة: ٥١-٥٦].

وحسبك أن تطالع كتاب الترغيب والترهيب للحافظ المنذري وتقرأ منه على إخوانك ومن تدعوهم إلى الله، ثمّ انظر أثر هذا في نفسك وفي نفوس السامعين.

إن بعض الذين لم يفقهوا دعوة الإسلام يعيبون على دعاة الإسلام أخذهم بالإنذار والتبشير، ويقولون: فلان واعظ، ويعيبون عليهم عدم فلسفتهم للأمور التي يدعون إليها، ويطالبون الدعاة بالكف عن طريقة الوعظ وتخويف النّاس وترغيبهم، وهؤلاء بحاجة إلى أن يراجعوا أنفسهم، وينظروا في موقفهم هذا، في ضوء نصوص القرآن وأحاديث الرسول التي تبين أسلوب الدعوة، وتوضيح مهمة الرسل الكرام.

المبحث الرابع

إصلاح النفوس وتزكيتها

الله رحيم بعباده، ومن رحمته أن يحيى نفوسهم بوحيه، وينيرها بنوره، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى: ٥٢].

والله يخرج الناس بهذا الوحي الإلهي من الظلمات إلى النور، ظلمات الكفر والشرك والجهل إلى نور الإسلام والحق: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقد أرسل اللهُ رسله بهديه ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ٥]، وبدون هذا النور تعمى القلوب ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وعماها ضلالها عن الحق، وتركها لما ينفعها وإقبالها على ما يضرها ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ﴾ [الفرقان: ٥٥].

وإخراج الرسل الناس من الظلمات إلى النور لا يتحقق إلاّ بتعليمهم تعاليم ربهم وتزكية نفوسهم بتعريفهم بربهم وأسمائه وصفاته، وتعريفهم بملائكته وكتبه ورسله، وتعريفهم ما ينفعهم وما يضرهم، ودلالتهم على السبيل التي توصلهم إلى محبته، وتعريفهم بعبادته ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢] ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾ [البقرة: ١٢٩].

المبحث الخامس

تقويم الفكر المنحرف والعقائد الزائفة

كان الناس في أول الخلق على الفطرة السليمة، يعبدون الله وحده، ولا يشركون به أحداً، فلمّا تفرقوا واختلفوا أرسل الله الرسل ليعيدوا الناس إلى جادة الصواب، وينتشلوهم من الضلال، ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣].

أي: كان الناس أمّة واحدة على التوحيد والإيمان وعبادة الله فاختلفوا فأرسل الله النبيين مبشرين ومنذرين.

وقد كان كلُّ رسول يدعو قومه إلى الصراط المستقيم، ويبينه لهم ويهديهم إليه، وهذا أمر متفق عليه بين الرسل جميعاً، ثم كُلُّ رسول يقوِّم الانحراف الحادث في عصره ومصره، فالانحراف عن الصراط المستقيم لا يحصره ضابط وهو يتمثل في أشكال مختلفة، وكلُّ رسول يُعنى بتقويم الانحراف الموجود في عصره، فنوح أنكر على قومه عبادة الأصنام، وكذلك إبراهيم، وهود أنكر على قومه الاستعلاء في الأرض والتجبّر فيها، وصالح أنكر عليهم الإفساد في الأرض واتباع المفسدين، ولوط حارب جريمة اللواط التي استشرت في قومه، وشعيب قاوم في قومه جريمة التطفيف في الميكال والميزان، وهكذا، فكل هذه الجرائم وغيرها التي ارتكبتها الأمم خروج عن الصراط المستقيم وانحراف عنه، والرّسل يبينون هذا الصراط ويحاربون الخروج عليه بأيّ شكل من الأشكال كان.

المبحث السادس
إقامة الحجّة

لا أحد أحبّ إليه العذر من الله تعالى، فالله جلّ وعلا أرسل الرسل وأنزل الكتب كي لا يبقى للناس حجّة في يوم القيامة، ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، ولو لم يرسل الله الرسل إلى الناس لجاؤوا يوم القيامة يخاصمون الله -جل وعلا- ويقولون: كيف تعذبنا وتدخلنا النار، وأنت لم ترسل إلينا من يبلغنا مرادك منّا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى﴾ [طه: ١٣٤]، أي: لو أهلكهم الله بعذاب جزاء كفرهم قبل أن يرسل إليهم رسولاً لقالوا: هلا أرسلت إلينا رسولا كي نعرف مرادك، ونتبع آياتك، ونسير على النهج الذي تريد؟

وفي يوم القيامة عندما يجمع الله الأولين والآخرين يأتي الله لكل أمة برسولها ليشهد عليها بأنّه بلغها رسالة ربه، وأقام عليها الحجّة ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا * يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤١-٤٢].

وقال في آية أخرى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ [النحل: ٨٩].

ولذلك فإن الذين يرفضون اتبّاع الرسل، ويعرضون عن هديهم -لا يملكون إلاّ الاعتراف بظلمهم إذا وقع بهم العذاب في الدنيا ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ * فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ * لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ * قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ * فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١١-١٥].

وفي يوم القيامة عندما يساقون إلى المصير الرهيب، وقبل أن يلقوا في الجحيم يسألون عن ذنبهم فيعترفون ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ * وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ * فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٨-١١].

وعندما يضجّون في النّار بعد أن يُحيط بهم العذاب من كل جانب، وينادون ويصرخون تقول لهم خزنة النار: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [غافر: ٥٠].

المبحث السابع

سياسة الأمة

الذين يستجيبون للرسل يكوّنون جماعة وأمة، وهؤلاء يحتاجون إلى من يسوسهم ويقودهم ويدبر أمورهم، والرُّسل يقومون بهذه المهمة في حال حياتهم، فهم يحكمون بين الناس بحكم الله ﴿ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ﴾ [المائدة: ٤٨].

ونادى ربُّ العزة داود قائلاً: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ﴾ [ص: ٢٦]، وأنبياء بني إسرائيل كانوا يسوسون أمتهم بالتوراة، وفي الحديث «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلّما هلك نبيٌّ خلفه نبيٌّ»(١) وقال الله عن التوراة: ﴿ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾ [المائدة: ٤٤].

فالرسل وأتباعهم من بعدهم يحكمون بين الناس، ويقودون الأمة في السلم والحرب، ويلون شؤون القضاء، ويقومون على رعاية مصالح الناس، وهم في كلّ ذلك عاملون بطاعة الله، وطاعتهم في ذلك كلّه طاعة لله ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٨٠].

ولن يصل العبد إلى نيل رضوان الله ومحبته إلا بهذه الطاعة ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

ولذا فإنّ شعار المسلم الذي يعلنه دائماً هو السمع والطاعة ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ﴾ [النور: ٥١].

---

(١) صحيح البخاري: ٣٤٥٥، وصحيح مسلم: ١٨٤٢.

الفصل الرابع
الوحي

المبحث الأول
النبوّة منحة إلهيّة [1]

النبوة منحة إلهية، لا تنال بمجرد التشهي والرغبة، ولا تنال بالمجاهدة والمعاناة، وقد كذّب الفلاسفة الذين زعموا أن النبوة تنال بمجرد الكسب بالجدّ والاجتهاد، وتكلّف أنواع العبادات، واقتحام أشقّ الطاعات، والدأب في تهذيب النفوس، وتنقية الخواطر، وتطهير الأخلاق، ورياضة النفس والبدن[2].

وقد بينّ الله في أكثر من آية أنّ النبوة نعمة ربانية إلهية، قال تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ أَنعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ﴾ [مريم:٥٨]، وحكى الله قول يعقوب لابنه يوسف: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ [يوسف:٦]، وقال الله لموسى: ﴿ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

---

(١) ذهبت المعتزلة إلى أن إرسال الرسل وإنزال الكتب واجب على الله تعالى، والحقُّ أن ذلك تفضل من الله تعالى على عباده، ورحمة بهم، والقول بالوجوب يتجه إذا قلنا: أوجبه هو تعالى على نفسه (انظر لوامع الأنوار البهية: ٢/ ٢٥٦، ٢٥٨).

(٢) لوامع الأنوار البهية: (٢/ ٢٦٧).

وقد طمع أمية بن أبي الصَّلت في أن يكون نبي هذه الأمة، وقال الكثير من الشعر متوجهاً به إلى الله، وداعياً إليه، ولكنه لم يحصل على مراده، وصدق الله إذ يقول: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وعندما اقترح المشركون أن يختار الله لأمر النبوة والرسالة أحد الرجلين العظيمين في مكة والطائف عروة بن مسعود الثقفي أو الوليد بن المغيرة، أنكر الله ذلك القول، وبين أنّ هذا مستنكر، فهو الإله العظيم الذي قسم بينهم أرزاقهم في الدنيا، أفيجوز لهم أن يتدخلوا في تحديد المستحقّ لرحمة النبوة والرسالة؟ ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا . .﴾ [الزخرف: ٣١-٣٢] وسنبين في هذا الفصل الطريق الذي يصبح به الذين اختارهم الله أنبياء.

المبحث الثاني

طريق إعلام الله أنبياءه ورسله

تعريف الوحي:

سمي الله الطريق الذي يعلم الله به أنبياءَه ورسله وحياً، قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴾ [النساء: ١٦٣].

والوحي في اللغة: الإعلام الخفّي السريع مهما اختلفت أسبابه[1]، فقد يكون بالإلهام كوحي الله إلى الحواريين: ﴿ وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي ﴾ [المائدة: ١١١] وكوحي الله لأم موسى: ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِ ﴾ [القصص: ٧]، ويأتي بمعنى الإيماء والإشارة، فقد سمّى القرآن إشارة زكريا إلى قومه وحياً ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴾ [مريم: ١١].

وأكثر ما وردت كلمة «وحي» في القرآن الكريم بمعنى إخبار وإعلام الله من اصطفاه من عباده كل ما أراد إطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم، بطريقة سرّية خفيّة، غير معتادة للبشر.

---

(١) راجع فتح الباري: ١/ ٩، المصباح المنير: ٦٥١، ٦٥٢.

مقامات وحي الله إلى رسله:

للوحي الذي يعلم الله به رسله وأنبياءَه مقامات، قال الله تعالى مبيّناً هذه المقامات: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الشورى: ٥١].

فالمقامات ثلاثة:

الأولى: الإلقاء في روع النبي الموحى إليه، بحيث لا يمتري النبي في أنّ هذا الذي ألقي في قلبه من الله تعالى، كما جاء في صحيح ابن حبان عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «إنّ روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب»[1] وذهب ابن الجوزي إلى أن المراد بالوحي في قوله: ﴿ إِلَّا وَحْيًا ﴾ الوحي في المنام[2].

رؤيا الأنبياء:

وهذا الذي فسّر به ابن الجوزي المقام الأول داخل في الوحي بلا شكّ، فإنّ رؤيا الأنبياء حقٌّ، ولذلك فإنَّ خليل الرحمن إبراهيم بادر إلى ذبح ولده عندما رأى في المنام أنّه يذبحه، وعدّ هذه الرؤيا أمراً إلهياً، قال

---

(١) حديث صحيح بشواهده أخرجه أبو نعيم في «الحلية» ١٠/ ٢٦، ٢٧، من حديث أبي أمامة، وأورده البغوي في «شرح السنة» ١٤/ ٣٠٣-٣٠٤ (٤١١١-٤١١٣) من عدة طرق عن ابن مسعود مرفوعاً، وانظر «المستدرك» ٢/ ٥ (٢١٣٦)، و«كشف الخفاء» ١/ ٢٨٦ (٧٠٧) ط. مؤسسة الرسالة.

(٢) زاد المسير: (٧/ ٢٩٧).

تعالى في إبراهيم وابنه إسماعيل: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ * فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ * وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٢-١٠٥].

وفي الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم عن أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- قالت: «أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في المنام، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح»(١).

المقام الثاني: تكليم الله لرسله من وراء حجاب:

وذلك كما كلَّم الله تعالى موسى عليه السلام، وذكر الله ذلك في أكثر من موضع في كتابه: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ * إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ * إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾ [طه: ١١-١٤]، وممن كلّمه الله آدم عليه السلام ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ . . ﴾ [البقرة: ٣٣]، وكلّم الله عبده ورسوله محمداً ﷺ عندما عرج به إلى السماء.

المقام الثالث: الوحي إلى الرسول بواسطة الملك:

وهذا هو الذي يفقه من قوله تعالى: ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ ﴾ [الشورى: ٥١] وهذا الرسول هو جبريل، وقد يكون غيره وذلك

(١) صحيح البخاري، وصحيح مسلم: (١٦٠)، واللفظ للبخاري.

في أحوال قليلة[1].

صفة مجيء الملك إلى الرسول:

بالتأمل في النصوص في هذا الموضوع نجد أنّ للملك ثلاثة أحوال[2]:

الأول: أن يراه الرسول ﷺ على صورته التي خلقه الله عليها، ولم يحدث هذا لرسولنا ﷺ إلا مرتين.

الثاني: أن يأتيه الوحي في مثل صلصلة الجرس، فيذهب عنه وقد وعى عنه الرسول ﷺ ما قال.

الثالث: أن يتمثل له الملك رجلاً فيكلّمه ويخاطبه ويعي عنه قوله، وهذه أخف الأحوال على الرسول ﷺ وقد حدث هذا من جبريل في اللقاء الأول عندما فجأه في غار حراء.

بشائر الوحي:

كان الرسول ﷺ قبل معاينته للملك، يرى ضوءاً، ويسمع صوتاً، ولكنه لا يرى الملك الذي يحدث الضوء، ولا يرى مخاطبه والهاتف به، روى مسلم في صحيحه عن ابن عباس قال: «مكث رسول الله ﷺ بمكة خمس عشرة سنة، يسمع الصوت ويرى الضوء سبع سنين ولا يرى شيئاً، وثمان سنين يوحى إليه، وأقام بالمدينة عشراً»[3].

---

(١) راجع في هذا كتابنا: عالم الملائكة ص: ٤٠.

(٢) راجع: المصدر السابق.

(٣) انظر النووي على مسلم: (١٥/ ١٠٤). وهذا الذي ذكره ابن عباس خلاف المحفوظ في مقدار المدة التي كان يوحى إليه فيها بمكة، فالمحفوظ أنه أوحي إليه في سنّ الأربعين وهاجر وعمره ثلاث=

قال النووي: «يسمع الصوت ويرى الضوء» قال القاضي: «أي: صوت الهاتف من الملائكة، ويرى الضوء، أي: نور الملائكة، ونور آيات الله، حتى رأى الملك بعينيه، وشافهه بوحي الله»[1].

أثر الملك في الرسول:

من المزاعم التي يدعيها المكذبون بالرسل أن ما كان يصيب الرسول ﷺ إنّما هو نوع من الصرع، أو اتصال من الشياطين به، وكذبوا في دعواهم، فالأمران مختلفان، فالذي يصيبه الصرع يصفرُّ لونه، ويخفُّ وزنه، ويفقد اتزانه، وكذلك الذي يصيبه الشيطان، وقد يتكلم الشيطان على لسانه، ويخاطب الحاضرين، وعندما يفيق من غيبوبته لا يدري ولا يذكر شيئاً ممّا خاطب به الشيطان الحاضرين على لسانه، أمّا الرسول ﷺ فإن اتصال الملك به نماء في جسده، وإشراق في وجهه، ثمّ إن الجالسين لا يسمعون كلاماً، إنما يسمعون دوياً كدويّ النحل عند وجهه[2]، ويقوم الرسول ﷺ بعد ذلك وقد وعى كلّ ما أخبر به الملك، فيكون هو الذي يخبر أصحابه بما أوحي اليه.

فقد أخبرتنا عائشة -رضي الله عنها وعن أبيها- أنها رأت الرسول ﷺ ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصد عرقاً[3].

= وخمسون سنة، فتكون المدة ثلاث عشرة سنة.

(١) النووي على مسلم: (١٥/ ١٠٤).

(٢) رواه أحمد في «المسند» ١/ ٣٥٠ (٢٢٣)، والترمذي (٣١٧٣)، والنسائي في «السنن الكبرى» ٢/ ١٦٩-١٧٠ (١٤٤٣) من حديث عمر بن الخطاب.

(٣) صحيح البخاري.

وفي رواية عنها: «إن كان لينزل على رسول الله ﷺ في الغداة الباردة، ثم تفيض جبهته عرقاً»[1].

وأخبرتنا أنّ ناقته عندما كان يوحى إليه وهو فوقها يضرب حزامها وتكاد تبرك به من ثقله فوقها[2] ويذكر أحد الصحابة أنّ فخذه كانت تحت فخذ النبي ﷺ فأنزل إليه، فكادت فخذ النبي ﷺ حين الإنزال إليه ترض فخذ الصحابي[3].

وهذا يعلى بن أمّية يحدثنا عن مشاهدة تنزُّل الوحي على الرسول ﷺ وقد كان يتمنى قبل ذلك أن يراه في تلك الحال، قال: «فإذا رسول الله ﷺ محمّر الوجه، وهو يغطُّ، ثمّ سُرِّي عنه»[4].

---

(١) صحيح مسلم: ٢٣٣٣.

(٢) أشار إلى هذا البيهقي في الدلائل عن عائشة (انظر فتح الباري: ١/ ٢١).

(٣) أخرجه أحمد في «المسند» ٣٥/ ٤٨٠ (٢١٦٠١)، والبخاري (٢٨٣٢) من حديث زيد بن ثابت.

(٤) حديث يعلى في البخاري رقم: ١٥٣٦، ومسلم: ١١٨٠.

الفصل الخامس
صفات الرسل

المبحث الأول
البشرية

شاءت حكمة العليم الخبير أن يكون الرسل الذين يرسلهم إلى البشر من البشر أنفسهم ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ [الكهف: ١١٠].

وسنجلي هذا الموضوع في أربعة مطالب.

المطلب الأول: أهلية البشر لتحمّل الرسالة

الذين يستعظمون ويستبعدون اختيار الله بعض البشر لتحمّل الرسالة لا يقدرون الإنسان قدره، فالإنسان مؤهل لتحمّل الأمانة العظمى، أمانة الله التي أشفقت السموات والأرض والجبال من حملها، ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

والذين استعظموا اختيار الله البشر رسلاً نظروا إلى المظهر الخارجي للإنسان، نظروا إليه على أنه جسد يأكل ويشرب وينام، ويمشي في الأرض لتلبية حاجاته ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان: ٧]، ولم ينظروا إلى جوهر الإنسان، وهو تلك الروح

التي هي نفخة من روح الله ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر:٢٩]. وبهذه الروح تميز الإنسان، وصار إنساناً، واستخلف في الأرض، وقد أودعه الله الاستعداد للاتصال به عن طريق تلك النفخة العلوية التي ميزته، فلا عجب أن يختار الله واحداً من هذا الجنس، صاحب استعداد للتلقي، فيوحي إليه ما يهدي به إخوانه إلى الطريق كلّما غام عليهم الطريق، وما يقدم به إليهم العون كلّما كانوا بحاجة إلى العون[1] ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [إبراهيم:١١].

ثمَّ إنّ الرسل يُعدّون إعداداً خاصّاً لتحمُّل النبوة والرسالة، ويصنعون صنعاً فريداً ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾ [طه:٤١]، واعتبر هذا بحال نبينا محمد ﷺ، كيف رعاه الله وحاطه بعنايته على الرغم من يتمه وفقره ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ [الضحى:٦-٨]، وقد زكّاه وطهّره، وأذهب عنه رجس الشيطان، وأخرج منه حظّ الشيطان مذ كان صغيراً، فعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه، فصرعه، فشقّ عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظُّ الشيطان منك، ثمّ غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمّه[2]، يعني ظئره، فقالوا: إن محمداً قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللّون، قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره»[3].

---

(١) في ظلال القرآن: ١٩/ ٢٥٥٢.

(٢) أمه من الرضاع، وهي حليمة السعدية.

(٣) صحيح مسلم: ١٦٢.

وحدث قريب من هذا عندما جاءه جبريل يهيئه للرحلة الكبرى للعروج به إلى السماوات العلىٰ، ففي حديث الإسراء: «فرج سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل ﷺ، ففرج صدري، ثمّ غسله من ماء زمزم، ثمّ جاء بطست من ذهب ممتلىء حكمة وإيماناً، فأفرغها في صدري، ثم أطبقه» متفق عليه[1].

المطلب الثاني: لِمَ لَمْ يكن الرسل ملائكة؟

لقد كثر اعتراض أعداء الرسل على بعثة الرسل من البشر، وكان هذا الأمر من أعظم ما صدّ الناس عن الإيمان، ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٤] وعدّوا اتباع الرسل بسبب كونهم بشراً فيما جاؤوا به من عقائد وشرائع أمراً قبيحاً، وعدُّوه خسراناً مبيناً ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٣٤]، ﴿ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾ [القمر: ٢٤]، وقد اقترح أعداء الرسل أن يكون الرسل الذين يبعثون إليهم من الملائكة يعاينونهم ويشاهدونهم، أو على الأقل يبعث مع الرسول البشري رسولاً من الملائكة، ﴿ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ﴾ [الفرقان: ٢١]، ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ٧].

وعندما نتأمل النصوص القرآنية يمكننا أن نرّد على هذه الشبهة من وجوه:

---

(١) صحيح البخاري: ٣٤٩، وصحيح مسلم: ٢٦٣، واللفظ لمسلم

الأول: أن الله اختارهم بشراً لا ملائكة لأنّه أعظم في الابتلاء والاختبار، ففي الحديث القدسي الذي يرويه مسلم في صحيحه: «إنّما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك»[1].

الثاني: أن في هذا إكراماً لمن سبقت لهم منه الحسنى، فإن اختيار الله لبعض عباده ليكونوا رسلاً تكريم وتفضيل لهم، ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا..﴾ [مريم: ٥٨].

الثالث: أنّ البشر أقدر على القيادة والتوجيه، وهم الذين يصلحون قدوة وأسوة، يقول سيد قطب رحمه الله في هذا: «وإنها لحكمة تبدو في رسالة واحد من البشر إلى البشر، واحد من البشر يحسّ بإحساسهم، ويتذوق مواجدهم، ويعاني تجاربهم، ويدرك آلامهم وآمالهم، ويعرف نوازعهم وأشواقهم، ويعلم ضروراتهم وأثقالهم..، ومن ثمّ يعطف على ضعفهم ونقصهم، ويرجو في قوتهم واستعلائهم، ويسير بهم خطوة خطوة، وهو يفهم ويقدر بواعثهم وتأثراتهم واستجاباتهم، لأنّه في النهاية واحد منهم، يرتاد بهم الطريق إلى الله، بوحي من الله وعون منه على وعثاء الطريق.

وهم من جانبهم يجدون فيه القدرة الممكنة، لأنّه بشر مثلهم، يتسامى بهم رويداً رويداً، ويعيش فيهم بالأخلاق والأعمال والتكاليف التي يبلغهم أنّ الله قد فرضها عليهم، وأرادها منهم، فيكون بشخصه ترجمة حية للعقيدة التي يحملها إليهم، وتكون حياته وحركاته وأعماله صفحة

---

(١) صحيح مسلم: ٢٨٦٥.

معروضة لهم، ينقلونها سطراً سطراً، ويحققونها معنى معنى، وهم يرونها بينهم، فتهفوا نفوسهم إلى تقليدها، لأنها ممثلة في إنسان»[1].

الرابع: صعوبة رؤية الملائكة، فالكفار عندما يقترحون رؤية الملائكة، وأن يكون الرسل إليهم ملائكة لا يدركون طبيعة الملائكة، ولا يعلمون مدى المشقة والعناء الذي سيلحق بهم من جراء ذلك.

فالاتصال بالملائكة ورؤيتهم أمر ليس بسهل، فالرسول ﷺ مع كونه أفضل الخلق، وهو على جانب عظيم من القوة الجسمية والنفسية عندما رأى جبريل على صورته أصابه هول عظيم ورجع إلى منزله يرجف فؤاده، وقد كان ﷺ يعاني من اتصال الوحي به شدّة، ولذلك قال في الردّ عليهم: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٢٢]، ذلك أنّ الكفار لا يرون الملائكة إلا حين الموت أو حين نزول العذاب، فلو قُدِّر أنهم رأوا الملائكة لكان ذلك اليوم يوم هلاكهم.

فكان إرسال الرسل من البشر ضرورياً كي يتمكنوا من مخاطبتهم والفقه عنهم، والفهم منهم، ولو بعث الله رسله إليهم من الملائكة لما أمكنهم ذلك. ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا * قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤-٩٥] فلو كان سكان الأرض ملائكة لأرسل الله إليهم رسولاً من جنسهم، أما وأن الذين يسكنون الأرض بشر فرحمة الله وحكمته تقتضي أن يكون رسولهم من جنسهم ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

---

(١) في ظلال القرآن: ١٩/ ٢٥٥٣.

وإذا كان البشر لا يستطيعون رؤية الملائكة والتلقي عنهم بيسر وسهولة فيقتضي هذا -لو شاء الله أن يرسل مَلكاً رسولاً إلى البشر- أن يجعله رجلاً ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩] فالله يخبر أنه «لو بعث رسولاً ملكياً، لكان على هيئة رجل، ليمكنهم مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه، ولو كان كذلك لالتبس الأمر عليهم»[١].

والتباس الأمر عليهم بسبب كونه في صورة رجل، فلا يستطيعون أن يتحققوا من كونه ملكاً، وإذا كان الأمر كذلك فلا فائدة من إرسال الرسل من الملائكة على هذا النحو، بل إرسالهم من الملائكة على هذا النحو لا يحقق الغرض المطلوب، لكون الرسول الملك لا يستطيع أن يحس بإحساس البشر وعواطفهم وانفعالاتهم وإن تشكل بأشكالهم.

المطلب الثالث: مقتضى بشرية الأنبياء والرسل

مقتضى كون الرسل بشراً أن يتصفوا بالصفات التي لا تنفك البشرية عنها، وهي:

أولاً: يأكلون ويشربون وينامون ويتزوجون ويولد لهم:

الرسل والأنبياء يحتاجون لما يحتاج إليه البشر من الطعام والشراب، وَيُحدِثونَ كما يحدث البشر، لأنّ ذلك من لوازم الطعام والشراب، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ *

(١) تفسير ابن كثير: ٣/٩.

﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧-٨].

ومن ذلك أنهم ولدوا كما ولد البشر، لهم آباء وأمهات، وأعمام وعمات، وأخوال وخالات، يتزوجون ويولد لهم، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨].

ويصيبهم ما يصيب البشر من أعراض، فهم ينامون ويقومون، ويصحون ويمرضون، ويأتي عليهم ما يأتي على البشر وهو الموت، فقد جاء في ذكر إبراهيم خليل الرحمن لربه: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ [الشعراء: ٧٩-٨١]. وقال الله لعبده ورسوله محمد ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، وقال مبيناً أنّ هذه سنته في الرسل كلهم: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤] وقد جاء في وصف الرسول ﷺ: «كان بشراً من البشر: يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه»(١).

وقد صح أنّ الرسول ﷺ قال لأمّ سُلَيم: «يا أم سُلَيم، أما تعلمين أني شرطي على ربي، أني اشترطت على ربي، فقلت: إنما أنا بشر أرضى كما يرضى البشر، وأغضب كما يغضب البشر، فأيّما أحد دعوت عليه من أمتي بدعوة ليس لها بأهل، أن يجعلها طَهوراً وزكاة وقربة يقربه بها منه يوم القيامة»(٢).

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده: ٤٣/ ٢٦٣ (٢٦١٩٤)، والبخاري في الأدب المفرد: (٥٤١) من حديث عائشة رضي الله عنها، وإسناد أحمد صحيح على شرط مسلم (انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة، حديث رقم ٦٧١).

(٢) صحيح مسلم: ٢٦٠٣.

ثانياً: تعرض الأنبياء للبلاء:

ومن مقتضى بشرية الرسل أنّهم يتعرضون للابتلاء كما يتعرض البشر، فقد يسجنون كما سجن يوسف ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ﴾ [يوسف: ٣٣]، وذكر الله أنه ﴿ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ [يوسف: ٤٢]، وقد يصيبهم قومهم بالأذى وقد يدمونهم، كما أصابوا الرسول ﷺ في معركة أحد فأدموه، وكسروا رباعيته، وقد يخرجونهم من ديارهم كما هاجر إبراهيم من العراق إلى الشام، وكما هاجر نبينا محمد ﷺ من مكة إلى المدينة، وقد يقتلونهم ﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٧] وقد يصابون بالأمراض، كما ابتلى الله نبيّه أيوب فصبر، وقد صحّ عن الرسول ﷺ: «أنّ نبيّ الله أيوب لبث به بلاؤه ثمان عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه..»[1].

وكان من ابتلائه أن ذهب أهله وماله، وكان ذا مال وولد كثير، ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ * فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٣-٨٤].

والأنبياء لا يصابون بالبلاء فحسب، بل هم أشدُّ الناس بلاءً، فعن مصعب بن سعد عن أبيه قال: قلت لرسول الله ﷺ: أيُّ الناس أشدُّ بلاءً؟ قال: الأنبياء، ثمّ الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان

---

(١) رواه أبو يعلى في مسنده، وأبو نعيم في الحلية، والضياء في المختارة، وابن حبان في صحيحه (انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة: حديث رقم ١٧).

دينه صلباً اشتدّ بلاؤه، وإن كان في دينه رقّة ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة»[1].

ودخل أبو سعيد الخدري على الرسول ﷺ وهو يوعك، فوضع يده على الرسول ﷺ، فوجد حرّه بين يديه فوق اللحاف، فقال: يا رسول الله، ما أشدها عليك! قال: «إنا كذلك، يُضَعَّف علينا البلاء، ويُضَعَّف لنا الأجر»، قلت: يا رسول الله، أيُّ الناس أشدُّ بلاءً؟ قال: «الأنبياء، ثم الصالحون، إن كان أحدهم ليبتلى بالفقر، حتى ما يجد إلا العباءة التي يُحَوِّيها، وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء»[2]. [3].

ثالثاً: اشتغال الأنبياء بأعمال البشر:

ومن مقتضى بشريتهم أنهم قد يقومون بالأعمال والأشغال التي يمارسها البشر، فمن ذلك اشتغال الرسول ﷺ بالتجارة، قبل البعثة، ومن ذلك رعي الأنبياء للغنم، فقد روى جابر بن عبد الله -رضي الله عنه- قال: «كنّا مع رسول الله ﷺ نجني الكَبَاث[4]، وإنّ رسول الله ﷺ قال: «عليكم بالأسود منه، فإنّه أطيبه»، قالوا: أكنت ترعى الغنم؟ قال: «وهل من نبي إلا وقد رعاها» رواه البخاري في صحيحه[5].

---

(١) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح، وأحمد، وابن ماجة وغيرهم (سلسلة الأحاديث الصحيحة حديث رقم: ١٤٣).

(٢) أخرجه ابن ماجه، وابن سعد والحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وقال الشيخ ناصر: وهو كما قالا (انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة حديث رقم: ١٤٤).

(٣) إذا كان هذا حال الأنبياء فينبغي للصالحين أن يعتبروا بذلك، ولا يظنون بالله غير الحق إذا أصابهم البلاء، وعلى الذين يرمون الصالحين بالتهم الباطلة لأنهم أصيبوا بالبلاء أن يقصروا عن غيهم.

(٤) الكباث: ثمر الأراك، ويقال ذلك للنضيج منه.

(٥) صحيح البخاري: ٣٤٠٦. ومسلم: ٢٠٥٠.

ومن الأنبياء الذين نصّ القرآن على أنهم رعوا الغنم نبيّ الله موسى عليه السلام، فقد عمل في ذلك عدةّ سنوات، فقد قال له العبد الصالح: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾ [القصص: ٢٧-٢٨] قال ابن حجر: والذي قاله الأئمة أن الحكمة في رعاية الأنبياء للغنم ليأخذوا أنفسهم بالتواضع، وتعتاد قلوبهم بالخلوة، ويترقوا من سياستها إلى سياسة الأمم[١].

ومن الأنبياء الذين عملوا بأعمال البشر داود عليه السلام، فقد كان حدّاداً يصنع الدروع، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠]، كان حداداً، وفي نفس الوقت كان ملكاً، وكان يأكل مما تصنعه يداه.

ونبي الله زكريا كان يعمل نجاراً، فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «كان زكريا يعمل نجاراً»[٢].

رابعاً: ليس فيهم شيء من خصائص الألوهية والملائكية:

ومقتضى كونهم بشراً أنهم ليسوا بآلهة، وليس فيهم من صفات الألوهية شيء، ولذلك فإنّ الرسل يتبرّؤون من الحول والطول ويعتصمون بالله الواحد الأحد، ولا يدّعون شيئاً من صفات الله تعالى، قال تعالى مبيناً براءة عيسى مما نسب إليه: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي

(١) فتح الباري: (٦/ ٤٣٩).
(٢) صحيح مسلم: ٢٣٧٩.

وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة: ١١٦-١١٧].

هذه مقالة عيسى في الموقف الجامع في يوم الحشر الأكبر، وهي مقولة صدق تنفي تلك الأكاذيب والترهات التي وصف بها النصارى عبد الله ورسوله عيسى فطائفة قالت: الله هو المسيح ابن مريم حلّ في بطن مريم ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ ﴾ [المائدة: ٧٢]، وأخرى قالت: هو ثالث ثلاثة ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾ [المائدة: ٧٣] وطائفة ثالثة قالوا: هو ابن الله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا * لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴾ [مريم: ٨٨-٨٩].

لقد غلا النصارى في عيسى غلواً عظيماً، وهم بمقالتهم الغالية هذه يسبُّون الله أعظم سبّ وأقبحه، فهم يزعمون: «أنّ ربَّ العالمين نزل عن كرسي عظمته، فالتحم ببطن أنثى، وأقام هناك مدةً من الزمان، بين دم الطمث في ظلمات الأحشاء، تحت ملتقى الأعكان، ثمّ خرج صبياً رضيعاً يشبُّ شيئاً فشيئاً، ويبكي، ويأكل، ويشرب، ويبول، ويتقلب مع الصبيان، ثمّ أودع المكتب بين صبيان اليهود، يتعلم ما ينبغي للإنسان، هذا وقد قطعت منه القلفة حين الختان، ثمّ جعل اليهود يطردونه من مكان إلى مكان، ثمّ قبضوا عليه وأحلوه أصناف الذلّ والهوان، فعقدوا على رأسه من الشوك تاجاً من أقبح التيجان، وأركبوه قصبة ليس لها لجام ولا عنان، ثمّ ساقوه إلى خشبة الصلب مصفوعاً مبصوقاً في وجهه، وهم خلفه وأمامه

وعن شمائله والأيمان، ثمّ أركبوه ذلك المركب الذي تقشعرُّ منه القلوب مع الأبدان، ثمّ شدّت بالحبال يده مع الرجلان، ثمّ خالطهما تلك المسامير، التي تكسر العظام، وتمزق اللحمان، وهو يستغيث، ويقول: ارحموني، فلا يرحمه منهم إنسان، هذا وهو مدبر العالم العلوي والسفلي، الذي يسأله من في السماوات والأرض كل يوم هو في شأن، ثمّ مات ودفن في التراب تحت صم الجنادل والصوّان، ثمّ قام من القبر وصعد إلى عرشه وملكه بعد أن كان ما كان»[1].

فأيّ سبّ أعظم من هذا السبّ الذي نسبوه إلى الباري جل وعلا! وأي ضلال أعظم من هذا الضلال!

المطلب الرابع: الكمال البشري

لا شكّ أن البشر يتفاوتون فيما بينهم تفاوتاً كبيراً في الخَلْق والخُلُق، والمواهب، فمن البشر القبيح والجميل وبين ذلك، ومنهم الأعمى والأعور والمبصر بعينه، والمبصرون يتفاوتون في جمال عيونهم وفي قوة أبصارهم، ومنهم الأصم والسميع وبين ذلك، ومنهم ساقط المروءة، ومنهم ذو المروءة والهمة العالية.

ولا شكّ أن الأنبياء والرسل يمثلون الكمال الإنساني في أرقى صوره، ذلك أنّ الله اختارهم واصطفاهم لنفسه، فلا بدّ أن يختار أطهر البشر قلوباً، وأزكاهم أخلاقاً، وأجودهم قريحة، ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ

(١) هداية الحيارى (انظر الجامع الفريد: ص ٤٧٩).

رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

والكمال البشري يتحقق فيما يأتي:

١ - الكمال في الخلقة الظاهرة:

لقد حذرنا الله تعالى من إيذاء الرسول ﷺ كما آذى بنو إسرائيل موسى، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩].

وقد بين لنا رسولنا ﷺ أن إيذاء بني إسرائيل لموسى كان باتهامهم إياه بعيب خلقي في جسده، ففي صحيح البخاري[١] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ موسى كان رجلاً حيياً ستِّيراً لا يرى من جلده شيء استحياءً منه، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما يستتر هذا التستر إلاّ من عيب بجلده[٢]: إما برص، وإمّا أُدْرة[٣]، وإمّا آفة، وإنّ الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى، فخلا يوماً وحده، فوضع ثيابه على الحجر، ثمّ اغتسل، فلمّا فرغ، أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإنّ الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل فرأوه عرياناً، أحسن ما خلق الله، وأبرأه مما يقولون، وقام الحجر، فأخذ ثوبه فلبسه، وطفق بالحجر ضرباً بعصاه، فوالله إنّ بالحجر لندباً من أثر ضربه، ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً، فذلك قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ

---

(١) رواه البخاري: ٣٤٠٤، ومسلم: ٣٣٩.

(٢) هذا يوحي بأن اغتسال بني إسرائيل عراة كان جائزاً في شريعتهم.

(٣) الأدرة بضم الهمزة وسكون الدال: انتفاخ الخصية.

مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩].

قال ابن حجر العسقلاني معقباً على الحديث: «وفيه أن الأنبياء في خَلقهم وخُلُقهم، على غاية الكمال، وأن من نسب نبيّاً إلى نقص في خلقته فقد آذاه، ويخشى على فاعله الكفر»[١].

الصور الظاهرة مختلفة:

ليس معنى كون الرسل أكمل الناس أجساماً أنهم على صفة واحدة وصورة واحدة، فالكمال الذي يدهش ويعجب متنوع وذلك من بديع صنع الواحد الأحد وكمال قدرته.

وقد وصف لنا الرسول ﷺ بعض الأنبياء والرسل، يقول ﷺ: «ليلة أسري بي رأيت موسى، وإذا هو رجل ضَرْبٌ من الرجال، كأنه من رجال شَنوءة»[٢].

وقال في عيسى: «ورأيت عيسى، فإذا هو رجل ربعة أحمر، كأنما خرج من ديماس»[٣].

وقال فيه أيضاً: «ليس بيني وبينه نبيٌّ، وإنه نازل، فإذا رأيتموه فاعرفوه، رجل مربوع، إلى الحمرة والبياض، ينزل بين ممصرتين، كأن رأسه يقطر، وإن لم يصبه بلل»[٤].

---

(١) فتح الباري: ٦/ ٤٣٨.

(٢) أخرجه أحمد في «المسند»: ١٦/ ٤٨٤ (١٠٨٣٠)، والبخاري: (٣٣٩٤)، ومسلم بنحوه: (١٧٢) (١٧٨)، وشنوءة حي من اليمن. وضَرْبٌ من الرجال: هو الخفيف اللحم الممشوق المستدق.

(٣) البخاري: ٣٣٩٤، والديماس: الحمام.

(٤) رواه أبو داود وأحمد (انظر صحيح الجامع: ٥/ ٩٠) وقوله (ممصرتين) الممصرة من الثياب التي فيها صفرة خفيفة. راجع لسان العرب: (٣/ ٤٩٣) مادة مصر.

وقد وصف لنا الصحابة رسولنا ﷺ فمن ذلك قولهم: «كان ربعة من القوم، ليس بالطويل البائن، ولا بالقصير، أزهر اللون، ليس بالأبيض الأمهق، ولا بالآدم، ليس بجعد قَطِطٍ، ولا سَبْطٍ رَجِلٍ»[1]، وقالوا فيه: «كان أحسن الناس.. ربعة، إلى الطول ما هو، بعيد ما بين المنكبين، أسيل الخدين، شديد سواد الشعر، أكحل العينين، أهدب الأشفار، إذا وطىء بقدمه وطىء بكلها، ليس له أخمص، إذا وضع رداءه عن منكبيه فكأنه سبيكة فضة»[2].

وكان الرسول أشبه الناس بنبي الله إبراهيم كما أخبرنا عليه السلام بذلك[3].

٢- الكمال في الأخلاق:

لقد بلغ الأنبياء في هذا مبلغاً عظيماً، وقد استحقوا أن يثني عليهم ربّ الكائنات فقد أثنى الله على خليله إبراهيم عليه السلام فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥].

وقالت ابنة العبد الصالح تصف موسى: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

وأثنى الله على إسماعيل عليه السلام بصدق الوعد، ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٤].

---

(١) رواه البخاري: ٣٥٤٧، ٣٥٤٨، ومسلم: ٢٣٤٧.

(٢) رواه البيهقي، انظر صحيح الجامع: (٤-١٩٩).

(٣) صحيح البخاري: ٣٣٩٤.

وأثنى الله -جلّ جلاله، وتقدست أسماؤه- على خلق نبينا محمد ﷺ ثناءً عطراً، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

فقد وصف الله -سبحانه- خلق نبينا محمد ﷺ بأنّه عظيم، وأكّد ذلك بثلاثة مؤكدات: أكّد ذلك بالإقسام عليه بنون والقلم وما يسطرون، وتصديره بإنّ، وادخال اللام على الخبر.

ومن خلقه الكريم ﷺ الذي نوّه الله به ما جبله عليه من الرحمة والرأفة ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وقد كان لهذه الأخلاق أثر كبير في هداية الناس وتربيتهم، هذا صفوان ابن أميّة يقول: «والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني وإنه لأبغض خلق الله إليّ، فما زال يعطيني حتى إنّه من أحبّ الناس إليّ»[1].

وفي صحيح مسلم عن أنس أنّ رجلاً سأل النبي ﷺ غنماً بين جبلين فأعطاه إياه، فأتى قومه فقال: أي قوم، أسلموا، فوالله إن محمداً ليعطي عطاءً، ما يخاف الفقر»[2].

ولو لم يتصف الرسل بهذا الكمال الذي حباهم الله به لما انقاد الناس إليهم، ذلك أن الناس لا ينقادون عن رضاً وطواعية لمن كثرت نقائصه، وقلت فضائله.

---

(١) صحيح مسلم: ٢٣١٣.

(٢) صحيح مسلم: ٢٣١٢.

٣- خير الناس نسباً:

الرسل ذوو أنساب كريمة، فجميع الرسل بعد نوح من ذريته، وجميع الرسل بعد إبراهيم من ذرية إبراهيم، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ.. ﴾ [الحديد: ٢٦].

ولذلك فإنّ الله -سبحانه- يصطفي لرسالته من كان خيار قومه في النسب، وفي الحديث الذي يرويه البخاري، يقول الرسول ﷺ: «بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً، حتى كنت من القرن الذي كنت منه»[١].

وفي مسند أحمد وسنن الترمذي عن الرسول، ﷺ قال: « أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، إنّ الله -تعالى- خلق الخلق فجعلني في خيرهم، ثم جعلهم فرقتين فجعلني في خيرهم فرقة، ثمّ جعلهم قبائل فجعلني في خيرهم قبيلة، ثمّ جعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهم بيتاً، فأنا خيركم بيتاً، وخيركم نفساً »[٢].

وفي صحيح مسلم عن واثلة بن الأسقع قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إنّ الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»[٣].

٤- أحرار بعيدون عن الرق:

ومن صفات الكمال أنّ الأنبياء لا يكونون أرقاء. يقول السفاريني في

---

(١) رواه البخاري: ٣٥٥٧.

(٢) رواه أحمد والترمذي: (صحيح الجامع: ٢/ ٢٢). وقد حسنه الترمذي: ٣٦٠٧.

(٣) صحيح مسلم: ٢٢٧٦.

هذا: «الرق وصف نقص لا يليق بمقام النبوة، والنبي يكون داعياً للناس آناء الليل وأطراف النهار، والرقيق لا يتيسر له ذلك، وأيضاً الرقّيّة وصف نقْص يأنف الناس ويستنكفون من اتباع من اتصف بها، وأن يكون إماماً لهم وقدوة، وهي أثر الكفر، والأنبياء منزهون عن ذلك»[1][2].

٥- التفرد في المواهب والقدرات:

الأنبياء أُعطوا العقول الراجحة، والذكاء الفذ، واللسان المبين، والبديهة الحاضرة، وغير ذلك من المواهب والقدرات التي لا بدّ منها لتحمل الرسالة ثم إبلاغها ومتابعة الذين تقبلوها بالتوجيه والتربية.

لقد كان الرسول ﷺ يحفظ ما يُلقى إليه ولا ينسى منه كلمة ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦].

وقد كانوا يعرضون دين الله للمعارضين ويفحمونهم في معرض الحجاج، وفي هذا المجال أسكت إبراهيم خصمه ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وقال الله معقباً على محاججة إبراهيم لقومه: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ﴾ [الأنعام: ٨٣].

وموسى كان يجيب فرعون على البديهة حتى انقطع، فانتقل إلى التهديد بالقوة ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ * قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا

---

(١) لوامع الأنوار البهية: ص ٢/ ٢٦٥.

(٢) قد يعترض على هذا بأن رسول الله يوسف باعه الذين استنقذوه من البئر وبذلك أصبح عبداً، والإجابة على ذلك أن العبودية هنا كانت نوعاً من الابتلاء، وإلاّ فهو حر وقع عليه الظلم، ولم تستمر هذه العبودية طويلاً، وأبدله الله بها ملكاً.

بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ * قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٣-٢٩].

٦- الكمال في تحقيق العبودية:

بيّنا الكمال الذي حبا الله به رسله في صورهم الظاهرة، وأخلاقهم الباطنة، والمواهب والسجايا التي أعطاهم إياها في ذوات أنفسهم، وهناك نوع آخر من الكمال وفق الله رسله وأنبياءه لتحصيله، وهو تحقيق العبودية لله في أنفسهم.

فكلّما كان الإنسان أكثر تحقيقاً للعبودية لله تعالى، كلّما كان أكثر رقيّاً في سلّم الكمال الإنساني، وكلما ابتعد عن تحقيق العبودية لله كلما هبط وانحدر.

والرسل حازوا السبق في هذا الميدان، فقد كانت حياتهم انطلاقة جادة في تحقيق هذه العبودية، وهذا خاتم الرسل وسيد المرسلين يثني عليه ربّه في أشرف المقامات بالعبودية، فيصفه بها في مقام الوحي ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ [النجم: ١٠]، وفي مقام إنزال الكتاب ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ١]، وفي مقام الدعوة ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾ [الجن: ١٩]، وفي مقام الإسراء ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ .. ﴾ [الإسراء: ١] وبهذه العبودية التامة استحق صلوات الله وسلامه عليه التقديم

على الناس في الدنيا والآخرة، ولذلك فإن المسيح عليه السلام يقول للناس إذا طلبوا منه الشفاعة بعد طلبها من الرسل من قبله: «ائتوا محمداً ﷺ، فقد غُفِر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»[1].

وإليك صورة من صور هذه العبودية ترويها لنا أمّنا عائشة -رضي الله عنها- قالت رضي الله عنها وعن أبيها: «قلت: يا رسول الله، كُلْ -جعلني الله فداك- متكئاً، فإنّه أهون عليك، فأحنى رأسه حتى كاد أن تصيب جبهته الأرض، وقال: بل آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد» رواه البغوي في شرح السنة، وابن سعد، والإمام أحمد في الزهد[2].

٧- الذكورة:

ومن الكمال الذي حباهم به أنه اختار جميع الرسل الذين أرسلهم من الرجال، ولم يبعث الله رسولاً من النساء يدلُّ على ذلك صيغة الحصر التي وردت في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ [الأنبياء: ٧].

الحكمة من كون الرسل رجالاً:

كان الرسل من الرجال دون النساء لحكم يقتضيها المقام فمن ذلك:

١- أنّ الرسالة تقتضي الاشتهار بالدعوة، ومخاطبة الرجال والنساء، ومقابلة الناس في السرّ والعلانية، والتنقل في فجاج الأرض، ومواجهة

---

(١) صحيح البخاري: ٦٥٦٥.

(٢) انظر صحيح جامع الصغير: (١/ ١٢٢).

المكذبين ومحاججتهم ومخاصمتهم، وإعداد الجيوش وقيادتها، والاصطلاء بنارها، وكل هذا يناسب الرجال دون النساء.

٢- الرسالة تقتضي قوامة الرسول على من يتابعه، فهو في أتباعه الآمر الناهي، وهو فيهم الحاكم والقاضي، ولو كانت الموكلة بذلك امرأة لَمْ يتم ذلك لها على الوجه الأكمل، ولاستنكف أقوام من الاتباع والطاعة.

٣- الذكورة أكمل كما بينا آنفاً، ولذلك جعل الله القوامة للرجال على النساء ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣٤] وأخبر الرسول -ﷺ- أنّ النساء ناقصات عقل ودين.

٤- المرأة يطرأ عليها ما يعطلها عن كثير من الوظائف والمهمات، كالحيض والحمل والولادة والنفاس، وتصاحب ذلك اضطرابات نفسية وآلام وأوجاع، عدا ما يتطلبه الوليد من عناية، وكل ذلك مانع من القيام بأعباء الرسالة وتكاليفها.

المبحث الثاني
نبوّة النساء

ذهب بعض العلماء[1] إلى أنّ الله أنعم على بعض النساء بالنبوة، فمن هؤلاء أبو الحسن الأشعري والقرطبي وابن حزم[2].

والذين يقولون بنبوة النساء متفقون على نبوة مريم، ومنهم من ينسب النبوة إلى غيرها، ويعدّون من النساء النبيات: حواء وسارة وأمّ موسى وهاجر وآسية.

وهؤلاء عندما اعترض عليهم بالآية التي تحصر الرسالة في الرجال دون النساء، قالوا: نحن لا نخالف في ذلك، فالرسالة للرجال، أمّا النبوة فلا يشملها النصُّ القرآني، وليس في نبوة النساء تلك المحذورات التي عددتموها فيما لو كان من النساء رسول، لأنَّ النبوة قد تكون قاصرة على صاحبها، يعمل بها، ولا يحتاج إلى أن يبلغها إلى الآخرين.

أدلتهم:

وحجّة هؤلاء أن القرآن أخبر بأن الله تعالى أوحى إلى بعض النساء، فمن ذلك أنه أوحى إلى أمّ موسى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ

(١) يزعم اليهود أن مريم أخت موسى وهارون كانت نبية (لوامع الأنوار البهية: ٢/ ٢٦٦).

(٢) انظر فتح الباري: ٦/ ٤٤٧-٤٤٨، ٦/ ٤٧٣، وانظر لوامع الأنوار البهية: ٢/ ٢٦٦.

ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٧]، وأرسل جبريل إلى مريم فخاطبها ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا . .﴾ [مريم:١٧-١٩] وخاطبتها الملائكة قائلة: ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ * يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ . .﴾ [آل عمران:٤٢-٤٣].

فأبو الحسن الأشعري يرى أنّ كلَّ من جاءه الملك عن الله -تعالى- بحكم من أمر أو نهي أو بإعلام فهو نبي[1]، وقد تحقق في أمّ موسى ومريم شيء من هذا، وفي غيرهما أيضاً، فقد تحقق في حواء وسارة وهاجر وآسية بنصّ القرآن.

واستدلوا أيضاً باصطفاء الله لمريم على العالمين ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٤٢] وبقوله ﷺ: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم ابنة عمران، وآسية امرأة فرعون»[2].

قالوا: الذي يبلغ مرتبة الكمال هم الأنبياء.

الردّ عليهم:

وهذا الذي ذكروه لا ينهض لإثبات نبوة النساء، والرد عليهم من وجوه:

الأول: أنّا لا نسلم لهم أن النبيَّ غير مأمور بالتبليغ والتوجيه ومخالطة الناس، والذي اخترناه أن لا فرق بين النبيّ والرسول في هذا، وأنَّ الفرق

---

(١) فتح الباري: ٦/ ٤٤٧.

(٢) صحيح البخاري: ٣٧٦٩. وصحيح مسلم: ٢٤٣١.

واقع في كون النبي مرسل بتشريع رسول سابق.

وإذا كان الأمر كذلك فالمحذورات التي قيلت في إرسال رسول من النساء قائمة في بعث نبي من النساء، وهي محذورات كثيرة تجعل المرأة لا تستطيع القيام بحقّ النبوة.

الثاني: قد يكون وحي الله إلى هؤلاء النسوة أم موسى وآسية.. إنمّا وقع مناماً، فقد علمنا أنّ من الوحي ما يكون مناماً، وهذا يقع لغير الأنبياء.

الثالث: لا نسلم لهم قولهم: إن كل من خاطبته الملائكة فهو نبي، ففي الحديث أن الله أرسل ملكاً لرجل يزور أخاً له في الله في قرية أخرى، فسأله عن سبب زيارته له، فلمّا أخبره أنه يحبّه في الله، أعلمه أنَّ الله قد بعثه إليه ليخبره أنه يحبّه، وقصة الأقرع والأبرص والأعمى معروفة، وقد جاء جبريل يعلم الصحابة أمر دينهم بسؤال الرسول ﷺ والصحابة يشاهدونه ويسمعونه[1].

الرابع: أنّ الرسول -ﷺ- توقف في نبوة ذي القرنين مع إخبار القرآن بأنّ الله أوحى إليه ﴿قُلْنَا يَذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف: ٨٦].

الخامس: لا حجّة لهم في النصوص الدالة على اصطفاء الله لمريم، فالله قد صرح بأنّه اصطفى غير الأنبياء: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فاطر: ٣٢]، واصطفى آل إبراهيم وآل عمران على العالمين، ومن آلهما

(١) ارجع في هذه النصوص، والنصوص المشابهة لها إلى الجزء الثاني من هذه السلسلة: (عالم الملائكة الأبرار).

من ليس بنبيّ جزماً ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣].

السادس: لا يلزم من لفظ الكمال الوارد في الحديث الذي احتجوا به النبوة، لأنّه يطلق لتمام الشيء، وتناهيه في بابه، فالمراد بلوغ النساء الكاملات النهاية في جميع الفضائل التي للنساء، وعلى ذلك فالكمال هنا غير كمال الأنبياء.

السابع: ورد في بعض الأحاديث النصّ على أن خديجة من الكاملات[1] وهذا يبين أن الكمال هنا ليس كمال النبوة.

الثامن: ورد في بعض الأحاديث أن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة إلاّ ما كان من مريم ابنة عمران[2]، وهذا يبطل القول بنبوة من عدا مريم كأم موسى وآسية، لأنّ فاطمة ليست بنبيّة جزماً وقد نصَّ الحديث على أنها أفضل من غيرها، فلو كانت أم موسى وآسية نبيتان لكانتا أفضل من فاطمة.

التاسع: وصف مريم بأنها صديقة في مقام الثناء عليها والإخبار بفضلها، قال تعالى: ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ﴾ [المائدة: ٧٥] فلو كان هناك وصفاً أعلى من ذلك لوصفها به، ولم يأت في نصّ قرآني ولا في حديث نبويّ صحيح إخبار بنبوة واحدة من النساء.

---

(١) الحديث أخرجه ابن مردويه، انظر البداية والنهاية: (٢/ ٦١).

(٢) رواه أحمد وإسناده جيد، (فتح الباري: ٦/ ٤٧٧).

وقد نقل القاضي عياض عن جمهور الفقهاء أنّ مريم ليست بنبيّة، وذكر النووي في الأذكار عن إمام الحرمين أنّه نقل الإجماع على أنّ مريم ليست نبيّة[1]، ونسبه في «شرح المهذب» لجماعة، وجاء عن الحسن البصري: ليس في النساء نبيّة ولا في الجنّ[2].

(١) الإجماع لا يتم بعد معرفة من خالف في ذلك من العلماء إلا أن يكون إجماعاً سابقاً على هذا الخلاف.

(٢) فتح الباري: ٦/ ٤٧١، ٤٧٣.

المبحث الثالث

أمور تفرّد بها الأنبياء

تفرد الأنبياء والرسل على غيرهم من البشر بالأمور التالية:

١- الوحي:

خصّ الله الأنبياء دون سائر البشر بوحيه إليهم، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠].

وهذا الوحي يقتضي عدة أمور يفارقون بها الناس، فمن ذلك تكليم الله بعضهم، واتصالهم ببعض الملائكة، وتعريف الله لهم شيئاً من الغيوب الماضية أو الآتية، وإطلاع الله لهم على شيء من عالم الغيب.

فمن ذلك الإسراء بالرسول ﷺ إلى بيت المقدس، والعروج به إلى السماوات العُلىٰ، ورؤيته للملائكة والأنبياء، وإطلاعه على الجنّة والنار، ومن ذلك سماعه للمعذبين في قبورهم، وفي الحديث عن أنس أن النبي ﷺ قال: «لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم عذاب القبر»[(١)].

وعن أبي أيوب قال خرج رسول الله ﷺ بعدما غربت الشمس فسمع صوتاً، فقال: « يهود تعذب في قبورها »[(٢)].

---

(١) صحيح مسلم: ٢٨٦٨.

(٢) صحيح البخاري: ١٣٧٥، وصحيح مسلم: ٢٨٦٩، واللفظ لمسلم.

٢- العصمة:

وقد خصصنا لهذا الأمر فصلاً مستقلاً.

٣- الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم:

ومما اختصهم الله تعالى به أنّ أعينهم تنام وقلوبهم لا تنام، فعن أنس في حديث الإسراء: «والنبيُّ نائمة عيناه، ولا ينام قلبه، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم» رواه البخاري في صحيحه[١]، وهذا وإن كان من قول أنس إلا أن مثله لا يقال من قبل الرأي كما يقول ابن حجر[٢]، وقد ورد هذا من قول الرسول ﷺ، فقد صحّ عنه أنّه قال: «إنا معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا»، وقال ﷺ عن نفسه: «إنّ عيني تنامان ولا ينام قلبي»[٣].

٤- تخيير الأنبياء عند الموت:

مما تفرد به الأنبياء أنّهم يخيَّرون بين الدنيا والآخرة، فعن عائشة -رضي الله عنها- قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من نبي يمرض إلاّ خيّر بين الدنيا والآخرة»، وكان في شكواه الذي قبض فيه أخذته بحّة شديدة، فسمعته يقول: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩] فعلمت أنه خيِّر[٤].

---

(١) صحيح البخاري: ٣٥٧٠.

(٢) فتح الباري: ٦/ ٥٧٩.

(٣) رواه ابن سعد وابن حبان: (انظر صحيح الجامع الصغير: ٣/ ٥٥).

(٤) رواه البخاري: ٤٥٨٦.

وقد سبق أن أوردنا حديث تخيير ملك الموت لموسى وضرب موسى لملك الموت وقلع عينه[1].

٥- لا يقبر نبي إلا حيث يموت:

ممّا خص الله به الأنبياء بعد موتهم أمور تتعلق بهم في القبر، منها:

الأول: أنّه لا يقبر نبيٌّ إلاّ في الموضع الذي مات فيه، ففي الحديث: «لم يقبر نبيٌّ إلا حيث يموت»[2] ولهذا فإنّ الصحابة -رضوان الله عليهم- دفنوا الرسول ﷺ في حجرة عائشة حيث قبض.

٦- لا تأكل الأرض أجسادهم:

ومن إكرام الله لأنبيائه ورسله أنّ الأرض لا تأكل أجسادهم، فمهما طال الزمان وتقادم العهد تبقى أجسادهم محفوظة من البلى، ففي الحديث «إن الله حرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»[3].

ويذكر أهل التاريخ قصة فيها عجب وغرابة، روى ابن كثير في البداية والنهاية[4] عن يونس بن بكير قال: لما فتحنا تستر [مدينة في فارس] وجدنا في مال بيت الهرمزان سريراً عليه رجل ميت عند رأسه مصحف، فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر، فدعا له كعباً فنسخه بالعربية، فأنا

---

(١) انظر كتابنا: عالم الملائكة من هذه السلسلة.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده بإسناد صحيح: (انظر صحيح الجامع الصغير: ٥/ ٤٦).

(٣) رواه أبو داود: (١٥٣١) وعزاه ابن حجر أيضاً إلى النسائي وصححه ابن خزيمة وغيره (انظر فتح الباري: ٦/ ٤٨٨).

(٤) البداية والنهاية: (٢/ ٤٠).

أوّل رجل من العرب قرأه، قرأته مثل ما أقرأ القرآن هذا.

فقلت لأبي العالية: ما كان فيه؟ قال: سيركم وأموركم ولحون كلامكم، وما هو كائن بعد.

قلت: فما صنعتم بالرجل؟ قال حفرنا له بالنهار ثلاثة عشر قبراً متفرقة، فلما كان بالليل دفناه وسوينا القبور كلّها، لنعميه على الناس فلا ينبشونه[1].

قلت: فما يرجون منه؟ قال: كانت السماء إذا حبست عنهم برزوا بسريره فيمطرون.

قلت: من كنتم تظنون الرجل؟ قال: رجل يقال له دانيال.

قلت: مذ كم وجدتموه؟ قال: قد مات منذ ثلاثمائة سنة.

قلت: ما تغير منه شيء؟ قال: لا إلاّ شعرات من قفاه، إن لحوم الأنبياء لا يبليها الأرض، ولا تأكلها السباع.

قال ابن كثير: وهذا إسناد صحيح إلى أبي العالية.

ويبدو أن هذا من أنبياء بني إسرائيل، وقد ظنَّ الصحابة أنّه دانيال، لأنّ دانيال أخذه ملك الفرس، فأقام عنده مسجوناً، ويبدو أنَّ تقدير الذين وجدوه لم يكن صواباً، فإنّ دانيال كان قبل الإسلام بثمانمائة سنة، فإن كان تقديرهم صواباً فليس بنبي؛ لأنّه لا نبي بين عيسى ورسولنا محمد

(١) وهذا يدل على فقه المسلمين في ذلك الوقت، فإنّ إكرام الميت دفنه، سواء أكان نبياً أم غير نبي، وحفرهم القبور الكثيرة لتعمية أمره على الناس حتى لا ينبشوا قبره، وفي ذلك إيذاء لهذا النبي الكريم، وقد يتخذون قبره عيداً، ويقيمون عليه مسجداً، ويقصدونه بالدعاء والتبرك كما يفعل كثير من الذين ضلوا عن سواء الصراط في كثير من ديار الإسلام.

عليهما الصلاة والسلام، فيكون عبداً صالحاً ليس بنبي، وكونه نبياً أرجح، لأنّ الذين تحفظ أجسادهم هم الأنبياء دون غيرهم، ويرجح هذا أيضاً ذلك الكتاب الذي وجد عند رأسه، لا شكّ أنه كتاب نبيّ، فالأمور الغيبيّة التي تضمنها لا تكون إلا وحياً سماوياً، وترجيحنا لكونه من بني إسرائيل لأمرين:

الأول: ظن الصحابة أنّه دانيال، ويكونون قد علموا ذلك من قرائن لم تذكر.

والثاني: الكتاب الذي وجد عند رأسه، ويبدو أنه كان مكتوباً بالعبرانية، لأنّ الذي ترجمه هو أبيّ بن كعب، وقد كان قبل إسلامه يهودياً.

٧- أحياء في قبورهم:

صحَّ عن النبيّ أنّ «الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون»[١]، وروي أيضاً أنّ الرسول ﷺ قال: «مررت على موسى ليلة أسري به عند الكثيب الأحمر وهو قائم يصلي في قبره»[٢].

وروى مسلم عن أبي هريرة في قصة الإسراء: «وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء، فإذا موسى قائم يصلي..، وإذا عيسى ابن مريم قائم يصلي، وإذا إبراهيم قائم يصلي»[٣].

---

(١) رواه الجماعة عن أنس (انظر صحيح الجامع ٢/ ٤١٤).
(٢) صحيح مسلم: ٢٣٧٥.
(٣) صحيح مسلم: ١٧٢.

الفصل السادس
عصمة الرسل

هل الرسل معصومون عن الخطأ والمعصية، وهل هي عصمة عامّة شاملة؟ هذا ما سنحاول بيانه في هذا الفصل.

المبحث الأول
العصمة في التحمّل وفي التبليغ

اتفقت الأمّة على أنَّ الرسل معصومون في تحمّل الرسالة[1]، فلا ينسون شيئاً مما أوحاه الله إليهم إلاّ شيئاً قد نُسخ، وقد تكفل الله لرسوله ﷺ بأن يقرئه فلا ينسى شيئاً مما أوحاه إليه، إلا شيئاً أراد الله أن ينسيه إياه: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ * إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعلى: ٦-٧]، وتكفل له بأن يجمعه في صدره: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ * فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦-١٨].

وهم معصومون في التبليغ، فالرسل لا يكتمون شيئاً ممّا أوحاه الله إليهم، ذلك أن الكتمان خيانة، والرسل يستحيل أن يكونوا كذلك، قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ

(١) نقل الإجماع على العصمة في هذا أكثر من واحد انظر: مجموع الفتاوى ١٠/ ٢٩١، ولوامع الأنوار البهية: (٢/ ٣٠٤).

رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة:٦٧] ولو حدث شيء من الكتمان أو التغيير لما أوحاه الله، فإن عقاب الله يحلّ بذلك الكاتم المغيّر ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦].

ومن العصمة ألاّ ينسوا شيئاً مما أوحاه الله إليهم، وبذلك لا يضيع شيء من الوحي، وعدم النسيان في التبليغ داخل في قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى:٦] وما يدل على عصمته في التبليغ قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤].

عصمة الرسول ﷺ من القتل:

عصم الله رسوله ﷺ من القتل حتى يبلغ رسالة ربه، قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ [المائدة:٦٧]، قال سفيان الثوري فيما نقله عنه ابن كثير في تفسير هذه الآية: «بلغ أنت رسالتي، وأنا حافظك، وناصرك ومؤيدك على أعدائك، ومظفرك بهم، فلا تخف ولا تحزن، فلن يصل أحد منهم إليك بسوء يؤذيك»[1]. وقد أورد ابن كثير في تفسيره هذه الآية الأحاديث التي تفيد أنّ الصحابة كانوا يحرسون الرسول ﷺ قبل نزول هذه الآية، فلما نزلت ترك رسول الله ﷺ الحرس[2].

وقد جعل اليهود في شاة مصلية أهدتها يهودية لرسول الله ﷺ سمّاً لتقتله، فلما سألهم عما حملهم على ذلك قالوا: «أردنا إن كنت كاذباً

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ١٢٠٥.

(٢) المصدر السابق: ٣/ ١٢٠٦.

نستريح منك، وإن كنت صادقاً لم يضرك» رواه البخاري[1].

ولما سأل المرأة قالت: «أردت قتلك» فقال: ما كان الله ليسلطك على ذلك» رواه البخاري ومسلم وأبو داود[2].

فقد عصم الله رسوله أن يقتله السم، وأكل معه بعض أصحابه فماتوا كما أفادته بعض الأحاديث التي روت الواقعة.

عصمة الرسول ﷺ من الشيطان:

وعصم الله رسوله ﷺ من الشيطان، وقد أعان الله رسوله على قرينه الشيطان فأسلم، فلا يأمره إلا بخير، ففي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن، قالوا: وإياك؟ قال: وإياي، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير»[3] وفي حديث عائشة أنه سمى القرين شيطاناً[4].

---

(١) جامع الأصول: ١١/ ٣٢٦. ورقمه فيه: ١٨٨٦.

(٢) جامع الأصول: ١١/ ٣٢٧، ورقمه فيه: ٣٢٧.

(٣) صحيح مسلم: (٢٨١٤).

(٤) صحيح مسلم: (٢٨١٥).

المبحث الثاني

عدم العصمة من الأعراض البشرية كالخوف والنسيان

الأعراض البشرية كالخوف والغضب والنسيان تقع من الرسل والأنبياء، وهي لا تنافي عصمتهم والأمثلة على ذلك في الكتاب والسنة كثيرة، فمن ذلك:

١- خوف إبراهيم عليه السلام من ضيوفه:

أوجس إبراهيم عليه السلام في نفسه خيفة عندما رأى أيدي ضيوفه لا تمتد إلى الطعام الذي قدمه لهم، ولم يكن يعلم أنّهم ملائكة تشكلوا في صور البشر ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٠].

٢- عدم صبر موسى عليه السلام على تصرفات العبد الصالح:

وموسى وعد الخضر بأن يصبر في صحبته له، فلا يسأله عن أمر يفعله العبد الصالح حتى يحدث له منه ذكراً، ولكنه لم يتمالك نفسه، إذ رأى تصرفات غريبة، فكان في كل مرّة يسأل أو يعترض أو يوجه[1]، وفي كل مرّة يذكّره العبد الصالح ويقول له: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٥]. وعندما كشف له عن سر أفعاله قال له: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ

(١) كانت المرة الأولى من موسى نسياناً، أمّا الثانية والثالثة فكان متعمداً.

تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢].

٣- تصرفات موسى عليه السلام عندما رأى قومه يعبدون العجل:

وغضب موسى غضباً شديداً، وأخذ برأس أخيه يجره إليه، وألقى الألواح وفي نسختها هدى -عندما عاد إلى قومه بعد أن تمّ ميقات ربه، فوجدهم يعبدون العجل، ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠] وفي الحديث: «ليس الخبر كالمعاينة، إنَّ الله تعالى أخبر موسى بما صنع قومه في العجل، فلم يلق الألواح، فلمّا عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت»[(١)].

٤- نسيان آدم وجحوده:

ومن ذلك نسيان آدم عليه السلام وجحوده، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله آدم مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كلٍّ منهم وبيصاً من نور، ثمّ عرضهم على آدم، فقال: أي ربِّ مَن هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك، فرأى رجلاً منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه، فقال: أي ربّ من هذا؟ فقال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك، يقال له داود، فقال: ربِّ كم جعلت عمره؟ قال: ستين سنة، قال: أي ربِّ زده من عمري

---

(١) رواه أحمد في مسنده، والطبراني في الأوسط، بإسناد صحيح: (انظر صحيح الجامع الصغير: ٥/ ٨٧).

أربعين سنة، فلما انقضى عمر آدم، جاءه ملك الموت، فقال: أو لم يبق من عمري أربعون سنة، قال: أو لم تعطها ابنك داود؟ قال: فجحد آدم، فجحدت ذريته، ونسي آدم، فنسيت ذريته، وخطىء آدم فخطئت ذريته»[1].

٥- نبي يحرق قرية النمل:

ومن ذلك ما وقع من نبي من الأنبياء غضب إذ قرصته نملة، فأمر بقرية النمل فأحرقت، فعاتبه الله على ذلك، ففي الحديث الذي يرويه أبو هريرة عن النبي ﷺ: «نزل نبيٌّ من الأنبياء تحت شجرة، فلدغته نملة، فأمر بجهازه فأخرج من تحتها، ثمّ أمر ببيتها فأحرق بالنار، فأوحى الله إليه: فهلاّ نملة واحدة»[2].

٦- نسيان نبينا ﷺ وصلاته الظهر ركعتين:

ومن ذلك نسيان الرسول ﷺ في غير البلاغ، وفي غير أمور التشريع، فمن ذلك ما رواه ابن سيرين عن أبي هريرة قال: «صلى بنا رسول الله ﷺ، إحدى صلاتي العشيّ[3]، فصلّى ركعتين، ثمّ سلّم، فقام إلى خشبة معروضة في المسجد، فاتكأ عليها كأنّه غضبان، ووضع يده اليمنى على

---

(١) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح، ورواه الحاكم في مستدركه، وقال: صحيح على شرط مسلم: (البداية والنهاية ١/ ٨٧).

(٢) صحيح البخاري: ٣٣١٩. وصحيح مسلم: ٢٢٤١.

(٣) قال الأزهري: العشي عند العرب ما بين زوال الشمس وغروبها، فيكون المراد بهما الظهر أو العصر، (نيل الأوطار: ٣/ ١١٥)، وقد حصل الجزم بأنها الظهر في إحدى الروايات.

اليسرى، وشبّك بين أصابعه، ووضع خدّه الأيمن على ظهر كفه اليسرى، وخرجت السرعان من أبواب المسجد، فقالوا: قصرت الصلاة، وفي القوم أبو بكر وعمر، فهابا أن يكلماه.

وفي القوم رجل يقال له ذو اليدين، فقال: يا رسول الله، أنسيت أم قصرت الصلاة؟ فقال: لم أنس، ولم تقصر، فقال: أكما يقول ذو اليدين؟ فقالوا: نعم. فتقدم فصلّى ما ترك، ثمّ سلّم، ثمّ كبّر، وسجد مثل سجوده أو أطول، ثمّ رفع رأسه وكبّر، وسجد مثل سجوده أو أطول، ثمّ رفع رأسه وكبّر، فربما سألوه، ثمّ سلّم، فيقول: أنبئت أنّ عمران بن حصين، قال: ثمّ سلّم» متفق عليه، وليس لمسلم فيه وضع اليد على اليد ولا التشبيك.

وفي رواية، قال: «بينما أنا أصلّي مع النبي ﷺ صلاة الظهر سلّم من ركعتين، فقام رجل من بني سليم، فقال: يا رسول الله أقصرت الصلاة أم نسيت ؟» وساق الحديث، رواه أحمد ومسلم.

وهذا يدل على أنّ القصة كانت بحضرته وبعد إسلامه.

وفي رواية متفق عليها لما قال: «لم أنس ولم تقصر، قال: بلى، قد نسيت» وهذا يدل على أن ذا اليدين تكّلم بعدما علم عدم النسخ كلاماً ليس بجواب سؤال[1].

وقد صرح الرسول ﷺ بطروء النسيان عليه كعادة البشر، ففي حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «ولكنّي إنّما أنا بشر، أنسى كما تنسون،

---

(١) نص الحديث برواياته كما نقلناها من منتقي الأخبار للمجد ابن تيمية انظر شرحه نيل الأوطار: ٣/ ١١٤.

فإذا نسيت فذكروني»[1] قال هذا بعد نسيانه في إحدى الصلوات.

أمّا الحديث الذي يروى بلفظ: «إني لا أنسى، ولكن أُنسَّى لأسنّ» فلا يجوز أن يعارض به الحديث السابق، لأنّ هذا الحديث -كما يقول ابن حجر- لا أصل له، فإنّه من بلاغات مالك التي لم توجد موصولة بعد البحث الشديد[2].

(١) رواه الجماعة إلاّ الترمذي (نيل الأوطار: ٣/ ١٢٥).

(٢) نيل الأوطار: ٣/ ١١٧.

المبحث الثالث

مدى العصمة في إصابة الحق في القضاء

الأنبياء والرسل يجتهدون في حكم ما يعرض عليهم من وقائع، ويحكمون وفق ما يبدو لهم، فهم لا يعلمون الغيب، وقد يخطئون في إصابة الحق، فمن ذلك عدم إصابة نبي الله داود في الحكم، وتوفيق الله لابنه سليمان في تلك المسألة.

فعن أبي هريرة أنه سمع النبي ﷺ يقول: «كانت امرأتان معهما ابناهما، جاء الذئب فذهب بابن إحداهما، فقالت صاحبتها: إنّما ذهب بابنك، وقالت الأخرى: إنّما ذهب بابنك، فتحاكمتا إلى داود، فقضى به للكبرى، فخرجتا على سليمان بن داود، فأخبرتاه، فقال: ائتوني بالسكين أشقّه بينهما، فقالت الصغرى: لا تفعل يرحمك الله، هو ابنها، فقضى به للصغرى»[1].

وقد وضح الرسول ﷺ هذه القضية وجلّاها، فقد روت أمُّ سلمة زوج النبي ﷺ: «أنّ النبي ﷺ سمع خصومة بباب حجرته، فخرج إليهم، فقال: «إنّما أنا بشر، وإنّه يأتيني الخصم، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض، فأحسب أنه صدق، فأقضي له بذلك، فمن قضيت له بحق مسلم، فإنما هي قطعة من النار، فليأخذها أو ليتركها»[2].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ﴾ [ص: ٣٠] حديث رقم: ٢٤٢٨.

(٢) رواه البخاري، كتاب المظالم، باب إثم من خاصم في الباطل ورقمه: ٢٤٥٨، ورواه مسلم: ١٧١٣.

الذين ينفون عن الرسل والأنبياء هذه الأعراض مخالفون للنصوص:

ذهبت الشيعة الإمامية الاثنا عشرية[1] إلى أن العصمة تقتضي ألا يقع من الأنبياء سهو ولا نسيان ولا خطأ، ولا خوف ولا غير ذلك من الأعراض البشرية، وقد سقنا لك النصوص من الكتاب والسنة الدالة على خلاف ذلك، وهي نصوص لا تقبل تحويلاً ولا تأويلاً، فعليك بالكتاب والسنة ففيهما الهداية.

---

(١) انظر عقائد الإمامية لمحمد رضا المظفر: ص ٧٩.

المبحث الرابع

العصمة من الشرك والمعاصي والذنوب

المطلب الأول: العصمة من الكبائر

الأمة الإسلامية مجمعة على عصمة الأنبياء والرسل من الكبائر من الذنوب وقبائح العيوب، كالزنى والسرقة والمخادعة، وصناعة الأصنام وعبادتها، والسحر، ونحو ذلك، وقد برأ كتاب الله وسنة رسوله أنبياء الله ورسله مما افتراه عليهم اليهود والنصارى في المحرف من كتبهم، وإليك بعض ما نسبوه إليهم:

أولاً: ما نسب اليهود إلى الأنبياء والمرسلين من القبائح:

١- زعموا أن نبيّ الله هارون صنع عجلاً، وعبده مع بني إسرائيل، [إصحاح (٣٢) عدد (١) من سفر الخروج].

وقد بيّن ضلالهم هذا القرآن عندما حدثنا أنّ الذي صنع لهم عجلاً جسداً له خوار هو السامري، وأن هارون قد أنكر عليهم إنكاراً شديداً.

٢- أن إبراهيم خليل الرحمن عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام قدّم امرأته سارة إلى فرعون حتى ينال الخير بسببها. [إصحاح (١٢) عدد (١٤) من سفر التكوين].

وقد كذبوا على خليل الرحمن، وقد قص علينا الرسول ﷺ قصة إبراهيم هذه عند دخوله لمصر، وفيها أن ملك مصر كان طاغية، وكان إذا وجد امرأة جميلة ذات زوج قتل زوجها وحازها لنفسه، فلما سئل إبراهيم عنها قال هي أخته، يعني أخته في الإسلام، وأخبر الرسول ﷺ أن الله حفظ سارة عندما ذهبت إلى الطاغية، فلم يمسها بأذى.

٣- ومن ذلك أن لوطاً عليه السلام شرب خمراً حتى سكر، ثمّ قام على ابنتيه فزنى بهما الواحدة بعد الأخرى.. [سفر التكوين، إصحاح (١٩) عدد (٣٠)] ومعاذ الله أن يفعل لوط ذلك، وهو الذي دعا إلى الفضيلة طيلة عمره، وحارب الرذيلة، ولكنّه الحقد اليهودي يمتد إلى الكملة من البشر، فلعنة الله على الظالمين.

٤- وأن يعقوب عليه السلام سرق مواشٍ من حميّه، وخرج بأهله خلسة دون أن يُعلمه.. [سفر التكوين، إصحاح (٣١) عدد (١٧)].

٥- وأن راوبين زنى بزوجة أبيه يعقوب، وأن يعقوب عليه السلام، علم بهذا الفعل القبيح وسكت.. [سفر التكوين، إصحاح (٣٥) عدد (٣٢)].

٦- وأن داود عليه السلام زنى بزوجة رجل من قواد جيشه، ثم دبر حيلة لقتل الرجل، فقتل، وبعدئذ أخذ داود الزوجة وضمها إلى نسائه، فولدت له سليمان. [سفر صموئيل الثاني إصحاح (١١) عدد (١)].

٧- وأن سليمان ارتد في آخر عمره، وعبد الأصنام، وبنى لها المعابد.. [سفر الملوك الأول، إصحاح (١١) عدد (٥)].

هذه بعض المخازي والقبائح والكبائر التي نسبتها هذه الأمة المغضوب عليها إلى أنبياء الله الأطهار، وحاشاهم مما وصفوهم به، ولكنها النفوس

المريضة تنسب إلى خيرة الله من خلقه القبائح، ليسهل عليهم تبرير ذنوبهم ومعايبهم عندما ينكر عليهم منكر، ويعترض عليهم معترض.

ثانياً: ما نسبه النصارى من القبائح إلى الأنبياء:

والنصارى ليسوا بأفضل من اليهود في هذا، فقد نسبوا إلى الأنبياء والرسل القبائح، وذلك بتصديقهم بالتوراة المحرفة المغيرة الموجودة اليوم والتي فيها ما ذكرنا، بالإضافة إلى ما في الإنجيل المحرف ومما فيه:

١- ورد في إنجيل (متى) أن عيسى من نسل سليمان بن داود، وأن جدهم فارض الذي هو من نسل الزنى من يهوذا بن يعقوب.. [إصحاح متى الأول، عدد (١٠).

٢- وفي إنجيل [يوحنا إصحاح (٢) عدد (٤)] أن يسوع أهان أمَّه في وسط جمع من الناس، فأين هذا مما وصفه به القرآن ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ [مريم: ٣٢].

٣- وأن يسوع شهد بأن جميع الأنبياء الذين قاموا في بني إسرائيل هم سراق ولصوص.. [إنجيل يوحنا، إصحاح (١٠) عدد (٨)].

هذا غيض من فيض مما تطفح به تلك الأناجيل المحرفة من وصف الأنبياء والرسل بما هم بريئون منه[1]، إن الأنبياء والرسل أزكى الناس وأطهرهم وأفضلهم، ووالله إن هؤلاء لضالون فيما وصفوا به أنبياء الله الأبرار الأطهار.

---

(١) راجع لمزيد من الأمثلة كتاب: (محمد نبي الإسلام) ص ١٤٦.

ولذا فإن الأمة الإسلامية هي المدافعة عن الأنبياء والرسل، المشيدة بمآثرهم، فهي وارثة الأنبياء، المقيمة لدينهم، بخلاف ما عليه اليهود والنصارى تجاه أنبيائهم.

المطلب الثاني: العصمة من الصغائر

ذهب أكثر علماء الإسلام إلى أن الأنبياء ليسوا معصومين من الصغائر، وقال ابن تيمية: «القول بأن الأنبياء معصومون من الكبائر دون الصغائر هو قول أكثر علماء الإسلام، وجميع الطوائف، حتى إنه قول أكثر أهل الكلام، كما ذكر أبو الحسن الآمدي أنّ هذا قول أكثر الأشعرية، وهو أيضاً قول أكثر أهل التفسير والحديث والفقهاء، بل لم ينقل عن السلف والأئمة والصحابة والتابعين وتابعيهم إلاّ ما يوافق هذا القول..»[1].

الأدلـة:

وقد استدل جماهير العلماء على دعواهم بأدلة:

١- معصية آدم بأكله من الشجرة التي نهاه الله تعالى عن الأكل منها، ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ * فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ * فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ * فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١١٦-١٢١].

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٤/ ٣١٩.

والآية في غاية الوضوح والدلالة على المراد، فقد صرحت بعصيان آدم ربه.

٢- ونوح دعا ربه في ابنه الكافر ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥]، فلامه ربه على مقالته هذه، وأعلمه أنه ليس من أهله، وأن هذا منه عمل غير صالح ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦] فاستغفر ربَّه من ذنبه وتاب وأناب ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧].

والآية صريحة في كون ما وقع منه كان ذنباً يحتاج إلى مغفرة ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ..﴾.

٣- وموسى أراد نصرة الذي من شيعته، فوكز خصمه فقضى عليه ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٥-١٦]، فقد اعترف موسى بظلمه لنفسه، وطلب من الله أن يغفر له، وأخبر الله بأنه غفر له.

٤- وداود عليه السلام تسّرع في الحكم قبل سماع قول الخصم الثاني، فأسرع إلى التوبة فغفر الله له ذنبه ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ * فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ﴾ [ص: ٢٤-٢٥].

٥- ونبينا محمد ﷺ عاتبه ربه في أمور ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التحريم: ١] نزلت بسبب تحريم الرسول ﷺ العسل على نفسه، أو تحريم مارية القبطية.

وعاتبه ربه بسبب عبوسه في وجه الأعمى ابن أم مكتوم، وانشغاله عنه بطواغيت الكفر يدعوهم إلى الله، والإقبال على الأعمى الراغب فيما عند الله هو الذي كان ينبغي أن يكون من الرسول ﷺ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ * أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ . .﴾ [عبس: ١-٤].

وقبل الرسول ﷺ من أسرى بدر الفدية فأنزل الله تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٨].

هذه أمثلة اكتفينا بذكرها عن غيرها، وإلاّ فقد ورد في القرآن مغاضبة يونس لقومه، وخروجه من قومه من غير إذن من ربه، وما صنعه أولاد يعقوب بأخيهم يوسف في إلقائه في غيابة الجبِّ، ثم أوحى الله إليهم وجعلهم أنبياء.

القائلون بعصمة الأنبياء من الصغائر:

يستعظم بعض الباحثين أن ينسب إلى الأنبياء صغائر الذنوب[1] التي أخبرت نصوص الكتاب والسنة بوقوعها منهم، ويذهب هؤلاء إلى تهويل الأمر، ويزعمون أنّ القول بوقوع مثل هذا منهم فيه طعن بالرسل والأنبياء، ثم يتحملون في تأويل النصوص، وهو تأويل يصل إلى درجة تحريف آيات الكتاب كما يقول ابن تيمية[2]، وكان الأحرى بهم تفهم الأمر على حقيقته، وتقديس نصوص الكتاب والسنة، واستمداد العقيدة في هذا الأمر

---

(١) الشيعة الإمامية الاثنا عشرية مجمعون على عدم وقوع صغائر الذنوب من الأنبياء والأئمة، راجع عقائد الإمامية لمحمد رضا ص ٨٠، ٩٥ وعقائد الإمامية الاثني عشرية لإبراهيم الموسوي الزنجاني ص ١٥٧.

(٢) مجموع الفتاوى: (١٠/ ٣١٣).

وفي كل أمر من القرآن وأحاديث الرسول، وبذلك نحكمها في كل أمر، وهذا هو الذي أمرنا به، أمّا هذا التأويل والتحريف بعد تصريح الكتاب بوقوع مثل ذلك منهم فإنّه تحكيم للهوى، ونعوذ بالله من ذلك.

وقد انتشرت هذه التأويلات عند الكتاب المحدثين، وهي تأويلات فاسدة من جنس تأويلات الباطنية والجهمية، كما يقول ابن تيمية[1].

شبهتان[2]:

الذين منعوا من وقوع الصغائر من الأنبياء أوردوا شبهتين:

الأولى: أن الله أمر باتباع الرسل والتأسي بهم ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وهذا شأن كل رسول، والأمر باتباع الرسول يستلزم أن تكون اعتقاداته وأفعاله وأقواله جميعها طاعات لا محالة، لأنه لو جاز أن يقع من الرسول معصية لله تعالى لحصل تناقض في واقع الحال، إذ يقتضي أن يجتمع في هذه المعصية التي وقعت من الرسول الأمر باتباعها وفعلها من حيث كوننا مأمورين بالتأسي بالرسول ﷺ، والنهي عن موافقتها من حيث كونها معصية منهي عنها، وهذا تناقض، فلا يمكن أن يأمر الله عبداً بشيء في حال أنه ينهاه عنه.

وقولهم هذا يكون صحيحاً، لو بقيت معصية الرسول خافية غير ظاهرة، بحيث تختلط علينا الطاعة بالمعصية، أمّا وأنّ الله ينبه رسله وأنبياءه إلى ما وقع منهم من مخالفات ويوفقهم إلى التوبة منها، من غير تأخير فإنّ ما

---

(١) المصدر السابق.

(٢) ممن أشبع الكلام على هاتين الشبهتين والإجابة عليهما شيخ الإسلام ابن تيمية، انظر مجموع الفتاوى: ١٠/ ٢٩٣-٣١٣، ١٥/ ١٥٠.

أوردوه لا يصلح دليلاً، بل يكون التأسي بهم في هذا منصباً على الإسراع في التوبة عند وقوع المعصية، وعدم التسويف في هذا، تأسياً بالرسل والأنبياء الكرام في مبادرتهم بالتوبة من غير تأخير.

الثانية: أنّ هؤلاء توهموا أن الذنوب تنافي الكمال، وأنها تكون نقصاً وإن تاب التائب منها، وهذا غير صحيح، فإنّ التوبة تغفر الحوبة، ولا تنافي الكمال، ولا يتوجه إلى صاحبها اللوم، بل إنّ العبد في كثير من الأحيان يكون بعد توبته من معصيته خيراً منه قبل وقوع المعصية، وذلك لما يكون في قلبه من الندم والخوف والخشية من الله تعالى، ولما يجهد به نفسه من الاستغفار والدعاء، ولما يقوم به من صالح الأعمال، يرجو بذلك أن تمحو الصالحات السيئات، وقد قال بعض السلف: «كان داود عليه السلام بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة»، وقال آخر: «لو لم تكن التوبة أحبّ الأشياء إليه لما ابتلى بالذنب أكرم الخلق عليه».

وقد ثبت في الصحاح «أن الله أشد فرحاً بتوبة عبده من رجل أضلته ناقته بأرض فلاة، وعليها طعامه وشرابه، فنام نومة فقام فوجد راحلته فوق رأسه فقال: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح»[1].

وفي الكتاب الكريم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] وقال تعالى مبيناً مثوبة التائبين: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ..﴾ [الفرقان: ٧٠].

وفي يوم القيامة «يدني الله المؤمن، فيضع عليه كنفه ويستره، فيقول:

---

(١) انظر روايات الحديث في صحيح البخاري: ٦٣٠٨، ٦٣٠٩، وفي صحيح مسلم كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها الأحاديث: ٢٧٤٤-٢٧٤٧.

أتعرف ذنب كذا، أتعرف ذنب كذا، فيقول: نعم، أي رب، حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه هلك، قال: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم»[1].

ومعلوم أنه لم يقع ذنب من نبي إلا وقد سارع إلى التوبة والاستغفار منه، يدلنا على هذا أن القرآن لم يذكر ذنوب الأنبياء إلا مقرونة بالتوبة والاستغفار، فآدم وزوجه عصيا فبادرا إلى التوبة قائلين: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] وما كادت ضربة موسى تسقط القبطي قتيلاً حتى سارع طالباً الغفران والرحمة قائلاً: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾ [القصص: ١٦]. وداود ما كاد يشعر بخطيئته حتى خرّ راكعاً مستغفراً ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤].

فالأنبياء لا يقرون على الذنب، ولا يؤخرون التوبة، فالله عصمهم من ذلك، وهم بعد التوبة أكمل منهم قبلها.

وبذلك انهارت هاتان الشبهتان، ولم يثبتا في مجال الحجاج والنقاش، وحسبنا بالأدلة الواضحة البينة التي تهدي للتي هي أقوم.

السبب في عصمة الأنبياء مما عصموا منه وعدم عصمتهم مما لم يعصموا منه:

الرسل والأنبياء بشر من البشر، عصمهم الله في تحمل الرسالة وتبليغها، فلا ينسون شيئاً، ولا ينقصون شيئاً، وبذلك يصل الوحي الذي أنزله الله إلى الذين أرسلوا إليهم كاملاً وافياً، كما أراده الله جلّ وعلا،

(١) صحيح البخاري: ٢٤٤١، وصحيح مسلم: ٢٧٦٨.

وهذه العصمة لا تلازمهم في كلّ أمورهم فقد تقع منهم المخالفة الصغيرة، بحكم كونهم بشراً، ولكنّ رحمة الله تتداركهم، فينبههم الله إلى خطئهم، ويوفقهم للتوبة والأوبة إليه.

يقول الشيخ مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر: «إنَّ الوحي لا يلازم الأنبياء في كلّ عمل يصدر عنهم، وفي كلّ قول يبدر منهم، فهم عرضة للخطأ، يمتازون عن سائر البشر بأنَّ الله لا يقرّهم على الخطأ بعد صدوره، ويعاتبهم عليه أحياناً»[1].

تكريم الأنبياء وتوقيرهم:

هذه الصغائر التي تقع من الأنبياء لا يجوز أن تتخذ سبيلاً للطعن فيهم، والإزراء عليهم، فهي أمور صغيرة ومعدودة غفرها الله لهم، وتجاوز عنها، وطهرهم منها، وعلى المسلم أن يأخذ العبرة والعظة لنفسه من هذه، فإذا كان الرسل الكرام الذين اختارهم الله واصطفاهم عاتبهم الله ولامهم على أمور كهذه، فإنّه يجب أن نكون على حذر وتخوف من ذنوبنا وآثامنا، وعلينا أن نتأسى بالرسل والأنبياء في المسارعة إلى التوبة والأوبة إلى الله، وكثرة التوجه إليه واستغفاره.

---

(١) حياة محمد لهيكل، انظر مقدمة الكتاب بقلم الشيخ المراغي ص ١١.

المبحث الخامس
عصمة غير الأنبياء

أهل السنة والجماعة لا ينسبون العصمة لغير الأنبياء والمرسلين، حتى أفضل هذه الأمة بعد نبيها محمد ﷺ وهم الصحابة -رضوان الله عليهم- وفيهم أبو بكر وعمر ليسوا بمعصومين، وقد قال الخليفة الراشد الأول أبو بكر الصديق في أولّ خطبة يخطبها بعد توليه الخلافة: «أيها الناس إني وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أخطأت فقوّموني». وعندما اعترضت امرأة على عمر بن الخطاب وجاءت بالدليل قال: أصابت امرأة وأخطأ عمر.

وقد نسب أقوام العصمة لغير الأنبياء من غير دليل ولا برهان، افتراء على الله، وسنعرض لبعض من ادعيت فيهم هذه الدعوى.

عصمة المُعِزّ الفاطمي (العُبيدي):

يزعم أتباع «المعز معد بن إسماعيل، أبو تميم» وهو الذي يسميه بعض الناس: المعزّ لدين الله الفاطمي -أنّه معصوم هو وأولاده عن الذنوب والأخطاء.

وهذا الزعم زعم باطل، أرادوا به إضلال الناس بتنصيب هذا الطاغية في مقام النبوة، لتكون كلمته ديناً يتبع، وإلاّ فإن هذا الذي يسمونه المعزّ، وأولئك الذين كانوا يسمّون بالفاطميين ليسوا من سلاسة فاطمة، وإنما هم من سلالة عبيد الله القداح، كانوا يقولون بمثل هذه العصمة لأئمتهم

ونحوهم، مع كونهم كما قال فيهم أبو حامد الغزالي في كتابه الذي صنعه في الردّ عليهم: «ظاهر مذهبهم الرفض، وباطنه الكفر المحض»[1].

عصمة أئمة الشيعة الاثني عشرية:

يزعم الشيعة أن أئمتهم الاثني عشر معصومون عن الخطأ، والعصمة التي ينسبونها لهم هي العصمة التي ينسبونها للأنبياء، يقول أحد مُقدَّمي الشيعة المعاصرين مبيناً مفهوم عصمة الأئمة عندهم: «الأئمة لا نتصور فيهم السهو أو الغفلة، ونعتقد فيهم الإحاطة بكلّ ما فيه مصلحة للمسلمين»[2] وينقل إبراهيم الموسوي الزنجاني عن الصدوق قوله: «اعتقادنا في الأنبياء والرسل والأئمة والملائكة أنهم معصومون مطهرون من كل دنس، وأنهم لا يذنبون ذنباً لا صغيراً ولا كبيراً، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون»[3].

وهو يكفِّر الذين لا يقولون بعصمة الأئمة، يقول بعد كلامه السابق مباشرة: «ومن نفى عنهم العصمة في شيء من أحوالهم فقد جهَّلهم، ومن جهلهم فهو كافر»[4]، ثمّ قال: «واعتقادنا فيهم أنهم معصومون موصوفون بالكمال والتمام والعلم من أوائل أمورهم وأواخرها لا يوصفون في شيء من أحوالهم بنقص ولا عصيان»[5].

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٤/ ٣٢٠.

(٢) الحكومة الإسلامية للخميني: ص ٩١.

(٣) عقائد الإمامية الاثني عشرية: ص ١٥٧.

(٤) المصدر السابق.

(٥) المصدر السابق.

وقال المجلسي: «أصحابنا الإمامية أجمعوا على عصمة الأنبياء والأئمة من الذنوب الصغيرة والكبيرة عمداً وخطأً ونسياناً، قبل النبوة والإمامة وبعدهما، بل من وقت ولادتهم إلى أن يلقوا الله تعالى، ولم يخالف في ذلك إلا الصدوق محمد ابن بابويه وشيخه ابن الوليد، فإنهما جوزا الإسهاء من الله تعالى لا السهو الذي يكون من الشيطان في غير ما يتعلق بالتبليغ وبيان الأحكام»[1]، وعصمة الأئمة عندهم مسألة اعتقادية رئيسة، ولذا فإنهم يكفرون مخالفيهم فيها، ويترتب عليها أمور كثيرة منها: أنّ الكلام المنسوب إلى الأئمة يعتبرونه دليلاً شرعياً كالقرآن والسنة، ولذا فإن التشريع لم ينته عندهم بوفاة الرسول ﷺ بل هو مستمر إلى حين غيبة إمامهم الثاني عشر، بل يرون أنّه يمكن أن يتلقوا رسائل من الإمام الغائب بواسطة نوابّه.

ومن ذلك أنهم أحقّ بالخلافة من غيرهم، فهم أحقّ من أبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم من الصحابة.

السر في دعوى العصمة[2]:

الأنبياء والرسل معصومون بالوحي، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٣-٤]. فما سر عصمة الأئمة؟ يقول علماء الشيعة الإمامية: إنّ الله جعل في الأئمة أرواحاً يسددهم بها، فقد عنون الكليني في كتابه أصول الكافي لهذا الموضوع بقوله: «باب فيه ذكر الأرواح التي

(١) بحار الأنوار للمولى محمد باقر المجلسي: (٢٥/ ٣٥٠-٣٥١) (انظر الإمامة للسالوس: ص٢١).

(٢) النقول المثبتة هنا بمصادرها أخذناها من كتاب الإمامة عند الجمهور والفرق المختلفة د. علي أحمد السالوس: (ص ٢٠).

في الأئمة» (١/ ٢٧١-٢٧٢) و«باب الروح التي يسدد الله بها الأئمة» (١/ ٢٧٣-٢٧٤)، وفي هذا الباب ستة أخبار منها عن أبي عبد الله قال في الروح الذي في هذه الآية ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ الله -عز وجل- أعظم من جبريل وميكائيل، كان مع رسول الله ﷺ يخبره، ويسدده، وهو مع الأئمة من بعد.

وفي الباب الأسبق ذكر عن الإمام الصادق أن روح القدس خاصة بالأنبياء، فإذا قبض النبي انتقل روح القدس فصار مع الإمام، وروح القدس لا ينام ولا يغفل ولا يلهو ولا يزهو، والإمام يرى به[١]، وفسر في الحاشية الرؤية بقوله: يعني ما غاب عنه في أقطار الأرض، وما في عنان السماء، وبالجملة ما دون العرش إلى ما تحت الثرى.

وفي كتاب بحار الأنوار للمولى محمد باقر المجلسي (٢٥/ ٤٧-٩٩) «باب الأرواح التي فيهم» «أي في الأئمة» وأنهم مؤيدون بروح القدس وقال ابن بابوية القمي في «رسالة للصدوق في الاعتقادات» (ص١٠٨-١٠٩).. «اعتقادنا في الأخبار الصحيحة عن الأئمة أنها موافقة لكتاب الله، متفقة المعاني، غير مختلفة، لأنها مأخوذة من طريق الوحي عن الله سبحانه» وهذا القمي صاحب كتاب «فقيه من لا يحضره الفقيه» أحد كتب الحديث الأربعة المعتمدة عند الجعفرية يقول: «ويرى علماء الشيعة أنّ النبي إذا لم يوص فإنه ناقص النبوة والرسالة، وأنه قد ضيع أمته»[٢].

---

(١) انظر عقائد الإمامية الاثني عشرية لإبراهيم الموسوي الزنجاني: ص ١٦١.

(٢) المصدر السابق: ص ١٧١.

ومما يدلُّ على بطلان مدعاهم في الأئمة أنّ المعصوم يجب اتباعه من غير دليل، ومخالفة غير المعصوم جائزة، بل تكون واجبة إذا علمنا أنّه خالف النصَّ، وقد أمرنا الله بطاعته وطاعة رسوله، وغير رسوله يطاع إن أمر بطاعة رسوله، فإن تنازعنا رددنا الأمر إلى كتاب الله وسنة رسوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ [النساء:٥٩] فلو كان الأئمة معصومين لكان أوجب الرد إلى الله وإلى الرسول والأئمة، فدلّ عدم إيجاب الرد عليهم حال التنازع على عدم عصمتهم.

وقد كان عليّ وابناه وغيرهم يخالف بعضهم بعضاً في العلم والفتيا، كما يخالف سائر أهل العلم بعضهم بعضاً، ولو كانوا معصومين لكان مخالفة المعصوم للمعصوم ممتنعة، ولقد كان الحسن في أمر القتال يخالف أباه، ويكره كثيراً مما يفعله، ويرجع علي في آخر الأمر إلى رأيه، وتبين له في آخر الأمر أنّه لو فعل غير الذي فعله لكان الصواب، وله فتاوى رجع ببعضها عن بعض، والمعصوم لا يكون له قولان متناقضان، إلا أن يكون أحدهما ناسخاً للآخر. وقد وصى الحسن أخاه الحسين بأن لا يطيع أهل العراق، ولا يطلب هذا الأمر، ولو كان معصوماً لما جاز للحسين مخالفته[1].

---

(١) راجع مجموع الفتاوى: ٣٥/ ١٢٠، ١٢٦.

الفصل السابع
دلائل النبوة

تمهيد:

الأنبياء الذين ابتعثهم الله إلى عباده يقولون للناس: نحن مرسلون من عند الله، وعليكم أن تصدقونا فيما نخبركم به، كما يجب عليكم أن تطيعونا بفعل ما نأمركم به، وترك ما ننهاكم عنه، وقد أخبر الله في سورة الشعراء أن نوحاً خاطب قومه قائلاً: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٠٦-١٠٨]. وبهذا القول نفسه خاطب رسل الله: هود، وصالح، ولوط، وشعيب، أقوامهم، بل هي مقالة ودعوة كل رسول لقومه.

فإذا كان الأمر كذلك فلا بدّ أن يقيم الله الدلائل والحجج والبراهين المبينة صدق الرسل في دعواهم أنهم رسل الله كي تقوم الحجة على الناس، ولا يبقى لأحد عذر في عدم تصديقهم وطاعتهم ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الحديد: ٢٥] أي: بالدلائل والآيات البينات التي تدلُّ على صدقهم.

تنوع الدلائل:

أفراد الأدلة الدالة على صدق كل رسول كثيرة متنوعة، وقد عدّ الذين

ألّفوا في دلائل نبوة نبينا محمد ﷺ أدلة صدقه، فنافت على الألف عند بعضهم، ويمكننا أن نقسم هذه الأدلة إلى أقسام، يضمُّ كل قسم منها مجموعة متشابهة، وقد أرجعنا أفراد الأدلة إلى خمسة أمور:

الأول: الآيات والمعجزات التي يجريها الله تصديقاً لرسله.

الثاني: بشارة الأنبياء السابقين بالأنبياء اللاحقين.

الثالث: النظر في أحوال الأنبياء.

الرابع: النظر في دعوة الرسل.

الخامس: نصر الله وتأييده لهم.

وسنتناول كلَّ واحد من هذه الخمسة بشيء من الإيضاح والتفصيل في خمسة مباحث.

المبحث الأول
الآيات والمعجزات

المطلب الأول: تعريف الآية والمعجزة

الآية -في لغة العرب- العلامة الدالة على الشيء، والمراد بها هنا: ما يجريه الله على أيدي رسله وأنبيائه من أمور خارقة للسنن الكونية المعتادة التي لا قدرة للبشر على الإتيان بمثلها، كتحويل العصا إلى أفعى تتحرك وتسعى، فتكون هذه الآية الخارقة للسنة الكونية المعتادة دليلاً غير قابل للنقض والإبطال، يدلُّ على صدقهم فيما جاؤوا به.

وقد تتابع العلماء على تسمية هذه الآيات بالمعجزات، والمعجزة -في اللغة- اسم فاعل مأخوذ من العجز الذي هو زوال القدرة عن الإتيان بالشيء من عمل أو رأي أو تدبير[1].

ويعرّف الفخر الرازي المعجزة في العرف: بأنّها أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي، سالم عن المعارضة[2].

ويعرفها ابن حمدان الحنبلي بأنّها ما خرق العادة من قول أو فعل إذا وافق دعوى الرسالة وقارنها وطابقها على جهة التحدي ابتداءً بحيث لا

---

(١) بصائر ذوي التمييز: ١/ ٦٥.

(٢) لوامع الأنوار البهية: ٢/ ٢٨٩-٢٩٠.

يقدر أحدٌ على مثلها، ولا على ما يقاربها[1].

وعلى ذلك فإنّ الأمور التالية لا تعدّ من باب المعجزات:

١- الخوارق التي تعطى للأنبياء وليس مقصوداً بها التحدي، كنبع الماء من بين أصابع الرسول ﷺ، وتكثيره الطعام القليل، وتسبيح الحصا في كفّه، وإتيان الشجر إليه، وحنين الجذع إليه، وما أشبه ذلك.

٢- الخوارق التي أعطاها الله لغير الأنبياء ويسميها المتأخرون كرامات.

والذين فرقوا هذا التفريق هم العلماء المتأخرون، أمّا المعجزة في اللغة وفي عرف العلماء المتقدمين كالإمام أحمد فإنّها تشمل ذلك كله[2].

وقد أطلقنا عليها اسم (الآية) كما جاء بذلك القرآن الكريم، وهو اسم شامل لكل ما أعطاه الله لأنبيائه للدلالة على صدقهم سواءً أقصد به التحدي أم لم يقصد.

المطلب الثاني: أنواع الآيات

إذا استقرأنا الآيات والمعجزات التي أعطاها الله لرسله وأنبيائه نجدها تندرج تحت ثلاثة أمور: العلم، والقدرة، والغنى[3].

فالإخبار بالمغيبات الماضية والآتية، كإخبار عيسى قومه بما يأكلونه وما يدخرونه في بيوتهم، وإخبار رسولنا ﷺ بأخبار الأمم السابقة، وإخباره

(١) المصدر السابق.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ١١/ ٣١١، ولوامع الأنوار البهية: ٢/ ٢٩٠.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ١١/ ٣١٢-٣١٣.

بالفتن وأشراط الساعة التي ستأتي في المستقبل -كل ذلك من باب العلم.

وتحويل العصا أفعى، وإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى، وشقّ القمر وما أشبه هذا -من باب القدرة.

وعصمة الله لرسوله ﷺ من الناس، وحمايته له ممن أراد به سوءاً، ومواصلته للصيام مع عدم تأثير ذلك على حيويته ونشاطه من باب الغنى.

وهذه الأمور الثلاثة: العلم، والقدرة، والغنى، التي ترجع إليها المعجزات لا ينبغي أن تكون على وجه الكمال إلاّ لله تعالى، ولذلك أمر الله رسوله ﷺ بالبراءة من دعوى هذه الأمور ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ [الأنعام: ٥٠].

فالرسول ﷺ يبرأ من دعوى علم الغيب، وملك خزائن الأرض، ومن كونه مَلَكاً مستغنياً عن الطعام والشراب والمال. والرسل ينالون من هذه الثلاثة المخالفة للعادة المطردة، أو لعادة أغلب الناس بقدر ما يعطيهم الله تعالى، فيعلمون من الله ما علمهم إيّاه، ويقدرون على ما أقدرهم عليه، ويستغنون بما أغناهم به.

أمثلة مِن آياتِ الرُّسُلِ:

أولاً: آية نبي الله صالح:

دعا صالح قومه إلى عبادة الله الواحد الأحد ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ [النمل: ٤٥]، فكذبوه وطلبوا منه آية تدل على صدقه

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ * مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [الشعراء: ١٥٣-١٥٤].

يقول ابن كثير: «ذكر المفسرون أنّ ثمود اجتمعوا يوماً في ناديهم، فجاءهم رسول الله صالح، فدعاهم إلى الله، وذكرهم، وحذّرهم، ووعظهم، وأمرهم، فقالوا له: إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة -وأشاروا إلى صخرة هناك- ناقة، من صفتها كيت وكيت، وذكروا أوصافاً سموها، ونعتوها، وتعنتوا فيها، وأن تكون عشراء طويلة، من صفتها كذا وكذا.

فقال لهم نبيهم صالح عليه السلام: أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم على الوجه الذي طلبتم أتؤمنون بما جئت به، وتصدقوني بما أرسلت به؟ قالوا: نعم، فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك، ثمّ قام إلى مصلاه فصلّى لله -عز وجل- ما قدّر له، ثم دعا ربّه -عزّ وجل- أن يجيبهم إلى ما طلبوا، فأمر الله عز وجل تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عشراء على الوجه الذي طلبوا، أو على الصفة التي نعتوا.

فلما عاينوها كذلك رأوا أمراً عظيماً، ومنظراً هائلاً، وقدرة باهرة، ودليلاً قاطعاً، وبرهاناً ساطعاً، فآمن كثير منهم، واستمرَّ أكثرهم على كفرهم[1]، وقد ذكر الله استجابته لطلبهم الآية ﴿ قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الشعراء: ١٥٥]، ﴿ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ ﴾ [الأعراف: ٧٣]، وقد أخبر الله أنها كانت آية واضحة بينة لا خفاء

(١) البداية والنهاية: ١/ ١٣٤.

فيها، ولذا سماها مبصرة ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ٥٩].

ثانياً: معجزة إبراهيم عليه السلام:

حطّم إبراهيم آلهة قومه التي كانوا يعبدونها، فأشعلوا له النار، ورموه فيها، فأمر الله -جل وعلا- النار ألا تصيبه بأذى وأن تكون عليه برداً وسلاماً ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ * قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ * وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨-٧٠].

ومن الآيات التي أجراها على يد إبراهيم إحياء الموتى، وقد قصّ الله علينا خبر ذلك: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ [البقرة: ٢٦٠].

فأمره بذبح هذه الطيور، ثم تقطيعها، وتفريقها على عدة جبال، ثم دعاها فلبت النداء، واجتمعت الأجزاء المتفرقة، والتحمت كما كانت من قبل، ودبت فيها الحياة، وطارت محلقة في الفضاء، فسبحان الله ما أعظم شأنه، وأجلَّ قدرته.

ثالثاً: آيات نبي الله موسى عليه السلام:

أعطى الله موسى تسع آيات بينات ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١].

١- وأعظم هذه الآيات وأكبرها العصا التي كانت تتحول إلى حيّة عظيمة عندما يلقيها على الأرض ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ * قَالَ هِىَ

عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ * قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ * فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ * قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ١٧-٢١].

وكان من شأن هذه العصا أن ابتلعت عشرات من الحبال والعصي التي جاء بها سحرة فرعون ليغالبوا موسى، ﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ * قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ * فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ * وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَـٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٥-٦٩].

وعندما عاين السحرة ما فعلته حيّة موسى، علموا أنَّ هذا ليس من صنع البشر، إنما هو من صنع الله خالق البشر، فلم يتمالكوا أن خروا أمام الجموع ساجدين لله ربِّ العالمين ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٧٠].

٢- ومن الآيات التي أرسل بها موسى ما ذكره الله في قوله: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٢٢]، كان يدخل يده في جيبه (درع قميصه)، ثم ينزعها، فإذا هي تتلألأ كالقمر بياضاً من غير سوء، أي: من غير برص، ولا بهق.

وذكر الله سبع آيات في سورة الأعراف، فقد ذكر الله أنه أصابهم:

٣- بالسنين، وهي ما أصابهم من الجدب والقحط، بسبب قلة مياه النيل، وانحباس المطر عن أرض مصر.

٤- نقص الثمرات ذلك أن الأرض تمنع خيرها، وما يخرج يصاب بالآفات والجوائح.

٥- الطوفان الذي يتلف المزارع ويهدم المدن والقرى.

٦- الجراد الذي لا يدع خضراء ولا يابسة.

٧- القمّل، وهي حشرة تؤذي الناس في أجسادهم.

٨- الضفادع التي نغصت عليهم عيشتهم لكثرتها.

٩- الدم الذي يصيب طعامهم وشرابهم.

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٠-١٣٣].

آيات أخرى:

هذه الآيات التسع التي أرسل بها موسى إلى فرعون، وإلاّ فالآيات التي أجراها الله على يد موسى أكثر من ذلك، فمن ذلك ضرب موسى البحر بعصاه وانفلاقه، ومن هذا ضربه الحجر فينفلق عن اثنتي عشرة عيناً، وإنزال المن والسلوى على بني إسرائيل في صحراء سيناء، وغير ذلك من الآيات.

رابعاً: معجزات نبي الله عيسى عليه السلام:

من معجزاته التي أخبرنا الله بها أنّه كان يصنع من الطين ما يشبه الطيور ثمَّ ينفخ فيها فتصبح طيوراً بإذن الله وقدرته، ويمسح الأكمه فيبرأ بإذن الله، ويمسح الأبرص فيذهب الله عنه برصه، ويمرُّ على الموتى فيناديهم فيحييهم الله تعالى، وقد حكى القرآن لنا هذا في قوله تعالى مخاطباً عيسى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠].

ومن آياته تلك المائدة التي أنزلها الله من السماء عندما طلب الحواريون من عيسى إنزالها، وكانت على الحال التي طلبها عيسى عيداً لأولهم وآخرهم ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ * قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٢-١١٥].

خامساً: آيات خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليه:

أجرى الله على يد نبينا محمد ﷺ معجزات باهرات، وآيات مبصرات، إذا نظر فيها مريد الحقّ، دلتّه على أنها شهادة صادقة من الله لرسوله ﷺ، وقد عدّها بعض العلماء فنافت على ألف معجزة، وقد ألفت فيها مؤلفات، وتناولها علماء التوحيد والتفسير والحديث والتاريخ بالشرح والبيان.

١- الآية العظمى:

وأعظم الآيات التي أعطيها رسولنا ﷺ، بل أعظم آيات الرسل كلّهم القرآن الكريم، والكتاب المبين، وهو آية تخاطب النفوس والعقول، آية باقية دائمة إلى يوم الدين، لا يطرأ عليها التغيير ولا التبديل ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ * لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢].

وقد تحدى الله بهذا الكتاب فصحاء العرب، وقد كانت الفصاحة والبلاغة وجودة القول هي بضاعة العرب التي نبغت بها، وقد عادى العرب دعوة الإسلام ورسول الإسلام، وكان مقتل هذه الدعوى أن يعارض فصحاؤهم هذا الكتاب، ويأتوا بشيء من مثله، ولكنهم عجزوا عن ذلك ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣-٢٤].

نمط فريد من المعجزات:

شاء الله تعالى أن تكون معجزة محمد ﷺ نمطاً مخالفاً لمعجزات الرسل، وكان الله قادراً على أن ينزل معجزة حسيّة تذهل من يراها: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤]. فلو شاء الله تعالى لأنزل من السماء آية قاهرة لا يملكون معها جدالاً، ولا انصرافاً عن الإيمان، ويصور خضوعهم لهذه الآية في صورة حسية: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤] ملوية محنية، حتى لكأنَّ هذه هيئة لهم

لا تفارقهم، فهم عليها مقيمون. ولكنه -سبحانه- شاء أن يجعل معجزة هذه الرسالة الأخيرة آية غير قاهرة، لقد جعل آيتها القرآن، منهاج حياة كاملة، معجزاً في كلِّ ناحية:

معجزاً في بنائه التعبيري، وتنسيقه الفني، باستقامته على خصائص واحدة، في مستوى واحد، لا يختلف ولا يتفاوت، ولا تتخلف خصائصه، كما هي الحال في أعمال البشر، إذ يبدو الارتفاع والانخفاض والقوة والضعف في عمل الفرد الواحد، المتغير الحالات، بينما تستقيم خصائص هذا القرآن التعبيرية على نسق واحد، ومستوى واحد، ثابت لا يتخلف، يدلّ على مصدره الذي لا تختلف عليه الأحوال.

معجزاً في بنائه الداخلي، وتناسق أجزائه وتكاملها، فلا فلتة فيه ولا مصادفة، كل توجيهاته وتشريعاته تلتقي وتتناسق وتتكامل، وتحيط بالحياة البشرية، وتستوعبها، وتلبيها وتدفعها، دون أن تتعارض جزئية واحدة من ذلك المنهج الشامل الضخم مع جزئية أخرى، ودون أن تصطدم واحدة منها بالفطرة الإنسانية، إذ تقصر عن تلبيتها..، وكلها مشدودة إلى محور واحد، في اتساق لا يمكن أن تفطن إليه خبرة الإنسان المحدودة، ولا بد أن يكون هناك علم مطلق، غير مقيد بقيود الزمان والمكان، هو الذي أحاط به هذه الإحاطة، ونظمه هذا التنظيم.

معجزاً في يسر مداخله إلى القلوب والنفوس، ولمس مفاتيحها، وفتح مغاليقها، واستجاشة مواضع التأثر والاستجابة فيها، وعلاجه لعقدها ومشكلاتها في بساطة ويسر عجيبين، وفي تربيتها وتصريفها وفق منهجه بأيسر اللمسات، دون تعقيد ولا التواء ولا مغالطة.

لقد شاء الله أن يجعل هذا القرآن هو معجزة هذه الرسالة -ولم يشأ أن ينزل آية قاهرة مادية تلوي الأعناق وتخضعها وتضطرها إلى التسليم- ذلك أنّ هذه الرسالة الأخيرة رسالة مفتوحة إلى الأمم كلّها، وللأجيال كلها، وليست رسالة مغلقة على أهل زمان أو أهل مكان، فناسب أن تكون معجزتها مفتوحة كذلك للبعيد والقريب، لكل أمة ولكل جيل، والخوارق القاهرة لا تلوي إلاّ أعناق من يشاهدونها، ثم تبقى بعد ذلك قصة تروى، لا واقعاً يشهد. . ، فأما القرآن فها هو ذا بعد أكثر من ثلاثة عشر قرناً كتاب مفتوح ومنهج مرسوم، يستمدُّ منه أهل هذا الزمان ما يقوِّم حياتهم -لو هدوا إلى اتخاذه إمامهم- ويلبي حاجاتهم كاملة، ويقودهم بعدها إلى عالم أفضل، وأفق أعلى، ومصير أمثل، وسيجد فيه من بعدنا كثيراً مما لم نجده نحن، ذلك أنه يعطي كل طالب بقدر حاجته، ويبقى رصيده لا ينفد، بل يتجدد[1].

٢- الإسراء والمعراج:

من الآيات البينات والمعجزات الخارقات إسراء الله بنبيه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى حيث جمع الله له الأنبياء فصلّى بهم إماماً ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ . . ﴾ [الإسراء:١]، ومن هناك عرج به إلى السماوات العُلىٰ، وهناك رأى من آيات ربّه الكبرى، رأى جبريل على صورته الحقيقية التي خلقه الله عليها، وصعد به إلى سدرة المنتهى، وجاوز السبع الطباق وكلّمه الرحمن وقربه ﴿ أَفَتُمَـٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ * وَلَقَدْ رَءَاهُ

(١) راجع في ظلال القرآن: ١٩-٢٥٨٤ بتصرف يسير.

نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ * عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ * إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ * مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ * لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ [النجم: ١٢-١٨].

وقد استعظمت قريش دعوى رسول الله ﷺ فقد كانت القوافل تمضي الأسابيع في الذهاب إلى بيت المقدس والعودة منها، فكيف يتسنى لرجل أن يمضي ويعود في جزء من ليلة! ذلك أمر عجيب، وهو حقاً عجيب، ولكن العجب يتلاشى إذا علمنا أنَّ الذي أسرى به هو الله تعالى، والله على كلّ شيء قدير.

وقد أرانا الله في هذه الأيام الوسائل التي تنقل الناس فوق ظهر هذه الأرض من مكان إلى مكان بسرعة هائلة، كان يعدها الناس قديماً ضرباً من الخيال.

٣- انشقاق القمر:

ومن معجزاته ﷺ انشقاق القمر، فقد سأل أهلُ مكة الرسولَ ﷺ آية، فانشق القمر شقين، حتى رأوا حراء بينهما، وقد كان القمر عند انشقاقه بدراً.

وقد سجّل الله ذكر هذه الآية في كتابه، فقال: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ * وَإِن يَرَوْا ءَايَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ١-٢].

وينقل ابن كثير إجماع المسلمين على وقوع هذه الآية، كما يذكر أنَّه قد وردت الأحاديث بذكر انشقاق القمر متواترة من طرق متعددة تفيد القطع[١].

---

(١) البداية والنهاية: ٣/١١٨.

وقد شاهد هذه المعجزة الناس في أنحاء الجزيرة العربية، فإنَّ أهل مكة لم يصدقوا، وقالوا: سحرنا محمد، ثمَّ استدركوا قائلين: انظروا ما يأتيكم به السفار، فإنَّ محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلَّهم، وفي اليوم التالي سألوا من وفد إليهم، من خارج مكة، فأخبروا أنَّهم قد رأوه.

وقد شاهد الناس انشقاقه في خارج الجزيرة العربية، يقول ابن كثير: «شوهد انشقاقه في كثير من بقاع الأرض، ويقال: إنّه أرخ ذلك في بعض بلاد الهند، وبني بناء في تلك الليلة، وأرخ بليلة انشقاق القمر»[1].

قد يقال: «إن انشقاق القمر ليس شيئاً مستحيلاً، فالعلم قد شاهد انشقاق مذنب بروكس» شقين سنة ١٨٨٩ م، وكذلك انقسام مذنب «بيلا» إلى جزءين سنة ١٨٤٦ م، كما ذكر الفلكي «سبنسر جونز» في فصل المذنبات والشهب من كتاب «عوالم بلا نهاية».

وفي الإجابة يقال: «الفرق بين انشقاق القمر وانشقاق هذين المذنبين أنهما لم يلتئما بعد الانشقاق، والقمر التأم، وهو الفرق المنتظر بين الظاهرة الفلكية في الفطرة والمعجزة الفلكية على يد رسول، لأنَّ المعجزة مؤقتة تزول بزوال وقتها وتحقق الغرض منها، ولو استمرت لكانت ظاهرة طبيعية صرفة، ولخرجت عن دائرة المعجزات».

٤- تكثيره الطعام صلوات الله وسلامه عليه:

وقد وقع هذا منه ﷺ أكثر من مرة، فمن ذلك ما رواه أنس، قال: قال أبو طلحة لأمِّ سُلَيم، لقد سمعت صوت رسول الله ﷺ ضعيفاً، أعرف فيه

(١) البداية والنهاية: ٣/ ١٢٠.

الجوع، فهل عندك من شيء؟ قالت: نعم، فأخرجت أقراصاً من شعير، ثمَّ أخرجت خماراً لها، فلفت الخبز ببعضه، ثمّ دسته تحت يدي، ولاثتني[1] ببعضه، ثمَّ أرسلتني إلى رسول الله ﷺ، قال: فذهبت به، فوجدت رسول الله -ﷺ- في المسجد ومعه الناس، فقمت عليهم، فقال لي رسول الله ﷺ: «أرسلك أبو طلحة؟» فقلت: نعم، قال: «بطعام؟» قلت: نعم، فقال رسول الله -ﷺ- لمن معه: «قوموا» فانطلق، وانطلقت بين أيديهم حتى جئت أبا طلحة، فأخبرته، فقال أبو طلحة، يا أمَّ سليم، قد جاء رسول الله ﷺ بالناس، وليس عندنا ما نطعمهم، فقالت: الله ورسوله أعلم.

فانطلق أبو طلحة حتى لقي رسول الله ﷺ، فأقبل رسول الله ﷺ وأبو طلحة معه، فقال رسول الله ﷺ: «هلمي يا أم سليم، ما عندك»؟ فأتت بذلك الخبز، فأمر به رسول الله ﷺ، ففت، وعصرت أم سليم عكة، فأدَمَتهُ، ثم قال رسول الله ﷺ فيه ما شاء الله أن يقول، ثمَّ قال: «ائذن لعشرة»، فأذن لهم، فأكلوا، حتى شبعوا، ثم خرجوا، ثمَّ قال: «ائذن لعشرة»، فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا، ثم خرجوا، ثمَّ قال: «ائذن لعشرة» فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا، ثم خرجوا، ثم قال: «ائذن لعشرة» فأكل القوم كلهم، وشبعوا، والقوم سبعون أو ثمانون رجلاً»[2].

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «لما حُفِر الخندقُ رأيت بالنبي ﷺ خَمَصاً شديداً، فانكفَيتُ إلى امرأتي فقلتُ: هل عندك شيء؟ فإني رأيت برسول اللهِ ﷺ خمصاً شديداً. فأخرجتْ إليَّ جِراباً فيه صاعٌ من

(١) لاثتني، أي: لفت علي بعض الخمار عمامة.

(٢) صحيح البخاري: ٣٥٧٨. وصحيح مسلم: ٢٠٤٠.

شعير، ولنا بُهيمةٌ داجن فذبحْتُها، وطحنَتِ الشعيرَ، ففرَغَتْ إلى فراغي، وقطعتها في بُرمَتها، ثم ولَّيتُ إلى رسول الله ﷺ. فقالت: لا تفضحني برسول الله ﷺ وبمن معهُ. فجئتُهُ فساررتهُ فقلت: يا رسول الله ذبحنا بُهيمة لنا وطحنّا صاعاً من شعير كان عندنا، فتعال أنت ونفر معك، فصاحَ النبيُّ ﷺ: يا أهلَ الخندقِ، إن جابراً قد صنع سُوْراً، فحيَّ هلا بكم فقال رسولُ الله ﷺ: لا تُنزِلُنَّ برمتكم، ولا تخبزُنَّ عجينكم حتى أجيء. فجئتُ وجاء رسولُ الله ﷺ يقدُمُ الناسَ، حتى جئتُ امرأتي فقالت: بكَ وبك. فقلت: قد فعلتُ الذي قلتِ. فأخرجَتْ له عجيناً، فبصقَ فيه وبارك، ثم عمدَ إلى بُرمَتِنا فبصق وبارك. ثم قال: ادعُ خابزةً فلتخبز معي. واقدحي من برمتكم ولا تنزلوها، وهم ألف، فأقسم باللهِ لقد أكلوا حتى تركوهُ وانحرفوا، وإن بُرْمَتَنا لتغِطُّ كما هي، وإن عجيننا ليُخبَز كما هو»[1].

٥- تكثيره الماء ونبعه من بين أصابعه الشريفة:

وقد وقع من هذا شيء كثير من الرسول ﷺ، نذكر طرفاً منه، فمن ذلك ما رواه جابر بن عبد الله، قال: عطش الناس يوم الحديبية، ورسول الله ﷺ بين يديه ركوة (ظرف للماء) فتوضأ منها، ثمَّ أقبل الناس نحوه فقال رسول الله ﷺ: «ما لكم»؟ قالوا: ليس عندنا ماء نتوضأ به، ونشرب إلا ما في ركوتك، فوضع النبي ﷺ يده في الركوة، فجعل الماء يفور من بين أصابه كأمثال العيون، قال: فشربنا، وتوضأنا، قيل لجابر: كم كنتم يومئذ؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة»[2].

---

(١) صحيح البخاري: ٤١٠٢. وصحيح مسلم: ٢٠٣٩.

(٢) صحيح البخاري: ٤١٥٢.

ومن ذلك تكثيره ماء بئر الحديبية في يوم الحديبية، فقد روى البراء بن عازب رضي الله عنه، قال: «كنا يوم الحديبية أربع عشرة مائة، والحديبية بئر، فنزحناها، حتى لم نترك فيها قطرة، فجلس النبي ﷺ على شفير البئر، (طرفها)، فدعا بماء فمضمض، ومجّ في البئر، فمكثنا غير بعيد، ثم استقينا حتى رَوِينا، ورَوَت أو صَدَرت ركائبنا»[1].

وعن عبد الله بن مسعود قال: كنّا نعدُّ الآيات بركة، وأنتم تعدونها تخويفاً، كنّا مع رسول الله ﷺ في سفر فقلَّ الماء، فقال: «اطلبوا فضلة من ماء» فجاؤوا بإناء فيه ماء قليل، فأدخل يده في الإناء، ثم قال: «حيَّ على الطَّهور المبارك، والبركة من الله» فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ، ولقد كنّا نسمع تسبيح الطعام وهو يأكل»[2].

٦- كف الأعداء عنه:

ومن ذلك استجابة الله دعاء نبيه ﷺ عندما كان مهاجراً، وأدركه سراقة ابن مالك، فارتطمت بسراقة فرسه إلى بطنها في أرض صلبة، فقال سراقة: إني أراكما قد دعوتما عليَّ، فادعوا لي، فالله لكما أن أردّ عنكما الطلب، فدعا له النبي ﷺ فنجا، فجعل لا يلقى أحداً إلاّ قال: كفيتم، ما هـٰهنا، فلا يلقى أحداً إلاّ ردّه. متفق عليه[3].

وفي معركة حنين انهزم المسلمون وثبت الرسول ﷺ وقلّة من المؤمنين أولئك الذين بايعوا تحت الشجرة، فلّما حمى الوطيس، أخذ صلوات الله

---

(١) صحيح البخاري: ٣٥٧٧.

(٢) صحيح البخاري: ٣٥٧٩.

(٣) مشكاة المصابيح: (٣-١٦٦).

وسلامه عليه حصيات، فرمى بهنَّ وجوه الكفار، ثم قال: «انهزموا وربِّ محمد» يقول العباس راوي الحديث: فوالله ما هو إلاّ أن رماهم بحصياته، فما زلت أرى حدّهم كليلاً، وأمرهم مدبراً[1].

وفي راوية سلمة بن الأكوع، قال: غزونا مع رسول الله ﷺ حنيناً، فولّى صحابة رسول الله ﷺ، فلما غشوا رسول الله ﷺ نزل عن البغلة، ثمَّ قبض قبضة من تراب الأرض، ثمَّ استقبل به وجوههم، فقال: «شاهت الوجوه»، فما خلق الله منهم إنساناً إلاّ ملأ الله عينيه تراباً بتلك القبضة، فولوا مدبرين، فهزمهم الله، وقسم رسول ﷺ غنائمهم بين المسلمين»[2].

ومن ذلك ما رواه أبو هريرة أن أبا جهل حلف باللات والعزى أنه لو رأى الرسول ﷺ يصلي في المسجد حيث مجامع قريش أن يطأ على رقبته، أو ليعفرن وجهه في التراب، فلما رأى الرسول ﷺ ساجداً، أراد أن يفعل ما أقسم عليه، فلما اقترب منه «ما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتقي بيديه، فقيل له: مالك؟ فقال: إنَّ بيني وبينه لخندقاً من نار وهولاً وأجنحة».

فقال رسول الله ﷺ: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً»[3].

---

(١) صحيح مسلم: ١٧٧٥.

(٢) صحيح مسلم: ١٧٧٧ بشيء من الاختصار.

(٣) صحيح مسلم: ٢٧٩٧.

٧- إجابة دعوته:

أ- اهتداء أم أبي هريرة بدعوة الرسول ﷺ:

عن أبي هريرة قال: كنت أدعو أميَّ إلى الإسلام وهي مشركة، فدعوتها يوماً، فأسمعتني في رسول الله ﷺ ما أكره، فأتيت رسول الله ﷺ وأنا أبكي، قلت: يا رسول الله إني كنت أدعو أمي إلى الإسلام، فتأبى عليَّ، فدعوتها اليوم، فأسمعتني فيك ما أكره، فادع الله أن يهدي أم أبي هريرة، فقال: «اللهمَّ اهد أم أبي هريرة» فخرجت مستبشراً بدعوة نبي الله ﷺ فلما جئت، فصرت إلى الباب فإذا هو مجاف [مردود] فسمعَتْ أمي خشف قدمي، فقالت: مكانك يا أبا هريرة، وسمعتُ خضخضة [تحريك] الماء، قال: فاغتسلَتْ، ولبسَتْ درعها، وعجلت عن خمارها، ففتحت الباب، ثم قالت: يا أبا هريرة: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فرجعت إلى رسول الله فأتيته، وأنا أبكي من الفرح، قال: قلت: يا رسول الله، أبشر، قد استجاب الله دعوتك، وهدى أم أبي هريرة، فحمد الله، وأثنى عليه، وقال خيراً»[1].

ب- أصبح بدعوته فارساً:

عن جرير بن عبد الله، قال: «قال لي رسول الله ﷺ: ألا تُريحني من ذي الخلَصةِ؟ فقلت: بلى. فانطلقتُ في خمسين ومائة فارسٍ من أحمسَ، وكانوا أصحابَ خيل وكنتُ لا أثبُتُ على الخيل، فذكرت ذلك للنبي ﷺ

---

(١) صحيح مسلم: ٤٤٩١.

فضرب يدَهُ على صدري حتى رأيت أثر يده في صدري وقال: «اللهم ثبته، واجعلهُ هادياً مهدياً. قال: فما وقعتُ عن فرس بعدُ. قال: وكان ذو الخلَصة بيتاً باليمن لخَثْعَم وبجيلة فيه نُصُبٌ تُعبَد، يقال له: الكعبة. قال: فأتاها فحرَّقها بالنار وكسرها»[1].

ج - إغاثة الله الناس بدعائه:

وعن أنس بن مالك قال: أصابت الناسَ سنةٌ على عهد النبي ﷺ، فبينا النبيُّ ﷺ يخطبُ في يوم الجمعة، قام أعرابيٌّ فقالَ: يا رسول الله هَلَكَ المالُ، وجاعَ العيالُ، فادعُ الله لنا. فرفعَ يديه، وما نرى في السماء قَزَعَةً، فوالذي نفسي بيده ما وضعها حتى ثارَ السحابُ أمثالَ الجبالِ، ثم لم ينزلْ عن منبره حتى رأيتُ المطرَ يتحادرُ على لحيته، فمُطِرنا يومنا ذلك، ومن الغدِ، والذي يليه حتى الجمعةِ الأخرى، وقام ذلك الأعرابي - أو قال غيره- فقال: يا رسول الله تهدَّمَ البناء وغرقَ المالُ، فادعُ الله لنا. فرفعَ يديه فقال: «اللهم حوالينا ولا علينا» فما يُشيرُ بيده إلى ناحيةٍ من السحاب إلا انفرجت، وصارت المدينةُ مثلَ الجوبة، وسال الوادي قناةُ شهراً، ولم يجيء أحدٌ من ناحيةٍ إلا حدّث بالجود[2].

وفي رواية قال: «اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على الآكام، والجبال، والآجام، والظراب، والأودية ومنابت الشجر» قال: فأقلعَتْ وخرجنا نمشي في الشمس»[3].

---

(١) صحيح البخاري: ٤٣٥٦ و ٤٣٥٧. وصحيح مسلم: ٢٤٧٦ وذو الخلصة كما في الحديث بيت للأصنام، كان في اليمن، وأحمس كما يقول ابن حجر: على وزن أحمر، وهم رهط جرير ينسبون إلى أحمس بن الغوث بن أنمار، فتح الباري: (٨/ ٩١) طبعة الرسالة. الأردن.

(٢) صحيح البخاري: ٩٣٣، ومسلم: ٨٩٧، واللفظ للبخاري.

(٣) صحيح البخاري: ١٠١٣.

أصابت الدعوة يد مستكبر:

وعن سلمة بن الأكوع أنَّ رجلاً أكل عندَ رسول الله ﷺ بشماله فقال: «كُل بيمينك» قال: لا أستطيع. قال: «لا استطعت» ما مَنَعَه إلا الكبرُ. قال: فما رفعها إلى فيه[1].

د- بركة دعوة الرسول ﷺ تصيب بعير جابر:

وعن جابر قال: غزوتُ مع رسول الله ﷺ فتلاحق بي النبي ﷺ وأنا على ناضحٍ لنا قد أعيا، فلا يكادُ يسيرُ فقال لي: «ما لبعيرك؟» قال: قلت: عيي، قال: فتخلف رسولُ الله ﷺ فزجره ودعا له، فما زال بين يدي الإبلِ قدّامها يسيرُ. فقال لي: «كيف ترى بعيرك؟» قلت: بخير، قد أصابته بركتُك. قال: «أفتبيعُنيه؟» قال: فاستحييت، ولم يكن لنا ناضحٌ غيره، قال: فقلت: نعم، قال: «فبعنيه» فبعته إياه على أن لي فقار ظهره إلى المدينة، . . قال: فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، غدوت عليه بالبعير، فأعطاني ثمنه وردَّه عليَّ»[2].

٨- إبراء المرضى:

أ- إبراؤه من كسرت رجله:

عن البراء بن عازب قال: بعثَ النبي ﷺ رهطاً إلى أبي رافعٍ[3]، فدخل

---

(١) رواه مسلم: ٢٠٢١.

(٢) صحيح البخاري: ٢٩٦٧.

(٣) اليهودي وكان أعدى أعداء رسول الله ﷺ وقد نبذ عهده وتعرض له بالهجاء.

عليه عبد الله بن عتيك ليلاً وهو نائم فقتله[1]، فقال عبد الله بن عتيكٍ: فوضعتُ السيف في بطنه حتى أخذ في ظهره فعرفت أني قتلته، فجعلت أفتحُ الأبواب باباً فباباً، حتى انتهيتُ إلى درجة له فوضعت رجلي، وأنا أرى أني انتهيت إلى الأرض، فوقعت في ليلة مقمرة، فانكسرت ساقي، فعصبتها بعمامةٍ فانطلقت إلى أصحابي، فانتهيت إلى النبي ﷺ فحدثته فقال: ابسط رجلك فبسطت رجلي، فمسحها فكأنها لم أشتكِها قطُّ[2].

ب- إبراؤه عين علي بن أبي طالب:

وعن سهل بن سعدٍ أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لأعطين هذه الراية غداً رجلاً يفتحُ الله على يديه، يحبُّ الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله» فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها، فلما أصبح الناسُ غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يُعطاها فقال: «أين عليُّ بنُ أبي طالب؟» فقالوا: هو يا رسول الله يشتكي عينيه، قال: «فأرسلوا إليه»، فأُتي به، فبصق رسول الله في عينيه، ودعا له، فبرأ حتى كأن لم يكن به وجعٌ، فأعطاه الراية، فقال عليٌّ: يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ قال: «انفُذْ على رسلك[3] حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعُهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجبُ عليهم من حقِّ الله فيه، فوالله لأن يهدي اللهُ بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من أن يكون لكَ حمرُ النعم»[4].

---

(١) رواه البخاري: ٤٠٣٨.

(٢) صحيح البخاري مختصراً: ٤٠٣٩.

(٣) أي: امضِ على رفقك ولينك.

(٤) صحيح البخاري: ٤٢١٠. وصحيح مسلم: ٢٤٠٦.

ج - ساق سلمة بن الأكوع:

وعن يزيد بن أبي عبيد قال: رأيت أثر ضربةٍ في ساق سلمة فقلت: يا أبا مسلم ما هذه الضربة؟ قال: هذه ضربةٌ أصابتني يوم خيبر، فقال الناسُ: أصيب سلمة، فأتيت النبي ﷺ فنفث فيه ثلاث نفثات، فما اشتكيتها حتى الساعة[1].

د - إخراجه الجن من المصروع:

وعن يعلى بن مرة الثقفي قال: سرنا مع رسول الله ﷺ فمررنا بماءٍ، فأتتهُ امرأةٌ بابن لها به جنةٌ، فأخذَ النبي ﷺ بمنخرِهِ ثم قال: «اخرج فإني محمد رسول الله» ثم سرنا، فلما رجعنا مررنا بذلك الماء، فسألها عن الصبي، فقالت: والذي بَعَثَك بالحقِّ ما رأينا منه ريباً بعدك[2].

٩ - إخباره بالأمور الغيبية:

فمن ذلك إخباره عن الله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله، وإخباره عن الملائكة وصفاتهم، وإخباره عن عالم الجن، وعن الجنة والنار، ومن ذلك إخباره عن الحوادث التي وقعت، كما أخبر عن آدم ونوح وهود وصالح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء والرسل، وما جرى بينهم وبين أقوامهم، وهو حديث فيه تفصيل وبيان، ومثل هذا لا يتأتى من

---

(١) رواه البخاري: ٤٢٠٦.

(٢) رواه في شرح السنة، ورواه الإمام أحمد في مسنده: (٤/ ١٧٢) بسند صحيح كما في المشكاة (٣/ ١٨٨)، بتحقيق شيخنا محمد ناصر الدين الألباني.

رجل أمي لم يكن كاتباً ولا قارئاً، ولم يخالط الذين درسوا تاريخ الأمم وعرفوا أخبارها، ثم هو يأتي بأخبار لم يبلغها علم الأمم، وأخبار يكتمها علماء أهل الكتاب، ويصحح لهم كثيراً مما عندهم، وكل ذلك دليل على أنه إنما جاء بهذه العلوم من العليم الخبير، ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾ [هود: ٤٩].

وقد أشار القرآن إلى هذا الدليل في عدة مواضع، فمن ذلك قوله في سياق قصة مريم: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

وفي سياق قصة موسى، قال: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٦].

وقد كان يخبر الأخبار المغيبة التي وقعت في حينها، فقد أخبر باستشهاد قادة المسلمين الثلاثة في معركة مؤتة، وباستلام خالد بن الوليد الراية من بعدهم في اليوم الذي وقع فيه الحدث، رواه البخاري[1].

وعندما توفي النجاشي أخبر بوفاته في اليوم نفسه الذي توفي فيه، وكذلك عندما توفي كسرى.

جزيرة العرب كانت جنات وأنهاراً وحضارة عاد إرم ذات العماد:

أخبرنا الرسول ﷺ في الحديث الذي يرويه مسلم في صحيحه «أن أرض العرب ستعود جنات وأنهاراً»[2] وهذا يفيد أن جزيرة العرب كانت

---

(١) صحيح البخاري: ٤٢٦٢.

(٢) صحيح مسلم: (١٥٧) (٦٠) بعد الحديث رقم (١٠١٢) (٥٩).

في الماضي جناناً وارفة الظلال، تجري من تحتها الأنهار، وهذا يدل على وجود حضارات قامت في تلك الجنان، وعلى شطآن تلك الأنهار، وقد أخبرنا القرآن عن حضارة قوم عاد، وهي مدينة «إرم» التي لم يخلق مثلها في البلاد.

وقوم عاد أصحاب مدينة «إرم» ليس لهم ذكر في كتب أهل الكتاب لا في التوراة ولا في الإنجيل ولا في غيرهما، وقد شكك كثير من علماء التاريخ بوجود عاد كما شككوا بوجود حاضرتهم «إرم».

واستمر الحال على ذلك إلى أن ظهر صدق ما أخبر به الرسول ﷺ من أن أرض العرب كانت جنات وأنهاراً، وصدق ما أخبر به القرآن عن عاد وحاضرتها «إرم» ففي رحلة من رحلات الفضاء. زود مكوك الفضاء بجهاز رادار له قدرة اختراق التربة إلى عشرة أمتار، وحين مر المكوك بصحراء الربع الخالي، صور مجرى لنهرين جافين يندفع أحدهما من الغرب إلى الشرق والآخر من الجنوب إلى الشمال، فانبهر الأمريكيون لهذا الاكتشاف الذي لا يوجد عند علمائهم علم به.

وفي رحلة ثانية زودوا المكوك بجهاز رادار له قدرة اختراق أكبر، فصور مجرى النهرين وأنهما يصبان في بحيرة قطرها يزيد على أربعين كيلو متراً في جنوب شرق الربع الخالي، وصور المكوك بين مصبى النهرين وعلى ضفاف البحيرة عمراناً لا تعرف البشرية نظيراً له في ضخامته، فجمعوا علماء التاريخ وعلماء الآثار وعلماء الأديان، وقالوا ماذا يمكن أن يكون هذا العمران؟ فأجمعوا على أنه قصور إرم التي وصفها القرآن الكريم بقول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ * ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ [الفجر: ٧-٨].

وقالوا في تقريرهم: إن البشرية لم تعرف في تاريخها الطويل عمراناً في ضخامة هذا العمران. واكتشفوا حينما بدأوا في إزالة الرمال عن هذه المدينة قلعة ثمانية الأضلاع على أسوار المدينة، مقامة على أعمدة ضخمة عديدة يصفها ربنا - تبارك وتعالى - بقوله عز من قائل: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ * ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ [الفجر: ٧-٨].

وذكر التقرير أن هذه الحضارة التي لم يكن يدانيها في زمانها حضارة أخرى قد طمرتها عاصفة رملية غير عادية، وقد أطال القرآن القول في عاد وحاضرتهم «إرم» وتكذيبهم لرسولهم هود، وكيف حل بهم العذاب، إذ أرسل الله عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات، استمرت تضرب ديارهم سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً، وقد أبقى الله مساكنهم قائمة ليأتي الباحثون عن الخافي في باطن الأرض، فتظهر آلاتهم ما حدّث به القرآن قبل أكثر من ألف وأربعمائة عام، على النحو الذي أخبر به، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤١-٤٢].

ويقول عز من قائل: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [الصافات: ١٥-١٦].

ويقول: ﴿۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ

أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ * فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ * وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأحقاف: ٢١-٢٦].

ويقول: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ * إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ * تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٨-٢٢].

ويقول: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ۖ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦-٨].

ويقول: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ * ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ [الفجر: ٦-٨][1].

ومن ذلك إخباره بالغيوب الآتية، وبعض هذه الأخبار كان يقع ويتحقق في الحال أو بعد فترة وجيزة.

فمن ذلك أنه أخبر بالمواضع التي سيصرع فيها صناديد الكفر قبل وقوع معركة بدر، عن أنس رضي الله عنه، قال: «فندب رسول الله ﷺ الناس،

(١) راجع: الإعجاز العلمي في القرآن للدكتور زغلول النجار: ١/٦٦-٦٨. نشر مكتبة الشروق الدولية. القاهرة. الثالثة. ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

فانطلقوا حتى نزلوا بدراً، فقال رسول الله ﷺ: «هذا مصرع فلان» ويضع يده هاهنا هاهنا، قال: فما ماط [أي ما بعد، وما تجاوز] أحدهم عن موضع يد رسول الله ﷺ، رواه مسلم[1].

ومن هذه الغيوب التي أخبر بها ما وقع بعد وفاته، فمن ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله»[2]. وقد وقع الأمر كما أخبر صلوات الله وسلامه عليه.

وقد أكثر الرسول ﷺ من الإخبار مما سيقع في مقبل الزمان، قال حذيفة بن اليمان: قام فينا رسول الله ﷺ مقاماً، فما ترك شيئاً يكون من قيامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدّثه، حفظه من حفظه ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابي هؤلاء، وإنه ليكون منه الشيء قد نسيته، فأراه فأذكره، كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه، ثم إذا رآه عرفه» رواه البخاري ومسلم وأبو داود[3].

ومن ذلك ما أخبر به من الفتن وأشراط الساعة وغير ذلك، وقد تكفلت بذكرها كتب الحديث.

---

(١) مشكاة المصابيح: (٣/ ١٦٧) وانظر صحيح مسلم: ١٧٧٩.

(٢) صحيح البخاري: ٣١٢٠. وصحيح مسلم: ٢٩١٨ واللفظ للبخاري.

(٣) جامع الأصول: (١٢/ ٦٣).

١٠- حنين الجذع:

في صحيح البخاري وغيره «كان رسول الله ﷺ يخطب إلى جذع فلما اتخذ المنبر تحوّل إليه، فحن الجذع، فأتاه فمسح عليه» وفي رواية عند البخاري أيضاً: «فلما وضع المنبر: سمعنا للجذع مثل صوت العشار، حتى نزل رسول الله ﷺ فوضع يده عليه»[١].

١١- انقياد الشجر وتسليمه وكلامه:

عن جابر قال: سرنا مع رسول الله ﷺ حتى نزلنا وادياً أفيح [واسعاً]، فذهب رسولُ الله ﷺ يقضي حاجته فلم ير شيئاً يستَتِرُ به، فإذا شجرتان بشاطىء الوادي، فانطلق رسولُ الله ﷺ إلى إحداهما فأخذ بغصن من أغصانها، فقال: «انقادي عليَّ بإذن الله» فانقادت معه كالبعير المخشوش[٢]، الذي يصانع قائدَه، حتى أتى الشجرة الأخرى، فأخذ بغصنٍ من أغصانها، فقال: «انقادي عليَّ بإذن الله» فانقادت معه كذلك، حتى إذا كان بالمنصف [الوسط] مما بينهما قال: «التئما علي بإذن الله» فالتأمتا، فجلست أحدث نفسي فحانت مني لفتةٌ، فإذا برسول الله ﷺ مقبلاً، وإذا بالشجرتين قد افترقتا فقامت كل واحدةٍ منهما على ساقٍ»[٣].

وعن يعلى بن مُرة الثقفي قال: سِرنا مع رسول الله ﷺ حتى نزلنا منزلاً، فنام النبي ﷺ فجاءت شجرةٌ تشقُّ الأرض حتى غشيته، ثم رجعت

---

(١) جامع الأصول: (١٢/ ٦٨).

(٢) هو الذي في أنفه الخشاش، وهو عويدة تجعل في أنف البعير ليكون أسرع انقياداً.

(٣) رواه مسلم: ٣٠١٢.

إلى مكانها، فلما استيقظ رسول الله ﷺ ذكرتُ له فقال: هي شجرة استأذنت ربها في أن تسلِّم على رسول الله ﷺ فأُذن لها[1].

وعن أنس قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ وهو جالس حزينٌ، قد تخضب بالدم من فعل أهل مكة، فقال: يا رسول الله، هل تحبُّ أن نريك آية؟ قال: نعم. فنظر إلى شجرةٍ من ورائه فقال: ادعُ بها. فدعا بها فجاءت فقامت بين يديه، فقال: مرها فلترجع فأمرها فرجعت. فقال رسول الله ﷺ: «حسبي حسبي»[2].

وعن ابن عباس قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: بمَ أعرفُ أنك نبيٌّ؟ قال: «إن دعوت هذا العذقَ[3] من هذه النخلة يشهدُ أني رسول الله» فدعاه رسولُ الله ﷺ فجعل ينزلُ من النخلة حتى سقط إلى النبي ﷺ ثم قال: «ارجع» فعاد، فأسلم الأعرابي[4].

وعن معن بن عبد الرحمن قال سمعت أبي قال: سألتُ مسروقاً: من آذن[5] النبي ﷺ بالجنِّ ليلة استمعوا القرآن قال: حدثني أبوك -يعني عبد الله بن مسعود- أنه قال: آذنت بهم شجرةٌ[6].

وعن ابن عمر قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر، فأقبل أعرابي، فلما دنا

---

(١) رواه في شرح السنة، ورواه أيضاً أحمد وسنده ضعيف، لكن له شاهد من حديث جابر رواه الدارمي (١/ ١٠)، فالقصة صحيحة كما قال شيخنا الألباني في التعليق على المشكاة: (٣/ ١٨٨).

(٢) رواه الدارمي، وإسناده صحيح كما في المشكاة: (٣/ ١٨٨).

(٣) العنقود.

(٤) رواه الترمذي وصححه.

(٥) أي: اعلم.

(٦) متفق عليه. البخاري (٣٨٥٩)، ومسلم (٤٥٠).

قال له رسولُ الله ﷺ: تشهدُ أن لا إله إلا الله وحدهُ لا شريك له وأنَ محمداً عبدهُ ورسوله؟ قال: ومَن يشهدُ على ما تقولُ؟ قال: هذه السَّلَمة[1]، فدعاها رسولُ الله ﷺ وهو بشاطىء الوادي، فأقبلت تخدُّ[2] الأرض حتى قامت بين يديه، فاستشهدها ثلاثاً فشهدت ثلاثاً أنه كما قال، ثم رجعت إلى منبتها[3].

١٢- تسليم الحجر:

عن جابر بن سَمُرة قال: قال رسول الله ﷺ: إني لأعرفُ حجراً بمكةَ كان يسلمُ عليَّ قبل أن أبعثَ إني لأعرفُهُ الآن[4].

١٣- شكوى البعير:

عن يعلى بن مرة الثقفي قال: «بينما نحنُ نسيرُ مع رسول الله ﷺ إذ مررنا ببعيرٍ يُسنَى[5] عليه، فلما رآه البعيرُ جرجَرَ[6]، فوضع جرانه[7]، فوقف عليه النبي ﷺ فقال: أين صاحبُ هذا البعير؟ فجاءه فقال: «بِعْنِيهِ» فقال: بل نهبُهُ لكَ يا رسول الله، وإنه لأهلِ بيتٍ ما لهم معيشةٌ غيرُهُ.

---

(١) شجرة من أشجار البادية.

(٢) تشق.

(٣) رواه الدارمي، وإسناده صحيح كما قال شيخنا محمد ناصر الدين الألباني في تحقيقه لمشكاة المصابيح (٣/١٨٩).

(٤) رواه مسلم والترمذي.

(٥) أي: يستقي عليه.

(٦) صاح وردد صوته في حلقه.

(٧) مقدم عنقه وقيل: باطن عنقه.

قال: أما إذ ذكرتَ هذا من أمره، فإنه شكا كثرةَ العمل، وقلةَ العلفِ، فأحسنوا إليه»[1].

وعن عبد الله بن جعفر قال: أردفني رسولُ الله ﷺ خلفه ذات يوم، فأسرَّ إليَّ حديثاً لا أُحدثُ به أحداً من الناس، وكان أحبَّ ما استتر به رسول الله ﷺ لحاجتِهِ[2] هدفٌ أو حائشُ[3] نخلٍ. فدخلَ حائطاً لرجلٍ من الأنصار فإذا جملٌ، فلما رأى النبي ﷺ حنَّ وذرفت عيناه، فأتاه النبي ﷺ فمسح سراته[4] إلى سنامه وذفراه[5]. فسَكَنَ فقال: مَن ربُّ هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل؟ فجاءه فتىً من الأنصار فقال: لي يا رسول الله. فقال: أفلا تتقي اللهَ في هذه البهيمة التي مَلَّكَكَ الله إياها؟ فإنه شكا إليَّ أنك تُجعيه وتُدئبُهُ»[6].

١٤- خاتم النبوة:

من علامات نبوته ﷺ خاتم النبوة بين كتفيه، ففي صحيح مسلم عن جابر بن سمرة قال: «رأيت خاتماً في ظهر رسول الله ﷺ كأنه بيضة حمام».

---

(١) رواه في شرح السنة، ورواه أحمد وسنده ضعيف لكن له شاهد من حديث جابر رواه الدارمي: (١/ ١٠) فالقصة صحيحة كما قال شيخنا الألباني في المشكاة: (٣/ ١٨٨).

(٢) كجدار وشجرة.

(٣) أشجار مجتمعة.

(٤) السراة: الظهر.

(٥) عظم خلف الأذن.

(٦) أي: تتعبه، والحديث رواه أبو داود والحاكم وأحمد وابن عساكر واللفظ له وإسناده صحيح على شرط مسلم فقد أخرجه بهذا الإسناد دون قصة الجمل (وراجع الأحاديث الصحيحة لشيخنا الألباني: ١/ ٢٨).

وفي رواية عنه أيضاً: «ثم قمت خلف ظهره فنظرت إلى خاتمه بين كتفيه، مثل زر الحجلة».

وروى مسلم أيضاً عن عبد الله بن سرجس قال: «ثم درت خلف رسول الله ﷺ فنظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه، عند ناغض كتفه اليسرى، جُمعاً عليه خيلان، كأمثال الثآليل»[1].

المطلب الثالث: الخوارق من غير الأنبياء

كرامات الأولياء:

من أصول أهل السنة والجماعة التصديق بكرامات[2] الأولياء، وما يجري الله على أيديهم من خوارق العادات في أنواع العلوم والمكاشفات، وأنواع القدرة والتأثيرات[3].

وقد أنكر طوائف من المسلمين كرامات الأولياء، ومن هؤلاء المعتزلة وحجتهم في دعواهم أنَّ خرق العادة لو صحَّ من غير الأنبياء لالتبس النبي بالولي، ولم تكن المعجزة دليلاً على صدق الأنبياء[4].

---

(١) صحيح مسلم: ٢٣٤٥، ٢٣٤٦. وحديث السائب رواه البخاري: ١٩٠، ٣٥٤١.
وناغض الكتف: طرف العظم العريض، الذي في أعلى طرفه، والخيلان: جمع خال، وهو الشامة.

(٢) يعرف علماء التوحيد الكرامة بأنها أمر خارق للعادة غير مقرون بدعوى النبوة، ولا هو مقدمة لها، يظهر على يد عبد ظاهر الصلاح ملتزم لمتابعة نبي كلف بشريعته، مصحوب بصحيح الاعتقاد والعمل الصالح، علم بها ذلك العبد أم لم يعلم (لوامع الأنوار البهية: ٢/ ٣٩٣).

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٣/ ١٥٦.

(٤) شرح العقيدة الطحاوية: ص ٥٦٣.

وقولهم هذا مردود، لأن من كرامات الأولياء ما حدّث به القرآن، وصحَّ ذكره في الأحاديث الصحيحة، وتواتر النقل به، والناس يشاهدون شيئاً منه في كل عصر ومصر.

والشبهة التي جاؤوا بها إنما تصحُّ إذا كان الولي يأتي بالخارق ويدَّعي النبوة، وهذا لا يقع، ولو ادعى النبوة لم يكن ولياً بل كان متنبئاً كذاباً[1]، وقد أنكر الإمام أحمد على الذين نفوا كرامات الأنبياء، ولم يصدقوا بها، وضلَّلَهم[2].

حكمة إعطاء الكرامة للولي:

يعطي الله بعض عباده أموراً خارقة للعادة إكراماً لهم لصلاحهم وقوة إيمانهم، وقد يكون ذلك سداً لحاجتهم، كالحاجة للطعام والشراب والأمن، وقد يعطيهم ذلك لنصرة دينه، ورفعة كلمته، إحقاقاً للحق وإبطالاً للباطل[3].

فمن ذلك ما حدثنا به القرآن الكريم من شأن مريم، فقد كان يوجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

ومن ذلك ما جرى لأصحاب الكهف حيث ضرب الله على آذانهم في

---

(١) المصدر السابق.

(٢) لوامع الأنوار البهية: ٢/ ٣٩٣.

(٣) كثير من أهل الكلام لا يثبتون خوارق العادة إلا للأنبياء، ولا يثبتونها لأحد غيرهم (شرح الطحاوية ص ١٥٨).

الكهف ثلاثمائة سنة وازدادوا تسعاً، وحفظ الله أجسادهم تلك الدهور المتطاولة على النحو الذي حدثنا عنه في سورة الكهف.

ومن ذلك ما وقع لصحابة رسول الله ﷺ ومن ذلك:

أمثلة من كرامات الأولياء:

١- نور في العصا:

فمن هؤلاء أسيد بن حُضير، وعباد بن بشر تحدثا عند النبي ﷺ في حاجة لهما، حتى ذهب من الليل ساعة في ليلة شديدة مظلمة، ثم خرجا من عند رسول الله ينقلبان، وبيد كل واحد منهما عصيّة، فأضاءت عصا أحدهما لهما حتى مشيا في ضوئها، حتى إذا افترقت بهما الطريق أضاءت للآخر عصاه، فمشى كل واحد منهما في ضوء عصاه حتى بلغ أهله[1].

٢- الطعام المبارك:

وهذا أبو بكر الصديق -رضي الله عنه- يأتي معه بثلاثة أضياف من أهل الصفة، وقد كان الرسول ﷺ قد أمر المسلمين أن يضيّفوا هؤلاء، وتركهم أبو بكر في منزله كي يضيفهم أهله، وذهب هو إلى الرسول ﷺ، وجاء في ساعة متأخرة، فقالت له امرأته: ما حبسك عن أضيافك؟ قال: أو ما عشيتهم؟ قالت: أبوا حتى تجيء، فغضب، وقال: والله لا أطعمه أبداً، فحلفت المرأة أن لا تطعمه، وحلف الأضياف أن لا يطعموه،

---

(١) مشكاة المصابيح: (٣/١٩٧)، وأخرجه أحمد في «المسند»: ١٩/٣٩٦ (١٢٤٠٤)، وأخرجه بنحوه البخاري: (٤٦٥) و(٣٦٣٩) و(٣٨٠٥).

قال أبو بكر: هذا من الشيطان، فدعا بالطعام، فأكل وأكلوا، فجعلوا لا يرفعون لقمة إلا ربت أسفلها أكثر منها، فقال لامرأته: يا أخت بني فراس! ما هذا؟ قالت: وقرة عيني إنها الآن لأكثر منها قبل ذلك بثلاث مرات، فأكلوا، وبعث بها إلى النبي ﷺ، فذكر أنَّه أكل منها. متفق عليه[1].

فقد كان هذا إكراماً من الله لأبي بكر لفضله، ولأنَّه لم يشتط في غضبه إذ حلف أن لا يأكل من الطعام، وراغم الشيطان، فأكرمه الله بذلك.

٣- سفينة والأسد:

وهذا سفينة مولى رسول الله ﷺ أخطأ جيش المسلمين بأرض الروم أو أسر، فانطلق هارباً يلتمس الجيش، فإذا هو بالأسد، فقال: يا أبا الحارث (كنية للأسد) أنا مولى رسول الله ﷺ، كان من أمري كيت وكيت. فأقبل الأسد له بصبصة (أي: تحريك بالذنب) حتى قام إلى جنبه، كلّما سمع صوتاً أهوى إليه، ثمَّ أقبل يمشي إلى جنبه حتى بلغ الجيش، ثم رجع الأسد[2].

صرخة في المدينة تدوي في الشام:

وهذا عمر بن الخطاب يبعث جيشاً، ويؤمر عليهم رجلاً يدعى سارية، وبينما عمر يخطب، فجعل يصيح يا ساري الجبل، فقدم رسول من الجيش، فقال: يا أمير المؤمنين، لقد لقينا عدونا فهزمونا، فإذا بصائح

---

(١) مشكاة المصابيح: (٣/١٩٨).

(٢) قال التبريزي في مشكاة المصابيح: رواه في شرح السنة، وقال المحقق: ورواه الحاكم بنحوه، وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي وهو كما قالا (مشكاة المصابيح: ٣/١٩٩).

يصيح: يا ساري الجبل، فأسندنا ظهورنا إلى الجبل، فهزمهم الله تعالى[1].

٤- جملة من كرامات الأولياء:

وقد ذكر ابن تيمية جملة من هذه الكرامات غير ما تقدم نسوق إليك بعضها[2]:

فمن ذلك أن خبيب بن عدي كان أسيراً عند المشركين بمكة شرفها الله تعالى، وكان يؤتى بعنب يأكله، وليس بمكة عنبة.

وأم أيمن خرجت مهاجرة، وليس معها زاد ولا ماء، فكادت تموت من العطش، فلما كان وقت الفطر، وكانت صائمة سمعت حسّاً على رأسها فرفعته، فإذا دلو معلق، فشربت منه، حتى رويت، وما عطشت بقية عمرها.

والبراء بن مالك كان إذا أقسم على الله تعالى أبرَّ قسمه، وكان الحرب إذا اشتدَّ على المسلمين في الجهاد يقولون: يا براء، أقسم على ربّك، فيقول: يا ربّ، أقسمت عليك لما منحتنا أكتافهم، فيهزم العدو، فلما كان يوم القادسية، قال: أقسمت عليك يا ربّ لما منحتنا أكتفاهم، وجعلتني أول شهيد، فمنحوا أكتافهم وقتل البراء شهيداً.

وخالد بن الوليد حاصر حصناً منيعاً، فقالوا: لا نسلم حتى تشرب السمّ، فشربه فلم يضره.

---

(١) قال التبريزي: رواه البيهقي في دلائل النبوة وقال محقق المشكاة: ورواه ابن عساكر بإسناد حسن نحوه.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ١١/ ٢٧٦-٢٨١.

ولما عذبت «الزبيرة» على الإسلام في الله، فأبت إلاّ الإسلام، وذهب بصرها، قال المشركون: أصاب بصرها اللات والعزى، قالت: كلا والله، فردّ الله عليها بصرها.

وتغيب الحسن البصري عن الحجاج، فدخلوا عليه ست مرات، فدعا الله -عز وجل- فلم يروه، ودعا على بعض الخوارج كان يؤذيه فخر ميتاً.

ولما مات أويس القرني وجدوا في ثيابه أكفاناً لم تكن معه قبل، ووجدوا له قبراً محفوراً فيه لحد في صخرة، فدفنوه فيه، بعد أن كفنوه في تلك الأثواب.

الاستقامة أعظم كرامة:

ليست الكرامة دليلاً على تفضيل هذا المعطى على غيره، فقد يعطي الله الكرامة ضعيف الإيمان لتقوية إيمانه، ومحتاجاً لسدّ حاجته، ويكون الذي لم يعط مثل ذلك أكمل إيماناً وأعظم ولاية، وهو لذلك مستغن عن مثل ما أعطي غيره، ولذلك كانت الأمور الخارقة في التابعين أكثر منها في الصحابة، وعلى هذا فلا ينبغي أن يشغل المرء نفسه بالتطلع إلى الكرامة، ولا ينبغي له أن يحزن إذا لم يعطها، وقد صدق أبو علي الجوزجاني وبرّ حين قال: «كن طالباً للاستقامة، لا طالباً للكرامة، فإنَّ نفسك منجبلة على طلب الكرامة، وربّك يطلب منك الاستقامة، قال بعض من فهم قوله: وهذا أصل عظيم كبير في الباب، وسرّ غفل عن حقيقته كثير من أهل السلوك والطلاب»[1].

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: (١١/ ٣٢٠).

الخوارق والأحوال الشيطانية[1]:

ضلَّ كثير من الناس عندما ظنوا أن كلَّ من جرت على يديه خوارق العادات فهو من أولياء الله الصالحين، فبعض الناس يطيرون في الهواء، ويمشون على الماء، ونحو ذلك، وهم من أفجر خلق الله، بل قد يدَّعون النبوة، مثل الحارث الدمشقي الذي خرج بالشام زمن عبد الملك بن مروان، وادعى النبوة، وقد أظهر أموراً خارقة للعادة، فقد كانوا يضعون القيود في رجليه فيخرجها، ويضرب بالسلاح فلا يؤثر فيه، وتسبح الرخامة إذا مسحها بيده، وكان يُري الناس رجالاً وركباناً على خيل في الهواء، ويقول: هي الملائكة، وهذا وأمثاله من فعل الشياطين، ولذلك إذا حضر بعض الصالحين هذه الأحوال الشيطانية وذكر الله وقرأ آية الكرسي أو شيئاً من القرآن بطلت أحوالهم هذه، فهذا الحارث الدمشقي الكذاب لما أمسكه المسلمون ليقتلوه طعنه طاعن بالرمح، فلم ينفذ فيه، فقال له عبد الملك: إنّك لم تسمّ الله، فسمّي الله، فطعنه فقتله[2].

والمسيح الدجال تجري على يديه أمور خارقة للعادة تذهل من يراها وهو مع ذلك يدعى الألوهية.

فالخوارق ليست دليلاً على أن صاحبها ولي لله تعالى، فالكرامة سببها الإيمان والتقوى والاستقامة على طاعة الله تعالى، فإذا كانت الخارقة بسبب الكفر والشرك والطغيان والظلم والفسق فهي من الأحوال الشيطانية، لا من الكرامات الرحمانية.

---

(١) ارجع في هذا المبحث إلى كتابنا: عالم الجن والشياطين.

(٢) راجع مجموع فتاوى شيخ الإسلام: (١١/ ٢٨٤-٢٨٥).

المبحث الثاني

بشارات الأمم السابقة

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧] فالآية تبين أنَّ من الآيات البينات الدالة على صدق الرسول ﷺ، وصدق ما جاء به -علم بني إسرائيل بذلك، وهو علم مسجل محفوظ مكتوب في كتبهم التي يتداولونها، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦].

المطلب الأول

القرآن يتحدث عن بشارات الأنبياء السابقين بنبينا محمد ﷺ

القرآن المنزل إلينا من ربنا العليم الخبير يحدثنا أن ذكر محمد وأمته موجود في الكتب السماوية السابقة، وأنَّ الأنبياء السابقين بشروا به، وقد فهم جمع من المفسرين من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١] -أنّ الله أخذ العهد والميثاق على كلّ نبي لئن بُعث محمد ﷺ في حياته ليؤمنن به ويترك شرعه لشرعه، وعلى ذلك فإن ذكره موجود عند كل الأنبياء السابقين.

١- دعوة إبراهيم:

عن العرباض بن سارية عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «إني عند الله مكتوب خاتم النبيين، وإنَّ آدم لمنجدل في طينته، وسأخبركم بأول أمري، دعوةُ إبراهيم، وبشارة عيسى، ورؤيا أمي التي رأت حين وضعتني، أنه خرج لها نور أضاءت لها منه قصور الشام» رواه في شرح السنة[١].

وقد أخبرنا الله أنَّ خليل الرحمن إبراهيم وابنه إسماعيل كانا يبنيان البيت الحرام ويدعوان، ومن دعائهما ما قصه علينا في سورة البقرة ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧-١٢٩].

وقد استجاب الله دعاء خليله إبراهيم وابنه نبيّ الله إسماعيل، وكان محمد ﷺ هو تأويل تلك الاستجابة. ولا تزال التوراة الموجودة اليوم -على الرغم مما أصابها من تحريف- تحمل شيئاً من هذه البشارة، فنجد فيها أنَّ الله استجاب دعاء إبراهيم في إسماعيل، فقد ورد في التوراة في سفر التكوين في الإصحاح السابع عشر فقرة (٢٠): «وأمّا إسماعيل فقد سمعت لك فيه، ها أنا أباركه وأثمره، وأكثره كثيراً جداً، اثني عشر رئيساً يلد، وأجعله أمّة عظيمة كبيرة».

---

(١) مشكاة المصابيح للتبريزي: ٣/ ١٢٧ وقال الشيخ ناصر الدين الألباني: حديث صحيح وانظره في صحيح موارد الظمآن للشيخ ناصر الدين الألباني: ١٧٥٦، ٢٠٩٣، وانظره في سلسلة الصحيحة: ١٥٤٦، ١٩٢٥.

وهذا النصُّ ورد في التوراة السامرية بألفاظ قريبة جداً مما أثبتناه هنا، والترجمة الحرفية للتوراة العبرانية لهذا النص: «وأمّا إسماعيل فقد سمعت لك فيه، ها أنا أباركه وأكثره «بمأد مأد»[1]. وقد ذكر ابن القيم أنَّ بعض نسخ التوراة القديمة أوردت النص كما أثبتناه هنا.

ودلالة هذه البشارة على نبينا محمد ﷺ من وجوه:

الأول: أنَّ الأمة العظيمة عند الله لا بدَّ أن تكون مسلمة، ولم توجد هذه الأمّة من نسل إسماعيل إلاّ بعد بعثة الرسول وانتشار المسلمين في المشارق والمغارب.

الثاني: النصّ العبراني «مأد مأد» صريح في اسم الرسول ﷺ فالمترجمون ترجموه «جداً جداً أو كثيراً كثيراً» والصواب هو: محمد، لأنها تلفظ بالعبراني «مؤد مؤد» واللفظ العبراني قريب من العربي.

الثالث: قوله: اثني عشر رئيساً يلد، هذا موافق لأخبار الرسول ﷺ أنه سيلي أمر هذه الأمة اثنا عشر خليفة كلّهم من قريش.

٢- بشارة موسى:

لقد جاء بني إسرائيل الخبرُ اليقين بالنبي الأميّ، على يد نبي الله موسى منذ أمد بعيد، جاءهم الخبر اليقين ببعثه، وبصفاته، ونهج رسالته، وبخصائص ملته، فهو النبي الأمي، وهو يأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحلُّ لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، يضع عن من يؤمنون به من بني إسرائيل الأثقال والأغلال التي علم الله أنها ستفرض

(١) نبوة محمد من الشك إلى اليقين: ص ٢٥٠، محمد نبي الإسلام: ص ٣.

عليهم بسبب معصيتهم، فيرفعها عنهم النبيُّ الأمي حين يؤمنون به، وأتباع هذا النبي يتقون ربهم، ويخرجون زكاة أموالهم ويؤمنون بآيات الله.. وجاءهم الخبر اليقين بأن الذين يؤمنون بهذا النبي الأمي، ويعظمونه ويوقرونه وينصرونه ويؤيدونه ويتبعون النور الذي أنزل معه «أولئك هم المفلحون».

قال تعالى: ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ * ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦-١٥٧].

بقية هذه البشارة في التوراة:

وقد بقي من هذه البشارة بقية في التوراة، ففي سفر التثنية، الإصحاح (١٨) فقرة ١٨-١٩ قال الله لموسى: «أقيم لهم [أي لبني إسرائيل] نبياً من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به، ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع كلامي الذي يتكلّم به باسمي أنا أطالبه».

ودلالة هذه البشارة على رسولنا ﷺ بيّنة، ذلك أنّه من بني إسماعيل وهم إخوة بني إسرائيل، فجدُّهم هو إسحاق، وإسماعيل وإسحاق أخوان، ثم هو أوسط العرب نسباً، وقوله: مثلك، أي: صاحب شريعة مثل

موسى، ومحمد ﷺ هو الذي جعل الله كلامه في فمه حيث كان أميّاً لا يقرأ من الصحف، ولكنَّ الله يوحي إليه كلامه، فيحفظه ويرتله، وهو الرسول المرسل إلى الناس كافة، وبنو إسرائيل مطالبون باتباعه وترك شريعتهم لشريعته، ومن لم يفعل فإنَّ الله معذبه «ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه».

ومما يعرفنا أنَّ هذه البشارة هي بقية البشارة العظيمة التي أوحى الله بها إلى موسى، وأخبرنا بها القرآن الكريم، أن هذه البشارة وردت في موقف معين، فعندما اختار موسى من قومه سبعين رجلاً لميقات الله أخذتهم الرجفة، وذلك بسبب طلبهم رؤية الله جلَّ وعلا، فدعا موسى ربَّه وتوسل إليه، فبعثهم الله من بعد موتهم، قال الله بعد توسل موسى ودعائه ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ..﴾ الآيات.

وإذا رجعت إلى التوراة في سفر الخروج تجد أنَّ هذه البشارة إنما أوحى الله بها إلى موسى بعد ذهابه لميقات الله، وتتحدث التوراة عن شيء قريب من الرجفة «وكل الشعب سمع الأصوات وصوت البوق، ونظروا الشهب والجبل دخاناً ونظر كل القوم وتشردوا ووقفوا من بعد..» سفر الخروج، الإصحاح (٢٠) فقرة: ١٨. «وكان جميع الشعب يرون الرعود والبروق، وصوت البوق والجبل يدخن، ولما رأى الشعب ارتعدوا ووقفوا من بعيد..».

٣- بشارة عيسى:

وأخبرنا الله -سبحانه- أن عيسى بشر برسولنا محمد ﷺ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

وأحمد من أسماء نبينا محمد ﷺ كما ثبت في صحيح البخاري عن جبير بن مطعم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ لي أسماء، أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب»(١).

مثلان في التوراة والإنجيل:

ضرب الله في التوراة والإنجيل مثلين لرسولنا محمد ﷺ ولأصحابه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩].

---

(١) صحيح البخاري: ٤٨٩٦، وصحيح مسلم: ٢٣٥٤.

المطلب الثاني: بشائر التوراة وأسفار الأنبياء

التوراة التي بين أيدي الناس اليوم محرَّفة مغيرة يدلك على ذلك هذا الاختلاف الذي تجده في أمور كثيرة بين نسخها وطبعاتها، فهناك ثلاث نسخ للتوراة: العبرانية، واليونانية، والسامرية، وكلٌّ قوم يدَّعون أن نسختهم هي الصحيحة، وهناك فروق واضحة بين طبعات التوراة وترجماتها. وقد أدى هذا التحريف إلى ذهاب كثير من البشارات أو طمس معالمها، ومع ذلك فقد بقي من هذه البشارات شيء كثير، ولا تخفى هذه البشارات على من يتأملها، ويعرضها على سيرة رسول الله ﷺ متجرداً من الهوى.

١- ذكر الرسول ﷺ باسمه في التوراة:

لقد صرح بعض هذه البشارات باسم محمد ﷺ وقد اطلع بعض علماء المسلمين على هذه النصوص، ولكنَّ التحريف المستمر لهذا الكتاب أتى على هذه النصوص، فمن ذلك ما ورد في سفر أشعيا[١]: «إني جعلت أمرك محمداً، يا محمد يا قدوس الربّ، اسمك موجود من الأبد»[٢]

وقوله إن اسم محمد موجود من الأبد موافق لقول الرسول ﷺ: «إني مكتوب عند الله خاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته»[٣].

---

(١) الجواب الصحيح: ٣/ ٣٢٦.

(٢) محمد نبي الإسلام: ص ١٨.

(٣) صحيح موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان: ١٧٥٦، ٢٠٩٣ وهو مخرج في سلسلة الصحيحة للشيخ ناصر: ١٥٤٦، ١٩٢٥.

وفي التوراة العبرانية في الإصحاح الثالث من سفر حبقوق: «وامتلأت الأرض من تحميد أحمد، ملك بيمينه رقاب الأمم».

وفي النسخة المطبوعة في لندن قديماً سنة ١٨٤٨، والأخرى المطبوعة في بيروت سنة ١٨٨٤، والنسخ القديمة تجد في سفر حبقوق النص في غاية الصراحة والوضوح: «لقد أضاءت السماء من بهاء محمد، امتلأت الأرض من حمده، . . . زجرك في الأنهار، واحتدام صوتك في البحار، يا محمد ادن، لقد رأتك الجبال فارتاعت».

٢- ذكر الرسول ﷺ بأمر يتعلق به:

وفي بعض الأحيان يذكر مكان مبعثه، ففي سفر التثنية الإصحاح الثالث والثلاثون، فقرة: (٢): «جاء الربّ من سيناء، وأشرق لهم من سعير، وتلألأ من جبل فاران» وسيناء هي الموضع الذي كلّم الله فيه موسى، وساعير الموضع الذي أوحى الله فيه لعيسى، وفاران هي جبال مكة، حيث أوحى الله لمحمد ﷺ، وكون جبال فاران هي مكة، دلت عليه نصوص من التوراة. وقد جمع الله هذه الأماكن المقدسة في قوله: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين: ١-٣].

وذكرت التوراة مكان الوحي إليه، ففي سفر أشعيا الإصحاح (٢١) فقرة: (١٣) «وحي من جهة بلاد العرب في الوعر». وقد كان بدء الوحي في بلاد العرب في الوعر في غار حراء.

وفي هذا الموضع من التوراة فقرة: (١٤) حديث عن هجرة الرسول ﷺ وإشارة إلى الجهة التي هاجر إليها «هاتوا ماءً لملاقاة العطشان يا سكان

أرض تيماء، وافوا الهارب بخبزة، فإنهم من أمام السيوف قد هربوا، من أمام السيف المسلول، ومن أمام القوس المشدودة، ومن أمام شدة الحرب» وتيماء من أعمال المدينة المنورة، وإذا نظرت في النص ظهر لك بوضوح أنه يتحدث عن هجرة الرسول ﷺ.

وتكملة النص السابق فقرة: (١٦) يقول: «فإنه هكذا قال لي السيد في مدة سنة كسنة الأجير يفنى كل مجد قيدار، وبقية قسى أبطال بني قيدار تقلّ، لأنَّ الربّ إله إسرائيل قد تكلم».

وهذا النص يتحدث عن معركة بدر، فإنّه بعد سنة كسنة الأجير من الهجرة كانت وقعة بدر، وفنى مجد قيدار، وقيدار من أولاد إسماعيل، وأبناؤه أهل مكة، وقد قلت قسى أبناء قيدار بعد غزوة بدر.

٣- إشارة التوراة إلى معلم من معالم مهاجر الرسول:

وأشارت بعض نصوص التوراة إلى مكان هجرة الرسول ﷺ، ففي سفر أشعيا الإصحاح (٤٢) فقرة: (١١) «لترفع البريّة ومدنها صوتها، الديار التي سكنها قيدار، لترنم سكان سالع من رؤوس الجبال ليهتفوا، ليعطوا الربَّ مجداً..».

وقيدار أحد أبناء إسماعيل كما جاء في سفر التكوين إصحاح (٢٥) عدد (١٣).

وسالع جبل سلع في المدينة المنورة.

والترنم والهتاف ذلك الأذان الذي كان ولا يزال يشقُّ أجواز الفضاء كلّ يوم خمس مرات، وذلك التكبير والتحميد في الأعياد وفي أطراف النهار

وآناء الليل كانت تهتف به الأفواه الطاهرة من أهل المدينة الطيبة الرابضة بجانب سلع.

٤- إشارة التوراة إلى أمور جرت على يديه ﷺ:

وقد تذكر النصوص انتشار دعوته وبعض ما يكون من الرسول ﷺ، ففي سفر حبقوق الإصحاح الثالث فقرة: (٣-٦): «الله جاء من تيمان، والقدوس من جبال فاران، سلاه جلاله غطى السماوات والأرض، امتلأت من تسبيحه، وكان لمعان كالنور، له من يده شعاع، وهناك استنارت قدرته، قدامه ذهب الوبا، وعند رجليه خرجت الحمّى، وقف وقاس الأرض، نظر، فرجفت الأمم، ودكت الجبال الدهرية، وخسفت آكام القدم».

ففي هذه البشارة إخبار بالنصر العظيم الذي حازه الرسول ﷺ وأتباعه، وإخبار بانتشار دعوته في شتى بقاع الأرض، وبأن الجبال الدهرية وهي الدول القويّة ذات المجد القديم ستدك، وآكام القدم وهي الدول الأقل ستخسف، وقد تحقق ذلك كله، وأشارت هذه البشارة إلى أمرين يدركهما من كان عليماً بسيرة الرسول ﷺ وأخباره، وهما: لمعان كالنور له من يده، وذهاب الوبا من قدامه، وخروج الحمّى من عند رجليه.

٥- اللمعان والنور الذي شعَّ من يده:

يقول النص: «وكان لمعان كالنور، له من يده، وشعاع، وهناك استنارت قدرته» ثم يقول: «وقف وقاس الأرض نظر، فرجفت الأمم..» والذي يبدو لي أنَّ هذا النص يتحدث عن حادثة بعينها، وهي ما وقع

منه ﷺ في غزوة الخندق، عندما أعجزت صخرة الصحابة أثناء حفر الخندق، فجاء الرسول ﷺ فضربها ضربة عظيمة أسقطت ثلثها، وخرج منها نور فكبر الرسول ﷺ فكبر أصحابه، ثمَّ الثانية فالثالثة، وقد أخبر الرسول ﷺ أنه رأى بالنور الأول قصور الشام، وبالنور الثاني قصور فارس، وبالنور الثالث أبواب صنعاء.

و روى النسائي وأحمد بإسناد حسن من حديث البراء بن عازب قال: لما كان حين أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق، عرضت لنا في بعض الخندق صخرة لا تأخذ فيها المعاول، فاشتكينا ذلك إلى النبي ﷺ، فجاء فأخذ المعول فقال: «باسم الله»، فضرب ضربة فكسر ثلثها، وقال: «الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمر الساعة»، ثمَّ ضرب الثانية فقطع الثلث الآخر، فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن أبيض، ثمَّ ضرب الثالثة، وقال: باسم الله، فقطع بقية الحجر، فقال: «الله أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا الساعة»[1].

وفي رواية الطبراني: «فضرب الصخرة وبرق منها برقة فكبّر، وكبّر، المسلمون»، وفيه «إن البرقة الأولى أضاءت لها قصور الشام، فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليهم..»[2].

تأمل النص الذي أوردناه مرة أخرى «لمعان كالنور له من يده، وشعاع، وهناك استنارت قدرته.. وقف وقاس الأرض نظر..».

---

(١) فتح الباري: ٧/ ٣٩٧.

(٢) المصدر السابق.

وتأمل في الأحاديث التي أوردناها أليست هذه الواقعة تأويل لتلك البشارة؟

٦- ذهاب الوبا وخروج الحمى:

تقول هذه البشارة: «قدامه ذهب الوبا، وعند رجليه خرجت الحمّى»، وهذه -والله- بشارة صريحة لا تحتمل تأويلاً، فالمدينة قبل مجيء الرسول -ﷺ- كانت معروفة بالحمّى، وفي الحديث عن ابن عباس أنَّ الرسول ﷺ وأصحابه عندما قدموا مكة للعمرة -وهي العمرة المعروفة بعمرة القضاء- قال المشركون: «إنّه يقدم عليكم وفد وهنتهم حمّى يثرب» رواه البخاري[١].

وقد أصابت هذه الحمّى صحابة الرسول ﷺ أول قدومهم المدينة، فدعا رسول الله ﷺ ربَّه كي يذهب الحمّى.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، وُعك أبو بكر وبلال. قالت: فدخلت عليهما[٢]، فقلت: يا أبت كيف تَجِدُك؟ ويا بلال كيف تجدك؟ قالت: فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول:

كلُّ امرىء مُصَبَّحٌ في أهله ... والموتُ أدنى من شراك نعله

وكان بلال إذا أقلع عنه الحمّى يرفع رأسه ويقول:

ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلة ... بـوادٍ وحـولي إذخرٌ وجليلُ

---

(١) انظر فتح الباري: ٣/ ٤٦٩.

(٢) دخولها على بلال كان قبل نزول آية الحجاب.

وهـل أرِدَنْ يوماً مياهَ مَـجَـنَّـةٍ وهل يَبدُوَنْ لي شامةٌ وطفيلُ

قالت عائشة: فجئت رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال: «اللَّهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشدّ، وصَحِّحْها، وبارك لنا في صاعها ومدِّها، وانقل حمّاها، فاجعلها في الجحفة» رواه البخاري[1]. وزاد البخاري في آخر كتاب الحج: «ثم يقول بلال: اللهم العن عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأمية بن خلف كما أخرجونا إلى أرض الوباء»[2].

إذن كانت يثرب موبُوْءَة بالحمى، لا يكاد يدخلها أحد إلاّ أصابته.

وقد استجاب الله لنبيه ﷺ فنقل عنها الحمى، وصحَّحَها، ومنع عن المدينة الطاعون، ففي الحديث الذي يرويه أحمد في مسنده عن أبي عسيب مولى رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني جبريل عليه السلام بالحمّى والطاعون، فأمسكت الحمّى بالمدينة، وأرسلت الطاعون إلى الشام»[3].

وإمساكه الحمّى بالمدينة لعله في بداية الأمر، ثمَّ أمر بإرسالها إلى الجحفة، أو أن المراد بإمساكها بالمدينة المنطقة التي فيها المدينة، ذلك أن الجحفة تقع قرب المدينة، وعلى كلّ فالبشارة واضحة وقعت كما أخبرت التوراة.

---

(١) انظر فتح الباري: ٧/ ٢٦٢ (٣٩٢٦).

(٢) فتح الباري: ٧/ ٢٦٣، وانظر البخاري (١٨٨٩).

(٣) مسند الإمام أحمد: (٥/ ٨١).

٧- بشارات جامعة:

وفي بعض الأحيان تكون البشارات جامعة تذكر صفات الرسول ﷺ ووحي الله إليه، وأخبار أمته، وما ينزل إليه عليهم من نصره، وإمدادهم بالملائكة، وشيئاً مما يعطيه الله لرسوله كالعروج به إلى السماء ونحو ذلك، فمن ذلك ما ورد في بشائر دانيال.

قال دانيال[1] يهدد اليهود، ويصف لهم أمة محمد ﷺ: «إن الله يظهرهم عليكم، وباعث فيهم نبياً، ومنزل عليهم كتاباً، ومملكهم رقابكم، يقهرونكم ويذلونكم بالحق، ويخرج رجال قيدار في جماعات الشعوب، معهم الملائكة على خيل بيض، فيحيطون بكم، وتكون عاقبتكم النار، نعوذ بالله من النار».

وأبناء قيدار بن إسماعيل، قد انتشروا في الأرض، واستولوا على الشام والجزيرة ومصر والعراق، وقد تواترت الآثار أن الملائكة كانت تنزل على الخيل البيض كما نزلت يوم بدر والأحزاب، وقال دانيال مصرحاً باسم محمد ﷺ: «ستنزع في قسيّك إغراقاً، وترتوي السهام بأمرك يا محمد».

وقال دانيال أيضاً: «سألت الله وتضرعت إليه أن يبيّن لي ما يكون من بني إسرائيل، وهل يتوب عليهم، ويردّ إليهم ملكهم، ويبعث فيهم الأنبياء، أو يجعل ذلك في غيرهم؟ فظهر لي الملك في صورة شاب حسن الوجه، فقال: السلام عليكم يا دانيال، إن الله يقول: إنّ بني إسرائيل أغضبوني وتمردوا علي، وعبدوا من دوني آلهة أخرى، وصاروا من بعد العلم إلى الجهل، ومن بعد الصدق إلى الكذب. فصلّت عليهم

---

(١) انظر الجواب الصحيح: (٣/ ٣٣١، ٤/ ٣).

بخت نصّر، فقتل رجالهم، وسبى ذراريهم، وهدم مساجدهم، وحرق كتبهم، وكذلك فعل من بعده بهم، وأنا غير راض عنهم، ولا مقيلهم عثرات، فلا يزالون في سخطي حتى أبعث مسيحي ابن العذراء البتول، وأختم ذلك عليهم باللعن والسخط، فلا يزالون ملعونين، عليهم الذلة والمسكنة، حتى أبعث نبي بني إسماعيل الذي بشرت به هاجر، وأرسلت إليها ملاكي وبشرها، وأوحي إلى ذلك النبي، وأعلمه الأسماء، وأزينه بالتقوى، وأجعل البرَّ شعاره، والتقوى ضميره، والصدق قوله، والوفاء طبيعته، والقصد سيرته، والرشد سنته، أخصه بكتاب مصدق لما بين يديه من الكتب، وناسخ لبعض ما فيها، أسري به إلي، وأرقيه من سماء إلى سماء، حتى يعلو، فأدنيه، وأسلِّم عليه، وأوحي إليه، ثمَّ أردّه إلى عبادي بالسرور والغبطة، حافظاً لما استودع، صادقاً فيما أخبر، يدعو إلى توحيدي باللين من القول والموعظة الحسنة، لا فظ ولا غليظ ولا صخاب بالأسواق، رؤوف بمن والاه، رحيم بمن عاداه، فيدعو قومه إلى توحيدي وعبادتي، ويخبرهم بما رأى من آياتي، فيكذبونه، ويؤذونه».

يقول ابن تيمية: «ثمَّ سرد دانيال قصة رسول الله ﷺ بما أملاه عليه الملك حتى وصل آخر أمته بالنفخة، وانقضاء الدنيا».

ثم قال: «وهذه البشارة الآن عند اليهود والنصارى يقرؤونها، ويقولون: لم يظهر صاحبها بعد».

المطلب الثالث: بشارات من الإنجيل

وفي إنجيل متى الإصحاح (١١) عدد (١٤) «وإن أردتم أن تقبلوا فهذا هو إيليا المزمع أن يأتي، من له أذنان للسمع فليسمع».

وقد أخبرنا الرسول ﷺ أنه ليس بينه وبين عيسى نبي، فيكون إيلياء الذي بشر به عيسى هو محمداً ﷺ. وإيليا بحساب الجمل الذي أغرمت به اليهود يساوي محمداً.

وفي إنجيل يوحنا إصحاح (١٤) عدد (١٥) «إن كنتم تحبوني فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الآب فيعطيكم معزياً آخر ليمكث معكم إلى الأبد، وفي اللغات الأجنبية «فيعطيكم باركليتوس» ليمكث معكم إلى الأبد» والمعنى الحرفي لكلمة «باركليتوس» اليونانية هو أحمد، وهو من أسماء الرسول ﷺ[1].

وفي إصحاح يوحنا (١٥) عدد (٢٦) «ومتى جاء المعزى الذي أرسله أنا إليكم من الآب روح الحقّ الذي من عند الآب ينبثق فهو يشهد لي» «ويشهد لي» لأن النبي محمد ﷺ شهد للمسيح بالنبوة والرسالة، وروح الحقّ كناية عن الرسول محمد ﷺ، والمعاني الواردة في هذه الترجمة الحديثة ليست دقيقة، لأن أصلها باليونانية، وهي اللغة التي ترجمت منها هذه الأناجيل -مكتوبة «بيركليتوس» وفي التراجم العربية المطبوعة سنة ١٨٢١، سنة ١٨٣١، سنة ١٨٤٤، في لندن تجدها «فارقليط» وهي أقرب إلى العبارة اليونانية المشار اليها[2]، أمّا ترجمتها في الطبعات الحديثة إلى

---

(١) محمد نبي الإسلام: ص ٣٦.

(٢) المصدر السابق: ص ٣٨.

المعزى فهو من التحريف الذي ذم الله أهل الكتاب به ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ [النساء:٤٦]. ويلاحظ أن هناك جملة ساقطة قبل الجملة الواردة في عدد (٢٦) من هذا الإصحاح سقطت من الطبعات الحديثة، لكنها واردة صراحة في الطبعات القديمة للإنجيل، ونص هذه الجملة: «فلو قد جاء المنحمنا الذي يرسله الله إليكم» ومعنى المنحمنا الحرفي باللغة السريانية محمد[١][٢].

بشارات أخرى من الإنجيل[٣]:

١- من إنجيل (مَتّى):

جاء في (إنجيل متى) في الإصحاح الحادي والعشرين:

« ٤٢ قال لهم يسوع: أما قرأتم قط في الكتب: الحجر الذي رفضه البناؤون هوذا قد صار رأس الزاوية، من قِبَل الرب كان هذا هو عجيب في أعيننا.

٤٣ لذلك أقول لكم إنَّ ملكوت الله يُنزع منكم، ويعطى لأمة تعمل أثماره.

٤٤ ومن سقط على هذا الحجر يترضض، ومن سقط هو عليه يسحقه ».

---

(١) المصدر السابق: ص ٣٩.

(٢) وقد استقصى شيخ الإسلام، فأورد تلك الروايات التي بشر بها عيسى بالنبي ﷺ، وبين وجه الاستدلال بها، انظر الجواب الصحيح: (٦/٤).

(٣) نبوة محمد من الشك إلى اليقين: ص ٢٩٧.

وهذا الحجر إنما هو سيدنا محمد، جاء في (صحيحي البخاري ومسلم) عن أبي هريرة وجابر بن عبد الله رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً، فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين».

قال ابن القيم[1]: «وتأمل قوله [المسيح] في البشارة الأخرى: ألم تر إلى الحجر الذي أخره البناؤون صار رأساً للزاوية، كيف تجده مطابقاً لقول النبي ﷺ: مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى داراً فأكملها وأتمها إلا موضع لبنة منها، فجعل الناس يطوفون بها ويعجبون منها، ويقولون: هلاّ وضعت تلك اللبنة فكنت أنا تلك اللبنة.

وتأمل قول المسيح في هذه البشارة: إن ذلك عجيب في أعيننا. وتأمل قوله فيها: «إن ملكوت الله سيؤخذ منكم، ويدفع إلى آخر» كيف تجده مطابقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥].

ونحو هذا النص ما جاء في (إنجيل متى) في الإصحاح الثامن:

«١١ وأقول لكم إن كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب، ويتكئون مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب في ملكوت السماوات، وأما بنو الملكوت فيطرحون إلى الظلمة الخارجية، هناك يكون البكاء وصرير الأسنان».

وهذه بشارة تشير إلى ظهور أمة الإسلام التي تأتي من المشارق

---

(١) هداية الحيارى: ٣٨١-٣٨٢.

والمغارب، وتكون مرضية عند الله مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

جاء في (الفارق): «أيها المسيحي إذا أنصفت تحكم بأن هؤلاء الذين سيأتون من مشارق الأرض ومغاربها هم الأمة المحمدية، لأنكم مخاطبون حاضرون إذ ذاك، والمسيح سلام الله عليه يخبر عن قوم سيأتون في مستقبل الزمن، وقد أخرجكم بقوله: «وأما بنو الملكوت»[1].

ونحو ذلك ما جاء في (إنجيل يوحنا) في الإصحاح الرابع:

«٢٠-٢٤ قال لها يسوع: يا امرأة صدقيني، أنه تأتي ساعة لا في هذا الجبل ولا في أورشليم تسجدون لله».

وهذا النص يشير إلى ظهور الدين الجديد، وإنّه سيتحول مركزه عن أورشليم ويشير إلى تحول القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المعظمة، قبلة أصحاب الدين الجديد، ويصدقه قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٤].

فقد كان المسلمون أول الأمر يتجهون في صلاتهم إلى بيت المقدس، ثم نزلت الآية بوجوب توجههم إلى بيت الله الحرام في مكة المكرمة.

---

(١) الفارق: ٥٤.

٢- من إنجيل لوقا[١]:

ذكر صاحب كتاب (الإنجيل والصليب) أنه جاء في (إنجيل لوقا) ٢: ١٤ «الحمد لله في الأعالي، وعلى الأرض إسلام، وللناس أحمد».

ولكن المترجمين ترجموها في الإنجيل هكذا:

«الحمد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام، وبالناس المسرة».

ومؤلف الكتاب يرى أن الترجمة الصحيحة ما ذكره هو.

يقول المؤلف أنّ ثمة كلمتين وردتا في اللغة الأصلية لم يدرك أحد ما تحتويان عليه من المعاني تماماً، فلم تترجم هاتان الكلمتان كما يجب في الترجمة القديمة من السريانية.

هاتان الكلمتان هما:

أيريني - التي يترجمونها: السلامة.

و: أيودكيا - التي يترجمونها: حسن الرضا.

فالأولى من الكلمتين اللتين هما موضوع بحثنا الآن هي (أيريني)، فقد ترجمت بكلمات (سلامة) (مسالمة) (سلام).

والمؤلف يرى أن ترجمتها الصحيحة (إسلام) فيقول في ص: ٤٠: «ومن المعلوم أن لفظ (إسلام) يفيد معاني واسعة جداً، ويشتمل على ما تشتمل عليه ألفاظ (السلم، السلام) (الصلح، المسالمة) (الأمن، الراحة).. وتتضمن معنى زائداً وتأويلاً آخر أكثر وأعم وأشمل وأقوى مادة

---

(١) نبوة محمد من الشك إلى اليقين: ص ٣٠٠.

ومعنى، ولكن قول الملائكة: «على الأرض سلام» لا يصح أن يكون بمعنى الصلح العام والمسالمة، لأنّ جميع الكائنات وعلى الأخص الحيّة منها، ولا سيما النوع البشري الموجود على كرة الأرض دارنا الصغيرة هي بمقتضى السنن الطبيعة والنواميس الاجتماعية خاضعة للوقائع والفجائع الوخيمة كالاختلافات والمحاربات والمنازعات. . ، فمن المحال أن يعيش الناس على وجه الأرض بالصلح والمسالمة».

ثم يستشهد بقول المسيح: «ما جئت لألقي سلاماً على الأرض، ما جئت لألقي سلاماً بل سيفاً» (متى ١٠ : ٣٤).

ويستشهد بقول آخر للمسيح: «جئت لألقي ناراً على الأرض، فماذا أريد لو اضطرمت؟ أتظنون أني جئت لأعطي سلاماً على الأرض؟ كلا أقول لكم بل انقساماً» (لوقا: ١٢ : ٤٩-٥٣).

وعلى هذا فالترجمة لا تنطبق ورسالة المسيح وأقواله والصواب «وعلى الأرض إسلام». (انظر البحث من ص ٣٨-٤٤).

كما يرى أن (أيادوكيا) بمعنى (أحمد) لا (المسرة أو حسن الرضا) كما يترجمها القسس، وذلك لأنه لا يقال في اليونانية لحسن الرضا (أيودوكيا) بل يقال: (ثليما).

ويقول: إن كلمة (دوكوته)، هي بمعنى (الحمد، الاشتهاء، الشوق، الرغبة، بيان الفكر). وها هي ذي الصفات المشتقة من هذا الفعل (دوكسا) وهي (حمد، محمود، ممدوح، نفيس، مشتهى، مرغوب، مجيد).

واستشهد بأمثلة كثيرة من اليونانية لذلك. وقال: إنهم يترجمون

(محمديتو) في (أشعيا ٦٤: ١١) بـ (اندوكساهيمون)، ويترجمون الصفات منها (محمد، أحمد، أمجد، ممدوح، محتشم، ذو الشوكة) بـ (ايندكسوس).

واستدل بهذا التحقيق النفيس أن الترجمة الحقيقية الصحيحة لما ذكره لوقا هي (أحمد، محمد) لا (المسرة)، فتكون الترجمة الصحيحة لعبارة الإنجيل:

«الحمد لله في الأعالي، وعلى الأرض إسلام، وللناس أحمد»[1].

٣- بشارات إنجيل برنابا:

هذا الإنجيل مليء بالبشارات الصريحة بالرسول المصطفى المختار، ومما ورد فيه (ص ١٦١): «قال الله اصبر يا محمد..» وفي (ص ١٦٢) «إن اسمه المبارك محمد..» (ص ١٦٢): «يا الله أرسل لنا رسولك، يا محمد تعال سريعاً لخلاص العالم».

رأي في إنجيل برنابا:

لا شكّ أن هذا الإنجيل من الأناجيل التي كانت معروفة قديماً، وقد ورد ذكره في كتب القرن الثاني والثالث للميلاد، ثمّ لم يرد له ذكر بعد ذلك، إلى أن عثر على نسخة منه في أوائل القرن الثامن عشر الهجري، ولا تزال هذه النسخة في مكتبة بلاط (فيّنا).

وعندما نشر هذا الكتاب أحدث ضجّة كبرى -في ذلك الوقت- في

(١) انظر كتاب (الإنجيل والصليب) للأب عبد الأحد داود: ٣٤-٣٥.

أوروبا في نوادي العلم والدين، وقد طبعت ترجمة هذا الكتاب مرتين باللغة العربية، الطبعة الثانية نشرتها دار القلم بالكويت.

وقد اطلعت على هذا الكتاب، وأمعنت النظر فيه، فتبين لي فيه رأي لم أجد أحداً قد تنبه إليه، تبين لي أن هذا الكتاب وإن كان له أصل فقد لعبت فيه يد مسلم، فأدخلت فيه ما ليس منه، والذي جعلني أذهب هذا المذهب ليست تلك التعليقات العربية التي وجدت على هامش النسخة الأصلية الموجودة في (فينّا)، وإنّما تلك المبالغات التي وصف بها الإنجيل الرسول ﷺ، نحن نصدّق أن يبشر الإنجيل بالرسول ﷺ ولكننا نستبعد كل البعد أن يكون قد شاع بين أهل الكتاب تلك الخرافات التي شاعت بين المسلمين بعد بعثة الرسول ﷺ، ونسبوها للرسول ﷺ، فنجد في هذا الإنجيل أنّ الله أعطى رسوله محمداً ﷺ كل شيء، وخلق من أجله كل شيء، وجعله قبل كل شيء، انظر ص(٩١، ٩٣، ١١٠)، وفي ص(١١١) يقول حاكياً كلام الرسول ﷺ: «يا رب اذكر أنك لما خلقتني قلت: إنّك أردت أن تخلق العالم والجنة والملائكة -والناس حبّاً فيّ ليمجدوك بي أنا عبدك».

وفي ص (١٦١)، اصبر يا محمد، لأجلك أريد أن أخلق الجنّة والعالم وجمّاً غفيراً من الخلائق التي أهبها لك..».

وفي ص (٢٦٦)، «هذا هو الذي لأجله خلق الله كل شيء».

وفي ص (١٥٢) يقول: «ولذلك لما خلق الله قبل كل شيء رسوله».

هذه الأقوال بدون شكّ غير صحيحة، وهي تناقض الحقّ الذي بين أيدينا، فالله خلق البشر والملائكة والجنَّ لعبادته ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ

إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وأول المخلوقات القلم كما في الحديث «أول ما خلق الله القلم» وهذه الأقوال التي فيها غلو شاعت بين المسلمين، وصاغوها أحاديث نسبوها إلى الرسول ﷺ، ومن هذه الأحاديث الضعيفة والموضوعة حديث «لولاك لما خلقت الأفلاك» (سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة حديث رقم ٢٨٢) وحديث «كنت نبياً وآدم بين الماء والطين» (حديث رقم ٣٠٢، ٣٠٣) وحديث: «كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث» (كتاب الفوائد المجموعة للشوكاني ص ٣٢٦).

وحديث: «لقد خلقت الدنيا وأهلها لأعرفهم كرامتك علي ومنزلتك عندي، ولولاك يا محمد ما خلقت الدنيا» (تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأحاديث الضعيفة والموضوعة: ص ٣٢٥).

وفي هذا المصدر ص ٣٣٧ حديث يقول: «خلقني الله من نوره وخلق أبا بكر من نوري».

وإذا أنت قارنت بين ما نقلته عن إنجيل برنابا وهذه الأحاديث الضعيفة والموضوعة أدركت أن الذي أدخل هذه الأوصاف كان من هذا النوع الذي عشعشت أمثال هذه الأحاديث المكذوبة في ذهنه.

وهناك أمور أخرى منسوبة إلى الرسول ﷺ زوراً، لأنها تخالف الحقَّ الذي في أيدينا، فمن ذلك ما ورد (ص ٢٠٩) من «أن الجحيم ترتعد لحضور الرسول عليه السلام، فيمكث بلا مكابدة عقاب مدة إقامة رسول الله ﷺ لمشاهدة الجحيم». فهذا مخالف لصريح القرآن ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٥].

ومن ذلك نقل هذا الكتاب عن عيسى قوله في (ص ٩٢) «لست أهلاً أن أحل رباطات جرموق أو سيور حذاء رسول الله» ويقول قريباً من هذا في ص (٩٦) و ص (١٦٠)، ومثل هذا بعيد أن يصدر عن رسول من أولي العزم من الرسل.

ومع ذلك فقد وصف الكتاب الرسول ﷺ بأمور فيها تحقير له، ففي ص (١٠٨) يصف الرسول ﷺ بأنّه سيكون كالمخبول، وفي ص (١٠٥) يقول: «إن الله سيجرد رسوله محمد في يوم القيامة من الذاكرة».

المطلب الرابع: بشارات من الأسفار العالمية الأخرى[1]

ألّف: (مولانا عبد الحق قديارتي) كتاباً باللغة الإنجليزية وسماه:

«محمد في الأسفار العالمية» واستفاد في مقارناته ومناقضاته بمعرفته للفارسية والهندية والعبرية والعربية وبعض اللغات الأوروبية، ولم يقنع فيه بكتب التوراة والإنجيل بل عمم البحث في كتب فارس والهند وبابل القديمة، وكانت له في بعض أقواله توفيقات تضارع أقوى ما ورد من نظائرها في شواهد المتدينين كافة..

يقول الأستاذ عبد الحق: إن اسم الرسول العربي (أحمد) مكتوبة بلفظه العربي في السامافيدا Samavida من كتب البراهمة، وقد ورد في الفقرة السادسة، والفقرة الثامنة من الجزء الثاني، ونصها إن «أحمد تلقى الشريعة من ربه» وهي مملوءة بالحكمة، وقد قبست منه النور، كما يقبس من الشمس...».

---

(١) نبوة محمد من الشك إلى اليقين: ص ٢٠٤.

وفي مواضع كثيرة من كتب البراهمة يرى المؤلف أن النبي محمداً مذكور بوصفه الذي يعني الحمد الكثير والسمعة البعيدة، ومن أسمائه الوصفية اسم سشرافا Sushrava الذي ورد في كتاب أثارفا فيدا Atharpha Vida، وكذلك صنع بكتب زرادشت التي اشتهرت باسم الكتب المجوسية، فاستخرج من كتاب زند افستا Zend Avesta نبوءة عن رسول يوصف بأنه رحمة للعالمين «سوشيانت Soeshyant»، ويتصدى له عدو يسمى بالفارسية القديمة أبو لهب Angra Mainyu، ويدعو إلى إله واحد، لم يكن له كفواً أحد «هيج جيز باونمار»، وليس له أول ولا آخر، ولا ضريع ولا قريع، ولا صاحب ولا أب، ولا أم ولا صاحبة ولا ولد ولا ابن ولا مسكن ولا جسد ولا شكل ولا لون ولا رائحة «جز آخاز وانباز ودشمن ومانند ويار وبدر ومادر وزن وفرزند وحاي سوي وتن آسا وتناني ورنك وبوي است».

وهذه هي جملة الصفات التي يوصف بها الله سبحانه في الإسلام: أحد صمد ليس كمثله شيء، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، ولم يتخذ صاحبة ولا ولداً.

ويشفع ذلك بمقتبسات كثيرة من كتب الزرادشتية تنبىء عن دعوة الحق التي يجيء بها النبي الموعود، وفيها إشارة إلى البادية العربية، ويترجم نبذة منها إلى اللغة الإنجليزية معناها بغير تصرف «إن أمة زردشت حين ينبذون دينهم يتضعضعون، وينهض رجل في بلاد العرب يهزم أتباعه فارس، ويخضع الفرس المتكبرين، وبعد عبادة النار في هياكلهم يولون وجوههم نحو كعبة إبراهيم التي تطهرت من الأصنام، ويومئذ يصبحون وهم أتباع للنبي رحمة للعالمين، وسادة لفارس ومديان وطوس وبلخ، وهي الأماكن

المقدسة للزرادشتيين ومن جاورهم، وإن نبيهم ليكونن فصيحاً يتحدث بالمعجزات»[1].

المطلب الخامس: شيوع هذ البشارات قبل البعثة

لقد كانت هذه البشارات منتشرة قبل البعثة النبوية، فلم يكن أهل الكتاب يكتمونها في ذلك الوقت، بل كانوا يذيعونها، ويزعمون أنهم سيتابعون صاحبها عندما يبعث، وقد حفظ لنا المسلمون بعض هذه البشارات، ونقل لنا الأنصار من أهل المدينة أحاديث اليهود قبل البعثة عن هذه البشارات، وقد تعرف بعض أهل الكتاب على الرسول ﷺ في صغره، وانتفع بعض أهل الكتاب بهذه البشارات وآمنوا.

١- صفة رسولنا ﷺ في التوراة:

روى البخاري في صحيحه عن عطاء بن يسار، قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص، قلت: أخبرني عن صفة رسول الله في التوراة، قال: أجل، «والله إنّه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥]، وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سمّيتك المتوكل، ليس بفظّ، ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق [السخب: الصياح]، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولا يقبضه الله حتى يقيم به الملّة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله

(١) ص ٤٧ من كتاب Mohammed in World Scriptures نقلاً من كتاب (مطلع النور) للأستاذ عباس محمود العقاد: ١٤-١٧.

إلا الله، ويفتح بها أعينا عمياً، وآذاناً صمّاً، وقلوباً غلفاً»[1].

وروى الدارمي عن عطاء عن ابن سلام نحوه[2] وعن كعب - وهو من علماء اليهود الذين آمنوا بالنبي ﷺ - قال: «نجد مكتوباً في التوراة محمد رسول الله عبدي المختار، لا فظٌّ ولا غليظ، ولا سخّاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، مولده بمكة، وهجرته بطيبة، وملكه بالشام، وأمته الحمّادون، يحمدون الله في السراء والضراء، يحمدون الله في كلّ منزلة، ويكبرونه على كل شرف، رعاة للشمس، يصلُّون الصلاة إذا جاء وقتها، يتأزرون على أنصافهم، ويتوضؤون على أطرافهم، مناديهم ينادي في جوّ السماء، صفهم في القتال، وصفهم في الصلاة سواء، لهم بالليل دويٌّ كدوي النحل» قال التبريزي: هذا لفظ المصابيح، ورواه الدارمي مع تغيير[3] يسير.

أين هذه البشارة في التوراة:

وهذه البشارة ليست موجودة في التوراة المنتشرة اليوم بين اليهود والنصارى، فإن كان المراد بالتوراة التوراة المعينة فتكون هذه البشارة مما أخفته يهود، وقد تكون مخفية عندهم مما لا يطلع عليه إلاّ أحبارهم[4]،

---

(١) رواه البخاري: ٢١٢٥. الأميون: العرب. والسخب: الصياح والجلبة. والفظ: القاسي القلب.

(٢) مشكاة المصابيح: ٣/ ١٢٥.

(٣) مشكاة المصابيح: ٣/ ١٢٩.

(٤) الذي يظهر لنا أنه كان حتى عهد الرسول ﷺ نسخ غير محرفة من التوراة والإنجيل بدلالة قوله تعالى: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ [المائدة: ٤٧] وقوله: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٣]، وقوله: ﴿لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨]. =

إلاّ أنه قد تطلق التوراة ولا يراد بها توراة موسى، بل يراد بها الكتب المنزلة من عند الله، وقد يطلق على الكتب المنزلة اسم القرآن، كما في الحديث الصحيح «خفّف على داود القرآن، فكان ما بين أن يسرج دابته إلى أن يركبها يقرأ القرآن» والمراد به قرآنه وهو الزبور. وجاء في بعض البشارات عن هذه الأمة «أناجيلهم في صدورهم» فسمى القرآن إنجيلاً، وعلى ذلك فهذه البشارة موجودة عندهم في نبوة أشعيا، فقد جاء فيها: «عبدي الذي سرّت به نفسي، أنزل عليه وحيي، فيظهر في الأمم عدلي، ويوصيهم بالوصايا، لا يضحك، ولا يسمع صوته في الأسواق، يفتح العيون العور، والآذان الصمّ، ويحيي القلوب الغلف، وما أعطيه لا أعطية أحداً، يحمد الله حمداً جديداً، يأتي من أقصى الأرض، وتفرح البريّة وسكانها، يهللون على كلِّ شرف، ويكبرونه على كل رابية، لا يضعف، ولا يغلب، ولا يميل إلى الهوى مشقح، ولا يذلّ الصالحين الذين هم كالقصبة الضعيفة، بل يقوّي الصديقين، وهو ركن المتواضعين، وهو نور الله الذي لا ينطفي، أثر سلطانه على كتفيه»[1].

= فقد كانت هناك نسخ كثيرة محرفة وبعض النسخ لم يصبها التحريف، ولكن اليهود كانوا يخفونها، ولعلّ بعضاً من هذه النسخ لا تزال إلى يومنا يخفيها بعض علماء اليهود والنصارى، ويذكر صاحب كتاب «محمد نبي الإسلام» ص (٤٦) نقلاً عن مجلة «الأيكونومست» البريطانية أن أول عمل يؤديه المرشح لوظيفة في (الكوريا) أي الإدارية المركزية للكنيسة الكاثولوكية هو أن يقسم اليمين المقدسة على كتمان كل شيء يصل إلى علمه أو يقع تحت بصره، من معلومات خصوصاً عن ثروة الكنيسة ومواردها إلى جانب ما يملكه الفاتيكان من تحف وثروة فنية تعتبر من أثمن الثروات في العالم. ولا شك أن عبارة ثروة فنية تشمل مكتبة الفاتيكان الضخمة بما تحويه من كتب في الديانة المسيحية لو تركت للبحث العلمي الحر لألقت أضواءً لامعة على حقبة مجهولة من تاريخ المسيحية في قرونها الأولى المظلمة.

(١) الجواب الصحيح لابن تيمية: (٣/ ٢٨١).

٢- خبر ابن الهيبان:

ومما حفظته لنا كتب السنة عن علماء اليهود قبل الإسلام أن رجلاً من اليهود كان يدعى ابن الهيبان قدم المدينة ونزل في يهود بني قريظة قبل الإسلام بسنين، قال راوي القصة: ما رأينا رجلاً قط لا يصلي الخمس أفضل منه، فأقام عندنا إذا قحط عنا المطر قلنا له: اخرج يا ابن الهيبان فاستسق لنا، فيقول: لا والله حتى تقدموا بين مخرجكم صدقة، فنقول له: كم؟ فيقول: صاعاً من تمر، أو مدّين من شعير، قال: فنخرجها، ثمَّ يخرج بنا إلى ظاهر حرثنا، فيستسقي لنا، فوالله ما يبرح مجلسه حتى يمر السحاب ويسقي، وقد فعل ذلك غير مرة ولا مرتين ولا ثلاثاً.

قال: ثمَّ حضرته الوفاة عندنا، فلمّا عرف أنّه ميت قال: يا معشر يهود، ما ترونه أخرجني من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع؟ قال: قلنا: الله أعلم.

قال: فإني إنّما قدمت هذه البلدة أتوكف خروج نبي قد أظل زمانه، هذه البلدة مهاجره، فكنت أرجو أن يبعثه الله، وقد أظلّكم زمانه، فلا تسبقّن إليه يا معشر يهود، فإنّه يبعث بسفك الدماء، وسبي الذراري، فيمن خالفه، فلا يمنعنكم ذلك منه، وقد انتفع بوصية ابن الهيبان مجموعة من شباب يهود بني قريظة، وهم ثعلبة بن سعيه، وأسيد بن سعيه، وأسد بن عبيد، فإنّ الرسول ﷺ -لما حاصر بني قريظة- قال هؤلاء الفتية وكانوا شباباً أحداثاً: يا بني قريظة، والله إنّه للنبي الذي عهد إليكم ابن الهيبان، قالوا: ليس به، قالوا: بلى، إنّه لهو صفته، فنزلوا، فأسلموا فأحرزوا دماءهم وأموالهم ورحالهم[1].

---

(١) البداية والنهاية: ١/ ٣١٠.

٣- خبر يوشع:

وروى أبو نعيم في دلائل النبوة بإسناده عن محمد بن سلمة، قال: لم يكن في بني عبد الأشهل إلا يهودي واحد، يقال له: يوشع، فسمعته يقول -وإني لغلام في إزار- : قد أظلّكم خروج نبي يبعث من نحو هذا البيت، ثمّ أشار بيده إلى بيت الله، فمن أدركه فليصدّقه، فبعث رسول الله فأسلمنا وهو بين أظهرنا، ولم يسلم حسداً وبغياً[١].

٤- خبر عبد الله بن سلام:

وقد كان عبد الله بن سلام سيد اليهود وأعلمهم وابن سيدهم وأعلمهم، قال: لما سمعت برسول الله ﷺ وعرفت صفته واسمه وهيئته وزمانه الذي كنا نتوكف له، (نتوكف: ننتظر) فكنت بقباء مسراً صامتاً عليه، حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة، فلمّا قدم نزل بقباء في بني عمرو بن عوف، فأقبل رجل حتى أخبر بقدومه، وأنا في رأس نخلة لي أعمل فيها، وعمتي خالدة بنت الحارث تحتي جالسة، فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله ﷺ كبرّت، فقالت عمتي حين سمعت تكبيري: لو كنت سمعت بموسى بن عمران ما زدت، قال: قلت لها: أي عمّة، والله هو أخو موسى بن عمران، وعلى دينه بعث بما بعث به.

قال: فقالت: يا ابن أخي أهو الذي كنّا نخبر أنّه يبعث مع الساعة؟ قال: قلت: نعم، قالت: فذاك إذاً[٢].

---

(١) البداية والنهاية: ٢/ ٣٠٩.

(٢) ابن إسحاق في السيرة (البداية: ٣/ ٢١١).

وقد ذكر البخاري قصة مجيء عبد الله بن سلام إلى الرسول ﷺ وإسلامه وطلبه من الرسول ﷺ أن يرسل إلى اليهود ويسألهم عنه قبل أن يعلموا بإسلامه، فلما جاؤوا قال لهم الرسول ﷺ: «يا معشر يهود، ويلكم اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنّي رسول الله حقاً، وأنّي جئتكم بحقٍّ، فأسلموا» قالوا: ما نعلمه، قالوا للنبي ﷺ، [قالها ثلاث مرات] قال: «فأي رجل فيكم عبد الله بن سلام؟» قالوا: ذاك سيدنا وابن سيدنا، وأعلمنا وابن أعلمنا، قال: «أفرأيتم إن أسلم، قالوا: حاش لله ما كان ليسلم [سألهم ذلك ثلاثاً، ويرددون عليه بالجواب نفسه]، قال: «يا ابن سلام، اخرج عليهم»، فخرج، فقال: يا معشر اليهود، اتقوا الله فوالله الذي لا إله إلا هو، إنكم لتعلمون أنّه رسول الله، وأنّه جاء بحق. فقالوا: كذبت. فأخرجهم رسول الله ﷺ[1].

٥- شهادة غلام يهودي:

وروى أنس بن مالك أنَّ غلاماً يهودياً كان يخدم النبيَّ ﷺ، فمرض، فأتاه رسول الله ﷺ يعوده، فوجد أباه عند رأسه يقرأ التوراة، فقال له رسول الله ﷺ: «يا يهودي أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى، هل تجد في التوراة صفتي ومخرجي؟ قال: لا.

قال الفتى: بلى والله يا رسول الله، إنّا لنجد في التوراة نعتك ومخرجك، وإنّي أشهد أن لا إله إلا الله، وأنّك رسول الله» رواه البيهقي بإسناد صحيح[2].

---

(١) صحيح البخاري: ٣٩١١.

(٢) الجواب الصحيح: (٣/ ٢٨٧).

٦- فراسة راهب:

وقد تعرف على الرسول ﷺ أحد الرهبان وهو صغير، عندما كان في تجارة مع عمّه أبي طالب إلى الشام، روى أبو موسى قال: خرج أبو طالب إلى الشام، وخرج معه النبيُّ ﷺ في أشياخ من قريش، فلمّا أشرفوا على الراهب هبطوا، فحلّوا رحالهم، فخرج إليهم الراهب، وكانوا قبل ذلك يمرون به فلا يخرج إليهم، قال: فهم يحلّون رحالهم، فجعل يتخللهم الراهب، حتى جاء فأخذ بيد رسول الله ﷺ، قال: هذا سيّد العالمين، هذا رسول ربِّ العالمين، يبعثه الله رحمة للعالمين.

فقال له أشياخ من قريش: ما علمك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلاّ خرّ ساجداً، ولا يسجدان إلاّ لنبي، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة، ثمَّ رجع فصنع لهم طعاماً، فلمّا أتاهم به، وكان هو في رعية الإبل، فقال: أرسلوا إليه، فأقبل وعليه غمامة تظلّه، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء الشجرة، فلمّا جلس مال فيء الشجرة عليه، فقال: انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه[1].

٧- معرفة علماء اليهود بموعد خروج النبي ﷺ:

عندما اقترب موعد خروج المصطفى ﷺ علم أهل الكتاب بذلك بأمارات كانت عندهم، فقد روى أبو زرعة بإسناد صحيح عن أسامة بن زيد

(١) الحديث رواه الترمذي وقال: حديث حسن غريب. (انظر مشكاة المصابيح: ٣/ ١٨٧) وقال الشيخ ناصر في تعليقه على الحديث في المشكاة: رجاله ثقات. والحديث صحيح كما بينته في مقال نشرته في (مجلة التمدن الإسلامي).

عن أبيه زيد بن حارثة أن الرسول ﷺ التقى بزيد بن عمرو بن نفيل قبل البعثة، وكان مما أخبر به زيد الرسول ﷺ أنه رحل في طلب الدين الحق دين التوحيد فقال له حبر في الشام: إنك لتسأل عن دين ما نعلم عليه أحداً يعبد الله به إلاّ شيخ بالجزيرة.

قال فخرجت: فقدمت عليه، فأخبرته بالذي خرجت له، فقال: إن كلّ من رأيت في ضلالة، ممنّ أنت؟

قلت: أنا من أهل بيت الله، ومن أهل الشوك والقرظ.

فقال: إنه قد خرج في بلدك نبيّ، أو خارج، قد خرج نجمه، فارجع فصدقه واتبعه، فرجعت فلم أحسّ شيئاً بعد[1].

كان زيد يحدّث بهذا الرسول ﷺ قبل بعثته، ولم يكن يعلم أنَّ الذي يحدثه هو الرسول ﷺ الذي ظهر نجمه، ومات زيد قبل البعثة بسنوات.

وقد سبق ذكر خبر ابن الهيبان، الذي خرج من الشام إلى المدينة، فقد قال لليهود عندما حضرته الوفاة: «إنّما أخرجني توقع خروج نبيّ قد أظلّ زمانه، هذه البلاد مهاجره».

وفي صحيح البخاري: كان ابن الناطور صاحب إيلياء وهرقل سُقُفاً على نصارى الشام، يحدث أن هرقل حين قدم إيلياء أصبح يوماً خبيث النفس، فقال بعض بطارقته: قد استنكرنا هَيْئَتَك، قال ابن الناطور: وكان هرقل حَزّاءً ينظر في النجوم، فقال لهم حين سألوه: إني رأيت الليلة حين نظرت في النجوم مَلِكَ الختانِ قد ظهر» وقال هرقل في آخر كلامه: «هذا ملك هذه الأمة قد ظهر»[2] يعني العرب.

---

(١) الجواب الصحيح: ٣/ ٢٨٥.

(٢) صحيح البخاري: كتاب بدء الوحي حديث رقم: ٧. والأسقف مرتبة دينية عند النصارى. والحزاء: يقال للناظر في النجوم، لأنه يقدر الأمور بظنه.

المبحث الثالث

النظر في أحوال الأنبياء

إذا شئت أن تسبر غور إنسان، وتتعرف على صدقه وأمانته، فإنّك تنظر في قسمات وجهه، وتحصي عليه أفعاله وأقواله، وتراقب حركاته وسكناته، والذين يستغلق عليك أن تصل في شأنهم إلى اليقين هم أولئك الذين لا تقابلهم إلا مقابلة سريعة، أو أولئك الذين يخفون أنفسهم، ويتكلفون في أقوالهم وأفعالهم فلا يظهرون على طبيعتهم.

والأنبياء والرسل كانوا يخالطون أقوامهم، ويجالسونهم ويعاشرونهم، ويعاملونهم في أمور شتى، وبذلك يتسنى للناس أن يدرسوهم عن كثب، ويتعرفوا إليهم عن قرب، ولقد كانت قريش تسمي رسول الله ﷺ قبل بعثته بالأمين، وذلك لصدقه وأمانته، وعندما قال لهم الرسول ﷺ في مطلع الدعوة: «لو أخبرتكم أنّ وراء هذا الوادي خيلاً تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟ قالوا: ما جربنا عليك كذباً»[1].

وقد أرشد القرآن إلى هذا النوع من الاستدلال ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦].

يقول لهم: لقد مكثت فيكم زمناً ليس باليسير قبل أن أخبركم بأنني

---

(١) رواه البخاري: (٤٧٧٠)، ومسلم: (٢٠٨) (٣٥٥) من حديث ابن عباس. وانظر «جامع الأصول»: ٢/ ٢٨٦-٢٨٨ (٧٣٩).

نبي، فكيف كانت سيرتي فيكم؟ وكيف كان صدقي إيّاكم؟ أفأترك الكذب على الناس، وأكذب على ربّ الناس، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ ألا تعملون عقولكم لتهديكم إلى الحق؟!.

إن المعدن الجيد يدلّ على نفسه بنفسه، والفاكهة الصالحة يدلُّ على صلاحها لونها وشكلها ورائحتها وطعمها، والمصباح الرائع ضوؤه يهدي إليه ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥].

بعض الناس لم يحتج إلى برهان ودليل ليستدل بذلك على صدق الرسول ﷺ، لأنّ شخصه وحياته وسيرته هي أعظم دليل، ومن هؤلاء أبو بكر الصديق، فإنّ الرسول ﷺ عندما دعاه لم يتردد. ونظر عبد الله بن سلام في وجه الرسول ﷺ نظرة واحدة، ولكنّها كانت كافية لتدلّه على أنّ هذا وجه صادق ليس بكاذب، قدم الرسول ﷺ المدينة، وخرج عبد الله ابن سلام عالم اليهود مع الخارجين ينظر في وجه الرسول ﷺ قال: «فلما رأيت وجهه علمت أن وجهه ليس بوجه كذّاب»[1].

وخديجة التي عرفت الرسول زوجاً وخالطته عن قرب قبل أن تعرفه نبياً رسولاً، لم تتردد في أنّ الله لن يخزيه أبداً، ولن يصيبه ضير، ذلك أنّ سنة الله في أمثال الرسول ﷺ أن يكرّموا ويشرّفوا، ولذلك قالت له عندما جاءها قائلاً: «لقد خشيت على نفسي» وذلك بعد أن فجأه الوحي في غار حراء قالت: «كلاّ والله لا يخزيك الله أبداً، إنّك لتصل الرحم، وتحمل

---

(١) رواه أحمد في مسنده، والترمذي في سننه وقال: حديث صحيح وابن ماجة في سننه (البداية والنهاية: ٣/ ٢١٠).

الكلّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق»[1].

هرقل وأبو سفيان:

وقد أعمل هرقل ملك الروم عقله وفكره وعلمه بأحوال الرسل وصفاتهم، فاهتدى إلى أنّ محمداً مرسل من ربّه، ولكنه لم يؤمن ضنّاً بملكه.

أرسل الرسول ﷺ إلى ملوك الأرض في عصره يدعوهم إلى الإسلام، وكان هرقل ملك الروم من هؤلاء الذين أرسل إليهم، فلما جاءه كتاب الرسول ﷺ طلب من كان هناك من العرب، وكان أبو سفيان قد قدم في طائفة من قريش في تجارة إلى الشام، وسألهم عن أحوال النبيّ ﷺ، فسأل أبا سفيان، وأمر الباقين إن كذب أن يكذبوه، فصاروا بسكوتهم موافقين له في الأخبار.

وإليك الحوار الذي جرى بينهما يحكيه أبو سفيان.

«كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟

قلت: هو فينا ذو نسب.

قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟

قلت: لا.

قال: فهل كان من آبائه مِن مَلِك؟

قلت: لا.

---

(١) صحيح البخاري: كتاب بدء الوحي، حديث رقم: (٣).

قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟

فقلت: بل ضعفاؤهم.

قال: أيزيدون أم ينقصون؟

قلت: بل يزيدون.

قال: فهل يرتدّ أحد منهم سَخْطَةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟

قلت: لا.

قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟

قلت: لا.

قال: فهل يغدر؟

قلت: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها، قال: ولم تمكّني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة.

قال: فهل قاتلتموه؟

قلت: نعم.

قال: فكيف كان قتالكم إياه؟

قلت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منّا وننال منه.

قال: فماذا يأمركم؟

قلت: يقول: اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والزكاة والصدق، والعفاف والصلة.

فقال للترجمان:

قل له: سألتك عن نسبه، فذكرت أنّه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها.

وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول؟ فذكرت أن لا، فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت: رجل يأتسي بقول قيل قبله.

وسألتك هل كان من آبائه من ملك؟ فذكرت أن لا، قلت: فلو كان من آبائه من مَلِك قلت: رجل يطلب ملك أبيه.

وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أن لا، فقد أعرف أنّه لم يكن ليذر الكذب على الناس، ويكذب على الله.

وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاءَهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل، وسألتك أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتمَّ.

وسألتك أيرتد أحد سَخْطَةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب.

وسألتك هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر.

وسألتك بما يأمركم؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف.

فإن كان ما تقول حقّاً فسيملك موضع قَدَمَيَّ هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظنُّ أنّه منكم، فلو أني أعلم أنّي أَخْلُصُ إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه»[1].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي حديث رقم: ٧.

زهدهم في المتاع الدنيوي:

ومما يدلُّ على صدق الرسل من خلال التأمل في سيرتهم، أنّ الرسل أزهد النّاس في متاع الدنيا وعرضها الزائل، وبهرجها الكاذب، لا يطالبون الناس الذين يدعونهم أجراً ولا مالاً، فهم يبذلون لهم الخير لا ينتظرون منهم جزاءً ولا شكوراً، هذا أوّل الرسل يقول لقومه: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِى ۚ﴾ [هود: ٢٩].

وهذا آخر الرسل يأمره الله بمثل ذلك: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٥٧].

وقص الله علينا في سورة الشعراء طرفاً من قصة نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وكلّ منهم يقول لقومه: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠].

المبحث الرابع
دعوة الرسل

النظر في دعوة الرسل مجال خصب يدلنا على مدى صدقهم، فقد جاءت الرسل بمنهج متكامل لإصلاح الإنسان، ولإصلاح المجتمع الإنساني، ودين كهذا يقول الذين جاؤوا به إنّه منزل من عند الله لا بدّ أن يكون في غاية الكمال، خالياً من النقائص والعيوب، لا يتعارض مع فطرة الإنسان، وسنن الكون، وقد وجهنا القرآن إلى هذا النوع من الاستدلال، فقال: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

فكونه وحدة متكاملة يصدق بعضه بعضاً، لا تناقض فيه ولا اختلاف -دليل واضح على صدق الذي جاء به.

والنظر في المقاصد التي تدعو إليها الرسل، والفضائل والقيم التي يُنادون بها كلٌّ ذلك من أعظم الأدلة على صدقهم، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

ولقد ألَّف العلماء مؤلفات في بيان كمال هذا الدين وشموله وبيان حكمة التشريع، وبيان القواعد والأسس التي تجعل هذا الدين بناء محكماً، يردد الناس النظر فيه فلا يجدون فيه عيباً ولا نقصاً.

وقد ميز الله البشر بالعقل، وأودع عقولهم إدراك قبح القبيح، وإدراك حسن الحسن، إلاّ أنّ رحمته جلّ وعلا اقتضت ألاّ يعذب خلقه على تركهم الحسن وفعلهم القبيح ما لم يُقِم عليهم الحجةَ بإرسال الرسل.

وقد سئل أعرابيٌّ: بم عرفت أنّ محمداً رسول الله؟ فقال: ما أمر بشيء

فقال العقل: ليته ينهى عنه، ولا نهى عن شيء، فقال العقل: ليته أمر به[1].

وهذا الذي استدل به الأعرابي في غاية الجودة، فإن الرسل جاءت من عند الله بعلوم وشرائع يعلم العاقل المنصف عند التأمل فيها أنّه لا يمكن أن تكون آراء البشر ولا أفكارهم.

دعوة نبينا محمد ﷺ:

والناظر في دعوة نبينا محمد ﷺ يكون مكابراً أعظم المكابرة إن لم يعتبر ولم يؤمن، فنبينا عليه السلام جاء بهذا القرآن الذي عجزت الإنس والجنُّ عن الإتيان بمثله، وقد حوى من الأخبار الماضية والآتية، والعلوم المختلفة ما يخضع له المنصف، ويجعله يسبح بحمد الله طويلاً.

هذا الكتاب وتلك العلوم تصل إلينا على يد رجل أميّ، لم يمسك بالقلم يوماً، ولم يكن يقرأ ما سطره العلماء والكتاب من قبل ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] ليس أمراً عادياً أن يتحول رجل أميّ بين عشية وضحاها إلى معلم بشرية، يبذل العلم للناس، ويقوّم علوم السابقين، ويبين ما فيها من تحريف وتغير.

لقد كان هذا الدليل يجول في نفوس أهل مكة، فهم يعرفون محمداً ﷺ قبل أن يأتيهم بما أتاهم به، ويعلمون أُميته، ولذلك لم يكن منهم إلا التمحل وجحود الحقّ بعد معرفته ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣] لقد وصلت بهم السفاهة إلى الزعم بأن الذي يأتي محمداً ﷺ بهذا العلم حداد رومي كان بمكة، وإنه لفرية مضحكة ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

---

(١) مفتاح دار السعادة: ٢/ ٦-٧.

المبحث الخامس

تأييد الله لرسله ونصرته لهم

ومما يدلنا على صدق الأنبياء والمرسلين نصرة الله لهم وحفظه إياهم، فإنّه يستحيل على الله تعالى أن يتقول عليه متقول، فيدعي أنّه مرسل من عند الله وهو كاذب في دعواه، ثمّ بعد ذلك يؤيده الله وينصره، ويرسل الملائكة لتثبيته وحمايته، لو فعل هذا ملك من ملوك الأرض، فادعى مدع أنّه مرسل من قبله كذباً وزوراً، وعلم بذلك الملك المفترى عليه، فإنّه سيلاحقه، وإذا ظفر به فسيوقع به أشدَّ العذاب، فكيف يليق بخالق الكون العليم الحكيم أن يرى ويسمع رجلاً يكذب عليه، ويزعم أنّه رسوله، ويحلل باسمه ويحرم، ويشرع الشرائع، ويضرب الرقاب، ويزعم أنه يفعل ذلك بأمر الله وبرضاه ومشيئته، ثم يؤيده الله وينصره، ولا يوقع به عقابه وعذابه؟ هذا لا يكون أبداً، وإن وقع مثل هذا من كاذب مارق وظهر أمره، وقويت شوكته يوماً، فلن يطول ذلك، ولا بدَّ أن يكشف الله أمره، ويهتك ستره، ويسلط عليه من يقهره، ويجعله عبرة لغيره، كما فعل الله بمسيلمة وسجاح والأسود العنسي من قبل[1].

وقد أشار الله تعالى لهذا النوع من الاستدلال فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل:١١٦] فحكم عليهم بعدم الفلاح، وقال:

---

(١) راجع شرح العقيدة الطحاوية: ص ١٦٥-١٦٧ وقد استدل بشيء قريب من هذا ابن القيم في كتابه هداية الحيارى انظر الجامع: (ص ٥٦٢).

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦] والمعنى أنّ الرسول ﷺ لو تقوّل على الله ما لم يقله الله لأهلكه الله.

وهذا الدليل ذو تأثير كبير على نفوس الناس، فإن العرب لمّا رأت انتصار الإسلام صدقت وآمنت ودخلت في دين الله أفواجاً ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ [النصر: ١-٢].

شبهة:

وما يذكره بعض المكذبين برسالة محمد ﷺ من أنّ النصر تمّ لفرعون ونمرود وجنكيزخان وغيرهم من الملوك الكفرة في القديم والحديث، جوابه ظاهر، فإن هؤلاء لم يدع أحد منهم النبوة، وأن الله أمره أن يدعو إلى عبادته وطاعته، ومن أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار بخلاف من ادعى أن الله أرسله، ثمّ يؤيده الله وينصره، وينصر أتباعه ويجعل العاقبة لهم فإنّه لا يكون إلاّ رسولاً صادقاً، فلو كان كاذباً فلا بدّ أن ينتقم الله منه، ويقطع دابره، واعتبر في هذا بحال مسيلمة والأسود العنسي وسجاح، واعتبر هذا بحال المسيح الدجال، فإنّه يفتري على الله الكذب ويدعي الألوهية، فيكشف الله ستره، ويظهر أمره لمن كان عنده بصيرة، فهو رجل أعور، مكتوب بين عينيه كافر، وإنمّا يلتبس أمره على من لم يرزق نور الإيمان.

الفصل الثامن

فضل الأنبياء وتفاضلهم

المبحث الأول

فضل الأنبياء على غيرهم

المطلب الأول: الأدلة على هذا التفضيل

خلق الله الخلق وفاضل بينهم: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨] وقد اختار من أرضه مكة، فجعلها مقرّ بيته العتيق الذي من دخله كان آمناً، وجعل أفئدة من الناس تهوي إليه، وأوجب على الناس الحج إليه من استطاع إليه سبيلاً، وحرّم صيد الحرم وقطع شجره، وجعل الأعمال الصالحة فيه مضاعفة، وجعل إرادة الظلم فيه مستحقة العذاب الأليم، ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥] واختار من الشهور شهر رمضان، ومن الليالي ليلة القدر، ومن الأيام يوم عرفة، ومن أيام الأسبوع يوم الجمعة، وفاضل الله بين الملائكة فاختار منهم الملائكة الذين يحملون رسالته إلى رسله وأنبيائه، واصطفى الله من بني آدم الأنبياء، فالأنبياء أفضل البشر، وأفضل الأنبياء الرسل، ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥].

وقد أجمعت الأمة على تفضيل الأنبياء[1] على غيرهم من الصديقين والشهداء والصالحين.

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ١١/ ٣٢١.

ويدلُّ على تفضيلهم قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ كُلًّا هَدَيْنَا ۖ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٣-٨٦].

وقد أخبر الرسول ﷺ أنّه: «ما طلعت الشمس ولا غربت بعد النبيين والمرسلين على أفضل من أبي بكر»[(١)].

ويؤخذ من الحديث أن الأنبياء والمرسلين أفضل الخلق، وأنّ أفضل رجل بعدهم أبو بكر الصديق.

وقريب من هذا الحديث قول الرسول ﷺ في أبي بكر وعمر «هذان سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين، إلاّ النبيين والمرسلين»[(٢)].

وقد رتب الله عباده السعداء الذين أنعم عليهم أربع مراتب، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

فأول هذه المراتب وأعلاها الأنبياء ثم الصديقون ثم الشهداء، ثم الصالحون.

---

(١) أخرجه بنحوه عبد بن حميد في «مسنده» ورقمه: (٢١٢) من حديث أبي الدرداء، وأخرجه أيضاً عبد الله بن أحمد في كتاب «فضائل الصحابة» ورقمه: (٥٠٨).

ولفظه في «مسند عبد بن حميد»: عن أبي الدرداء، أن رسول الله ﷺ قال: «ما طلعت الشمس ولا غربت على أحد أفضل، وأخير، من أبي بكر، إلا أن يكون نبيٌّ».

(٢) أخرجه الترمذي: (٣٦٦٤) من حديث أنس بن مالك، و(٣٦٦٥) من حديث علي بن أبي طالب، وكلاهما صحيح.

لا مجال للمصادفة:

قد يظنّ ظانٌّ أن للمصادفة هنا محلاً، وأن من الأنبياء من أصابته النبوة وهو لا يستحقها، معاذ الله، ولكنّ الله العليم الحكيم الخبير نظر في معادن العباد وقلوبهم، واختار منهم واصطفى الأفضل الأكمل، وصدق الله إذ يقول: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

إنّ حكمة الله وعلمه قاضيان بأن لا تمنح النبوة والرسالة إلاّ للمستعد لها والقادر على حملها[1]، وإذا تأملت في سيرة أنبياء الله ورسله رأيتهم أبرّ الناس قلوباً، وأعمقهم علماً، وأحضرهم بديهة، وأشدّهم تحملاً، وأرقهم طباعاً.. فلا عجب أن يختارهم الله ليكونوا أمناء وحيه، والعاملين على إقامة دينه، فهم القمم السامقة التي تعجز النفوس عن أن تبلغ مداها.

---

(١) المهتدون بهدى الكتاب والسنة يرون أنّ الرسل أفضل الخلق وأكملهم، وقد اختارهم العليم الخبير كي يكونوا سفراءه إلى خلقه، وينبغي أن نفرق بين ما جبلهم الله عليه من الفضائل والمزايا وبين ما أوحاه إليهم، فالذي أوحي إليهم به لم يكن لهم به علم، وليس لذكائهم وفطنتهم من شيء فيه، ولذلك قال الله لرسوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢] وهذا يرد على ذلك الصنف من الذين يزعمون أنهم يعظمون الرسول ﷺ، ويصفونه بالعبقرية، ثم ينسبون كل شيء إلى عبقريته، حتى العلوم التي جاء بها، وهذه خدعة ماكرة، يريدون من ورائها إنكار الوحي، ونسبة هذه العلوم الإلهية الربانية إلى العبقرية المحمدية، ونحن في الرد عليهم لا نشتط فننكر مزايا الرسول وفضله، ولكننا نبطل باطلهم، ونثبت الجانب الحق فيه، وهو أن محمداً ليس عبقرياً فقط، بل هو مع ذلك رسول رب العالمين.

المطلب الثاني: دعوى تفضيل الأئمة على الأنبياء

وقد خالفت في هذه المسألة التي أجمعت عليها الأمة طوائف من الذين ينتسبون إلى الإسلام، فمن هؤلاء الشيعة الإمامية الاثني عشرية، يقول عالم من علمائهم البارزين المعاصرين[1] في هذا الموضوع: «إن من ضرورات مذهبنا أنّ لأئمتنا مقاماً لا يبلغه ملك مقرب ولا نبيٌّ مرسل»[2] وقال أيضاً: «ورد عنهم (أي الأئمة): إنّ لنا مع الله حالات، لا يسعها ملك مقرب، ولا نبيٌّ مرسل، ومثل هذه المنزلة موجودة لفاطمة الزهراء»[3][4].

---

(١) هو الخميني الذي فجرّ الثورة في إيران.

(٢) انظر كتاب الحكومة الإسلامية للخميني: ص ٥٢.

(٣) المرجع السابق.

(٤) غلا الخميني في الأئمة غلواً عظيماً فقد رفعهم فوق مرتبة البشر، وعدهم في مرتبة الآلهة، يقول في كتاب الحكومة الإسلامية ص ٥٢: «إن للإمام مقاماً محموداً ودرجة سامية وخلافة تكوينية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات الكون» ولا أفهم من هذه الخلافة التكوينية التي تخضع لها جميع ذرات الكون إلا تلك التي حدثنا الله بها عن نفسه ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. ويقول في الكتاب السابق أيضاً: «والأئمة كانوا قبل هذا العالم أنواراً، فجعلهم الله بعرشه محدقين، وجعل لهم من المنزلة والزلفى ما لا يعلمه إلا الله» تأمل كيف وصفهم بأنهم كانوا موجودين قبل خلق العالم، وكان وجودهم نوراً، وكانوا محدقين بالعرش، وكل ذلك من الغلو الشديد المخالف لصريح الكتاب والسنة.

وبعد إعداد هذا البحث وقبل دفعه إلى المطبعة طالعتنا وكالات الأنباء والصحف بكلام للخميني لا يقل خطورة عن الكلام الذي أثبتناه من كتابه، قاله بمناسبة ميلاد المهدي الغائب الذي تزعم الشيعة اختفاءه منذ أكثر من ألف عام ويزعمون بقاءه حياً وأنه سيعود مرة أخرى ليملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً وظلماً.

وفي كلامه هذا يزعم أن الأنبياء والرسل جميعاً وفيهم محمد ﷺ لم ينجحوا في إصلاح البشرية وتنفيذ العدالة، وأن الذي سينجح في ذلك هو المهدي المنتظر، وأنه الشخص الوحيد في العالم الذي سيحقق ذلك. يقول في كلامه الذي نشرته بنصه صحيفة الرأي العام الكويتية بتاريخ =

قال الألوسي رحمه الله في «مختصر التحفة ص ١٠٠» مبيناً قول الشيعة في هذه المسألة: «أجمع الإمامية على أن الإمام أفضل من غير أولي العزم من الرسل والأنبياء، وليس بأفضل من خاتم النبيين عليه وعليهم السلام، وأما غيره من سائر أولي العزم فقد توقف فيه بعضهم كابن المطهر الحلي وغيره، ويعتقد بعضهم أنه مساوٍ لهم، وهذا مخالف لما ورد عن الأئمة، فقد روى الكليني عن هشام الأحول عن زيد بن علي أن الأنبياء أفضل من الأئمة، وأن من قال غير ذلك فهو ضال، وروى ابن بابويه عن الصادق ما ينص على أن الأنبياء أحبّ إلى الله من عليٍّ».

وقد رد الألوسي -رحمه الله- قولهم بنصوص الكتاب وبالمعقول

= (٣٠/٦/١٩٨٠) «الأنبياء جميعاً جاؤوا من أجل إرساء قواعد العدالة في العالم كله، لكنهم لم ينجحوا، وحتى إن النبي محمداً عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء الذي جاء لإصلاح البشرية وتنفيذ العدالة لم ينجح في ذلك في عهده.. وإن الشخص الذي سينجح في ذلك ويرسى قواعد العدالة في جميع أنحاء العالم ويقوم الانحرافات هو المهدي المنتظر».

لا والله ما ذلك بحق وليس بصدق، فإن أحداً لم ينجح نجاح محمد ﷺ في تحقيق العدالة، ولن يأتي أحد بعده يحقق ما حققه المصطفى صلوات الله وسلامه عليه. ويؤكد الخميني كلامه السابق فيقول: «لا يوجد في العالم أحد سوى المهدي من أجل تنفيذ العدالة بمعناها الحقيقي..» ويقول: «إن الإمام المهدي عليه السلام سيعمل على نشر العدالة في جميع أنحاء العالم وسينجح فيما فشل في تحقيقه الأنبياء والأولياء بسبب العراقيل التي كانت في طريقهم..» ومن هنا يرى الخميني أن عيد المهدي هو أكبر أعياد المسلمين «إن عيد المهدي هو أكبر عيد للبشرية بأجمعها» وهذا يعني أنه أعظم من عيد الفطر والأضحى، وقد فضله على عيد مولد المصطفى ﷺ من جهة: «إن هذا العيد الذي هو عيد كبير بالنسبة للمسلمين يعتبر أكبر من عيد ميلاد النبي عليه السلام من جهة واحدة، ويقول: «إن عيده هو عيد جميع أبناء البشرية، لأنه سيهدي جميع أبناء البشر».

وختم كلامه مفضلاً إياه على غيره: «إني لا أتمكن من تسميته بالزعيم لأنه أكبر وأعظم وأرفع من ذلك، ولا أتمكن من تسميته بالرجل الأول لأنه لا يوجد أحد بعده، وليس له ثان ولذلك لا أتمكن من التعبير عنه بأي كلام سوى المهدي المنتظر الموعود» إننا لا نستغرب هذا الكلام بعد ما قرأناه في كتاب الحكومة الإسلامية. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وبتضعيف النصوص التي اعتمدوا عليها لضعف رجالها، ولكونها معارضة للنصوص الأخرى الموجودة في كتبهم، وهي ردود شافية لمن أراد معرفة الحقّ واتباعه فارجع إليه.

وقد ترددت هذه الأقوال المفضلة للأئمة على الأنبياء في كتب الشيعة كثيراً، فقد ذكر علي موسى البهبهاني في كتابه مصباح الهداية في إثبات الولاية[1] (ص ٦١ -٦٢) أن الأمامة مرتبة فوق النبوة.

ولذلك فقد حكموا بكفر من أنكر إمامة أئمتهم أو إمامة واحد منهم، قال ابن بابويه القمي الملقب عندهم بالصدوق:

«اعتقادنا فيمن جحد إمامة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب والأئمة من بعده أنّه كمن جحد نبوة جميع الأنبياء، واعتقادنا فيمن أقرّ بأمير المؤمنين وأنكر واحداً من بعده من الأئمة أنّه بمنزلة من أقرّ بجميع الأنبياء وأنكر نبوة نبينا محمد» «رسالته في الاعتقادات ص ١٠٣».

وقال المفيد: «اتفقت الإمامية على أنّ من أنكر إمامة أحد من الأئمة، وجحد ما أوجبه الله تعالى له من فرض الطاعة، فهو كافر ضال مستحق للخلود في النار» بحار الأنوار للمجلسي «٢٣/ ٣٩٠» والمجلسي ذكر قول المفيد لتأييد رأيه.

ويرى بعضهم أنّ إنكار الإمامة شر من إنكار النبوة، يقول الحلي الملقب عند الجعفرية بالعلامة: «الإمامة لطف عام، والنبوة لطف خاص، لإمكان خلو الزمان من نبي حي بخلاف الإمام، وإنكار اللطف العام شرٌّ من إنكار اللطف الخاص» «كتاب الألفين في إمامة أمير المؤمنين

(١) هذه النقول أخذناها بمصادرها من كتاب الإمامة للدكتور علي أحمد السالوس: ص ١٩.

للحسن بن يوسف المطهر الحلي ١/ ٣» وعقب أحد علمائهم على هذا بأنّه «نعم ما قال» وأضاف: «وإلى هذا أشار الصدوق بقوله عن منكر الإمامة هو شرّ الثلاثة، فعنه أنه قال: الناصبي شرّ من اليهودي، قيل: وكيف ذلك يا ابن رسول الله؟ فقال: إن اليهودي منع لطف النبوة وهو خاص، والناصبي منع لطف الإمامة وهو عام» «انظر حاشية ص ٤٣ من كتاب النفع يوم الحشر لجمال الدين المقداد بن عبد الله السيوري».

المطلب الثالث: الزعم بأن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء[1]

وزعم بعض المتصوفة أنّ الولاية أفضل من النبوة، وزعم هؤلاء أنّ خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء، ومن هؤلاء الذين زعموا هذا الزعم الباطل الحكيم الترمذي، وابن عربي القائل بوحدة الوجود، وهؤلاء كذبوا فيما ذهبوا إليه، فلم يرد في كتاب الله ولا سنة رسوله ﷺ أنّ هناك خاتماً للأولياء، ولم يرد أنّه أفضل من غيره من الأولياء فضلاً عن أن يكون خيرهم، ولم يتكلم في هذه المسألة أحد من الذين لهم باع في العلم ممن يقتدى ويتأسى بهم.

وأصل غلطهم أنّهم نظروا فوجدوا أنّ محمداً ﷺ خاتم الرسل، وأفضل الرسل، فقالوا: هو أفضلهم لأنّه آخرهم، وهذا فاسد فالتأخر والتقدم ليس عليه مدار التفضيل، ولذلك كان إبراهيم متقدماً وهو أفضل من موسى، وإبراهيم وموسى متقدمان وهما أفضل من عيسى، وصحّ عن الرسول ﷺ

(١) راجع في هذه المسألة: لوامع الأنوار البهية: ٢/ ٣٠٠، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٢/ ٢٢٢، ١١/ ٢٢١، ٣٦٣.

أن أفضل هذه الأمة صحابته الذين كانوا معه، ولو أنّ المسلم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه، وثبت عنه أنه قال: «خير الناس قرني ثمّ الذين يلونهم، ثمّ الذين يلونهم»[1].

وفي العلوم قد ينبغ المتقدم نبوغاً لا يدرك شأوه المتأخر، واعتبر في هذا بسيبويه في علم النحو، وقد يكون هذا في العلوم المترقية التي يكمل المتأخر فيها المتقدم صحيحاً، أمّا في النبوة والرسالة فالأمر مختلف، إذ النبوة وعلومها هبة إلهية، ومنحة ربانية، لا تنال بالكسب والمجاهدة، وقد فتحت هذه المقالة باب شرّ، فأصبح كلّ من ظنَّ في نفسه خيراً، وكلّ من أراد بهذه الأمّة شراً يزعم أنّه خاتم الأولياء، وأنّه يأخذ علومه عن الله من غير واسطة، وهذا ضلال كبير، فليس لأحد من هذه الأمة أن يزعم أنه أفضل من أحد من الأنبياء، وليس لأحد يزعم الصلاح أن يتعبد الله بطريقة تخالف طريقة الرسول ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري: (٢٦٥٢) من حديث عبد الله بن مسعود.
وانظر «مسند أحمد»: ٦/ ٧٦ (٣٥٩٤) والتعليق عليه.

المبحث الثاني

تفاضل الأنبياء والرسل

أخبرنا الحقُّ -تبارك وتعالى- أنّه فضّل بعض النبيين على بعض، كما قال جلّ وعلا: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥].

وقد أجمعت الأمّة على أنّ الرسل أفضل من الأنبياء، والرسل بعد ذلك متفاضلون فيما بينهم كما قال تعالى: ﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

المطلب الأول: أولو العزم من الرسل أفضل الرسل

وأفضل الرسل والأنبياء خمسة: محمد ﷺ، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وهؤلاء هم أولو العزم من الرسل، ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقد ذكرهم الله في كتابه في أكثر من موضع، ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ﴾ [الشورى: ١٣].

وفي قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ﴾ [الأحزاب: ٧].

بم يتفاضلون الأنبياء والرسل؟[1]:

الذي يتأمل في الآيتين اللتين أخبرتا بتفاضل الأنبياء والرسل يجد أن الله فضّل مَن فضّل منهم بإعطائه خيراً لم يعطه غيره، أو برفع درجته فوق درجة غيره، أو باجتهاده في عبادة الله والدعوة إليه، وقيامه بالأمر الذي وكل إليه.

فداود عليه السلام فضله الله بإعطائه الزبور، ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥]، وأعطى الله موسى التوراة ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٥٣] والكتاب هو التوراة ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤] وأعطى عيسى الإنجيل ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٦].

وقد اختص الله آدم بأنّه «أبو البشر، خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا له».

---

(١) الأنبياء والرسل يتفاوتون في الفضل كما بينا هنا بتفضيل الله لهم، وبما أعطاهم إياه من خير، وبعض الناس ينسبون إلى الأنبياء والرسل أموراً يظنون أنهم يعظمونهم بها فيخرجون عن دائرة الصدق والعدل، فمن ذلك دعاء كثير من المسلمين للرسول ﷺ قائلين: «يا أول خلق الله، يا نور عرش الله»، وهذا القول جمع أنواعاً من الضلال، منها دعاء الرسول ﷺ ونداءه، وهذا لا ينبغي إلا لله فهو المدعو دون سواه.

ومنها الإدعاء بأن الرسول ﷺ خلق من نور، وأنه أول خلق الله، وهذا لا برهان عليه إلا أحاديث باطلة لم يصح إسنادها، فأول ما خلق الله القلم الذي كتب مقادير كل شيء، والرسول ﷺ مخلوق مما خلق منه البشر، وكونه مخلوقاً مما خلق منه البشر وأنه في آخر الخلق لا يضيره، فالمخلوقات لا تتفاضل باعتبار ما خلقت منه فقط، فقد يخلق المؤمن من كافر، والكافر من مؤمن، كابن نوح منه، وإبراهيم من آزر، وآدم خلقه الله من طين، فلما سوّاه، ونفخ فيه من روحه -أسجد له ملائكته وفضله عليهم بتعليمه أسماء كل شيء، وبخلقه إياه بيده.

وفضل نوحاً بأنّه «أوّل الرسل إلى أهل الأرض، وسمّاه الله عبداً شكوراً».

وفضل إبراهيم باتخاذه خليلاً ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] وجعله للناس إماماً ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤].

وفضل الله موسى برسالاته وبكلامه، ﴿إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤] واصطنعه لنفسه ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه: ٤١].

وفضل عيسى بأنّه رسول الله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وكان يكلّم الناس في المهد ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

ويتفاضل الأنبياء من جهة أخرى، فالنبي قد يكون نبياً لا غير، وقد يكون نبياً ملكاً، وقد يكون عبداً رسولاً، «فالنبي الذي كُذِّب، ولم يتبع، ولم يطع، هذا نبيٌّ، وليس بملك، أمّا الذي صدق، واتبع، وأطيع، فإن كان لا يأمر إلاّ بما أمره الله به فهو عبد نبي ليس بملك، وإن كان يأمر بما يريده مباحاً له فهو نبي ملك، كما قال الله لسليمان: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص: ٣٩].

فالنبي الملك هنا قسيم العبد الرسول، كما قيل للنبي ﷺ: «اختر إمّا عبداً رسولاً، وإمّا نبياً ملكاً»[1] وحال العبد الرسول أكمل من حال النبي الملك، كما هو حال نبينا محمد ﷺ، فإنّه كان عبداً رسولاً، مؤيداً مطاعاً

---

(١) أخرجه بنحوه أحمد في «المسند»: ١٢/ ٧٦-٧٧ (٧١٦٠) من حديث أبي هريرة، وإسناده صحيح على شرط الشيخين، وانظر تمام تخريجه في «المسند».

متبوعاً، وبذلك يكون له مثل أجر من اتبعه، وينتفع به الخلق، ويرحموا به، ويرحم بهم، ولم يختر أن يكون ملكاً، لئلا ينقص، لما في ذلك من الاستمتاع بالرياسة والمال، عن نصيبه في الآخرة.

فالعبد الرسول أفضل عند الله من النبي الملك، ولهذا كان أمر نوح وإبراهيم، وموسى، وعيسى ابن مريم أفضل عند الله من داود وسليمان ويوسف»[1].

المطلب الثاني: فضل الرسول الخاتم محمد ﷺ

عندما يبعث الله الأولين والآخرين في يوم الدين يكون رسولنا المصطفى صلوات الله وسلامه عليه سيّد ولد آدم، بيده لواء الحمد، والأنبياء والمرسلون في ذلك اليوم تحت لوائه، فعن أُبيٍّ قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبيٍ يومئذٍ آدم فمن سواه إلاّ تحت لوائي، وأنا أوّل من تنشق عنه الأرض ولا فخر» رواه الترمذي[2]. ورواه ابن ماجه عن أبي هريرة بلفظ: «أنا سيد ولد آدم، وأول من تنشق عنه الأرض، وأول شافع وأول مشفع»[3].

وعندما يشتدُّ الكرب بالناس في ذلك اليوم يستشفع الناس بالرسل العظام ليشفعوا إلى الله ليقضي بين عباده فيتدافعها الرسل، كلٌّ واحد يقول: اذهبوا

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٣٥/ ٣٤.

(٢) رواه الترمذي: ٣١٤٨. وقال فيه: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) ابن ماجه (٤٣٠٨)، وهو في صحيح سنن ابن ماجه.

إلى غيري، حتى إذا أتوا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام قال: «اذهبوا إلى محمد عبد غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر».

هذا فضله في ذلك اليوم العظيم، وما ذلك إلاّ لما حباه الله به من عظيم الصفات، وكريم الأخلاق، والمجاهدة في الله، والقيام بأمره، وقد فضله الله في نفسه ودعوته وأمته بفضائل، فمن ذلك أنّه اتخذه خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً، ففي الحديث الذي يرويه مسلم في صحيحه وأبو عوانة «إنّ الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً»[1]، وآتاه القرآن العظيم الذي لم يُعط أحدٌ من الأنبياء والرسل مثلَه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧].

وخصّه الله دون غيره بستٍّ لم يعطها أحد من الأنبياء قبله، ففي الحديث: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلّت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأرسلت إلى الخلق كافّة، وختم بي النبيون» رواه مسلم والترمذي[2].

يخبر الرسول ﷺ بأنّ الله فضله على غيره بست، أوتي جوامع الكلم، وذلك بأن يجمع في القول الوجيز المعاني الكثيرة.

ونصر بالرعب، وذلك بما يلقيه الله في قلوب أعدائه من الخوف من رسوله وأتباع رسوله ﷺ.

وأحلّت له الغنائم، وكانت غنائم من قبلنا من الرسل وأتباعهم تجمع

---

(١) صحيح مسلم: ٥٣٢.
(٢) صحيح مسلم: ٥٢٣، والترمذي: ١٥٥٣.

ثمّ تنزل نار من السماء تحرقها.

وجعلت له ولأمته الأرض مسجداً وطهوراً، فحيثما أدركت رجلاً من هذه الأمة الصلاة فبإمكانه أن يتوضأ فإن لم يجد يتيمم، ثمّ يصلي في مسجد مقام، أو في منزل أو في الصحراء.

وأرسل إلى النّاس كافة عربهم وعجمهم أبيضهم وأصفرهم وأحمرهم[1]، من كان في وقت بعثته ومن يأتي من بعده حتى تقوم الساعة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وأرسله إلى الجنّ كما أرسله إلى الإنس، وقد رجع وفد الجنّ بعد استماع القرآن، والإيمان بما نزل من الحق. داعين قومهم إلى الإيمان: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٣١-٣٢].

والفضيلة السادسة أنّه خاتم الأنبياء فلا نبيّ بعده ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]. وإذا كان رسولنا خاتم الأنبياء فهو خاتم المرسلين من باب أولى، ذلك أنّ كل رسول فهو نبي لا شك في ذلك، فإذا كانت النبوة بعد نبينا ممنوعة مقطوعة، فالرسالة ممنوعة أيضاً، لأن

(١) يزعم (نهرو) في كتابه لمحات من تاريخ العالم أن محمداً مرسل إلى العرب خاصة، وهذا الزعم قال به طوائف من النصارى في القديم والحديث، وقد كتب شيخ الإسلام ابن تيمية كتابه الجواب الصحيح، في الرد على شبهات رجل نصراني، وإحدى تلك الشبهات التي أطال شيخ الإسلام في الرد عليها زعم ذلك النصراني أن محمداً مرسل إلى العرب دون سائر الأمم، ويكفي في الرد على هذه الفرية أن نبين لهؤلاء تناقضهم، فإن إقرارهم بكونه نبياً مرسلاً يقتضي تصديقه فيما أخبر، وقد أخبر ببعثه إلى الناس كافة، فإذا آمنوا بأنه نبي مرسل، ثم كذبوه، وقالوا: أنت مرسل إلى العرب وحدهم، فقد تناقضوا تناقضاً بيناً، ووضح أن مرادهم تبرير كفرهم به.

الرسول لا بدَّ أن يكون نبيّاً.

ومعنى كونه خاتم الأنبياء والمرسلين أنّه لا يبعث رسول من بعده يغير شرعه[1]، ويبطل شيئاً من دينه، أمّا نزول عيسى آخر الزمان فهو حقٌّ وصدق -كما أخبر المصطفى ﷺ- ولكنه لا ينزل ليحكم بشريعة التوراة والإنجيل، بل يحكم بالقرآن، ويكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويؤذن بالصلاة.

المطلب الثالث: النصوص التي تنهى عن التفضيل بين الأنبياء

وردت أحاديث تنهى المسلمين عن تفضيل بعض النبيين على بعض، فمن ذلك ما رواه أبو سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ، قال: «لا تخيروا بين الأنبياء»[2] وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تفضلوا بين أنبياء الله»[3]. أي: لا تقولوا: فلان خير من فلان، ولا فلان أفضل من فلان، يقال: خيَّر فلان بين فلان وفلان، وفضل بينهما، إذا قال ذلك.

---

(١) ظهر بعد بعثة الرسول ﷺ مجموعة من أدعياء النبوة، كمسيلمة والأسود العنسي وسجاح، ولا يزال يظهر بين الفينة والفينة من أمثال هؤلاء، وقد ظهر في القرن الماضي علي محمد الشيرازي (ولد سنة ١٨١٩ م) ولقب بالباب، وأتباعه يدعون البابية، وادعى النبوة حيناً والألوهية حيناً، وسار على نهجه تلميذه الذي لقب (ببهاء الله) وأتباعه يدعون البهائية، ومن هؤلاء الأدعياء ميرزا غلام أحمد القادياني، وله أتباع منتشرون في الهند وألمانيا وإنكلترا وأمريكيا، ولهم فيها مساجد يضلون بها المسلمين، وكانوا يسمون بالقاديانية، وهم يسمون اليوم -أنفسهم بالأحمدية إمعاناً في تضليل عباد الله-.

وآخر هؤلاء الأدعياء رجل ظهر في السودان يدعى أنه نبي وقد تكفل الله بفضح كل من ادعى هذه الدعوى وهتك ستره. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [يونس: ٦٩].

(٢) متفق عليه مشكاة المصابيح: (٣/ ١١٤)، وهو عند البخاري: ٢٤١٢، ٦٩١٦، ومسلم: ٢٣٧٤ (١٦٣).

(٣) أخرجه البخاري: ٣٤١٤. وصحيح مسلم: ٢٣٧٣.

فهذه الأحاديث لا تعارض النصوص القرآنية التي تدلُّ على أنّ الله فضّل بعض الأنبياء على بعض، وبعض المرسلين على بعض، وينبغي أن يحمل النهي الذي ورد في الأحاديث على النهي عن التفضيل إذا كان على وجه الحميّة والعصبية والانتقاص، أو كان هذا التفضيل يؤدي إلى خصومة أو فتنة[1]، يدلنا على هذا سبب الحديث، ففي صحيح البخاري وغيره عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: «استبَّ رجل من المسلمين ورجل من اليهود، فقال المسلم: والذي اصطفى محمداً ﷺ على العالمين، فقال اليهودي: والذي اصطفى موسى على العالمين، فرفع المسلم عند ذلك يده، فلطم وجه اليهودي، فذهب اليهودي عند ذلك إلى النبي ﷺ، فأخبره بما كان من أمره وأمر المسلم، فدعا النبي ﷺ فسأله عن ذلك فأخبره، فقال النبي ﷺ: لا تخيروني على موسى، فإن الناس يصعقون، يوم القيامة، فأصعق معهم، فأكون أوَّل من يفيق، فإذا بموسى باطش جانب العرش، فلا أدري أكان فيمن صَعِقَ فأفاق قبلي، أو كان مِمَّن استثنى الله»[2].

وفي رواية عند البخاري: «لا تخيروا بين الأنبياء»[3].

قال ابن حجر في هذه المسألة: «قال العلماء في نهيه عن التفضيل بين الأنبياء: إنَّما نهى عن ذلك من يقول برأيه، لا من يقوله بدليل، أو من يقوله بحيث يؤدي إلى تنقيص المفضول، أو يؤدي إلى الخصومة والتنازع، أو المراد لا تفضلوا بجميع أنواع الفضائل بحيث لا يترك للمفضول فضيلة»[4].

---

(١) راجع شرح الطحاوية: ص ١٧٠.

(٢) صحيح البخاري: ٢٤١١، ومسلم: ٢٣٧٣.

(٣) صحيح البخاري: ٢٤١٢.

(٤) فتح الباري: ٦/ ٤٤٦، ولمزيد من البحث راجع تفسير ابن كثير، وتفسير القرطبي عند تفسيرهما الآية: ٢٥٣ من سورة البقرة.

ونقل عن بعض أهل العلم أنه قال: «الأخبار الواردة في النهي عن التخيير إنّما هي في مجادلة أهل الكتاب وتفضيل بعض الأنبياء على بعض بالمخايرة، لأنّ المخايرة إذا وقعت بين أهل دينين لا يؤمن أن يخرج أحدهما إلى الازدراء بالآخر فيفضي إلى الكفر، فأمّا إذا كان التخيير مستنداً إلى مقابلة الفضائل لتحصيل الرجحان فلا يدخل في النهي»[1].

(١) المصدر السابق، ولمزيد من البحث راجع تفسير ابن كثير، وتفسير القرطبي عند تفسيرهما الآية: ٢٥٣ من سورة البقرة.

الباب الثاني

الرسالات السماوية

الفصل الأول

الإيمان بالرسالات

المبحث الأول

وجوب الإيمان بالرسالات كلها

من أصول الإيمان التصديق الجازم بالرسالات التي أنزلها الله إلى عباده بواسطة رسله وأنبيائه، والتصديق بأنهم بلَّغوها للناس، قال تعالى لموسى عليه السلام: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤].

وقد أثنى الله على رسله الذين يبلغون رسالاته ولا تأخذهم في الله لومة لائم ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

وقد كان هلاك الأمم بسبب التكذيب برسالات الله، انظر إلى موقف صالح بعد أن حلّ الهلاك بقومه: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩] وموقف شعيب بعد هلاك قومه ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٣].

والذي أوحاه الله لرسله قد يكون نزل من السماء مكتوباً كالتوراة التي

أنزلت على موسى، قال تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾ [الأعراف: ١٤٥]. وقد يكون كتاباً ولكنه أُنزل إلى الرسول بالتلاوة والمشافهة كالقرآن ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٠٦].

والمنزل من السماء قد يجمعه كتاب كصحف إبراهيم والكتب المنزلة على موسى وداود وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم، وقد يكون وحياً يلقى إلى الرسول أو النبي، وليس بكتاب، وذلك كالوحي المنزل إلى إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط والموحى به إلى نبينا من غير القرآن.

ويجب الإيمان بالوحي المنزل كله ﴿ قُولُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٦].

وقال الله لرسوله: ﴿ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ [الشورى: ١٥] وقال للمؤمنين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا ءَامِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ﴾ [النساء: ١٣٦]. فما أعلمنا الله به تفصيلاً كالكتب التي ذكرها، وهي صحف إبراهيم وتوراة موسى وزبور داود وإنجيل عيسى والقرآن المنزل على محمد ﷺ، وكتكليم الله لموسى، وإيحاء الله إلى صالح وهود وشعيب، ووحي الله إلى رسوله محمد ﷺ من غير القرآن، وقد تضمنته كتب السنة -نؤمن به تفصيلاً كما أخبر الله تعالى، ونؤمن بأن هناك كتباً ووحياً غير ذلك لم يعلمنا الله سبحانه بها.

المبحث الثاني

كيف يكون الإيمان بالرسالات

المطلب الأول: كيف يكون الإيمان بالرسالات السابقة

ونحن نؤمن بما جاء في الكتب السماوية السابقة، وأن الانقياد لها، والحكم بها كان واجباً على الأمم التي نزلت إليها الكتب، ونؤمن بأن الكتب السماوية يصدق بعضها بعضاً، ولا يكذّب بعضها بعضاً، فالإنجيل مصدق للتوراة، قال الله في الإنجيل: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ [المائدة: ٤٦].

ومن أنكر شيئاً مما أنزله الله فهو كافر ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠].

ونصدق بنسخ الشريعة اللاحقة للشريعة السابقة كلياً أو جزئياً، فقد أحل الله لآدم تزويج بناته من بنيه ثم نسخ هذا، ومما كان مباحاً ليعقوب أن يجمع الرجل بين أختين في الزواج وفعله يعقوب، ثمَّ نسخ، والإنجيل أحلّ بعض ما حرّم في التوراة ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠].

والقرآن نسخ الكثير مما في التوراة والإنجيل ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

المطلب الثاني: كيف يكون الإيمان بالرسالة الخاتمة

الإيمان بالكتب السماوية السابقة تصديق جازم بها، ومجرد التصديق لا يكفي في القرآن، فلا بدّ مع التصديق من الأخذ به والعمل بما أمر به وترك ما نهى عنه ﴿الٓمٓصٓ * كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ * ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١-٣].

فالقرآن هو الكتاب السماوي الوحيد الذي يصلنا بالله بعد بعثة الرسول ﷺ، يقول الرسول ﷺ مخاطباً أصحابه: «أبشروا، فإنّ هذا القرآن بيد الله، وطرفه بأيديكم، فتمسكوا به، فإنكم لن تهلكوا، ولن تضلّوا بعده أبداً» رواه الطبراني في الكبير[1].

فالقرآن هو العصمة من الضلال والهلاك لمن تمسك به، وقد أكثر الرسول ﷺ من حثّ الأمّة على التمسك بهذا الكتاب، ففي إحدى خطبه قال: «أما بعد، ألا أيها الناس! فإنما أنا بشر، يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله، فيه الهدى والنور، من استمسك به وأخذ به كان على الهدى، ومن أخطأه ضلّ، فخذوا بكتاب الله تعالى، واستمسكوا به، وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي»[2].

والفتن التي تمرُّ بالمسلم وتعصف بالأمة لا سبيل للخلاص منها إلا

---

(١) حديث صحيح، صحيح الجامع: (١/٦٦).

(٢) صحيح مسلم: ٢٤٠٨.

بالأخذ بهذا الكتاب، وما أجمل هذا الوصف لكتاب الله! «كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل، ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضلّه الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسن، ولا تنقضي عجائبه، ولا تشبع منه العلماء، من قال به صدق، ومن عمل به أُجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم»[1].

(١) هذا حديث رواه الترمذي وغيره قال الشيخ ناصر فيه (شرح الطحاوية ص ٦٨): هذا حديث جميل المعنى. ولكن إسناده ضعيف، فيه الحارث الأعور، وهو لين، بل اتهمه بعض الأئمة بالكذب، ولعل أصله موقوف على علي فأخطأ الحارث فرفعه إلى النبي ﷺ.

الفصل الثاني
مقارنة بين الرسالات

ستكون المقارنة بين الرسالات السماوية من جوانب عدة، وهذا المبحث مبحث طويل يصلح أن يكون رسالة علمية، وسنأتي فيه على جملة تجمع أطرافه بحول الله، ولكنها لا تستقصى كل جوانبه.

المبحث الأول
مصدرها والغاية منها

الكتب السماوية مصدرها واحد ﴿الٓمٓ * ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ * مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ١-٤] والكتب السماوية كلها أنزلت لغاية واحدة وهدف واحد، أنزلت لتكون منهج حياة للبشر الذين يعيشون في هذه الأرض. تقودهم بما فيها من تعاليم وتوجيهات وهداية، أنزلت لتكون روحاً ونوراً تحيي نفوسهم وتنيرها، وتكشف ظلماتها وظلمات الحياة.

وقد بيّن القرآن الكريم في موضع واحد الهدف الذي أنزل الله من أجله التوراة والإنجيل والقرآن، وهي أعظم الكتب المنزلة من عند الله،

قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۖ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ۚ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ * وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ * وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ * وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ * وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ * أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤-٥٠].

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآيات الكريمة[1]:

«لقد جاء كلّ دين من عند الله ليكون منهج حياة، منهج حياة واقعية، جاء الدين ليتولى قيادة الحياة البشرية، وتنظيمها، وتوجيهها، وصيانتها، ولم يجىء دين من عند الله ليكون مجرد عقيدة في الضمير، ولا ليكون مجرد

(١) انظر الجزء السادس من ظلال القرآن: ص ٨٩٥.

شعائر تعبدية تؤدى في الهيكل والمحراب. فهذه وتلك -على ضرورتهما للحياة البشرية وأهميتها في تربية الضمير البشري- لا يكفيان وحدهما لقيادة الحياة وتنظيمها وتوجيهها وصيانتها، ما لم يقم على أساسها منهج ونظام وشريعة تطبق عملياً في حياة الناس، ويؤخذ بها بحكم القانون والسلطان، ويؤاخذ الناس على مخالفتها، ويؤخذون بالعقوبات.

والحياة البشرية لا تستقيم إلا إذا تلقت العقيدة والشعائر والشرائع من مصدر واحد يملك السلطان على الضمائر والسرائر، كما يملك السلطان على الحركة والسلوك، ويجزي الناس وفق شرائعه في الحياة الدنيا، كما يجزيهم وفق حسابه في الحياة الآخرة.

فأما حين تتوزع السلطة، وتتعدد مصادر التلقي.. حين تكون السلطة لله في الضمائر والشعائر بينما السلطات لغيره في الأنظمة والشرائع..، وحين تكون السلطة لله في جزاء الآخرة بينما السلطة لغيره في عقوبات الدنيا..، حينئذ تتمزق النفس البشرية بين سلطتين مختلفتين، وبين اتجاهين مختلفين، وبين منهجين مختلفين..، وحينئذ تفسد الحياة البشرية ذلك الفساد الذي تشير إليه آيات القرآن في مناسبات شتى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١]. ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨].

من أجل هذا جاء كل دين من عند الله ليكون منهج حياة، وسواء جاء هذا الدين لقرية من القرى، أو لأمة من الأمم، أو للبشرية كافة في جميع أجيالها، فقد جاء ومعه شريعة معينة لحكم واقع الحياة، إلى جانب العقيدة

التي تنشىء التصور الصحيح للحياة، إلى جانب الشعائر التعبدية التي تربط القلوب بالله..، وكانت هذه الجوانب الثلاثة هي قوام دين الله، حيثما جاء دين من عند الله، لأنّ الحياة البشرية لا تصلح ولا تستقيم إلا حين يكون دين الله هو منهج الحياة.

وفي القرآن الكريم شواهد شتى على احتواء الديانات الأولى، التي ربما جاءت لقرية من القرى، أو لقبيلة من القبائل على هذا التكامل، في الصورة المناسبة للمرحلة التي تمر بها القرية أو القبيلة..، وهنا يعرض هذا التكامل في الديانات الثلاث الكبرى.. اليهودية، والنصرانية، والإسلام..

ويبدأ بالتوراة في هذه الآيات التي نحن بصددها في هذه الفقرة:

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾:

فالتوراة -كما أنزلها الله- كتاب الله الذي جاء لهداية بني إسرائيل، وإنارة طريقهم إلى الله، وطريقهم في الحياة..، وقد جاءت تحمل عقيدة التوحيد. وتحمل شعائر تعبدية شتى، وتحمل كذلك شريعة:

﴿ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ﴾.

أنزل الله التوراة لا لتكون هدى ونوراً للضمائر والقلوب بما فيها من عقيدة وعبادات فحسب، ولكن كذلك لتكون هدى ونوراً بما فيها من شريعة تحكم الحياة الواقعية وفق منهج الله، وتحفظ هذه الحياة في إطار هذا المنهج. ويحكم بها النبيون الذين أسلموا أنفسهم لله فليس لهم في أنفسهم شيء إنما هي كلها لله، وليست لهم مشيئة ولا سلطة ولا دعوى

في خصيصة من خصائص الألوهية -وهذا هو الإسلام في معناه الأصيل- يحكمون بها للذين هادوا -فهي شريعتهم الخاصة نزلت لهم في حدودهم هذه وبصفتهم هذه- كما يحكم بها لهم الربانيون والأحبار، وهم قضاتهم وعلماؤهم، وذلك بما أنهم قد كلفوا المحافظة على كتاب الله، وكلفوا أن يكونوا عليه شهداء، فيؤدوا له الشهادة في أنفسهم، بصياغة حياتهم الخاصة وفق توجيهاته، كما يؤدوا له الشهادة في قومهم بإقامة شريعته بينهم. .».

وبدون الرسالة السماوية سيبقى البشر مختلفون تائهون لا يتفقون على سبيل، ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

المبحث الثاني

الرسالة العامة والرسالة الخاصة

الرسالات السماوية السابقة أنزلت لأقوام بأعيانهم، والرسالة الخاتمة التي أنزلت على خاتم الأنبياء والرسل رسالة عامة للبشرية كلها بل عامة للإنس والجن، وهذا يقتضي أن تمتاز هذه الرسالة عن غيرها من الرسالات بما يجعلها صالحة لكل زمان ومكان، وقد جعلها الله كذلك، وأنزل على رسوله ﷺ قبيل وفاته ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وقد بيّن سيد قطب -رحمه الله- هذا المعنى وجلاه في تفسيره لهذه الآية، قال: «إن المؤمن يقف أمام إكمال هذا الدين، يستعرض موكب الإيمان، وموكب الرسالات، وموكب الرسل، منذ فجر البشرية، ومنذ أوّل رسول -آدم عليه السلام- إلى هذه الرسالة الأخيرة، رسالة النبي الأمّي إلى البشر أجمعين.

فماذا يرى؟ يرى هذا الموكب المتطاول المتواصل، موكب الهدى والنور، ويرى معالم الطريق على طول الطريق، ولكنه يجد كل رسول -قبل خاتم النبيين- إنما أرسل إلى قومه، ويرى كلّ رسالة، قبل الرسالة الأخيرة -إنما جاءَت لمرحلة من الزمان..، رسالة خاصة، لمجموعة خاصة، في بيئة خاصة..، ومن ثمّ كانت تلك كلّ الرسالات محكومة بظروفها هذه، متكيفة بهذه الظروف، كلّها تدعو إلى إله واحد -فهذا هو

التوحيد- وكلها تدعو إلى عبودية واحدة لهذا الإله الواحد -فهذا هو الإسلام- ولكن لكلٍّ منها شريعة للحياة الواقعية تناسب حالة الجماعة وحالة البيئة وحالة الزمان والظروف.

حتى إذا أراد الله أن يختم رسالته إلى البشر أرسل إلى الناس كافة رسولاً خاتم النبيين برسالة «للإنسان»، لا لمجموعة من الأناس في بيئة خاصة، في زمان خاص، في ظروف خاصة..، رسالة تخاطب «الإنسان» من وراء الظروف والبيئات والأزمنة، لأنها تخاطب فطرة الإنسان التي لا تتبدل، ولا تتحور، ولا ينالها التغيير: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠]، وفصّل في هذه الرسالة شريعة تتناول حياة «الإنسان» من جميع أطرافها، وفي كل جوانب نشاطها، وتضع لها المبادىء الكلية والقواعد الأساسية فيما يتطور فيها ويتحور بتغير الزمان والمكان، وتضع لها الأحكام التفصيلية والقوانين الجزئية فيما لا يتطور ولا يتحور بتغير الزمان والمكان..، وكذلك كانت الشريعة بمبادئها الكلية، وبأحكامها التفصيلية، محتوية كل ما تحتاج إليه حياة «الإنسان» منذ تلك الرسالة إلى آخر الزمان، من ضوابط وتوجيهات وتشريعات وتنظيمات، لكي تستمر، وتنمو، وتتطور، وتتجدد، حول هذا المحور وداخل هذا الإطار»[1].

وهذا المعنى -وهو كمال الرسالة وشمولها- أشار إليه القرآن في غير موضع كقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩] وقال جلّ وعلا: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

---

(١) في ظلال القرآن: ٦/ ٤٨٢.

لقد جمعت الشريعة الخاتمة محاسن الرسالات السابقة، وفاقتها كمالاً وجلالاً، يقول الحسن البصري رضي الله عنه: «أنزل الله مائة وأربعة كتب، أودع علومها أربعة: التوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان (القرآن) ثمّ أودع علوم الثلاثة الفرقان»[1].

(١) الإكليل للسيوطي: (أضواء البيان: ٣/ ٣٣٦).

المبحث الثالث

حفظ الرسالات

لما كانت الرسالات السابقة مرهونة بوقت وزمان فإنها لا تخلد ولا تبقى، ولم يتكفل الله بحفظها، وقد وكل حفظها إلى علماء تلك الأمة التي أنزلت عليها، فالتوراة وكل حفظها إلى الربانيين والأحبار، ﴿ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ﴾ [المائدة: ٤٤].

ولم يطق الربانيون والأحبار حفظ كتابهم، وخان بعضهم الأمانة فغيروا وبدلوا وحرفوا، وحسبك أن تطالع التوراة لترى ما حلّ فيها من تغيير وتبديل، لا في الفروع، بل في الأصول، فقد نسبوا إلى الله ما يقشعر الجلد لسماعه، ونسبوا إلى الرسل ما يترفع الرعاع عن نسبته إليهم[1].

---

(١) بينا شيئاً من افتراءات اليهود على الله في الجزء الأول من هذه السلسلة، وبينا شيئاً من افتراءاتهم على الرسل في الباب السابق (الرسل) وسأورد هنا مثالاً واحداً من تحريف اليهود، وهذا التحريف جعل التوراة متناقضة، النص الأصلي في التوراة هو (خذ ابنك وحيدك الذي تحبه واذبحه)، هذا الابن هو إسماعيل، ولكن اليهود كبر عليهم أن يذهب إسماعيل وأبناؤه وهم العرب بهذا الفضل، فأقحموا في النص كلمة (إسحاق) لينسبوا الفضل لأنفسهم، فأصبح النص في التوراة -المحرفة- التي بين أيديهم اليوم (خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحاق واذبحه) سفر التكوين، الإصحاح الثاني، فقرة (٢). ولكن هذا الذي حرف النص هنا لم ينتبه إلى التناقض الذي أوجده مع نصوص أخرى في التوراة، فقد ورد في التوراة أن إسماعيل ولد لإبراهيم وعمر إبراهيم ست وثمانون سنة، انظر الإصحاح السادس عشر من سفر التكوين، وعلى ذلك يكون إسماعيل هو ولده وحيده، أما إسحاق فتقول التوراة إنه ولد (وكان إبراهيم ابن مائة سنة حين ولد له إسحاق) الإصحاح الحادي والعشرين من سفر التكوين فقرة (٥). أرأيت كيف فضح الله مكرهم وكيدهم وأظهر تحريفهم وتبديلهم، =

أمّا هذه الرسالة الخاتمة فقد تكفل هو بحفظها، ولم يكل حفظها إلى البشر، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وانظر اليوم في هذا العالم شرقه وغربه لترى العدد الهائل الذي يحفظ القرآن عن ظهر قلب[١]، بحيث لو شاء ملحد أو يهودي أو صليبي تغيير حرف منه فإنّ صبياً صغيراً، أو ربة بيت، أو عجوزاً لا يبصر طريقه -يستطيعون الردّ عليه وبيان خطئه، وافترائه، ناهيك عن العلماء الذين حفظوه وفقهوا معانيه، وتشبعوا بعلومه..

وانظر إلى تاريخ هذا الكتاب وكم نال من عناية ورعاية في تدوينه وتفسيره وإعرابه وقصصه وأخباره وأحكامه.

ما كان ذلك ليكون لولا ذلك الحفظ الإلهي الرباني، وسيبقى هذا الكتاب إلى أن يأذن الله بزوال هذا الكون ودماره.

= وقد ذكرت شيئاً من هذا التحريف في أدلة صدق الرسل (البشارات).

(١) كان من الأسباب هذا الحفظ تيسير الله لتلاوة القرآن وحفظه ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٢٢].

المبحث الرابع

مواضع الإتفاق والاختلاف في الرسالات السماوية

المطلب الأول: مواضع الاتفاق

١- الدين الواحد:

الرسالات التي جاء بها الأنبياء جميعاً منزلة من عند الله العليم الحكيم الخبير، ولذلك فإنها تمثل صراطاً واحداً يسلكه السابق واللاحق، ومن خلال استعراضنا لدعوة الرسل التي أشار إليها القرآن نجد أنّ الدِّين الذي دعت إليه الرسل جميعاً واحد هو الإسلام، ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩]، والإسلام في لغة القرآن ليس اسماً لدين خاص، وإنما هو اسم للدّين المشترك الذي هتف به كل الأنبياء، فنوح يقول لقومه: ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٧٢]، والإسلام هو الدين الذي أمر الله به أبا الأنبياء إبراهيم ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: ١٣١] ويوصي كل من إبراهيم ويعقوب أبناءه قائلاً: ﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٢] وأبناء يعقوب يجيبون أباهم: ﴿ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٣] وموسى يقول لقومه: ﴿ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٨٤] والحواريون يقولون لعيسى: ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٥٢] وحين سمع فريق من أهل

الكتاب القرآن ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٣].

فالإسلام شعار عام كان يدور على ألسنة الأنبياء وأتباعهم منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصر النبوة المحمدية.

كيف يتحقق الإسلام:

الإسلام هو الطاعة والانقياد والاستسلام لله تعالى، بفعل ما يأمر به، وترك ما ينهى عنه، ولذلك فإنّ الإسلام في عهد نوح يكون باتباع ما جاء به نوح، والإسلام في عهد موسى يكون باتباع شريعة موسى، والإسلام في عهد عيسى يكون باتباع الإنجيل، والإسلام في عهد محمد ﷺ يكون بالتزام ما جاء به الرسول الكريم ﷺ.

لبُّ دعوات الرسل:

ولبُّ دعوات الرسل وجوهر الرسالات السماوية هو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونبذ ما يُعبد من دونه، وقد عرض القرآن هذه القضية وأكدها في مواضع متعددة، مرة يذكر دعوة الرسل فنوح يقول لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وإبراهيم قال لقومه: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [العنبكوت: ١٦] وهود قال لقومه: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٦٥] وصالح قال لقومه: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٧٣].

ومرة ينص على أنه أرسل الرسل جميعاً بهذه المهمة الواحدة: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. ومرة يسرد سيرة الأنبياء وأتباعهم ينظمهم في سلك واحد، ويجعل منهم أمة واحدة لها إله واحد ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، ومرة يجعل الاستجابة لله وتحقيق العبودية له هي الدين والملة، ويجعل مَن رفضها يحكم على نفسه بالسفه والضلال، ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠]، وملة إبراهيم عليه السلام حددها بقوله: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

ومرة يبين أنها وصية الرسل والأنبياء لمن بعدهم ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا..﴾ [البقرة: ١٣٣][1].

ومرة ينص على وحدة الدين الذي شرعه للرسل العظام: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

---

(١) ثبت في السنة أن نوحاً أوصى ولده بمثل ذلك، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن نبي الله نوحاً -ﷺ- لما حضرته الوفاة، قال لابنه: إني قاص عليك الوصية: آمرك باثنتين، وأنهاك عن اثنتين، آمرك بلا إله إلا الله، فإن السماوات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة، ووضعت لا إله إلا الله في كفة رجحت بهنّ لا إله إلا الله، ولو أن السماوات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة (مغلقة)، قصمتهن (كسرتهن) لا إله إلا الله، وسبحان الله وبحمده، فإنها صلاة كل شيء، وبها يرزق الخلق، وأنهاك عن الشرك والكبر» رواه البخاري في الأدب المفرد: ص ٥٤٨، وأحمد ٢/١٦٩، ١٧٠، ٢٢٥، والبيهقي في الأسماء: (٧٩ هندية) (انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة: حديث رقم: ١٣٤).

الرسالات السابقة تبين الأسباب الموجبة لعبادة الله:

ولم تكتف الرسالات السابقة بالدعوة إلى عبادة الله وحده، بل بينت الأسباب التي تجعل هذه الدعوى هي الحق الذي لا محيص عنه، وذلك بذكر خصائص الألوهية، وبالحديث عن نعم الله تعالى التي أنعم بها على عباده، وبتوجيه الأنظار والعقول للنظر في ملكوت السماوات والأرض، فنوح يقول لقومه: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا * أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا * وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ١٣-٢٠].

وهذا المعنى يتردد في صحف إبراهيم وموسى، وقد ورد فيهما كما أخبرنا القرآن ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ * وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا * وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ * وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ * وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ * وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ * وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ * وَثَمُودَا فَمَا أَبْقَىٰ * وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ [النجم: ٤٢-٥٢].

٢- المبادىء الخالدة: مسائل العقيدة:

وليست الدعوة إلى عبادة الله وحده هي القضية الوحيدة التي اتفقت فيها الرسالات، فأماكن الاتفاق كثيرة، فمن ذلك أمور الاعتقاد التي تشكل تصوراً واحداً وأساساً واحداً لدى جميع الرسل وأتباعهم، فأول الرسل نوح ذكَّر قومه بالبعث والنشور فمما قاله لقومه: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح: ١٧-١٨].

وأعلمهم بالملائكة والجنّ، ولذلك قال الكفار من قومه: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ [المؤمنون: ٢٤-٢٥].

والإيمان باليوم الآخر واضح في دعوة إبراهيم ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ..﴾ [البقرة: ١٢٦]، وفي دعوة موسى أشدُّ وضوحاً، ولذلك نرى السحرة عندما يخرون سجداً يقولون لفرعون: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ * إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ * وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ * جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه: ٧٣-٧٦].

وجاء في صحف إبراهيم وموسى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦-١٧] وكل الرسل والأنبياء أنذروا أممهم المسيح الدجال، ففي الحديث الصحيح عن ابن عمر أن النبي ﷺ ذكر الدجال، فقال: «إني أنذركموه، وما من نبي إلا قد أنذره قومه، لقد أنذره نوح قومه، ولكن سأقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي لقومه، تعلمون أنه أعور، وأن الله ليس بأعور»[1].

٣- القواعد العامة:

والكتب السماوية تقرر القواعد العامة التي لا بدّ أن تعيها البشرية في مختلف العصور كقاعدة الثواب والعقاب، وهي أنّ الإنسان يحاسب

---

(١) صحيح البخاري: ٣٠٥٧.

بعمله، فيعاقب بذنوبه وأوزاره، ولا يؤاخذ بجريرة غيره، ويثاب بسعيه، وليس له سعي غيره ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ * وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴾ [النجم: ٣٦-٤١].

ومن ذلك أن الفلاح الحقيقي يتحقق بتزكية النفس بمنهج الله والعبودية له، وإيثار الآجل على العاجل: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ * بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ * إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ [الأعلى: ١٤-١٩].

ومن ذلك أنّ الذي يستحق وراثة الأرض هم الصالحون ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

وقد سأل أبو ذر رضي الله عنه الرسول ﷺ عن محتويات صحف إبراهيم وصحف موسى ففي الحديث الذي يرويه ابن حبان والحاكم عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله ما كانت صحف إبراهيم؟

قال: «كانت أمثالاً كلّها: أيها المسلط (أي: الحاكم النافذ السلطان) المبتلى (المختبر) المغرور، إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض، ولكني بعثتك لتردّ عني دعوة المظلوم، فإني لا أردها وإن كانت من كافر.

وعلى العاقل ما لم يكن مغلوباً على عقله أن يكون له ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يتفكر فيها في صنع الله عز وجل، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب.

وعلى العاقل ألا يكون ظاعناً (مرتحلاً) إلا لثلاث: تزود لمعاد، أو

لمعاش، أو لذة في غير محرم.

وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه، مقبلاً على شانه، حافظاً للسانه، ومن حسب كلامه من عمله، قل كلامه إلاّ فيما يعنيه.

قلت: يا رسول الله: فما كانت صحف موسى؟

قال: كانت عبراً (عظات) كلّها:

عجبت لمن أيقن بالموت ثمّ هو يفرح، عجبت لمن أيقن بالنار، ثمّ هو يضحك، عجبت لمن أيقن بالقدر، ثمّ هو ينصب، عجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها، ثمّ اطمأن إليها، عجبت لمن أيقن بالحساب غداً ثم لا يعمل».

والقرآن يخبرنا أنّ الرسل جميعاً حملوا ميزان العدل والقسط ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥] وأنهم أمروا بأن يكسبوا رزقهم بالحلال ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١] وكثير من العبادات التي نقوم بها كانت معروفة عند الرسل السابقين وأتباعهم ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾ [الأنبياء: ٧٣]. وإسماعيل عليه السلام ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ..﴾ [مريم: ٥٥] وقال الله لموسى عليه السلام: ﴿فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤]، وقال عيسى: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١]. والصوم مفروض على من قبلنا كما هو مفروض علينا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

والحج فرضه إبراهيم عليه السلام، فقد أمره الله بعد بناء الكعبة فنادى بالحج، ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا..﴾[1] [الحج: ٢٩] وقد كان لكل أمة مناسكها وعبادتها ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الحج: ٣٤] ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ [الحج: ٦٧].

ومما اتفقت فيه الرسالات أنها بينت المنكر والباطل ودعت إلى محاربته وإزالته، سواءً أكان عبادة أوثان، أو استعلاء في الأرض، أو انحرافاً عن الفطرة كفعل قوم لوط، أو عدواناً على البشر وأحوالهم بقطع الطريق والتطفيف بالميزان.

المطلب الثاني: اختلاف الشرائع

إذا كان الدين الذي جاءت به الرسل واحداً وهو الإسلام فإن شرائع الأنبياء مختلفة، فشريعة عيسى تخالف شريعة موسى في بعض الأمور، وشريعة محمد ﷺ تخالف شريعة موسى وعيسى في أمور، قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] والشرعة هي الشريعة وهي

(١) كان من هدى الأنبياء بعد ذلك الحج إلى البيت العتيق فقد حج البيت موسى ويونس، ففي صحيح مسلم عن ابن عباس قال سرنا مع رسول الله ﷺ بين مكة والمدينة، فمررنا بواد، فقال: «أيُّ واد هذا؟» فقالوا: وادي الأزرق. قال: «كأني أنظر إلى موسى» فذكر من لونه وشعره شيئاً، «واضعاً أصبعيه في أذنيه، له جؤار إلى الله بالتلبية، ماراً بهذا الوادي». قال: ثم سرنا حتى أتينا على ثنية (الثنية: الطريق بين الجبلين). فقال: «أي ثنية هذه؟» فقالوا: هرش أو لفت -فقال: «كأني أنظر إلى يونس على ناقة حمراء، عليه جبة صوف، خطام ناقته خلبة (الخطام الزمام، والخلبة: ليفة نخل) ماراً بهذا الوادي ملبياً». (انظر مشكاة المصابيح ٣/ ١١٦).

السنة، والمنهاج: الطريق والسبيل.

وليس معنى ذلك أن الشرائع تختلف اختلافاً كلياً، فالناظر في الشرائع يجد أنها متفقة في المسائل الأساسية، وقد سبق ذكر النصوص التي تتحدث عن تشريع الله للأمم السابقة الصلاة والزكاة والحج، وأخذ الطعام من حلّه وغير ذلك، والاختلاف بينها إنمّا يكون في بعض التفاصيل.

فأعداد الصلوات وشروطها وأركانها ومقادير الزكاة ومواضع النسك ونحو ذلك قد تختلف من شريعة إلى شريعة، وقد يحلّ الله أمراً في شريعة لحكمة، ويحرمه في شريعة أخرى لحكمة.

ونضرب لهذا ثلاثة أمثلة:

الأول: الصوم: فقد كان الصائم يفطر بغروب الشمس، ويباح له الطعام والشراب والنكاح إلى طلوع الفجر ما لم ينم، فإن نام قبل الفجر حرم عليه ذلك كله إلى غروب الشمس من اليوم الثاني، فخفّف الله عن هذه الأمة وأحله من الغروب إلى الفجر سواءً أنام أم لم ينم. قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ..﴾ [البقرة: ١٨٧].

الثاني: ستر العورة حال الاغتسال لم يكن واجباً عند بني إسرائيل ففي الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ: «كانت بنو إسرائيل يغتسلون عراة، ينظر بعضهم إلى بعض، وكان موسى

يغتسل وحده»[1].

الثالث: «الأمور المحرمة، فمما أحلّه الله لآدم تزويج بناته من بنيه، ثمّ حرّم الله هذا بعد ذلك، وكان التسري على الزوجة مباحاً في شريعة إبراهيم، وقد فعله إبراهيم في هاجر لما تسرى بها على سارة، وقد حرّم الله مثل هذا في التوراة على بني إسرائيل، وكذلك كان الجمع بين الأختين سائغاً، وقد فعله يعقوب عليه السلام جمع بين الأختين، ثمّ حرم عليهم في التوراة، وحرّم يعقوب على نفسه لحوم الإبل وألبان الإبل»[2].

والسبب في ذلك كما ثبت في الحديث «أن إسرائيل (يعقوب) مرض مرضاً شديداً، وطال سقمه، فنذر لله لئن شفاه الله من سقمه ليحرمن أحب الطعام والشراب إليه، وكان أحب الطعام إليه لحم الإبل، وأحب الشراب إليه ألبانها»[3]، وهذا الذي حرمه إسرائيل حرّمه الله على بني إسرائيل وحُرّم في التوراة ﴿۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ [آل عمران: ٩٣].

ومما حرّمه الله على اليهود ما قصه علينا في سورة الأنعام ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

فقد حرّم الله عليهم كلّ ذي ظفر وهو البهائم والطير ما لم يكن مشقوق الأصابع كالإبل والنعام والوز والبط، وحرّم عليهم شحوم البقر والغنم إلاّ

---

(١) صحيح البخاري: ٢٧٨. وصحيح مسلم: ٣٣٩.

(٢) تفسير ابن كثير: ٢/ ٧٣.

(٣) رواه أحمد في مسنده: (تفسير ابن كثير: ٢/ ٧١).

الشحم الذي على ظهور البقر والغنم، أو ما حملت الحوايا وهو ما تحوَى في البطن وهي المباعر والمرابض، أو ما اختلط بعظم.

وهذا التحريم لم يكن سببه خبث المحرّم إنما سببه التزام من أبيهم يعقوب في بعض المحرمات، فألزم أبناءه من بعده بمثل ذلك، وبعض المحرمات سببه ظلم بني إسرائيل ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ﴾ [الأنعام: ١٤٦] وقال: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [النساء: ١٦٠].

ثمّ جاء عيسى فأحلّ لبني إسرائيل بعض ما حرّم عليهم ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ [آل عمران: ٥٠]، وجاءت الشريعة الخاتمة لتكون القاعدة إحلال الطيبات وتحريم الخبائث.

الأنبياء إخوة لعلاّت:

وقد ضرب الرسول ﷺ مثلاً لاتفاق الرسل في الدين الواحد واختلافهم في الشرائع، فقال: «الأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتّى، ودينهم واحد»[1].

قال ابن حجر: «الأنبياء أولاد علاّت، وفي رواية عبد الرحمن المذكورة «أي في صحيح البخاري»: «والأنبياء إخوة لعلات» والعلات بفتح المهملة: الضرائر، وأولاد العلات الإخوة من الأب، وأمهاتهم شتى، ومعنى الحديث: أنّ أصل دينهم واحد وهو التوحيد وإن اختلفت فروع الشرائع»[2].

---

(١) رواه البخاري: ٣٤٤٣، ومسلم: ٢٣٦٥. واللفظ للبخاري.

(٢) فتح الباري: ٦/ ٤٨٩.

المبحث الخامس

الطول والقصر ووقت النزول

القرآن الكريم أطول الكتب السماوية وأشملها ففي الحديث: «أعطيت مكان التوراة السبع الطوال، وأعطيت مكان الزبور المئين، وأعطيت مكان الإنجيل المثاني، وفضّلت بالمفصّل» رواه الطبراني في الكبير[1].

والكتب السماوية المعروفة لنا كلّها أنزلت في شهر رمضان، فقد جاء في الحديث: «أنزلت صحف إبراهيم أولّ ليلة من شهر رمضان، وأنزلت التوراة لست مضين -من رمضان، وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة مضت من رمضان، وأنزل الزبور لثمان عشرة خلت من رمضان، وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان» رواه الطبراني[2].

---

(١) صحيح الجامع الصغير: (١/ ٣٥٠) وقال الألباني فيه: إسناده صحيح.

(٢) صحيح الجامع الصغير: ٢/ ٢٨ وقال الشيخ ناصر الدين الألباني: إسناده حسن.

المبحث السادس

موقف الرسالة الخاتمة من الرسالات السابقة

بين الله هذا في جزء من آية في كتابه، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

وكون القرآن مصدقاً لما بين يديه من الكتاب تحقق من وجوه:

الأول: أن الكتب السماوية المتقدمة تضمنت ذكر هذا القرآن ومدحه، والإخبار بأنّ الله سينزله على عبده ورسوله محمد ﷺ، فكان نزوله على الصفة التي أخبرت بها الكتب السابقة تصديقاً لتلك الكتب، مما زادها صدقاً عند حامليها من ذوي البصائر الذين انقادوا لأمر الله واتبعوا شرائع الله، وصدقوا رسل الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٨] أي إن كان ما وعدنا الله في كتبه المتقدمة وعلى ألسنة رسله من إنزال القرآن وبعثة محمد لمفعولاً، أي: لكائناً لا محالة ولا بدّ»[1].

الثاني: أن القرآن جاء بأمور صدق فيها الكتب السماوية السابقة، بموافقته لها ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: ٣١] واستيقان الذين أوتوا الكتاب إنما يكون بسبب علمهم بهذا من كتبهم.

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ٥٨٦ بشيء من التصرف.

الثالث: أن القرآن أخبر بإنزال الكتب السماوية، وأنّها من عند الله، وأمر بالإيمان بها كما سبق بيانه.

والمهيمن في لغة العرب تطلق ويراد بها القائم على الشيء[1]، وهو اسم من أسماء الله تعالى، ذلك أنّ الله تعالى قائم على شؤون خلقه، تصريفاً وتدبيراً ورعاية.

والقرآن قائم على الكتب السماوية التي أنزلت من قبل يأمر بالإيمان بها، ويبين ما فيها من حق، وينفي التحريف والتغيير الذي طرأ عليها، وهو حاكم على تلك الكتب لأنّه الرسالة الإلهية الأخيرة التي يجب المصير إليها، والرجوع إليها، والتحاكم إليها، وكل ما خالفها مما جاء في الرسالات السابقة فهو إمّا محرّف مغيَّر، وإمّا منسوخ.

يقول ابن كثير -رحمه الله- تعالى- بعد أن ذكر أقوال السلف في معنى كلمة مهيمن: «وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى، فإنّ اسم المهيمن يتضمن هذا كلّه، فهو أمين وشاهد وحاكم على كلّ كتاب قبله، جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها أشملها وأعظمها وأكملها حيث جمع فيه محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره، فلهذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلها»[2].

وهذا يقتضي أن يجعل هذا الكتاب هو المرجع الأول والأخير في التعرف على الدين الذي يريده الله تعالى، ولا يجوز أن نحاكم القرآن إلى الكتب السماوية السابقة كما يفعل الضالون من اليهود والنصارى ﴿وَإِنَّهُ

---

(١) لسان العرب: (٣/ ٨٣٣ مادة (همن).

(٢) تفسير ابن كثير: ٢/ ٥٨٧.

لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ * لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢].

عدم حاجة الشريعة الخاتمة إلى غيرها:

الشريعة الإلهية الخاتمة لا تحتاج إلى شريعة سابقة عليها، ولا إلى شريعة لاحقة لها، بخلاف شريعة المسيح فقد أحال المسيح أتباعه في أكثر الشريعة على التوراة، وشريعة الإنجيل مكلمة لشريعة التوراة، ولهذا كان النصارى محتاجين إلى كتب النبوات المتقدمة على المسيح كالتوراة والزبور، وكان الأمم من قبلنا محتاجين إلى محدَّثين، بخلاف أمّة محمد ﷺ، فإنَّ الله أغناهم به، فلم يحتاجوا معه إلى نبي ولا محدّث[1].

(١) راجع في هذا البحث مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١١/ ٢٢٤.

المراجع

١- الإسلام في عصر العلم لمحمد أحمد الغمراوي. طبعة دار الكتب الحديثة. القاهرة.

٢- أضواء البيان لمحمد الأمين الشنقيطي. مؤسسة المدني. القاهرة. الطبعة الأولى.

٣- أعلام النبوة للماوردي. نشر مكتبة الكليات الأزهرية. القاهرة.

٤- الإمامة عند الجمهور. د. عليّ أحمد السالوس. مكتبة ابن تيمية. الكويت.

٥- إنجيل برنابا. طبعة دار القلم بالكويت.

٦- البداية والنهاية لابن كثير. مكتبة المعارف. بيروت. الطبعة الثانية.

٧- بصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي. لجنة إحياء التراث الإسلامي. القاهرة.

٨- تفسير ابن كثير. طبعة دار الأندلس. بيروت.

٩- تفسير الألوسي. طبعة المطبعة المنيرية.

١٠- تفسير القرطبي. دار الكتاب العربي. بيروت.

١١- التوراة السامرية. طبع دار الأنصار بالقاهرة.

١٢- جامع الأصول لابن الأثير. مطبعة السنة المحمدية. القاهرة. الطبعة الأولى.

١٣- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح. لابن تيمية. طبع مؤسسة المدني. القاهرة.

١٤- الحكومة الإسلامية للخميني. نشر الحركة الإسلامية في إيران. وطبع مطعبة الخليج في الكويت.

١٥- حياة محمد. لمحمد حسنين هيكل. طبعة دار المعارف. القاهرة.
١٦- زاد المسير لابن الجوزي. طبعة المكتب الإسلامي. بيروت.
١٧- زاد المعاد لابن القيم. المطبعة المصرية ومكتبها. القاهرة.
١٨- الزهر النضر في نبأ الخضر لابن حجر. طبعة المنيرية.
١٩- سلسلة الأحاديث الصحيحة. للشيخ محمد ناصر الدين الألباني. طبع المكتب الإسلامي. الأولى.
٢٠- سنن الترمذي. طبعة بيت الأفكار. الرياض. السعودية.
٢١- شرح العقيدة الطحاوية لمحمد بن أبي العز الحنفي. المكتب الإسلامي، بيروت. الرابعة.
٢٢- صحيح البخاري. طبعة بيت الأفكار. الرياض.
٢٣- صحيح الجامع الصغير. للشيخ ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي. بيروت. الطبعة الأولى.
٢٤- صحيح مسلم. بشرح النووي. المطبعة المصرية. القاهرة.
٢٥- صحيح مسلم. طبعة بيت الأفكار. الرياض.
٢٦- صحيح موارد الظمآن. للشيخ ناصر الدين الألباني. دار الصميعي. الرياض. (٢٠٠٢) الأولى.
٢٧- عالم الجن والشياطين للمؤلف. مكتبة الفلاح. الكويت.
٢٨- عالم الملائكة الأبرار للمؤلف. مكتبة الفلاح. الكويت.
٢٩- عقائد الإمامية لمحمد رضا. دار الغدير. بيروت.
٣٠- عقائد الإمامية الاثني عشرية لإبراهيم الموسوي الزنجاني. مؤسسة الأعلمي للمطبوعات. بيروت.

٣١- العقيدة الإسلامية لعبد الرحمن حنبكة. الطبعة الأولى. دمشق.
٣٢- العقيدة في الله. للمؤلف مكتبة الفلاح. الكويت.
٣٣- فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني. طبعة السلفية.
٣٤- في ظلال القرآن لسيّد قطب. طبعة دار الشروق.
٣٥- لسان العرب لابن منظور إعداد يوسف خياط ونديم مرعشلي، دار لسان العرب. بيروت. الأولى.
٣٦- لوامع الأنوار البهية للسفاريني. طبع على نفقة حكومة قطر.
٣٧- مجموع فتاوى شيخ الإسلام. جمع ابن قاسم. طبع الرياض. الطبعة الأولى.
٣٨- مجموعة الرسائل المنيرية. طبعة مصورة. بيروت.
٣٩- محمد نبي الإسلام.
٤٠- مختصر التحفة الاثني عشرية. لمحمود شكري الألوسي. طبع المطبعة السلفية. القاهرة. ١٣٨٧.
٤١- مختصر صحيح مسلم. المكتب الإسلامي. بيروت.
٤٢- مسند أحمد. طبعة مؤسسة الرسالة. الأولى.
٤٣- مسند الإمام أحمد. تصوير المكتب الإسلامي. بيروت.
٤٤- مشكاة المصابيح. للتبريزي. طبعة المكتب الإسلامي. دمشق. الأولى.
٤٥- المصباح المنير للفيومي. طبعة دار المعارف. القاهرة.
٤٦- معجزات المصطفى لخير الدين وانلي. مؤسسة ومكتبة الخافقين. دمشق.
٤٧- مفتاح دار السعادة لابن القيم. طبعة صبيح. القاهرة.

٤٨- الملل والنحل للشهرستاني. دار المعارف. بيروت.
٤٩- نبوة محمد من الشك إلى اليقين. د. فاضل السامرئي. مكتبة القدس. بغداد.
٥٠- نظرات في النبوة لصلاح الدين المنجد. مكتبة القدس. بغداد.
٥١- نيل الأوطار للشوكاني. طبعة الحلبي. القاهرة. الطبعة الثانية.
٥٢- هداية الحيارى لابن القيم. ضمن مجموع بعنوان: الجامع الفريد. نشر دار الإفتاء. الرياض.

محتوى الكتاب

تمهيد ٥

الباب الأول: الرسل والأنبياء

الفصل الأول: تعريف وبيان ١١

المبحث الأول: التعريف بالنبي والرسول والفرق بينهما ١١

المطلب الأول: تعريف النبي ١١

المطلب الثاني: تعريف الرسول ١٢

المطلب الثالث: الفرق بين النبي والرسول ١٢

المبحث الثاني: أهمية الإيمان بالرسل ١٥

المطلب الأول: الإيمان بالأنبياء والرسل من أصول الإيمان ١٥

المطلب الثاني: الصلة بين الإيمان بالله والإيمان بالرسل والرسالات ١٥

المطلب الثالث: وجوب الإيمان بجميع الرسل ١٦

المبحث الثالث: عدد الأنبياء والطريق إلى معرفتهم ١٨

المطلب الأول: الأنبياء والرسل جمٌّ غفير ١٨

من الأنبياء والرسل من لم يقصصهم الله علينا ١٩

المطلب الثاني: الأنبياء والرسل المذكورون في القرآن ١٩

أربعة من العرب ٢٠

الأسباط ٢٠

شجرة الرسل ٢١
المطلب الثالث: أنبياء عرفناهم من السنة ٢٢
المطلب الرابع: صالحون مشكوك في نبوتهم ٢٣
المطلب الخامس: لا نثبت النبوة لأحد إلاّ بدليل ٢٦
الفصل الثاني: حاجة البشرية إلى الرسل والرسالات ٢٩
تمهيد ٢٩
كلام قيم لابن القيم ٣١
ابن تيمية يفصّل الموضوع ويبينه ٣٢
مقارنة بين الحاجة إلى علم الطب والحاجة لعلوم الرسل ٣٥
هل يمكن أن يستغني العقل عن الوحي ٣٦
بطلان قول البراهمة ٣٩
زعيم الهند غاندي يفضل البقرة على أمّه ٣٩
مجالات العقل ٤٠
موقع العقل من الوحي ٤٠
الفصل الثالث: وظائف الرسل ومهماتهم ٤٣
المبحث الأول: البلاغ المبين ٤٣
المبحث الثاني: الدعوة إلى الله ٤٥
مثال يوضح دور الرسل ٤٦
المبحث الثالث: التبشير والإنذار ٤٧
المبحث الرابع: إصلاح النفوس وتزكيتها ٥٠
المبحث الخامس: تقويم الفكر المنحرف والعقائد الزائفة ٥١

المبحث السادس: إقامة الحجّة ٥٢
المبحث السابع: سياسة الأمّة ٥٤
الفصل الرابع: الوحي ٥٥
المبحث الأول: النبوة منحة إلهية ٥٥
المبحث الثاني: طريق إعلام الله أنبياءه ورسله ٥٧
مقامات وحي الله إلى الرسل ٥٨
رؤيا الأنبياء ٥٨
صفة مجيء الملك إلى الرسول ٦٠
بشائر الوحي ٦٠
أثر الملك في الرسول ٦١
الفصل الخامس: صفات الرسل ٦٣
المبحث الأول: البشرية ٦٣
المطلب الأول: أهلية البشر لتحمل الرسالة ٦٣
المطلب الثاني: لِمَ لَمْ يكن الرسل ملائكة؟ ٦٥
المطلب الثالث: مقتضى بشرية الأنبياء والرسل ٦٨
تعرض الأنبياء للبلاء ٧٠
اشتغال الأنبياء بأعمال البشر ٧١
ليس فيهم شيء من خصائص الألوهية والملائكية ٧٢
المطلب الرابع: الكمال البشري ٧٤
الصور الظاهرة مختلفة ٧٦

الكمال في الأخلاق ٧٧
خير الناس نسباً ٧٩
أحرار بعيدون عن الرقّ ٧٩
المواهب والقدرات ٨٠
تحقيق العبودية هو الكمال ٨١
الذكورة ٨٢
الحكمة من كون الرسل رجالاً ٨٢
المبحث الثاني: نبوة النساء ٨٤
المبحث الثالث: أمور تفرد بها الأنبياء دون سائر البشر ٨٩
١- الوحي ٨٩
٢- العصمة ٩٠
٣- الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم ٩٠
٤- تخيير الأنبياء عند الموت ٩٠
٥- لا يقبر نبيٌّ إلاّ حيث يموت ٩١
٦- لا تأكل الأرض أجسادهم ٩١
٧- أحياء في قبورهم ٩٣
الفصل السادس: عصمة الرسل ٩٥
المبحث الأول: العصمة في التحمل والتبليغ ٩٥
المبحث الثاني: عدم العصمة من الأعراض البشرية ٩٨
١- خوف إبراهيم عليه السلام ٩٨

٢- عدم صبر موسى عليه السلام ٩٨
٣- تصرفات موسى عليه السلام ٩٩
٤- نسيان آدم وجحوده ٩٩
٥- نبيٌّ يأمر بحرق قرية النمل ١٠٠
٦- صلاة نبينا الظهر ركعتين نسياناً ١٠٠
المبحث الثالث: مدى العصمة في إصابة الحق في القضاء ١٠٣
الذين ينفون عن الرسل والأنبياء هذه الأعراض مخالفون للنصوص ... ١٠٤
المبحث الرابع: العصمة من الشرك والمعاصي والذنوب ١٠٥
المطلب الأول: العصمة من الكبائر ١٠٥
ما نسب اليهود إلى الأنبياء والمرسلين من القبائح ١٠٥
ما نسبه النصارى من القبائح إلى الأنبياء ١٠٧
المطلب الثاني: العصمة من الصغائر ١٠٨
شبهتان ١١١
السبب في عصمة الأنبياء ١١٣
تكريم الأنبياء وتوقيرهم ١١٤
المبحث الخامس: عصمة غير الأنبياء ١١٥
عصمة المعزّ الفاطمي (العبيدي) ١١٥
عصمة أئمة الشيعة الاثني عشرية ١١٦
السر في دعوى العصمة ١١٧
الفصل السابع: دلائل النبوة ١٢١

تمهيد ١٢١
تنوع الدلائل ١٢١
المبحث الأول: الآيات والمعجزات ١٢٣
المطلب الأول: تعريف الآية والمعجزة ١٢٣
المطلب الثاني: أنواع الآيات ١٢٤
أمثلة من آيات الرسل ١٢٥
١- آية نبي الله صالح ١٢٥
٢- معجزة إبراهيم ١٢٧
٣- آيات نبي الله موسى ١٢٧
٤- معجزات نبي الله عيسى ١٣٠
٥- آيات خاتم الأنبياء ١٣٠
الآية العظمى ١٣١
نمط فريد من المعجزات ١٣١
الإسراء والمعراج ١٣٣
انشقاق القمر ١٣٤
تكثيره الطعام ١٣٥
تكثيره الماء ونبعه من بين أصابعه الشريفة ١٣٧
كفّ الأعداء عنه ١٣٨
إجابة دعوته ١٤٠
اهتداء أم أبي هريرة بدعوته ١٤٠

أصبح بدعوة الرسول ﷺ فارساً ١٤٠
إغاثة الله الناس بدعائه ١٤١
أصابت الدعوة يد مستكبر ١٤٢
أصابت بركة دعوته بعير جابر ١٤٢
إبراء المرضى ١٤٢
إخباره بالأمور المغيبة ١٤٤
حنين الجذع ١٥٠
انقياد الشجر وتسليمه وكلامه ١٥٠
تسليم الحجر ١٥٢
شكوى البعير ١٥٢
خاتم النبوة ١٥٣
المطلب الثالث: الخوارق من غير الأنبياء ١٥٤
كرامات الأولياء ١٥٤
حكمة إعطاء الكرامة للولي ١٥٥
من كرامات الأولياء ١٥٦
نور في العصا ١٥٦
الطعام المبارك ١٥٦
سفينة والأسد ١٥٧
صرخة في المدينة تدوي في الشام ١٥٧
مزيد من كرامات الأولياء ١٥٨

الاستقامة أعظم كرامة ١٥٩
الخوارق والأحوال الشيطانية ١٦٠
المبحث الثاني: بشارات الأمم السابقة ١٦١
المطلب الأول: القرآن يتحدث عن بشارات الأنبياء بمحمد ﷺ ١٦١
دعوة إبراهيم ١٦٢
بشارة موسى ١٦٣
بقية هذه البشارة في التوراة ١٦٤
بشارة عيسى ١٦٦
مثلان في التوراة والإنجيل ١٦٦
المطلب الثاني: بشائر التوراة ١٦٧
ذكر الرسول ﷺ باسمه في التوراة ١٦٧
ذكره ﷺ بأمر يتعلق به ١٦٨
إشارة التوراة إلى معلم من معالم مهاجر الرسول ١٦٩
إشارة التوراة إلى أمور جرت على يدي الرسول ١٧٠
اللعمان والنور الذي شعَّ من يده ١٧٠
ذهاب الوبا وخروج الحمّى ١٧٢
بشارات جامعة ١٧٤
المطلب الثالث: بشارات من الإنجيل ١٧٦
بشارات أخرى منه ١٧٧
بشارة من إنجيل متى ١٧٧

بشارة من إنجيل لوقا ١٨٠
بشارة من إنجيل برنابا ١٨٢
رأي في إنجيل برنابا ١٨٢
المطلب الرابع: بشارات من الأسفار العالمية الأخرى ١٨٥
المطلب الخامس: شيوع هذه البشارات قبل البعثة ١٨٧
صفة رسولنا في التوراة ١٨٧
أين هذه البشارة في التوراة ١٨٨
خبر ابن الهيبان ١٩٠
خبر يوشع ١٩١
خبر عبد الله بن سلام ١٩١
شهادة غلام يهودي ١٩٢
فراسة راهب ١٩٣
معرفة علماء اليهود بموعد خروج الرسول ١٩٣
المبحث الثالث: النظر في أحوال الأنبياء ١٩٥
هرقل وأبو سفيان ١٩٧
زهدهم في المتاع الدنيوي ٢٠٠
المبحث الرابع: دعوة الرسل ٢٠١
دعوة نبينا محمد ﷺ ٢٠٢
المبحث الخامس: تأييد الله لرسله ونصرته لهم ٢٠٣
شبهة ٢٠٤

الفصل الثامن: فضل الأنبياء وتفاضلهم ٢٠٥
المبحث الأول: فضل الأنبياء على غيرهم ٢٠٥
المطلب الأول: الأدلة على هذا التفضيل ٢٠٥
لا مجال للمصادفة ٢٠٧
المطلب الثاني: دعوى تفضيل الأئمة على الأنبياء ٢٠٨
المطلب الثالث: خاتم الأولياء وخاتم الأنبياء ٢١١
المبحث الثاني: تفاضل الأنبياء والرسل ٢١٣
المطلب الأول: أولوا العزم من الرسل ٢١٣
بم يتفاضل الأنبياء والرسل ٢١٤
المطلب الثاني: فضل الرسول الخاتم ٢١٦
المطلب الثالث: النصوص التي تنهى عن التفضيل بين الأنبياء ٢١٩

الباب الثاني: الرسالات السماوية

الفصل الأول: الإيمان بالرسالات ٢٢٥
المبحث الأول: وجوب الإيمان بالرسالات كلها ٢٢٥
المبحث الثاني: كيف يكون الإيمان بالرسالات ٢٢٧
المطلب الأول: كيف يكون الإيمان بالرسالات السابقة ٢٢٧
المطلب الثاني: كيف يكون الإيمان بالرسالة الخاتمة ٢٢٨
الفصل الثاني: مقارنة بين الرسالات ٢٣١
المبحث الأول: مصدرها والغاية من إنزالها ٢٣١
المبحث الثاني: الرسالة العامة والرسالة الخاصة ٢٣٦

المبحث الثالث: حفظه الرسالات ٢٣٩
المبحث الرابع: مواضع الاتفاق والاختلاف ٢٤١
المطلب الأول: مواضع الاتفاق ٢٤١
الدين الواحد ٢٤١
كيف يتحقق الإسلام ٢٤٢
لبُّ دعوات الرسل ٢٤٢
الرسالات السابقة تبين الأسباب الموجبة لعبادة الله ٢٤٤
المبادىء الخالدة (مسائل العقيدة) ٢٤٤
القواعد العامة ٢٤٥
المطلب الثاني: اختلاف الشرائع ٢٤٨
الأنبياء إخوة لعلات ٢٥١
المبحث الخامس: الطول والقصر ٢٥٢
المبحث السادس: موقف الرسالة الخاتمة من الرسالات السابقة ٢٥٣
عدم حاجة الشريعة الخاتمة إلى غيرها ٢٥٥
المراجع ٢٥٧
محتوى الكتاب ٢٦١

رقم الإيداع

2005/5863

الترقيم الدولي I.S.B.N

977 - 342 - 281 - x

القيامة الصغرى

حُقُوق الطَّبْع مَحْفُوظَة

لدار النفائس

للنشر والتوزيع - الأردن

طبعة خاصة بمصر
والمغرب العربي واليمن

(يمنع تداولها في دول الخليج العربي)

١٤٣٣هـ / ٢٠١٢ م

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م هي عمر الجائزة تتويجًا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية
الإدارة : القاهرة : ٤٠ شارع أحمد أبو العلا - المتفرع مع شارع نور الدين بهجت الموازي لامتداد شارع مكرم عبيد - مدينة نصر
هاتف : ٢٢٨٧٣٢٤٦ - ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +) فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)
فاكس : ٢٢٦٣٩٨٦١ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين
هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)
بريديًا : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

دار النفائس
للنشر والتوزيع - الأردن

العبدلي - مقابل عمارة جوهرة القدس
ص.ب : ٩٢٧٥١١ عمّان ١١١٩٠ الأردن
هاتف : ٥٦٩٣٩٤٠ - فاكس : ٥٦٩٣٩٤١
بريد إلكتروني : ALNAFAES@HOTMAIL.COM

العقيدة في ضوء الكتاب والسنة ٥

القيامة الصغرى

أ.د. عمر سليمان عبدالله الأشقر

دار النفائس
للنشر والتوزيع - الأردن

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله واهب الحياة وسالبها، مُقيم الأجساد بالأرواح وقابضها، خلقنا من تراب وإليه يُصَيِّرنا، ومن التراب عندما يشاء يقيمنا ويبعثنا.

وأصلي وأسلم على المصطفى المختار الذي أطال الحديث عن الموت وشدته، والقيامة وأهوالها وأحوالها، والنار وعذابها، والجنة ونعيمها، فنبَّه العباد من غفلتهم، وخلصهم من حيرتهم، ووجههم الوجهة الصحيحة.

وأصلي وأسلم على آله الأطهار وصحبه الأبرار ومن اتبعوهم بإحسان الذين سكنوا الدنيا بقلوب معلقة بالآخرة، فكانوا لتلك الدار الباقية يعملون، ولنيلها يبذلون، وما زال هذا حالهم حتى لقوا ربَّهم، فرضوان الله عليهم، وبعد:

فإننا جئنا الحياة بإرادة واهب الحياة ومبدعها، ونمضي من الحياة عندما يريد واهب الأمانة سلبها وقبضها، أقوام يأتون، وآخرون يرحلون، مثلهم في ذلك مثل أمواج البحر المتلاحقة كلما انكسرت على الشط موجة تبعتها أخرى، ومثلهم كمثل النهر المتدفق، تراه دائماً يجري، ولكن الماء الذي تراه أمامك الآن غير الماء الذي رأيته قبل لحظة من الزمان، ومثلهم كمثل خمائل الزرع الدائمة الخضرة، كلما يبس منها شيء نبت غيره، ومثلهم كمثل لوحة مضاءة بمئات الألوف من الشموع، تراها مضاءة دائماً، ولكننا عندما نمعن النظر فيها نعلم السر في ديمومة إضاءتها، ذلك أن ما يحترق منها يخلفه غيره، بل قد يضاء على صفحتها أكثر مما يحترق منها.

ولكن هذا الامتداد الإنساني المتلاحق سيتوقف يوماً، وسيأتي اليوم الذي ينتهي فيه الوجود الإنساني كله، بل سَيُدَمَّر فيه الكون كله، فتنطفىء نجوم الليل جميعاً، وتتوقف أمواج البحر، ويبس الزرع كله، وتجف مياه الأنهار والعيون.

ولكن هذا الفناء ليس هو النهاية، بل هو مرحلة في الأطوار التي يمر الإنسان بها، وسيأتي يوم نعود جميعاً فيه إلى الحياة، لنحاسب على ما قدمنا وعملنا.

إن الإيمان بالرجعة إلى الحياة، ثم الخلود بعد ذلك ضروري لتقويم مسار الإنسان، فالإنسان مركوز في أعماق نفسه حبُّ الخلود والبقاء، ولذا فإن إبليس أغرى آدم بالأكل من الشجرة المحرم عليه الأكل منها مدعياً أن الأكل منها يمنحه وزوجه الخلود ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠].

والكفر بالبعث والنشور يحدث شقوة للنفوس البشرية، كما يحدث انحرافاً في مسيرة البشر في الحياة.

إن بعض الذين يرفضون فكرة الرجعة إلى الحياة يبدؤون بالنواح الحزين على حياتهم التي تتلاشى وتتناقص في كل لحظة تمضي، وقد يسلمهم هذا إلى العزلة والألم حتى يوافيهم الموت، وإن كانوا كتاباً أو شعراء فإنهم يسجلون مشاعرهم الحزينة التي يندبون بها حياتهم في مقالات أو كتب أو أشعار تجسم شقوتهم وحيرتهم وألمهم، لتكون سلوى لمن كان على مثل ما كانوا عليه، ولكنها في الحقيقة داء يضاف إلى الداء، فيزيد المريض مرضاً، ولا يجلب له الشفاء.

وبعض الذين يكفرون بالبعث والنشور يسارعون إلى اقتناص الملذات والشهوات كأنما هم في صراع مع الزمن يخشون أن تمضي أيامهم ولما يشبعوا من مباهج الحياة.

إن فترة وجودنا القصيرة في هذه الدنيا ذات قيمة كبيرة في مسارنا فيما بعد حياتنا هذه، وإن طريق السعادة الأبدي الذي يوصل إلى الخلود في دار الخلود مرهون بتحقيقنا الرقي الحقيقي في أنفسنا وفي الآخرين، وهذا الرقي الذي يُصَفِّي أرواحنا، ويُقَوِّم أعمالنا، ويهذب أخلاقنا، له منهج أصيل واضح بينٌ فيما جاءَتنا به الرسل الكرام، وما تضمنته الكتب السماوية.

ولما كان الارتباط بين حياتنا هذه وحياتنا الأخرى وثيقاً، إذ كانت هذه الحياة بمثابة الحرث والزرع، وكانت تلك بمثابة الجنى والحصاد، كان لا بد للإنسان من أن يعلم عن حياته الآخرة ما يدعوه للاستعداد لها، وإقامة حياته الدنيا على النمط الذي يحقق له في الآخرة خيراً وفضلاً.

ولما كانت الحياة الأخرى غَيباً لا يستطيع أصحاب العقول الثاقبة، والقلوب المبصرة اختراق حجبه فضلاً عمن هم دونهم، فإن الله تولى إخبارهم عن مسارهم في رحلتهم بعد الحياة، وعن مصيرهم المحتوم، ومزج الحديث عن الحياة الآخرة بالحديث عن هذه الحياة مزجاً يجعلهما متداخلتين، تحقيقاً لإصلاح النفوس وتقويمها، في عالم تدأب فيه مخلوقات كثيرة بشرية وجنيّة على العمل لإضلال العباد وإبعادهم عن جادة الصواب.

والعلوم التي عرَّفنا الله بها عن اليوم الغائب المستور الذي سنلقاه فيه لا

تصلح فيه الإشارات والرموز، بل لا بدَّ من حديث واضح مفصّل، يرى فيه الإنسان ما يجعله يقف على اليقين، فلا يخالطه ريب، ولا ينازعه شك، ومن طالع ما دوَّناه في كتابنا هذا عن اليوم الآخر فإنه سيرى الكم الهائل من نصوص الكتاب والسنة الصحيحة، وهي نصوص تعطي صورة مفصلة لكثير من الأمور التي تكون بعد الموت وفي المعاد.

والمعاد غيب، ولكنه غيب صادق، ولا يكون كذلك إلا إذا صحت نسبة الخبر إلى الله أو إلى رسوله ﷺ، ولذلك أعرضت في هذا المؤلَّف عن الأخبار التي لم يصح إسنادها إلى الرسول ﷺ، كما أعرضت عن منهج الذين يرفضون الاحتجاج بما صح من الأحاديث إذا كانت آحاداً.

ورفضت أيضاً اتباع نهج المؤوِّلين المحرفين للنصوص، أولئك الذين أقاموا من عقولهم حكماً يقاضون إليه النصوص، فقلبوا الميزان، فأصبح الحاكم عندهم محكوماً، فضلوا وأضلوا، ووصل الحال ببعضهم إلى تكذيب كثير مما يجري في الآخرة مما صحت به الأخبار، وعُمْدتهم في ذلك مقاييس عقلية، لو دققوا النظر فيها لتبين لهم فسادها، ولو تعمقوا في علوم الآخرة لبان لهم أن الآخرة غير الدنيا، وأن مقاييس وموازين الآخرة مخالفة لما عليه الحال في الدنيا.

لقد طال البحث في بيان هذا الأصل الاعتقادي العظيم، ولذا احتجنا إلى أن نقسمه إلى ثلاثة أقسام، كل قسم منها يصدر في كتاب:

القسم الأول: موضوعه القيامة الصغرى وأشراط القيامة الكبرى.

القسم الثاني: القيامة الكبرى.

القسم الثالث: الجنة والنار.

وهذا هو الكتاب الأول، وهو يتكون من بابين كما يدل عليه عنوانه، الباب الأول يبحث في القيامة الصغرى، ونعني بها الموت، فهو في الموت وأهواله وسكراته، والقبر وفتنته، ونعيمه وعذابه، ثم في الروح ومصيرها في البرزخ.

والباب الثاني في علامات الساعة، وعلامات الساعة الدالة على قرب وقوعها كثيرة، ومن هذه العلامات ما هو كبير، ومنها ما هو صغير، والعلامات الصغرى منها ما وقع ومضى، ومنها ما لم يقع بعد، والعلامات الكبرى لم تقع بعد، وفي هذا الباب حديث عن ذلك كله.

وفي الختام أسأله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب عباده، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وصلى الله على عبده ورسوله محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

د. عمر سليمان الأشقر

الكويت في السادس من رمضان ١٤٠٦

١٤/٥/١٩٨٦

الباب الأول

القيامة الصغرى

الفصل الأول

تعريف وبيان

يطلق على المرحلة التي يمر بها الإنسان بعد هذه الحياة الدنيا عدة أسماء، منها: القيامة الصغرى، والبرزخ، والموت.

وسنعرض لهذه الأسماء الثلاثة بشيء من التفصيل فيما يأتي.

المبحث الأول

تعريف القيامة الصغرى

القيامة الصغرى هي الموت، فكل من مات فقد قامت قيامته، وحان حينه، ففي صحيح البخاري ومسلم عن عائشة قالت: كان رجال من الأعراب جفاة يأتون النبي ﷺ فيسألونه متى الساعة، فكان ينظر إلى أصغرهم فيقول: «إن يعش هذا، لا يدركه الهرم حتى تقوم عليكم ساعتكم»[1].

قال ابن كثير: «والمراد انخرام قرنهم، ودخولهم في عالم الآخرة، فإن من مات فقد دخل في حكم الآخرة، وبعض الناس يقول: من مات فقد قامت قيامته، وهذا الكلام بهذا المعنى صحيح»[2].

---

(١) البخاري: ٦٥١١. ومسلم: ٢٩٥٢. واللفظ للبخاري.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير: (١/ ٢٤).

وقد أشار ابن كثير إلى أن هذا القول يقوله الفلاسفة، ويريدون به معنى فاسداً. فإن الملاحدة يريدون أن الموت هو القيامة ولا قيامة بعدها. يقول ابن كثير: «وقد يقول هذا بعض الملاحدة، ويشيرون به إلى شيء آخر من الباطل، فأمّا الساعة العظمى، وهي وقت اجتماع الأولين والآخرين في صعيد واحد، فهذا ما استأثر الله بعلم وقته»[1].

وتسمى القيامة الصغرى أيضاً بالمعاد الأول، كما تسمى بالبرزخ.

يقول ابن القيم: «الموت بعث ومعاد أول» فإن الله جعل لابن آدم معادين وبعثين يجزي فيهما الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى.

فالبعث الأول: مفارقة الروح للبدن، ومصيرها إلى دار الجزاء الأول»[2].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الروح، لابن القيم: ص ١٠٣.

المَبحَث الثـانـي

البرزَخ

البرزخ في كلام العرب الحاجز بين الشيئين، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ [الفرقان: ٥٣]، أي: حاجزاً والبرزخ في الشريعة: الدار التي تعقب الموت إلى البعث. قال تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]. قال مجاهد: هو ما بين الموت والبعث، وقيل للشعبي: مات فلانٍ، قال: ليس هو في دار الدنيا، ولا في الآخرة[1].

وقال ابن القيم: «عذاب القبر ونعيمه اسم لعذاب البرزخ ونعيمه، وهو ما بين الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]. وهذا البرزخ يشرف أهله فيه على الدنيا والآخرة».

---

(١) تذكرة القرطبي: ١٧٧.

المَبحث الثالث

الموت

المطلب الأول

الموت في اللغة والاصطلاح

الحياة والموت متناقضان تناقض النور والظلام والبرودة والحرارة، ولذا فإن معاجم اللغة العربية تُعرِّف كل واحد منهما بأنه نقيض الآخر، ففي تعريف الحياة تقول: «الحياة نقيض الموت، والحيّ من كلِّ شيء: نقيض الميت، والجمع أحياء»[(١)]، وفي تعريف الموت تقول: «الموت والمَوتَان ضد الحياة»[(٢)]، وأصل الموت في لغة العرب: السكون، وكل ما سكن فقد مات[(٣)]، فتراهم يقولون: «ماتت النار موتاً: إذا برد رمادها، فلم يبق من الجمر شيء، ومات الحر والبرد إذا باخ، وماتت الريح: ركدت وسكنت، وماتت الخمر: سكن غليانها، والموت ما لا روح فيه»[(٤)].

وإذا كان السكون أصل الموت في لغتنا، فإن الحركة أصل الحياة، ففي لسان العرب: «الحي كل متكلم ناطق، والحي من النبات ما كان طرياً

---

(١) لسان العرب، لابن منظور: (١/ ٧٧٤).

(٢) لسان العرب: (٣/ ٥٤٧).

(٣) لسان العرب: (٣/ ٥٤٧).

(٤) لسان العرب: (٣/ ٥٤٧).

يهتز»[1]، والحياة الإنسانية تتحقق بنفخ الروح في جسد الجنين في رحم أمِّه، والموت: «انقطاع تعلق الروح بالبدن، ومفارقته وحيلولة بينهما، وتبدل حال، وانتقال من دار إلى دار»[2].

المطلب الثاني

الوفاة الكبرى والوفاة الصغرى

النوم شبيه الموت، ولذلك يسميه علماؤنا بالوفاة الصغرى، فالنوم وفاة، والقيام من النوم بعث ونشور ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ [الأنعام: ٦٠] وفي النوم تقبض أرواح العباد، ومن شاء الحق أن يمسك روحه في حال نومه أمسكها، ومن شاء بقاءها ردها إلى الأجل الذي حدده الحق، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ﴾ [الزمر: ٤٢]. «فقد أخبر الحق أن كلا من النفسين الممسكة والمرسلة توفيتا وفاة النوم، وأمّا التي توفيت وفاة الموت فتلك قسم ثالث، وهي التي قدمها بقوله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]. . فإن الله ذكر توفيتين: توفي الموت، وتوفي النوم، وذكر إمساك المتوفاة وإرسال الأخرى.

ومعلوم أنه يمسك كل ميتة سواء ماتت في النوم أو قبل ذلك، ويرسل

---

(١) لسان العرب: (١/ ٧٧٣).

(٢) التذكرة للقرطبي: ٤.

من لم تمت، وقوله: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [الزمر: ٤٢] يتناول ما ماتت في اليقظة وما ماتت في النوم، فلما ذكر التوفيتين ذكر أنه يمسكها في إحدى التوفيتين ويرسلها في الأخرى، وهذا ظاهر اللفظ بلا تكلف»[١].

المطلب الثالث

الموت حتم لازم

الموت حتم لازم لا مناص منه لكل حي من المخلوقات، كما قال تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص: ٨٨]، وقال: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧]. وقال: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾[آل عمران: ١٨٥].

ولو نجا أحد من الموت لنجا منه خيرة الله من خلقه محمد ﷺ: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠]، وقد واسى الله رسوله بأن الموت سنته في خلقه ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

والموت حق على الإنس والجن، ففي الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان يقول: «أعوذ بعزتك الذي لا إله إلا أنت الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون»[٢].

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: (٥/ ٤٥٢).

(٢) رواه البخاري في كتاب التوحيد: (٧٣٨٣).

المطلب الرابع

للموت أجل محدد

للموت وقت يأتي فيه، فلا يستطيع أحد أن يتجاوز الأجل الذي ضربه الله، وقد قدر الله آجال العباد، وجرى بذلك القلم في اللوح المحفوظ، وكتبته الملائكة الكرام والمرء في بطن أمه، فلا يتأخر المرء عما كتب له ولا يتقدم، وكل إنسان مات أو قتل أو غرق أو سقط من طائرة أو سيارة أو احترق أو غير ذلك من الأسباب، فإنه قد مات بأجله الذي قدره الله وأمضاه، وقد دلت على ذلك نصوص كثيرة، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾ [آل عمران: ١٤٥]، وقال: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء: ٧٧].

وقال: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٤] وقال: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ﴾ [الجمعة: ٨] وقال: ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ [الواقعة: ٦٠].

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: قالت أم حبيبة زوج النبي ﷺ، ورضي الله عنها: «اللهم أمتعني بزوجي رسول الله، وبأبي أبي سفيان، وبأخي معاوية».

قال: فقال النبي ﷺ: «لقد سألت الله لآجال مضروبة، وأيام معدودة، وأرزاق مقسومة، لن يعجل شيء قبل حِلِّه، ولن يؤخر الله شيئاً بعد حِلِّه، ولو كنت سألت الله أن يعيذك من عذاب في النار، أو عذاب في القبر كان خيراً أو أفضل»[1].

---

(١) رواه مسلم في كتاب القدر من صحيحه: (٢٦٦٣)، وأحمد في المسند: (١/ ٣٩٠، ٤١٣، ٤٤٥).

المطلب الخامس

وقت الموت مجهول لنا

لا علم للعباد بالوقت الذي يحضر فيه الموت، وينزل بهم، فإن علم ذلك لله وحده، وهو واحد من مفاتيح الغيب التي استأثر الله بعلمها، قال تعالى: ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: ٣٤].

وقد روى البخاري في صحيحه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مفاتيح الغيب خمس: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾»[1] [لقمان: ٣٤].

وقد روى أحمد في مسنده، والبخاري في الأدب المفرد، وابن حبان والحاكم وقال صحيح، ووافقه الذهبي، وهو كما قالا، كما قال الشيخ ناصر الدين الألباني عن جماعة من الصحابة قالوا: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله قبض عبد بأرض جعل له فيها حاجة»[2].

---

(١) رواه البخاري، في كتاب التفسير: ٤٦٢٧.

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني: ١٢٢١.

الفصل الثاني

الاحتضار

المبحث الأول

حضور ملائكة الموت

إذا حان الأجل وشارفت حياة الإنسان على المغيب أرسل الله رسل الموت لسلِّ الروح المدبِّرة للجسد والمحركة له، ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ [الأنعام: ٦١]، وملائكة الموت تأتي المؤمن في صورة حسنة جميلة، وتأتي الكافر والمنافق في صورة مخيفة، ففي حديث البراء بن عازب أن الرسول ﷺ قال: «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء، بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط[1] من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مدَّ بصره، ثم يجيء ملك الموت عليه السلام، حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة (وفي رواية: المطمئنة) اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان. قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فيِّ السقاء، فيأخذها . . .

وإن العبد الكافر (وفي رواية الفاجر) إذا كان في انقطاع من الآخرة،

---

(١) بفتح الحاء، ما يخلط من الطيب لأكفان الموتى وأجسامهم خاصة.

وإقبال من الدنيا، نزل إليه من السماء ملائكة [غلاظ شداد] سود الوجوه، معهم المسوح[1] [من النار] فيجلسون منه مدَّ البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب. قال: فتفرق في جسده، فينتزعها كما ينتزع السفود [الكثير الشعب] من الصوف المبلول، [فتقطع معها العروق والعصب]»[2].

وما يحدث للميت حال موته لا نشاهده ولا نراه، وإن كنا نرى آثاره، وقد حدثنا ربنا تبارك وتعالى عن حال المحتضر فقال: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٣-٨٥]: والمتحدث عنه في الآية الروح عندما تبلغ الحلقوم في حال الاحتضار، ومن حوله ينظرون إلى ما يعانيه من سكرات الموت، وإن كانوا لا يرون ملائكة الرحمن التي تسلُّ روحه ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥] كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١].

وقال في الآية الأخرى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ * وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ * وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ * وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ [القيامة: ٢٦-٣٠] والتي تبلغ

---

(١) جمع المسح، بكسر الميم، هو ما يلبس من نسيج الشعر على البدن تقشفاً، وقهراً للبدن.

(٢) جمع الشيخ ناصر الدين الألباني جميع روايات هذا الحديث، وساقه سياقاً واحداً ضاماً إليه جميع الزوائد والفوائد التي وردت في جميع طرقه الثابتة في كتابه القيم: (أحكام الجنائز: ص ٥٩)، وقد عزاه الشيخ إلى أبي داود (٢/ ٢٨١) والحاكم (١/ ٢٧-٤٠) والطيالسي (رقم ٧٥٣) وأحمد (٤/ ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٩٥، ٢٩٦) والسياق له، والآجري في الشريعة (٣٦٧-٣٧٠) وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، وأقره الذهبي، وهو كما قالا، وصححه ابن القيم في أعلام الموقعين (١/ ٢١٤) وتهذيب السنن (٤/ ٣٣٧)، ونقل فيه تصحيحه عن أبي نعيم وغيره.

التراقي هي الروح، والتراقي جمع ترقوة وهي العظام التي بين ثغرة النحر والعاتق.

وقد صرح الحديث بأن ملك الموت يبشر المؤمن بالمغفرة من الله والرضوان، ويبشر الكافر أو الفاجر بسخط الله وغضبه، وهذا قد صرحت به نصوص كثيرة في كتاب الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

وهذا التنزُّل -كما قال طائفة من أئمة التفسير منهم مجاهد والسدي -إنما يكون حالة الاحتضار[1]، ولا شك أن الإنسان في حالة الاحتضار يكون في موقف صعب، يخاف فيه من المستقبل الآتي، كما يخاف على من خلَّف بعده، فتأتي الملائكة لتؤمنه مما يخاف ويحزن، وتُطَمئِنُ قلبه، وتقول له: لا تخف من المستقبل الآتي في البرزخ والآخرة، ولا تحزن على ما خلفت من أهل وولد أو دَيْنٍ، وتبشره بالبشرى العظيمة، ﴿وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣١]، وما دام العبد قد تولى الله وحده، فإن الله يتولاه دائماً، وخاصة في المواقف الصعبة، ومن أشقها هذا الموقف، ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [فصلت: ٣١].

---

(١) تفسير ابن كثير: (٦/ ١٧٤).

أما الكفرة الفجرة فإن الملائكة تتنزل عليهم بنقيض ذلك ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧]، وقد نزلت هذه الآية كما أخرج البخاري عن ابن عباس في فريق أسلم، ولكنه لم يهاجر فأدركه الموت، أو قتل في صفوف الأعداء[١]، فإن الملائكة تقرِّع هؤلاء في حال الاحتضار وتوبخهم، وتبشرهم بالنار.

وقد حدثنا ربنا عن توفي الملائكة للكفرة في معركة بدر فقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ * ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الأنفال: ٥٠-٥١].

قال ابن كثير في تفسير الآيات: «ولو ترى يا محمد حال توفي الملائكة أرواح الكفار لرأيت أمراً عظيماً فظيعاً منكراً، إذ يضربون وجوههم وأدبارهم، ويقولون ذوقوا عذاب الحريق»[٢].

وقد أشار المفسر المدقق العلامة ابن كثير إلى أن هذا وإن كان في وقعة بدر، ولكنه عام في حق كل كافر، ولهذا لم يخصصه تعالى بأهل بدر، بل قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ..﴾[٣].

وهذا الذي قاله ابن كثير صحيح يدل عليه أكثر من آية في كتاب الله

---

(١) تفسير ابن كثير: (٢/ ٣٦٩).

(٢) تفسير ابن كثير: (٣/ ٣٣٥).

(٣) تفسير ابن كثير: (٣/ ٣٣٥).

تعالى، كقوله: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ﴾[الأعراف: ٣٧]، وقوله ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٢٨]، وقوله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ * فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٥-٢٧].

المبحث الثاني

سكرات الموت

للموت سكرات يلاقيها كل إنسان حين الاحتضار، كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩]، وسكرات الموت كرباته وغمراته، قال الراغب في مفرداته: «السكر حالة تعرض بين المرء وعقله، وأكثر ما تستعمل في الشراب المسكر، ويطلق في الغضب والعشق والألم والنعاس والغشي الناشيء عن الألم وهو المراد هنا»[١].

وقد عانى الرسول ﷺ من هذه السكرات، ففي مرض موته صلوات الله وسلامه عليه كان بين يديه ركوة أو علبة فيها ماء، فجعل يدخل يده في الماء فيمسح بها وجهه، ويقول: «لا إله إلا الله، إن للموت سكرات»[٢].

وتقول عائشة رضي الله عنها في مرض رسول الله ﷺ: «ما رأيت الوجع على أحد أشدَّ منه على رسول الله ﷺ»[٣] وقد دخلت عائشة رضي الله عنها على أبيها أبي بكر رضي الله عنه في مرض موته، فلما ثقل عليه، تمثلت بقول الشاعر:

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

فكشف عن وجهه، وقال رضي الله عنه، ليس كذلك، ولكن قولي:

---

(١) فتح الباري: (١١/ ٣٦٢).

(٢) هذا الحديث أخرجه البخاري عن عائشة في كتاب الرقاق، باب سكرات الموت، فتح الباري: (١١/ ٣٦١) ورقمه: ٦٥١٠.

(٣) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي، انظر جامع الأصول: (١١/ ٦٩).

﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾[1] [ق: ١٩].

ولا شك أن الكافر والفاجر يعانيان من الموت أكثر مما يعاني منه المؤمن، فقد سقنا طرفاً من حديث البراء بن عازب وفيه: «أن روح الفاجر والكافر تفرق في جسده عندما يقول له ملك الموت: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب، وأنه ينتزعها كما ينتزع السفود الكثير الشعب من الصوف المبلول، فتقطع معها العروق والعصب».

ووصف لنا القرآن الكريم الشدة التي يعاني منها الكفرة ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وهذا الذي وصفته الآية يَحْدُثُ -كما يقول ابن كثير- إذا بشر ملائكة العذاب الكافر بالعذاب والنكال والأغلال والسلاسل والجحيم والحميم وغضب الرحمن، فتتفرق روحه في جسده وتعصي وتأبي الخروج، فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم قائلين: ﴿ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وقد فسر ابن كثير بسط الملائكة أيديهم في قوله: ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الأنعام: ٩٣] بالضرب، ومعنى الآية هنا كمعناها في قوله: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى ﴾ [المائدة: ٢٨] وقوله: ﴿ وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [الممتحنة: ٢] وقد يُحدِّث العقلاء في

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا، وقد قال ابن كثير في تفسيره: (٦/ ٤٠١) بعد سياقه له: لهذا الأثر طرق كثيرة.

حال الاحتضار عما يعانونه من شدة الموت وسكراته، وممن حدَّث بهذا عمرو بن العاص فعندما حضرته الوفاة، قال له ابنه: يا أبتاه ! إنك لتقول: يا ليتني ألقى رجلاً عاقلاً لبيباً عند نزول الموت حتى يصف لي ما يجد، وأنت ذلك الرجل، فصف لي، فقال: يا بني، والله كأن جنبي في تخت، وكأني أتنفس من سمّ إبرة، وكأن غصن شوك يجذب من قدمي إلى هامتي، ثم أنشأ يقول:

ليتني كنت قبل ما قد بدا لي في تلال الجبال أرعى الوعولا[1]

الذي يخفف عنه سكرات الموت

أخبرنا الرسول ﷺ أن الشهيد الذي يسقط في المعركة تخفف عنه سكرات الموت، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الشهيد لا يجد ألم القتل إلا كما يجد أحدكم ألم القرصة» رواه الترمذي والنسائي والدارمي، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب[2].

---

(١) التذكرة، للقرطبي: ص ١٩.

(٢) مشكاة المصابيح: (٢/٣٥٨) ورقم الحديث: (٣٨٣٦)، وقال محقق المشكاة: إسناده حسن.

المبحث الثالث

تمني الإنسان الرجعة عند الاحتضار

إذا نزل الموت بالإنسان تمنى العودة إلى الدنيا، فإن كان كافراً لعله يسلم، وإن كان عاصياً فلعله يتوب ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ * لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٠]، والإيمان لا يقبل إذا حضر الموت، والتوبة لا تنفع إذا غرغر العبد، ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء:١٧-١٨]، وقد ساق الحافظ ابن كثير من الأحاديث ما يدل على أن الله يقبل توبة العبد إذا حضره الموت ما لم يصل إلى درجة الغرغرة «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر» رواه الترمذي وابن ماجه[1]، وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب، ولكن شرط التوبة الإخلاص والصدق، وقد لا يتمكن المرء من التوبة في تلك الأهوال، فعلى المرء أن يسارع بالتوبة قبل حلول الأجل:

قدم لنفسك توبة مرجوة ... قبل الممات وقبل حبس الألسن

بادر بها غلق النفوس فإنها ... ذخر وغنم للمنيب المحسن

---

(١) تفسير ابن كثير: (٣/ ٢٢٤).

المبحث الرابع

فرح المؤمن بلقاء ربه

إذا جاءت ملائكة الرحمن العبد المؤمن بالبشرى من الله ظهر عليه الفرح والسرور، أما الكافر والفاجر فإنه يظهر عليه الضيق والحزن والتعب، ومن ثم فإن العبد المؤمن في حال الاحتضار يشتاق إلى لقاء الله، والعبد الكافر أو الفاجر يكره لقاء الله تعالى، فقد روى أنس بن مالك، عن عبادة بن الصامت، عن النبي ﷺ أنه قال: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه، قالت عائشة أو بعض أزواجه: إنا لنكره الموت، قال: ليس كذلك، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحب إليه مما أمامه، فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا حُضِر بُشِّر بعذاب الله وعقوبته، فليس شيء أكره إليه مما أمامه، فكره لقاء الله، وكره الله لقاءه»[1] ولذلك فإن العبد الصالح يطالب حامليه بالإسراع به إلى القبر شوقاً منه إلى النعيم، بينما العبد الطالح ينادي بالويل من المصير الذاهب اليه، ففي صحيح البخاري وسنن النسائي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا وضعت الجنازة فاحتملها الرجال على أعناقهم، فإن كانت صالحة قالت: قدموني، وإن كانت غير صالحة قالت لأهلها: يا ويلها أين يذهبون بها؟ يسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان، ولو سمع الإنسان لصعق»[2].

---

(١) رواه البخاري: كتاب الرقاق، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه. ورقمه: ٦٥٠٧.

(٢) رواه البخاري، كتاب الجنائز، قول الميت وهو على الجنازة: قدموني، ورقمه: ١٣١٦، ورواه النسائي في كتاب الجنائز، باب السرعة في الجنازة: (٤/ ٤١).

المبحث الخامس

حضور الشيطان عند الموت

إذا حضر الموت كان الشيطان حريصاً على الإنسان حتى لا يفلت منه، ففي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «إن الشيطان يحضر أحدكم عند كل شيء من شأنه، حتى يحضره عند طعامه، فإذا سقطت من أحدكم اللقمة، فليمط ما كان بها من أذى، ثم ليأكلها، ولا يدعها للشيطان، فإذا فرغ فليعلق أصابعه، فإنه لا يدري في أي طعامه تكون البركة».

وقد ذكر علماؤنا أن الشيطان يأتي الإنسان في تلك اللحظات الحرجة في صورة أبيه أو أمه أو غيرهم ممن هو شفيق عليه ناصح له، ويدعوه إلى اتباع اليهودية أو النصرانية أو غيرها من المبادىء المعارضة للإسلام، فهناك يزيغ الله من كتبت له الشقاوة[1]، وهو معنى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

وقد حدث عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل قال: حضرت وفاة أبي أحمد، وبيدي خرقة لأشد لحييه، فكان يغرق، ثم يفيق، ويقول بيده: لا بعد، لا بعد، فعل هذا مراراً، فقلت له: يا أبت أي شيء يبدو منك؟ قال: إن الشيطان قائم بحذائي عاض على أنامله، يقول: يا أحمد فتني،

---

(١) انظر تذكرة القرطبي: ٣٣.

وأنا أقول: لا بعد، لا بعد، حتى أموت[1].

وقال القرطبي: سمعت شيخنا الإمام أبا العباس أحمد بن عمر القرطبي، يقول: حضرت أخا شيخنا أبي جعفر أحمد بن محمد القرطبي بقرطبة، وقد احتضر، فقيل له: قل: لا إله إلا الله، فكان يقول: لا، لا، فلما أفاق، ذكرنا له ذلك، فقال: أتاني شيطانان عن يميني وعن شمالي، يقول أحدهما: مت يهودياً فإنه خير الأديان، والآخر يقول: مت نصرانياً فإنه خير الأديان، فكنت أقول لهما: لا، لا..»[2].

ولكن هذا ليس لازماً لكل أحد كما يقول ابن تيمية، بل من الناس من تعرض عليه الأديان قبل موته، ومنهم من لا تعرض عليه، وقد وقع ذلك لأقوام، وهذا كله من فتنة المحيا والممات التي أمرنا أن نستعيذ منها في صلاتنا[3]، وقد ذكر الشيخ ابن تيمية أن الشيطان أحرص ما يكون على إغواء الإنسان وقت موته، لأنه وقت الحاجة، واستدل بالحديث الذي في الصحيح: «الأعمال بخواتيمها»، وقال ﷺ: «إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن العبد ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة، فيدخلها»، ولهذا روي: «أن الشيطان أشد ما يكون على ابن آدم حين الموت، يقول لأعوانه: دونكم هذا فإنه إن فاتكم لن تظفروا به أبداً»[4].

---

(١) تذكرة القرطبي: ٣٤.

(٢) التذكرة للقرطبي: ٣٤.

(٣) مجموع الفتاوى: (٤/ ٢٥٥).

(٤) مجموع الفتاوى: (٤/ ٢٥٦).

المبحث السادس
أسباب سوء الخاتمة

بعض الذين يظهرون الإسلام ويعملون به يختم لهم والعياذ بالله بخاتمة سيئة، وقد تبدو تلك الخاتمة من بعض من حضرهم الموت، وقد تحدث صديق حسن خان عن سوء الخاتمة فقال: «وله أسباب يجب على المؤمن أن يحترز عنها»[1]، ثم ذكر هذه الأسباب فقال:

١- منها **الفساد في الاعتقاد**: وإن كان مع كمال الزهد والصلاح، فإن كان له فساد في اعتقاده مع كونه قاطعاً به متيقناً له غير ظان أنه أخطأ فيه قد ينكشف له في حال سكرات الموت بطلان ما اعتقده من الاعتقادات الحقة مثل هذا الاعتقاد باطل لا أصل له إن لم يكن عنده فرق بين اعتقاد واعتقاد، فيكون انكشاف بطلان بعض اعتقاداته سبباً لزوال بقية اعتقاداته، فإن خروج روحه في هذه الحالة قبل أن يتدارك ويعود إلى أصل الإيمان يختم له بالسوء ويخرج من الدنيا بغير إيمان، فيكون من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧] وقال في آية أخرى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا * ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤].

فإن كل من اعتقد شيئاً على خلاف ما هو عليه إما نظراً برأيه وعقله أو أخذاً ممن هذا حاله فهو واقع في هذا الخطر، ولا ينفعه الزهد والصلاح،

---

(١) يقظة أولي الاعتبار: ٢١١.

وإنما ينفعه الاعتقاد الصحيح المطابق لكتاب الله وسنة رسوله، لأن العقائد الدينية لا يعتد بها إلا ما أخذت منهما.

٢- **ومنها الإصرار على المعاصي**: فإن من له إصرار عليها يحصل في قلبه إلفها، وجميع ما ألفه الإنسان في عمره يعود ذكره عند موته، فإن كان ميله إلى الطاعات أكثر، يكون أكثر ما يحضره عند الموت ذكر الطاعات، وإن كان ميله إلى المعاصي أكثر، يكون أكثر ما يحضره عند الموت ذكر المعاصي، فربما يغلب عليه حين نزول الموت به قبل التوبة شهوة ومعصية من المعاصي، فيتقيد قلبه بها، وتصير حجاباً بينه وبين ربه، وسبباً لشقاوته في آخر حياته لقوله ﷺ: «المعاصي بريد الكفر».

والذي لم يرتكب ذنباً أصلاً، أو ارتكب وتاب فهو بعيد عن هذا الخطر، وأما الذي ارتكب ذنوباً كثيرة حتى كانت أكثر من طاعاته ولم يتب عنها، بل كان مصراً عليها، فهذا الخطر في حقه عظيم جداً إذ قد يكون غَلَبَةُ الإلف بها سبباً لأن يتمثل في قلبه صورتها، ويقع منه ميل إليها، وتقبض روحه عليها فيكون سبباً لسوء خاتمته.

ويعرف ذلك بمثال، وهو أن الإنسان لا شك أنه يرى في منامه من الأحوال التي ألفها طول عمره، حتى إن الذي قضى عمره في العلم يرى من الأحوال المتعلقة بالعلم والعلماء، والذي قضى عمره في الخياطة يرى من الأحوال المتعلقة بالخياطة والخياط إذ لا يحضر في حال النوم إلا ما حصل له مناسبة مع قلبه لطول الألف.

والموت وإن كان فوق النوم لكن سكراته وما يتقدمه من الغشي قريب من النوم، فطول الإلف بالمعاصي يقتضي تذكرها عند الموت، وعودها

في القلب وتمثلها فيه وميل النفس إليها، وإن قبض روحه في تلك الحالة يختم له بالسوء».

قال الذهبي في الكبائر: «قال مجاهد: ما من ميت يموت إلا مُثِّل له جلساؤه الذين كان يجالسهم، فاحتضر رجل ممن كان يلعب بالشطرنج، فقيل له: قل: لا إله إلا الله. فقال: شاهك. ثم مات. فغلب على لسانه ما كان يعتاده حال حياته في اللعب، فقال عوض كلمة التوحيد: شاهك.

وهذا كما جاء في إنسان جاء آخر ممن كان يجالس شُرَّاب الخمر أنه حين حضره الموت، فجاءه إنسان يلقنه الشهادة، فقال له: اشرب واسقني، ثم مات، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»[1].

٣- ومنها العدول عن الاستقامة[2]: فإن من كان مستقيماً في ابتدائه ثم تغير عن حاله وخرج مما كان عليه في ابتدائه يكون سبباً لسوء خاتمته، كإبليس الذي كان في ابتدائه رئيس الملائكة ومعلمهم وأشدهم اجتهاداً في العبادة، ثم لما أمر بالسجود لآدم أبى واستكبر وكان من الكافرين، وكبلعام بن باعور الذي آتاه الله آياته فانسلخ بإخلاده إلى الدنيا، واتبع هواه وكان من الغاوين، وكبَرْصِيصا -عابد من بني إسرائيل- الذي قال له الشيطان: اكفر، فلما كفر، قال: إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين، فإن الشيطان أغراه على الكفر، فلما كفر تبرأ منه مخافة أن يشاركه في العذاب، ولم ينفعه ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الحشر: ١٧].

---

(١) الكبائر للذهبي: ص ٩١.

(٢) يقظة أولي الاعتبار: ص ٢١٢.

٤- **ومنها ضعف الإيمان**: فإن كان في إيمانه ضعف يضعف حب الله تعالى فيه، ويقوى حب الدنيا في قلبه، ويستولي عليه بحيث لا يبقي فيه موضع لحب الله تعالى، إلا من حيث حديث النفس بحيث لا يظهر له أثره في مخالفة النفس، ولا يؤثر في الكف عن المعاصي، ولا في الحث على الطاعات، فينهمك في الشهوات، وارتكاب السيئات، فتتراكم ظلمات الذنوب على القلب، فلا تزال تطفيء ما فيه من نور الإيمان مع ضعفه، فإذا جاءت سكرات الموت يزداد حب الله ضعفاً في قلبه لما يرى أنه يفارق الدنيا، وهي محبوبة له، وحبها غالب عليه لا يريد تركها، ويتألم من فراقها، ويرى ذلك منه الله تعالى، فيخشى أن يحصل في باطنه بغضه تعالى بدل الحب، وينقلب ذلك الحب الضعيف بغضاً، فإن خروج روحه في اللحظة التي خطرت فيها هذه الخطرة يختم له بالسوء ويهلك هلاكاً مؤبداً.

والسبب المفضي إلى هذه الخاتمة حب الدنيا، والركون إليها، والفرح بها مع ضعف الإيمان الموجب لضعف حب الله تعالى، وهو الداء العضال الذي قد عم أكثر الخلق، فإن من يغلب على قلبه عند الموت أمر من أمور الدنيا يتمثل ذلك الأمر في قلبه، ويستغرقه، حتى لا يبقى لغيره متسع، فإن خرجت روحه في تلك الحالة يكون رأس قلبه منكوساً إلى الدنيا، ووجهه مصروفاً إليها، ويحصل بينه وبين ربه حجاب.

حُكي أن سليمان بن عبد الملك لما دخل المدينة حاجاً قال: هل بها رجل أدرك عدة من الصحابة؟ قالوا: نعم، أبو حازم، فأرسل إليه، فلما أتاه قال: يا أبا حازم ما لنا نكره الموت؟ قال: إنكم عمرتم الدنيا وخربتم الآخرة، فتكرهون الخروج من العمران إلى الخراب، قال: صدقت، ثم

قال: ليت شعري ما لنا عند الله تعالى؟ قال: اعرض عملك على كتاب الله، قال فأين أجده؟ قال في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣-١٤].

قال: فأين رحمة الله؟ قال: رحمة الله قريب من المحسنين.

قال: يا ليت شعري كيف العرض على الله تعالى غداً؟ قال: أما المحسن فكالغائب الذي يقدم على أهله، وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه، فبكى سليمان حتى علا صوته واشتد بكاؤه ثم قال: أوصني، قال إياك أن يراك الله تعالى حيث نهاك أو يفقدك حيث أمرك».

ونقل صديق حسن خان عن الغزالي في «الإحياء» أن سوء الخاتمة على رتبتين: إحداهما أعظم من الأخرى، فأما الرتبة العظيمة الهائلة فهي أن يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله إما الشك وإما الجحود، فتقبض الروح على تلك الحالة، فتكون حجاباً بينه وبين الله تعالى أبداً، وذلك يقتضي البعد الدائم والعذاب المخلد.

والثانية: وهي دونها أن يغلب على قلبه عند الموت حب أمر من أمور الدنيا أو شهوة من شهواتها، فيتمثل ذلك في قلبه، ويستغرقه حتى لا يبقى في تلك الحالة متسع لغيره، فمهما اتفق قبض الروح في حالة غلبة حب الدنيا، فالأمر مخطر، لأن المرء يموت على ما عاش عليه، وعند ذلك تعظم الحسرة إلا أن أصل الإيمان وحب الله تعالى إذا كان قد رسخ في القلب مدة طويلة، وتأكد ذلك بالأعمال الصالحة، يمحو عن القلب هذه الحالة التي عرضت له عند الموت، فإن كان إيمانه في القوة إلى حد مثقال أخرجه من النار في زمان أقرب، وإن كان أقل من ذلك طال مكثه في

النار، ولكن لو لم يكن إلا مثقال حبة فلابد وأن يخرجه من النار، ولو بعد آلاف السنين، وكل من اعتقد في الله تعالى وفي صفاته وأفعاله شيئاً على خلاف ما هو به إما تقليداً وإما نظراً بالرأي والمعقول فهو في هذا الخطر، والزهد والصلاح لا يكفي لدفع هذا الخطر، بل لا ينجي منه إلا الاعتقاد الحق على وفق الكتاب العزيز والسنة المطهرة، والبُلْهُ بمعزل عن هذا الخطر[1].

(١) يقظة أولي الاعتبار: ص ٢١٦.

المَبحَث السَابِع
تخيير الأنبياء عند الموت

عندما يحضر الأنبياءَ الموتُ فإن الله يريهم ما لهم عنده من الثواب الجزيل والأجر العظيم، ثم يخيرون بين البقاء في الدنيا والانتقال إلى ذلك المقام الكريم، ولا شك أن كل رسول يفضل النعيم المقيم، وقد حدث هذا لرسولنا ﷺ، خُيِّر فاختار، ففي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يقول وهو صحيح: «إنه لم يقبض نبي قط حتى يرى مقعده من الجنة ثم يخيّر، فلما نزل به ورأسه على فخذي غشي عليه ساعة، ثم أفاق، فأشخص بصره إلى السقف، ثم قال: «اللهمَّ الرفيق الأعلى»، قلت: إذن لا يختارنا، وعرفت أنه الحديث الذي كان يحدثنا به، قالت: «فكانت تلك آخر كلمة تكلم بها النبي ﷺ قوله: «اللهم في الرفيق الأعلى»[1] وجاء في إحدى رواياته[2]: «فسمعت النبي ﷺ في مرضه الذي مات فيه: وأخذته بُحَّةٌ يقول: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩]. قالت فظننت أنه خُيَّر يومئذ.

---

(١) رواه البخاري: كتاب الرقاق، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ورقمه: ٦٥٠٩، واللفظ له، وقد أخرجه أيضاً مسلم في صحيحه، ورقمه: ٢٤٤٤، ورواه مالك في موطئه، والترمذي في سننه، وقد ساق روايات الحديث عن عائشة ابن الأثير في جامع الأصول: (١١/ ٦٧).

(٢) وهي عند جميعهم.

الفَصْل الثالث

رحلة الرُّوح إلى السماء بعد نزعها

عن أبي هريرة عند مسلم قال: «إذا خرجت روح المؤمن تلقاها ملكان- يُصعدانها». قال حماد[1]: فذكر من طيب ريحها، وذكر المسك قال: «ويقول أهل السماء: روح طيبة جاءت من قبل الأرض، صلى الله عليك وعلى جسد كنت تعمرينه، فينطلق به إلى ربه عز وجل، ثم يقول: انطلقوا به إلى آخر الأجل».

قال: «وإنّ الكافر إذا خرجت روحه -قال حماد: وذكر من نتنها، وذكر لعناً- ويقول أهل السماء: روح خبيثة من قبل الأرض، قال: فيقال: انطلقوا به آخر الأجل»[2].

وقد ذكر الرسول ﷺ في حديث البراء التكريم الذي يكون لروح العبد الصالح بعد خروجها من جسده، حيث تصلي ملائكة الله على تلك الروح الطيبة، وتفتح له أبواب السماء، وتجعل في كفن من الجنة وحنوط من الجنة، وتخرج منها روائح طيبة عطرة تفوق رائحة المسك، ثم تأخذها الملائكة في رحلة علوية كريمة، وتفتح لها أبواب السماء، أما الروح الخبيثة، فتلعنها ملائكة السماء عند خروجها، وتغلق أبواب السماء دونها، ويدعو كل فريق من ملائكة الرحمن على باب ألا تعرج من قبلهم،

---

(١) أحد رواة حديث أبي هريرة عند مسلم.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الجنة، باب عرض مقعد الميت، (٤/ ٢٢٠٢) حديث رقم (٢٨٧٢).

وتجعل تلك الروح الخبيثة في حنوط من النار وكفن من النار، وتفوح منها الروائح الخبيثة التي تؤذي ملائكة الرحمن.

ويعرج بها إلى السماء فلا تفتح لها أبواب السماء، فتلقى روحه من شاهق، ففي حديث البراء بن عازب الذي يصف الرسول ﷺ فيه رحلة الإنسان من الموت إلى البرزخ قال: «حتى إذا خرجت روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض، وكل ملك في السماء، وفتحت له أبواب السماء، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله أن يعرج من قبلهم، فإذا أخذها (يعني ملك الموت) لم يدعوها في يده طرفة عين، حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحنوط، [فذلك قوله تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾] [الأنعام: ٦١]، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض.

قال: فيصعدون بها، فلا يمرون -يعني- بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: فلان ابن فلان -بأحسن أسمائه التي كان يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له، فيفتح لهم، فيشيعه من كل سماء مقربوها، إلى السماء التي تليها، حتى ينتهى به إلى السماء السابعة، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ١٩-٢١]، فيكتب كتابه في عليين، ثم يقال: أعيدوه إلى الأرض فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى..».

وتحدث الرسول ﷺ عن الروح الخبيثة التي نزعت من العبد الكافر أو الفاجر، فقال عنها بعد نزعها: «[فيلعنه كل ملك بين السماء والأرض،

وكل ملك في السماء، وتغلق أبواب السماء، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله ألا تعرج روحه من قبلهم]، فيأخذها، فإذا أخذها، لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان ابن فلان، بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا، حتى ينتهي به إلى السماء الدنيا، فسيتفتح له، فلا يفتح له، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠].

فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتابه في سجين، في الأرض السفلى [ثم يقول: أعيدوا عبدي إلى الأرض، فإني وعدتهم أني منها خلقتهم وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى، فتطرح روحه من السماء، طرحاً [حتى تقع في جسده]، ثم قرأ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]، فتعاد روحه إلى جسده»[1].

وروى ابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ، قال: «الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل صالحاً، قال: اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة، وأبشري بروح وريحان، وربّ غير غضبان، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء، فيستفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقول: فلان، فيقال: مرحباً بالنفس الطيبة كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة، وأبشري بروح وريحان، ورب غير غضبان، فلا يزال يقال لها ذلك حتى ينتهى بها

(١) حديث صحيح، سبق تخريجه ص: ٢٢.

إلى السماء التي فيها الله تبارك وتعالى[1]، فإذا كان الرجل السُّوءُ: قال: اخرجي أيتها النفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة، وأبشري بحميم وغسّاق، وآخر من شكله أزواج، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء، فيستفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: لا مرحباً بالنفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمة، فإنها لا تفتح لَكِ أبواب السماء، فيرسل بها من السماء، ثم تصير إلى القبر...»[2].

---

(١) ليس المراد أن السماء تحوي الله وتحصره، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، بل الله فوق سماواته بائن من خلقه، وقد قال الحق في كرسيه: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وأخبر الرسول ﷺ أن السماوات في الكرسي كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض، والكرسي في العرش كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] وقوله: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [براءة: ٢] ليس المراد أنهم في جوف النخل، وجوف الأرض، بل معنى ذلك أنه تبارك وتعالى فوق السماوات وعليها، وهذا الحديث مثل قوله تبارك وتعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ [الملك: ١٦] أي في العلو، ومثل قول الرسول ﷺ للجارية «أين الله؟ قالت: في السماء، قال عليه السلام: أعتقها فإنها مؤمنة» والحديث رواه مسلم في صحيحه.

(٢) رواه ابن ماجة في سننه وقد أورده الشيخ ناصر في صحيح الجامع الصغير: (٢/ ١٦٩).

الفصل الرابع
القبر

المبحث الأول
هول القبر وفظاعته

روى هانيء مولى عثمان بن عفان، قال: كان عثمان رضي الله عنه إذا وقف على قبر بكى، حتى يبل لحيته، فقيل له: تذكر الجنة والنار فلا تبكي، وتبكي من هذا؟ فقال: إنّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ القبر أول منزلة من منازل الآخرة، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه، قال: وقال رسول الله ﷺ: ما رأيت منظراً قط إلا القبر أفظع منه»[1] أخرجه الترمذي[2]، ولما كان ما بعد القبر أيسر منه لمن نجا فإن العبد المؤمن إذا رأى في قبره ما أعد الله له من نعيم يقول: «رب عجل قيام الساعة، كيما أرجع إلى أهلي ومالي»[3] والعبد الكافر الفاجر إذا رأى ما أعد الله له من العذاب الشديد فإنه يقول على الرغم مما هو فيه من عذاب: «رب لا تقم الساعة»[4]، لأن الآتي أشدُّ وأفظع.

---

(١) أفظع، الفظيع: الشديد الشنيع.

(٢) رواه الترمذي: ٢٣٠٨، وابن ماجة، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، انظر مشكاة المصابيح: (١/ ٤٨) وجامع الأصول: (١١/ ١٦٤)، وقال الشيخ ناصر في تعليقه على المشكاة: «وسنده حسن»، وانظر صحيح الجامع الصغير: (٢/ ٨٥).

(٣) هذه قطعة من حديث البراء، وقد سبق تخريجه في ص: (٢٢).

(٤) هذه قطعة من حديث البراء، انظر تخريجه في ص: (٢٢).

ظلمة القبر

ماتت امرأة كانت تَـقُـمُّ المسجد في عهد الرسول ﷺ، ففقدها الرسول ﷺ، فأخبروه أنها ماتت من الليل، ودفنوها، وكرهوا إيقاظه، فطلب من أصحابه أن يدلوه على قبرها، فجاء إلى قبرها فصلى عليها، ثم قال: «إن هذه القبور مملؤة ظلمة على أهلها، وإن الله عز وجل ينورها لهم بصلاتي عليهم» رواه البخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجه والبيهقي وأحمد[1].

---

(١) أحكام الجنائز: ص ٨٧. وهو في البخاري برقم: ٤٦٠، ١٣٣٧. ومسلم: ٩٥٦. واللفظ لمسلم.

المبحث الثاني
ضمة القبر

عندما يوضع الميت في القبر فإنه يضمه ضمة لا ينجو منها أحد كبيراً كان أو صغيراً، صالحاً أو طالحاً، فقد جاء في الأحاديث أن القبر ضم سعد بن معاذ، وهو الذي تحرك لموته العرش، وفتحت له أبواب السماء، وشهده سبعون ألفاً من الملائكة، ففي سنن النسائي عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «هذا الذي تحرك له العرش، وفتحت له أبواب السماء، وشهده سبعون ألفاً من الملائكة، لقد ضم ضمة، ثم فرج عنه»[(١)] وفي مسند الإمام أحمد عن ابن عمر أيضاً أن الرسول ﷺ قال: «إن للقبر ضغطة لو كان أحد ناجياً منها نجا سعد بن معاذ» رواه أحمد في مسنده[(٢)] وفي معجمي الطبراني الكبير والأوسط عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن الرسول ﷺ قال: «لو نجا أحد من ضمة القبر، لنجا سعد بن معاذ، ولقد ضمَّ ضمة، ثم روخي عنه»[(٣)]. ومما يدل على أن ضمة القبر لازمة لكل إنسان أن الصبيان لا ينجون منها، ففي معجم الطبراني الكبير عن أبي أيوب الأنصاري بإسناد صحيح وهو في معجمه الأوسط، وفي الكامل لابن عدي عن أنس أن الرسول ﷺ قال: «لو أفلت أحد من ضمة القبر لنجا هذا الصبي»[(٤)].

---

(١) رواه النسائي: في كتاب الجنائز، باب ضمة القبر وضغطته، (٤/ ١٠٠)، وقال الشيخ ناصر الدين الألباني في مشكاة المصابيح، (١/ ٤٩): وسنده صحيح على شرط مسلم.

(٢) قال الشيخ ناصر الدين الألباني في صحيح الجامع (٢/ ٢٣٦): إسناده صحيح.

(٣) قال في صحيح الجامع (٥/ ٧١): إسناد صحيح.

(٤) صحيح الجامع: (٥/ ٥٦).

المبحث الثالث
فتنة القبر

المطلب الأول

كيف تكون فتنته

إذا وضع العبد في قبره جاءته ملائكة على صورة منكرة، ففي سنن الترمذي «إذا قبر الميت -أو قال: أحدكم- أتاه ملكان أسودان أزرقان، يقال لأحدهما: المنكر، وللآخر: النكير، فيقولان، ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: ما كان يقول، هو عبد الله ورسوله، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله.. وإن كان منافقاً، قال: سمعت الناس يقولون قولاً، فقلت مثله، لا أدري ...»[1].

وجاء في الحديث الذي يرويه البراء بن عازب عن الرسول ﷺ: «فيأتيه ملكان [شديدا الانتهار] فـ [ينتهرانه، و] يجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟ وهي آخر فتنة تعرض على المؤمن، فذلك حين يقول الله عز وجل: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [إبراهيم: ٢٧]، فيقول: ربي الله، ودِيني الإسلام، ونبيي محمد ﷺ،

(١) رواه الترمذي، كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر، (٣/ ٣٨٣) وقال الترمذي: حديث حسن غريب، وقال محقق الكتاب الشيخ أحمد شاكر: لم يخرجه من أصحاب الكتب الستة سوى الترمذي، وقد رمز له الشيخ ناصر الدين الألباني بالحسن في صحيح الجامع الصغير: (١/ ٢٥٩) وأورده في سلسلة الأحاديث الصحيحة حديث رقم (١٣٩١).

فينادي مناد من السماء: أن صدق عبدي» وقال في العبد الكافر أو الفاجر: «ويأتيه ملكان [شديدا الانتهار، فيتهرانه، و] يجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه، هاه لا أدري، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه، هاه لا أدري، فيقولان: فما تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فلا يهتدي لاسمه، فيقال: محمد، فيقول: هاه، هاه، لا أدري، [سمعت الناس يقولون ذاك، قال: فيقولان: لا دريت] [ولا تلوت][1] فينادي منادي أن كذب عبدي][2].

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد إذا وضع في قبره، وتولى عنه أصحابه، إنه ليسمع قرع نعالهم، إذا انصرفوا: أتاه ملكان، فيقعدانه، فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل، محمد؟ فأما المؤمن، فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله..، وأما الكافر أو المنافق، وفي رواية: وأما الكافر والمنافق -فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقول الناس فيه، فيقال: لا دريت، ولا تليت..» رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي[3].

ولم يكن الرسول ﷺ يعلم في أول الأمر أن هذه الأمة تفتن في قبورها، ثم أوحى الله له بهذا العلم، فقد حدث عروة بن الزبير عن خالته عائشة، قالت: دخل علي رسول الله ﷺ، وعندي امرأة من اليهود، وهي تقول: هل شعرت أنكم تفتنون في القبور؟ قالت: فارتاع رسول الله ﷺ، وقال: «إنما تفتن اليهود»، قالت عائشة: فلبثنا ليالي، ثم قال رسول الله ﷺ: «هل

---

(١) أي لا دريت ولا تبعت الناس بأن تقول شيئاً يقولونه.

(٢) حديث صحيح، وسبق تخريجه في ص (٢٢).

(٣) جامع الأصول: (١١/ ١٧٣).

شعرت أنه أوحي إليَّ أنكم تفتنون في القبور؟» قالت عائشة: فسمعت رسول الله ﷺ، بعد: يستعيذ من عذاب القبر[1].

المطلب الثاني

هل يفتن الكافر في قبره

دلت الأحاديث التي سقناها على أن الكفار يفتنون في قبورهم، وقد خالف في ذلك الحكيم الترمذي وابن عبد البرّ والسيوطي[2]، واحتج الحكيم الترمذي على عدم السؤال بأن الأمم الماضية إن رفضت الاستجابة لرسلها عوجلت بالعذاب، بخلاف هذه الأمة، فقد أمسك عنها العذاب، وبعث الرسول ﷺ بالسيف، فمن دخل في الإسلام مخافة القتل، ثم نافق عذب في قبره، وهذا الذي قاله فيه نظر، فإن الله لم يهلك مكذبي الأمم بعد نزول التوراة[3]، واحتج ابن عبد البرّ بقوله عليه السلام في الحديث الصحيح: إن هذه الأمة تبتلى في قبورها، ومنهم من يرويه: تسأل[4]، والأحاديث الصحيحة ترد هذا الفهم، وتدل على أن هذا ليس خاصاً بالمؤمنين، وليس خاصاً بهذه الأمة.

وقد ذهب إلى أن السؤال عام عبد الحق الإشبيلي، وابن القيم، والقرطبي، والسفاريني وغيرهم[5].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب التعوذ من عذاب القبر، حديث رقم (٥٨٤)، (١/ ٤١٠).

(٢) لوامع الأنوار البهية: (٢/ ١٠).

(٣) انظر لوامع الأنوار البهية للسفاريني: (٢/ ١٠).

(٤) لوامع الأنوار البهية للسفاريني: (٢/ ١٠)، وتذكرة القرطبي: (١٤٧).

(٥) لوامع الأنوار البهية للسفاريني: (٢/ ١٠)، وتذكرة القرطبي: (١٤٧).

المطلب الثالث

هل يفتن غير المكلفين

الفتنة عامة لجميع المكلفين إلا النبيين فقد اختلف فيهم[1]، وإلا الشهداء والمرابطين ونحوهم ممن جاءت النصوص دالة على نجاتهم من الفتنة كما سيأتي بيانه.

واختلف في غير المكلفين من الصبيان والمجانين، فذهب جمع من العلماء إلى أنهم لا يفتنون، منهم: القاضي أبو يعلى وابن عقيل، ووجهة نظر هؤلاء أن المحنة تكون لمن كلف، أما من رفع عنه القلم فلا يدخل في المحنة، إذ لا معنى لسؤاله عن شيء لم يكلف به.

وقال آخرون: بل يفتنون. وهذا قول أبي الحكيم الهمداني، وأبي الحسن ابن عبدوس، ونقله عن أصحاب الشافعي، وقد روى مالك وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الرسول ﷺ صلى على طفل، فقال: «اللهم قه عذاب القبر وفتنة القبر» وهذا القول موافق لقول من قال: إنهم يمتحنون في الآخرة، وأنهم مكلفون يوم القيامة، كما هو قول أكثر أهل العلم وأهل السنة من أهل الحديث والكلام، وهو الذي ذكره أبو الحسن الأشعري عن أهل السنة واختاره، وهو مقتضى نصوص الإمام أحمد[2].

---

(١) مجموع الفتاوى: (٤/ ٢٥٧).

(٢) راجع مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية: (٤/ ٢٥٧، ٢٧٧).

المبحث الرابع
عذاب القبر ونعيمه

المطلب الأول

أحاديث عذاب القبر ونعيمه متواترة

يقول شارح الطحاوية: «وقد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ في ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن كان لذلك أهلاً، وسؤال الملكين، فيجب اعتقاد ثبوت ذلك والإيمان به، ولا نتكلم في كيفيته، إذ ليس للعقل وقوف على كيفيته، لكونه لا عهد له به في هذه الدار، والشرع لا يأتي بما تحيله العقول، بل إن الشرع قد يأتي بما تحار فيه العقول، فإن عودة الروح إلى الجسد ليس على الوجه المعهود في الدنيا، بل تعاد إليه إعادة غير الإعادة المألوفة في الدنيا»[1].

وقال في موضع آخر: «واعلم أن عذاب القبر و عذاب البرزخ حق، فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه، قبر أو لم يقبر، أكلته السباع أو احترق حتى صار رماداً ونسف في الهواء، أو صلب أو غرق في البحر، وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى المقبور، وما ورد من إجلاسه واختلاف أضلاعه ونحو ذلك، فيجب أن يفهم عن الرسول ﷺ مراده من غير غلو ولا تقصير»[2].

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية: (٤٥٠).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية: (٤٥١).

وأنكرت الملاحدة ومن تمذهب بمذهب الفلاسفة من الإسلاميين عذاب القبر، وقالوا: ليس له حقيقة، واحتجوا لذلك بأنهم يفتحون القبور فلا يرون شيئاً مما أخبرت به النصوص[1].

وأنكره أيضاً الخوارج وبعض المعتزلة كضرار بن عمرو وبشر المريسي، وخالفهم جميع أهل السنة، وأكثر المعتزلة[2].

وهؤلاء كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، وقد ظن هؤلاء أن أبصارهم يمكن أن ترى كل شيء، وأن أسماعهم يمكن أن تسمع كل شيء، ونحن اليوم نعلم من أسرار الكون ما كانت أسماعنا وأبصارنا عاجزة عن سماعه ورؤيته، ومن آمن بالله صدَّق خبره.

وقد وردت إشارات في القرآن تدل على عذاب القبر، وقد ترجم البخاري في كتاب الجنائز لعذاب القبر، فقال: باب ما جاء في عذاب القبر، وساق في الترجمة قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأنعام:٩٣]، وقوله تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة:١٠١]. وقوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ * ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٤-٤٥].

والآية الأولى التي ساقها البخاري إنما هي في تعذيب الملائكة الكفار في حال الاحتضار كما سبق بيانه، والآية الثانية تدل على أن هناك عذابين

---

(١) انظر تذكرة القرطبي: (١٢٥).

(٢) فتح الباري: (٣/ ٢٣٣).

سيصيبان المنافقين قبل عذاب يوم القيامة، العذاب الأول ما يصيبهم الله به في الدنيا إما بعقاب من عنده وإما بأيدي المؤمنين، والعذاب الثاني عذاب القبر، قال الحسن البصري: «﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ [التوبة: ١٠١]: عذاب الدنيا، وعذاب القبر»[١]، وقال الطبري: «والأغلب أن إحدى المرتين عذاب القبر، والأخرى تحتمل أحد ما تقدم ذكره من الجوع أو السبي أو القتل والإذلال أو غير ذلك»[٢].

والآية الثالثة حجة واضحة لأهل السنة الذين أثبتوا عذاب القبر، فإن الحق تبارك وتعالى قرر أن آل فرعون يعرضون على النار غدواً وعشياً، وهذا قبل يوم القيامة، لأنه قال بعد ذلك: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، قال القرطبي: «الجمهور على أن هذا العرض يكون في البرزخ، وهو حجة في تثبيت عذاب القبر»[٣].

ومن الإشارات القرآنية الواضحة الدالة على فتنة القبر وعذابه قوله تبارك وتعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] ففي الحديث الذي يرويه البراء بن عازب رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «إذا أقعد المؤمن في قبره أتى ثم شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وفي رواية أخرى: وزاد: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [إبراهيم: ٢٧] نزلت في عذاب القبر»[٤].

---

(١) فتح الباري: (٣/ ٢٣٣).

(٢) فتح الباري: (٣/ ٢٣٣).

(٣) فتح الباري: (١١/ ٢٣٣).

(٤) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر، فتح الباري (٣/ ٢٣١).

وقد روت لنا السيدة عائشة رضي الله عنها: «أن يهودية دخلت عليها فذكرت عذاب القبر، فقالت لها: أعاذك الله من عذاب القبر، فسألت عائشة الرسول ﷺ عن عذاب القبر، فقال: نعم، عذاب القبر. قالت عائشة رضي الله عنها: فما رأيت رسول الله ﷺ بعد صلى إلا تعوذ من عذاب القبر» زاد غندر: «عذاب القبر حق» رواه البخاري[1].

وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «دخلت عليَّ عجوزان من عُجُز يهود المدينة، فقالتا: إن أهل القبور يعذبون في قبورهم، قالت: فكذبتهما، ولم أنعم[2] أن أصدقهما، فخرجتا، ودخل رسول الله ﷺ، فقلت له: يا رسول الله ! إن عجوزين من عجز يهود المدينة دخلتا عليَّ، فزعمتا أن أهل القبور يعذبون في قبورهم، فقال: «صدقتا، إنهم يعذبون عذاباً تسمعه البهائم» قالت: فما رأيته بعد في صلاة إلا يتعوذ من عذاب القبر»[3].

ولعظم هذا الأمر وخطورته كان الرسول ﷺ يعلمه لأصحابه، بل وخطب فيهم مرة به، ففي صحيح البخاري عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها: قالت: «قام رسول الله ﷺ خطيباً فذكر فتنة القبر التي يفتن فيها المرء، فلما ذكر ذلك ضج المسلمون ضجة» رواه البخاري[4] والنسائي، وزاد النسائي: «حالت بيني وبين أن أفهم كلام رسول الله ﷺ، فلما سكنت ضجتهم، قلت لرجل قريب مني: أي بارك الله لك، ماذا قال

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر، فتح الباري: (٣/ ٢٣١).

(٢) (لم أنعم) أي: لم تطب نفسي أن أصدقهما.

(٣) صحيح مسلم، كتاب المساجد، باب استحباب التعوذ من عذاب القبر: (١/ ٤١١).

(٤) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر، فتح الباري: (٣/ ٢٣٢).

رسول الله ﷺ آخر قوله؟ قال: قد أوحى إلي: أنكم تفتنون في القبور قريباً من فتنة الدجال»[1].

سماع الرسول ﷺ أصوات المعذبين

وقد أعطى الله رسوله القدرة على سماع المعذبين في قبورهم، ففي الحديث الذي يرويه مسلم في صحيحه عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: «بينما النبي ﷺ في حائط لبني النجار، على بغلة له، ونحن معه، إذ حادت به[2]، فكادت تلقيه، وإذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعة، فقال: من يعرف أصحاب هذه الأقبر؟ فقال رجل: أنا، قال: فمتى مات هؤلاء؟ قال: ماتوا في الإشراك، فقال: إن هذه الأمة تبتلى في قبورها، فلولا أن لا تدافنوا[3]، لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه»[4] وفي صحيحي البخاري ومسلم وسنن النسائي عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال: «خرج رسول الله ﷺ بعدما غربت الشمس، فسمع صوتاً، فقال: يهود تعذب في قبورها»[5].

ويدل على سماع الرسول ﷺ للمعذبين في قبورهم الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم في صحيحهما عن ابن عباس، وفيه أن الرسول ﷺ

---

(١) رواه النسائي، انظر جامع الأصول: (١١/ ١٧٠).

(٢) حادت به، أي: مالت عن الطريق ونفرت.

(٣) لا تدافنوا، أي: مخافة أن لا تدافنوا.

(٤) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، (٤/ ٢١٩٩).

(٥) جامع الأصول: (١١/ ١٧٢).

مرّ بقبرين، فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير..» الحديث، وسيأتي ذكره بتمامه إن شاء الله.

سماع غير الرسول ﷺ أصوات المعذبين

لم يزل بعض الناس يتحدثون عن سماعهم أو رؤيتهم للمعذبين في قبورهم، ومن هؤلاء ثقات أعلام لا مطعن في دينهم وأمانتهم، يقول ابن تيمية في ذلك: «قد يكشف لكثير من أبناء زماننا يقظة ومناماً، ويعلمون ذلك ويتحققونه، وعندنا من ذلك أمور كثيرة»[1].

وقال في موضع آخر في معرض رده على المكذبين بعذاب القبر: «وإذا عرف أن النائم يكون نائماً وتقعد روحه وتقوم وتمشي، وتذهب وتتكلم وتفعل أفعالاً وأموراً بباطن بدنه مع روحه، ويحصل لبدنه وروحه بها نعيم وعذاب، مع أن جسده مضطجع، وعينيه مغمضة، وفمه مطبق، وأعضاؤه ساكنة، وقد يتحرك لقوة الحركة الداخلة، وقد يقوم ويمشي ويتكلم ويصيح، لقوة الأمر في باطنه، كان هذا مما يعتبر به أمر الميت في قبره، فإن روحه تقعد، وتجلس، وتسأل، وتنعم، وتعذب، وتصيح وذلك متصل ببدنه، مع كونه مضطجعاً في قبره، وقد يقوى ذلك حتى يظهر ذلك في بدنه، وقد يرى خارجاً من قبره، والعذاب عليه، وملائكة العذاب موكلة به، فيتحرك بدنه، ويمشي ويخرج من قبره، وقد سمع غير واحد أصوات المعذبين في قبورهم، وقد شوهد من يخرج من قبره وهو

(١) مجموع الفتاوى: (٢٤/ ٣٧٦).

معذب، ومن يقعد بدنه أيضاً إذا قوي الأمر، لكن ليس هذا لازماً في حق كل ميت، كما أن قعود بدن النائم لما يراه، ليس لازماً لكل نائم، بل هو بحسب قوة الأمر»[1].

المطلب الثاني

صفة نعيم القبر وعذابه

ذكر الرسول ﷺ في حديث البراء بن عازب أن الملائكة تسأل العبد المؤمن في قبره فيحسن الإجابة وعند ذاك: «ينادي مناد في السماء: أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، قال: فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مدّ بصره، قال: ويأتيه [وفي رواية: يمثل له] رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك، [أبشر برضوان من الله، وجنات فيها نعيم مقيم] هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: [وأنت فبشرك الله بخير] من أنت؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح [فو الله ما علمتك إلا كنت سريعاً في طاعة الله، بطيئاً في معصية الله، فجزاك الله خيراً]، ثم يفتح له باب من الجنة، وباب من النار، فيقال: هذا منزلك لو عصيت الله، أبدلك الله به هذا، فإذا رأى ما في الجنة، قال: ربِّ عجل قيام الساعة، كيما أرجع إلى أهلي ومالي، [فيقال له: اسكن]».

---

(١) مجموع الفتاوى: (٥/ ٥٢٥).

وذكر صلوات الله عليه وسلامه أن العبد الكافر[1] أو الفاجر بعد أن يسيء الإجابة «ينادي منادٍ في السماء أن كذب، فافرشوا له من النار، وافتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه في قبره، حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه (وفي رواية: ويمثل له) رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: [وأنت فبشرك الله بالشر]، من أنت؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالشر، فيقول: أنا عملك الخبيث، [فوالله ما علمتك إلا كنت بطيئاً عن طاعة الله، سريعاً إلى معصية الله]، [فجزاك الله شراً، ثم يقيض الله له أعمى أصم أبكم في يده مرزبة، لو ضرب بها جبل كان تراباً، فيضربه حتى يصير بها تراباً، ثم يعيده كما كان، فيضربه ضربة أخرى، فيصيح صيحة يسمعه كل شيء إلا الثقلين، ثم يفتح له باب من النار، ويمهد من فرش النار]، فيقول: رب لا تقم الساعة»[2].

وفي حديث أنس أن العبد المؤمن إذا أجاب الإجابة الصادقة في قبره، «يقال له: انظر إلى مقعدك من النار، أبدلك الله به مقعداً من الجنة، قال النبي ﷺ: فيراهما جميعاً، قال قتادة: وذكر لنا أنه يفسح له في قبره» وذكر في حديث أنس أن الكافر والمنافق بعد أن يجيب في قبره تلك الإجابة الكاذبة، يقال له: «لا دريت، ولا تليت، ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه، فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين» أخرجه البخاري ومسلم، ولفظ الحديث للبخاري، ولمسلم: «إن العبد إذا وضع في قبره، ثم ذكر نحواً مما تقدم إلى قوله: وذكر لنا: أنه يفسح فيه سبعين

---

(١) هذه اللفظ ومثله كثير في الأحاديث يرد على ابن عبد البرّ والسيوطي والحكيم الترمذي ومن ذهب مذهبهم من القائلين بأن عذاب القبر لعصاة المؤمنين دون الكفار.

(٢) حديث صحيح، سبق تخريجه في ص (٢٢).

ذراعاً، ويملأ عليه خضراً إلى يوم تبعثون»، وفي رواية لأبي داود أن العبد المؤمن بعد أن يسأل ويجيب: «ينطلق به إلى بيت كان له في النار، فيقول له: هذا كان لك، ولكن الله عصمك، فأبدلك به بيتاً في الجنة، فيراه، فيقول: دعوني حتى أذهب فأبشر أهلي، فيقال له: اسكن»[1].

وهذا الذي أشارت إليه الأحاديث من أنَّ كل إنسان يعرض عليه مقعده بعد أن يسأل في قبره مستمر طيلة بقائه في القبر، وقد صرح بذلك الرسول ﷺ، ففي الحديث الذي يرويه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، «أن النبي ﷺ قال: إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة»[2].

وفي سنن الترمذي عن أبي هريرة أن الرسول ﷺ أخبر أن الملكين يقولان للعبد المؤمن بعد أن يجيب الإجابة السديدة: «قد كنا نعلم أنك تقول ذلك، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين، ثم ينور له فيه، ثم يقال له: نم، فيقول: أرجع إلى أهلي فأخبرهم، فيقولان: نم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله اليه، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك». وأنهما يقولان للمنافق: «قد كنا نعلم أنك تقول ذلك، فيقال للأرض: التئمي عليه، فتلتئم عليه، فتختلف أضلاعه، فلا يزال معذباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك»[3].

---

(١) انظر هذه الروايات في جامع الأصول: (١١/ ١٧٣).

(٢) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب الميت يعرض عليه مقعده في الغداة والعشي، فتح الباري: (٣/ ٢٤٣)، ورواه مسلم في كتاب الجنة، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار، (٤/ ٢١٩٩) حديث رقم (٢٨٦٦).

(٣) حديث حسن رواه الترمذي في سننه. كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر: (٣/ ٣٨٣) حديث رقم: (١٠٧١).

المطلب الثالث

هل يعذب المسلمون في قبورهم

قال القرطبي: «(قال أبو محمد عبد الحق: اعلم أن عذاب القبر ليس مختصاً بالكافرين، ولا موقوفاً على المنافقين، بل يشاركهم فيه طائفة من المؤمنين، وكل على حاله من عمله، وما استوجبه من خطيئته وزلله»[1]، والأدلة على أن المؤمن قد يعذب في قبره بسبب ذنوبه كثيرة، وسيأتي ذكر طائفة منها في المبحث التالي.

المطلب الرابع

أسباب عذاب القبر

«الأسباب التي يعذب بها أصحاب القبور على قسمين: مجمل ومفصّل، أمّا المجمل فإنهم يعذبون على جهلهم بالله وإضاعتهم لأمره وارتكابهم معاصيه»[2].

أما المفصل فإن النصوص ذكرت منه الكثير، وسنشير إلى ما اطلعنا على ذكره في الأحاديث:

---

(١) تذكرة القرطبي: ١٤٦.

(٢) لوامع الأنوار البهية: (٢/١٧).

١، ٢- عدم الاستتار من البول والنميمة:

روى البخاري ومسلم في صحيحهما عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «مرّ النبي ﷺ على قبرين، فقال: إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، ثم قال: بلى، أمّا أحدهما فكان يسعى بالنميمة، وأما الآخرفكان لا يستتر من بوله، ثم قال: ثم أخذ عوداً رطباً فكسره باثنتين، ثم غرز كل واحد منهما على قبر، ثم قال: لعله يخفف عنهما، ما لم ييبسا»(١).

وروى النسائي عن عائشة رضي الله عنها قالت: «دخلت عليَّ امرأة من اليهود، فقالت: إن عذاب القبر من البول، فقلت: كذبت، فقالت: بلى، إنا لنقرض منه الجلد والثوب، فخرج رسول الله ﷺ إلى الصلاة، وقد ارتفعت أصواتنا، فقال: ما هذا؟ فأخبرته بما قالت فقال: صدقت. قالت: فما صلى بعد يومئذ إلا قال دبر كل صلاة: ربّ جبرائيل وميكائيل وإسرافيل أعذني من حرّ النار وعذاب القبر»(٢).

وهذا الذي أشار إليه الحديث من أن بني إسرائيل كانوا يقرضون من البول الجلد والثوب -هو من الدين الذي شرعه الله لهم، ولذلك لما نهاهم عن فعل ذلك أحدهم عذب في قبره بسبب نهيه، ففي حديث عبد الرحمن ابن حسنة أن رسول الله ﷺ قال: «ألم تعلموا ما لقي صاحب بني إسرائيل، كانوا إذا أصابهم البول قطعوا ما أصابه البول منهم،

---

(١) رواه البخاري، واللفظ له في كتاب الجنائز، باب عذاب القبر من الغيبة والبول، فتح الباري: (٣/ ٢٤٢)، ورواه مسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على نجاسة البول، (١/ ٢٤٠)، حديث رقم (٢٩٢)، ورواه النسائي: (٤/ ١٠٦).

(٢) رواه النسائي في سننه، انظر جامع الأصول: (١١/ ١٦٧).

فنهاهم عن ذلك، فعذب في قبره»[1].

وقد أخبر الرسول ﷺ أن عامة عذاب القبر من البول، فقد روى أنس رضي الله عنه، عن الرسول ﷺ قال: «تنزهوا من البول، فإن عامة عذاب القبر منه»، ورواه ابن عباس بلفظ: «عامة عذاب القبر من البول، فتنزهوا منه» ورواه أبو هريرة بلفظ: «أكثر عذاب القبر من البول»[2].

٣- الغلول:

ومن الذنوب التي يعذب صاحبها في القبر الغلول، وقد صح في ذلك أكثر من حديث، فعن أبي هريرة، قال: أهدى رجل لرسول الله ﷺ غلاماً يقال له: مِدْعم، فبينما مدعم يحط رحلاً لرسول الله ﷺ إذ أصابه سهم عائر[3]، فقتله، فقال الناس. هنيئاً له الجنة، فقال الرسول ﷺ: «كلا، والذي نفسي بيده إن الشملة التي أخذها يوم خيبر من المغانم لم تصبها المقاسم، لتشتعل عليه ناراً». فلما سمع ذلك الناس جاء رجل بشراك أو شراكين إلى النبي ﷺ، فقال: «شراك من نار أو شراكين من نار»[4] متفق عليه.

وعن عبد الله بن عمرو، قال: كان على ثقل[5] النبي ﷺ رجل يقال

---

(١) عزاه في صحيح الجامع (١١/ ٤١٦) إلى أبي داود والترمذي، وابن ماجة وابن حبان والحاكم.

(٢) وقد خرجه الشيخ ناصر في (إرواء الغليل)، وقال: صحيح، وعزا رواية أنس إلى الدارقطني ورواية ابن عباس إلى الدارقطني والحاكم والبزار والطبراني، ورواية أبي هريرة إلى ابن أبي شيبة وابن ماجة والآجري والحاكم وأحمد، انظر إرواء الغليل: (١/ ٣١١)، حديث رقم (٢٨٠).

(٣) عائر: لا يدري من رماه.

(٤) مشكاة المصابيح: (٢/ ٤٠١).

(٥) الثقل: المتاع المحمول على الدابة.

له: كَرْكرة، فمات، فقال رسول الله ﷺ: «هو في النار» فذهبوا ينظرون إليه، فوجدوا عباءة قد غلّها» رواه البخاري[1].

٤-٧- الكذب، هجر القرآن، الزنا، الربا:

أرى الله رسوله ﷺ أنواعاً مما يعذب به بعض العصاة، ففي صحيح البخاري عن سمرة بن جندب قال: «كان النبي ﷺ إذا صلى صلاة أقبل علينا بوجهه فقال: من رأى منكم الليلة رؤيا؟ قال: فإن رأى أحد قصها، فيقول ما شاء الله».

فسألنا يوماً فقال: هل رأى أحد منكم رؤيا؟ قلنا: لا، قال: لكني رأيت الليلة رجلين أتياني، فأخذا بيدي فأخرجاني إلى الأرض المقدسة، فإذا رجل جالس، ورجل قائم بيده كلوب من حديد -قال بعض أصحابنا عن موسى: كلوب من حديد يدخله في شدقه- حتى يبلغ قفاه، ثم يفعل بشدقه الآخرمثل ذلك، ويلتئم شدقه هذا، فيعود فيصنع مثله.

قلت: ما هذا؟ قالا: انطلق. فانطلقنا حتى أتينا على رجل مضطجع على قفاه، ورجل قائم على رأسه بفهر أو صخرة، فيشدخ به رأسه، فإذا ضربه تدهده الحجر، فانطلق إليه ليأخذه فلا يرجع إلى هذا حتى يلتئم رأسه وعاد رأسه كما هو، فعاد إليه فضربه.

قلت: من هذا؟ قالا: انطلق. فانطلقنا إلى ثقب مثل التنور أعلاه ضيق وأسفله واسع يتوقد تحته ناراً، فإذا اقترب ارتفعوا حتى كادوا أن يخرجوا، فإذا خمدت رجعوا فيها، وفيها رجال ونساء عراة.

---

(١) صحيح البخاري: ٣٠٧٤.

فقلت: من هذا؟ قالا: انطلق. فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم، فيه رجل قائم، على وسط النهر رجل بين يديه حجارة -قال يزيد ووهب بن جرير عن جرير بن حازم: وعلى شط النهر رجل- فأقبل الرجل الذي في النهر، فإذا أراد أن يخرج رمى الرجل بحجر في فيه فرده حيث كان، فجعل كلما جاء ليخرج رمى في فيه بحجر فيرجع كما كان.

فقلت: ما هذا؟ قالا: انطلق. فانطلقنا حتى انتهينا إلى روضة خضراء فيها شجرة عظيمة، وفي أصلها شيخ وصبيان، وإذا رجل قريب من الشجرة بين يديه نار يوقدها، فصعدا بي في الشجرة وأدخلاني داراً لم أر قط أحسن منها، فيها رجال شيوخ وشباب ونساء وصبيان، ثم أخرجاني منها فصعدا بي الشجرة فأدخلاني داراً هي أحسن وأفضل، فيها شيوخ وشباب.

قلت: طَوَّفتماني الليلة فأخبراني عما رأيتُ. قالا: نعم. أما الذي رأيته يُشَقُّ شِدْقُه فكذاب يحدّث بالكذبة فتحمل عنه حتى تبلغ الآفاق، فيصنع به ما رأيت إلى يوم القيامة. والذي رأيته يشدخ رأسه فرجل علمه الله القرآن، فنام عنه بالليل ولم يعمل فيه بالنهار، يُفعل به إلى يوم القيامة. والذي رأيته في الثقب فهم الزناة. والذي رأيته في النهر آكلوا الربا. والشيخ في أصل الشجرة إبراهيم عليه السلام، والصبيان حوله أولاد الناس. والذي يوقد النار مالك خازن النار. والدار الأولى التي دخلت دار عامة المؤمنين، وأما هذه الدار فدارُ الشهداء. وأنا جبريل، وهذا ميكائيل. فارفع رأسك. فرفعت رأسي فإذا فوقي مثل السحاب، قالا: ذاك منزلك. قلت: دعاني أدخل منزلي. قالا: إنه بقي لك عمر لم تستكمله، فلو استكملت أتيت منزلك»[1].

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجنائز، فتح الباري: (٣/ ٢٥١).

حبس المدين في قبره بدينه

ومما يضر الميت في قبره ما عليه من دين، فعن سعد بن الأطول رضي الله عنه: «أن أخاه مات وترك ثلاثمائة درهم، وترك عيالاً، قال: فأردت أن أنفقها على عياله، قال: فقال لي نبي الله ﷺ: «إن أخاك محبوس بدينه، [فاذهب] فاقض عنه، [فذهبت فقضيت عنه، ثم جئت]، قلت: يا رسول الله، قد قضيت عنه إلا دينارين ادعتهما امرأة، وليست لها بيِّنه، قال: أعطها فإنه محقة، (وفي رواية صادقة)[1]».

فقد أخبر الرسول ﷺ أن ذلك الصحابي محبوس بسبب دينه، ويمكن أن يُفسِّر هذا الحبس الحديث الآخرحيث قال الرسول ﷺ: «إنه مأسور بدينه عن الجنة»، ففي الحديث الذي يرويه سمرة بن جندب «أن النبي ﷺ صلى على جنازة، (وفي رواية صلى الصبح)، فلما انصرف قال: أههنا من آل فلان أحد؟ [فسكت القوم، وكان إذا ابتدأهم بشيء سكتوا]، فقال ذلك مراراً، [ثلاث لا يجيبه أحد]، [فقال رجل: هو ذا]، قال: فقام رجل يجر إزاره من مؤخر الناس، [فقال له النبي ﷺ: ما منعك في المرتين الأوليين أن تكون أجبتني؟] أما إني لم أنوِّه باسمك إلا لخير، إن فلاناً -لرجل منهم- مأسور بدينه [عن الجنة، فإن شئتم فافدوه، وإن شئتم فأسلموه إلى عذاب الله]، فلو رأيت أهله ومن يتحرَّون أمره قاموا فقضوا عنه، [حتى ما أحد يطلبه بشيء][2].

---

(١) قال الشيخ ناصر الدين الألباني في أحكام الجنائز (ص:١٥): أخرجه ابن ماجة: (٢/ ٨٢)، وأحمد: (٤/ ١٣٦، ٥/ ٧)، والبيهقي: (١٠/ ١٤٢)، وأحد إسناديه صحيح، والآخرمثل إسناده عند ابن ماجة، وصححه البوصيري في: (الزوائد)، وسياق الحديث والرواية الثانية للبيهقي، وهذه الزيادات لأحمد في رواية.

(٢) قال الشيخ ناصر الدين الألباني في أحكام الجنائز (ص: ١٥): أخرجه أبو داود (٢/ ٨٤)، =

عذاب الميت ببكاء الحي

عندما طُعِن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل عليه صهيب يبكي، يقول: وا أخاه، واصاحباه، فقال عمر رضي الله عنه: يا صهيب أتبكي عليَّ وقد قال رسول الله ﷺ: «إن الميت يُعَذَّب ببعض بكاء أهله عليه»[1].

وقد أنكرت عائشة رضي الله عنها أن يكون الرسول ﷺ قد قال هذا الحديث، ففي صحيح البخاري أن ابن عباس ذكر لعائشة ما قاله عمر بعد وفاته، فقالت: رحم الله عمر، والله ما حدَّث رسول الله ﷺ أن الله ليعذب المؤمن ببكاء أهله عليه، ولكن رسول الله ﷺ قال: إن الله ليزيد الكافر عذاباً ببكاء أهله عليه، حسبكم القرآن ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[2] [فاطر:١٨]، وقد أولت عائشة رضي الله عنها هذا الحديث أكثر من تأويل، ورد ذلك عنها في الصحاح والسنن[3].

وها هنا أمران: **الأول** هل قال الرسول ﷺ هذا الحديث؟ قال القرطبي: «إنكار عائشة ذلك، وحكمها على الراوي بالتخطئة أو النسيان أو

= والنسائي: (٢/ ٢٣٣)، والحاكم (٢/ ٢٥، ٢٦)، والبيهقي (٦/ ٤/ ٧٦) والطيالسي في مسنده (رقم ٨٩١، ٨٩٢) وكذا أحمد (٥/ ١١، ١٣، ٢٠) بعضهم عن الشعبي عن سمرة، وبعضهم أدخل بينهما سمعان بن مُشَنِّج، وهو على الوجه الأول صحيح على شرط الشيخين، كما قال الحاكم ووافقه الذهبي، وعلى الوجه الثاني صحيح فقط، وقد ذكر الشيخ هناك من أخرج الروايات والزيادات.

(١) الحديث رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ: «يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه» فتح الباري: (٣/ ١٥١)، ورواه مسلم أيضاً، انظر جامع الأصول: (١١/ ٩٢).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، انظر فتح الباري: (٣/ ١٥١).

(٣) إذا شئت الإطلاع على هذه التأويلات ارجع إلى فتح الباري: (٣/ ١٥٢).

على أنه سمع بعضاً، ولم يسمع بعضاً بعيد، لأن الرواة لهذا المعنى من الصحابة كثيرون، وهم جازمون، فلا وجه للنفي مع إمكان حمله على محمل صحيح»[1].

الثاني: كيف يعذب ببكاء أهله عليه، وليس ذلك من فعله، والله يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر:١٨].

للعلماء في ذلك أجوبة أحسنها ما قاله البخاري في ترجمة الباب الذي وضع الحديث تحته، قال رحمه الله تعالى: «باب قول النبي ﷺ يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه إذا كان النوح من سنته» لقول الله تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم:٦]، وقال النبي ﷺ: «كلكم راع ومسؤول عن رعيته»، فإذا لم يكن من سنته فهو كما قالت عائشة رضي الله عنها ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[2] [فاطر:١٨] وممن ذهب هذا المذهب الترمذي رحمه الله، فإنه روى حديث عمر رضي الله عنه بلفظ «الميت يعذب ببكاء أهله عليه» ثم قال: «قال أبو عيسى (هو الترمذي): حديث عمر حديث حسن صحيح، وقد كره قوم من أهل العلم البكاء على الميت، قالوا: الميت يعذب ببكاء أهله عليه، وذهبوا إلى هذا الحديث، وقال ابن المبارك: أرجو إن كان ينهاهم في حياته، أن لا يكون عليه من ذلك شيء»[3].

وهذا الفقه للحديث هو مذهب القرطبي رضي الله عنه، فإنه قال: «قال بعض العلماء أو أكثرهم: إنما يعذب الميت ببكاء الحي إذا كان البكاء من

---

(١) فتح الباري: (٣/ ١٥٤).

(٢) انظر فتح الباري: (٣/ ١٥٠).

(٣) سنن الترمذي: (٣/ ٣٢٦).

سنة الميت واختياره، كما قال:

إذ أنا مت فانعيني بما أنا أهله وشقي عليَّ الجيب يا ابنة معبد

وكذلك إذا وصى به[1].

« وقد كان النواح ولطم الخدود وشق الجيوب من شأن أهل الجاهلية، وكانوا يوصون أهاليهم بالبكاء والنوح عليهم، وإشاعة النعي في الأحياء، وكان ذلك مشهوراً من مذاهبهم، وموجوداً في أشعارهم كثيراً، فالميت تلزمه العقوبة في ذلك لما تقدم إليهم في وقت حياته» كذا قال ابن الأثير[2].

وينبغي أن ينبه هنا إلى لفظ البخاري، فقد جاء فيه: «يعذب ببعض بكاء أهله عليه»، ولا يعذب بكل البكاء، فالبكاء الذي تدمع فيه العين، ولا شق، ولا لطم معه لا يؤاخذ صاحبه به، وقد جاءت في ذلك نصوص كثيرة.

وقد تعرض العلامة ابن تيمية للمسألة وضعف مذهب البخاري والقرطبي وابن عبد البرَّ ومن سلك مسلكهم في فقه الأحاديث التي أخبرت أن الميت يعذب ببكاء الحي، فقد قال رحمه الله تعالى بعد أن ذكر النصوص الواردة في ذلك: «وقد أنكر ذلك طوائف من السلف والخلف، واعتقدوا أن ذلك من باب تعذيب الإنسان بذنب غيره، فهو مخالف لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [فاطر:١٨]، ثم تنوعت طرقهم في تلك الأحاديث الصحيحة.

---

(١) التذكرة، للقرطبي: (١٠٢).

(٢) جامع الأصول، لابن الأثير: (١٠٢).

فمنهم من غلَّط الرواة لها، كعمر بن الخطاب وغيره، وهذه طريقة عائشة والشافعي، وغيرهما. ومنهم من حمل ذلك على ما إذا أوصى به فيعذب على إيصائه، وهو قول طائفة كالمزني، وغيره.

ومنهم من حمل ذلك على ما إذا كان عادتهم، فيعذب على ترك النهي عن المنكر، وهو اختيار طائفة منهم جدى أبو البركات، وكل هذه الأقوال ضعيفة جداً»[1] وقد رد قول الذين ردوا هذه الأحاديث بنوع من التأويل، فقال: «والأحاديث الصحيحة الصريحة التي يرويها مثل عمر بن الخطاب، وابنه عبدالله، وأبو موسى الأشعري وغيرهم، لا ترد بمثل هذا، وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها لها مثل هذا نظائر، ترد الحديث بنوع من التأويل والاجتهاد لاعتقادها بطلان معناه، ولا يكون الأمر كذلك، ومن تدبر هذا الباب وجد هذا الحديث الصحيح الصريح الذي يرويه الثقة لا يرده أحد بمثل هذا إلا كان مخطئاً»[2].

ثم بين رحمه الله تعالى أن عائشة وقعت في مثل ما فرت عنه، قال: «وعائشة رضي الله عنها روت عن النبي ﷺ لفظين -وهي الصادقة فيما نقلته- فروت عن النبي ﷺ قوله: «إن الله ليزيد الكافر عذاباً ببكاء أهله عليه»، وهذا موافق لحديث عمر، فإنه إذا جاز أن يزيده عذاباً ببكاء أهله، جاز أن يعذب غيره ابتداء ببكاء أهله، ولهذا رد الشافعي في «مختلف الحديث» هذا الحديث نظراً إلى المعنى، وقال الأشبه روايتها الأخرى: «إنهم يبكون عليه، وإنه ليعذب في قبره»[3].

---

(١) مجموع الفتاوى: (٢٤/ ٣٧٠).

(٢) المصدر السابق: (٢٤/ ٣٧٠).

(٣) مجموع الفتاوى: (٢٤/ ٣٧١).

ورد قول الذين ظنوا أن الحديث يفيد معاقبة الإنسان بذنب غيره، فقال: «والذين أقروا هذا الحديث على مقتضاه، ظن بعضهم أن هذا من باب عقوبة الإنسان بذنب غيره، وأن الله يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، واعتقد هؤلاء أن الإنسان يعاقب بذنب غيره، فجوزوا أن يدخل أولاد الكفار النار بذنوب آبائهم»[1] وبعد أن أطال النفس في هذه المسألة: مسألة دخول أولاد الكفار النار بذنوب آبائهم، وأن هذا ليس بصواب من القول، وأن الحق أن الله لا يعذب إلا من عصاه، وأن الذين لم يبتلوا يمتحنون في عرصات القيامة، قال: «وأما تعذيب الميت: فهو لم يقل: إن الميت يعاقب ببكاء أهله عليه، بل قال: «يعذب»، والعذاب أعمُّ من العقاب، فإن العذاب هو الألم، وليس كل من تألم بسبب كان ذلك عقاباً له على ذلك السبب، فإن النبي ﷺ قال: «السفر قطعة من العذاب، يمْنَعُ أحدكم طعامه وشرابه»، فسمى السفر عذاباً، وليس هو عقاباً.

والإنسان يعذب بالأمور المكروهة التي يشعر بها، مثل الأصوات الهائلة، والأرواح الخبيثة، والصور القبيحة، فهو يتعذب بسماع هذا وشَمِّ هذا، ورؤية هذا، ولم يكن ذلك عملاً له عوقب عليه، فكيف ينكر أن يعذب الميت بالنياحة، وإن لم تكن النياحة عملاً له، يعاقب عليه؟

والإنسان في قبره يعذب بكلام بعض الناس، ويتألم برؤية بعضهم، وبسماع كلامه، ولهذا أفتى القاضي أبو يعلى بأن الموتى إذا عمل عندهم المعاصي فإنهم يتألمون بها، كما جاءت بذلك الآثار، فتعذبهم بعمل المعاصي عند قبورهم كتعذيبهم بنياحة من ينوح عليهم، ثم النياحة سبب العذاب»[2].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) مجموع الفتاوى: (٢٤/ ٣٧١).

وهذا الفقه الذي صار إليه الشيخ العلامة جاءت بعض الأحاديث دالة عليه، فعن النعمان بن بشير، قال: «أغمي على عبد الله بن رواحة رضي الله عنه، فجعلت أخته عمرة تبكي: واجبلاه، واكذا، واكذا، تعدد عليه، فقال حين أفاق: ما قلت شيئاً إلا قيل لي، أنت كذلك؟! فلما مات لم تبك عليه»[1] بل إن هذا المعنى ورد صريحاً في الحديث الذي يرويه أبو موسى الأشعري، أن رسول الله ﷺ قال: «ما من ميت يموت، فيقوم باكيه، فيقول: واجبلاه! واسيداه! أو نحو ذلك، إلا وكل به ملكان يلهزانه: أهكذا كنت» رواه الترمذي. وقال: هذا حديث حسن غريب[2]، وقال الحافظ في التلخيص بعد سياقه لهذا الحديث: «ورواه الحاكم وصححه، وشاهده في الصحيح عن النعمان بن بشير»[3].

وينبغي أن ينبه هنا أنه ليس كل ميت يناح عليه يعذب بالنياح عليه، فقد يندفع حكم السبب بما يعارضه -كما يقول ابن تيمية- كما يكون في بعض الناس من القوة ما يدفع ضرر الأصوات الهائلة، والأرواح والصور الخبيثة. ثم ذكر أن أحاديث الوعيد يذكر فيها السبب، وقد يتخلف موجبه لموانع تدفع ذلك، إما بتوبة مقبولة، وإما بحسنات ماحية، وإما بمصائب مكفرة، وإما بشفاعة شفيع مطاع، وإما بفضل الله ورحمته ومغفرته. وبين في خاتمة كلامه أن ما يصيب الميت المؤمن من عذاب في قبره بما نيح عليه يكفر الله به عن سيئاته[4].

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة مؤتة.

(٢) سنن الترمذي، كتاب الجنائز، باب ما جاء في كراهية البكاء على الميت، (٣/ ٣٢٦)، حديث رقم: (١٠٠٣).

(٣) تلخيص الحبير لابن حجر: ٢/ ١٤٠، حديث رقم (٨٠٦).

(٤) مجموع الفتاوى: (٤/ ٣٧٥).

المطلب الخامس

المنجيات من فتنة القبر وعذابه

الذي ينجي المرء من عذاب القبر أن يكون مستعداً للموت، مشمراً له، حتى إذا فاجأه الموت لم يعض أصْبعَ الندم، ومن الاستعداد للموت الإسراع في التوبة، وقضاء الحقوق، والإكثار من الأعمال الصالحة، فإن الإيمان والصلاة والصوم والزكاة والحج والجهاد وبر الوالدين وصلة الأرحام وذكر الله عز وجل وغيرها من صالح الأعمال تحفظ العبد المؤمن، وبها يجعل الله له من كل هَمّ فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً.

وقد حدثنا الرسول ﷺ أن الأعمال الصالحة تحرس الإنسان في قبره، يقول ابن تيمية: «في الحديث المشهور حديث محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، رواه أبو حاتم في صحيحه، وقد رواه الأئمة قال: «إن الميت ليسمع خفق نعالهم حين يولون عنه، فإن كان مؤمناً كانت الصلاة عند رأسه، وكان الصيام عن يمينه، وكانت الزكاة عن يساره، وكان فعل الخيرات من الصدق والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه.

فيؤتى من عند رأسه، فتقول الصلاة: ما قبلي مدخل، ثم يؤتى عن يمينه، فيقول الصيام: ما قبلي مدخل، ثم يؤتى عن يساره، فتقول الزكاة: ما قبلي مدخل، ثم يؤتى من قبل رجليه: فيقول فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس: ما قبلي مدخل.

فيقال له: اجلس، فيجلس، قد مثلت له الشمس وقد دنت للغروب،

فيقال له: ما هذا الرجل الذي كان فيكم، ما تقول فيه؟ فيقول: دعوني، حتى أصلي، فيقولون: إنك ستفعل، أخبرنا عما نسألك عنه، فقال: عمَّ تسألوني؟ فيقولون: ما تقول في هذا الرجل الذي كان فيكم، ما تشهد به؟ فيقول: أشهد أنه رسول الله، وأنه جاء بالحق من عند الله، فيقال: على ذلك حييت، وعلى ذلك مت، وعلى ذلك تبعث إن شاء الله تعالى، ثم يفتح له باب من أبواب الجنة، فيقال له: ذلك مقعدك منها، وما أعد الله لك فيها، فيزداد غبطة وسروراً، ثم يفتح له باب من أبواب النار، فيقال: ذلك مقعدك منها، وما أعدَّ الله لك فيها، [لو عصيت الله]، فيزداد غبطة وسروراً ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً، وينور له فيه، ويعاد جسده كما بدىء، وتجعل نسمته في نسم الطيب، وهي طير تعلق في شجر الجنة».

وفي لفظ: «وهو طير يعلق في شجر الجنة» قال أبو هريرة: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وفي لفظ: «ثم يعاد الجسد إلى ما بدى منه».

الاستعاذة بالله من فتنة القبر وعذاب القبر

لما كانت فتنة القبر وعذاب القبر من الأهوال الكبار، والشدائد العظيمة فإن الرسول ﷺ كان يستعيذ من ذلك في صلاته وفي غير الصلاة، وكان يأمر أصحابه بذلك.

ففي حديث عائشة التي ذكرت فيه أمر اليهودية التي قالت لها: أعاذك الله من عذاب القبر، فسألت الرسول ﷺ عن عذاب القبر؟ فقال: نعم،

عذاب القبر، قالت: فما رأيت رسول الله ﷺ بعد صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر، زاد غندر: «عذاب القبر حق»[١].

وعن أنس أن الرسول ﷺ كان يدعو فيقول: «اللهمَّ إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل والهرم، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات»[٢].

وعن عائشة أن الرسول ﷺ كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الكسل والهرم، والمأثم والمغرم، ومن فتنة القبر، وعذاب القبر..»[٣].

وكان الرسول ﷺ يقول لأصحابه: «تعوذوا بالله من عذاب القبر» فيقولون: «نعوذ بالله من عذاب القبر»[٤].

وكان يقول لهم: «استجيروا بالله من عذاب القبر، فإن عذاب القبر حق»[٥] وكان يأمرهم أن يستعيذوا من أربع فيقول: «استعيذوا بالله من عذاب القبر، استعيذوا بالله من جهنم، استعيذوا بالله من فتنة المسيح الدجال، استعيذوا بالله من فتنة المحيا والممات»[٦].

وكان يأمرهم بالاستعاذة في الصلاة بعد التشهد من عذاب القبر، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا تشهد أحدكم

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجنائز، والسياق له، باب عذاب القبر، فتح الباري: (١٣/ ٢٣٢) ورواه مسلم، كتاب المساجد، باب استحباب التعوذ من عذاب القبر: (١/ ٤١٠).

(٢) قال الشيخ ناصر في صحيح الجامع (١/ ٤٠٦) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم.

(٣) عزاه في صحيح الجامع (١/ ٤٠٧) إلى البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة.

(٤) رواه مسلم، كتاب الجنة، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه: (٤/ ٢١٩٩).

(٥) رواه الطبراني بإسناد صحيح، انظر صحيح الجامع: (١/ ٣١٧).

(٦) عزاه في صحيح الجامع: (١/ ٣٢٠) إلى الترمذي والنسائي.

فليستعذ بالله من أربع. يقول: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شر فتنة المسيح الدجال»[1].

وعن ابن عباس أن الرسول كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن: «اللهم إنا نعوذ بك من عذاب جهنم، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات»[2].

المطلب السادس

الذين يعصمون من فتنة القبر وعذابه

بعض المؤمنين من الذين قاموا بأعمال جليلة، أو أصيبوا بمصائب كبيرة يأمنون فتنة القبر وعذابه، فمن هؤلاء:

١- الشهيد: فقد روى المقدام بن معدي كرب، قال: قال رسول ﷺ: «للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له في أول دفعة، ويرى مقعده في الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب ما يستعاذ منه في الصلاة، (١/ ٤١٢) حديث رقم: (٥٨٨).

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب ما يستعاذ منه في الصلاة، (١/ ٤١٢) حديث رقم: (٥٩٠).

وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين من أقربائه» رواه الترمذي وابن ماجة[1].

وروى النسائي في سننه عن راشد بن سعد عن رجل من أصحاب رسول ﷺ أن رجلاً قال: يا رسول الله! ما بال المؤمنين يفتنون في قبورهم إلا الشهيد؟ قال كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة»[2]

٢- **الذي مات مرابطاً[3] في سبيل الله**، فقد روى فضالة بن عبيد، عن رسول الله ﷺ، قال: «كل ميت يختم على عمله إلا الذي مات مرابطاً في سبيل الله؟ فإنه ينمي له عمله يوم القيامة، ويأمن فتنة القبر» رواه الترمذي وأبو داود[4].

٣- **الذي يموت يوم الجمعة**، ففي الحديث عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ، قال: «ما من مسلم يموت يوم الجمعة إلا وقاه الله فتنة القبر» رواه أحمد والترمذي، والحديث صحيح بمجموع طرقة أو حسن[5].

٤- **الذي يموت بداء البطن**، وقد ثبت في حديث يرويه عبد الله بن

---

(١) مشكاة المصابيح: (٢/٣٥٨)، وإسناده صحيح كما قال محقق المشكاة الشيخ ناصر الدين الألباني.

(٢) وسنده صحيح، انظر أحكام الجنائز للشيخ ناصر الدين الألباني: (٣٦) وصحيح الجامع: (٤/ ١٦٤).

(٣) الرباط: هو الملازمة في سبيل الله مأخوذة من ربط الخيل، ثم سمى كل ملازم لثغر من ثغور المسلمين مرابطاً: فارساً كان أو راجلاً، واللفظة مأخوذة من الرباط.

(٤) مشكاة المصابيح: (٢/ ٣٥٥)، وإسناده صحيح كما قال محقق المشكاة.

(٥) رواه أحمد، والترمذي، والحديث بمجموع طرقه صحيح أو حسن، أحكام الجنائز (٣٥).

يسار، قال: «كنت جالساً وسليمان بن صرد وخالد بن عرفطة، فذكروا أن رجلاً توفي مات ببطنه، فإذا هما يشتهيان أن يكونا شهدا جنازته، فقال أحدهما للآخر: ألم يقل رسول الله ﷺ: من يقتله بطنه فلن يعذب في قبره»؟ فقال الآخر: بلى، وفي رواية: صدقت[1].

(١) قال الشيخ ناصر في أحكام الجنائز: أخرجه النسائي: والترمذي وحسنه، وابن حبان في صحيحه، والطيالسي، وأحمد، وسنده صحيح، (أحكام الجنائز ص ٣٨).

المبحث الخامس

عظة الموت

المطلب الأول

الموت أعظم واعظ

سقنا إليك طرفاً من النصوص التي تحدث عن الموت وسكراته، والقبر وأهواله، والعاقل من اعتبر، فإن الموت أكبر واعظ، وقد قيل لبعض الزهاد: ما أبلغ العظات؟ قال: النظر إلى الأموات[1]، وقد أحسن القرطبي في وصف الموت حيث يقول: «اعلم أن الموت هو الخطب الأفظع، والأمر الأشنع، والكأس الذي طعمهما أكره وأبشع، وأنه الأهذم للذات، والأقطع للراحات، والأجلب للكريهات، فإن أمراً يقطع أوصالك، ويفرق أعضاءك، ويهدم أركانك، لهو الأمر الفظيع، والخطب الجسيم، وإن يومه لهو اليوم العظيم»[2].

---

(١) التذكرة للقرطبي: ٩٩.

(٢) التذكرة للقرطبي: ٢٤.

المطلب الثاني

التفكر في الموت

كما أن الحياة آية من آيات الله فالموت كذلك آية أخرى تضاد الحياة، ولكنها لا تقل عنها عجباً، ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨].

والتفكر في هذه الآية تفكر في خلق من خلق الله وعجائبه الدالة على عظيم قدرة الله، وعجيب أمره، يروى أن أعرابياً كان يسير على جمل له، فخر ميتاً، فنزل الأعرابي عنه، وجعل يطوف به، ويتفكر فيه، ويقول: مالك لا تقوم؟ مالك لا تنبعث؟

هذه أعضاؤك كاملة، وجوارحك سالمة. ما شأنك؟ ما الذي كان يحملك؟ ما الذي كان يبعثك؟ ما الذي صرعك؟ ما الذي عن الحركة منعك؟

ثم انصرف متفكراً في شأنه، متعجباً من أمره[١]

وأُنشد في بعض الشجعان مات حتف أنفه[٢]:

جاءته من قِبَل المنون إشارة ... فهوى صريعاً لليدين وللفم

ورمى بمحكم درعه وبرمحه ... وامتد ملقى كالفنيق الأعظم

لا يستجيب لصارخ إن يدعه ... أبداً ولا يرجى لخطب معظم

---

(١) التذكرة للقرطبي: ص ٤.

(٢) التذكرة للقرطبي: ص ٥.

ذهبت بسالته ومرَّ مراره ... لما رأى حبل المنية يرتمي
يا ويحه من فارس ما باله ... ذهبت مراراته ولما يُكْلَم
هذي يداه وهذه أعضاؤه ... ما منه عضو غداً بمثلم
هيهات ما حبل الردى محتاجه ... للمشرفي ولا اللسان اللهذم
هي ويحكم أمر الإله وحكمه ... والله يقضي بالقضاء المحكم

المطلب الثالث

نماذج من عظات الواعظين

وعظ الله رسوله بالموت فقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، وفي الحديث الذي يرويه الطبراني في الأوسط، وأبو نعيم في الحلية، والحاكم في مستدركه، وغيرهم عن علي، قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني جبريل، فقال: يا محمد، عش ما شئت، فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزى به، واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزه استغناؤه عن الناس»[1].

وقد سقنا كثيراً من النصوص التي وعظنا الله ورسوله فيها بالموت، وقد كان هذا دأب الصالحين يعظون أنفسهم بالموت، ويعظون الناس به، يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «ارتحلت الدنيا مدبرة، وارتحلت الآخرة مقبلة، ولكل واحدة بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة، (٢/ ٥٠٥)، ورقم الحديث: (٨٣١).

أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل» رواه البخاري في ترجمة باب: الأمل وطوله[1].

ومن عظات العلماء ما جاء في تذكرة القرطبي: «تفكر يا مغرور في الموت وسكرته، وصعوبة كأسه ومرارته، فيا للموت من وعد ما أصدقه، ومن حاكم ما أعدله، كفى بالموت مفزعاً للقلوب، ومبكياً للعيون، ومفرقاً للجماعات، وهادماً للذات، وقاطعاً للأمنيات.

فهل تفكرت يا ابن آدم في يوم مصرعك، وانتقالك من موضعك، إذا نقلت من سعة إلى ضيق، وخانك الصاحب والرفيق، وهجرك الأخ والصديق، وأخذت من فراشك وغطائك إلى غرر، وغطوك من بعد لين لحافها بتراب ومدر، فيا جامع المال، والمجتهد في البنيان، ليس لك من مالك والله إلا الأكفان، بل هي للخراب والذهاب، وجسمك للترائب والمئاب.

فأين الذي جمعته من المال؟ فهل أنقذك من الأهوال، كلا بل تركته لمن لا يحمدك، وقدم بأوزارك على من لا يعذرك»[2].

ونقل القرطبي رحمه الله عن يزيد الرقاشي أنه كان يقول لنفسه: «ويحك يا يزيد من ذا يصلي عنك بعد الموت؟ من ذا يصوم عنك بعد الموت؟ من ذا يرضي عنك ربك بعد الموت؟».

ثم يقول: «يا أيها الناس، ألا تبكون وتنوحون على أنفسكم باقي حياتكم؟ من القبر طالبه، والقبر بيته، والتراب فراشه، والدود أنيسه، وهو

---

(١) مشكاة المصابيح: (٢/٦٥٩)، ورقم الحديث (٥٢١٥).

(٢) التذكرة: ص ٩.

مع هذا ينتظر الفزع الأكبر، كيف يكون حاله؟»[1].

وقال القرطبي رحمه الله في موضع آخر: «مَثِّلْ نفسك يا مغرور وقد حلت بك السكرات، ونزل بك الأنين والغمرات، فمن قائل يقول: إن فلاناً قد أوصى، وماله قد أحصى، ومن قائل يقول: إن فلاناً ثقل لسانه، فلا يعرف جيرانه، ولا يكلم إخوانه، فكأني أنظر إليك تسمع الخطاب، ولا تقدر على رد الجواب. فَخَيِّل لنفسك، يا ابن آدم إذا أخذت لفراشك إلى لوح مغسلك، فغسلك الغاسل، وألبست الأكفان، وأوحش منك الأهل والجيران، وبكت عليك الأصحاب والإخوان، وقال الغاسل: أين زوجة فلان تحالله، وأين اليتامى تركككم أبوكم فما ترونه بعد هذا اليوم أبداً، وأنشدوا:

ألا أيها المغرور مالك تلعب ... تؤمل آمالاً وموتك أقرب
وتعلم أن الحرص بحر مبعد ... سفينته الدنيا فإياك تعطب
وتعلم أن الموت ينقض مسرعاً ... عليك يقيناً طعمه ليس يعذب
كأنك توصي واليتامى تراهم ... وأمهم الثكلى تنوح وتندب
تغص بحزن ثم تلطم وجهها ... يراها رجال بعدما هي تحجب
وأقبل بالأكفان نحوك قاصد ... ويحثي عليك الترب والعين تسكب[2]

ومن عظات الصحابي الجليل أبي الدرداء قوله: «أضحكني ثلاث، وأبكاني ثلاث: أضحكني مؤمل الدنيا والموت يطلبه، وغافل ليس بمغفول عنه، وضاحك بملىء فيه، وهو لا يدري أأرضى الله أم سخطه؟!

---

(١) التذكرة: ص ٩.

(٢) التذكرة: ص٢١.

وأبكاني فراق الأحبة محمد ﷺ وحزبه، وهول المطلع عند غمرات الموت، والوقوف بين يدي الله، يوم تبدو السريرة علانية، ثم لا يدري إلى الجنة أو إلى النار»[1].

وقال أبو الدرداء أو أبو ذر: «تلدون للموت، وتعمرون للخراب، وتحرصون على ما يفنى، وتذرون ما يبقى»[2].

وقال القرطبي في تذكرته واعظاً ناصحاً:

«يا هذا، أين الذي جمعته من الأموال، وأعددته للشدائد والأهوال، لقد أصبحت كفك منه عند الموت خالية صفراً، وبدلت بعد غناك وعزك ذلاً وفقراً، فكيف أصبحت يا رهين أوزاره، ويا من سلب من أهله وديارة؟

ما كان أخفى عليك سبيل الرشاد، وأقل اهتمامك لحمل الزاد إلى سفرك البعيد، وموقفك الصعب الشديد، أو ما علمت يا مغرور أن لا بدَّ من الارتحال إلى يوم شديد الأهوال، وليس ينفعك ثمَّ قيل ولا قال، بل يعد عليك بين يدي الملك الديان ما بطشت اليدان ومشت القدمان، ونطق به اللسان، وعملت الجوارح والأركان، فإن رحمك الله فإلى الجنة، وإن كانت الأخرى فإلى النيران.

يا غافلاً عن هذه الأحوال إلى كم هذه الغفلة والتوان؟ أتحسب أن الأمر صغير، وتزعم أن الخطب يسير؟ وتظن أن سينفعك حالك إذا آن ارتحالك، أو ينقذك مالك حين توبقك أعمالك، أو يغني عنك ندمك إذا

---

(١) التذكرة: ص ٨٧.

(٢) كتاب الزهد والرقائق، لابن المبارك: ص٨٨.

زلت بك قدمك، أو يعطف عليك معشرك حين يضمك محشرك، كلا والله ساء ما تتوهم، ولا بدَّ أن ستعلم لا بالكفاف تقنع، ولا من الحرام تشبع، ولا للعظات تسمع، ولا بالوعيد ترتدع، دأبك أن تتقلب مع الأهواء، وتخبط خبط العشواء، يعجبك التكاثر بما لديك، ولا تذكر ما بين يديك. يا نائماً في غفلة، وفي خبطة يقظان، إلى كم هذه الغفلة والتوان، أتزعم أن ستُترك سُدَى، وأن لا تحاسب غداً، أم تحسب أن الموت يقبل الرِّشا؟ أم تميز بين الأسد والرَّشا؟

كلا والله، لن يدفع عنك الموت مالك ولا بنون، ولا ينفع أهل القبول إلا العمل المبرور، فطوبى لمن سمع ووعى، وحقق ما ادعى، ونهى النفس عن الهوى، وعلم أن الفائز من ارعوى، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، وأن سعيه سوف يرى، فانتبه من هذه الرقدة، واجعل العمل الصالح لك عدة، ولا تتمنَّ منازل الأبرار وأنت مقيم على الأوزار، عامل بعمل الفجار، وراقب الله في الخلوات، ولا يغرنك الأمل، فتزهد عن العمل. . ، وأنشدوا:

تـزود مـن معـاشـك للمعـاد ... وقـم لله واعـمـل خيـر زاد
ولا تجمـع مـن الـدنيـا كثيـراً ... فـإن المـال يجـمـع للنفـاد
أتـرضـى أن تكـون رفيـق قـوم ... لـهـم زاد وأنـت بغـيـر زاد

وقال آخر:

إذا أنت لـم ترحـل بزاد من التقى ... ولاقيت بعـد الموت من قد تزودا
نـدمت علـى أن لا تكـون مثله ... وأنك لم ترصد كما كان أرصدا[1]

(١) تذكرة القرطبي: ٩١.

المطلب الرابع

نماذج من عظات الشعراء

وقد أكثر الشعراء من ذكر الموت والوعظ به، فمن ذلك قول الشاعر:

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته ... يبقى الإله ويفنى المال والولد
لم تغن عن هرمز يوماً خزائنه ... والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا
ولا سليمان إذ تجري الرياح له ... والإنس والجن فيما بينها ترد
أين الملوك التي كانت لعزتها ... من كل أوب إليها وافد يفد
حوض هنالك مورود بلا كذب ... لا بد من ورده يوماً كما وردوا

وقال الآخر:

مشيناها خطا كتبت علينا ... ومن كتبت عليه خطا مشاها
وأرزاق لنا متفرقات ... فمن لم تأته منا أتاها
ومن كتبت منيته بأرض ... فليس يموت في أرض سواها

وقال آخر:

وإذا وليت قوماً ليلة ... فاعلم بأنك بعدها مسؤول
وإذا حَملتَ إلى القبور جنازة ... فاعلم بأنك بعدها محمول

وقال آخر:

تزود من الدنيا فإنك لا تدري ... إذا جن ليل هل تعيش إلى الفجر
فكم من عروس زينوها لزوجها ... وقد أخذت أرواحهم ليلة القدر

وكم من صغار يرجى طول عمرهم ... وقد أدخلت أرواحهم ظلمة القبر
وكم من سليم مات من غير علة ... وكم من سقيم عاش حيناً من الدهر
وكم من فتى يمسي ويصبح لاهياً ... وقد نسجت أكفانه وهو لا يدري
وكم من ساكن عند الصباح بقصره ... وعند المسا قد كان من ساكن القبر
فكن مخلصاً واعمل الخير دائماً ... لعلك تحظى بالمثوبة والأجر
وداوم على تقوى الإله فإنها ... أمان من الأهوال في موقف الحشر

وقال الآخر:

هب الدنيا تساق إليك عفواً ... أليس مصير ذاك إلى انتقال
وما دنياك إلا مثل فيء ... أظلك ثم آذن بالزوال

وقال آخر:

يا مقيماً قد حان منه رحيل ... بعد ذاك الرحيل يوم عصيب
إن للموت سكرة فارتقبها ... لا يداويك إن أتتك طبيب
كم توانى حتى تصير رهيناً ... ثم تأتيك دعوة فتجيب
وتذكر يوماً تحاسب فيه ... إن من يذكر الممات ينيب
ليس من ساعة من الدهر إلا ... للمنايا عليك رقيب
كل يوم ترميك بسهم ... إن تحظى يوماً فسوف تصيب

وقال آخر:

الموت في كل يوم ينشر الكفنا ... ونحن في غفلة عما يراد بنا
لا تطمئن إلى الدنيا وبهجتها ... وإن توشحت من أثوابها الحسنا

أين الأحبة والجيران ما فعلوا أين الذين همو كانوا لنا سكنا
سقاهم الموت كأساً غير صافية فصيرتهم لأطباق الثرى رهناً

وقال آخر:

قدم لنفسك توبة مرجوة قبل الممات وقبل حبس الألسن
بادر بها غلق النفوس فإنها ذخر وغنم للمنيب المحسن

المطلب الخامس

أثر تذكر الموت في إصلاح النفوس

إن لتذكر الموت أثراً كبيراً في إصلاح النفوس وتهذيبها، ذلك أن النفوس تؤثر الدنيا وملذاتها، وتطمع في البقاء المديد في هذه الحياة، وقد تهفو إلى الذنوب والمعاصي، وقد تقصر في الطاعات، فإذا كان الموت دائماً على بال العبد، فإنه يصغر الدنيا في عينه، ويجعله يسعى في إصلاح نفسه، وتقويم المعوج من أمره، فقد روى البيهقي في شعب الإيمان، وابن حبان في صحيحه والبزار في مسنده بإسناد حسن عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «أكثروا ذكر هاذم اللذات: الموت، فإنه لم يذكره في ضيق من العيش إلا وسعه عليه، ولا ذكره في سعة إلا ضيقها»[1].

(١) صحيح الجامع الصغير: (١/٣٨٨)، ورقم الحديث: (١٢٢٢).

ويذكر ابن المبارك أن صالحاً المُرّي كان يقول: «إن ذكر الموت إذا فارقني ساعة فسد على قلبي»[1].

وقال الدقاق: «من أكثر ذكر الموت أكرم بثلاثة: تعجيل التوبة، وقناعة القلب، ونشاط العبادة، ومن نسى الموت عوجل بثلاثة: تسويف التوبة، وترك الرضا بالكفاف، والتكاسل في العبادة»[2].

وقال القرطبي: «اعلم أن ذكر الموت يورث استشعار الانزعاج عن هذه الدار الفانية، والتوجه في كل لحظة إلى الدار الآخرة الباقية»[3] ويروى أن امرأة شكت إلى عائشة رضي الله عنها قساوة في قلبها، فقالت لها: أكثري من ذكر الموت يرق قلبك، ففعلت ذلك فرق قلبها»[4].

وقال القرطبي: قال العلماء: تذكر الموت يردع عن المعاصي، ويلين القلب القاسي، ويذهب الفرح بالدنيا، ويهون المصائب[5].

وقال القرطبي أيضاً: قال العلماء -رحمهم الله- ليس للقلوب أنفع من زيارة القبور، وخاصة إن كانت قاسية، فعلى أصحابها أن يعالجوها بثلاثة أمور:

أحدها: الإقلاع عما هي عليه بحضور مجالس العلم بالوعظ والتذكير والتخويف والترغيب وأخبار الصالحين، فإن ذلك مما يلين القلوب.

---

(١) الزهد والرقائق، لابن المبارك: ص (٨٨).
(٢) تذكرة القرطبي: ص ٩.
(٣) تذكرة القرطبي: ص ٨.
(٤) التذكرة: ص ١٢.
(٥) التذكرة: ص ١٢.

الثاني: ذكر الموت، فيكثر من ذكر هاذم اللذات، ومفرق الجماعات، وميتم البنين والبنات.

الثالث: مشاهدة المحتضرين، فإن النظر إلى الميت ومشاهدة سكراته ونزعاته، وتأمل صورته بعد مماته، مما يقطع عن النفوس لذاتها، ويطرد عن القلوب مسراتها، ويمسح الأجفان من النوم، والأبدان من الراحة، ويبعث على العمل، ويزيد في الاجتهاد والتعب[1].

وذكر عن الحسن البصري أنه دخل على مريض يعوده، فوجده في سكرات الموت، فنظر إلى كربه، وشدة ما نزل به، فرجع إلى أهله بغير اللون الذي خرج به من عندهم، فقالوا له: الطعام يرحمكم الله، فقال: يا أهلاه، عليكم بطعامكم وشرابكم، فوالله رأيت مصرعاً لا أزال أعمل له حتى ألقاه[2].

وقال أبو الدرداء: «من أكثر ذكر الموت قل فرحه، وقل حسده»[3].

---

(١) تذكرة القرطبي: ص ١٢.

(٢) تذكرة القرطبي: ص١٢.

(٣) كتاب الزهد لابن المبارك: انظر آخر الكتاب: زوائد كتاب الزهد، رواية نعيم بن حماد: ص٣٧.

الفصل الخامس
الروح والنفس

المبحث الأول
تعريف وبيان

لا بدَّ للباحث في أمر الإنسان بعد موته من إعطاء فكرة عن الروح التي تنعم أو تعذب بعد موتها، ما هي؟ وهل لها كيفية تعلم؟ وهل هي جزء من البدن، أم شيء آخر غير البدن؟ فإن كانت غيره فأين مسكنها فيه؟ وهل هي مخلوقة؟ وهل هي واحدة في الإنسان أم متعددة؟ وهل تموت الأرواح، وكيف موتها؟ وأين مستقرها في البرزخ، وهل تعلم الأرواح شيئاً عما يجري في الدنيا من البرزخ؟

يقول ابن تيمية: «والروح المدبرة للبدن التي تفارقه بالموت هي الروح المنفوخة فيه، وهي النفس التي تفارقه بالموت»[1]، وقد أخطأ الذين فرقوا بين الروح والنفس واعتقدوا أنهما أمران مختلفان، ومن تأمل فيما سقناه في بحثنا من نصوص علم أن النفس هي التي تقبضها الملائكة، وتصعد بها إلى السماء، وتعود بها إلى الجسد، وتسأل، وتنعم وتعذب، وهي الروح أيضاً التي إذا خرجت من الجسد تبعها البصر كما ثبت في الأحاديث.

---

(١) رسالة العقل والروح، مجموعة الرسائل المنيرية: ٢/ ٣٦، وانظر شرح العقيدة الطحاوية: ٤٤٥.

وهذا المخلوق الذي تكون به الحياة، وتفقد الحياة بفقده يسمى روحاً ونفساً، ولا يمنع هذا أن تطلق كل من الروح والنفس إطلاقات أخرى، يقول ابن تيمية: «لفظ الروح والنفس يعبر بهما عن عدة معان: فيراد بالروح الهواء الخارج من البدن والهواء الداخل فيه، ويراد بالروح البخار الخارج من تجويف القلب من سويداه الساري في العروق، وهو الذي تسميه الأطباء الروح، ويسمى الروح الحيواني، فهذان المعنيان غير الروح التي تفارق بالموت التي هي النفس، ويراد بنفس الشيء ذاته وعينه، وقد يراد بلفظ النفس الدم الذي يكون في الحيوان، كقول الفقهاء: «ماله نفس سائلة، وما ليس له نفس سائلة» فهذان المعنيان بالنفس ليسا هما معنى الروح»[1].

وتطلق الروح أيضاً على جبرائيل: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣]، وتطلق على القرآن ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

ويلاحظ شارح الطحاوية أن الروح والنفس وإن أطلقا على تلك اللطيفة الربانية، إلا أن «غالب ما يسمى نفساً إذا كانت الروح متصلة بالبدن، وأما إذا أخذت مجردة فتسمية الروح أغلب عليها»[2].

ويقول ابن تيمية في هذا: «لكن تسمى نفساً باعتبار تدبيره للبدن، وتسمى روحاً باعتبار لطفه، ولهذا يسمى الريح روحاً، وقال النبي ﷺ: «الريح من روح الله»[3] أي من الروح التي خلقها الله[4].

---

(١) المصدر السابق: (٢/ ٣٩).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية: ص (٤٤٤).

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد، وأبو داود والحاكم.

(٤) رسالة العقل والروح، مجموع الرسائل المنيرية: (٢/ ٣٧).

المبحث الثاني

هل للروح كيفية تعلم؟

لما كانت الروح مخلوقة من جنس لا نظير له في عالم الموجودات فإننا لا نستطيع أن نعرف صفاتها، فقد عرفنا الله أنها تصعد وتهبط، وتسمع وتبصر وتتكلم إلى غير ذلك، إلا أن هذه الصفات مخالفة لصفات الأجسام المعروفة، فليس صعودها وهبوطها وسمعها وبصرها وقيامها وقعودها من جنس ما نعرفه ونعلمه، فقد أخبرنا الرسول ﷺ أن الروح يصعد بها إلى السماوات العلى، ثم تعاد إلى القبر، ساعة من الزمن، وقد أخبرنا أنها تنعم أو تعذّب في القبر، ولا شك أن هذا النعيم على نحو مخالف لما نعلمه ونعرفه.

المبحث الثالث

استقلال الروح عن البدن

«يرى فريق من أهل الكلام المبتدع المحدث من الجهمية والمعتزلة أن الروح جزء من أجزاء البدن، أو صفة من صفاته، كقول بعضهم: إنها النفس أو الريح التي تردد في البدن، وقول بعضهم: إنها الحياة أو المزاج أو نفس البدن»[1].

«والفلاسفة المشاؤون يقرون بأن النفس تبقى إذا فارقت البدن، لكن يصفون النفس بصفات باطلة فيدعون أنها إذا فارقت البدن كانت عقلاً، والعقل عندهم مجرد عن المادة وعلائق المادة، والمادة عندهم هي الجسم، والعقل عندهم قائم بنفسه، لا يوصف بحركة ولا سكون، ولا يتجدد له أحوال البتة»[2].

وقد تخبط هؤلاء وهؤلاء في مقالاتهم في الروح، فأهل الكلام المبتدع المذموم الذين قالوا: إن الروح هي الحياة أو المزاج أو نفس البدن، أنكر كثير منهم عذاب القبر، فليس هناك روح تنعم أو تعذب بعد الموت في البرزخ. ورفضوا النصوص التي أثبتت ذلك.

والفلاسفة الذين زعموا أن الروح إذا فارقت البدن تصبح عقلاً، قالوا: «إذا فارقت البدن لا يتجدد لها حال من الأحوال لا علوم ولا تصورات، ولا

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: (٣/ ٣١)، رسالة العقل والروح لابن تيمية، انظر مجموعة الرسائل المنيرية: (٢/ ٢١).

(٢) مجموعة الرسائل المنيرية، رسالة العقل والروح: (٢/ ٢١).

سمع ولا بصر، ولا إرادات، ولا فرح ولا سرور، ولا غير ذلك مما قد يتجدد ويحدث، بل تبقى عندهم على حال واحدة أزلاً وأبداً، كما يزعمونه في العقل والنفس»[1].

«وفريق من الفلاسفة يصفونها بما يصفون به واجب الوجود عندهم، وهي أمور لا يتصف بها إلا ممتنع الوجود، فيقولون لا هي داخل البدن ولا خارجه، ولا مباينة له، ولا مداخلة له، ولا متحركة ولا ساكنة، ولا تصعد ولا تهبط، ولا هي جسم ولا عرض»[2].

والسبب الذي أوقع كلا الفريقين في هذا الخطأ أنهم اعتمدوا على عقولهم وما وضعوه من مقاييس في البحث عن أمر غيبي، فالفريق الأول أنكر وجود روح مستقلة عن البدن، وهذا تكذيب للنصوص المتواترة، وإنكار لأمر معلوم من الدين بالضرورة، والفلاسفة المشاؤون ومن سلك سبيلهم أثبتوا وجود الروح مستقلة عن البدن، ولكن لما كانت هذه الروح «ليست من جنس هذا البدن، ولا جنس العناصر والمولدات منها، بل هي جنس آخر مخالف لهذه الأجناس»[3] صعب عليهم تعريفها وتصورها، وضاقت تعبيراتهم ومقاييسهم عن حدها وتصورها.

وقد هدى الله الذين استجابوا لله ورسوله، وآمنوا بما أخبرهم به، فعلموا أن «الروح جسم مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس، وهو جسم نوراني علوي خفيف حي متحرك، ينفذ في جوهر الأعضاء ويسري فيها سريان الماء في الورد، وسريان الدهن في الزيتون، والنار في الفحم، فما

---

(١) المصدر السابق: (٢/ ٢٢).

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: (٣/ ٣١).

(٣) المصدر السابقة: (٣/ ٣٢).

دامت هذه الأعضاء صالحة لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف، بقي هذا الجسم اللطيف متشابكاً بهذه الأعضاء، وأفادها هذه الآثار من الحس والحركة والإرادة، وإذا فسدت هذه الأعضاء بسبب استيلاء الأخلاط الغليظة عليها، وخرجت عن قبول تلك الآثار فارق الروح البدن، وانفصل إلى عالم الأرواح»[1].

وقد سقنا في تضاعيف بحثنا كثيراً من الأدلة التي تثبت أن الروح شيء مستقل عن البدن، كقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ ﴾ [الزمر: ٤٢]، وقوله: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ [الأنفال: ٥٠]، وقوله: ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وقوله: ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ * وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ * وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ * وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴾ [القيامة: ٢٦-٣٠]، وقوله: ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾ [الواقعة: ٨٣-٨٤]، فالذي يمسك، وتتوفاه الملائكة، ويبلغ الحلقوم، ويبلغ التراقي، ويساق لا بد أن يكون شيئاً حقيقياً مخالفاً للجسد.

وقد سقنا الأحاديث التي يخبر فيها رسول الله ﷺ أنَّ ملك الموت يقبض الروح، وأنَّ الملائكة تضع تلك الروح في كفن من الجنة أو النار

---

(١) هذا تعريف ابن القيم للروح في كتابه: الروح، وقد نقله عنه السفاريني في لوامع الأنوار البهية: (٢٩/٢)، وعزاه إليه، وذكره بنصه شارح الطحاوية من غير عزو، انظر شرح الطحاوية: ص(٤٣٣)، وقد قال ابن القيم بعد سياقه لهذا التعريف: «وهذا القول هو الصواب في المسألة، وهو الذي لا يصح غيره، وكل الأقوال سواه باطلة، وعليه دل الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأدلة العقل والفطرة»، وذكر مائة وخمسة عشر دليلاً فأجاد وأفاد وزيف كلام ابن سينا وابن حزم وأمثالهما.

بحسب فلاحها أو فسادها، وأنَّه يذهب بها في رحلة علوية سماوية، حيث تفتح لها أبواب السماء إن كانت صالحة، وتغلق دونها إن كانت طالحة، وأنها تعاد إلى الجسد، وتسأل وتعذب أو تنعم، وأن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر، وأرواح المؤمنين طير يعلق في شجر الجنة، وأن الروح إذا قبض تبعه البصر، إلى غير ذلك من النصوص الدالة في مجموعها دلالة قاطعة على أن الأرواح شيء آخر غير الأبدان، وأنها تبقى بعد مفارقة البدن.

المبحث الرابع

مسكن الروح في الجسد

الروح تسري في بدن الإنسان كله، يقول ابن تيمية: «لا اختصاص للروح بشيء من الجسد، بل هي سارية في الجسد كما تسري الحياة التي هي عرض في جميع الجسد، فإن الحياة مشروطة بالروح، فإذا كانت الروح في الجسد كان فيه حياة، وإذا فارقته الروح فارقته الحياة»[1].

---

(١) رسالة العقل والروح، مجموعة الرسائل المنيرية: (٢/ ٤٧).

المَبحث الخامس
الرُّوح مخلوقة

ذهب فريق من الفلاسفة إلى أن الروح غير مخلوقة، بل هي قديمة أزلية، ولكنها ليست من ذات الرب، ومقالتهم في الروح هي مقالتهم في العقول والنفوس الملكية، ويزعم من دخل من أهل الملل فيهم أنها هي الملائكة.

وذهب صنف آخر من زنادقة هذه الأمة وضُلالها من المتكلمة والمتصوفة والمحدثة إلى أن الروح من ذات الله، وهؤلاء -كما يقول ابن تيمية- أشرُّ قولاً من أولئك، وهؤلاء جعلوا الآدمي نصفين: نصف لاهوت، وهو روحه، ونصف ناسوت، وهو جسده: نصفه رب ونصفه عبد[1].

والحق الذي لا ينبغي أن يخالف فيه أن الروح مخلوقة مبتدعة، ويدل على ذلك أمور:

١- الإجماع:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «روح الآدمي مبدعة باتفاق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة، وقد حكى إجماع العلماء على أنها مخلوقة غيرُ واحد من أئمة المسلمين، مثل محمد بن نصر المروزي، الإمام المشهور،

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: (٤/ ٢٢٢).

الذي هو أعلم أهل زمانه بالإجماع والاختلاف، أو من أعلمهم.

وكذلك أبو محمد بن قتيبة، قال في (كتاب اللقط) لما تكلم على خلق الروح، قال: النسم الأرواح، قال: وأجمع الناس أن الله خالق الجثة وبارىء النسمة، أي: الروح.

وقال أبو إسحاق بن شاقلا فيما أجاب به في هذه المسألة: سألت رحمك الله عن الروح مخلوقة أو غير مخلوقة، قال: هذا مما لا يشك فيه من وفق للصواب، إلى أن قال: والروح من الأشياء المخلوقة، وقد تكلم في هذه المسألة طوائف من أكابر العلماء والمشايخ، وردوا على من يزعم أنها غير مخلوقة.

وصنف الحافظ أبو عبد الله بن منده في ذلك كتاباً كبيراً في (الروح والنفس) وذكر فيه من الأحاديث والآثار شيئاً كثيراً، وقبله الإمام محمد بن نصر المروزي وغيره، والشيخ أبو يعقوب الخراز، وأبو يعقوب النهرجوري، والقاضي أبو يعلى، وغيرهم، وقد نص على ذلك الأئمة الكبار، واشتد نكيرهم على من يقول ذلك في عيسى ابن مريم، لا سيما في روح غيره كما ذكره أحمد في كتابه في «الرد على الزنادقة والجهمية»[1].

٢- الكتاب والسنة:

الأدلة من الكتاب والسنة الدالة على خلقها كثيرة، مثل قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد:١٦]، [الزمر:٦٢]، يقول شارح الطحاوية

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: (٤/٢١٦).

عقب استدلاله بهذه الآية: «فهذا عام لا تخصيص فيه بوجه ما»[1] ومن ذلك قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]، وقوله جل وعلا لزكريا: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٩]، والإنسان اسم لروح الإنسان وبدنه، وخطاب الله لزكريا لروحه وبدنه.

يقول ابن تيمية: «الإنسان عبارة عن البدن والروح معاً، بل هو بالروح أخص منه بالبدن، وإنما البدن مطية للروح، كما قال أبو الدرداء: إنما بدني مطيتي، فإن رفقت بها بلغتني، وإن لم أرفق بها لم تبلغني، وقد رواه ابن منده وغيره عن ابن عباس، قال: لا تزال الخصومة يوم القيامة بين الخلق حتى تختصم الروح والبدن، فتقول الروح للبدن: أنت عملت السيئات، فيقول البدن للروح: أنت أمرتني، فيبعث الله ملكاً يقضي بينهما فيقول: إنما مثلكما كمثل مقعد وأعمى دخلا بستاناً، فرأى المقعد فيه ثمراً معلقاً، فقال للأعمى: إني أرى ثمراً ولكن لا أستطيع النهوض إليه، وقال الأعمى: لكني أستطيع النهوض إليه، ولكني لا أراه، فقال المقعد: تعال فاحملني حتى أقطفه، فحمله وجعل يأمره فيسير به إلى حيث يشاء فقطع الثمرة، قال المَلَكُ: فعلى أيهما العقوبة؟ قالا: عليهما جميعاً، قال: فكذلك أنتما»[2].

٣- ذكرنا في بحثنا هذا كثيراً من النصوص عن النبي ﷺ أن الأرواح تقبض، وتوضع في كفن وحنوط تأتي بهما الملائكة، ويصعد بها، وتنعم وتعذب، وتمسك في النوم، وترسل، وكل هذا شأن المخلوق المحدث.

---

(١) شرح الطحاوية: ص (٤٤٢).
(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: (٤/ ٢٢٢).

٤- لو لم تكن مخلوقة مربوبة لما أقرت بالربوبية، وقد قال الله للأرواح حين أخذ الميثاق على العباد، وهم في عالم الذرّ، ألست بربكم؟ قالوا: بلى، وذلك ما قرره الحق في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ ...﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وما دام هو ربهم فإنهم مربوبون مخلوقون.

٥- لو لم تكن الأرواح مخلوقة فإن النصارى لا لوم عليهم في عبادتهم عيسى، ولا في قولهم: إنه ابن الله، أو هو الله.

٦- لو كانت الروح غير مخلوقة فإنها لا تدخل النار ولا تعذب، ولا تحجب عن الله، ولا تغيب في البدن، ولا يملكها ملك الموت، ولما كانت صورة توصف، ولم تحاسب ولم تعذب، ولم تتعبد ولم تخف، ولم ترج، ولأن أرواح المؤمنين تتلألأ، وأرواح الكفار سود مثل الفحم[1].

---

(١) الأدلة الثلاثة الأخيرة استدل بها أبو سعيد الخراز، أحد أكابر المشايخ الأئمة من أقران الجنيد فيما نقله عنه شيخ الإسلام ابن تيمية، انظر مجموع فتاوى (٤/ ٢٢٠).

المبحث السادس
شبهات الذين زعموا أن الروح غير مخلوقة

الذين قالوا: إن الروح غير مخلوقة احتجوا بمثل قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء: ٨٥]، والجواب عن هذا من وجوه:

الأول: أن الروح هنا ليست روح الآدمي، وإنما هو اسم ملك، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا ﴾ [النبأ: ٣٨]، وقال: ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ [المعارج: ٤]، وقال: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم ﴾ [القدر: ٤] وهذا قول معروف مشهور عند علماء السلف في تفسير الآية.

الثاني: وإذا قلنا: إن المراد بالروح هنا روح الآدمي -كما هو قول جمع من علماء السلف في الآية- فليس فيها ما يدل على أن الروح غير مخلوقة، وأنها جزء من ذات الله تعالى كما يقال هذه الخرقة من هذا الثواب، بل المراد أنها تنسب إلى الله، لأنها بأمره تكونت، أو لأنها بكلمته كانت، والأمر في القرآن يذكر ويراد به المصدر تارة، ويراد به المفعول تارة أخرى، وهو المأمور به، كقوله تعالى: ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل: ١] أي: المأمور به، ويمكن أن يقال أيضاً: إن لفظة (مِنْ) في قوله: ﴿ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ لابتداء الغاية، ومعلوم أن (مِنْ) تأتي لبيان الجنس، كقولهم: باب من حديد، وتأتي لابتداء الغاية، كقولهم: خرجت

من مكة، فقوله: ﴿ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ ليس نصاً في أن الروح بعض الأمر ومن جنسه، بل هي لابتداء الغاية إذ كونت بالأمر، وصدرت عنه، وهذا معنى جواب الإمام أحمد في قوله: ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ حيث قال: ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ يقول: من أمره كان الروح، كقوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، ونظير هذا أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

فإذا كانت المسخرات والنعم من الله، ولم تكن بعض ذاته، بل منه صدرت، لم يجب أن يكون معنى قوله في المسيح: ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾، أنها بعض ذاته[1].

الشبهة الثانية: قوله تعالى في آدم: ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ [الحجر: ٢٩]، وقوله في عيسى: ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ [الأنبياء: ٩١]، قالوا: فقد أضاف الله الروح إلى نفسه، وقد أجاب عن هذه الشبهة شارح الطحاوية فقال: «ينبغي أن يعلم أن المضاف إلى الله تعالى نوعان: صفات لا تقوم بأنفسها، كالعلم والقدرة، والكلام والسمع والبصر، فهذه إضافة صفة إلى موصوف بها، فعلمه وكلامه وقدرته وحياته صفات له، وكذا وجهه ويده سبحانه.

والثاني: إضافة أعيان منفصلة عنه، كالبيت والناقة والعبد والرسول والروح كقوله: ﴿ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾ [الشمس: ١٣] وقوله: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١] وقوله: ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ . . .﴾ [الحج: ٢٦] فهذه إضافة مخلوق إلى خالقه، لكن إضافة تقتضي تخصيصاً وتشريفاً، يتميز بها المضاف إلى غيره»[2].

---

(١) للتوسع في هذا المبحث راجع: مجموع فتاوى شيخ الإسلام: (٤/ ٢٢٦-٢٣٥).

(٢) شرح الطحاوية: ص ٤٤٢، وراجع رسالة الروح، ومجموعة الرسائل المنيرية: (٢/ ٣٨).

المبحث السابع
أنواع النفوس

أخبرنا الحق أن النفوس ثلاثة أنواع: النفس الأمارة بالسوء: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ [يوسف: ٥٣]، والنفس اللوامة: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢]، والنفس المطمئنة: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ * ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى * وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠]، وليس المراد أن لكل إنسان ثلاثة نفوس، وإنما المراد أن هذه صفات وأحوال لذات واحدة، فإذا غلب على النفس هواها بفعلها للذنوب والمعاصي فهي النفس الأمارة بالسوء، والنفس اللوامة هي التي تذنب وتتوب، سميت لوامة، لأنها تلوم صاحبها على الذنوب، ولأنها تتلوم، أي: تتردد بين فعل الخير والشر، والنفس المطمئنة هي التي تحب الخير والحسنات وتريدها، وتبغض الشر والسيئات وتكره ذلك، وقد صار ذلك لها خلقاً وعادة وملكة[1].

وقال شارح الطحاوية بعد أن ذكر أنواع النفوس: «والتحقيق: أنها نفس واحدة، لها صفات، فهي أمارة بالسوء، فإذا عارضها الإيمان صارت لوامة، تفعل الذنب ثم تلوم صاحبها، وتلوم بين الفعل والترك، فإذا قوي الإيمان صارت مطمئنة»[2].

---

(١) راجع رسالة العقل والروح لابن تيمية، مجموعة الرسائل المنيرية: (٢/ ٤١).

(٢) شرح الطحاوية: ص ٤٤٥.

المبحث الثامن
هل تموت النفوس؟

يقول ابن تيمية: «والأرواح مخلوقة بلا شك، وهي لا تعدم ولا تفنى، ولكن موتها بمفارقة الأبدان، وعند النفخة الثانية تعاد الأرواح إلى الأبدان»[1].

وقد تعرَّض شارح الطحاوية لهذه المسألة، فقال: «واختلف الناس هل تموت الروح أم لا؟ فقالت طائفة: تموت لأنها نفس، وكل نفس ذائقة الموت، . . وإذا كانت الملائكة تموت، فالنفوس البشرية أولى بالموت، وقال آخرون: لا تموت الأرواح، فإنها خلقت للبقاء، وإنما تموت الأبدان، قالوا: وقد دل على ذلك الأحاديث الدالة على نعيم الأرواح وعذابها بعد المفارقة إلى أن يرجعها الله في أجسادها، والصواب أن يقال: موت النفوس هو مفارقتها لأجسادها وخروجها منها، فإن أريد بموتها هذا القدر، فهي ذائقة الموت، وإن أريد أنها تعدم وتفنى بالكلية فهي لا تموت بهذا الاعتبار، بل هي باقية بعد خلقها في نعيم أو في عذاب، . . وقد أخبر سبحانه أن أهل الجنة ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان: ٥٦]، وتلك الموتة هي مفارقة الروح للجسد»[2].

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: (٤/ ٢٧٩).

(٢) شرح الطحاوية: (ص (٤٤٦).

المبحث التاسع

مستقر الأرواح في البرزخ

أرواح العباد في البرزخ متفاوتة في منازلها، وقد استقرأنا النصوص الواردة في ذلك فأفادتنا التقسيم التالي:

أولاً: أرواح الأنبياء، وهذه تكون في خير المنازل في أعلى عليين، في الرفيق الأعلى، وقد سمعت السيدة عائشة الرسول ﷺ في آخر لحظات حياته يقول: «اللهمَّ الرفيق الأعلى»[(١)].

الثاني: أرواح الشهداء، وهؤلاء أحياء عند ربهم يرزقون، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، وقد سأل مسروق عبد الله بن مسعود عن هذه الآية، فقال: «إنا قد سألنا عن ذلك، فقال: «أرواحهم في أجواف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل» رواه مسلم في صحيحه[(٢)]. وهذه أرواح بعض الشهداء لا كل الشهداء، لأن منهم من تحبس روحه عن دخول الجنة لدين عليه، كما في المسند عن عبد الله بن جحش: أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، مالي إن قتلت في سبيل الله؟ قال: «الجنة»، فلما ولّى، قال: «إلا الدين، سارني به جبريل آنفاً»[(٣)].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب من أحب لقاء الله، فتح الباري: (١١/ ٣٥٧).

(٢) مشكاة المصابيح: (٢/ ٣٥١)، وللحديث تتمة.

(٣) قال الشيخ ناصر الدين الألباني في تعليقه على شرح الطحاوية: ص ٤٤٥ (صحيح)، وقد سقنا من=

الثالث: أرواح المؤمنين الصالحين: تكون طيوراً تعلق في شجر الجنة، ففي الحديث الذي يرويه عبد الرحمن بن كعب بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «إنما نسمة المسلم طير يعلق في شجر الجنة، حتى يرجعها الله إلى جسده إلى يوم القيامة» رواه أحمد[1].

والفرق بين أرواح المؤمنين وأرواح الشهداء، أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح متنقلة في رياض الجنة، وتأوي إلى قناديل معلقة في العرش، أما أرواح المؤمنين فإنها في أجواف طير يعلق ثمر الجنة ولا ينتقل في أرجائها. وكون أرواح المؤمنين في أجواف طير يعلق شجر الجنة لا يشكل عليه الحديث الآخرالذي يرويه أبو هريرة عن الرسول ﷺ، وفيه أن الملائكة تقبض روح العبد المؤمن، وترقى به إلى السماء، فتقول الملائكة: «ما أطيب هذه الريح التي جاءتكم من الأرض، فيأتون به أرواح المؤمنين، فلهم أشدُّ فرحاً من أحدكم بغائبه يقدم عليه، فيسألونه: ماذا فعل فلان؟ ماذا فعل فلان؟ فيقولون: دعوه، فإنه كان في غم الدنيا، فيقول: قد مات، أما أتاكم؟ قالوا: ذهب به إلى أمه الهاوية»[2]، فإن روح المؤمن تلتقي بأرواح المؤمنين في الجنة.

الرابع: أرواح العصاة: سبق أن أوردت النصوص التي تبين ما يلاقيه العصاة من العذاب، فمن ذلك أن الذي يكذب الكذبة تبلغ الآفاق يعذب

= قبل أكثر من حديث في هذا المعنى.

(١) أورده الشيخ ناصر الدين الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٢/ ٧٣٠)، حديث رقم (٩٩٥)، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ورواه ابن ماجة في سننه، ومالك في موطئه، والنسائي بلفظ: (إن أرواح المؤمنين في أجواف طير خضر، تعلق بشجر الجنة).

(٢) رواه النسائي، كتاب الجنائز، باب ما يلقى المؤمن من الكرامة عند خروج نفسه: (٤/ ٨).

بكلوب من حديد يدخل في شدقه حتى يبلغ قفاه، والذي نام عن الصلاة المكتوبة يشدخ رأسه بصخرة، والزناة والزواني يعذبون في ثقب مثل التنور، ضيق أعلاه، وأسفله واسع، توقد النار من تحته، والمرابي يسبح في بحر من دم، وعلى الشط من يلقمه حجارة[1]. وقد ذكرنا الأحاديث التي تتحدث عن عذاب الذي لم يكن يستنزه من بوله، والذي يمشي بالنميمة بين الناس، والذي غلَّ من الغنيمة ونحو ذلك.

الخامس: **أرواح الكفار**: في حديث أبي هريرة عند النسائي بعد وصف حال المؤمن إلى أن يبلغ مستقره في الجنة، ذكر حال الكافر، وما يلاقيه عند النزع، وبعد أن تقبض روحه «تخرج منه كأنتن ريح، حتى يأتون به باب الأرض، فيقولون: ما أنتن هذه الريح، حتى يأتون به أرواح الكفار»[2].

---

(١) سبق أن سقنا هذا الحديث بطوله، انظر ص (٦٤-٦٥)، والحديث رواه البخاري في صحيحه.

(٢) رواه النسائي، كتاب الجنائز، باب ما يلقى المؤمن من الكرامة عند خروج نفسه، (٤/٨).

المبحث العاشر
إشكال وجوابه

قد يقال: سقت من النصوص ما يدل على أن الأرواح تعاد إلى الأبدان، ثم تُسأل، وبعد ذلك ينعم المؤمن، ويعذب الكافر، فكيف تقول بعد ذلك: إن نسم المؤمنين في الجنة، ونسم الكفار في النار؟

حاول ابن حزم أن يضعف الأحاديث التي تذكر إعادة الروح إلى البدن في القبر، ولكن ليس الأمر كذلك، فإن ما ضعفه ابن حزم وهو حديث زاذان عن البراء حديث صحيح، وهناك أحاديث كثيرة صحيحة متواترة تدل على عود الروح إلى البدن كما يقول ابن تيمية[1].

وفي التوفيق بين النصوص يقول ابن تيمية: «وأرواح المؤمنين في الجنة، وإن كانت مع ذلك قد تعاد إلى البدن، كما أنها قد تكون في البدن، ويعرج بها إلى السماء كما في حال النوم، أما كونها في الجنة ففيه أحاديث عامة، وقد نص على ذلك أحمد وغيره من العلماء، واحتجوا بالأحاديث المأثورة العامة وأحاديث خاصة في النوم وغيره»[2].

ثم ذكر بعض هذه الأحاديث التي سقناها من قبل، وأورد حديث أبي هريرة الذي رواه ابن حبان وغيره، والذي يذكر فيه أن المؤمن يرى بعد السؤال مقعده من الجنة، ومقعده من النار لو كان كافراً، قال: «ثم يفسح

---

(١) مجموع الفتاوى: (٥/٤٤٦).

(٢) المرجع السابق: (٥/٤٤٧).

له في قبره سبعون ذراعاً، وينور له فيه، ويعاد جسده كما بدىء، وتجعل نسمته في نسم طيب، وهي طير تعلق في شجر الجنة»، وفي لفظ: «وهو طير يعلق في شجر الجنة»، وفي لفظ: «ثم يعاد جسده إلى ما بدىء منه»[1] فالروح -كما يدل عليه الحديث تعاد إلى الجسد بعد الرحلة إلى السماء، ثم تسأل، ثم تكون طيراً يعلق بشجر الجنة إلى أن يبعث العباد، ومع كونها في الجنة فإنه يبقى لها تعلق بالجسد، كحال الإنسان في النوم، فإنها تجول في ملكوت السماوات والأرض، مع أن لها تعلق بالجسد، وفقه هذا مبني على معرفة أن الروح مخالفة للأجساد وللمعهود من حال المخلوقات الدنيوية، يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى بعد أن ذكر أن مستقر أرواح المؤمنين الجنة: «ومع ذلك تتصل بالبدن متى شاء الله تعالى، وهي في تلك[2] اللحظة بمنزلة نزول الملك، وظهور الشعاع في الأرض، وانتباه النائم»[3].

---

(١) انظر مجموع الفتاوى: (٥/٤٤٨).

(٢) في الأصل: وذلك في اللحظة.

(٣) مجموع الفتاوى: (٢٤/ ٣٦٥).

المبحث الحادي عشر

هل العذاب في البرزخ على الروح أم على البدن أم على كليهما

الفِرَقُ الإسلامية في هذا الموضوع على أقوال:

الأول: مذهب أهل السنة والجماعة أن الروح منفصلة عن الجسد، ومتصلة به، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «العذاب والنعيم على النفس والبدن جميعاً باتفاق أهل السنة والجماعة، تنعم النفس وتعذب منفردة عن البدن، وتعذب متصلة بالبدن، والبدن متصل بها، فيكون النعيم والعذاب عليهما في هذه الحال مجتمعين، كما يكون للروح مفردة عن البدن».

الثاني: قول كثير من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم الذين ينكرون النعيم والعذاب في البرزخ مطلقاً، والسِّر في ذلك أنهم ينكرون وجود روح مستقلة عن الجسد، فالروح عندهم هي الحياة، ولا تبقى الروح في نظرهم بعد الموت[1]، فلا نعيم ولا عذاب حتى يبعث الله العباد، قال بذلك بعض المعتزلة والأشاعرة كالقاضي أبي بكر، وهذا قول باطل لا شك في بطلانه خالفه أبو المعالي الجويني، وقد نقل غير واحد من أهل السنة الإجماع على أن الروح تبقى بعد فراق البدن وأنها منعمة أو معذبة.

---

(١) هؤلاء وإن أنكروا عذاب القبر إلا أنهم يثبتون معاد الأبدان.

الثالث: قول الفلاسفة الذين يرون أن النعيم والعذاب على الروح وحدها، وأن البدن لا ينعم ولا يعذب[1]، وقد قال بهذا القول من أهل السنة ابن ميسرة، وابن حزم.

الرابع: قول من قال من علماء الكلام: إن الذي ينعم ويعذب في القبر البدن وحده، وقال بذلك طائفة من أهل الحديث منهم ابن الزاعوني[2].

---

(١) وهؤلاء وإن أثبتوا عذاباً ونعيماً للروح بعد فراقها للبدن إلا أنهم ينكرون المعاد.

(٢) راجع في هذه المسألة مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: (٤/ ٢٦٢-٢٨٢).

المبحث الثاني عشر

هل يعلم الإنسان شيئاً عن أحوال الدنيا بعد موته

ثبت في الأحاديث الصحيحة أن الميت يسمع قرع نعال أصحابه، بعد وضعه في قبره، حال انصرافهم، فعن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد إذا وضع في قبره، وتولى عنه أصحابه، إنه ليسمع قرع نعالهم. .»[1] ووقف الرسول ﷺ بعد ثلاثة أيام من معركة بدر على قتلى بدر من المشركين، فنادى رجالاً منهم، فقال: «يا أبا جهل بن هشام، يا أمية بن خلف، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً» فقال عمر بن الخطاب: «يا رسول الله ! كيف يسمعوا أنى يجيبوا وقد جيفوا ؟!»[2] قال: «والذي نفسي بيده ! ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا، ثم أمر بهم فسحبوا، فألقوا في قليب بدر»[3].

وقد ساق ابن تيمية جملة من الأحاديث التي تدل على أن الموتى يسمعون، ثم قال: «فهذه النصوص وأمثالها تُبين أن الميت يسمع في

---

(١) رواه مسلم، كتاب الجنة، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه (٤/ ٢٢٠٣) حديث رقم (٢٨٧٤).

(٢) أي: أنتنوا، وصاروا جيفاً.

(٣) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر، ورواه مسلم في كتاب الجنة، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه (٤/ ٢٢٠٠). حديث رقم (٢٨٧٠) ورواه أبو داود والنسائي أيضاً، أنظر جامع الأصول: (١١/ ١٨٠).

الجملة كلام الحي، ولا يجب أن يكون السمع له دائماً، بل قد يسمع في حال دون حال، كما قد يعرض للحي، فإنه يسمع أحياناً خطاب من يخاطبه، وقد لا يسمع لعارض يعرض له»[1]. وقد أجاب شيخ الإسلام على إشكال من يقول: إن الله نفى السماع عن الميت في قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [النمل: ٨٠]، وكيف تزعمون أن الموتى يسمعون؟ فقال: «وهذا السمع سمع إدراك، ليس يترتب عليه جزاء، ولا هو السمع المنفي بقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [النمل: ٨٠]، فإن المراد بذلك سمع القبول والامتثال، فإن الله جعل الكافر كالميت الذي لا يستجيب لمن دعاه، وكالبهائم التي تسمع الصوت، ولا تفقه المعنى، فالميت وإن سمع الكلام وفقه المعنى، فإنه لا يمكنه إجابة الداعي، ولا امتثال ما أمر به، ونهى عنه، فلا ينتفع بالأمر والنهي، وكذلك الكافر لا ينتفع بالأمر والنهي، وإن سمع الخطاب، وفهم المعنى، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣]»[2].

وقد جاءت النصوص دالة أيضاً على أن الميت مع سماعه يتكلم، فإن منكراً ونكيراً يسألانه، فالمؤمن يوفق للجواب الحق، والكافر والمنافق يضل عن الجواب، ويتكلم أيضاً في غير سؤال منكر ونكير، وكل هذا مخالف لما عهده أهل الدنيا من كلام، فإن الذي يسأل ويتكلم الروح، وهي التي تجيب وتقعد وتعذب وتنعم، وإن كان لها نوع اتصال بالجسد، وقد سبق القول أن بعض الناس قد يسمعون الكلمة من الميت، وأن الرسول ﷺ كان يسمع من هذا شيئاً كثيراً.

---

(١) مجموع الفتاوى: (٥/ ٣٦٤).

(٢) مجموع الفتاوى: (٥/ ٣٦٤).

الباب الثاني

أشراط الساعة

الفصل الأول
وقت الساعة

المبحث الأول
الساعة آتية لا ريب فيها

الإيمان بيوم القيامة أصل من الأصول، لا يتم الإيمان إلا به: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٦٢].

وقد ساق القرآن ضروباً متنوعة من الأساليب البيانية الراقية كي يؤكد وقوعها في نفوس العباد: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢]. ففي بعض المواضع يكون الحديث عنها خبراً مجرداً ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الروم: ١١] ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾ [النور: ٦٤].

ومرة يؤكد وقوعها (بأن) كقوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ [طه: ١٥]، ومرة (بإن) واللام ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥]. ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٥]. وفي بعض المواضع ينفي الريب والشك عن وقوعها ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا

وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [غافر: ٥٩].

وفي بعض الآيات يقسم الحق على أنها آتية واقعة، مرة بنفسه، ومرة بمخلوقاته العظيمة، فمن إقسامه بنفسه ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [النساء: ٨٧]، ومن إقسامه بالعظيم من مخلوقاته قوله: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا * فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا * فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا * فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ [الذاريات: ١-٦]، وقوله ﴿وَٱلطُّورِ * وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ * فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ * وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ * وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ * وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ * مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ [الطور: ١-٨].

وفي بعض المواضع يأمر رسوله في مجال الحِجَاج والخصام بالإقسام بربه مؤكداً وقوعها ﴿۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ: ٣] وفي بعض الآيات يخبر بأنها حق ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [لقمان: ٣٣] ومن تتبع طريقة القرآن في تأكيد الإخبار بها تحصل عنده أنواع كثيرة، وقد ذكرنا طائفة منها[1].

(١) قد يجتمع في الآية أكثر من مؤكد، وإذا تأملت النصوص التي سقناها ظهر لك هذا وتبين.

المبحث الثاني
الساعة قريبة

أعلن رب العزة لعباده في كتابه المنزل منذ أربعة عشر قرناً أن الساعة قد اقتربت، وآن أوان وقوعها ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١]، وانشقاق القمر إحدى الأمارات الدالة على قرب وقوعها، ولما كانت الساعة قد اقتربت قرباً عظيماً فإن القرآن يصور أنها أتت وحضرت ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١].

ولو كان البشر يوقنون بما أنزل الله بقلب مبصر، وعقل حاضر مدرك لَهَالَهُم الأمر، وملك عليهم نفوسهم، ولذلك كان حالهم عجباً، الخطر قريب قريب، ومع ذلك فإنهم غافلون عن الهول الذي يكاد يطبق عليهم، ويحيط بهم ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١-٣]، ولذا فإنه قد كثر في القرآن تحذير العباد من الساعة، والأمر بالاستعداد لها، وعبر عنها بالغد، وهو اليوم التالي لليوم الذي تعيش فيه ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨].

قد يقال: كيف يكون قريباً ما مضى على الإخبار بقرب وقوعه ألف وأربعمائة عام؟ والجواب أنه قريب في علم الله وتقديره، وإن كانت المقاييس البشرية تراه بعيداً، ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا * وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٦-٧].

والأمر الذي ينبغي أن ينتبه إليه أن الباقي من الدنيا قليل بالنسبة لما مضى منها، فإنك إذا وضعت لمن لك عليه دين أجلاً طويلاً، كأن توجله خمسين عاماً مثلاً، فإذا انقضى من الخمسين خمسة وأربعون، فيكون موعد السداد قد اقترب بالنسبة لما مضى من الموعد المضروب.

والأحاديث النبوية الشريفة تشير إلى هذه الحقيقة التي بيناها هنا، ففي صحيح البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إنما أجلكم فيمن مضى قبلكم من الأمم من صلاة العصر إلى مغرب الشمس» وفي لفظ: «إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس».

إن الحديث يمثل الوجود الإنساني بيوم من أيام الدنيا، ابتدأ وجود الأمة الإسلامية فيه عند العصر، فيكون الماضي من عمر الوجود الإنساني بنسبة ما مضى من ذلك اليوم من الفجر إلى العصر، ويكون الباقي من عمر الزمن حتى تقوم الساعة كما بين العصر والمغرب، ذلك أن النصوص صريحة الدلالة على أننا آخر الأمم وجوداً، وأن نهاية وجود هذه الأمة يتحقق بقيام الساعة.

وجاء في حديث آخر يرويه البخاري ومسلم عن سهل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين، ويشير بأصبعيه فيمدهما»، ورواه مسلم عن سهل بلفظ: «سمعت رسول الله ﷺ يشير بإصبعه التي تلي الإبهام والوسطى وهو يقول: «بعثت أنا والساعة هكذا»[1].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب قول النبي ﷺ: (بعثت أنا والساعة كهاتين) فتح=

والمعنى أننا لو قدرنا عمر الزمن بالأصبع الوسطى، فإن ما بقي منه عند مبعث الرسول ﷺ يكون بمقدار ما تزيد الوسطى عن السبابة، وما مضى منه بمقدار السبابة من الأصبع الوسطى، قد يكون الباقي في حِسِّ البشر طويلاً، لأن إدراكهم محدود، ونظرتهم قاصرة، ولكنه في ميزان الله قريب وقصير ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧].

وروى الإمام أحمد عن عتبة بن غزوان قال: خطبنا رسول الله ﷺ، قال: فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد فإن الدنيا قد آذنت بصرم، وولت حذاء، ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء يتصابها صاحبها، وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها، فانتقلوا منها بخير ما يحضرنكم. . .» انفرد به مسلم[1].

= الباري: (١١/ ٣٤٧)، ورواه مسلم في كتاب الفتن، باب قرب الساعة: (٤/ ٢٤٦٨) ورقمه: (٢٩٥٠)، وقد رواه البخاري ومسلم أيضاً عن أنس رضي الله عنه.

(١) تفسير ابن كثير: (٦/ ٤٦٨).

المبحث الثالث

لا يعلم أحد وقت الساعة المعين

سئل الرسول ﷺ عن الساعة، فقال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل» وكان السائل جبريل متمثلاً في صورة بشر، فإذا كان أعلى الملائكة منزلة، وهو جبريل، وأعلى البشر منزلة وهو محمد ﷺ لا يعلمان متى تكون -فحَريّ بأن لا يعرف أحد غيرهما وقت وقوعها.

وقد صرح القرآن أن وقت وقوعها من خصائص علم الله، ولذا فإنه لم يطلع أحداً على وقت وقوعها، لا ملكاً مقرباً، ولا نبياً مرسلاً، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقال في الآية الأخرى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا * فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ * إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٤٢-٤٤].

وهذه الآيات واضحة الدلالة على أن معرفة الوقت الذي تكون فيه الساعة لا يعرفه إلا رب العزة، وأنها تأتي بغتة، وأن الرسول ﷺ لا يدري متى هي.

والساعة إحدى مفاتح الغيب الخمسة التي هي من مكنونات علم الله

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: ٣٤].

وفي صحيح البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ، قال: «مفاتح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله، ثم تلا هذه الآية ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ [لقمان: ٣٤]»[1].

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب: (٣٧).

المبحث الرابع

الحكمة من وراء إخفاء وقت وقوعها

قد يتساءل البشر قائلين: ما الحكمة من وراء إخفاء الوقت الذي تحل فيه الساعة، وتقوم فيه القيامة؟ والجواب أن إخفاءها له تعلق بصلاح النفس الإنسانية، فوقوعها غيب، والأمر العظيم الذي يستيقن المرء وقوعه، ولكنه لا يدري متى يفجؤه، ويحل فيه بساحه -يجعل المرء مترقباً له باستمرار.

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله تعالى: «والمجهول عنصر أساسي في حياة البشر، وفي تكوينهم النفسي، فلا بدَّ من مجهول في حياتهم يتطلعون إليه، ولو كان كل شيء مكشوفاً لهم، وهم بهذه الفطرة -لوقف نشاطهم- وأسنت حياتهم، فوراء المجهول يجرون، فيحذرون، ويأملون، ويجربون، ويتعلمون. ويكشفون المخبوء من طاقاتهم وطاقات الكون من حولهم وتعليق قلوبهم ومشاعرهم بالساعة المجهولة الموعد يحفظهم من الشرود، فهم لا يدرون متى تأتي الساعة، فهم من موعدها على حذر دائم، وعلى استعداد دائم، ذلك لمن صحت فطرته واستقام، فأما من فسدت فطرته واتبع هواه فيغفل ويجهل، فيسقط ومصيره إلى الردى»[1].

---

(١) اليوم الآخر في ظلال القرآن، جمع وإعداد أحمد فائز: ص ٩٨.

المبحث الخامس
لا يجوز الاشتغال في تحديد وقتها

تساءل الناس عن وقت الساعة كثيراً، ووجهوا أسئلتهم للرسول ﷺ، وجاء الجواب من منزل الكتاب، إن الساعة غيب، ومعرفة الزمن الذي تقع فيه من خصائص علم الله، ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣] ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا * فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ * إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ * إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٢-٤٥].

إن هذا العلم لم يطلع الله عليه ملكاً مقرباً، ولا نبياً مرسلاً، ولذلك قال الرسول ﷺ لجبريل حينما سأله عن الساعة «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل».

فالبحث في هذا الأمر، والزعم أن الساعة ستقع في عام بعينه تَـقَوُّل على الله بغير علم، والخائضون في ذلك مخالفون للمنهج القرآني النبوي الذي وجه الناس إلى ترك البحث في هذا الموضوع، ودعاهم إلى الاستعداد لهذا اليوم بالإيمان والعمل الصالح.

والذين يبحثون في هذا المجال يظنون أنه يمكنهم أن يعلموا ما لم يعلمه الرسول ﷺ وجبريل عليه السلام، وكفى بذلك واعظاً ورادعاً لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد، ونحن نقول لهم: ينبغي أن يسعكم ما وسع الرسول ﷺ وأصحابه وأئمة هذه الأمة على مدار التاريخ،

ولو كان في معرفة الوقت صلاح وخير للبشر، لأخبر الله به البشر، ولكنه حجب ذلك عنهم، وفي ذلك صلاحهم.

وينبغي للاحقين أن يتعظوا بحال السابقين، فبعض السابقين خاض في هذا الأمر، وحدد للساعة أو بعض أشراطها القريبة من وقوعها أجلاً، وجاء الأجل الذي ضربه، ولم يحدث شيء من ذلك، لا الساعة ولا أشراطها المحددة، فمن هؤلاء الطبري رحمه الله وغفر له، فإنه استظهر من بعض النصوص أن فناء الدنيا يكون بعد خمسمائة عام من البعثة المحمدية[1]، وها هو قد مرّ أكثر من تسعمائة عام على الأجل الذي ضربه، ولم يصدق ظنه.

ومن هؤلاء العلامة السيوطي عفا الله عنه، فإنه استظهر في جزء سماه «الكشف» أن الساعة ستقوم على رأس المائة الخامسة بعد الألف من البعثة النبوية[2]، وعلى ذلك فإنه بقي على قيام الساعة بضع عشرات من السنين، مع أن كثيراً من الآيات الصغرى لم يقع بعد، أما الكبرى فلم يقع منها شيء.

وجمع السهيلي الحروف المقطعة في أوائل السور، وحذف المكرر منها، وأخذ عددها بحساب الجمل، وحدد بناء على ذلك أجلاً لا يبلغ بضع مئات من السنين[3].

وقد تَـقَـوّل كثير من الناس في هذا وخبطوا خبطاً لا دليل عليه، وإنما

---

(١) المقدمة لابن خلدون: ص ٥٩٠.

(٢) لوامع الأنوار البهية: (٢/٦٦).

(٣) المقدمة لابن خلدون: ص ٥٩١.

هي ظنون وتخرصات، وآخر ما اطلعت عليه في ذلك ما كتبه دكتور بهائي مدعياً أن الساعة ستقع في عام (١٧١٠)، وقد زعم أنه استقى ذلك من الأرقام العددية للحروف المقطعة التي افتتحت بها بعض سور القرآن، ونحن نقول: إن هذا النهج قد ثبت خطؤه، وقد اعتمد بعض من سبق على هذا النهج، وحددوا أجلاً غير أجله، فوافقوه في النهج، وخالفوه في تحديد الأجل، وثبت كذب ما ذهبوا إليه.

وقد تعرض الشيخ العلامة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وأجزل له المثوبة للذين بحثوا في هذا الأمر وخاضوا فيه، وحددوا في ذلك أجلاً، فقال: «ومن تكلم في وقتها المعين مثل الذي صنف كتاباً «سماه» «الدر المنظم في معرفة الأعظم» وذكر فيه عشر دلالات بين فيها وقتها، والذين تكلموا على ذلك من حروف المعجم، والذي تكلم في «عنقاء مُغْرب»[١]، وأمثال هؤلاء، فإنهم وإن كان لهم صورة عظيمة عند اتباعهم، فغالبهم كاذبون مفترون[٢]، وقد تبين لديهم من وجوه كثيرة أنهم يتكلمون بغير علم، وإن ادعوا في ذلك الكشف ومعرفة الأسرار، وقد قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[٣] [الأعراف: ٣٣]. ولا شك أن دعوى معرفة وقتها المحدد قول بلا علم.

---

(١) هو ابن عربي القائل بوحدة الوجود.

(٢) قال الشيخ: (غالبهم) لأن بعض الذي بحثوا في ذلك أخطؤوا، ولم يقصدوا التضليل، أمثال الطبري والسيوطي رحمهما الله.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: (٤/ ٣٤٢).

المبحث السادس
إشكالات تتعلق بتحديد وقت الساعة

بينا فيما سبق أن وقت القيامة غيب لا يعلمه إلا الله، ولكن يشكل على هذا أحاديث ظن بعض الناس أنها تحدد موعدها، وهذه الأحاديث بعضها غير صحيح فلا يلتفت اليها، ولا يجوز أن تعارض بها النصوص القطعية الثبوت القطعية الدلالة، ومنها أحاديث صحيحة، ولكن دلالتها على تحديد يوم القيامة غير صريحة.

فمن الأحاديث الباطلة المكذوبة المخالفة لصريح القرآن -كما يقول العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى- حديث مقدار الدنيا «وأنها سبعة آلاف سنة، ونحن في الألف السابعة».

يقول ابن القيم: «وهذا من أبين الكذب، لأنه لو كان صحيحاً لكان كل أحد عالماً أنه قد بقي من وقتنا هذا مئتان وواحد وخمسون سنة «أي في الوقت الذي كان يكتب فيه الشيخ ابن القيم مؤلفه» والله تعالى يقول: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٨٧][1].

أقول: ومما يدل على كذب هذا الحديث قطعاً أن الألف السابعة هذه مضت وانقضت منذ أربعمائة سنة، وكثير من أشراط الساعة لم يقع بعد.

---

(١) المنار المنيف، لابن القيم: ص ٨٠.

ومن الأحاديث الصحيحة التي لا تدل على تحديد يوم القيامة ما رواه مسلم عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قبل أن يموت بشهر: «تسألوني عن الساعة، وإنما علمها عند الله، وأقسم بالله ما على الأرض من نفس منفوسة اليوم يأتي عليها مائة سنة وهي حية يومئذ»[1].

وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: صلى بنا رسول الله ﷺ ذات ليلة العشاء في آخر حياته، فلما سلَّم قال: «أرأيتكم ليلتكم هذه، فإن على رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد»[2].

إن التأمل في هذين الحديثين يدل دلالة واضحة على أن الرسول ﷺ لم يرد في أقواله هذه قيام الساعة، وإنما أراد انقضاء القرن الذي هو فيه، أي أنه بعد مائة عام يموت كل من كان حياً عندما قال الرسول ﷺ ما قال، وقد فقه هذا المعنى ابن عمر رضي الله عنه، وفقَّه الناس به عندما ذهبوا مذاهب شتى في فهم معنى قول الرسول ﷺ، ففي سنن الترمذي وسنن أبي داود بعد سياق عبد الله بن عمر لحديث الرسول ﷺ السابق، قال: «فوهل الناس[3] في مقالة الرسول ﷺ تلك، فيما يتحدثونه بهذه الأحاديث: نحو مائة سنة، وإنما قال رسول الله ﷺ: «لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد، يريد بذلك: أن ينخرم القرن»[4].

---

(١) جامع الأصول: (١٠/ ٣٨٧)، ورقم الحديث: (٧٨٩٠) ومعنى: نفس منفوسة: أي مولودة.

(٢) جامع الأصول: (١٠/ ٣٨٨)، ورقم الحديث: (٧٨٩١).

(٣) الوهل: الفزع. أو ذهاب الفكر مذاهب بعيدة عن المراد.

(٤) صحيح الجامع: (١٠/ ٣٨٨)، ورقم الحديث: (٧٨٩١).

وفي صحيح البخاري وصحيح مسلم عن عائشة، قالت: «كان الأعراب إذا قدموا على رسول الله ﷺ، سألوه عن الساعة، متى الساعة؟ فينظر إلى أحدث إنسان منهم، فيقول: إن يعش هذا، إن يدركه الهرم، حتى قامت عليكم الساعة» قال هشام: يعني موتهم[1].

وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه، «أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: متى الساعة؟ فسكت رسول الله ﷺ هنيهة، ثم نظر إلى غلام بين يديه من أَزْد شَنُوءَة، فقال: إن عُمِّر هذا الغلام، لم يدركه الهرم حتى تقوم الساعة، قال أنس: وذلك الغلام من أترابي يومئذ»[2]. ومراد الرسول ﷺ في هذين الحديثين ساعة المخاطبين، كما فسر ذلك هشام أحد رواة الحديث الأول: يعني موتهم، فإن ساعة كل إنسان موته، وهذا الجواب من الرسول ﷺ يعرف بجواب الحكيم، فإنه أرشدهم إلى الاستعداد للموت والتأهب له، والموت قريب قريب.

---

(١) جامع الأصول: (١٠/ ٣٨٩)، ورقمه: (٧٨٩٢).

(٢) جامع الأصول: (١٠/ ٣٨٩)، ورقمه: (٧٨٩٣).

المَبحَث السَّابِع

تعريف الأشراط والآيات

إذا كان الله قد أخفى وقت وقوع الساعة عن عباده، فإنه أعلمهم بأمارات وعلامات تدل على قرب وقوعها.

وقد سمى القرآن هذه الأمارات بأشراط الساعة، قال تعالى: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ [محمد: ١٨].

و (الشَرَط) بفتحتين: العلامة، وأشراطها: علاماتها[١]. وفي فتح الباري: «المراد بالأشراط: العلامات التي يعقبها قيام الساعة»[٢].

وقد أطلق بعض العلماء على هذه الأشراط اسم: «الآيات».

و «الآيات» هي الأمارات الدالة على الشيء، كالأمارات التي تنصب في الصحراء دالة على الطريق، أو العلامات التي ترفع على شواطىء البحر، تهدي السفن التي تمخض عباب الماء، أو تلك التي توضع قريباً من المدن لتدل المسافر على قرب وصوله إلى الديار التي وضعت بقربها.

يقول الطيبي: «الآيات: إمارات للساعة، إما على قربها، وإما على حصولها. فمن الأول: الدجال، ونزول عيسى، ويأجوج ومأجوج، والخسف. ومن الثاني: الدخان، وطلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة، والنار التي تحشر الناس»[٣].

---

(١) مختار الصحاح: ٣٢٤.

(٢) فتح الباري: (١٣/ ٧٩).

(٣) فتح الباري: (١١/ ٣٥٢).

المبحث الثامن

فائدة البحث في الأشراط والمغيبات المستقبلة

قد يقول قائل: لقد أتعبتم أنفسكم في النظر في أمور فائدتها قليلة، والأولى بكم أن تهتموا بأمور المسلمين ومشكلاتهم، بدلاً من قضاء الأوقات الطوال في البحث عما يجري في مقبل الأزمان من الوقائع والحادثات. وقالوا: إنكم تهربون من الواقع الذي تعيشون فيه إلى عالم آخر تأملون أن تعيشوا فيه، أو تخشوا أن يأتي عليكم، وهذا هروب من مواجهة الحقائق والصعاب.

ونحن نقول لهم: ليس لنا خيار في دراسة الغيوب المستقبلة أو إهمالها، فالأمر ليس لنا، فالاطلاع على هذه الغيوب والتصديق بها من صميم الدين الذي جاء به رسولنا ﷺ، أخبر ببعض منها القرآن، وبعضها جاءت به السنة النبوية، وعَلِم ذلك كله الصحابة، وشغلوا به أنفسهم، واهتموا به اهتماماً كبيراً، وكان الإيمان بالغيب أول صفة مدح الله بها المتقين المهتدين الفائزين ﴿الٓمٓ * ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ١-٣] صحيح أن كثيراً من المسلمين شغلوا أنفسهم بالأخبار الغيبية التي لم يقم عليها دليل من الكتاب والسنة، وأغرق في ذلك بعض الذين نسبوا إلى العلم، ولكن الاشتغال بالنصوص الصحيحة هو جزء من هذا الدين الذي أنزله العليم الخبير.

ويمكننا أن نلوم الذين قعد بهم العمل من المسلمين انتظاراً لحدوث الواقعات التي أخبر بها الرسول ﷺ كالذين يتركون الجهاد انتظاراً لخروج المهدي، ولكن هذا خطأ يحتاج إلى تقويم، ولا يوجب ترك النصوص الصحيحة، فإن سلفنا الصالح مع إيمانهم بالغيب الصادق، لم يقعدوا عن الجهاد، ولم يتركوا العمل.

ويمكن أن يوجه لوم شديد للذين ينزلون ما أخبر به الرسول ﷺ من الغيوب على غير وقائعها، فيحملون النصوص ما لا تحتمل، ويدعون دعاوي يضلون بها العباد، كالذين ادعوا المهدية على مدار التاريخ، إلا أن هذا خطأ هؤلاء، والخطأ يقوَّم، ولا يدفعنا هذا الخطأ إلى إنكار ما صحت به النصوص، فالحق حق، والباطل باطل، ولا ندفع الباطل بإنكار الحق.

والذين ينكرون علينا اشتغالنا بهذه النصوص الصحيحة في هذا الجانب نُوجِّه أنظارهم إلى الجهود الهائلة التي يبذلها العلماء المعاصرون للكشف عن الغيب المجهول في الماضي البعيد، والغيب المجهول في الحادثات المقبلة، والغيب المجهول في الفضاء الذي يحيط بنا، ولذلك نراهم يبحثون في آثار الماضين، وما أبقوه من كتابات وصنائع وخرائب، ونراهم يهتمون بما يقوله المتنبئون والكهان والعرافون، وما يقوله هؤلاء كذب لا تكاد تجد فيه للحقيقة مكان، ونراهم يصنعون المناظر المكبرة، والمراصد الهائلة، بل ويرسلون الأقمار الصناعية لريادة الفضاء، كي يعلموا ما لا يعلمون، فإذا كان هذا هو حال البشر، يرغبون دائماً في التعرف على ما لا يعرفون، ومعرفة الماضي والآتي، ومعرفة الكون من حولهم، أفلا يكون الإطلاع على حقائق الأمور من الجهة التي لا تكذب أبداً أولى وأحرى !! إن المعلومات التي جاءت بها النصوص في هذا المجال معلومات قيمة لا

تقدر بثمن، ولكن البشرية تكابر كثيراً عندما ترفض الأخذ بخبر الوحي الصادق، وتخسر كثيراً عندما تعرض عن هذه العلوم الطيبة، ثم إن أقواماً يريدوننا أن نبتعد عن دراسة هذا المجال من خلال نصوص الوحي، بينما -هم- يلهثون وراء الأخبار التي يأتيهم بها علماء الغرب في هذا المجال، وإن كان فيها خلط كثير، وكذب كثير.

ويمكننا أن نوجز الفوائد التي نحصل عليها من وراء دراسة الأخبار التي تحدث بأشراط الساعة والمغيبات المستقبلة في الأمور التالية:

١- الإيمان بهذه الأخبار -إذا تحققنا صدقها- هو من الإيمان بالله، والإيمان برسوله، إذ كيف نؤمن بالله ورسوله ثم لا نصدق بخبرهما !! ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٢-٣].

٢- وقوع تلك المغيبات على النحو الذي حدثت به الأخبار يثبت الإيمان ويقويه، فالمسلمون في كل عصر يشاهدون وقوع أحداث مطابقة لما أخبرت به النصوص الصادقة، فقد شاهد الصحابة انتصار الروم على الفرس، ثم انتصر المسلمون على الفرس والروم، وظهر الإسلام على جميع الأديان، وشاهدوا فرقة الأمة في العام الذي حدده الرسول ﷺ، وشاهدوا كثيراً من الأحداث على النحو الذي أخبرت به النصوص، وكذلك الحال في كل عصر، يشاهد المسلمون وقائع وأحداثاً جاءت بها الأخبار، ولا شك أن هذا له أثر كبير في تثبيت المؤمن على إيمانه، وقد يكون ذلك مدخلاً لدعوة الآخرين إلى هذا الحق الذي جاءنا من ربنا.

٣- تثبيت الإيمان بيوم القيامة، فالقيامة وأهوالها من الغيب الذي أخبرنا

به الله ورسوله، والإيمان بها إحدى دعائم الإيمان، ووقوع الوقائع في الدنيا على النحو الذي جاءت به النصوص دليل واضح بَـيِّن على صدق كل الأخبار ومنها أخبار الساعة. فالكل من عند الله تبارك وتعالى.

٤- بعث الله رسوله دالاً على الخير محذراً من الشر، وقد دل الرسول ﷺ أصحابه على المنهج الأمثل الذي ينبغي أن يسلكوه في الوقائع التي وقعت في عصره.

وفي إخباره بالمغيبات المقبلة توجيه للذين جاؤوا من بعده من أمته كيف يتصرفون حيال الأحداث التي قد يخفى عليهم وجه الحق فيها، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فنزلنا منزلاً، فمنا من يصلح خباءه، ومنا من يَنْـتَضِل، ومنا من هو في جشره، إذ نادى منادي رسول الله ﷺ فاجتمعنا إلى رسول الله ﷺ، فقال: «إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم، وإن أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها، وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها، وتجيء فتنة، فَيُرقِّق بعضها بعضاً، فيقول المؤمن: هذه مهلكتي ثم تنكشف، وتجيء الفتنة، فيقول المؤمن: هذه، هذه، فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة، فلتأته منيته وهو مؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى اليه، ومن بايع إماماً، فأعطاه صفقة يده، وثمرة قلبه، فليطعه ما استطاع، فإن جاء الآخر ينازعه، فاضربوا عنق الآخر» رواه مسلم والسياق له والنسائي وابن ماجة وأحمد[1].

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة: حديث رقم (٢٤١).

ومن هذه التوجيهات التي كان لها أثر كبير في توجيه المسلمين إلى الحق تبشيره عثمان رضي الله عنه بالجنة على بلوى تصيبه، وإخباره بأن عماراً تقتله الفئة الباغية، وأمره أبا ذر بأن يعتزل الفتنة، وأن لا يقاتل ولو قتل. ويمكن أن يستفاد هذا المعنى من حديث حذيفة حيث كان يسأل الرسول ﷺ عن الشر مخافة أن يدركه، بينما أصحابه كانوا يسألون الرسول ﷺ عن الخير، ومن هذا نهى الرسول ﷺ المسلمين عن أخذ شيء من جبل الذهب الذي ينحسر عنه الفرات في آخر الزمان، وإخباره عن حقيقة الدجال، وبيان ما يأتي به من الشبهات، وغير ذلك من الكائنات التي يبصر الرسول ﷺ أمته بالتصرف الأمثل حيالها.

٥- قد تمر بالمسلمين وقائع في مقبل الأيام تحتاج إلى بيان الحكم الشرعي فيها، ولو ترك المسلمون إلى اجتهادهم -فإنهم قد يختلفون، وقد لا يهتدون إلى الصواب، بل قد يكون بيان الحكم الشرعي في تلك الأحداث واجب لا بدَّ منه، وعدم البيان يكون نقصاً تنزه الشريعة عنه. فمن ذلك أن الرسول ﷺ أخبر أن الدجال يمكث في الأرض أربعين يوماً، يوم من أيامه كسنة، ويوم كشهر، ويوم كأسبوع، وبقية أيامه كأيامنا، وقد سأل الصحابة الرسول ﷺ عن تلك الأيام الطويلة أتكفي في الواحد منها صلاة يوم، قال الرسول ﷺ: لا، اقدروا له قدره، ولو وكل العباد إلى اجتهادهم لاقتصروا على الصلوات الخمس عند الأوقات المعروفة في غير هذه الأيام. وأخبر الرسول ﷺ أن عيسى بعد نزوله لا يقبل الجزية من اليهود والنصارى، ولا يقبل منهم إلا الإيمان، وهذا البيان من الرسول ﷺ ضروري، لأن عيسى يحكم بهذا الشرع، وهذا الشرع فيه قبول الجزية ممن بذلها إلى حين نزول عيسى ابن مريم وحين ذاك توضع الجزية، ويقتل كل من رفض الإيمان، ولو بذل الجزية.

٦- التطلع إلى ما يحدث في المستقبل أمر فطري فالإنسان يجد في نفسه رغبة شديدة إلى معرفة الوقائع والكائنات التي قد تحدث للجنس الإنساني، أو تحدث للأمة التي هو منها، أو قد تحدث له، ولذلك فإن الزعماء والرؤساء، بل والأفراد يلجؤون في معرفة ذلك إلى السحرة والكهان والمنجمين، فجاءهم الله بالحق الذي يغني ويكفي ويشفي في هذا الجانب.

وقد تعرض ابن خلدون لهذه الفائدة في مقدمة تاريخه، فقال: «اعلم أن من خواص النفوس البشرية التشوُّف إلى عواقب أمورهم، وعلم ما يحدث لهم من حياة وموتٍ وخيرٍ وشر، سيما الحوادث العامة كمعرفة ما بقي من الدنيا، ومعرفة مدد الدول أو تفاوتها، والتطلع إلى هذا طبيعة للبشر مجبولون عليها. ولذلك نجد الكثير من الناس يتشوفون إلى الوقوف على ذلك في المنام.

والأخبار من الكهان لمن قصدهم بمثل ذلك من الملوك والسوقة معروفة، ولقد نجد في المدن صنفاً من الناس ينتحلون المعاش من ذلك لعلمهم بحرص الناس عليه، فينتصبون لهم في الطرقات والدكاكين يتعرضون لمن يسألهم عنه، فتغدو عليهم وتروح نسوان المدينة وصبيانها، وكثير من ضعفاء العقول، يستكشفون عواقب أمرهم، في الكسب والجاه والمعاشرة والعداوة وأمثال ذلك، ما بين خط في الرمل ويسمونه المنجم، وطرق بالحصى والحبوب ويسمونه الحاسب، ونظر في المرايا والمياه ويسمونه ضارب المندل، وهو من المنكرات الفاشية في الأمصار، لما تقرر في الشريعة من ذم ذلك، وأن البشر محجوبون عن الغيب إلا من أطلعه الله عليه من عنده في نومٍ أو ولاية.

وأكثر ما يعتني بذلك ويتطلع إليه الأمراء والملوك في آماد دولتهم، ولذلك انصرفت العناية من أهل العلم إليه. وكل أمةٍ من الأمم يوجد لهم كلامٌ من كاهن أو منجم أو ولي في مثل ذلك من ملك يرتقبونه أو دولة يحدثون أنفسهم بها، وما يحدث لهم من الحرب والملاحم،ومدة بقاء الدولة، وعدد الملوك فيها، والتعرض لأسمائهم، ويسمى مثل ذلك الحدثان.

وكان في العرب الكهان والعرافون يرجعون إليهم في ذلك، وقد أخبروا بما سيكون للعرب من الملك والدولة، كما وقع لشق، وسطيح في تأويل رؤيا ربيعة ابن نصر من ملوك اليمن، أخبرهم بِمُلْكِ الحبشة بلادهم، ثم رجوعها إليهم، ثم ظهور الملك والدولة للعرب من بعد ذلك.

وكذا تأويل سطيح لرؤيا الموبذان حين بعث إليه كسرى بها مع عبد المسيح، وأخبرهم بظهور دولة العرب. وكذا كان في جيل البربر كهان من أشهرهم موسى بن صالح من بني يِفْرَنْ، ويقال من غمرة، وله كلمات حدثانية على طريقة الشعر برطانتهم، وفيها حدثان كثير، ومعظمه فيما يكون لزناتة من الملك والدولة بالمغرب، وهي متداولة بين أهل الجبل، وهم يزعمون تارة أنه ولي، وتارة أنه كاهن، وقد يزعم بعض مزاعمهم أنه كان نبياً، لأن تاريخه عندهم قبل الهجرة بكثير. والله أعلم»[1].

---

(١) المقدمة لابن خلدون: ص ٥٨٧-٥٨٨.

المبحث التاسع
أقسام علامات الساعة

وردت أحاديث كثيرة عدد فيها الرسول ﷺ جملة من أشراط الساعة، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان تكون بينهما مقتلة عظيمة، دعوتهما واحدة، وحتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين، كلهم يزعم أنه رسول الله، وحتى يقبض العلم، وتكثر الزلازل ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج، وهو القتل، وحتى يكثر فيكم المال، فيفيض حتى يُهِمَّ رَبَّ المال من يقبل صدقته، وحتى يعرضه، فيقول الذي يعرضه عليه: لا أرب لي به، وحتى يتطاول الناس في البنيان، وحتى يمر الرجل بقبر الرجل، فيقول: يا ليتني مكانه، وحتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت، ورآها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]»[1].

وفي صحيح البخاري عن عوف بن مالك رضي الله عنه، قال: «أتيت النبي ﷺ في غزوة تبوك وهو في قبة أدم، فقال: اعدد ستاً بين يدي

(١) رواه البخاري في كتاب الفتن، حديث رقم (٧١٢١)، فتح الباري: (١٣/ ٨١)، وقد رواه مسلم في صحيحه مفرقاً، وقد جمع رواياته ابن الأثير في جامع الأصول: (١٠/ ٤٠٤)، ورقم الحديث (٧٩٢٠).!

الساعة: موتي، ثم فتح بيت المقدس، ثم موتان يأخذ فيكم كقُعاص الغنم[1]، ثم استفاضة المال، حتى يعطَى الرجل مائة دينار فيظل ساخطاً، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته، ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر، فيغدرون، فيأتونكم تحت ثمانين غاية[2]، تحت كل غاية اثنا عشر ألفا»[3].

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أشراط الساعة الفُحش، والتَّفَحُش، وقطعية الرحم، وتخوين الأمين، وائتمان الخائن» رواه البزار، ورواه الطبراني في الأوسط عن أنس، ورواه أحمد والبزار عن ابن عمرو[4]. وعن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «من أشراط الساعة أن يمر الرجل في المسجد، لا يصلي فيه ركعتين، وأن لا يسلم الرجل إلا على من يعرف»[5] رواه الطبراني.

وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من أشراط الساعة أن يتباهى الناس في المساجد» رواه أبو داود، وأحمد في مسنده، والدارمي، وابن خزيمة[6].

وهذه الأشراط التي ذكرها الرسول ﷺ في هذه الأحاديث وفي أحاديث أخرى كثيرة قسمها أهل العلم إلى قسمين:

---

(١) الموتان بضم الميم: موت يقع في الماشية فيهلكها، و (القُعاص) داء يأخذ الغنم، لا يلبثها أن تموت.

(٢) الغاية: الراية.

(٣) رواه البخاري في صحيحه، انظر جامع الأصول: (١٠/ ٤١١)، رقم الحديث: (٧٩٢٧).

(٤) صحيح الجامع الصغير: (٥/ ٢١٣).

(٥) المصدر السابق.

(٦) المصدر السابق.

علامات صغرى، وعلامات كبرى.

والعلامات الصغرى يمكن تقسيمها إلى قسمين: قسم وقع، وقسم لم يقع بعد. والذي وقع قد يكون مضى وانقضى، وقد يكون ظهوره ليس مرة واحدة، بل يبدو شيئاً فشيئاً، وقد يتكرر وقوعه وحصوله، وقد يقع منه في المستقبل أكثر مما وقع في الماضي.

ولذلك سنعقد لعلامات الساعة أربعة فصول:

الأول: العلامات الصغرى التي وقعت وانقضت.

الثاني: العلامات الصغرى التي وقعت، ولا تزال مستمرة، وقد يتكرر وقوعها.

الثالث: العلامات الصغرى التي لم تقع بعد.

الرابع: العلامات الكبرى.

الفصل الثاني
علامات الساعة التي وقعت

ونعني بها العلامات التي وقعت وانقضت ولن يتكرر وقوعها، وهي كثيرة وسنذكر بعضاً منها.

المبحث الأول
بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ووفاته

من أشراط الساعة بعثة الرسول ﷺ ووفاته، ففي الحديث عند البخاري ومسلم عن سهل بن سعد قال: «رأيت رسول الله ﷺ قال بإصبعيه هكذا، الوسطى والتي تلي الإبهام. وقال: بعثت أنا والساعة كهاتين».

وفي رواية قال: «بعثت أنا والساعة كهاتين، ويشير بإصبعيه، يمدهما»[1]. وفي صحيحي البخاري ومسلم وسنن الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين، كفضل إحداهما على الأخرى، وضم السبابة والوسطى»[2].

وفي كتب السيرة أن اليهود كانوا يحدثون عن الرسول ﷺ أنه يبعث مع الساعة.

---

(١) جامع الأصول: (١٠/ ٣٨٤).
(٢) جامع الأصول: (١٠/ ٣٨٤).

وقد مضى قريباً حديث عوف بن مالك عند البخاري الذي قال له الرسول ﷺ فيه: «اعدد ستاً بين يدي الساعة: موتي...».

وقد روى الإمام أحمد في مسنده بإسناد صحيح عن أبي جبيرة عن رسول الله ﷺ قال: «بعثت في نسم الساعة»[1].

«ونسم الساعة» كما يقول ابن الأثير: هو من النسيم أول هبوب الريح الضعيفة، أي: بعثت في أول أشراط الساعة وضعف مجيئها.

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٢/ ٤٦٧)، ورقم الحديث: ٨٠٨.

المبحث الثاني

انشقاق القمر

اتفق العلماء على أن القمر قد انشق في عهد الرسول ﷺ، وأن انشقاقه إحدى المعجزات الباهرات[1]، وقد صرح القرآن بهذا في قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ * وَإِن يَرَوْا ءَايَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ١-٢].

قال النووي: «قال القاضي: انشقاق القمر من أمهات معجزات نبينا ﷺ، وقد رواها عدة من الصحابة رضي الله عنهم، مع ظاهر الآية الكريمة وسياقها، قال الزجاج: وقد أنكرها بعض المبتدعة المضاهين لمخالفي الملة، وذلك لما أعمى الله قلبه، ولا إنكار للعقل فيها، لأن القمر مخلوق لله تعالى يفعل فيه ما يشاء كما يفنيه ويكورّه في آخر أمره..»[2].

وقد ساق ابن كثير الأحاديث الواردة في انشقاق القمر في تفسير سورة القمر، وهي أحاديث صحيحة كثيرة[3]، وقد ساقها مسلم في صحيحه، ومنها حديث أنس أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر مرتين[4]، ومنها حديث عبد الله بن مسعود قال: «انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ بشقين، فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا،

---

(١) تفسير ابن كثير: (٦/٤٦٩).

(٢) شرح النووي على مسلم: (١٧/١٤٣).

(٣) تفسير ابن كثير: (٦/٤٦٩).

(٤) رواه مسلم في صحيحه، باب انشقاق القمر، (٤/٢١٥٩)، حديث رقم (٢٨٠٢).

اشهدوا» وفي رواية أخرى عنه، قال: «بينما نحن مع رسول الله ﷺ بمنى إذ انفلق القمر فلقتين، فكانت فلقة وراء الجبل، وفلقة دونه، فقال لنا رسول الله ﷺ: اشهدوا»[1].

(١) رواه مسلم، باب انشقاق القمر، (٤/٢١٥٨)، ورقم الحديث (٢٨٠٠).

وقد حط علماء الفضاء في هذا العصر رحالهم على القمر، فوجدوا أثر انشقاق القمر باقياً إلى اليوم، وقد نقل عالم الجيولوجيا المسلم د. زغلول النجار عن داود موسى بيتكوك رئيس الحزب الإسلامي البريطاني أنه شاهد ندوة تلفزيونية بين معلق بريطاني وثلاثة علماء فضاء أمريكيين أنهم شاهدوا أثر انشقاق القمر من سطحه إلى جوفه إلى سطحه الآخر، أخبروا بذلك، وهم لا يعلمون أن الله تحدث بهذه الآية في قرآننا، وقد كانت هذه الآية سبباً في إيمان ناقل الخبر داود موسى (نقلاً عن مجلة العالمية الكويتية. العدد ١٥٦).

المبحث الثالث

نار الحجاز التي أضاءت أعناق الإبل ببصرى

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة، حتى تخرج نارٌ من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى»[1].

وهذه الآية العظيمة التي أخبر الصادق المصدوق بوقوعها في مقبل الزمان وقعت على الصورة التي أخبر بها الرسول ﷺ، وقد كان خروجها في سنة (٦٥٤) للهجرة النبوية.

وقد تحدث العلامة المؤرخ ابن كثير في أحداث سنة (٦٥٤) عن هذه النار فقال:

فيها كان ظهور النار من أرض الحجاز التي أضاءت لها أعناق الإبل ببصرى، كما نطق بذلك الحديث المتفق عليه، وقد بسط القول في ذلك الشيخ الإمام العلامة الحافظ شهاب الدين أبو شامة المقدسي في كتابه «الذيل وشرحه»، واستحضره من كتب كثيرة وردت متواترة إلى دمشق من الحجاز بصفة أمر هذه النار التي شوهدت معاينة، وكيفية خروجها وأمرها.

---

(١) الحديث رواه البخاري، كتاب الفتن، باب خروج النار، فتح الباري: (١٣/ ٧٨)، ورواه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز، حديث رقم (٢٩٠٢) (٤/ ٢٢٢٧)، وبصرى كما يقول النووي في شرحه على مسلم: (١٨/ ٣٠): «مدينة معروفة بالشام، وهي مدينة حوران، بينها وبين دمشق ثلاث مراحل» وقد ذكر المؤرخون أن الأمر وقع كما أخبر الرسول ﷺ فقد أضاءت أعناق الإبل ببصرى، وكان طلبة العلم يقرؤون على ضوئها في كثير من البلاد النائية عن المدينة.

وملخص ما أورده أبو شامة[1] أنه قال: وجاء إلى دمشق كتب من المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، بخروج نار عندهم في خامس جمادى الآخرة من هذه السنة، وكتبت الكتب في خامس رجب، والنار بحالها، ووصلت الكتب إلينا في عاشر شعبان ثم قال:

«بسم الله الرحمن الرحيم، ورد إلى مدينة دمشق في أوائل شعبان من سنة أربع وخمسين وستمائة كتب من مدينة رسول الله ﷺ، فيها شرح أمر عظيم حدث بها تصديق لما في الصحيحين من حديث أبي هريرة. قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى» فأخبرني من أثق به ممن شاهدها أنه بلغه أنه كتب بتيماء على ضوئها الكتب. قال: وكنا في بيوتنا تلك الليالي، وكأن في دار كل واحد منا سراج، ولم يكن لها حر ولفح على عظمها، إنما كانت آية من آيات الله عز وجل».

قال أبو شامة: وهذه صورة ما وقفت عليه من الكتب الواردة فيها:

«لما كانت ليلة الأربعاء ثالث جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة ظهر بالمدينة النبوية دوي عظيم، ثم زلزلة عظيمة رجفت منها الأرض والحيطان والسقوف والأخشاب والأبواب، ساعة بعد ساعة إلى يوم الجمعة الخامس من الشهر المذكورة، ثم ظهرت نار عظيمة في الحرة قريبة من قريظة نبصرها من دورنا من داخل المدينة كأنها عندنا، وهي نار عظيمة إشعالها أكثر من ثلاث منارات، وقد سالت أودية بالنار إلى وادي شظا مسيل الماء، وقد سدت مسيل شظا وما عاد يسيل، والله لقد طلعنا

(١) كان أبو شامة معاصراً لخروجها.

جماعة نبصرها فإذا الجبال تسيل نيراناً، وقد سدت الحرة طريق الحاج العراقي، فسارت إلى أن وصلت إلى الحرة، فوقفت بعدما أشفقنا أن تجيء إلينا، ورجعت تسيل في الشرق، فخرج من وسطها سهود وجبال نيران تأكل الحجارة، فيها أنموذج عما أخبر الله تعالى في كتابه ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ * كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ [المرسلات: ٣٢-٣٣].

وقد أكلت الأرض، وقد كتبت هذا الكتاب يوم خامس رجب سنة أربع وخمسين وستمائة والنار في زيادة ما تغيرت، وقد عادت إلى الحرار في قريظة طريق عير الحاج العراقي إلى الحرة كلها نيران تشتعل نبصرها في الليل من المدينة كأنها مشاعل الحاج. وأما أم النار الكبيرة فهي جبال نيران حمر، والأم الكبيرة التي سالت النيران منها من عند قريظة، وقد زادت وما عاد الناس يدرون أي شيء يتم بعد ذلك، والله يجعل العاقبة إلى خير، فما أقدر أصف هذه النار».

قال أبو شامة: «وفي كتاب آخر: ظهر في أول جمعة من جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة، ووقع في شرق المدينة المشرفة نار عظيمة بينها وبين المدينة نصف يوم: انفجرت من الأرض، وسال منها وادٍ من نار حتى حاذى جبل أحد، ثم وقفت وعادت إلى الساعة، ولا ندري ماذا نفعل، ووقت ما ظهرت دخل أهل المدينة إلى نبيهم عليه الصلاة والسلام مستغفرين تائبين إلى ربهم تعالى، وهذه دلائل القيامة».

قال: «وفي كتاب آخر: لما كان يوم الاثنين مستهل جمادى الآخرة، سنة أربع وخمسين وستمائة وقع بالمدينة صوت يشبه صوت الرعد البعيد تارة وتارة، أقام على هذه الحالة يومين، فلما كانت ليلة الأربعاء ثالث

الشهر المذكور تعقب الصوت الذي كنا نسمعه زلازل، فلما كان يوم الجمعة خامس الشهر المذكور انبجست الحرة بنار عظيمة يكون قدرها مثل مسجد رسول الله ﷺ، وهي برأي العين من المدينة، نشاهدها وهي ترمي بشرر كالقصر، كما قال الله تعالى، وهي بموضع يقال له أجيلين. وقد سال من هذه النار واد يكون مقداره أربع فراسخ، وعرضه أربعة أميال، وعمقه قامة ونصف، وهي تجري على وجه الأرض، ويخرج منها أمهاد وجبال صغار، وتسير على وجه الأرض وهو صخر يذوب حتى يبقى مثل الآنك. فإذا جمد صار أسود، وقبل الجمود لونه أحمر، وقد حصل بسبب هذه النار إقلاع عن المعاصي، والتقرب إلى الله تعالى بالطاعات، وخرج أمير المدينة عن مظالم كثيرة إلى أهلها».

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة: «ومن كتاب شمس الدين بن سنان ابن عبد الوهاب بن نميلة الحسيني قاضي المدينة إلى بعض أصحابه: لما كانت ليلة الأربعاء ثالث جمادى الآخرة حدث بالمدينة بالثلث الأخير من الليل زلزلة عظيمة أشفقنا منها، وباتت باقي تلك الليلة تزلزل كل يوم وليلة قدر عشر نوبات، والله لقد زلزلت مرة ونحن حول حجرة رسول الله ﷺ اضطرب لها المنبر إلى أن أوجسنا منه إذ سمعنا صوتاً للحديد الذي فيه، واضطربت قناديل الحرم الشريف، وتمت الزلزلة إلى يوم الجمعة ضحى، ولها دوي مثل دوي الرعد القاصف، ثم طلع يوم الجمعة في طريق الحرة في رأس أجيلين نار عظيمة مثل المدينة العظيمة، وما بانت لنا إلا ليلة السبت، وأشفقنا منها وخفنا خوفاً عظيماً، وطلعت إلى الأمير كلمته وقلت له: قد أحاط بنا العذاب، ارجع إلى الله تعالى، فأعتق كل مماليكه، ورد على جماعة أموالهم، فلما فعل ذلك قلت: اهبط الساعة

معنا إلى النبي ﷺ، فهبط وبتنا ليلة السبت والناس جميعهم والنسوان وأولادهم، وما بقي أحد لا في النخيل ولا في المدينة إلا عند النبي ﷺ، ثم سال منها نهر من نار، وأخذ في وادي أجيلين وسد الطريق، ثم طلع إلى بحرة الحاج، وهو بحر نار يجري، وفوقه جمر يسير إلى أن قطعت الوادي وادي الشظا، وما عاد يجيء في الوادي سيل قط لأنها حصرته نحو قامتين وثلث علوها.

والله يا أخي إن عيشتنا اليوم مكدرة والمدينة قد تاب جميع أهلها، ولا بقي يسمع فيها رباب ولا دف ولا شرب، وتمت النار تسيل إلى أن سدت بعض طريق الحاج وبعض بحرة الحاج، وجاء في الوادي إلينا منها يسير، وخفنا أنه يجيئنا فاجتمع الناس ودخلوا على النبي ﷺ وتابوا عنده جميعهم ليلة الجمعة، وأما قتيرها الذي مما يلينا فقد طفىء بقدرة الله، وأنها إلى الساعة وما نقصت إلا ترى مثل الجمال حجارة، ولها دوي، ما يدعنا نرقد، ولا نأكل، ولا نشرب، وما أقدر أصف لك عظمها ولا ما فيها من الأهوال.

وأبصرها أهل ينبع وندبوا قاضيهم ابن أسعد وجاء وعدا إليها، وما أصبح يقدر يصفها من عظمها، وكتب الكتاب يوم خامس رجب، وهي على حالها، والناس منها خائفون، والشمس والقمر من يوم ما طلعت ما يطلعان إلا كاسفين، فنسأل الله العافية».

قال أبو شامة: وبان عندنا بدمشق أثر الكسوف من ضعف نورها على الحيطان، وكنا حيارى من ذلك إيش هو؟ إلى أن جاءنا هذا الخبر عن هذه النار.

قلت: وكان أبو شامة قد أرخ قبل مجيء الكتب بأمر هذه النار، فقال: وفيها في ليلة الاثنين السادس عشر من جمادى الآخرة خسف القمر أول الليل، وكان شديد الحمرة ثم انجلى، وكسفت الشمس، وفي غده احمرت وقت طلوعها وغروبها، وبقيت كذلك أياماً متغيرة اللون ضعيفة النور، والله على كل شيء قدير، ثم قال: واتضح بذلك ما صوره الشافعي من اجتماع الكسوف والعيد، واستبعده أهل النجامة.

ثم قال أبو شامة: «ومن كتاب آخر من بعض بني الفاشاني بالمدينة يقول فيه: وصل إلينا في جمادى الآخرة نجابة من العراق وأخبروا عن بغداد أنه أصابها غرق عظيم، حتى طفح الماء من أعلى أسوار بغداد إليها، وغرق كثير منها، ودخل الماء دار الخلافة وسط البلد، وانهدمت دار الوزير وثلثمائة وثمانون داراً، وانهدم مخزن الخليفة، وهلك من خزانة السلاح شيء كثير، وأشرف الناس على الهلاك، وعادت السفن تدخل إلى وسط البلدة، وتخترق أزقة بغداد.

قال: وأما نحن فإنه جرى عندنا أمر عظيم: لما كان بتاريخ ليلة الأربعاء الثالث من جمادى الآخرة ومن قبلها بيومين، عاد الناس يسمعون صوتاً مثل صوت الرعد، فانزعج لها الناس كلهم، وانتبهوا من مراقدهم وضج الناس بالاستغفار إلى الله تعالى، وفزعوا إلى المسجد وصلوا فيه، وتمت ترجف بالناس ساعة بعد ساعة إلى الصبح، وذلك اليوم كله يوم الأربعاء وليلة الخميس كلها وليلة الجمعة، وصبح يوم الجمعة ارتجت الأرض رجة قوية إلى أن اضطرب منار المسجد بعضه ببعض، وسمع لسقف المسجد صرير عظيم، وأشفق الناس من ذنوبهم، وسكنت الزلزلة بعد صبح يوم الجمعة إلى قبل الظهر.

ثم ظهرت عندنا بالحرة وراء قريظة على طريق السوارقية بالمقاعد مسيرة من الصبح إلى الظهر نار عظيمة تنفجر من الأرض، فارتاع لها الناس روعة عظيمة، ثم ظهر لها دخان عظيم في السماء ينعقد حتى يبقى كالسحاب الأبيض، فيصل إلى قبل مغيب الشمس من يوم الجمعة، ثم ظهرت النار لها ألسن تصعد في الهواء إلى السماء حمراء كأنها القلعة، وعظمت وفزع الناس إلى المسجد النبوي وإلى الحجرة الشريفة، واستجار الناس بها وأحاطوا بالحجرة، وكشفوا رؤوسهم، وأقروا بذنوبهم، وابتهلوا إلى الله تعالى، واستجاروا بنبيه عليه الصلاة والسلام، وأتى الناس إلى المسجد من كل فج ومن النخل، وخرج النساء من البيوت والصبيان، واجتمعوا كلهم وأخلصوا إلى الله، وغطت حمرة النار السماء كلها، حتى بقي الناس في مثل ضوء القمر، وبقيت السماء كالعلقة، وأيقن الناس بالهلاك أو العذاب، وبات الناس تلك الليلة بين مصل وتال للقرآن وراكع وساجد، وداع إلى الله عز وجل، ومتنصل من ذنوبه ومستغفر وتائب، ولزمت النار مكانها وتناقص تضاعفها ذلك ولهيبها.

وصعد الفقيه والقاضي إلى الأمير يعظونه، فطرح المكس وأعتق مماليكه كلهم وعبيده، ورد علينا كل مالنا تحت يده، وعلى غيرنا، وبقيت تلك النار على حالها تلتهب التهاباً، وهي كالجبل العظيم ارتفاعاً، وكالمدينة عرضاً، يخرج منها حصى يصعد في السماء، ويهوي فيها، ويخرج منها كالجبل العظيم نار ترمي كالرعد. وبقيت كذلك أياماً ثم سالت سيلاناً إلى وادي أجيلين تنحدر مع الوادي إلى الشظا، حتى لحق سيلانها بالبحرة بحرة الحاج، والحجارة معها تتحرك وتسير حتى كادت تقارب حرة العريض، ثم سكنت ووقفت أياماً، ثم عادت ترمي بحجارة

خلفها وأمامها، حتى بنت لها جبلين، وما بقي يخرج منها من بين الجبلين لسان لها أياماً، ثم إنها عظمت وسناءها إلى الآن، وهي تتقد كأعظم ما يكون، ولها كل يوم صوت عظيم في آخر الليل إلى ضحوة، ولها عجائب ما أقدر أن أشرحها لك على الكمال، وإنما هذا طرف يكفي، والشمس والقمر كأنهما منكسفان إلى الآن. وكتب هذا الكتاب ولها شهر وهي في مكانها ما تتقدم ولا تتأخر».

وقد قال فيها بعضهم أبياتاً:

يا كاشف الضر صفحاً عن جرائمنا ... لقد أحاطت بنا يا ربُّ بأساء
نشكو إليك خطوباً لا نطيقُ لها ... حملاً ونحن بها حقاً أحقاء
زلازل تخشعُ الصُّم الصلابُ لها ... وكيف يقوى على الزلزالِ شماءُ
أقامَ سبعاً يرج الأرض فانصدعت ... عن منظرٍ منه عينُ الشمسِ عشواءُ
بحرٌ من النار تجري فوقهُ سفنٌ ... من الهضاب لها في الأرض أرساءُ
كأنما فوقهُ الأجبال طافيةٌ ... موجٌ عليه لفرط البهج وعثاءُ
ترمي لها شرراً كالقصر طائشةً ... كأنها ديمةٌ تنصب هطلاءُ
تنشقُ منها قلوبُ الصخر إن زفرت ... رعباً وترعدُ مثلُ السعفِ أضواءُ
منها تكاثف في الجو الدخان إلى ... أن عادت الشمسُ منه وهي دهماءُ
قد أثرت سفعةٌ في البدرِ لفحتها ... فليلةُ التم بعد النور ليلاءُ
تحدث النيراتُ السبع ألسنها ... بما يلاقي بها تحت الثرى الماءُ
وقد أحاط لظاها بالبروج إلى ... أن كادَ يلحقها بالأرض إهواءُ
فيالها آيةٌ من معجزاتِ رسو ... ل الله يعقلها القومُ الألباءُ

فباسمكَ الأعظمِ المكنون إن عظمت منا الذنوب وساءَ القلبُ أسواءُ
فاسمح وهب وتفضل وامحُ واعفُ وجدْ واصفحْ فكل لفرطِ الجهل خطاءُ
فقومُ يونسَ لما آمنوا كشف الـ ـعذابَ عنهم وعمَّ القوم نعماءُ
ونحنُ أمةُ هذا المصطفى ولنا منه إلى عفوك المرجوِ دعاءُ
هذا الرسولُ الذي لولاه ما سلكت محجةٌ في سبيل الله بيضاءُ
فارحم وصَلِّ على المختارِ ما خطبت على علا منبر الأوراق ورقاءُ

قلت: والحديث الوارد في أمر هذه النار مخرج في الصحيحين من طريق الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى» وهذا لفظ البخاري.

وقد وقع هذا في هذه السنة -أعني سنة أربع وخمسين وستمائة- كما ذكرنا، وقد أخبرني قاضي القضاة صدر الدين علي بن أبي القاسم التميمي الحنفي الحاكم بدمشق في بعض الأيام في المذاكرة، وجرى ذكر هذا الحديث وما كان من أمر هذه النار في هذه السنة فقال: سمعت رجلاً من الأعراب يخبر والدي بِبُصْرى في تلك الليالي أنهم رأوا أعناق الإبل في ضوء هذه النار التي ظهرت في أرض الحجاز.

قلت: وكان مولده في سنة ثنتين وأربعين وستمائة، وكان والده مدرساً للحنفية ببصرى، وكذلك كان جده، وهو قد درس بها أيضاً ثم انتقل إلى دمشق فدرس بالصادرية وبالمعدمية، ثم ولى قضاء القضاة الحنفية، وكان مشكور السيرة في الأحكام، وقد كان عمره حين وقعت هذه النار بالحجاز ثنتا عشرة سنة، ومثله ممن يضبط ما يسمع من الخبر أن الأعرابي أخبر

والده في تلك الليالي، وصلوات الله وسلامه على نبيه سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

ومما نظمه بعض الشعراء في هذه النار الحجازية، وغرق بغداد قوله:

سبحان من أصبحت مشيئته جاريةً في الورى بمقدار

أغرق بغدادَ بالمياه كما أحرق أرض الحجازِ بالنارِ

قال أبو شامة: والصواب أن يقال:

في سنةِ أغرقَ العراقَ وقد أحرقَ أرضَ الحجازَ بالنارِ

وقال ابن الساعي في تاريخ سنة أربع وخمسين وستمائة: في يوم الجمعة ثامن عشر رجب -يعني من هذه السنة- كنت جالساً بين يدي الوزير، فورد عليه كتاب من مدينة الرسول ﷺ، صحبة قاصد يعرف بقيماز العلوي الحسني المدني، فناوله الكتاب فقرأه، وهو يتضمن أن مدينة الرسول ﷺ زلزلت يوم الثلاثاء ثاني جمادى الآخرة حتى ارتج القبر الشريف النبوي، وسمع صرير الحديد، وتحركت السلاسل، وظهرت نار على مسيرة أربع فراسخ من المدينة، وكانت ترمي بزبد كأنه رؤوس الجبال، ودامت خمسة عشر يوماً.

قال القاصد: وجئت ولم تنقطع بعد، بل كانت على حالها، وسأله إلى أي الجهات ترمي؟ فقال: إلى جهة الشرق، واجتزت عليها أنا ونجابة اليمن ورمينا فيها سعفة فلم تحرقها، بل كانت تحرق الحجارة وتذيبها. وأخرج قيماز المذكور شيئاً من الصخر المحترق وهو كالفحم لوناً وخفة.

قال وذكر في الكتاب وكان بخط قاضي المدينة أنهم لما زلزلوا دخلوا الحرم، وكشفوا رؤوسهم واستغفروا، وأن نائب المدينة أعتق جميع

مماليكه، وخرج من جميع المظالم، ولم يزالوا مستغفرين حتى سكنت الزلزلة، إلا أن النار التي ظهرت لم تنقطع. وجاء القاصد المذكور ولها خمسة عشر يوماً والى الآن.

قال ابن الساعي: وقرأت بخط العدل محمود بن يوسف الأمعاني شيخ حرم المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، يقول: إن هذه النار التي ظهرت بالحجاز آية عظيمة، وإشارة صحيحة دالة على اقتراب الساعة، فالسعيد من انتهز الفرصة قبل الموت، وتدارك أمره بإصلاح حاله مع الله عز وجل قبل الموت. وهذه النار في أرض ذات حجر لا شجر فيها ولا نبت، وهي تأكل بعضها بعضاً إن لم تجد ما تأكله، وهي تحرق الحجارة وتذيبها، حتى تعود كالطين المبلول، ثم يضربه الهواء حتى يعود كخبث الحديد الذي يخرج من الكير، فالله يجعلها عبرة للمسلمين ورحمة للعالمين، بمحمدٍ وآله الطاهرين. انتهى ما ذكره ابن كثير[1].

ومن العلماء الكبار الذين كانوا أحياء عند خروج هذه النار الإمام النووي رحمه الله تعالى، وقد ذكرها في شرحه لصحيح مسلم فقال: «وقد خرجت في زماننا نار بالمدينة سنة أربع وخمسين وستمائة، وكانت ناراً عظيمة جداً من جنب المدينة الشرقي، وراء الحرة، تواتر العلم بخروجها عند جميع الشام وسائر البلدان، وأخبرني من حضرها من أهل المدينة»[2]. وواضح من وصف المشاهدين لهذه النار أنها كانت بركاناً هائلاً، صاحبه زلازل عظيمة، والشاهد أن هذه النار خرجت على النحو الذي أخبرنا به الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه.

---

(١) البداية والنهاية: (١٣/ ١٨٧-١٩٢).

(٢) شرح النووي على مسلم: (١٨/ ٢٨).

المَبحث الرابع
توقف الجزية والخراج

كانت الجزية التي يدفعها أهل الذمة في الدولة الإسلامية، والخراج الذي يدفعه من يستغل الأراضي التي فتحت في الدولة الإسلامية من أهم مصادر بيت مال المسلمين، وقد أخبر الرسول ﷺ بأن ذلك سيتوقف، وسيفقد المسلمون بسب ذلك مورداً إسلامياً مهماً، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «منعت العراق درهمها وقفيزها، ومنعت الشام مدها ودينارها، ومنعت مصر إردبها ودينارها، وعدتم من حيث بدأتم، وعدتم من حيث بدأتم»، شهد على ذلك لحم أبي هريرة ودمه[1].

والقفيز والمد والإردب مكاييل لأهل ذلك الزمان في تلك البلاد، وبعضها لا يزال معروفاً إلى أيامناً، والدرهم والدينار أسماء للعملات المعروفة في ذلك الوقت، ومنع تلك البلاد للمذكورات في الحديث بسبب استيلاء الكفار على تلك الديار في بعض الأزمنة، فقد استولى الروم، ثم التتار على كثير من البلاد الإسلامية، وفي عصرنا احتل الكفار ديار الإسلام، وأذهبوا دولة الخلافة الإسلامية، وأبعدوا الشريعة الإسلامية عن الحكم. قال النووي في تعليقه على الحديث: «الأشهر في معناه أن العجم والروم يستولون على البلاد في آخر الزمان، فيمنعون حصول ذلك

(١) صحيح مسلم، كتاب الفتن (٤/ ٢٢٢٠) ورقم الحديث: (٢٨٩٦).

للمسلمين، وقد روى مسلم هذا بعد ذاك بورقات عن جابر قال: «يوشك أن لا يجيء إليهم قفيز ولا درهم، قلنا: من أين ذلك؟ قال: من قبل العجم، يمنعون ذاك»، وذكر في منع الروم ذلك بالشام مثله، وهذا قد وجد في زماننا في العراق، وهو الآن موجود، وقيل: لأنهم يرتدون آخر الزمان، فيمنعون ما لديهم من الزكاة وغيرها، وقيل: معناه أن الكفار الذين عليهم الجزية تقوى شوكتهم في آخر الزمان، فيمتنعون مما كانوا يؤدونه من الجزية والخراج، وغير ذلك»[1]، وكل هذه التعليلات لسبب منع تلك الإيرادات لخزينة الدولة الإسلامية التي ذكرها النووي وجدت، علاوة على انهيار الدولة الإسلامية التي كانت تقيم اقتصادها على الشريعة الإسلامية فإلى الله المشتكى.

---

(١) شرح النووي على مسلم: (١٨/ ٢٠).

الفصل الثالث

العلامات التي وقعت، وهي مستمرة، أو وقعت مرة ويمكن أن تتكرر وقوعها

المبحث الأول

الفتوحات والحروب

أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وقد سار حملة هذا الدين مشرقين ومغربين يفتحون البلاد وينشرون الإسلام، وقد هزموا الدول الكبرى في ذلك الزمان، وأزالوها من الوجود، ولم يزل هذا دأب المسلمين على مَرِّ العصور، وسيبقى إلى أن يقاتل آخر هذه الأمة الدجال.

وقد كان الرسول ﷺ يخبر الصحابة بما سيكون من الفتوحات والانتصارات التي سيجريها الله على أيديهم أو على أيدي من بعدهم، قال لهم ذلك في الوقت الذي كانوا فيه مستضعفين في مكة، أو محاصرين في المدينة يعيشون في خوف مستمر من اجتياح الأعداء، فقد روى لنا البخاري عن خباب بن الأرت قال: «شكونا إلى رسول الله ﷺ -وهو متوسد بُردة له في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا؟ قال: كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه،

ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب[1]، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»[2].

لقد كان الأمن منعدماً في الجزيرة العربية، وكان القانون السائد فيها شريعة الغاب، وقد كثر في الأحاديث الإخبار باستتباب الأمن في الجزيرة بسبب ظهور الإسلام فيها، كما أخبرنا الرسول ﷺ أن الإسلام سيتعدى حدود الجزيرة العربية، وأنه سيعصف بالدول الكبرى في ذلك الوقت، مثل ملك كسرى وقيصر، ففي صحيح مسلم عن نافع بن عتبة، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «تغزون جزيرة العرب فيفتحها الله، ثم فارس فيفتحها الله، ثم تغزون الروم، فيفتحها الله، ثم تغزون الدجال فيفتحه الله»[3].

وروى البخاري عن عَدِيّ بن حاتم، قال: «بينا أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل، فقال: يا عدي، هل رأيت الحيرة؟ قلت: لم أرها، وقد أنبئت عنها، قال: فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله، قلت فيما بيني وبين نفسي. فأين دُعَّار طيِّء الذين قد سعروا البلاد؟ ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى، قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك حياة لترين

---

(١) هكذا ورد في النص ما دون لحمه من عظم أو عصب، وقد ورد الحديث في صحيح البخاري في موضع آخر بلفظ (ما دون عظامه من لحم أو عصب)، كتاب المناقب، فتح الباري: (٧/ ١٦٥)، وهو الصواب.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، حديث رقم (٣٦١٢) فتح الباري: (٦/ ٦١٩).

(٣) رواه مسلم في كتاب الفتن، باب ما يكون من فتوحات المسلمين قبل الدجال، (٤/ ٢٢٢٥) حديث رقم (٢٩٠٠).

الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحداً يقبله منه، وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه، وليس بينه وبينه ترجمان، يترجم له، فيقولن: ألم أبعث إليك رسولاً فيبلغك؟ فيقول: بلى، فيقول: ألم أعطك مالاً وأفضل عليك؟ فيقول: بلى، فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم، وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم.

قال عدي: سمعت رسول الله ﷺ يقول: اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد شق تمرة فبكلمة طيبة».

قال عدي: «فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال النبي أبو القاسم ﷺ، يخرج ملء كفه...»[1].

وقد أخبر الرسول ﷺ في حديث آخر أن المسلمين سيزيلون ملك كسرى وقيصر، وسينفقون كنوزهما في سبيل الله، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفس محمد بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله»[2].

وفي صحيح مسلم عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها، وأعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض»[3] وقد وقع الأمر كما أخبر

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، حديث رقم (٣٥٩٥) فتح الباري: (٦/٦١٠).

(٢) صحيح البخاري، كتاب المناقب، حديث رقم (٣٦١٨)، فتح الباري: (٦/ ٦٢٥).

(٣) صحيح مسلم، كتاب الفتن، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، (٤/ ٢٢١٥)، ورقمه (٢٨٨٩).

الرسول ﷺ، فقد بلغ ملك هذه الأمة بمقدار ما جمع له من الأرض، وكان معظم امتداد ملك هذه الأمة في جهتي الشرق والغرب، وأما في جهة الشمال والجنوب فقليل بالنسبة إلى المشرق والمغرب.

وأخبرنا رسولنا ﷺ أننا سنغزو الهند، ففي الحديث الصحيح الذي يرويه ثوبان رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «عصابتان من أمتي أحرزهما الله من النار: عصابة تغزو الهند، وعصابة تكون مع عيسى ابن مريم عليه السلام»[1].

وبشرنا الرسول ﷺ بفتح القسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية الشرقية، كما أخبرنا بفتح روما مقر الفاتيكان، ففي الحديث الصحيح عن أبي قبيل قال: كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاص، وسئل أي المدينتين تفتح أولاً: القسطنطينية أو رومية؟ فدعا عبد الله بصندوق له حلق، قال: فأخرج منه كتاباً، قال: فقال عبد الله: بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب، إذ سئل رسول الله: أي المدينتين تفتح أولاً أقسطنطينية أو رومية؟ فقال رسول الله ﷺ: مدينة هرقل تفتح أولاً، يعني القسطنطينية»[2].

وقد فتحت فارس والروم وزال ملك كسرى وقيصر، وغزا المسلمون الهند، وفتحوا القسطنطينية، وسيكون للمسلمين في مقبل الزمان ملك عظيم ينتشر فيه الإسلام ويذل الشرك، وتفتح روما مصداقاً لحديث الرسول ﷺ القائل: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله

---

(١) الحديث أخرجه النسائي، وأحمد وغيرهما، وإسناده قوي، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ ناصر الدين الألباني: (٤/ ٥٧٠) حديث رقم (١٩٣٤).

(٢) رواه أحمد والدارمي وابن أبي شيبة والحاكم وصححه ووافقه الذهبي، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٨) حديث رقم: (٤).

بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز، أو بذل ذليل، عزّاً يعز الله به الإسلام، وذلاً يذل به الكفر»[1].

وقد أخبر الرسول ﷺ بأننا سنقاتل الترك والتتار، ففي صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «إن من أشراط الساعة أن تقاتلوا قوماً ينتعلون نعال الشعر، وإن من أشراط الساعة أن تقاتلوا قوماً عراض الوجوه كأن وجوههم المجان المُطْرقة».

وفي رواية لهما عن أبي هريرة: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا الترك، صغار الأعين حمر الوجوه، ذلف الأنوف، كأن وجوههم المجان المطرقة، ولا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً نعالهم الشعر» واللفظ للبخاري[2].

وقد وقع الأمر كما أخبر الرسول ﷺ فقد قاتل المسلمون الترك أكثر من مرة، يقول النووي في التتار الذين اجتاحوا العالم الإسلامي: «وقد وجدوا في زماننا، أي الترك الذين تحدث عنهم الرسول ﷺ هكذا.. بجميع صفاتهم التي ذكرها ﷺ: صغار الأعين، حمر الوجوه، ذلف الوجوه، عراض الوجوه، كأن وجوههم المجان المطرقة، ينتعلون الشعر،

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه، وابن عروبة في المنتقى من الطبقات، وأورده الشيخ ناصر الدين في سلسلة الأحاديث الصحيحة: (١/ ٧)، حديث رقم: (٣).

(٢) رواه البخاري في كتابه الجهاد، باب كتاب الترك، وفتح الباري: (٦/ ١٠٣). ورواه مسلم في كتاب الفتن، (٤/ ٢٢٣٣) حديث رقم (٢٩١٢).

(والمجان) جمع مجن، وهو الترس، و (المطرقة): هي التي ألبست العقب وأطرقت به طاقة فوق طاقة، قالوا: ومعناه تشبيه وجوه الترك في عرضها وتلون وجناتها بالترسة المطرقة، والمراد (بذلف الأنوف) أي: فطس الأنوف. قصارها مع الانبطاح، وقيل: هو غلظ في أرنبة الأنف، وقيل: تطامن فيها، وكله متقارب.

فوجدوا بهذه الصفات كلها في زماننا، وقاتلهم المسلمون مرات، وقتالهم الآن، ونسأل الله الكريم إحسان العاقبة للمسلمين في أمرهم، وأمر غيرهم، وسائر أحوالهم، وإدامة اللطف بهم والحماية، وصلى الله وسلم على رسوله الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى»[1].

(١) شرح النووي على مسلم: (١٨/٣٨)، وواضح تأثر النووي بنبوءة الرسول ﷺ، لأنه كان يشرح الحديث والمعركة مستعرة بين المسلمين وهؤلاء الذين تحدث الرسول عن قتال المسلمين لهم، وقد رأى وصفهم بأم عيني رأسه.

المبحث الثاني

خروج الدجالين أدعياء النبوة

أخبر الرسول ﷺ أنه سيخرج في هذه الأمة دجالون يدعون النبوة، وقد أخبر الرسول ﷺ أن عددهم قريب من ثلاثين، وحددهم في بعض الأحاديث بسبعة وعشرين، والمراد بأدعياء النبوة هؤلاء الذين يثيرون فتنة ويتبعهم الناس، ويغترون بباطلهم، أما الذين ادعوها ولم يأبه الناس لهم فكثير.

ففي صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كل يزعم أنه رسول الله»[1].

وفي صحيح مسلم عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم الأنبياء، لا نبي بعدي»[2].

وفي مسند أحمد، ومشكل الآثار للطحاوي، ومعجم الطبراني الكبير والأوسط بإسناد صحيح عن حذيفة عن النبي ﷺ قال: «في أمتي كذابون، ودجالون سبعة وعشرون، منهم أربعة نسوة، وإني خاتم النبيين، لا نبي بعدي»[3].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الفتن، فتح الباري: (١٣/ ٨١).

(٢) ورواه مسلم في صحيحه، انظر جامع الأصول: (١٠/ ٤٠٤).

(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٤/ ٦٥٤)، ورقمه (١٩٩٩).

وقد خرج من هؤلاء عدد كبير في الماضي، ففي عهد الصحابة خرج مسيلمة الكذاب، والأسود العنسي، وسجاح الكاهنة، وفي عصر التابعين خرج المختار الثقفي مدعياً النبوة، ومنذ أكثر من قرن قام حسين بن علي ابن الميرزا عباس في إيران مدعياً النبوة[1]، ولقب ببهاء الله وأتباعه البهائية، وآخر من سمعنا عنه دعوى النبوة محمود محمد طه السوداني الذي أضل كثيراً من الناس بكتاباته ومقالاته، وقد أعدم في طليعة هذا العام[2]، أعدمته حكومة السودان بسبب ضلاله وكفره وردته، فلعنة الله على الظالمين. إلا أن الدجال الكبير هو ذلك الذي يخرج آخر الزمان، وينزل الله عيسى ابن مريم للقضاء على فتنته.

---

(١) ولد بطهران في عام ١٢٣٣ هـ، وتوفي في عكا بفلسطين عام ١٣٠٩ هـ.

(٢) عام ١٩٨٥ م.

المبحث الثالث

الفتن

المطلب الأول

التحذير من الفتن

الإنسان الصالح هو المسلم المستقيم على الدين الذي أنزله تبارك وتعالى، والأمة الصالحة هي الأمة التي تأخذ هذا الدين وتستقيم عليه، ثم إن الفرد المسلم، والأمة المسلمة كلهم يبتلى بشتى أنواع البلاء، وقد يثور البلاء من داخل الأمة بسبب الأهواء والفرقة والخصام، وقد يتمثل في عدو حاقد على هذه الأمة يجتاحها ويستذلها، وقد يصل البلاء النابع من الفرقة والخصام إلى حد أن يسل بعضها على بعض السيوف، فتزهق الأرواح، وتسيل الدماء، وتنتهك الحرمات، وتسلب الأموال.

وقد أطلع الله رسوله عليه السلام على كثير من البلايا والفتن التي ستبتلى بها الأمة الإسلامية في مقبل الزمان، ولذلك فإن الرسول ﷺ أطال في تحديث الصحابة عن تلك الفتن، وبيان المخرج منها، يقول أبو زيد عمرو بن أخطب، صلى بنا رسول الله ﷺ الفجر، وصعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر، فنزل فصلى، ثم صعد المنبر، فخطبنا حتى حضرت العصر، ثم صعد المنبر، فخطبنا حتى غربت الشمس، فأخبرنا بما هو كائن، فأعْلَمُنا أحفَظُنا»[1].

---

(١) رواه مسلم في كتاب الفتن، باب إخبار النبي ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة، (٤/٢٢١٧) =

ولعل هذا المقام هو الذي ذكره حذيفة بن اليمان، فقد ثبت عنهِ أنه قال: «قام فينا رسول الله ﷺ مقاماً، ما ترك شيئاً يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة، إلا حدث به، حفظه من حفظه، ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابي هؤلاء، وإنه ليكون منه الشيء قد نسيته فأراه فأذكره، كما يذكر الرجل وجه الرجل قد غاب عنه، ثم إذا رآه عرفه»[1].

وبعض هذه الفتن شديدة مظلمة ومنها خفيف، ففي حديث حذيفة في صحيح مسلم عن الفتن: «منهن (أي من الفتن) ثلاث لا يكدن يذرن شيئاً، ومنهن فتن كرياح الصيف، منها صغار، ومنها كبار»[2].

ويبلغ من شدة هذه الفتن أن تخرج المسلم عن دينه، ففي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح المرء مؤمناً، ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع أحدكم دينه بعرض قليل من الدنيا» رواه أحمد ومسلم والترمذي[3].

وفي حديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «يكون بين يدي الساعة فتن كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً، ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً، ويصبح كافراً، يبيع أقوام دينهم بعرض من الدنيا» أخرجه الترمذي في سننه، وقال: حديث حسن صحيح[4].

= ورقمه: (٢٨٩٢).

(١) المصدر السابق.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الفتن، باب إخبار النبي ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة: (٤/ ٢٢١٦) ورقمه: (٢٨٩١).

(٣) صحيح الجامع الصغير: (٣/ ٤).

(٤) جامع الأصول: (١٠/ ٣٨٣).

ويبلغ ثقل هذه الفتن وشدتها على المسلم أن يتمنى الموت ويرجوه كي يتخلص من البلاء، فعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل، فيقول: يا ليتني كنت مكانه» رواه البخاري ومسلم[1]، وفي رواية عند مسلم: «والذي نفسي بيده، لا تذهب الدنيا حتى يمر الرجل على القبر فيتمرغ عليه، ويقول: يا ليتني كنت مكان صاحب هذا القبر، وليس به الدَّين إلا البلاء»[2].

وإن من أعظم الأسباب التي توقع في الفتن والبلاء قلة العلم، وكثرة الجهل، وترك الإسلام، وارتكاب الذنوب والمعاصي، وانتهاك الحرمات، فعن عبد الله بن مسعود وأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «إن بين يدي الساعة أياماً ينزل فيها الجهل، ويرفع العلم، ويكثر الهرج، والهرج: القتل» أخرجه البخاري ومسلم[3].

وعن أنس، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم، ويكثر الجهل، ويكثر الزنا، ويكثر شرب الخمر، ويقل الرجال، ويكثر النساء، حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد» وفي رواية: «يقل العلم، ويظهر الجهل» متفق عليه[4].

والسبب في قلة الرجال وكثرة النساء كما جاء ذلك مبنياً في بعض الأحاديث- الحروب التي تقع في ذلك الزمان، وقد كثر في الأحاديث

---

(١) رواه البخاري، كتاب الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى يغبط أهل القبور، فتح الباري: (١٣/ ٧٥) ورواه مسلم كتاب الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل.. (٤/ ٢٢٣١).

(٢) صحيح مسلم، في الكتاب والباب الذي سبق ذكره.

(٣) جامع الأصول: (١١/ ٤٠٨) ورقمه (٧٩٢٤).

(٤) مشكاة المصابيح: ٣/ ٢١.

إخبار الرسول ﷺ بكثرة القتل في آخر الزمان، وليس المراد به قتل المسلمين للكفار، وإنما هو قتل بعض المسلمين لبعض، وفي كثير من الأحيان لا تعرف أسباب ذلك القتل ولا أهدافه، ففي الحديث عن أبي موسى الأشعري أن النبي ﷺ قال: «إن بين يدي الساعة الهرج، قالوا: وما الهرج؟ قال: القتل، إنه ليس بقتلكم المشركين، ولكن قتل بعضكم بعضاً، [حتى يقتل الرجل جاره، ويقتل أخاه، ويقتل عمه، ويقتل ابن عمه]، قالوا: ومعنا عقولنا يومئذ؟ قال: إنه لتنزع عقول أهل ذلك الزمان، ويخلف له هباء من الناس؟ يحسب أكثرهم أنهم على شيء، وليسوا على شيء»[1].

وروى أبو هريرة عن الرسول ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده، ليأتين على الناس زمان لا يدري القاتل في أي شيء قَتَل، ولا يدري المقتول على أي شيء قُتِل»[2].

---

(١) رواه أحمد بإسناد صحيح (انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة) للشيخ ناصر الدين الألباني: (٤/٢٤٨).

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل (٢/٢٢٣١)، ورقمه: (٢٩٠٨).

المطلب الثاني

نماذج من الفتن

أولاً: مقتل الخليفة الراشد عثمان وافتراق الأمة

من أعظم الفتن التي أخبر بها الرسول ﷺ تلك الفتنة التي أدت إلى مقتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان وفرقة الأمة الإسلامية، ومن ثم جعل بأسها بينها، فقد سل بعضها السيوف على بعض، وسالت الدماء الطاهرة الطيبة من الفريقين المسلمين المتخاصمين، وأصدق وصف لتلك الفتنة أنها كانت تموج كموج البحر.

ففي حديث حذيفة أنه كان جالساً عند عمر بن الخطاب، إذ قال: «أيكم يحفظ قول النبي ﷺ في الفتنة؟ قال حذيفة: فتنة الرجل في أهله وماله وولده وجارِهِ يكفرها الصلاة والصدقة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال ليس عن هذا أسألك، ولكن التي تموج كموج البحر، فقال: ليس عليك منها بأس يا أمير المؤمنين، إن بينك وبينها باباً مغلقاً، قال عمر: أيكسر أم يفتح؟ قال: بل يكسر، قال عمر: إذاً لا يغلق أبداً، قلت: أجل. قلنا لحذيفة: أكان عمر يعلم الباب: قال: نعم، كما أعلم أن دون غد ليلة، وذلك أني حدثته حديثاً ليس بالأغاليط، فهبنا أن نسأله عن الباب، فأمرنا مسروقاً فسأله، فقال: من الباب؟ قال: عمر»[1].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الفتن، باب الفتنة التي تموج كموج البحر، فتح الباري: (١٣/٤٨). ورواه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن، باب الفتنة التي تموج كموج البحر، (٤/٢٢١٨) واللفظ للبخاري.

وقد حدد الرسول ﷺ العام الذي تقع فيه الفتنة، ففي حديث عبد الله ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «تدور رحى الإسلام بعد خمس وثلاثين، فإن يهلكوا فسبيل من هلك، وإن يقم لهم دينهم -يقم لهم سبعين عاماً، قلت: (وفي رواية قال عمر: يا نبي الله): مما بقي، أو مما مضى؟ قال: مما مضى»[1]. وقد سماها رحى الإسلام تشبيها للحرب بالرحى، لأنها تطحن المقاتلين، كما يطحن الرحى الحب، وأشار الرسول ﷺ في بقية الحديث إلى مدة حكم بني أمية، فقد كانت مدته سبعين عاماً.

وقد صرح في بعض الروايات بما يكون من حال الأمة في تلك الفتنة، ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان، وتكون بينهما مقتلة عظيمة، ودعواهما واحدة»[2].

ثانياً: فتنة الخوارج

من آثار الفتن الفرقة والاختلاف، وقد أخبرنا الرسول ﷺ عن خروج أقوام في آخر الزمان، لهم دور كبير في فرقة الأمة الإسلامية، إذ يدعي هؤلاء العلم، ويجهدون أنفسهم في العبادة، ويدعون إلى كتاب الله، ولكنهم جهلاء، أحكامهم جائرة، وآراؤهم قاصرة، يسفكون دماء

(١) حديث صحيح، أخرجه أبو داود، والطحاوي في مشكل الآثار، والحاكم، وأحمد وغيرهم، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ ناصر الدين الألباني، (٢/ ٧٠٣)، حديث رقم (٩٧٦).

(٢) رواه البخاري، كتاب المناقب، حديث رقم (٣٦٠٨، ٣٦٠٩) فتح الباري: (٦/ ٥١٦) ورواه مسلم، كتاب الفتنة، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، (٤/ ٢٢١٤) واللفظ لمسلم.

مخالفيهم من المسلمين، ويجهلون الصحابة والعلماء، ففي الحديث المتفق عليه عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «سيخرج في آخر الزمان قوم أحداث الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من قول خير البرية، يقرؤون القرآن، لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميّة، فإذا لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم عند الله يوم القيامة»[1].

وفي سنن أبي داود وسنن ابن ماجة ومستدرك الحاكم ومسند أحمد عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «سيكون في أمتي اختلاف وفرقة، قوم يحسنون القيل، ويسيئون الفعل، يقرؤون القرآن، لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية، لا يرجعون حتى يرتد السهم إلى فُوقه، هم شرار الخلق والخليقة، طوبى لمن قتلهم وقتلوه، يدعون إلى كتاب الله، وليسوا منه في شيء، من قاتلهم كان أولى بالله منهم، سيماهم التحالق»[2].

وقد خرجت هذه الفرقة في عهد الصحابة، وكفرت الصحابة، واستباحت دماء المسلمين، وأحدثت في الأمة بلاء كبيراً.

---

(١) صحيح الجامع: (٣/ ٢١٣).

(٢) صحيح الجامع: (٣/ ٢١٧).

المطلب الثالث

كيفية الخلاص من الفتن

اجتهد كثير من الصحابة في التعرف على الفتن التي ستعصف بالأمة وتبين طريق النجاة والخلاص منها، من هؤلاء بل في مقدمتهم حذيفة بن اليمان فقد صح عنه أنه قال: «إني لأعلم الناس بكل فتنة هي كائنة، فيما بيني وبين الساعة»[1].

وقد كان حذيفة يكثر من سؤال الرسول ﷺ عن الفتن حتى لا يقع فيها، ففي صحيح البخاري عن حذيفة قال: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم، قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم، وفيه دخن، قلت: ما دخنه؟ قال: قوم يهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر، قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم قذفوه فيها. قلت: يا رسول الله: صفهم لنا. قال: هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا. قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك»[2].

---

(١) صحيح مسلم كتاب الفتن، باب إخبار الرسول ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة: (٤/ ٢٢١٦) ورقمه (٢٨٩١).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب كيف يكون الأمر إذا لم تكن جماعة، فتح الباري (١٣/ ٣٥).

وفي حديث العرباض بن سارية أمر الرسول ﷺ بالتمسك بالإسلام، وطاعة الإمام، والتزام سنة الرسول ﷺ وسنة خلفائه الراشدين المهديين من بعده، فقد روى عبد الرحمن بن عمرو السلمي أنه سمع العرباض بن سارية يقول: «وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقلنا: يا رسول الله، إن هذه لموعظة مودع فماذا تعهد إلينا؟ قال: «تركتكم على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك، ومن يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وعليكم بالطاعة، وإن عبداً حبشياً، فإنما المؤمن كالجمل الأنف، حيثما قيد ينقاد»[1].

كيف يتصرف المسلم في الحروب التي تثور بين المسلمين

أرشد الرسول ﷺ أمته إلى كيفية التصرف في مثل هذه الفتن التي تثور بين المسلمين، حيث يخفى الحق، وتضطرب الأمور، فقد دعا الرسول ﷺ إلى اجتناب الصراع والقتال في مثل هذه الحال، والاعتزال في مكان ناء، يرعى الرجل الغنم في قمم الجبال، أو يجاهد الأعداء على حدود الدولة المسلمة، فإن وصلت إليه سيوف المتحاربين، فقد أمر بأن يمتنع عن الدفاع عن نفسه، ولو كان في هذا هلاكه، فقد روى لنا أبو بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنها ستكون فتن، ألا ثَمَّ ستكون فتنة، القاعد فيها خير من الماشي فيها، والماشي خير من الساعي إليها، ألا فإذا نزلت أو

(١) حديث صحيح، أخرجه ابن ماجة، والترمذي، وأحمد، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة، للألباني (٢/ ٦٤٧)، حديث رقم (٩٣٧).

وقعت، فمن كان له إبل فليلحق بإبله، ومن كان له غنم فليلحق بغنمه، ومن كان له أرض فليلحق بأرضه. قال: فقال رجل: يا رسول الله، أرأيت من لم يكن له إبل ولا غنم ولا أرض؟ قال: يعمد إلى سيفه فيدق على حده بحجر، ثم لينج إن استطاع النجاء، اللهم هل بلغت؟ اللهم هل بلغت؟ فقال رجل: يا رسول الله، أرأيت إن أكرهت حتى ينطلق بي إلى أحد الصفين، أو إلى إحدى الفئتين؟ فضربني رجل بسيفه، أو يجيء سهم فيقتلني؟ قال: يبوء بإثمه وإثمك، ويكون من أصحاب النار»[1].

وعن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن» رواه البخاري[2].

وفي حديث أبي هريرة عند الحاكم أن رسول الله ﷺ قال: «أظلتكم فتن كقطع الليل المظلم، أنجى الناس منها صاحب شاهقة، يأكل من رسل غنمه، أو رجل من وراء الدروب، آخذ بعنان فرسه، يأكل من فيء رمحه»[3].

وقد بين الرسول ﷺ لأبي ذر كيف يتصرف في الفتنة، فقال له: «أرأيت إن قتل الناس بعضهم بعضاً حتى تغرق حجارة الزيت من الدماء[4]، كيف تصنع؟ قال: اقعد في بيتك، وأغلق عليك بابك، قال: فإن لم أترك؟ قال: فأت من كنت معه، فكن فيهم. قال: فآخذ سلاحي؟

---

(١) رواه مسلم في كتاب الفتن، باب نزول الفتن: (٤/ ٢٢١٢)، ورقمه (٢٨٨٧).

(٢) رواه البخاري، باب التعرب في الفتنة، فتح الباري: (١٣/ ٤٠). ورقمه: (٧٠٨٨).

(٣) رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣/ ٤٦٦) (٤/ ٦٤٢).

(٤) حجارة الزيت: موضع في المدينة المنورة.

قال: إذاً تشاركهم فيما هم فيه، ولكن إن خشيت أن يروعك شعاع السيف فألق من طرف ردائك على وجهك، كي يبوء بإثمه وإثمك، ويكون من أصحاب النار»[1].

وقد احتج بالأحاديث التي سقناها وما أشبهها من لم ير القتال في الفتنة من الصحابة، «وهم كل من ترك القتال مع علي بن أبي طالب في حروبه، كسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، ومحمد بن مسلمة، وأبي بكرة، وغيرهم وقالوا: يجب الكف حتى لو أراد أحد قتله لم يدفعه عن نفسه، ومنهم من قال: لا يدخل في الفتنة، فإن أراد أحد قتله دفع عن نفسه، وذهب جمهور الصحابة والتابعين إلى وجوب نصر الحق وقتال الباغين، وحمل هؤلاء الأحاديث الواردة في ذلك على من ضعف على القتال، أو قصر نظره عن معرفة صاحب الحق»[2].

وقال الطبري: «الفتنة أصلها الابتلاء، وإنكار المنكر واجب على من قدر عليه، فمن أعان المحق أصاب، ومن أعان المخطىء أخطأ، وإن أشكل الأمر فهي الحالة التي ورد النهي عن القتال فيها»[3].

ولا شك أن تبين الحق والصواب في مثل هذه الظروف التي تقع فيها الفتن، وتظهر فيها الأهواء صعب جداً، والأقرب إلى السلامة هو البعد والاعتزال، كيلا يصيب المسلمُ دماً حراماً، ولا يؤذي مسلماً، والله أعلم بالصواب.

---

(١) حديث صحيح، رواه أحمد وأبو داود وابن حبان والحاكم، انظر صحيح الجامع الصغير: (٦/ ٢٥٨).

(٢) فتح الباري: (١٣/ ٣٣).

(٣) فتح الباري: (١٣/ ٣١).

المطلب الرابع

بؤرة الفتن ومصدرها

أخبرنا الرسول ﷺ بالجهة التي تهب منها رياح الفتن على الديار الإسلامية، ففي صحيحي البخاري ومسلم وموطأ مالك عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رأس الكفر نحو المشرق، والفخر والخيلاء في أهل الخيل والإبل والفدادين أهل الوبر، والسكينة في أهل الغنم»[1].

وعن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ أنه قام إلى جنب المنبر، فقال: «الفتنة هاهنا، من حيث يطلع قرن الشيطان، أو قال: قرن الشمس». رواه البخاري ومسلم، وفي رواية لمسلم عن عائشة: «رأس الكفر ها هنا من حيث يطلع قرن الشيطان»[2]، وفي حديث آخر عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم بارك لنا في شامنا، اللهم بارك لنا في يمننا، قالوا يا رسول الله: وفي نجدنا؟ فأظنه قال في الثالثة: هناك الزلازل والفتن، وبها يطلع قرن الشيطان»[3].

وأصل النجد ما ارتفع من الأرض، وقال الخطابي: نجد من جهة المشرق، ومن كان بالمدينة كان نجده بادية العراق، ونواحيها وهي مشرق

---

(١) جامع الأصول: (١٠/ ٦١)، ورقم الحديث: (٧٥٢٨).

(٢) رواه البخاري، كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ (الفتنة من قبل الشرق) فتح الباري: (١٣/ ٤٥) ومسلم في صحيحه، كتاب الفتن، باب الفتن من المشرق (٤/ ٢٢٢٩) حديث رقم (٢٩٠٥).

(٣) صحيح البخاري: كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: الفتنة من قبل المشرق، فتح الباري: (١٣/ ٤٥).

أهل المدينة، وأصل النجد ما ارتفع من الأرض، وهو خلاف الغور، فإنه ما انخفض منها، وتهامة كلها من الغور، ومكة من تهامة[1].

ولا شك أن العراق في جهة المشرق، وأنها تعد بالنسبة للمدينة نجداً، وهذا ما فقهه سالم بن عبد الله بن عمر، فعندما كان أهل العراق يرتكبون العظائم ويسألون عن التوافه من الأمور، قال لهم سالم: «يا أهل العراق، ما أسألكم عن الصغيرة، وأركبكم للكبيرة! سمعت أبي يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الفتنة تجيء من ها هنا» وأومأ بيده نحو المشرق: «من حيث يطلع قرنا الشيطان»، وأنتم يضرب بعضكم رقاب بعض[2].

ومن استقرأ التاريخ علم أن الفتن كانت تهب على الأمة الإسلامية والعالم الإسلامي من جهة المشرق، فمنها ثارت الفتنة التي أدت إلى مقتل الخليفة الراشد عثمان، ومنها خرجت فرقة الحرورية المارقة: الخوارج، وبقيت رياح الخوارج تعصف بالأمة في العهد الأموي، وبها قامت ثورة الزنج في عام ٢٥٥ هـ بالبصرة، وفي عام ٢٧٨ هـ انبعثت منها حركة القرامطة، ومن اطلع على ما أحدثه الزنج والقرامطة في الأمة الإسلامية يذهل مما ارتكبوه من فظائع.

وليس المشرق قصراً على العراق، فمن الشرق هبت رياح التتار، وسيبقى الأمر كذلك إلى أن تأتي رايات الدجال من خراسان كما أخبر الرسول ﷺ.

---

(١) فتح الباري: (١٣/ ٤٧).

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن، باب الفتنة من المشرق (٤/ ٢٢٢٩) حديث رقم (٢٩٠٥).

ولا تعارضُ هذه الأحاديث -التي تحدد البؤرة التي تنبعث منها الفتن على الأمة الإسلامية- حديث الرسول ﷺ الذي يرويه عنه أسامة بن زيد رضي الله عنهما، قال: «أشرف النبي ﷺ على أطم من آطام المدينة، فقال: هل ترون ما أرى؟ قالوا: لا. قال: فإني أرى الفتن تقع خلال بيوتكم كوقع القطر»[1] رواه البخاري[2].

يقول ابن حجر في شرح الحديث: «اختصت المدينة بذلك لأن قتل عثمان رضي الله عنه كان بها، ثم انتشرت الفتن في البلاد بعد ذلك، فالقتال بالجمل وبصفين كان بسبب مقتل عثمان، والقتال بالنهروان كان بسبب التحكيم بصفين، وكل قتال وقع في ذلك العصر إنما تولد عن شيء من ذلك، أو عن شيء تولد عنه، ثم إن قتل عثمان كان أشد أسبابه الطعن على أمرائه، ثم عليه بتوليه لهم، وأول ما نشأ ذلك من العراق، وهي من جهة المشرق، فلا منافاة بين حديث الباب، وبين الحديث الآتي أن الفتنة من جهة المشرق»[3].

---

(١) أشار الرسول ﷺ في هذا الحديث إلى كثرة الفتن وعمومها للناس لا تختص بها طائفة دون أخرى، كما يعم المطر النواحي التي ينزل فيها، ومن قرأ التاريخ وما جرى بعد مقتل عثمان ومقتل الحسين علم صدق مقالة الرسول ﷺ.

(٢) رواه البخاري في كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ «ويل للعرب من شرٍّ قد اقترب» فتح الباري (١٣/ ١١)، ورواه مسلم (٤/ ٢٢١١) واللفظ للبخاري.

(٣) فتح الباري: (١٣/ ١٣).

المَبحث الرابع
إسناد الأمر إلى غير أهله

وضع الرجل المناسب في المكان المناسب أحد القواعد الهامة التي لا تصلح حياة البشر بدونها، ولذلك فإن الفترات التي تولى فيها الحكم أصحاب الكفاءات العالية من أصحاب الصلاح والتقى فترات مضيئة مشرقة في تاريخ الأمة الإسلامية، وأكبر مقتل يفسد نظام الحياة أن يتولى الحكم والولايات والمناصب أقوام غير أكفاء يقودون الحياة بأهوائهم، ويترك الأخيار القادرون على تسيير الأمور على النحو الأمثل والأفضل.

وقد أخبر الرسول ﷺ أن من أشراط الساعة أن يوسَّد الأمر إلى من لا يستحقه، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: «بينما رسول الله ﷺ في مجلس- يُحَدّث القوم، إذ جاءه أعرابي، فقال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله ﷺ في حديثه، فقال بعض القوم: سمع ما قاله، فكره ما قال، وقال بعضهم: بل لم يسمع، حتى إذا قضى حديثه: قال: أين السائل عن الساعة؟ قال: ها أناذا يا رسول الله، قال: «إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة، قال: وكيف إضاعتها؟ قال: إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»[1].

وروى الطحاوي في «مشكل الآثار» عن رسول الله ﷺ: «يوشك أن يغلب على الدنيا لكع ابن لكع، وأفضل الناس مؤمن بين كريمين»[2].

---

(١) جامع الأصول: (١٠/ ٣٩٦)، حديث رقم (٧٩٠٤).

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٩/٤) ورقم الحديث (١٥٠٥) وفي إسناد الحديث المرفوع =

ومن نظر في تاريخ الأمة الإسلامية علم أن هذا المرض الذي أشار إليه الرسول ﷺ هو أحد البلايا الكبار التي أصابت المسلمين إصابات كبيرة، لقد تولى أمر هذه الأمة رجال مستبدون، لا يطيقون سماع رأي مخالف لما يرونه، ففي الحديث عن معاوية أن الرسول ﷺ قال: «ستكون أئمة من بعدي، يقولون فلا يرد عليهم، يتقاحمون في النار كما تقاحم القردة» رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وأبو يعلى[1].

وبعض هؤلاء الحكام تشغلهم الشهوات والمتع عن رعاية أمور المسلمين، وبعضهم لا يعرف الحق، فإذا به يحمل الناس على مالا يعرفون، وينشر بينهم البدع والمنكرات، كما في الحديث الذي يرويه عبادة بن الصامت عن رسول الله ﷺ: «ستكون أمراء تشغلهم أشياء، يؤخرون الصلاة عن وقتها، فاجعلوا صلاتكم معهم تطوعاً»[2] رواه أبو داود وأحمد وابن ماجة بإسناد صحيح.

وفي حديث أم سلمة عند مسلم وأبي داود: «ستكون أمراء فتعرفون وتنكرون، فمن كره برىء، ومن أنكر سلم، ولكن من رضي وتابع لم يبرأ»[3].

وفي مسند أحمد ومعجم الطبراني وسنن ابن ماجه عن ابن مسعود عن الرسول ﷺ قال: «سيكون عليكم أمراء يؤخرون الصلاة عن مواقيتها، ويحدثون البدع، قال ابن مسعود: فكيف أصنع؟ قال: تسألني يا ابن أم

= ضعف. إلا أن له طريقاً صحيحة موقوفة. والموقوف له حكم المرفوع في مثل هذا.

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٤/ ٣٩٨)، ورقمه: (١٧٩٠).

(٢) صحيح الجامع الصغير: (٣/ ٢٠٥).

(٣) المصدر السابق.

عبد كيف تصنع؟ لا طاعة لمن عصى الله»[1].

ونلاحظ أن الرسول ﷺ لم يأذن بالخروج على عصاة الحكام، لما يترتب على الخروج عليهم من الفتن وسفك الدماء، هذا إذا كانوا آخذين بشريعة الله على وجه العموم.

ففي سنن النسائي ومسند ابن حبان بإسناد صحيح عن عرفجه «ستكون بعدي هنات وهنات، فمن رأيتموه فارق الجماعة، أو يريد أن يفرق أمر أمة محمد كائناً من كان فاقتلوه، فإن يد الله مع الجماعة، وإن الشيطان مع من فارق الجماعة يركض»[2].

---

(١) المصدر السابق: (٣/٢١٦).

(٢) صحيح الجامع الصغير: (٣/٢٠٦).

المبحث الخامس
فساد المسلمين

إنما يتحقق للأمة الرقي والسؤدد بمقدار ما يكون فيها من أفراد صالحين يتمثلون في أنفسهم القيم الفاضلة، والأخلاق الحميدة، ساعين إلى إقامة العدل في عالم الواقع، وتقويم المعوج، وإصلاح الفاسد، وهؤلاء هم الذين حملوا الأمانة التي أبت السماوات والأرض حملها، وأشفقت من ذلك: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

والأمانة ما ائتمن الله عليه العباد من الإيمان والتكاليف، ومن ذلك أداء ما للعباد من مال وحقوق، وقد أخبر الرسول ﷺ أن هذه الأمانة سترفع، وهذا الرفع تدريجي، ففي زمن حذيفة لاحظ شيئاً منه، ولكنه في زمننا هذا كثير، وسيأتي زمان يكون أكثر مما نحن فيه.

روى مسلم في صحيحه عن حذيفة رضي الله عنه، قال: حدثنا رسول الله ﷺ حديثين قد رأيت أحدهما، وأنا أنتظر الآخر «حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن، وعلموا من السنة، ثم حدثنا عن رفع الأمانة، قال: ينام الرجل النومة، فتقبض الأمانة من قلبه، فيظلُّ أثرها مِثلَ الوَكْت، ثم ينام النومة، فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مِثلَ المَجْل كجَمْرٍ دحرجه على رجلك، فَنَفِط، فتراه مُنْتبراً، وليس فيه شيء، ثم أخذ حصىً فدحرجه على رجله، فيصبح

الناس يتبايعون، لا يكاد أحد يؤدي الأمانة، حتى يقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً، حتى يقال للرجل: ما أجلده! ما أظرفه! ما أعقله! وما في قلبه مثقال حبة من خَرْدلٍ من إيمان».

يقول حذيفة: «ولقد أتى عليَّ زمان، ولا أبالي أيكم بايعتُ، لئن كان مسلماً ليردنه عليَّ دينُه، ولئن كان نصرانياً أو يهودياً ليردنه عليَّ ساعيه، وأما اليوم فما كنت لأبايع منكم إلا فلاناً وفلاناً»[1].

ومراد الرسول ﷺ أنها نزلت في جذر قلوب الرجال، أي: في أصلها وأعماقها، ثم إن الأمانة تنزع ويبقى أثرها فحسب، والوَكْت: هو اللون الباهت الذي يخلف اللون الأصلي، ومراده بالمَجْل: هو أثر التنفيط، والنفط الذي تحدثه النار إذا دحرجته على رجل الإنسان كما في الحديث.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب رفع الأمانة: (١/ ١٢٦)، ورقمه: (١٤٣).

المبحث السادس
ولادة الأمة ربتها، وتطاول الحفاة العراة رعاة الشاة في البنيان

روى مسلم في صحيحه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في مجيء جبريل إلى الرسول ﷺ في صورة رجل يلبس الملابس البيضاء الناصعة، له شعر شديد السواد، وسأل الرسول ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان وأجابه الرسول ﷺ، ثم سأله عن الساعة، فقال الرسول ﷺ: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، قال فأخبرني عن أمارتها، قال: أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة رِعاء الشاءِ يتطاولون في البنيان»[1].

وروى ابن عباس إجابة الرسول ﷺ عن السؤال بقوله: «إذا رأيت الأمة ولدت ربتها أو ربها، ورأيت أصحاب الشاء يتطاولون في البنيان، ورأيت الحفاة الجياع العالة كانوا رؤوس الناس، فذلك من معالم الساعة وأشراطها». قال: يا رسول الله، ومن أصحاب الشاء والحفاة الجياع العالة؟ قال: العرب[2].

قال ابن رجب في تعليقه على الحديث: «مضمون ما ذكر من أشراط

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، أنظر جامع العلوم والحكم: ص ٢١.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/٣١٨-٣١٩)، وقال الشيخ ناصر فيه بعد أن ذكر إسناده: وهذا إسناد لا بأس فيه في الشواهد، سلسلة الأحاديث الصحيحة، (٣/ ٣٣٢)، حديث رقم: (١٣٤٥).

الساعة في هذا الحديث يرجع إلى أن الأمور توسد إلى غير أهلها، كما قال النبي ﷺ لمن سأله عن الساعة: «إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»، فإذا صار الحفاة العراة رعاء الشاء وهم أهل الجهل والجفاء رؤوس الناس وأصحاب الثروة والأموال حتى يتطاولوا في البنيان فإنه يفسد بذلك نظام الدين والدنيا...»[1].

والمراد بقوله: «أن تلد الأمة ربتها»، أي: سيدتها ومالكتها، قال العلماء: هو إخبار عن كثرة السراري وأولادهن فإن ولدها من سيدها بمنزلة سيدها، لأن مال الإنسان صائر إلى ولده، وقد يتصرف فيه في الحال تصرف المالكين، إما بتصريح أبيه له بالإذن، وإما بما يعلمه بقرينة الحال أو عرف الاستعمال.

وقيل: معناه أن يلدن الملوك فتكون أمه من جملة رعيته وهو سيدها وسيد غيرها من رعيته[2]، وكل هذا وقع، فقد كثر تسري الأحرار من الإماء بملك اليمين، ومن المعلوم شرعاً أن الأبناء الذين يأتون من السراري يكونون أحراراً، وبذلك ولدت الأمة ربتها، وقد وصل بعض هؤلاء إلى الملك

---

(١) جامع العلوم والحكم، لابن رجب: ص ٣٩.

(٢) شرح النووي على مسلم: (١/١٥٨).

المبحث السابع
تداعي الأمم على الأمة الإسلامية

من علامات الساعة تكالب أمم الكفر على هذه الأمة، ففي الحديث عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «يُوشِك الأمم أن تداعى عليكم، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذٍ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوَهْن، فقال قائل: يا رسول الله وما الوَهْن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت»[1].

وقد وقع هذا عبر التاريخ أكثر من مرة، عندما تداعت الأمم الصليبية إلى غزو هذه الأمة، ومرة أخرى عند اجتياح التتار العالم الإسلامي، ولكن هذه النبوءة تحققت في القرن الأخير بصورة أوضح فقد اتفق الصليبيون واليهود والملاحدة على هدم الخلافة الإسلامية، ثم جزؤوا الديار التي كانت تحكمها، وتقاسموا ديار المسلمين فيما بينهم، وأعطوا فلسطين لليهود، وأصبح المسلمون أضيع من الأيتام على مأدبة اللئام، ولا تزال قوى الشر إلى اليوم متداعية لتدمير هذه الأمة وامتصاص خيراتها، ونهب ثرواتها، وإذلال رجالها، والأمة الإسلامية خانعة ذليلة، لم تغن عنها

---

(١) الحديث بمجموع طرقه صحيح، كما قال الشيخ ناصر الدين الألباني، وقد عزاه إلى أبي داود، والروياني، وابن عساكر، وأحمد في مسنده، وأبو نعيم في (الحلية) وغيرهم (سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٢/ ٦٨٤)، حديث رقم (٩٥٨).

كثرتها، غثاء كغثاء السيل، وعلتها كما أخبر الرسول ﷺ: الوَهْن: حب الدنيا، وكراهية الموت.

السِّر في هذا التداعي

إن اعتصام هذه الأمة بدينها ووحدتها حاجز يقف دون مطامع أعدائها، فمهما كان مكر الأعداء وقوتهم فإنهم لن ينالوا من هذه الأمة نيلاً إذا كانت متحدة، وفي الحديث الذي يرويه ثوبان أن الرسول ﷺ قال: «وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بِسَنَةٍ عامة، وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، وإنَّ ربي قال: يا محمد، إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة، وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم، يستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها، أو قال من بين أقطارها، حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً»[1].

وواضح من الحديث أن وحدة الأمة عصمة لها من أعدائها، فإذا أصبح بأسها بينها، ووقعت الفرقة والاختصام فيما بينها سلط الله عليها أعداءها، وتلك نتيجة حتمية لأن قوتها في هذه الحال لا تتجه إلى الأعداء، بل إلى نفسها فتدمر نفسها بنفسها، مما يطمع أعداءها فيها.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، (٢/ ٢٢١٥) حديث رقم (٢٨٨٩) والمراد بالبيضة، أي: جماعتهم وأصلهم، والبيضة أيضاً: العزّ والملك. والمراد بقوله: «أن لا أهلكهم بسنة عامة» أي: لا أهلكهم بقحط يعمهم، بل إن وقع قحط يكون في ناحية يسيرة، بالنسبة إلى باقي بلاد الإسلام.

المبحث الثامن
الخسف والقذف والمسخ الذي يعاقب الله به أقواماً من هذه الأمة

يقع في هذه الأمة من أنواع البلاء الخسف والقذف والمسخ بسبب تعاطيها للذنوب والمعاصي واستعلان ذلك فيها، كشرب الخمر ولبس الرجال الحرير، وتعاطي الزنا، وأكل الربا، ونحو ذلك من الفساد الذي يصل درجة استحلال الحرام.

ففي معجم الطبراني الكبير بإسناد صحيح عن سهل بن سعد أن الرسول ﷺ قال: «سيكون في آخر الزمان خسف وقذف ومسخ، إذا ظهرت المعازف والقينات، واستحلت الخمر»[1].

ورواه ابن ماجه عن عبد الله بلفظ «بين يدي الساعة مسخ، وخسف، وقذف» ولهذا الحديث شواهد كثيرة تشهد بصحته، منها حديث عائشة عند الترمذي: «يكون في هذه الأمة خسف ومسخ وقذف، قالت: قلت: يا رسول الله! أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم، إذا ظهر الخبث».

ومنها حديث عمران، وهو قريب من حديث عائشة إلا أنه قال: «فقال رجل من المسلمين: يا رسول الله ومتى ذلك؟ قال: إذا ظهرت القينات والمعازف، وشربت الخمور» أخرجه الترمذي[2].

---

(١) ورواه الطبراني أيضاً في معجمه «الكبير والأوسط» عن أبي سعيد، ورواه الترمذي عن عمران بن حصين، انظر «صحيح الجامع الصغير»: (٣/ ٣١٦) حديث رقم (٣٥٥٩).

(٢) انظر الكلام على روايات الحديث في: سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٤/ ٢٩٣) حديث رقم (١٧٨٧).

وروى أبو نعيم في أخبار أصبهان بإسناده إلى ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «ليبيتن أقوام من هذه الأمة على طعام وشراب ولهو، فيصبحوا قد مسخوا قردة وخنازير»[1].

وروى البخاري تعليقاً عن أبي عامر أو أبي مالك أن النبي ﷺ، قال: «ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحِرَ والحرير والخمر والمعازف، ولينزلن أقوام إلى جنب عَلَمٍ، يروح عليهم بسارحةٍ لهم، يأتيهم لحاجة، فيقولون: ارجع الينا غداً، فيبيتهم الله، ويضع العلم، ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة» وقد وصل الحديث الطبراني والبيهقي وابن عساكر وغيرهم، وإسناده صحيح، وقد أخطأ ابن حزم في تضعيفه للحديث[2].

ومن الخسوف الكبيرة التي تكون قرب قيام الساعة، الخسف بجيش كامل في آخر الزمان، كما في الحديث الذي يرويه أحمد والحميدي عن بقيرة امرأة القعقاع ابن أبي حدرد الأسلمي، قات: سمعت رسول الله ﷺ على المنبر يقول: «يا هؤلاء، إذا سمعتم بجيش قد خسف به قريباً، فقد أظلت الساعة»[3].

ولعل هذا الجيش الذي يخسف به قرب المدينة، ويدل على هذا قوله: «قريباً».

وقد أخبرنا الرسول ﷺ ببعض المواضع التي يقع فيها الخسف والقذف والمسخ، ففي سنن أبي داود بإسناد صحيح عن أنس أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٤/ ١٣٥)، حديث رقم (١٦٠٤).

(٢) انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة: (١/ ١٣٩)، حديث رقم (٩١).

(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٣/ ٣٤٠) ورقم الحديث: ١٣٥٥.

«يا أنس، إن الناس يمصرون أمصاراً. فإن مصراً يقال له: البصرة، فإن أنت مررت بها أو دخلتها، فإياك وسباخها وكلأها ونخيلها وسوقها وباب أمرائها، وعليك بضواحيها، فإنه يكون بها خسف وقذف ورجف، وقوم يبيتون ويصبحون قردة وخنازير»[1].

(١) مشكاة المصابيح: (٣/١٩). ورقم الحديث: ٥٤٣٣.

المَبحث التَاسِع
استفاضة المال

من علامات الساعة كثرة المال، حتى إن الرجل يعطى المائة دينار من الذهب فيراها قليلة، ويبحث صاحب المال عن رجل فقير يقبل منه صدقة ماله فلا يجد، فقد قال الرسول ﷺ لعوف بن مالك، وكان آن ذاك في غزوة خيبر: «اعدد ستاً بين يدي الساعة» فذكرها، ومنها: «استفاضة المال، حتى يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطاً»[1].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يكثر فيكم المال، فيفيض حتى يُهِم ربُّ المال من يقبل منه صدقة، ويدعى إليه الرجل، فيقول: لا أرَبَ لي فيه»[2].

والمراد بقوله: «يُهِم ربُّ المال» أي: يحزنه، لأنه لا يجد المحتاج الذي يبذل له المال، وقوله: «لا أرَبَ لي فيه» أي: لا حاجه لي به.

وروى حارثة بن وهب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تَصدّقوا، فيوشك الرجل يمشي بصدقته، فيقول الذي أعطيها: لو جئتنا بالأمس قبلتها، فأما الآن، فلا حاجة لي بها، فلا يجد من يقبلها»[3].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه في كتاب الجهاد، باب ما يحذر من الغدر، انظر جامع الأصول: (١٠/ ٤١٢).

(٢) رواه مسلم في كتاب الزكاة، باب الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها، حديث رقم (١٠١٢) (٢/ ٧٠١).

(٣) المصدر السابق، حديث رقم (١٠١١) (٢/ ٧٠٠) ورواه البخاري: كتاب الفتن، فتح الباري: (١١/ ٨١)، واللفظ لمسلم.

ويبدو أن هذا يقع في أكثر من زمان، فقد وقع في عصر عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، فقد أخرج يعقوب بن سفيان في تاريخه من طريق عمر بن أسيد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، قال: «لا والله ما مات عمر بن عبد العزيز حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم، فيقول: اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء، فما يبرح حتى يرجع بماله، يتذكر من يضعه فيهم، فلا يجد فيرجع به، قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس»[1].

وسيأتي عند ذكر المهدي إيراد الأحاديث التي تذكر أنه سيكون خليفة يحثو المال حثواً، وسيأتي عند ذكر عيسى ذكر الأحاديث التي تذكر استفاضة المال في وقته، حتى لا يقبله أحد.

---

(١) فتح الباري: (١٣/ ٨٣).

المبحث العاشر

تسليم الخاصة، وفشو التجارة، وقطع الأرحام

روى أحمد في مسنده بإسناد صحيح، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن بين يدي الساعة تسليم الخاصة، وفشو التجارة، حتى تعين المرأة زوجها على التجارة، وقطع الأرحام، وشهادة الزور، وكتمان شهادة الحق، وظهور القلم»[1].

ومراده بتسليم الخاصة أن لا يسلم المسلم إلا على من يعرفه، كما في الحديث الآخر الذي يرويه أحمد في مسنده عن عبد الله بن مسعود أيضاً، عن النبي ﷺ قال: «إن من أشراط الساعة إذا كانت التحية على المعرفة» وفي رواية: «أن يسلم الرجل على الرجل لا يسلم عليه إلا للمعرفة»[2]. وهذا الذي أخبرنا به الرسول ﷺ قد وقع كله من قبل، وهو ظاهر مشاهد في زماننا، وهو في كثرة بإطراد وازدياد، والله المستعان.

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٢/ ٢٥٠)، ورقم الحديث: ٦٤٧.

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٢/ ٢٥٢)، ورقم الحديث: ٦٤٨.

المبحث الحادي عشر
اختلال المقاييس

أخبرنا الرسول ﷺ أن المقاييس التي يُقَوَّم بها الرجال تختل قبل قيام الساعة، فيقبل قول الكذبة ويصدق، ويرد على الصادق خبره، ويؤتمن الخونة على الأموال والأعراض، ويخون الأمناء ويتهمون، ويتكلم التافهون من الرجال في القضايا التي تهم عامة الناس، فلا يقدمون إلا الآراء الفجّة، ولا يهدون إلا للأمور المُعْوجة، فقد أخرج الإمام أحمد وابن ماجه والحاكم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «سيأتي على الناس سنوات خداعات، يُصدَّق فيها الكاذب، ويكذَّب فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن، ويخوَّن فيها الأمين، وينطق فيها الرويبضة». قيل: وما الرويبضة؟ قال: «الرجل التافه، يتكلم في أمر العامة»[1].

ومن تأمل في أحوال عالمنا اليوم وجد أننا نعيش هذا العصر الذي أخبر الرسول ﷺ عنه، فالكذبة من الكفار والمشركين الذين يملكون وكالات الأنباء والإذاعات ومن على طريقهم يصدَّقون، وأهل الصدق والعدل يكذَّبون، والأمة الإسلامية تضع أموالها في أيدي الخونة الكفرة، ويؤتمنون على ذلك، ويخون المسلمون ولا يؤتمنون على شيء من ذلك، وقد تكلم في شؤون العالم التافهون من الرجال، وقادوه قيادة هوجاء توشك أن تدمر البشرية جمعاء.

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٥٠٨/٤)، ورقم الحديث: ١٨٨٧.

المبحث الثاني عشر

شرطة آخر الزمان الذين يجلدون الناس

يكثر الظلم في آخر الزمان، حتى إن الرجال الذين يوكل اليهم القيام على الأمن وردع الظالمين يفسدون، فإذا بهم يتحولون إلى ظلمة يجلدون ظهور العباد بسياطهم، وهذا كثير مشاهد في ديار الإسلام اليوم.

روى أحمد والحاكم والطبراني في «الكبير» بإسناد صحيح عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «يكون في آخر الزمان رجال معهم سياط كأنها أذناب البقر، يغدون في سخط الله، ويروحون في غضبه»[1].

وخبر هؤلاء ومصيرهم مذكور في صحيح مسلم، فقد روى أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات، مميلات، مائلات، رؤوسهن كأسمنة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا»[2].

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٤/ ٥١٧)، ورقم الحديث: ١٨٩٣.

(٢) صحيح مسلم: (٤/ ١٦٨٠)، ورقم الحديث: (٢١٢٨).

الفصل الرابع
العلامات التي لم تقع بعد

المبحث الأول
عودة جزيرة العرب جنّات وأنهارًا

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يكثر المال ويفيض، حتى يخرج الرجل زكاة ماله، فلا يجد أحداً يقبلها، وحتى تعود أرض العرب جنات وأنهاراً» رواه مسلم[1].

وعودتها جنات وأنهاراً إما بسبب ما يقوم أهلها به من حفر الآبار، وزراعة الأرض ونحو ذلك مما هو حاصل في زماننا، وإما بسبب تغير المناخ، فيتحول مناخها الحار إلى جو لطيف جميل، ويفجر خالقها فيها من الأنهار والعيون ما يحول جدبها خصباً، ويحيل سهولها الجرداء إلى سهول مخضرة فيحاء، وهذا هو الأظهر، فإنه يحكي حالة ترجع فيها الجزيرة إلى ما كانت عليه من قبل.

---

(١) مشكاة المصابيح: (٣/ ٢١)، حديث رقم (٥٤٤٠).

المبحث الثاني

انتفاخ الأهلة

من الأدلة على اقتراب الساعة أن يرى الهلال عند بدو ظهوره كبيراً حتى يقال ساعة خروجه إنه لليلتين أو ثلاثة، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من اقتراب الساعة انتفاخ الأهلة»[1]، وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من اقتراب الساعة أن يرى الهلال قَبَلاً، فيقال: لليلتين وأن تتخذ المساجد طرقاً، وأن يظهر موت الفجأة»[2].

---

(١) أورده الشيخ ناصر الدين الألباني في صحيح الجامع الصغير (٥/ ٢١٣)، حديث رقم (٥٧٧٤)، وقال: صحيح الإسناد، وعزاه إلى الطبراني في معجمه الكبير، وأخرجه غيره من كتب السنة عن أبي هريرة.

(٢) عزاه في صحيح الجامع (٥/ ٢١٤) حديث رقم (٥٧٧٥) إلى الطبراني في الأوسط، وقال: إسناده حسن.

المبحث الثالث

تكليم السباع والجماد الإنس

روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي سعيد الخدري، قال: «عدا الذئب على شاة، فأخذها، فطلبه الراعي، فانتزعها منه، فأقعى على ذنبه، قال: ألا تتقي الله تنزع مني رزقاً ساقه الله إليَّ، فقال: يا عجبي ذئب مقع على ذنبه يكلمني كلام الإنس، فقال الذئب: ألا أخبرك بأعجب من ذلك؟ محمد ﷺ بيثرب، يخبر الناس بأنباء ما قد سبق. قال: فأقبل الراعي يسوق غنمه، حتى دخل المدينة، فزواها إلى زاوية من زواياها، ثم أتى رسول الله ﷺ فأخبره، فأمر رسول الله ﷺ فنودي بالصلاة جامعة، ثم خرج، فقال للراعي: أخبرهم، فأخبرهم، فقال رسول الله ﷺ: صدق، والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى يكلم السباع الإنس، ويكلم الرجل عذبة سوطه، وشراك نعله، ويخبره فخذه بما حدّث أهله بعده»[1].

وقد يكون هذا الذي يخبر عنه الرسول ﷺ شيئاً خارقاً للعادة خارجاً عن المألوف، كما تشهد على الإنسان أعضاؤه يوم القيامة: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]، ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٢١]، أو هو إخبار عما يصل إليه البشر من علوم ومخترعات، يستطيعون بها فقه لغة الحيوان، وينطقون بها الجماد كما هو الحال في المخترعات الجديدة (الراديو) و (التلفاز).

---

(١) إسناده صحيح، وأخرجه ابن حبان والحاكم مفرقاً، وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وأخرج الترمذي منه قوله: «والذي نفسي بيده..»، وقال: حديث حسن، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ ناصر الدين الألباني، حديث رقم (١٢٢).

المبحث الرابع

انحسار الفرات عن جبل من ذهب

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « يوشك الفرات أن يَحْسِرَ عن كنز من ذهب، فمن حضره فلا يأخذ منه شيئاً »، وفي رواية « يَحْسِر عن جبل من ذهب ».

وفي رواية عند مسلم: «لا تقوم الساعة حتى يَحْسِرَ الفرات عن جبل من ذهب يَقْتُل الناس عليه، فَيُقْتل من كل مائة تسعة وتسعون، ويقول كل رجل منهم لعلي أكون أنا الذي أنجو»[1].

ورواه مسلم عن أبي بن كعب بلفظ: «يُوشِك الفرات أن يَحْسِر عن جبل من ذهب فإذا سمع به الناس ساروا إليه، فيقول من عنده: لئن تركنا الناس يأخذون منه لَيُذْهبن به كُلِّه، قال: فيقتتلون عليه، فيقتل من كل مائة تسعة وتسعون»[2].

ومعنى انحساره: انكشافه لذهاب مائة، كما يقول النووي[3]، وقد يكون ذلك بسبب تحول مجراه، فإن هذا الكنز أو هذا الجبل مطمور

---

(١) رواه البخاري في كتاب الفتن، باب خروج النار، فتح الباري: (١٣/ ٧٨) ورواه مسلم في كتاب الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب: (٤/ ٢٢١٩)، حديث رقم (٢٨٩٤).

(٢) انظر صحيح مسلم: (٤/ ٢٢٢٠) حديث رقم (٢٨٩٥).

(٣) شرح النووي على مسلم: (١٨/ ٩).

بالتراب وهو غير معروف، فإذا ما تحول مجرى النهر لسبب من الأسباب ومرّ قريباً من هذا الجبل كشفه، والله أعلم بالصواب.

والسبب في نهي الرسول ﷺ من حضره عن الأخذ منه لما ينشأ عن أخذه من الفتنة والاقتتال وسفك الدماء.

المَبحث الخامس

إخراجُ الأرضِ كنوزَها المخبوءة

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة، فيجيء القاتل، فيقول: في هذا قَتَلْت! ويجيء القاطع، فيقول: في هذا قَطَعْت رحمي، ويجيء السارق، فيقول: في هذا قُطِعَت يدي ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً»[1].

وهذه آية من آيات الله، حيث يأمر الحقُّ الأرض أن تخرج كنوزها المخبوءة في جوفها، وقد سمى الرسول ﷺ تلك الكنوز (بأفلاذ الكبد)، وأصل الفلذ «القطعة من كبد البعير، وقال غيره: هي القطعة من اللحم، ومعنى الحديث: التشبيه، أي: تخرج ما في جوفها من القطع المدفونة فيها، والأسطوان جمع أسطوانة، وهي السارية والعمود، وشبهه بالأسطوان لعظمته وكثرته»[2].

وعندما يرى الناس كثرة الذهب والفضة يزهدون فيه، ويألمون لأنهم ارتكبوا الذنوب والمعاصي في سبيل الحصول على هذا العرض التافه.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها، حديث رقم (١٠١٣)/ ٧٠١).

(٢) شرح النووي على مسلم: (١٨/ ٩٨).

المبحث السادس

محاصرة المسلمين إلى المدينة

من أشراط الساعة أن يهزم المسلمون، وينحسر ظلهم، ويحيط بهم أعداؤهم ويحاصرونهم في المدينة المنورة.

عن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك المسلمون أن يُحَاصروا إلى المدينة، حتى يكون أبعد مَسالحهم سَلاَحٌ»[1].

والمسالح، جمع مَسْلَحة، وهي الثغر، والمراد أبعد مواضع المخافة من العدو.

وسَلاَح، موضع قريبٌ من خيبر[2].

---

(١) حديث صحيح، رواه أبو داود والحاكم، صحيح الجامع: (٦/ ٣٦٣) ورقم الحديث: (٨٠٣٣).

(٢) سنن أبي داود (٤٢٥١).

المَبحَث السَّابِع

إحراز الجهجاه الملك

الجهجاه رجل من قحطان سيصير إليه الملك، وهو شديد القوة والبطش، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه» رواه البخاري ومسلم.

وفي رواية لمسلم: «لا تذهب الأيام والليالي، حتى يملك رجل يقال له الجهجاه»[1].

ويحتمل أن يكون هذا الذي في الرواية الأخيرة غير الأول، فقد صَحَّ في سنن الترمذي عن أبي هريرة أن هذا الجهجاه من الموالي، ففي سنن الترمذي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «لا يذهب الليل والنهار حتى يملك رجل من الموالي يقال له الجهجاه»[2].

والمراد بكونه يسوق الناس بعصاه أنه يغلب الناس فينقادون له ويطيعونه، والتعبير بالسوق بالعصا للدلالة على غلظته وشدته، وأصل الجهجاه الصيَّاح، وهي صفة تناسب العصا كما يقول ابن حجر[3]، وهل يسوق هذا الرجل الناس إلى الخير أم الشر؟ ليس عندنا بيان من الرسول ﷺ بذلك.

---

(١) رواه البخاري في كتاب الفتن، باب تغير الزمان، فتح الباري: (١٣/ ٧٦).

(٢) انظر صحيح الجامع الصغير: (٦/ ٢٣٠) حديث رقم: (٧٥٦١).

(٣) فتح الباري: (١٣/ ٧٨).

المبحث الثامن

فتنة الأحلاس، وفتنة الدهماء، وفتنة الدهيماء

عن عبد الله بن عمر قال: كنا عند رسول الله ﷺ قعوداً نذكر الفتن، فأكثر من ذكرها، حتى ذكر فتنة الأحلاس، فقال قائل: وما فتنة الأحلاس؟ قال: هي فتنة هرب وحَرَب، ثمَّ فتنة السراء، دخلها أو دخنها من تحت قدمي رجل من أهل بيتي، يزعم أنه مني، وليس مني، وإنما وليي المتقون، ثم يصطلح الناس على رجل كَوَرِك على ضِلَع، ثم فتنة الدهيماء، لا تدع أحداً من هذه الأمة إلا لطمته، فإذا قيل انقطعت تمادت، يصبح الرجل فيها مؤمناً، ويمسي كافراً، حتى يصير الناس إلى فسطاطين: فسطاط إيمان لا نفاق فيه، وفسطاط نفاق لا إيمان فيه، إذا كان ذاكم فانتظروا الدجال من اليوم أو غد»[1].

والأحلاس جمع حلس، وهو الكساء الذي يلي ظهر البعير تحت القتب، شبهت به الفتنة لملازمتها للناس حين تنزل بهم كما يلازم الحلس ظهر البعير، وقد قال الخطابي: يحتمل أن تكون هذه الفتنة شبهت بالأحلاس لسواد لونها وظلمتها.

والحَرَب بفتح الراء: ذهاب المال والأهل، يقال: حَرِب الرجل فهو حريب فلان إذا سلب ماله وأهله.

---

(١) حديث صحيح، أخرجه أبو داود والحاكم وأحمد، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ ناصر الدين الألباني (٢/ ٧٠٢)، حديث رقم (٩٧٤).

والسراء النعمة التي تسر الناس من وفرة المال والعافية، وأضيفت الفتنة إليها لأن النعمة سببها، إذ إن الإنسان يرتكب الآثام والمعاصي بسبب ما يتوفر له من الخير.

وقوله: «كورك على ضلع» هذا مثل للأمر الذي لا يستقيم ولا يثبت، لأن الورك لا يتركب على الضلع ولا يستقيم معه.

والدهيماء: الداهية التي تدهم الناس بشرها.

المَبحث التَاسِع

خروج المَهدي

المطلب الأول

النصوص المعرِّفة بالمهدي

ثبت في الأحاديث الصحيحة أن الله تبارك وتعالى يبعث في آخر الزمان خليفة يكون حكماً عدلاً، يلي أمر هذه الأمة من آل بيت الرسول ﷺ من سلالة فاطمة، يوافق اسمه اسم الرسول ﷺ، واسم أبيه اسم أبي الرسول ﷺ، وقد وصفته الأحاديث بأنه أجلى الجبهة، أقنى الأنف، يملأ الأرض عدلاً، بعد أن ملئت جوراً وظلماً، ومن الأحاديث التي وردت في هذا:

١- عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي، يواطىء اسمه اسمي» رواه الترمذي وأبو داود، وفي رواية لأبي داود: قال: «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم، حتى يبعث الله فيه رجلاً مني -أو من أهل بيتي- يواطىء اسمه اسمي، واسم أبيه اسم أبي، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت جوراً وظلماً»[1].

٢- عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «المهدي

---

(١) مشكاة المصابيح: (٣/ ٢٤)، وقال محقق المشكاة: إسناده حسن ورمز لرواية أبي داود بالصحة في صحيح الجامع الصغير: (٦/ ٧٠) حديث رقم: (٥٨١٠).

من عترتي من ولد فاطمة» رواه أبو داود وابن ماجة والحاكم[1].

٣- عن علي رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «المهدي منا أهل البيت يصلحه الله في ليلة» رواه أحمد وابن ماجه[2].

٤- عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «لو لم يبق من الدهر إلا يوم، لبعث الله رجلاً من أهل بيتي، يملؤها عدلاً، كما ملئت جوراً» رواه أحمد وأبو داود[3].

٥- عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «المهدي مني، أجلى الجبهة، أقنى الأنف، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت جوراً وظلماً، يملك سبع سنين» رواه أبو داود[4].

٦- عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «لتملأن الأرض جوراً وظلماً، فإذا ملئت جوراً وظلماً، بعث الله رجلاً مني، اسمه اسمي، فيلمؤها قسطاً وعدلاً، كما ملئت جوراً وظلماً» أخرجه البزار وابن عدي في الكامل، وأبو نعيم في أخبار أصبهان، والحاكم، ورواه الإمام أحمد، وابن حبان والحاكم، وأبو نعيم في الحلية عن أبي سعيد يرفعه بلفظ: «لا تقوم الساعة حتى تملأ الأرض ظلماً وجوراً وعدواناً، ثم يخرج رجل من عترتي، أو من أهل بيتي يملؤها قسطاً وعدلاً، كما ملئت جوراً وظلماً»، وقد قال الحاكم في إسناد هذه الرواية: «صحيح على شرط الشيخين»،

---

(١) صحيح الجامع الصغير: (٦/ ٢٢) وقال الشيخ ناصر فيه: صحيح.

(٢) صحيح الجامع: (٦/ ٢٢)، وقال فيه الشيخ ناصر الدين الألباني: صحيح. وقال الشيخ شعيب: إسناده ضعيف، انظر «مسند أحمد»: (٢/ ٧٤) حديث رقم (٦٤٥) طبعة مؤسسة الرسالة.

(٣) وهو حديث صحيح، انظر صحيح الجامع الصغير: (٥/ ٧١)، حديث رقم (٥١٨١).

(٤) مشكاة المصابيح: (٣/ ٢٤) حديث رقم (٥٤٥٤)، وإسناده حسن كما قال محقق المشكاة.

ووافقه الذهبي، وأشار أبو نعيم إلى تصحيحه.

وروى هذا الحديث الحاكم أيضاً عن أبي سعيد مرفوعاً بلفظ: «يخرج في أمتي المهدي، يسقيه الله الغيث، وتخرج الأرض نباتها، ويعطى المال صحاحاً، وتكثر الماشية، وتعظم الأمة، يعيش سبعاً أو ثمانياً يعني حججاً»، وصححه الحاكم والذهبي وابن خلدون.

ورواه أصحاب السنن وكذا الطبراني في الأوسط والكبير، وصححه الترمذي والحاكم وابن حبان، ولفظه عند أبي داود: «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث فيه رجلاً مني، أو من أهل بيتي، يواطىء اسمه اسمي، واسم أبيه اسم أبي، يملأ الأرض عدلاً..» الحديث[1].

المطلب الثاني

مرتبة أحاديث المهدي من الصحة

قال فضيلة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز حفظه الله ما ملخصه: «أمر المهدي معلوم، والأحاديث فيه مستفيضة، بل متواترة متعاضدة، وقد حكى غير واحد من أهل العلم تواترها، وتواترها معنوي، لكثرة طرقها، واختلاف مخارجها وصحابتها، ورواتها وألفاظها، فهي بحق تدل على أن هذا الشخص الموعود به أمره ثابت وخروجه حق، وهو محمد بن عبد الله

(١) لخصت هذا التحقيق القيم من كلام الشيخ ناصر الدين الألباني حفظه الله، وإن شئت أن تتطلع على تمام كلامه فيه فارجع إلى سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٤/٣٨)، حديث رقم: (١٥٢٩)، وانظر أيضاً سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٢/٣٣٦)، حديث رقم: (٧١١).

العلوي الحسني من ذرية الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، وهذا الإمام من رحمة الله عز وجل بالأمة في آخر الزمان، يخرج فيقيم العدل والحق، ويمنع الظلم والجور، وينشر الله به لواء الخير على الأمة عدلاً وهداية وتوفيقاً وإرشاداً للناس.

وقد اطلعت على كثير من أحاديثه فرأيتها كما قال الشوكاني وغيره، وكما قال ابن القيم وغيره: فيها الصحيح، وفيها الحسن، وفيها الضعيف المنجبر، وفيها أخبار موضوعة، ويكفينا من ذلك ما استقام سنده، سواء كان صحيحاً لذاته أو لغيره، وسواء كان حسناً لذاته أو لغيره، وهكذا الأحاديث الضعيفة إذا انجبرت وشدَّ بعضها بعضاً، فإنها حجة عند أهل العلم. . ، والحق أن الجمهور من أهل العلم -بل هو كالاتفاق- على ثبوت أمر المهدي، وأنه حق، وأنه سيخرج في آخر الزمان، أما من شذ عن أهل العلم في هذا الباب فلا يلتفت إلى كلامه في ذلك»[1].

وقد أحصى فضيلة الشيخ عبد المحسن بن حمد العباد عدد الصحابة الذين رووا أحاديث المهدي فبلغوا ستة وعشرين صحابياً، وأحصى كتب السنة التي أخرجت هذه الأحاديث، فبلغت ستة وثلاثين كتاباً فقد أخرجه أصحاب السنن الأربعة، وأحمد في مسنده وابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه وغيرهم[2].

وقد جمع هذه الأحاديث كثير من العلماء في مؤلفات خاصة، وبينوا

---

(١) كلام الشيخ مثبت في كتاب: الرد على من كذب بالأحاديث الصحيحة الواردة في المهدي لعبد المحسن بن حمد العباد، ص ١٥٧.

(٢) عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر لعبد المحسن بن حمد العباد وهو مطبوع مع الكتاب السابق ذكره: ص ١٦٦-١٦٨.

طرقها وتكلموا على أسانيدها، منهم أبو بكر بن أبي خيثمة زهير بن حرب على ما ذكره ابن خلدون، ومنهم الحافظ أبو نعيم، ولخص الحافظ السيوطي ما أورده أبو نعيم في كتابه «العرف الوردي في أخبار المهدي» وزاد عليه، وهو مطبوع في ضمن كتابه الحاوي للفتاوي، ومنهم الحافظ ابن كثير أفرد في ذكر المهدي جزءاً على حدة كما نص عليه في كتابه الفتن والملاحم، ومنهم ابن حجر المكي ألف كتاباً سماه: «القول المختصر في علامات المهدي المنتظر»، ومنهم المتقي الهندي صاحب كنز العمال، ومُلا علي قاري، وسمى مؤلفه «المشرب الوردي في مذهب المهدي»، ومنهم مرعي بن يوسف الحنبلي، والصنعاني وغيرهم[1].

وقد نص على صحة أحاديث المهدي جمع كبير من نقاد الحديث وأئمته منهم: الحاكم، والذهبي، وأبو نعيم، وابن العربي المالكي، والقرطبي، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن قيم الجوزية، والحافظ ابن حجر العسقلاني، والسيوطي، وغيرهم[2]، ولذلك لا يلتفت لمن ضعف هذه الأحاديث أو كذب بها، ممن ليس من فرسان هذا العلم.

المطلب الثالث

عقائد الفرق الإسلامية في المهدي

١- أما عقيدة أهل السنة والجماعة فهي موافقة لما سقناه من الأحاديث الصحيحة، وأن المهدي حاكم صالح راشد يبعثه الله مجدداً لهذا الدين،

---

(١) المصدر السابق: ص ١٦٨.

(٢) انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٤/ ٤٠-٤١).

ويعلي الله هذا الدين على يديه.

يقول ابن خلدون: «اعلم أن المشهور بين الكافة من أهل الإسلام على ممر الأعصار، أنه لا بد في آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت يؤيد الدين، ويظهر العدل، ويتبعه المسلمون، ويستولي على الممالك الإسلامية، ويسمى بالمهدي، ويكون خروج الدجال وما بعده من أشراط الساعة الثابتة في الصحيح على أثره، وأن عيسى ينزل من بعده فيقتل الدجال، أو ينزل معه فيساعده على قتله، ويأتم بالمهدي في صلاته»[1].

٢- عقيدة الشيعة الإمامية الذين يعتقدون أن المهدي هو آخر أئمتهم، وهو الإمام الثاني عشر المدعو بمحمد بن الحسن العسكري وهو عندهم من ولد الحسين بن علي، لا من ولد الحسن، وهم يعتقدون أنه دخل سرداب سامراء منذ أكثر من ألف ومائة سنة وعمره خمس سنوات، ويعتقدون أنه حاضر في الأمصار، غائب عن الأبصار، وهو المهدي الذي ينتظرون عودته، وكلامهم هذا لم يقم عليه دليل ولا برهان من عقل أو نقل، وهو مخالف لسنة الله في البشر، ومخالف لمنطق العقول، ثم ما الداعي للغيبة إذا كان حياً، بل كان الواجب عليه أن يخرج ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

٣- المكذبون بوجود المهدي، وهؤلاء أفراد من الذين ينسبون لأهل السنة، ليس لهم باع طويل في تحقيق النصوص، والكشف عن الأسانيد،

---

(١) المقدمة، لابن خلدون: ص ٥٥٥، ويحسن أن ننبه هنا أن ابن خلدون ضعف أكثر الأحاديث الدالة على وجوده، ولم يصب فيما ذهب إليه، ولكن لا يجوز أن يقال إن ابن خلدون لا يقول بوجود المهدي، فإنه صحح بعض هذه الأحاديث، فقد قال بعد سياقه للأحاديث ومناقشته لها ص ٥٧٤ «وهي كما رأيت لم يخلص منها من النقد إلا القليل أو الأقل منه» وهذا القليل كاف لإثبات القول به.

وقد دحض شبهاتهم كثير من أهل العلم في مؤلفات مستقلة، وآخرها فيما اطلعنا عليه ما كتبه فضيلة الشيخ العلامة عبد المحسن العباد في كتابه: «الرد على من كذب بالأحاديث الصحيحة الواردة في المهدي»[1]. وما كتبه فضيلة الشيخ حمود بن عبد الله بن حمد التويجري، كتب مجلداً بعنوان «الاحتجاج بالأثر على من أنكر المهدي المنتظر»[2].

٤- رجال من الحكام الماضين ادعوا المهدية أو ادعاها لهم أقوام، وبعض هؤلاء رجال صالحون لقب الواحد منهم بالمهدي، لا على أنه ذلك المهدي الذي أخبر عنه الرسول ﷺ، بل تفاؤلاً بأن يكون من الأئمة المهديين، الذين يقولون بالحق، وبه يحكمون، ومن هؤلاء المهدي الخليفة العباسي. وبعض الذين ادعوا المهدية من الحكام أو ادعيت لهم أقوام فجرة، مثل الملحد عبيد الله بن ميمون القداح المولود عام ٢٥٩ هـ والمتوفى سنة ٣٢٢ هـ، وكان جده يهودياً ينسب إلى بيت مجوسي، انتسب زوراً وكذباً إلى بيت رسول الله ﷺ، وادعى أنه المهدي الذي بشر به النبي ﷺ، وملك وتغلب، واستفحل أمره، واستولت ذريته على بلاد المغرب، ومصر، والحجاز، والشام، واشتدت غربة الإسلام ومحنته ومصيبته بهم، وكانوا يدعون الألوهية، ويدعون أن للشريعة باطناً وظاهراً.

وهم ملوك الرافضة القرامطة الباطنية أعداء الدين، تستروا بالرفض والانتساب كذباً لأهل البيت، ودانوا بدين الإلحاد وروجوه، ولم يزل أمرهم إلى أن أنقذ الله الأمة منهم بصلاح الدين الأيوبي، فاستنقذ الأمة منهم وأبادهم. ومن هؤلاء مهدي المغاربة محمد بن تومرت ولد سنة

(١) مطبوع، طبعته مطابع الرشيد في المدينة المنورة.

(٢) مطبوع، نشرته الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد -السعودية.

٤٨٥ هـ وتوفي سنة ٥٢٤ هـ، وهو رجل كذاب ظالم متغلب، وكان قد ادعى أنه المهدي الموعود، كان يودع طائفة من أصحاب القبور، ويأمرهم بإخبار الناس أنه المهدي، ثم يردم عليهم القبور في الليل، وهم أحياء، حتى لا يكشف أمره[١].

٥- مهدي الفرقة المدعوة بالكيسانية، وهم يزعمون أن المهدي هو محمد ابن الحنفية وأنه حي مقيم بجبل رضوى، وأنه بين أسدين يحفظانه، وعنده عينان نضاختان تجريان بماء وعسل، فزعموا أنه دخل إليه ومعه أربعون من أصحابه، ولم يوقف لهم على خبر، قالوا: وهم أحياء يرزقون، ويقولون: إنه يعود بعد الغيبة، ويملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً، قالوا: وإنما عوقب بهذا الحبس لخروجه إلى عبد الملك بن مروان، وقيل إلى يزيد بن معاوية، والى هذا الاعتقاد أشار كثير عزة بقوله:

وسبط لا يذوق الموت حتى ... يقود الخيل يقدمها اللواء

تغيب لا يرى فيهم زماناً ... برضوى عنده عسل وماء

وكان السيد الحميري على هذا المذهب، وهو القائل:

ألا قل للإمام فدتك نفسي ... أطلت بذلك الجبل المقاما[٢]

فما أصغر عقول هؤلاء، وما أقل فهومهم، يصدقون ما لم يقم عليه دليل من عقل ولا نقل.

---

(١) المنار المنيف في الصحيح والضعيف لابن القيم: ص ١٥٣.

(٢) لوامع الأنوار البهية للسفاريني: (٢/ ٨٥).

المطلب الرابع

وقت خروجه

يقول فضيلة الشيخ عبد العزيز بن باز حفظه الله: «قال ابن كثير في الفتن والملاحم: أظنه يكون عند نزول المسيح، والحديث الذي رواه الحارث بن أبي أسامة يرشد إلى هذا[1]، ويدل عليه، لأنه قال: أميرهم المهدي، فهو يرشد إلى أنه يكون عند نزول عيسى ابن مريم، كما يرشد إليه بعض روايات مسلم، وبعض الروايات الأخرى، ولكن ليست بالصريحة، فهذا هو الأقوم والأظهر، ولكنه ليس بالأمر القطعي»[2].

روى مسلم في صحيحه عن ثلاثة من أمهات المؤمنين: أم سلمة، وحفصة، وعائشة، أن الرسول ﷺ أخبر أن جيشاً يقصد عائذاً يعوذ بالبيت فيخسف الله بذلك الجيش في بيداء من الأرض، ففي رواية أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ: «يعوذ عائذ بالبيت، فيبعث إليه بعث، فإذا كانوا ببيداء من الأرض خسف بهم، فقلت: يا رسول الله، فكيف بمن كان كارهاً، قال: يخسف به معهم، ولكنه يبعث يوم القيامة على نيته»[3].

وفي رواية حفصة قالت: سمعت النبي ﷺ يقول: «ليؤمن هذا البيت جيش يغزونه، حتى إذا كانوا ببيداء من الأرض يخسف بأوسطهم، وينادي أولهم آخرهم، ثم يخسف بهم، فلا يبقى إلا الشريد، الذي يخبر عنهم»،

---

(١) نص حديث جابر: «ينزل عيسى ابن مريم، فيقول أميرهم المهدي: تعال صل بنا، فيقول: لا، إن بعضكم أمير بعض تكرمة الله لهذه الأمة» قال ابن القيم بعد أن أورده في المنار المنيف: وهذا إسناد جيد.

(٢) الرد على من كذب بالأحاديث الصحيحة الواردة في المهدي: ص ١٦٠.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (٤/٢٢٠٨) حديث رقم (٢٨٨٢).

وفي رواية: «سيعوذ بهذا البيت قوم ليست لهم منعة ولا عدد، ولا عدة..» الحديث[1].

وفي رواية عائشة: «أن النبي ﷺ عبث في منامه، قالت: فقلنا: يا رسول الله: صنعت في منامك شيئاً لم تكن تفعله، فقال: العجب أن ناساً من أمتي يؤمون البيت برجل من قريش، قد لجأ بالبيت، حتى إذا كانوا بالبيداء خسف بهم، فقلنا: يا رسول الله، إن الطريق قد يجمع الناس، قال: نعم، فيهم المستبصر والمجبور وابن السبيل، يهلكون مهلكاً واحداً، ويصدرون مصادر شتى»[2].

فهل هذا الخارج العائذ بالبيت الذي يؤيده الله بنصره، والذي يهلك الله من يقصده بالأذى هو المهدي الذي سبق ذكره في الأحاديث؟ ليس عندنا ما يدل على ذلك صراحة، حسب ما نعلم، والله أعلم بالصواب.

المطلب الخامس

هل المهدي هو الخليفة الذي يحثو المال حثواً

وقد ورد في الأحاديث ذكر خليفة يكثر الخير في زمانه حتى إنه يحثو المال حثواً، ولا يعده عداً، فهل هو المهدي أو غيره؟ الله أعلم بحقيقة ذلك.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٢٠٩) حديث رقم (٢٨٨٣).

(٢) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٢١٠) حديث رقم (٢٨٨٤).

وقد ورد الحديث السابق الذي روته أمهات المؤمنين بألفاظ متقاربة في كثير من كتب السنة كمسند أحمد، ومسند أبي يعلى، ومستدرك الحاكم، وابن ماجة والترمذي، والطبراني في الأوسط وغيرهم.

روى مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «يكون في آخر أمتي خليفة يحثي المال حثواً»[1].

ورواه عن أبي سعيد أيضاً، قال: قال رسول الله ﷺ: «من خلفائكم خليفة يحثو المال حثياً، لا يعده عداً»[2].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٢٣٤)، حديث رقم (٢٩١٣).

(٢) رواه مسلم في صحيحه: (٤/ ٢٢٣٥)، حديث رقم: (٢٩١٤).

الفصل الخامس
العلامات الكبرى

تمهيد: ترتيب العلامات الكبرى حسب وقوعها:

هناك علامات كبرى تدل على قرب قيام الساعة، فإذا ظهرت كانت الساعة على إثرها، ففي صحيح مسلم عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر[1]، فقال: «ما تذاكرون»؟ قالوا: نذكر الساعة. قال: «إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات».

فذكر الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم ﷺ، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن، تطرد الناس إلى محشرهم»[2].

والآيات الكبرى متتابعة في وقوعها، لا يكاد يفصل بينها فاصل زمني، وهي تشبه في تتابعها إذا وقعت العقد إذا انقطع سلكه الذي ينتظم حباته، فإن الحبة الأولى تسقط فتتبعها بقية الحبات بلا تأخير، روى الحاكم بإسناد صحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) اطلاعه عليهم لأنه كان في غرفة فوقهم، جاء ذلك مبيناً في رواية أخرى في صحيح مسلم.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن، باب في الآيات التي تكون قبل الساعة، (٤/٢٢٢٥)، حديث رقم: (٢٩٠١)، وعزاه في جامع الأصول إلى أبي داود والترمذي أيضاً.

«الأمارات خرزات منظومات في سلك، فإن يقطع السلك يتبع بعضها بعضاً»[1].

وقد أخبر الرسول ﷺ أن وقوع الحرب الكبرى بين المسلمين والروم وهي التي سماها الملحمة ستكون أولاً، ثم يفتح المسلمون القسطنطينية، ثم يخرج الدجال، روى معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «عمران بيت المقدس خراب يثرب، وخراب يثرب خروج الملحمة، وخروج الملحمة فتح القسطنطينية، وفتح القسطنطينية خروج الدجال» رواه أبو داود[2].

ومراد الرسول ﷺ أن هذه الأحداث تقع متتابعة متوالية، وسيظهر للقارىء وهو يتابع كتابنا هذا كيف أن المسلمين في ذلك الزمان يشتبكون مع الروم في معركة كبرى، هي التي سماها الرسول ﷺ بالملحمة، وبعد انتصارهم عليهم يفتحون القسطنطينية، ثم يخرج الدجال.

وبعد خروج الدجال ينزل عيسى ويقتل الدجال، ثم يخرج يأجوج ومأجوج في زمن عيسى، ويهلكهم الله في زمنه، والترتيب إلى هنا واضح ظاهر.

أما بقية الآيات فإن ترتيبها ليس واضحاً تماماً، نعم، خروج الشمس من مغربها، وخروج دابة الأرض، وخروج النار التي تحشر الناس، تكون بالتأكيد بعد خروج الدجال ونزول عيسى وخروج يأجوج ومأجوج، ولكن

---

(١) وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي وقال الألباني: وهو كما قالا: سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤/ ٣٦١)، ورقم الحديث: (١٧٦٢).

(٢) مشكاة المصابيح: (٣/ ١٧)، ورقم الحديث: (٥٤٢٥)، وإسناده حسن كما قال محقق المشكاة.

أيها يسبق الآخر، أعني: طلوع الشمس من المغرب، وخروج الدابة وحشر النار للناس.

إن الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن حذيفة صريح في أن خروج النار التي تحشر الناس من اليمن هي آخر الآيات، فقد ذكر الرسول ﷺ الآيات العشر الكبرى، وقال في الآية العاشرة وهي النار: «وآخر ذلك نار تخرج من اليمن، تطرد الناس إلى محشرهم»[1].

وتبقى ست آيات: طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة، والدخان، والخسوف الثلاثة: الخسف الذي بالمشرق، والآخر الذي بالمغرب، والثالث الذي بجزيرة العرب، أما طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة، فتكونان بعد نزول عيسى وقتله الدجال، وإهلاك يأجوج ومأجوج في عهده، وبعد فساد الناس ودروس الإسلام وقبل خروج النار التي تحشر الناس، ولكن أيهما أسبق: خروج الشمس، أم خروج الدابة؟ ذلك ما لا نستطيع الجزم به بسبب عدم جزم الرسول ﷺ بذلك، ففي حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيهما كانت قبل صاحبتها، فالأخرى على إثرها قريباً»[2].

ولا يجوز الاستدلال بهذا الحديث على أن طلوع الشمس يكون قبل خروج الدجال ونزول عيسى وخروج يأجوج ومأجوج، لقوله: أول الآيات خروجاً طلوع الشمس.. «فالذي يترجح من الأخبار أن خروج الدجال

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، (٤/ ٢٢٢٥)، ورقمه: (٢٩٠١).

(٢) رواه مسلم في كتاب الفتن، باب في خروج الدجال، (٤/ ٢٢٦٠)، ورقم الحديث: (٢٩٤١).

أول الآيات العظام المؤذنة بتغير الأحوال العامة في معظم الأرض، وينتهي ذلك بموت عيسى ابن مريم، وأن طلوع الشمس من المغرب هو أول الآيات العظام المؤذنة بتغير أحوال العالم العلوي، وينتهي ذلك بقيام الساعة، ولعل خروج الدابة يقع في ذلك اليوم الذي تطلع فيه الشمس من المغرب»[1].

«قال الحاكم أبو عبد الله: الذي يظهر أن طلوع الشمس يسبق خروج الدابة، ثم تخرج الدابة في ذلك اليوم أو الذي يقرب منه»[2].

أما بقية الآيات، وهي الخسوف الثلاثة، والدخان -فإننا لا ندري ما ترتيبها في الآيات العظام، فلم نَرَ من النصوص الصحيحة ما يحدد ذلك، فالله أعلم بحقيقته.

---

(١) فتح الباري: (١١/ ٣٥٣).

(٢) فتح الباري: (١١/ ٣٥٣).

المبحث الأول

الدخان

من الآيات الكبرى التي تقع قبيل الساعة الدخان، قال تعالى: ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ * يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الدخان: ١٠-١١]، ومما يدل دلالة صريحة على أن الدخان من العلامات الكبرى ما رواه مسلم عن حذيفة بن أسيد الغفاري، قال: اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر، فقال: ما تذكرون؟ قلنا: نذكر الساعة، قال: «إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات، فذكر الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم ﷺ، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم»[1].

وابن مسعود رضي الله عنه يرى أن هذه الآية مضت وانقضت، فقد روى مسلم في صحيحه عن مسروق، قال: كنا عند عبد الله جلوساً، وهو مضطجع بيننا، فأتاه رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن إن قاصاً يقص عند أبواب كندة، ويزعم أن آية الدخان تجيء، فتأخذ بأنفاس الكفار. ويأخذ المؤمنين منه كهيئة الزكام، فقال عبد الله، وجلس وهو غضبان: يا أيها الناس، اتقوا الله، من علم منكم شيئاً، فليقل بما يعلم، ومن لم يعلم،

(١) رواه مسلم: (٤/ ٢٢٢٥) حديث رقم: (٢٩٠١).

فليقل: الله أعلم، فإنه أعلم لأحدكم أن يقول لما لا يعلم: الله أعلم، فإن الله قال لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦].

إن رسول الله ﷺ لما رأى من الناس إدباراً، فقال: «اللهمّ سبع كسبع يوسف» قال: فأخذتهم سنة حصَّت[١] كل شيء، حتى أكلوا الجلود والميتة من الجوع، وينظر إلى السماء أحدهم فيرى كهيئة الدخان، فأتاه أبو سفيان فقال: يا محمد، إنك جئت تأمر بطاعة الله وبصلة الرحم، وإن قومك قد هلكوا، فادع الله لهم، قال الله عز وجل: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ * يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الدخان: ١٠-١١] إلى قوله: ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ [الدخان: ١٥]، قال: أفيكشف عذاب الآخرة: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان: ١٦] فالبطشة الكبرى يوم بدر، وقد مضت آية الدخان، والبطشة، واللزام، وآية الروم[٢][٣]. فابن مسعود يرى أنها قد مضت وانقضت، واستدل على ذلك بأن العذاب الذي يقع بالكافرين في الآخرة لا يكشف عنهم، والآية تنص أن الله رافع عنهم العذاب قليلاً، وذهب مذهب ابن مسعود جماعة من السلف كمجاهد وأبي العالية، وإبراهيم النخعي، والضحاك، وعطية العوفي، وهو اختيار ابن جرير[٤].

---

(١) السنة القحط، وحصت: استأصلت.

(٢) آية اللزام يشير بها إلى قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ [الفرقان: ٧٧].
وآية الروم يريد بها قوله تعالى: ﴿الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: ١-٣].

(٣) رواه مسلم: (٤/ ٢١٥٧)، حديث رقم (٢٧٩٨)، وقال ابن كثير في تفسيره (٦/ ٢٤٦) هذا الحديث مخرج في الصحيحين، ورواه أحمد وهو عند الترمذي والنسائي في تفسيريهما.

(٤) تفسير ابن كثير: (٦/ ٢٤٧).

وقد رجح ابن كثير أن آية الدخان لم تأت بعد، وأورد في ذلك حديث أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن ربكم أنذركم ثلاثاً: الدخان يأخذ المؤمن كالزكمة، ويأخذ الكافر فينتفخ حتى يخرج من كل مسمع منه. والثانية: الدابة. والثالثة: الدجال» رواه ابن جرير. ورواه الطبراني وإسناده جيد.

وذكر ابن كثير أن القول بأن آية الدخان لم تأت بعد هو قول علي بن أبي طالب، وأبي سعيد الخدري، وابن عباس والحسن البصري[1]، واستدل ابن كثير على ما ذهب إليه بأمور:

١- الأحاديث الصحيحة والحسنة الواردة في الموضوع الدالة على أن الآية لم تأت بعد.

٢- قوله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الدخان: ١٠] أي بين واضح يراه كل أحد، وليس خيالاً كما ذهب إليه ابن مسعود.

٣- قوله تعالى: ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾ ولو كان أمراً خيالياً يخص أهل مكة المشركين، لما قيل فيه: ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾[2].

وقال النووي في شرحه على مسلم عند قوله ﷺ: «لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات فذكر الدخان...»: «هذا الحديث يؤيد قول من قال: إن الدخان يأخذ بأنفاس الكفار، ويأخذ المؤمن منه كهيئة الزكام، وأنه لم يأت بعد، وإنما يكون قريباً من قيام الساعة، وقد سبق في كتاب بدء الخلق قول من قال هذا، وإنكار ابن مسعود عليه، وأنه إنما هو عبارة عما

---

(١) تفسير ابن كثير: (٦/٢٤٨).

(٢) تفسير ابن كثير: (٦/٢٤٧)

نال قريشاً من القحط، حتى كانوا يرون بينهم وبين السماء كهيئة الدخان، وقد وافق ابن مسعود جماعة، وقال بالقول الآخر حذيفة وابن عمر والحسن، ورواه حذيفة عن النبي ﷺ، وأنه يمكث في الأرض أربعين يوماً، ويحتمل أنهما دخانان للجمع بين هذه الآثار»[1].

(١) شرح النووي على مسلم: (١٨/ ٢٧).

المبحث الثاني

فتنة الدجال

المطلب الأول

فتنة الدجال أعظم فتنة في تاريخ البشر

فتنة الدجال تقع في آخر الزمان، وهي إحدى أشراط الساعة الكبرى، وفتنته من أعظم الفتن التي تمر على البشرية عبر تاريخها، ففي صحيح مسلم عن أبي الدهماء وأبي قتادة، قالوا: كنا نمر على هشام بن عامر، نأتي عمران بن حصين، فقال ذات يوم: إنكم لتجاوزوني إلى رجال، ما كانوا بأحضرَ إلى رسول الله ﷺ مني، ولا أعلمَ بحديثه مني، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ما بين خلقِ آدمَ إلى قيام الساعة خلقٌ أكبرُ من الدجال»، وفي رواية: «أمرٌ أكبرُ من الدجال»[1]. من أجل ذلك فإن جميع الأنبياء حذروا أقوامهم من فتنته، ولكن رسولنا ﷺ كان أكثر تحذيراً لأمته منه.

ففي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: قام رسول الله ﷺ في الناس، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم ذكر الدجال، فقال: «إني لأنذركموه، وما من نبي إلا أنذره قومه، ولكني سأقول لكم

(١) صحيح مسلم، كتاب الفتن، باب في بقية من أحاديث الدجال، (٤/٢٢٦٦)، حديث رقم: (٢٩٤٦).

فيه قولاً لم يقله نبي لقومه، إنه أعور وإن الله ليس بأعور»[1].

وفي صحيحي البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «ما بعث نبي إلا أنذر أمته الأعور الكذاب، ألا إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور، وإن بين عينيه مكتوب كافر»[2].

وفي سنن الترمذي وسنن أبي داود عن عبد الله بن عمر، أن الرسول ﷺ قال في الدجال: «إني لأنذركموه، وما من نبي إلا أنذره قومه، ولقد أنذره نوح قومه، ولكني سأقول فيه قولاً لم يقله نبي لقومه: تعلمون أنه أعور، وأن الله ليس بأعور»[3].

وفي سنن ابن ماجة وصحيح ابن خزيمة ومستدرك الحاكم عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: «يا أيها الناس، إنها لم تكن فتنة على وجه الأرض، منذ ذرأ الله ذرية آدم أعظم فتنة من الدجال، وإن الله عز وجل لم يبعث نبياً إلا حذر أمته من الدجال، وأنا آخر الأنبياء، وأنتم آخر الأمم، وهو خارج فيكم لا محالة»[4].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، فتح الباري: (١٣/ ٩٠).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، فتح الباري: (١٣/ ٩١)، ورواه مسلم في كتاب الفتن، باب ذكر الدجال وصفة ما معه: (٤/ ٢٢٤٨)، حديث رقم: (٢٩٣٣).

(٣) انظر جامع الأصول: (١٠/ ٣٥٦)، حديث رقم: (٢٨٤٨)، والسياق للترمذي.

(٤) صحيح الجامع الصغير: (٦/ ٢٧٣)، ورقمه (٧٧٥٢) وإسناده صحيح.

المطلب الثاني

السِّر في تسميته بالمسيح الدَّجال

يقول ابن الأثير: «سمي الدجال مسيحاً، لأن عينه الواحدة ممسوحة، والمسيح: الذي أحد شقي وجهه ممسوح، لا عين له ولا حاجب، فهو فعيل بمعنى مفعول، بخلاف المسيح عيسى ابن مريم، فإنه فعيل بمعنى فاعل، سمي به، لأنه كان يمسح المريض فيبرأ بإذن الله، والدجال: الكذاب»[1] وسمي دجالاً -كما يقول ابن حجر- «لأنه يغطي الحق بباطله، ويقال: دجل البعير بالقطران إذا غطاه، والإناء بالذهب إذا طلاه..، وقال ابن دريد: سمي الدجال، لأنه يغطي الحق بالكذب، وقيل: لضربه نواحي الأرض،.. وقيل: بل قيل ذلك، لأنه يغطي الأرض»[2].

المطلب الثالث

حال المسلمين في العصر الذي يخرج فيه الدجال

قبيل خروج الدجال يكون للمسلمين شأن كبير، وقوة عظيمة، ويبدو أن خروجه إنما هو للقضاء على تلك القوة، ففي ذلك الوقت يصالح المسلمون الروم، ويغزون جميعاً عدواً مشتركاً فينصرون عليه، ثم تثور الحرب بين المسلمين والصليبيين، ففي سنن أبي داود عن ذي مخبر،

---

(١) جامع الأصول، لابن الأثير: (٤/ ٢٠٤)، وانظر (لسان العرب) مادة: مسح.

(٢) فتح الباري: (١١/ ٩١).

قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ستصالحون الروم صلحاً آمناً، فتغزون أنتم وهم عدواً من ورائكم، فتنصرون وتغنمون وتسلمون، ثم ترجعون، حتى تنزلوا بمرج ذي تلول، فيرفع رجل من أهل النصرانية الصليب، فيقول: غلب الصليب، فيغضب رجل من المسلمين فيدقه، فعند ذلك تغدر الروم وتجمع للملحمة، وزاد بعضهم: «فيثور المسلمون إلى أسلحتهم، فيقتتلون فيكرم الله تلك العصابة بالشهادة»[1].

فأنت ترى قوة المسلمين في ذلك الوقت، حيث إنهم يغزون وينصرون ويغنمون ويرجعون سالمين، وترى إلى أي مدى هم متمسكون بدينهم، فإن ذلك الصليبي عندما يرفع الصليب زاعماً أن الانتصار الذي شارك المسلمون في تحقيقه كان للصليب، يقوم مسلم غيور على دينه فيدق ذلك الصليب ويكسره، وتثور العصابة التي تكون في ذلك الموقع من المسلمين إلى سلاحهم، ويقاتلون الروم -على الرغم من قلتهم في ذلك الموقع، ويشهد الرسول ﷺ لهم بأنهم شهداء، وأن الله أكرمهم بذلك، ويكون غدر الروم ذلك، وما جرى بعده سبباً في وقوع الملحمة.

الملحمة وفتح القسطنطينية

والملحمة معركة كبيرة هائلة تقع بين المسلمين والصليبيين[2]، وسببها

---

(١) مشكاة المصابيح: (١٨/٣)، حديث رقم: (٥٤٢٨)، وقال محقق المشكاة الشيخ ناصر الدين الألباني: إسناده صحيح.

(٢) تدل الأحاديث النبوية أن الروم يكونون في آخر الزمان أكثر الناس عدداً، ففي مسند أحمد وصحيح مسلم عن المستورد أن الرسول ﷺ قال: «تقوم الساعة والروم أكثر عدداً» صحيح الجامع الصغير: (٣/ ٥١).

هو السبب الذي أشار إليه الحديث السابق، وقد جاء أكثر من حديث يصف هذه المعركة وهولها، وكيف يكون صبر المسلمين فيها، ثم يكون النصر لهم على أعدائهم، ويلاحظ أنه يكون في صفوف المسلمين أعداد كبيرة من النصارى الذين أسلموا وحسن إسلامهم، ففي صحيح مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق، أو بدابق[1]، فيخرج لهم جيش من المدينة، من خيار أهل الأرض يومئذ، فإذا تصافوا قالت الروم: خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم، فيقول المسلمون: لا، والله لا نخلي بينكم وبين إخواننا، فيقاتلونهم، فيهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبداً، ويقتل ثلث أفضل الشهداء عند الله، ويفتتح الثلث، لا يفتنون أبداً، فيفتتحون قسطنطينية[2]، فبينما هم يقتسمون الغنائم، قد علقوا سيوفهم بالزيتون، إذ صاح فيهم الشيطان: إن المسيح قد خلفكم في أهليكم، فيخرجون وذلك باطل، فإذا جاؤوا الشأم خرج، فبينما هم يعدون للقتال، يسوون الصفوف، إذ أقيمت الصلاة، فينزل عيسى ابن مريم ﷺ فَأَمَّهم، فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملح في الماء، فلو تركه لانذاب حتى يهلك، ولكن يقتله الله بيده، فيريهم دمه في حربته»[3].

وقد حدثنا الرسول ﷺ في حديث آخر عن هول تلك المعركة، وعن الفدائية التي تكون في صفوف المسلمين، حتى إن مجموعات من المسلمين يتبايعون على القتال حتى النصر أو الموت ثلاثة أيام متوالية،

---

(١) موضعان بالشام قرب حلب.

(٢) هذا فتح آخر غير الذي تم على يد محمد الفاتح.

(٣) رواه مسلم في كتاب الفتن، باب فتح القسطنطينية، (٤/ ٢٢٢١) رقم الحديث: (٢٨٩٧).

ويبدو أن أعداد المسلمين في تلك الأيام قليلة، بدليل أن المسلمين ينتصرون عندما يصلهم المدد من بقية أهل الإسلام، ففي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود، قال: «إن الساعة لا تقوم، حتى لا يقسم ميراث، ولا يفرح بغنيمة، ثم قال بيده هكذا (ونحاها نحو الشام)، فقال: عدو يجمعون لأهل الإسلام، ويجمع لهم أهل الإسلام[1]، قلت: الروم تعني؟[2] قال: نعم، وتكون عند ذاكم القتال رَدَّةٌ شديدة، فيشترك المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل، فيفيء هؤلاء وهؤلاء، كل غير غالب، وتفنى الشُّرْطة، ثم يشترط المسلمون شُرْطة للموت، لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون، حتى يحجز بينهم الليل، فيفيء هؤلاء وهؤلاء، كل غير غالب، وتفنى الشُّرْطة، ثم يشترط المسلمون شرطة للموت، لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون حتى يمسوا، فيفيء هؤلاء وهؤلاء، كل غير غالب، وتفنى الشرطة.

فإذا كان اليوم الرابع نهد إليهم بقية أهل الإسلام، فيجعل الله الدبرة عليهم، فيقتلون مقتلة -إما قال: لا يرى مثلها، وإما قال: لم ير مثلها- حتى إن الطائر ليمر، بجنباتهم، فما يخلفهم حتى يخر ميتاً، فيتعاد بنو الأب كانوا مائة، فلا يجدونه بقي إلا الرجل الواحد، فبأي غنيمة يفرح؟ أو أي ميراث يقاسم؟ فبينما هم كذلك إذ سمعوا ببأس، هو أكبر من ذلك، فجاءهم الصريخ، إن الدجال قد خلفهم في ذراريهم، فيرفضون ما في أيديهم، ويقبلون، فيبعثون عشرة فوارسَ طليعةً، قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف أسماءهم، وأسماء آبائهم، وألوان خيولهم، هم خيرُ فوارسَ على

---

(١) أي للحرب والقتال، وهذا إنما يكون بعد غدر الروم المشار إليه في الحديث السابق.

(٢) القائل هو راوي الحديث عن عبد الله بن مسعود، وهو يسير بن جابر.

ظهر الأرض يومئذٍ، أو من خير فوارس على ظهر الأرض يومئذٍ»[1].

وفتح القسطنطينية المذكور في حديث الملحمة الذي سقناه أولاً جاء عنه شيء من التفصيل في حديث مسلم الذي يرويه أبو هريرة أيضاً، قال: قال النبي ﷺ: «سمعتم بمدينة جانب منها في البر، وجانب منها في البحر[2] قالوا: نعم، يا رسول الله، قال: لا تقوم الساعة حتى يغزوها سبعون ألفاً من بني إسحاق[3] فإذا جاؤوها نزلوا، فلم يقاتلوا بسلاح، ولم يرموا بسهم، قالوا: لا إله إلا الله، والله اكبر، فيسقط أحد جانبيها».

قال ثور[4]: لا أعلمه إلا قال: «الذي في البحر، ثم يقولون الثانية: لا إله إلا الله والله أكبر، فيسقط جانبها الآخر، ثم يقولون الثالثة: لا إله إلا الله والله أكبر، فيفرج لهم، فيدخلوها، فيغنموا، فبينما هم يقتسمون الغنائم، إذ جاءهم الصريخ، فقال: إن الدجال قد خرج، فيتركون كل شيء ويرجعون»[5].

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الفتن، باب تقوم الساعة والروم أكثر الناس، (٤/ ٢٢٢٣) ورقمه: (٢٨٩٩).

(٢) ذهب العلماء إلى أن هذه المدينة هي القسطنطينية، وإن لم يسمها الرسول ﷺ، وقد خطر ببالي أن هذه المدينة قد تكون البندقية في إيطاليا، فإن جزءاً كبيراً من بيوتها مبني في داخل البحر، وجزء في البر، وقد نظرت إلى المدينتين خلال زيارتي لكل واحدة منهما فرأيت البندقية أقرب إلى المراد بالحديث، والله أعلم.

(٣) يقول النووي في شرحه على مسلم (١٨/ ٤٤): «قال القاضي: كذا هو في جميع أصول صحيح مسلم من بني إسحاق، قال: قال بعضهم المعروف المحفوظ من بني إسماعيل وهو الذي يدل عليه الحديث وسياقه لأنه إنما أراد العرب. .» أقول وليس في هذا إشكال إن شاء الله تعالى، فإن هذا الدين للناس جميعاً، والله يعطي ملكه من يشاء، فقد غزا محمد الفاتح القسطنطينية بعد النووي بأكثر من ثلاثمائة سنة، وكان جنوده أكثرهم من غير العرب، فلا يستبعد أن يحصل مثل هذا مرة أخرى، وفي حديث الملحمة السابق ما يدل عليه، فإن الروم يقولون للمسلمين: خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا.

(٤) هو ثور بن زيد الديلي، أحد رواة الحديث.

(٥) رواه مسلم، كتاب الفتن، (٤/ ٢٢٣٨)، ورقمه: (٢٩٢٠).

المطلب الرابع

القحط والمجاعة قبل خروج الدجال

يبتلى الناس قبيل خروج الدجال بلاءً شديداً، فتمنع السماء القطر، وتحبس الأرض النبات، ففي سنن ابن ماجة، وصحيح ابن خزيمة، ومستدرك الحاكم عن أبي أمامة أن الرسول ﷺ قال: «إن قبل خروج الدجال ثلاث سنوات شداد، يصيب الناس فيها جوع شديد، يأمر الله السماء في السنة الأولى أن تحبس ثلث مطرها، ويأمر الأرض أن تحبس ثلث نباتها، ثم يأمر السماء في السنة الثانية فتحبس ثلثي مطرها، ويأمر الأرض فتحبس ثلثي نباتها، ثم يأمر السماء في السنة الثالثة فتحبس مطرها كله، فلا تقطر قطرة، ويأمر الأرض فتحبس نباتها كله، فلا تنبت خضراء، فلا يبقى ذات ظلف، إلا هلكت إلا ما شاء الله. قيل: فما يُعيش الناس في ذلك الزمان؟ قال: التهليل، والتكبير، والتحميد، ويجزىء ذلك عليهم مجزأة الطعام»[1].

المطلب الخامس

صفات الدجال وعلاماته

يدعي الدجال الربوبية، ويأتي من الأعمال الخارقة ما يروّج به باطله، حتى إن الرجل يأتيه ظاناً أن أمره لن يخفى عليه، وأن باطله لن يروج عليه، فعندما يرى ما عنده من مخاريق يتبعه، ففي سنن أبي داود بإسناد

(١) صحيح الجامع: (٦/ ٢٧٧) ورقمه: (٧٧٥٢).

صحيح عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال: «من سمع بالدجال فلينأ عنه، فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن، فيتبعه، مما يبعث به من الشبهات، أو لما يبعث به من الشبهات»[1].

ومن نظر في أمر الدجال نظر معتبر علم يقيناً أنه مبطل، وأن صفات الربوبية غير متحققة فيه، فهو بشر مسكين عاجز على الرغم مما يجري على يديه، يأكل ويشرب وينام، ويتبول ويتغوط، ومن كان هذا حاله كيف يكون إلهاً معبوداً، ورباً للكائنات وهو محتاج إليها !!

ومع وضوح ذلك فإن رسول الله ﷺ أخبرنا شيئاً كثيراً عن صفاته وأحواله كي يعرفه المؤمنون الذين يخرج في عصرهم، وكي يستطيعوا مواجهته ولا يغتروا بباطله.

صفات عامة

وصفه الرسول ﷺ وصفاً يبرز شخصيته ويحدد معالم جسمه، ففي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمر أن الرسول ﷺ رأى الدجال في الرؤيا، وجاء في وصفه له: «رجل جسيم، أحمر، جعد الرأس، أعور العين، كأن عينه عنبة طافية، . . . أقرب الناس به شبهاً ابن قطن من خزاعة»[2].

وفي مسند أحمد وسنن أبي داود بإسناد صحيح عن عبادة بن الصامت، قال: قال رسول الله ﷺ: «إني حدثتكم عن الدجال حتى خشيت أن لا

---

(١) جامع الأصول: (١٠/ ٣٥٤)، ورقم الحديث: (٧٨٤٦).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، فتح الباري: (١٣/ ٩٠).

تعقلوا، إن المسيح الدجال رجل قصير، أفحج، جعد، أعور، مطموس العين، ليست بناتئة ولا حجراء، فإن ألبس عليكم، فاعلموا أن ربكم ليس بأعور، وأنكم لن تروا ربكم»[1].

وفي صحيح ابن حبان، ومسند أحمد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «الدجال أعور، هجان أزهر (وفي رواية: أقمر)، كأن رأسه أصلة، أشبه الناس بعبد العزى بن قطن، فإمّا هَلَكَ الهُلَّك، فإن ربكم ليس بأعور»[2].

أبرز صفاته:

١- عَوَرُ الدَّجال

ركز الرسول ﷺ على وصف عيني الدجال، لأن الدجال مهما تخلص من شيء من صفاته، فإنه لا يستطيع أن يتخلص من عينيه، والعينان ظاهرتان بارزتان يراهما كل أحد، وبهما صفات واضحة لا تخفى، فقد أشارت الأحاديث السابقة إلى عيوب في عينيه، أوضحها أنه أعور، وقد جاء في بعض الأحاديث أن العين العوراء هي اليمنى، وجاء في أحاديث

(١) صحيح الجامع الصغير: (٢/٣١٨)، ورقمه: (٢٤٥٥)، والأفحج الذي به فحج وهي طريقة في المشي معروفة، سببها عيب في الخلقة، إما اعوجاج في الساقين، أو تباعد في الفخذين، أو غير ذلك، وقوله: «مطموس العين» ممسوحها كما جاء مبيناً في أحاديث أخرى، و «الحجراء»: الغائرة.

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٣/ ١٩٠) ورقم الحديث: (١١٩٣)، وقال الشيخ ناصر فيه: «صحيح على شرط مسلم»، و «الهجان»: الأبيض، بمعناه الأزهر، وهذا لا ينافي كونه أحمر، فإن الأبيض يشرب بالحمرة، فيوصف بهذا وهذا، و «الأقمر» الذي لونه لون الحمار الأقمر، أي: الأبيض، و «أصلة» هي الحية العظيمة الضخمة. و «الهلك» جمع هالك، أي: فإن هلك بسببه كثير من الجهلة الضالين.. فإن ربكم ليس بأعور.

أخرى أنها اليسرى، وكونها اليمنى أرجح، فأحاديثها مما اتفق على إخراجه البخاري ومسلم، وشبه الرسول ﷺ تلك العين بالعنبة الطافية، وفي حديث آخر وصف عينه اليمنى بكونها عوراء جاحظة لا تخفى كأنها نخاعة في حائط مجصص».

ففي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ قال عن الدجال: «أعور العين اليمنى، كأنها عنبة طافية»[1].

وفي حديث أبي سعيد عند أحمد: «وعينه اليمنى عوراء جاحظة لا تخفى، كأنها نخاعة في حائط مجصص، وعينه اليسرى كأنها كوكب دري»[2].

وهي مع ذلك ممسوحة كما سبق بيانه، ففي صحيح مسلم: «الدجال ممسوح العين»[3].

وقد وجه النووي الروايات توجيها آخر، فهو يرى أن جميع الروايات التي وصفت عينيه كلتاهما بالعور روايات صحيحة، فالعور معناه في اللغة: العيب، وعينا الدجال معيبتان كلتاهما، فقد ورد أن العوراء هي اليمنى، وورد أن العوراء هي اليسرى، وورد أن إحداهما طافئة بالهمز، أي: لا ضوء فيها، وورد أن الأخرى طافية بلا همزة، أي ظاهرة ناتئة، فعيناه على ما حققه النووي إحداهما لا يرى بها لذهاب نورها وهذه ممسوحة غير ناتئة ولا غائرة، والأخرى لم يذهب نورها ولكنها معيبة

(١) صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، فتح الباري: (١٣/ ٩٠)، ورواه مسلم في كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، (٤/ ٢٢٤٧).

(٢) فتح الباري: (١٣/ ٩٨).

(٣) صحيح مسلم: كتاب الفتن، باب ذكر الدجال: (٤/ ٢٢٤٨)، ورقمه: (٢٩٣٣).

بعيب آخر وهو ظهورها وبروزها[1]، وقد جاء في إحدى الروايات عند مسلم أن العين التي ذهب ضؤوها وهي الممسوحة عليها ظفرة غليظة، «إن الدجال ممسوح العين، عليها ظفرة غليظة»[2]، والظفرة الغليظة جلدة تغشى البصر، وقال الأصمعي: لحمة تنبت عند المآقي.

وقد وصف لنا الرسول ﷺ عينه التي يرى بها، فقال: «الدجال عينه خضراء كالزجاجة» رواه أحمد وأبو نعيم بإسناد صحيح[3].

٢- مكتوب بين عينيه كافر

وهناك علامة أعلم الله بها الدجال يعرفه بها المؤمنون دون غيرهم ممن طمس الله بصائرهم، وهذه العلامة كتابة بين عينيه نصها (ك ف ر) أو (كافر) ففي صحيح البخاري عن أنس عن النبي ﷺ قال: «ما بعث نبي إلا أنذر أمته الأعور الكذاب، ألا إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، وإن بين عينيه مكتوب كافر»[4].

وفي صحيح مسلم مثل رواية البخاري، إلا أنه قال: «مكتوب بين عينيه»: «ك ف ر»[5] وفي صحيح ابن خزيمة وسنن ابن ماجة ومستدرك الحاكم بإسناد صحيح عن أبي أمامة: «وأنه مكتوب بين عينيه: كافر يقرؤه كل مؤمن كاتب أو غير كاتب»[6] وفي صحيح مسلم: «إنه مكتوب بين

(١) راجع شرح النووي على مسلم: (١٨/ ٦١).
(٢) صحيح مسلم، كتاب الفتن: (٤/ ٢٢٤٩)، ورقم الحديث: (٢٩٣٤).
(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٤/ ٤٧٧)، ورقم الحديث: (١٨٦٣).
(٤) صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، فتح الباري: (١٣/ ٩٠).
(٥) رواه مسلم، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، (٤/ ٢٢٤٨)، ورقم الحديث، (٢٩٣٣).
(٦) صحيح الجامع: (٦/ ٢٧٤)، ورقمه (٧٧٥٢).

عينيه كافر، يقرؤه من كره عمله، أو يقرؤه كل مؤمن»[1].

«والصحيح الذي عليه المحققون -كما يقول النووي رحمه الله تعالى -أن هذه الكتابة على ظاهرها، وأنها كتابة حقيقة جعلها الله آية وعلامة من جملة العلامات القاطعة بكفره وكذبه وإبطاله، ويظهرها الله تعالى لكل مسلم كاتب وغير كاتب، ويخفيها عمن أراد شقاوته وفتنته، ولا امتناع في ذلك، وذكر القاضي عياض فيه خلافاً، منهم من قال هي كتابة حقيقة كما ذكرنا، ومنهم من قال: هي مجاز، وإشارة إلى سمات الحدوث عليه، واحتج بقوله: يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب وهذا مذهب ضعيف»[2].

٣- ليس له عقب

أخبر الرسول ﷺ أن الدجال «عقيم لا يولد له» رواه مسلم في صحيحه[3].

المطلب السادس

بطلان دعواه الربوبية

إذا كانت تلك صفات الدجال، وهي صفات بها نقص كبير، فكيف يصح لهذا المخلوق الضعيف دعوى الربوبية، إنه يدعي أنه رب الناس، ورب الناس لا يرى في الدنيا، يقول ﷺ: «تعلموا أنه لن يرى أحد منكم

(١) رواه مسلم، كتاب الفتن، باب ذكر ابن صياد، (٤/ ٢٢٤٥).
(٢) شرح النووي على مسلم: (١٨/ ٦٠).
(٣) صحيح مسلم: (٤/ ٢٢٤٢-٢٢٤٣).

ربه حتى يموت»[1]، ثم هو غير سويّ الخلقة، فيه عيوب لا تخفى، منها عوره، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: «إن الله لا يخفى عليكم، إن الله ليس بأعور، وأشار بيده إلى عينيه -وإن المسيح الدجال أعور عين اليمنى، كأن عينه عنبة طافية»[2].

ومن صفاته المعيبة في الأحاديث أنه أفحج، والفحج «تباعد ما بين الساقين»، أو الفخذين، وقيل: تداني صدور القدمين، مع تباعد العقبين، وقيل: هو الذي في رجله اعوجاج»[3].

وصدق ابن العربي في قوله: «في اختلاف صفات الدجال بما ذكر من النقص بيان أنه لا يدفع النقص عن نفسه كيف كان، وأنه محكوم عليه في نفسه»[4]. ومراده أنه لو كان رباً لأزال النقص الذي في نفسه، فعدم إزالته دليل على أنه مربوب مقهور لا يستطيع أن يتخلص من عيوبه.

وتركيز الرسول ﷺ على كونه أعور «لكون العور أثر محسوس يدركه العالم والعامي، ومن لا يهتدي إلى الأدلة العقلية»[5]، وإلا فإن أصحاب العلم يمكن أن يدركوا أمره، ويصلوا إلى حقيقة دعواه.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الفتن، (٤/ ٢٢٤٥).

(٢) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله ﴿ولتصنع على عيني﴾ فتح الباري: (١٣/ ٣٨٩).

(٣) فتح الباري: (١٣/ ٩٧).

(٤) فتح الباري: (١٣/ ٩٨).

(٥) فتح الباري: (١٣/ ٩٦).

المطلب السابع

إمكانات الدجال التي تسبب الفتنة

يدعي الدجال الألوهية، ويعطى من الإمكانات أموراً مذهلة تفتن الناس فتنة عظيمة، ومن ذلك.

١- سرعة انتقاله في الأرض:

ففي حديث النواس بن سمعان في صحيح مسلم أن النبي ﷺ سئل عن إسراع الدجال في الأرض، فقال: «كالغيث استدبرته الريح..»[١] وقد أخبر الرسول ﷺ أنه سيجول في أقطار الأرض ولا يترك بلداً إلا دخله إلا مكة والمدينة، ففي حديث أنس في الصحيحين «ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال إلا مكة والمدينة»[٢].

وفي حديث أبي أمامة عند ابن ماجة وابن خزيمة والحاكم: «وإنه لا يبقى شيء من الأرض إلا وطئه، وظهر عليه، إلا مكة والمدينة، لا يأتيهما من نقب من أنقابهما إلا لقيته الملائكة بالسيوف صلتة»[٣].

٢- جنته وناره:

ومما يفتن الدجال به الخلق أن معه ما يشبه الجنة والنار، أو معه ما

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال: (٤/ ٢٢٥٢)، ورقمه: (٢٩٣٧).

(٢) صحيح الجامع الصغير: (٥/ ٩٩)، ورقم الحديث: (٥٣٠٩).

(٣) صحيح الجامع الصغير: (٦/ ٢٧٥)، ورقمه: (٧٧٥٢).

يشبه نهراً من ماء، ونهراً من نار، وواقع الأمر ليس كما يبدو للناس، فإن الذي يرونه ناراً إنما هو ماء بارد، وحقيقة الذي يرونه ماء بارداً نار.

ففي صحيح مسلم عن حذيفة، قال: قال رسول الله ﷺ: «معه (أي الدجال) جنة ونار، فناره جنة، وجنته نار»[1].

وفي صحيحي البخاري ومسلم عن حذيفة أيضاً عن النبي ﷺ قال في الدجال: «إن معه ماءً وناراً، فناره ماء بارد، وماؤه نار» زاد في رواية مسلم: «فلا تَهْلِكوا»[2].

وفي رواية عند مسلم في صحيحه عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «لأنا أعلم بما مع الدجال منه، معه نهران يَجْريان، أحدهما، رأي العين، ماءٌ أبيضُ، والآخر، رأي العين، نارٌ تأجج، فإما أدْركَنّ أحد فليأت النهر الذي يراه ناراً وليغمض، ثم ليطأطىء رأسه فيشرب منه، فإنه ماء بارد»[3].

وفي رواية أخرى في صحيح مسلم عن حذيفة أيضاً: «إن الدَّجال يَخْرج، وإن معه ماءً وناراً، فأما الذي يراه الناس ماءً فنارٌ تحرق، وأما الذي يراه الناس ناراً، فماءٌ بارد عذب، فمن أدرك ذلك منكم فليقع في الذي يراه ناراً، فإنه ماء عذب طيب»[4].

وواضح من النصوص أن الناس لا يدركون ما مع الدجال حقيقة، وأن

---

(١) رواه مسلم في كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، (٤/٢٢٤٨)، ورقم الحديث (٢٩٣٤).

(٢) رواه البخاري في كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، فتح الباري: (١٣/ ٩٠)، ورواه مسلم في كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، (٤/٢٢٤٩) ورقم الحديث: (٢٩٣٤).

(٣) رواه مسلم، كتاب الفتن باب ذكر الدجال، (٤/٢٢٤٩)، ورقم الحديث: (٢٩٣٤).

(٤) رواه مسلم، كتاب الفتن، (٤/ ٢٢٥٠) (٢٩٣٥).

ما يرونه لا يمثل الحقيقة بل يخالفها، ولذلك فقد جاء في بعض الأحاديث في صحيح مسلم: «وإنه يجيء معه مثل الجنة والنار، فالتي يقول: إنها الجنة هي النار»[1].

٣- استعانته بالشياطين:

لا شك أن للدجال استعانة بالشياطين، ومن المعلوم أن الشياطين لا تخدم إلا من يكون في غاية الإفك والضلال، والعبودية لغير الله، ففي سنن ابن ماجة وصحيح ابن خزيمة ومستدرك الحاكم بإسناد صحيح عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «وإن من فتنته أن يقول للأعرابي: أرأيت إن بعثت لك أباك وأمك، أتشهد أني ربك؟ فيقول: نعم، فيتمثل له شيطان في صورة أبيه وأمه، فيقولان: يا بني اتبعه، فإنه ربك»[2].

٤- استجابة الجماد والحيوان لأمره:

ومن فتنته التي يمتحن الله بها عباده أنه يأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت، ويدعو البهائم فتتبعه، ويأمر الخرائب أن تخرج كنوزها المدفونة فتستجيب، ففي صحيح مسلم عن النواس بن سمعان، أن النبي ﷺ قال: «فيأتي على القوم فيدعوهم، فيؤمنون به، ويستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت، فَتَرُوحُ عليهم سارحتُهُم، أطول ما كانت ذرىً، وأسبغه ضروعاً، وأمده خواصر، ثم يأتي القوم، فيدعوهم، فيردون عليه

---

(١) رواه مسلم، كتاب الفتن، حديث رقم: (٢٩٣٦).

(٢) صحيح الجامع الصغير، (٦/ ٢٧٤)، ورقمه: (٧٧٥٢).

قوله، فينصرف عنهم، فيصبحون ممحلين، ليس بأيديهم شيء من أموالهم، ويمر بالخربة فيقول لها: أخرجي كنوزك، فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل»[1].

٥- قتله ذلك الشاب ثم إحياؤه إياه:

ومن فتنته أنه يقتل ذلك المؤمن فيما يظهر للناس ثم يدعي أنه أحياه، ففي صحيح البخاري عن أبي سعيد قال: حدثنا رسول الله ﷺ حديثاً طويلاً عن الدجال، فكان فيما يحدثنا أنه قال: «يأتي الدجال -وهو مُحَرَّم عليه أن يدخل نقاب المدينة- فينزل بعض السِّباخ التي تلي المدينة، فيخرج إليه يومئذ رجل هو خَيْرُ الناس، أو من خَيْر الناس، فيقول: أشهد أنك الدّجال الذي حدثنا رسول الله ﷺ حديثه، فيقول الدجّال، أرأيتم إن قتلت هذا ثم أحييته، هل تشكون في الأمر؟ فيقولون: لا، فيقتله، ثم يحييه، فيقول: والله ما كنت فيك أشد بصيرة مني اليوم، فيريد الدّجال أن يقتله، فلا يسلّط عليه»[2].

ورواه مسلم عن أبي سعيد الخدري أيضاً بلفظ «يخرج الدجال، فيتوجه قِبَله رجل من المؤمنين، فتلقاه المسالح[3]: مسالح الدجال، فيقولون له: أين تَعْمِد؟ فيقول: أعْمِد إلى هذا الذي خرج. قال: فيقول له: أو ما

(١) صحيح مسلم، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال: (٤/ ٢٢٥٢)، ورقمه (٢٩٣٧) ويعاسيب النحل، هي ذكور النحل، وقيل: جماعة النحل.

(٢) رواه البخاري، كتاب الفتن، باب: لا يدخل الدجال المدينة، فتح الباري: (١٣/ ١٠١). ورواه مسلم في كتاب الفتن، باب صفة الدجال، (٤/ ٢٢٥٦) ورقم الحديث: (٢٩٣٨) ولفظ الحديث للبخاري.

(٣) هم المراقبون والخفراء الذين يحملون السلاح في مراكز المراقبة.

تؤمن بربنا؟ فيقول: ما بربنا خفاء، فيقولون: اقتلوه، فيقول بعضهم لبعض: أليس قد نهاكم أن تقتلوا أحداً دونه؟ قال: فينطلقون به إلى الدجال، فإذا رآه المؤمن، قال: يا أيها الناس! هذا المسيح الدّجال الذي ذكر رسول الله ﷺ. قال: فيأمر به الدّجال فيشبح[1]، فيقول: خذوه وشجوه، فيوسع ظهره وبطنه ضرباً، قال: فيقول: أو ما تؤمن بي؟ قال: فيقول: أنت المسيح الكذّاب، قال: فيؤمر به فيؤشر بالمنشار من مفرقه حتى يفرق بين رجليه. قال: ثم يمشي الدجال بين القطعتين، ثم يقول له: قم، فيستوي قائماً، قال: ثم يقول له: أتؤمن بي؟ فيقول: ما ازددت فيك إلا بصيرة. قال: ثم يقول: يا أيها الناس! إنه لا يفعل بعدي بأحد من الناس. قال: فيأخذه الدجال ليذبحه، فيجعل ما بين رقبته إلى ترقوته نحاساً، فلا يستطيع إليه سبيلاً. قال: فيأخذ بيديه ورجليه، فيقذف به، فيحسب الناس أنما قذفه إلى النار، وإنما ألقي في الجنة. قال: فقال رسول الله ﷺ: «هذا أعظمُ الناس شهادة عند ربِّ العالمين»[2].

المطلب الثامن

مكان خروجه

يخرج الدجال من المشرق، من بلاد فارسية يقال لها: خراسان، ففي الحديث الذي يرويه الترمذي وابن ماجة والحاكم وأحمد والضياء في المختارة، عن أبي بكر الصديق قال: حدثنا رسول الله ﷺ: «إنّ الدّجال

---

(١) يمد على بطنه.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن، باب صفة الدجال، (٤/ ٢٢٥٦)، ورقم الحديث: (٢٩٣٨).

يخرج من أرض بالشرق، يقال لها: خراسان، يتبعه أقوام كأن وجوههم المجان المطرَّقة»[1].

ولكن ظهور أمره للمسلمين يكون عندما يصل إلى مكان بين العراق والشام، ففي حديث في صحيح مسلم عن النواس بن سمعان يرفعه: «إنه خارج خَلّةً بين الشام والعراق، فعاث يميناً وعاث شمالاً، يا عباد الله فاثبتوا»[2] والخلة ما بين البلدين، كما يقول النووي.

المطلب التاسع

مدة مكثه في الأرض

سأل الصحابة الرسول ﷺ عن المدة التي يمكثها الدجال في الأرض، فقالوا: «وما لبثه في الأرض» قال: أربعون يوماً، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم. قلنا: يا رسول الله: فذاك اليوم الذي كسنة، أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: لا، اقدروا له قدره» أخرجه مسلم في صحيحه وأبو داود في سننه، عن النواس بن سمعان[3].

وإجابة الرسول ﷺ عن سؤال الصحابة: هل تكفيهم خمس صلوات في الأيام التي هي كسنة أو كشهر أو أسبوع تدل على أن اليوم يطول حقيقة حتى يصبح سنة، أو شهراً أو أسبوعاً، وليس مجازاً.

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤/ ١٢٢) ورقم الحديث: (١٥٩١)، وقال الشيخ ناصر: وقال الحاكم صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وهو كما قالا.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال: (٤/ ٢٢٥٢) حديث رقم (٢٩٣٧).

(٣) جامع الأصول: (١٠/ ٣٤٥)، رقم الحديث: (٧٨٣٩)، وهم في مسلم في كتاب الفتن: (٤/ ٢٢٥٢) ورقم الحديث (٢١٣٧).

المطلب العاشر

أتباع الدَّجال

المسيح الدَّجال الأعور الكذّاب هو الملك الذي ينتظر اليهود خروجه، ليحكموا العالم في عهده، ففي مسند أحمد عن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه، أن الرسول ﷺ قال: «أكثر أتباع الدّجال اليهود والنساء»[1]. وفي حديث أنس بن مالك الذي رواه مسلم في صحيحه، أن رسول الله ﷺ قال: «يتبع الدّجال من يهود أصبهان سبعون ألفاً، عليهم الطيالسة»[2].

ويذكر أبو نعيم أن إحدى القرى التابعة لمدينة أصبهان كانت تدعى: (اليهودية)، لأنها كانت تختص بسكنى اليهود، ولم تزل كذلك إلى زمن أيوب بن زياد أمير مصر في زمن المهدي بن المنصور العباسي، فسكنها المسلمون، وبقيت لليهود منها قطعة[3].

واسم الدجال عند اليهود المسيح بن داود، وهم يزعمون أنه يخرج آخر الزمان، فيبلغ سلطانه البر والبحر، وتسير معه الأنهار، وهم يزعمون أنه آية من آيات الله، يرد إليهم الملك[4]، وقد كذبوا في زعمهم، بل هو

---

(١) مسند أحمد: (٤/٢١٦-٢١٧).

(٢) رواه مسلم في كتاب الفتن، باب في بقية من أحاديث الدجال، (٤/٢٢٦٦) ورقم الحديث (٢٩٤٤)، والطيالسة جمع طيلسان، والطيلسان أعجمي معرب، وهو ثوب يلبس على الكتف، يحيط بالبدن، ينسج للبس، خال من التفصيل والخياطة.

(٣) لوامع الأنوار البهية: (٢/١٠٧).

(٤) لوامع الأنوار البهية: (٢/١١٢).

مسيح الضلالة الكذّاب، وأما مسيح الهدى عيسى ابن مريم فإنه يقتل الدجال مسيح الضلالة كما يقتل أتباعه من اليهود.

المطلب الحادي عشر

حماية المدينة ومكة من الدجال

يقصد الدّجال المدينة المنورة فلا يستطيع دخولها، ذلك أن الله حمى مكة والمدينة من الدّجال والطاعون، ووكل حفظها إلى ملائكته، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة يرفعه: «على أنقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الطاعون ولا الدّجال»[1]، وروى البخاري أيضاً عن أنس يرفعه: «لا يدخل المدينة رعب المسيح، لها يومئذ سبعة أبواب على كل باب ملكان»[2].

وفي سنن الترمذي، ومسند أحمد عن أبي هريرة «يأتي المسيح من قبل المشرق، وهمته المدينة، حتى إذا جاء دُبُر أحد تلقته الملائكة، فضربت وجهه قبل الشام، هنالك يهلك، هنالك يهلك» وقال الترمذي: حديث صحيح[3].

وفي صحيحي البخاري ومسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الفتن، باب لا يدخل الدجال المدينة. فتح الباري: (١٣/ ١٠١).

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال. فتح الباري: (١٣/ ٩٠).

(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٤/ ٣٧٢)، ورقمه: (١٧٧١)، وقال المحقق: وإسناده على شرط مسلم، وقد أخرجه مسلم مفرقاً في موضوعين.

«ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال، إلا مكة والمدينة، وليس نقب من أنقابها إلا عليه الملائكة حافين، تحرسها، فينزل بالسبخة[1]، فترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات، يخرج إليه منها كل كافر ومنافق»[2].

وفي سنن ابن ماجة، وصحيح ابن خزيمة، ومستدرك الحاكم عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ: «وإنه لا يبقى شيء من الأرض إلا وطئه وظهر عليه، إلا مكة والمدينة، لا يأتيهما من نقب من أنقابهما إلا لقيته الملائكة بالسيوف، صلتة، حتى ينزل عند الضريب الأحمر، عند منقطع السبخة، فترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات، فلا يبقى فيها منافق ولا منافقة إلا خرج إليه، فتنفي الخبيث منها، كما ينفي الكير خبث الحديد، ويدعى ذلك اليوم الخلاص، قيل: فأين العرب يومئذ؟ قال: هم يومئذ قليل..»[3].

المطلب الثاني عشر

طريقة النجاة منه

سبق أن بينا أن المسلمين قبيل خروج الدجال تكون لهم قوة كبيرة، ويخوضون حروباً هائلة، يخرجون منها منتصرين، فيأتي الدجال للقضاء على القوة الإسلامية التي تكون قد هزمت أقوى دولة في ذلك الوقت وهم الروم، ويكون المسلمون قد استعادوا القسطنطينية، وفتحوها، ويصرخ

(١) السبخة: الأرض الرملية التي لا تنبت لملوحتها، وبعض أراضي المدينة كذلك.

(٢) صحيح الجامع: (٥/ ٩٩)، ورقمه: (٥٣٠٦).

(٣) صحيح الجامع الصغير: (٦/ ٢٧٥) ورقمه: (٧٧٥٢).

الشيطان بهم أن الدجال قد خلفهم في ذراريهم، فيتركون الغنائم، ويعودون إلى ديارهم، ثم يخرج الدجال، فلا يضع المسلمون سلاحهم، ولذلك فإن عيسى عندما ينزل يجد المسلمين «يعدون العدة للقتال، ويسوون الصفوف»[1]. ولا شك أن على كل مسلم في ذلك الحين أن ينضم إلى القوة الإسلامية الحاملة لراية الجهاد في سبيل الله، وأن يثبت على الحق مهما اشتد البلاء، وهذا ما أوصانا به رسولنا ﷺ، وهو يحدثنا عن خروج الدجال، حيث يقول: «إنه خارجٌ خَلَّةً بين الشأم والعراق، فعاث يميناً وعاث شمالاً، يا عباد الله اثبتوا»[2].

ولا يجوز للمسلم أن يأتيه وإن كان واثقاً من نفسه، فإن معه من الشبهات ما يزلزل الإيمان، ففي سنن أبي داود بإسناد صحيح عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال: «من سمع بالدجال فلينأ عنه، فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن، فيتبعه، مما يبعث به من الشبهات، أو لما يبعث به من الشبهات»[3].

ولا بأس على الذين لا يطيقون مقاومته أن يفروا من طريقه، وهذا ما يفعله كثير من الناس في ذلك الزمان، ففي صحيح مسلم عن أم شريك، قالت: سمعت النبي ﷺ يقول: «ليفرَّنَّ الناس من الدّجال في الجبال»[4]. فإن اضطر المؤمن إلى مواجهته، فعليه أن يقوم بالأمر، ويصدع بالحق،

---

(١) رواه مسلم: (٤/ ٢٢٢١)، ورقمه: (٢٨٩٧).

(٢) رواه مسلم: (٢/ ٢٢٥٢) رقم الحديث: (٢٩٣٧).

(٣) جامع الأصول: (١٠/ ٣٥٤) ورقم الحديث: (٧٨٤٦).

(٤) صحيح مسلم، كتاب الفتن، باب في بقية أحاديث الدجال، (٤/ ٢٢٦٦)، ورقم الحديث: (٢٩٤٤).

ويحسن الحجاج، ففي الحديث: «إن يخرج وأنا فيكم، فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم، فامرؤ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم» وقد ترك رسول الله ﷺ من العلم ما يكشف عن بصيرتنا فيه، فهو جسم مرئي، يأكل ويشرب، والله لا يرى في الدنيا، والله منزه عن الطعام والشراب، وهو معيب العين، كما في الحديث: «إنه شاب قطط، عينه طافئة، كأني مشبهه بعبد العزى بن قطن»[1]، ومن كان كذلك فإن دعواه الألوهية والربوبية كذب وافتراء ولا شك.

وقد أمر الرسول ﷺ من أدركه أن يقرأ عليه فواتح سورة الكهف: «فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف»[2]، وفي حديث أبي أمامة: «وإن من فتنته أن معه جنة وناراً، فناره جنّة، وجنته نار، فمن ابتلي بناره فليستغث بالله، وليقرأ فواتح الكهف...»[3] وقد جاء في الأحاديث الصحيحة: «من حفظ عشر آيات من سورة الكهف عصم من فتنة الدجال»[4] وجاء في بعضها من أول سورة الكهف، وفي بعضها من آخر سورة الكهف.

وقد يقال: لم كانت قراءة فواتح سورة الكهف، وخواتمها أمان من الدجال؟

قال بعضهم: لأن الله أخبر في طليعة هذه السورة أن الله أمَّن أولئك

---

(١) رواه مسلم في صحيحه في كتاب الفتن، باب ذكر الدجال: (٤/ ٢٢٥٢)، ورقم الحديث: (٣٩٣٧).

(٢) المصدر السابق.

(٣) رواه ابن ماجة والترمذي والحاكم بإسناد صحيح، صحيح الجامع: (٦/ ٦٧٤)، ورقمه (٧٧٥٢).

(٤) النهاية لابن كثير: (١/ ١٥٤) وبعض هذه في السنن، وبعضها في الصحاح.

الفتية من الجبار الطاغية الذي يريد إهلاكهم، فناسب أن من قرأ هذه الآيات وحاله كحالهم أن ينجيه كما أنجاهم.

وقيل: لأن في أولها من العجائب والآيات التي تثبت قلب من قرأها بحيث لا يفتن بالدجال، ولا يستغرب ما جاء به الدجال، ولم يلهه ذلك، ولم يؤثر فيه.

ومما يعصم المسلم من الدجال أن يلجأ إلى أحد الحرمين الشريفين مكة أو المدينة، فإن الدجال محرم عليه دخولها.

وقد ذكر لنا الرسول ﷺ كيف واجه ذلك الرجل الصالح الدجال، وصدع في وجهه بالحق، وكيف أنه لم يلن له بالقول، كما سبق ذكر الأحاديث التي تكشف حقيقة ما معه مما يشبه الجنة والنار.

ومما ينجي العبد من الدجال الالتجاء إلى الله والاحتماء به منه ومن فتنته، وقد جاءت النصوص النبوية آمرة المسلم بالاستعاذة بالله من فتنته، ففي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «سمعت رسول الله ﷺ يستعيذ في صلاته من فتنة الدجال»[1].

وكان الرسول ﷺ يتعوذ دائماً بعد التشهد من فتنة الدجال، فيقول: «اللهم إنا نعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال»[2].

---

(١) صحيح البخاري، في كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، فتح الباري: (١٣/ ٩٠).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب التعوذ بالله من عذاب القبر، ورواه مسلم في صحيحه، في باب ما يستعاذ منه في الصلاة.

المطلب الثالث عشر

هلاكه والقضاء على فتنته وإهلاك أتباعه من اليهود

سبق أن سقنا الحديث الذي يرويه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة بتمامه، وفيه في آخره أن هلاك الدجال يكون على يد عيسى ابن مريم عليه السلام «فبينما هم (أي الجيوش الإسلامية) يعدون للقتال، يسوون الصفوف، إذ أقيمت الصلاة، فينزل عيسى ابن مريم ﷺ فأمهم، فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملح في الماء، فلو تركه لانذاب حتى يهلك، ولكن يقتله الله بيده، فيريهم دمه»[1].

وفي سنن ابن ماجة، وصحيح ابن خزيمة، ومستدرك الحاكم عن أبي أمامة بإسناد صحيح عن النبي ﷺ: «وإمامهم (أي إمام المسلمين الذين يعدون العدة لقتال الدجال) رجل صالح، فبينا إمامهم قد تقدم يصلي بهم الصبح، إذ نزل عليهم عيسى ابن مريم الصبح، فرجع ذلك الإمام ينكص، يمشي القهقرى ليتقدم عيسى، فيضع عيسى يده بين كتفيه، ثم يقول له: تقدم فصَلِّ، فإنها لك أقيمت، فيصلي بهم إمامهم، فإذا انصرف[2]، قال عيسى: افتحوا الباب، فيفتحون ووراءه الدجال، معه سبعون ألف يهودي، كلهم ذو سيف محلى وساج، فإذا نظر إليه الدجال ذاب كما يذوب الملح في الماء، فينطلق هارباً، . . فيدركه عند باب لد[3] الشرقي، فيقتله، فيهزم

(١) صحيح مسلم، كتاب الفتن، فتح القسطنطينية، (٤/ ٢٢٢١) ورقم الحديث (٢٨٩٧).

(٢) قال الشيخ ناصر في تعليقه على (صحيح الجامع: (٦/ ٢٧٥): «وفيه اختصار، تقديره: فإذا انصرف إلى بيت المقدس، والمسلمون فيه محصورون قال: . . كما يدل عليه بعض الأحاديث الأخرى. .».

(٣) (اللد) مدينة معروفة بفلسطين، قرب مدينة الرملة.

الله اليهود، فلا يبقى شيء مما خلق الله عز وجل يتواقى به اليهودي، إلا أنطق الله ذلك الشيء، لا حجر، ولا شجر، ولا حائط، ولا دابة -إلا الغرقدة، فإنها من شجرهم لا تنطق- إلا قال: يا عبد الله المسلم، هذا يهودي، فتعال فاقتله»[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون، حتى يختبىء اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهودي خلفي، فتعال فاقتله، إلا الغرقد[2]، فإنه من شجر اليهود»[3].

المطلب الرابع عشر

عقيدة أهل السنة في الدجال

قال النووي في شرحه لمسلم: «قال القاضي: هذه الأحاديث التي ذكرها مسلم وغيره في قصة الدجال حجة لمذهب أهل الحق في صحة وجوده، وأنه شخص ابتلى الله به عباده، وأقدره على أشياء من مقدورات الله تعالى من إحياء الميت الذي يقتله، ومن ظهور زهرة الدنيا والخصب

---

(١) صحيح الجامع الصغير: (٦/ ٢٧٦) ورقمه (٧٧٥٢).

(٢) قال النووي في شرحه على مسلم (١٨/ ٤٥): الغرقد: نوع من شجر الشوك معروف ببلاد بيت المقدس، وهناك يكون قتل اليهود، وقال أبو حنيفة الدينوري: إذا عظمت العوسجة صارت غرقدة.

(٣) حديث قتال المسلمين اليهود رواه البخاري، كتاب الجهاد، باب قتال اليهود فتح الباري: (٦/ ١٠٣) ومسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، حديث رقم (٢٩٢٢) ٤/ ٢٢٣٩، وقد روياه عن أبي هريرة وابن عمر من أكثر من طريق، واللفظ الذي أثبتناه لفظ مسلم.

معه، وجنته وناره، ونهريه، واتباع كنوز الأرض له، وأمره السماء أن تمطر، فتمطر، والأرض أن تنبت فتنبت، فيقع كل ذلك بقدرة الله تعالى ومشيئته، ثم يعجزه الله تعالى بعد ذلك، فلا يقدر على قتل ذلك الرجل، ولا غيره، ويبطل أمره، ويقتله عيسى ﷺ، ويثبت الله الذين آمنوا.

هذا مذهب أهل السنة، وجميع المحدثين والفقهاء والنظار خلافاً لمن أنكره وأبطل أمره من الخوارج والجهمية وبعض المعتزلة، وخلافاً للبخاري المعتزلي وموافقيه من الجهمية وغيرهم في أنه صحيح الوجود، ولكن الذي يدعي مخاوف وخيالات، لا حقائق لها، وزعموا أنه لو كان حقاً لم يوثق بمعجزات الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وهذا غلط من جميعهم لأنه لم يدع النبوة، فيكون ما معه كالتصديق له، وإنما يدعي الإلهية، وهو في نفس دعواه مكذب لها بصورة حاله، ووجود دلائل الحدوث فيه، ونقص صورته، وعجزه عن إزالة العور الذي في عينيه، وعن إزالة الشاهد بكفره المكتوب بين عينيه.

ولهذه الدلائل وغيرها لا يغتر به إلا رعاع من الناس لسد الحاجة والفاقة رغبة في سد الرمق أو تقية وخوفاً من أذاه لأن فتنته عظيمة تدهش العقول، وتحير الألباب مع سرعة مروره في الأرض، فلا يمكث بحيث يتأمل الضعفاء حاله، ودلائل الحدوث فيه والنقص، فيصدقه من صدقه في هذه الحالة»[1].

---

(١) شرح النووي على مسلم: (١٨/٥٨).

المطلب الخامس عشر

ابن صياد والدجال

ابن صياد رجل من يهود المدينة، اسمه صاف، كان شبيهاً بالدجال في كثير من صفاته، وكان الرسول ﷺ مشككاً في أمره، وقد حاول الرسول ﷺ أكثر من مرة كشف أمره ومعرفة حقيقته، وهذا يدلنا على أنه لم يوح له في أمره شيء، فقد روى مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب انطلق مع رسول الله ﷺ في رهط قِبَل ابن صياد حتى وجده يلعب مع الصبيان عند أُطُمِ[1] بني مغالة، وقد قارب ابن صياد يومئذ الحلم، فلم يشعر حتى ضرب رسول الله ﷺ ظهره بيده. ثم قال رسول الله ﷺ لابن صياد: «أتشهد أني رسول الله؟» فنظر إليه ابن صياد، فقال: أشهد أنك رسول الأميين. فقال ابن صياد لرسول الله ﷺ: «أتشهد أني رسول الله؟ فرفضه رسول الله ﷺ، وقال: «آمنت بالله وبرسوله»[2].

ثم قال له رسول الله ﷺ: «ماذا ترى؟» قال ابن صياد: يأتيني صادق وكاذب، فقال له رسول الله ﷺ: «خلط عليك الأمر».

ثم قال له رسول الله ﷺ: «إني قد خبأت لك خبيئاً»، فقال ابن صياد: هو الدخ، فقال له رسول الله ﷺ: «اخسأ فلن تعدو قدرك»، فقال عمر بن الخطاب: ذرني يا رسول الله، أضرب عنقه، فقال له رسول الله ﷺ: «إن يكنه فلن تسلط عليه، وإن لا يكنه فلا خير لك في قتله»[3].

---

(١) الأطم: الحصن.

(٢) قد يقال: كيف يدعي النبوة، ويتركه الرسول ﷺ: فيجاب: لأنه قد كان بين الرسول ﷺ وبين اليهود عهد في تلك الأيام.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٢٤٤) ورقمه (٢٩٣٠).

وقد خرج إليه الرسول ﷺ مرة أخرى، كما روى مسلم في صحيحه عقب الحديث السابق عن سالم بن عبد الله قال: سمعت عبد الله بن عمر يقول: انطلق بعد ذلك رسول الله ﷺ، وأبي بن كعب الأنصاري إلى النخل التي فيها ابن صائد، حتى إذا دخل رسول الله ﷺ النخل، طفق يتقي بجذوع النخل، وهو يختل أن يسمع من ابن صياد شيئاً[1]، قبل أن يراه ابن صياد، فرآه رسول الله ﷺ وهو مضطجع على فراش في قطيفة، له فيها زمزمة[2]، فرأت أم صائد رسول الله ﷺ، وهو يتقي بجذوع النخل، فقالت لابن صائد: يا صاف (وهو اسم ابن صياد) هذا محمد، فثار ابن صياد، فقال رسول الله ﷺ: «لو تركته لبيَّن»[3].

قال النووي في شرحه على مسلم في ابن صياد: «قال العلماء: وقصته مشكلة، وأمره مشتبه في أنه هل هو المسيح الدجال المشهور أم غيره، ولا شك في أنه دجال من الدجاجلة، قال العلماء: وظاهر الأحاديث أن النبي ﷺ لم يوح إليه بأنه المسيح الدجال، ولا غيره، وإنما أوحي إليه بصفات الدجال، وكان في ابن صياد قرائن محتملة، فلذلك كان النبي ﷺ لا يقطع بأنه الدجال ولا غيره، ولهذا قال لعمر: «إن يكن هو فلن تستطيع قتله»[4]، وقد كان عمر بن الخطاب يجزم بأن ابن صائد هو الدجال، وكذلك عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، فقد روى أبو داود بإسناد صحيح عن ابن عمر أنه كان يقول: والله ما أشك أن ابن صائد هو المسيح الدجال[5].

---

(١) أي يستغفله ليسمع منه شيئاً يعرف به حقيقته.

(٢) القطيفة: كساء مخمل، والزمزمة: صوت خفي لا يكاد يفهم، أي: نهض من مضجعه.

(٣) رواه مسلم في صحيحه: (٤/ ٢٢٤٤) ورقمه (٢٩٣١).

(٤) شرح النووي على مسلم: (١٨/ ٤٦).

(٥) المصدر السابق.

وقد نقل النووي عن البيهقي قوله: «ليس في حديث جابر أكثر من سكوت النبي ﷺ لقول عمر، فيتحمل أنه ﷺ كان كالمتوقف في أمره، ثم جاءه البيان أنه غيره كما صرح به في حديث تميم»[1].

وقد مكث ابن صائد بعد الرسول مدة من الزمان، وادعى أنه أسلم، ولكن الناس لم يثقوا بإسلامه، وبقوا يتشككون في أمره، هذا ابن عمر -كما يروي مسلم في صحيحه- يلقى ابن صائد مرتين، فيقول لبعض من معه: هل تحدثون أنه هو؟ قال: لا، والله. قال: قلت: كذبتني، والله، لقد أخبرني بعضكم أنه لن يموت حتى يكون أكثركم مالاً وولداً، فكذلك هو زعموا اليوم.

قال ابن عمر: فتحدثنا، ثم فارقته، ثم لقيه ابن عمر لقية أخرى، وقد نفرت عينه[2]، قال: فقلت: متى فعلت عينك ما أرى؟ قال: لا أدري. قال: قلت: لا تدري وهي في رأسك؟ قال: إن شاء الله خلقها في عصاك هذه، قال فنخر كأشد نخير حمار[3] سمعت، قال: فزعم أصحابي أني ضربته بعصا كانت معي حتى تكسرت، وأما أنا، فوالله ما شعرت. وفي رواية أخرى في مسلم أن ابن عمر قال له قولاً أغضبه، فانتفخ حتى ملأ السِّكة[4]، فدخل ابن عمر على حفصة وقد بلغها، فقالت له: رحمك الله، ما أردت من ابن صائد؟ أما علمت أن رسول الله ﷺ قال: «إنما يخرج من غضبة يغضبها»[5].

---

(١) شرح النووي على مسلم: (١٨/ ٤٨).
(٢) نفرت: ورمت، ونتأت.
(٣) النخير: صوت الأنف.
(٤) أي: الطريق.
(٥) صحيح مسلم: (٤/ ٢٢٤٧) ورقمه: (٢٩٣٢).

ويروي مسلم أيضاً عن أبي سعيد الخدري قال: خرجنا حجاجاً أو عماراً ومعنا ابن صائد، قال فنزلنا منزلاً، فتفرق الناس، وبقيت أنا وهو، فاستوحشت منه وحشة شديدة مما يقال عليه، قال: وجاء بمتاعه فوضعه مع متاعي، فقلت: إن الحر شديد، فلو وضعته تحت تلك الشجرة، قال: ففعل، قال: فرفعت لنا غنم، فانطلق فجاء بعسّ[1]، فقال: اشرب أبا سعيد. فقلت: إن الحر شديد، واللبن حار. ما بي إلا أني أكره أن أشرب عن يده -أو قال: آخذ عن يده- فقال[2]: أبا سعيد، لقد هممت أن آخذ حبلاً فأعلقه بشجرة، ثم أختنق مما يقول لي الناس، يا أبا سعيد، من خفي عليه حديث رسول الله ﷺ ما خفي عليكم معشر الأنصار، ألست من أعلم الناس بحديث رسول الله ﷺ؟ أليس قد قال رسول الله ﷺ: «هو كافر» وأنا مسلم؟ أو ليس قد قال رسول الله ﷺ: «هو عقيم لا يولد له» وقد تركت ولدي بالمدينة؟ أو ليس قد قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل المدينة ولا مكة»، وقد أقبلت من المدينة، وأنا أريد مكة؟»[3].

ولكن هذه الأدلة التي ساقها ابن صياد اهتزت وفقدت تأثيرها في نفس أبي سعيد بعد أن تابع ابن صياد كلامه قائلاً: «أما والله إني لأعلم الآن حيث هو، وأعرف أباه وأمه». قال: «وقيل له: أيسرك أنك ذاك الرجل؟ فقال: لو عرض علي لما كرهت»[4].

---

(١) القدح الكبير.

(٢) أي ابن صياد.

(٣) رواه مسلم في صحيحه: (٤/ ٢٢٤٢) ورقمه (٢٩٢٧).

(٤) المصدر السابق.

المطلب السادس عشر

الدجال في خبر تميم الداري

روى مسلم في صحيحه عن فاطمة بنت قيس، أخت الضحاك بن قيس أنها سمعت منادي رسول الله ﷺ ينادي: الصلاة جامعة، فخرجت إلى المسجد، قالت: فصليت مع رسول الله، فكنت في صفّ النساء التي تلي ظهور القوم، فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته، جلس على المنبر وهو يضحك، فقال: «ليلزم كل إنسان مصلاه»، ثم قال: «أتدرون لم جمعتكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «إني، والله ما جمعتكم لرغبة ولا لرهبة، ولكن جمعتكم، لأن تميماً الداري، كان رجلاً نصرانياً، فجاء، فبايع وأسلم. وحدثني حديثاً وافق الذي كنت أحدثكم عن مسيح الدجال».

«حدثني أنه ركب في سفينة بحرية، مع ثلاثين رجلاً من لخم وجذام، فلعب بهم الموج شهراً في البحر، ثم أرفؤوا[1] إلى جزيرة في البحر حتى مغرب الشمس، فجلسوا في أَقْرُبِ السفينة[2]، فدخلوا الجزيرة، فلقيتهم دابة أهلب[3] كثير الشعر، لا يدرون ما قبله من دبره من كثرة الشعر. فقالوا: ويلك، ما أنت؟ فقالت: أنا الجساسة، قالوا: وما الجساسة. قالت: أيها القوم، انظروا إلى هذا الرجل في الدير، فإنه إلى خبركم بالأشواق، قال: لما سمت لنا رجلاً فرقنا منها أن تكون شيطانة، قال:

---

(١) التجؤوا إليه.

(٢) أقرب: جمع قارب.

(٣) أهلب: كثير الشعر غليظه.

فانطلقنا سراعاً، حتى دخلنا الدير، فإذا فيه أعظم إنسان رأيناه قط خلقاً، وأشده وثاقاً، مجموعة يداه إلى عنقه، ما بين ركبتيه إلى كعبيه بالحديد، قلنا: ويلك ما أنت؟ قال: قد قدرتم على خبري، فأخبروني ما أنتم؟ قالوا: نحن أناس من العرب، ركبنا في سفينة بحرية، فصادفنا البحر حين اغتلم[1]، فلعب بنا الموج شهراً، ثم أرفأنا إلى جزيرتك هذه، فجلسنا في أقربها، فدخلنا الجزيرة، فلقيتنا دابة أهلب كثير الشعر، لا يدرى ما قبله من دبره من كثرة الشعر. فقلنا: ويلك ما أنت؟ فقالت: أنا الجساسة، قلنا: وما الجساسة؟ قالت: اعمدوا إلى هذا الرجل في الدير، فإنه إلى خبركم بالأشواق، فأقبلنا اليك سراعاً، وفزعنا منها، ولم نأمن أن تكون شيطانة.

قال: فأخبروني عن نخل بيسان[2]، قلنا: عن أي شأنها تستخبر؟ قال: أسألكم عن نخلها، هل يثمر؟ قلنا: نعم. قال: إما إنه يوشك أن لا يثمر. قال: أخبروني عن بحيرة طبرية[3]. قلنا: عن أي شأنها تستخبر؟ قال: هل فيها ماء؟ قالوا: هي كثيرة الماء. قال: أما إن ماءها يوشك أن يذهب.

قال: أخبروني عن عين زغر[4]. قالوا: عن أي شأنها تستخبر؟ قال: هل في العين ماء؟ وهل يزرع أهلها بماء العين؟ قلنا له: نعم، هي كثيرة الماء، وأهلها يزرعون من مائها. قال أخبروني عن نبي الأميين ما فعل؟ قالوا: قد خرج من مكة ونزل يثرب. قال: أقاتله العرب؟ قلنا: نعم،

---

(١) اغتلم: هاج وجاوز حده المعتاد.

(٢) بيسان: إحدى مدن فلسطين.

(٣) بحيرة عذبة الماء في فلسطين.

(٤) بلدة في الجانب القبلي من الشام.

قال: كيف صنع بهم؟ فأخبرناه أنه قد ظهر على من يليه من العرب وأطاعوه، قال لهم: قد كان ذلك؟ قلنا: نعم. قال: أما إن ذلك خير لهم أن يطيعوه، وإني مخبركم عني. إني أنا المسيح، وإني أوشك أن يؤذن لي في الخروج، فأخرج فأسير في الأرض، فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة، إلا مكة وطيبة[1]، فهما محرمتان عليَّ كلتاهما، كلما أردت أن أدخل واحدة أو واحداً منهما، استقبلني ملك بيده السيف صلتا[2]، يصدني عنها، وإن على كل نقب منها ملائكة يحرسونها.

قالت: قال رسول الله ﷺ، وطعن بمخصرته في المنبر: «هذه طيبة، هذه طيبة، هذه طيبة» يعني المدينة، «ألا هل كنت حدثتكم ذلك؟» فقال الناس: نعم، «فإنه أعجبني حديث تميم أنه وافق الذي كنت حدثتكم عنه وعن المدينة ومكة، ألا إنه في بحر الشام أو بحر اليمن، لا بل من قبل المشرق، ما هو[3] من قبل المشرق، ما هو من قبل المشرق ما هو». وأومأ بيده إلى المشرق، فقالت: فحفظت هذا من رسول الله ﷺ[4].

وهذا الحديث يدل دلالة واضحة على أن ابن صياد لم يكن الدجال الأكبر، وأن الدجال الأكبر محبوس في بعض جزائر البحور، ولعله -كما يقول بعض أهل العلم- شيطان من الشياطين الذين حبسهم نبي الله سليمان، إذ يبعد وجود بشر على قيد الحياة هذه الفترة الطويلة، والله أعلم بالصواب.

---

(١) المدينة.

(٢) أي: مسلولاً.

(٣) قال النووي: قال القاضي: لفظة: (ما هو) زائدة، صلة للكلام، ليست بنافية، والمراد إثبات أنه في جهة المشرق.

(٤) رواه مسلم في صحيحه: (٤/ ٢٢٦١) ورقم الحديث: ٢٩٤٢.

المبحث الثالث

نزول عيسى ابن مريم

أخبرنا الحق تبارك وتعالى أن اليهود لم يقتلوا رسوله عيسى ابن مريم، وإن ادعوا هذه الدعوى، وصدقها النصارى، والحقيقة أن عيسى لم يقتل، ولكن الله ألقى شبهه على غيره، أما هو فقد رفعه الله إلى السماء ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٧-١٥٨].

وأشار الحق في كتابه إلى أن عيسى سينزل في آخر الزمان، وأن نزوله سيكون علامة دالة على قرب وقوع الساعة ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ [الزخرف: ٦١]، كما أخبر أن أهل الكتاب في ذلك الزمان سيؤمنون به، ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ [النساء: ١٥٩].

وقد جاء تفصيل هذه النصوص في السنة النبوية، فقد أخبرنا الرسول ﷺ أنه عندما تشتد فتنة الدجال، ويضيق الأمر بالمؤمنين في ذلك الزمان، ينزل الله عبده ورسوله عيسى عليه السلام، وينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، فقد روى الطبراني في معجمه الكبير عن أوس بن أوس، قال: قال رسول الله ﷺ: «ينزل عيسى ابن مريم عند المنارة البيضاء شرقي دمشق»[1]. وقد وصف لنا الرسول ﷺ حاله عند نزوله، ففي سنن أبي

(١) صحيح الجامع الصغير: (٦/ ٣٦١) ورقمه (٨٠٢٥)، وإسناده صحيح كما قال الشيخ ناصر الدين الألباني.

داود بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس بيني وبين عيسى نبي، وإنه نازل، فإذا رأيتموه فاعرفوه، رجل مربوع، إلى الحمرة والبياض، ينزل بين ممصرتين، كأن رأسه يقطر، وإن لم يصبه بلل»[1].

المطلب الأول

وقت نزوله

ويكون نزوله في وقت اصطف فيه المقاتلون المسلمون لصلاة الفجر، وتقدم إمامهم للصلاة، فيرجع ذلك الإمام طالباً من عيسى أن يتقدم فيؤمهم، فيأبى، ففي الحديث «وإمامهم (أي إمام الجيش الإسلامي) رجل صالح، فبينما إمامهم قد تقدم يصلي بهم الصبح، إذ نزل عليهم عيسى ابن مريم الصبح، فرجع ذلك الإمام ينكص، يمشي القهقرى ليتقدم عيسى، فيضع عيسى يده بين كتفيه، ثم يقول له: تقدم فصلِّ، فإنها لك أقيمت، فيصل بهم إمامهم»[2].

ويكون هذا في حال إعداد المسلمين لحرب الدجال، ففي حديث أبي هريرة عند مسلم: «فبينما هم يعدون للقتال، يسوون الصفوف، إذ أقيمت الصلاة فينزل عيسى ابن مريم، فأمهم»، ولفظه في كتاب الإيمان: «كيف

---

(١) صحيح الجامع الصغير: (٥/ ٩٠) ورقم الحديث: (٥٢٦٥).

(٢) رواه ابن ماجة، وابن خزيمة، والحاكم، وإسناده صحيح، انظر صحيح الجامع الصغير (٦/ ٢٧٧).

أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وأمكم»[1]. وليس المراد هنا في هذا الحديث أن عيسى أمهم في الصلاة، فالحديث الأول يدل على رفض عيسى للتقدم، وأنه قدم الإمام الذي أقيمت له الصلاة، ومثله حديث أبي هريرة عند البخاري ومسلم، قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم»[2] وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة، قال: فينزل عيسى ابن مريم، فيقول أميرهم: تعال صل لنا، فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء، تكرمة الله هذه الأمة»[3].

المطلب الثاني

بم يحكم عيسى بعد نزوله؟

النصوص السابقة صريحة في أن الإمام هو واحد من هذه الأمة، أما رواية «فأمّكم» أو «أمهم» أي: عيسى فليس المراد بها أنه أمهم في الصلاة، بل المراد أنه حكَّم فيهم كتاب الله تبارك وتعالى، أي: أمهم بكتاب الله عز وجل، ففي حديث أبي هريرة عند مسلم أن رسول الله ﷺ

(١) رواه مسلم، كتاب الفتن، باب فتح القسطنطينية (٤/ ٢٢٢١)، حديث رقم (٢٨٩٧)، ورواه في كتاب الإيمان، باب نزول عيسى بن مريم (١/ ١٣٦) ورقمه (١٥٥).

(٢) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب نزول عيسى ابن مريم فتح الباري: (٦/ ٤٩١) ورواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان: (١٥/ ١٣٦) ورقم الحديث (١٥٥).

(٣) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب نزول عيسى بن مريم (٤/ ١٣٧) ورقمه (١٥٦).

قال: «كيف أنتم إذا نزل فيكم ابن مريم فأمّكم منكم» وقد قال أحد رواة الحديث وهو ابن أبي ذئب للوليد بن مسلم[1]: «تدري ما أمّكم منكم»؟ قال: تخبرني، قال: فأمكم بكتاب ربكم تبارك وتعالى وسنة نبيكم ﷺ[2].

والسبب في عدم تقدم عيسى ابن مريم للإمامة هو الدلالة على أنه جاء تابعاً لهذا النبي ﷺ، حاكماً بالقرآن، لا بالإنجيل، فإن شريعة القرآن ناسخة للشرائع قبلها، وقد أخذ الله العهد والميثاق على جميع الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ ويتابعوه إذا بعث وهم أحياء: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ * فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ٨١-٨٢]، فعيسى ينزل تابعاً لرسولنا ﷺ محكماً لشريعة القرآن، ولذلك فإنه يصلي خلف ذلك الرجل الصالح، وهذا فخر لهذه الأمة وأي فخر، ففي الحديث الصحيح الذي يرويه أبو سعيد عن النبي ﷺ، قال: «منا الذي يصلي عيسى ابن مريم خلفه» رواه أبو نعيم في كتاب المهدي[3].

يقول النووي في رده على المكذبين بنزول عيسى الزاعمين أن نزوله لو كان حقاً فإنه يكون مناقضاً لقوله عليه السلام «لا نبي بعدي»، وأنه يكون بذلك ناسخاً لشرع الرسول ﷺ: «هذا استدلال فاسد، لأنه ليس المراد بنزول عيسى عليه السلام أنه ينزل نبياً بشرع ينسخ شرعنا، ولا في هذه

---

(١) هو راوي الحديث عن ابن أبي ذئب.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب نزول عيسى: (٤/ ١٣٧) ورقمه (١٥٦).

(٣) صحيح الجامع الصغير: (٥/ ٢١٩)، حديث رقم (٥٧٩٦).

الأحاديث، ولا في غيرها شيء من هذا.. بل صح أنه ينزل حكماً مقسطاً.. يحكِّم شرعنا، ويحيى من أمور شرعنا ما هجره الناس»[1].

المطلب الثالث

قضاء عيسى على الدجال

وأول عمل يقوم به عيسى هو مواجهة الدجال، فبعد نزول عيسى يتوجه إلى بيت المقدس حيث يكون الدجال محاصراً عصابة المسلمين، فيأمرهم عيسى بفتح الباب، ففي سنن ابن ماجة، وصحيح ابن خزيمة، ومستدرك الحاكم عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «فإذا انصرف، قال عيسى: افتحوا الباب، فيفتحون ووراءه الدجال، معه سبعون ألف يهودي، كلهم ذو سيف محلى وساج، فإذا نظر إليه الدجال ذاب كما يذوب الملح في الماء وينطلق هارباً . . .، فيدركه عند باب لد الشرقي، فيقتله، فيهزم الله اليهود..»[2].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن الرسول ﷺ أخبر عن نزول عيسى وصلاته بالمؤمنين ثم قال: «فإذا رآه عدو الله، ذاب كما يذوب الملح في الماء، فلو تركه لانذاب حتى يهلك، ولكن يقتله الله بيده، فيريهم دمه في حربته»[3].

---

(١) شرح النووي على مسلم: (١٨/ ٧٦).

(٢) صحيح الجامع الصغير: (٦/ ٢٧٥) ورقمه: (٧٧٥٢).

(٣) صحيح مسلم، كتاب الفتن، باب فتح القسطنطينية: (٤/ ٢٢٢١)، ورقمه: (٢٨٩٧).

والسِّر في ذوبان الدجال أن الله أعطى لِنَفَس عيسى رائحة خاصة إذا وجدها الكافر مات منها، ففي صحيح مسلم عن النواس بن سمعان عن النبي ﷺ في حديث طويل ومما قاله فيه: «فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، بين مهرودتين[1]، واضعاً كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدر منه جمان[2] كاللؤلؤ. فلا يحل لكافر يجد ريح نَفَسه إلا مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه، فيطلبه حتى يدركه بباب لدّ، فيقتله، ثم يأتي عيسى ابن مريم قوم قد عصمهم الله منه، فيمسح عن وجوههم، ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة»[3]، والسِّر في عدم ترك عيسى الدجال حتى يموت بنفسه- هو إنهاء أسطورة هذا المخلوق وفتنته، فإن الناس إذا شاهدوا قتله وموته استيقنوا أنه ضعيف مغلوب على أمره، وأن دعواه كانت زوراً وكذباً.

المطلب الرابع

مهمة عيسى بعد القضاء على الدجال وإهلاك يأجوج ومأجوج

يقضي عيسى على الدّجال وفتنته، ويخرج يأجوج ومأجوج في زمانه -كما سيأتي بيانه- فيفسدون في الأرض إفساداً عظيماً، فيدعو عيسى ربه، فيستجيب له، ويصبحون موتى، لا يبقى منهم أحد، وعند ذلك يتفرغ

(١) أي: ثوبان مصبوغان بورس ثم زعفران.

(٢) الجمان حبات من الفضة تصنع على هيئة اللؤلؤ الكبار، والمراد يتحدر منه الماء على هيئة اللؤلؤ.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال: (٤/ ٢٢٥٣)، ورقمه: (٢٩٣٧).

عيسى للمهمة الكبرى التي أنزل من أجلها، وهي تحكيم شريعة الإسلام، والقضاء على المبادىء الضالة، والأديان المحرفة، ففي صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الحرب، ويفيض المال، حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها»[1][2].

وفي رواية عند مسلم عن أبي هريرة: «والله لينزلن ابن مريم حكماً عدلاً، فليكسرن الصليب، وليقتلن الخنزير، وليضعن الجزية، ولتتركن القلاص، فلا يسعى عليها، ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد، وليُدْعونَّ إلى المال فلا يقبله أحد»[3] وفي صحيح مسلم في كتاب الفتن عن النواس بن سمعان في حديثه الطويل الذي فيه ذكر الدجال ونزول عيسى، وخروج يأجوج ومأجوج، وفي ختامه ذكر الرسول ﷺ دعاء عيسى ربه عندما يشتد عليهم الأمر، فيستجيب الله، ويهلك يأجوج ومأجوج، ثم يقول: «ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض، فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم[4]، ونتنهم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل الله عليهم طيراً كأعناق البخت[5]، فتحملهم،

(١) إنما تكون السجدة أحب إلى أحدهم من الدنيا لكثرة رغبتهم في الخير بسبب اليقين الذي يحل في قلوبهم لرؤيتهم عيسى، وما قبله من الآيات، وإيقانهم بقرب الساعة.

(٢) رواه البخاري في صحيح، كتاب أحاديث الأنبياء، باب نزول عيسى ابن مريم، فتح الباري: (٦/ ٤٦٠) ورواه البخاري في موضعين آخرين: الأول في كتاب المظالم، باب كسر الصليب، فتح الباري: (٥/ ١٢١) والثاني: في كتاب البيوع، باب قتل الخنزير، فتح الباري: (٤/ ٤١٤). ورواه مسلم في كتاب الإيمان، باب نزول عيسى، (٤/ ١٣٥)، ورقمه (١٥٥).

(٣) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب نزول عيسى، (٤/ ٣٥)، ورقمه: (١٥٥).

(٤) أي: دسمهم.

(٥) البخت: الجمال الخراسانية، أعناقها طويلة.

فتطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسل مطراً، لا يُكَنُّ منه بيت مدر[1] ولا وبر، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلقة[2]، ثم يقال للأرض: أنبتي ثمرتك، وردي بركتك، فيومئذ تأكل العصابة[3] من الرمانة، ويستظلون بقحفها، ويبارك في الرِّسْل[4]، حتى إن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس[5]، واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ[6] من الناس»[7].

المطلب الخامس

ما يستخلص من النصوص الواردة في شأن عيسى

١- أن عيسى عليه السلام نازل لا محالة في آخر الزمان والنصوص في ذلك متواترة عن الرسول ﷺ[8]، فالتكذيب بنزوله تكذيب للرسول ﷺ في خبره، وخبر الرسول ﷺ صدق لا كذب فيه، وقد أشار القرآن الكريم إلى نزول عيسى ابن مريم في أكثر من موضع، ومن ذلك قوله: ﴿وَإِن مِّنْ

(١) بيت المدر: الطين الصلب.

(٢) الزلقة: المرآة، أي تكون الأرض في صفائها ونقائها كالمرآة.

(٣) العصابة: الجماعة.

(٤) الرسل: اللبن.

(٥) اللقحة: القريبة العهد بولادة، وقيل: الناقة الحلوب. والفئام: الجماعة الكثيرة.

(٦) الفخذ: الجماعة من الأقارب، وهم دون البطن، والبطن دون القبيلة.

(٧) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال: (٤/ ٢٢٥٤)، ورقمه: (٢٩٣٧).

(٨) وقد حمل الرسول ﷺ الذين يدركون عيسى أن يبلغوه عنه السلام، ففي سنن النسائي بإسناد صحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من أدرك منكم عيسى ابن مريم، فليقرئه مني السلام».

أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ١٥٩].

ولذلك فإن أبا هريرة لما أورد حديث (نزول عيسى حكماً عدلاً)[١] قال في آخره: اقرؤوا إن شئتم: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ. . . ﴾ الآية[٢].

٢- أن عيسى يأتي ليحكِّم شريعة القرآن:

وقد سبق أن بينا هذه المسألة، والأدلة عليها.

٣- أنه يقضي على جميع الأديان، ولا يقبل من أحد إلا الإسلام:

ولذلك فإنه يكسر الصليب، وهو رمز النصرانية المحرفة، ويقتل الخنزير الذي حرمه الإسلام، ويضع الجزية، فلا يقبل من اليهود والنصارى الجزية، ولا يقبل منهم إلا الإسلام، ففي حديث أبي هريرة عند أبي داود بإسناد صحيح يرفعه: «فيقاتل الناس على الإسلام، فيدق الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام»[٣].

وعدم قبول الجزية لا يعد نسخاً، فإن الرسول ﷺ أخبر أن الجزية تقبل إلى أن ينزل عيسى، وبعد ذلك لا تقبل، يقول النووي: «(ويضع الجزية): الصواب أنه لا يقبلها، ولا يقبل من الكفار إلا الإسلام، ومن بذل منهم الجزية لم يكف عنه بها، بل لا يقبل إلا الإسلام، أو القتل، هكذا قال الإمام أبو سليمان الخطابي وغيره من العلماء. . فعلى هذا قد يقال: هذا

---

(١) والحديث في صحيحي البخاري ومسلم كما سبق بيانه.

(٢) صحيح الجامع الصغير: (٥/ ٢٢٦) ورقمه: (٥٨٧٧).

(٣) صحيح الجامع: (٥/ ٩٠)، ورقمه: (٥٢٦٥).

خلاف حكم الشرع اليوم، فإن الكتابي إذا بذل الجزية وجب قبولها، ولم يجز قتله، ولا إكراهه على الإسلام، وجوابه: أن هذا الحكم ليس بمستمر إلى يوم القيامة، بل هو مقيد بما قبل عيسى -عليه السلام- وقد أخبرنا النبي ﷺ في هذه الأحاديث الصحيحة بنسخة، وليس عيسى هو الناسخ، بل نبينا ﷺ هو المبين للنسخ، فإن عيسى يحكم بشرعنا»[1].

٤- عموم الرخاء، وسيادة الإسلام والأمن في ذلك الزمان:

أخبرت النصوص التي سقناها عن تلك البركة العظيمة التي توجد في ذلك الوقت، والأمن العظيم الذي يكرم الله به العباد في تلك الأيام، وكيف ترفع الشحناء والتباغض بين الناس، ويجتمع البشر على كلمة الله تبارك وتعالى.

ومن النصوص التي تحدثت عن هذا حديث أبي أمامة عند ابن ماجة، وابن خزيمة، والحاكم بإسناد صحيح، قال: قال رسول الله ﷺ: «فيكون عيسى ابن مريم في أمتي حكماً عدلاً، وإماماً مقسطاً، يدق الصليب، ويذبح الخنزير، ويضع الجزية، ويترك الصدقة، فلا يسعى على شاة ولا بعير[2]، وترفع الشحناء والتباغض، وتنزع حُمَةُ كل ذات حمة[3]، حتى يدخل الوليد يده في الحية، فلا تضره، وتضرُّ الوليدة الأسد، فلا يضرها، ويكون الذئب في الغنم كأنه كلبها، وتملأ الأرض من السلم، كما يملأ الإناء من الماء، وتكون الكلمة الواحدة، فلا يعبد إلا الله، وتضع الحرب أوزارها، وتسلب قريش ملكها، وتكون الأرض كفاثور الفضة، تنبت نباتها

(١) شرح النووي على مسلم: (٢/ ١٩٠).
(٢) أي لعدم الحاجة إلى السعي، وطلب الرزق.
(٣) مثل سم الأفعى، والعقرب.

بعهد آدم، حتى يجتمع النفر على القطف من العنب، فيشبعهم، ويجتمع النفر على الرمانة، فتشبعهم، ويكون الثور بكذا وكذا من المال، ويكون الفرس بدريهمات. .»[1].

المطلب السادس

طيب العيش بعد المسيح

إن الحالة التي وصفتها النصوص عن الحياة في تلك الفترة حالة فذة في تاريخ الإنسانية، حيث يعيش الناس في خير وأمن وسلام، وفي بحبوحة من العيش، ولذلك فإنهم يغبطون على ما يكونون فيه من نعيم، وفي الحديث: «طوبى لعيش بعد المسيح، يؤذن للسماء في القطر، ويؤذن للأرض في النبات، حتى لو بذرت حبك على الصفا لنبت، وحتى يمر الرجل على الأسد فلا يضره، ويطأ على الحية فلا تضره، ولا تشاحّ، ولا تحاسد، ولا تباغض»[2].

المطلب السابع

بقاء عيسى في الأرض

مدة بقاء عيسى في الأرض أربعون عاماً، كما ثبت ذلك في حديث صحيح في سنن أبي داود عن أبي هريرة: «فيمكث في الأرض أربعين

(١) صحيح الجامع الصغير: (٦/ ٢٧٦) ورقمه: (٧٧٥٢).

(٢) حديث صحيح، رواه أبو بكر الأنباري، والديلمي، والضياء عن أبي هريرة، سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٤/ ٥٥٩)، ورقمه: (١٩٢٦).

سنة، ثم يتوفى، ويصلي عليه المسلمون»[1].

وهو في ذلك مقيم لحكم الإسلام، مصل إلى قبلة المسلمين، وقد ذكرنا الأحاديث المفصحة عن صلاته وراء ذلك الرجل الصالح عند نزوله، كما ثبت أنه يحج البيت العتيق، ففي صحيح مسلم ومسند أحمد عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، ليهلنَّ ابن مريم بفج الروحاء، حاجاً ومعتمراً، أو ليثنينهما»[2].

والروحاء مكان بين المدينة ووادي الصفراء في طريق مكة على نحو أربعين ميلاً من المدينة أو ستة وثلاثين أو ثلاثين»[3].

المطلب الثامن

فضل الذين يصحبون عيسى عليه السلام

في مسند أحمد وسنن النسائي عن ثوبان، عن النبي ﷺ، قال: «عصابتان من أمتي أحرزهما الله من النار، عصابة تغزو الهند، وعصابة تكون مع عيسى ابن مريم»[4].

---

(١) صحيح الجامع: (٥/ ٩٠)، ورقمه: (٥٢٦٥).

(٢) صحيح الجامع الصغير: (٦/ ١٠٠) ورقمه: (٦٩٥٥).

(٣) لوامع الأنوار البهية: (٢/ ١١٣)

(٤) صحيح الجامع: (٤/ ٣٥)، ورقمه: (٣٩٠٠).

المبحث الرابع
خروج يأجوج ومأجوج

ذكر الحق تبارك وتعالى في سورة الكهف أن ذا القرنين في تطوافه في الأرض بلغ بين السدين، فوجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً، فاشتكوا له من الضرر الذي يلحق بهم من يأجوج ومأجوج، وطلبوا منه أن يقيم بينهم وبينه سداً يمنع عنهم فسادهم، فاستجاب لطلبهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا * قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا * قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا * ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا * فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا * قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا * ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٣-٩٩].

ويأجوج ومأجوج أمتان كثيرتا العدد، وهما من ذرية آدم عليه السلام ثبت في الصحيحين: «أن الله تعالى يقول[1]: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك، فيقول: ابعث بعث النار، فيقول: وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائه وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة، فحينئذ يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، فقال: إن فيكم أمتين ما

(١) في يوم القيامة.

كانتا في شيء إلا كثرتاه، يأجوج ومأجوج»، قال ابن كثير بعد سياقه لهذا الحديث: «وقد حكى النووي في شرح مسلم عن بعض الناس أن يأجوج ومأجوج قد خلقوا من منى خرج من آدم، فاختلط بالتراب فخلقوا من ذلك، فعلى هذا يكونون مخلوقين من آدم وليسوا من حواء» وقد رد ابن كثير هذا القول وأنكره قائلاً: «وهذا قول غريب جداً، ثم لا دليل عليه لا من عقل، ولا من نقل، ولا يجوز الاعتماد هٰهنا على ما يحكيه بعض أهل الكتاب لما عندهم من الأحاديث المفتعلة»[1].

وقد أخبر الحق تبارك وتعالى أن السَّد الذي أقامه ذو القرنين مانعهم من الخروج: ﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾ [الكهف: ٩٧]، وأخبر أن ذلك مستمر إلى آخر الزمان عندما يأتي وعد الله، ويأذن لهم بالخروج، وعند ذلك يدك السد، ويخرجون على الناس ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾ [الكهف: ٩٨]، وعند ذلك يخرجون أفواجاً أفواجاً كموج البحر ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ﴾ [الكهف: ٩٩] وذلك قرب قيام القيامة والنفخ في الصور ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَـٰهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٩].

وقد أخبر الحق في موضع آخر عن نقبهم السد وخروجهم: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ * وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَـٰخِصَةٌ أَبْصَـٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَـٰوَيْلَنَا..﴾ [الأنبياء: ٩٦-٩٧]، وهذا كائن في آخر الزمان، وقوله: ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦]، أي يسرعون في الإفساد في الأرض، والحدب هو المرتفع في الأرض، وهذه صفتهم حال خروجهم.

---

(١) تفسير ابن كثير: ٤/ ٤٢٣.

وقد أخبر الرسول ﷺ أنه فتح من ردم يأجوج ومأجوج في عصره فتحة صغيرة كالحلقة التي تكون من الإبهام والتي تليها، ففي صحيح البخاري عن زينب بنت جحش أن رسول الله ﷺ دخل عليها يوماً فزعاً، يقول: «لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه، وحلق بإصبعيه: الإبهام والتي تليها، قالت زينب: فقلت: يا رسول الله، أنهلك، وفينا الصالحون؟ قال: نعم، إذا كثر الخبث»[1].

وخروجهم يقع بعد نزول عيسى ابن مريم وهزيمته للدجال، ففي صحيح مسلم عن النواس بن سمعان في حديثه الطويل، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثم يأتي عيسى ابن مريم قوم قد عصمهم الله منه (أي من الدجال)، فيمسح عن وجوههم، ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة، فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى، إني قد أخرجت عباداً لي، لا يدان لأحد بقتالهم[2]، فحرز عبادي إلى الطور[3]، ويبعث الله يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون، فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية[4]، فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم، فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماء، ويُحْصر نبي الله عيسى وأصحابه، حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم، فَيَرْغب نبيُّ الله عيسى وأصحابه، فيرسل الله عليهم النَّغَفَ في رقابهم[5]، فيصبحون فرسى[6] كموت نفس واحدة، ثم يهبط نبي الله

(١) صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب يأجوج ومأجوج، فتح الباري: (١٣/ ١٠٦).
(٢) أي: لا قدرة ولا طاقة.
(٣) أي: اصعد بهم إلى الجبل، كي يكونوا في حرز ومأمن.
(٤) هي بحيرة كبيرة في فلسطين، ماؤها عذب.
(٥) دود يكون في أنوف الإبل والغنم، وفي الأحاديث الأخرى دود كأمثال النغف.
(٦) جمع فريس، كقتيل وقتلى وزناً ومعنى.

عيسى وأصحابه إلى الأرض، فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم[1] ونتنهم، فَيَرْغَبُ نبيُّ الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل طيراً كأعناق البخت[2]، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسل الله مطراً، لا يكن منه بيت مدر ولا وبر، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلقة»[3][4].

وقال مسلم أيضاً بعد سياقه للحديث السابق: حدثنا علي بن حُجْر السعدي، حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، والوليد بن مسلم، قال ابن حُجْر: دخل حديث أحدهما في حديث الآخر عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، بهذا الإسناد (إسناد الحديث السابق) نحو ما ذكرنا، وزاد بعد قوله: «لقد كان بهذه مرة ماء»، «ثم يسيرون حتى ينتهوا إلى جبل الخمر[5]، وهو جبل بيت المقدس، فيقولون: لقد قتلنا من في الأرض، هلمَّ فلنقتل من في السماء، فيرمون بنشابهم[6] إلى السماء، فيرد الله عليهم نشابهم مخضوبة دماً».

وفي رواية ابن حجر: «فإني قد أنزلت عباداً لي، لا يَدَيْ لأحد بقتالهم»[7]. والسبب في أنه لا يستطيع أحد الوقوف في وجههم لكثرتهم، يدلك على كثرتهم أن المسلمين يوقدون من أسلحتهم بعد هلاكهم سبع

---

(١) دسمهم.

(٢) هي جمال طوال الأعناق.

(٣) المدر: الطين الصلب. والزلقة: المرآة.

(٤) صحيح مسلم، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال: (٤/ ٢٢٥٤)، ورقمه: (٢٩٣٧).

(٥) الخمر: هي الشجر الكبير المتلف الذي يخمر من تحته، أي: يستره، وقد فسر في الحديث أنه بيت المقدس لكثرة شجره.

(٦) النشاب: هي السهام.

(٧) صحيح مسلم، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال: (٤/ ٢٢٥٥)، ورقمه: (٢٩٣٧).

سنين، ففي سنن الترمذي بإسناد مسلم في الرواية السابقة: «سيوقد المسلمون من قسيِّ يأجوج ونشابهم وأسلحتهم وأترستهم سبع سنين»، ورواه ابن ماجة في سننه[1].

وهذه الأحاديث وأحاديث مشابهة كثيرة تدل على أن هذه الحضارة الهائلة التي اخترعت هذه القوة الهائلة من القنابل والصواريخ ستتلاشى وتزول، وأغلب الظن أنها ستدمر نفسها بنفسها، وأن البشرية ستعود مرة أخرى إلى القتال على الخيول واستعمال الرماح والقسي ونحو ذلك، والله أعلم.

وفي السنن للترمذي وابن ماجة، وصحيح ابن حبان، ومستدرك الحاكم، ومسند أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن يأجوج ومأجوج يحفرون كل يوم، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذي عليهم: ارجعوا فسنحفره غداً، فيعيده الله أشد ما كان، حتى إذا بلغت مدتهم، وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذي عليهم: ارجعوا فسنحفره غداً إن شاء الله تعالى، واستثنوا، فيعودون إليه، وهو كهيئته يوم تركوه، فيحفرونه، ويخرجون على الناس، فينشفون الماء، ويتحصن الناس منهم في حصونهم، فيرمون بسهامهم إلى السماء، فترجع عليها الدم الذي اجفظ[2]، فيقولون: قهرنا أهل الأرض، وعلونا أهل السماء، فيبعث الله عليهم نغفاً في أقفائهم[3]، فيقتلون بها، قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إن دواب الأرض لتسمن، وتشكر شكراً من لحومهم»[4].

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٤/٥٧٩)، ورقمه: (١٩٤٠).

(٢) اجفظ: أي امتلأ، أي ترجع ممتلئة دماً.

(٣) المراد بأقفائهم أي في مؤخر رقابهم كما صرح به في الحديث الآخر الذي مر قبله.

(٤) وإسناده صحيح، قال فيه الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي، وقال الألباني:=

وفي سنن ابن ماجة، وصحيح ابن حبان، ومستدرك الحاكم، ومسند أحمد عن أبي سعيد الخدري، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يفتح يأجوج ومأجوج، يخرجون على الناس كما قال الله عز وجل: ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء:٩٦]، فيغشون الأرض، وينحاز المسلمون عنهم إلى مدائنهم وحصونهم، ويضمون إليهم مواشيهم، ويشربون مياه الأرض، حتى إن بعضهم ليمر بالنهر، فيشربون ما فيه حتى يتركوه يبساً، حتى إن من بعدهم ليمر بذلك النهر، فيقول: قد كان هنا ماء مرة، حتى إذا لم يبق من الناس إلا أحد في حصن أو مدينة، قال قائلهم، هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم، بقي أهل السماء. قال: ثم يهز أحدهم حربته، ثم يرمي بها إلى السماء، فترجع مخضبة دماً للبلاء والفتنة، فبينما هم على ذلك، إذ بعث الله دوداً في أعناقهم كنغف الجراد الذي يخرج في أعناقهم، فيصبحون موتى لا يسمع لهم حِسّ، فيقول المسلمون: ألا رجل يشري نفسه، فينظر ما فعل هذا العدو، قال: فيتجرد منهم محتسباً لنفسه، قد أظنها على أنه مقتول، فينزل فيجدهم موتى، بعضهم على بعض، فينادي: يا معشر المسلمين: ألا أبشروا، فإن الله قد كفاكم عدوكم، فيخرجون من مدائنهم وحصونهم، ويسرحون مواشيهم، فما يكون لها رعي إلا لحومهم، فتشكر عنه كأحسن ما تشكر عن شيء من النبات أصابته قط»[1] وهذه النصوص دالة على كثرة يأجوج ومأجوج بحيث لا يستطيع أحد أن يقف في وجوههم.

= وهو كما قالا، سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٤/ ٣١٣) ورقمه (١٧٣٥).

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٤/ ٤٠٢)، ورقم الحديث: (١٧٩٣)، وقد ذكر الشيخ ناصر الدين أن الحاكم قال فيه: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، إلا أن الشيخ لم يرتض هذا، لأن ابن إسحاق أحد رواة الحديث، لم يخرج له مسلم إلا في المتابعات، فالحديث حسن.

المَبحث الخامس

دروس الإسلام ورفع القرآن وفناء الأخيار

بعد ذلك الانتشار العظيم للإسلام الذي يعم المشارق والمغارب، يضعف الإسلام مرة أخرى، ويترعرع الشَّر، ويرفع هذا الدين العظيم، ويرفع القرآن، ويذهب العلم، ويقبض الله من كان في نفسه بقية من إيمان، فلا يبقى بعد ذلك إلا شرار الخلق، وعليهم تقوم الساعة.

أخرج ابن ماجة والحاكم عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: «يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب، حتى لا يدرى ما صيام، ولا صلاة، ولا نسك، ولا صدقة، وليسرى على كتاب الله في ليلة، فلا يبقى في الأرض منه آية، وتبقى طوائف من الناس: الشيخ الكبير والعجوز، يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة (لا إله إلا الله) فنحن نقولها»[1].

وهذه البقية الباقية التي لا تعرف من الإسلام إلا كلمة التوحيد تفنى وتبيد، ففي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق»[2].

وفي حديث آخر بين لنا الرسول ﷺ كيف تذهب بقية الصالحين في آخر الزمان، ففي الحديث الذي يرويه مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ

---

(١) قال الحاكم فيه: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وقال البوصيري: إسناده صحيح، رجاله ثقات. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة، للشيخ ناصر الدين الألباني، حديث رقم (٨٧).

(٢) رواه مسلم في كتاب الفتن، باب قرب الساعة، (٤/٢٢٦٨)، حديث رقم (٢٩٤٩).

قال: «إن الله يبعث ريحاً من اليمن، ألين من الحرير، فلا تدع أحداً في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته».

وفي رواية «مثقال ذرة»[1].

وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله، الله»[2].

وفي صحيح مسلم عن النواس بن سمعان يرفعه: «فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم، فتقبض روح كل مؤمن، وكل مسلم، ويبقى شرار الناس يتهارجون تهارج الحمر، فعليهم تقوم الساعة»[3].

وروى البخاري بإسناده إلى مِرْداس الأسلمي رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «يذهب الصالحون الأول فالأول، وتبقى حثالة كحثالة الشعير أو التمر، لا يباليهم الله بالة»[4].

ومن دروس الإسلام في تلك الأيام أن تنقطع عبادة الحج، فلا حج ولا عمرة، ففي مسند أبي يعلى ومستدرك الحاكم بإسناد صحيح عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى لا

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، حديث رقم (٧٩١٥)، وانظر جامع الأصول: (١٠/ ٤١٠).

(٢) رواه مسلم في صحيحه، مشكاة المصابيح (٣/ ٥٠)، حديث رقم (٥٥١٦).

(٣) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، ورقم الحديث (٢٩٣٧). والمراد بتهارج الحمر، أي: يجامع الرجال النساء بحضرة الناس كما يفعل الحمير، ولا يكترثون لذلك، والمرج بإسكان الراء الجماع، يقال هرج زوجته أي جامعها، شرح النووي على مسلم (١٨/ ٧٠) أقول: وهذا حال الناس اليوم في كثير من المجتمعات الغربية، يتهارجون تهارج الحمر في نواديهم التي تسمى نوادي العراة، وعلى شواطىء البحار، وفي الغابات والحدائق.

(٤) رواه البخاري، انظر النهاية لابن كثير: (١/ ١٨٦).

يحج البيت»[1] ولا شك أن هذا إنما يكون بعد انبعاث الريح الطيبة وقبضها الصالحين، أما قبل ذلك فإن عبادة البيت مستمرة، ففي صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «ليحجن هذا البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج»[2].

(١) صحيح الجامع الصغير: (٦/ ١٧٤) ورقمه: (٧٢٩٦).

(٢) رواه البخاري، انظر النهاية لابن كثير: (١/ ١٨٦).

المبحث السادس

عودة البشرية إلى الجاهلية وعبادة الأوثان

فإذا درس الإسلام، ورفع القرآن، وقبضت الريح كل من في قلبه مثقال ذرة من إيمان -عادت البشرية إلى جاهليتها الأولى أو أشد، فتطيع الشيطان، وتعبد الأوثان.

وقد حدثنا الرسول ﷺ عما يكون بعد موت المسيح عليه السلام في آخر الزمان، ففي حديث عبد الله بن عمرو عند مسلم: «ثم يرسل الله ريحاً باردة من قبل الشام، فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته، حتى لو كان أحدهم دخل في كبد جبل لدخلته عليه، حتى تقبضه» قال: سمعتها من رسول الله ﷺ قال: «فيبقى شرار الناس في خفة الطير، وأحلام السباع، لا يعرفون معروفاً، ولا ينكرون منكراً، فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبون؟ فيقولون: ما تأمرنا؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان، وهم في ذلك دارةٌ أرزاقهم، حَسَنٌ عيشهم، ثم ينفخ في الصور..» الحديث[1].

ومن الأوثان التي تعبد (ذو الخَلَصة) طاغية دوس واللات والعزى، ففي صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس على ذي الخَلَصة» وذو الخَلَصة: الصنم الذي كانت تعبده دوس في الجاهلية[2].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن، باب خروج الدجال، (٤/ ٢٢٥٨) ورقمه: (٢٩٤٠).

(٢) رواه البخاري، في كتاب الفتن، باب تغير الزمان حتى تعبد الأوثان، فتح الباري: (١٣/ ٧٦). ورواه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى تعبد دوس ذا الخلصة، (٤/ ٢٢٣٠)، =

وفي صحيح مسلم عن عائشة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يذهب الليل والنهار حتى تُعْبد اللات والعزى، فقالت عائشة: يا رسول الله، إن كنت لأظن حين أنزل الله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣] أن ذلك تاماً، قال: إنه سيكون من ذلك ما شاء الله، ثم يبعث الله ريحاً طيبة، فتوفى كل من في قلبه مثقال حبة خَرْدل من إيمان، فيبقى من لا خير فيه، فيرجعون إلى دين آبائهم»[(١)].

وفي هذا الزمن يتدنى المستوى الأخلاقي تدنياً هائلاً، فقد أخرج البزار في مسنده، وابن حبان في صحيحه عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يتسافدوا في الطريق تسافد الحمير، قلت: إن ذلك لكائن؟ قال: نعم، ليكونن» وللحديث شاهد عند الحاكم من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «والذي نفسي بيده لا تفنى هذه الأمة حتى يقوم الرجل إلى المرأة فيفترشها في الطريق، فيكون خيارهم يومئذ من يقول: هلا ورايتها وراء هذا الحائط»[(٢)].

وله شاهد آخر من حديث النواس بن سمعان في حديثه الطويل في الدجال ويأجوج ومأجوج، وفي آخره: «فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحاً طيبة، فتأخذهم تحت آباطهم، فتقبض روح كل مؤمن، وكل مسلم، ويبقى شرار الناس، يتهارجون تهارج الحمر[(٣)]، فعليهم تقوم الساعة» رواه مسلم وأحمد والحاكم.

= ورقم الحديث: (٢٩٠٦)، والسياق للبخاري، والتعريف بذي الخلصة مثبت في الصحيحين.

(١) رواه مسلم في كتاب الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى تعبد دوس ذا الخلصة، (٤/ ٢٢٣٠)، ورقم الحديث: (٢٩٠٦)

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة: (١/ ٢٤٥).

(٣) أي يجامع الرجال النساء بحضرة الناس كما تفعل الحمير، وبمعناه: (يتسافدون).

المبحث السابع
هدم الكعبة على يد ذي السويقتين

ولعل هذا الزمان هو الذي يهدم فيه ذو السويقتين الكعبة، ففي الحديث الذي يرويه الإمام أحمد في مسنده من طرق عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يبايع لرجل ما بين الركن والمقام، ولن يستحل البيت إلا أهله، فإذا استحلوه فلا تسأل عن هلكة العرب، ثم يأتي الحبشة فيخربونه خراباً لا يعمر بعده أبداً، وهم الذين يستخرجون كنزه»[(١)].

وروى الإمام أحمد في المسند أيضاً عن عبد الله بن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ قال: «يخرب الكعبة ذو السويقتين في الحبشة، ويسلبها حليها، ويجردها من كسوتها، ولكأني أنظر إليه أصيلعاً أفيدعا، يضرب بمسحاته ومعوله»[(٢)].

وفي صحيح البخاري ومسند أحمد عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «كأني أنظر إليه أسود أفحج، ينقضها حجراً حجراً، يعني الكعبة»[(٣)].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن الرسول ﷺ أنه قال: «يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة»[(٤)]. وإنما سمي ذو السويقتين لصغر

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة: (١/ ٢٤٥).

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٢/ ١١٩) ورقم الحديث: (٥٧٩).

(٣) قال ابن كثير في النهاية: (١/ ١٨٧) إسناده قوي.

(٤) رواه مسلم في صحيحه في كتاب الفتن: (٤/ ٢٢٣٢)، حديث رقم: (٢٩٠٩). شرح النووي على مسلم: (١٨/ ٣٥).

ساقيه، فالسويقتان تصغير ساقي الإنسان لرقتهما وهي صفة سوق السودان غالباً.

وقد يقال كيف يهدمها وقد جعل الله مكة حرماً آمناً؟ الجواب: أن معناه آمناً إلى قرب يوم القيامة وخراب الدنيا. هكذا قال النووي: وهذا صحيح إذا كان الهدم في هذا الوقت، وإلا فإن الأمر حكم شرعي ألزم الله به عباده، فإذا تمرد متمرد وانتهك حرمة الحرم فقد يمنعه الله كما فعل بأبرهة، وقد لا يمنعه لحكمة يعلمها كما فعل القرامطة الذين اجتاحوا الحرم وفعلوا عنده الأفاعيل، وكما سيفعله هذا الخبيث ذو السويقتين[1].

---

(١) المصدر السابق.

المبحث الثامن

طلوع الشمس من مغربها

من الآيات البينات الدالة على وقوع الساعة طلوع الشمس من مغربها، ففي صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا أجمعين، فذاك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً»[1].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، فتح الباري: (١١/ ٣٥٢)، ورواه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل الله فيه الإيمان: (١/ ٣٧)، ورقم الحديث: (١٥٧).

المبحث التاسع
خروج الدابة

وهذه الدابة آية من آيات الله تخرج في آخر الزمان، عندما يكثر الشر، ويعم الفساد، ويكون الخير قلة في ذلك الزمان، وهذه الدابة هي التي ذكرها الحق في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢].

ولا شك أن هذه الدابة مخالفة لمعهود البشر من الدواب، ومن ذلك أنها تخاطب الناس وتكلمهم، وقد ذكرنا جملة من الأحاديث التي عدَّ فيها الرسول ﷺ من أشراط الساعة العظام -خروج الدابة.

وروى الإمام أحمد في مسنده، والبخاري في الكبير، والبغوي في «حديث علي بن الجعد»، وأبو نعيم في أخبار أصبهان بإسناد صحيح عن أبي أمامة يرفعه إلى النبي ﷺ، قال: «تخرج الدابة، فتسم الناس على خراطيمهم، ثم يعمرون فيكم حتى يشتري الرجل البعير، فيقول: ممن اشتريته؟ فيقول: اشتريته من أحد المخطمين»[1].

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة: (١/ ٣١)، ورقمه: (٣٢٢).

المبحث العاشر
النار التي تحشر الناس

وآخر الآيات التي تكون قبل قيام الساعة نار تخرج من قعر عدن، تحشر الناس إلى محشرهم، وقد سبق أن ذكرنا الأحاديث التي عدد فيها الرسول ﷺ أشراط الساعة، وذكر أنها عشر، قال: «وآخر ذلك نار تخرج من اليمن، تطرد الناس إلى محشرهم»[1].

وفي صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه أن عبد الله بن سلام بلغه مقدم النبي ﷺ المدينة (أي مهاجراً) فأتاه يسأله عن أشياء، فقال: إني سائلك عن ثلاث: ما أول أشراط الساعة؟ فقال الرسول ﷺ: «أما أول أشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب»[2]. وفي سنن الترمذي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ستخرج نار من حضرموت قبل القيامة تحشر الناس، قالوا: يا رسول الله فما تأمرنا؟ قال: عليكم بالشام»، وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح[3].

وقد حدثنا الرسول ﷺ عن كيفية حشر النار للناس، ففي صحيح

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الفتن، باب الآيات التي تكون قبل الساعة، (٤/ ٢٢٢٥) ورقمه (٢٩٠١).

(٢) إن شئت أن تتطلع على بقية المسائل وإجابة الرسول ﷺ عليها فارجع إلى صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، فتح الباري: (٧/ ٢٧٢).

(٣) جامع الأصول: (١٠/ ٣٦٨) ورقم الحديث: (٧٨٨٨)، وانظر صحيح الجامع الصغير (٣/ ٢٠٣) ورقم الحديث: (٣٦٠٣).

البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: «يحشر الناس على ثلاث طرائق راغبين راهبين، واثنان على بعير، وثلاثة على بعير، وأربعة على بعير، وعشرة على بعير، ويحشر بقيتهم النار، تقيل معهم حيث قالوا، وتبيت معهم حيث باتوا، وتصبح معهم حيث أصبحوا، وتمسي معهم حيث أمسوا»[1] وروى أحمد في مسنده، والترمذي في سننه، والحاكم في مستدركه بإسناد صحيح عن معاوية بن حيدة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنكم تحشرون رجالاً وركباناً، وتجرون على وجوهكم ها هنا، وأومأ بيده نحو الشام»[2].

وآخر من تحشرهم النار راعيان من مزينة، ففي الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم وأحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يتركون المدينة على خير ما كانت، لا يغشاها إلا العوافي (يريد عوافي السباع والطير)، وآخر من يحشر راعيان من مزينة، ينعقان بغنمها، فيجدانها وحشاً، حتى إذا بلغا ثنية الوداع خرّا على وجههما»[3].

والأرض التي تحشر النار الناس إليها هي بلاد الشام، ففي كتاب فضائل الشام للربعي عن أبي ذر بإسناد صحيح أن رسول الله ﷺ قال: «الشام أرض المحشر والمنشر» ورواه أحمد في مسند وابن ماجة في سننه والربعي في فضائل الشام عن ميمونة بنت سعد»[4].

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن هذا الحشر يكون في الآخرة، وعزا

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب الحشر، فتح الباري: (٣/ ٣٧٧).

(٢) صحيح الجامع الصغير: (٢/ ٢٧٢) ورقمه: ٢٢٩٨.

(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٢/ ٣٠٢)، ورقمه: ٦٨٣.

(٤) صحيح الجامع الصغير: (٣/ ٢٣٢)، ورقمه: ٣٦٢٠.

القرطبي القول بذلك إلى الحليمي وأبي حامد الغزالي[1].

وذهب الخطابي والطيبي والقاضي عياض والقرطبي وابن كثير وابن حجر إلى أن هذا الحشر يكون في آخر عمر الدنيا، حين تخرج النار من قعر عدن، وتحشر الناس إلى بلاد الشام[2].

يقول ابن كثير في هذه الأحاديث: «فهذه السياقات تدل على أن هذا الحشر، هو حشر الموجودين في آخر الدنيا، من أقطار محلة الحشر، وهي أرض الشام، وأنهم يكونون على أصناف ثلاثة:

فقسم يحشرون طاعمين كاسين راكبين، وقسم يمشون تارة ويركبون أخرى، وهم يعتقبون على البعير الواحد، كما تقدم في الصحيحين: «اثنان على بعير، وثلاثة على بعير، وعشرة على بعير» يعني يعتقبونه من قلة الظهر، كما تقدم، كما جاء مفسراً في الحديث الآخر، وتحشر بقيتهم النار، وهي التي تخرج من قعر عدن، فتحيط بالناس من ورائهم، وتسوقهم من كل جانب، إلى أرض المحشر، ومن تخلف منهم أكلته.

وهذا كله مما يدل على أن هذا في آخر الدنيا، حيث الأكل والشرب، والركوب على الظهر المستوي وغيره، وحيث يهلك المتخلفون منهم بالنار.

ولو كان هذا بعد نفخة البعث، لم يبق موت ولا ظهر يسري، ولا أكل ولا شرب، ولا لبس في العرصات. والعجب كل العجب أن الحافظ أبا بكر البيهقي بعد روايته لأكثر هذه الأحاديث، حمل هذا الركوب على أنه

(١) التذكرة للقرطبي: ص١٩٨-١٩٩، فتح الباري: (١١/ ٣٧٩).
(٢) فتح الباري: (١١/ ٣٨٩-٣٨٠)، التذكرة: ص ٢٠٠.

يوم القيامة، وصحح ذلك، وضعف ما قلناه، واستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا * وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٥].

وكيف يصحح ما ادعاه في تفسير الآية بالحديث، وفيه: «إن منهم اثنين على بعير، وعشرة على بعير» وقد جاء التصريح فيه بقلة الظهر؟ هذا لا يلتئم مع هذا، والله أعلم. تلك نجائب من الجنة يركبها المؤمنون من العرصات إلى الجنات، على غير هذه الصفة، كما سيأتي تقرير ذلك في موضعه»[1].

---

(١) النهاية لابن كثير: (١/٢٥٩).

المراجع

مرتبة حسب حروف المعجم

١- أحكام الجنائز وبدعها، للشيخ ناصر الدين الألباني، نشره المكتب الإسلامي. بيروت. الطبعة الأولى. ١٣٨٨ هـ، ١٩٦٩ م.

٢- إرواء الغليل، للشيخ ناصر الدين الألباني، نشره المكتب الإسلامي. بيروت. الطبعة الأولى. ١٣٩٩ هـ، ١٩٧٩ م.

٣- البداية والنهاية، لابن كثير. طبعة مكتبة المعارف - بيروت. الطبعة الثانية ١٩٧٧.

٤- التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، للقرطبي. طبعة المكتبة السلفية - المدينة المنورة.

٥- تفسير ابن كثير. طبعة دار الأندلس -بيروت. الطبعة الأولى. ١٣٨٥ هـ ١٩٦٦ م.

٦- تلخيص الحبير، لابن حجر. طبعة شركة الطباعة الفنية المتحدة. القاهرة.

٧- جامع الأصول في أحاديث الرسول، لابن الأثير. تحقيق عبد القادر الأرناؤوط. نشر مكتبة الحلواني ومكتبة الملاح. الطبعة الأولى. ١٣٩٢هـ ١٩٧٢ م.

٨- جامع العلوم والحكم، لابن رجب. طبعة دار المعرفة - بيروت.

٩- الرد على من كذب بالأحاديث الصحيحة الواردة في المهدي -لعبد المحسن ابن حمد العباد. الطبعة الأولى. مطابع دار الرشيد المدينة المنورة.

١٠- الروح، لابن القيم. طبعة دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة الأولى: ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢ م.
١١- الزهد والرقائق، لابن المبارك. طبع مؤسسة الرسالة. بيروت.
١٢- سلسلة الأحاديث الصحيحة، للشيخ ناصر الدين الألباني، نشر المكتب الإسلامي -بيروت. الطبعة الأولى.
١٣- سنن الترمذي. طبعة مصطفى البابي الحلبي -تحقيق أحمد محمد شاكر. الطبعة الأولى.
١٤- سنن النسائي. طبعة دار إحياء الكتب العربية -القاهرة. الطبعة الأولى. ١٣٧٢هـ -١٩٥٢م.
١٥- شرح العقيدة الطحاوية، لمحمد بن محمد بن محمد بن أبي العز الحنفي. نشر المكتب الإسلامي -بيروت. الطبعة الرابعة - ١٣٩١هـ.
١٦- شرح النووي على مسلم، للنووي. طبعة المكتبة العربية - القاهرة.
١٧- صحيح البخاري. اعتمدنا على متن فتح الباري. الطبعة السلفية. القاهرة. الطبعة الأولى.
١٨- صحيح الجامع للصغير. للسيوطي. تحقيق محمد ناصر الدين الألباني. نشره المكتب الإسلامي -بيروت. الطبعة الأولى. ١٣٨٨هـ- ١٩٦٩م.
١٩- صحيح مسلم. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. طبعة دار إحياء الكتب العربية - بيروت. الطبعة الثانية -١٩٧٢.
٢٠- العقل والروح، لابن تيمية. رسالة مطبوعة ضمن (مجموعة الرسائل المنيرية).
٢١- عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر، لعبد المحسن بن حمد العباد. الطبعة الأولى. مطابع الرشيد -المدينة المنورة.

٢٢- فتح الباري، لابن حجر العسقلاني. طبعة المكتبة السلفية -القاهرة. الطبعة الأولى.

٢٣- الكبائر، للذهبي. طبعة المكتبة الثقافية -بيروت.

٢٤- لسان العرب، لابن منظور. ترتيب يوسف خياط ونديم مرعشلي. دار لسان العرب.

٢٥- لوامع الأنوار البهية، للسفاريني. طبعة دولة قطر. الطبعة الأولى.

٢٦- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية. جمع ابن قاسم. طبعة دولة المملكة العربية السعودية. الطبعة الأولى.

٢٧- مختار الصحاح. طبعة دار المعارف -مصر.

٢٨- مسند الإمام أحمد. طبعة المكتب الإسلامي -بيروت.

٢٩- مشكاة المصابيح، للخطيب التبريزي. طبعة المكتب الإسلامي -بدمشق. الطبعة الأولى: ١٣٨١هـ- ١٩٦١م.

٣٠- المقدمة، لابن خلدون. الطبعة الثانية. طبعة مكتبة المدرسة، ودار الكتاب اللبناني -بيروت: ١٩٧٩.

٣١- المنار المنيف في الصحيح والضعيف، لابن القيم. طبعة مكتبة المطبوعات الإسلامية -حلب. الطبعة الأولى: ١٣٩٠هـ- ١٩٧٠م.

٣٢- نهاية البداية والنهاية، لابن كثير. نشر مكتبة النصر الحديثة -الرياض. الطبعة الأولى: ١٩٦٨.

٣٣- يقظة أولى الاعتبار مما ورد في ذكر النار وأصحاب النار، لصديق حسن خان. طبعة دار الأنصار -القاهرة. الطبعة الأولى: ١٣٩٨هـ- ١٩٧٩م.

٣٤- اليوم الآخر في ظلال القرآن، جمع وإعداد أحمد فائز -طبعة مؤسسة الرسالة - دمشق - الطبعة السابعة: ١٤٠٥هـ-١٩٨٤م.

الفهرس

الباب الأول القيامة الصغرى

الفصل الأول: تعريف وبيان

المبحث الأول: تعريف القيامة الصغرى ١٣
المبحث الثاني: البرزخ ١٥
المبحث الثالث: الموت ١٦
المطلب الأول: الموت في اللغة والاصطلاح ١٦
المطلب الثاني: الوفاة الكبرى والوفاة الصغرى ١٧
المطلب الثالث: الموت حتم لازم ١٨
المطلب الرابع: للموت أجل محدد ١٩
المطلب الخامس: وقت الموت مجهول لنا ٢٠

الفصل الثاني: الاحتضار

المبحث الأول: حضور ملائكة الموت ٢١
المبحث الثاني: سكرات الموت ٢٦
الذي يخفف عنه سكرات الموت ٢٨
المبحث الثالث: تمني الإنسان الرجعة عند الاحتضار ٢٩
المبحث الرابع: فرح المؤمن بلقاء ربه ٣٠
المبحث الخامس: حضور الشيطان عند الموت ٣١
المبحث السادس: أسباب سوء الخاتمة ٣٣

المبحث السابع: تخيير الأنبياء عند الموت ٣٩
الفصل الثالث: رحلة الروح إلى السماء ٤١
الفصل الرابع: القبر
المبحث الأول: هول القبر وفظاعته ٤٥
ظلمة القبر ٤٦
المبحث الثاني: ضمة القبر ٤٧
المبحث الثالث: فتنة القبر ٤٨
المطلب الأول: كيف تكون فتنته ٤٨
المطلب الثاني: هل يفتن الكافر ٥٠
المطلب الثالث: هل يفتن غير المكلفين ٥١
المبحث الرابع: عذاب القبر ونعيمه ٥٢
المطلب الأول: أحاديث عذاب القبر ونعيمه متواترة ٥٢
سماع الرسول ﷺ أصوات المعذبين ٥٦
سماع غير الرسول ﷺ أصوات المعذبين ٥٧
المطلب الثاني: صفة نعيم القبر وعذابه ٥٨
المطلب الثالث: هل يعذب المسلمون في قبورهم ٦١
المطلب الرابع: أسباب عذاب القبر ٦١
١، ٢- عدم الاستتار من البول والنميمة ٦٢
٣- الغلول ٦٣
٤- ٧- الكذب، هجر القرآن، الزنا، الربا ٦٤
حبس المدين في قبره بدينه ٦٦

عذاب الميت ببكاء الحي ٦٧
المطلب الخامس: المنجيات من فتنة القبر وعذابه ٧٣
الاستعاذة بالله من فتنة القبر وعذابه ٧٤
المطلب السادس: الذين يعصمون من فتنة القبر وعذابه ٧٦
المبحث الخامس: عظة الموت ٧٩
المطلب الأول: الموت أعظم واعظ ٧٩
المطلب الثاني: التفكر في الموت ٨٠
المطلب الثالث: نماذج من عظات الواعظين ٨١
المطلب الرابع: نماذج من عظات الشعراء ٨٦
المطلب الخامس: أثر تذكر الموت في إصلاح النفوس ٨٨

الفصل الخامس: الروح والنفس

المبحث الأول: تعريف وبيان ٩١
المبحث الثاني: هل للروح كيفية تعلم؟ ٩٣
المبحث الثالث: استقلال الروح عن البدن ٩٤
المبحث الرابع: مسكن الروح في الجسد ٩٨
المبحث الخامس: الروح مخلوقة ٩٩
المبحث السادس: شبهات الذين زعموا أن الروح غير مخلوقة ١٠٣
المبحث السابع: أنواع النفوس ١٠٥
المبحث الثامن: هل تموت النفوس ١٠٦
المبحث التاسع: مستقر الأرواح في البرزخ ١٠٧
المبحث العاشر: إشكال وجوابه ١١٠

المبحث الحادي عشر: هل العذاب في البرزخ على الروح أم على البدن أم على كليهما ١١٢
المبحث الثاني عشر: هل يعلم الإنسان شيئاً عن أحوال الدنيا بعد موته ... ١١٤

الباب الثاني أشراط الساعة

الفصل الأول: وقت الساعة

المبحث الأول: الساعة آتية لا ريب فيها ١١٩
المبحث الثاني: الساعة قريبة ١٢١
المبحث الثالث: لا يعلم أحد وقت الساعة المعين ١٢٤
المبحث الرابع: الحكمة من وراء إخفاء وقت وقوعها ١٢٦
المبحث الخامس: لا يجوز الاشتغال في تحديد وقتها ١٢٧
المبحث السادس: إشكالات تتعلق بتحديد وقت الساعة ١٣٠
المبحث السابع: تعريف الأشراط والآيات ١٣٣
المبحث الثامن: فائدة البحث في الأشراط والمغيبات المستقبلة ١٣٤
المبحث التاسع: أقسام علامات الساعة ١٤١

الفصل الثاني: علامات الساعة التي وقعت

المبحث الأول: بعثة الرسول ﷺ ووفاته ١٤٥
المبحث الثاني: انشقاق القمر ١٤٧
المبحث الثالث: نار الحجاز التي أضاءت أعناق الإبل ببصرى ١٤٩
المبحث الرابع: توقف الجزية والخراج ١٦٠

الفصل الثالث

العلامات التي وقعت، وهي مستمرة
أو وقعت مرة ويمكن أن يتكرر وقوعها

المبحث الأول: الفتوحات والحروب ١٦٣
المبحث الثاني: خروج الدجالين أدعياء النبوة ١٦٩
المبحث الثالث: الفتن ١٧١
المطلب الأول: التحذير من الفتن ١٧١
المطلب الثاني: نماذج من الفتن ١٧٥
أولاً: مقتل الخليفة الراشد عثمان، وافتراق الأمة ١٧٥
ثانياً: فتنة الخوارج ١٧٦
المطلب الثالث: كيفية الخلاص من الفتن ١٧٨
كيف يتصرف المسلم في الحروب التي تثور بين المسلمين ١٧٩
المطلب الرابع: بؤرة الفتن ومصدرها ١٨٢
المبحث الرابع: إسناد الأمر إلى غير أهله ١٨٥
المبحث الخامس: فساد المسلمين ١٨٨
المبحث السادس: ولادة الأمة ربتها، وتطاول الحفاة العراة رعاة الشاء في البنيان . ١٩٠
المبحث السابع: تداعي الأمم على الأمة الإسلامية ١٩٢
السرّ في هذا التداعي ١٩٣
المبحث الثامن: الخسف والقذف والمسخ الذي يعاقب الله به أقواماً
من هذه الأمة ١٩٤
المبحث التاسع: استفاضة المال ١٩٧

المبحث العاشر: تسليم الخاصة، وفشو التجارة، وقطع الأرحام ١٩٩
المبحث الحادي عشر: اختلال المقاييس ٢٠٠
المبحث الثاني عشر: شرطة آخر الزمان الذين يجلدون الناس ٢٠١

الفصل الرابع: العلامات التي لم تقع بعد

المبحث الأول: عودة جزيرة العرب جنات وأنهاراً ٢٠٣
المبحث الثاني: انتفاخ الأهلة ٢٠٤
المبحث الثالث: تكليم السباع والجماد الإنس ٢٠٥
المبحث الرابع: انحسار الفرات عن جبل من ذهب ٢٠٦
المبحث الخامس: إخراج الأرض كنوزها المخبوءة ٢٠٨
المبحث السادس: محاصرة المسلمين إلى المدينة ٢٠٩
المبحث السابع: إحراز الجهجاه الملك ٢١٠
المبحث الثامن: فتنة الأحلاس، وفتنة الدهماء، وفتنة الدهيماء ٢١١
المبحث التاسع: خروج المهدي ٢١٣
المطلب الأول: النصوص المعرِّفة بالمهدي ٢١٣
المطلب الثاني: مرتبة أحاديث المهدي من الصحة ٢١٥
المطلب الثالث: عقائد الفرق الإسلامية في المهدي ٢١٧
المطلب الرابع: وقت خروجه ٢٢١
المطلب الخامس: هل المهدي هو الخليفة الذي يحثو المال حثواً ٢٢٢

الفصل الخامس: العلامات الكبرى

تمهيد: ترتيب العلامات الكبرى حسب وقوعها ٢٢٥
المبحث الأول: الدخان ٢٢٩
المبحث الثاني: فتنة الدجال ٢٣٣

المطلب الأول: فتنة الدجال أعظم فتنة في تاريخ البشر ٢٣٣
المطلب الثاني: السِّر في تسميته بالمسيح الدّجال ٢٣٥
المطلب الثالث: حال المسلمين في العصر الذي يخرج فيه الدجال ٢٣٥
الملحمة وفتح القسطنطينية ٢٣٦
المطلب الرابع: القحط والمجاعة قبل خروج الدجال ٢٤٠
المطلب الخامس: صفات الدجال وعلاماته ٢٤٠
صفات عامة ٢٤١
عَوَرُ الدّجال ٢٤٢
مكتوب بين عينيه كافر ٢٤٤
ليس له عقب ٢٤٥
المطلب السادس: بطلان دعواه الربوبية ٢٤٥
المطلب السابع: إمكانات الدجال التي تسبب الفتنة ٢٤٧
١- سرعة انتقاله في الأرض ٢٤٧
٢- جنته وناره ٢٤٧
٣- استعانته بالشياطين ٢٤٩
٤- استجابة الجماد والحيوان لأمره ٢٤٩
٥- قتله ذلك الشاب وإحياؤه إياه ٢٥٠
المطلب الثامن: مكان خروجه ٢٥١
المطلب التاسع: مدة مكثه في الأرض ٢٥٢
المطلب العاشر: أتباع الدجال ٢٥٣
المطلب الحادي عشر: حماية المدينة ومكة من الدجال ٢٥٤
المطلب الثاني عشر: طريق النجاة منه ٢٥٥

المطلب الثالث عشر: هلاكه والقضاء على فتنته وإهلاك أتباعه من اليهود . . ٢٥٩
المطلب الرابع عشر: عقيدة أهل السنة في الدجال ٢٦٠
المطلب الخامس عشر: ابن صياد والدجال ٢٦٢
المطلب السادس عشر: الدجال في خبر تميم الداري ٢٦٦
المبحث الثالث: نزول عيسى ابن مريم ٢٦٩
المطلب الأول: وقت نزوله ٢٧٠
المطلب الثاني: بم يحكم عيسى بعد نزوله ٢٧١
المطلب الثالث: قضاء عيسى على الدجال ٢٧٣
المطلب الرابع: مهمة عيسى بعد القضاء على الدجال وإهلاك يأجوج ومأجوج . . ٢٧٤
المطلب الخامس: ما يستخلص من النصوص الواردة في شأن عيسى ٢٧٦
المطلب السادس: طيب العيش بعد المسيح ٢٧٩
المطلب السابع: بقاء عيسى في الأرض ٢٧٩
المطلب الثامن: فضل الذين يصحبون عيسى عليه السلام ٢٨٠
المبحث الرابع: خروج يأجوج ومأجوج ٢٨١
المبحث الخامس: دروس الإسلام ورفع القرآن وفناء الأخيار ٢٨٧
المبحث السادس: عودة البشرية إلى الجاهلية وعبادة الأوثان ٢٩٠
المبحث السابع: هدم الكعبة على يد ذي السويقتين ٢٩٢
المبحث الثامن: طلوع الشمس من مغربها ٢٩٤
المبحث التاسع: خروج الدابة ٢٩٥
المبحث العاشر: النار التي تحشر الناس ٢٩٦
المراجع ٣٠٠

رقم الإيداع
2005/5862
الترقيم الدولي I.S.B.N
977 - 342 - 280 - 1

القيامة الكبرى

حُقُوق الطّبْع مَحْفُوظَة

لدار النفائس

للنشر والتوزيع - الأردن

طبعة خاصة بمصر
والمغرب العربي واليمن

(يمنع تداولها في دول الخليج العربي)

١٤٣٣هـ / ٢٠١٢ م

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث ثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م هي عشر الجائزة تتويجًا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية
الإدارة : القاهرة : ٤٠ شارع أحمد أبو العلا - المنفرع مع شارع نور الدين بهجت الموازي لامتداد شارع مكرم عبيد - مدينة نصر
هاتف : ٢٢٨٧٣٢٤٦ - ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +) فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)
فاكس : ٢٢٦٣٩٨٦١ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين
هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)
بريديًا : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

دار النفائس
للنشر والتوزيع - الأردن

العبدلي - مقابل عمارة جوهرة القدس
ص.ب : ٩٢٧٥١١ عمّان ١١١٩٠ الأردن
هاتف : ٥٦٩٣٩٤٠ - فاكس : ٥٦٩٣٩٤١
بريد إلكتروني : ALNAFAES@HOTMAIL.COM

العقيدة في ضوء الكتاب والسنة ٦

القيامة الكبرى

أ.د. عمر سليمان عبدالله الأشقر

دار النفائس
للنشر والتوزيع - الأردن

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي لا يعجزه شيء، فهو القادر على كل شيء، أحاط بمخلوقاته علماً، وقهرهم عزة وحكماً، أنشأ عباده من عدم، وإلى العدم يصيِّرهم، ثم يعيدهم إلى الحياة مرة أخرى إذا شاء بعثهم وإعادتهم.

وأصلي وأسلم على عبده المصطفى، ورسوله المجتبى، صاحب الشفاعة العظمى والمقام المحمود، وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فهذا هو الكتاب الثاني الذي نتحدث فيه عن اليوم الآخر، وموضوعه القيامة الكبرى.

وهو يشتمل على أربعة عشر فصلاً، يسبقها تمهيد.

أما التمهيد فللتعريف بالقيامة.

والفصل الأول ذكرت فيه أسماء يوم القيامة وعرفت أشهر هذه الأسماء، وبينت السر في كثرة أسماء ذلك اليوم.

والفصل الثاني مخصص للتعريف بالدَّمار الذي يحل بالجنس البشري عندما ينفخ في الصور فيفني الله الأحياء، وقد أوردت فيه النصوص التي تعرف بالصور، وبالملك النافخ فيه، واليوم الذي يكون فيه النفخ، وعدد المرات التي ينفخ فيها في الصور، والذين لا يصعقون عندما يصعق الخلائق.

والفصل الثالث في صفة البعث والنشور وحال العباد فيه.

والفصل الرابع مخصص لبيان صفة الأرض التي يكون الحشر عليها.

والفصل الخامس سقت فيه الأدلة الدالة على البعث، ورددت فيه على المكذبين به.

أما الفصل السادس فإنه حديث عن القيامة عند الأنبياء، وبيان أنهم جميعاً ذكروها وتحدثوا عنها. وفي هذا الفصل مبحث عن القيامة في كتب أهل الكتاب اليوم.

والفصل السابع مخصص للحديث عن أهوال يوم القيامة، واستعراض النصوص المتحدثة عن دكِّ الأرض، ونسف الجبال، وتفجير البحار وتسجيرها، وموران السماء وانفطارها، وتكوير الشمس، وانخساف القمر، وتناثر النجوم.

والفصل الثامن معقود لبيان أحوال الناس في ذلك اليوم، والناس فيه ثلاثة أصناف:

الكفار المشركون، والعصاة المذنبون، والأتقياء الصالحون.

فالكفار بينت ذلتهم وتخاصمهم، وإحباط أعمالهم.

والعصاة ذكرت بعض الذنوب التي يعاقبون عليها في الموقف العظيم.

والأتقياء ذكرت أمنهم في يوم الفزع الأكبر، كما ذكرت بعضاً من الأعمال التي يستحق أصحابها بها الأمن والنجاة.

والفصل التاسع حديث عن الشفاعة العظمى والمقام المحمود الذي ينفرد به الرسول ﷺ من بين البشر، حيث يشفع عند ربه ليخلص العباد مما هم فيه من أهوال المحشر، فيفصل الله بين العباد، ثم يساق أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار.

والفصل العاشر في الحساب والجزاء، وهو فصل طويل، تحدثت فيه عن معنى الحساب، ومشهده، والذين يسألون في ذلك اليوم، والقواعد التي يكون الحساب على أساسها، والأمور التي يكون عنها السؤال، وأول ما يحاسب عليه العبد من أعماله.

وبينت في هذا الفصل أنواع الحساب الثلاثة: المناقشة، والعرض، والمعاتبة.

والفصل الحادي عشر عرضت فيه ما يكون من اقتصاص المظالم بين الخلق، وكيف يتحقق هذا الاقتصاص.

وعقدت الفصل الثاني عشر للتعريف بالميزان، وبيان عقيدة أهل السنة فيه، وذكر الأمور التي توزن فيه، والأعمال التي تثقل في الوزن.

وأوردت في الفصل الثالث عشر الأحاديث التي تتحدث عن حوض المصطفى ﷺ، وسعته، وحلاوة مائه وصفائه، والذين يشربون منه، والذين يطردون عنه.

والفصل الرابع عشر حديث عن مشهد الحشر إلى الجنة والنار، وفيه مبحث للحديث عن الصراط، وبيان عقيدة أهل السنة والجماعة فيه.

أسأل الله تعالى أن يجعلنا في ذلك اليوم من الفائزين الناجين، وأن يتجاوز عن زلاتنا، ويغفر لنا ذنوبنا، ويعلي درجاتنا، ويظلنا في ظله يوم لا ظل إلا ظله، إنه سميع قريب مجيب، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

الدكتور عمر سليمان عبد الله الأشقر

الكويت

١٨ / رمضان / ١٤٠٦

١٩٨٦/٥/٢٦

تمهيد
التعريف بالقيامة الكبرى

سيأتي يوم يبيد الحيُّ القيوم فيه الحياة والأحياء، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧]، ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [القصص: ٨٨]، ثم يأتي وقت يعيد الله العباد ويبعثهم، فيوقفهم بين يديه ويحاسبهم على ما قدموه من أعمال، وسيلاقي العباد في هذا اليوم شيئاً عظيماً من الأهوال، ولا ينجو من تلك الأهوال إلا من أعدَّ لذلك اليوم عدته من الإيمان والعمل الصالح، ويساق العباد في ختام ذلك اليوم إلى دار القرار: الجنة أو النار.

هذا اليوم هو يوم القيامة.

الفصل الأول

أسماء يوم القيامة

سمى الله ذلك اليوم الذي يحل فيه الدمار بهذا العالم، ثم يعقبه فيه البعث والنشور للجزاء والحساب بأسماء كثيرة، وقد اعتنى جمع من أهل العلم بذكر هذه الأسماء، وقد عدها الغزالي والقرطبي فبلغت خمسين اسماً كما يقول ابن حجر العسقلاني[1].

وقد ساق القرطبي هذه الأسماء مفسراً لها، ولكنه أخذ تفسيرها من كتاب (سراج المريدين) لابن العربي، وربما زاد عليه شيئاً ما في الشرح والتفسير[2].

وقد عدَّها بعضهم من غير تفسير، منهم ابن نجاح في كتابه «سبيل الخيرات»، وأبو حامد الغزالي في «الإحياء»، وابن قتيبة في «عيون الأخبار»[3].

وسنقتصر في هذا الحديث على ذكر أشهر هذه الأسماء، مع تعريف كل اسم تعريفاً مختصراً.

---

(١) فتح الباري: (١١/ ٣٩٦).

(٢) التذكرة للقرطبي: ٢٣٣.

(٣) التذكرة: ٢٣٢.

أشهر أسماء ذلك اليوم

١- **يوم القيامة**: ورد هذا الاسم في سبعين آية من آيات الكتاب، كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ﴾ [النساء: ٨٧]، وقوله: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ﴾ [الإسراء: ٩٧]، وقوله ﴿إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾ [الشورى: ٤٥].

والقيامة في اللغة مصدر قام يقوم، ودخلها التأنيث للمبالغة على عادة العرب، وسميت بذلك لما يقوم فيها من الأمور العظام التي بيتها النصوص. ومن ذلك قيام الناس لرب العالمين.

٢- **اليوم الآخر**: كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال: ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ﴾ [البقرة: ٢٣٢]، وقال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [التوبة: ١٨].

وأحياناً يسميه بالآخرة أو الدار الآخرة، كقوله: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠]. وقوله: ﴿۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ﴾ [النساء: ٧٤]. وقوله: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ﴾ [القصص: ٨٣]، وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

وسمى ذلك اليوم باليوم الآخر، لأنه اليوم الذي لا يوم بعده.

٣- **الساعة**، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١].

قال القرطبي: «والساعة كلمة يعبر بها في العربية عن جزء من الزمان غير محدود، وفي العرف على جزء من أربعة وعشرين جزءاً من يوم وليلة، اللذين هما أصل الأزمنة.. وحقيقة الإطلاق فيها أن الساعة بالألف واللام عبارة في الحقيقة عن الوقت الذي أنت فيه، وهو المسمى بالآن، وسميت به القيامة إما لقربها، فإن كل آت قريب. وإما أن تكون سميت بها تنبيهاً على ما فيها من الكائنات العظام التي تصهر الجلود. وقيل: إنما سميت بالساعة لأنها تأتي بغتة في ساعة..»[(١)].

٤- **يوم البعث**: قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ...﴾ [الحج: ٥]، وقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ [الروم: ٥٦].

قال ابن منظور: «البعث: الإحياء من الله تعالى للموتى، وبعث الموتى نشرهم ليوم البعث»[(٢)].

٥- **يوم الخروج**: قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ [ق: ٤٢] وقال: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: ٤٣]، وقال: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥].

---

(١) التذكرة للقرطبي: ٢١٦.

(٢) لسان العرب: مادة: (ب ع ث) (١/ ٢٣٠).

سمي بذلك لأن العباد يخرجون فيه من قبورهم عندما ينفخ في الصور.

٦- **القارعة**: قال تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ * مَا ٱلْقَارِعَةُ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: ١-٣] وقال ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾ [الحاقة: ٨].

قال القرطبي: «سميت بذلك لأنها تقرع القلوب بأهوالها. يقال: قد أصابتهم قوارع الدهر، أي: أهواله وشدائده، قالت الخنساء:

تعرفني الدهر نهشاً وحزا وأوجعني الدهر قرعاً وغمزا

أرادت أن الدهر بكبريات نوائبه وصغرياتها»[1].

٧- **يوم الفصل**: قال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [الصافات: ٢١]. وقال: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات: ٣٨]. وقال: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا﴾ [النبأ: ١٧].

سمي بذلك لأن الله يفصل فيه بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون، وفيما كانوا فيه يختصمون، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [السجدة: ٢٥].

٨- **يوم الدين**: قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ * وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ * ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ * يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٤-١٩]. وقال: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الصافات: ٢٠].

والدين في لغة العرب: الجزاء والحساب. قال الشاعر:

حصادك يوماً ما زرعت وإنما يدان الفتى يوماً كما هو دائن

---

(١) التذكرة للقرطبي: ٢٠٩.

سمي بذلك لأن الله يجزي العباد ويحاسبهم في ذلك اليوم.

٩- الصاخة: قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ [عبس: ٣٣].

قال القرطبي: «قال عكرمة: الصاخة النفخة الأولى» والطامة النفخة الثانية. قال الطبري: أحسبه من صخ فلان فلاناً إذا أصمه. قال ابن العربي: الصاخة التي تورث الصمم، وإنها المسمعة، وهذا من بديع الفصاحة حتى لقد قال بعض أحداث الأسنان حديثي الأزمان:

أصمَّ بك الناعي وإن كنت أسمعا

وقال آخر:

أصمَّني سيرهم أيام فرقتهم فهل سمعتم بسير يورث الصمما

ولعمر الله إن صيحة القيامة مسمعة، تصم عن الدنيا، وتسمع أمور الآخرة»[(١)]. وقال ابن كثير: «قال البغوي: الصاخّة يعني صيحة يوم القيامة، سميت بذلك لأنها تصخُّ الأسماع، أي: تبالغ في إسماعها حتى تكاد تصمها»[(٢)].

١٠- الطامة الكبرى: قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ [النازعات: ٣٤].

سميت بذلك لأنها تطم على كل أمر هائل مفظع، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦].

قال القرطبي: «الطامَّة الغالبة. من قولك: طمَّ الشيء إذا علا وغلب.

---

(١) تذكرة القرطبي: ٢٢٧.

(٢) تفسير ابن كثير: (٧/ ٢١٧).

ولما كانت تغلب كل شيء كان لها هذا الاسم حقيقة دون كل شيء. قال الحسن: الطامة: النفخة الثانية. وقيل: حين يسار أهل النار إلى النار»[1].

١١- **يوم الحسرة**: قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩].

سمي بذلك لشدة تحسر العباد في ذلك اليوم وتندمهم. أما الكفار فلعدم إيمانهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ [الأنعام: ٣١]، واستمع إلى تحسر الكفار عندما يحل بهم العذاب: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ * أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٥٦-٥٨].

وتبلغ الحسرة ذروتها بأهل الكفر عندما يتبرأ السادة والأتباع من متبوعيهم ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].

ويتحسر المؤمنون في ذلك اليوم بسبب عدم استزاداتهم من أعمال البر والتقوى.

١٢- **الغاشية**: قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١]، سميت بذلك لأنها تغشى الناس بأفزاعها وتغمهم، ومن معانيها أن الكفار تغشاهم النار، وتحيط بهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٥]. وقال: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١].

---

(١) تذكرة القرطبي: ٢٢٧.

١٣- **يوم الخلود:** قال تعالى: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ [ق: ٣٤].

سمي ذلك اليوم بيوم الخلود لأن الناس يصيرون إلى دار الخلد، فالكفار مخلدون في النار، والمؤمنون مخلدون في الجنان، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩]، وقال: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٧].

١٤- **يوم الحساب:** قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦]. وقال: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧].

سمي ذلك اليوم بيوم الحساب، لأن الله يحاسب فيه عباده، قال القرطبي:

«معنى الحساب أن الله يعدِّد على الخلق أعمالهم من إحسان وإساءة، ويعدِّد عليهم نعمه، ثم يقابل البعض بالبعض، فما يشف منها على الآخر حكم للمشفوف بحكمه الذي عينه للخير بالخير، وللشرِّ بالشرِّ، وجاء عن النبي ﷺ أنه قال: «ما منكم أحد إلا وسيكلمه الله ليس بينه وبينه ترجمان».

١٥- **الواقعة:** قال تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ [الواقعة: ١]، قال ابن كثير: «سميت بذلك لتحقق كونها ووجودها»[١]. وأصل وقع في لغة العرب كان ووجد.

---

(١) تفسير ابن كثير: ٦/ ٥٠٧.

١٦- **يوم الوعيد**: قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾ [ق: ٢٠]، لأنه اليوم الذي أوعد به عباده. وحقيقة الوعيد هو الخبر عن العقوبة عند المخالفة.

١٧- **يوم الآزفة**: قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾ [المؤمن: ١٨]، سميت بذلك لاقترابها، كما قال تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ * لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ [النجم: ٥٧-٥٨]. والساعة قريبة جداً. وكل آت فهو قريب وإن بَعُد مداه. والساعة بعد ظهور علاماتها أكثر قرباً.

١٨- **يوم الجمع**: قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الشورى: ٧]، سميت بذلك، لأن الله يجمع فيه الناس جميعاً، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ [هود: ١٠٣].

١٩- **الحاقة**: قال تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ * مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١-٢]، سميت بذلك -كما يقول ابن كثير- لأن فيها يتحقق الوعد والوعيد[١].

قال البخاري في صحيحه: «هي الحاقة لأن فيها الثواب وحواق الأمور. الحقة والحاقة واحد». وقال ابن حجر في شرحه لكلام البخاري: «هذا أخذه من كلام الفراء. قال في معاني القرآن. الحاقة: القيامة. سميت بذلك لأن فيها الثواب وحواقّ الأمور. ثم قال: الحقة والحاقة كلاهما بمعنى واحد. قال الطبري: سميت الحاقة لأن تحقّ فيها. وهي كقولهم: ليلٌ قائم. وقال غيره: سميت الحاقة لأنها أحقت لقوم الجنة ولقوم النار.

(١) تفسير ابن كثير: (٧/ ٩٩).

وقيل: لأنها تحاقق الكفار الذين خالفوا الأنبياء. يقال: حاققته فحققته، أي: خاصمته فخصمته. وقيل: لأنها حق لا شك فيه»[1].

٢٠- **يوم التلاق**: قال تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ [المؤمن: ١٥].

قال ابن كثير: «قال ابن عباس: يلتقي فيه آدم وآخر ولده. وقال ابن زيد: يلتقي فيه العباد. وقال قتادة والسدي وبلال بن سعد وسفيان بن عيينة: يلتقي فيه أهل الأرض والسماء، والخالق والخلق، وقال ميمون بن مهران: يلتقي فيه الظالم والمظلوم. وقد يقال: إن يوم التلاق يشمل هذا كله، ويشمل أن كل عامل سيلقى ما عمله من خير وشر كما قاله آخرون»[2].

٢١- **يوم التناد**: قال تعالى حاكياً نصيحة مؤمن آل فرعون قومه: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ [المؤمن: ٣٢]، سمي بذلك لكثرة ما يحصل من نداء في ذلك اليوم، فكل إنسان يدعى باسمه للحساب والجزاء، وأصحاب الجنة ينادون أصحاب النار، وأصحاب النار ينادون أصحاب الجنة، وأهل الأعراف ينادون هؤلاء وهؤلاء.

٢٢- **يوم التغابن**: قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩].

سمي بذلك لأن أهل الجنة يغبنون أهل النار، إذ يدخل هؤلاء الجنة، فيأخذون ما أعد الله لهم، ويرثون نصيب الكفار من الجنة.

---

(١) فتح الباري: (١١/ ٣٩٥).

(٢) تفسير ابن كثير: (٦/ ١٣٠).

هذه هي أشهر أسماء يوم القيامة، وقد أورد بعض العلماء أسماءً أخرى غير ما ذكرناه، وهذه الأسماء أخذوها بطريق الاشتقاق بما ورد منصوصاً، فقد سموه بيوم الصدر أخذاً من قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ [الزلزلة: ٦]، ويوم الجدال أخذاً من قوله تعالى: ﴿۞ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ [النحل: ١١١].

وسموه بأسماء الأوصاف التي وصف الله بها ذلك اليوم، فقالوا من أسمائه: يوم عسير، ويوم عظيم، ويوم مشهود، ويوم عبوس قمطرير، ويوم عقيم.

ومن الأسماء التي ذكروها غير ما تقدم: يوم المآب، يوم العرض، يوم الخافضة الرافعة، يوم القصاص، يوم الجزاء، يوم النفخة، يوم الزلزلة، يوم الراجفة، يوم الناقور، يوم التفرق، يوم الصدع، يوم البعثرة، يوم الندامة، يوم الفرار.

ومنها أيضاً: يوم تبلى السرائر، يوم لا تملك نفساً لنفس شيئاً، يوم يُدَعُّون إلى نار جهنم دَعّا، يوم تشخص فيه الأبصار، يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم، يوم لا ينطقون، يوم لا ينفع مال ولا بنون، يوم لا يكتمون الله حديثاً، يوم لا مرد له من الله، يوم لا بيع فيه ولا خلال، يوم لا ريب فيه.

وقد يضيف إليها بعض أهل العلم أسماء أخرى، وقد يسمى الاسم بما يقاربه ويماثله، قال القرطبي: «ولا يمتنع أن تسمى بأسماء غير ما ذكر بحسب الأحوال الكائنة فيه من الازدحام والتضايق واختلاف الأقدام، والخزي، والهوان، والذل، والافتقار، والصَّغار، والانكسار، ويوم

الميقات، والمرصاد، إلى غير ذلك من الأسماء»[1].

السر في كثرة أسمائه:

يقول القرطبي: «وكل ما عظم شأنه تعددت صفاته، وكثرت أسماؤه، وهذا مهيع كلام العرب، ألا ترى أن السيف لما عظم عندهم موضعه، وتأكد نفعه لديهم وموقعه، جمعوا له خمسمائة اسم، وله نظائر.

فالقيامة لما عظم أمرها، وكثرت أهوالها، سماها الله تعالى في كتابه بأسماء عديدة، ووصفها بأوصاف كثيرة»[2].

---

(١) التذكرة: ٢٣٣.

(٢) التذكرة: ٢١٤.

الفصل الثاني
إفناء الأحياء

المبحث الأول
النفخ في الصور

هذا الكون العجيب الغريب الذي نعيش فيه، يعجُّ بالحياة والأحياء الذين نشاهدهم والذين لا نشاهدهم، وهم فيه في حركة دائبة لا تهدأ ولا تتوقف، وسيبقى حاله كذلك إلى أن يأتي اليوم الذي يُهلك الله فيه جميع الأحياء إلا من يشاء، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦]، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨].

وعندما يأتي ذلك اليوم ينفخ في الصور، فتُنهي هذه النفخة الحياةَ في الأرض والسماء ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨].

وهي نفخة هائلة مدمرة، يسمعها المرء فلا يستطيع أن يوصي بشيء، ولا يقدر على العودة إلى أهله وخلانه ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ * فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٤٩-٥٠].

وفي الحديث: «ثم ينفخ في الصور، فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتاً، ورفع ليتاً[1]، قال: وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله. قال:

---

(١) أصغى: أمال: والليت: صفحة العنق.

فيصعق ويصعق الناس»[1].

وقد حدثنا الرسول ﷺ عن سرعة هلاك العباد حين تقوم الساعة، فقال: «ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما، فلا يتبايعانه، ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه، فلا يسقي فيه، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها»[2].

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الفتن: باب خروج الدجال: (٤/ ٢٢٩٥) ورقمه: ٢٩٤٠.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الفتن، رقم (٧١٢٠)، فتح الباري: (١٣/ ٨٢) عن أبي هريرة. ورواه في كتاب الرقاق، فتح الباري: (١١/ ٣٥٢).

المبحث الثاني
الصور الذي ينفخ فيه

الصور في لغة العرب القَرْن، وقد سئل الرسول ﷺ عن الصور، ففسره بما تعرفه العرب من كلامها، ففي سنن الترمذي وسنن أبي داود، وسنن ابن حبان، ومسند أحمد، ومستدرك الحاكم، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: «ما الصور؟ قال: الصور قرن ينفخ فيه»[1] قال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وقال الترمذي فيه: حديث حسن صحيح.

وذكر عن الحسن البصري أنه قرأ (الصُوَر)، جمع صورة، وتأوله على أن المراد النفخ في الأجساد لتعاد إليها الأرواح.

ونقل عن أبي عبيدة والكلبي أن (الصُّوْر) بسكون الواو جمع صورة، كما يقال: سور المدينة جمع سورة، والصوف جمع صوفة، وبسر جمع بسرة.

وقالوا: المراد النفخ في الصور وهي الأجساد، لتعاد فيها الأرواح، وما ذكروه خطأ من وجوه:

الأول: أن القراءة التي نسبت إلى الحسن البصري لا تصح نسبتها إلى الأئمة الذين يحتج بقراءتهم.

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٣/ ٦٨)، ورقمه: ١٠٨٠.

الثاني: أن (صورة) تجمع على (صُوَر)، ولا تجمع على (صُوْر) كما ادعى أبو عبيدة والكلبي، قال تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤]، ولم يعرف عن أحد من القراء أنه قرأها: فَأَحْسَنَ صُوْرَكُمْ.

الثالث: أن الكلمات التي ذكروها ليست بجموع، وإنما هي أسماء جموع، يفرق بينها وبين واحدتها بالتاء.

الرابع: أن هذا القول خلاف ما عليه أهل السنة والجماعة، فالذي عليه أهل السنة والجماعة أن الصور بوق ينفخ فيه.

الخامس: أن هذا القول مخالف لتفسير الرسول ﷺ، حيث فسره بالبوق، ومخالف للأحاديث الكثيرة الدالة على هذا المعنى.

السادس: أن الله تعالى قال: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، فقد أخبر الحق أنه ينفخ في الصور مرتين، ولو كان المراد بالصور النفخ في الصُّوَر التي هي الأبدان لما صح أن يقال: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾، لأن الأجساد تنفخ فيها الأرواح عند البعث مرة واحدة[1].

وما ذكره بعض أهل العلم من أن الصور من ياقوتة أو من نور فلا نعلم في ذلك حديثاً صحيحاً، والله أعلم.

---

(١) راجع في هذه المسألة: تذكرة القرطبي: ١٨٢، ١٨٥. فتح الباري (١١/ ٣٦٧). لسان العرب: (٢/ ٤٩٣).

المبحث الثالث
النافخ في الصور

قال ابن حجر العسقلاني: «اشتهر أن صاحب الصور إسرافيل عليه السلام، ونقل فيه الحليمي الإجماع، ووقع التصريح به في حديث وهب ابن منبه، وفي حديث أبي سعيد عند البيهقي، وفي حديث أبي هريرة عند ابن مردويه، وكذا في حديث الصور الطويل»[1].

وقد أخبرنا الرسول ﷺ أن صاحب الصور مستعد دائماً للنفخ فيه منذ أن خلقه الله تعالى، ففي مستدرك الحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن طَرْف صاحب الصور منذ وُكِّل به مستعد ينظر نحو العرش، مخافة أن يؤمر قبل أن يرتد إليه طَرْفه، كأن عينيه كوكبان دُرِّيان) قال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي[2].

وفي هذا الزمان الذي اقتربت فيه الساعة، أصبح إسرافيل أكثر استعداداً وتهيؤاً للنفخ في الصور، فقد روى ابن المبارك في الزهد، والترمذي في سننه، وأبو نعيم في الحلية، وأبو يعلى في مسنده، وابن حبان في صحيحه، والحاكم في المستدرك، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: (كيف أنعم، وقد التقم صاحب القرنِ القرنَ، وحنى جبهته، وأصغى سمعه، ينتظر أن يؤمر أن ينفخ، فينفخ. قال المسلمون:

---

(١) فتح الباري: (١١/ ٣٦٨).

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٣/ ٦٥)، ورقمه: ١٠٧٨.

فكيف نقول يا رسول الله؟ قال: قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، توكلنا على الله ربنا) وقال الترمذي: حديث حسن، وقد ذكر الشيخ ناصر رواته من الصحابة وطرقه ومتابعاته وشواهده في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» بما يدلُّ على صحته[1].

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٣/٦٦)، ورقمه: ١٠٧٩.

المبحث الرابع
اليوم الذي يكون فيه النفخة

تقوم الساعة في يوم الجمعة، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خُلِق آدم، وفيه أُدخل الجنة، وفيه أُخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا يوم الجمعة)[1].

وفي حديث آخر أخبر الرسول ﷺ أن الساعة تقوم في يوم الجمعة، وفيها يُبعث العباد أيضاً، فعن أوس بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: (إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خُلق آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصَّعْقَة، فأكثروا عليَّ من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة عليَّ) رواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجة، والدارمي، والبيهقي في «الدعوات الكبير»[2]. وفي «مسند الطبراني الأوسط»، و «الحلية» لأبي نعيم عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (عُرِضَت عليَّ الأيام، فعُرض عليَّ فيها يوم الجمعة، فإذا هي كمرآة بيضاء في وسطها نكتة سوداء، فقلت: ما هذه؟ قيل: الساعة)[3].

---

(١) صحيح مسلم: ٨٥٤.

(٢) مشكاة المصابيح: (١/ ٤٣٠)، ورقمه: (١٣٦١)، وقال -محقق المشكاة: إسناده عند أبي داود صحيح، وصححه جماعة.

(٣) رمز الشيخ ناصر للحديث بالصحة في صحيح الجامع: (٤/ ٣١)، ورقمه (٣٨٩٥) وأورد طرقه في سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٤/ ٥٦٨)، ورقمه: (١٩٣٠).

ولما كانت الساعة تقع في هذا اليوم فإن المخلوقات في كل يوم جمعة تكون مشفقةً خائفةً إلا الإنس والجن، ففي موطأ الإمام مالك، وسنن أبي داود، وسنن الترمذي والنسائي، ومسند أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خُلق آدم، وفيه هبط، وفيه تيب عليه، وفيه مات، وفيه تقوم الساعة، وما من دابة إلا وهي مصيخة[1]، يوم الجمعة من حين تصبح حتى تطلع الشمس، شفقاً من الساعة، إلا الجن والإنس)[2].

(١) منتظرة قيام الساعة.

(٢) مشكاة المصابيح: (٤٢٨/١)، ورقمه (١٣٥٩) وعزاه محقق المشكاة إلى الموطأ والترمذي. وقال الترمذي فيه: حسن صحيح.

المبحث الخامس
كم مرة ينفخ في الصور ؟

الذي يظهر أن إسرافيل ينفخ في الصور مرتين، الأولى يحصل بها الصعق، والثانية يحصل بها البعث، قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

وقد سمى القرآن النفخة الأولى بالراجفة، والنفخة الثانية بالرادفة، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: ٦-٧].

وفي موضع آخر سمى الأولى بالصيحة، وصرح بالنفخ بالصور في الثانية، قال تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ * فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ * وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٤٩-٥١].

وقد جاءت الأحاديث النبوية مصرحة بالنفختين، ففي صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (ما بين النفختين أربعون). قالوا: يا أبا هريرة، أربعون يوماً؟ قال: أبيت. قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت)[1].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، تفسير سورة الزمر، فتح الباري: (١١/ ٥٥١) ورواه مسلم في صحيحه: (٤/ ٢٢٧٠)، ورقمه ٢٩٥٥.

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ثم ينفخ في الصور، فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتاً، ورفع ليتاً[1]، فأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله، قال: فيصعق، ويصعق الناس، ثم يرسل الله -أو قال: ينزل الله مطراً، كأنه الطَّلُّ، أو الظِّلُّ، (نعمان[2] الشاك) فتنبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون»[3].

وأخرج البيهقي بسند قوي عن ابن مسعود موقوفاً: «ثم يقوم ملك الصور بين السماء والأرض، فينفخ فيه، والصور قرن، فلا يبقى خلق في السموات ولا في الأرض إلا مات إلا من شاء ربك، ثم يكون بين النفختين ما شاء الله أن يكون»[4].

وروى أوس بن أوس الثقفي عن الرسول ﷺ قال: «إن أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه الصعقة وفيه النفخة»[5]، وقد أخرجه أبو داود والنسائي وأحمد وصححه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم[6].

وقد رجح هذا الذي دلت عليه هذه الآيات والأحاديث التي سقناها جمع من أهل العلم، منهم القرطبي[7]، وابن حجر العسقلاني[8].

---

(١) الليت: صفحة العنق، وإصغاؤه: إمالته.

(٢) هو نعمان بن سالم أحد رواة هذا الحديث.

(٣) رواه مسلم: (٤/٢٢٥٨)، ورقمه: ٢٩٤٠.

(٤) فتح الباري: (١١/ ٣٧٠).

(٥) فتح الباري: (١١/ ٣٧٠).

(٦) فتح الباري: (١١/ ٣٧٠).

(٧) التذكرة للقرطبي: ١٨٣، ١٨٤.

(٨) فتح الباري: (١١/ ٣٦٩).

وذهب جمع من أهل العلم إلى أنها ثلاث نفخات، وهي نفخة الفزع، ونفخة الصعق، ونفخة البعث.

وممن ذهب هذا المذهب ابن العربي[1]، وابن تيمية[2]، وابن كثير[3]، والسفاريني[4]، وحجة من ذهب هذا المذهب أن الله ذكر نفخة الفزع في قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٨٧].

كما احتجوا ببعض الأحاديث التي نصت على أن النفخات ثلاث، كحديث الصور، وهو حديث طويل، أخرجه الطبري، وفيه: «ثم ينفخ في الصور ثلاث نفخات: نفخة الفزع، ونفخة الصعق، ونفخة القيام لرب العالمين»[5].

أما استدلالهم بالآية التي تذكر نفخة الفزع فليست صريحة على أن هذه نفخة ثالثة، إذ لا يلزم من ذكر الحق تبارك وتعالى للفزع الذي يصيب من في السموات والأرض عند النفخ في الصور أن تجعل هذه نفخة مستقلة، فالنفخة الأولى تفزع الأحياء قبل صعقهم، والنفخة الثانية تفزع الناس عند بعثهم.

يقول ابن حجر رحمه الله تعالى: «ولا يلزم من مغايرة الصعق الفزع أن لا يحصلا معاً من النفخة الأولى»[6]، وجاء في تذكرة القرطبي: «ونفخة

---

(١) فتاوي شيخ الإسلام: (٤/ ٢٦٠).
(٢) فتح الباري: (١١/ ٣٦٩) تذكرة القرطبي: ص ١٨٤.
(٣) النهاية لابن كثير: (١/ ٢٥٣).
(٤) لوامع الأنوار البهية: (٢/ ١٦١).
(٥) فتح الباري: (١١/ ٣٦٩).
(٦) فتح الباري: (١١/ ٣٦٩).

الفزع هي نفخة الصعق، لأن الأمرين لازمين لها، أي: فزعوا فزعاً ماتوا منه»[1].

أما حديث الصور فهو حديث ضعيف مضطرب كما يقول الحجة في علم الحديث ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى، ونقل تضعيفه عن البيهقي[2].

وذهب ابن حزم رحمه الله تعالى إلى: «أن نفخات يوم القيامة أربع: الأولى نفخة إماتة، والثانية نفخة إحياء، يقوم بها كل ميت، وينشرون من القبور، ويجمعون للحساب.

والثالثة: نفخة فزع وصعق، يفيقون منها كالمغشي عليه، لا يموت منها أحد. والرابعة: نفخة إفاقة من ذلك الغشى»[3].

قال ابن حجر بعد أن حكى مقالة ابن حزم: «هذا الذي ذكره من كون الثنتين أربعاً ليس بواضح، بل هما نفختان فقط، ووقع التغاير في كل واحد منهما باعتبار من يستمعهما، فالأولى يموت فيها كل من كان حياً، ويُغشى على من لم يمت ممن استثنى الله. والثانية: يعيش بها من مات، ويفيق بها من غشي عليه، والله أعلم»[4].

---

(١) تذكرة القرطبي: ١٨٤.

(٢) فتح الباري: (١١/ ٣٦٩).

(٣) فتح الباري: (٦/ ٤٤٦)

(٤) فتح الباري: (٦/ ٤٤٦).

المبحث السادس
الذين لا يُصعقون عند النفخ في الصور

أخبرنا الباري جلَّ وعلا أن بعض من في السموات ومن في الأرض لا يُصعقون عندما يُصعق من في السموات ومن في الأرض ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨].

وقد اختلف العلماء في تعيين الذين عناهم الحق بالاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

١- فذهب ابن حزم إلى أنهم جميع الملائكة، لأن الملائكة في اعتقاده أرواح لا أرواح فيها، فلا يموتون أصلاً[١].

وهذا الذي ذهب إليه من أن الملائكة لا يموتون لا يُسلم له، فالملائكة خلق من خلق الله تبارك وتعالى، وهم عبيد مربوبون مقهورون، خلقهم، وهو قادر على إماتتهم وإحيائهم، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ من غير وجه، وعن غير واحد من الصحابة أنه قال: «إن الله إذا تكلم بالوحي أخذ الملائكة منه مثل الغشى»، وفي رواية: «إذا سمعت الملائكة كلامه صعقوا» فأخبر في هذا الحديث أنهم يصعقون صعق الغشي، فإذا جاز عليهم صعق الغشي، جاز عليهم صعق الموت»[٢].

---

(١) فتح الباري: (٦/ ٣٧١).

(٢) راجع مجموع فتاوي شيخ الإسلام: (٤/ ٢٦٠).

٢- وذهب مقاتل وغيره إلى أنهم جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت[١].

وأضاف إليه بعض أهل العلم حملة العرش[٢].

وصحة هذا متوقف على أحاديث رووها، وأهل العلم بالحديث لا يصححون مثلها[٣].

٣- وذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله إلى أن المراد بهم الذين في الجنة من الحور العين والولدان، وأضاف إليهم أبو إسحاق بن شاقلا من الحنابلة، والضحاك بن مزاحم: خزان الجنة والنار، وما فيها من الحيات والعقارب[٤].

يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى: «وأما الاستثناء فهو متناول لما في الجنة من الحور العين، فإن الجنة ليس فيها موت»[٥].

٤- وقد جنح أبو العباس القرطبي صاحب «المفهم إلى شرح مسلم» إلى أن المراد بهم الأموات كلهم، لكونهم لا إحساس لهم، فلا يصعقون[٦].

وما ذهب إليه أبو العباس صحيح إذا فسرنا الصعق بالموت، فإن الإنسان يموت مرة واحدة، قال تعالى: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا

---

(١) الروح لابن القيم: ص ٥٠، وفتح الباري: (٦/ ٣٧١).
(٢) فتح الباري: (٦/ ٣٧١).
(٣) راجع فتح الباري: (٦/ ٣٧١).
(٤) الروح لابن القيم: ص ٥٠، وفتح الباري: (٦/ ٣٧١).
(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: (٤/ ٢٦١).
(٦) فتح الباري: (٦/ ٣٧٠).

ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان: ٥٦].

وقد عقد ابن القيم في كتابه: «الروح» فصلاً بيَّن فيه أن أهل العلم قد اختلفوا في موت الأرواح عند النفخ في الصور.

والذي رجحه ابن القيم أن موت الأرواح هو مفارقتها للأجساد، وخروجها منها، وردَّ قول الذين قالوا بفناء الأرواح وزوالها، لأن النصوص دلت على أن الأرواح تبقى في البرزخ معذبة أو منعمة[١].

أما إذا فسرنا الصعق بالغشى، فإن الأرواح تصعق بهذا المعنى ولا تكون داخلة فيمن استثنى الله تبارك وتعالى، فإن الإنسان قد يسمع أو يرى ما يفزعه، فيصعق، كما وقع لموسى عندما رأى الجبل قد زال من مكانه ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وقد جاء هذا المعنى صريحاً في بعض النصوص، ففي حديث أبي هريرة، عند البخاري قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تخيروني على موسى، فإن الناس يصعقون فأكون أول من يفيق، فإذا موسى باطش بجانب العرش، فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبلي، أو كان ممن استثنى الله»[٢].

ورواه البخاري أيضاً عن أبي هريرة بلفظ: «إني أول من يرفع رأسه بعد النفخة الآخرة، فإذا أنا بموسى متعلق بالعرش، فلا أدري، أكذلك كان، أم بعد النفخة»[٣].

---

(١) الروح، لابن القيم: ص ٤٩.

(٢) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب وفاة موسى، فتح الباري: (٦/ ٤٤١).

(٣) صحيح البخاري، كتاب التفسير، تفسير سورة الزمر، فتح الباري: (٨/ ٥٥١).

ورواه في موضع ثالث بلفظ: «فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق، فإذا موسى باطش بجانب العرش، فلا أدري أكان فيمن أفاق قبلي، أو كان ممن استثنى الله»[1].

وهذا الحديث صريح في أن الموتى يصعقون، فإذا كان رسول الله ﷺ وهو سيد المرسلين يصعق، فغيره أولى بالصعق.

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن الذي يصعق صعق غشى هم الشهداء دون غيرهم من الأموات، وأضاف إليهم آخرون من الأنبياء.

والسر في قَصْر هذا على الشهداء والأنبياء -كما يقول شيخ القرطبي: أحمد بن عمر-: «أن الشهداء بعد قتلهم وموتهم أحياء عند ربهم يرزقون فرحين مستبشرين، وهذه صفة الأحياء في الدنيا، وإذا كان هذا حال الشهداء كان الأنبياء بذلك أحق وأولى، مع أنه قد صح عن النبي ﷺ أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء، وأن النبي ﷺ قد اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس، وفي السماء، وخصوصاً بموسى، وقد أخبرنا النبي ﷺ أن الله تبارك وتعالى يردُّ عليه روحه، حتى يرد السلام على كل من يسلم عليه، إلى غير ذلك مما يحصل من جملته القطع بأن موت الأنبياء إنما هو راجع إلى أن غيبوا عنا بحيث لا ندركهم، وإن كانوا موجودين أحياء.. وإذا تقرر أنهم أحياء، فإذا نفخ في الصور نفخة الصعق، صعق كل من في السموات ومن في الأرض، إلا من شاء الله»[2].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب النفخ في الصور، فتح الباري: (١١/ ٣٦٧).

(٢) تذكرة القرطبي: ١٦٩.

وذهب إلى أن الشهداء والأنبياء يصعقون صعق غشي البيهقي فقال في صعق الأنبياء: «ووجهه عندي أنهم أحياء عند ربهم كالشهداء، فإذا نفخ في الصور النفخة الأولى صعقوا، ثم لا يكون ذلك موتاً في جميع معانيه، إلا في ذهاب الاستشعار، وقد جوز النبي ﷺ أن يكون موسى ممن استثنى الله، فإن كان منهم فإنه لا يذهب استشعاره في تلك الحالة بسبب ما وقع في صعقة الطور»[1].

وبناء على هذا الفقه يكون الأنبياء والشهداء من الذين يصعقون، ولا يكونون داخلين في الاستثناء، وقد نقل عن ابن عباس وأبي هريرة وسعيد ابن جبير أن الأنبياء والشهداء من الذين استثناهم الله[2]، وعزاه ابن حجر إلى البيهقي[3]، فإن كان المراد استثناؤهم من الموت فإن هذا حق، وإن كان المراد استثناؤهم من الصعق الذي يصيب الأموات كما دل عليه حديث موسى فالأمر ليس كذلك.

وذهب بعض أهل العلم إلى أن الأولى بالمسلم التوقف في تعيين الذين استثناهم الله، لأنه لم يصح في ذلك نص يدل على المراد.

قال القرطبي صاحب التذكرة: «قال شيخنا أبو العباس: والصحيح أنه لم يرد في تعيينهم خبر صحيح، والكل محتمل»[4].

وقال ابن تيمية: «وأما الاستثناء فهو متناول لمن في الجنة من الحور العين، فإن الجنة ليس فيها موت، ومتناول لغيرهم، ولا يمكن الجزم بكل

---

(١) فتح الباري: (١١/ ٣٧١).

(٢) الروح لابن القيم: ٥٠.

(٣) فتح الباري: (١١/ ٣٧١).

(٤) التذكرة: ص ١٦٧.

ما استثناه الله، فإن الله أطلق في كتابه.. والنبي ﷺ قد توقف في موسى، وهل هو داخل في الاستثناء فيمن استثناه الله أم لا؟

فإذا كان النبي ﷺ لم يُخْبَر بكل من استثنى الله، لم يمكننا نحن أن نجزم بذلك، وصار هذا مثل العلم بوقت الساعة وأعيان الأنبياء، وأمثال ذلك مما لم يخبر الله به، وهذا العلم لا ينال إلا بالخبر، والله أعلم»[1].

ونقل القرطبي عن الحليمي أنه أبى أن يكون المستثنون هم حملة العرش أو جبرائيل وميكائيل وملك الموت، أو الولدان والحور العين في الجنة، أو موسى، ثم بيَّن سر إنكاره لهذا فقال: «أما الأول، فإن حملة العرش ليسوا من سكان السموات ولا الأرض، لأن العرش فوق السموات كلها، فكيف يكون حملته في السموات.

وأما جبرائيل وميكائيل وملك الموت فمن الصافين المسبحين حول العرش، وإذا كان العرش فوق السموات، لم يكن الاصطفاف حوله في السموات. وكذلك القول الثاني لأن الولدان والحور العين في الجنان، والجنان وإن كان بعضها أرفع من بعض، فإن جميعها فوق السماوات ودون العرش، وهي بانفرادها عالم مخلوق للبقاء، فلا شك أنها بمعزل عما خلق الله تعالى للفناء، وصَرْفُه إلى موسى لا وجه له، لأنه قد مات بالحقيقة، فلا يموت عند نفخ الصور ثانية»[2].

ورد قول الذين قالوا المستثنون هم الأموات: «لأن الاستثناء إنما يكون لمن يمكن دخوله في الجملة، فأما من لا يمكن دخوله في الجملة فيها،

---

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام: (٤/ ٢٦١).

(٢) التذكرة للقرطبي: ص ١٦٨.

فلا معنى لاستثنائه منها، والذين ماتوا قبل نفخ الصور ليسوا بفرض أن يصعقوا فلا وجه لاستثنائهم»[1].

والذي اختاره أن الغشية التي تصيب موسى ليست هي الصعقة التي تهلك الناس وتميتهم، وإنما هي صعقة تصيب الناس في الموقف بعد البعث، على أحد الاحتمالين عنده.

ونقل القرطبي عن شيخه أحمد بن عمر أنه ذهب هذا المذهب، قال القرطبي: «قال شيخنا أحمد بن عمر: وظاهر حديث النبي ﷺ يدل على أن ذلك إنما هو بعد النفخة الثانية نفخة البعث، ونص القرآن يقتضي أن ذلك الاستثناء إنما هو بعد نفخة الصعق، ولما كان هذا قال بعض العلماء: يحتمل أن يكون موسى عليه السلام ممن لم يمت من الأنبياء، وهذا باطل، بما تقدم من ذكر موته.

وقال القاضي عياض: يحتمل أن يكون المراد بهذه صعقة فزع بعد النشر، حين تنشق السموات والأرض فتستقل الأحاديث والآيات والله أعلم»[2].

وقد جزم ابن القيم رحمه الله تعالى بأن الصعقة التي تحدّث عنها الرسول ﷺ، هي صعقة تكون بعد البعث، وهي المرادة بقوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾[3] [الطور: ٤٥]. والله أعلم بالصواب.

---

(١) التذكرة: ص ١٦٨.

(٢) التذكرة: ص ١٦٨.

(٣) الروح: ص ٥٢.

الفصل الثالث
البعث والنشور

المبحث الأول
التعريف بالبعث والنشور

المراد بالبعث المعاد الجسماني، وإحياء العباد في يومي المعاد، والنشور مرادف للبعث في المعنى، يقال: نشر الميت نشوراً إذا عاش بعد الموت، وأنشره الله أحياه. فإذا شاء الحق تبارك وتعالى إعادة العباد وإحياءهم أمر إسرافيل فنفخ في الصور فتعود الأرواح إلى الأجساد، ويقوم الناس لرب العالمين، ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

وقد حدثنا الحق -تبارك وتعالى- عن مشهد البعث العجيب الغريب فقال: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ * قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ * إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥١-٥٣].

وقد جاءت الأحاديث مخبرة بأنه يسبق النفخة الثانية في الصور نزول ماء من السماء، فتنبت منه أجساد العباد، ففي صحيح مسلم عن عبد الله ابن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «ثم ينفخ في الصور، فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتاً ورفع ليتاً».

قال: وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله، قال: فيصعق، ويصعق الناس. ثم يرسل الله -أو قال: ينزل الله- مطراً كأنه الطَّل أو الظِّلُّ، (نعمان أحد رواة الحديث هو الشاك) فتنبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون »[1].

وإنبات الأجساد من التراب بعد إنزال الله ذلك الماء الذي ينبتها يماثل إنبات النبات من الأرض إذا نزل عليها الماء من السماء في الدنيا، ولذا فإن الله قد أكثر في كتابه من ضرب المثل للبعث والنشور بإحياء الأرض بالنبات غبَّ نزول الغيث، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٥٧]. وقال في موضع آخر: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾ [فاطر: ٩].

ولاحظ في كلا الموضعين قوله: ﴿ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾، ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾، فإنهما يدلان على المماثلة والمشابهة بين إعادة الأجسام بإنباتها من التراب بعد إنزال الماء قبيل النفخ في الصور، وبين إنبات النبات بعد نزول الماء من السماء. ونحن نعلم أن النبات يتكون من بذور صغيرة، تكون في الأرض ساكنة هامدة، فإذا نزل عليها الماء تحركت الحياة فيها، وضربت بجذورها في الأرض، وبسقت بسوقها إلى السماء، فإذا هي نبتة مكتملة خضراء.

والإنسان يتكون في اليوم الآخر من عظم صغير، عندما يصيبه الماء

---

(١) صحيح مسلم: (٤/٢٢٥٩)، ورقمه: ٢٩٤٠.

ينمو نمو البقل، هذا العظم هو عجب الذنب، وهو عظم الصلب المستدير الذي في أصل العجز، وأصل الذنب. ففي صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين النفختين أربعون، ثم ينزل من السماء ماء، فينبتون كما ينبت البقل، وليس في الإنسان شيء إلا بَلي، إلا عظم واحد، وهو عجب الذنب منه يركب الخلق يوم القيامة».

ولمسلم طرف في عجب الذنب، قال: «إن في الإنسان عظماً لا تأكله الأرض أبداً، فيه يركب يوم القيامة، قالوا: أي عَظْم هو يا رسول الله؟ قال: عجب الذنب».

وفي رواية له وللموطأ وأبي داود والنسائي قال: قال رسول الله ﷺ: «كل ابن آدم تأكله الأرض إلا عجب الذنب، منه خلق، وفيه يركب»[1].

وقد دلت النصوص الصحيحة أن أجساد الأنبياء لا يصيبها البلى والفناء الذي يصيب أجساد العباد، ففي الحديث الذي يرويه أبو داود، وصححه ابن خزيمة وغيره: «إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»[2].

---

(١) جامع الأصول: (١٠/ ٤٢١)، ورقمه: ٧٩٤١.

(٢) انظر فتح الباري: (٦/ ٤٨٨).

المبحث الثاني
البعث خلق جديد

يعيد الله العباد أنفسهم، ولكنهم يخلقون خلقاً مختلفاً شيئاً ما عما كانوا عليه في الحياة الدنيا، فمن ذلك أنهم لا يموتون مهما أصابهم البلاء ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم: ١٧]، وفي الحديث الذي يرويه الحاكم بإسناد صحيح عن عمرو بن ميمون الأودي قال: قام فينا معاذ بن جبل فقال: «يا بني أَوْدٍ، إني رسولُ رسولِ الله ﷺ تعلمون المعاد إلى الله، ثم إلى الجنة أو النار، وإقامة لا ظعن فيه، وخلود لا موت، في أجساد لا تموت» ورواه الطبراني في «الكبير» و «الأوسط» بنحوه[1].

ومن ذلك إبصار العباد ما لم يكونوا يبصرون، فإنهم يبصرون في ذلك اليوم الملائكة والجن، وما الله به عليم، ومن ذلك أن أهل الجنة لا يبصقون ولا يتغوطون ولا يتبولون.

وهذا لا يعني أن الذين يبعثون في يوم الدين خلق آخر غير الخلق الذين كانوا في الدنيا، يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى: «النشأتان نوعان تحت جنس: يتفقان ويتماثلان ويتشابهان من وجه، ويفترقان ويتنوعان من وجه آخر، ولهذا جعل المعاد هو المبدأ، وجعله مثله أيضاً.

فباعتبار اتفاق المبدأ والمعاد فهو هو، وباعتبار ما بين النشأتين من الفرق فهو مثله، وهكذا كل ما أعيد، فلفظ الإعادة يقتضي المبدأ والمعاد..»[2].

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٤/ ٢٣١)، ورقم الحديث: ١٦٦٨.

(٢) مجموع فتاوي شيخ الإسلام: (١٧/ ٢٥٣) وقد أطال الشيخ رحمه الله تعالى في بيان المعنى الذي=

المبحث الثالث

أول من تنشق عنه الأرض

أول من يبعث وتنشق عنه الأرض هو نبينا محمد ﷺ ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع.. وأول مشفع»[1].

وفي صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «استب رجل من المسلمين، ورجل من اليهود، فقال المسلم: والذي اصطفى محمد على العالمين، فقال اليهودي: والذي اصطفى موسى على العالمين، فرفع المسلم عند ذلك يده، فلطم اليهودي، فذهب اليهودي إلى رسول الله ﷺ فأخبره الذي كان من أمره وأمر المسلم، فقال: لا تُخيروني على موسى، فإن الناس يصعقون، فأكون أول من يفيق، فإذا موسى باطش بجانب العرش، فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق، أو كان ممن استثنى الله عز وجل».

وفي رواية لهما: «... فإنه ينفخ في الصور، فيصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أول من يبعث، فإذا موسى آخذ بالعرش، فلا أدري: أحوسب بصعقة الطور، أم بعث قبلي؟»[2].

= نقلناه عنه. فارجع إليه إن شئت المزيد من الإيضاح والبيان.

(١) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ: (٤/ ١٧٨٢) ورقمه: ٢٢٧٨.

(٢) جامع الأصول: (٨/ ٥١٣)، ورقمه (٦٣٠٨).

المبحث الرابع
حشر الخلائق جميعاً إلى الموقف العظيم

سمى الله يوم الدين بيوم الجمع، لأن الله يجمع العباد فيه جميعاً: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣]، ويستوي في هذا الجمع الأولون والآخرون ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩-٥٠].

وقدرة الله تحيط بالعباد، فالله لا يعجزه شيء، وحيثما هلك العباد فإن الله قادر على الإتيان بهم، إن هلكوا في أجواز الفضاء، أو غاروا في أعماق الأرض، وإن أكلتهم الطيور الجارحة أو الحيوانات المفترسة، أو أسماك البحار، أو غيبوا في قبورهم في الأرض، كل ذلك عند الله سواء: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٤٨].

وكما أن قدرة الله محيطة بعباده تأتي بهم حيثما كانوا، فكذلك علمه محيط بهم، فلا ينسى منهم أحد، ولا يضلُّ منهم أحد، ولا يشذُّ منهم أحد، لقد أحصاهم خالقهم تبارك وتعالى، وعَدَّهم عداً ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا * لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣-٩٥]، ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

وهذه النصوص بعمومها تدل على حشر الخلق جميعاً الإنس والجن والملائكة، ولا حرج على من فقه منها أن الحشر يتناول البهائم أيضاً.

وقد اختلف أهل العلم في حشر البهائم، فذهب ابن تيمية - رحمه الله - إلى أن ذلك كائن.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «وأما البهائم فجميعها يحشرها الله سبحانه، كما دل عليه الكتاب والسنة.

قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩]، وحرف (إذا) إنما يكون لما يأتي لا محالة[1].

وحكى القرطبي خلاف أهل العلم في حشر البهائم ورجح أن ذلك كائن للأخبار الصحيحة في ذلك، قال القرطبي: «واختلف الناس في حشر البهائم، وفي قصاص بعضها من بعض، فروي عن ابن عباس أن حشر البهائم موتها، وقاله الضحاك. وروي عن ابن عباس في رواية أخرى أن البهائم تحشر وتبعث، وقاله أبو ذر وأبو هريرة وعمرو بن العاص، والحسن البصري وغيرهم، وهو الصحيح، لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾، وقوله ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

قال أبو هريرة: يحشر الله الخلق كلهم يوم القيامة: البهائم، والطير، والدواب، وكل شيء، فيبلغ من عدل الله أن يأخذ للجماء من القرناء، ثم يقول: كوني تراباً، فذلك قوله تعالى حكاية عن الكفار ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [النبأ: ٤٠] ونحوه»[2].

---

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام: (٤/٢٤٨).

(٢) تذكرة القرطبي: ٢٧٣.

المبحث الخامس
صفة حشر العباد

يحشر العباد حفاة عراة غرلاً، أي: غير مختونين، ففي صحيح البخاري ومسلم عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «إنكم محشورون حفاة عراة غرلاً» ثم قرأ ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾[1] [الأنبياء: ١٠٤].

وعندما سمعت عائشة الرسول ﷺ يقول: «يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً» قالت: يا رسول الله، الرجال والنساء جميعاً، ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: «يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض» متفق عليه[2].

وقد جاء في بعض النصوص أن كل إنسان يبعث في ثيابه التي مات فيها، فقد روى أبو داود وابن حبان والحاكم عن أبي سعيد الخدري أنه لما حضره الموت دعا بثياب جدد، فلبسها، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الميت يبعث في ثيابه التي يموت فيها» وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وقال الشيخ ناصر الدين فيه: وهو كما قالا[3].

---

(١) مشكاة المصابيح: (٣/ ٧٥)، ورقم الحديث: ٥٥٣٥.

(٢) مشكاة المصابيح: (٣/ ٥٧)، ورقم الحديث: ٥٥٣٦.

(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٤/ ٢٣٤)، ورقم الحديث: ١٦٧١.

وقد وفق البيهقي بين هذا الحديث وسابقه بثلاثة أوجه:

الأول: أنها تبلى بعد قيامهم من قبورهم، فإذا وافَوْا الموقف يكونون عراة، ثم يلبسون من ثياب الجنة.

الثاني: أنه إذا كسي الأنبياء ثم الصديقون، ثم من بعدهم على مراتبهم فتكون كسوة كل إنسان من جنس ما يموت فيه، ثم إذا دخلوا الجنة لبسوا من ثياب الجنة.

الثالث: أن المراد بالثياب ها هنا الأعمال، أي يبعث في أعماله التي مات فيها من خير أو شر، قال الله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]، وقال ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٤].

واستشهد البيهقي على هذا الجواب الأخير بحديث الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر، قال: قال رسول الله ﷺ: «يبعث كل عبد على ما مات عليه»[(١)].

وحديث جابر هذا رواه مسلم في صحيحه[(٢)]، ولا يفقه منه أن العبد يبعث في ثيابه التي كُفِّنَ فيها أو مات فيها، وإنما يبعث على الحال التي مات عليها من الإيمان والكفر، واليقين والشك، كما يبعث على العمل الذي كان يعمله عند موته، يدلُّ على هذا ما رواه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا أراد الله بقوم عذاباً، أصاب العذاب من كان فيهم، ثم بعثوا على أعمالهم»[(٣)].

---

(١) النهاية لابن كثير: (١/ ٢٨٨).

(٢) رواه مسلم: (٤/ ٢٢٠٦)، ورقم الحديث: ٢٨٧٨.

(٣) صحيح مسلم (٢/ ٢٢٠٦) ورقم الحديث: ٢٨٧٩.

فالذي يموت وهو محرم يبعث يوم القيامة ملبياً، ففي صحيح البخاري ومسلم ومسند أحمد عن عبد الله بن عباس قال: إن رجلاً كان مع النبي ﷺ فوقصته[1] ناقته وهو محرم فمات، فقال رسول الله ﷺ: «اغسلوه بماء وسدر، وكفنوه في ثوبيه، ولا تُمِسُّوه بطيب، ولا تخمروا رأسه[2]، فإنه يبعث يوم القيامة ملبياً»[3].

والشهيد يبعث يوم القيامة وجرحه يثعب، اللون لون الدم والريح ريح المسك.

ومن هنا استحب تلقين الميت لا إله إلا الله، لعله يموت على التوحيد، ثم يبعث يوم القيامة ناطقاً بهذه الكلمة الطيبة.

---

(١) أي أسقطته فكسرت عنقه.

(٢) أي لا تغطوا رأسه.

(٣) مشكاة المصابيح: (١/ ٥٢٠)، ورقم الحديث: ١٦٣٧.

المبحث السادس
كسوة العباد في يوم المعاد

ذكرنا فيما سبق أن الله يحشر العباد يوم القيامة حفاة عراة غرلاً، كما صحت بذلك الأحاديث، ثم يكسى العباد، فالصالحون يكسون الثياب الكريمة، والطالحون يسربلون بسرابيل القطران، ودروع الجرب، ونحوها من الملابس المنكرة الفظيعة.

وأول من يكسى من عباد الله نبي الله إبراهيم خليل الرحمن، ففي صحيح البخاري عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «إن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم الخليل»[1].

قال ابن حجر: «وأخرج البيهقي من طريق ابن عباس نحو حديث الباب وزاد: «وأول من يكسى من الجنة إبراهيم، يكسى حلة من الجنة، ويؤتى بكرسي فيطرح عن يمين العرش، ثم يؤتى بي فأكسى حلة من الجنة لا يقوم لها البشر»[2].

وذكر العلماء أن تقديم إبراهيم على غيره بالكسوة في يوم القيامة، لأنه لم يكن في الأولين والآخرين أخوف لله منه، فتعجل له الكسوة أماناً له ليطمئن قلبه، ويحتمل لأنه -كما جاء في الحديث- أول من لبس السراويل

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب الحشر، فتح الباري: (١١/ ٣٧٧)، ورواه أيضاً في كتاب الأنبياء، انظر فتح الباري: (٦/ ٣٨٧).

(٢) فتح الباري: (١١/ ٣٨٤).

إذا صلى مبالغة في التستر وحفظاً لفرجه من أن يماسَّ مصلاه، ففعل ما أمر به، فجزي بذلك أن يكون أول من يستر يوم القيامة، ويحتمل أن يكون الذين ألقوه في النار جردوه ونزعوا ثيابه على أعين الناس، كمن يفعل بمن يراد قتله، فجزي بكسوته في يوم القيامة أول الناس على رؤوس الأشهاد، وهذا أحسنها»[1].

(١) تذكرة القرطبي: ٢٠٩.

الفصل الرابع
أرض المحشر

الأرض التي يحشر العباد عليها في يوم القيامة أرض أخرى غير هذه الأرض، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم:٤٨]. وقد حدثنا الرسول ﷺ عن صفة هذه الأرض الجديدة التي يكون عليها الحشر، ففي صحيحي البخاري ومسلم عن سهل بن سعد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي» قال سهل أو غيره: «ليس فيها معلم لأحد»(١).

قال الخطابي: العفر: بياض ليس بناصع. وقال عياض: العفر بياض يضرب إلى حمرة قليلاً. وقال ابن فارس: معنى عفراء خالصة البياض(٢).

والنَقِيّ: بفتح النون وكسر القاف، أي: الدقيق النقي من الغش والنخال(٣).

والمعْلم: العلامة التي يُهتدى بها إلى الطريق، كالجبل والصخرة، أو ما يضعه الناس دالاً على الطرقات، أو على قسمة الأراضي.

---

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب يقبض الله الأرض، فتح الباري: (١١/ ٣٧٢). ومسلم في كتاب صفات المنافقين، باب البعث والنشور. (٤/ ٢١٥) ورقم الحديث: ٢٧٩٠ والسياق للبخاري.

(٢) فتح الباري: (١١/ ٣٧٥).

(٣) المصدر السابق.

وقد جاءت نصوص كثيرة عن عدد من الصحابة تفيد معنى الحديث الذي سقناه هنا ورواه صاحبا الصحيحين، فقد أخرج عبد بن حميد والطبري في تفاسيرهم والبيهقي في شعب الإيمان من طريق عمرو بن ميمون عن عبد الله ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]. قال: تبدل الأرض أرضاً كأنها الفضة لم يسفك عليها دم حرام، ولم يعمل عليها خطيئة، ورجاله رجال الصحيح، وهو موقوف، وأخرجه البيهقي من وجه آخر مرفوع. وقال: الموقوف أصح[1].

وأخرجه الطبري والحاكم من طريق عاصم عن زر بن حبيش عن ابن مسعود بلفظ: «أرض بيضاء كأنها سبيكة فضة» ورجاله موثقون أيضاً[2].

وعند عبد بن حميد من طريق الحكم بن أبان عن عكرمة قال: بلغنا أن هذه الأرض يعني أرض الدنيا تطوى، وإلى جنبها أخرى يحشر الناس منها إليها. وفي حديث الصور الطويل: «تبدَّل الأرض غير الأرض والسمٰوات، فيبسطها ويسطحها، ويمدّها مدَّ الأديم العكاظي، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، ثم يزجر الله الخلق زجرة واحدة، فإذا هم في هذه الأرض المبدَّلة، في مثل مواضعهم من الأولى، ما كان في بطنها كان في بطنها، وما كان على ظهرها كان على ظهرها»[3].

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن الذي يبدل من الأرض إنما هو صفاتها فحسب، فمن ذلك حديث عبد الله بن عمرو الموقوف عليه، قال: «إذا كان يوم القيامة مُدت الأرض مد الأديم، وحشر الخلائق». ومن ذلك

---

(١) فتح الباري: (١١/ ٣٧٥).

(٢) فتح الباري: (١١/ ٣٧٥).

(٣) فتح الباري: (١١/ ٣٧٥).

حديث جابر رفعه: «تمدُّ الأرض مدّ الأديم، ثم لا يكون لابن آدم منها إلا موضع قدميه». ورجاله ثقات، إلا أنه اختلف على الزهري في صحابيه[1].

ومنها حديث ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم:٤٨]، قال: «يزاد فيها، وينقص منها، ويذهب آكامها وجبالها، وأوديتها، وشجرها، وتمد مد الأديم العكاظي»[2].

الوقت الذي تبدل فيه الأرض غير الأرض والسمـٰوات:

أفادنا الرسول ﷺ أن الوقت الذي يتم فيه هذا التبديل هو وقت مرور الناس على الصراط أو قبل ذلك بقليل، ففي صحيح مسلم عن عائشة قالت: سألت رسول الله ﷺ عن قوله عز وجل: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم:٤٨]، فأين يكون الناس يا رسول الله؟ فقال: على الصراط»[3].

وفي صحيح مسلم أيضاً عن ثوبان أن حبراً من أحبار اليهود سأل الرسول ﷺ فقال: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسمـٰوات؟ فقال رسول الله ﷺ: «هم في الظلمة دون الجسر»[4]، والمراد بالجسر الصراط.

---

(١) فتح الباري: (١١/ ٣٧٦).

(٢) فتح الباري: (١١/ ٣٧٦).

(٣) صحيح مسلم، كتاب صفات المنافقين، باب البعث والنشور، (٤/ ٢١٥٠) ورقمه (٢٧٩١).

(٤) صحيح مسلم، كتاب الحيض، باب بيان صفة مني الرجل والمرأة، (١/ ٢٥٢) ورقمه (٣١٥).

الفصل الخامس
المكذبون بالبعث والأدلة على أنه كائن

المبحث الأول
المكذبون بالبعث والنشور

كذَّب كثير من الناس قديماً وحديثاً بالبعث والنشور، وبعض الذين قالوا بإثباته صَوَّروه على غير الصورة التي أخبرت بها الرسل.

وقد ذكر القرآن قول المكذبين وذمهم وكفَّرهم وتهدَّدهم وتوعَّدهم، قال تعالى: ﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الرعد: ٥]، وقال: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ * وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٩-٣٠].

وقال: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ﴾ [الإسراء: ٤٩-٥١]. والنصوص في ذلك كثيرة.

وقد تعرض شيخ الإسلام ابن تيمية لبيان أنواع المكذبين بالبعث والنشور من اليهود والنصارى والصابئة والفلاسفة ومنافقي هذه الأمة فقال:

«الذين كفروا من اليهود والنصارى ينكرون الأكل والشرب والنكاح في

الجنة، ويزعمون أن أهل الجنة إنما يتمتعون بالأصوات المطربة والأرواح الطيبة مع نعيم الأرواح، وهم يقرُّون مع ذلك بحشر الأجساد مع الأرواح ونعيمها وعذابها.

وأما طوائف من الكفار وغيرهم من الصابئة والفلاسفة ومن وافقهم فيقرُّون بحشر الأرواح فقط، وأن النعيم والعذاب للأرواح فقط، وطوائف من الكفار والمشركين وغيرهم ينكرون المعاد بالكلية، فلا يقرون لا بمعاد الأرواح، ولا الأجساد، وقد بيَّن الله تعالى في كتابه على لسان رسوله أمر معاد الأرواح والأجساد، وردّ على الكافرين والمنكرين لشيء من ذلك، بياناً تاماً غاية التمام والكمال.

وأما المنافقون من هذه الأمة الذين لا يقرّون بألفاظ القرآن والسنة المشهورة فإنهم يحرّفون الكلام عن مواضعه، ويقولون: هذه أمثالٌ ضربت لنفهم المعاد الروحاني، وهؤلاء مثل القرامطة الباطنية الذين قولهم مؤلف من قول المجوس والصابئة، ومثل المتفلسفة الصابئة المنتسبين إلى الإسلام، وطائفة ممن ضاهوهم: من كاتب، أو متطبب، أو متكلم، أو متصوف، كأصحاب رسائل «إخوان الصفا» وغيرهم، أو منافق، وهؤلاء كلهم كفار يجب قتلهم باتفاق أهل الإيمان»[1].

وذكر رحمه الله تعالى في موضع آخر: «أن باطنية الفلاسفة يفسرون ما وعد الناس به في الآخرة بأمثال مضروبة لتفهيم ما يقوم بالنفس بعد الموت من اللذة والألم، لا بإثبات حقائق منفصلة يتنعم بها، ويتألم بها»[2].

---

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام: ٤/ ٣١٣ بتصرف يسير.

(٢) مجموع الفتاوي: ١٣/ ٢٣٨.

وحقيقة قول هؤلاء أن الله لم يكن صادقاً في إخباره عن حقائق ما في المعاد، وكذلك رسوله ﷺ، ولذلك سمى شيخ الإسلام ابن تيمية هذا الصنف من المتفلسفة المخالف لما عليه المسلمون في أمر المعاد (بأهل التخييل)، وقال فيهم: «فأهل التخييل» هم المتفلسفة ومن سلك سبلهم، من متكلم ومتصوف ومتفقه، فإنهم يقولون: إن ما ذكره الرسول من أمر الإيمان بالله واليوم الآخر إنما هو تخييل للحقائق لينتفع به الجمهور، لا أنه بيَّن به الحق، ولا هدى الخلق، ولا أوضح الحقائق»[1].

ويمكننا أن نصنف المكذبين بالبعث والنشور إلى ثلاثة أصناف:

الأول: الملاحدة الذين أنكروا وجود الخالق، ومن هؤلاء كثير من الفلاسفة الدهرية الطبائعية، ومنهم الشيوعيون في عصرنا. وهؤلاء ينكرون صدور الخلق عن خالق، فهم منكرون للنشأة الأولى والثانية، ومنكرون لوجود الخالق أصلاً.

ولا يحسن مناقشة هؤلاء في أمر المعاد، بل يناقشون في وجود الخالق ووحدانيته أولاً ثم يأتي إثبات المعاد بعد ذلك، لأن الإيمان بالمعاد فرع الإيمان بالله.

الثاني: الذين يعترفون بوجود الخالق، ولكنهم يكذبون بالبعث والنشور، ومن هؤلاء العرب الذين قال الله فيهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] وهم القائلون فيما حكاه الله عنهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [النمل: ٦٧-٦٨].

---

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام: ٥/ ٣١.

وهؤلاء يدَّعون أنهم يؤمنون بالله، ولكنهم يَدَّعون أن قدرة الله عاجزة عن إحيائهم بعد إماتتهم، وهؤلاء هم الذين ضرب الله لهم الأمثال، وساق لهم الحجج والبراهين لبيان قدرته على البعث والنشور، وأنه لا يعجزه شيء. ومن هؤلاء طائفة من اليهود يُسمون بالصادوقيين، يزعمون أنهم لا يؤمنون إلا بتوراة موسى، وهم يُكذبون بالبعث والنشور والجنة والنار.

الثالث: الذين يؤمنون بالمعاد على غير الصفة التي جاءت بها الشرائع السماوية.

المبحث الثاني
أدلة البعث والنشور

الإيمان بالمعاد أوجبه القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، ودلا عليه دلالة قاطعة، والقرآن كله من فاتحته إلى خاتمته مملوء بذكر أحوال اليوم الآخر، وتفاصيل ما فيه، وتقرير ذلك بالأخبار الصادقة والأمثال المضروبة للاعتبار والإرشاد، وكما ذكر القرآن الأدلة عليه، رد على منكريه، وبيَّن كذبهم وافتراءَهم.

والفطرة السليمة تدلُّ عليه وتهدي إليه، ولا صحة لما يزعمه الضالون من أن العقول تنفي وقوع البعث والنشور، فإن العقول لا تمنع وقوعه، والأنبياء لا يأتون بما تحيل العقول وقوعه، وإن جاؤوا بما يحيِّر العقول، ولذلك قال علماؤنا: الشرائع تأتي بمحارات العقول، لا بمحالات العقول.

وسنذكر الأدلة المثبتة للبعث والنشور التي استخلصناها من الكتاب الكريم.

أولاً: إخبار العليم الخبير بوقوع القيامة:

أعظم الأدلة الدالة على وقوع المعاد إخبار الحق تبارك وتعالى بذلك، فمن آمن بالله، وصدَّق برسوله الذي أرسل، وكتابه الذي أنزل فلا مناص له من الإيمان بما أخبرنا به من البعث والنشور، والجزاء والحساب، والجنة والنار.

وقد نَـوَّع الحقُّ تبارك وتعالى أساليب الإخبار ليكون أوقع في النفوس وآكد في القلوب.

١- ففي بعض المواضع يخبرنا بوقوع ذلك اليوم إخباراً مؤكداً بـ«إن»، أو بـ «إنَّ واللام» كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥]. وقوله: ﴿ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥]. وقوله: ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾ [الأنعام: ١٣٤]. وقوله: ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾ [المرسلات: ٧].

٢- وفي مواضع أخرى يقسم الله تعالى على وقوعه ومجيئه كقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [النساء: ٨٦]. ويقسم على تحقق ذلك بما شاء من مخلوقاته كقوله: ﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا * فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا * فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا * فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ [الذاريات: ١-٦]. وقوله: ﴿ وَٱلطُّورِ * وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ * فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ * وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ * وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ * وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ * مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ [الطور: ١-٨].

٣- وفي بعض المواضع يأمر رسوله بالإقسام على وقوع البعث وتحققه، وذلك في معرض الردِّ على المكذبين به المنكرين له، كقوله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ: ٣]. وقوله: ﴿ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ [يونس: ٥٣]. وقوله: ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ [التغابن: ٧].

٤- وفي مواضع أخرى يذمُّ المكذبين بالمعاد، كقوله: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ [يونس: ٤٥]. وقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: ١٨]. وقوله: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل: ٦٦].

٥- وأحياناً يمدح المؤمنين بالمعاد ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ * رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ * رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٧-٩]. وقوله: ﴿الٓمٓ * ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ * وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١-٥]. وقوله: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

٦- وأحياناً يخبر أنه وعد صادق، وخبر لازم، وأجل لا شك فيه ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [لقمان: ٣٣]، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سبأ: ٢٩-٣٠]، ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ [الزخرف: ٨٣]. وقوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ [الذاريات: ٥].

٧- وفي بعض الأحيان يخبر عن مجيئه واقترابه كقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٦-٧]. وقوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، وقوله: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١].

٨- وفي مواضع أخرى يمدح نفسه تبارك وتعالى بإعادة الخلق بعد موتهم، ويذم الآلهة التي يعبدها المشركون بعدم قدرتها على الخلق وإعادته كقوله: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣]، وقوله: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤].

٩- وبين في مواضع أخرى أن هذا الخلق وذاك البعث الذي يُعجز العباد ويذهلهم سهل يسير عليه: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، وقال: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ * بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ [القيامة: ٣-٤].

ثانياً: الاستدلال على النشأة الأخرى بالنشأة الأولى:

استدلَّ القرآن على الخلق الثاني بالخلق الأول، فنحن نشاهد في كلِّ يوم حياة جديدة تخلق: أطفال يولدون، وطيور تخرج من بيضها، وحيوانات تلدها أمهاتها، وأسماك تملأ البحر والنهر، يرى الإنسان ذلك كله بأم عينيه، ثم ينكر أن يقع مثل ذلك مرة أخرى بعد أن يبيد الله هذه الحياة.

إن الذين يطلبون دليلاً على البعث بعد الموت يغفلون عن أن خلقهم على هذا النحو أعظم دليل، فالقادر على خلقهم، قادر على إعادة خلقهم،

وقد أكثر القرآن من الاستدلال على النشأة الآخرة بالنشأة الأولى، وتذكير العباد المستبعدين لذلك بهذه الحقيقة ﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا * أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴾ [مريم: ٦٦-٦٧].

ويذكرنا القرآن في موضع آخر بالخلق الأول للإنسان، فأبونا آدم خلقه الله من تراب، فالقادر على جعل التراب بشراً سوياً، لا يعجزه أن يعيده بشراً سوياً مرة أخرى بعد موته، ويُذكِّر أيضاً بخلقنا نحن -ذرية آدم- فإنه خلقنا من سلالة من ماء مهين، تحوّل هذا الماء فأصبح نطفة، ثم صارت النطفة علقة، ثم تحولت إلى مضغة.. إلى أن نفخ فيها الروح، وجعلها إنساناً سوياً. فالقادر على هذا الخلق المشاهد المعلوم، قادر على إعادة الخلق، وإحياء الموتى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ * ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ [الحج: ٥-٧].

وقد أمر الله عباده بالسير في الأرض، والنظر في كيفية بدأ الخلق ليستدلوا بذلك على قدرته على الإعادة ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ * قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [العنكبوت: ١٩-٢٠].

وقال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الروم: ٢٧].

ثالثاً: القادر على خلق الأعظم قادر على خلق ما دونه:

قبيح في نظر البشر أن يُرمى بالعجز عن حمل الشيء الحقير من يستطيع حمل العظيم، ومثله إذا غلب إنسان رجلاً شديد البأس قوياً لا يقال له: إنك لا تستطيع أن تصرع هذا الهزيل الضعيف، ومن استطاع أن يبني قصراً لا يعجزه بناء بيت صغير.

ولله المثل الأعلى، فإن من جملة خلقه ما هو أعظم من خلق الناس، فكيف يقال للذي خلق السموات والأرض أنت لا تستطيع أن تخلق ما دونها قال تعالى: ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٩٨-٩٩].

وقال: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [يس: ٨١]. وقال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأحقاف: ٣٣]. وقال: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ [غافر: ٥٧].

قال ابن تيمية بعد أن ساق هذه النصوص: «فإنه من المعلوم ببداهة العقول أن خلق السموات والأرض أعظم من خلق أمثال بني آدم، والقدرة عليه أبلغ -وأن هذا الأيسر أولى بالإمكان والقدرة من ذلك»[1].

---

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام: ٣/ ٢٩٩.

وقال شارح الطحاوية: «أخبر تعالى أن الذي أبدع السمٰوات والأرض على جلالتهما، يحيي عظاماً قد صارت رميماً، فيردها إلى حالتها الأولى»[1].

رابعاً: قدرته تبارك وتعالى على تحويل الخلق من حال إلى حال:

الذين يكذبون بالبعث يرون هلاك العباد، ثم فناءهم في التراب، فيظنون أن إعادتهم بعد ذلك مستحيلة ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [السجدة: ١٠]. والمراد بالضلال في الأرض تحلل أجسادهم، ثم اختلاطها بتراب الأرض، تقول: ضل السمن في الطعام إذا ذاب وإنماع فيه.

وقد بين الحق تبارك وتعالى في أكثر من موضع أن من تمام ألوهيته وربوبيته قدرته على تحويل الخلق من حال إلى حال، ولذا فإنه يميت ويُحيي، ويخلق ويفني، ويخرج الحي من الميت، والميت من الحي، ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ * فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [الأنعام: ٩٥-٩٦]. من الحبة الجامدة الصماء يُخرج الله نبتة غضة خضراء تزهر وتثمر، ثم تعطي هذه النبتة الحية حبوباً جامدة ميتة، ومن الطيور الحية يخرج البيض الميت، ومن البيض الميت تخرج الطيور المتحركة المغردة التي تنطلق في أجواز الفضاء.

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية: ص ٤٦١.

إن تقلب العباد: موت فحياة، ثم حياة فموت، دليل عظيم على قدرة الله تجعل النفوس تخضع لعظمته وسلطانه ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨].

الأدلة الثلاثة الأخيرة في موضع واحد في كتاب الله:

وقد ذكر الحق تبارك وتعالى الأدلة الثلاثة السابقة في موضع واحد في كتابه في معرض الرد على مكذبي البعث فقال: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٧٨-٨٣].

والذي ضرب المثل أحد ملاحدة العرب، وكتب السنة تذكر أن هذا الكافر الملحد جاء بعظم بالي، ثم فتته، ثم نفخه، ثم قال للرسول ﷺ: «يا محمد! أتزعم أن الله يبعث هذا؟». فأنزل الحق تبارك وتعالى هذه الآيات معيِّراً هذا الكافر بجهله وضلاله ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]، فإنه لو كان لبيباً عاقلاً لم يسأل هذا السؤال، لأن وجوده وخلقه في هذه الحياة يجيب على السؤال، وقد وضح النص هذا المعنى الذي أجمله في البداية فقال: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩].

١- «فاحتج بالإبداء على الإعادة، وبالنشأة الأولى على النشأة الأخرى، إذ كل عاقل يعلم ضرورياً أن من قدر على هذه قدر على هذه. وأنه لو كان عاجزاً عن الثانية لكان عن الأولى أعجز وأعجز.

ولما كان الخلق يستلزم قدرة الخالق على المخلوق، وعلمه بتفاصيل خلقه أتبع ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس:٧٩]. فهو عليم بتفاصيل الخلق الأول وجزئياته، ومواده وصورته، فكذلك الثاني، فإذا كان تام العلم، كامل القدرة، كيف يتعذر عليه أن يحيي العظم وهي رميم؟»[١].

٢- «ثمَّ أكد الأمر بحجة قاهرة وبرهان ظاهر، يتضمن جواباً عن سؤال ملحد آخر يقول: العظام إذا صارت رميماً عادت طبيعتها باردة يابسة، والحياة لا بد أن تكون مادتها وحاملها طبيعة حارة رطبة بما يدل على أمر البعث، ففيه الدليل والجواب معاً، فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس:٨٠] فأخبر سبحانه بإخراج هذا العنصر، الذي هو في غاية الحرارة واليبوسة من الشجر الأخضر الممتلىء بالرطوبة والبرودة، فالذي يخرج الشيء من ضده، وتنقاد له مواد المخلوقات وعناصرها ولا يستعصي عليه، هو الذي يفعل ما أنكره الملحد ودفعه، من إحياء العظام وهي رميم.

٣- ثم أكد هذا بأخذ الدلالة من الشيء الأجل الأعظم، على الأيسر الأصغر، فإن كل عاقل يعلم أن من قدر على العظيم الجليل فهو على ما دونه بكثير أقدرُ وأقدرُ، فمن قدر على حمل قنطار فهو على حمل وقية

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية: ص ٤٦.

أشدُّ اقتداراً، فقال: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس: ٨١]، فأخبر أن الذي أبدع السموات والأرض على جلالتهما، وعظم شأنهما، وكبر أجسامهما، وسعتهما، وعجيب خلقهما، أقدر عليه أن يحيي عظاماً قد صارت رميماً، فيردها إلى حالتها الأولى»[1].

٤- ثم أكد تبارك وتعالى ذلك وبيَّنه ببيان آخر، وهو أن فعله ليس بمنزلة غيره، الذي يفعل بالآلات والكلفة، والنصب والمشقة، ولا يمكنه الاستقلال بالفعل، بل لا بدَّ معه من آلة ومُعِين، بل يكفي في خلقه لما يريد أن يخلقه ويكوِّنه نفس إرادته، وقوله للمكوَّن: (كُنْ)، فإذا هو كائن كما شاءه وأراده ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. ثم ختم هذه الحجة بإخباره أن ملكوت كل شيء بيده، فيتصرف فيه بفعله وقوله، ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[2] [يس: ٨٣].

خامساً: إحياء بعض الأموات في هذه الحياة:

شاهد بعض البشر في فترات مختلفة من التاريخ عودة الحياة إلى الجثث الهامدة، والعظام البالية، بل شاهدوا الحياة تدب في بعض الجماد، وقد حدثنا الله تبارك وتعالى عن شيء من هذه المعجزات الباهرة، فمن ذلك أن قوم موسى قالوا له: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ

(١) شرح العقيدة الطحاوية: ص ٤٦٠.

(٢) راجع شرح العقيدة الطحاوية: ص ٤٦١.

جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون، ثم بعثهم بعد موتهم ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥-٥٦].

وقتل بنو إسرائيل قتيلاً واتهم كل قبيل القبيل الآخر بقتله، فأمرهم نبيهم أن يذبحوا بقرة، فذبحوها بعد أن تعنتوا في طلب صفاتها، ثم أمرهم نبيهم بعد ذبحها أن يضربوا القتيل بجزء منها، فأحياه الله وهم ينظرون، فأخبر عمن قتله، ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣].

وأخبرنا عن الذين فروا من ديارهم وهم ألوف خشية الموت، فأماتهم الله ثم أحياهم ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

وحدثنا عن الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها، فتعجب من إحياء الله لها بعد موتها، فأماته الله مائة عام ثم بعثه، فلما سئل كم لبثت؟ ظن أنه لم يلبث إلا يوماً أو بعض يوم، وبعد إحيائه أحيا الله له حماره وهو ينظر إلى قدرة الله كيف تعيد الخلق: العظام تتشكل وتتكون أولاً ثم تكسى باللحم، ثم تنفخ الروح، أما طعامه الذي كان معه قبل أن يموت فقد بقي تلك الأزمان الطويلة سليماً، لم يفسد، ولم يتعفن، وتلك آية أخرى تدل على قدرة الله الباهرة: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ

وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

وإبراهيم عليه السلام دعا ربه أن يريه كيف يحيي الموتى، فكان هذا المشهد الذي حدثنا الحق تبارك وتعالى عنه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

أمره الله أن يأخذ أربعة من الطيور فيذبحها، ثم يفرق أجزاءها على عدة جبال، ثم ناداها آمراً إياها بالاجتماع، فكان كل عضو يأتي ويقع في مكانه، فلما تكامل اجتماعها نفخ الله فيها الروح، وانطلقت محلقة في الفضاء.

وعيسى عليه السلام كان يصنع من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وكان يحيي الموتى بإذن الله، فقد قال لقومه: ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩].

وأصحاب الكهف ضرب الله على آذانهم في الكهف ثلاث مائة وتسع سنين ثم قاموا من رقدتهم بعد تلك الأزمان المتطاولة، ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ [الكهف: ١٢]، ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ

أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ [الكهف: ١٩]. ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ [الكهف: ٢٥].

وكانت آية موسى الكبرى عصا جامدة يلقيها على الأرض فتتحول - بقدرة الله - إلى ثعبان مبين ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ [الشعراء: ٣٢]، وعندما ألقى السحرة حبالهم وعصيهم ألقى موسى عصاه فإذا هي تبتلع تلك العصي والحبال على كثرتها ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الشعراء: ٤٥].

سادساً: ضربه المثل بإحياء الأرض بالنبات:

وقد ضرب الله المثل لإعادة الحياة إلى الجثث الهامدة والعظام البالية بإحيائه الأرض بعد موتها بالنبات ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠]. وقال: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩]. وقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩]. وقال: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الزخرف: ١١].

سابعاً: حكمة الله تقتضي بعث العباد للجزاء والحساب:

تقتضي حكمة الله وعدله أن يبعث الله عباده ليجزيهم بما قدموا، فالله خلق الخلق لعبادته، وأرسل الرسل وأنزل الكتب لبيان الطريق الذي

يعبدونه به، فمن العباد من استقام على طاعة الله، وبذل نفسه وماله في سبيل ذلك. ومنهم من رفض الاستقامة على طاعة الله، وطغى وبغى، أفيليق بعد ذلك أن يموت الصالح والطالح ولا يجزي الله المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ * إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ [القلم: ٣٥-٣٨].

إن الكفرة الضالين هم الذين يظنون أن الكون خُلق عبثاً وباطلاً لا لحكمة، وأنه لا فرق بين مصير المؤمن المصلح والكافر المفسد، ولا بين مصير التقي والفاجر. ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ * أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٧-٢٨].

الفصل السادس
القيامة عند الأنبياء وفي كتب أهل الكتاب

المبحث الأول
اتفاق جميع الأنبياء على الإخبار بالمعاد

الإيمان بالقيامة والجنة والنار من أصول الإيمان التي يشترك الأنبياء جميعاً وأتباعُهم الصادقون في معرفتها والإيمان بها، والقرآن وهو كتاب الله المحفوظ الذي لم يغيَّر ولم يبدَّل يدلُّ دلالة قاطعة على أن الأنبياء جميعاً عرَّفوا أممهم بالقيامة، وبَشَّروهم بالجنة، وأنذروهم بالنار، ويدل على ذلك أمور:

١- أخبر القرآن عن جميع الأشقياء الكفار أهل النار أنهم يقرّون بأن رسلهم أنذرتهم باليوم الآخر: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ * وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٨-١٠]. وقال: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١].

فالكفار جميعاً عندما يسألون عند ورودهم النار يقرون بأن رسلهم خوفتهم لقاء ذلك اليوم، ولكنهم كفروا وكذبوا.

وهذا الذي قررته الآيات السابقة بيَّنه الله في غير موضع من كتابه، فقد أخبر الحق تبارك وتعالى أن مقتضى عدله وحكمته أن لا يعذب أحداً لم تبلغه الرسالة ولم تقم عليه الحجة ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥]. ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥]. من أجل ذلك عمت الرسالة كل البشر، ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٤].

٢- عندما أهبط الله آدم إلى الأرض عرفه بالبعث والمعاد ﴿ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ * قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٤-٢٥].

وعندما غضب الله على إبليس وطرده من رحمته طلب الإمهال إلى يوم البعث فأجاب الحق طلبه ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ [ص: ٧٩-٨١].

٣- وأول الرسل نوح عليه السلام حذر قومه يوم القيامة، وضرب لهم الأمثال الدالة على وقوعه وحدوثه، فقد قال لقومه: ﴿ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ [نوح: ١٧-١٨].

٤- وأبو الأنبياء خليل الرحمن ذكر اليوم الآخر كثيراً، ففي دعائه ربه لمكة وأهلها قال: ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ١٢٦].

وفي دعائه لنفسه وأبيه والمؤمنين قال: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم: ٤١].

وفي محاجته قومه فيما يعبدون بين أحقية ربه بالعبادة، لأنه يطعم ويسقي، ويميت ويحيي، ويشفي المرضى، ويغفر الذنوب في يوم الدين ﴿ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ * وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ [الشعراء: ٧٩-٨٢]، ثم دعا ربه سائلاً إياه دخول الجنة، وأن لا يخزيه في يوم الدين ﴿ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ * وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ * وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٨٥-٨٩].

٥- وجاء في مناجاة الله لموسى: ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ * إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ * فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴾ [طه: ١٤-١٦].

وجاء في محاورة موسى لفرعون: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه: ٥٥].

٦- وهود أنذر قومه وخوفهم لقاء ربهم فكذبوا ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ * وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ * أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ * إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [المؤمنون: ٣٣-٣٧].

٧- وشعيب قال لقومه: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣٦].

٨- وجاء في دعاء يوسف ربه: ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

٩- وبعض أتباع الرسل الذين حكى الله مقالتهم في كتابه يعرفون البعث والنشور، ويبشرون بالجنة، ويحذرون من النار، فذو القرنين عندما بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة، ووجد عندها قوماً، فقال الله له: ﴿ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا * قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا * وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف: ٨٦-٨٨].

ومؤمن آل فرعون كان موقناً بالبعث عارفاً به، ولا تختلف معرفته به عن معرفتنا، وقد حذر قومه من ذلك اليوم تحذيراً فيه تفصيل وبيان، ومما قاله لهم: ﴿ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [المؤمن: ٣٢-٣٣].

وقال أيضاً: ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ * مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ * ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [المؤمن: ٣٩-٤١].

وقال: ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [المؤمن: ٤٣].

وسحرة فرعون عندما رأوا الآية الباهرة التي جاء بها موسى خروا ساجدين، وسبحوا مؤمنين، فتهددهم فرعون بالعذاب الأليم، فاعتصموا

بالله ربهم، ولم يلتفتوا إلى تهديد أو وعيد، وأجابوا قائلين: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ * إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ * وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ * جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه: ٧٣-٧٦].

المبحث الثاني
نظرة في نصوص اليوم الآخر في كتب أهل الكتاب

لا شك أن الكتب السماوية التي أنزلها الحق تبارك وتعالى كانت تزخر نصوصها بذكر اليوم الآخر، والتخويف منه، والتبشير بما أعده الله للمؤمنين به في جنات النعيم، والتحذير من النار وأهوال القيامة، إلا أن هذه الكتب طرأ عليها تحريف كثير، وذهب كثير من نصوصها التي تتعرض لليوم الآخر.

١- ففي التوراة التي تنسب إلى موسى لا نجد إلا نصاً واحداً يصرح بيوم القيامة، وهو في التوراة السامرية صريح للغاية، ولكنه في التوراة العبرية يحتمل معنيين، ففي سفر تثنية الاشتراع، الإصحاح الثاني والثلاثون (٣٤-٣٥) من التوراة السامرية: «أليس هو مجموعاً عندي مختوماً في خزائني، إلى يوم الانتقام والمكافأة، وقت تزل أقدامهم».

وجاء النص في التوراة العبرانية هكذا: «أليس ذلك مكنوزاً عندي مختوماً عليه في خزائني، لي النقمة والجزاء في وقت تزل أقدامهم».

فنص السامرية يدل على أن الفصل إنما يكون في يوم القيامة الذي سماه يوم الانتقام والمكافأة. أما نص العبرانية فإنه يجيز أن يكون الانتقام في الدنيا، ويجيز أن يكون في الآخرة، ولذلك فإن الصادوقيين من اليهود الذين لا يؤمنون إلا بتوراة موسى العبرية لا يؤمنون بالبعث والنشور، لعدم وجود دلالة تدل على البعث والنشور.

أما أسفار الأنبياء الأخرى في التوراة ففيها بعض النصوص التي تُصرِّح بالبعث والنشور، وكذلك الأناجيل.

٢- ففي سفر دانيال: «كثيرون من الراقدين تحت التراب يستيقظون، هؤلاء إلى الحياة الأبدية، وهؤلاء إلى العار، والازدراء الأبدي»[١].

٣- وفي سفر المزامير يذكر الحشر إلى النار فيقول: «مثل الغنم إلى النار يساقون، الموت يرعاهم، ويسودهم المستقيمون غداة، وصورتهم تبلى، والهاوية مسكن لهم»[٢].

٤- وفي إنجيل لوقا إشارة إلى عذاب القبر، فقد جاء فيه: «ومات الغني ودفن، فرفع عينيه في الهاوية وهو في العذاب»[٣]. فالمقبور من أهل الفجور يكون في العذاب ويرى مقعده من النار، والهاوية هي النار.

٥- وفي إنجيل متى «فإن أعثرتك يدك أو رجلك فاقطعها وألقها عنك، خير لك أن تدخل الحياة أعرج أو أقطع من أن تلقى في النار الأبدية ولك يدان أو رجلان»[٤].

ومن أكثر الكتب التي تحدثت عن الجنة والنار إنجيل برنابا، فقد تحدث عن أهل الجنة، وأنهم يأكلون ويشربون، ولكنهم لا يتبولون ولا يتغوطون، لأن طعامهم وشرابهم ليس فيه خبث ولا فساد، ولكن النصارى يكذبون بهذا الإنجيل الذي ظهر أخيراً في عصرنا هذا.

---

(١) الإصحاح ١٢ من سفر دانيال.

(٢) الفقرة ٥ من المزمور الخامس والخمسين.

(٣) الفقرة ٢٢ من الإصحاح السادس من إنجيل لوقا.

(٤) الفقرة ٨ من الإصحاح الثامن عشر من إنجيل متى.

وبعض اليهود يؤمنون بالبعث والنشور وهؤلاء يسمون بحزب الكتبة، والحزب الآخر وهم «الصادوقيون» لا يؤمنون بالبعث والخلود في الجنة والنار، وقد ذكر إنجيل «مَتَّى» أن الطائفة المكذبة بالقيامة جاؤوا إلى عيسى وجادلوه في القيامة: «في ذلك اليوم جاء إليه صادوقيون، الذين يقولون لا قيامة»[1] وأجاب عيسى عن سؤال أحد تلامذته القائل: «أيذهب جسدنا الذي لنا إلى الجنة؟» فقال له عيسى عليه السلام: «احذر يا بطرس من أن تصير صدوقياً، فإن الصدوقيين يقولون: إن الجسد لا يقوم أيضاً، وإنه لا توجد ملائكة، لذلك حرم على جسدهم وروحهم الدخول في الجنة».

والنصارى يعتقدون أن الذي ينعم أو يعذب في القيامة هو الروح فحسب، وقال بقولهم بعض الذين ينتسبون إلى الإسلام من الفلاسفة والفرق الباطنية الضالة.

---

(١) فقرة ٢٣ من الإصحاح ٢٢ من إنجيل متى.

الفصل السابع
أهوال يوم القيامة

المبحث الأول
الدلائل على عظم أهوال ذلك اليوم

يوم القيامة يوم عظيم أمره، شديد هوله، لا يلاقي العباد مثله، ويدل على عظم هوله أمور:

الأول: وصفُ الله لذلك اليوم بالعظم، وحسبنا أن ربنا وصفه بذلك، ليكون أعظم مما نتصور، وأكبر مما نتخيل ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٤-٦]، ووصفه في موضع آخر بالثقل، وفي موضع ثالث بالعسر، ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الدهر: ٢٧]، ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ٩-١٠].

الثاني: الرعب والفزع الذي يصيب العباد في ذلك اليوم، فالمرضع التي تفدي وليدها بنفسها تذهل عنه في ذلك اليوم، والحامل تسقط حملها، والناس يكون حالهم كحال السكارى الذين فقدوا عقولهم ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١-٢].

ولشدة الهول تشخص أبصار الظلمة في ذلك اليوم، فلا تطرف لشدة الرعب، ولا يلتفتون يميناً ولا شمالاً، ولشدة الخوف تصبح أفئدتهم خالية لا تعي شيئاً ولا تعقل شيئاً ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ [إبراهيم: ٤٢-٤٣].

وترتفع قلوب الظالمين لشدة الهول إلى حناجرهم، فلا تخرج، ولا تستقر في مكانها ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ﴾ [غافر: ١٨]. ومعنى كاظمين، أي: ساكتين لا يتكلمون.

ووصف في موضع آخر ما يصيب القلوب والأبصار في ذلك اليوم فقال: ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [النور: ٣٧]، وقال ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴾ [النازعات: ٨-٩].

وحسبك أن تعلم أن الوليد الذي لم يرتكب جرماً يشيب شعر رأسه لشدة ما يرى من أهوال: ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا * ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴾ [المزمل: ١٧-١٨].

الثالث: انقطاع علائق الأنساب في يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، فكل إنسان في ذلك اليوم يهتم بنفسه، ولا يلتفت إلى غيره، بل إن الإنسان يفر من أحب الناس إليه، يفر من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبَنيه، كما قال تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس: ٣٣-٣٧].

وقال في موضع آخر: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ

عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [لقمان: ٣٣]، وقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨].

الرابع: استعداد الكفار في يوم الدين لبذل كل شيء في سبيل الخلاص من العذاب، فلو كانوا يملكون ما في الأرض لافتدوا به ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ [يونس: ٥٤]، بل لو كان للكافر ضعف ما في الأرض لافتدى به ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد: ١٨]، بل هو على استعداد أن يبذل ما عنده ولو كان ملء الأرض ذهباً، وعلى احتمال أن كان الأمر كذلك، فإن الله لا يقبل منه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٩١].

وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ كان يقول: «يجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له: أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهباً أكنت تفتدي به؟ فيقول: نعم. فيقال له: قد كنت سألتك ما هو أيسر من ذلك»[1].

ويصل الحال بالكافر في ذلك اليوم أن يتمنى لو دفع بأعز الناس عنده في النار لينجو هو من العذاب ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ * وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ * كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ [المعارج: ١١-١٥].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب من نوقش الحساب عذب، فتح الباري: (١١/ ٤٠٠).

الخامس: ويدلك على هول ذلك اليوم وشدته: طوله، قال تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ * فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا * إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٤-٧].

وسياق الآيات يدل دلالة واضحة على أن المراد به يوم القيامة، وقد ثبت بإسناد صحيح عن ابن عباس أنه يوم القيامة، وبذلك قال الحسن، والضحاك، وابن زيد[1]. ولطول ذلك اليوم يظن الناس في يوم المعاد أنهم لم يلبثوا في الحياة الدنيا إلا ساعة من نهار، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ﴾ [يونس: ٤٥]، قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: «يقول تعالى مذكراً للناس قيام الساعة وحشرهم من أجداثهم إلى عرصات القيامة: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ..﴾.

كقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٦]. وقال تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥]، وهذا دليل على استقصار الحياة الدنيا في الدار الآخرة، كقوله: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ * قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٢-١١٤]»[2].

---

(١) النهاية لابن كثير: (١/ ٣٢٣).

(٢) تفسير ابن كثير: (٣/ ٥٠٥).

المبحث الثاني

بعض معالم أهوال القيامة

يحدثنا القرآن عن أهوال ذلك اليوم التي تَشْدَه الناس، وتشدُّ أبصارهم، وتملك عليهم نفوسهم، وتزلزل قلوبهم.

ومن أعظم تلك الأهوال ذلك الدمار الكوني الشامل الرهيب الذي يصيب الأرض وجبالها، والسماء ونجومها وشمسها وقمرها.

يحدثنا ربنا أن الأرض تزلزل وتدكُّ، وأن الجبال تُسَيَّر وتنسف، والبحار تُفجّر وتُسجَّر، والسماء تتشقق وتمور، والشمس تُكوَّر وتذهب، والقمر يخسف، والنجوم تنكدر ويذهب ضوؤها، وينفرط عقدها.

وسأذكر بعض النصوص التي تصور وقائع تلك الأهوال ثم أذكر ما يحدث لكل واحد من العوالم العظيمة في ذلك اليوم.

المطلب الأول

قبض الأرض وطي السماء

يقبض الحق تبارك وتعالى الأرض بيده في يوم القيامة، ويطوي السموات بيمينه، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

وقد أخبرنا في موضع آخر عن كيفية طيه للسموات فقال: ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

قال ابن كثير: «والصحيح عن ابن عباس أن السجل هي الصحيفة، قاله علي بن أبي طلحة، والعوفي عنه، ونص على ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد، واختاره ابن جرير، لأنه المعروف في اللغة، فعلى هذا فيكون معنى الكلام يوم تطوى السماء كطي السجل للكتاب، أي على الكتاب، بمعنى المكتوب»[(١)].

وقد جاءت الأحاديث الصحيحة دالة على مثل ما دلت عليه النصوص القرآنية، ومبينة فائدة أخرى، وهي ما يقوله الحق تبارك وتعالى بعد قبضه الأرض، وطيه السماء، ففي الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقبض الله الأرض يوم القيامة، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض»[(٢)].

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «يطوي الله السموات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرض بشماله -وفي رواية: يأخذهن بيده الأخرى- ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون، أين المتكبرون؟»[(٣)].

وروى البخاري عن عبد الله بن مسعود أن يهودياً جاء إلى النبي ﷺ

---

(١) تفسير ابن كثير: (٤/ ٦٠٢).
(٢) مشكاة المصابيح: (٣/ ٥٣)، ورقمه: ٥٥٢٢.
(٣) مشكاة المصابيح: (٣/ ٥٣)، ورقمه: ٥٥٢٣.

فقال: يا محمد إن الله يمسك السمـٰوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والجبال على إصبع، والشجر على إصبع، والخلائق على إصبع ثم يقول: أنا الملك، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]»[1].

وهذا القبض للأرض والطي للسمـٰوات يقع بعد أن يفني الله خلقه، وقيل: إن المنادي ينادي بعد حشر الخلق على أرض بيضاء مثل الفضة، لم يعص الله عليها، واختاره أبو جعفر النحاس، قال: والقول صحيح عن ابن مسعود، وليس هو مما يؤخذ بالقياس، ولا بتأويل.

وقال القرطبي: «والقول الأول أظهر، لأن المقصود إظهار انفراده بالملك، عند انقطاع دعوى المدعين، وانتساب المنتسبين، إذ قد ذهب كل ملك وملكه، وكل جبار ومتكبر وملكه، وانقطعت نسبهم ودعاويهم، وهذا أظهر»[2].

المطلب الثاني

دك الأرض ونسف الجبال

يخبرنا ربنا تبارك وتعالى أن أرضنا الثابتة، وما عليها من جبال صم راسية تحمل في يوم القيامة عندما ينفخ في الصور فتدك دكة واحدة: ﴿فَإِذَا

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥]، فتح الباري: (١٣/ ٣٩٣).

(٢) تذكرة القرطبي: ١٧٢.

نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٌ وَٰحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ * فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة: ١٣-١٥]، ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا﴾ [الفجر: ٢١]، وعند ذلك تتحول هذه الجبال الصلبة القاسية إلى رمل ناعم، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤]، أي تصبح ككثبان الرمل بعد أن كانت حجارة صماء، والرمل المهيل: هو الذي إذا أخذت منه شيئاً تبعك ما بعده، يقال: أهلت الرمل أهيله هيلاً، إذا حركت أسفله حتى انهال من أعلاه.

وأخبر في موضع آخر أن الجبال تصبح كالعهن، والعهن هو الصوف، كما قال تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ﴾ [المعارج: ٩]، وفي نص آخر مثّلها بالصوف المنفوش: ﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥].

ثم إن الحق تبارك وتعالى يزيل هذه الجبال عن مواضعها، ويسوّي الأرض حتى لا يكون فيها موضع مرتفع، ولا منخفض، وعبّر القرآن عن إزالة الجبال بتسييرها مرة، وبنسفها أخرى ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ﴾ [التكوير: ٣]، ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابٗا﴾ [النبأ: ٢٠]. وقال في نَسْفِه لها: ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ﴾ [المرسلات: ١٠]. ثم بين الحق حال الأرض بعد تسيير الجبال ونسفها ﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ﴾ [الكهف: ٤٧]، أي ظاهرة لا ارتفاع فيها ولا انخفاض، كما قال تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا * فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا * لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧].

المطلب الثالث

تفجير البحار وتسجيرها

أما هذه البحار التي تغطي الجزء الأعظم من أرضنا، وتعيش في باطنها عوالم هائلة من الأحياء، وتتهادى فوقها السفن ذاهبة آيبة، فإنها تفجر في ذلك اليوم، وقد علمنا في هذا العصر الهول العظيم الذي يحدثه انفجار الذرات الصغيرة التي هي أصغر من ذرات الماء، فكيف إذا فجرت ذرات المياه في هذه البحار العظيمة، عند ذلك تسجر البحار، وتشتعل ناراً، ولك أن تتصور هذه البحار العظيمة الهائلة وقد أصبحت مادة قابلة للاشتعال، كيف يكون منظرها، واللهب يرتفع منها إلى أجواز الفضاء، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ [الانفطار:٣]، وقال: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير:٦].

وقد ذهب المفسرون قديماً إلى أن المراد بتفجير البحار، تشقق جوانبها وزوال ما بينها من الحواجز، واختلاط الماء العذب بالماء المالح، حتى تصير بحراً واحداً[1]، وما ذكرناه أوضح وأقرب، فإن التفجير بالمعنى الذي ذكرناه مناسب للتسجير، والله أعلم بالصواب.

---

(١) تفسير الألوسي: (٣٠/ ٦٣).

المطلب الرابع

موران السماء وانفطارها

أما سماؤنا الجميلة الزرقاء التي ننظر إليها فتنشرح صدورنا، وتسر قلوبنا، فإنها تمور موراناً، وتضطرب اضطراباً عظيماً ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾ [الطور: ٩].

ثم تنفطر، وتتشقق ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١]، ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١-٢].

وعند ذلك تصبح ضعيفة واهية، كالقصر العظيم، المتين البنيان، الراسخ الأركان، عندما تصيبه الزلازل، تراه بعد القوة أصبح واهياً ضعيفاً متشققاً، ﴿ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٦].

أما لون السماء الأزرق الجميل فإنه يزول ويذهب، وتأخذ السماء في التلون في ذلك اليوم كما تتلون الأصباغ التي يدهن بها، فتارة حمراء، وتارة صفراء، وأخرى خضراء، ورابعة زرقاء، كما قال تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧]، وقد نقل عن ابن عباس أن السماء تكون في ذلك اليوم كالفرس الورد، والفرس الورد -كما يقول البغوي-: تكون في الربيع صفراء، وفي الشتاء حمراء، فإذا اشتد البرد تغير لونها، وقال الحسن البصري في قوله: ﴿ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ أي تكون ألواناً[1].

---

(١) تفسير ابن كثير: (٦/ ٤٩٤).

المطلب الخامس

تكوير الشمس وخسوف القمر وتناثر النجوم

أما هذه الشمس التي نراها تشرق كل صباح، فتغمر أرضنا بالضياء، وتمدنا بالنور والطاقة التي لا غنى عنها لأبصارنا وأبداننا، وما يدب على الأرض من أحياء، وما ينمو فيها من نبات، فإنها تجمع وتكوَّر، ويذهب ضوؤها، كما قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: ١]، والتكوير عند العرب: جمع الشيء بعضه على بعض، ومنه تكوير العمامة، وجمع الثياب بعضها على بعض، وإذا جمع بعض الشمس على بعض، ذهب ضوؤها ورمى بها.

أما القمر الذي نراه في أول كل شهر هلالاً، ثم يتكامل ويتنامى، حتى يصبح بدراً جميلاً بديعاً، يتغنى بجماله الشعراء، ويؤنس المسافرين حين يسيرون في الليل، فإنه يخسف ويذهب ضوؤه ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ * وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾ [القيامة: ٧-٨].

أما تلك النجوم المتناثرة في القبة السماوية الزرقاء، فإن عقدها ينفرط، فتتناثر وتنكدر ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: ٢]، ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ٢]، والانكدار: الانتثار، وأصله في لغة العرب: الانصباب[1].

---

(١) تفسير ابن كثير: (٧/ ٢٢١).

المطلب السادس

تفسير القرطبي للنصوص الواصفة لأهوال يوم القيامة

قال القرطبي: «روى الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من سره أن ينظر إلى يوم القيامة فليقرأ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: ١]، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١]، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١].

قال: هذا حديث حسن[1].

وإنما كانت هذه السور الثلاث أخص بالقيامة، لما فيها من انشقاق السماء وانفطارها، وتكور شمسها وانكدار نجومها، وتناثر كواكبها، إلى غير ذلك من أفزاعها وأهوالها، وخروج الخلق من قبورهم إلى سجونهم أو قصورهم، بعد نشر صحفهم، وقراءة كتبهم، وأخذها بأيمانهم وشمائلهم، أو من وراء ظهورهم في موقفهم على ما يأتي بيانه.

قال الله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]. وقال ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١]، وقال: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ [الفرقان: ٢٥]، فتراها واهية منفطرة متشققة، كقوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ [النبأ: ١٩]، ويكون الغمام سترة بين السماء والأرض، وقيل إن الباء بمعنى عن، أي: تشقق عن سحاب أبيض. ويقال: انشقاقها لما يخلص إليها من حر جهنم، وذلك إذا بطلت المياه، وبرزت النيران، فأول ذلك

---

(١) حديث صحيح رواه الترمذي والحاكم وأحمد، انظر صحيح الجامع: (٣/ ٣٠١) ورقم الحديث: ٦١٩١.

أنها تصير حمراء صافية كالدهن، وتتشقق لما يريد الله من نقض هذا العالم، ورفعه. وقد قيل: إن السماء تتلون، فتصفر، ثم تحمر، أو تحمر، ثم تصفر، كالمهرة تميل في الربيع إلى الصفرة، فإذا اشتد الحر مالت إلى الحمرة، ثم إلى الغبرة، قاله الحليمي.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: ١]، قال ابن عباس رضي الله عنه: تكويرها إدخالها في العرش. وقيل: ذهاب صفوها، قاله الحسن وقتادة، وروي ذلك عن ابن عباس ومجاهد. وقال أبو عبيدة: كورت مثل تكوير العمامة، تلف فتمحى. وقال الربيع بن خُثَيْم: كورت رمي بها، ومنه: كورته، فتكور، . أي: سقط. قلت: وأصل التكوير الجمع، مأخوذ من كار العمامة على رأسه يكورها، أي: لاثها، وجمعها، فهي تكور، ثم يمحو ضوءها ثم يرمى بها، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ٢]، أي: انتثرت، قيل: تتناثر من أيدي الملائكة، لأنهم يموتون، وفي الخبر أنها معلقة بين السماء والأرض بسلاسل بأيدي الملائكة. وقال ابن عباس رضي الله عنه: انكدرت تغيرت، وأصل الانكدار الانصباب، فتسقط في البحار، فتصير معها نيراناً، إذا ذهبت المياه.

وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: ٣]، هو مثل قوله: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ [الكهف: ٤٧]، أي: تحول عن منزلة الحجارة، فتكون كثيباً مهيلاً، أي: رملاً سائلاً، وتكون كالعهن، وتكون هباء منبثاً، وتكون سراباً، مثل السراب الذي ليس بشيء. وقيل: إن الجبال بعد اندكاكها أنها تصير كالعهن من حر جهنم، كما تصير السماء من حرها كالمهل.

قال الحليمي: وهذا والله أعلم لأن مياه الأرض كانت حاجزة بين السماء والأرض، فإذا ارتفعت، وزيد مع ذلك في إحماء جهنم أثر في كل واحد من السماء والأرض ما ذكر.

وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ [التكوير: ٤] أي: عطلها أهلها، فلم تحلب من الشغل بأنفسهم. والعشار: الإبل الحوامل، واحدها عشر، وهي التي أتى عليها في الحمل عشرة أشهر، ثم لا يزال ذلك اسمها حتى تضع، وبعدما تضع، وإنما خص العشار بالذكر، لأنها أعز ما يكون على العرب، فأخبر أنها تعطل يوم القيامة. ومعناه أنهم إذا قاموا من قبورهم، وشاهد بعضهم بعضاً ورأوا الوحوش والدواب محشورة، وفيها عشارهم التي كانت أنفس أموالهم، لم يعبؤوا بها، ولم يهمهم أمرها، ويحتمل تعطل العشار إبطال الله تعالى أملاك الناس عما كان ملَّكهم إياها في الدنيا، وأهل العشار يرونها، فلا يجدون إليها سبيلاً. وقيل: العشار: السحاب، يعطل مما يكون فيه، وهو الماء، فلا يمطر. وقيل: العشار الديار، تعطل فلا تسكن. وقيل: الأرض التي يعشر زرعها تعطل فلا تزرع، والقول الأول أشهر وعليه من الناس الأكثر.

وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥] أي: جمعت، والحشر الجمع، وقد تقدم.

وقوله ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦] أي: أُوقدت، وصارت ناراً. رواه الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنه. وقال قتادة: غار ماؤها، فذهب. وقال الحسن والضحاك: فاضت. قال ابن أبي زَمْنين: سُجِّرت حقيقته مُلئت، فيفضي بعضها إلى بعض، فتصير شيئاً واحداً. وهو معنى

قول الحسن. ويقال: إن الشمس تلف، ثم تلقى في البحار، فمنها تحمى، وتنقلب ناراً. قال الحليمي: ويحتمل إن كان هذا هكذا أن البحار في قول من فسر التسجير بالامتلاء هو أن النار حينئذ تكون أكثرها، لأن الشمس أعظم من الأرض مرات كثيرة، فإذا كورت، وألقيت في البحر، فصارت ناراً، ازدادت امتلاءً.

وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧] تفسير الحسن أن تلحق كل شيعة شيعتها: اليهود باليهود، والنصارى بالنصارى، والمجوس بالمجوس، وكل من كان يعبد من دون الله شيئاً يلحق بعضهم ببعض، والمنافقون بالمنافقين، والمؤمنون بالمؤمنين. وقال عكرمة: المعنى تقرن بأجسادها، أي: ترد إليها، وقيل: يقرن الغاوي بمن أغواه من شيطان أو إنسان. وقيل: يقرن المؤمنون بالحور العين، والكافرون بالشياطين.

وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾ [التكوير: ٨] يعني بنات الجاهلية، كانوا يدفنوهن أحياء، لخصلتين: إحداهما: كانوا يقولون: إن الملائكة بنات الله، فألحقوا البنات به. الثانية: مخافة الحاجة والإملاق، وسؤال الموءودة على وجه التوبيخ لقاتلها، كما يقال للطفل إذا ضرب: لم ضربت؟ وما ذنبك؟ وقال الحسن: أراد الله أن يوبخ قاتلها، لأنها قتلت بغير ذنب. وبعضهم يقرأ: وإذا الموءودة سَأَلَتْ، تعلق الجارية بأبيها، فتقول: بأي ذنب قتلتني؟ وقيل: معنى سئلت، يسأل عنها كما قال: ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ [التكوير: ١٠] أي: للحساب وسيأتي.

وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾ [التكوير: ١١] قيل: معناه طويت، كما قال

الله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، أي: كطي الصحيفة على ما فيها، فاللام بمعنى (على)، يقال: كشطت السقف، أي: قلعته، فكان المعنى: قلعت، فطويت والله أعلم، والكشط والقشط سواء، وهو القلع، وقيل: السجل كاتب للنبي ﷺ ولا يعرف في الصحابة من اسمه سجل.

وقوله: ﴿ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴾ [التكوير: ١٢]، أي: أُوقدت. وقوله: ﴿ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴾ [التكوير: ١٣] أي: قربت لأهلها، وأدنيت.

﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾ [التكوير: ١٤] أي: من عملها، وهو مثل قوله: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ [الانفطار: ٥].

ومما قيل في وصف أهوال ذلك اليوم شعراً[1]:

مثِّل لنفسك أيها المغرور ... يوم القيامة والسماء تمور

إذ كورت شمس النهار وأدنيت ... حتى على رأس العباد تسير

وإذا النجوم تساقطت وتناثرت ... وتبدلت بعد الضياء كدور

وإذا البحار تفجرت من خوفها ... ورأيتها مثل الجحيم تفور

وإذا الجبال تقلعت بأصولها ... فرأيتها مثل السحاب تسير

وإذا العشار تعطلت وتخربت ... خلت الديار فما بها معمور

وإذا الوحوش لدى القيامة أُحشرت ... وتقول للأملاك أين تسير

وإذا تقاة المسلمين تزوجت ... من حور عين زانهن شعور

---

(١) التذكرة للقرطبي: ٢١٤.

وإذا الموءودة سئلت عن شأنها وبـأي ذنـب قتلهـا ميسـور
وإذا الجليل طوى السماء بيمينه طـي السجـل كتـابـه المنشـور
وإذا الصحائف نشرت فتطايرت وتهتكـت للمـؤمنيـن ستـور
وإذا السماء تكشطت عن أهلها ورأيـت أفـلاك السمـاء تـدور
وإذا الجحيـم تسعـرت نيـرانهـا فلهـا علـى أهـل الـذنـوب زفيـر
وإذا الجنـان تـزخـرفـت وتطيبـت لفتـى علـى طـول البـلاء صبـور
وإذا الجنيـن بـأمـه متعلـق يخشى القصاص وقلبه مذعور
هـذا بـلا ذنـب يخـاف جنينـه كيف المصر على الذنوب دهور

المطلب السابع

المحاسبي يصور أهوال ذلك اليوم

يقول الحارث المحاسبي رحمه الله واصفاً ما يقع في ذلك اليوم من أهوال: «حتى إذا تكاملت عدة الموتى، وخلت من سكانها الأرض والسماء، فصاروا خامدين بعد حركاتهم، فلا حس يسمع، ولا شخص يُرى، وقد بقي الجبار الأعلى كما لم يزل أزلياً واحداً منفرداً بعظمته وجلاله، ثم لم يفجأ روحك إلا بنداء المنادي لكل الخلائق معك للعرض على الله عز وجل بالذل والصغار منك ومنهم. فتوهم كيف وقوع الصوت في مسامعك وعقلك، وتفهم بعقلك بأنك تدعى إلى العرض على الملك الأعلى، فطار فؤادك، وشاب رأسك للنداء، لأنها صيحة واحدة للعرض

على ذي الجلال والإكرام والعظمة والكبرياء -فبينما أنت فزع للصوت إذ سمعت بانفراج الأرض عن رأسك، فوثبت مغبراً من قرنك إلى قدمك بغبار قبرك، قائماً على قدميك، شاخصاً ببصرك نحو النداء، وقد ثار الخلائق كلهم معك ثورة واحدة، وهم مغبرون من غبار الأرض التي طال فيها بلاؤهم.

فتوهم ثورتهم بأجمعهم بالرعب والفزع منك ومنهم، فتوهم نفسك بعريك ومذلتك وانفرادك بخوفك وأحزانك وغمومك وهمومك في زحمة الخلائق، عراة حفاة صموت أجمعون بالذلة والمسكنة والمخافة والرهبة، فلا تسمع إلا همس أقدامهم والصوت لمدة المنادي، والخلائق مقبلون نحوه، وأنت فيهم مقبل نحو الصوت، ساعٍ بالخشوع والذلة، حتى إذا وافيت الموقف ازدحمت الأمم كلها من الجنّ والإنس عراة حفاة، قد نُزِعَ المُلْكُ من مُلوك الأرض، ولزمتهم الذلة والصغار، فهم أذل أهل الجمع وأصغرهم خلقة وقدراً بعد عتوهم وتجبرهم على عباد الله عز وجل في أرضه.

ثم أقبلت الوحوش من البراري وذرى الجبال منكسة رؤوسها لذل يوم القيامة بعد توحشها وانفرادها من الخلائق ذليلة ليوم النشور لغير بلية نابتها ولا خطيئة أصابتها، فتوهم إقبالها بذلّها في اليوم العظيم ليوم العرض والنشور.

وأقبلت السباع بعد ضراوتها وشهامتها منكّسة رؤوسها ذليلة ليوم القيامة حتى وقفت من وراء الخلائق بالذل والمسكنة والانكسار للملك الجبار، وأقبلت الشياطين بعد عتوها وتمردها خاشعة لذل العرض على الله سبحانه

فسبحان الذي جمعهم بعد طول البلاء، واختلاف خلقهم وطبائعهم وتوحش بعضهم من بعض، قد أذلهم البعث وجمع بينهم النشور.

حتى إذا تكاملت عدة أهل الأرض من إنسها وجنها وشياطينها ووحوشها وسباعها وأنعامها وهوامها، واستووا جميعاً في موقف العرض والحساب تناثرت نجوم السماء من فوقهم، وطمست الشمس والقمر، وأظلمت الأرض بخمود سراجها وإطفاء نورها. فبينما أنت والخلائق على ذلك إذ صارت السماء الدنيا من فوقهم، فدارت بعظمها من فوق رؤوسهم، وذلك بعينك تنظر إلى هول ذلك، ثم انشقت بغلظها خمسمائة عام، فيا هول صوت انشقاقها في سمعك، ثم تمزقت وانفطرت بعظيم هول يوم القيامة والملائكة قيام على أرجائها وهي حافات ما يتشقق ويتفطر، فما ظنك بهول تنشق فيه السماء بعظمها، فأذابها ربها حتى صارت كالفضة المذابة تخالطها صفرة لفزع يوم القيامة كما قال الجليل الكبير: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧]، ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ [المعارج: ٨-٩].

فبينا ملائكة السماء الدنيا على حافتها إذ انحدروا محشورين إلى الأرض للعرض والحساب، وانحدروا من حافتيها بعظم أجسامهم وأخطارهم وعلو أصواتهم بتقديس الملك الأعلى الذي أنزلهم محشورين إلى الأرض بالذلة والمسكنة للعرض عليه والسؤال بين يديه.

فتوهم تحدرهم من السحاب بعظيم أخطارهم وكبير أجسامهم وهول أصواتهم وشدة فرقهم منكسين لذل العرض على الله عز وجل. فيا فزعك وقد فزع الخلائق مخافة أن يكونوا أمروا بهم، ومسألتهم إياهم: أفيكم

ربنا؟ ففزع الملائكة من سؤالهم إجلالاً لمليكهم أن يكون فيهم، فنادوا بأصواتهم تنزيهاً لما توهمه أهل الأرض: سبحان ربنا، ليس هو بيننا، ولكنه آتٍ من بعد، حتى أخذوا مصافهم محدقين بالخلائق منكسين رؤوسهم لذل يومهم. فتوهمهم، وقد تسربلوا بأجنحتهم، ونكسوا رؤوسهم في عظم خلقهم بالذل والمسكنة والخشوع لربهم، ثم كل شيء على ذلك وكذلك إلى السماء السابعة، كل أهل سماء مضعفين بالعدد، وعظم الأجسام، وكل أهل سماء محدقين بالخلائق صفاً واحداً.

حتى إذا وافى الموقف أهل السمـٰوات السبع والأرضين السبع كسيت الشمس حر عشر سنين وأدنيت من رؤوس الخلائق قاب قوس أو قوسين، ولا ظِلَّ لأحد إلا ظِل عرش رب العالمين، فمن بين مستظل بظل العرش، وبين مضحو بحر الشمس، قد صهرته بحرها، واشتد كربه وقلقه من وهجها، ثم ازدحمت الأمم وتدافعت، فدفع بعضهم بعضاً، وتضايقت فاختلفت الأقدام وانقطعت الأعناق من العطش، واجتمع حر الشمس ووهج أنفاس الخلائق وتزاحم أجسامهم، ففاض العرق منهم سائلاً حتى استنقع على وجه الأرض ثم على الأبدان على قدر مراتبهم ومنازلهم عند الله عز وجل بالسعادة والشقاء، حتى إذا بلغ من بعضهم العرق كعبيه، وبعضهم حقويه، وبعضهم إلى شحمه أذنيه، ومنهم من كاد أن يغيب في عرقه، ومن قد توسط العرق من دون ذلك منه.

عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل (وقال مرة: إن الكافر) ليقوم يوم القيامة في بحر رشحه إلى أنصاف أذنيه من طول القيام» [متفق عليه].

وعن عبد الله رفعه إلى النبي ﷺ: «إن الكافر يلجم بعرقه يوم القيامة من طول ذلك اليوم، (وقال علي: من طول القيام. قالا جميعاً) حتى يقول: رب أرحني ولو إلى النار. وأنت لا محالة أحدهم، فتوهم نفسك راجعة لكربك وقد علاك العرق، وأطبق عليك الغم، وضاقت نفسك في صدرك من شدة العرق والفزع والرعب، والناس معك منتظرون لفصل القضاء إلى دار السعادة أو إلى دار الشقاء، حتى إذا بلغ المجهود منك ومن الخلائق منتهاه، وطال وقوفهم لا يكلمون ولا ينظرون في أمورهم.

عن قتادة أو كعب، قال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦]. قال: «يقومون مقدار ثلاثمائة عام، وقال سمعت الحسن يقول: ما ظنك بأقوام قاموا لله عز وجل على أقدامهم مقدار خمسين ألف سنة لم يأكلوا فيها أكلة، ولم يشربوا فيها شربة، حتى إذا انقطعت أعناقهم من العطش، واحترقت أجوافهم من الجوع انصرف بهم إلى النار، فسقوا من عين آنية قد آن حرها، واشتد نفحها.

فلما بلغ المجهود منهم ما لا طاقة لهم به، كلَّم بعضهم بعضاً في طلب مَنْ يكرم على مولاه أن يشفع لهم في الراحة من مقامهم ووقفهم لينصرفوا إلى الجنة أو إلى النار من وقوفهم، ففزعوا إلى آدم ونوح ومن بعده إبراهيم، وموسى وعيسى من بعد إبراهيم، كلهم يقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله، فكلهم يذكر شدة غضب ربه عز وجل، وينادي بالشغل بنفسه فيقول: نفسي نفسي، فيشتغل بنفسه عن الشفاعة لهم إلى ربهم لاهتمامه بنفسه وخلاصها، وكذلك يقول الله عز وجل: ﴿۞ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ [النحل: ١١١].

فتوهم أصوات الخلائق وهم ينادون بأجمعهم، منفرد كلّ واحد منهم بنفسه، ينادي نفسي نفسي، فلا تسمع إلا قول نفسي نفسي. فياهول ذلك وأنت تنادي معهم بالشغل بنفسك والاهتمام بخلاصها من عذاب ربك وعقابه، فما ظنك بيوم ينادي فيه المصطفى آدم، والخليل إبراهيم، والكليم موسى، والروح والكلمة عيسى مع كرامتهم على الله -عز وجل- وعظم قدر منازلهم عند الله عز وجل، كل ينادي: نفسي نفسي، شفقاً من شدة غضب ربه، فأين أنت منهم في إشفاقك في ذلك اليوم واشتغالك، وبحزنك وبخوفك؟ حتى إذا أيس الخلائق من شفاعتهم لما رأوا من اشتغالهم لأنفسهم، أتوا النبي محمداً ﷺ فسألوه الشفاعة إلى ربهم فأجابهم إليها، ثم قام إلى ربه عز وجل واستأذن عليه، فأذن له، ثم خر لربه ساجداً، ثم فتح عليه من محامده والثناء عليه لما هو أهله، وذلك كله بسمعك وأسماع الخلائق، حتى أجابه ربه عز وجل إلى تعجيل عرضهم والنظر في أمورهم[1].

(١) كتاب التوهم والأهوال للحارث بن أسد المحاسبي: ص ٥.

الفصل الثامن

أحوال الناس في يوم القيامة

تختلف أحوال الناس في ذلك اليوم اختلافاً بيناً، وسنعرض هنا لثلاثة: الكفار، وعصاة الموحدين، والأتقياء الصالحين.

المبحث الأول

حال الكفار

المطلب الأول

ذلتهم وهوانهم وحسرتهم ويأسهم

الذي يتأمل في نصوص الكتاب والسنة التي تحدثنا عن مشاهد القيامة يرى الأهوال العظام والمصائب الكبار التي تنزل بالكفرة المجرمين في ذاك اليوم العظيم.

وسنعرض في هذا المبحث بعض المشاهد التي يصفها القرآن الكريم.

١- قال تعالى مبيناً حال الكفار عند خروجهم من القبور: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ * خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ [المعارج: ٤٣-٤٤].

والأجداث هي القبور، والنص يصور سرعة خروجهم من القبور في ذلك اليوم منطلقين إلى مصدر الصوت كأنهم يسرعون إلى الأنصاب التي كانوا يعبدونها في الدنيا، ولكنهم اليوم لا ينطلقون فرحين أشرين بطرين كما كان حالهم عندما كانوا يقصدون الأنصاب، بل هم أذلاء، أبصارهم خاشعة، والصغار يعلوهم، على النعت الذي كان يعدهم الله به في الدنيا.

٢- وقال تعالى: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ * خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ * مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ۖ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ [القمر: ٦-٨].

وهذه الآية تنص على ما نصت عليه الآيات السابقة من خروجهم خاشعي الأبصار أذلاء، مسرعين إلى مصدر الصوت الذي يناديهم ويدعوهم، وتزيدنا بياناً بإعطائنا صورة حية لمشهد البعث والنشور، فحالهم في ذلك اليوم في حركتهم وانطلاقتهم وهم يخرجون مسرعين كحال الجراد المنتشر، ويفيدنا النص أيضاً اعتراف الكفار في ذلك اليوم بصعوبة موقفهم ﴿ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ [القمر: ٨].

٣- ويفيدنا نص ثالث أن الكفار ينادون بالويل والثبور عندما ينفخ في الصور متسائلين عمن أقامهم من رقدتهم.

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ ﴾ [يس: ٥١-٥٢].

وقد كان أبو محكم الجسري يجتمع إليه إخوانه، وكان حكيماً، فإذا تلى الآية السابقة بكى، ثم قال:

«إن القيامة ذهبت فظاعتها بأوهام العقول، أما والله لئن كان القوم في رقدة مثل ظاهر قولهم، لما دعوا بالويل عند أول وهلة من بعثهم، ولم يوقفوا بعد موقف عرض ولا مسألة إلا وقد عاينوا خطراً عظيماً، وحقت عليهم القيامة بالجلائل من أمرها، ولكن كانوا في طول الإقامة في البرزخ يألمون ويعذبون في قبورهم، وما دعوا بالويل عند انقطاع ذلك عنهم، إلا وقد نقلوا إلى طامة هي أعظم منه، ولولا أن الأمر على ذلك ما استصغر القوم ما كانوا منه، فسموه رقاداً، وإن في القرآن لدليلاً على ذلك: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ [النازعات: ٣٤]، ثم يبكي حتى يبل لحيته»[1].

٤- ويضيف نص آخر ملامح جديدة إلى صورتهم حال بعثهم، فأبصارهم لشدة الهول شاخصة جاحظة، وأفئدتهم خالية إلا من الهول الذي يحيط بهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٢-٤٣].

يقول الأستاذ سيد قطب -رحمه الله وأجزل له المثوبة- في تفسير هذه الآيات: «والرسول ﷺ -لا يحسب الله غافلاً عما يعمل الظالمون، ولكن ظاهر الأمر يبدو هكذا لبعض من يرون الظالمين يتمتعون، ويسمع بوعيد الله، ثم لا يراه واقعاً بهم في الحياة الدنيا، فهذه الصيغة تكشف عن الأجل المضروب لأخذهم الأخذة الأخيرة، التي لا إمهال بعدها، ولا فكاك منها، أخذهم في اليوم العصيب الذي تشخص فيه الأبصار من الفزع والهلع، فتظل مبهوتة مذهولة، مأخوذة بالهول لا تطرف ولا تتحرك.

---

(١) النهاية لابن كثير: (١/ ٢٧٤).

ثم يرسم مشهداً للقوم في زحمة الهول..، مشهدهم مسرعين لا يلوون على شيء، ولا يلتفتون إلى شيء، رافعين رؤوسهم، لا عن إرادة، ولكنها مشدودة، لا يملكون لها حراكاً. يمتد بصرهم إلى ما يشاهدون من الرعب، فلا يطرف ولا يرتد إليهم، وقلوبهم من الفزع خاوية خالية، لا تضم شيئاً يعونه أو يحفظونه، أو يتذكرونه، فهي هواء خاوية. هذا هو اليوم الذي يؤخرهم الله إليه، حيث يقفون هذا الموقف، ويعانون هذا الرعب، الذي يرتسم من خلال هذه المقاطع الأربعة، مذهلاً آخذاً بهم كالطائر الصغير في مخالب الباشق الرعيب:

﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ [إبراهيم: ٤٢-٤٣].

فالسرعة المهرولة المدفوعة، في الهيئة الشاخصة المكروهة المشدودة، مع القلب المفزع الطائر الخاوي من كل وعي من الإدراك.. كلها تشي بالهول الذي تشخص فيه الأبصار»[1].

٥- ويصور القرآن الفزع الذي يسيطر على نفوس الكفار في يوم الموقف العظيم فيقول: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر: ١٨].

«والآزفة... القريبة العاجلة... هي القيامة، واللفظ يصورها كأنها زاحفة والأنفاس من ثم مكروبة لاهثة، وكأنما القلوب المكروبة تضغط على الحناجر، وهم كاظمون لأنفاسهم ولآلامهم ولمخاوفهم، والكظم يكربهم، ويثقل على صدروهم، وهم لا يجدون حميماً يعطف عليهم،

(١) في ظلال القرآن: (٤/ ٢١١١).

ولا شفيعاً ذا كلمة تطاع في هذا الموقف العصيب المكروب»[1].

٦- وما كان هؤلاء في حكم الله مجرمين متمردين على خالقهم وإلههم، مستكبرين عن عبادته وطاعته -فإنه يؤتى بهم إلى ربهم وخالقهم مقرنين في الأصفاد، مسربلين بالقطران تغشى وجوههم النار، ويا لفظاعة حالهم، وعظم ما يلقون ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ * وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ * سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾[إبراهيم: ٤٨-٥٠].

يقول الطبري رحمه الله في تفسير هذه الآيات: «وتعاين الذين كفروا بالله، فاجترموا في الدنيا الشرك يومئذ، يعني يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات، ﴿مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ [إبراهيم: ٤٩]، يقول: مقرنة أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأصفاد، وهي الوثاق من غل وسلسلة، واحدها صفد»[2].

والسرابيل: هي القُمُص التي يلبسونها، والقطران: المادة التي تطلى بها الإبل إذا أصابها الجرب، وقيل: القطران النحاس.

٧- وتدنو الشمس من رؤوس العباد في ذلك اليوم حتى لا يكون بينها وبينهم إلا مقدار ميل واحد، ولولا أنهم مخلوقون خلقاً غير قابل للفناء لانصهروا وذابوا وتبخروا، ولكنهم بعد الموت لا يموتون.

ويذهب عرقهم في الأرض حتى يرويها، ثم يرتفع فوق الأرض، ويأخذهم على قدر أعمالهم. ففي صحيح مسلم عن المقداد بن الأسود

---

(١) في ظلال القرآن: (٦/ ٣٠٧٤).

(٢) تفسير ابن جرير الطبري: (١٣/ ٢٥٤).

قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق، حتى تكون منهم كمقدار ميل».

قال سليم بن عامر: فو الله ما أدري ما يعني بالميل؟ أمسافة الأرض، أم الميل الذي تكتحل به العين.

قال: «فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه. ومنهم من يكون إلى ركبتيه. ومنهم من يكون إلى حقويه. ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً».

قال: وأشار رسول الله بيده إلى فيه[1].

وفي صحيحي البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦]، قال: «يقوم أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه»[2].

وفي صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعاً، ويلجمهم حتى يبلغ آذانهم»[3].

٨- وعندما يرى الكفار العذاب والهوان الذي يصيبهم ويصيب أمثالهم من الكفرة المشركين يأخذهم الحسرة والندم، ولكثرة حسرة العذاب سمى الله ذلك اليوم بيوم الحسرة ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۘ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩].

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الجنة، باب في صفة القيامة (٤/ ٢١٩٦)، ورقمه: (٢٨٦٤).

(٢) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾ [المطففين: ٤]، فتح الباري، (١١/ ٣٩٢). ورواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب في صفة يوم القيامة، (٤/ ٢١٩٦)، ورقمه: ٢٨٦٢.

(٣) المصادر السابقة، والسياق للبخاري.

ولشدة تحسر الكافر وندمه على عدم اتباعه للرسول الذي بعثه إليه، واتباعه لأعداء الرسل، فإنه يعض على يديه ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا * يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩].

٩- وفي ذلك اليوم يوقن الكفار أن ذنبهم غير مغفور، وعذرهم غير مقبول، فييأسوا من رحمة الله ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [الروم: ١٢].

١٠- ويتمنى الكفار في ذلك اليوم أن يهلكهم الله، ويجعلهم تراباً ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ ﴾ [النساء: ٤٢]، ﴿ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴾ [النبأ: ٤٠]، فما بالك بأقوام كانت منياهم هي غاية المنى!!

المطلب الثاني

إحباط أعمالهم

أعمال الكفار قسمان: قسم هو طغيان وبغي وإفساد في الأرض ونحو ذلك، فهذه أعمال باطلة فاسدة لا يرجو أصحابها من ورائها خيراً، ولا يتوقعون عليها ثواباً.

وقد شبه القرآن هذه الأعمال بالظلمات التي يركب بعضها بعضاً: ﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا

فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

والقسم الثاني: أعمال يظنون أنها تغني عنهم من الله شيئاً، كالصدقة والعتاق وصلة الأرحام والإنفاق في سبل الخير، وقد ضرب الله في كتابه لهذا النوع من الأعمال أمثلة.

فشبهها في بعض المواضع بالسراب الذي يظنه رائيه ماء، ولكنه عندما يأتيه -وهو يؤمل أن يصل إليه فيروي غلته، ويذهب ظمأه- لا يجده شيئاً، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

وشبهها في موضع آخر بالرياح الشديدة الباردة تهب على الزروع والثمار فتدمرها ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١١٧].

والصر: البرد الشديد، وهذه الرياح الباردة هي الكفر والشرك التي تحرق أعمالهم الصالحة.

وشبهها في موضع ثالث بالرماد الذي جاءته ريح عاصف فذرّته في كل مكان، فكيف يستطيع صاحبه جمعه بعد تفرقه!! ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨].

ولذلك فإن الله يجعل أعمال الكفار هباء منثوراً ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وهذا الفريق الذي يظن أنه على خير يفاجأ يوم القيامة بأن عمله باطل ضائع، ومن هؤلاء عُباد اليهود والنصارى بعد البعثة النبوية، فإن فريقاً منهم يجهدون أنفسهم بالعبادة، وفعل الخيرات، ويظنون أن ذلك ينفعهم عند الله تبارك وتعالى، وكذلك الذين انتسبوا إلى الإسلام، ولكنهم أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً، وعبدوا غير الله، كل هؤلاء لا تنفعهم أعمالهم، ولا يقيم الله لهم يوم القيامة وزناً ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا * ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٦].

وقد سأل مصعب بن سعد أباه سعد بن أبي وقاص عن الأخسرين أعمالاً، فقال: «هم اليهود والنصارى، أما اليهود فكذبوا محمداً ﷺ، وأما النصارى فكفروا بالجنة، وقالوا: لا طعام فيها ولا شراب»[1].

وإنما كان اليهود والنصارى من الأخسرين أعمالاً، لأن كثيراً منهم يظنون أنفسهم على الحق، ويجتهدون في العبادة، وحقيقة الأمر أنهم خاسرون، لأنهم يكفرون برسول الله الخاتم، وكتابه المنزل، مع كفرهم بكثير مما أنزل إليهم من ربهم، وإيمانهم بالمحرف من دينهم.

فهذه الأعمال التي يظن الكفرة أنها نافعتهم في يوم الدين لا وزن لها ولا قيمة لها في ذلك اليوم لأنها قامت على غير أساس ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]. والأساس هو الإسلام، فما لم يكن المرء مسلماً موحداً فعمله مردود،

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة رقم: (١٨) فتح الباري: (٨/ ٤٢٥).

وسعيه موزور غير مشكور، روى مسلم في صحيحه عن عائشة قالت: يا رسول الله، ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم المسكين، فهل ذاك نافعه؟ قال: لا ينفعه، إنه لم يقل يوماً: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين»[1].

المطلب الثالث

تخاصم أهل النار

عندما يعاين الكفرة أعداء الله ما أعد لهم من العذاب، وما هم فيه من أهوال يمقتون أنفسهم كما يمقتون أحبابهم وخلانهم في الحياة الدنيا، بل تنقلب كل محبة لم تقم على أساس من الإيمان إلى عداء، قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، وفي ذلك اليوم يخاصم أهل النار بعضهم بعضاً، ويحاج بعضهم بعضاً، العابدون المعبودين، والأتباع السادة المتبوعين، والضعفاء المتكبرين، والإنسان قرينه، بل يخاصم الكافر أعضاءه.

١- **أما مخاصمة العابدين المعبودين**: ففي قوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ * وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ * فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ * قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ * تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الشعراء: ٩١-٩٩] إنهم يخاطبون آلهتهم التي كانوا يعبدونها، معترفين

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب أهون أهل الدنيا عذاباً، (١/ ١٩٦) ورقم الحديث: ٢١٤.

بضلالهم إذ كانوا يعبدونها، ويسوون بينها وبين الخالق، وقد خاب وخسر من رفع المخلوق إلى مرتبة الخالق، وكل من عبد من دون الله آلهة، فقد سوى بين الخالق والمخلوق، وهذا هو الظلم العظيم، كما قال لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣].

أما الصالحون الأخيار الذين عُبِدوا وهم لا يعلمون، أو عُبدوا بغير رضاهم كالملائكة وصالحي البشر، فإنهم يتبرؤون من عابديهم، ويكذبون زعم العابدين وافتراءهم، فإن الملائكة ما طلبت هذه العبادة، ولا رضيت بها، والذين طلبوها هم الجن، كي يضلوا البشر ويوبقوهم، فهؤلاء الضالون عبادون للجن لا للملائكة ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ * قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠-٤١].

وعيسى ابن مريم يتبرأ في يوم الدين من الذين اتخذوه إلهاً وعبدوه من دون الله ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ * مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ . . .﴾ [المائدة: ١١٦-١١٧].

هذا موقف جميع المعبودات التي لم ترض باتخاذها آلهة، تتبرأ من عابديها، وتكذبهم في دعواهم، وتقرُّ بعبوديتها لله ربها، ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ * وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ [النحل: ٨٦-٨٧].

وقال في موضع آخر: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ * فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ * هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [يونس: ٢٨-٣٠].

٢- وأما تخاصم الأتباع مع قادة الضلال من أصحاب الفكر، والنظريات الضالة، والمبادىء المناقضة للإسلام، فقد ذكرها الله في موضع آخر فقال: ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ * وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ * هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ * ۞ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ * وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ * بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ * وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ * قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ * فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ * فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ * فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ * إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الصافات: ١٩-٣٥].

وهذا المذكور في هذه الآيات هو تلاوم أهل النار في عرصات القيامة، فالأتباع يقولون لقادة الضلال: أنتم الذين كنتم تزينون لنا الباطل، وتغروننا بمخالفة الحق، كما قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، ولكن القادة ورجال الفكر والزعماء يرفضون هذا، ويقولون لهم: أنتم تتحملون نتيجة أعمالكم، فقد اخترتم الكفر، ولم يكن لنا من سلطان عليكم، إن طغيانكم واستكباركم هو الذي أوصلكم إلى هذه النهاية.

٣- أما مخاصمة الضعفاء للسادة من الملوك والأمراء وشيوخ العشائر الذين كانوا يتسلطون على العباد، ويشدُّ الضعفاء أزرهم، ويعينوهم على باطلهم بالنفس والمال فقد ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١].

ولندع الداعية المفسر الأستاذ سيد قطب رحمه الله، وأجزل له المثوبة يفسر لنا هذه الآيات الكريمة، ولنعش معه في الظلال.. ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا ..﴾ [إبراهيم: ٢١] الطغاة المكذبون، وأتباعهم من الضعفاء المستذلين.. ومعهم الشيطان.. ثم الذين آمنوا بالرسل وعملوا الصالحات.. برزوا (جميعاً) مكشوفين. وهم مكشوفون لله دائماً، ولكنهم الساعة يعلمون ويحسون أنهم مكشوفون لا يحجبهم حجاب، ولا يسترهم ساتر، ولا يقيهم واق.. برزوا وامتلأت الساحة ورفع الستار، وبدأ الحوار: ﴿ فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ﴾ والضعفاء هم الضعفاء. هم الذين تنازلوا عن أخص خصائص الإنسان الكريم على الله حين تنازلوا عن حريتهم الشخصية في التفكير والاعتقاد والاتجاه وجعلوا أنفسهم تبعاً للمستكبرين والطغاة. ودانوا لغير الله من عبيده واختاروها على الدينونة لله.

والضعف ليس عذراً، بل هو الجريمة فما يريد الله لأحد أن يكون ضعيفاً، وهو يدعو الناس كلهم إلى حماه يعتزون به والعزة لله. وما يريد الله لأحد أن ينزل طائعاً عن نصيبه في الحرية -التي هي ميزته ومناط تكريمه- أو أن ينزل كارهاً. والقوة المادية -كائنة ما كانت- لا تملك أن

تستبعد إنساناً يريد الحرية، ويستمسك بكرامته الآدمية. فقصارى ما تملكه تلك القوة أن تملك الجسد، تؤذيه وتعذبه وتكبله وتحبسه. أما الضمير. أما الروح. أما العقل. فلا يملك أحد حبسها ولا استذلالها، إلا أن يسلمها صاحبها للحبس والإذلال!

من ذا الذي يملك أن يجعل أولئك الضعفاء تبعاً للمستكبرين في العقيدة، وفي التفكير، وفي السلوك؟ من ذا الذي يملك أن يجعل أولئك الضعفاء يدينون لغير الله، والله هو خالقهم ورازقهم وكافلهم دون سواه؟ لا أحد. لا أحد إلا أنفسهم الضعيفة. فهم ضعفاء لا لأنهم أقل قوة مادية من الطغاة، ولا لأنهم أقل جاهاً أو مالاً أو منصباً أو مقاماً.. كلا، إن هذه كلها أعراض خارجية لا تعد بذاتها ضعفاً يلحق صفة الضعف بالضعفاء. إنما هم ضعفاء لأن الضعف في أرواحهم وفي قلوبهم وفي نخوتهم وفي اعتزازهم بأخص خصائص الإنسان!

إن المستضعفين كثرة، والطواغيت قلة. فمن ذا الذي يخضع الكثرة للقلة؟ وماذا الذي يخضعها؟ إنما يخضعها ضعف الروح، وسقوط الهمة، وقلة النخوة، والتنازل الداخلي عن الكرامة التي وهبها الله لبني الإنسان!

إن الطغاة لا يملكون أن يستذلوا الجماهير إلا برغبة هذه الجماهير. فهي دائماً قادرة على الوقوف لهم لو أرادت. فالإرادة هي التي تنقص هذه القطعان!

إن الذل لا ينشأ إلا عن قابلية للذل في نفوس الأذلاء..، وهذه القابلية هي وحدها التي يعتمد عليها الطغاة!! والأذلاء هنا على مسرح الآخرة في ضعفهم وتبعيتهم للذين استكبروا يسألونهم:

﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ [إبراهيم: ٢١].

وقد اتبعناكم فانتهينا إلى هذا المصير الأليم؟!

أم لعلهم وقد رأوا العذاب يهمون بتأنيب المستكبرين على قيادتهم لهم هذه القيادة، وتعريضهم إياهم للعذاب؟ إن السياق يحكي قولهم وعليه طابع الذلة على كل حال!.

ويرد الذين استكبروا على ذلك السؤال:

﴿ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ [إبراهيم: ٢١]. وهو رد يبدو فيه البرم والضيق:

﴿ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ﴾.

فعلام تلومونا ونحن وإياكم في طريق واحد إلى مصير واحد؟ إننا لم نهتد ونضلكم. ولو هدانا الله لقدناكم إلى الهدى معنا، كما قدناكم حين ضللنا إلى الضلال! وهم ينسبون هداهم وضلالهم إلى الله. فيعترفون الساعة بقدرته وكانوا من قبل ينكرونه وينكرونها، ويستطيلون على الضعفاء استطالة من لا يحسب حساباً لقدرة القاهر الجبار. وإنما يتهربون من تبعة الضلال والإضلال برجع الأمر لله.. والله لا يأمر بالضلال كما قال سبحانه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ [الأعراف: ٢٨].. ثم هم يؤنبون الضعفاء من طرف خفي، فيعلنوا لهم بأن لا جدوى من الجزع كما أنه لا فائدة من الصبر. فقد حق العذاب، ولا راد له من صبر أو جزع، وفات الأوان الذي كان الجزع فيه من العذاب يجدي فيرد الضالين إلى الهدى، وكان الصبر فيه على الشدة يجدي فتدركهم رحمه الله. لقد انتهى كل شيء،

ولم يعد هنالك مفر ولا محيص:

﴿ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١].

لقد قضي الأمر، وانتهى الجدل، وسكت الحوار.. وهنا نرى على المسرح عجباً.. نرى الشيطان.. هاتف الغواية، وحادي الغواة.. نراه الساعة يلبس مسوح الكهان، أو مسوح الشيطان! ويتشيطن على الضعفاء والمستكبرين سواء، بكلام ربما كان أقسى عليهم من العذاب:

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

الله! الله! أما إن الشيطان حقاً لشيطان! وإن شخصيته لتبدو هنا على أتمها كما بدت شخصية الضعفاء وشخصية المستكبرين في هذا الحوار..

إنه الشيطان الذي وسوس في الصدور، وأغرى بالعصيان، وزين الكفر، وصدهم عن استماع الدعوة..، هو هو الذي يقول لهم وهو يطعنهم طعنة أليمة نافذة، حيث لا يملكون أن يردوها عليه -وقد قضي الأمر- هو الذي يقول الآن، وبعد فوات الأوان:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

ثم يخزهم وخزة أخرى بتعييرهم بالاستجابة له، وليس له عليهم من سلطان، سوى أنهم تخلوا عن شخصياتهم، ونسوا ما بينهم وبين الشيطان من عداء قديم، فاستجابوا لدعوته الباطلة، وتركوا دعوة الحق من الله:

﴿ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

ثم يؤنبهم، ويدعوهم لتأنيب أنفسهم، يؤنبهم على أن أطاعوه!

﴿ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ﴾ [إبراهيم: ٢٢] !.

ثم يتخلى عنهم، وينفض يده منهم، وهو الذي وعدهم من قبل ومناهم، ووسوس لهم أن لا غالب لهم، فأما الساعة فما هو بملبيهم إذا صرخوا، كما أنهم لن ينجدوه إذا صرخ:

﴿ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وما بيننا من صلة ولا ولاء!

ثم يبرأ من إشراكهم به، ويكفر بهذا الإشراك:

﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

ثم ينهي خطبته الشيطانية بالقاصمة يصبها على أوليائه:

﴿ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

فيا للشيطان، ويالهم من وليهم الذي هتف بهم إلى الغواية فأطاعوه، ودعاهم الرسل إلى الله فكذبوهم وجحدوهم[1].

وفي موضع آخر يذكر الله تخاصم الضعفاء والسادة المستكبرين فيقول: ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ * قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴾ [المؤمن: ٤٧-٤٨].

وهذه الآيات الكريمة تأتي بعد الإخبار بما كان من استعلاء فرعون من

---

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٠٩٥.

تذبيحه الأطفال، ومحاولته قتل موسى، ومحاورته ذلك المؤمن الذي واجه فرعون ودحض حجته وباطله، وكيف وقف الشعب موقف التابع الذي ينفذ رغبات الطاغية، فيقوم أفراده بالتذبيح والإيذاء والمطاردة، هؤلاء الذين كانوا في الدنيا أعواناً للظلمة المجرمين يعلمون في يوم القيامة فداحة الجريمة التي وقعوا فيها، ويقولون للسادة أمثال فرعون: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [المؤمن: ٤٧]، ولكن السادة لا يملكون لأنفسهم شيئاً، ولا يستطيعون نصر أنفسهم فيقولون: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ [المؤمن: ٤٨].

وهذا الموقف يدلنا على الجواب الذي يمكننا أن نواجه به المقولة الباطلة التي يُرَدِّدُها بعض الظلمة حيث يقولون لأتباعهم: اتبعوني، وأنا أتحمل وزركم إن كان عليكم وزر، فإن تحملهم مثل أوزار الذين يضلونهم، لا يمنع العذاب عن الذين اتبعوهم ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ * وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٢-١٣].

وقال في موضع آخر محدثاً عن مخاصمة الضعفاء للمستكبرين: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣١-٣٣].

فالأتباع والضعفاء يتهمون سادتهم وزعمائهم قائلين لهم: أنتم الذين حلتم بيننا وبين الإيمان، فلولاكم لكنا من الذين اتبعوا ما أنزل إلينا من ربنا، ولكن المستكبرين يرفضون هذه التهمة، ويقولون لهم: أنتم المجرمون، كل ما في الأمر أننا دعوناكم فاستجبتم لنا، ولم يكن لنا عليكم من سلطان، فتقول الشعوب المستضعفة الضالة: بل مكركم بنا في الليل والنهار أضلنا وحرفنا عن جادة الصواب، فالمؤامرات والمؤتمرات، ووسائل الإعلان في مختلف العصور التي تصور الحق باطلاً، والباطل حقاً، وما كان يلقيه الزعماء من شبهات ومزاعم باطلة، كل ذلك أضلنا وجعلنا نكفر بالله، ونشرك به، والحق أن الجميع خاطئون، وهم غير معذورين في ضلالهم وكفرهم.

ويصف الحق هذا التخاصم بين أهل النار عند دخولهم النار فيقول: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ * هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ * وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ * هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ * قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ * قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ * وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ * أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ * إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٥٥-٦٤].

فهؤلاء الذين كان بعضهم يُرحِّب ببعض في الحياة الدنيا، ويوقِّر بعضهم بعضاً، يتحول حالهم في ذلك اليوم فيقول بعضهم لبعض: ﴿لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ * قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ﴾ [ص: ٥٩-٦٠] ويتمنى كل فريق على الله أن يزيد من كانوا أحبابه في الدنيا من العذاب والآلام، إن هذا التخاصم بين أهل النار حق كائن لا شك في ذلك، كذلك يقول

ربنا تبارك وتعالى.

٤- ويقع الخصام في ذلك اليوم بين الكافر وقرينه الشيطان، قال تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ * أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ * ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ * قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ * قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ * مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٣-٢٩].

٥- ويبلغ الأمر أشده والمخاصمة ذروتها عندما يخاصم المرء أعضاءه: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصلت: ١٩-٢١].

وهذا يكون من الكفار عندما يعاينون العذاب الشديد الذي أعده الله لهم، فيلجؤون إلى التكذيب والإنكار، ويزعمون أنهم كانوا صالحين، ويكذبون بشهادة الملائكة والمرسلين والصالحين الذين يشهدون عليهم، فعند ذلك يختم الله على أفواههم وتنطق أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، فعند ذلك يقولون لأعضائهم: «بعداً لكنَّ وسحقاً، عنكن كنت أجادل»[1].

أخرج مسلم والترمذي وابن مردويه والبيهقي عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «يلقى العبد ربه، فيقول الله: ألم أكرمك وأسودك وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع فيقول: بلى أي رب، فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا،

(١) هذا جزء من حديث رواه مسلم وغيره، انظر تفسير ابن كثير: (٦/١٦٨).

فيقال: إني أنساك كما نسيتني، ثم يلقى الثاني، فيقول له مثل ذلك، ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك، فيقول: آمنت بك وبكتابك وبرسولك، وصليت وصمت وتصدقت، ويثني بخير ما استطاع، فيقول: ألا نبعث شاهدنا عليك، فيفكر في نفسه من الذي يشهد علي؟ فيختم على فيه، ويقال لفخذه انطقي، فتنطق فخذه وفمه وعظامه بعمله ما كان، وذلك ليعذر من نفسه، وذلك المنافق، وذلك الذي يسخط عليه»[1].

وإن هذا الحوار الذي يجري بين العبد وجوارحه موضع عجب واستغراب، وقد أضحك هذا الموقف الرسول ﷺ، ففي الحديث الذي يرويه مسلم عن أنس بن مالك قال: كنا عند رسول الله ﷺ فضحك.

فقال: «هل تدرون مم أضحك؟ قال: قلنا: الله ورسوله أعلم.

قال: من مخاطبة العبد ربه. يقول: يا رب ألم تجرني من الظلم؟

قال: يقول: بلى.

قال: فيقول: إني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني.

قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهوداً، ثم يختم على فيه، فيقال لأركانه: انطقي، قال: فتنطق بأعماله.

قال: ثم يخلى بينه وبين الكلام.

قال: فيقول: بعداً لَكنَّ وسحقاً، فعنكن كنت أناضل»[2].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه: (٤/ ٢٢٨٠) ورقمه: ٢٩٦٩.

(٢) رواه مسلم في صحيحه: (٤/ ٢٢٨٠) ورقمه: ٢٩٦٩.

٦- ويخاصم البدن في يوم القيامة الروح:

قال ابن كثير: «وقد روى ابن منده في كتاب (الروح) عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: يختصم الناس يوم القيامة حتى تختصم الروح مع الجسد، فتقول الروح للجسد: أنت فعلت. ويقول الجسد للروح: أنت أمرت، وأنت سولت.

فيبعث الله ملكاً يفصل بينهما، فيقول لهما:

إن مثلكما كمثل رجل مقعد بصير، والآخر ضرير دخلا بستاناً. فقال المقعد للضرير: إني أرى ها هنا ثماراً، ولكن لا أصل إليها.

فقال له الضرير: اركبني فتناولها. فركبه فتناولها. فأيهما المعتدي؟

فيقولان: كلاهما.

فيقول لهما الملك: فإنكما قد حكمتما على أنفسكما. يعني أن الجسد للروح كالمطية، وهو راكبه»[1].

٧- وفي ذلك الموقف يمقتون أنفسهم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴾ [المؤمن: ١٠]، كما يمقتون كل الذين كانوا لهم أنصاراً وخلاناً في الدنيا، ويدعون عليهم، ويطلبون لهم المزيد من العذاب ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ * وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ * رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٦٦-٦٨]، ولشدة حنقهم على من أضلهم يسألون الله أن يريهم

---

(١) تفسير ابن كثير: (٦/ ٩٢).

الذين أضلوهم ليدوسوهم بأقدامهم ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ [فصلت: ٢٩]، وعندما يدخلون النار ترتفع أصواتهم بلعن بعضهم بعضاً، ثم يتمنى بعضهم لبعض مزيداً من العذاب ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ [الأعراف: ٣٨].

المبحث الثاني
حال عصاة المؤمنين

بعض المؤمنين قد يكون قارف في الدنيا ذنوباً توقعه في أهوال ومشقات وصعاب، وسنعرض في هذا المبحث لذكر بعض العصاة وما يصيبهم في ذلك اليوم من البلاء.

المطلب الأول

الذين لا يؤدون الزكاة

من حقوق الله الكبرى الزكاة، وهي حق المال، والذين لا يؤدون زكاة أموالهم يعذبون بهذه الأموال في الموقف العظيم، وقد أخبرت النصوص أن عذابهم بها على وجوه:

الأول: أن يمثل لصاحب المال ماله شجاعاً أقرع، له زبيبتان، فيطوق عنقه، ويأخذ بلهزمتي صاحبه، قائلاً له: أنا مالك، أنا كنزك، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته، مثل ماله يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان، يطوقه يوم القيامة، ثم يأخذ بلهزمتيه: يعني بشدقيه، ثم يقول: أنا مالك، أنا كنزك. ثم تلا: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠]»[1].

(١) البخاري. كتاب الزكاة. باب إثم مانع الزكاة. ورقمه: ١٤٠٣. ورواه مسلم: ٩٨٧ مطولاً.

والشجاع الأقرع: الحية الذكر المتمعط شعر رأسه لكثر سمه، والزبيبتان نقطتان سودوان فوق عيني الحية.

الثاني: أن يؤتى بالمال نفسه الذي منع زكاته، فإن كان من الذهب والفضة جعل صفائح من نار، ثم عذب به صاحبه، وإن كان المال حيواناً. إبلاً أو بقراً أو غنماً، أرسل على صاحبه فعذب به، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤-٣٥].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي فيها حقها، إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار، فأحمي عليها في نار جهنم، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره، كلما بردت أعيدت عليه، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله، إما إلى الجنة وإما إلى النار».

قيل: يا رسول الله، فالإبل؟ قال: «ولا صاحب إبل لا يؤدي منها حقها، ومن حقها حَلبُها يوم وردها، إلا إذا كان يوم القيامة، بطح لها بقاع قرقر[1]، أوفر ما كانت، لا يفقد منها فصيلاً واحداً، تطؤه بأخفافها وتعضه بأفواهها، كلما مر عليه أولاها رد عليه أخراها[2]، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة، وإما إلى النار».

---

(١) بطح لها بقاع قرقر: بسط لها ومد لها بأرض مستوية.

(٢) قال النووي في «شرح مسلم»: قوله ﷺ: «كلما مر عليه أولاها ردّ عليه أخراها» هكذا هو في جميع الأصول في هذا الموضع. قال القاضي عياض: قالوا: هو تغيير وتصحيف، وصوابه ما جاء بعده في الحديث الآخر من رواية سهيل عن أبيه، وما جاء في خديث المعرور بن سويد عن أبي ذر: «كلما مر عليه أخراها رد عليه أولاها» وبهذا ينتظم الكلام.

قيل: يا رسول الله، فالبقر والغنم؟ قال: «ولا صاحب بقر ولا غنم لا يؤدي فيها حقها، إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر، لا يفقد منها شيئاً، ليس فيها عقصاء ولا جلحاء ولا عضباء[1]، تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها، كلما مر عليه أولاها رد عليه أخراها[2]، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى الله بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار»[3].

المطلب الثاني

المتكبرون

الكبر جريمة كبرى في حكم الله وشرعه، والله يبغض أصحابها أشد البغض، وعندما يبعث الله العباد يحشر المتكبرون في صورة مهينة ذليلة، ففي الحديث الذي يرويه الترمذي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «يحشر المتكبرون أمثال الذر يوم القيامة، في صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان»[4].

والذر صغار النمل، وصغار النمل لا يعبأ به الناس، فيطؤونه بأرجلهم وهم لا يشعرون.

---

(١) العقصاء: الملتوية القرون، والجلحاء: التي لا قرون لها. والعضباء: التي انكسر قرنها الداخل.

(٢) انظر التعليق (٢) في الصفحة السابقة.

(٣) رواه مسلم في صحيحه، في كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة، (٢/ ٦٨٠) ورقمه: ٩٨٧، والحديث في الصحاح والسنن عن أكثر من صحابي، راجع جامع الأصول: ٤/ ٥٥٤.

(٤) مشكاة المصابيح: (٢/ ٦٣٥) ورقمه: ٥١١٢، وإسناده حسن كما قال محقق المشكاة.

وكما يبغض الله المتكبرين يبغض أسماءهم التي كانوا يطلقونها على أنفسهم استكباراً واستعلاءً، وتصبح هذه الأسماء التي كانوا يفرحون عند سماعها أنكر الأسماء وأخبثها، وأغيظها على الله.

روى البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أخنع اسم عند الله يوم القيامة، رجل تسمى ملك الأملاك» وزاد مسلم في رواية «لا مالك إلا الله عز وجل».

ورواه مسلم وأحمد عن أبي هريرة بلفظ: «أغيظ رجل على الله يوم القيامة، وأخبثه، وأغيظه عليه، رجل كان يسمى ملك الأملاك، لا ملك إلا الله»[1].

قال القاضي عياض: أخنع: معناه أشد الأسماء صغاراً، وقال ابن بطال: وإذا كان الاسم أذل الأسماء، كان من تسمى به أشد ذلاً[2].

المطلب الثالث

ذنوب لا يكلم الله أصحابها ولا يزكيهم

وردت نصوص كثيرة ترهب من ذنوب توعد الله من ارتكبها بأن لا يكلمه في يوم القيامة ولا يزكيه، وله عذاب أليم.

فمن هؤلاء الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب، وهم الأحبار

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٢/ ٦١٩)، ورقمه: ٩١٤.

(٢) فتح الباري: (١٠/ ٥٨٩).

والرهبان والعلماء الذين يكتمون ما عندهم من العلم إرضاءً لحاكم، أو تحقيقاً لمصلحة، أو طلباً لعرض دنيوي، ككتمان الأحبار والرهبان ما يعرفونه من كتبهم من صفات الرسول ﷺ، وإنكارهم لنبوته، مع أنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم.

وقد قال الله في هؤلاء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٤-١٧٥].

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة: ١٧٤]. «وذلك لأنه تعالى غضبان عليهم، لأنهم كتموا وقد علموا، فاستحقوا الغضب، فلا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، أي لا يثني عليهم ولا يمدحهم، بل يعذبهم عذاباً أليماً»[1].

وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار» رواه أبو داود والترمذي وحسنه، وابن ماجة، وابن حبان في صحيحه، والبيهقي، ورواه الحاكم بنحوه. وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

وفي رواية لابن ماجه قال: «ما من رجل يحفظ علماً فيكتمه إلا أتى يوم القيامة ملجوماً بلجام من نار»[2].

---

(١) تفسير ابن كثير: (١/ ٣٦٣).

(٢) الترغيب والترهيب للحافظ المنذري: (١/ ٩٧).

ومن الذين يغضب الله عليهم يوم القيامة، فلا يكلمهم ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم الذين ينقضون ما عاهدوا الله عليه، ويشترون بأيمانهم ثمناً قليلاً، فيحلفون الأيمان الكاذبة تحقيقاً لكسب دنيوي تافه، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧].

وقد ساق ابن كثير أحاديث كثيرة تتعلق بهذه الآية:

منها الحديث الذي رواه مسلم وأهل السنن وأحمد عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم».

قلت: يا رسول الله، من هم؟ خسروا وخابوا.

قال: وأعاده رسول الله ثلاث مرات.

قال: (المسبل، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب، والمنان).

ومنها ما رواه البخاري ومسلم عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من حلف على يمين وهو فيها فاجر ليقتطع بها مال امرىء مسلم، لقي الله -عز وجل- وهو عليه غضبان».

ومنها ما رواه البخاري عن عبد الله بن أبي أوفى أن رجلاً أقام سلعة له في السوق، فحلف بالله لقد أعطي فيها ما لم يعطه، ليوقع فيها رجلاً من المسلمين، فنزلت هذه الآية: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: ٧٧].

ومنها ما رواه أحمد وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: رجل منع ابن السبيل فضل ماء عنده، ورجل حلف على سلعته بعد العصر، يعني كاذباً، ورجل بايع إماماً، فإن أعطاه وفى له، وإن لم يعطه لم يف له» وقال الترمذي: حديث حسن صحيح[1].

وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم: رجل حلف على سلعته: لقد أعطي بها أكثر مما أعطى وهو كاذب، ورجل حلف على يمين كاذبة بعد العصر ليقتطع بها مال امرىء مسلم، ورجل منع فضل ماء، فيقول الله يوم القيامة: اليوم أمنعك فضلي، كما منعت فضل ما لم تعمل يداك»[2].

ومن الذنوب التي توعد الله عليها بعدم تكليم صاحبها، وعدم نظره إليه، وترك تزكيته، غير ما تقدم، الشيخ الزاني، والملك الكذاب، والعائل (أي الفقير) المستكبر، والعاق لوالديه، والمرأة المتشبهة بالرجال، والديوث، ومن أتى امرأته في دبرها، ومن جر ثوبه خيلاء.

ففي صحيح مسلم وسنن النسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولا ينظر إليهم، ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر»[3].

---

(١) انظر هذه الأحاديث في تفسير ابن كثير: (٢/ ٦٠).

(٢) صحيح البخاري، كتاب التوحيد. باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢] فتح الباري: (١٣/ ٤١٩).

(٣) صحيح الجامع الصغير: (٣/ ٧٣)، ورقمه: ٣٠٦٤.

وفي مسند أحمد وسنن النسائي، ومستدرك الحاكم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه، والمرأة المترجلة المتشبهة بالرجال، والديوث»[1].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الذي يأتي امرأته في دبرها لا ينظر الله إليه» رواه في «شرح السنة»[2].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر ثوبه بطراً»[3].

وفيهما أيضاً عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «من جَرَّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة»[4].

وعن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «الإسبال في الإزار والقميص والعمامة، من جر منها شيئاً تخيلاً لم ينظر الله إليه يوم القيامة» رواه أبو داود والنسائي وابن ماجة[5].

---

(١) صحيح الجامع الصغير: (٣/ ٧٤)، ورقمه: ٣٠٦٦.

(٢) مشكاة المصابيح: (٢/ ١٨٤) ورقم الحديث: (٣١٩٤)، وقال فيه محقق المشكاة: ورواه النسائي في (الكبرى)، وهو حديث صحيح.

(٣) مشكاة المصابيح: (٢/ ٤٧٢) ورقمه: ٤٣١١.

(٤) مشكاة المصابيح: (٢/ ٤٧٢) ورقمه ٤٣١٢.

(٥) وإسناده صحيح كما قال محقق مشكاة المصابيح: (٢/ ٤٧٤) ورقم الحديث: (٤٣٣٢).

المطلب الرابع

الأثرياء المنعمون

الذين يركنون إلى الدنيا، ويطمئنون إليها، ويكثرون من التمتع بنعيمها، يُضيّق عليهم في يوم القيامة، فقد أخبر الرسول ﷺ أن الذي يكثر شبعه في الدنيا، يطول جوعه يوم القيامة، ففي سنن الترمذي وسنن ابن ماجة ومستدرك الحاكم أن الرسول ﷺ قال لأحد أصحابه: «كف عنا جشاءك، فإن أكثرهم شبعاً في الدنيا أطولهم جوعاً يوم القيامة»[(١)]. كما أخبر أن أصحاب المال الكثير والمتاع الدنيوي الواسع يكونون أقل الناس أجراً في يوم القيامة، ما لم يكونوا قد بذلوا أموالهم في سبل الخيرات، ففي الصحيحين عن أبي ذر قال: «إن المكثرين هم المقلون يوم القيامة، إلا من أعطاه الله تعالى خيراً، فنفح فيه بيمينه وشماله، وبين يديه وورائه، وعمل فيه خيراً»[(٢)].

وقلة الحسنات تؤخرهم، وتجعل الآخرين يتقدمونهم، بعدما كانوا في الدنيا مقدمين، ففي سنن ابن ماجة عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «الأكثرون هم الأسفلون يوم القيامة، إلا من قال بالمال هكذا، وهكذا، وكسبه طيب»[(٣)].

وأخبرنا الرسول ﷺ أن الذين أثقلوا أنفسهم بالنعيم الدنيوي، والغنى

---

(١) ساق الشيخ ناصر الدين الألباني طرق الحديث في سلسلة الأحاديث الصحيحة، ورقم الحديث: (٣٤٣).

(٢) صحيح الجامع الصغير: (٢/ ١٦٥)، ورقمه: (١٩٥٠).

(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٤/ ٣٦٤)، ورقمه: ١٧٦٦.

والثراء لا يستطيعون أن يتجاوزوا في يوم القيامة العقبات والأهوال، ففي شعب الإيمان عن أم الدرداء قالت: قلت لأبي الدرداء: مالك لا تطلب كما يطلب فلان؟ فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أمامكم عقبة كؤوداً لا يجوزها المثقلون»[1].

المطلب الخامس

فضيحة الغادر

عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: « إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يرفع لكل غادر لواء، فقيل: هذه غدرة فلان ابن فلان » رواه مسلم[2].

والغادر: الذي يواعد على أمر، ولا يفي به، واللواء: الراية العظيمة، لا يمسكها إلا صاحب جيش الحرب، أو صاحب دعوة الجيش، ويكون الناس تبعاً له[3]. فالغادر ترفع له راية تسجل عليها غدرته، فيفضح بذلك يوم القيامة، وتجعل هذه الراية عند مؤخرته، ففي صحيح مسلم عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل غادر لواء عند استه يوم القيامة»[4].

---

(١) مشكاة المصابيح: (٢/٦٠٧) ورقمه: (٥٢٠٤). وعزاه في صحيح الجامع إلى الحاكم أيضاً انظر: صحيح الجامع (٢/١٧٨) ورقمه: ١٩٩٧.

(٢) صحيح مسلم، (٣/١٣٥٩) ورقمه: ١٧٣٥، والحديث رواه البخاري وأبو داود والترمذي وغيرهم.

(٣) شرح النووي على مسلم: (١١/٤٢).

(٤) صحيح مسلم: (٣/١٣٦١)، ورقم الحديث: ١٧٣٨.

وكلما كانت الغدرة كبيرة عظيمة كلما ارتفعت الراية التي يفضح بها في يوم الموقف العظيم، ففي صحيح مسلم عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل غادر لواء يوم القيامة يرفع له بقدر غدره، ألا ولا غادر أعظم غدراً من أمير عامة»[1]، وأمير العامة هو الحاكم أو الخليفة، وكانت غدرته كذلك لأن ضرره يتعدى إلى خلق كثير، ولأن الحاكم أو الوالي يملك القوة والسلطان فلا حاجة به إلى الغدر.

وقد جعل الله العقاب بهذا اللون من العقوبة على طريقة ما يعهده البشر ويفهمونه ألا ترى قول شاعرهم:

أسمي ويحك هل سمعت بغدرة رفع اللواء لنا بها في المجمع

فكانت العرب ترفع للغادر لواء في المحافل ومواسم الحج، وكذلك يطاف بالجاني مع جنايته[2].

المطلب السادس

الغلول

الغلول هو الأخذ من الغنيمة على وجه الخفية، وهو ذنب يخفي تحته شيئاً من الطمع والأثرة، وقد توعد الله تبارك وتعالى الغال بفضحه يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، وذلك لتحميله ما غله في ذلك اليوم ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦١].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) التذكرة للقرطبي: ٢٩٧.

يقول القرطبي في تفسير هذه الآية: «أي يأتي به حاملاً له على ظهره وعلى رقبته، معذباً بحمله وثقله، ومرعوباً بصوته، وموبخاً بإظهار خيانته على رؤوس الأشهاد»[1].

ومن الغلول غلول الحكام والموظفين والعمال والولاة من الأموال العامة، وقد وضح الرسول ﷺ كيف يحمل الغالون يوم القيامة ما غلوه في أكثر من حديث، فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قام فينا رسول الله ﷺ ذات يوم، فذكر الغلول فعظمه، وعظم أمره، ثم قال: «لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء، يقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئاً، قد أبلغتك.

لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس له حمحمة، فيقول: يا رسول الله، فأقول: لا أملك لك شيئاً، قد أبلغتك.

لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء، يقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك.

لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته نفس لها صياح، فيقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئاً، قد أبلغتك.

لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رأسه رقاع تخفق، فيقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئاً، قد أبلغتك.

لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت[2]، فيقول:

---

(١) تفسير القرطبي: (٤/٢٥٦).

(٢) الصامت: الذهب والفضة.

يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئاً، قد أبلغتك» متفق عليه، وهذا لفظ مسلم، وهو أتم[1].

وأخرج الطبراني في «معجمه الكبير»، والبيهقي في «السنن» والحميدي في مسنده أن الرسول ﷺ استعمل عبادة بن الصامت على الصدقة، ثم قال له: «اتق الله يا أبا الوليد أن تأتي يوم القيامة ببعير تحمله على رقبتك، له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة لها ثؤاج»[2].

وقد ساق ابن كثير في تفسيره الأحاديث المرهبة من الغلول، ومنها أحاديث غلول العمال من الصدقات، وساق حديث أبي حميد الساعدي قال: «استعمل رسول الله ﷺ رجلاً من الأزد يقال له ابن اللتبية على الصدقة، فجاء فقال: هذا لكم وهذا أهدي لي.

فقام رسول الله ﷺ على المنبر، فقال: «ما بال العامل نبعثه على عمل، فيقول: هذا لكم، وهذا لي، أفلا جلس في بيت أبيه وأمه، فينظر أيهدى إليه أم لا؟ والذي نفس محمد بيده لا يأتي أحدكم منها بشيء إلا جاء به يوم القيامة على رقبته، إن كان بعيراً له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر» رواه البخاري ومسلم[3].

---

(١) مشكاة المصابيح: (٢/ ٤٠١). ورقم الحديث: ٣٩٩٥.

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٢/ ٥٣٧)، ورقمه: (٨٥٧). والحديث صحيح.

(٣) تفسير ابن كثير: (٢/ ١٤٥).

المطلب السابع

غاصب الأرض

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «من أخذ من الأرض شيئاً بغير حقه خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين»[1].

المطلب الثامن

ذو الوجهين

شر الناس يوم القيامة المتلون الذي لا يثبت على حال واحدة وموقف واحد، فيأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه، روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تجدون شرَّ الناس يوم القيامة ذا الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه»[2].

ورد في بعض الأحاديث أن هذا الصنف من الناس يكون له لسان من نار يوم القيامة، فقد أخرج أبو داود واللفظ له، والبخاري في الأدب المفرد، والدارمي، وأبو يعلى وغيرهم عن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان له وجهان في الدنيا كان له لسان من نار يوم القيامة»[3].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب إثم من ظلم شيئاً من الأرض، فتح الباري: (٥/ ١٠٣).

(٢) مشكاة المصابيح: (٢/ ٥٧٨)، ورقمه: ٤٨٢٠.

(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٢/ ٥٨٤)، ورقمه: (٨٩٢).

المطلب التاسع

الحاكم الذي يحتجب عن رعيته

روى أبو داود وابن ماجه والحاكم بإسناد صحيح عن أبي مريم الأزدي قال: قال رسول الله ﷺ: «من ولي من أمور المسلمين شيئاً، فاحتجب دون خلتهم، وحاجتهم، وفقرهم، وفاقتهم، احتجب الله عنه يوم القيامة، دون خلته، وحاجته، وفاقته، وفقره»[1].

المطلب العاشر

الذي يسأل وله ما يغنيه

يبعث الذي كان يسأل الناس وله ما يغنيه، وفي وجهه خموش أو كدوش، فقد أخرج أبو داود والنسائي والترمذي والدارمي وغيرهم عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من سأل وله ما يغنيه، جاءت مسألته يوم القيامة خدوشاً أو خموشاً أو كدوحاً في وجهه.

قيل: يا رسول الله، وما يغنيه؟

قال: خمسون درهماً، أو قيمتها من الذهب»[2].

وفي مسند الإمام أحمد عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «مسألة الغنى شين في وجهه يوم القيامة»[3].

---

(١) صحيح الجامع الصغير: (٥/٣٦٨)، ورقم الحديث: ٦٤٧١.

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة: ورقم الحديث: (٤٩٩).

(٣) صحيح الجامع الصغير: (٥/٢٠٨) ورقمه: ٥٧٤٧، وقال المحقق فيه: صحيح.

المطلب الحادي عشر

البصاق تجاه القبلة

جهة القبلة محترمة مقدسة، ولذا فقد جاءت الأحاديث ناهية عن استقبال القبلة واستدبارها حال البول والغائط.

ومما نهى عنه الرسول ﷺ البصاق تجاه القبلة، وأخبرنا أن الذي يتنخم تجاه القبلة يأتي يوم القيامة ونخامته في وجهه، فقد روى البزار في مسنده، وابن حبان، وابن خزيمة في صحيحيهما عن ابن عمر قال: «تبعث النخامة في القبلة يوم القيامة، وهي في وجه صاحبها»[1].

وروى أبو داود في «سننه» وابن حبان في «صحيحه» عن حذيفة بن اليمان عن رسول الله ﷺ قال: «من تفل تجاه القبلة جاء يوم القيامة وتفله بين عينيه»، وإسناده صحيح[2].

---

(١) صحيح الجامع الصغير: (٣/ ٣٣) ورقمه: ٢٩٠٧، وقال الشيخ ناصر فيه: صحيح، وانظر كلام الشيخ ناصر الدين الألباني على الحديث في (سلسلة الأحاديث الصحيحة) حديث رقم: ٢٢٣.

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة، ورقم الحديث: ٢٢٢.

المطلب الثاني عشر

من كذب في حلمه

يعاقب الذي يكذب في حلمه يوم القيامة بأن يكلف بأن يعقد بين شعيرتين، والذي يستمع إلى قوم وهم كارهون يعاقب بأن يصب الآنك في أذنيه يوم القيامة، والآنك الرصاص.

روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «من تحلم بحلم لم يره كُلِّف أن يعقد بين شعيرتين، ولن يفعل، ومن استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون، أو يفرون منه، صب في أذنه الآنك يوم القيامة»[1].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب تعبير الرؤيا، باب من كذب في حلمه، فتح الباري: (١٢/ ٤٢٧).

المبحث الثالث
حال الأتقياء

المطلب الأول

يفزع الناس يوم القيامة ولا يفزعون

صنف من عباد الله لا يفزعون عندما يفزع الناس، ولا يحزنون عندما يحزن الناس، أولئك هم أولياء الرحمن الذين آمنوا بالله، وعملوا بطاعة الله استعداداً لذلك اليوم، فيؤمنهم الله في ذلك اليوم، وعندما يبعثون من القبور تستقبلهم ملائكة الرحمن تهدىء من روعهم، وتطمئن قلوبهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ * لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١-١٠٣] والفزع الأكبر، هو ما يصيب العباد عندما يبعثون من القبور، ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

ففي ذلك اليوم ينادي منادي الرحمن أولياء الرحمن مطمئناً لهم ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ [الزخرف: ٦٨-٦٩]. وقال في موضع آخر: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ * لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤].

والسر في هذا الأمن الذي يشمل الله به عباده الأتقياء، أن قلوبهم كانت في الدنيا عامرة بمخافة الله، فأقاموا ليلهم، وأظمؤوا نهارهم، واستعدوا ليوم الوقوف بين يدي الله، فقد حكى عنهم ربهم أنهم كانوا يقولون: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٠]، ومن كان حاله كذلك فإن الله يقيه من شر ذلك اليوم ويؤمنه، ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا * وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١١-١٢].

وفي الحديث الذي يرويه أبو نعيم في الحلية عن شداد بن أوس أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله عز وجل: وعزتي وجلالي، لا أجمع لعبدي أمنين ولا خوفين، إن هو أمنني في الدنيا أخفته يوم أجمع فيه عبادي، وإن هو خافني في الدنيا أمنته يوم أجمع فيه عبادي»[1].

وكلما كان العبد أكثر إخلاصاً لربه تبارك وتعالى كان أكثر أمناً في يوم القيامة، فالموحدون الذين لم يلبسوا إيمانهم بشيء من الشرك، لهم الأمن التام يوم القيامة، يدلك على هذا جواب إبراهيم لقومه عندما خوفوه بأصنامهم، فأجابهم قائلاً: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ ۖ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨١-٨٢].

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٢/ ٣٧٧)، ورقمه: ٧٤٢، وإسناده حسن.

المطلب الثاني

الذين يظلهم الله في ظله

عندما يكون الناس في الموقف العظيم تحت وهج الشمس القاسي، يذوقون من البلاء شيئاً تنوء بحمله الجبال الشم الراسيات -يكون فريق من الأخيار هانئين في ظل عرش الرحمن، لا يعانون الكربات التي يقاسي منها الآخرون.

وهؤلاء هم أصحاب الهمم العالية، والعزائم الصادقة، الذين تمثلت فيهم عقيدة الإسلام، وقيمه الفاضلة، أو قاموا بأعمال جليلة، لها في مقياس الإسلام وزن كبير.

فمن هؤلاء: الإمام العادل، الذي يملك القوة والسلطان، ولكنه لم يطغ، وأقام العدل بين العباد وفق سلطان الشرع الإلهي.

ومنهم الشاب الذي نشأ في عبادة ربه، وألجم نفسه بلجام التقوى، وردع النفس والهوى، فعاش عمره طاهراً نقياً.

ومنهم الذين يعمرون مساجد الله، يجدون في رحابها الأنس بالله ومناجاته، فلا يكادون يفارقونها حتى يحنوا إلى رحابها.

ومن هؤلاء المتحابون في الله تبارك وتعالى، تجمعهم رابطة الأخوة فيه، ويجتمعون على البر والتقوى والصلاح، ويتفرقون على عمل صالح.

ومنهم الذين تعرض لهم فتنة النساء، فيحول خوف الله بينهم وبين الوقوع في الفاحشة.

ومنهم المنفق الذي يخلص دينه لله، فيخفي الصدقة حتى عن نفسه.

ومنهم الذي تملأ مخافة الله قلبه، فتفيض عيناه من أجل ذلك وهو وحيد ليس معه أحد.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة ربه، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه»[1].

وقد جاءت نصوص كثيرة تدل على إظلال الله للمتحابين فيه في ظل العرش في ذلك اليوم منها حديث أبي هريرة عند مسلم، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي، اليوم أظلهم في ظلي، يوم لا ظل إلا ظلي»[2].

وفي معجم الطبراني الكبير ومسند أحمد، وصحيح ابن حبان، ومستدرك الحاكم، عن معاذ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المتحابين في الله في ظل العرش»[3]. وفي كتاب «الإخوان» لابن أبي الدنيا بإسناد صحيح عن عبادة ابن الصامت، عن رسول الله ﷺ قال: قال الله تعالى: «حقت محبتي على المتحابين، أظلهم في ظل العرش يوم لا ظل إلا ظلي»[4].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد، فتح الباري: (٢/ ١٤٣). ورواه مسلم: (٢/ ٧١٥)، ورقمه: (١٠٣١) والسياق للبخاري.

(٢) رواه مسلم: (٤/ ١٩٨٨)، ورقمه: ٢٥٦٦.

(٣) صحيح الجامع الصغير: (٢/ ١٦١) ورقمه: ١٩٣٣.

(٤) صحيح الجامع الصغير: (٤/ ١١٦).

والإظلال في ظل العرش ليس مقصوراً على السبعة المذكورين في الحديث، فقد جاءت نصوص كثيرة تدل على أن الله يظل غيرهم، وقد جمع ابن حجر العسقلاني الخصال التي يظل الله أصحابها في كتاب سماه: «معرفة الخصال الموصلة إلى الظلال»[1].

ومن هذه الخصال إنظار المعسر أو الوضع عنه، ففي صحيح مسلم ومسند أحمد عن أبي اليسر عن رسول الله ﷺ قال: «من أنظر معسراً أو وضع عنه، أظله الله في ظله»[2].

وفي مسند أحمد وسنن الدارمي بإسناد صحيح عن أبي قتادة عن رسول الله ﷺ قال: «من نفس عن غريمه أو محا عنه، كان في ظل العرش يوم القيامة»[3].

المطلب الثالث

الذين يسعون في حاجة إخوانهم ويسدون خلتهم

من أعظم ما يفرج كربات العبد في يوم القيامة سعي العبد في الدنيا في فك كربات المكروبين، ومساعدة المحتاجين، والتيسير على المعسرين، وإقالة عثرات الزالين، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفس

---

(١) فتح الباري: (٢/ ١٤٤).

(٢) صحيح مسلم: (٤/ ٢٣٠٢)، ورقمه: ٣٠٠٦.

(٣) صحيح الجامع الصغير: (٤/ ٣٦٤)، ورقمه: ١٤٥٢.

الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومنم يسر على معسر، يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»[1].

وروى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه، كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة، فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة»[2].

وروى الدينوري في «المجالسة»، والبيهقي في «الشعب» والضياء في «المختارة» عن أنس أن النبي ﷺ قال: «من نصر أخاه بظهر الغيب نصره الله في الدنيا والآخرة»[3].

المطلب الرابع

الذين ييسرون على المعسرين

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «كان رجل يداين الناس، فكان يقول لفتاه: إذا أتيت معسراً تجاوز عنه، لعل الله أن يتجاوز عنا، قال: فلقي الله فتجاوز عنه»[4].

---

(١) مشكاة المصابيح: (١/ ٧١) ورقم الحديث: ٢٠٤.

(٢) صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب لا يظلم المسلم المسلم، فتح الباري: (٥/ ٩٧).

(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٣/ ٢١٨) ورقم الحديث: ١٢١٧.

(٤) مشكاة المصابيح: (٢/ ١٠٨)، ورقم الحديث: (٢٨٩٩).

وروى النسائي وابن حبان والحاكم بإسناد صحيح عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إن رجلاً لم يعمل خيراً قط، وكان يداين الناس، فيقول لرسوله: خذ ما تيسر، واترك ما عسر، وتجاوز، لعل الله يتجاوز عنا.

فلما هلك قال: هل عملت خيراً قط؟ قال: لا، إلا أنه كان لي غلام، وكنت أداين الناس، فإذا بعثته يتقاضى قلت له: خذ ما تيسر، واترك ما عسر، وتجاوز، لعل الله أن يتجاوز عنا. قال الله: قد تجاوزت عنك»[1]

وفي مستدرك الحاكم بإسناد صحيح عن حذيفة، وعقبة بن عامر، وأبي مسعود، عن رسول الله ﷺ قال: «أتى الله عز وجل بعبد من عباده آتاه الله مالاً، فقال له: ماذا عملت في الدنيا؟ فقال: ما عملت من شيء يا رب، إلا أنك آتيتني مالاً، فكنت أبايع الناس، وكان من خلقي أن أيسر على الموسر وأنظر المعسر. قال الله تعالى: أنا أحق بذلك منك، تجاوزوا عن عبدي»[2].

المطلب الخامس

الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولّوا

العادلون في يوم القيامة في مقام رفيع، يجلسون على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، ففي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: « إن المقسطين عند الله على منابر من نور، عن

(١) صحيح الجامع الصغير: (٢/ ٢٠٤)، ورقم الحديث: ٢٠٧٣.

(٢) صحيح الجامع الصغير: (١/ ٩٢)، ورقم الحديث: ١٢٤.

يمين الرحمن عز وجل، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا»[1].

المطلب السادس

الشهداء والمرابطون

إذا فزع الناس في يوم القيامة فإن الشهيد لا يفزع، ففي سنن الترمذي وابن ماجه عن المقدام بن معدي كرب قال: قال رسول الله ﷺ: «للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له في أول دفعة، ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوج ثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين من أقربائه»[2].

والشاهد في الحديث أن الشهيد يأمن من الفزع الأكبر، وهو فزع يوم القيامة. ومثل الشهيد المرابط في سبيل الله، فإنه إذا مات وهو مرابط أمَّنه الله من الفزع الأكبر، فقد روى الطبراني بإسناد صحيح عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «رباط يوم خير من صيام دهر، ومن مات مرابطاً في سبيل الله أمن من الفزع الأكبر، وغدي عليه برزقه، وريح عليه من الجنة، ويجري عليه أجر المرابط حتى يبعثه الله»[3].

---

(١) صحيح مسلم: (٣/١٤٥٨)، ورقم الحديث: ١٨٢٧.

(٢) مشكاة المصابيح: (٢/٣٥٨)، ورقم الحديث: ٣٨٣٤، وقال فيه محقق المشكاة: إسناده صحيح.

(٣) صحيح الجامع الصغير: (٣/١٧١)، ورقم الحديث: ٣٤٧٣.

ومن إكرام الله للشهيد يوم القيامة أن الله يبعثه وجرحه يتفجر دماً اللون لون الدم، والريح ريح المسك، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لا يُكْلَم أحد في سبيل الله، والله أعلم بمن يكلم في سبيله، إلا جاء يوم القيامة اللون لون الدم، والريح ريح المسك»[1].

وروى الترمذي والنسائي وأبو داود بإسناد صحيح عن معاذ بن جبل أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من قاتل في سبيل الله فواق[2] ناقة، فقد وجبت له الجنة، ومن جرح جرحاً في سبيل الله، أو نكب نكبة[3]، فإنها تجيء يوم القيامة كأغزر ما كانت، لونها الزعفران، وريحها المسك»[4].

قال ابن حجر: «قال العلماء: الحكمة في بعثه كذلك أن يكون معه شاهد بفضيلته ببذله نفسه في طاعة الله تعالى»[5].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب من يجرح في سبيل الله، فتح الباري: (٦/ ٢٠).

(٢) الفواق: ما بين الحلبتين.

(٣) أي أصيب بنكبة، أي حادثة.

(٤) مشكاة المصابيح: (٢/ ٣٥٥)، ورقم الحديث: ٣٨٢٥.

(٥) فتح الباري: (٦/ ٢٠).

المطلب السابع

الكاظمون الغيظ

كثيرة هي المواقف العصيبة التي يصيب العبد فيها الأذى، وقد يكون مصدره قريب أو صديق أو مُحسن إليه، ولا شك أن الأذى المسموع أو المرئي أو المحسوس الذي يصيبنا يسبب لنا ألماً في أعماقنا، فتجيش نفوسنا بأنواع الانفعالات التي تدعونا إلى المواجهة الحادة، وضبط النفس في مثل هذه الأحوال لا يملكه إلا أفذاذ الرجال.

إن الإسلام يعدُّ كظم الغيظ خلقاً إسلامياً راقياً يستحق صاحبه التكريم، فالجنة التي عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، وكظم الغيظ في مقدمة صفات المتقين ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٤].

وفي يوم القيامة يدعو رب العزة مَنْ كظم غيظه على رؤوس الخلائق، ثم يخيره في أي الحور العين شاء، روى الترمذي وأبو داود عن سهل بن معاذ بن جبل عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كظم غيظاً، وهو يقدر أن ينفذه دعاه الله على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره في أي الحور العين شاء»[1].

---

(١) مشكاة المصابيح: (٢/ ٦٣١)، ورقمه ٥٠٨٨، وحسن الشيخ ناصر إسناده في صحيح الجامع (٥/ ٣٥٣). ورقم الحديث فيه: ٦٣٩٨، وعزاه إلى أحمد والطبراني، وانظر رقم: ٦٣٩٤ في صحيح الجامع.

المطلب الثامن

عتق الرقاب المسلمة

من الأعمال الكريمة التي يتمكن صاحبها من اقتحام العقبات الكأداء في يوم القيامة، عتق الرقاب قال تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ [البلد: ١١-١٣].

وقد ساق ابن كثير في تفسير هذه السورة النصوص الحديثية التي توضح هذه الآيات قال الإمام أحمد: حدثنا مكي بن إبراهيم، حدثنا عبد الله يعني ابن سعيد بن أبي هند، عن إسماعيل بن أبي حكيم مولى آل الزبير، عن سعيد بن مرجانة، أنه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل إرب -أي عضو- منها إرباً منه من النار حتى إنه ليعتق باليد اليدَ وبالرجل الرجلَ وبالفرج الفرجَ».

فقال علي بن الحسين: أأنت سمعت هذا من أبي هريرة؟ فقال سعيد: نعم. فقال علي بن الحسين لغلام له أفره غلمانه: ادع مطرفاً، فلما قام بين يديه قال: اذهب فأنت حر لوجه الله، وقد رواه البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، من طرق عن سعيد بن مرجانة به وعند مسلم أن هذا الغلام الذي أعتقه علي بن الحسين زين العابدين كان قد أعطي فيه عشرة آلاف درهم.

وقال قتادة عن سالم بن أبي الجعد، عن معدان بن أبي طلحة، عن أبي نجيح قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أيما مسلم أعتق رجلاً مسلماً، فإن الله جاعل وفاء كل عظم من عظامه عظماً من عظام محرره من النار،

وأيما امرأة مسلمة أعتقت امرأة مسلمة فإن الله جاعل وفاء كل عظم من عظامها عظماً من عظامها من النار» رواه ابن جرير، هكذا، وأبو نجيح هذا هو عمرو بن عبسة السلمي رضي الله عنه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حيوة بن شريح، حدثنا بقية، حدثني بجير ابن سعد عن خالد بن معدان، عن كثير بن مرة عن عمرو بن عبسة أنه حدثهم أن النبي ﷺ قال: «من بنى مسجداً ليذكر الله فيه، بنى الله له بيتاً في الجنة. ومن أعتق نفساً مسلمة كانت فديته من جهنم، ومن شاب شيبة في الإسلام كانت له نوراً يوم القيامة».

وقال أحمد: حدثنا الحكم بن نافع، حدثنا حَريز عن سُليم بن عامر أن شرحبيل بن السمط قال لعمرو بن عبسة: حَدِّثنا حديثاً ليس فيه تزيد ولا نسيان. قال عمرو: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أعتق رقبة مسلمة كانت فكاكه من النار عضواً بعضو، ومن شاب شيبة في سبيل الله كانت له نوراً يوم القيامة، ومن رمى بسهم فبلغ فأصاب أو أخطأ كان كمعتق رقبة من بني إسماعيل» وروى أبو داود والنسائي بعضه.

وقال أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا الفرج، حدثنا لقمان عن أبي أمامة عن عمرو بن عبسة السلمي قال: قلت له حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ ليس فيه انتقاص ولا وهم قال: سمعته يقول: «من ولد له ثلاث أولاد في الإسلام فماتوا قبل أن يبلغوا الحنث أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم، ومن شاب شيبة في سبيل الله كانت له نوراً يوم القيامة، ومن رمى بسهم في سبيل الله بلغ به العدو أصاب أو أخطأ كان له كعدلِ رقبة، ومن أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منها عضواً منه من

النار، ومن أنفق زوجين في سبيل الله فإن للجنة ثمانية أبواب يدخله الله من أي باب شاء منها» وهذه أسانيد جيدة قوية، ولله الحمد.

وقال أبو داود: حدثنا عيسى بن محمد الرملي، حدثنا ضمرة عن ابن أبي عبلة، عن الغريف بن عياش الديلمي، قال: أتينا واثلة بن الأسقع فقلنا له: حدثنا حديثاً ليس فيه زيادة ولا نقصان، فغضب وقال: إن أحدكم ليقرأ ومصحفه معلق في بيته، فيزيد وينقص، قلنا: إنما أردنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ قال: أتينا رسول الله ﷺ في صاحب لنا قد أوجب - يعني النار - بالقتل، فقال: «أعتقوا عنه، يعتق الله بكل عضو منه عضواً في النار». وكذا رواه النسائي من حديث إبراهيم بن أبي عبلة، عن الغريف بن عياش الديلمي، عن واثلة به.

وقال أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا هشام، عن قتادة، عن قيس الجذامي، عن عقبة بن عامر الجهني أن رسول الله ﷺ قال: «من أعتق رقبة مسلمة فهو فداؤه من النار».

وحدثنا عبد الوهاب الخفاف، عن سعيد عن قتادة قال: ذكر لنا أن قيساً الجذامي حدث عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: «من أعتق رقبة مؤمنة فهي فكاكه من النار» تفرد به أحمد من هذا الوجه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن آدم وأبو أحمد، قالا: حدثنا عيسى ابن عبد الرحمن البجلي، من بني بجيلة، من بني سليم، عن طلحة بن مصرف، عن عبد الرحمن بن عوسجة، عن البراء بن عازب قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، علمني عملاً يدخلني الجنة فقال: «لئن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة، أعتق النسمة وفك

الرقبة». فقال: يا رسول الله، أوليستا بواحدة؟ قال: «لا إن عتق النسمة أن تنفرد بعتقها، وفك الرقبة أن تعين في عتقها، والمنحة الوكوف، والفيء على ذي الرحم الظالم، فإن لم تطق ذلك، فأطعم الجائع، واسق الظمآن، وَأْمُر بالمعروف، وانه عن المنكر، فإن لم تطق ذلك، فكف لسانك إلا من الخير»[1].

المطلب التاسع

فضل المؤذنين

من الذين يظهر فضلهم في يوم القيامة المؤذنون، فهم أطول الناس أعناقاً في ذلك اليوم، روى مسلم في صحيحه عن معاوية بن أبي سفيان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة»[2]. وطول العنق جمال، ثم هو مناسب لما قاموا به من عمل حيث كانوا يبلغون الناس بأصواتهم كلمات الأذان التي تعلن التوحيد وتدعو للصلاة.

والمؤذن يشهد له في ذلك اليوم كل شيء سمع صوته عندما كان يرفع صوته بالأذان في الدنيا، روى البخاري في صحيحه أن أبا سعيد الخدري قال لعبد الرحمن بن صعصعة: «إني أراك تحب الغنم والبادية، فإذا كنت في غنمك أو باديتك فأذَّنت في الصلاة، فارفع بالنداء، فإنه لا يسمع مدى

(١) تفسير ابن كثير: (٧/ ٢٩٥).

(٢) صحيح مسلم: (٤/ ٢٩٠)، ورقم الحديث: ٣٨٧.

صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة»[1].

المطلب العاشر

الذين يشيبون في الإسلام

يكون الشيب نوراً لصاحبه إذا كان مسلماً في يوم القيامة، كما صحت بذلك الأحاديث، ففي سنن الترمذي والنسائي عن كعب بن مرة أن رسول الله ﷺ قال: «من شاب شيبة في الإسلام كانت له نوراً يوم القيامة»[2].

وفي مسند أحمد وسنن الترمذي والنسائي وابن حبان عن عمرو بن عبسة قال: قال رسول الله ﷺ: «من شاب شيبة في سبيل الله كانت له نوراً يوم القيامة»[3].

وروى البيهقي في شعب الإيمان بإسناد حسن عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «الشيب نور المؤمن، لا يشيب رجل شيبة في الإسلام إلا كانت له بكل شيبة حسنة، ورفع بها درجة»[4]. وللحديث شاهد من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «لا تنتفوا الشيب، فإنه نور يوم القيامة، من شاب شيبة في الإسلام كانت له بكل شيبة حسنة، ورفع بها

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول النبي ﷺ: «الماهر بالقرآن..». فتح الباري: (١٣/ ٥١٨).

(٢) صحيح الجامع الصغير: (٥/ ٣٠٤) ورقم الحديث: ٦١٨٣، وعلم عليه الشيخ ناصر بالصحة.

(٣) صحيح الجامع الصغير: (٥/ ٣٠٤) ورقم الحديث: ٦١٨٤، والحديث صحيح كما قال محقق الكتاب.

(٤) سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٣/ ٢٤٧)، ورقم الحديث: ١٢٤٣.

درجة» رواه ابن حبان بإسناد حسن[1].

وروى ابن عدي والبيهقي في الشعب عن فضالة بن عبيد قال: قال رسول الله ﷺ: «الشيب نور في وجه المسلم، فمن شاء فلينتف نوره»[2].

المطلب الحادي عشر

فضل الوضوء

الذين استجابوا للرسول ﷺ، وأقاموا الصلاة، وأتوا بالوضوء كما أمرهم نبيهم يُدْعَوْن يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أمتي يُدْعَوْن يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء»[3].

قال ابن حجر: «(غراً) جمع أغر، أي ذو غُرّة، وأصل الغرة لمعة بيضاء تكون في جبهة الفرس، ثم استعملت في الجمال والشهرة وطيب الذكر، والمراد بها هنا النور الكائن في وجوه أمة محمد ﷺ، وغُرّاً منصوب على المفعولية ليُدْعَوْن أو على الحال. أي أنهم إذا دعوا على رؤوس الأشهاد نودوا بهذا الوصف، وكانوا على هذه الصفة.

وقوله: (محجلين) من التحجيل، وهو بياض يكون في ثلاث قوائم من قوائم الفرس، وأصله من الحِجل بكسر الحاء وهو الخلخال، والمراد به

---

(١) المصدر السابق.

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٣/ ٢٤٧)، ورقم الحديث: ١٢٤٤.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب فضل الوضوء، فتح الباري: (١/ ٢٣٥).

هنا أيضاً النور»[1].

وهذه الغرة وذلك التحجيل تكون للمؤمن حلية في يوم القيامة، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء»[2].

وبهذه الحلية النورانية تتميز هذه الأمة في يوم القيامة، وبها يعرف الرسول ﷺ أمته من بين الخلائق، لا فرق بين أصحابه وغيرهم، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ أتى مقبرة فقال: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، وودت أنا قد رأينا إخواننا».

قالوا: أولسنا إخوانك يا رسول الله؟

قال: «أنتم أصحابي، إخواننا الذين لم يأتوا بعد».

فقالوا: كيف تعرف من لم يأت بعد من أمتك يا رسول الله؟

فقال: «أرأيت لو أن رجلاً له خيل غر محجلة، بين ظهري خيل دهم بهم، ألا يعرف خيله؟».

قالوا: بلى يا رسول الله.

قال: «فإنهم يأتون غراً محجلين من الوضوء، وأنا فرطهم[3] على الحوض»[4].

---

(١) فتح الباري: (١/٢٣٦).

(٢) مشكاة المصابيح: (١/٩٦) ورقم الحديث: ٢٩١.

(٣) أي سابقهم.

(٤) مشكاة المصابيح: (١/٩٨)، ورقم الحديث: ٢٩٨.

وروى أحمد بإسناد صحيح عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول من يؤذن له بالسجود يوم القيامة، وأنا أول من يؤذن له أن يرفع رأسه، فأنظر إلى ما بين يدي، فأعرف أمتي من بين الأمم، ومن خلفي مثل ذلك، وعن يميني مثل ذلك، وعن شمالي مثل ذلك».

فقال رجل: يا رسول الله، كيف تعرف أمتك من بين الأمم فيما بين نوح إلى أمتك؟

قال: «هم غُرٌّ محجلون من أثر الوضوء، ليس أحد كذلك غيرهم، وأعرفهم أنهم يؤتون كتبهم بأيمانهم، وأعرفهم تسعى بين أيديهم ذريتهم»[1].

---

(١) مشكاة المصابيح: (١/ ٩٩)، ورقم الحديث: ٢٩٩.

الفصل التاسع
الشفاعة

عندما يشتد البلاء بالناس في الموقف العظيم ويطول بحث العباد عن أصحاب المنازل العالية ليشفعوا لهم عند ربهم، كي يأتي ربنا لفصل الحساب وتخليص الناس من كربات الموقف وأهواله، فيطلبون من أبيهم آدم أن يقوم بهذه المهمة الكبيرة، ويذكّرونه بفضله وإكرام الله له، فيأبى ويعتذر، ويذكر عصيانه ربه بأكله من الشجرة التي حرم الله عليه الأكل منها، ويحيلهم إلى نوح أول رسول أرسله الله إلى البشر، الذي سماه الله عبداً شكوراً، فيأبى ويذكر ما كان منه من تقصير في بعض الأمور تجاه ربه ومولاه، وهكذا يحيلهم إلى من بعدَه من أولي العزم من الرسل، والآخر يدفعها إلى من بعده، حتى يأتوا الرسول الخاتم: محمد ﷺ، الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

فيقوم الرسول ﷺ مقاماً يحمده عليه الأولون والآخرون، وتظهر به منزلته العظيمة، ودرجته العالية، فيستأذن على ربه فيأذن له، ويحمده ويمجّده، ويسأله في أمته، فيستجيب له، ذلك أن الله أعطى كل نبي دعوة في أمته لا ترد، وقد استعجل كل نبي تلك الدعوة في الدنيا، واختبأ الرسول ﷺ دعوته إلى ذلك الموقف الذي تحتاج فيه أمته إلى دعوته، فصلوات الله وسلامه عليه، فإنه بالمؤمنين رؤوف رحيم، كما وصفه ربه، وقد ثبت في صحيحي البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه

قال: قال رسول الله ﷺ: «كل نبي سأل سؤالاً أو قال: لكل نبي دعوة دعاها لأمته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة»[1].

وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال: «لكل نبي دعوة دعا بها في أمته، وخبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة»[2].

وفي صحيحي البخاري ومسلم وسنن الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجَّل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً»[3].

وروى الترمذي وأبو داود عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»[4].

---

(١) جامع الأصول: ١٠/ ٤٧٥، ورقم الحديث: ٨٠٠٩.

(٢) جامع الأصول: ١٠/ ٤٧٦، ورقم الحديث: ٨٠١٠

(٣) جامع الأصول: ١٠/ ٤٧٦، ورقم الحديث: ٨٠١١.

(٤) جامع الأصول: ١٠/ ٤٧٦، ورقم الحديث: ٨٠١٢ وإسناده صحيح كما قال محقق الكتاب.

المبحث الأول
أحاديث الشفاعة

وقد جاءت أحاديث كثيرة تصف الشفاعة العظمى، وسنكتفي بإيراد ما جمعه ابن الأثير منها في جامع الأصول[1].

١- روى البخاري ومسلم في صحيحهما عن معبد بن هلال العنزي قال: «انطلقنا إلى أنس بن مالك، وتشفَّعنا بثابتٍ، فانتهينا إليه وهو يصلي الضحى، فاستأذن لنا ثابت، فدخلنا عليه، وأجلس ثابتاً معه على سريره فقال له: يا أبا حمزة، إن إخوانك من أهل البصرة يسألونك أن تُحدِّثَهم حديث الشفاعة.

فقال: حدثنا محمد ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم إلى بعض، فيأتون آدم، فيقولون: اشفع لذريتك، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بإبراهيم، فإنه خليل الله، فيأتون إبراهيم، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بموسى، فإنه كليم الله، فيؤتى موسى، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بعيسى، فإنه رُوح الله وكلمته، فيؤتى عيسى، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بمحمد.

فأوتَى فأقول: أنا لها، ثم أنطلق فاستأذن على ربي، فيؤذَن لي، فأقوم بين يديه، فأحمده بمحامدَ لا أقدر عليها إلا أن يلهمنيها، ثم أخر لربنا

(١) جامع الأصول: ١٠/ ٤٧٧، وقد أبقينا تخريج محقق الكتاب على حاله في الهامش.

ساجداً، فيقول: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يُسْمَع لك، وسَلْ تُعْطَهْ، واشفع تُشَفَّع، فأقول: يا رب، أمتي أمتي، فيقول: انطلق فمن كان في قلبه حبة من بُـرَّةٍ أو شعيرةٍ من إيمانٍ فأخرِجْه منها، فأنطلقُ فأفعل.

ثم أرجع إلى ربي فأحمده بتلك المحامد، ثم أخرُّ له ساجداً، فيقال لي: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يُسْمَع لك، وسَلْ تُعْطَهْ، واشفع تُشَفَّع، فأقول: يا رب أمتي أمتي، فيقال لي: انطلق، فمن كان في قلبه مثقال حبة من خردلٍ من إيمان فأخرجه منها، فأنطلق فأفعل.

ثم أعود إلى ربي أحمده بتلك المحامد، ثم أخر له ساجداً، فيقال لي: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأقول: يا رب، أمتي أمتي، فيقال لي: انطلق، فمن كان في قلبه أدنى أدنى أدنى من مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه من النار فأنطلق فأفعل».

هذا حديث أنس الذي أنبأنا به، فخرجنا من عنده، فلما كنا بظهر الجبَّان[1]، قلنا: لو مِلنا إلى الحسن فسلَّمنا عليه وهو مستخفٍ في دار أبي خليفة؟ قال: فدخلنا عليه، فسلمنا عليه، قلنا: يا أبا سعيد، جئنا من عند أخيك أبي حمزة، فلم نسمع بمثل حديثٍ حدثناه في الشفاعة، قال: هيه، فحدَّثناه الحديث، فقال: هيه، قلنا: ما زادنا؟ قال: قد حدثنا به منذ عشرين سنة، وهو يومئذ جميع[2]، ولقد ترك شيئاً ما أدري: أنسي الشيخ، أم كره أن يحدثكم فتتكلوا؟ قلنا له: حدثنا، فضحك، وقال:

---

(١) الجبان، والجبانة: المقابر.

(٢) رجل جميع، أي: مجتمع الخلق قوي، لم يهرم، ولم يضعف.

خلق الإنسان من عجل، ما ذكرت لكم هذا إلا وأنا أريد أن أحدثكموه.

قال: «ثم أرجع إلى ربي في الرابعة فأحْمَدُه بتلك المحامد، ثم أخر له ساجداً، فيقال لي: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأقول: يا رب ائذن لي فيمن قال: لا إله إلا الله، قال: فليس ذلك لك، أو قال: ليس ذلك إليك، ولكن وعزتي وكبريائي وعظمتي لأخرجن منها من قال: لا إله إلا الله»، قال: فأشهد على الحسن أنه حدثنا به أنه سمع أنس بن مالك - أُراه قال: قبل عشرين سنة- وهو يومئذ جميع.

وفي رواية قتادة عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «يجمع الله الناس يوم القيامة، فيهتمون لذلك -وفي رواية: فيلهمون لذلك- فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا، حتى يريحنا من مكاننا هذا؟ قال: فيأتون آدم، فيقولون: أنت آدم أبو الخلق، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا، فيقول: لست هناكم، فيذكر خطيئته التي أصاب، فيستحي ربَّه منها، ولكن ائتوا نوحاً أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض.

قال: فيأتون نوحاً، فيقول: لست هناكم، فيذكر خطيئته التي أصاب، فيستحي ربَّه منها، ولكن ائتوا إبراهيم الذي اتخذه الله خليلاً، فيأتون إبراهيم، فيقول: لست هناكم، وذكر خطيئته التي أصاب، فيستحي ربَّه منها، ولكن ائتوا موسى الذي كلمه الله وأعطاه التوراة.

قال: فيأتون موسى، فيقول: لست هناكم، ويذكر خطيئته التي أصاب، فيستحتي ربَّه منها، ولكن ائتوا عيسى روح الله وكلمته، فيأتون عيسى روح

الله وكلمته، فيقول: لست هناكم، ولكن ائتوا محمداً، عبداً غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

قال: قال رسول الله ﷺ: فيأتونني، فاستأذن على ربي، فيؤذن لي، فإذا أنا رأيته وقعت ساجداً فيدعني ما شاء الله، فيقال: يا محمد، ارفع، قل يسمع، سل تعطه، اشفع تشفع، فأرفع رأسي، فأحمد ربي بتحميد يُعلِّمُنيه ربي، ثم أشفع، فيُحدّ لي حداً، فأخرجُهم من النار، وأدخلهم الجنة، ثم أعود فأقع ساجداً، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال لي: ارفع يا محمد، قل يسمع، سل تعطه، اشفع تشفع، فأرفع رأسي، فأحمد ربي بتحميد يعلمنيه، ثم أشفع، فيحد لي حداً، فأخرجهم من النار، وأدخلهم الجنة.

قال: فلا أدري في الثالثة أو في الرابعة فأقول: يا رب، ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن، أو وجب عليه الخلود» أخرجه البخاري ومسلم.

وأخرجه البخاري تعليقاً: عن قتادة عن أنس أن النبي ﷺ قال: «يحبس المؤمنون يوم القيامة.. وذكر نحوه، وفي آخره: ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن -أي وجب عليه الخلود- ثم تلا هذه الآية: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ الإسراء:٧٩]، قال: وهذا المقام المحمود الذي وُعده نبيكم ﷺ».

زاد في رواية: فقال النبي ﷺ: «يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن بُـرَّة، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرة».

قال يزيد بن زُرَيع: فلقيت شعبة، فحدثته بالحديث، فقال شعبة: حدثنا به قتادة عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ بالحديث، إلا أن شعبة جعل مكان «الذَّرّة»: «ذُرَةً». قال يزيد: صحف فيها أبو بسطام، كذا في كتاب مسلم من رواية يزيد عن شعبة. قال البخاري: وقال أبان عن قتادة بنحوه. وفيه «من إيمان» مكان «خير» زاد في رواية: أن النبي ﷺ قال -في حديث سؤال المؤمنين الشفاعة- «فيأتوني فأستأذن على ربي في داره فيؤذن لي عليه» وللبخاري طرف منه عن حميد عن أنس قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إذا كان يوم القيامة شفعت، فقلت: يا ربِّ أدخلِ الجنةَ من كان في قلبه خردلة، فيدخلون، ثم أقول: أدخل الجنة من كان في قلبه أدنى شيء. قال أنس: كأني أنظر إلى أصابع النبي ﷺ»[1].

٢- وروى البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كنا مع النبي ﷺ في دعوة، فرفع إليه الذراع -وكانت تعجبه- فنهس منها نهسة[2]، وقال: أنا سيد الناس يوم القيامة، هل تدرون: مم ذاك؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيبصرهم الناظر، ويسمعهم الداعي، وتدنو منهم الشمس، فيبلغ الناسَ من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون، فيقول الناس: ألا ترون إلى ما أنتم فيه، إلى ما بلغكم، ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: أبوكم آدم.

فيأتونه، فيقولون: يا آدم، أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك

---

(١) رواه البخاري ١٣/ ٣٩٥ - ٣٩٧ في التوحيد، باب كلام الرب تعالى يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم، وباب قول الله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾، وباب قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ وفي تفسير سورة البقرة، باب قول الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾، وفي الرقاق، باب صفة الجنة والنار، ومسلم رقم ١٩٣ في الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها.

(٢) النهس: أخذ اللحم بمقدم الأسنان.

من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، وأسكنك الجنة، ألا تشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا؟ فقال: إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيت، نفسي، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح.

فيأتيون نوحاً، فيقولون: يا نوح، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سماك الله عبداً شكوراً، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما بلغنا؟ ألا تشفع لنا عند ربك؟ فيقول: إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد كان لي دعوة دعوت بها على قومي، نفسي، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم.

فيأتون إبراهيم فيقولون: أنت نبي الله، وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك، أما ترى ما نحن فيه؟ فيقول لهم: إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني كنت كذبت ثلاث كذبات.. فذكرها، نفسي، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى.

فيأتون موسى فيقولون: أنت رسول الله، فضّلك برسالاته وبكلامه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، أما ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد قتلت نفساً لم أومر بقتلها، نفسي، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى.

فيأتون عيسى فيقولون: أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم، وروحٌ منه، وكلمتَ الناسَ في المهد، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟

فيقول عيسى: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر ذنباً، نفسي، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد.

فيأتون محمداً ﷺ -وفي رواية: فيأتوني- فيقولون: يا محمد، أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فأنطلق، فآتي تحت العرش، فأقع ساجداً لربي، ثم يفتح الله عليَّ من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي، ثم يقال: يا محمد، ارفع رأسك، سل تعطه، واشفع تشفع، فأرفع رأسي، فأقول: أمتي يا رب، أمتي يا رب، أمتي يا رب، فيقال: يا محمد، أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة،وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب،ثم قال: والذي نفسي بيده، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة، كما بين مكة وهجر -أو كما بين مكة وبصرى- وفي كتاب البخاري. كما بين مكة وحمير.

وفي رواية قال: «وضعت بين يدي رسول الله ﷺ قصعة من ثريد ولحم، فتناول الذراع -وكانت أحب الشاة إليه- فنهس نهسة، فقال: أنا سيد الناس يوم القيامة، ثم نهس أخرى، فقال: أنا سيد الناس يوم القيامة، فلما رأى أصحابه لا يسألونه، قال: ألا تقولون: كيفه؟ قالوا: كيفه يا رسول الله؟ قال: يقوم الناس لرب العالمين..

وساق الحديث بمعنى ما تقدم، وزاد في قصة إبراهيم، فقال: وذكروا قوله في الكوكب: هذا ربي، وقوله لآلهتهم، بل فعله كبيرهم هذا، وقوله: إني سقيم، وقال: والذي نفس محمد بيده، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة إلى عضادتي الباب لكما بين مكة وهجر، أو هجر ومكة، لا أدري أي ذلك قال؟».

أخرجه البخاري ومسلم والترمذي، إلا أن في كتاب مسلم «نفسي نفسي» مرتين في قول كل نبي، والحميدي ذكر كما نقلناه، وفي رواية الترمذي «نفسي، نفسي، نفسي» ثلاثاً في الجميع[1].

٣- وروى مسلم عن حذيفة بن اليمان، وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «يجمع الله تبارك وتعالى الناس، فيقوم المؤمنون حتى تُزلف لهم الجنة، فيأتون آدم، فيقولون: يا أبانا، استفتح لنا الجنة، فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم؟ لست بصاحب ذلك، اذهبوا إلى ابني إبراهيم خليل الله.

قال: فيقول إبراهيم: لست بصاحب ذلك، إنما كنت خليلاً من وراءَ وراءَ، اعمدوا إلى موسى الذي كلمه تكليماً، قال: فيأتون موسى، فيقول: لست بصاحب ذلك، اذهبوا إلى عيسى كلمة الله وروحه، فيقول عيسى: لست بصاحب ذلك، فيأتون محمداً ﷺ، فيقوم، فيؤذن له، وترسل الأمانة والرحم، فتقومان جنبتي الصراط يميناً وشمالاً، فيمر أولكم كالبرق.

قال: قلت: بأبي وأمي، أي شيء كالبرق، قال: ألم تروا إلى البرق كيف يمرّ ويرجع في طرفة عين؟ ثم كمر الريح، ثم كمر الطير، وشد الرجال، تجري بهم أعمالهم، ونبيكم قائم على الصراط، فيقول: رب سلم سلم، حتى تعجز أعمال العباد، حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفاً، قال: وفي حافتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة، تأخذ من أمرت به، فمخدوش ناج، ومكدوس[2] في النار، والذي نفس أبي هريرة

---

(١) رواه البخاري: ٦/ ٢٦٤ و ٢٦٥ في الأنبياء، باب قول الله عز وجل: ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾، وباب قوله تعالى: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ وفي تفسير سورة بني إسرائيل باب ﴿ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً﴾، ومسلم رقم: ١٩٤ في الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، والترمذي رقم: ٢٤٣٦ في صفة القيامة، باب ما جاء في الشفاعة.

(٢) وفي بعض النسخ ومكردس.

بيده، إن قعر جهنم لسبعين[1] خريفاً»[2].

٤- روي الترمذي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ -آدم فمن سواه- إلا تحت لوائي، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر، فقال: فيفزع الناس ثلاث فزعات، فيأتون آدم، فيقولون: أنت أبونا آدم، فاشفع لنا إلى ربك، فيقول: إني أذنبت ذنباً فأهبطت به إلى الأرض، ولكن ائتوا نوحاً.

فيأتون نوحاً، فيقول: إني دعوت على أهل الأرض دعوة فأُهلكوا، ولكن اذهبوا إلى إبراهيم، فيأتون إبراهيم، فيقول: إني كذبت ثلاث كذبات، ثم قال رسول الله ﷺ: ما منها كذبة إلا ماحل[3] بها عن دين الله، ولكن ائتوا موسى، فيأتون موسى، فيقول: قد قتلت نفساً، ولكن ائتوا عيسى، فيأتون عيسى، فيقول: إني عُبدت من دون الله، ولكن ائتوا محمداً ﷺ، فانطلق معهم.

قال ابن جدعان: قال أنس: فكأني أنظر إلى رسول الله، قال: فآخذ بحلقة باب الجنة، فأقعقعها، فيقال: من هذا؟ فيقال: محمد، فيفتحون لي ويرحبون، فيقولون: مرحباً، فأخر ساجداً، فيلهمني الله من الثناء والحمد، فيقال لي: ارفع رأسك، سل تعط، واشفع تشفع، وقل يُسمع لقولك، وهو المقام المحمود الذي قال الله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء:٧٩] قال سفيان: ليس عن أنس إلا هذه الكلمة «فآخُذُ بحلقة باب الجنة فأُقعْقِعُها» أخرجه الترمذي[4].

---

(١) وفي بعض النسخ: لسبعون، وكلاهما صحيح، وانظر ما قاله النووي في شرح مسلم.

(٢) صحيح مسلم، رقم: ١٩٥ في الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها.

(٣) المماحلة: المخاصمة والمجادلة.

(٤) سنن الترمذي، رقم: ٣١٤٧ في التفسير، باب ومن سورة بني إسرائيل، وقال الترمذي: هذا حديث حسن، وهو كما قال.

المبحث الثاني
وجه الاستدلال بالأحاديث على الشفاعة العظمى

الناظر في هذه الأحاديث يجد أن المؤمنين يرغبون إلى الأنبياء وآخرهم محمد ﷺ كي يخلصوهم من الموقف العظيم، إلا أننا نجد أن الرسول ﷺ عندما يشفع إنما يشفع في أمته.

قال شارح الطحاوية بعد إيراده لبعض أحاديث الشفاعة التي سقناها: «والعجب كل العجب من إيراد الأئمة لهذا الحديث من أكثر طرقه، لا يذكرون أمر الشفاعة الأولى، في مأتى الرب سبحانه وتعالى لفصل القضاء، كما ورد في حديث الصور، فإنه المقصود في هذا المقام، ومقتضى سياق أول الحديث، فإن الناس إنما يستشفعون إلى آدم فمن بعده من الأنبياء في أن يفصل بين الناس، ويستريحوا من مقامهم، كما دلت عليه سياقاته من سائر طرقه، فإذا وصلوا إلى الجزاء إنما يذكرون الشفاعة في عصاة الأمة وإخراجهم من النار، وكأن مقصود السلف -في الاقتصار على هذا المقدار من الحديث- هو الرد على الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة، الذين أنكروا خروج أحد من النار بعد دخولها، فيذكرون هذا القدر من الحديث الذي فيه النص الصريح من الرد عليهم فيما ذهبوا إليه من البدعة المخالفة للأحاديث»[1] ثم ساق مضمون حديث الصور.

وفي كلام محمد بن محمد بن أبي العز الحنفي عدة أمور:

---

(١) شرح الطحاوية: ص ٢٥٥.

١- أنه أكد وجود هذا الإشكال في هذه الأحاديث، وممن ذكر هذا الإشكال ابن حجر العسقلاني، ونقله عن الدراوردي، فإنه قال: «كأن راوي هذا الحديث ركب شيئاً على غير أصله، وذلك أن في أول ذكر الشفاعة في الإراحة من كرب الموقف، وفي آخره ذكر الشفاعة في الإخراج من النار، يعني وذلك إنما يكون بعد التحول من الموقف والمرور على الصراط، وسقوط من يسقط في تلك الحالة في النار، ثم يقع بعد ذلك الشفاعة في الإخراج»[١] قال ابن حجر بعد نقله كلام الدراوردي «وهو إشكال قويٌّ»[٢].

٢- وقد أجاب شارح الطحاوية عن هذا الإشكال -كما نقلناه عنه- أن الذين نقلوا هذه النصوص قصَّروا في النقل، وسر هذا التقصير أنهم قصدوا الرد على الخوارج الذين أنكروا خروج أحد من النار بعد دخولها، وزعموا أن كل من دخل النار فإنه فيها خالد، واحتج على ما ذهب إليه بحديث الصور الذي يصرح فيه بأن الرسول ﷺ يشفع أولاً كي يأتي الحق للقضاء بين الناس، ثم يشفع مرة أخرى لدخول الجنة، ولو كان حديث الصور هذا صحيحاً لكان فيه حل لهذا الإشكال، ولكنه حديث ضعيف كما بينه الشيخ ناصر الدين الألباني في تحقيقه لأحاديث الطحاوية.

ولعل ما ذهب إليه القاضي عياض وتابعه النووي وابن حجر وغيرهما عليه أكثر دقة وتوفيقاً مما قاله شارح الطحاوية، قال ابن حجر: «وقد أجاب عن هذا الإشكال عياض وتبعه النووي وغيره بأنه قد وقع في حديث حذيفة المقرون بحديث أبي هريرة بعد قوله: «فيأتون محمداً، فيقوم ويؤذن له» أي في الشفاعة، وترسل الأمانة والرحم، فيقومان جنبي

(١) فتح الباري: (١١/ ٤٣٧).
(٢) فتح الباري: (١١/ ٤٣٨).

الصراط يميناً وشمالاً، فيمر أولكم كالبرق» الحديث، قال عياض: فبهذا يتصل الكلام، لأن الشفاعة التي لجأ إليه الناس فيها هي الإراحة من كرب الموقف، ثم تجيء الشفاعة في الإخراج، وقد وقع في حديث أبي هريرة.. الأمر باتباع كل أمة ما كانت تعبد، ثم تمييز المنافقين من المؤمنين، ثم حلول الشفاعة بعد وضع الصراط والمرور عليه، فكان الأمر باتباع كل أمة ما كانت تعبد هو أول فصل القضاء والإراحة من كرب الموقف، قال: وبهذا تجتمع متون الأحاديث، وتترتب معانيها»[1].

وقد زاد الحافظ ابن حجر هذه المسألة إيضاحاً، وأورد النصوص الدالة على أن في بعض الأحاديث شيئاً من الاختصار فقال: «قلت: فكأن بعض الرواة حفظ ما لم يحفظ الآخر، وسيأتي بقيته في شرح حديث الباب الذي يليه وفيه «حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفاً، وفي جانبي الصراط كلاليب مأمورة بأخذ من أمرت به، فمخدوش ناج ومكدوس في النار» فظهر منه أنه ﷺ أول ما يشفع ليقضى بين الخلق، وأن الشفاعة فيمن يخرج من النار ممن سقط تقع بعد ذلك.

وقد وقع ذلك صريحاً في حديث ابن عمر اختصر في سياقه الحديث الذي ساقه أنس وأبو هريرة مطولاً. وقد تقدم في كتاب الزكاة من طريق حمزة بن عبد الله بن عمر عن أبيه بلفظ: «إن الشمس تدنو حتى يبلغ العرق نصف الأذن، فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم، ثم بموسى ثم بمحمد، فيشفع ليقضى بين الخلق، فيمشي حتى يأخذ بحلقة الباب، فيومئذ يبعثه الله مقاماً محموداً يحمده أهل الجمع كلهم».

---

(١) فتح الباري: (١١/ ٤٣٨).

ووقع في حديث أبي بن كعب عند أبي يعلى «ثم أمتدحه بمدحة يرضى بها عني، ثم يؤذن لي في الكلام، ثم تمر أمتي على الصراط، وهو منصوب بين ظهراني جهنم فيمرون».

وفي حديث ابن عباس من رواية عبد الله بن الحارث عنه عند أحمد «فيقول عز وجل: يا محمد ما تريد أن أصنع في أمتك؟ فأقول: يا رب عجل حسابهم» وفي رواية عن ابن عباس عند أحمد وأبي يعلى «فأقول أنا لها، حتى يأذن الله لمن يشاء ويرضى، فإذا أراد الله أن يفرغ من خلقه نادى مناد: أين محمد وأمته».

وتعرَّض الطيبي للجواب عن الإشكال بطريق آخر فقال: يجوز أن يراد بالنار الحبس والكرب والشدة التي كان أهل الموقف فيها من دنو الشمس إلى رؤوسهم وكربهم بحرها وسفعها حتى ألجمهم العرق، وأن يراد بالخروج منها خلاصهم من تلك الحالة التي كانوا فيها.

قال ابن حجر: وهو احتمال بعيد، إلا أن يقال إنه يقع إخراجان وقع ذكر أحدهما في حديث الباب على اختلاف طرقه والمراد به الخلاص من كرب الموقف، والثاني في حديث الباب الذي يليه ويكون قوله فيه: «فيقول من كان يعبد شيئاً فليتبعه» بعد تمام الخلاص من الموقف ونصب الصراط والإذن في المرور عليه، ويقع الإخراج الثاني لمن يسقط في النار حال المرور فيتحدا».

وأجاب القرطبي عن أصل الإشكال بأن في قوله آخر حديث أبي زرعة عن أبي هريرة بعد قوله ﷺ فأقول: يا رب أمتي أمتي، «فيقال: أدخل من أمتك من الباب الأيمن من أبواب الجنة من لا حساب عليه ولا عذاب».

فقال: في هذا ما يدل على أن النبي ﷺ يشفع فيما طلب من تعجيل الحساب، فإنه لما أذن له في إدخال من لا حساب عليه دل على تأخير من عليه حساب ليحاسب، ووقع في حديث الصور الطويل عند أبي يعلى: «فأقول وعدتني الشفاعة، فشفعتني في أهل الجنة يدخلون الجنة، فيقول الله: وقد شفعتك فيهم وأذنت لهم في دخول الجنة».

قلت: وفيه إشعار بأن العرض والميزان وتطاير الصحف يقع في هذا الموطن، ثم ينادي المنادي: ليتبع كل أمة من كانت تعبد، فيسقط الكفار في النار، ثم يميز بين المؤمنين والمنافقين بالامتحان بالسجود عند كشف الساق، ثم يؤذن في نصب الصراط والمرور عليه، فيطفأ نور المنافقين فيسقطون في النار أيضاً، ويمر المؤمنون عليه إلى الجنة، فمن العصاة من يسقط ويوقف بعض من نجا عند القنطرة بينهم ثم يدخلون الجنة»[1].

قلت: فهذا لو ثبت لرفع الإشكال لكن الكلبي ضعيف، ومع ذلك لم يسنده، ثم هو مخالف لصريح الأحاديث الصحيحة أن سؤال المؤمنين الأنبياء واحداً بعد واحد إنما يقع في الموقف قبل دخول المؤمنين الجنة والله أعلم.

---

(١) فتح الباري: (١١/ ٤٣٨).

المبحث الثالث

الشفاعة المقبولة. والشفاعة المرفوضة وأنواع الشفاعة المقبولة

دلت الأحاديث التي سقناها على نوعين من أنواع الشفاعة التي تقع في ذلك اليوم.

الأول: الشفاعة العظمى، وهي المقام المحمود، الذي يرغب الأولون والآخرون فيه إلى الرسول ﷺ ليشفع إلى ربه كي يخلص العباد من أهوال المحشر.

الثاني: الشفاعة في أهل الذنوب من الموحدين الذين دخلوا النار، وسيأتي الحديث عن هذا النوع في مبحث «دخول الجنة» من كتاب «الجنة والنار» إن شاء الله تعالى.

وبقي أنواع جاء ذكرها في الأحاديث نعرض لها هنا على وجه الاختصار:

الأول والثاني: شفاعة الرسول ﷺ في أقوام تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فيشفع فيهم ليدخلوا الجنة، وفي آخرين قد أمر بهم إلى النار أن لا يدخلوها.

الثالث: شفاعته ﷺ في رفع درجات من يدخل الجنة فيها فوق ما كان يقتضيه ثواب أعمالهم.

الرابع: الشفاعة في أقوام يدخلون الجنة بغير حساب، ويمكن أن يستشهد لهذا بحديث عكاشة بن محصن حيث دعا له الرسول ﷺ أن يجعله من السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب، والحديث في الصحيحين.

الخامس: شفاعة الرسول ﷺ في تخفيف عذاب عمه أبي طالب، حيث يخرجه الله به إلى ضحضاح من نار يغطي قدميه يغلي لهما دماغه.

السادس: شفاعته في الإذن للمؤمنين بدخول الجنة، وسيأتي الحديث عن هذا النوع في كتاب الجنة إن شاء الله تعالى[1].

والشفاعة في أهل الذنوب ليست خاصة بالرسول ﷺ، فد يشفع النبيون والشهداء والعلماء، وقد يشفع للمرء أعماله، ولكن رسولنا ﷺ له النصيب الأوفر منها، وقد يشفع غيره أيضاً في رفع درجات المؤمنين، وبقية الأنواع خاصة بالرسول ﷺ.

هذه هي أنواع الشفاعة التي تقع في يوم القيامة، أما الشفاعة المرفوضة فهي الشفاعة التي يتعامل بها الناس في الدنيا، حيث يشفع الشافع وإن لم يرض الذي شفع عنده، وقد يكره من شفع عنده على قبول شفاعة الشافعين لعظم منزلتهم وقوتهم وبأسهم، وهذه هي الشفاعة التي يعتقدها المشركون والنصارى في آلهتهم، ويعتقدها المبتدعون من هذه الأمة في مشايخهم، وقد أكذب الله أصحابها، فلا أحد يشفع في ذلك اليوم إلا بإذن من الله، ولا يشفع إلا إذا رضي الله عن الشافع والمشفوع، قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقال: ﴿وَلَا

(١) انظر في هذه الموضوع شرح الطحاوية: ٢٥٣.

يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

ولذلك فإن والد إبراهيم لما مات كافراً فإن الله لا يقبل شفاعة خليله فيه في ذلك اليوم. روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «يلقى إبراهيم أباه آزر في يوم القيامة، وعلى وجه آزر قترة وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك: لا تعصني؟ فيقول له أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يا رب، إنك وعدتني أنك لا تخزيني يوم يبعثون، فأي خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقول الله تعالى، إني حرمت الجنة على الكافرين. ثم يقال لإبراهيم: ما تحت رجليك؟ فينظر فإذا هو بذيخ متلطخ، فيؤخذ بقوائمه، فيلقى في النار»[1].

(١) صحيح البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾، ورقمه: ٣٣٥٠. والذِّيخ: ذكر الضباع، وقيل: لا يقال له ذيخ إلا إذا كان كثير الشعر. «فتح الباري» شرح الحديث (٤٧٦٨) و(٤٧٦٩).

الفصل العاشر

الحساب والجزاء

تمهيد: المراد بالحساب والجزاء:

يراد بالحساب والجزاء أن يُوقف الحق تبارك وتعالى عباده بين يديه، ويعرفهم بأعمالهم التي عملوها، وأقوالهم التي قالوها، وما كانوا عليه في حياتهم الدنيا من إيمان وكفر، واستقامة وانحراف، وطاعة وعصيان، وما يستحقونه على ما قدموه من إثابة وعقوبة، وإيتاء العباد كتبهم بأيمانهم إن كانوا صالحين، وبشمالهم إن كانوا طالحين.

ويشمل الحساب ما يقوله الله لعباده، وما يقولونه له، وما يقيمه عليهم من حجج وبراهين، وشهادة الشهود ووزن للأعمال.

والحساب منه العسير، ومنه اليسير، ومنه التكريم، ومنه التوبيخ، والتبكيت، ومنه الفضل والصفح، ومتولي ذلك أكرم الأكرمين.

المبحث الأول
مشهد الحساب

حدثنا ربنا عن مشهد الحساب والجزاء في يوم الحساب فقال: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٦٩].

وحسبنا أن نعلم أن القاضي والمحاسب في ذلك اليوم هو الحكم والعدل قيوم السموات والأرض ليتبين لنا عظم هذا المشهد وجلاله ومهابته، ولعل هذا الإشراق المنصوص عليه في الآية، إنما يكون عند مجيء الملك الجليل لفصل القضاء، قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠].

وهذا المجيء الله أعلم بكيفيته، نؤمن به ونعلم أنه حق، ولا نؤوِّله ولا نحرِّفه، ولا نكذب به، والآية تنصُّ على مجيء الملائكة، فهو موقف جليل تحضره ملائكة الرحمن بكتب الأعمال التي أحصت على الخلق أعمالهم وتصرفاتهم وأقوالهم، ليكون حجة على العباد، وهو كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

ويجاء في موقف القضاء والحساب بالرسل، ويسألون عن الأمانة التي

حمَّلهم الله إياها. وهي إبلاغ وحي الله إلى من أرسلوا إليه، ويشهدون على أقوامهم ما علموه منهم.

ويقوم الأشهاد في ذلك اليوم العظيم فيشهدون على الخلائق بما كان منهم، والأشهاد هم الملائكة الذين كانوا يسجلون على المرء أعماله، ويشهد أيضاً الأنبياء والعلماء كما تشهد على العباد الأرض والسماء والليالي والأيام.

ويؤتى بالعباد الذين عقد الحق محكمته العظيمة لمحاسبتهم، ويقامون صفوفاً للعرض على رب العباد ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ [الكهف:٤٨]، ويؤتى بالمجرمين منهم وهم الذين كذبوا الرسل، وتمردوا على ربهم، واستعلوا في الأرض -مقرنين في الأصفاد، مسربلين بالقطران، ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ * سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ * لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [إبراهيم:٤٩-٥١]، ولشدة الهول تجثوا الأمم على الركب عندما يدعى الناس للحساب لعظم ما يشاهدون، وما هم فيه واقعون ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية:٢٨].

إنه مشهد جليل عظيم نسأل الله أن ينجينا فيه بفضله وَمَنِّهِ وكرمه.

المبحث الثاني

هل يُسأل الكفار؟ ولماذا يُسألون؟

اختلف العلماء في الكفار: هل يحاسبون ويسألون؟ أم يأمر بهم إلى النار من غير سؤال، لأن أعمالهم باطلة حابطة فلا فائدة من السؤال والحساب؟ وإذا كانوا يحاسبون ويسألون فما فائدة حسابهم وسؤالهم؟

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «هذه المسألة تنازع فيها المتأخرون من أصحاب أحمد وغيرهم، فممن قال إنهم لا يحاسبون أبو بكر عبد العزيز، وأبو الحسن التميمي، والقاضي أبو يعلى، وغيرهم، وممن قال: إنهم يحاسبون: أبو حفص البرمكي من أصحاب أحمد، وأبو سليمان الدمشقي، وأبو طالب»[1].

والصحيح أن الكفار محاسبون مسؤولون كما أن أعمالهم توزن، وقد دلت على ذلك نصوص كثيرة، كقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [القصص: ٦٢]، وقوله: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٦٥]، وقوله: ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ * فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ * فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾ [القارعة: ٦-١١]. وقوله: ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ * تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ * أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام: (٤/ ٣٠٥).

[المؤمنون: ١٠٣-١٠٥] ولا شك أن هذه النصوص في الكفار المشركين.

أما لماذا يحاسبون وتوزن أعمالهم مع أن أعمالهم حابطة مردودة فلأمور:

الأول: إقامة الحجة عليهم، وإظهار عدل الله فيهم، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، وهو صاحب العدل المطلق، ولذلك يسألهم ويحاسبهم، ويطلعهم على سجلاتهم التي حوت أعمالهم، ويظهر الميزان عظم سيئاتهم وشناعة أفعالهم ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

يقول القرطبي: «والباري -سبحانه وتعالى- يسأل الخلق في الدنيا والآخرة تقريراً لإقامة الحجة وإظهاراً للحكمة»[(١)].

الثاني: أن الله يحاسبهم لتوبيخهم وتقريعهم، يقول شيخ الإسلام: «يراد بالحساب عرض أعمال الكفار عليهم وتوبيخهم عليها، ويراد بالحساب موازنة الحسنات بالسيئات، فإن أريد بالحساب المعنى الأول، فلا ريب أنهم محاسبون بهذا الاعتبار.

وإن أريد به المعنى الثاني فإن قصد ذلك أن الكفار تبقى لهم حسنات يستحقون بها الجنة فهذا خطأ ظاهر»[(٢)].

---

(١) تذكرة القرطبي: ٢٢٥.

(٢) مجموع فتاوي شيخ الإسلام: (٤/ ٣٠٥).

وهذا التأنيب والتقريع والتوبيخ ظاهر من نصوص كثيرة كقوله تعالى ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٠]. وقوله: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، وقوله: ﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ * وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ [الشعراء: ٩١-٩٢]، وقوله: ﴿ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴾ [القصص: ٦٤].

قال ابن كثير: «وأما الكفار فتوزن أعمالهم، وإن لم تكن لهم حسنات تنفعهم يقابل بهذا كفرهم، لإظهار شقائهم وفضيحتهم على رؤوس الخلائق»[(١)].

الثالث: أن الكفار مكلفون بأصول الشريعة كما هم مكلفون بفروعها، فيسألون عما قصروا فيه وخالفوا فيه الحق، يقول القرطبي: «وفي القرآن ما يدل على أنهم مخاطبون بها (أي فروع الشريعة) مسؤولون عنها، محاسبون بها، مجزيون على الإخلال بها، لأن الله تعالى يقول: ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [فصلت: ٦-٧]، فتوعدهم على منعهم الزكاة، وأخبر عن المجرمين أنهم يقال لهم: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ * قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [المدثر: ٤٢-٤٦]، فبان بهذا أن المشركين مخاطبون بالإيمان والبعث وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وأنهم مسؤولون عنها، مجزيون بها»[(٢)].

---

(١) النهاية، لابن كثير: (٢/ ٣٥).

(٢) تذكرة القرطبي: ٣٠٩.

الرابع: أن الكفار يتفاوتون في كفرهم وذنوبهم ومعاصيهم، ويحلون في النار بمقدار هذه الذنوب، فالنار دركات بعضها تحت بعض، كما أن الجنة درجات بعضها فوق بعض، وكلما كان المرء أشد كفراً وضلالاً كلما كان أشد عذاباً، وبعض الكفرة يكون في الدرك الأسفل من النار، ومنهم المنافقون ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «عقاب من كثرت سيئاته أعظم من عقاب من قلّت سيئاته، ومن كان له حسنات خففت عنه العذاب، كما أن أبا طالب أخف عذاباً من أبي لهب.. فكان الحساب لبيان مراتب العذاب، لا لأجل دخولهم الجنة»[1]. ويذكر القرطبي في وزن أعمال العباد وجهين:

الأول: أنه يوضع في إحدى الكفتين كفره وسيئاته. ولا يجد الكافر حسنة توضع في الكفة الأخرى، فترجح كفة السيئات لكون كفة الحسنات فارغة.

والثاني: أن حسنات الكافر من صلة رحم، وصدقة، ومواساة للناس توضع في كفة الحسنات، ولكن كفة السيئات ترجح بسبب كفره وشركه[2] والوجه الأول هو الصحيح لأن الشرك يحبط العمل، ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧]. وفي الحديث: «إن الله لا يقبل من العمل

---

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام: (٤/ ٣٠٥).

(٢) تذكرة القرطبي: ٣١٢.

إلا ما كان خالصاً وابتغي به وجهه»[1].

ولأنه قد صح أن الرسول ﷺ أخبر أن الكافر يطعم بحسنته في الدنيا فيوافى يوم القيامة وليس له حسنة، ففي صحيح مسلم، ومسند أحمد أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لا يظلم مؤمناً حسنته، يعطى بها في الدنيا (وفي رواية يثاب عليها الرزق في الدنيا) ويجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بها بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يجزى بها»[2].

توجيه النصوص الدالة على أن الكفار لا يُسألون:

فإن قيل: قررتم فيما سبق أن الكفار يسألون ويجادلون ويتكلمون ويعتذرون، فكيف تفعلون بالنصوص الدالة على خلاف ذلك، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص:٧٨]، وقوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن:٣٩]، وقوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات:٣٥]، ونحو ذلك من النصوص.

فنقول: ليس بين هذه النصوص وتلك تعارض، وقد وفق أهل العلم بينهما بوجوه عدة.

الأول: أن الكفار لا يسألون سؤال شفاء وراحة، وإنما يسألون سؤال

---

(١) رواه النسائي في الجهاد عن أبي أمامة، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة حديث رقم: ٥٢.

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة: (١/ ٨٢) ورقمه: ٥٣.

تقريع وتوبيخ، لم عملتم كذا وكذا؟[1] وكذا يقال في تكليمهم واعتذارهم، أي لا يكلمهم الله بما يحبونه، بل يكلمهم كلام تقريع وتوبيخ[2].

الثاني: أنهم لا يسألون سؤال استفهام، لأنه تعالى عالم بكل أعمالهم، وإنما يسألون سؤال تقرير، فيقال لهم: لم فعلتم كذا؟ قال الحسن وقتادة: لا يسألون عن ذنوبهم، لأن الله حفظها عليهم وكتبتها عليهم الملائكة[3].

الثالث: أنهم يسألون في يوم القيامة في موطن دون موطن، قال القرطبي: «القيامة مواطن، فموطن يكون فيه سؤال وكلام، وموطن لا يكون ذلك»[4].

وقال السفاريني: «وقيل يسألون في موطن دون موطن رواه عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما. . فللناس يوم القيامة حالات، والآيات مخرجة باعتبار تلك الحالات، ومن ثَمَّ قال الإمام أحمد في أجوبته القرآنية: أول ما تبعث الخلائق على مقدار ستين سنة لا ينطقون، ولا يؤذن لهم في الاعتذار فيعتذرون، ثم يؤذن لهم في الكلام فيتكلمون، فذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ [السجدة: ١٢]»[5] الآية، فإذا أذن لهم في الكلام تكلموا، واختصموا، فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣١]، عند الحساب وإعطاء

---

(١) التذكرة للقرطبي: ٢٨٦.

(٢) انظر: تذكرة القرطبي: ٢٨٧.

(٣) لوامع الأنوار البهية: (٢/ ١٧٤).

(٤) تذكرة القرطبي: ٢٨٦.

(٥) لوامع الأنوار البهية: (٢/ ١٧٤).

المظالم، ثم يقال لهم بعد ذلك: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴾ [ق:٢٨]، يعني في الدنيا، فإن العذاب مع هذا القول كائن»[١].

الرابع: قال القرطبي: «أن معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْئَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص:٧٨]، سؤال التعرف لتمييز المؤمنين من الكافرين، أي إن الملائكة لا تحتاج أن تسأل أحداً يوم القيامة أن يقال: ما دينك؟ وما كنت تصنع في الدنيا؟ حتى يتبين لهم بإخباره عن نفسه أنه كان مؤمناً أو كان كافراً، لكن المؤمنين يكونون ناضري الوجوه منشرحي الصدور، ويكون المشركون سود الوجوه زرقاً مكروبين، فهم إذا كلفوا سوق المجرمين إلى النار، وتميزهم في الموقف كفتهم مناظرهم عن تعرف أديانهم..»[٢].

---

(١) لوامع الأنوار البهية: (٢/ ١٧٤).

(٢) تذكرة القرطبي: ٢٨٧.

المبحث الثالث
القواعد التي يحاسب العباد على أساسها

لو عَذَّب الله جميع خلقه لم يكن ظالماً لهم، لأنهم عبيده وملكه، والمالك يتصرف في ملكه كيف يشاء.

ولكن الحق تبارك وتعالى يحاكم عباده محاكمة عادلة، لم تشهد البشرية لها مثيلاً من قبل، وقد بين لنا ربنا في كثير من النصوص جملة القواعد التي تقوم عليها المحاكمة والمحاسبة في ذلك اليوم.

وسنذكر من ذلك ما ظهر لنا من تلك القواعد.

١- العدل التام الذي لا يشوبه ظلم:

يُوَفِّي الحقُّ -عز وجل- عباده في يوم القيامة أجورهم كاملة غير منقوصة، ولا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

وقال لقمان في وصيته لابنه معرفاً إياه بعدل الله: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦].

وقال الحق في موضع آخر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠]، وقال: ﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧]. وقال:

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٤].

وقال تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، فقد أخبر الحق تبارك وتعالى في هذه النصوص أنه يُوفِّي كل عبدٍ عمله، وأنه لا يضيع منه، ولا ينقص منه مقدار الذرة، وهي الهباءة التي في أشعة الشمس إذا دخلت من الطاق، ولا مقدار الفتيل ولا النقير، والفتيل هو الخيط الذي يكون في شق النواة، والنقير: النقرة الصغيرة التي تكون في ظهر النواة.

٢- لا يؤخذ أحد بجريرة غيره:

قاعدة الحساب والجزاء التي تمثل قمة العدل ومنتهاه أن الله يجازي العباد بأعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ولا يحمل الحق تبارك وتعالى أحداً وزر غيره، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١٦٤]. وهذا هو العدل الذي لا عدل فوقه، فالمهتدي يقطف ثمار هدايته، والضال ضلاله على نفسه، ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥].

وهذه القاعدة العظيمة إحدى الشرائع التي اتفقت الرسالات السماوية على تقريرها، قال تعالى: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ * وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ

يُرَىٰ * ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ [النجم: ٣٦-٤١].

يقول القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤] «أي لا تحمل حاملة ثقل أخرى، لا تؤخذ نفس بذنب غيرها، بل كل نفس مأخوذة بجرمها ومعاقبة بإثمها، وأصل الوزر الثقل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح: ٢]، وهو هنا الذنب.. والآية نزلت في الوليد بن المغيرة، كان يقول: اتبعوا سبيلي أحمل أوزاركم، ذكره ابن عباس، وقيل: إنها نزلت رداً على العرب في الجاهلية من مؤاخذة الرجل بأبيه وابنه، وبجريرة حليفه»[1].

الذين يجمعون أثقالاً مع أثقالهم:

قد يعارض بعض أهل العلم هذا الذي ذكرناه من أن الإنسان لا يحمل شيئاً من أوزار الآخرين بمثل قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وقوله: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥].

وهذا الذي ذكروه موافق لما ذكرناه من النصوص، وليس بمعارض لها، فإن هذه النصوص تدل على أن الإنسان يتحمل إثم ما ارتكب من ذنوب، وإثم الذين أضلهم بقوله وفعله، كما أن دعاة الهدى ينالون أجر ما عملوه، ومثل أجر من اهتدى بهديهم، واستفاد بعلمهم، فإضلال هؤلاء لغيرهم هو فعل لهم يعاقبون عليه[2].

---

(١) تفسير القرطبي: (٤/ ١٥٧).

(٢) توسعنا في بحث هذه المسألة في كتابنا (مقاصد المكلفين).

٣- إطلاع العباد على ما قدموه من أعمال:

من إعذار الله لخلقه، وعدله في عباده أن يطلعهم على ما قدموه من صالح أعمالهم وطالحها، حتى يحكموا على أنفسهم، فلا يكون لهم بعد ذلك عذر.

قال تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وقال: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقال: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ٥]، وقال: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وإطلاع العباد على ما قدموه يكون بإعطائهم صحائف أعمالهم، وقراءتهم لها، فقد أخبرنا ربنا -تبارك وتعالى- أنه وكل بكل واحد منا ملكين يسجلان عليه صالح أعماله وطالحها، فإذا مات ختم على كتابه، فإذا كان يوم القيامة أعطى العبد كتابه، وقيل له: اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً.

قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣-١٤].

وهو كتاب شامل لجميع الأعمال كبيرها وصغيرها ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

٤- مضاعفة الحسنات دون السيئات:

ومن رحمته أن يضاعف أجر الأعمال الصالحة ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [التغابن: ١٧].

وأقل ما تضاعف به الحسنة عشرة أضعاف ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]. أما السيئة فلا تجزى إلا مثلها ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]. وهذا مقتضى عدله تبارك وتعالى.

وقد روى الحاكم في مستدركه، وأحمد في مسنده بإسناد حسن عن أبي ذر رضي الله عنه قال: حدثنا الصادق المصدوق فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: «الحسنة بعشر أمثالها أو أزيد. والسيئة واحدة أو أغفرها، ولو لقيتني بقراب الأرض خطايا ما لم تشرك بي، لقيتك بقرابها مغفرة»[(١)].

ومن الأعمال التي أخبر الرسول ﷺ أنها تضاعف عشرة أضعاف قراءة القرآن، ففي الحديث الذي يرويه الترمذي والدارمي بإسناد صحيح عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله، فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها. لا أقول: ﴿الٓمٓ﴾ حرف. ألف حرف. ولام حرف. وميم حرف» وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. غريب إسناداً[(٢)].

وأخبرنا رسولنا صلوات الله وسلامه عليه أيضاً أن الذكر يضاعف عشرة أضعاف، ففي سنن الترمذي والنسائي وأبي داود عن عبد الله بن عمرو بن

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة، ورقم الحديث: ١٢٨.

(٢) مشكاة المصابيح: (١/ ٦٦١) رقم الحديث: ٢١٣٧.

العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «خصلتان -أو خلتان لا يحصيهما رجل مسلم إلا دخل الجنة، وهما يسيرٌ، ومن يعمل بهما قليل: يسبح الله في دُبُر كل صلاة عشراً، ويحمده عشراً، ويكبِّره عشراً، فلقد رأيت رسول الله ﷺ يعقدها بيده، قال: فتلك خمسون ومائة باللسان، وألف وخمسمائة في الميزان، وإذا أخذت مضجعك تسبحه وتكبره وتحمده مائة، فتلك مائة باللسان، وألف في الميزان، فأيكم يعمل في اليوم والليلة ألفين وخمسمائة سيئة؟ قالوا: فكيف لا نحصيها؟ قال: يأتي أحدكم الشيطان وهو في صلاته، فيقول: اذكر كذا، اذكر كذا، حتى ينفتل، فلعله لا يفعل، ويأتيه وهو في مضجعه، فلا يزال ينومه حتى ينام»، أخرجه الترمذي والنسائي.

وفي رواية أبي داود بعد قوله: «في الميزان» الأولى، قال: «ويكبر أربعاً وثلاثين إذا أخذ مضجعه، ويحمد ثلاثاً وثلاثين، ويسبح ثلاثاً وثلاثين، فذلك مائة باللسان، وألف في الميزان، فلقد رأيت رسول الله ﷺ يعقدها بيده.

قالوا: يا رسول الله، كيف هما يسيرٌ، ومن يعمل بهما قليل؟ قال: يأتي أحدكم الشيطان في منامه، فينومه قبل أن يقوله، ويأتيه في صلاته فيذكره حاجته قبل أن يقولها»[1].

وحدثنا رسولنا ﷺ في حديث الإسراء الذي يرويه البخاري وغيره تردده ﷺ بين ربه وموسى، حيث كان يشير عليه موسى في كل مرة أن يرجع إلى ربه، فيسأله أن يخفف عنه من الصلاة، حتى أصبحت خمساً بعد أن

(١) جامع الأصول: (٤/ ٣٧٢). رقم الحديث: ٢١٤٨.

كانت خمسين. . قال في ختام ذلك: «قال الجبار تبارك وتعالى: إنه لا يبدل القول، كما فرضت عليك في أم الكتاب، فكل حسنة بعشر أمثالها، فهي خمسون في أم الكتاب، وهي خمس عليك. فرجع إلى موسى. فقال: كيف فعلت؟ قال: خففت عنا، أعطانا بكل حسنة عشر أمثالها».

وقد يضاعفها أكثر من ذلك، وقد تصل المضاعفة إلى سبعمائة ضعف، وأكثر من ذلك، ومن ذلك أجر المنفق في سبيل الله، قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١]، قال ابن كثير: هذا مثل ضربه الله لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته، وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف. فقال: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٦١] قال سعيد بن جبير: «يعني في طاعة الله». وقال مكحول: يعني به الإنفاق في الجهاد من رباط الخيل وإعداد السلاح وغير ذلك. وعن ابن عباس: الجهاد والحج يضعف الدرهم فيها إلى سبعمائة ضعف»[1].

وأورد ابن كثير عند تفسير هذه الآية الحديث الذي يرويه مسلم والنسائي وأحمد عن عبد الله بن مسعود أن رجلاً تصدق بناقة مخطومة في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: «لتأتين يوم القيامة بسبعمائة مخطومة» هذا لفظ أحمد والنسائي. ولفظ مسلم: جاء رجل بناقة مخطومة، فقال: يا رسول الله. هذه في سبيل الله، فقال: «لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة»[2].

---

(١) تفسير ابن كثير: (١/ ٥٦١).

(٢) تفسير ابن كثير: (١/ ٥٦٢).

ومن الأعمال التي تضاعف أضعافاً لا تدخل تحت حصر، ولا يحصيها إلا الذي يجزى بها: الصوم، ففي الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم وأحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله تعالى: «إلا الصوم فإنه لي: وأنا أجزي به»[1].

والسر في كون الصائم يعطى من غير تقدير، أن الصوم من الصبر، والصابرون يوفون أجورهم بغير حساب، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، قال القرطبي: «وقال أهل العلم: كل أجر يكال كيلاً، ويوزن وزناً إلا الصوم، فإنه يحثى حثواً ويغرف غرفاً»[2].

ومن الصبر: الصبر على فجائع الدنيا وأحزانها وكربها التي يبتلي الله بها عباده ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

وعندما يرى أهل العافية عظم أجر الصابرين يتمنون أن تكون جلودهم قرضت بالمقاريض لينالوا أجر الصابرين، ففي سنن الترمذي عن جابر، ومعجم الطبراني عن ابن عباس بإسناد حسن أن رسول الله ﷺ قال: «لَيَودَّن أهل العافية يوم القيامة، أن جلودهم قرضت بالمقاريض، مما يرون من ثواب أهل البلاء»[3].

---

(١) مشكاة المصابيح: (١/٦١٣)، ورقمه: ١٩٥٩. وهو في صحيح مسلم، ورقمه: ١١٥١ ورواه البخاري في مواضع: ١٨٩٤، ١٩٠٤، ٥٩٢٧. واللفظ لمسلم.

(٢) تفسير القرطبي: (١٥/ ٢٤٠).

(٣) صحيح الجامع الصغير: (٥/ ١١١)، ورقم الحديث: ٥٣٦٠.

ومن فضل الله تبارك وتعالى أنَّ المؤمن الذي يهم بفعل الحسنة، ولكنه لا يفعلها تكتب له حسنة تامة، والذي يهم بفعل السيئة، ثم تدركه مخافة الله، فيتركها تكتب له حسنة تامة، ففي صحيح البخاري، عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل، قال: «إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بيَّن ذلك، فمن همَّ بحسنة فلم يعملها، كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو همَّ بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، ومن هَمَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو هَمَّ بها، فعملها، كتبها الله له سيئة واحدة»[1].

تبديل السيئات حسنات:

وتبلغ رحمة الله بعباده وفضله عليهم أن يبدِّل سيئاتهم حسنات، ففي الحديث الذي يرويه مسلم في صحيحه عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة، وآخر أهل النار خروجاً منها. رجل يؤتى به يوم القيامة. فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، فيقال: عملت يوم كذا وكذا، وعملت يوم كذا وكذا، كذا وكذا.

فيقول نعم: لا يستطيع أن ينكر. وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه.

فيقال له: فإن لك مكانا كل سيئة حسنة.

فيقول: رب، عملت أشياء لا أراها ها هنا».

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب من هم بحسنة أو سيئة، فتح الباري: (١١/ ٣٢٣).

فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه[1].

٥- إقامة الشهود على الكفرة والمنافقين:

أعظم الشهداء في يوم المعاد على العباد هو ربهم وخالقهم وفاطرهم، الذي لا تخفى عليه خافية من أحوالهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٣٣].

ولكن الله يحب الإعذار إلى خلقه، فيبعث من مخلوقاته شهداء على المكذبين الجاحدين حتى لا يكون لهم عذر، وقد أشارت أكثر من آية إلى الشهداء الذين يشهدون على العباد، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]، وقوله تعالى: ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ [الزمر: ٦٩].

وأول من يشهد على الأمم رسلها، فيشهد كل رسول على أمته بالبلاغ، ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ [النحل: ٨٩].

وقوله: ﴿شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾، هم الرسل، لأن كل أمة رسولها منها، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] وقال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ [القصص: ٧٥].

---

(١) صحيح مسلم: (١/ ١٧٧). ورقم الحديث: ١٩٠.

وكما يشهدون على أممهم بالبلاغ يشهدون عليهم بالتكذيب، ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩]، وقال: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦-٧].

قال ابن كثير في تفسير الآية الأولى: «هذا إخبار عما يخاطب الله به المرسلين يوم القيامة عما أجيبوا به من أممهم الذين أرسلوا إليهم، . . . وقول الرسل: (لا علم لنا) قال مجاهد والحسن البصري والسدي: إنما قالوا ذلك من هول ذلك اليوم.. وقال ابن عباس: لا علم لنا إلا علم أنت أعلم به منا، رواه ابن جرير ثم اختاره، ولا شك أنه قول حسن، وهو من باب التأدب مع الله عز وجل، أي لا علم لنا بالنسبة إلى علمك المحيط بكل شيء، فنحن وإن كنا أجبنا وعرفنا ما أجبنا، ولكن منهم من كنا إنما نطلع على ظاهره لا علم لنا بباطنه، وأنت العليم بكل شيء، المطلع على كل شيء، فعلمنا بالنسبة إلى علمك كلا شيء»[1].

ثم إن الأمم تكذب رسلها، وتقول كل أمة ما جاءنا من نذير، فتأتي هذه الأمة: أمة محمد ﷺ وتشهد للرسل بالبلاغ، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقد أورد البخاري في صحيحه في كتاب التفسير الحديث الذي رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يدعى نوح يوم القيامة، فيقول: لبيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلغتَ؟ فيقول: نعم،

---

(١) تفسير ابن كثير: (٢/ ٦٧٦).

فيقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير. فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته. فيشهدون أنه قد بلغ، ويكون الرسول عليكم شهيداً، فذلك قوله جل ذكره: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]»[1].

وقد أفاد ابن حجر أنه قد جاء الحديث عند أحمد والنسائي وابن ماجة بلفظ: «يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجل، ويجيء النبي ومعه الرجلان، ويجيء النبي ومعه أكثر من ذلك. قال: فيقال لهم: أبلغكم هذا؟ فيقولون: لا، فيقال للنبي: أبلغتهم؟ فيقول: نعم، فيقال له: من يشهد لك؟..» الحديث. وذكر ابن حجر أيضاً أن في بعض روايات الحديث زيادة: «فيقال ما علمكم؟ فيقولون: أخبرنا نبينا أن الرسل قد بلغوا فَصَدَّقناه»[2].

ومن الأشهاد الأرض والأيام والليالي، تشهد بما عمل فيها وعليها، ويشهد المال على صاحبه، وقد عقد القرطبي في تذكرته لهذا الموضوع باباً، وذكر فيه حديث الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ [الزلزلة: ٤]. قال: «أتدرون ما أخبارها؟ قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها، تقول: عمل يوم كذا، كذا وكذا، فهذه أخبارها».

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

---

(١) صحيح البخاري: (٤٤٨٧)، كتاب التفسير: (٨/ ١٧١).

(٢) فتح الباري: (٨/ ١٧٢).

ويشهد على العبد أيضاً ملائكة الرحمن الذين كانوا يسجلون عليه صالح أعماله وطالحها، كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١]، والسائق والشهيد الملكان اللذان كانا موكلين بتلك النفس.

وتشهد الملائكة على العباد بما كانوا يعملون، ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [هود: ١٨]، فإذا لج العبد في الخصومة، وكذَّب ربَّه، وكذب الشهود الذين شهدوا عليه، أقام الله عليه شاهداً منه، فتشهد على المرء أعضاؤه، وقد مضى بيان هذا.

المبحث الرابع
ما يُسأل عنه العباد

يسأل العباد عن الإله الذي كانوا يعبدونه، وعن إجابتهم للمرسلين، وقد بينا ذلك فيما مضى.

ويسألون عن أعمالهم التي عملوها، وعما تمتعوا به من النعيم في الحياة الدنيا، كما يسألون عن عهودهم ومواثيقهم، وعن أسماعهم وأبصارهم وأفئدتهم، وهذا ما سنبينه في هذا المبحث.

١- الكفر والشرك:

أعظم ما يسأل عنه العباد هو كفرهم وشركهم، فيسألهم عن الشركاء والأنداء الذين كانوا يعبدونه من دون الله كما قال تعالى: ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴾ [الشعراء: ٩٢-٩٣]، ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [القصص: ٦٢].

ويسألون عن عبادتهم لغير الله من تقديم القرابين للآلهة التي كانوا يعبدونها، ونحر الذبائح باسمها ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ [النحل: ٥٦].

ويسألون عن تكذيبهم للرسل: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ * فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [القصص: ٦٥-٦٦].

٢- ما عمله في دنياه:

يسأل المرء في يوم القيامة عن جميع أعماله التي عملها في الحياة الدنيا، كما قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣]. وقال: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]، وفي سنن الترمذي عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة، حتى يسأل عن عمره فيم أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟ وعن جسمه فيم أبلاه؟»(١).

وفي سنن الترمذي أيضاً عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربه، حتى يسأل عن خمس: عن عمره فيم أفناه؟ وعن شبابه فيم أبلاه؟ وعن ماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه، وماذا عمل فيما علم»(٢).

والذي يتأمل في مثل هذا الحديث يعلم السر في دعوة الرسول ﷺ المسلم إلى التخفف من المال، فكلما كثر مال العبد كثر حسابه وطال، وكلما قل ماله خف حسابه وأسرع به إلى الجنة، وقد أخبرنا الرسول ﷺ أن فقراء المهاجرين يسبقون أغنياءهم إلى الجنة بأربعين سنة، ففي صحيح مسلم عن أبي عبد الرحمن الحُبلي قال: جاء ثلاثة نفر إلى عبد الله بن

---

(١) سنن الترمذي: ٢٤١٧. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وكذا رمز له الشيخ ناصر بالصحة في صحيح الجامع: (٦/١٤٨)، ورقمه: ٧١٧٧ وهو في صحيح سنن الترمذي: ١٩٧٠.

(٢) جامع الأصول: (١٠/٤٣٧)، ورقمه: ٧٩٧٠. وهو حديث حسن صحيح كما قال محقق جامع الأصول، وقد حسنه الشيخ ناصر في صحيح الجامع: (٦/١٤٨)، ورقمه: ٧١٧٦. وهو في صحيح سنن الترمذي: ١٩٦٩. ورقمه في سنن الترمذي: ٢٤١٦.

عمرو بن العاص، وأنا عنده، فقالوا: يا أبا محمد، إنا والله، ما نقدر على شيء، لا نفقة، ولا دابة، ولا متاع. فقال: ما شئتم إن شئتم رجعتم إلينا فأعطيناكم ما يسر الله لكم. وإن شئتم ذكرنا أمركم للسلطان. وإن شئتم صبرتم. فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء، يوم القيامة إلى الجنة بأربعين خريفاً»[1].

٣- النعيم الذي يتمتع به:

يسأل الله عباده في يوم القيامة عن النعيم الذي خولهم إياه في الدنيا، كما قال: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨].

يعني بالنعيم شبع البطون، وبارد الماء، وظلال المساكن، واعتدال الخلق، ولذة النوم، وقال سعيد بن جبير: حتى عن شربة عسل. وقال مجاهد: عن كل لذة من لذات الدنيا. وقال الحسن البصري: من النعيم الغذاء والعشاء. وقال أبو قلابة: من النعيم أكل السمن والعسل بالخبز النقي. وعن ابن عباس: النعيم صحة الأبدان والأسماع والأبصار[2].

وهذا الذي فسروها به من باب التنوع في التفسير، فإن أصناف النعيم كثيرة لا تعد ولا تحصى ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وبعض أنواع النعيم من الضروريات وبعضها من الكماليات، والناس يتفاوتون في ذلك فيما بينهم، ويوجد في عصر مالا يجده أهل عصور أخرى، وفي بلد ما لا يجده أهل بلاد أخرى، وكل ذلك يسأل عنه العباد.

روى الترمذي بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن

---

(١) صحيح مسلم: (٤/ ٢٢٨٥). ورقمه: ٢٩٧٩.

(٢) تفسير ابن كثير: ٧/ ٣٦٤.

أول ما يسأل العبد عنه يوم القيامة من النعيم أن يقال له: ألم نصح لك جسمك؟ ونُـرَوِّكَ من الماء البارد»[1].

وبعض الناس لا يستشعر النعم العظيمة التي وهبه الله إياها، فلا يدرك النعمة التي في شربة الماء، ولقمة الطعام، وفيما وهبه الله من مسكن وزوجة وأولاد، ويظن أن النعم تتمثل في القصور والبساتين والمراكب فحسب، فقد سأل رجل عبد الله بن عمرو بن العاص فقال: ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال له عبد الله: ألك امرأة تأوي إليها؟ قال: نعم. قال: ألك مسكن تسكنه؟ قال: نعم. قال: فأنت من الأغنياء. قال فإن لي خادماً. قال: فأنت من الملوك[2].

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ»[3]، ومعنى هذا أنهم مقصرون في شكر هاتين النعمتين، لا يقومون بواجبهما، ومن لا يقوم بحق ما وجب عليه فهو مغبون.

وفي مسند أحمد أن رسول الله ﷺ قال: «لا بأس بالغنى لمن اتقى الله عز وجل، والصحة لمن اتقى الله خير من الغنى، وطيب النفس من النعيم»[4].

وفي بعض الأحاديث النبوية بيان من الرسول ﷺ عن صورة من صور السؤال عن النعيم الذي يواجه الله به عباده في ذلك اليوم، ففي صحيح

---

(١) مشكاة المصابيح: (٢/ ٦٥٦) ورقمه: (٥١٩٦)، وقال محقق المشكاة: إسناده صحيح.

(٢) صحيح مسلم: (٤/ ٢٢٨٥) ورقم الحديث: ٢٩٧٩.

(٣) صحيح البخاري: ٦٤١٢.

(٤) مشكاة المصابيح: (٢/ ٦٧٦)، ورقمه: ٥٢٩٠، وعزاه المحقق إلى ابن ماجة، وقال: إسناده صحيح.

مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يلقى (الرب) العبد فيقول: أي فُل[1]، ألم أكرمك، وأسودك، وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى. قال: فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ قال: فيقول: لا. فيقول: فإني أنساك كما نسيتني.

ثم يلقى الثاني فيقول: أي فلُ، ألم أكرمك، وأسودك، وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى. أي رب، فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا. فيقول: فإني أنساك كما نسيتني.

ثم يلقى الثالث، فيقول له مثل ذلك. فيقول: يا رب آمنت بك وبكتابك وبرسلك وصليت وصمت وتصدقت، ويثني بخير ما استطاع. فيقول: ههنا اذن[2].

قال: ثم يقال له: الآن نبعث عليك شاهداً عليك، ويتفكر في نفسه: من ذا يشهد علي؟ فيختم الله على فيه. ويقال لفخذه ولحمه وعظامه: انطقي فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله. وذلك ليعذر من نفسه.

وذلك المنافق الذي يسخط الله عليه»[3].

والسؤال عن النعيم سؤال عن شكر العبد لما أنعم الله به عليه، فإذا شكر فقد أدى حق النعمة، وإن أبى وكفر، أغضب عليه الله، ففي صحيح مسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة، فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها»[4].

---

(١) فل، أي: يا فلان.

(٢) معناه قف: ههنا إذن.

(٣) رواه مسلم في صحيحه: (٤/ ٢٢٨٠)، ورقمه: ٢٩٦٨.

(٤) صحيح مسلم: ٢٧٣٤.

٤- العهود والمواثيق:

يسأل الله عباده عما عاهدوه عليه ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴾ [الأحزاب: ١٥]، وكل عهد مشروع بين العباد فإن الله سائل العبد عن الوفاء به ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٤].

٥- السمع والبصر والفؤاد:

يسأل الله العباد عن جميع ما يقولونه، ولذلك حذرهم من القول بلا علم ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦]، قال قتادة: «لا تقل رأيت ولم تر، وسمعت ولم تسمع، وعلمت ولم تعلم، فإن الله سائلك عن ذلك كله»(١).

قال ابن كثير: «ومضمون ما ذكروه في الآية أن الله نهى عن القول بغير علم، بل بالظن، الذي هو التوهم والخيال. كما قال تعالى: ﴿ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات: ١٢]. وفي الحديث: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث»، وفي سنن أبي داود بئس مطية الرجل: (زعموا) وفي الحديث الآخر: «إن أفرى الفرى أن يُرِي الرجلُ عينيه ما لم تريا» وفي الصحيح: «من تحلم حلماً كُلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين وليس بفاعل»(٢).

---

(١) تفسير ابن كثير: (٤/٣٠٨).

(٢) تفسير ابن كثير: (٤/٣٠٨).

المبحث الخامس
أول ما يحاسب عليه العبد من أعماله

أول ما يحاسب عليه العبد من حقوق الله تبارك وتعالى الصلاة، فإن صلحت أفلح ونجح وإلا خاب وخسر، ففي سنن الترمذي والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر، فإن انتقص من فريضته شيئاً. قال الرب تبارك وتعالى: انظروا هل لعبدي من تطوع فيكمل بها ما انتقص من الفريضة، ثم يكون سائر عمله على ذلك»[1].

وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن أول ما يحاسب الناس به يوم القيامة من أعمالهم الصلاة، قال: يقول ربنا -عز وجل- لملائكته: انظروا في صلاة عبدي، أتمها أم نقصها؟ فإن كانت تامة كتبت له تامة، وإن كان انتقص منها شيئاً، قال: انظروا، هل لعبدي من تطوع، فإن كان له تطوع، قال: أتموا لعبدي فريضته من تطوعه، ثم تؤخذ الأعمال بعد ذلك»[2].

---

(١) جامع الأصول: (١٠/ ٤٣٤)، ورقمه: ٧٩٦٤، وعزاه في صحيح الجامع إلى الترمذي والنسائي وابن ماجة، وصححه. صحيح الجامع: (٢/ ١٨٤)، ورقمه: ٢٠١٦.

(٢) جامع الأصول: (١٠/ ٤٣٥)، ورقمه: ٧٩٦٥، وعزاه الشيخ ناصر في صحيح الجامع إلى أبي داود وأحمد والنسائي والحاكم. وقال فيه: صحيح. صحيح الجامع: (٢/ ٣٥٢)، ورقمه: ٢٥٦٨.

المبحث السادس
أنواع الحساب وأمثلة لهذه الأنواع

المطلب الأول

أنواع الحساب

يتفاوت حساب العباد، فبعض العباد يكون حسابهم عسيراً وهؤلاء هم الكفرة المجرمون الذين أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً، وتمردوا على شرع الله، وكذبوا الرسل، وبعض عصاة الموحدين قد يطول حسابهم ويعسر بسبب كثرة الذنوب وعظمها.

وبعض العباد يدخلون الجنة بغير حساب، وهم فئة قليلة لا يجاوزون السبعين ألفاً، وهم الصفوة من هذه الأمة، والقمم الشامخة في الإيمان والتقى والصلاح والجهاد، وسيأتي ذكرهم وصفتهم عند الحديث عن أهل الجنة وبعض العباد يحاسبون حساباً يسيراً، وهؤلاء لا يناقشون الحساب، أي لا يدقق، ولا يحقق معهم، وإنما تعرض عليهم ذنوبهم ثم يتجاوز لهم عنها.

وهذا معنى قوله تبارك وتعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۞ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق:٧-٨]، ففي صحيح البخاري ومسلم عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك، فقلت: يا رسول الله، أليس قد قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ۞

فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٧-٨]، فقال رسول الله ﷺ: «إنما ذلك العرض، وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا هلك»[١].

قال النووي في شرحه للحديث: «معنى نوقش الحساب: استقصي عليه. قال القاضي: وقوله: (عذب) له معنيان: أحدهما: أن نفس المناقشة وعرض الذنوب والتوقيف عليها هو التعذيب لما فيه من التوبيخ. والثاني: أنه مفض إلى العذاب بالنار ويؤيده قوله في الرواية الأخرى: (هلك) مكان (عذب) هذا كلام القاضي.

قال النووي: وهذا الثاني هو الصحيح، ومعناه أن التقصير غالب في العباد فمن استقصي عليه، ولم يسامح هلك، ودخل النار، ولكن الله تعالى يعفو ويغفر ما دون الشرك لمن يشاء»[٢].

ونقل ابن حجر عن القرطبي في معنى قوله: «إنما ذلك العرض» قال: «إن الحساب المذكور في الآية إنما هو أن تعرض أعمال المؤمن عليه حتى يعرف مِنَّة الله عليه في سترها عليه في الدنيا، وفي عفوه عنها في الآخرة»[٣].

والمراد بالعرض -كما هو ظاهر من هذه الأحاديث- عرض ذنوب المؤمنين عليهم، كي يدركوا مدى نعمة الله عليهم في غفرانها لهم.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب من نوقش الحساب عذب، فتح الباري: (١١/ ٤٠٠)، وصحيح مسلم: (٤/ ٢٢٠٤)، ورقمه: ٢٨٧٦، واللفظ للبخاري.

(٢) النووي على مسلم: (١٧/ ٢٠٨).

(٣) فتح الباري: (١١/ ٤٠٢).

المطلب الثاني

أمثلة هذه الأنواع

ورد في السنة النبوية مشاهد للمناقشة والعرض والمعاتبة التي تكون من الله لعباده، وسنسوق لكل واحد من هذه الأنواع الثلاثة مشهداً مما صح في السنة.

١- مناقشة المرائين:

روى مسلم والترمذي والنسائي عن شفي بن ماتع الأصبحي رحمه الله أنه دخل المدينة، فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس، فقال: من هذا؟ فقالوا: أبو هريرة، فدنوت منه، حتى قعدت بين يديه، وهو يحدث الناس، فلما سكت وخلا، قلت له: أسألك بحق وحق، لما حدثتني حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ عقلته وعلمته، فقال أبو هريرة: أفعل، لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ، عقلته وعلمته، ثم نشغ أبو هريرة نشغة، فمكثنا قليلاً، ثم أفاق، فقال: لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ في هذا البيت، ما معنا أحدٌ غيري وغيره، ثم نشغ أبو هريرة نشغة أخرى، ثم أفاق ومسح عن وجهه، وقال: أفعل، لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ، أنا وهو في هذا البيت، ما معنا أحدٌ غيري وغيره، ثم نشغ أبو هريرة نشغة شديدة، ثم مال خاراً على وجهه، فأسندته طويلاً، ثم أفاق، فقال:

حدثني رسول الله ﷺ: أن الله إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم وكل أمة جاثية، فأول من يدعو به رجل جمع القرآن، ورجل قتل في سبيل الله، ورجلٌ كثير المال، فيقول الله للقارىء: ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي؟ قال: بلى، يا رب، قال: فماذا عملت فما علمت؟ قال: كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله له: بل أردت أن يقال: فلان قارىء، وقد قيل ذلك.

ويؤتى بصاحب المال فيقول الله: ألم أوسع عليك، حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال: بلى، يا رب، قال: فماذا عملت فيما آتيتك؟ قال: كنت أصل الرحم، وأتصدق، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله: بل أردت أن يقال: فلان جواد، فقيل ذلك.

ثم يؤتى بالذي قتل في سبيل الله، فيقول الله: في ماذا قتلت؟ فيقول: أمرت بالجهاد في سبيلك، فقاتلت حتى قتلت، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله: بل أردت أن يقال: فلان جريء، فقد قيل ذلك. ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي، فقال: يا أبا هريرة، أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة».

قال الوليد أبو عثمان المدائني: فأخبرني عقبة بن مسلم: أن شفياً هو الذي دخل على معاوية فأخبره بهذا.

قال أبو عثمان: وحدثني العلاء بن أبي حكيم: «أنه كان سيافاً لمعاوية، فدخل عليه رجل، فأخبره بهذا عن أبي هريرة، فقال معاوية: قد فُعِل بهؤلاء هكذا، فكيف بمن بقي من الناس؟ ثم بكى معاوية بكاءً

شديداً، حتى ظننا أنه هالك، وقلنا: قد جاء هذا الرجل بشر، ثم أفاق معاوية، ومسح عن وجهه، وقال: صدق الله ورسوله: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥-١٦]. أخرجه الترمذي.

وفي رواية مسلم والنسائي عن سليمان بن يسار: قال: «تفرق الناس عن أبي هريرة، فقال له ناتل أخو أهل الشام: أيها الشيخ حدثني حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ؟ فقال: نعم سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أول الناس يقضي يوم القيامة عليه: رجل استشهد، فأتي به، فعرفه نعمه، فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، فقال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال: جريء، فقد قيل، ثم أمر به، فَسُحب على وجهه، حتى ألقي في النار. ورجل تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن، فأوتي به، فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنه تعلمت العلم ليقال: عالمٌ، وقرأت القرآن ليقال: هو قارىء، فقد قيل، ثم أمر به، فسحب على وجهه، حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرفه بنعمه، فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار».

٢- عرض الرب ذنوب عبده عليه:

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يدني المؤمن، فيضع عليه كنفه، ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا، أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي رب. حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه هلك، قال: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطى كتاب حسناته. وأما الكافرون والمنافقون فيقول الأشهاد: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨]»[(١)].

قال القرطبي في قوله: «فيضع عليه كنفه» أي: ستره ولطفه وإكرامه، فيخاطب خطاب ملاطفة، ويناجيه مناجاة المصافاة والمحادثة، فيقول له: هل تعرف؟ فيقول: رب أعرف، فيقول الله ممتناً عليه، ومظهراً فضله لديه: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، أي لم أفضحك بها فيها، وأنا أغفرها لك اليوم[(٢)].

٣- معاتبة الرب عبده فيما وقع منه من تقصير:

وقد حدثنا الرسول ﷺ عن معاتبة الرب لعبده يوم القيامة، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يقول يوم القيامة: يا ابن آدم، مرضت فلم تعدني.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب قوله تعالى: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فتح الباري: (٥/ ٩٦)، وصحيح مسلم: (٤/ ٢١٢٠)، ورقمه: ٢٧٦٨.

(٢) تذكرة القرطبي: ٢٦٣.

قال: يا رب كيف أعودك وأنت ربُّ العالمين؟

قال: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟

يا ابن آدم، استطعمتك فلم تطعمني؟

قال: يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟

قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟

يا ابن آدم، استسقتيك فلم تسقني؟

قال: يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟

قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه؟ أما علمت أنك لو سقيته وجدت ذلك عندي؟»[1].

---

(١) مشكاة المصابيح: (١/ ٤٨٦)، ورقم الحديث: ١٥٢٨.

المبحث السابع

إيتاء العباد كتبهم

في ختام مشهد الحساب يعطى كل عبد كتابه المشتمل على سجل كامل لأعماله التي عملها في الحياة الدنيا وتختلف الطريقة التي يؤتى بها العباد كتبهم، فأما المؤمن فإنه يؤتى كتابه بيمينه من أمامه، فيحاسب حساباً يسيراً، وينقلب إلى أهله في الجنة مسروراً ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: ٧-٩]، وإذا اطلع المؤمن على ما تحويه صحيفته من التوحيد وصالح الأعمال سر واستبشر، وأعلن هذا السرور، ورفع به صوته، ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ * إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ١٩-٢٤].

وأما الكافر والمنافق وأهل الضلال فإنهم يُؤتون كتبهم بشمالهم من وراء ظهورهم، وعند ذلك يدعو الكافر بالويل والثبور، وعظائم الأمور ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ * فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا * وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ [الانشقاق: ١٠-١٢]. ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ * مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ * خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ [الحاقة: ٢٥-٣١].

وعندما يعطى العباد كتبهم يقال لهم: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩].

المبحث الثامن
تصوير القرطبي لمشهد الحساب

قال القرطبي مصوراً مشهد الحساب: «فإذا بعث العباد من قبورهم إلى الموقف، وقاموا فيه ما شاء الله، حفاة عراة، وجاء وقت الحساب الذي يريد الله أن يحاسبهم فيه، أمر بالكتب التي كتبها الكرام الكاتبون بذكر أعمال الناس فأتوها، فمنهم من يؤتى كتابه بيمينه، فأولئك هم السعداء، ومنهم من يؤتى كتابه بشماله أو وراء ظهره، وهم الأشقياء، فعند ذلك يقرأ كل كتاب به، وأنشدوا:

مثل وقوفك يوم العرض عرياناً ... مستوحشاً قلق الأحشاء حيرانا
والنار تلهَّب من غيظ ومن حنق ... على العصاة ورب العرش غضبانا
اقرأ كتابك يا عبدي على مهل ... فهل ترى فيه حرفاً غير ما كانا
لما قرأت ولم تنكر قراءته ... إقرار من عرف الأشياء عرفانا
نادى الجليل خذوه يا ملائكتي ... امضوا بعبد عصا للنار عطشانا
المشركون غداً في النار يلتهبوا ... والمؤمنون بدار الخلد سكانا

فتوهم نفسك يا أخي إذا تطايرت الكتب، ونصبت الموازين، وقد نوديت باسمك على رؤوس الخلائق: أين فلان بن فلان؟ هلم إلى العرض على الله تعالى. وقد وكلت الملائكة بأخذك، فقربتك إلى الله، لا يمنعها اشتباه الأسماء باسمك واسم أبيك، إذ عرفت أنك المراد بالدعاء

إذا قرع النداء قلبك، فعلمت أنك المطلوب، فارتعدت فرائصك، واضطربت جوارحك، وتغير لونك، وطار قلبك، تخطى بك الصفوف إلى ربك للعرض عليه، والوقوف بين يديه، وقد رفع الخلائق اليك أبصارهم، وأنت في أيديهم، وقد طار قلبك، واشتد رعبك، لعلمك أين يراد بك.

فتوهم نفسك، وأنت بين يدي ربك، في يدك صحيفة مخبرة بعملك، لا تغادر بلية كتمتها، ولا مخبأة أسررتها، وأنت تقرأ ما فيها بلسان كليل، وقلب منكسر، والأهوال محدقة بك من بين يديك ومن خلفك، فكم من بلية قد كنت نسيتها ذكركها! وكم من سيئة قد كنت أخفيتها قد أظهرها وأبداها! وكم من عمل ظننت أنه سلم لك وخلص فرده عليك في ذلك الموقف وأحبطه بعد أن كان أملك فيه عظيماً! فيا حسرة قلبك، ويا أسفك على ما فرطت فيه من طاعة ربك.

فأما من أوتي كتابه بيمينه، فعلم أنه من أهل الجنة، فيقول: هاؤم اقرأوا كتابية، وذلك حين يأذن الله، فيقرأ كتابه، فإذا كان الرجل رأساً في الخير يدعو إليه، ويأمر به، ويكثر تبعه عليه، دعي باسمه واسم أبيه، فيتقدم حتى إذا دنى أخرج له كتاب أبيض، في باطنه السيئات، وفي ظاهره الحسنات، فيبدأ بالسيئات فيقرؤها فيشفق ويصفر وجهه ويتغير لونه، فإذا بلغ آخر الكتاب، وجد فيه: هذه سيئاتك، وقد غفرت لك، فيفرح عند ذلك فرحاً شديداً، ثم يقلب كتابه، فيقرأ حسناته، فلا يزداد إلا فرحاً، حتى إذا بلغ آخر الكتاب وجد فيه: هذه حسناتك، قد ضوعفت لك، فيبيض وجهه، ويؤتى بتاج، فيوضع على رأسه، ويكسى حلتين، ويحلى كل مفصل فيه، ويطول ستين ذراعاً، وهي قامة آدم. ويقال له: انطلق إلى أصحابك فبشرهم، وأخبرهم أن لكل إنسان منهم مثل هذا، فإذا أدبر قال:

﴿ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ * إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ . قال الله تعالى: ﴿ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ١٩-٢١]، أي مرضية، قد رضيها ﴿ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾، في السماء ﴿ قُطُوفُهَا ﴾، ثمارها وعناقيدها ﴿ دَانِيَةٌ ﴾ أدنيت منهم. فيقول لأصحابه: هل تعرفوني؟ فيقولون: قد غمرتك كرامة الله، من أنت؟ فيقول: أنا فلان بن فلان، ليبشر كل رجل منكم بمثل هذا ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾[1] أي قدمتم في أيام الدنيا.

وإذا كان الرجل رأساً في الشر يدعو إليه، ويأمر به، فيكثر تبعه عليه، ونودي باسمه واسم أبيه، فيتقدم إلى حسابه، فيخرج له كتاب أسود، بخط أسود، في باطنه الحسنات، وفي ظاهره السيئات، فبدأ بالحسنات فيقرؤها، ويظن أنه سينجو، فإذا بلغ آخر الكتاب، وجد فيه: هذه حسناتك، وقد رُدت عليك، فيسود وجهه، ويعلوه الحزن، ويقنط من الخير، ثم يقلب كتابه، فيقرأ سيئاته، فلا يزداد إلا حزناً، ولا يزداد وجهه إلا سواداً. فإذا بلغ آخر الكتاب وجد فيه: هذه سيئاتك، وقد ضوعفت عليك، أي يضاعف عليه العذاب، ليس المعنى أنه يزاد عليه ما لم يعمل. قال: فيعظم إلى النار، وتزرق عيناه، ويسود وجهه، ويكسى سرابيل القطران.

ويقال له: انطلق إلى أصحابك فأخبرهم أن لكل إنسان منهم مثل هذا، فينطلق وهو يقول: ﴿ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴾ يعني الموت ﴿ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴾ فسره ابن عباس رضي الله عنهما: هلكت عني حجتي. قال الله تعالى: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ

(١) الآيات التي استشهد بها المصنف في كلامه من سورة الحاقة: ١٩-٣٢.

صَلُّوهُ﴾ أي اجعلوه يصلى الجحيم ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ الله أعلم بأي ذراع. قال الحسن وقال ابن عباس رضي الله عنهما: سبعون ذراعاً بذراع الملك. ﴿فَاسْلُكُوهُ﴾، قيل: يدخل عنقه فيها، ثم يجر بها، ولو أن حلقة منها وضعت على جبل لذاب.

فينادي أصحابه فيقول: هل تعرفوني؟ فيقولون: لا، ولكن قد نرى ما بك من الحزن. فمن أنت؟ فيقول: أنا فلان بن فلان، لكل إنسان منكم مثل هذا.

وأما من أوتي كتابه وراء ظهره، تخلع كتفه اليسرى، فيجعل يده خلفه، فيأخذ بها كتابه. وقال مجاهد: يحول وجهه في موضع قفاه، فيقرأ كتابه كذلك.

فتوهم نفسك إن كنت من السعداء، وقد خرجت على الخلائق مسرور الوجه، قد حل بك الكمال والحسن والجمال، كتابك في يمينك، أخذ بضبعيك ملك ينادي على رؤوس الخلائق: هذا فلان بن فلان، سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً. وأما إن كنت من أهل الشقاوة، فيسود وجهك، وتتخطى الخلائق كتابك في شمالك، أو من وراء ظهرك، تنادي بالويل والثبور، وملك آخذ بضبعيك ينادي على رؤوس الخلائق: ألا إن فلان بن فلان شقي شقاوة لا يسعد بعدها أبداً[1].

---

(١) تذكرة القرطبي: ٢٥٥.

الفصل الحادي عشر

اقتصاص المظالم بين الخلق

يقتص الحكم العدل في يوم القيامة للمظلوم من ظالمه، حتى لا يبقى لأحد عند أحد مظلمة، حتى الحيوان يقتص لبعضه من بعض، فإذا انطحت شاتان إحداهما جلحاء لا قرون لها، والأخرى ذات قرون، فإنه يقتص لتلك من هذه، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء»(١).

والذي يعتدي على غيره بالضرب، يقتص منه بالضرب في يوم القيامة، ففي الحديث الصحيح الذي يرويه البخاري في «الأدب المفرد» والبيهقي في السنن، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ ضَربَ بسوط ظلماً، اقتص منه يوم القيامة»(٢).

وفي معجم الطبراني الكبير عن عمار، قال: قال رسول الله ﷺ: «من ضرب مملوكه ظالماً، أقيد منه يوم القيامة» وإسناده صحيح(٣).

والذي يقذف مملوكه بالزنا يقام عليه الحد في يوم القيامة إن كان كذاباً فيما رماه به، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال أبو القاسم ﷺ:

---

(١) صحيح مسلم: (٤/١٩٩٧)، ورقمه: (٢٥٨٢).

(٢) صحيح الجامع الصغير: (٥/٣١٩)، ورقمه: ٦٢٥٠.

(٣) صحيح الجامع الصغير: (٥/٣١٩)، ورقمه: ٦٢٥٢

«من قذف مملوكه بالزنا يقام عليه الحد يوم القيامة، إلا أن يكون كما قال»[1].

المطلب الأول

كيف يكون الاقتصاص في يوم القيامة

إذا كان يوم القيامة كانت ثروة الإنسان ورأس ماله حسناته، فإذا كانت عليه مظالم للعباد فإنهم يأخذون من حسناته بقدر ما ظلمهم، فإن لم يكن له حسنات أو فنيت حسناته، فإنه يؤخذ من سيئاتهم فيطرح فوق ظهره.

ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء، فليتحلل منه اليوم، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه»[2].

وهذا الذي يأخذ الناس حسناته، ثم يقذفون فوق ظهره بسيئاتهم هو المفلس، كما سماه الرسول ﷺ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون من المفلس؟» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: «إن المفلس من أمتي، من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته،

---

(١) صحيح مسلم: (٣/ ١٢٨٢)، ورقمه: ١٦٦٠.

(٢) صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب من كانت له مظلمة عند الرجل، فتح الباري (٥/ ١٠١).

فإذا فنيت حسناته، قبل أن يقضي ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار»[1].

والمدين الذي مات، وللناس في ذمته أموال يأخذ أصحاب الأموال من حسناته بمقدار ما لهم عنده، ففي سنن ابن ماجة بإسناد صحيح عن ابن عمر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات وعليه دينار أو درهم، قضى من حسناته، ليس ثم دينار ولا درهم»[2].

وإذا كانت بين العباد مظالم متبادلة اقتص لبعضهم من بعض، فإن تساوى ظلم كل واحد منهما للآخر كان كفافاً لا له ولا عليه، وإن بقي لبعضهم حقوق عند الآخرين أخذها.

ففي سنن الترمذي عن عائشة، قالت: جاء رجل فقعد بين يدي الرسول ﷺ، فقال: يا رسول الله، إن لي مملوكين يكذبونني، ويخونني، ويعصونني، وأشتمهم وأضربهم، فكيف أنا منهم؟

فقال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك، وعقابك إياهم، فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافاً لا لك، ولا عليك. وإن كان عقابك إياهم دون ذنبهم كان فضلاً لك، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم، اقتص لهم منك الفضل» فتنحى الرجل، وجعل يهتف ويبكي.

فقال له رسول الله ﷺ: «أما تقرأ قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ

(١) صحيح مسلم: (٤/ ١٩٩٧)، ورقمه: ٢٥٨١.

(٢) صحيح الجامع الصغير: (٥/ ٥٣٧)، ورقم الحديث: ٦٤٣٢.

بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]»[١].

ولما كان هذا شأن الظلم فحري بالعباد الذين يخافون ذلك اليوم أن يتركوه ويجتنبوه وقد أخبر الرسول ﷺ أن الظلم يكون ظلمات في يوم القيامة، ففي صحيح البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «الظلم ظلمات يوم القيامة»[٢].

وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة»[٣].

المطلب الثاني

عظم شأن الدماء

من أعظم الأمور عند الله أن يسفك العباد بعضهم دم بعض في غير الطريق الذي شرعه الله تبارك وتعالى، ففي الحديث الصحيح الذي يرويه الترمذي عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «يجيء الرجل آخذاً بيد الرجل، فيقول: يا رب، هذا قتلني: فيقول: لم قتلته؟

فيقول: قتلته لتكون العزة لك.

---

(١) مشكاة المصابيح: (٣/٦٦)، ورقمه: ٥٥٦١، وأورده في صحيح الجامع: (٦/٣٢٧)، ورقمه: ٧٨٩٥، وعزاه إلى أحمد والترمذي.

(٢) صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب الظلم ظلمات يوم القيامة، فتح الباري: (٥/١٠٠)، وصحيح مسلم: (٤/١٩٦٩)، ورقمه: ٢٥٧٩.

(٣) صحيح مسلم: (٤/١٩٦٩)، ورقمه: ٢٥٧٨.

فيقول: فإنها لي.

ويجيء الرجل آخذاً بيد الرجل، فيقول: أي رب، إن هذا قتلني.

فيقول الله: لم قتلته؟

فيقول: لتكون العزة لفلان.

فيقول: إنها ليست لفلان، فيبوء بإثمه»[1].

وفي السنن للترمذي، وأبي داود، وابن ماجة، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «يجيء المقتول بالقاتل يوم القيامة، ناصيته ورأسه بيده، وأوداجه تشخب دماً، فيقول: يا رب، سل هذا فيم قتلني؟ حتى يدنيه من العرش»[2].

ولعظم أمر الدماء فإنها تكون أول شيء يقضى فيه بين العباد.

فقد روى البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء»[3].

قال ابن حجر في شرحه للحديث: «وفي الحديث عظم أمر الدم، فإن البداءة إنما تكون بالأهم، والذنب يعظم بحسب عظم المفسدة وتفويت المصلحة، وإعلام البنية الإنسانية غاية في ذلك»[4].

ولا تعارض بين هذا الحديث وحديث أن أول ما يحاسب عليه العبد

---

(١) صحيح الجامع الصغير: (٦/ ٣٢٤)، ورقم الحديث: ٧٨٨٥.

(٢) صحيح الجامع الصغير: (٦/ ٣٢٤)، ورقم الحديث: ٧٨٨٧.

(٣) جامع الأصول: (١٠/ ٤٣٦)، ورقمه: ٧٩٦٨.

(٤) فتح الباري: (١١/ ٣٩٧).

الصلاة، قال ابن حجر العسقلاني: «ولا يعارض هذا حديث أبي هريرة رفعه: «إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة صلاته» الحديث أخرجه أصحاب السنن، لأن الأول محمول على ما يتعلق بمعاملات الخلق. والثاني: فيما يتعلق بعبادة الخالق. وقد جمع النسائي في روايته في حديث ابن مسعود بين الخبرين، ولفظه: «أول ما يحاسب العبد عليه صلاته، وأول ما يقضى بين الناس في الدماء»[1].

المطلب الثالث

الاقتصاص للبهائم بعضها من بعض

«يقضي الله بين خلقه: الجن والإنس والبهائم، وإنه ليقيد يومئذ الجماء من القرناء، حتى إذا لم يبق تبعة عند واحدة لأخرى قال الله: كونوا تراباً، فعند ذلك يقول الكافر: ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ [النبأ: ٤٠].

هذا حديث أخرجه ابن جرير في تفسيره بإسناده إلى أبي هريرة يرفعه، وفي رواية أخرى أخرجها ابن جرير أيضاً عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يحشر الخلق كلهم، كل دابة وطائر وإنسان، يقول للبهائم والطير: كونوا تراباً، فعند ذلك يقول الكافر: ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ [النبأ: ٤٠]».

وعن ابن جرير أيضاً عن عبد الله بن عمرو قال: «إذا كان يوم القيامة مد الأديم، وحشر الدواب والبهائم والوحش، ثم يحصل القصاص بين الدواب، يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء نطحتها، فإذا فرغ من

---

(١) فتح الباري: (١١/ ٣٩٦).

القصاص بين الدواب، قال لها: كوني تراباً، قال فعند ذلك يقول الكافر: ﴿يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا﴾ [النبأ: ٤٠]».

وأخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء».

وأخرج أحمد في مسنده بإسناد رجاله رجال الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يقتص الخلق بعضهم من بعض حتى الجماء من القرناء، وحتى الذَّرة من الذَّرة».

وفي المسند أيضاً عن أبي هريرة يرفعه: «ألا والذي نفسي بيده ليختصمن كل شيء يوم القيامة، حتى الشاتان فيما انتطحتا».

وروى أحمد بإسناد صحيح عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ رأى شاتين تنطحان، فقال: أبا ذر، هل تدري فيم تنطحان؟

قال: لا.

قال: ولكن الله يدري، وسيقضي بينهما»[1].

كيف يقتص من البهائم وهي غير مكلفة؟

أشكل على كثير من أهل العلم هذا الذي ذكره الرسول ﷺ من حشر البهائم والاقتصاص لبعضها من بعض، وقد وضح هذا النووي في شرحه على صحيح مسلم فقال:

---

(١) أورد الشيخ ناصر هذه الأحاديث، وتكلم على أسانيدها في سلسلة الأحاديث الصحيحة: حديث رقم: ١٩٦٧.

«هذا تصريح بحشر البهائم يوم القيامة، وإعادتها يوم القيامة كما يعاد أهل التكليف من الآدميين، وكما يعاد الأطفال والمجانين، ومن لم تبلغه دعوة. وعلى هذا تظاهرت دلائل القرآن والسنة، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥]، وإذا ورد لفظ الشرع ولم يمنع من إجرائه على ظاهره عقل ولا شرع، وجب حمله على ظاهره. قال العلماء: وليس من شرط الحشر والإعادة في القيامة المجازاة والعقاب والثواب. وأما القصاص من القرناء للجلحاء فليس هو من قصاص التكليف، إذ لا تكليف عليها، بل هو قصاص مقابلة، و (الجلحاء) بالمد هي الجماء التي لا قرن لها. والله أعلم».

قال الشيخ ناصر الدين الألباني بعد إيراده هذه الفقرة من كلام النووي:

وذكر نحوه ابن الملك في (مبارق الأزهار) (٢/ ٢٩٣) مختصراً. ونقل عنه العلامة الشيخ علي القاري في (المرقاة) (٤/ ٧٦١) أنه قال:

«فإن قيل: الشاة غير مكلفة، فكيف يقتص منها؟ قلنا: إن الله تعالى فعال لما يريد، ولا يسأل عما يفعله، والغرض منه إعلام العباد أن الحقوق لا تضيع، بل يقتص حق المظلوم من الظالم».

قال القاري: «وهو وجه حسن، وتوجيه مستحسن، إلا أن التعبير عن الحكمة بـ (الغرض) وقع في غير موضعه. وجملة الأمر أن القضية دالة بطريق المبالغة على كمال العدالة بين كافة المكلفين، فإنه إذا كان هذا حال الحيوانات الخارجة عن التكليف، فكيف بذوي العقول من الوضيع والشريف، والقوي والضعيف؟».

وعقب على هذا الشيخ ناصر قائلاً: «ومن المؤسف أن تُرَد كل هذه الأحاديث من بعض علماء الكلام بمجرد الرأي، وأعجب منه أن يجنح

إليه العلامة الألوسي! فقال بعد أن ساق الحديث عن أبي هريرة من رواية مسلم ومن رواية أحمد بلفظ الترجمة عند تفسيره آية: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥] في تفسيره: (روح المعاني) (٩/ ٣٠٠٦):

«ومال حجة الإسلام الغزالي وجماعة إلى أنه لا يحشر غير الثقلين، لعدم كونه مكلفاً، ولا أهلاً لكرامة بوجه، وليس في هذا الباب نص من كتاب أو سنة معول عليها يدل على حشر غيرهما من الوحوش، وخبر مسلم والترمذي وإن كان صحيحاً، لكنه لم يخرج مخرج التفسير للآية، ويجوز أن يكون كناية عن العدل التام. وإلى هذا القول أميل، ولا أجزم بخطأ القائلين بالأول، لأن لهم ما يصلح مستنداً في الجملة. والله تعالى أعلم».

قلت (الشيخ ناصر): كذا قال -عفا الله عنا وعنه- وهو منه غريب جداً لأنه على خلاف ما نعرفه عنه في كتابه المذكور، من سلوك الجادة في تفسير آيات الكتاب على نهج السلف، دون تأويل أو تعطيل، فما الذي حمله هنا على أن يفسر الحديث على خلاف ما يدل عليه ظاهره، وأن يحمله على أنه كناية عن العدل التام، أليس هذا تكذيباً للحديث المصرح بأنه يقاد للشاة الجماء من الشاة القرناء، فيقول هو تبعاً لعلماء الكلام: إنه كناية!.. أي لا يقاد للشاة الجماء. وهذا كله يقال لو وقفنا بالنظر عند رواية مسلم المذكورة، أما إذا انتقلنا به إلى الروايات الأخرى كحديث الترجمة، وحديث أبي ذر وغيره، فإنها قاطعة في أن القصاص المذكور هو حقيقة وليس كناية، ورحم الله الإمام النووي، فقد أشار بقوله السابق: «وإذا ورد لفظ الشرع ولم يمنع من إجرائه على ظاهره عقل ولا شرع وجب حمله على ظاهره».

قلت: أشار بهذا إلى رد التأويل المذكور، وبمثل هذا التأويل أنكر الفلاسفة وكثير من علماء الكلام كالمعتزلة وغيرهم رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة، وعلوه على عرشه، ونزوله إلى السماء الدنيا كل ليلة، ومجيئه تعالى يوم القيامة. وغير ذلك من آيات الصفات وأحاديثها.

وبالجملة، فالقول بحشر البهائم والاقتصاص لبعضها من بعض هو الصواب الذي لا يجوز غيره، فلا جرم أن ذهب إليه الجمهور كما ذكر الألوسي نفسه في مكان آخر من «تفسيره» (٩/ ٢٨١)، وبه جزم الشوكاني في تفسير آية «التكوير» من تفسيره «فتح القدير» فقال: (٥-٣٧٧).

«الوحوش ما توحش من دواب البر، ومعنى (حشرت) بعثت، حتى يقتص لبعضها من بعض، فيقتص للجماء من القرناء»[١].

المطلب الرابع

متى يقتص للمؤمنين بعضهم من بعض؟

في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إذا خلص المؤمنون من النار، حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار، فيتقاصون مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا نقوا وهُذِّبوا، أذن لهم بدخول الجنة، فوالذي نفس محمد بيده، لأحدهم بمسكنه في الجنة أدل بمنزله كان في الدنيا»[٢].

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة، للشيخ ناصر الدين الألباني: حديث رقم: ١٩٢٧.

(٢) صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب قصاص المظالم، فتح الباري: (٥/ ٩٦).

الفصل الثاني عشر

الميزان

المطلب الأول

تعريفه

في ختام ذلك اليوم ينصب الميزان لوزن أعمال العباد، يقول القرطبي: «وإذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال، لأن الوزن للجزاء، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة، فإن المحاسبة لتقدير الأعمال، والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها»(١).

وقد دلت النصوص على أن الميزان ميزان حقيقي، لا يقدر قدره إلا الله تعالى، فقد روى الحاكم عن سلمان عن النبي ﷺ قال: «يوضع الميزان يوم القيامة، فلو وزن فيه السمـٰوات والأرض لوسعت. فتقول الملائكة: يا رب لمن يزن هذا؟ فيقول الله تعالى: لمن شئت من خلقي. فتقول الملائكة: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك»(٢).

وهو ميزان دقيق لا يزيد ولا ينقص ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقد اختلف أهل العلم في وحدة الميزان وتعدده، فذهب بعضهم إلى

---

(١) تذكرة القرطبي: ٣٠٩.

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٢/ ٦٥٦). ورقم الحديث: ٩٤١.

أن لكل شخص ميزاناً، خاصاً، أو لكل عمل ميزاناً لقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وذهب آخرون إلى أن الميزان واحد، وأن الجمع في الآية إنما هو باعتبار تعدد الأعمال أو الأشخاص.

وقد رجح ابن حجر بعد حكايته للخلاف أن الميزان واحد، قال: «ولا يشكل بكثرة من يوزن عمله، لأن أحوال القيامة لا تُكيَّف بأحوال الدنيا»[1].

وقال السفاريني: «قال الحسن البصري: لكل واحد من المكلفين ميزان. قال بعضهم: الأظهر إثبات موازين يوم القيامة لا ميزان واحد، لقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ﴾، وقوله: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ [الأعراف: ٨]. قال: وعلى هذا فلا يبعد أن يكون لأفعال القلوب ميزان، ولأفعال الجوارح ميزان، ولما يتعلق بالقول ميزان. أورد هذا ابن عطية وقال: الناس على خلافه، وإنما لكل واحد وزن مختص به، والميزان واحد. وقال بعضهم إنما جمع الموازين في الآية الكريمة لكثرة من توزن أعمالهم. وهو حسن»[2].

المطلب الثاني

الميزان عند أهل السنة

الميزان عند أهل السنة ميزان حقيقي توزن به أعمال العباد وخالف في هذا المعتزلة، وقلة قليلة من أهل السنة.

---

(١) فتح الباري: (٣/ ٥٣٧).

(٢) لوامع الأنوار البهية: (٢/ ١٨٦).

قال ابن حجر: «قال أبو إسحاق الزجاج: أجمع أهل السنة على الإيمان بالميزان، وأن أعمال العباد توزن به يوم القيامة، وأن الميزان له لسان وكفتان ويميل بالأعمال. وأنكرت المعتزلة الميزان، وقالوا: هو عبارة عن العدل فخالفوا الكتاب والسنة، لأن الله أخبر أنه يضع الموازين لوزن الأعمال، ليرى العباد أعمالهم ممثلة ليكونوا على أنفسهم شاهدين.

وقال ابن فورك: أنكرت المعتزلة الميزان، بناء منهم على أن الأعراض يستحيل وزنها إذ لا تقوم بأنفسها.

قال: وقد روى بعض المتكلمين عن ابن عباس أن الله تعالى يقلب الأعراض أجساماً فيزنها. انتهى.

وقد ذهب بعض السلف إلى أن الميزان بمعنى العدل والقضاء، وعزا الطبري القول بذلك إلى مجاهد.

والراجح ما ذهب إليه الجمهور.

وَذُكِرَ الميزان عند الحسن فقال: له لسان وكفتان»[1].

وعزا القرطبي تفسير الميزان بالعدل إلى مجاهد والضحاك والأعمش[2].

ولعل هؤلاء العلماء فسروا الميزان بالعدل في مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧-٩]، فالميزان في هذه الآية العدل، أمر الله عباده أن يتعاملوا به فيما بينهم، أما الميزان الذي ينصب في يوم القيامة فقد تواترت بذكره الأحاديث، وأنه ميزان حقيقي، وهو

---

(١) فتح الباري: (١٣/ ٥٣٨) بتصرف يسير.

(٢) تذكرة القرطبي: ٣١٣.

ظاهر القرآن[1].

وقد رد الإمام أحمد على من أنكر الميزان بأن الله تعالى ذكر الميزان في قوله: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧]. والنبي ﷺ ذكر الميزان يوم القيامة، فمن رد على النبي ﷺ فقد رد على الله عز وجل[2].

وقد استدل شيخ الإسلام على أن الميزان غير العدل، وأنه ميزان حقيقي توزن به الأعمال بالكتاب والسنة، فقال:

«الميزان: هو ما يوزن به الأعمال، وهو غير العدل كما دَلَّ على ذلك الكتاب والسنة، مثل قوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ [الأعراف: ٨]، ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ [المؤمنون: ١٠٣]، وقوله: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم». وقال عن ساقَيْ عبد الله بن مسعود: «لهما في الميزان أثقل من أحد».

وفي الترمذي وغيره حديث البطاقة، وصححه الترمذي والحاكم وغيرهما في الرجل الذي يؤتى به، فينشر له تسعة وتسعون سجلاً، كل سجل منها مد البصر، فيوضع في كفة، ويؤتى ببطاقة فيها شهادة أن لا إله إلا الله. قال النبي ﷺ: «فطاشت السجلات وثقلت البطاقة». وهذا وأمثاله مما يبين أن

---

(١) النهاية لابن كثير: (٢/ ٣٤).

(٢) فتح الباري: (١٣/ ٥٣٨).

الأعمال توزن بموازين تبين بها رجحان الحسنات على السيئات وبالعكس، فهو ما به تبين العدل، والمقصود بالوزن العدل، كموازين الدنيا.

وأما كيفية تلك الموازين فهو بمنزلة كيفية سائر ما أخبرنا به من الغيب»[1].

وقد رد القرطبي على الذين أنكروا الميزان وأولوا النصوص الواردة فيه وحملوها على غير محملها قائلاً: «قال علماؤنا ولو جاز حمل الميزان على ما ذكروه، لجاز حمل الصراط على الدين الحق، والجنة والنار على ما يرد على الأرواح دون الأجساد من الأحزان والأفراح، والشياطين والجن على الأخلاق المذمومة، والملائكة على القوى المحمودة، وهذا كله فاسد، لأنه رد لما جاء به الصادق، وفي الصحيحين فيعطى صحيفة حسناته، وقوله: فيخرج له بطاقة، وذلك يدل على الميزان الحقيقي، وأن الموزون صحف الأعمال كما بينا وبالله التوفيق»[2].

المطلب الثالث

ما الذي يوزن في الميزان

اختلف أهل العلم في الموزون في ذلك اليوم على أقوال:

الأول: أن الذي يوزن في ذلك اليوم الأعمال نفسها، وأنها تجسم فتوضع في الميزان، ويدل لذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه في

---

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام: (٤/ ٣٠٢).

(٢) التذكرة: ٣١٤.

الصحيح قال: قال رسول الله ﷺ: «كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»[1].

وقد دلت نصوص كثيرة على أن الأعمال تأتي في يوم القيامة في صورة الله أعلم بها، فمن ذلك مجيء القرآن شافعاً لأصحابه في يوم القيامة، وأن البقرة وآل عمران تأتيان كأنهما غمامتان أو غيابتان، أو فرقان من طير صواف تحاجّان عن أصحابهما. ففي صحيح مسلم عن أبي أمامة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرؤوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه. اقرؤوا الزاهروين: البقرة وسورة آل عمران، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو غيابتان[2]، أو فرقان[3] من طير صواف تحاجان عن أصحابهما»[4].

وروى مسلم أيضاً عن النواس بن سمعان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به، تقدمه سورة البقرة وآل عمران، كأنهما غمامتان، أو ظلتان بينهما شرق[5]، أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن صاحبهما»[6].

وهذا القول رجَّحه ابن حجر العسقلاني ونصره، فقال: «والصحيح أن

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة)، فتح الباري: (١٣/ ٥٣٧).

(٢) الغيابة: أقل كثافة من الغمامة، وأقرب إلى رأس صاحبها.

(٣) فرقان: طائفتان.

(٤) مشكاة المصابيح: (١/ ٦٥٦) ورقم الحديث: ٢١٢٠.

(٥) شرق، أي: ضوء ونور.

(٦) مشكاة المصابيح: (١/ ٦٥٦). ورقم الحديث: ٢١٢١.

الأعمال هي التي توزن، وقد أخرج أبو داود والترمذي، وصححه ابن حبان عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «ما يوضع في الميزان يوم القيامة أثقل من حسن الخلق».

الثاني: أن الذي يوزن هو العامل نفسه، فقد دَلَّت النصوص على أن العباد يوزنون في يوم القيامة، فيثقلون في الميزان أو يخفون بمقدار إيمانهم، لا بضخامة أجسامهم، وكثرة ما عليهم من لحم ودهن، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة، وقال: اقرؤوا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]»[(١)].

ويؤتى بالرجل النحيف الضعيف دقيق الساقين فإذا به يزن الجبال، روى أحمد في مسنده، عن زر بن حبيش عن ابن مسعود، أنه كان رقيق الساقين، فجعلت الريح تلقيه، فضحك القوم منه، فقال رسول الله ﷺ: «مم تضحكون؟» قالوا: يا نبي الله من رقة ساقيه».

قال: «والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أحد».

قال ابن كثير: تفرد به أحمد وإسناده جيد قوي[(٢)].

وما أحسن ما قال الشاعر:

ترى الرجل النحيف فتزدريه ... وفي أثوابه أسد هرير

ويعجبك الطرير فتبتليه ... فيخلف ظنك الرجل الطرير

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، تفسير سورة الكهف، فتح الباري: (٨/ ٤٢٦).

(٢) النهاية لابن كثير: (٢/ ٢٩).

الثالث: أن الذي يوزن إنما هو صحائف الأعمال. فقد روى الترمذي في «سننه» عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله سيخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر له تسعة وتسعين سجلاً، كل سجل مثل مد البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: ألك عذر؟ فيقول: لا يا رب.

فيقول الله تعالى: بلى، إن لك عندنا حسنة، فإنه لا ظلم اليوم، فتخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فيقول: احضر وزنك فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: فإنك لا تظلم، فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة، ولا يثقل مع اسم الله شيء»[1].

وقد مال القرطبي إلى هذا القول، فقال: «والصحيح أن الموازين تثقل بالكتب فيها الأعمال مكتوبة، وبها تخف، . . قال ابن عمر: توزن صحائف الأعمال، وإذا ثبت هذا فالصحف أجسام، فيجعل الله تعالى رجحان إحدى الكفتين على الأخرى دليلاً على كثرة أعماله بإدخاله الجنة أو النار»[2].

وقال السفاريني: «والحق أن الموزون صحائف الأعمال، وصححه ابن عبد البر والقرطبي وغيرهما، وصوبه الشيخ مرعي في (بهجته)، وذهب إليه جمهور من المفسرين، وحكاه ابن عطية عن أبي المعالي. .»[3].

---

(١) جامع الأصول: (١٠/٤٥٩)، ورقمه: ٧٩٨١، قال محقق الجامع: إسناده صحيح، ورواه ابن ماجة، وابن حبان في صحيحه، والحاكم والبيهقي وغيرهم.

(٢) تذكرة القرطبي: ٣١٣.

(٣) لوامع الأنوار البهية: (٢/١٨٧).

ولعل الحق أن الذي يوزن هو العامل وعمله وصحف أعماله، فقد دلت النصوص التي سقناها على أن كل واحد من هذه الثلاثة يوزن، ولم تنف النصوص المثبتة لوزن الواحد منها أن غيره لا يوزن، فيكون مقتضى الجمع بين النصوص إثبات الوزن للثلاثة المذكورة جميعها.

وهذا ما رجحه الشيخ حافظ الحكمي فقال: «والذي استظهر من النصوص -والله أعلم- أن العامل وعمله وصحيفة عمله- كل ذلك يوزن، لأن الأحاديث التي في بيان القرآن، قد وردت بكل ذلك، ولا منافاة بينها، ويدل كذلك ما رواه أحمد -رحمه الله تعالى- عن عبد الله بن عمرو في قصة صاحب البطاقة بلفظ: قال: قال رسول الله: «توضع الموازين يوم القيامة، فيؤتى بالرجل، فيوضع في كفة، ويوضع ما أحصى عليه، فيمايل به الميزان. قال: فيبعث به إلى النار.

قال: فإذا أدبر، إذا صائح من عند الرحمن -عز وجل- يقول: لا تعجلوا، فإنه قد بقي له، فيؤتى ببطاقة فيها لا إله إلا الله، فتوضع مع الرجل في كفة، حتى يميل به الميزان».

فهذا يدل على أن العبد يوضع هو وحسناته وصحيفتها في كفة وسيئاته مع صحيفتها في الكفة الأخرى، وهذا غاية الجمع بين ما تفرق ذكره في سائر أحاديث الوزن، ولله الحمد والمنة»[1].

---

(١) معارج القبول: (٢/ ٢٧٢).

المطلب الرابع

الأعمال التي تثقل في الميزان

أثقل ما يوضع في ميزان العبد حسن الخلق، فعن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «إن أثقل شيء يوضع في ميزان العبد يوم القيامة خلق حسن، وإن الله يبغض الفاحش البذيء». رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح، وروى أبو داود الفصل الأول[1].

وفي صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ قال: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»[2].

وفي صحيح مسلم عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن (أو تملأ). ما بين السماء والأرض»[3].

وروى البخاري والنسائي وأحمد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «من احتبس فرساً في سبيل الله، إيماناً بالله، وتصديقاً بوعده، كان شبعه وريه، وروثه، وبوله، حسنات في ميزانه يوم القيامة»[4].

---

(١) مشكاة المصابيح: (٢/ ٦٣٠)، ورقم الحديث: ٥٠٨١.

(٢) صحيح البخاري: ٦٦٨٢. وصحيح مسلم: ٢٦٩٤.

(٣) صحيح مسلم: (١/ ٢٠٣)، ورقم الحديث: ٢٢٣.

(٤) صحيح الجامع الصغير: (٥/ ٢٢٩)، ورقم الحديث: ٥٨٤٣. وانظره في صحيح البخاري برقم: ٢٨٥٣.

الفصل الثالث عشر
الحوض

يكرم الله عبده ورسوله محمداً ﷺ في الموقف العظيم بإعطائه حوضاً واسع الأرجاء، ماؤه أبيض من اللبن، وأحلى من العسل، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، يأتيه هذا الماء الطيب من نهر الكوثر، الذي أعطاه لرسوله ﷺ في الجنة، ترد عليه أمة المصطفى ﷺ، من شرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبداً.

وقد اختلف أهل العلم في موضعه فذهب الغزالي والقرطبي إلى أنه يكون قبل المرور على الصراط في عرصات القيامة، واستدلوا على ذلك بأنه يؤخذ بعض وارديه إلى النار فلو كان بعد الصراط لما استطاعوا الوضول إليه[1].

واستظهر ابن حجر أن مذهب البخاري أن الحوض يكون بعد الصراط، لأن البخاري أورد أحاديث الحوض بعد أحاديث الشفاعة، وأحاديث نصب الصراط »[2].

وما ذهب إليه القرطبي أرجح، وقد استعرض ابن حجر أدلة الفريقين في كتابه القيم: «فتح الباري»[3].

---

(١) انظر تذكرة القرطبي: ٣٠٢.

(٢) انظر فتح الباري: (١١/ ٤٦٦).

(٣) فتح الباري: (١١/ ٤٦٦).

المبحث الأول
الأحاديث الواردة فيه

الأحاديث الواردة في الحوض متواترة، لا شك في تواترها عند أهل العلم بأحاديث الرسول ﷺ، وقد رواها عن الرسول ﷺ أكثر من خمسين صحابياً، وقد ذكر ابن حجر أسماء رواة أحاديثه من الصحابة[1].

ونحن نسوق هنا بعض هذه الأحاديث التي أوردها الخطيب التبريزي في مشكاته[2]:

١- عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «حوضي مسيرة شهر، وزواياه سواء[3]. ماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، من يشرب منها فلا يظمأ أبداً». متفق عليه.

٢- وعن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «إن حوضي أبعد من أيلة[4] من عدن لهو أشدُّ بياضاً من الثلج، وأحلى من العسل باللبن، ولآنيته أكثر من عدد النجوم، وإني لأصد الناس عنه كما يصد الرجل إبل الناس عن حوضه».

---

(١) فتح الباري: (١١/٤٦٨).

(٢) مشكاة المصابيح: (٣/٦٨).

(٣) أي مربع لا يزيد طوله عن عرضه شيئاً.

(٤) هي مدينة العقبة في الأردن.

قالوا: يا رسول الله! أتعرفنا يومئذ؟ قال: «نعم، لكم سيماء[1] ليست لأحد من الأمم، تردون علي غراً محجلين من أثر الوضوء». رواه مسلم.

٣- وفي رواية له[2] عن أنس. قال: «ترى فيه أباريق الذهب والفضة كعدد نجوم السماء».

٤- وفي أخرى له عن ثوبان، قال: سئل عن شرابه. فقال: «أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل يغت[3] فيه ميزابان يُمدَّانه من الجنة، أحدهما من ذهب والآخر من وَرِق».

---

(١) السيماء: العلامة.

(٢) أي لمسلم.

(٣) يَغت، أي: يصُبَ ويسيل.

المبحث الثاني
الذين يَرِدُون الحوض والذين يُذَادون عنه

وردت أحاديث كثيرة بيَّن فيها الرسول ﷺ الذين يردون على حوضه، والذين يمنعون من الشرب منه، ونحن نذكر لك بعض ما أورده ابن الأثير منها في جامع الأصول[1]:

١- روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا فرطكم على الحوض، وليرفعن إليَّ رجال منكم، حتى إذا أهويت إليهم لأناولهم اختلجوا دوني[2]، فأقول: أي رب، أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك؟».

٢- ورويا أيضاً عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليردن على الحوض رجال ممن صاحبني، حتى إذا رأيتهم، ورفعوا إليّ، اختلجوا دوني، فلأقولن: أي رب، أصيحابي، أصيحابي، فليقالن لي: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك».

وفي رواية «ليردن عليَّ ناس من أمتي.. الحديث، وفي آخره: فأقول: سحقاً لمن بدل بعدي» أخرجه البخاري ومسلم.

٣- ورويا عن أبي حازم رحمه الله عن سهل بن سعد رضي الله عنه، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «أنا فرطكم على الحوض، من ورد شرب، ومن شرب لم يظمأ أبداً، وليردن عليَّ أقوام أعرفهم ويعرفوني، ثم يحال

---

(١) جامع الأصول: ١/٤٦٨.

(٢) اختلجوا: أخذوا بسرعة.

بيني وبينهم، قال أبو حازم: فسمع النعمان بن أبي عياش وأنا أحدثهم هذا الحديث، فقال: هكذا سمعت سهلاً يقول؟ فقلت: نعم، قال: وأنا أشهد على أبي سعيد الخدري لسمعته يزيد، فيقول: فإنهم مني، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: سحقاً سحقاً لمن بدل بعدي». أخرجه البخاري ومسلم.

٤- ولهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يرد عليَّ يوم القيامة رهط من أصحابي -أو قال: من أمتي -فَيُحَلَّؤُون[١] عن الحوض، فأقول: يا رب، أصحابي، فيقول: إنه لا علم لك بما أحدثوا بعدك، إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى» وفي رواية «فيجلون» أخرجه البخاري ومسلم.

وللبخاري: أن رسول الله ﷺ قال: «بينما أنا قائم على الحوض، إذا زمرة، حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم، فقال: هلم، فقلت: إلى أين؟ فقال: إلى النار والله، فقلت: ما شأنهم؟ فقال: إنهم قد ارتدوا على أدبارهم القهقرى، ثم إذا زمرة أخرى، حتى عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم فقال لهم: هلم، قلت: إلى أين؟ قال: إلى النار والله، قلت: ما شأنهم؟ قال: إنهم قد ارتدوا على أدبارهم، فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همل النعم»[٢].

ولمسلم: أن رسول الله ﷺ قال: «ترد عليَّ أمتي الحوض، وأنا أذود الناس عنه، كما يذود الرجل إبل الرجل عن إبله، قالوا: يا نبي الله تعرفنا؟ قال: نعم، لكم سيما ليست لأحد غيركم، تردون غراً محجلين من آثار الوضوء، وليصدن عني طائفة منكم، فلا يصلون، فأقول: يا رب، هؤلاء من أصحابي، فيجيء ملك، فيقول: وهل تدري ما أحدثوا بعدك؟».

---

(١) يحلؤون، أي: يدفعون ويطردون.

(٢) همل النعم: الإبل الضالة. والمعنى أن الناجي منهم قليل.

وفي أخرى قال: «إن حوضي أبعد من أيلة من عدن، لهو أشد بياضاً من الثلج، وأحلى من العسل باللبن، ولآنيته أكثر من عدد النجوم، وإني لأصد الناس عنه كما يصد الرجل إبل الناس عن حوضه، قالوا: يا رسول الله، أتعرفنا يومئذ؟ قال: نعم، لكم سيما[1] ليست لأحد من الأمم، تردون علي غراً محجلين».

وقد أورد القرطبي في التذكرة بعض الأحاديث التي سقناها ثم قال: «قال علماؤنا رحمة الله عليهم أجمعين: فكل من ارتد عن دين الله أو أحدث فيه مالا يرضاه الله، ولم يأذن به الله فهو من المطرودين عن الحوض، المبعدين عنه، وأشدهم طرداً من خالف جماعة المسلمين وفارق سبيلهم كالخوارج على اختلاف فرقها، والروافض على تباين ضلالها، والمعتزلة على أصناف أهوائها، فهؤلاء كلهم مبدلون.

وكذلك الظلمة المسرفون في الجور والظلم وتطميس الحق وقتل أهله وإذلالهم والمعلنون بالكبائر المستخفون بالمعاصي وجماعة أهل الزيغ والأهواء والبدع.

ثم البعد قد يكون في حال، ويقربون بعد المغفرة إن كان التبديل في الأعمال، ولم يكن في العقائد، وعلى هذا يكون نور الوضوء يعرفون به، ثم يقال لهم: سحقاً، وإن كانوا من المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ يُظهرون الإيمان ويسرون الكفر فيأخذهم بالظاهر، ثم يكشف لهم الغطاء فيقال لهم: سحقاً سحقاً، ولا يخلد في النار إلا كل جاحد مبطل، ليس في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان»[2].

---

(١) السيما: العلامة.

(٢) التذكرة للقرطبي: ص ٣٠٦.

الفصل الرابع عشر
الحشر إلى دار القرار: الجنة أو النار

المبحث الأول
يطلب من كل أمة أن تتبع الإله الذي كانت تعبده

في ختام هذا اليوم يحشر العباد إما إلى الجنة وإما إلى النار، وهما المقرّ الأخير الذي يصير إليه العباد جميعاً، وقد أخبرنا الرسول ﷺ أنه يُطلَب من كل أمة في آخر ذلك اليوم أن تتبع الإله الذي كانت تعبده، فالذي كان يعبد الشمس يتبع الشمس، والذي كان يعبد القمر يتبع القمر، والذي كان يعبد الأصنام تصور لهم آلهتم ثم تسير أمامهم ويتبعونها، والذين كانوا يعبدون فرعون يتبعونه، ثم إن هذه الآلهة الباطلة تتساقط في النار، ويتساقط عبادها وراءها في السعير، كما قال تعالى في فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨].

ولا يبقى بعد ذلك إلا المؤمنون وبقايا أهل الكتاب، وفي المؤمنين المنافقون الذين كانوا معهم في الدنيا، فيأتيهم ربهم، فيقول لهم: ما تنتظرون؟ فيقولون: ننتظر ربنا، فيعرفونه بساقه عندما يكشفها لهم، وعند ذلك يخرون له سجوداً، إلا المنافقون فلا يستطيعون ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم: ٤٢]، ثم يتبع المؤمنون ربهم، وينصب الصراط ويعطى المؤمنون أنوارهم، ويسيرون على الصراط، ويطفأ

نور المنافقين، ويقال لهم: ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً، ثم يضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة، وظاهره من قبله العذاب، ويمر العباد على الصراط مسرعين بقدر إيمانهم وأعمالهم الصالحة.

روى مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن: لتتبع كل أمة ما كانت تعبد، فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله سبحانه من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار، حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر، وغُبَّر[1] أهل الكتاب. فيدعى اليهود، فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد عزير ابن الله. فيقال: كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد. فماذا تبغون؟ قالوا: عطشنا يا ربنا، فاسقنا. فيشار إليهم: ألا تردون؟ فيحشرون إلى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً، فيتساقطون في النار.

ثم يدعى النصارى، فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد المسيح ابن الله، فيقال لهم: كذبتم، ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد، فيقال لهم: ما تبغون؟ فيقولون: عطشنا، يا ربنا فاسقنا، قال: فيشار إليهم: ألا تردون؟ فيحشرون إلى جهنم كأنها سراب، يحطم بعضها بعضاً، فيتساقطون في النار. حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر، أتاهم رب العالمين سبحانه وتعالى في أدنى صورة من التي رأوه فيها، قال: فماذا تنتظرون؟ تتبع كل أمة ما كانت تعبد. قالوا: يا ربنا، فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم، ولم نصاحبهم، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، لا نشرك بالله شيئاً (مرتين أو ثلاثاً)

(١) غبرهم: بقاياهم.

حتى إن بعضهم ليكاد أن ينقلب. فيقول: هل بينكم وبينه آية فتعرفونه بها؟ فيقولون: نعم، فيكشف عن ساق، فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود، ولا يبقى من كان يسجد اتقاءً ورياءً إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة كلما أراد أن يسجد خرَّ على قفاه، ثم يرفعون رؤوسهم، وقد تحول في صورته التي رأوه فيها أول مرة، فقال: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا.

ثم يضرب الجسر على جهنم، وتحل الشفاعة، ويقولون: اللهم سلم سلم.

قيل: يا رسول الله، وما الجسر؟ قال: دحض مزلة، فيه خطاطيف وكلاليب وحسك، تكون بنجد فيها شويكة يقال لها: السعدان، فيمر المؤمنون كطرف العين، وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب، فناج مسلم، ومخدوش مرسل، ومكدوس في نار جهنم»[1].

وروى مسلم أيضاً عن أبي هريرة في وصف المرور على الصراط، قال: قال رسول الله ﷺ: «وترسل الأمانة والرحم، فتقومان على جنبتي الصراط يميناً وشمالاً، فيمر أولكم كالبرق، قال: قلت: بأبي أنت وأمي، أي شيء كالبرق؟ قال: ألم تروا إلى البرق كيف يمرُّ ويرجع في طرفة عين؟ ثم كمرّ الريح، ثم كمرّ الطير وشدِّ الرجال، تجري بهم أعمالهم، ونبيكم قائم على الصراط يقول: رب، سلم سلم. حتى تعجز أعمال العباد، حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفاً، قال: وعلى حافتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة بأخذ من أمرت به. فمخدوش ناج،

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، (١/١٦٧)، ورقمه: (١٨٣).

ومكدوس في النار»[1].

وروى مسلم في صحيحه عن أبي الزبير، أنه سمع جابر بن عبد الله يسأل عن الورود، فقال: «نجيء نحن يوم القيامة عن كذا وكذا[2] انظر إلى ذلك فوق الناس، قال: فتدعى الأمم بأوثانها، وما كانت تعبد، الأول فالأول، ثم يأتينا ربنا بعد ذلك فيقول: من تنظرون؟ فيقولون: ننظر ربنا، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: حتى ننظر إليك، فيتجلى لهم يضحك.

قال: فينطلق بهم ويتبعونه، ويعطى كل إنسان منهم، منافق أو مؤمن نوراً، ثم يتبعونه، وعلى جسر جهنم كلاليب وحسك، تأخذ من شاء الله ثم يطفأ نور المنافقين، ثم ينجو المؤمنون أول زمرة وجوههم كالقمر ليلة البدر، سبعون ألفاً لا يحاسبون، ثم الذين يلونهم كأضوأ نجم في السماء..»[3]

وروى البخاري ومسلم في صحيحهما عن أبي هريرة أن الرسول ﷺ قال في إجابته للصحابة عندما سألوه عن رؤيتهم الله: «هل تُضَارُّون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك، يجمع الله الناس، فيقول: من كان يعبد شيئاً فليتبعه، فيتبع من كان يعبد الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر، ويتبع من

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة، (١/ ١٨٧)، ورقمه: (١٩٥).

(٢) يقول ابن رجب في تعليقه على هذه اللفظة من الحديث: «أصل هذه اللفظة تصحيف من الراوي للفظ (كوم)، فكتب عليه كذا وكذا لإشكال فهمه عليه، ثم كتب انظر إلى ذلك، يأمر الناظر فيه بالتروي والفكر في صحة لفظه، فأدخل ذلك كله في الرواية قديماً» التخويف من النار: ص ١٩٩، وقد ذكر أن الصواب كما جاء في المسند وكتاب السنة: «نحن يوم القيامة على كوم فوق الناس، فتدعى الأمم بأوثانها..».

(٣) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة: (١/ ١٧٥)، ورقمه: (١٩١).

كان يعبد الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها، فيأتيهم الله في غير الصورة التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا أتانا ربنا عرفناه، فيأتيهم الله في الصورة التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا، فيتبعونه، ويضرب جسر جهنم، قال رسول الله ﷺ: «فأكون أول من يجيز، ودعاء الرسل يومئذ: اللهم سلم سلم، وبه كلاليب مثل شوك السعدان، أما رأيتم شوك السعدان؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: فإنها مثل شوك السعدان، غير أنها لا يعلم قدر عظمها إلا الله، فتخطف الناس بأعمالهم، منهم الموبق بعمله، ومنهم المُخَرْدَلُ، ثم ينجو..»[1].

وقد دلت هذه النصوص الصحيحة الصريحة الواضحة على عدة أمور مهمة، فقد ذكرت حشر الكفار إلى النار، ومسير المؤمنين إلى الجنة على الصراط، وخلاص المؤمنين من المنافقين، كما أشارت في جملتها إلى معنى الورود على النار الذي نص الله عليه في قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١].

وسنتناول هذه المباحث بشيء من التفصيل فيما يأتي.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب الصراط جسر جهنم، فتح الباري: (١١/ ٤٤٤) ورقمه: ٨٠٦، ورواه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، (١/ ١٦٣) ورقم الحديث (١٨٢)، واللفظ للبخاري.

المبحث الثاني

حشر الكفار إلى النار

جاءت نصوص كثيرة تصور لنا كيف يكون حشر الكفار إلى النار هم وآلهتهم التي كانوا يعبدونها.

١- فمن ذلك أنهم يحشرون كقطعان الماشية جماعات جماعات، ينهرون نهراً غليظاً، ويصاح بهم من هنا وهناك، كما يفعل الراعي ببقره أو غنمه ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧١]، ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣]، وقال: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [فصلت: ١٩]. ومعنى يوزعون أي يجمعون، تجمعهم الزبانية أولهم على آخرهم، كما يفعل البشر بالبهائم.

٢- وأفادت النصوص أنهم يحشرون إلى النار على وجوههم، لا كما كانوا يمشون في الدنيا على أرجلهم، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٤].

روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك أن رجلاً قال: يا رسول الله، كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال: «أليس الذي أمشاه على رجليه في الدنيا قادر أن يمشيه على وجهه يوم القيامة» قال قتادة: بلى وعزة ربنا[1].

---

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب الحشر، فتح الباري: (١١/ ٣٧٧)، ومسلم: (٤/ ٢١٦١). ورقمه: (٢٨٠٦). والفظ لمسلم.

ومع حشرهم على هذه الصورة المنكرة على وجوههم فإنهم يحشرون عمياً لا يرون، وبكماً لا يتكلمون، وصماً لا يسمعون ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

٣- ويزيد بلاءهم أنهم يحشرون مع آلهتهم الباطلة وأعوانهم وأتباعهم ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٢-٢٣].

٤- وهم في هذا مغلوبون مقهورون أذلاء صاغرون ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٢].

٥- وقبل أن يصلوا إلى النار تصك مسامعهم أصواتها التي تملأ قلوبهم رعباً وهلعاً ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢].

٦- وعندما يبلغون النار ويعاينون أهوالها يندمون ويتمنون العودة إلى الدنيا كي يؤمنوا ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧]، ولكنهم لا يجدون من النار مفراً: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَٰقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: ٥٣].

٧- وعند ذلك يؤمرون بالدخول في النار وغضب الجبار أذلاء خاسرين ﴿فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل: ٢٩]، ولا ينجو من النار من الجن والإنس إلا الأتقياء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين، واتبعوا ما أنزل إليهم من ربهم: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَـٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ۝ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ عِتِيًّا ۝ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ۝ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ

حَتْمًا مَّقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم:٦٨-٧٢].

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآيات: «يقسم الله بنفسه وهو أعظم قسم وأجله أنهم سيحشرون بعد الموت، فهذا أمر مفروغ منه ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ ﴾ [مريم:٦٨]، ولن يكونوا وحدهم ﴿ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ [مريم:٦٨] فهم والشياطين سواء، والشياطين هم الذين يوسوسون بالإنكار، وبينهما صلة التابع والمتبوع، والقائد والمقود..

وهنا يرسم صورة حسية وهم جاثون حول جهنم جثو الخزي والمهانة، ﴿ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ [مريم:٦٨]، وهي صورة رهيبة، وهذه الجموع التي لا يحصيها العد محشورة محضرة إلى جهنم جاثية حولها، تشهد هولها، ويلفحها حرها، وتنتظر في كل لحظة أن تؤخذ فتلقى فيها، وهم جاثون على ركبهم في ذلة وفزع..، وهو مشهد ذليل للمتجبرين المتكبرين، يليه مشهد النزع والجذب لمن كانوا أشد عتواً وتجبراً: ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ [مريم:٦٩]، وفي اللفظ تشديد، ليرسم بظله وجرسه صورة لهذا الانتزاع، تتبعها صورة القذف في النار، وهي الحركة التي يكملها الخيال.

وإن الله ليعلم من هم أولى بأن يصلوها، فلا يؤخذ أحد جزافاً من هذه الجموع التي لا تحصى، والتي أحصاها الله فرداً فرداً: ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴾ [مريم:٧٠]، فهم المختارون ليكونوا طليعة المقذوفين»[1].

---

(١) في ظلال القرآن: (٤/٢٣١٧).

وقد غيرت هذه الآية: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ [مريم: ٧١] أحوال الصالحين، فأسهرت ليلهم، وعكرت عليهم صفو العيش، وحرمتهم الضحك، والتمتع بالشهوات، فقد ذكر ابن كثير أن أبا ميسرة كان إذا أوى إلى فراشه قال: يا ليت أمي لم تلدني، ثم يبكي، فقيل له: ما يبكيك يا أبا ميسرة؟ فقال: أخبرنا الله أنا واردوها، ولم نخبر أنا صادرون عنها.

وقال عبد الله بن المبارك عن الحسن البصري، قال: قال رجل لأخيه: هل أتاك أنك وارد النار؟ قال: نعم، قال: فهل أتاك أنك صادر عنها؟ قال: لا، قال: ففيم الضحك؟ قال: فما رئي ضاحكاً حتى لحق بالله، وقال ابن عباس لرجل يحاوره: أما أنا وأنت يا أبا راشد فسنردها، فانظر هل نصدر عنها أم لا؟[1].

---

(١) تفسير ابن كثير: (٤/ ٤٧٦).

المبحث الثالث

مرور المؤمنين على الصراط وخلاص المؤمنين من المنافقين

عندما يذهب بالكفرة الملحدين، والمشركين الضالين إلى دار البوار: جهنم يصلونها، وبئس القرار، يبقى في عرصات القيامة أتباع الرسل الموحدون، وفيهم أهل الذنوب والمعاصي، وفيهم أهل النفاق، وتلقى عليهم الظلمة قبل الجسر كما في الحديث الذي يرويه مسلم في صحيحه عن عائشة قالت: سئل الرسول ﷺ: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسمـٰوات؟ فقال: «هم في الظلمة دون الجسر».

يقول شارح الطحاوية[1]: «وفي هذا الموضع يفترق المنافقون عن المؤمنين، ويتخلفون عنهم، ويسبقهم المؤمنون، ويحال بينهم بسور يمنعهم من الوصول إليهم.

روى البيهقي بسنده عن مسروق، عن عبد الله، قال: «يجمع الله الناس يوم القيامة» إلى أن قال: «فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل بين يديه، ومنهم من يعطى نوره فوق ذلك، ومنهم من يعطى نوره مثل النخلة بيمينه، ومنهم من يعطى دون ذلك بيمينه، حتى يكون آخر من يعطى نوره في إبهام قدمه، يضيء مرة ويطفأ أخرى، إذا أضاء قدم قدمه، وإذا أطفأ قام، قال: فيمر ويمرون على الصراط، والصراط كحد السيف دحض مزلة، ويقال لهم: امضوا على قدر نوركم، فمنهم من يمر كانقضاض الكوكب،

---

(١) شرح الطحاوية: ص ٤٧٠.

ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كالطرف، ومنهم من يمر كشد الرجل، يرمل رملاً على قدر أعمالهم، حتى يمر الذي نوره على إبهام قدمه، تخر يد، وتعلق يد، وتخر رجل وتعلق رجل، وتصيب جوانبه النار، فيخلصون فإذا خلصوا، قالوا: الحمد لله الذي نجانا منك، بعد أن أراناك، لقد أعطانا ما لم يعط أحد»[1].

وقد حدثنا الحق تبارك وتعالى عن مشهد مرور المؤمنين على الصراط، فقال: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ * يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ * فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحديد: ١٢-١٥].

فالحق يخبر أن المؤمنين والمؤمنات الذين استناروا بهذا الدين العظيم في الدنيا، وعاشوا في ضوئه، يعطون في يوم القيامة نوراً يكشف لهم الطريق الموصلة إلى جنات النعيم، ويجنبهم العثرات والمزالق في طريق دحض مزلة، وهناك يبشرون بجنات النعيم، ويحرم المنافقون الذين كانوا يزعمون في الدنيا أنهم مع المؤمنين، وأنهم منهم، لكنهم في الحقيقة مفارقون لهم لا يهتدون بهداهم، ولا يسلكون سبيلهم من النور، كما

(١) قال الشيخ ناصر في تخريجه لأحاديث شرح الطحاوية (٤٧٠): (صحيح، وأخرجه الحاكم، وأظن أن البيهقي من طريقه رواه، وقال الحاكم: (صحيح على شرط الشيخين) ووافقه الذهبي وبين الشيخ أن أحد رواته فيه ضعف، ثم هو مدلس، لكنه توبع، وصرح بالتحديث، فالحديث صحيح.

حرموا أنفسهم في الدنيا من نور القرآن العظيم، فيطلب المنافقون من أهل الإيمان أن ينتظروهم ليستضيئوا بنورهم، وهناك يخدعون، كما كانوا يخدعون المؤمنين في الدنيا، ويقال لهم: ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً، وبذلك يعود المنافقون إلى الوراء، ويتقدم المؤمنون إلى الأمام، فإذا تمايز الفريقان، ضرب الله بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب، ويكون مصير المؤمنين والمؤمنات الجنة، ومصير المنافقين والمنافقات النار.

وقد أخبر الحق أن دعاء المؤمنين عندما يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم هو (ربنا أتمم لنا نورنا)، قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم: ٨].

قال مجاهد والضحاك والحسن البصري وغيرهم: هذا يقوله المؤمنون حين يرون يوم القيامة نور المنافقين قد طُفىء»[1].

---

(١) تفسير ابن كثير: ٧/ ٦١.

المبحث الرابع

الذين يمرون على الصراط هم المؤمنون دون المشركين

دلت الأحاديث التي سقناها على أن الأمم الكافرة تتبع ما كانت تعبد من آلهة باطلة، فتسير تلك الآلهة بالعابدين حتى تهوي بهم في النار، ثم يبقى بعد ذلك المؤمنون وفيهم المنافقون، وعصاة المؤمنين، وهؤلاء هم الذين ينصب لهم الصراط.

ولم أر في كتب أهل العلم من تنبه إلى ما قررناه من أن الصراط إنما يكون للمؤمنين دون غيرهم من الكفرة المشركين والملحدين غير ابن رجب الحنبلي رحمه الله تعالى، فإنه قال: في كتابه التخويف من النار:

« واعلم أن الناس منقسمون إلى مؤمن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً، ومشرك يعبد مع الله غيره، فأما المشركون، فإنهم لا يمرون على الصراط، وإنما يقعون في النار قبل وضع الصراط »[1].

وقد ساق بعض الأحاديث التي سقناها، ومنها حديث أبي سعيد الخدري الذي في الصحيحين، ثم قال: «فهذا الحديث صريح في أن كل من أظهر عبادة شيء سوى الله كالمسيح والعزير من أهل الكتاب، فإنه يلحق بالمشركين في الوقوع في النار قبل نصب الصراط، إلا أن عباد الأصنام والشمس والقمر وغير ذلك من المشركين تتبع كل فرقة منهم ما كانت تعبد في الدنيا، فترد النار مع معبودها أولاً، وقد دل القرآن على هذا

(١) التخويف من النار: ص ١٨٧.

المعني في قوله تعالى في شأن فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ [هود:٩٨] ... وأما من عبد المسيح والعزير من أهل الكتاب، فإنهم يتخلفون مع أهل الملل المنتسبين إلى الأنبياء، ثم يردون النار بعد ذلك.

وقد ورد في حديث آخر أن من كان يعبد المسيح يمثل له شيطان المسيح فيتبعونه، وكذلك من كان يعبد العزير، وفي حديث الصور أنه يمثل لهم ملك على صورة المسيح، وملك على صورة العزير، ولا يبقى بعد ذلك إلا من كان يعبد الله وحده في الظاهر سواء كان صادقاً أو منافقاً من هذه الأمة وغيرها، ثم يتميز المنافقون عن المؤمنين بامتناعهم عن السجود، وكذلك يمتازون عنهم بالنور الذي يقسم للمؤمنين»[1].

وهذا نظر سديد من قائله رحمه الله.

---

(١) التخويف من النار: ص ١٨٨.

المبحث الخامس
معنى ورود النار

ذهب بعض العلماء إلى أن المراد بورود النار المذكور في قوله تعالى. ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ [مريم: ٧١] هو دخول النار، وهذا قول ابن عباس رضي الله عنه[١]، وكان يستدل على ذلك بقول الله تعالى في فرعون: ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ۖ ﴾ [هود: ٩٨]، وبقوله: ﴿ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ [مريم: ٨٦]، وقوله: ﴿ لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ ﴾ [الأنبياء: ٩٩]، وروى مسلم الأعور عن مجاهد: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ ﴾ [مريم: ٧١]، قال: داخلها[٢].

وذهب بعض أهل العلم إلى أن المراد بالورود هنا المرور على الصراط، يقول شارح الطحاوية: «واختلف المفسرون في المراد بالورود في قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ ﴾ [مريم: ٧١] ما هو؟ والأظهر والأقوى أنه المرور على الصراط قال تعالى ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم: ٧٢].

وفي «الصحيح» أنه ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، لا يلج النار أحد بايع تحت الشجرة»، قالت حفصة: فقلت: يا رسول الله، أليس الله يقول: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ ﴾ [مريم: ٧١]. فقال: «ألم تسمعيه قال:

---

(١) التخويف من النار: ص ٢٠.

(٢) التخويف من النار: ص ٢٠٠.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧٢]. وأشار ﷺ إلى أن ورود النار لا يستلزم دخولها، وأن النجاة من الشر لا تستلزم حصوله، بل تستلزم انعقاد سببه، فمن طلبه عدوه ليهلكوه ولم يتمكنوا منه يقال: نجاه الله منهم.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا﴾ [هود: ٥٨]، ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا﴾ [هود: ٦٦]. ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا﴾ [هود: ٩٤]، ولم يكن العذاب أصابهم، ولكن أصاب غيرهم، ولولا ما خصهم الله به من أسباب النجاة، لأصابهم ما أصاب أولئك، وكذلك حال الوارد على النار، يمرون فوقها على الصراط، ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثياً، فقد بين ﷺ في حديث جابر المذكور أن الورود هو الورود على الصراط»[1].

والحق أن الورود على النار ورودان: ورود الكفار أهل النار، فهذا ورود دخول لا شك في ذلك كما قال تعالى في شأن فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨]، أي بئس المدخل المدخول.

والورود الثاني: ورود الموحدين، أي مرورهم على الصراط على النحو المذكور في الأحاديث.

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية: ص ٤٧١.

المبحث السادس
حقيقة الصراط ومعتقد أهل السنة فيه

قال السفاريني: «الصراط في اللغة الطريق الواضح. ومنه قول جرير:

أمير المؤمنين على صراط إذا اعوج الموارد مستقيم

وفي الشرع جسر ممدود على متن جهنم، يرده الأولون والآخرون، فهو قنطرة بين الجنة والنار»[1].

وقد بين شارح الطحاوية معتقده في الصراط المذكور في الأحاديث فقال:

«ونؤمن بالصراط، وهو جسر على جهنم، إذا انتهى الناس بعد مفارقتهم الموقف إلى الظلمة التي دون الصراط، كما قالت عائشة رضي الله عنها: إن رسول الله ﷺ سئل: أين الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات؟ فقال: «هم في الظلمة دون الجسر»[2].

وقد بيّن السفاريني رحمه الله تعالى -موقف الفرق من الصراط، وهل هو صراط مجازي أم حقيقي؟ ثم قرر مذهب أهل الحق الذي دلت عليه النصوص فيه، فقال: «اتفقت الكلمة على إثبات الصراط في الجملة، لكن أهل الحق يثبتونه على ظاهره من كونه جسراً ممدوداً على متن

(١) لوامع الأنوار البهية: (٢/١٨٩).

(٢) شرح الطحاوية: ص ٤٦٩.

جهنم، أحدّ من السيف وأدق من الشعر، وأنكر هذا الظاهر القاضي عبد الجبار المعتزلي، وكثير من أتباعه زعماً منهم أنه لا يمكن عبوره، وإن أمكن ففيه تعذيب، ولا عذاب على المؤمنين والصلحاء يوم القيامة، وإنما المراد طريق الجنة المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ [محمد:٥]، وطريق النار المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾ [الصافات:٢٣]، ومنهم من حمله على الأدلة الواضحة والمباحات والأعمال الرديئة التي يسأل عنها ويؤاخذ بها، وكل هذا باطل وخرافات لوجوب حمل النصوص على حقائقها، وليس العبور على الصراط بأعجب من المشي على الماء أو الطيران في الهواء، أو الوقوف فيه، وقد أجاب ﷺ عن سؤال حشر الكافر على وجهه بأن القدرة صالحة لذلك.

وأنكر العلامة القرافي كون الصراط أدق من الشعر وأحد من السيف، وسبقه إلى ذلك شيخه العز بن عبد السلام، والحق أن الصراط وردت به الأخبار الصحيحة وهو محمول على ظاهره بغير تأويل كما ثبت في الصحيحين والمسانيد والسنن والصحاح مما لا يحصى إلا بكلفة من أنه جسر مضروب على متن جهنم يمر عليه جميع الخلائق، وهم في جوازه متفاوتون»[1].

وذكر القرطبي مذهب القائلين بمجازية الصراط، المؤولين للنصوص المصرحة به، فقال:

«ذهب بعض من تكلم على أحاديث وصف الصراط بأنه أدق من

(١) لوامع الأنوار البهية: ٢/ ١٩٢.

الشعر، وأحدُّ من السيف أن ذلك راجع إلى يسره وعسره على قدر الطاعات والمعاصي، ولا يعلم حدود ذلك إلا الله تعالى لخفائها وغموضها، وقد جرت العادة بتسمية الغامض الخفي دقيق، فضرب المثل بدقة الشعر، فهذا من هذا الباب، ومعنى قوله: أحد من السيف أن الأمر الدقيق الذي يصعد من عند الله تعالى إلى الملائكة في إجازة الناس على الصراط يكون في نفاذ حد السيف ومضيه إسراعاً منهم إلى طاعته وامتثاله، ولا يكون له مرد كما أن السيف إذا نفذ بحده وقوة ضاربه في شيء لم يكن له بعد ذلك مرد، وإما أن يقال: إن الصراط نفسه أحد من السيف وأدق من الشعر فذلك مدفوع بما وصف من أن الملائكة يقومون بجنبيه، وأن فيه كلاليب وحسكاً، أي أن من يمر عليه يقع على بطنه، ومنهم من يزل، ثم يقوم، وفيه أن من الذين يمرون عليه مَنْ يعطى النور بقدر موضع قدميه، وفي ذلك إشارة إلى أن للمارين عليه مواطىء الأقدام، ومعلوم أن دقة الشعر لا يحتمل هذا كله[1].

ثم رد عليهم مقالتهم، فقال: «ما ذكره هذا القائل مردود بما ذكرنا من الأخبار وأن الإيمان يجب بذلك، وأن القادر على إمساك الطير في الهواء قادر على أن يمسك عليه المؤمن، فيجريه أو يمشيه، ولا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا عند الاستحالة، ولا استحالة في ذلك للآثار المروية في ذلك، وبيانها بنقل الأئمة العدول، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور»[2].

---

(١) التذكرة للقرطبي: ٣٣٢.

(٢) التذكرة للقرطبي: ٣٣٣.

المبحث السابع
عظمة المرور على الصراط

يقول القرطبي: «تفكر الآن فيما يحل بك من الفزع بفؤادك إذا رأيت الصراط ودقته، ثم وقع بصرك على سواد جهنم من تحته، ثم قرع سمعك شهيق النار وتغيظها، وقد كلفت أن تمشي على الصراط، مع ضعف حالك واضطراب قلبك، وتزلزل قدمك، وثقل ظهرك بالأوزار، المانعة لك من المشي على بساط الأرض، فضلاً عن حدة الصراط.

فكيف بك إذا وضعت عليه إحدى رجليك، فأحسست بحدته، واضطررت إلى أن ترفع قدمك الثاني، والخلائق بين يديك يزلون، ويعثرون، وتتناولهم زبانية النار بالخطاطيف والكلاليب، وأنت تنظر إليهم كيف ينكسون إلى جهة النار رؤوسهم وتعلوا أرجلهم فيا له من منظر ما أفظعه، ومرتقى ما أصعبه، ومجاز ما أضيقه»[1].

وقال أيضاً:[2] «فتوهم نفسك -يا أخي- إذا صرت على الصراط، ونظرت إلى جهنم تحتك سوداء مظلمة، قد لظى سعيرها، وعلا لهيبها، وأنت تمشي أحياناً، وتزحف أخرى، قال:

أبت نفسي تتوب فما احتيالي ... إذا برز العباد لذي الجلالِ
وقاموا من قبورهم سكارى ... بأوزار كأمثال الجبال

(١) التذكرة للقرطبي: ٣٣٢.
(٢) التذكرة للقرطبي: ٣٣٠.

وقد نصب الصراط لكي يجوزوا فمنهم من يكب على الشمال

ومنهم من يسير لدار عدن تلقاه العرائس بالغوالي

يقول له المهيمن يا وليي غفرت لك الذنوب فلا تبالي

وقال آخر:

إذا مد الصراط على جحيم تصول على العصاة وتستطيل

فقوم في الجحيم لهم ثبور وقوم في الجنان لهم مقيل

وبان الحق وانكشف المغطى وطال الويل واتصل العويل

المراجع مرتبة على حروف المعجم

١- التخويف من النار، للحافظ أبي الفرج بن الجوزي. طبعة المكتبة العلمية. بيروت.

٢- التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة للقرطبي. طبعة المكتبة السلفية - المدينة المنورة.

٣- تفسير الألوسي. طبعة إدارة الطباعة المنيرية.

٤- تفسير ابن كثير. طبعة دار الأندلس. بيروت. الطبعة الأولى. ١٣٨٥-١٩٦٦.

٥- تفسير القرطبي. طبعة دار الكتاب العربي. القاهرة.

٦- جامع الأصول في أحاديث الرسول، لابن الأثير. تحقيق عبد القادر الأرناؤوط. نشر مكتبة الحلواني. الطبعة الأولى، ١٣٩٢ - ١٩٧٢.

٧- الروح، لابن القيم. نشر المكتبة العلمية. بيروت.

٨- سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ ناصر الدين الألباني. نشر المكتب الإسلامي. بيروت. الطبعة الأولى.

٩- شرح العقيدة الطحاوية. لمحمد بن محمد بن أبي العز الحنفي. نشر المكتب الإسلامي. بيروت. الطبعة الرابعة. ١٣٩١.

١٠- صحيح البخاري. اعتمدنا على متن فتح الباري: طبعة السلفية. القاهرة. الطبعة الأولى.

١١- صحيح الجامع الصغير للسيوطي. تحقيق محمد ناصر الدين الألباني. نشر المكتب الإسلامي. بيروت. الطبعة الأولى. ١٣٨٨هـ- ١٩٦٩.

١٢- صحيح مسلم. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. طبعة دار إحياء الكتب العربية. بيروت. الطبعة الثانية. ١٩٧٢.

١٣- العهد القديم والعهد الجديد.

١٤- فتح الباري، لابن حجر العسقلاني، طبعة المكتبة السلفية. القاهرة. الطبعة الأولى.

١٥- في ظلال القرآن، لسيد قطب. طبعة دار الشروق.

١٦- لسان العرب، لابن منظور. ترتيب يوسف خياط، ونديم مرعشلي، طبعة دار لسان العرب.

١٧- لوامع الأنوار البهية، للسفاريني، طبعة دولة قطر. الطبعة الأولى.

١٨- مجموع فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية. جمع ابن قاسم. طبعة دولة المملكة العربية السعودية. الطبعة الأولى.

١٩- مشكاة المصابيح للخطيب التبريزي. طبعة المكتب الإسلامي. دمشق. الطبعة الأولى. ١٣٨١ - ١٩٦١.

٢٠- معارج القبول. للشيخ حافظ حكمي طبعة الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية. الرياض.

٢١- مقاصد المكلفين، لمؤلف هذا الكتاب. طبعة مكتبة الفلاح. الكويت.

٢٢- نهاية البداية والنهاية لابن كثير. نشر مكتبة النهضة الحديثة. الرياض. الطبعة الأولى. ١٩٦٨.

الفهرس

المقدمة ٥
تمهيد: التعريف بالقيامة الكبرى ٩

الفصل الأول: أسماء يوم القيامة

أشهر أسماء ذلك اليوم ١٢
السرُّ في كثرة أسماء هذا اليوم ٢١

الفصل الثاني: إفناء الأحياء

المبحث الأول: النفخ في الصور ٢٣
المبحث الثاني: الصور الذي ينفخ فيه ٢٥
المبحث الثالث: النافخ في الصور ٢٧
المبحث الرابع: اليوم الذي يكون فيه النفخة ٢٩
المبحث الخامس: كم مرة ينفخ في الصور؟ ٣١
المبحث السادس: الذين لا يصعقون عند النفخ في الصور ٣٥

الفصل الثالث: البعث والنشور

المبحث الأول: التعريف بالبعث والنشور ٤٣
المبحث الثاني: البعث خلق جديد ٤٦
المبحث الثالث: أول من تنشق عنه الأرض ٤٧
المبحث الرابع: حشر الخلائق جميعاً إلى الموقف العظيم ٤٨

المبحث الخامس: صفة حشر العباد ٥٠
المبحث السادس: كسوة العباد في يوم المعاد ٥٣

الفصل الرابع: أرض المحشر

وقت تبديل الأرض غير الأرض ٥٧

الفصل الخامس: المكذبون بالبعث والأدلة على أنه كائن

المبحث الأول: المكذبون بالبعث والنشور ٥٩
المبحث الثاني: أدلة البعث والنشور ٦٣

الفصل السادس: القيامة عند الأنبياء وفي كتب أهل الكتاب

المبحث الأول: اتفاق جميع الأنبياء على الإخبار بالمعاد ٧٧
المبحث الثاني: نظرة في نصوص اليوم الآخر في كتب أهل الكتاب... ٨٢

الفصل السابع: أهوال يوم القيامة

المبحث الأول: الدلائل على عظم أهوال ذلك اليوم ٨٥
المبحث الثاني: بعض معالم أهوال القيامة ٨٩
المطلب الأول: قبض الأرض وطي السماء ٨٩
المطلب الثاني: دك الأرض ونسف الجبال ٩١
المطلب الثالث: تفجير البحار وتسجيرها ٩٣
المطلب الرابع: موران السماء وانفطارها ٩٤
المطلب الخامس: تكوير الشمس وخسوف القمر وتناثر النجوم ٩٥
المطلب السادس: تفسير القرطبي للنصوص الواصفة لأهوال القيامة... ٩٦

المطلب السابع: المحاسبي يصور أهوال ذلك اليوم ١٠١

الفصل الثامن: أحوال الناس في يوم القيامة

المبحث الأول: حال الكفار ١٠٧
المطلب الأول: ذلتهم وهوانهم وحسرتهم ويأسهم ١٠٧
المطلب الثاني: إحباط أعمالهم ١١٣
المطلب الثالث: تخاصم أهل النار ١١٦
١- تخاصم العابدين والمعبودين ١١٦
٢- تخاصم الأتباع وقادة الفكر الضال ١١٨
٣- تخاصم الضعفاء والسادة ١١٩
٤- تخاصم الكافر وقرينه الشيطان ١٢٦
٥- مخاصمة الكافر أعضاءه ١٢٦
٦- تخاصم الروح والجسد ١٢٨
المبحث الثاني: حال عصاة المؤمنين ١٣٠
المطلب الأول: الذين لا يؤدون الزكاة ١٣٠
المطلب الثاني: المتكبرون ١٣٢
المطلب الثالث: ذنوب لا يكلم الله أصحابها ولا يزكيهم ١٣٣
المطلب الرابع: الأثرياء المنعمون ١٣٨
المطلب الخامس: فضيحة الغادر ١٣٩
المطلب السادس: الغلول ١٤٠

المطلب السابع: غاصب الأرض ١٤٣
المطلب الثامن: ذو الوجهين ١٤٣
المطلب التاسع: الحاكم الذي يحتجب عن رعيته ١٤٤
المطلب العاشر: الذي يسأل وله ما يغنيه ١٤٤
المطلب الحادي عشر: البصاق تجاه القبلة ١٤٥
المطلب الثاني عشر: من كذب في حلمه ١٤٦
المبحث الثالث: حال الأتقياء ١٤٧
المطلب الأول: يفزع الناس يوم القيامة ولا يفزعون ١٤٧
المطلب الثاني: الذين يظلهم الله في ظله ١٤٩
المطلب الثالث: الذين يسعون في حاجة إخوانهم ويسدُّون خلتهم ... ١٥١
المطلب الرابع: الذين ييسِّرون على المعسرين ١٥٢
المطلب الخامس: الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا ١٥٣
المطلب السادس: الشهداء والمرابطون ١٥٤
المطلب السابع: الكاظمون الغيظ ١٥٦
المطلب الثامن: عتق الرقاب المسلمة ١٥٧
المطلب التاسع: فضل المؤذنين ١٦٠
المطلب العاشر: الذين يشيبون في الإسلام ١٦١
المطلب الحادي عشر: فضل الوضوء ١٦٢

الفصل التاسع: الشفاعة

المبحث الأول: أحاديث الشفاعة ١٦٧
المبحث الثاني: وجه الاستدلال بالأحاديث على الشفاعة العظمى ... ١٧٦
المبحث الثالث: الشفاعة المقبولة والشفاعة المرفوضة،
وأنواع الشفاعة المقبولة ١٨١

الفصل العاشر: الحساب والجزاء

تمهيد: المراد بالحساب والجزاء ١٨٥
المبحث الأول: مشهد الحساب ١٨٦
المبحث الثاني: هل يسأل الكفار؟ ولماذا يسألون؟ ١٨٨
توجيه النصوص الدالة على أن الكفار لا يسألون ١٩٢
المبحث الثالث: القواعد التي يحاسب العباد على أساسها ١٩٥
١- العدل التام الذي لا يشوبه ظلم ١٩٥
٢- لا يؤخذ أحد بجريرة غيره ١٩٦
الذين يحملون أثقالاً مع أثقالهم ١٩٧
٣- إطلاع العباد على ما قدموه من أعمال ١٩٨
٤- مضاعفة الحسنات دون السيئات ١٩٩
تبديل السيئات بالحسنات ٢٠٣
٥- إقامة الشهود على الكفرة والمنافقين ٢٠٤
المبحث الرابع: ما يسأل عنه العباد ٢٠٨

١- الكفر والشرك ٢٠٨
٢- ما عمله في دنياه ٢٠٩
٣- النعيم الذي يتمتع به ٢١٠
٤- العهود والمواثيق ٢١٣
٥- السمع والبصر والفؤاد ٢١٣
المبحث الخامس: أول ما يحاسب عليه العبد من أعماله ٢١٤
المبحث السادس: أنواع الحساب وأمثلة هذه الأنواع ٢١٥
المطلب الأول: أنواع الحساب ٢١٥
المطلب الثاني: أمثلة هذه الأنواع ٢١٧
١- مناقشة المرائين ٢١٧
٢- عرض الرب ذنوب عبده عليه ٢٢٠
٣- معاتبة الرب عبده فيما وقع منه من تقصير ٢٢٠
المبحث السابع: إيتاء العباد كتبهم ٢٢٢
المبحث الثامن: تصوير القرطبي لمشهد الحساب ٢٢٣

الفصل الحادي عشر: اقتصاص المظالم بين الخلق

المطلب الأول: كيف يكون الاقتصاص في يوم القيامة ٢٢٨
المطلب الثاني: عظم شأن الدماء ٢٣٠
المطلب الثالث: الاقتصاص للبهائم بعضها من بعض ٢٣٢
كيف يقتص من البهائم وهي غير مكلفة؟ ٢٣٣

المطلب الرابع: متى يقتص للمؤمنين بعضهم من بعض ٢٣٦

الفصل الثاني عشر: الميزان

المطلب الأول: تعريف الميزان ٢٣٧
المطلب الثاني: الميزان عند أهل السنة ٢٣٨
المطلب الثالث: ما الذي يوزن في الميزان ٢٤١
المطلب الرابع: الأعمال التي تثقل في الميزان ٢٤٦

الفصل الثالث عشر: الحوض

المبحث الأول: الأحاديث الواردة في الحوض ٢٤٨
المبحث الثاني: الذين يردون الحوض والذين يُذادون عنه ٢٥٠

الفصل الرابع عشر: الحشر إلى دار القرار: الجنة أو النار

المبحث الأول: يطلب من كل أمة اتباع الإله الذي كانت تعبده ٢٥٣
المبحث الثاني: حشر الكفار إلى النار ٢٥٨
المبحث الثالث: مرور المؤمنين على الصراط ٢٦٢
المبحث الرابع: الذين يمرون على الصراط هم المؤمنون دون المشركين .. ٢٦٥
المبحث الخامس: معنى ورود النار ٢٦٧
المبحث السادس: حقيقة الصراط ومعتقد أهل السنة فيه ٢٦٩
المبحث السابع: عظة المرور على الصراط ٢٧٢
المراجع مرتبة على حروف المعجم ٢٧٥

رقم الإيداع
2005/5861
الترقيم الدولي I.S.B.N
977 - 342 - 279 - 8

الجنة والنار

حُقُوق الطّبْع مَحْفُوظَة

لدار النفائس

للنشر والتوزيع - الأردن

طبعة خاصة بمصر والمغرب العربي واليمن

(يمنع تداولها في دول الخليج العربي)

١٤٣٣هـ / ٢٠١٢ م

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م
تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م هي عشر الجائزة تتويجًا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية
الإدارة : القاهرة : ٤٠ شارع أحمد أبو العلا - المتفرع مع شارع نور الدين بهجت - الموازي لامتداد شارع مكرم عبيد - مدينة نصر
هاتف : ٢٢٨٧٣٢٤٦ - ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +) فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)
فاكس : ٢٢٦٣٩٨٦١ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين
هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)
بريديًا : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

دار النفائس
للنشر والتوزيع - الأردن

العبدلي - مقابل عمارة جوهرة القدس
ص.ب : ٩٢٧٥١١ عمّان ١١١٩٠ الأردن
هاتف : ٥٦٩٣٩٤٠ - فاكس : ٥٦٩٣٩٤١
بريد إلكتروني : ALNAFAES@HOTMAIL.COM

العقيدة في ضوء الكتاب والسنة ٧

الجنة والنار

أ.د. عمر سليمان عبدالله الأشقر

دار النفائس
للنشر والتوزيع - الأردن

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي خلق الجنة والنار، وخلق لكل واحدة منهما أهلاً وأصحاباً، وجعل الجنة دار أوليائه، والنار دار أعدائه. والصلاة والسلام على خاتم رسله، وأشرف خلقه الذي جاء إلى الجنة داعياً، وفي نعيمها مرغباً، ومن النار وعذابها مخوفاً ومحذراً ومرهباً.

وأصلي وأسلم على آل الرسول وصحبه وتابعيهم بإحسان الذين أعدوا للأمر عدته، وأخذوا له أهبته، فأسهروا ليلهم يصلون، ويستغفرون، ويناجون الله، ويرتلون كتابه، وأظمؤوا نهارهم تقرباً إلى الله بالصيام، لأنهم علموا أن الأمر جد، ولا نجاة من النار، ولا فوز بالجنة إلا بالتشمير عن ساعد الجد، وبعد:

فهذا هو القسم الثالث من أقسام اليوم الآخر، وهو حديث عن الجنة والنار.

وقد جعلنا هذا القسم في بابين.

الباب الأول حديث عن النار، وقد تم هذا الباب في عشرة فصول، يسبقها تمهيد.

أما التمهيد فهو في تعريف النار.

والفصل الأول عقدناه للتدليل على عقيدة أهل السنة والجماعة في أن الجنة والنار مخلوقتان ورددت فيه على من زعم خلاف ذلك من أهل الفرق.

والفصل الثاني حديث عن خزنة النار، وهم الملائكة القائمون على

النار، وبيان عددهم وعظم خلقهم.

والفصل الثالث وصف للنار، وفيه حديث عن مكانها، وسعتها، ودركاتها، وأبوابها، ووقودها، وشدة حرها، وكلامها، وصفة خلقها، وتأثيرها على الدنيا وأهلها.

والفصل الرابع سقناه للتدليل على أنها خالدة لا تبيد، ورددنا فيه على الذين زعموا أنها تفنى وتبيد.

وفي الفصل الرابع حديث عن أهل النار وهم فريقان: فريق خالد فيها، وهم الكفرة المشركون، وفريق غير خالد وهم عصاة الموحدين. وقد تحدثنا عن كلا الفريقين، وذكرنا شيئاً من جرائمهم التي استحقوا بها النار.

وفي الفصل السادس حديث عن كثرة أهل النار، وسقنا النصوص الدالة على كثرة الهالكين، وقلة الناجين، والسر في ذلك. وفي هذا الفصل مبحث للحديث عن النساء وأنهن أكثر أهل النار، وبيان السبب في كونهن كذلك.

وفي الفصل السابع بيان لعظم أهل النار وضخامة خلقهم.

والفصل الثامن مخصص للحديث عن طعام أهل النار وشرابهم.

والفصل التاسع فصل طويل مسوق للحديث عن عذاب أهل النار، وقد سقت فيه صوراً من عذابهم، كما بينت أن أهل النار متفاوتون في عذابهم في النار، ثم ذكرت شيئاً من أنواع العذاب الذي أعده الله لهم، ومنه الصهر، واللفح، والسحب، وتسويد الوجوه، وإنضاج الجلود، واندلاق الأمعاء، وإطلاع النار على أفئدتهم، كما سقت النصوص المبينة لقيودهم وأغلالهم وسلاسلهم ومطارقهم التي يعذبون بها.

والفصل العاشر والأخير عقدته لبيان السبل التي يتقي بها العباد نار الله.

والباب الثاني عقدته للحديث عن الجنة، وفيه سبعة فصول، يسبقها

تمهيد. أما التمهيد فللتعريف بالجنة.

والفصل الأول عقدته لدخول الجنة، بينت فيه مشهد دخول المؤمنين الجنة، وشفاعة الرسول ﷺ للمؤمنين في دخولها، وكيف يدخلها المؤمنون بعد تهذيبهم وتنقيتهم، وتحدثت فيه عن أول المؤمنين دخولاً الجنة، وعن السبعين ألفاً من هذه الأئمة الذين يدخلون الجنة بغير حساب، وصفتهم وعن سبق فقراء المهاجرين أغنياءهم إلى الجنة، وعقدت مبحثاً طويلاً لبيان أن عصاة الموحدين الذين دخلوا النار يخرجون منها برحمة أرحم الراحمين وشفاعة الشفاعين، وبينت مذهب أهل السنة من هذه الشفاعة، ورددت على الذين أنكروها وردوها، وختمت هذا الفصل بمبحثين: الأول عن آخر من يدخل الجنة، والثاني عمن دخل الجنة قبل يوم القيامة.

والفصل الثاني سقته للتدليل على أن الجنة خالدة وأهلها فيها خالدون، وللرد على من زعم خلاف ذلك.

والفصل الثالث في صفة الجنة، وقد تحدثنا فيه عن عظم نعيمها، وأبوابها، ودرجاتها، وتربتها، وأنهارها، وعيونها، وقصورها، ونورها، وريحها، وأشجارها، وثمارها، وريحانها، ودوابها.

والفصل الرابع حديث عن أهل الجنة والأعمال التي استحقوا بها الجنة، وكيف يرث أهل الجنة نصيب أهل النار في الجنة، وبيان أن الضعفاء في الجنة أكثر من الأغنياء، وأن الرجال أكثر فيها من النساء، وحققت القول في مسألة دخول أطفال المؤمنين وأطفال المشركين الجنة، ومن مباحث هذا الفصل ذكر سادة أهل الجنة كهولاً وشباناً ونساء، وذكر العشرة المبشرين بالجنة، وذكر أسماء بعض من نص على أنه في الجنة، وختمت هذا الفصل بذكر أن الجنة ليست ثمناً للعمل، بل العمل سبب لدخول الجنة، ونيل الجنة إنما هو برحمة الله وفضله.

والفصل الخامس حديث عن صفة أهل الجنة ونعيمهم فيها.

وأطول فصول هذا الباب الفصل السادس الذي عقدته للحديث عن نعيم أهل الجنة، وبينت فيه فضل نعيم الجنة على متاع الدنيا. وتحدثت فيه عن تمتع أهل الجنة بأنواع الطعام والشراب، كما تحدث عن فرشهم وخدمهم وسوقهم وآنية طعامهم وشرابهم، وعن اللباس الذي يلبسونه، والأماني التي يتمنونها، فتتحقق على صورة عجيبة غريبة، ليس لها في الدنيا نظير.

وعقدت مبحثاً في هذا الفصل للحديث عن أزواج المؤمنين في الجنة، سواء كن من الحور العين أو أزواجهم من نساء الدنيا.

وبينت في هذا الفصل أن أعظم ما يعطاه المؤمنون في الجنة رضوان الله عز وجل، ولذة النظر إلى وجهه الكريم، ومن النعيم في دار النعيم تسبيح المولى وتقديسه وتكبيره.

والفصل السابع والأخير فيه حديث عما جرى من محاجة بين الجنة والنار وحكم الله بينهما.

أسأل الله تعالى أن يوفقنا للعمل بطاعته، وأن ينجينا من النار بمنِّه وكرمه، وأن يدخلنا الجنة برحمته وفضله، إنه سميع مجيب قريب، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد.

عمر سليمان عبد الله الأشقر

الكويت

١٩ من رمضان ١٤٠٦

١٩٨٦/٥/٢٧

البَابُ الأوَّلُ

النَّار

تمهيد: تعريف وبيان

النار هي الدار التي أعدها الله للكافرين به، المتمردين على شرعه، المكذبين لرسله، وهي عذابه الذي يعذب فيه أعداءه، وسجنه الذي يسجن فيه المجرمين.

وهي الخزي الأكبر، والخسران العظيم، الذي لا خزي فوقه، ولا خسران أعظم منه، ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [آل عمران: ١٩٢]، ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٦٣]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

وكيف لا تكون النار كما وصفنا وفيها من العذاب والآلام والأحزان ما تعجز عن تسطيره أقلامنا، وعن وصفه ألسنتنا، وهي مع ذلك خالدة وأهلها فيها خالدون، ولذلك فإن الحق أطال في ذم مقام أهل النار في النار ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦]، ﴿هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [ص: ٥٥-٥٦].

الفصل الأول

الجنة والنار مخلوقتان

قال الطحاوي في العقيدة السلفية التي تنسب إليه المعروفة بالعقيدة الطحاوية: «والجنة والنار مخلوقتان، لا تفنيان أبداً ولا تبيدان، فإن الله تعالى خلق الجنة والنار قبل الخلق، وخلق لهما أهلاً، فمن شاء منهم إلى الجنة فضلاً منه، ومن شاء منهم إلى النار عدلاً منه، وكل يعمل لما قد فرغ له، وصائر إلى ما خلق له، والخير والشر مقدران على العباد».

وقال محمد بن محمد بن أبي العز الحنفي شارح الطحاوية في شرحه لهذا النص:

«أما قوله: «إن الجنة والنار مخلوقتان»، فاتفق أهل السنة على أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن، ولم يزل أهل السنة على ذلك، حتى نبغت نابغة من المعتزلة والقدرية، فأنكرت ذلك، وقالت: بل ينشئهما الله يوم القيامة. وحملهم على ذلك أصلهم الفاسد الذي وضعوا به شريعة لما يفعله الله، وأنه ينبغي أن يفعل كذا، ولا ينبغي له أن يفعل كذا. وقاسوه على خلقه في أفعالهم، فهم مشبهة في الأفعال، ودخل التجهم فيهم، فصاروا مع ذلك معطلة. وقالوا: خلق الجنة قبل الجزاء عبث، لأنها تصير معطلة مدداً متطاولة. فردوا من النصوص ما خالف هذه الشريعة الباطلة التي وضعوها للرب تعالى، وحرفوا النصوص عن مواضعها، وضللوا وبدعوا من خالف شريعتهم».

ثم ساق الأدلة من الكتاب والسنة التي تدل على أنهما مخلوقتان، «فمن نصوص الكتاب: قوله تعالى عن الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [الحديد: ٢١]، وعن النار ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١]، ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِّلطَّاغِينَ مَـَٔابًا﴾ [النبأ: ٢١-٢٢]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ * عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾ [النجم: ١٣-١٥].

وقد رأى النبي ﷺ سدرة المنتهي، ورأى عندها جنة المأوى. كما في «الصحيحين»، من حديث أنس رضي الله عنه، في قصة الإسراء، وفي آخره: «ثم انطلق بي جبرائيل، حتى أتى سدرة المنتهى، فغشيها ألوان لا أدري ما هي، قال: ثم دخلت الجنة، فإذا هي جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك».

وفي «الصحيحين» من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة»[(١)].

وتقدم حديث البراء بن عازب[(٢)]، وفيه: «ينادي مناد من السماء: أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، قال: فيأتيه من رَوْحِها وطيبها».

وفي «صحيح مسلم»، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: خسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ، فذكرت الحديث، وفيه: وقال رسول

(١) صحيح البخاري: ١٣٧٩. وصحيح مسلم: ٢٨٦٦.
(٢) تقدم في كتاب: «القيامة الكبرى».

الله ﷺ: «رأيت في مقامي هذا كل شيء وعدتم، حتى لقد رأيتني أريد أن آخذ قطفاً من الجنة حين رأيتموني جعلت أُقَدّم. ولقد رأيت جهنم يحطم بعضها بعضاً حين رأيتموني تأخرت»[1].

وفي «الصحيحين»، واللفظ للبخاري، عن عبد الله بن عباس، قال: انخسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ، فذكر الحديث، وفيه: فقالوا: يا رسول الله رأيناك تناولت شيئاً في مقامك، ثم رأيناك كَعْكَعْتَ؟ فقال: «إني رأيت الجنة، فتناولت عنقوداً، ولو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا، ورأيت النار، فلم أر منظراً كاليوم قط أفظع، ورأيت أكثر أهلها النساء»، قالوا: بم، يا رسول الله؟ قال: «بكفرهن»، قيل: يكفرن بالله؟ قال: (يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله، ثم رأت منك شيئاً، قالت: ما رأيت خيراً قط»[2].

وفي «صحيح مسلم» من حديث عائشة السابق أن الرسول ﷺ قال في خطبته بعد الصلاة: «لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً، ولضحكتم قليلاً»[3].

وفي «الموطأ والسنن»، من حديث كعب بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما نسمة المؤمن طيرٌ تعلق في شجر الجنة، حتى يرجعها الله إلى جسده يوم القيامة»[4]. وهذا صريح في دخول الروح الجنة قبل يوم القيامة.

وفي «صحيح مسلم والسنن والمسند»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لما خلق الله الجنة والنار، أرسل جبرائيل

---

(١) صحيح مسلم: ٩٠١.

(٢) صحيح البخاري: ١٠٥٢، ٥١٩٧. وصحيح مسلم: ٩٠٧.

(٣) صحيح مسلم: ٩٠١.

(٤) قال الألباني في تحقيقه للطحاوية: صحيح.

إلى الجنة، فقال: اذهب فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، فذهب فنظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها، فرجع فقال: وعزتك، لا يسمع بها أحد إلا دخلها، فأمر بالجنة، فحفت بالمكاره، فقال: ارجع فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها. قال: فنظر إليها، ثم رجع فقال: وعزتك، لقد خشيت أن لا يدخلها أحد.

قال: ثم أرسله إلى النار، قال: اذهب فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، قال: فنظر إليها، فإذا هي يركب بعضها بعضاً، ثم رجع فقال: وعزتك، لا يدخلها أحد سمع بها، فأمر بها فحفت بالشهوات، ثم قال: اذهب فانظر إلى ما أعددت لأهلها فيها، فذهب فنظر إليها، فرجع فقال: وعزتك، لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد إلا دخلها». ونظائر ذلك في السنة كثيرة[1].

وقد عقد البخاري في صحيحه باباً قال فيه: «باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة[2] وساق في هذا الباب أحاديث كثيرة تدل على أن الجنة مخلوقة، منها الحديث الذي ينص على أن الله يُري الميت عندما يوضع في قبره مقعده من الجنة والنار، وحديث إطلاع الرسول ﷺ على الجنة والنار، وحديث رؤية الرسول ﷺ لقصر عمر بن الخطاب في الجنة، وغير ذلك من الأحاديث، وقد كان ابن حجر مصيباً عندما قال: «وأصرح مما ذكره البخاري في ذلك ما أخرجه أحمد وأبو داود بإسناد قوي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لما خلق الله الجنة، قال لجبريل: «اذهب فانظر إليها»[3].

---

(١) شرح الطحاوية: ٤٧٦-٤٧٨.

(٢) في كتاب بدء الخلق، انظر فتح الباري: (٦/ ٣١٧).

(٣) فتح الباري: (٦/ ٣٢٠).

شبهة من قال النار لم تخلق بعد:

وقد ناقش شارح الطحاوية شبهة الذين قالوا: لم تخلق النار بعد، ورد عليها فقال:

«وأما شبهة من قال: إنها لم تخلق بعد، وهي: أنها لو كانت مخلوقة الآن لوجب اضطراراً أن تفنى يوم القيامة وأن يهلك كل من فيها ويموت، لقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]، و ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقد روى الترمذي في جامعه، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لقيت إبراهيم ليلة أسري بي، فقال: يا محمد، أقرىء أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله والله أكبر»[1]. قال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه من حديث ابن مسعود. وفيه أيضاً من حديث أبي الزبير، عن جابر، عن النبي ﷺ، أنه قال: «من قال سبحان الله العظيم وبحمده، غرست له نخلة في الجنة»[2]، قال فيه الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

قالوا: فلو كانت مخلوقةً مفروغاً منها لم تكن قيعاناً، ولم يكن لهذا الغراس معنى. قالوا: وكذا قوله تعالى عن امرأة فرعون أنها قالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ [التحريم: ١١].

---

(١) سنن الترمذي: ٣٤٦٢. وقال الشيخ ناصر في تعليقه على شرح الطحاوية ص: ١٠٦ وهو مخرج في الصحيحة.

(٢) وقال أيضاً في هذا الحديث: صحيح، وهو مخرج في المصدر السابق: ٦٤. وهو في سنن الترمذي برقم: ٣٤٦٤.

فالجواب: إنكم إن أردتم بقولكم إنها الآن معدومة بمنزلة النفخ في الصور وقيام الناس من القبور، فهذا باطل، يرده ما تقدم من الأدلة وأمثالها مما لم يذكر، وإن أردتم أنها لم يكمل خلق جميع ما أعد الله فيها لأهلها، وأنها لا يزال الله يُحدث فيها شيئاً بعد شيء، وإذا دخلها المؤمنون أحدث فيها عند دخولهم أموراً أخر -فهذا حق لا يمكن رده، وأدلتكم هذه إنما تدل على هذا القدر.

وأما احتجاجكم بقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص:٨٨]، فأُتِيتُم من سوء فهمكم معنى الآية، واحتجاجكم بها على عدم وجود الجنة والنار الآن -نظير احتجاج إخوانكم على فنائهما وخرابهما وموت أهلهما !! فلم توفقوا أنتم ولا إخوانكم لفهم معنى الآية، وإنما وفق لذلك أئمة الإسلام. فمن كلامهم: أن المراد «كل شيء» مما كتب الله عليه الفناء والهلاك «هالك»، والجنة والنار خُلِقتا للبقاء لا للفناء، وكذلك العرش، فإنه سقف الجنة.

وقيل: المراد إلا مُلْكَه. وقيل: إلا ما أُريد به وجهه. وقيل: إن الله تعالى أنزل: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن:٢٦]، فقالت الملائكة: هلك أهل الأرض، وطمعوا في البقاء، فأخبر تعالى عن أهل السماء والأرض أنهم يموتون، فقال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص:٨٨] لأنه حي لا يموت، فأيقنت الملائكة عند ذلك بالموت. وإنما قالوا ذلك توفيقاً بينها وبين النصوص المحكمة، الدالة على بقاء الجنة، وعلى بقاء النار أيضاً، على ما يُذْكَر عن قريب، إن شاء الله تعالى»[1].

---

(١) شرح الطحاوية: ص ٤٧٩، وراجع في هذه الموضوع: (يقظة أولى الاعتبار لصديق حسن خان ص: ٣٧، وعقيدة السفاريني: (٢/ ٢٣٠).

الفصل الثاني

خزنة النار

يقوم على النار ملائكة، خلقهم عظيم، وبأسهم شديد، لا يعصون الله الذي خلقهم، ويفعلون ما يؤمرون، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

وعدتهم تسعة عشر ملكاً، كما قال تعالى: ﴿سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ ۝ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝ لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ۝ لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ ۝ عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٢٦-٣٠]، وقد فتن الكفار بهذا العدد، فقد ظنوا أنه يمكن التغلب على هذا العدد القليل، وغاب عنهم أن الواحد من هؤلاء يملك من القوة ما يواجه به البشر جميعاً، ولذلك عقب الحق على ما سبق بقوله: ﴿وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗ وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [المدثر: ٣١].

قال ابن رجب: «والمشهور بين السلف والخلف أن الفتنة إنما جاءت من حيث ذكر عدد الملائكة الذين اغتر الكفار بقلتهم، وظنوا أنهم يمكنهم مدافعتهم وممانعتهم، ولم يعلموا أن كل واحد من الملائكة لا يمكن البشر كلهم مقاومته»[1]. وهؤلاء الملائكة هم الذين سماهم الله «بخزنة جهنم» في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩].

---

(١) التخويف من النار: ص ١٧٤.

الفصل الثالث

صفة النار

المبحث الأول

مكان النار

اختلف العلماء في موقع النار الآن فقال بعضهم: هي في الأرض السفلى، وقال آخرون: هي في السماء، وقال آخرون بالتوقف في ذلك، وهو الصواب، لعدم ورود نص صريح صحيح يحدد موقعها، ومن الذين توقفوا في هذا، الحافظ السيوطي قال: «وتَقِفُ عن النار، أي: تَقُولُ فيها بالوقف، أي محلها، حيث لا يعلمه إلا الله، فلم يثبت عندي حديث أعتمده في ذلك»[1].

وقال الشيخ ولي الله الدهلوي في عقيدته: «ولم يصرح نص في تعيين مكانهما (أي الجنة والنار)، بل حيث شاء الله تعالى، إذ لا إحاطة لنا بخلق الله وعوالمه»[2]، وقال صديق حسن خان عقب إيراده لقول الدهلوي هذا: «أقول: وهذا القول أرجح الأقوال وأحوطها إن شاء الله تعالى»[3].

---

(١) يقظة أولي الاعتبار، لصديق حسن خان: ص ٤٧.

(٢) المصدر السابق: ص ٤٧.

(٣) المصدر السابق.

المبحث الثاني
سعة النار وبُعد قعرها

النار شاسعة واسعة، بعيد قعرها، مترامية أطرافها، يدلنا على هذا أمور:

الأول: الذين يدخلون النار أعداد لا تحصى، ومع كثرة عددهم فإن خلق الواحد فيهم يضخم حتى يكون ضرسه في النار مثل جبل أحد، وما بين منكبيه مسيرة ثلاثة أيام، ومع ذلك فإنها تستوعب هذه الأعداد الهائلة التي وجدت على امتداد الحياة الدنيا من الكفرة المجرمين على عظم خلقهم، ويبقى فيها متسع لغيرهم وقد أخبرنا الله بهذه الحقيقة في سورة ق فقال: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠].

إن النار تشبه الطاحونة التي ينحدر إليها ألوف وألوف من أطنان الحبوب فتدور بذلك كله لا تكل ولا تمل، وينتهي الحب والطاحونة تدور انتظاراً للمزيد. وقد جاء في حديث احتجاج الجنة والنار أن الله يقول للنار: «إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي، ولكل واحدة منهما ملؤها، فأما النار، فلا تمتلىء حتى يضع رجله -وفي رواية حتى يضع الله تبارك وتعالى رجله- فتقول: قط قط قط، فهنالك تمتلىء، ويُزوى بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله من خلقه أحداً» رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة[1].

---

(١) جامع الأصول: (١٠/ ٥٤٤) وهو في البخاري برقم: ٤٨٥٠. وفي مسلم: ٢٨٤٦.

وعن أنس عن النبي ﷺ قال: «لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول: هل من مزيد، حتى يضع رب العزة فيها قدمه، فينزوي بعضها إلى بعض، وتقول: قط، قط، بعزتك وكرمك» متفق عليه[1].

الثاني: يدل على بعد قعرها أيضاً أن الحجر إذا ألقي من أعلاها احتاج إلى آماد طويلة حتى يبلغ قعرها، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: كنا مع رسول الله ﷺ، إذ سمع وَجْبَة[2]، فقال النبي ﷺ: «تدرون ما هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: هذا حجر رمي به في النار منذ سبعين خريفاً، فهو يهوي في النار إلى الآن»[3].

وروى الحاكم عن أبي هريرة، والطبراني عن معاذ وأبي أمامة عن النبي ﷺ قال: «لو أن حجراً مثل سبع خلفات، ألقي من شفير جهنم هوى فيها سبعين خريفاً لا يبلغ قعرها»[4].

الثالث: كثرة العدد الذي يأتي بالنار من الملائكة في يوم القيامة، فقد وصف الرسول ﷺ مجيء النار في يوم القيامة، الذي يقول الله فيه: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ [الفجر:٢٣]، فقال: «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك» رواه مسلم عن عبد الله ابن مسعود[5]. ولك أن تتخيل عظم هذا المخلوق الرهيب الذي احتاج

---

(١) مشكاة المصابيح: (٣/١٠٩) وهو في البخاري برقم: ٦٦٦١. وفي مسلم: ٢٨٤٨. واللفظ لمسلم.

(٢) أي سقطة.

(٣) رواه مسلم، كتاب الجنة، باب في شدة حر النار، (٤/ ٢١٨٤)، ورقمه (٢٨٤٤).

(٤) صحيح الجامع الصغير: (٥/٥٨)، ورقمه (٥٢١٤)، وإسناده صحيح.

(٥) صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيم أهلها، باب في شدة حر جهنم (٤/ ٢١٨٤)، ورقم الحديث: (٢٨٤٢).

إلى هذا العدد الهائل من الملائكة الأشداء الأقوياء الذين لا يعلم مدى قوتهم إلا الله تبارك وتعالى.

الرابع: ومما يدل على هول النار وكبرها أن مخلوقين عظيمين كالشمس والقمر يكونان ثورين مكورين في النار، ففي «مشكل الآثار» للطحاوي عن سلمة بن عبد الرحمن قال: حدثنا أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «الشمس والقمر ثوران مكوران في النار يوم القيامة». ورواه البيهقي في كتاب «البعث والنشور» وكذا البزار والإسماعيلي والخطابي، بإسناد صحيح، على شرط البخاري، وقد أخرجه في صحيحه مختصراً بلفظ: «الشمس والقمر مكوران في النار»[1].

---

(١) أورده الشيخ ناصر الحديث في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٣٢)، ورقم الحديث: ١٢٤، وقد نقلنا تحقيقه للحديث مختصراً.

المبحث الثالث
دركات النار

النار متفاوتة في شدة حرها، وما أعده الله من العذاب لأهلها، فليست درجة واحدة، وقد قال الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]. والعرب تطلق: «الدرك» على كل ما تسافل، كما تطلق: «الدرج» على كل ما تعالى، فيقال: للجنة درجات وللنار دركات، وكلما ذهبت النار سفلاً كلما علا حرها واشتد لهيبها[١]، والمنافقون لهم النصيب الأوفر من العذاب، ولذلك كانوا في الدرك الأسفل من النار.

وقد تسمى النار درجات أيضاً، ففي سورة الأنعام ذكر الله أهل الجنة والنار، ثم قال: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ [الأنعام: ١٣٢]، وقال: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ * هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ . .﴾ [آل عمران: ١٦٢-١٦٣]، قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: «درجات الجنة تذهب علواً، ودرجات النار تذهب سفلاً»[٢]. وقد ورد عن بعض السلف أن عصاة الموحدين ممن يدخلون النار يكونون في الدرك الأعلى، ويكون في الدرك الثاني اليهود، وفي الدرك الثالث النصارى، وفي الدرك الرابع الصائبون، وفي الخامس

(١) راجع تذكرة القرطبي: ص ٣٨٢، والتخويف من النار، لابن رجب: ص ٥٠.

(٢) التخويف من النار، لابن رجب: ص ٥٠.

المجوس، وفي السادس مشركوا العرب، وفي السابع المنافقون[1]. ووقع في بعض الكتب تسمية هذه الدركات: فالأول جهنم، والثاني لظى، والثالث الحطمة، والرابع السعير، والخامس سقر، والسادس الجحيم، والسابع الهاوية.

ولم يصح تقسيم الناس في النار وفق هذا التقسيم، كما لم يصح تسمية دركات النار على النحو الذي ذكروه، والصحيح أن كل واحد من هذه الأسماء التي ذكروها: جهنم، لظى، الحطمة.. إلخ اسم علم للنار كلها، وليس لجزء من النار دون جزء، وصح أن الناس متفاوتون على قدر كفرهم وذنوبهم.

---

(١) إذا كان هذا التقسيم اجتهادي بحسب فقهنا للنصوص الدالة على شدة جرم الفرق المختلفة، فإن هذا الترتيب الذي ذكروه يحتاج إلى إعادة نظر، فالمجوس عباد النيران ليسوا بأقل جرماً من مشركي العرب، والأولى أن نسكت فيما سكتت عنه النصوص.

المبحث الرابع
أبواب النار

أخبر الحق أن للنار سبعة أبواب كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ* لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُم جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٣-٤٤]. قال ابن كثير في تفسير الآية: «أي قد كتب لكل باب منها جزء من أتباع إبليس يدخلونه لا محيد لهم عنه، أجارنا الله منها، وكل يدخل من باب بحسب عمله، ويستقر في درك بحسب عمله» ونُقِلَ عن علي بن أبي طالب قوله وهو يخطب: «إن أبواب جهنم هكذا -قال أبو هارون- أطباقاً بعضها فوق بعض» ونُقل عنه أيضاً قوله: «أبواب جهنم سبعة بعضها فوق بعض، فيمتلىء الأول، ثم الثاني، ثم الثالث، حتى تمتلىء كلها»[1].

وعندما يردُ الكفار النار تفتح أبوابها، ثم يدخلونها خالدين ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١]، وبعد هذا الإقرار يقال لهم: ﴿ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٧٢]، وهذه الأبواب تغلق على المجرمين، فلا مطمع لهم في الخروج منها بعد ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ* عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ﴾ [البلد: ١٩-٢٠].

قال ابن عباس: (مؤصدة) مغلقة الأبواب، وقال مجاهد: أصد الباب

---

(١) تفسير ابن كثير: (٤/ ١٦٤).

بلغة قريش، أي أغلقه[1].

وقال الحق في سورة الهمزة: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ * ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ * كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ * نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ * ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ * إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ * فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ [الهمزة: ١-٩].

فأخبر الحق أن أبوابها مغلقة عليهم، وقال ابن عباس: ﴿فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ يعني الأبواب هي الممددة، وقال قتادة في قراءة ابن مسعود: إنها عليهم مؤصدة بعمد ممددة[2]، وقال عطية العوفي: هي عمد من حديد، وقال مقاتل: أطبقت الأبواب عليهم، ثم شدت بأوتاد من حديد، حتى يرجع عليهم غمها وحرها، وعلى هذا فقوله: (ممددة) صفة للعمد، يعني أن العمد التي أوثقت بها الأبواب ممددة مطولة، والممدود الطويل أرسخ وأثبت من القصير[3].

وقد تفتح أبواب النار وتغلق قبل يوم القيامة، فقد أخبر المصطفى أن أبواب النار تغلق في شهر رمضان، فعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة، وغلقت أبواب النار، وصفدت الشياطين ومردة الجن»[4].

وخرَّج الترمذي من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إذا كان أول ليلة من شهر رمضان صفدت الشياطين ومردة الجن، وَغُلِّقت أبواب النار، فلم يفتح منها باب، وفتحت أبواب الجنة، فلم يغلق منها باب»[5].

---

(١) تفسير ابن كثير: (٧/ ٢٩٨).
(٢) تفسير ابن كثير: (٧/ ٣٦٨).
(٣) التخويف من النار، لابن رجب، ص: ٦١.
(٤) صحيح البخاري: ١٨٩٨، ١٨٩٩ ومسلم: ١٠٧٩ واللفظ لمسلم..
(٥) سنن الترمذي: ٦٨٢، وأورده الألباني في صحيح سنن الترمذي: ٥٤٩.

المبحث الخامس
وقود النار

وقود النار الأحجار والفجرة الكفار، كما قال الحق: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ﴾ [التحريم: ٦]، وقال: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].

والمراد بالناس الذين توقد النار بهم الكفرة المشركون، وأما نوع الحجارة التي تكون للنار وقوداً فالله أعلم بحقيقتها، وقد ذهب بعض السلف إلى أن هذه الحجارة من كبريت، قال عبد الله بن مسعود: هي حجارة من كبريت، خلقها الله يوم خلق السماوات والأرض في السماء الدنيا يعدها للكافرين، رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم في المستدرك. وقال بهذا القول ابن عباس ومجاهد وابن جريج[1].

وإذا كان القول هذا مأخوذاً من الرسول ﷺ فنأخذ به، ولا نجادل فيه، وإن كان أمراً اجتهادياً مبنياً على العلم بطبائع الحجارة وخصائصها فهذا قول غير مسلَّم، فإن من الحجارة ما يفوق حجارة الكبريت قوة واشتعالاً. والأوائل رأوا أن حجارة الكبريت لها خصائص ليست لغيرها من الحجارة فقالوا إنها مادة وقود النار، يقول ابن رجب: «وأكثر المفسرين على أن المراد بالحجارة حجارة الكبريت توقد بها النار. ويقال: إن فيها خمسة أنواع من العذاب ليس في غيرها: سرعة الإيقاد، ونتن الرائحة، وكثرة

(١) تفسير ابن كثير: (١/ ١٠٧).

الدخان، وشدة الالتصاق بالأبدان، وقوة حرها إذا حميت»[1]. وقد يوجد الله من أنواع الحجارة ما يفوق ما في الكبريت من خصائص، ونحن نجزم أن ما في الآخرة مغاير لما في الدنيا.

ومما توقد به النار الآلهة التي كانت تعبد من دون الله ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ * لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨-٩٩].

وحصبها: وقودها وحطبها، وقال الجوهري: «كل ما أوقدت به النار أو هيجتها فقد حصبتها»، وقال أبو عبيدة: «كل ما قذفته في النار فقد حصبتها به»[2].

---

(١) التخويف من النار، لابن رجب: ص ١٠٧.

(١) يقظة أولي الاعتبار: ص ٦١.

المبحث السادس
شدة حرها وعظم دخانها وشرارها

قال الله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ * فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ * لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة: ٤١-٤٤]، وقد تضمنت هذه الآية ذكر ما يتبرد به الناس من الكرب والحر وهو ثلاثة: الماء والهواء والظل، وذكرت الآية أن هذه لا تغني عن أهل النار شيئاً، فهواء جهنم: السموم، وهو الريح الحارة الشديدة الحر، وماؤها الحميم الذي قد اشتد حره، وظلها اليحموم وهو قطع دخانها[1].

وكما هوّل في هذه الآية أمر أصحاب الشمال أهل النار، هوّل في آية أخرى أمر النار فقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ * فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ [القارعة: ٨-١١].

والظل الذي أشارت إليه الآية ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٣]، هو ظل دخان النار، والظل يشعر عادة بالنداوة والبرودة، كما أن النفس تحبه وتستريح إليه، أما هذا الظل فإنه ليس ببارد المدخل ولا بكريم المنظر، إنه ظل من يحموم.

وقد حدثنا القرآن عن هذا الظل الذي هو دخان جهنم الذي يعلو النار، فقال: ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ * لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ * إِنَّهَا تَرْمِى

---

(١) التخويف من النار: ص ٨٥.

بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ * كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ [المرسلات: ٣٠-٣٣]. فالآية تقرر أن الدخان الذي يتصاعد من هذه النار لضخامته ينقسم إلى ثلاثة أقسام، وهو يلقي ظلالاً ولكنها غير ظليلة، ولا تقي من اللهب المشتعل، أما شرار هذه النار المتطاير منها فإنه يشبه الحصون الضخمة، كما يشبه هذا الشرار الجمالة الصفر، أي الإبل السود.

وقال الحق مبيناً قوة هذه النار، ومدى تأثيرها في المعذبين: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٦-٢٩]، إنها تأكل كل شيء، وتدمر كل شيء، لا تبقي ولا تذر، تحرق الجلود، وتصل إلى العظام، وتصهر ما في البطون، وتطلع على الأفئدة.

وقد أخبرنا الرسول ﷺ أن «نارنا جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم»، قيل: يا رسول الله إن كانت لكافية، قال: «فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً، كلهنَّ مثل حرها». رواه البخاري ومسلم، واللفظ للبخاري، وفي لفظ مسلم: «ناركم التي يوقد ابن آدم..»[1].

وهذه النار لا يخبو أوارها مع تطاول الزمان، ومرور الأيام ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٣٠]، ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]، ولذلك لا يجد الكفار طعم الراحة، ولا يخفف عنهم العذاب مهما طال العذاب: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٨٦]. والنار تسعر كل يوم كما في الحديث عند مسلم عن عمرو ابن عبسة عن النبي ﷺ قال: «صل صلاة الصبح، ثم أقصر عن الصلاة،

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب صفة النار، فتح الباري: (٦/ ٣٣٠)، ورواه مسلم في كتاب الجنة، باب شدة حر النار: (٤/ ٢١٨٤).

حتى تطلع الشمس، حتى ترتفع، فإنها تطلع حين تطلع بين قرني شيطان، وحينئذ يسجد لها الكفار، ثم صل فإن الصلاة مشهودة محضورة حتى يستقل الظل بالرمح، ثم أقصر عن الصلاة فإن حينئذ تسجر جهنم، فإذا أقبل الفيء فَصَلِّ »[1].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: « إذا اشتد الحر فأبردوا بالصلاة، فإن شدة الحر من فيح جهنم »[2].

وتُسعرُ النار في يوم القيامة عندما تستقبل أهلها ﴿ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ [التكوير: ١٢-١٣]، ومعنى سُعِّرت: أوقدت، وأحميت.

---

(١) صحيح مسلم: ٨٣٢.

(٢) صحيح البخاري: ٥٣٦. ومسلم: ٦١٥.

المبحث السابع
النار تتكلم وتبصر

الذي يقرأ النصوص من الكتاب والسنة التي تصف النار يجدها مخلوقاً يبصر، ويتكلم، ويشتكي، ففي الكتاب العزيز أن النار ترى أهلها وهم قادمون إليها من بعيد، فعند ذلك تطلق الأصوات المرعبة الدالة على مدى حنقها وغيظها على هؤلاء المجرمين، قال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢].

وروى ابن جرير عن ابن عباس قال: «إن الرجل ليجر إلى النار، فتنزوي وينقبض بعضها إلى بعض، فيقول لها الرحمن: ما لك؟ فتقول: إنه يستجير مني، فيقول: أرسلوا عبدي. وإن الرجل ليجر إلى النار فيقول: يا رب ما كان هذا الظن بك، فيقول: ما كان ظنك؟ فيقول: أن تسعني رحمتك، فيقول: أرسلوا عبدي. وإن الرجل ليجر إلى النار، فتشهق إليه النار شهوق البغلة إلى الشعير، وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف»[(١)].

وقد خرج الإمام أحمد والترمذي من حديث الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يخرج يوم القيامة عنق من النار، لها عينان تبصران، وأذنان تسمعان، ولسان ينطق، تقول: إني وُكّلت بثلاثة: بكل جبار عنيد، وبكل من دعا مع الله إلهاً آخر، وبالمصورين» وصححه الترمذي[(٢)].

---

(١) ساق ابن كثير هذا الحديث في (النهاية) (٢/ ٢١) وقال: (إسناده صحيح). وانظره في تفسير ابن جرير: ١٨/ ١٨٧

(٢) التخويف من النار، ص ١٧٩، وانظر جامع الأصول: (١٠/ ٥١٨)، وقال المحقق: إسناده =

المبحث الثامن
رؤيا ابن عمر للنار

وفي الصحيحين واللفظ للبخاري عن ابن عمر أنه رأى في المنام أنه جاءَه ملكان في يد كل واحد منهما مقمعة من حديد، يقبلا بي إلى جهنم ثم لقيه ملك في يده مقمعة من حديد، قالوا: لن تُرع. نعم الرجل أنت، لو كنت تكثر الصلاة، قال: فانطلقوا بي حتى وقفوا بي على شفير جهنم، فإذ هي مطوية كطي البئر، له قرون كقرن البئر، بين كل قرنين ملك بيده مقمعة من حديد، وأرى فيها رجالاً معلقين بالسلاسل، رؤوسهم أسفلهم، عرفت فيها رجالاً من قريش، فانصرفوا بي عن ذات اليمين، فقصصتها على حفصة، فقصتها حفصة على رسول الله ﷺ فقال: «إن عبد الله رجل صالح»[1].

= حسن، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(١) صحيح البخاري: ٧٠٢٨، ٧٠٢٩. ومسلم: ٢٤٧٩.

المبحث التاسع
هل يرى أحد النار قبل يوم القيامة عياناً

الذي نعلمه أن رسولنا صلوات الله وسلامه عليه قد رأى النار كما رأى الجنة في حياته، ففي الصحيحين عن عبد الله بن عباس في صلاة الخسوف أن الرسول ﷺ قال: «إني رأيت الجنة، فتناولت عنقوداً، ولو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا، وأريت النار فلم أر منظراً كاليوم قط أفظع، ورأيت أكثر أهلها النساء»[1].

وفي صحيح البخاري عن أسماء أن الرسول ﷺ قال: «قد دنت مني الجنة، حتى لو اجترأت عليها لجئتكم بقطاف من قطافها، ودنت مني النار حتى قلت: أي رب وأنا معهم؟ فإذا امرأة -حسبت أنه قال- تخدشها هرة. قلت: ما شأن هذه؟ قالوا: حبستها حتى ماتت جوعاً، لا هي أطعمتها، ولا أرسلتها تأكل -قال نافع: حسبت أنه قال: - من خشيش أو خشاش الأرض»[2].

وفي مسند أحمد عن المغيرة بن شعبة عن رسول الله ﷺ «إن النار أدنيت مني حتى نفخت حرها عن وجهي، فرأيت فيها صاحب المحجن، والذي بحر البحيرة، وصاحب حمير، وصاحبة الهرة»[3].

---

(١) مشكاة المصابيح: (١/ ٤٠٧). وانظر البخاري: ١٠٥٢. ومسلم: ٩٠٧.

(٢) صحيح الجامع: (٤/ ١٣٣)، ورقم الحديث: ٤٢٤٧. انظر صحيح البخاري: ٧٤٥، ٢٣٦٤.

(٣) صحيح الجامع: (٢/ ١٧١)، ورقمه: ١٩٦٨.

وفي صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «عرضت عليَّ الجنة، حتى لو تناولت منها قطفاً أخذته، (أو قال: تناولت منها قطفاً، فقصرت يدي عنه)، وعرضت عليَّ النار فرأيت فيها امرأة من بني إسرائيل تعذب في هرة لها، ربطتها فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض، ورأيت عمرو بن مالك يجرُّ قصبه في النار»[1].

وبعد أن يموت العباد تعرض عليهم في البرزخ مقاعدهم في الجنة إن كانوا مؤمنين، ومقاعدهم في النار إن كانوا كافرين، وقد بينا ذلك في الحديث عن البرزخ.

---

(١) صحيح مسلم: ٩٠٤.

المبحث العاشر
تأثير النار على الدنيا وأهلها

روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «اشتكت النار إلى ربها، فقالت رب أكل بعضي بعضاً، فأذن لنا بنفسين: نفس في الشتاء ونفس في الصيف، فأشد ما تجدون من الحر، وأشدُّ ما تجدون من الزمهرير».

وروى البخاري أيضاً عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «أبردوا بالصلاة، فإن شدة الحر من فيح جهنم»[1].

---

(١) انظر هذين الحديثين في صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة، فتح الباري: (٦/ ٣٣٠)، ورقمهما: ٣٢٥٨، ٣٢٥٩، ٣٢٦٠. وانظرهما في مسلم برقم: ٦١٦، ٦١٧.

الفصل الرابع

النار خالدة لا تبيد

النار خالدة لا تفنى ولا تبيد، كما قال الطحاوي في عقيدته: «والجنة والنار مخلوقتان، لا تفنيان ولا تبيدان»[1]، ونقل ابن حزم اتفاق الأمة على ذلك، فقد جاء في كتابه «الملل والنحل» قوله: «اتفقت فرق الأمة كلها على أن لا فناء للجنة ولا لنعيمها، ولا للنار ولا لعذابها، إلا الجهم بن صفوان»[2]. وجاء في كتابه «مراتب الإجماع» قوله: «. . . وأن النار حق، وأنها دار عذاب لا تفنى، ولا يفنى أهلها بلا نهاية»[3]. والنصوص الدالة على خلود النار كثيرة جداً، وسيأتي ذكر الكثير منها في تضاعيف البحث، وحسبك أن الله سماها «دار الخلد».

هذا مذهب أهل السنة والجماعة أن النار خالدة لا تبيد، وأهلها فيها خالدون، ولا يخرج منها إلا عصاة الموحدين، أما الكفرة والمشركون فهم فيها خالدون.

القائلون بفناء النار

والمخالفون لمذهب أهل الحق في هذه المسألة سبع فرق:

---

(١) شرح الطحاوية: ص ٤٧٦.

(٢) الملل والنحل: لابن حزم: (٤/ ٨٣).

(٣) مراتب الإجماع: ١٧٣.

١- **الجهمية**: القائلون بفناء النار وفناء الجنة أيضاً، وقد حكى الإمام أحمد في آخر كتاب «الرد على الزنادقة» مذهب الجهمية بأن النار والجنة تفنيان، ورد عليهم ذاكراً النصوص الدالة على عدم فنائهما.

٢- **الخوارج والمعتزلة**: يقولون بخلود كل من يدخل النار، ولو كانوا من أهل التوحيد، وسر هذا القول أن الخوارج يكفِّرون المسلمين بالذنوب، فكل من ارتكب ذنباً، فإنه كافر خالد مخلد في نار جهنم، والمعتزلة يرون أن من ارتكب ذنباً فهو في منزلة بين المنزلتين، فلا هو مؤمن ولا كافر، ويجرون عليه أحكام الإسلام في الدنيا، ولكنه في الآخرة مخلد في نار جهنم، وقد سقنا كثيراً من النصوص الدالة على أن أهل التوحيد يخرجون من النار.

٣- **اليهود**: الذين يزعمون أنهم يعذبون في النار وقتاً محدوداً، ثم يخلفهم غيرهم فيها، وقد أكذبهم الله في زعمهم، ورد عليهم مقالتهم ﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٨٠-٨١].

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٣-٢٤].

ونقل ابن جرير في تفسيره عن ابن عباس أنه قال في تفسير آية البقرة: «قال أعداء الله اليهود: لن يدخلنا الله النار إلا تحلة القسم، الأيام التي

أصبنا فيها العجل: أربعين يوماً، فإذا انقضت عنا تلك الأيام، انقطع عنا العذاب».

وذكر ابن جرير عن السدي قوله: «قالت اليهود: إن الله يدخلنا النار أربعين ليلة، حتى إذا أكلت النار خطايانا، نادى منادٍ: أخرجوا كل مختون من ولد بني إسرائيل، فلذلك أمرنا أن نختن، قالوا: فلا يدعون منا في النار أحداً إلا أخرجوه»[1].

وذكر أيضاً ابن عباس قال: «ذكر أن اليهود وجدوا في التوراة مكتوباً: إن ما بين طرفي جهنم مسيرة أربعين سنة إلى أن ينتهي إلى شجرة الزقوم ثابتة في أصل الجحيم، وكان ابن عباس يقول: إن الجحيم سقر، وفيها شجرة الزقوم، فزعم أعداء الله أنه خلا العدد الذي وجدوا في كتابهم أياماً معدودة».

قال ابن جرير: «وإنما يعني بذلك المسير الذي ينتهي في أصل الجحيم، فقالوا: إذا خلا العدد انتهى الأجل، فلا عذاب وتذهب جهنم وتهلك، فذلك قوله: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]. يعنون بذلك الأجل، فقال ابن عباس: «لما اقتحموا من باب جهنم ساروا في العذاب، حتى انتهوا إلى شجرة الزقوم آخر يوم من الأيام المعدودة، قال لهم خزان سقر: زعمتم أنكم لن تمسكم النار إلا أياماً معدودة، فقد خلا العدد، وأنتم في الأبد، فأخذ بهم في الصعود في جهنم يرهقون»[2].

---

(١) تفسير ابن جرير: (١/ ٣٨١).

(٢) تفسير ابن جرير: (١/ ٣٨١).

٤- قول إمام الاتحادية ابن عربي الطائي، فإنه زعم أن أهلها يعذبون فيها مدة، ثم تنقلب طبائعهم نارية يتلذذون بالنار لموافقتها لطبائعهم، قال ابن حجر في الفتح: «وهذا قول بعض من ينسب إلى التصوف من الزنادقة»[١].

٥- قول من زعم أن أهلها يخرجون منها، وتبقى على حالها خالدة لا تبيد.

٦- قول أبي هذيل العلاف من أئمة المعتزلة الذاهب إلى أن حياة أهل النار تفنى، ويصيرون جماداً لا يتحركون، ولا يحسون بألم، قال بذلك لأنه يقول بامتناع حوادث لا نهاية لها، فخالف الأدلة الصريحة القطيعة الثبوت بمقاييس عقلية باطلة.

٧- قول من قال: إن الله يخرج منها من يشاء، كما ورد في الأحاديث، ثم يبقيها شيئاً، ثم يفنيها، فإنه جعل لها أمداً تنتهي إليه[٢].

والقول الأخير مال إليه البحر العلامة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى وغفر له، كما ذهب تلميذه العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى.

وقد تتابع العلماء في التأليف لبيان خطأ هذا المذهب، يقول ابن حجر العسقلاني بعد حكايته لهذا القول: «وقد مال بعض المتأخرين إلى هذا القول، ونصره بعدة أوجه من جهة النظر، وهو مذهب رديء مردود على قائله، وقد أطنب السبكي الكبير في بيان وهائه فأجاد»[٣]، وهذا الكتاب الذي أشار إليه هو «الاعتبار ببقاء الجنة والنار» لتقي الدين علي بن عبد

---

(١) فتح الباري: (١١/ ٤٢١).

(٢) راجع في هذا المبحث المصادر التالية: شرح الطحاوية: ص ٤٨٣، شرح عقيدة السفاريني (٢/ ٢٣٤)، يقظة أولي الاعتبار لصديق حسن خان: ص ٤١، فتح الباري: (١١/ ٤٢١).

(٣) فتح الباري: (١١/ ٤٢٢).

الكافي السبكي الشافعي المتوفى سنة ٧٥٦.

وقال صديق حسن خان: «وقد ألف العلامة الشيخ مرعي الكرمي الحنبلي رسالة سماها: «توفيق الفريقين على خلود أهل الدارين»، وفي الباب رسالة للسيد الإمام محمد بن إسماعيل الأمير، ورسالة للقاضي العلامة المجتهد محمد بن علي الشوكاني، حاصلهما بقاء الجنة والنار وخلود أهلهما فيهما»[1].

وهنا أمور نحب بيانها:

الأول: أن هذا القول قول باطل وإن ذهب إليه علمان من أعلام الإسلام، فقد علَّمنا شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم أن حب الحق ينبغي أن يكون مقدماً على حبِّ الرجال. وأدلةُ بطلانِه النصوص الكثيرة الدالة على خلود النار، وهي نصوص قطعية الثبوت قطعية الدلالة، وقد ذكرنا قول من نقل الإجماع على خلود النار.

الثاني: أنه لا يجوز بحال من الأحوال ذم شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم بسبب هذه المقالة، فقد كفرهما قوم، وفسَّقهما قوم بسبب ذلك، وكل هذا ليس بصواب، فإنهما مجتهدان مأجوران مثابان، ولو علما الحق في خلاف قولهما لاتبعاه، ودعوى أن المخالف في مثل هذا يكفر قائله يُوصل القائلين بهذا إلى تكفير أئمة هذه الأمة الذين لا يُمارى في إمامتهم، فإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يذهب إلى أن المسافر إذا لم يجد الماء لا يتيمم ولا يصلي، وقد اتفقت الأمة على

---

(١) يقظة أولي الاعتبار، لصديق حسن خان: ص ٤٢، ورسالة الصنعاني طبعها المكتب الإسلامي ببيروت، وقد حققها وكتب لها مقدمة ضافية الشيخ ناصر الدين الألباني فأجاد.

خلاف هذا، والإمام مالك كان يرى أن «بسم الله الرحمن الرحيم» ليست آية من كتاب الله، وقد أجمعت الأمة على أن ما بين الدفتين قرآن، وقال أقوام بعدم زيادة الإيمان ونقصانه مع كونه مثبت بالكتاب والسنة صريح فيهما، والإجماع منعقد عليه.

الثالث: ينبغي أن ننبه أن لابن تيمية وابن القيم قولاً بعدم فناء النار، جاء في مجموع فتاوى شيخ الإسلام قوله في إجابة سؤال: «وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة والجماعة على أن من المخلوقات ما لا يعدم ولا يفنى بالكلية كالجنة والنار والعرش وغير ذلك، ولم يقل بفناء جميع المخلوقات إلا طائفة من أهل الكلام المبتدعين، كالجهم بن صفوان ومن وافقه من المعتزلة ونحوهم، وهذا قول باطل يخالف كتاب الله، وسنة رسوله، وجماع سلف الأمة وأئمتها»[1].

وإذا كان الأمر كذلك، أي لهما قولان، فلا يجوز أن نجزم بأن القول بفناء النار هو قولهما ما لم يعلم أنه القول الأخير، وإذا لم يعلم القول الأخير فالأولى التوقف في نسبة أحد المذهبين إليهما.

الرابع: الأدلة التي احتج بها شيخ الإسلام وابن القيم على فناء النار، بعضها غير صحيح، والصحيح منها غير صريح، بل يمكن حمله على غير فناء النار، بل على فناء النار التي يكون فيها عصاة الموحدين. وقد ناقش الصنعاني في رسالته التي يرد فيها على ابن تيمية وابن القيم هذه الأدلة، وبين عدم نهوضها على ما ذهبا إليه. وهذه الرسالة هي المسماة «برفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار»[2].

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: (١٨/ ٣٠٧).

(٢) طبعها المكتب الإسلامي. بيروت.

ومن الذين تعرضوا لهذه المسألة القرطبي في «التذكرة»، فقد ساق النصوص الدالة على خلود الجنة والنار، والمخبرة بأن الموت يذبح بين الجنة والنار ثم يقال: «يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت» ثم قال: «هذه الأحاديث مع صحتها في خلود أهل الدارين فيها، لا إلى غاية ولا إلى أمد، مقيمين على الدوام والسرمد من غير موت ولا حياة ولا راحة ولا نجاة»[1].

ورد القرطبي على الذين قالوا بفناء النار، وبين أن الذي يفنى إنما هو النار التي يدخلها عصاة الموحدين، قال: «فمن قال: إنهم يخرجون منها، وأن النار تبقى خالية بجملتها خاوية على عروشها، وأنها تفنى وتزول، فهو خارج عن مقتضى المعقول، ومخالف لما جاء به الرسول، وما أجمع عليه أهل السنة والأئمة العدول.. وإنما تخلى جهنم وهي الطبقة العلية التي فيها العصاة من أهل التوحيد، وهي التي ينبت على شفيرها الجرجير»[2].

ونقل القرطبي عن فضل بن صالح المعافري قال: «كنا عند مالك بن أنس ذات يوم، فقال لنا: انصرفوا، فلما كان العشية رجعنا إليه، فقال: إنما قلت لكم انصرفوا، لأنه جاءني رجل يستأذن علي زعم أنه قدم من الشام في مسألة فقال: يا أبا عبد الله ما تقول في أكل الجرجير، فإنه يتحدث عنه أنه ينبت على شفير جهنم؟ فقلت له: لا بأس به[3]. فقال:

---

(١) التذكرة للقرطبي: ص ٤٣٦.

(٢) هذا القول لا يصح فيه خبر ثابت، وكأن قائله أراد منه خمود النار التي يكون فيها عصاة الموحدين حتى ينبت النبات على حوافها.

(٣) هذه القصة إن كانت صحيحة فقد تكلف هذا السائل في سفره لتبين أمر هو في غاية الوضوح.

أستودعك الله، وأقرأ عليك السلام، ذكره الخطيب أبو بكر أحمد رحمه الله، وذكر أبو بكر البزار، عن عمرو بن ميمون، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: يأتي على النار زمان تخفق الرياح أبوابها، ليس فيها أحد، يعني من الموحدين، هكذا رواه موقوفاً عن عبد الله بن عمرو، وليس فيه ذكر النبي ﷺ، ومثله لا يقال من جهة الرأي، فهو مرفوع»[1].

(١) التذكرة للقرطبي: ص ٤٣٧.

الفصل الخامس

أهل النيران وجرائمهم

المبحث الأول

أهلها الخالدون فيها

المطلب الأول

التعريف بهم

أهل النار الخالدون فيها الذين لا يرحلون ولا يبيدون -هم الكفرة والمشركون. قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٦]، وقال: ﴿ لَوْ كَانَ هَـٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٩]، وقال: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٤]، وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ ﴾ [فاطر: ٣٦]. وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٣٩]، وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٠-١٦١].

وقال: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْيُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ٦٣]، وقال: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِي ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴾ [التوبة: ١٧].

ولما كانوا خالدين فيها فقد وصف الحق عذاب النار بأنه مقيم، أي لا ينقطع، كما أضافه إلى الخلد، قال تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٧]، وقال: ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ [يونس: ٥٢].

وفي صحيح البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: « يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، ثم يقوم مؤذن بينهم: يا أهل النار لا موت، ويا أهل الجنة لا موت، خلود »[1]. وروي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقال لأهل الجنة: يا أهل الجنة خلود لا موت، ولأهل النار: يا أهل النار خلود لا موت»[2].

وهذا يقال بعد ذبح الموت كما في حديث ابن عمر عند البخاري، قال: قال رسول الله ﷺ: « إذا صار أهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار، جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار، ثم يذبح، ثم ينادي منادي: يا أهل الجنة لا موت، يا أهل النار لا موت، فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم، ويزداد أهل النار حزناً إلى حزنهم »[3].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب، فتح الباري: (١١/ ٤٠٦).

(٢) المصدر السابق.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الرقاق: باب صفة الجنة والنار، فتح الباري: (١١/ ٤١٥).

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «يُجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة، هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون، ويقولون: نعم هذا الموت. قال: ويقال: يا أهل النار، هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون، ويقولون: نعم، هذا الموت، قال: فيؤمر به فيذبح. قال: ثم قال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت». قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩]»[1].

وأخرج الترمذي عن أبي سعيد الخدري يرفعه قال: «إذا كان يوم القيامة أتي بالموت كالكبش الأملح، فيوقف بين الجنة والنار، فيذبح وهم ينظرون، فلو أن أحداً مات فرحاً لمات أهل الجنة، ولو أن أحداً مات حزناً لمات أهل النار» قال: حديث حسن صحيح[2].

المطلب الثاني

النار مسكن الكفرة المشركين

لما كان الكفرة المشركون خالدين في النار فإن النار تعتبر بالنسبة لهم سكناً ومأوى، كما أن الجنة مسكن المؤمنين، ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٥١]، ﴿أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا

(١) صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها: (٤/٢١٨٨).

(٢) سنن الترمذي: ٢٥٥٨.

يَكْسِبُونَ ﴾ [يونس:٨]، ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ [العنكبوت:٦٨]. وهي مأواهم تتولى أمرهم ﴿ مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ ﴾ [الحديد:١٥].

وهي بئست المسكن والمثوى، ﴿ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ [البقرة:٢٠٦]، ﴿ وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ [ص:٥٥-٥٦].

المطلب الثالث

الدعاة إلى النار

أصحاب المبادىء الضالة، والمذاهب الباطلة المخالفون لشرع الله، والدعاة المؤمنون بباطلهم هم دعاة النار، ﴿ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾ [البقرة:٢٢١]، ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾ [القصص:٤١]، ومن هؤلاء الشيطان ﴿ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ [لقمان:٢١]، ﴿ إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [فاطر:٦].

وهؤلاء الذين يدعون إلى النار في الدنيا يقودون أقوامهم وأتباعهم إلى النار في الآخرة، ففرعون مثلاً: ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ﴾ [هود:٩٨]. وكل قادة الشر الذين يدعون إلى عقائد ومبادىء مخالفة للإسلام هم دعاة إلى النار، لأن الطريق الوحيد الذي ينجي من النار ويدخل الجنة هو طريق الإيمان ﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴾ [غافر:٤١]، كانوا يدعونه إلى فرعون وكفره وشركه،

وهو يدعوهم إلى الله وتوحيده والإيمان به.

ولما كان الكفار دعاة إلى النار حرَّم الله على المؤمنين الزواج من المشركات، كما حرَّم على المؤمنات الزواج من المشركين ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢١].

المطلب الرابع

أعظم جرائم الخالدين في النار

لقد أطال القرآن في تبيان جرائم الخالدين الذين استحقوا بها الخلود في النيران، ونحن نذكر هنا أهمها:

١- **الكفر والشرك**: فقد أخبرنا الحق تبارك وتعالى أن الذين كفروا يُنادَون عندما يكونون في النار. فيقال لهم: إن مقت الله لكم أعظم من مقتكم أنفسكم بسبب كفركم بالإيمان، ثم بيَّن أن خلودهم في النار إنما هو بسبب كفرهم وشركهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ * قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ * ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١٠].

وحدثنا الحق تبارك وتعالى أن خزنة النار يسألون الكفار عند ورودهم النار قائلين: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [غافر: ٥٠]، فيكون الجواب: أنهم استحقوا النار بسبب تكذيبهم المرسلين، وما جاؤوا به ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ [الملك: ٩].

وقال في المكذبين بالكتاب: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا * مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾ [طه: ٩٩-١٠١].

وقال في المكذبين بالكتاب المشركين بالله: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ * ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ * مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ * ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ * ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [غافر: ٧٠-٧٦].

وقال في الكفرة المشركين المسوين آلهتم برب العالمين ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ * قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ * تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٤-٩٨].

وقال في حق المكذبين بيوم الدين: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ [الفرقان: ١١]، ﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الرعد: ٥]. وقال: ﴿مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ

كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا * ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٩٧-٩٨].

٢- عدم القيام بالتكاليف الشرعية مع التكذيب بيوم الدين وترك الالتزام بالضوابط الشرعية، فقد أخبرنا الحق تبارك وتعالى أن أهل الجنة يسألون أهل النار قائلين: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾ [المدثر: ٤٢]، فيجيبون قائلين: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ * حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ [المدثر: ٤٣-٤٧].

٣- طاعة رؤساء الضلال وزعماء الكفر فيما قرروه من مبادىء الضلال وخطوات الكفر التي تصد عن دين الله ومتابعة المرسلين. قال تعالى في هؤلاء: ﴿۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ * فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ * ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ٢٥-٢٨].

وعندما يحل الكفار في النار، وتقلب وجوههم فيها يتندمون لعدم طاعتهم الله ورسوله، وطاعتهم السادة الكبراء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا * خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ * وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٤-٦٧].

٤- **النفاق**: وعد الله المنافقين النار، وهو وعد قطعه على نفسه لا يخلفه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ

حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٨]، وأخبرنا أن موقع المنافقين في النار هو دركاتها السفلى، وهي أشدها حراً، وأكثرها إيلاماً ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

٥- **الكبر**: وهذه صفة يتصف بها عامة أهل النار، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٦].

وقد عقد مسلم في صحيحه باباً عنون له بقوله: «باب النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء» وذكر فيه احتجاج الجنة والنار وما قالتا وما قال الله لهما، وساق فيه حديث أبي هريرة يرفعه إلى الرسول ﷺ، وفيه أن النار قالت: «يدخلني الجبارون والمتكبرون» وفي رواية قالت: «أوثرت بالمتكبرين والجبارين». وقال الله لها: «أنت عذابي أعذب بك من أشاء»[(١)].

وفي صحيحي البخاري ومسلم وسنن الترمذي عن حارثة بن وهب، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضعف، لو أقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأهل النار، كل عتل جواظ مستكبر»[(٢)] وفي رواية لمسلم: «كل جواظ زنيم متكبر»[(٣)]، ومصداق هذا في كتاب الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠]،

---

(١) صحيح مسلم: (٤/ ٢١٨٦) ورقم الحديث: ٢٨٤٦.

(٢) جامع الأصول: (١٠/ ٥٤٧) ورقم الحديث: ٨١١١. وهو في البخاري برقم: ٤٩١٨. وفي مسلم: ٢٨٥٣.

(٣) انظر الحديث ورواياته في (صحيح مسلم) كتاب الجنة (باب النار يدخلها الجبارون): (٤/ ٢١٩٠) ورقمه ٢٨٥٣، والعتل: الغليظ الجافي الذي لا ينقاد للخير، والزنيم: الدعي الملصق بالقوم وليس منهم، أو هو اللئيم في أخلاق الناس، والجواظ: الذي جمع ومنع.

وقوله: ﴿ فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأحقاف: ٢٠]، وقوله: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات: ٣٧].

المطلب الخامس

جملة الجرائم التي تُدخِل النار

سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: ما عمل أهل النار، وما عمل أهل الجنة؟ فأجاب: عمل أهل النار: الإشراك بالله تعالى، والتكذيب للرسل، والكفر، والحسد، والكذب، والخيانة، والظلم، والفواحش، والغدر، وقطيعة الرحم، والجبن عن الجهاد، والبخل، واختلاف السر والعلانية، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله، والجزع عند المصائب، والفخر والبطر عند النعم، وترك فرائض الله، واعتداء حدوده، وانتهاك حرماته، وخوف المخلوق دون الخالق، والعمل رياءً وسمعة، ومخالفة الكتاب والسنة، أي اعتقاداً وعملاً، وطاعة المخلوق في معصية الخالق، والتعصب للباطل، واستهزاء بآيات الله، وجحد الحق، والكتمان لما يجب إظهاره من علم وشهادة، والسحر، وعقوق الوالدين، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، والربا، والفرار من الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»[1].

وقد ذكر الرسول ﷺ جِماع الذنوب التي تدخل النار، ففي صحيح

(١) يقظة أولي الاعتبار، ص ٢٢٢.

مسلم عن عِياض بن حمار أن رسول الله ﷺ قال في خطبة له طويلة: «وأهل النار خمسة: الضعيف الذي لا زَبْرَ له[1]، الذين هم فيكم تبعاً لا يبتغون أهلاً ولا مالاً، والخائن الذي لا يخفى له طمع[2]، وإن دقَّ إلا خانه، ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك. وذكر البخل، والكذب، والشنظير[3]، الفحاش[4]».

المطلب السادس

أشخاص بأعيانهم في النار

الكفار والمشركون في النار لا شك في ذلك، وقد أخبرنا القرآن الكريم، كما أخبرنا الرسول ﷺ أن أشخاصاً بأعيانهم في النار، فمن هؤلاء فرعون موسى، ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [هود:٩٨]. ومنهم امرأة نوح وامرأة لوط، ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠].

ومنهم أبو لهب وامرأته ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ *

---

(١) أي لا عقل له يمنعه مما لا ينبغي، وقيل: هو الذي لا مال له.

(٢) أي لا يظهر له.

(٣) هو الفحاش كما هو مفسر في الحديث.

(٤) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب الصفات التي يُعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار: (٤/ ٢١٩٧). ورقمه: ٢٨٦٥.

فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد] ومنهم عمرو بن عامر الخزاعي، فقد رآه الرسول يجر أمعاءه في النار[1]، ومنهم الذي قتل عمار وسلبه، ففي معجم الطبراني بإسناد صحيح عن عمرو بن العاص وعن ابنه عن النبي ﷺ قال: «قاتل عمار وسالبه في النار»[2].

المطلب السابع

كفرة الجن في النار

كفرة الجن يدخلون النار كما يدخلها كفرة الإنس، فالجن مكلفون كالإنس ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وفي يوم القيامة يحشر الجن والإنس على حد سواء: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ﴾ [الأنعام: ١٢٨]، ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا * ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا * ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ [مريم: ٦٨-٧٠] ثم يقال للكفرة منهم: ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨]، وعند ذلك يكبكبون في النار: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ [الشعراء: ٩٤-٩٥]، وبذلك تتم كلمة الله القاضية بملء النار من كفرة الجن والإنس ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩] ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ [فصلت: ٢٥].

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ومسلم وأحمد، وقد ذكرنا نص الحديث في موضع آخر.

(٢) صحيح الجامع: (٤/ ١١٠) ورقمه: ٤١٧٠.

المَبحَث الثاني

الذين لا يخلدون في النار

المطلب الأول

التعريف بهم

الذين يدخلون النار، ثم يخرجون منها هم أهل التوحيد الذين لم يشركوا بالله شيئاً، ولكن لهم ذنوب كثيرة فاقت حسناتهم، فخفت موازينهم، فهؤلاء يدخلون النار مدداً يعلمها الله تبارك وتعالى، ثم يخرجون بشفاعة الشافعين، ويخرج الله برحمته أقواماً لم يعملوا خيراً قط.

المطلب الثاني

الذنوب المتوعد عليها بالنار

سنذكر هنا بعض الذنوب التي جاءت النصوص مخبرة أن أهلها يعذبون بسببها في النار:

١- الفرق المخالفة للسنة:

روى أبو داود والدارمي وأحمد والحاكم وغيرهم عن معاوية بن أبي

سفيان أنه قال: ألا إن رسول الله ﷺ قام فينا فقال: «ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين، ثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، وهي الجماعة».

وهذا حديث صحيح. قال فيه الحاكم بعد سياقه لأسانيده: «هذه أسانيد تقام بها الحجة في تصحيح الحديث». ووافقه الذهبي. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية فيه: «هو حديث صحيح مشهور». وصححه الشاطبي في «الاعتصام»، وقد جمع الشيخ ناصر الدين الألباني طرقه وتكلم على أسانيده، وبين أنه حديث صحيح لا شك في صحته[1].

وقد ذهب صديق حسن خان إلى أن الزيادة التي في الحديث وهي «كلها هالكة إلا واحدة» ومثلها: «ثنتان وسبعون في النار» زيادة ضعيفة. ونقل تضعيف ذلك عن شيخه الشوكاني ومن قبله عن ابن الوزير ومن قبله عن ابن حزم. وقد استحسن قول من قال: «إن هذه الزيادة من دسيس الملاحدة، فإن فيها التنفير عن الإسلام والتخويف من الدخول فيه»[2].

وقد رد الشيخ ناصر الدين الألباني على من ضعّف هذه الزيادة من وجهين:

الأول: أن النقد العلمي الحديثي قد دل على صحة هذه الزيادة، فلا عبرة بقول من ضعفها.

الثاني: أن الذين صححوها أكثر وأعلم من ابن حزم، لا سيما وهو

---

(١) انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة، ورقم الحديث: (٢٠٤).

(٢) يقظة أولي الاعتبار: ص ٢٠٦.

معروف عند أهل العلم بتشدده بالنقد، فلا ينبغي أن يحتج به إذا تفرد عند عدم المخالفة، فكيف إذا خالف.

وأما ابن الوزير فإنه يرد الزيادة من جهة المعنى لا من جهة الإسناد، وقد تكلم على هذا صديق حسن خان في «يقظة أولى الاعتبار» مبيناً أن مقتضى الزيادة أن الذي يدخل الجنة من هذه الأمة قليل، والنصوص الصحيحة الثابتة تدل على أن الداخلين من هذه الأمة الجنة كثير كثير، يبلغون نصف أهل الجنة[1].

والرد على هذا من عدة وجوه:

الأول: ليس معنى انقسام الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة أن يكون أكثر الأمة في النار، لأن أكثر الأمة عوام لم يدخلوا في تلك الفرق، والذين افترقوا وقعّدوا وأصّلوا مخالفين السنة قليل بالنسبة للذين جانبوا ذلك كله.

الثاني: ليس كل من خالف أهل السنة في مسألة من مسائل يعد من الفرق المخالفة للسنة، بل المراد بهم الذين تبنوا أصولاً تصيرهم فرقة مستقلة بنفسها، تركوا من أجلها كثيراً من نصوص الكتاب والسنة، كالخوارج والمعتزلة والرافضة.

أما الذين يتبنون الكتاب والسنة ولا يحيدون عنهما، فإنهم إذا خالفوا في مسألة من المسائل لا يعدون فرقة من الفرق.

الثالث: الزيادة دلت على أن الفرق في النار، ولكنها لم توجب لهم الخلود في النار.

---

(١) انظر كلام الشيخ في (سلسلة الأحاديث الصحيحة) حديث رقم (٢٠٤)، و (يقظة أولي الاعتبار): ص ٢٠٧.

ومن المعلوم أن بعض أهل هذه الفرق كفرة خالدون في النار، كغلاة الباطنية الذين يُظهِرون الإيمان ويُبطنون الكفر كالإسماعيلية والدروز والنصيرية ونحوهم.

ومنهم الذين خالفوا أهل السنة في مسائل كبيرة عظيمة، ولكنها لا تصل إلى الكفر، فهؤلاء ليس لهم وعد مطلق بدخول الجنة، ولكنهم تحت المشيئة إن شاء الله غفر لهم وإن شاء عذبهم، وقد تكون لهم أعمال صالحة عظيمة تنجيهم من النار، وقد ينجون من النار بشفاعة الشافعين، وقد يدخلون النار، ويمكثون فيها ما شاء الله أن يمكثوا، ثم يخرجون منها بشفاعة الشافعين ورحمة أرحم الراحمين.

٢- الممتنعون من الهجرة:

لا يجوز للمسلم أن يقيم في ديار الكفر إذا وجدت ديار الإسلام خاصة إذا كان مكثه في ديار الكفر يعرضه للفتنة، ولم يقبل الله عذر الذين تخلفوا عن الهجرة، فقد أخبرنا الحق أن الملائكة تُبكِّت هذا الصنف من الناس حال الموت، ولا تعذرهم عندما يدَّعون أنهم كانوا مستضعفين في الأرض ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا * إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٧-٩٨]، فلم يعذر الله من هؤلاء إلا المستضعفين الذين لا يجدون حيلة للخروج، ولا يهتدون إلى الطريق الذي يوصلهم إلى ديار الإسلام.

٣- الجائرون في الحكم:

أنزل الله الشريعة ليقوم الناس بالقسط، وأمر الله عباده بالعدل ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ﴾ [النحل: ٩٠]، وفرض على الحكام والقضاة الحكم بالعدل وعدم الجور ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ ﴾ [النساء: ٥٨]، وقد تهدد الحق الذين لا يحكمون بالحق بالنار، فقد روى بريدة بن الحصيب أن رسول الله ﷺ، قال: «القضاة ثلاثة: واحد في الجنة، واثنان في النار، فأما الذي في الجنة: فرجل عرف الحق وقضى به، ورجل عرف الحق فجار في الحكم، فهو في النار، ورجل قضى للناس على جهل، فهو في النار» أخرجه أبو داود[١].

٤- الكذب على الرسول الله ﷺ:

عقد ابن الأثير في كتابه الكبير: «جامع الأصول فصلاً ساق فيه كثيراً من الأحاديث التي تحذر من الكذب على الرسول ﷺ، فمنها ما رواه البخاري ومسلم والترمذي عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تكذبوا علي، فإنه من كذب علي يلج النار».

ومنها ما رواه البخاري عن سلمة بن الأكوع قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من تقول عليَّ ما لم أقل[٢]، فليتبوأ مقعده في النار»[٣].

---

(١) جامع الأصول: (١٠/ ١٦٧)، وقال محقق الكتاب: وهو حديث صحيح.

(٢) تقوّل عليه: إذا قال عنه ما لم يقله.

(٣) التبوؤ: اتخاذ المنزل، لأن المباءَةَ المنزل.

ومنها ما رواه البخاري في صحيحه، وأبو داود في سننه عن عبد الله بن الزبير عن أبيه الزبير بن العوام، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار».

ومنها ما رواه البخاري ومسلم عن المغيرة بن شعبة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن كذباً عليَّ ليس ككذب على أحد، فمن كذب علي معتمداً فليتبوأ مقعده من النار»[1].

٥- الكبر:

من الذنوب الكبار الكبر، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما أدخلته النار» وفي رواية «أذقته النار» رواه مسلم.

وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» قال رجل: إن الرجل يجب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسنة، قال: «إن الله جميل يحب الجمال. الكبر: بطر الحق، وغمط الناس» رواه مسلم[2].

٦- قاتل النفس بغير حق:

قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا

---

(١) جامع الأصول: (١٠/ ٦١١)، وقد ساق روايات أخرى فارجع إليه إن أحببت الاطلاع على جميع ما ساقه.

(٢) انظر هذين الحديثين وأحاديث أخرى في ذم الكبر والترهيب منه في (مشكاة المصابيح) (٣/ ٦٣٤-٦٣٥). وهو في مسلم برقم: ٩١.

فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

فلا يجوز في دين الله قتل النفس المسلمة إلا بإحدى ثلاث كما في الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والمارق من الدين، التارك للجماعة»[1].

وفي صحيح البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً». قال ابن عمر: «إن من ورطات الأمور التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حله»[2]. وقد حذر الرسول ﷺ المسلمين أن يقاتل بعضهم بعضاً، وأخبر أن القاتل والمقتول في النار، فعن أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار» قال: فقلت، أو قيل: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه»[3]. ولذا فإن العبد الصالح أبى أن يقاتل أخاه، خشية أن يكون من أهل النار، فباء القاتل بإثمه وإثم أخيه ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ * لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ

---

(١) تفسير ابن كثير: (٢/ ٣٥٥). وهو في البخاري برقم: ٦٨٧٨. وفي مسلم برقم: ١٦٧٦.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الديات، باب قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾، فتح الباري: (١٢/ ١٨٧).

(٣) رواه مسلم، كتاب الفتن، باب إذا تواجه المسلمان بسيفهما: (٤/ ٢٢١٣).

ٱلْعَٰلَمِينَ * إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٢٧-٢٩].

٧- أكلة الربا:

من الذنوب التي توبق صاحبها الربا، وقد قال الحق في الذين يأكلونه بعد أن بلغهم تحريم الله له: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٠-١٣١].

وقد عده الرسول ﷺ في الحديث المتفق عليه واحداً من سبعة ذنوب توبق صاحبها، ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات». قالوا: يا رسول الله وما هنَّ؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات»[1].

٨- أكلة أموال الناس بالباطل:

من الظلم العظيم الذي يستحق به صاحبه النار أكل أموال الناس بالباطل، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ

(١) صحيح البخاري: ٢٧٦٦. وصحيح مسلم: ٨٩.

ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ٢٩-٣٠].

ومن أكل أموال الناس بالباطل أكل أموال اليتامى ظلماً، وقد خص الحق أموالهم بالذكر لضعفهم وسهولة أكل أموالهم، ولشناعة هذه الجريمة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

٩- المصورون:

أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون الذين يضاهئون خلق الله، ففي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أشدُّ الناس عذاباً عند الله يوم القيامة المصورون»[١].

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل مصور في النار، يجعل له بكل صورة صورها نفساً، فتعذبه في جهنم» متفق عليه[٢].

وعن عائشة أن الرسول ﷺ قال في النمرقة التي فيها تصاوير: «إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة، يقال لهم: أحيوا ما خلقتم» متفق عليه[٣].

وعن عائشة أيضاً، عن النبي ﷺ قال: «أشدُّ الناس عذاباً الذين يضاهون بخلق الله» متفق عليه[٤].

---

(١) صحيح البخاري: ٥٩٥٠. وصحيح مسلم: ٢١٠٩.
(٢) صحيح مسلم: ٢١١٠. ورواه البخاري بألفاظ مقاربة: ٢٢٢٥، ٥٩٦٣.
(٣) صحيح البخاري: ٥٩٥٧. وصحيح مسلم: ٢١٠٧.
(٤) صحيح البخاري: ٥٩٥٤. وصحيح مسلم: ٢١٠٧.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال عزَّ وجلَّ: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة، أو ليخلقوا شعيرة» متفق عليه[1].

١٠- الركون إلى الظالمين:

من الأسباب التي تدخل النار الركون إلى الظالمين أعداء الله وموالاتهم، ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود: ١١٣].

١١- الكاسيات العاريات والذين يجلدون ظهور الناس:

من الأصناف التي تصلى النار الفاسقات المتبرجات اللواتي يفتن عباد الله، ولا يستقمن على طاعة الله، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «صنفان من أهل النار لم أرهما، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات، مميلات مائلات، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها، وإن ريحها لتوجد من مسيرة كذا وكذا» أخرجه مسلم، والبيهقي، وأحمد[2].

قال القرطبي في الذين معهم سياط كأذناب البقر: «وهذه الصفة للسياط مشاهدة عندنا بالمغرب إلى الآن» قال صديق حسن خان معقباً على قول القرطبي: «بل هو مشاهد في كل مكان وزمان، ويزداد يوماً فيوماً عند الأمراء والأعيان، فنعوذ بالله من جميع ما كرهه الله»[3]، أقول: ولا زلنا

---

(١) صحيح البخاري: ٥٩٥٣، وصحيح مسلم: ٢١١١. واللفظ لمسلم.

(٢) انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٣/ ٣١٦) ورقم الحديث: ١٣٢٦.

(٣) يقظة أولي الاعتبار: ص ١١٣.

نرى هذا الصنف من الناس في كثير من الديار يجلدون أبشار الناس، فتباً لهؤلاء وأمثالهم.

والكاسيات العاريات كثيرات في زماننا، ولعله لم يسبق أن انتشرت فتنتهن كما انتشرت في زماننا، وهن على النعت الذي وصفه الرسول ﷺ: كاسيات عاريات، مائلات مميلات، رؤوسهن كأسنمة البخت.

١٢- الذين يعذبون الحيوان:

روى مسلم في صحيحه عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «عُرِضَتْ عليَّ النار، فرأيت فيها امرأة من بني إسرائيل تُعَذَّب في هرة لها، ربطتها فلم تُطْعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض، حتى ماتت جوعاً»[١].

إذا كان هذا حال من يعذب هرة، فكيف من يتفنن في تعذيب العباد؟ فكيف إذا كان التعذيب للصالحين منهم بسبب إيمانهم وإسلامهم؟

١٣- عدم الإخلاص في طلب العلم:

ساق الحافظ المنذري كثيراً من الأحاديث التي ترهب من تعلّم العلم لغير الله، منها: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من تعلم علماً مما يُبتغى به وجه الله عزَّ وجلَّ، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة» يعني ريحها. رواه أبو داود وابن ماجة، وابن حبان في صحيحه، والحاكم وقال: صحيح على شرط البخاري ومسلم[٢].

---

(١) مشكاة المصابيح: (٣/٦٨٨).

(٢) وهو في سنن أبي داود: ٣٦٦٤. وأورده الألباني في صحيح أبي داود: ٣١١٢، وصحيح ابن ماجه: ٢٥٢. وقال: صحيح.

وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء، ولا لتماروا به السفهاء، ولا تخيروا به المجالس، من فعل ذلك فالنار النار» رواه ابن ماجة، وابن حبان في صحيحه، والبيهقي[1].

وعن ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال: «من تعلم علماً لغير الله، أو أراد به غير الله، فليتبوأ مقعده من النار». رواه الترمذي وابن ماجة كلاهما عن خالد بن دريك عن ابن عمر، ولم يسمع منه. ورجال إسنادهما ثقات[2].

١٤- الذين يشربون في آنية الذهب والفضة:

روى البخاري ومسلم عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال: «الذي يشرب في آنية الذهب والفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم». وفي رواية لمسلم: «إن الذي يأكل ويشرب في آنية الفضة والذهب...»[3].

وعن حذيفة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تلبسوا الحرير ولا الديباج، ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافها، فإنها لهم في الدنيا، ولنا في الآخرة» متفق عليه[4].

١٥- الذي يقطع السدر الذي يظل الناس:

عن عبد الله بن حبيش قال: قال رسول الله ﷺ: «من قطع سدرة

---

(١) أورده الألباني في صحيح سنن ابن ماجه: ٢٥٤. وقال فيه: صحيح.

(٢) انظر هذه الأحاديث وتخريجها في: (الترغيب والترهيب) للحافظ المنذري: (١/ ٩١).

(٣) مشكاة المصابيح: (٢/ ٤٦٢). صحيح مسلم: ٢٠٦٥. ورواه البخاري: ٥٦٣٤ بلفظ «الذي يشرب في إناء الفضة...».

(٤) صحيح البخاري: ٥٤٢٦. وصحيح مسلم: ٢٠٦٧.

صوب الله رأسه في النار» رواه أبو داود[1].

وروى البيهقي بإسناد صحيح عن عائشة عن رسول الله ﷺ قال: «إن الذين يقطعون السدر يصبون في النار على رؤوسهم صباً»[2].

١٦- جزاء الانتحار:

ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من قتل نفسه بحديدة، فحديدته في يده، يتوجّأ بها في بطنه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن شرب سمّاً فقتل نفسه، فهو في يده يتحساه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن تردى من جبل فقتل نفسه فهو يتردى في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً»[3].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «الذي يخنق نفسه يخنقها في النار، والذي يطعنها يطعنها في النار»[4].

---

(١) مشكاة المصابيح: (٢/ ١٢٥)، وأورده الشيخ ناصر في (صحيح الجامع): (٥/ ٣٤١)، ورقم الحديث: (٦٣٥٢) وعزاه إلى أبي داود والضياء في (المختارة) وقال: صحيح.

وهو في سنن أبي داود برقم: ٥٢٣٩. وبعد رواية الحديث جاء ما يلي: سُئل أبو داود عن معنى هذا الحديث، فقال: هذا الحديث مختصر، يعني: من قطع سدرة في فلاة يستظل بها ابن السبيل والبهائم، عبثاً وظلماً بغير حق له فيها، صوب الله رأسه في النار.

(٢) عزاه في (صحيح الجامع) (٢/ ٨٨) إلى البيهقي في (السنن) وقال فيه: صحيح.

(٣) صحيح البخاري: ٥٧٧٨. وصحيح مسلم: ١٠٩ واللفظ لمسلم.

(٤) صحيح البخاري: ١٣٦٥.

الفصل السادس

كثرة أهل النار

المبحث الأول

النصوص الدالة على ذلك

جاءت النصوص كثيرة وافرة دالة على كثرة من يدخل النار من بني آدم، وقلة من يدخل الجنة منهم.

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال: ﴿ وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [سبأ: ٢٠]. وقال الحق تبارك وتعالى لإبليس: ﴿ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ [ص: ٨٥]. فكل من كفر فهو من أهل النار على كثرة من كفر من بني آدم.

ويدلّك على كثرة الكفرة والمشركين الذين رفضوا دعوة الرسل أن النبي يأتي في يوم القيامة ومعه الرهط، وهم جماعة دون العشرة، والنبي ومعه الرجل والرجلان، بل إن بعض الأنبياء يأتي وحيداً لم يؤمن به أحد، ففي صحيح مسلم عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «عرضت عليَّ الأمم فرأيت النبي ومعه الرهيط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد..»[1].

---

(١) صحيح مسلم: (١/١٩٨). ورقم الحديث: ٢٢٠.

وجاءت نصوص كثيرة تدل على أنه يدخل في النار من بني آدم تسعمائة وتسعة وتسعون من كل ألف، وواحد فقط هو الذي يدخل الجنة.

فقد روى البخاري في صحيحه عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك، والخير في يديك، ثم يقول: أخرج بعث النار، قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، فذاك حين يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكرى وما هم بسكرى، ولكن عذاب الله شديد. فاشتد ذلك عليهم فقالوا: يا رسول الله، أيّنا ذلك الرجل؟ قال: أبشروا، فإن من يأجوج ومأجوج ألفاً ومنكم رجل.

ثم قال: والذي نفسي بيده، إني لأطمع أن تكونوا ثلث أهل الجنة. قال: فحمدنا الله وكبرنا. ثم قال: والذي نفسي بيده إني لأطمع أن تكونوا شطر أهل الجنة، إن مثلكم في الأمم كمثل الشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، أو كالرقمة في ذراع الحمار»[1].

وروى عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال وهو في بعض أسفاره، وقد تفاوت بين أصحابه السَّيْرُ، رفع بهاتين الآيتين صوته: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١-٢]، فلما سمع أصحابه ذلك حثوا المطي، وعرفوا أنه عند قول يقوله، فلما دنوا حوله قال: «أتدرون أي يوم ذاك؟ قال: ذاك يوم يُنادى آدم عليه السلام، فيناديه ربه عزَّ وجلَّ، فيقول: يا آدم ابعث بعثاً إلى النار. فيقول: يا رب، وما بعث النار؟ فيقول:

---

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ فتح الباري: (١١/ ٣٨٨).

من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النار وواحد في الجنة».

قال: فأبلس أصحابه، حتى ما أوضحوا بضاحكة. فلما رأى ذلك قال: «أبشروا واعملوا، فوالذي نفس محمد بيده إنكم لمع خليقتين ما كانتا مع شيء قط إلا كثرتاه: يأجوج ومأجوج، ومن هلك من بني آدم وبني إبليس» قال: فسُرِّيَ عنهم، ثم قال: «اعملوا وأبشروا، فوالذي نفس محمد بيده ما أنتم في الناس إلا كالشامة في جنب البعير أو الرقمة في ذراع الدابة» رواه أحمد والترمذي والنسائي في كتاب التفسير في سننهما، وقال الترمذي: حسن صحيح[1].

وروى الترمذي في سننه عن عمران بن حصين أن النبي ﷺ قال لما نزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١]، قال: نزلت عليه هذه الآية وهو في سفر، فقال: «أتدرون أي يوم ذلك؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «ذلك يوم يقول الله لآدم: ابعث بعث النار. قال: يا رب، وما بعث النار؟ قال: تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة»، فأنشأ المسلمون يبكون، فقال رسول الله ﷺ: «قاربوا وسددوا، فإنها لم تكن نبوة قط إلا كان بين يديها جاهلية، قال: فيؤخذ العدد من الجاهلية، فإن تمت، وإلا كملت من المنافقين، وما مثلكم ومثل الأمم إلا كمثل الرقمة في ذراع الدابة، أو كالشامة في جنب البعير»، ثم قال: «إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة فكبروا»، ثم قال: ولا أدري أقال: الثلثين أم لا. وكذا رواه الإمام أحمد، وقال الترمذي فيه: هذا حديث حسن صحيح[2].

---

(١) تفسير ابن كثير: (٤/ ٦١٠). وهو في مسند أحمد (٤/ ٤٣٥). سنن الترمذي: ٣١٦٩.

(٢) تفسير ابن كثير: (٤/ ٦١٠). وهو في سنن الترمذي: ٣١٦٨.

وقد يقال كيف تجمع بين هذه الأحاديث وبين ما ثبت في صحيح البخاري عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «أول من يدعى يوم القيامة آدم، فتراءى ذريته، فيقال: هذا أبوكم آدم، فيقول: لبيك وسعديك، فيقول: أخرج بعث جهنم من ذريتك، فيقول: يا رب، كم أخرج؟ فيقول: أخرج من كل مائة تسعة وتسعين فقالوا: يا رسول الله، إذا أُخذ منا من كل مائة تسعة وتسعون، فما يبقى منا؟ قال: إن أمتي في الأمم كالشعرة البيضاء في الثور الأسود»[1].

والظاهر أن هذه الرواية لا تخالف الروايات الأخرى الصحيحة التي سقناها من قبل، فإن ذلك العدد باعتبار معين، وهذا العدد باعتبار آخر. فالأحاديث التي تجعل النسبة تسعمائة وتسعة وتسعين يمكن أن تُحمل على جميع ذرية آدم، وحديث البخاري الذي يجعلها تسعة وتسعين تحمل على جميع ذريته ما عدا يأجوج ومأجوج، ويقرب هذا الجمع -كما يقول ابن حجر- أن يأجوج ومأجوج ذكروا في حديث أبي سعيد دون حديث أبي هريرة، ويمكن أن يقال: إن الأحاديث الأولى تتعلق بالخلق أجمعين، فإذا جعلت نسبة من يدخل النار إلى من يدخل الجنة باعتبار الأمم جميعاً تكون النسبة (٩٩٩)، ويكون حديث البخاري الأخير مبيناً نسبة من يدخل النار من هذه الأمة دون سواها، قال ابن حجر: «ويُقَرِّبُهُ -أي هذا القول- قولهم في حديث أبي هريرة «إذا أُخذ منا»، ثم قال: «ويحتمل أن تقع القسمة مرتين مرة من جميع الأمم قبل هذه الأمة، فيكون من كل ألف واحد إلى الجنة، ومرة من هذه الأمة، فيكون من كل ألف عشرة»[2].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب الحشر، فتح الباري: (١١/ ٣٧٨).

(٢) فتح الباري: (١١/ ٣٩٠)، وقد ساق أقوالاً أخرى، فارجع إليه إن أحببت الاطلاع على المزيد.

المبحث الثاني
السر في كثرة أهل النار

ليس السبب في كثرة أهل النار هو عدم بلوغ الحق إلى البشر على اختلاف أزمانهم وأمكنتهم، فإن الله لا يؤاخذ العباد إذا لم تبلغهم دعوته، ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، ولذلك فإن الله أرسل في كل أمة نذيراً، ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

ولكن السبب وراء ذلك يعود إلى قلة الذين استجابوا للرسل وكثرة الذين كفروا بهم، وكثير من الذين استجابوا لم يكن إيمانهم خالصاً نقياً.

وقد تعرض ابن رجب في كتابه «التخويف من النار» إلى السبب في قلة أهل الجنة، وكثرة أهل النار فقال:

«فهذه الأحاديث وما في معناها تدل على أن أكثر بني آدم من أهل النار، وتدل أيضاً على أن أتباع الرسل قليل بالنسبة إلى غيرهم، وغير أتباع الرسل كلهم في النار إلا من لم تبلغه الدعوة أو لم يتمكن من فهمها على ما جاء فيه من الاختلاف، والمنتسبون إلى أتباع الرسل كثير منهم من تمسك بدين منسوخ، وكتاب مبدل، وهم أيضاً من أهل النار كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧].

وأما المنتسبون إلى الكتاب المحكم والشريعة المؤيدة والدين الحق فكثير منهم من أهل النار أيضاً، وهم المنافقون الذين هم في الدرك الأسفل من النار، وأما المنتسبون إليه ظاهراً وباطناً فكثير منهم فتن

بالشبهات، وهم أهل البدع والضلال، وقد وردت الأحاديث على أن هذه الأمة ستفترق على بضع وسبعين فرقة كلها في النار إلا فرقة واحدة، وكثير منها أيضاً فتن بالشهوات المحرمة المتوعد عليها بالنار -وإن لم يقتض ذلك الخلود فيها- فلم ينج من الوعيد بالنار، ولم يستحق الوعد المطلق بالجنة من هذه الأمة إلا فرقة واحدة، وهو ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه ظاهراً وباطناً، وسلم من فتنة الشهوات والشبهات، وهؤلاء قليل جداً لا سيما في الأزمان المتأخرة»[1].

ولعل السبب الأعظم هو اتباع الشهوات، ذلك أن حب الشهوات مغروس في أعماق النفس الإنسانية ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [آل عمران: ١٤].

وكثير من الناس يريد الوصول إلى هذه الشهوات عن الطريق التي تهواها نفسه ويحبها قلبه، ولا يراعي في ذلك شرع الله المنزل، أضف إلى هذا تمسك الأبناء بميراث الآباء المناقض لشرع الله ﴿ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٣-٢٤].

وإلف ما كان عليه الآباء وتقديسه داء ابتليت به الأمم، لا يقل أثره عن الشهوات المغروسة في أعماق الإنسان، إن لم يكن هو شهوة في ذاته.

وقد روى الترمذي وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن

---

(١) التخويف من النار، لابن رجب، ص ٢١٤.

رسول الله ﷺ قال: «لما خلق الله النار، قال لجبريل: اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها ثم جاء، فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها، فحفها بالشهوات، فقال: اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها، فلما رجع، قال: وعزتك لقد خشيت أن لا يبقى أحد إلا دخلها». أخرجه الترمذي وأبو داود، وزاد النسائي: بعد قوله: «اذهب فانظر إليها»، «وإلى ما أعددت لأهلها فيها»[1].

وفي صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «حجبت النار بالشهوات، وحجبت الجنة بالمكاره». أخرجه البخاري ومسلم، ولمسلم «حفت» بدل: «حجبت»[2].

قال صديق حسن خان: «والمراد بالشهوات مرادات النفوس ومستلذاتها وأهويتها»[3]، وقال القرطبي: «الشهوات كل ما يوافق النفس ويلائمها، وتدعو إليه، ويوافقها، وأصل الحفاف الدائر بالشيء المحيط به، الذي لا يتوصل إليه إلا بعد أن يتخطى»[4].

---

(١) جامع الأصول: (١٠/ ٥٢٠)، ورقمه: ٨٠٦٨، وقال المحقق: قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٢) المصدر السابق: (١٠/ ٥٢٠)، ورقمه: ٨٠٦٩.

(٣) يقظة أولي الاعتبار: ص ٢٢٠.

(٤) المصدر السابق.

المبحث الثالث
أكثر من يدخل النار النساء

أكثر من يدخل النار من عصاة الموحدين النساء، كما في الصحيحين عن ابن عباس عن النبي ﷺ، أنه قال في خطبة الكسوف «أريت النار، فلم أر منظر كاليوم أفظع، ورأيت أكثر أهلها النساء»[1].

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «يا معشر النساء تصدقن، فإني رأيتكن أكثر أهل النار» فقلن: ولِمَ ذلك يا رسول الله؟ قال: «تكثرن اللعن، وتكفرن العشير»[2].

وفي الصحيحين من حديث أسامة بن زيد: «وقمت على باب النار فإذا عامة من دخلها النساء».

وفي صحيح مسلم عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ قال: « إن أقل ساكني الجنة النساء»[3].

وهذا لا ينافي أن كل واحد من أهل الجنة له أكثر من زوجة، فإن المراد بالنساء اللواتي هن أكثر أهل النار من كان منهن من ذرية آدم، أما زوجات أهل الجنة الكثيرات فهن من الحور العين.

---

(١) صحيح البخاري: ١٠٥٢. وصحيح مسلم: ٩٠٧.

(٢) صحيح البخاري: ١٤٦٢، وصحيح مسلم: ٧٩، ٨٠.

(٣) صحيح البخاري: ٢٥٤٦. وصحيح مسلم: ٢٧٣٦.

«وإنما كان النساء أقل ساكني الجنة لما يغلب عليهن من الهوى والميل إلى عاجل زينة الدنيا، لنقصان عقولهن أن تنفذ بصائرها إلى الأخرى، فيضعفن عن عمل الآخرة والتأهب لها، ولميلهن إلى الدنيا والتزين لها، ومع ذلك هن أقوى أسباب الدنيا التي تصرف الرجال عن الآخرة، لما فيهن من الهوى والميل لهن، فأكثرهن معرضات عن الآخرة بأنفسهن صارفات عنها لغيرهن، سريعات الانخداع لداعيهن من المعرضين عن الدين، عسيرات الاستجابة لمن يدعوهن إلى الأخرى، وأعمالها من المتقين»[1]. ومع ذلك ففيهن صالحات كثير، يقمن حدود الله، ويلتزمن شريعته ويطعن الله ورسوله، ويدخل منهن الجنة خلق كثير، وفيهن من يسبقن كثيراً من الرجال بإيمانهن وأعمالهن الصالحة.

(١) التذكرة للقرطبي: (١/ ٣٦٩).

الفصل السابع

عظم خلق أهل النار

يدخل أهل الجحيم النار على صورة ضخمة هائلة لا يقدر قدرها إلا الذي خلقهم، ففي الحديث الذي يرفعه أبو هريرة إلى رسول الله ﷺ قال: «ما بين منكبي الكافر في النار مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع» رواه مسلم[1]. وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ضرس الكافر، أو ناب الكافر، مثل أحد، وغلظ جلده مسيرة ثلاث»[2].

وقال زيد بن أرقم: «إن الرجل من أهل النار ليعظم للنار، حتى يكون الضرس من أضراسه كأحد». رواه أحمد وهو مرفوع، ولكن زيداً لم يصرح برفعه[3].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن غلظ جلد الكافر اثنان وأربعون ذراعاً، وإن ضرسه مثل أحد، وإن مجلسه من جهنم ما بين مكة والمدينة» رواه الترمذي[4].

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الجنة، باب يدخلها الجبارون: (٤/ ٢١٩٠).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الجنة، باب النار يدخلها الجبارون: (٤/ ٢١٨٩)، وعزاه في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤/ ١٣٢) إلى مسلم والترمذي والحاكم وابن حبان وأحمد.

(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤/ ١٣١)، وقال فيه: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٤) مشكاة المصابيح: (٣/ ١٠٣)، وقال محقق المشكاة: «رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح، قلت: وسنده صحيح».

وروى أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ضرس الكافر يوم القيامة مثل أحد، وعرض جلده سبعون ذراعاً، وعضده مثل البيضاء، وفخذه مثل وَرْقان، ومقعده من النار ما بيني وبين الربذة» أخرجه الحاكم وأحمد[1].

وهذا التعظيم لجسد الكافر ليزداد عذابه وآلامه، يقول النووي في شرحه لأحاديث مسلم في هذا الباب: «هذا كله لكونه أبلغ في إيلامه، وكل هذا مقدور لله تعالى يجب الإيمان به لإخبار الصادق به»[2].

وقال ابن كثير معلقاً على ما أورده من هذه الأحاديث: «ليكون ذلك أنكى في تعذيبهم، وأعظم في تعبهم ولهيبهم، كما قال شديد العقاب: ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦][3].

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣/ ٩٤)، ونسب إلى الحاكم والذهبي تصحيح الحديث ووافقهما على ذلك على ضعف في أحد رواة الحديث وهو ابن إسحاق، وقد ساق المؤلف كثيراً من المتابعات والشواهد للحديث. والبيضاء اسم جبل. أو يعني بها المدينة المعروفة بالمغرب.

(٢) شرح النووي على مسلم: (١٧/ ١٨٦).

(٣) النهاية لابن كثير: (٢/ ١٣٩).

الفصل الثامن

طعام أهل النار وشرابهم ولباسهم

طعام أهل النار الضريع والزقوم، وشرابهم الحميم والغسلين والغساق، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ * لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ [الغاشية: ٦-٧]، والضريع شوك بأرض الحجاز يقال له الشبرق. وعن ابن عباس: الشبرق: نبت ذو شوك لاطىء بالأرض، فإذا هاج سمي ضريعاً. وقال قتادة: من أضرع الطعام وأبشعه[1]. وهذا الطعام الذي يأكله أهل النار لا يفيدهم، فلا يجدون لذة، ولا تنتفع به أجسادهم، فأكلهم له نوع من أنواع العذاب.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الْأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣-٤٦]. وقد وصف شجرة الزقوم في آية أخرى فقال: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ * ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٢-٦٨].

وقال في موضع آخر: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ * لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ * فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ * فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ * هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الواقعة: ٥١-٥٦].

---

(١) التخويف من النار، لابن رجب: ص ١١٥.

ويؤخذ من هذه الآيات أن هذه الشجرة شجرة خبيثة، جذورها تضرب في قعر النار، وفروعها تمتد في أرجائها، وثمر هذه الشجرة قبيح المنظر ولذلك شبهه برؤوس الشياطين، وقد استقر في النفوس قبح رؤوسهم وإن كانوا لا يرونهم، ومع خبث هذه الشجرة وخبث طلعها، إلا أن أهل النار يلقى عليهم الجوع بحيث لا يجدون مفراً من الأكل منها إلى درجة ملء البطون، فإذا امتلأت بطونهم أخذت تغلي في أجوافهم كما يغلي دردي الزيت، فيجدون لذلك آلاماً مبرحة، فإذا بلغت الحال بهم هذا المبلغ اندفعوا إلى الحميم، وهو الماء الحار الذي تناهى حره، فشربوا منه كشرب الإبل التي تشرب وتشرب ولا تروى لمرض أصابها، وعند ذلك يقطع الحميم أمعاءهم ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]. هذه هي ضيافتهم في ذلك اليوم العظيم، أعاذنا الله من حال أهل النار بمنه وكرمه.

وإذا أكل أهل النار هذا الطعام الخبيث من الضريع والزقوم غصوا به لقبحه وخبثه وفساده ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا * وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [المزمل: ١٢-١٣]، والطعام ذو الغصة هو الذي يغص به آكله، إذ يقف في حلقه.

وقد صور لنا الرسول ﷺ شناعة الزقوم وفظاعته، فقال: «لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا، لأفسدت على أهل الأرض معايشهم، فكيف بمن يكون طعامه» رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح[1].

ومن طعام أهل النار الغسلين، قال تعالى: ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ * وَلَا

(١) مشكاة المصابيح: (٣/ ١٠٥)، وراوي الحديث هو ابن عباس.

طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ * لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ [الحاقة: ٣٥-٣٧]، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ * وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ [ص: ٥٧-٥٨].

والغسلين والغساق بمعنى واحد، وهو ما سال من جلود أهل النار من القيح والصديد، وقيل: ما يسيل من فروج النساء الزواني ومن نتن لحوم الكفرة وجلودهم، وقال القرطبي: هو عصارة أهل النار[1].

وقد أخبر الحق أن الغسلين واحد من أنواع كثيرة تشبه هذا النوع في فظاعته وشناعته.

أما شرابهم فهو الحميم، قال تعالى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، وقال: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ [إبراهيم: ١٦-١٧]، وقال: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ [ص: ٥٧].

وقد ذكرت هذه الآيات أربعة أنواع من شراب أهل النار:

الأول: الحميم، وهو الماء الحار الذي تناهى حرّه، كما قال تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٤]، والـ (آن): هو الذي انتهى حره، وقال: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ [الغاشية: ٥]، وهي التي انتهى حرها فليس بعدها حر.

النوع الثاني: الغساق، وقد مضى الحديث عنه، فإنه يذكر في مأكول أهل النار ومشروبهم.

---

(١) يقظة أولي الاعتبار: ص ٨٦.

النوع الثالث: الصديد، وهو ما يسيل من لحم الكافر وجلده، وفي صحيح مسلم عن جابر عن النبي ﷺ قال: «إن على الله عهداً لمن شرب المسكرات ليسقيه طينة الخبال. قالوا: يا رسول الله، وما طينة الخبال؟ قال: عرق أهل النار، أو عصارة أهل النار».

الرابع: المهل. وفي حديث أبي سعيد الخدري عند أحمد والترمذي عن النبي ﷺ في قوله: «كعكر الزيت، فإذا قرب وجهه سقطت فروة وجهه فيه».

وقال ابن عباس: في تفسير المهل: (غليظ كدردي الزيت).

أكلهم النار:

من أصحاب الذنوب من يطعمه الله جمر جهنم جزاء وفاقاً، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء: ١٠].

وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ [البقرة: ١٧٤].

أما لباس أهل النار فقد أخبرنا الحق تبارك وتعالى أنه يُفَصَّل لأهل النار حلل من النار، كما قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ [الحج: ١٩]. وكان إبراهيم التيمي إذا تلا هذه الآية يقول: سبحان من خلق من النار ثياباً[1].

---

(١) التخويف من النار: ص ١٢٦.

وقال تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ* سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [إبراهيم: ٤٩]. والقطران: هو النحاس المذاب. وفي صحيح مسلم عن أبي مالك الأشعري عن النبي ﷺ قال: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها، تقام يوم القيامة، وعليها سربال من قطران ودرع من جرب».

وخرجه ابن ماجه ولفظه: «النائحة إذا ماتت ولم تتب قطع الله لها ثياباً من قطران ودرعاً من جرب».

الفصل التاسع

عذاب أهل النار

المبحث الأول
شدة ما يكابده أهل النار من عذاب

النار عذابها شديد، وفيها من الأهوال وألوان العذاب ما يجعل الإنسان يبذل في سبيل الخلاص منها نفائس الأموال ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٩١]، وقال الحق في هذا المعنى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٦].

وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيصبغ في النار صبغة، ثم يقال: يا ابن آدم، هل رأيت خيراً قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب»(١).

إنها لحظات قليلة تُنسي أكثر الكفار نعيماً كلَّ أوقات السعادة والهناء. وفي الصحيحين عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: « يقول الله

(١) رواه مسلم: ٢٨٠٧.

- تبارك وتعالى - لأهون أهل النار عذاباً لو كانت لك الدنيا وما فيها، أكنت مفتدياً بها؟ فيقول: نعم. فيقول: أردت منك أهون من هذا، وأنت في صلب آدم أن لا تشرك (أحسبه قال:) ولا أدخلك النار، فأبيت إلا الشرك»[1].

إن شدة النار وهولها تفقد الإنسان صوابه، وتجعله يجود بكل أحبابه لينجو من النار، وأنى له النجاة: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ * وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ * كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ * نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ [المعارج: ١١-١٦].

وهذا العذاب الهائل المتواصل يجعل حياة هؤلاء المجرمين في تنغيص دائم، وألم مستمر.

---

(١) رواه البخاري: صحيح البخاري: ٣٣٣٤، ورواه مسلم: ٢٨٠٥. المصابيح: (٣/ ١٠٢).

المبحث الثاني

صور من عذابهم

المطلب الأول

تفاوت عذاب أهل النار

لما كانت النار دركات بعضها أشدُّ عذاباً وهولاً من بعض كان أهلها متفاوتون في العذاب، ففي الحديث الذي يرويه مسلم وأحمد عن سمرة، عن النبي ﷺ قال في أهل النار: «إن منهم من تأخذه النار إلى كعبيه، ومنهم من تأخذه إلى ركبتيه، ومنهم من تأخذه إلى حجزته، ومنهم من تأخذه إلى ترقوته» وفي رواية إلى «عنقه»[1].

وقد حدثنا الرسول ﷺ عن أخف أهل النار عذاباً، ففي صحيح البخاري عن النعمان بن بشير قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لرجل توضع في أخمص قدميه جمرة يغلي منها دماغه». وفي رواية أخرى في صحيح البخاري أيضاً عن النعمان بن بشير: «إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة رجل على أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل في القمقم»[2].

---

(١) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب شدة حر النار، (٤/ ٢١٨٥).

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، فتح الباري: (١١/ ٤١٧) ورواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان: (١/ ١٩٦)، ورقمه ٣٦٣، واللفظ للبخاري.

وفي رواية عن النعمان بن بشير عند مسلم: «إن أهون أهل النار عذاباً من له نعلان وشراكان من نار، يغلي منهما دماغه، كما يغلي المرجل، ما يرى أن أحداً أشد منه عذاباً، وإنه لأهونهم عذاباً»[1].

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «إن أدنى أهل النار عذاباً ينتعل نعلين من نار يغلي دماغه من حرارة نعليه»[2].

وروى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ، وذُكر عنده عمه أبو طالب، فقال: «لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه، يغلي منه أم دماغه»[3].

وقد جاءت النصوص القرآنية مصدقة لتفاوت أصحاب النار في العذاب كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]، وقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

يقول القرطبي في هذا الموضوع: «هذا الباب يدلك على أن كفر من كفر فقط، ليس ككفر من طغى وكفر وتمرد وعصى، ولا شك أن الكفار في عذاب جهنم متفاوتون، كما قد علم من الكتاب والسنة، ولأنّا نعلم

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان: (١/ ١٩٦)، ورقم الحديث: (٣٦٤).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان: (١/ ١٩٥)، ورقم الحديث: (٣٦١).

(٣) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، فتح الباري: (١١/ ٤١٧) ورواه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب، (١/ ١٩٥)، حديث رقم (٣٦٠)، وساق فيه عدة أحاديث أخرى.

على القطع والثبات أنه ليس عذاب من قتل الأنبياء والمسلمين وفتك فيهم وأفسد في الأرض وكفر، مساوياً لعذاب من كفر فقط وأحسن للأنبياء والمسلمين، ألا ترى أبا طالب كيف أخرجه النبي ﷺ إلى ضحضاح لنصرته إياه، وذبّه عنه وإحسانه إليه؟ وحديث مسلم عن سمرة يصح أن يكون في الكفار بدليل حديث أبي طالب، ويصح أن يكون فيمن يعذب من الموحدين»[1].

وقال ابن رجب: «واعلم أن تفاوت أهل النار في العذاب هو بحسب تفاوت أعمالهم التي أدخلوا بها النار» ثم ساق الأدلة الدالة على ذلك، وساق قول ابن عباس: «ليس عقاب من تغلظ كفره وأفسد في الأرض ودعا إلى الكفر كمن ليس كذلك»، ثم قال ابن رجب: «وكذلك تفاوت عذاب عصاة الموحدين في النار بحسب أعمالهم، فليس عقوبة أهل الكبائر كعقوبة أصحاب الصغائر، وقد يخفف عن بعضهم بحسنات أخرى له أو بما شاء الله من الأسباب، ولهذا يموت بعضهم في النار»[2].

المطلب الثاني

إنضاج الجلود

إن نار الجبار تحرق جلود أهل النار، والجلد موضع الإحساس بألم الاحتراق، ولذلك فإن الله يبدل لهم جلوداً أخرى غير تلك التي احترقت،

(١) التذكرة للقرطبي: ص ٤٠٩.

(٢) التخويف من النار: ص ١٤٢ - ١٤٣.

لتحترق من جديد، وهكذا دواليك، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦].

المطلب الثالث

الصهر

من ألوان العذاب صب الحميم فوق رؤوسهم، والحميم هو ذلك الماء الذي انتهى حره، فلشدة حره تذوب أمعاؤهم وما حوته بطونهم ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾ [الحج: ١٩-٢٠].

أخرج الترمذي من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن الحميم ليصب على رؤوسهم، فينفذ حتى يخلص إلى جوفه فيسلت ما في جوفه، حتى يمرق من قدميه، وهو الصهر، ثم يعود كما كان»، وقال: حسن غريب صحيح[1].

---

(١) التخويف من النار لابن رجب: ١٤٥، جامع الأصول: (١٠/ ٥٤٠). وهو في الترمذي برقم: ٢٥٨٢.

المطلب الرابع

اللفح

أكرم ما في الإنسان وجهه، ولذلك نهانا الرسول ﷺ عن ضرب الوجه، ومن إهانة الله لأهل النار أنهم يحشرون في يوم القيامة على وجوههم عُمياً وصُماً وبكماً ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]، ويُلقون في النار على وجوههم ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠].

وتلفح النار وجوههم وتغشاها أبداً لا يجدون حائلاً يحول بينهم وبينها ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٩]، ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٤]، ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠]، ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الزمر: ٢٤]، وانظر إلى هذا المنظر الذي تقشعر لهوله الأبدان: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا﴾ [الأحزاب: ٦٦]، أرأيت كيف يقلب اللحم على النار، والسمك في المقلى، كذلك تقلب وجوههم في النار، نعوذ بالله من عذاب أهل النار.

المطلب الخامس

السحب

ومن أنواع العذاب الأليم سحب الكفار في النار على وجوههم ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ * يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴾ [القمر: ٤٧-٤٨]، ويزيد من آلامهم حال سحبهم في النار أنهم مقيدون بالقيود والأغلال والسلاسل ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ * فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ [غافر: ٧٠-٧٢]، قال قتادة: يسحبون مرة في النار وفي الحميم مرة[1].

المطلب السادس

تسويد الوجوه

يُسوِّد الله في الدار الآخرة وجوهَ أهل النار ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٦]. وهو سواد شديد، كأنما حلت ظلمة الليل في وجوههم ﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [يونس: ٢٧].

---

(١) التخويف من النار لابن رجب: ١٤٧.

المطلب السابع

إحاطة النار بالكفار

أهل النار هم الكفار الذين أحاطت بهم ذنوبهم ومعاصيهم، فلم تبق لهم حسنة، كما قال تعالى في الرد على اليهود الذين قالوا: لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة، ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٨١]، ولا يكون المرء كذلك إلا إذا كان كافراً مشركاً، يقول صديق حسن خان: «المراد بالسيئة هنا الجنس، ولا بد أن يكون سببها محيطاً به من جميع جوانبه، فلا تبقى له حسنة، وسدت عليها مسالك النجاة، والخلود في النار هو للكفار والمشركين، فيتعين تفسير السيئة والخطيئة في هذه الآية بالكفر والشرك، وبهذا يبطل تشبث المعتزلة والخوارج لما ثبت في السنة متواتراً من خروج عصاة الموحدين من النار»[1].

ولما كانت الخطايا والذنوب تحيط بالكافر إحاطة السوار بالمعصم، فإن الجزاء من جنس العمل، ولذا فإن النار تحيط بالكفار من كل جهة، كما قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ﴾ [الأعراف: ٤١]. والمهاد ما يكون من تحتهم، والغواش جمع غاشية، وهي التي تغشاهم من فوقهم، والمراد أن النيران تحيط بهم من فوقهم ومن تحتهم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٥]، وقال في موضع آخر: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ﴾

(١) يقظة أولي الاعتبار: ص ٦٧.

[الزمر:١٦]، وقد صرح بالإحاطة في موضع آخر: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [التوبة:٤٩].

وقد فسر بعض السلف المهاد بالفرش، والغواش باللحف[١].

وتأتي الإحاطة من ناحية أخرى، ذلك أن للنار سوراً يحيط بالكفار، فلا يستطيع الكفار مغادرتها أو الخروج منها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف:٢٩].

وسرادق النار سورها وحائطها الذي يحيط بها.

المطلب الثامن

اطلاع النار على الأفئدة

ذكرنا أن أهل النار يضخم خلقهم في النار شيئاً عظيماً، ومع ذلك فإن النار تدخل في أجسادهم حتى تصل إلى أعمق شيء فيهم ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ [المدثر:٢٦-٢٩]، قال بعض السلف في قوله: ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾، قال: «تأكل العظم واللحم والمخ ولا تذره على ذلك»[٢].

وقال الحق تبارك وتعالى: ﴿كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا

---

(١) تفسير ابن كثير: (١٦٨/٣).

(٢) التخويف من النار لابن رجب: ١٤٦.

﴿ٱلْحُطَمَةُ * نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ * ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ [الهمزة: ٤-٧].

قال محمد بن كعب القرظي: «تأكله النار إلى فؤاده، فإذا بلغت فؤاده أنشىء خلقه. وعن ثابت البناني أنه قرأ هذه الآية، ثم قال: تحرقهم النار إلى الأفئدة وهم أحياء، لقد بلغ منهم العذاب، ثم يبكي»[1]

المطلب التاسع

اندلاق الأمعاء في النار

في الصحيحين عن أسامة بن زيد عن النبي ﷺ قال: «يُجاء بالرجل يوم القيامة، فيُلقى في النار، فتندلق أقتابه في النار، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه، فيقولون: أي فلان، ما شأنك، أليس كنت تأمرنا بالمعروف، وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه»[2].

ومن الذين يجرون أمعاءهم في النار عمرو بن لحي، وهو أول من غير دين العرب، وقد رآه الرسول ﷺ يجرُّ قصبه في النار، ففي الصحيحين عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجرُّ قصبه في النار، وكان أول من سيب السوائب»[3]

---

(١) التخويف من النار لابن رجب: ١٤٦.

(٢) صحيح البخاري: ٣٢٦٧، ٧٠٩٨. ومسلم: ٢٩٨٩.

(٣) صحيح البخاري: ٣٥٢١. وصحيح مسلم: ٢٨٥٦، تسييب السوائب: تشريع سنة عمرو للعرب حرم فيه ما أحل الله تعالى، فقد حرّم أنواعاً من الأنعام بأسباب لم ينزل الله بها من سلطان، كأن يمنع ذبح تلك الحيوانات وحلبها والركوب عليها. قال سعيد بن المسيب فيما رواه عنه البخاري ومسلم في روايتهما للحديث السابق: «البحيرة التي يمنع درها للطواغيت، ولا يحلبها أحد من الناس، =

المطلب العاشر

قيود أهل النار وأغلالهم وسلاسلهم ومطارقهم

أعد الله لأهل النار في النار سلاسل وأغلالاً وقيوداً ومطارق ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۠ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾ [الإنسان: ٤]، ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا * وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [المزمل: ١٢-١٣]، والأغلال توضع في الأعناق ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣٣]، ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ ۚ يُسْحَبُونَ﴾ [غافر: ٧١]، والأنكال: القيود، سميت أنكالاً لأن الله يعذبهم وينكل بهم بها، ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا﴾ [المزمل: ١٢]، والسلاسل نوع آخر من ألوان العذاب التي يقيد بها المجرمون كما يقيد المجرمون في الدنيا، وانظر إلى هذه الصورة التي أخبرنا بها الكتاب الكريم ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ﴾ [الحاقة: ٣٠-٣٢].

وأعد الله لأهل النار مقامع من حديد، وهي المطارق التي تهوي على المجرمين وهم يحاولون الخروج من النار، فإذا بها تطوح بهم مرة أخرى إلى سواء الجحيم، ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الحج: ٢١-٢٢].

= والسائبة التي يسيبونها لآلهتهم، فلا يحمل عليها شيء».

المطلب الحادي عشر

قرن معبوداتهم وشياطينهم بهم في النار

كان الكفار والمشركون يعظمون الآلهة التي يعبدونها من دون الله، ويدافعون عنها، ويبذلون في سبيل ذلك النفس والمال، وفي يوم القيامة يدخل الحق تلك الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله النار إهانة لعابديها وإذلالاً لهم، ليعلموا أنهم كانوا ضالين، يعبدون ما لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ * لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨-٩٩].

يقول ابن رجب: «لما عبد الكفار الآلهة من دون الله، واعتقدوا أنها تشفع لهم عند الله، وتقربهم إليه، عُوقبوا بأن جعلت معهم في النار إهانةً لهم وإذلالاً، ونكاية لهم وإبلاغاً في حسرتهم وندامتهم، فإن الإنسان إذا قرن في العذاب بمن كان سبب عذابه كان أشد في ألمه وحسرته»[1].

ومن أجل ذلك يقذف في يوم القيامة بالشمس والقمر في النار، ليكونا مما توقد به النار، تبكيتاً للظالمين الذين كانوا يعبدونها من دون الله، ففي الحديث: «الشمس والقمر مكوران في النار»[2].

يقول القرطبي: «وإنما يجمعان في جهنم، لأنهما قد عُبدا من دون

---

(١) التخويف من النار: ص ١٠٥.

(٢) رواه البيهقي في (شعب الإيمان)، والبزار والإسماعيلي والخطابي، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة: (١/ ٣٢).

الله، لا تكون النار عذاباً لهما، لأنهما جماد، وإنما يفعل ذلك بهما زيادة في تبكيت الكافرين وحسرتهم، هكذا قال بعض أهل العلم»[1].

ولهذا المعنى يقرن الكفار بشياطينهم ليكون أشد لعذابهم: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ * حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ * وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٩].

المطلب الثاني عشر

حسرتهم وندمهم ودعاؤهم

عندما يرى الكفار النار يندمون أشد الندم، ولات ساعة مندم ﴿ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [يونس: ٥٤]، وعندما يطلع الكافر على صحيفة أعماله، فيرى كفره وشركه الذي يؤهله للخلود في النار، فإنه يدعو بالثبور والهلاك ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ * فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا * وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴾ [الانشقاق: ١٠-١٢].

ويتكرر دعاؤهم بالويل والهلاك عندما يلقون في النار، ويصلون حرها ﴿ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا * لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾ [الفرقان: ١٣-١٤]. وهناك يعلو صراخهم ويشتد عويلهم، ويدعون ربهم آملين أن يخرجهم من النار ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ

(١) التذكرة للقرطبي: ص ٣٩٢.

فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧]، وهم يعترفون في ذلك الوقت بضلالهم وكفرهم وقلة عقولهم ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]، ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر: ١١].

ولكن طلبهم يرفض بشدة، ويجابون بما تستحق أن تجاب به الأنعام ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ * رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ * قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٦-١٠٨].

لقد حق عليهم القول، وصاروا إلى المصير الذي لا ينفع معه دعاء ولا يُقبل فيه رجاء ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ * وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ * فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٢-١٤].

ويتوجه أهل النار بعد ذلك بالنداء إلى خزنة النار، يطلبون منهم أن يشفعوا لهم كي يخفف الله عنهم شيئاً مما يعانونه ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ * قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [غافر: ٤٩-٥٠].

وعند ذلك يسألون الشفاعة كي يُهلكهم ربُّهم ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

إنه الرفض لكل ما يطلبون، لا خروج من النار، ولا تخفيف من

عذابها، ولا إهلاك، بل هو العذاب الأبدي السرمدي الدائم، ويقال لهم آن ذاك: ﴿ فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور: ١٦].

هناك يشتد نحيبهم، وتفيض دموعهم، ويطول بكاؤهم ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [التوبة: ٨٢]، إنهم يبكون حتى تنقطع الدموع، ثم يبكون دماً، وتؤثر دموعهم في وجوههم كما يؤثر السيل في الصخر، ففي مستدرك الحاكم عن عبد الله بن قيس أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل النار ليبكون، حتى لو أجريت السفن في دموعهم، لجرت، وإنهم ليبكون الدم -يعني- مكان الدمع».

وعن أنس بن مالك مرفوعاً بلفظ: «يرسل البكاء على أهل النار فيبكون حتى تنقطع الدموع، ثم يبكون الدم حتى تصير في وجوههم كهيئة الأخدود، لو أرسلت فيه السفن لجرت»[1]، لقد خسر هؤلاء الظالمون أنفسهم وأهليهم عندما استحبوا الكفر على الإيمان، واستمع إلى عويلهم وهم يرددون حال العذاب ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ۞ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ۞ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٦٦-٦٨].

---

(١) أورد الشيخ ناصر الحديثين في سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٤/ ٢٤٥)، حديث رقم: ١٦٧٩، وعزا الحديث الأول منهما إلى الحاكم في مستدركه، وقد قال فيه الحاكم: (حديث صحيح الإسناد). ووافقه الذهبي. قال الشيخ ناصر: وحقه أن يزيد: على شرط الشيخين (فإن رجاله كلهم من رجالهما، وذكر أن أحد رجاله وهو أبو النعمان ويلقب (بعارم) كان قد اختلط، وساق الشيخ ناصر الحديث الثاني شاهداً للأول، وعزاه إلى ابن ماجة وابن أبي الدنيا، ويزيد الرقاشي أحد رواته ضعيف، وباقي رجاله رجال الشيخين.

وتأمل قوله تعالى يصف حالهم، ونعوذ بالله من حالهم ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ [هود:١٠٦]، قال الزجاج: الزفير من شدة الأنين وهو المرتفع جداً. وقيل الزفير: ترديد النفس في الصدر من شدة الخوف حتى تنتفخ منه الأضلاع، والشهيق النفس الطويل الممتد، أو ردُّ النفس إلى الصدر، والمراد بهما الدلالة على شدة كربهم وغمهم وتشبيه حالهم بمن استولت الحرارة على قلبه وانحصر فيه روحه.

وقال الليث: الزفير أن يملأ الرجل صدره حال كونه في الغم الشديد من النفس ويخرجه، والشهيق أن يخرج ذلك النفس[1].

---

(١) يقظة أولي الاعتبار، لصديق حسن خان ص ٧٢.

الفصل العاشر

كيف يتقي الإنسان نار الله

لما كان الكفر هو السبب في الخلود في النار فإن النجاة من النار تكون بالإيمان والعمل الصالح، ولذا فإن المسلمين يتوسلون إلى ربهم بإيمانهم كي يخلصهم من النار، ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٦]، ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ * رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ * رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩١-١٩٤].

وقد فصَّلتُ النصوصَ هذا الموضوع فبينتُ الأعمال التي تقي النار، فمن ذلك محبة الله، ففي مستدرك الحاكم ومسند أحمد عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «والله لا يلقي الله حبيبه في النار»[1]، والصيام جنة من النار، ففي مسند أحمد، والبيهقي في شعب الإيمان بإسناد حسن عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال: «قال الله تعالى: الصيام جُنة يستجن بها من النار»[2]. وعند البيهقي في الشعب من حديث عثمان بن أبي العاص عن النبي ﷺ: «الصوم جُنة من عذاب الله» ورواه

(١) حديث صحيح، انظر صحيح الجامع (٦/ ١٠٤)، ورقم الحديث: (٦/ ١٠٤).

(٢) صحيح الجامع: (٤/ ١١٤).

أحمد والنسائي وابن ماجة وابن خزيمة وإسناده صحيح[1]، أما إذا كان الصوم في حال جهاد الأعداء فذاك الفوز العظيم، فعن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله ﷺ قال: «من صام يوماً في سبيل الله بعَّد الله وجهه عن النار سبعين خريفاً»، رواه أحمد، والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي[2].

ومما يُنجي من النار مخافة الله، والجهاد في سبيل الله ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٤٦]، وروى الترمذي والنسائي في سننهما عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم»[3]، وفي صحيح البخاري عن أبي عبس وهو عبد الرحمن بن جبر، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما اغبرت قدما عبد في سبيل الله، فتمسه النار»[4]، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يجتمع كافر وقاتله في النار أبداً»[5].

ومما يقي العبد من النار استجارة العبد بالله من النار، ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان:٦٥-٦٦]، وفي مسند أحمد وسنن ابن ماجه وصحيح ابن حبان ومستدرك الحاكم بإسناد صحيح عن أنس قال: قال رسول الله

---

(١) صحيح الجامع: (٣/ ٢٦٤).

(٢) صحيح الجامع: (٥/ ٣١٠). وهو في صحيح البخاري: ٢٨٤٠. وصحيح مسلم: ١١٥٣.

(٣) مشكاة المصابيح: (٢/ ٣٥٦)، حديث رقم: ٣٨٢٨، وقال المحقق في إسناده: صحيح. انظره في سنن الترمذي: ١٦٣٣، ٢٣١١. وقال الترمذي فيه: هذا حديث حسن صحيح.

(٤) مشكاة المصابيح: (٢/ ٣٤٩)، ورقمه: ٣٧٩٤. وهو في صحيح البخاري برقم: ٢٨١١.

(٥) مشكاة المصابيح: (٢/ ٣٤٩)، ورقمه: ٣٧٩٥. وهو في صحيح مسلم برقم: ١٨٩١.

ﷺ: «ما سأل أحد الله الجنة ثلاثاً، إلا قالت الجنة: اللهم أدخله الجنة، ولا استجار رجل مسلم الله من النار ثلاثاً، إلا قالت النار: اللهم أجره مني»[1].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في ذكر الملائكة الذين يلتمسون مجالس الذكر وفيه: أن الله عز وجل يسألهم وهو أعلم بهم، فيقول: «فمم يتعوذون؟ فيقولون: من النار، فيقول: وهل رأوها؟ فيقولون: لا والله يا رب ما رأوها، فيقول: كيف لو رأوها؟ فيقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فراراً، وأشدُّ مخافة، فأشهدكم أني قد غفرت لهم»[2].

---

(١) صحيح الجامع: (٥/ ١٤٥)، ورقمه: ٥٥٠٦.

(٢) صحيح الجامع: (٢/ ٢٣٣)، ورقمه: ٢١٦٩، وعزاه إلى البخاري ومسلم وأحمد.

الباب الثاني

الجنة

تمهيد: تعريف وبيان

الجنة هي الجزاء العظيم، والثواب الجزيل، الذي أعده الله لأوليائه وأهل طاعته، وهي نعيم كامل لا يشوبه نقص، ولا يعكر صفوه كدر، وما حدثنا الله به عنها، وما أخبرنا به الرسول ﷺ يحير العقل ويذهله، لأن تصور عظمة ذلك النعيم يعجز العقل عن إدراكه واستيعابه.

استمع إلى قوله تبارك وتعالى في الحديث القدسي «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» ثم قال الرسول ﷺ: «اقرؤوا إن شئتم ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]»[(١)].

وتظهر عظمة النعيم بمقارنته بمتاع الدنيا، فإن متاع الدنيا بجانب نعيم الآخرة تافه حقير، لا يساوي شيئاً. ففي صحيح البخاري عن سهل بن سعد الساعدي قال: قال رسول الله ﷺ: «موضع سوطٍ في الجنة خير من الدنيا وما فيها»[(٢)].

ولذا كان دخول الجنة والنجاة من النار في حكم الله وتقديره هو الفلاح العظيم، والفوز الكبير، والنجاة العظمى قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ

---

(١) رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة في كتاب: بدء الخلق، باب: ما جاء في صفة النار. فتح الباري: (٦/٣١٨). ورقم الحديث: ٣٢٤٤.

(٢) صحيح البخاري: ٣٢٥٠.

وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ٧٢]، وقال أيضاً: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [النساء: ١٣].

الفصل الأول

دخول الجنة

لا شك أن سعادة المؤمنين لا تعادلها سعادة عندما يُساقون مُعززين مُكرمين زُمراً زمراً إلى جنات النعيم، حتى إذا ما وصلوا إليها فُتحت أبوابها، واستقبلتهم الملائكة الكرام يهنئونهم بسلامة الوصول، بعدما عانوه من الكربات، وشاهدوه من الأهوال ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]، أي طابت أعمالكم وأقوالكم وعقائدكم، فأصبحت نفوسكم زاكية، وقلوبكم طاهرة، فبذلك استحققتم الجنات.

المبحث الأول
الشفاعة في دخول الجنة

ثبت في الأحاديث الصحيحة أن المؤمنين عندما يطول عليهم الموقف في يوم الجزاء يطلبون من الأنبياء أن يستفتحوا لهم باب الجنة، فكلهم يتمنع ويتأبى، ويقول: لست لها حتى يبلغ الأمر نبينا محمداً ﷺ فَيَشْفَعُ في ذلك، فيُشفَّع، ففي صحيح مسلم عن حذيفة بن اليمان وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «يجمع الله تبارك وتعالى الناس، فيقوم المؤمنون، حتى تزلف لهم الجنة، فيأتون آدم، فيقولون: يا أبانا، استفتح لنا الجنة، فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم، لست بصاحب ذلك.. »[1]. الحديث.

وذكر فيه تدافع الأنبياء لها، حتى يأتون محمداً ﷺ، فيؤذن لهم.

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة: (٤/١٨٦)، ورقمه: ١٩٥.

المبحث الثاني

تهذيب المؤمنين وتنقيتهم قبل الدخول

بعد أن يجتاز المؤمنون الصراط يوقفون على قنطرة بين الجنة والنار، ثم يهذَّبون وينقَّون، وذلك بأن يُقتص لبعضهم من بعض إذا كانت بينهم مظالم في الدنيا، حتى إذا دخلوا الجنة كانوا أطهاراً أبراراً، ليس لأحد عند الآخر مظلمة، ولا يطلب بعضهم بعضاً بشيء.

روى البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا»[1].

وقد سبق أن ذكرنا في «أحاديث الشفاعة» في «القيامة» أن رسولنا ﷺ هو أول من يستفتح الجنة بعد أن يأبى أبو البشر آدم وأولو العزم من الرسل التعرض لهذه المهمة.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب القصاص يوم القيامة، فتح الباري: (١١/ ٣٩٥).

المبحث الثالث
الأوائل في دخول الجنة

أول البشر دخولاً الجنة على الإطلاق هو رسولنا محمد ﷺ، وأول الأمم دخولاً الجنة أمته، وأول من يدخل الجنة من هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

وقد ساق ابن كثير الأحاديث الواردة في ذلك[1] فمن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول من يقرع» أي: باب الجنة. وفيه أيضاً: «أنا أول شفيع في الجنّة»[2].

وروى مسلم عن أنس أيضاً، قال: قال رسول الله ﷺ: «آتي باب الجنة فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك»[3].

وثبت في الصحيحين وسنن النسائي، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، ونحن أول من يدخل الجنة»[4].

وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «أتاني جبريل،

---

(١) النهاية لابن كثير: (٢/ ٢١٣).

(٢) صحيح مسلم: ١٩٧.

(٣) صحيح مسلم: ١٩٧.

(٤) رواه البخاري في مواضع من صحيحه: ٢٣٨، ٨٧٦، ٨٩٦، ٢٩٥٦. ومسلم: ٨٥٥.

فأراني باب الجنة الذي تدخل منه أمتي» فقال أبو بكر: يا رسول الله، وددت أني كنت معك حتى أنظر إليه، فقال رسول الله ﷺ: «أما إنك يا أبا بكر أول من يدخل الجنة من أمتي»[1]

(١) سنن أبي داود: ٤٦٥٢. وأورده الألباني في ضعيف أبي داود.

المبحث الرابع
الذين يدخلون الجنة بغير حساب

أول زمرة تدخل من هذه الأمة الجنة هم القمم الشامخة في الإيمان والتقى والعمل الصالح والاستقامة على الدين الحق، يدخلون الجنة صفاً واحداً، لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم، صورهم على صورة القمر ليلة البدر.

روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون فيها، ولا يمتخطون، ولا يتغوطون، آنيتهم فيها الذهب، أمشاطهم من الذهب والفضة، ومجامرهم الألوة، ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم قلب رجل واحد، يسبحون الله بكرة وعشياً»[1].

وروى البخاري عن سهل بن سعد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ليدخلن الجنة من أمتي سبعون ألفاً أو سبعمائة ألف -لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر»[2].

وقد صح أن الله أعطى رسوله ﷺ مع كل واحد من السبعين هؤلاء سبعين ألفاً، ففي مسند أحمد بإسناد صحيح عن أبي بكر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت سبعين ألفاً من أمتي يدخلون الجنة بغير

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة، فتح الباري: (٦/٣١٨)، ورواه مسلم: ٢٨٣٤، والترمذي وغيرهما.

(٢) المصدر السابق، فتح الباري: (٦/٣١٩).

حساب، وجوههم كالقمر ليلة البدر، قلوبهم على قلب رجل واحد، فاستزدت ربي عز وجل، فزادني مع كل واحد سبعين ألفاً»[1] وفي مسند أحمد وسنن الترمذي وصحيح ابن حبان عن أبي أمامة بإسناد صحيح أن رسول الله ﷺ قال: «وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفاً بلا حساب عليهم ولا عذاب، مع كل ألف سبعون، وثلاث حثيات من حثيات ربي»[2] فذكر هذا الحديث زيادة ثلاث حثيات.

وقد وصف الرسول ﷺ السبعين ألفاً الأوائل وبيَّن علاماتهم، ففي صحيح البخاري عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: «عُرضت عليَّ الأمم، فأخذ النبي يمر معه الأمة، والنبي يمر معه النفر، والنبي يمر معه العشرة، والنبي يمر معه الخمسة، والنبي يمر وحده، فنظرت فإذا سواد كثير، قلت: يا جبريل، هؤلاء أمتي؟ قال: لا، ولكن انظر إلى الأفق، فنظرت فإذا سواد كثير. قال: هؤلاء أمتك، وهؤلاء سبعون ألفاً قدامهم لا حساب عليهم ولا عذاب، قلت: ولم؟ قال: كانوا لا يكتوون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون، فقام إليه عكاشة بن محصن فقال: ادع الله أن يجعلني منهم. قال: اللهم اجعله منهم. ثم قال إليه رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم. قال: سبقك بها عكاشة»[3].

ولعل هؤلاء هم الذين سماهم الحق بالمقربين، وهم السابقون، ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ * فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الواقعة: ١٠-١٢]، وهؤلاء ثلة من الأولين وقليل من الآخرين ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾ [الواقعة: ١٣-١٤].

---

(١) صحيح الجامع: (١/ ٣٥٠)، ورقمه ١٠٦٨.

(٢) صحيح الجامع: (٦/ ١٠٨)، ورقمه: ٦٩٨٨.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب، فتح الباري: (١١/ ٤٥٠).

المبحث الخامس
الفقراء يسبقون الأغنياء إلى الجنة

روى مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة إلى الجنة بأربعين خريفاً»[(١)].

وروى الترمذي عن أبي سعيد، وأحمد والترمذي وابن حبان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة سنة»[(٢)].

وقد بَيَّن الرسول ﷺ في موضع آخر أن هؤلاء لم يكن عندهم شيء يحاسبون عليه، هذا مع جهادهم وفضلهم، أخرج الحاكم في مستدركه عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أتعلم أول زمرة تدخل الجنة من أمتي؟ قلت: الله ورسوله أعلم، فقال: فقراء المهاجرين، يأتون يوم القيامة إلى باب الجنة، ويستفتحون، فيقول لهم الخزنة: أو قد حوسبتم؟ فيقولون: بأي شيء نُحاسب، وإنما كانت أسيافنا على عواتقنا في سبيل الله حتى متنا على ذلك؟ قال: فيفتح لهم، فيقيلون فيه أربعين عاماً قبل أن يدخلها الناس»[(٣)].

---

(١) مشكاة المصابيح: (٢/٦٦٣)، ورقمه: ٥٢٣٥. وهو في مسلم برقم: ٢٩٧٩.

(٢) صحيح الجامع: (٤/٩٠) ورقمه: ٤١٠٤. وهو في سنن الترمذي برقم: ٢٣٥١.

(٣) انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٢/٥٣٢)، ورقمه: ٨٥٣، وقد قال الشيخ ناصر فيه: =

وفي صحيح البخاري عن أسامة بن زيد عن النبي ﷺ قال: «قمت على باب الجنة فكان عامة من دخلها المساكين، وأصحاب الجد محبوسون غير أن أصحاب النار قد أمر بهم إلى النار»[1] وأصحاب الجد هم الأغنياء من المسلمين.

وقد وقع في الأحاديث السابقة أن الفقراء يسبقون الأغنياء بأربعين خريفاً، وجاء في حديث آخر بخمسمائة عام، ووجه التوفيق بين الحديثين أن الفقراء مختلفو الحال، وكذلك الأغنياء -كما يقول القرطبي-[2] فالفقراء متفاوتون في قوة إيمانهم وتقدمهم، والأغنياء كذلك، فإذا كان الحساب باعتبار أول الفقراء دخولاً الجنة وآخر الأغنياء دخولاً الجنة فتكون المدة خمسمائة عام، أما إذا نظرت إلى آخر الفقراء دخولاً الجنة وأول الأغنياء دخولاً الجنة فتكون المدة أربعين خريفاً، باعتبار أول الفقراء وآخر الأغنياء والله أعلم»[3].

= أخرجه الحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، أقول (الشيخ ناصر): إنما هو على شرط مسلم فقط.

(١) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، فتح الباري: (٢/ ٣٤٥).

(٢) التذكرة، للقرطبي: ص ٤٧٠.

(٣) النهاية لابن كثير: (٢/ ٣٤٥).

المبحث السادس
أول ثلاثة يدخلون الجنة

روى الترمذي بإسناد حسن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: عُرض عليَّ أول ثلاثة يدخلون الجنة: «شهيد، وعفيف متعفف، وعبد أحسن عبادة الله، ونصح مواليه»[1].

---

(١) جامع الأصول: (١٠/ ٥٣٥)، وعزاه محقق الجامع إلى أحمد في مسنده، والحاكم في مستدركه، والبيهقي في السنن. وهو في سنن الترمذي برقم: ١٦٤٢. وقال الترمذي فيه هذا حديث حسن. وأورده الألباني في ضعيف الترمذي.

المَبحَث السَابِع
دخول عصاة المؤمنين الجنة

المطلب الأول

إخراجهم من النار وإدخالهم الجنة بالشفاعة

روى مسلم في صحيحه عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن[1] ناس أصابتهم النار بذنوبهم (أو قال: بخطاياهم) فأماتتهم إماتة، حتى إذا كانوا فحماً، أذن بالشفاعة، فجيء بهم ضبائر ضبائر[2]، فبثوا على أنهار الجنة، ثم قيل: يا أهل الجنة أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل»[3].

ولمسلم من حديث جابر بن عبد الله يرفعه إلى رسول الله ﷺ: «إن أقواماً يخرجون من النار يحترقون فيها، إلا دارات وجوههم، حتى يدخلون الجنة»[4].

---

(١) لكنْ هنا مخففة مهملة لا تعمل.

(٢) جماعات جماعات.

(٣) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار، (١/ ١٧٢). رقم: ١٨٥.

(٤) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة، (١/ ١٧٨)، ودارات وجوههم: ما يحيط بالوجه من جوانبه.

وهؤلاء الذين يخرجون من النار ويدخلون الجنة يُسميهم أهل الجنة بالجنهميين، ففي صحيح البخاري عن عمران بن حصين رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «يخرج قوم من النار بشفاعة محمد ﷺ، فيدخلون الجنة، يسمون الجهنميين»[1].

وفي الصحيح أيضاً عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يخرج[2] من النار بالشفاعة كأنهم الثعارير، قلت: وما الثعارير؟ قال: الضغابيس»[3].

وروى البخاري عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «يخرج قوم من النار بعدما مسهم منها سَفعٌ، فيدخلون الجنة، فيسميهم أهل الجنة: الجهنميين»[4].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة الطويل في وصف الآخرة: «حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد، وأراد أن يُخرج برحمته من أراد من أهل النار، أمر الملائكة أن يُخرِجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئاً، ممن أراد الله أن يرحمه، ممن يقول: لا إله إلا الله، فيعرفونهم في النار، يعرفونهم بأثر السجود، تأكل النار من ابن آدم إلا أثر السجود، حرم الله على النار أن تأكل أثر السجود، فيخرجون من النار وقد امتحشوا[5]،

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، فتح الباري: (١١/ ٤١٨) ولهم ذكر في حديث جابر عند مسلم: (١/ ١٧٩).

(٢) أي قوم.

(٣) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، فتح الباري: (١١/ ٤١٦) والثعارير: قثاء صغار، والضغبوس: نبت يخرج قدر شبر في دقة الأصبع لا ورق له، فيه حموضة. والمقصود (وصفهم بالبياض والدقة).

(٤) المصدر السابق، فتح الباري: (١١/ ٤١٦).

(٥) احتراقوا.

فيصب عليهم ماء الحياة، فينبتون منه، كما تنبت الحبة في حميل السيل»[1].

وقد ورد في أكثر من حديث أن الله يخرج من النار من كان في قلبه مثقال دينار أو نصف دينار أو مثقال ذرة من إيمان، بل يخرج أقواماً لم يعملوا خيراً قط، ففي حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يدخل الله أهل الجنة الجنة، يدخل من يشاء برحمته، ويدخل أهل النار النار، ثم يقول: «انظروا من وجدتم في قلبه حبة من خردل من إيمان فأخرجوه..»[2].

وفي حديث جابر بن عبد الله في ورود النار: «ثم تحل الشفاعة، ويشفعون حتى يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير مثقال شعيرة، فيجعلون بفناء الجنة، ويجعل أهل الجنة يرشون عليهم الماء، حتى ينبتوا نبات الشيء في حميل السيل. ويذهب حراقه[3] ثم يسأل حتى يجعل له الدنيا وعشرة أمثالها معها»[4].

وفي حديث أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان في قلبه ما يزن برة، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرة»[5]. والأحاديث في هذا كثيرة.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الرؤية: (١/ ٢٩٩)، حديث رقم: (١٨٢).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين: (١/ ١٧٢).

(٣) حراقه: معناه أثر النار، والضمير في (حراقه) يعود على المخرجين.

(٤) صحيح مسلم، باب أدنى أهل الجنة منزلة: (١/ ١٧٨).

(٥) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة: (١/ ١٨٢).

المطلب الثاني

موقف الفِرَق من الشفاعة

أنكرت الخوارج والمعتزلة[1] شفاعة الشافعين في أهل الكبائر والذين أمر بهم إلى النار أن لا يدخلوها، والذين دخلوها أن يخرجوا منها، قال القرطبي: «وهذه الشفاعة أنكرتها المبتدعة الخوارج والمعتزلة، فمنعتها على أصولهم الفاسدة وهي الاستحقاق العقلي المبني على التحسين والتقبيح»[2].

وهذه المقولة المضادة للأحاديث الصحيحة المتواترة برزت والصحابة أحياء، روى مسلم في صحيحه عن يزيد الفقير، قال: «كنت قد شغفني رأي من رأي الخوارج، فخرجنا في عصابة ذوي عدد نريد الحج، ثم نخرج على الناس، قال: فمررنا على المدينة، فإذا جابر بن عبد الله يحدِّث القوم، جالس إلى سارية، عن رسول الله ﷺ قال: فإذا هو ذكر الجهنميين، قال: فقلت له: يا صاحب رسول الله، ما هذا الذي تحدِّثون به والله يقول: ﴿إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٩٢]، و﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠]؟ فما هذا الذي تقولون: قال: فقال: أتقرأ القرآن؟ قلت: نعم. قال: فهل سمعت بمقام محمد عليه السلام (يعني الذي يبعثه الله فيه)؟ قلت: نعم، قال: فإنه مقام

---

(١) الخوارج فرقة خرجت بعد معركة صفين كفَّرت علياً ومعاوية، ومن معهما، وزعمت أن أهل المعاصي مخلدون في النار، والمعتزلة أتباع واصل بن عطاء ذهبوا مذهب المعتزلة، في القول بتخليد أصحاب الكبائر في النار، وتوقفوا في أمرهم في الدنيا.

(٢) التذكرة للقرطبي: ص ٢٤٩.

محمد ﷺ المحمود الذي يخرج الله به من يخرج، قال: ثم نعت وضع الصراط ومر الناس عليه، قال: وأخاف أن لا أكون أحفظ ذاك، قال: غير أنه قد زعم أن قوماً يخرجون من النار بعد أن يكونوا فيها. قال: يعني فيخرجون كأنهم عيدان السماسم، قال: فيدخلون نهراً من أنهار الجنة فيغتسلون فيه، فيخرجون كأنهم القراطيس[1]، فرجعنا قلنا: ويحكم، أترون الشيخ يكذب على رسول الله ﷺ؟ فرجعنا. فلا والله، ما خرج منا غير رجل واحد»[2].

والخوارج والمعتزلة تطرفوا في هذه المسألة إذ زعموا أن أهل الكبائر لا يخرجون من النار، ولا تنفعهم شفاعة الشافعين، كما أن المرجئة تطرفوا في الجانب المقابل حيث لم يقطعوا بدخول أحد من أهل الكبائر النار، ويزعمون أن أهل الكبائر جميعاً في الجنة من غير عذاب، وكلا الفريقين مخالف للسنة المتواترة الثابتة عن الرسول ﷺ، وهم مخالفون لإجماع سلف الأمة وأئمتها، وقد هدى الله أهل السنة والجماعة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، حيث ذهبوا إلى أن أهل الكبائر تحت مشيئة الله، إن شاء غفر لهم برحمته، وإن شاء عذبهم بذنوبهم، ثم أدخلهم الجنة برحمته، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣] فالشرك لا يغفره الله، وما دونه تحت المشيئة، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له. وحجة الخوارج في نفي هذه الشفاعة الآيات الواردة في نفي الشفاعة التي يثبتها

---

(١) القراطيس: الصحف التي يكتب فيها.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة، (١/ ١٧٩)، ورقمه: ١٩١.

أهل الشرك، فأهل الشرك يعتقدون أن الشفاعة عند الله كالشفاعة في الدنيا، يشفع الشافع عند غيره بدون إذن منه، ويشفع الشافع عند غيره وإن لم يرض عن المشفوع له، وهذا لا يكون عند الله تبارك وتعالى، وقد جاءت النصوص بإبطال هذا النوع من الشفاعة، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: ٤٨]، وقال: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]، وقال: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨]، وقد جاءت النصوص مبينة أن الشفاعة عند الله لا تكون إلا بإذنه، ولا تكون إلا بعد أن يرضى عن الشافع والمشفوع له: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقال: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦]، وقال عن الملائكة أيضاً: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقال: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣].

فهذه النصوص تنفي تلك الشفاعة التي أثبتها المشركون للملائكة والأنبياء والصالحين وتبطلها، وتثبت الشفاعة التي تكون بإذن الله ورضاه عن الشافع والمشفوع، والله لا يرضى عن الكفرة المشركين، أما عصاة أهل التوحيد، فيشفع فيهم الشافعون، ولا يشفعون لمشرك. روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قلت: يا رسول الله، من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال: «لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك، لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قِبل نفسه»[1].

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، فتح الباري: (١١/ ٤١٨).

المبحث الثامن
آخر من يدخل الجنة

حدثنا الرسول ﷺ قصة آخر رجل يخرج من النار ويدخل الجنة، وما جرى من حوار بينه وبين ربه، وما أعطاه الله من الكرامة العظيمة التي لم يُصدِّق أن الله أكرمه به لعظمها، وقد جمع ابن الأثير روايات هذا الحديث في جامع الأصول، ومنه نقلنا هذه الأحاديث[1]:

١- عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعلم آخر أهل النار خروجاً منها، وآخر أهل الجنة دخولاً الجنة: رجل يخرج من النار حبواً، فيقول الله له: اذهب فادخل الجنة فيأتيها، فيخيل إليه أنها ملأى، فيرجع فيقول: يا رب، وجدتها ملأى، فيقول الله عز وجل: اذهب فادخل الجنة فإن لك مثل الدنيا، وعشرة أمثالها أو إن لك مثل عشرة أمثال الدنيا، فيقول: أتسخر بي -أو أتضحك بي- وأنت الملك؟ قال: فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه، فكان يقال: ذلك أدنى أهل الجنة منزلة» أخرجه البخاري ومسلم.

ولمسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف آخر أهل النار خروجاً من النار: رجل يخرج منها زحفاً، فيقال له: انطلق فادخل الجنة، قال: فيذهب فيدخل الجنة، فيجد الناس قد أخذوا المنازل، فيقال له: أتذكر الزمان الذي كنت فيه؟ فيقول: نعم، فيقال له: تمنَّ، فيتمنى فيقال له:

---

(١) جامع الأصول: (١٠/ ٥٥٣).

لك الذي تمنيت، وعشرة أضعاف الدنيا، فيقول: أتسخر بي وأنت الملك؟ قال: فلقد رأيت رسول الله ﷺ يضحك حتى بدت نواجذه» وفي رواية الترمذي مثل هذه التي لمسلم[1].

٢- عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «آخر من يدخل الجنة رجل، فهو يمشي مرة، ويكبو مرة، وتسفعه النار مرة، فإذا ما جاوزها التفت إليها، فقال: تبارك الذي نجاني منك، لقد أعطاني الله شيئاً ما أعطاه أحداً من الأولين والآخرين، فترفع له شجرة، فيقول: يا رب، أدنني من هذه الشجرة فلأستظل بظلها، وأشرب من مائها، فيقول الله عز وجل: يا ابن آدم لعلي إن أعطيتكها سألتني غيرها؟ فيقول: لا، يا رب، ويعاهده أن لا يسأله غيرها، قال: وربه عز وجل يعذره، لأنه يرى مالا صبر له عليه، فيدنيه منها، فيستظل بظلها، ويشرب من مائها، ثم ترفع له شجرة هي أحسن من الأولى، فيقول: أي رب، أدنني من هذه لأشرب من مائها، وأستظل بظلها، لا أسألك غيرها فيقول: يا ابن آدم، ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها؟ فيقول: لعلي إن أدنيتك منها تسألني غيرها؟ فيعاهده أن لا يسأله غيرها، وربه تعالى يعذره، لأنه يرى ما لا صبر له عليه، فيدنيه منها، فيستظل بظلها، ويشرب من مائها، ثم ترفع له شجرة عند باب الجنة، وهي أحسن من الأوليين، فيقول: أي رب أدنني من هذه لأستظل بظلها، وأشرب من مائها، لا أسألك غيرها، فيقول: يا ابن آدم، ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها؟ قال: بلى، يا رب لا أسألك غيرها -وربه عز وجل يعذره، لأنه يرى ما لا صبر له عليه، فيدنيه منها،

---

(١) رواه البخاري: (١١/ ٣٨٦) في الرقاق، باب في صفة الجنة والنار، وفي التوحيد، باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم، ومسلم رقم: ١٨٦ في الإيمان، باب آخر أهل النار خروجاً، والترمذي رقم: ٢٥٩٨ في صفة جهنم، باب رقم ١٠.

فإذا أدناه منها سمع أصوات أهل الجنة، فيقول: أي رب أدخلنيها، فيقول: يا ابن آدم، ما يصريني[1] منك، أيرضيك أن أعطيك الدنيا ومثلها معها؟ قال: يا رب، أتستهزىء مني وأنت رب العالمين؟ فضحك ابن مسعود، فقال: ألا تسألوني مم أضحك؟ فقالوا: مم تضحك؟ قال: هكذا ضحك رسول الله ﷺ. فقالوا: مم تضحك يا رسول الله؟ فقال: من ضحك رب العالمين، حين قال: أتستهزىء مني وأنت رب العالمين؟ فيقول: إني لا أستهزىء منك، ولكني على ما أشاء قادر» أخرجه مسلم[2].

وهذا الحديث هكذا أخرجه الحميدي وحده في أفراد مسلم، والذي قبله في المتفق عليه، وقال: إنما أفردناه للزيادة التي فيه.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن أدنى أهل الجنة منزلة: رجل صرف الله وجهه عن النار قِبل الجنة، ومثل له شجرة ذات ظل، فقال: أي رب، قربني من هذه الشجرة لأكون في ظلها.. وساق الحديث بنحو حديث ابن مسعود، ولم يذكر: فيقول: يا ابن آدم، ما يصريني منك؟.. إلى آخر الحديث».

وزاد فيه: «ويذكره الله، سل كذا وكذا، فإذا انقطعت به الأماني، قال الله: هو لك وعشرة أمثاله، قال: ثم يدخل بيته، فتدخل عليه زوجتاه من الحور العين، فيقولان: الحمد لله الذي أحياك لنا، وأحيانا لك، قال: «فيقول: ما أعطي أحد مثل ما أعطيت» أخرجه مسلم هكذا عقيب حديث ابن مسعود[3].

---

(١) (ما يصريني) أي ما الذي يرضيك، ويقطع مسألتك، وأصل التصرية: القطع والجمع، ومنه الشاة المصراة، وهي التي جمع لبنها وقطع حلبه.

(٢) رقم: ١٨٧ في الإيمان، باب آخر أهل النار خروجاً.

(٣) رواه مسلم رقم: ١٨٨ في الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها.

المبحث التاسع
الذين دخلوا الجنة قبل يوم القيامة

أول من دخل الجنة من البشر هو أبو البشر آدم ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة: ٣٥]، وقال: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٩]، ولكن آدم عصى ربه بأكله من الشجرة التي نهاه الله عن الأكل منها فأهبطه الله من الجنة إلى دار الشقاء: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ * فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ * فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ * فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ * ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ * قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [طه: ١١٥-١٢٣].

وقد رأى الرسول ﷺ الجنة ففي صحيح البخاري عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ قال: «اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء»[1].

ومن الذين يدخلون الجنة قبل يوم القيامة الشهداء، ففي صحيح مسلم

---

(١) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة، فتح الباري: (٦/ ٣١٨).

عن مسروق قال: سألنا عبد الله بن مسعود عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

قال: «إنا قد سألنا عن ذلك فقال: «أرواحهم في أجواف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوى إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة، فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أي شيء نشتهي، ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا، ففل بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا: قالوا: يا رب، نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركواً»[1].

ومن مات عُرض عليه مقعده من الجنة والنار بالغداة والعشي، ففي صحيح مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحدكم إذا مات عُرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة»[2].

---

(١) مشكاة المصابيح: (٢/ ٣٥١)، ورقمه: ٣٨٠٤.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، انظر مسلم بشرح النووي: (١٧/ ٣٠٠).

الفصل الثاني
الجنة خالدة وأهلها خالدون

المبحث الأول
نصوص الدالة على ذلك

الجنة خالدة لا تفنى ولا تبيد، وأهلها فيها خالدون، لا يرحلون عنها ولا يظعنون، ولا يبيدون ولا يموتون، ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الدخان: ٥٦]، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا * خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ [الكهف: ١٠٧-١٠٨].

وقد سقنا عند الحديث عن خلود النار -الأحاديث التي يخبر فيها رسول الله ﷺ عن ذبح الموت بين الجنة والنار، ثم يقال لأهل الجنة ولأهل النار: «يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت».

إن مقتضى النصوص أن الجنة تخلق خلقاً غير قابل للفناء، وكذلك أهلها، ففي الحديث عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «من يدخل الجنة ينعم، لا يبأس، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه»[1].

واستمع إلى النداء العلوي الرباني الذي ينادي به أهل الجنة بعد

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة، باب في دوام نعيم الجنة، (٤/ ٢١٨١)، ورقمه: ٢٨٣٦.

دخولهم الجنة: «إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تنعموا، فلا تبتئسوا أبداً، فذلك قوله عز وجل: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]»[1].

(١) صحيح مسلم، كتاب الجنة، باب دوام نعيم الجنة: (٤/ ٢١٨٢)، ورقمه: ٢٨٣٧.

المبحث الثاني
القائلون بفناء الجنة

قال بفناء الجنة كما قال بفناء النار الجهم بن صفوان إمام المعطلة، وليس له سلف قط، لا من الصحابة ولا من التابعين لهم بإحسان، ولا من أئمة المسلمين، ولا من أهل السنة، وأنكره عليه عامة أهل السنة.

وأبو الهذيل العلاف شيخ المعتزلة قال بفناء حركات أهل الجنة والنار، بحيث يصيرون إلى سكون دائم، لا يقدر أحد منهم على حركة[1]، وكل هذا باطل، قال شارح الطحاوية: «فأما أبدية الجنة، وأنها لا تفنى ولا تبيد، فهذا مما يعلم بالضرورة أن الرسول ﷺ أخبر به، قال تعالى: ﴿ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود:١٠٨]، أي غير مقطوع، ولا ينافي ذلك قوله: ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ [هود:١٠٨]»[2] وقد ذكر شارح الطحاوية اختلاف السلف في هذا الاستثناء فقال: «واختلف السلف في هذا الاستثناء: فقيل: معناه إلا مدة مكثهم في النار، وهذا يكون لمن دخل منهم إلى النار ثم أخرج منها، لا لكلهم. وقيل: إلا مدة مقامهم في الموقف. وقيل: إلا مدة مقامهم في القبور والموقف. وقيل: هو استثناء الرب ولا يفعله، كما تقول: والله لأضربنك إلا أن أرى غير ذلك، وأنت لا تراه، بل تجزم بضربه. وقيل: «إلا» بمعنى الواو، وهذا على قول بعض النحاة، وهو ضعيف. وسيبويه يجعل إلا بمعنى لكن، فيكون

(١) راجع شرح الطحاوية: ص ٤٨٠.
(٢) شرح الطحاوية: ٤٨١.

الاستثناء منقطعاً، ورجحه ابن جرير وقال: إن الله تعالى لا خلف لوعده، وقد وصل الاستثناء بقوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:١٠٨]، قالوا: ونظيره أن تقول: أسكنتك داري حولاً إلا ما شئت، أي سوى ما شئت، ولكن ما شئت من الزيادة عليه. وقيل: الاستثناء لإعلامهم بأنهم -مع خلودهم- في مشيئة الله، لأنهم لا يخرجون عن مشيئته، ولا ينافي ذلك عزيمته وجزمه لهم بالخلود، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ [الإسراء:٨٦]، وقوله تعالى: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشورى:٢٤]، وقوله: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ [يونس:١٦]، ونظائره كثيرة، يخبر عباده سبحانه أن الأمور كلها بمشيئته، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

وقيل: إن «ما» بمعنى «من» أي: إلا من شاء الله دخوله النار بذنوبه من السعداء. وقيل غير ذلك.

وعلى كل تقدير، فهذا الاستثناء من المتشابه، وقوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:١٠٨]. وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ [ص:٥٤]. وقوله: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد:٣٥]. وقد أكد الله خلود أهل الجنة بالتأبيد في عدة مواضع من القرآن، وأخبر أنهم ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان:٥٦]. وهذا الاستثناء منقطع، وإذا ضممته إلى الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود:١٠٨]، -تبين أن المراد من الآيتين استثناء الوقت الذي لم يكونوا فيه في الجنة من مدة الخلود، كاستثناء الموتة الأولى من جملة الموت، فهذه موتة تقدمت على حياتهم الأبدية، وذلك مفارقة للجنة تقدمت على خلودهم فيها»[1].

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية: ٤٨١.

الفصل الثالث

صفة الجنة

المبحث الأول

الجنة لا مثل لها

نعيم الجنة يفوق الوصف، ويقصر دونه الخيال، ليس لنعيمها نظير فيما يعلمه أهل الدنيا، ومهما ترقى الناس في دنياهم، فسيبقى ما يبلغونه أمراً هيناً بالنسبة لنعيم الآخرة، فالجنة كما ورد في بعض الآثار لا مثل لها، «هي نور يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصر مشيد، ونهر مطرد، وفاكهة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة، في مقام أبداً، في حَبْرة ونَضْرة، في دور عالية سليمة بهية»[1].

وقد سأل الصحابة الرسول عن بناء الجنة، فأسمعنا الرسول ﷺ في الإجابة وصفاً عجباً، يقول عليه السلام في صفة بنائها: «لبنة من ذهب، ولبنة من فضة، وملاطها المسك الأذفر[2]، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وتربتها الزعفران، من يدخلها ينعم ولا يبأس، ويخلد ولا يموت، ولا

---

(١) هذا نص حديث أورده ابن ماجة في سننه، في كتاب الزهد، باب صفة الجنة، (٢/١٤٤٨)، ورقمه: ٤٣٣٢، ولم ننسبه إلى الرسول ﷺ لأن في إسناده مقالاً، وإن كان ابن حبان أورده في صحيحه، ومعناه جميل تشهد له النصوص من الكتاب والسنة.

(٢) الملاط: المادة التي توضع بين اللبنتين.

يبلى ثيابهم، ولا يفنى شبابهم»[1]، وصدق الله حيث يقول: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان: ٢٠].

وما أخفاه الله عنا من نعيم الجنة شيء عظيم لا تدركه العقول، ولا تصل إلى كنهه الأفكار ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، وقد جاء في الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فاقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]»[2]، ورواه مسلم من عدة طرق عن أبي هريرة وجاء في بعض طرقه: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ذخراً، بلْه[3] ما أطلعكم الله عليه، ثم قرأ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]»[4] ورواه مسلم عن سهل بن سعد الساعدي قال: شهدت من رسول الله ﷺ مجلساً وصف فيه الجنة حتى انتهى، ثم قال ﷺ في آخر حديثه: «فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ثم قرأ هذه الآية: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۞ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٦-١٧]»[5].

---

(١) رواه أحمد والترمذي والدارمي، انظر مشكاة المصابيح: (٣/ ٨٩)، وهو صحيح بطرقه كما أشار إلى ذلك محقق المشكاة.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة، فتح الباري: (٦/ ٣١٨).

(٣) بَلْه: بفتح الباء وسكون اللام، ومعناها: دع ما أطلعكم الله عليه، فالذي لم يطلعكم عليه أعظم، وكأنه أضرب عنه استقلالاً له في جنب ما لم يطلع عليه، أفاده النووي في شرحه على مسلم (١٧/ ١٦٦).

(٤) رواه مسلم في صحيحه في كتاب الجنة وصفة نعيم أهلها: (٢/ ٢١٧٤)، ورقم الحديث: ٢٨٢٤.

(٥) رواه مسلم، حديث رقم: ٢٨٢٤.

المبحث الثاني
أبواب الجنة

للجنة أبواب يدخل منها المؤمنون كما يدخل منها الملائكة ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ [ص: ٥٠]، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۞ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣]، وأخبرنا الحق تبارك وتعالى أن هذه الأبواب تفتح عندما يصل المؤمنون إليها، وتستقبلهم الملائكة محيية بسلامة الوصول: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

وأخبرنا رسولنا ﷺ أن أبواب الجنة تفتح في كل عام في رمضان، فعن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا جاءَ رمضان فتحت أبواب الجنة»[(١)].

وعدد أبواب الجنة ثمانية، وأحد هذه الأبواب يسمى الريّان وهو خاص بالصائمين ففي الصحيحين عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «في الجنة ثمانية أبواب، باب منها يسمى الريّان، لا يدخله إلا الصائمون، فإذا دخلوا أغلق فلم يدخل غيرهم»[(٢)].

وهناك باب للمكثرين من الصلاة، وباب للمتصدقين، وباب للمجاهدين، بالإضافة إلى باب الصائمين المسمى بالريّان، ففي الحديث

---

(١) صحيح البخاري: ١٨٩٨. وصحيح مسلم: ١٠٧٩.

(٢) النهاية لابن كثير: (٢/ ٢١٤).

المتفق عليه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أنفق زوجين في سبيل الله من ماله، دُعي من أبواب الجنة، وللجنة ثمانية أبواب، فمن كان من أهل الصلاة دُعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصدقة دُعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الجهاد دُعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دُعي من باب الصيام».

فقال أبو بكر: والله ما على أحد من ضرر دعي من أيها دعي، فهل يُدعى منها كلها أحد يا رسول الله؟ قال: «نعم، وأرجو أن تكون منهم»[1].

وسؤال أبي بكر يريد به شخصاً اجتمعت فيه خصال الخير، من صلاة، وصيام، وصدقة، وجهاد، ونحو ذلك، بحيث يدعى من جميع تلك الأبواب، وقد أخبر الرسول ﷺ أن الذي ينفق زوجين في سبيل الله يُدعى من أبواب الجنة الثمانية، وأخبر الرسول ﷺ أن الذي يتوضأ فيُحسن الوضوء، ثم يرفع بصره إلى السماء، فيقول: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله تفتح له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها يشاء.

فقد روى مسلم في صحيحه، عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ (أو يسبغ) الوضوء، ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، إلا فُتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء»[2].

---

(١) النهاية لابن كثير: (٢/ ٢١٤).

(٢) صحيح مسلم: ٢٣٤.

وقد أخبرنا الرسول ﷺ أنه خص الذين لا حساب عليهم بباب خاص بهم دون غيرهم وهو باب الجنة الأيمن، وبقيتهم يشاركون بقية الأمم في الأبواب الأخرى، ففي الحديث المتفق عليه من حديث أبي هريرة في حديث الشفاعة «فيقول الله: يا محمد: أَدخِل من لا حساب عليه من أمتك من الباب الأيمن، وهم شركاء الناس في الأبواب الأخرى» ثم بين في هذا الحديث سعة أبواب الجنة، وأن ما بين جانبي الباب كما بين مكة وهجر، أو كما بين مكة وبصرى، ففي الحديث السابق المتفق عليه يقول الرسول ﷺ: «والذي نفس محمد بيده: إن بين المصراعين من مصاريع الجنة، أو ما بين عضادتي الباب، كما بين مكة وهجر، أو كما بين مكة وبصرى»[1].

وقد أخبرنا الرسول ﷺ أن أبواب الجنة تفتح في رمضان، ففي الصحيحين ومسند أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب السماء، وفي رواية: «فتحت أبواب الجنة، وغلقت أبواب النار»[2].

وورد في بعض الأحاديث أن ما بين المصراعين مسيرة أربعين سنة، فقد روى أحمد في «مسنده» وأبو نعيم في «الحلية» عن حكيم بن معاوية عن أبيه معاوية أن رسول الله ﷺ قال: «إن ما بين المصراعين في الجنة مسيرة أربعين سنة، وليأتين عليه يوم، وإنه لكظيظ» وإسناده صحيح.

---

(١) النهاية لابن كثير: (٢/ ٢٢١).

(٢) مشكاة المصابيح: (١/ ٦١٢).

ورواه مسلم وأحمد عن عتبة بن غزوان قال: «لقد ذكر لنا أن ما بين المصراعين في الجنة مسيرة أربعين سنة، وليأتين عليه يوم، وإنه لكظيظ من الزحام».

ورواه الطبراني في معجمه الكبير عن عبد الله بن سلام: «إن ما بين المصراعين في الجنة مسيرة أربعين سنة، يزاحم عليه كازدحام الإبل وردت لخمس ظما»[1].

(١) هذا التحقيق أخذناه بشيء من الاختصار من سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ ناصر الدين الألباني: (٤/٢٧٣)، ورقم الحديث: ١٦٩٨.

المبحث الثالث

درجات الجنة

المطلب الأول

الأدلة على أن الجنة درجات، وأهلها فيها متفاوتون في الرفعة

الجنة درجات بعضها فوق بعض، وأهلها متفاضلون فيها بحسب منازلهم فيها، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ [طه: ٧٥].

ومن الذين وضحوا هذه المسألة شيخ الإسلام ابن تيمية، قال: «والجنة درجات متفاضلة تفاضلاً عظيماً، وأولياء الله المؤمنون المتقون في تلك الدرجات بحسب إيمانهم وتقواهم. قال تبارك وتعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا * كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا * ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ١٨-٢١].

فبين الله سبحانه وتعالى أنه يمد من يريد الدنيا ومن يريد الآخرة من عطائه، وأن عطاءه ما كان محظوراً من بر ولا فاجر، ثم قال تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١]. فبين الله سبحانه أن أهل الآخرة يتفاضلون فيها أكثر مما

يتفاضل الناس في الدنيا وأن درجات الآخرة أكبر من درجات الدنيا. وتفاضل أنبيائه عليهم السلام كتفاضل سائر عباده المؤمنين. فقال تعالى: ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٥].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان».

وفي الصحيحين عن أبي هريرة وعمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر». وقد قال الله تعالى: ﴿ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ ﴾ [الحديد: ١٠] وقال تعالى: ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ٩٥-٩٦].

وقال تعالى: ﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ

هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ * خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة: ١٩-٢٢] وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١]»[1].

وقد روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «من آمن بالله وبرسوله وأقام الصلاة وصام رمضان كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، جاهد في سبيل الله، أو جلس في أرضه التي ولد فيها، فقالوا: يا رسول الله، أفلا نبشر الناس؟

قال: إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله، فأسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، أراه قال: وفوقه عرش الرحمن -ومنه تفجر أنهار الجنة»[2].

وثبت في الصحيح أيضاً عن أنس أن أم حارثة أتت رسول الله ﷺ وقد هلك حارثة يوم بدر، أصابه سهم غرب، فقالت: يا رسول الله، قد علمت موقع حارثة من قلبي، فإن كان في الجنة لم أبك عليه، وإلا سوف ترى ما أصنع، فقال لها: أجنة واحدة هي؟ إنها جنان كثيرة، وإنه في الفردوس الأعلى»[3].

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: (١١/ ١٨٨).

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد، باب درجات المجاهدين في سبيل الله: فتح الباري: (٦/ ١١).

(٣) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، فتح الباري: (١١/ ٤١٨).

وقد بين الرسول ﷺ أن أهل الجنة متفاضلون في الجنة بحسب منازلهم فيها، ففي صحيحي البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدري الغابر[1] في الأفق من المشرق أو المغرب، لتفاضل ما بينهم. قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: بلى والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»[2].

وفي مسند أحمد وسنن الترمذي وسنن ابن ماجة وصحيح ابن حبان عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «إن أهل الدرجات العلى يراهم من هو أسفل منهم كما ترون الكوكب الطالع في أفق السماء، وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعما»[3].

قال القرطبي: «اعلم أن هذه الغرف مختلفة في العلو والصفة بحسب اختلاف أصحابها في الأعمال، فبعضها أعلى من بعض وأرفع.. وقوله: «والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين» ولم يذكر عملاً، ولا شيئاً سوى الإيمان والتصديق للمرسلين، ذلك ليعلم أنه عنى الإيمان البالغ لتصديق المرسلين من غير سؤال آية ولا تلجلج، وإلا فكيف تنال الغرفات بالإيمان والتصديق الذي للعامة، ولو كان كذلك كان جميع الموحدين في أعالي الغرفات، وأرفع الدرجات، وهذا محال، وقد قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الفرقان: ٧٥]،

---

(١) الغابر: الذاهب أو الباقي، فإنَّ غَبَر من الأضداد، يقال: غبر إذا ذهب، وغبر إذا بقي، ويعني به أن الكوكب حالة طلوعه وغروبه بعيد عن الأبصار فيظهر صغيراً لبعده.

(٢) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة الجنة والنار، فتح الباري: (٦/ ٢٢٠) وصحيح مسلم، كتاب الجنة، باب ترائي أهل الجنة أهل الغرف، (٤/ ٢١٧٧)، ورقمه: ٢٨٣١.

(٣) صحيح الجامع الصغير، (٢/ ١٨٧)، ورقمه: ٢٠٢٦.

والصبر بذل النفس والثبات له وقوفاً بين يديه بالقلوب عبودية وهذه صفة المقربين.

وقال في آية أخرى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧]، فذكر شأن الغرفة، وأنها لا تنال بالأموال والأولاد، وإنما تنال بالإيمان والعمل الصالح، ثم بين أن لهم جزاء الضعف، وأن محلهم الغرفات، يعلمك أن هذا إيمان طمأنينة وتعلق قلب به، مطمئناً به في كل ما نابه، وبجميع أموره وأحكامه، فإذا عمل عملاً صالحاً، فلا يخلطه بضده، وهو الفاسد، فلا يكون العمل الصالح الذي لا يشوبه فساد إلا مع إيمان بالغ مطمئن صاحبه بمن آمن وبجميع أموره وأحكامه، والمخلط ليس إيمانه وعمله هكذا، فلهذا كانت منزلته دون غيره»[1].

وأهل الدرجات العاليات يكونون في نعيم أرقى من الذين دونهم، فقد ذكر الله أنه أعد للذين يخافونه جنتين ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، ووصفهما، ثم قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢]، أي دون تلك الجنتين في المقام والمرتبة، ومن تأمل صفات الجنتين اللتين ذكرهما الله آخراً علم أنهما دون الأوليين في الفضل، فالأوليان للمقربين، والأخريان لأصحاب اليمين، كما قال ابن عباس وأبو موسى الأشعري[2].

قال القرطبي: «لما وصف الجنتين أشار إلى الفرق بينهما، فقال في الأوليين: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ [الرحمن: ٥٠]، وقال في الأخريين: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٦]، أي فوارتان بالماء، ولكنهما ليستا

(١) التذكرة للقرطبي: ص ٤٦٤.

(٢) التذكرة للقرطبي: ص ٤٤٠.

كالجاريتين، لأن النضخ دون الجري، وقال في الأوليين: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن:٥٢]، معروف وغريب، رطب ويابس، فعم ولم يخص، وفي الأخريين: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن:٦٨]، ولم يقل من كل فاكهة زوجان، وقال في الأوليين: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ [الرحمن:٥٤]، وهو الديباج، وفي الأخريين: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ [الرحمن:٧٦]، والعبقري الوشي، ولا شك أن الديباج أعلى من الوشي، والرفرف كسر الخبا، ولا شك أن الفرش المعدة للاتكاء عليها أفضل من الخبا.

وقال في الأوليين في صفة الحور العين: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن:٥٨]، وفي الأخريتين: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ [الرحمن:٧٠]، وليس كل حسن كحسن الياقوت والمرجان، وقال في الأوليين: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ [الرحمن:٤٨]، وفي الأخيريتن: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ [الرحمن:٦٤]، أي خضراوان كأنهما من شدة خضرتهما سوداوان، ووصف الأوليين بكثرة الأغصان، والآخرتين بالخضرة وحدها»[(١)].

وفي صحيحي البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «جنتان من فضة، آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»[(٢)]، وفي رواية الترمذي: «إن في الجنة جنتين من فضة..» وذكر الحديث[(٣)].

---

(١) التذكرة للقرطبي: ص ٤٤٠.

(٢) جامع الأصول: (١٠/٤٩٨)، ورقمه: ٨٠٢٩.

(٣) المصدر السابق.

وذكر الحق تبارك وتعالى أن الأبرار يشربون كأساً ممزوجة بالكافور: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان: ٥]، وقال في موضع آخر: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾ [الإنسان: ١٧]، ويبدو أن هذا -والعلم عند الله- لأهل اليمين، وقال في موضع آخر: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢٧-٢٨]، فأهل اليمين يشربون شراباً ممزوجاً من تسنيم، وهي عين في الجنة، والمقربون يشربون من تسنيم صرفاً غير ممزوج.

المطلب الثاني

أعلى أهل الجنة وأدناهم منزلة

روى مسلم في صحيحه عن المغيرة بن شعبة أن الرسول ﷺ قال: «سأل موسى ربه: ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجل يجيء بعدما أدخل أهل الجنة الجنة، فيقال له: ادخل الجنة. فيقول: أي رب وكيف؟ وقد نزل الناس منازلهم، وأخذوا أخذاتهم؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل مُلك مَلك من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت رب، فيقول: لك ذلك ومثله، ومثله، ومثله، ومثله. فقال في الخامسة: رضيت، رب. فيقول: لك هذا وعشرة أمثاله، ولك ما اشتهت نفسك، ولذت عينك. فيقول: رضيت رب.

قال: رب، فأعلاهم منزلة؟ قال: أولئك الذين أردتَ، غرست كرامتهم بيدي وختمت عليها، فلم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب

بشر» قال: ومصداقه في كتاب الله عز وجل: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]»[١].

المطلب الثالث

المنزلة العليا في الجنة

أعلى منزلة في الجنة ينالها شخص واحد تسمى الوسيلة، وسينالها -إن شاء الله- النبي المصطفى المختار خيرة الله من خلقه نبينا محمد ﷺ، قال ابن كثير في النهاية: «ذكر أعلى منزلة في الجنة، وهي الوسيلة، فيها مقام رسول الله ﷺ». وساق في ذلك حديث جابر بن عبد الله عند البخاري في صحيحه عن النبي ﷺ قال: «من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، حلت له الشفاعة يوم القيامة»[٢].

وساق حديث عبد الله بن عمرو بن العاص عند مسلم في صحيحه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليَّ فإن من صلّى عليَّ صلاةً صلى الله عليه عشراً، ثم سلوا الله تعالى لي الوسيلة، فإن من سأل الله لي الوسيلة حلت له الشفاعة»[٣].

---

(١) صحيح مسلم: ١٨٩.

(٢) صحيح البخاري: ٦١٤.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها: (١/ ١٧٦)، ورقمه: ١٨٩.

وقد سأل الصحابة الرسول ﷺ قائلين: «وما الوسيلة؟ قال: أعلى درجة في الجنة، لا ينالها إلا رجل واحد، وأرجو أن أكون هو» رواه أحمد عن أبي هريرة، وفي المسند عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «الوسيلة درجة عند الله، ليس فوقها درجة، فسلوا الله أن يؤتيني الوسيلة»[1].

المطلب الرابع

الذين ينزلون الدرجات العاليات

من الذين يحلون الدرجات العاليات في الجنة الشهداء، وأفضلهم الذين يقاتلون في الصفوف الأولى لا يلتفون حتى يقتلوا، ففي مسند أحمد ومعجم الطبراني عن نعيم بن همار[2] بإسناد صحيح عن النبي ﷺ قال: «أفضل الشهداء الذين يقاتلون في الصف الأول، فلا يلفتون وجوههم حتى يقتلوا، أولئك يتلبطون في الغرف العلى من الجنة، يضحك إليهم ربهم، فإذا ضحك ربك إلى عبد في موطن فلا حساب عليه»[3].

والساعي على الأرملة والمسكين له منزلة المجاهد في سبيل الله، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «الساعي على الأرملة والمسكين، كالمجاهد في سبيل الله -وأحسبه قال: وكالقائم لا يفتر، وكالصائم لا يفطر»[4].

---

(١) انظر هذه الأحاديث في (النهاية) لابن كثير: (٢/ ٢٣٣٢).

(٢) قال ابن حجر في (تقريب التهذيب): (نعيم بن همّار، بتشديد الميم، أو هبار، أو خمّار، بالمعجمة أو المهملة، الغطفاني، صحابي، ورجّح الأكثر أن اسم أبيه همار.

(٣) مسند أحمد: (٥/ ٢٨٧). صحيح الجامع الصغير: (١/ ٣٦٣)، ورقمه: ١١١٨.

(٤) صحيح مسلم، كتاب الزهد، باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم: (٢/ ٢٢٨٦)، =

ومنزلة كافل اليتيم قريبة من منزلة الرسول ﷺ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: «كافل اليتيم له أو لغيره، أنا وهو كهاتين في الجنة» وأشار مالك بالسبابة والوسطى[1].

ويرفع الله درجة الآباء ببركة دعاء الأبناء، ففي مسند أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة، فيقول: يا رب، أنَّى لي هذه؟ فيقول: باستغفار ولدك لك».

قال ابن كثير: وهذا إسناد صحيح، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة، ولكن له شاهد في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عنه عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[2].

= ورقم الحديث: ٢٩٨٢.

(١) المصدر السابق، وقوله: (له أو لغيره) أي سواء أكفله من ماله، أو من اليتيم بولاية شرعية.

(٢) النهاية لابن كثير: (٢/ ٣٤٠).

المبحث الرابع
تربة الجنة

ثبت في الصحيحين عن أنس بن مالك عن أبي ذر في حديث المعراج قال: قال رسول الله ﷺ: «أدخلت الجنة، فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك».

وفي صحيح مسلم ومسند أحمد عن أبي سعيد أن ابن صياد سأل الرسول ﷺ عن تربة الجنة، فقال: «هي درمكة[1] بيضاء مسك خالص» وفي مسند أحمد عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ في اليهود: «إني سائلهم عن تربة الجنة، وهي درمكة بيضاء، فسألهم، فقالوا: هي خبزة يا أبا القاسم، فقال رسول الله ﷺ: «الخبز من الدرمك»[2].

وروى أحمد والترمذي والدارمي عن أبي هريرة، قال: قلت: يا رسول الله، مم خلق الخلق؟ قال: «من ماء». قلنا: الجنة ما بناؤها؟ قال: «لبنة من ذهب، ولبنة من فضة، وملاطها المسك الأذفر، وحصباؤها الدر والياقوت، وتربتها الزعفران، من يدخلها ينعم، ولا يبأس، ويخلد ولا يموت، ولا يبلى ثيابهم، ولا يفنى شبابهم»[3].

---

(١) الدرمكة: واحدة الدرمك، وهو الدقيق الحواري الخالص البياض.

(٢) انظر هذه الأحاديث في النهاية لابن كثير: (٢/ ٢٤٢).

(٣) مشكاة المصابيح: (٣/ ٨٩)، ورقمه: ٥٦٣٠، وقال محقق المشكاة: وله طرق وشواهد، وأورده في سلسلة الأحاديث الصحيحة.

المبحث الخامس
أنهار الجنة

أخبرنا الله تبارك وتعالى بأن الجنة تجري من تحتها الأنهار، ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: ٢٥] وأحياناً يقول: تجري من تحتهم الأنهار: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الكهف: ٣١].

وقد حدثنا الرسول ﷺ عن أنهار الجنة حديثاً واضحاً بيناً، ففي إسرائه صلوات الله وسلامه عليه: «رأى أربعة أنهار يخرج من أصلها[١] نهران ظاهران ونهران باطنان، فقلت: يا جبريل، ما هذه الأنهار؟ قال: أما النهران الباطنان: فنهران في الجنة، وأما الظاهران: فالنيل والفرات»[٢].

وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «رفعت لي السدرة، فإذا أربعة أنهار: نهران ظاهران، ونهران باطنان، فأما الظاهران: فالنيل والفرات، وأما الباطنان: فنهران في الجنة»[٣].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «سيحان وجيحان والفرات والنيل كل من أنهار الجنة»[٤].

---

(١) الضمير عائد إلى سدرة المنتهى، كما دل على ذلك سياق بعض الأحاديث.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسراء (١/ ١٥٠)، ورقم الحديث: ١٦٤.

(٣) جامع الأصول: (١٠/ ٥٠٧)، وقال المحقق: رواه البخاري تعليقاً في الأشربة، قال الحافظ في الفتح: وصله أبو عوانة والإسماعيلي والطبراني في (الصغير) من طريقه.

(٤) صحيح مسلم، كتاب الجنة، باب ما في الدنيا من أنهار الجنة، (٤/ ٢١٨٣)، ورقم الحديث: =

«ولعل المراد من كون هذه الأنهار من الجنة أن أصلها منها كما أن أصل الإنسان من الجنة، فلا ينافي الحديث ما هو معلوم مشاهد من أن هذه الأنهار تنبع من منابعها المعروفة في الأرض، فإذا لم يكن هذا هو المعنى أو ما يشبهه، فالحديث من أمور الغيب التي يجب الإيمان بها، والتسليم للمخبر عنها»[1].

وقال القاري: «إنما جعل الأنهار الأربعة من أنهار الجنة، لما فيها من العذوبة والهضم، ولتضمنها البركة الإلهية، وتشرفها بورود الأنبياء إليها وشربهم منها»[2].

ومن أنهار الجنة الكوثر الذي أعطاه الله لرسوله ﷺ: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ [الكوثر: ١]، وقد رآه الرسول ﷺ وحدثنا عنه، ففي صحيح البخاري عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «بينما أنا أسير في الجنة، إذ أنا بنهر حافتاه قباب الدر المجوف، قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك، فإذا طيبه -أو طينه- مسك أذفر» شك هُدْبة[3].

وقد فسر ابن عباس الكوثر بالخير الكثير الذي أعطاه الله لرسوله ﷺ، فقال أبو بشر لسعيد بن جبير راوي هذا التفسير عن ابن عباس: إن أناساً

= ٢٨٣٩ وعزاه الشيخ ناصر في سلسلة الأحاديث الصحيحة: (١/ ٦) إلى مسلم وأحمد والآجري والخطيب.

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ١٨).

(٢) نقله عنه الشيخ ناصر في تعليقه على مشكاة المصابيح: (٣/ ٨٠).

(٣) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب في الحوض، فتح الباري: (١١/ ٤٦٤)، وهدبة أحد رواة الحديث.

يزعمون أنه نهر في الجنة، فقال سعيد: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه[1].

وقد جمع الحافظ ابن كثير الأحاديث التي أخبر الرسول ﷺ فيها عن الكوثر، فمن هذه الأحاديث ما رواه مسلم في صحيحه عن أنس، أن الرسول ﷺ حين أنزلت عليه ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١] قال: «أتدرون ما الكوثر؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: هو نهر وعدنيه الله عز وجل، عليه خير كثير».

وساق حديث أنس عند أحمد في مسنده عن الرسول ﷺ قال: «أعطيت الكوثر، فإذا نهر يجري على ظهر الأرض، حافتاه قباب اللؤلؤ، ليس مسقوفاً، فضربت بيدي إلى تربته، فإذا تربته مسك أذفر، وحصباؤه اللؤلؤ».

وفي رواية أخرى في المسند عن أنس يرفعه: «هو نهر أعطانيه الله في الجنة، ترابه مسك، ماؤه أبيض من اللبن، وأحلى من العسل، ترده طيور أعناقها مثل أعناق الجزور».

وقد ساق الحافظ ابن كثير روايات أخرى كثيرة في الموضوع فارجع إليه إن شئت المزيد[2].

وأنهار الجنة ليست ماء فحسب، بل منها الماء، ومنها اللبن، ومنها الخمر، ومنها العسل المصفى.

قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب في الحوض، فتح الباري: (١١/ ٤٦٣).

(٢) النهاية لابن كثير: (٢/ ٢٤٦).

وفي سنن الترمذي بإسناد صحيح عن حكيم بن معاوية (وهو جد بهز بن حكيم) أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة بحر العسل، وبحر الخمر، وبحر اللبن، وبحر الماء، ثم تنشق الأنهار بعد»[1].

فأنهار الجنة تنشق من تلك البحار التي ذكرها الرسول ﷺ، وأخبرنا الرسول ﷺ عن نهر يسمى بارق يكون على باب الجنة، ويكون الشهداء في البرزخ عند هذا النهر، ففي مسند أحمد، ومعجم الطبراني، ومستدرك الحاكم عن ابن عباس بإسناد حسن أن رسول الله ﷺ قال: «الشهداء على بارق نهر بباب الجنة، في قبة خضراء، يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشياً»[2].

---

(١) جامع الأصول: (١٠/ ٥٠٧)، وقال المحقق: رواه الترمذي في صفة أنهار الجنة، ورواه أيضاً الدارمي، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وهو كما قال.

(٢) صحيح الجامع الصغير: (٣/ ٢٣٥)، ورقمه: ٣٦٣٦.

المبحث السادس

عيون الجنة

في الجنة عيون كثيرة مختلفة الطعوم والمشارب ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [الحجر: ٤٥]، ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴾ [المرسلات: ٤١]، وقال في وصف الجنتين اللتين أعدهما لمن خاف ربه ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾ [الرحمن: ٥٠]. وقال في وصف الجنتين اللتين دونهما ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ [الرحمن: ٦٦].

وفي الجنة عينان يشرب المقربون ماءهما صرفاً غير مخلوط، ويشرب منهما الأبرار الشراب مخلوطاً ممزوجاً بغيره.

العين الأولى: عين الكافور قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ [الإنسان: ٥-٦]. فقد أخبر أن الأبرار يشربون -شرابهم ممزوجاً من عين الكافور، بينما عباد الله يشربونها خالصاً.

العين الثانية: عين التسنيم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ * تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ * وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [المطففين: ٢٢-٢٨].

ومن عيون الجنة عين تسمى السلسبيل، قال تعالى: ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا * عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴾ [الإنسان: ١٧-١٨]. ولعل هذه هي العين الأولى نفسها.

المبحث السابع
قصور الجنة وخيامها

يبني الله لأهل الجنة في الجنة مساكن طيبة حسنة كما قال تعالى: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ [التوبة: ٧٢]. وقد سمى الله في مواضع من كتابه هذه المساكن بالغرفات، قال تعالى: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧]، وقال في جزاء عباد الرحمن: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٧٥]، وقال تعالى واصفاً هذه الغرفات: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [الزمر: ٢٠].

قال ابن كثير: «أخبر عز وجل عن عباده السعداء أن لهم غرفاً في الجنة وهي القصور أي الشاهقة، ﴿مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ [الزمر: ٢٠]، طباق فوق طباق مبنيات محكمات مزخرفات عاليات.

وقد وصف لنا الرسول ﷺ هذه القصور، ففي الحديث الذي يرويه أحمد في مسنده وابن حبان في صحيحه عن أبي مالك الأشعري والترمذي عن عَلِيٍّ أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدها الله تعالى لمن أطعم الطعام، وألان الكلام، وتابع الصيام، وصلى بالليل والناس نيام»[1].

---

(١) صحيح الجامع الصغير: (٢/ ٢٢٠)، ورقمه: ٢١١٩.

وقد أخبرنا الحق تبارك وتعالى أن في الجنة خياماً، قال تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ [الرحمن: ٧٢].

وهذه الخيام خيام عجيبة، فهي من لؤلؤ، بل هي من لؤلؤة واحدة مجوفة، طولها في السماء ستون ميلاً، وفي بعض الروايات عرضها ستون ميلاً، ففي صحيح البخاري عن عبد الله بن قيس قال: قال رسول الله ﷺ: «الخيمة درة مجوفة طولها في السماء ثلاثون ميلاً، في كل زاوية منها للمؤمن أهل لا يراهم الآخرون»، قال أبو عبد الصمد والحارث عن أبي عمران: «ستون ميلاً»[١].

ورواه مسلم عن عبد الله بن قيس عن النبي ﷺ قال: «إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة، طولها ستون ميلاً، للمؤمن فيها أهلون، يطوف عليهم المؤمن، فلا يرى بعضهم بعضاً».

وفي رواية عند مسلم: «في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة عرضها ستون ميلاً في كل زاوية منها أهل، ما يرون الآخرين، يطوف عليهم المؤمن»[٢].

وقد أخبرنا الرسول ﷺ عن صفات قصور بعض أزواجه وبعض أصحابه، ففي صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة، قال: أتى جبريل النبي ﷺ فقال: «يا رسول الله هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام وطعام، فإذا أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب»[٣].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة الجنة، فتح الباري: (٦/٣١٨).

(٢) رواه مسلم كتاب الجنة، باب في صفة خيام الجنة: (٤/٢١٨٢) ورقمه: ٢٨٣٨.

(٣) مشكاة المصابيح: (٣/٢٦٦).

وفي صحيحي البخاري ومسلم عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «دخلت الجنة فإذا أنا بالرميصاء امرأة أبي طلحة وسمعت خشفة، فقلت: من هذا؟ فقال: هذا بلال، ورأيت قصراً بفنائه جارية، فقلت: لمن هذا؟ فقالوا: لعمر بن الخطاب، فأردت أن أدخله فأنظر إليه فذكرت غيرتك»، فقال عمر: بأبي أنت وأمي يا رسول الله: أعليك أغار؟»[1].

وقد أخبرنا الرسول ﷺ بالطريق الذي يحصل به المؤمن على مزيد من البيوت في الجنة، فالذي يبني لله مسجداً يبني الله له بيتاً في الجنة، ففي مسند أحمد عن ابن عباس بإسناد صحيح أن الرسول ﷺ قال: «من بنى لله مسجداً، ولو كمفحص قطاة لبيضها بنى الله له بيتاً في الجنة»[2].

وفي مسند أحمد وصحيحي البخاري ومسلم وسنن الترمذي وسنن ابن ماجة، عن عثمان أن رسول الله ﷺ قال: «من بنى مسجداً، يبتغي به وجه الله، بنى الله له مثله في الجنة»[3].

وفي صحيح مسلم ومسند أحمد وسنن أبي داود، وسنن النسائي وسنن ابن ماجة عن أم حبيبة أن رسول الله ﷺ قال: «من صلى في اليوم والليلة اثنتي عشرة ركعة تطوعاً، بنى الله له بيتاً في الجنة»[4].

---

(١) مشكاة المصابيح: (٣/٢٢٦).

(٢) صحيح الجامع الصغير: (٥/٢٦٥)، ورقم الحديث: ٦٠٠٥.

(٣) المصدر السابق، ورقمه: ٦٠٠٧.

(٤) صحيح الجامع: (٥/٣١٦)، ورقمه: ٦٢٣٤.

المَبحث الثامن
نور الجنة

قال القرطبي: «قال العلماء: ليس في الجنة ليل ونهار، وإنما هم في نور دائم أبداً، وإنما يعرفون مقدار الليل بإرخاء الحجب وإغلاق الأبواب، ويعرفون مقدار النهار برفع الحجب وفتح الأبواب، ذكره أبو الفرج بن الجوزي»[1].

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا * تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٢-٦٣]: «أي في مثل وقت البكرات ووقت العشيات، لا أن هناك ليلاً ونهاراً، ولكنهم في أوقات تتعاقب يعرفون مضيها بأضواء وأنوار»[2].

ويقول ابن تيمية في هذا الموضوع: «والجنة ليس فيها شمس ولا قمر، ولا ليل ولا نهار، لكن تُعرف البكرة والعشية بنور يظهر من قِبل العرش»[3].

---

(١) التذكرة للقرطبي: ص ٥٠٤.

(٢) تفسير ابن كثير: (٤/ ٤٧١).

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: (٤/ ٣١٢).

المبحث التاسع
ريح الجنة

للجنة رائحة عبقة زكية تملأ جنباتها، وهذه الرائحة يجدها المؤمنون من مسافات شاسعة، ففي مسند أحمد وسنن النسائي وسنن ابن ماجة ومستدرك الحاكم بإسناد صحيح أن الرسول ﷺ قال: «من قتل رجلاً من أهل الذمة لم يجد ريح الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين عاماً»[1].

وفي صحيح البخاري ومسند أحمد، وسنن النسائي، وسنن ابن ماجة عن عبد الله بن عمرو أن الرسول ﷺ قال: «من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً»[2].

---

(١) صحيح الجامع الصغير: (٥/ ٣٣٥)، ورقم الحديث: ٦٣٢٤.

(٢) صحيح الجامع: (٥/ ٣٣٧)، ورقم الحديث: ٦٣٣٣. وهو في صحيح البخاري برقم: ٣١٦٦.

المبحث العاشر
أشجار الجنة وثمارها

المطلب الأول

أشجارها وثمارها كثيرة متنوعة دائمة

أشجار الجنة كثيرة طيبة متنوعة، وقد أخبرنا الحق أن في الجنة أشجار العنب والنخل والرمان، كما فيها أشجار السدر والطلح، ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾ [النبأ: ٣١-٣٢]، ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن: ٦٨]، ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ * فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ * وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ * وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ * وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ [الواقعة: ٢٧-٣٢]، والسدر هو شجر النبق الشائك، ولكنه في الجنة مخضود شوكه، أي منزوع. والطلح: شجر من شجر الحجاز من نوع العضاه فيه شوك، ولكنه في الجنة منضود معد للتناول بلا كد ولا مشقة.

وهذا الذي ذكره القرآن من أشجار الجنان شيء قليل مما تحويه تلك الجنان، ولذا قال الحق: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢]، ولكثرتها فإن أهلها يَدْعون منها بما يريدون، ويتخيرون منها ما يشتهون ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ [ص: ٥١]، ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٢٠]، ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ * وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [المرسلات: ٤١-٤٢]، وبالجملة فإن في الجنة من أنواع الثمار والنعيم

كل ما تشتهيه النفوس وتلذه العيون ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ﴾ [الزخرف: ٧١].

وقد قال ابن كثير كلاماً لطيفاً دلل فيه على عظيم ثمار الجنة، إذ استنتج أن الله نبه بالقليل على الكثير، والهين على العظيم عندما ذكر السدر والطلح، قال: «وإذا كان السدر الذي في الدنيا لا يثمر إلا ثمرة ضعيفة وهو النبق، وشوكه كثير، والطلح الذي لا يراد منه في الدنيا إلا الظل، يكونان في الجنة في غاية من كثرة الثمار وحسنها، حتى إن الثمرة الواحدة منها تتفتق عن سبعين نوعاً من الطعوم، والألوان، التي يشبه بعضها بعضاً، فما ظنك بثمار الأشجار، التي تكون في الدنيا حسنة الثمار، كالتفاح، والنخل، والعنب، وغير ذلك؟ وما ظنك بأنواع الرياحين، والأزاهير؟ وبالجملة فإن فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، نسأل الله منها من فضله»[1].

وأشجار الجنة دائمة العطاء، فهي ليست كأشجار الدنيا تعطي في وقت دون وقت، وفصل دون فصل، بل هي دائمة الإثمار والظلال ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ﴾ [الرعد: ٣٥]، ﴿ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ [الواقعة: ٣٢-٣٣]، أي دائمة مستمرة، وهي مع دوامها لا يمنع عنها أهل الجنة. ومن لطائف ما يجده أهل الجنة عندما تأتيهم ثمارها أنهم يجدونها تتشابه في المظهر، ولكنها تختلف في المخبر، ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ﴾ [البقرة: ٢٥].

---

(١) النهاية لابن كثير: (٢/ ٢٦٢).

وأشجار الجنة ذات فروع وأغصان باسقة نامية ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٦-٤٨]، وهي شديدة الخضرة: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُدْهَامَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢-٦٤]، ولا توصف الجنة بأنها مدهامة إلا إذا كانت أشجارها مائلة إلى السواد من شدة خضرتها، واشتباك أشجارها.

أما ثمار تلك الأشجار فإنها قريبة دانية مذللة ينالها أهل الجنة بيسر وسهولة، ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [الرحمن: ٥٤]، ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان: ١٤].

أما ظلها فكما قال تعالى: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧]، ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠]، ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾ [المرسلات: ٤١].

المطلب الثاني

وصف بعض شجر الجنة

حدثنا الرسول ﷺ عن بعض شجر الجنة حديثاً عجباً ينبيك عن خلق بديع هائل يسبح الخيال في تقديره والتعرف عليه طويلاً، ونحن نسوق لك بعض ما حدثنا الرسول ﷺ به.

١- الشجرة التي يسير الراكب في ظلها مائة عام:

هذه شجرة هائلة لا يقدر قدرها إلا الذي خلقها، وقد بين الرسول ﷺ عظم هذه الشجرة بأن أخبر أن الراكب لفرس من الخيل التي تعد للسباق

يحتاج إلى مائة عام حتى يقطعها إذا سار بأقصى ما يمكنه، ففي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «إن في الجنة لشجرة[1] يسير الراكب الجواد المضمر السريع مائة عام وما يقطعها»[2].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة، واقرؤوا إن شئتم: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠]»[3].

ورواه مسلم عن أبي هريرة وسهل بن سعد عن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة لا يقطعها»[4].

٢- سدرة المنتهى:

وهذه الشجرة ذكرها الحق في محكم التنزيل، وأخبر الحق أن رسولنا محمداً ﷺ رأى جبريل على صورته التي خلقه الله عليها عندها، وأن هذه الشجرة عند جنة المأوى، كما أعلمنا أنه قد غشيها ما غشيها مما لا يعلمه إلا الله عندما رآها الرسول ﷺ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۞ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۞ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۞ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۞ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٣-١٧].

وقد أخبرنا الرسول ﷺ عن هذه الشجرة بشيء مما رآه، «ثم رفعت لي

---

(١) في صحيح مسلم: شجرة.

(٢) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب صفة الجنة، فتح الباري: (١١/ ٤١٦)، ورواه مسلم في كتاب الجنة باب إن في الجنة شجرة: (٢/ ٢١٧٦)، ورقم الحديث: ٢٨٢٨.

(٣) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة، فتح الباري: (٦/ ٣١٩).

(٤) رواه مسلم في كتاب الجنة، باب إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام (٢/ ٢١٧٥)، ورقم الحديث: ٢٨٢٦، ٢٨٢٧.

سدرة المنتهى، فإذا نبقها مثل قلال هجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة. قال: (أي جبريل) هذه سدرة المنتهى، وإذا أربعة أنهار، نهران باطنان، ونهران ظاهران، قلت: ما هذان يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات». رواه البخاري ومسلم[1].

وفي الصحيحين أيضاً: «ثم انطلق بي حتى انتهى إلى سدرة المنتهى، ونبقها مثل قلال هجر، وورقها مثل آذان الفيلة، تكاد الورقة تغطي هذه الأمة. فغشيها ألوان لا أدري ما هي، ثم أدخلت الجنة، فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك»[2].

٣- شجرة طوبى:

وهذه شجرة عظيمة كبيرة تصنع ثياب أهل الجنة، ففي مسند أحمد، وتفسير ابن جرير، وصحيح ابن حبان عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال: «طوبى شجرة في الجنة، مسيرة مائة عام، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها»[3].

وقد دل على أن ثياب أهل الجنة تشقق عنها ثمار الجنة -الحديث الذي يرويه أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمرو قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أخبرنا عن ثياب أهل الجنة خلقاً تخلق، أم نسجاً تنسج؟ فضحك بعض القوم، فقال رسول الله ﷺ: «ومم تضحكون، مِنْ

---

(١) صحيح الجامع الصغير: (٣/١٨)، ورقمه: ٢٨٦١، وعزاه إلى البخاري ومسلم وأحمد والترمذي.

(٢) صحيح الجامع الصغير: (٤/ ٨٢)، وعزاه إلى البخاري ومسلم. ورقمه: ٤٠٧٥.

(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٤/ ٦٣٩)، ورقم الحديث: ١٩٨٥، والحديث إسناده حسن.

جاهل سأل عالماً؟ ثم أكب رسول الله ﷺ، ثم قال: أين السائل؟ قال: هو ذا أنا يا رسول الله، قال: «لا، بل تشقق عنها ثمر الجنة، ثلاث مرات»[1].

المطلب الثالث

سيد ريحان الجنة

أخبرنا الله أن في الجنة ريحاناً ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۞ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٨-٨٩]، وأخبرنا الرسول ﷺ أن سيد ريحان أهل الجنة الحناء، ففي معجم الطبراني الكبير بإسناد صحيح على شرط الشيخين عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «سيد ريحان الجنة الحناء»[2].

المطلب الرابع

سيقان أشجار الجنة من ذهب

ومن عجيب ما أخبرنا به الرسول ﷺ أن سيقان أشجار الجنة من ذهب، ففي سنن الترمذي، وصحيح ابن حبان، وسنن البيهقي، بإسناد صحيح، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما في الجنة شجرة إلا وساقها من ذهب»[3].

---

(١) المصدر السابق: (٤/ ٦٤٠).

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٣/ ٤٠٧)، ورقمه: ١٤٢٠.

(٣) صحيح الجامع الصغير: (٥/ ١٥٠)، قال ابن كثير في النهاية: (٢/ ٢٥٤)، رواه الترمذي: وقال: حسن صحيح.

المطلب الخامس

كيف يكثر المؤمن حظه من أشجار الجنة؟

طلب خليل الرحمن أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام من نبينا محمد ﷺ في ليلة الإسراء أن يبلِّغ أمته السلام وأن يخبرهم بالطريقة التي يستطيعون بها تكثير حظهم من أشجار الجنة، فقد روى الترمذي بإسناد حسن عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لقيت إبراهيم ليلة أسري بي، فقال: يا محمد، أقرىء أمتك أن الجنة أرض طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»[1].

---

(١) صحيح الجامع الصغير: (٥/ ٣٤)، ورقم الحديث: ٥٠٢٨.

المبحث الحادي عشر

دواب الجنة وطيورها

في الجنة من الطيور والدواب مالا يعلمه إلا الله تعالى، قال تعالى فيما ينالـه أهـل الجنـة مـن النعيـم ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ * وَحُورٌ عِينٌ﴾ [الواقعة: ٢١-٢٢]، وفي سنن الترمذي عن أنس قال: سئل رسول الله ﷺ ما الكوثر؟ قال: «ذاك نهر أعطانيه الله -يعني في الجنة- أشدُّ بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، فيه طير أعناقها كأعناق الجزر[١]». قال عمر: إن هذه لَنَاعِمة، قال رسول الله ﷺ: «أَكَلَتُها أنعم منها»[٢].

وأخرج أبو نعيم في الحلية، والحاكم في مستدركه عن ابن مسعود قال: «جاء رجل بناقة مخطومة، فقال: يا رسول الله، هذه الناقة في سبيل الله. فقال: «لك بها سبعمائة ناقة مخطومة[٣] في الجنة». وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، ووافقهما الشيخ ناصر الدين الألباني[٤]. ورواه مسلم في صحيحه عن أبي مسعود الأنصاري، قال: جاء رجل بناقة مخطومة، فقال: هذه في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: «لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة»[٥].

---

(١) الجُزرُ: الجمال.

(٢) مشكاة المصابيح: (٢/ ٩١)، قال المحقق: رواه الترمذي وقال: حديث حسن غريب، قلت (الشيخ ناصر): سنده حسن.

(٣) مخطومة: فيها خطام وهو قريب من الزمام.

(٤) سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٢/ ٢٢٨)، ورقم الحديث: ٦٣٤.

(٥) صحيح مسلم: ١٨٩٢.

الفصل الرابع

أصحاب الجنة

المبحث الأول

الأعمال التي استحقوا بها الجنة

أصحاب الجنة هم المؤمنون الموحدون، فكل من أشرك بالله أو كفر به، أو كذَّب بأصل من أصول الإيمان فإنه يحرم من الجنان، ويكون في النيران.

والقرآن يذكر كثيراً أن أصحاب الجنة هم المؤمنون الذين يعملون الصالحات، وفي بعض الأحيان يُفصِّل الأعمال الصالحة التي يستحق بها صاحبها الجنة.

ومن المواضع التي نص القرآن على استحقاق أهل الجنة الجنة بالإيمان والأعمال الصالحة قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥]. وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ

ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأعراف: ٤٢]، وقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ * دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ٩-١٠].

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣١].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ * جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه: ٧٥-٧٦].
وفي بعض الأحيان يذكر أنهم استحقوا الجنة لتحقيقهم أمراً من أمور الإيمان أو عملاً صالحاً، وقد يُفصل في الأعمال الصالحة، ويُطيل في ذلك.

ففي بعض الأحيان يذكر أنهم استحقوا الجنة بالإيمان والإسلام ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ * ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ [الزخرف: ٦٨-٧٠].

وأحياناً يذكر أنهم استحقوها لأنهم أخلصوا دينهم لله: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ * أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ * فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ * فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الصافات: ٤٠-٤٣].

وأحياناً يذكر استحقاقهم لها لقوة ارتباطهم بالله ورغبتهم إليه وعبادتهم له ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ * تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٥-١٨].

ومن الأعمال الصبر والتوكل: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ * ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٨-٥٩].

ومنها الاستقامة على الإيمان: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣-١٤]، ومنها الإخبات إلى الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۖ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [هود: ٢٣]، ومن ذلك الخوف من الله: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٤٦]. ومن ذلك بغض الكفرة المشركين، وعدم موادتهم ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وفي بعض الأحيان تُفصِّل الآيات في ذكر الأعمال الصالحة التي يستحق بها أصحابها الجنة تفصيلاً كثيراً، فذكر في سورة الرعد أنهم استحقوها باعتقادهم أن ما أنزل على الرسول ﷺ هو الحق، وبوفائهم بالعهود، وعدم نقضهم الميثاق، ووصلهم ما أمر الله بوصله، وخشيتهم

لله، وخوفهم من سوء الحساب، وصبرهم لله، وإقام الصلاة، والإنفاق سراً وعلانية، ودرئهم بالحسنة السيئة ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ * ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ * وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ * وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ * جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد: ١٩-٢٤].

وفي مطلع سورة المؤمنين حكم أن الفلاح إنما هو للمؤمنين، ثم بين الأعمال التي تؤهلهم للفلاح، وأعلمنا أن فلاحهم إنما يكون بإدخالهم الفردوس خالدين فيها أبداً. ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ * ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ١-١١].

وقد حدثنا الرسول ﷺ عن ثلاثة أعمال عظيمة يستحق بها أصحابها الجنة، فقد روى مسلم في صحيحه عن عِياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: «... وأهل الجنة ثلاثة ذو سلطان مقسط متصدق موفق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال»[1].

(١) رواه مسلم، انظر شرح النووي على مسلم: (١٧/ ١٩٨).

المبحث الثاني
طريق الجنة شاق

الجنة درجة عالية، والصعود إلى العلياء يحتاج إلى جهد كبير، وطريق الجنة فيه مخالفة لأهواء النفوس ومحبوباتها، وهذا يحتاج إلى عزيمة ماضية، وإرادة قوية، ففي الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حجبت النار بالشهوات، وحجبت الجنة بالمكاره» ولمسلم حفت بدل حجبت[1].

وفي سنن النسائي والترمذي وأبي داود عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لما خلق الله الجنة قال لجبريل: اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها، فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها، فحفها بالمكاره، فقال: اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها، ثم جاء فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد»[2].

وقد علق النووي في «شرحه على مسلم» على الحديث الأول قائلاً: «هذا من بديع الكلام وفصيحه وجوامعه التي أوتيها ﷺ من التمثيل الحسن، ومعناه لا يوصل الجنة إلا بارتكاب المكاره، والنار بالشهوات، وكذلك هما محجوبتان بهما، فمن هتك الحجاب وصل إلى المحجوب،

---

(١) جامع الأصول: (١٠/ ٥٢١)، ورقمه: ٨٠٦٩.

(٢) جامع الأصول: (١٠/ ٥٢٠)، ورقمه: ٨٠٦٨، وقال الترمذي فيه: حديث حسن صحيح غريب.

فهتك حجاب الجنة باقتحام المكاره، وهتك حجاب النار بارتكاب الشهوات، فأمّا المكاره فيدخل فيها الاجتهاد في العبادة، والمواظبة عليها، والصبر على مشاقها، وكظم الغيظ، والعفو، والحلم، والصدقة، والإحسان إلى المسيء، والصبر عن الشهوات، ونحو ذلك»[1].

(١) شرح النووي على مسلم: (١٧/ ١٦٥).

المبحث الثالث
أهل الجنة يرثون نصيب أهل النار في الجنة

جعل الله لكل واحد من بني آدم منزلين: منزلاً في الجنة، ومنزلاً في النار، ثم إن من كتب له الشقاوة من أهل الكفر والشرك يرثون منازل أهل الجنة التي كانت لهم في النار، والذين كتب لهم السعادة من أهل الجنة يرثون منازل أهل النار التي كانت لهم في الجنة، قال تعالى في حق المؤمنين المفلحين بعد أن ذكر أعمالهم التي تدخلهم الجنة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ * ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠-١١].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: «قال ابن أبي حاتم -وساق الإسناد إلى أبي هريرة رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: ما منكم من أحد إلا وله منزلان: منزل في الجنة، ومنزل في النار، فأمّا المؤمن فيبني بيته الذي في الجنة، ويهدم بيته الذي في النار».

وروى عن سعيد بن جبير نحو ذلك، فالمؤمنون يرثون منازل الكفار، لأنهم خُلِقوا لعبادة الله وحده لا شريك له، فلما قام هؤلاء بما وجب عليهم من العبادة، وترك أولئك ما أمروا به مما خلقوا له، أحرز هؤلاء نصيب أولئك لو كانوا أطاعوا ربهم عز وجل، بل أبلغ من هذا أيضاً، وهو ما ثبت في صحيح مسلم عن أبي بردة عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «يجيء ناس يوم القيامة من المسلمين بذنوب أمثال الجبال، فيغفرها الله لهم، ويضعها على اليهود والنصارى» وفي لفظ له: قال رسول الله ﷺ:

« إذا كان يوم القيامة دفع الله لكل مسلم يهودياً أو نصرانياً، فيقال: هذا فِكاكُك من النار ». . وهذا الحديث كقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣]، وقوله: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٢]. فهم يرثون نصيب الكفار في الجنان[1].

(١) تفسير ابن كثير: (٥/ ١٠).

المبحث الرابع
الضعفاء أكثر أهل الجنة

أكثر من يدخل الجنة الضعفاء الذين لا يأبه الناس لهم، ولكنهم عند الله عظماء، لإخباتهم لربهم، وتذللهم له، وقيامهم بحق العبودية لله، روى البخاري ومسلم عن حارثة بن وهب قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأهل الجنة؟ قالوا: بلى، قال: كل ضعيف متضعف، لو أقسم على الله لأبره»[1].

قال النووي في شرحه للحديث: «ومعناه يستضعفه الناس، ويحتقرونه، ويتجبرون عليه، لضعف حاله في الدنيا، والمراد أن أغلب أهل الجنة هؤلاء.. وليس المراد الاستيعاب»[2].

وفي الصحيحين ومسند أحمد عن أسامة بن زيد، قال: قال رسول الله ﷺ: «قمت على باب الجنة، فكان عامة من دخلها المساكين، وأصحاب الجدّ محبوسون غير أن أصحاب النار قد أمر بهم إلى النار، وقمت على باب النار فإذا عامة من دخلها النساء»[3].

وفي الصحيحين عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «اطلعت في الجنة، فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء»[4].

---

(١) جامع الأصول: (١٠/ ٥٣٥).
(٢) النووي على مسلم: (١٧/ ١٨٧).
(٣) مشكاة المصابيح: (٢/ ٦٦٣)، ورقمه: ٥٢٣٣.
(٤) مشكاة المصابيح: (٢/ ٦٦٣)، ورقمه: ٥٢٣٤.

المبحث الخامس
هل الرجال أكثر في الجنة أم النساء؟

تخاصم الرجال والنساء في هذا والصحابة أحياء، ففي صحيح مسلم عن ابن سيرين قال: اختصم الرجال والنساء: أيهم أكثر في الجنة؟ وفي رواية: إمّا تفاخروا، وإمّا تذاكروا: الرجال في الجنة أكثر أم النساء؟ فسألوا أبا هريرة، فاحتج أبو هريرة على أنَّ النساء في الجنَّة أكثر بقول الرسول ﷺ: «إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والتي تليها على أضوأ كوكب درّي في السماء، لكل امرىء منهم زوجتان اثنتان، يرى مخ سوقهما من وراء اللحم، وما في الجنة أعزب»[1].

والحديث واضح الدلالة على أن النساء في الجنة أكثر من الرجال، وقد احتج بعضهم على أن الرجال أكثر بحديث: «رأيتكن أكثر أهل النار». والجواب أنه لا يلزم من كونهنّ أكثر أهل النار أن يكنَّ أقل ساكني الجنة كما يقول ابن حجر العسقلاني[2]، فيكون الجمع بين الحديثين أن النساء أكثر أهل النار وأكثر أهل الجنة، وبذلك يكنَّ أكثر من الرجال وجوداً في الخلق. ويمكن أن يقال: إن حديث أبي هريرة يدل على أن نوع النساء في الجنة أكثر سواءً كنَّ من نساء الدنيا أو من الحور العين، والسؤال هو: أيهما أكثر في الجنة: رجال أهل الدنيا أم نساؤها؟ وقد وفَّق القرطبي بين

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الجنة، باب أول زمرة تدخل الجنة (٤/ ٢١٧٩)، ورقم الحديث: ٢٨٣٤.

(٢) فتح الباري: (٦/ ٣٢٥).

النصين بأن النساء يكن أكثر أهل النار قبل الشفاعة وخروج عصاة الموحدين من النار، فإذا خرجوا منها بشفاعة الشافعين ورحمة أرحم الراحمين كُنَّ أكثر أهل الجنة[1].

ويدل على قلة النساء في الجنة ما رواه أحمد وأبو يعلى عن عمرو بن العاص قال: «بينما نحن مع رسول الله ﷺ في هذا الشِّعب إذ قال: انظروا هل ترون شيئاً؟ فقلنا: نرى غرباناً فيها غراب أعصم، أحمر المنقار والرجلين، فقال رسول الله ﷺ: لا يدخل الجنة من النساء إلا من كان منهن مثل هذا الغراب في الغربان»[2].

---

(١) راجع التذكرة للقرطبي: ص ٤٧٥.

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٤/٤٦٦)، ورقمه: ١٨٥١، وصحح الشيخ ناصر إسناده.

المبحث السادس
الذين توفوا قبل التكليف

المطلب الأول

أطفال المؤمنين

أطفال المؤمنين الذين لم يبلغوا الحلم هم في الجنة إن شاء الله تعالى بفضل الله ورحمته. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

واستدلَّ علي بن أبي طالب بقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]. على أن أطفال المؤمنين في الجنة، لأنهم لم يكتسبوا فيرتهنوا بكسبهم[(١)].

وقد عقد البخاري في صحيحه باباً عَنْوَن له بقوله: «باب فضل من مات له ولد فاحتسب». وساق فيه حديث أنس رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «ما من الناس مسلم يتوفى له ثلاث لم يبلغوا الحنث إلا أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم». وحديث أبي سعيد رضي الله عنه أن النساء قلن للنبي ﷺ: اجعل لنا يوماً، فوعظهنَّ، وقال: أيما امرأة مات لها ثلاثة من الولد كانوا لها حجاباً من النار. قالت امرأة: واثنان؟ قال: واثنان»[(٢)].

---

(١) التذكرة للقرطبي ص: ٥١١، وعزاه إلى أبي عمر في التمهيد والاستذكار وأبي عبد الله الترمذي في نوادر الأصول.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب فضل من مات له ولد فاحتسب، فتح الباري: (٣/ ١١٨).

وعقد باباً آخر عنوانه: «باب ما قيل في أولاد المشركين» وساق فيه حديث أنس السابق، وحديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: «من مات له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث كانوا له حجاباً من النار أو دخل الجنة». وحديث البراء رضي الله عنه قال: «لما توفى إبراهيم عليه السلام قال رسول الله ﷺ: «إن له مرضعاً في الجنة»[1].

ووجه الدلالة في الأحاديث التي ساقها البخاري على أن أطفال المؤمنين في الجنة -كما يقول- ابن حجر -: «إن من يكون سبباً في حجب النار عن أبويه أولى بأن يحجب هو. لأنه أصل الرحمة وسببها»[2].

وقد جاءت نصوص صريحة في إدخال ذرية المؤمنين الجنة، فمن ذلك حديث علي مرفوعاً عند عبد الله بن أحمد في زيادات المسند: «إن المسلمين وأولادهم في الجنة»[3].

وحديث أبي هريرة عند أحمد في مسنده مرفوعاً: «ما من مسلمين يموت لهما ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث إلا أدخلهما الله وإياهم بفضل رحمته الجنة»[4].

وروى مسلم في صحيحه، وأحمد في مسنده عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «صغارهم دعاميص[5] الجنة، يتلقى أحدهم أباه أو قال:

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المسلمين، فتح الباري: (٣/ ٢٤٤) وحديث أبي هريرة رواه معلقاً.

(٢) فتح الباري: (٣/ ٢٤٤).

(٣) فتح الباري: (٣/ ٢٤٥).

(٤) فتح الباري: (٣/ ٢٤٥).

(٥) يراد بالدعموص هنا: الآذن على الملوك المتصرف بين أيديهم.

أبويه، فيأخذ بثوبه، أو قال بيده، كما آخذ أنا بصنفه ثوبك هذا، فلا يتناهى، أو قال: فلا ينتهي حتى يدخله الله وإياه الجنة »[1].

وروى الإمام أحمد، وابن حبان، والحاكم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: « ذراري المسلمين في الجنة يكفُلهم إبراهيم ﷺ »[2].

وروى أبو نعيم في أخبار أصبهان، والديلمي، وابن عساكر عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: « أطفال المؤمنين في الجنة يكفلهم إبراهيم وسارة، حتى يدفعوهم إلى آبائهم يوم القيامة»[3].

وقد نقل النووي إجماع من يعتد به من علماء المسلمين على أن من مات من أطفال المسلمين في الجنة، ونَقَلَ عنه أنه توقف بعضهم في ذلك[4].

وحكى القرطبي التوقف عن حماد بن زيد، وحماد بن سلمة، وإسحاق ابن راهويه[5].

قال النووي: « توقف فيه بعضهم لحديث عائشة، يعني الذي أخرجه مسلم بلفظ: « توفي صبيٌّ من الأنصار، فقلت: طوبى له لم يعمل سوءاً ولم يدركه، فقال النبي ﷺ: «أو غير ذلك يا عائشة، إن الله خلق للجنة أهلاً . . ».

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة: (١/ ١٧٤)، ورقم الحديث: ٤٣٢.

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٢/ ١٥٦)، ورقم الحديث: ٦٠٣، وذكر المحقق أن الحاكم صحح إسناده ووافقه الذهبي، إلا أن الشيخ ناصر قال: هو حسن فقط.

(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٣/ ٤٥١)، ورقمه: ١٤٦٧.

(٤) فتح الباري: (٣/ ٢٤٤).

(٥) التذكرة للقرطبي: (ص ٥١١).

قال: والجواب عنه أنه لعله نهاها عن المسارعة إلى القطع من غير دليل، أو قال ذلك قبل أن يعلم أن أطفال المسلمين في الجنة»[1].

أقول: لعل الصواب أن الحديث يشير إلى أنه لا يجوز أن نجزم لواحد بعينه أنه من أهل الجنة، وإن كنا نشهد لهم مطلقاً بالجنة. والأمر الثاني هو عدم الهجوم على ذلك كي لا يتجرأ الناس على مثل هذا كما هو حاصل في زماننا، إذ يزعم نعاة الموتى أن ميتهم في الجنة، وإن كان أفسق الناس.

يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى: «لا يشهد لكل مُعيَّن من أطفال المؤمنين بأنه في الجنة، وإن شهد لهم مطلقاً»[2].

المطلب الثاني

أطفال المشركين

بَوّب البخاري في صحيحه باباً بعنوان «باب ما قيل في أولاد المشركين» وأورد فيه حديثَ ابن عباس رضي الله عنهما قال: «سئل رسول الله ﷺ عن أولاد المشركين، فقال: الله إذ خلقهم أعلم بما كانوا عاملين».

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «سئل النبي ﷺ عن ذراري المشركين، فقال: الله أعلم بما كانوا عاملين».

---

(١) فتح الباري: (٣/ ٢٤٤).

(٢) مجموعة فتاوى شيخ الإسلام: (٤/ ٢٨١).

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كمثل البهيمة تنتج البهيمة، هل ترى فيها جدعاء»[1].

والبخاري رحمه الله تعالى -كما يقول ابن حجر- أشعر بهذه الترجمة أنه كان متوقفاً في أولاد المشركين، وقد جزم بعد هذا في تفسير سورة الروم من صحيحه بما يدل على اختيار القول الصائر إلى أنهم في الجنة، وقد رتب أيضاً أحاديث هذا الباب ترتيباً يشير إلى المذهب المختار، فإنه صدّره بالحديث الدال على التوقف، ثم ثنّى بالحديث المرجح لكونهم في الجنة، ثم ثلّث بالحديث المصرِّح بذلك في قوله في سياقه: «وأما الصبيان حوله فأولاد الناس» قد أخرجه البخاري في التعبير بلفظ: «وأما الوالدان الذين حوله فكل مولود يولد على الفطرة، فقال بعض المسلمين: وأولاد المشركين؟ فقال: وأولاد المشركين»[2].

قال ابن حجر: ويؤيده ما رواه أبو يعلى من حديث أنس مرفوعاً «سألت ربي اللاهين من ذرية البشر أن لا يعذبهم فأعطانيهم» إسناده حسن، وَوَرَدَ تفسير «اللاهين» بأنهم الأطفال من حديث ابن عباس مرفوعاً أخرجه البزار. وأخرج أحمد من طريق خنساء بنت معاوية بن صريم عن عمتها قالت: «قلت: يا رسول الله، مَنْ في الجنة؟ قال: النبي في الجنة، والشهيد في الجنة، والمولود في الجنة». وإسناده حسن[3].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، فتح الباري: (٣/ ٢٤٦).
(٢) فتح الباري: (٣/ ٢٤٦).
(٣) فتح الباري: (٣/ ٢٤٦).

واحتجوا أيضاً بقوله ﷺ: «أطفال المشركين خدم أهل الجنة» رواه ابن منده في المعرفة، وأبو نعيم في الحلية، وأبو يعلى في مسنده، وحكم عليه الشيخ ناصر الدين الألباني بالصحة بمجموع طرقه[1].

والقول بأنهم في الجنة هو قول جمع من أهل العلم، وهو اختيار أبي الفرج بن الجوزي[2]، وقال النووي في هذا المذهب: «وهو المذهب الصحيح المختار الذي صار إليه المحققون لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥]، واحتج بالأدلة التي ساقها البخاري وغيره»[3].

أقول: وهذا القول هو الذي رجحه القرطبي أيضاً، وقد وفق القرطبي بين النصوص التي يظهر منها التعارض في هذا الموضوع بأن الرسول ﷺ قال في أول الأمر هم مع آبائهم أي في النار، ثم حصل منه توقف في ذلك، فقال: الله أعلم بما كانوا عاملين، ثم أوحى إليه أنه لا يعذب أحد بذنب غيره ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء:١٥]، فحكم بأنهم في الجنة[4]، وذكر في ذلك حديثاً رواه عبد الرزاق، ولكن الحديث ضعيف كما قال ابن حجر العسقلاني[5].

ويشكل على هذا التوفيق الذي ذكره ابن حجر أن المسألة ليست من مسائل النظر والاجتهاد، ولكنها مسألة غيبية لا يتكلم فيها إلا بوحي، والله أعلم.

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٣/ ٤٥٢)، ورقمه: ١٤٦٨.
(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: (٢٤/ ٣٧٢)، (٤/ ٣٠٣).
(٣) فتح الباري: (٣/ ٢٤٧).
(٤) التذكرة للقرطبي: ص ٥١٥.
(٥) فتح الباري: (٣/ ٢٤٧).

وقد يشكل على القول بأن أولاد المؤمنين والمشركين في الجنة ما ورد من نصوص دالة على أن الله علم أهل الجنة والنار أزلاً، وأن الملك عندما يزور الرحم يكتب رزق الجنين وأجله وشقاءه وسعادته، وقد يقال في الجواب: إن من مات صغيراً قبل الاكتساب فإنه يكون مكتوباً من السعداء وهو في بطن أمه، والله أعلم بالصواب.

وقد ذهب جمع من أهل العلم إلى أنهم في مشيئة الله تعالى، وهذا منقول عن حماد بن زيد، وحماد بن سلمة، وابن المبارك، وإسحاق، ونقله البيهقي في «الاعتقاد» عن الشافعي في حق أولاد الكفار خاصة، قال ابن عبد البر: وهو مقتضى صنيع مالك، وليس عنده في هذا شيء منصوص، إلا أن أصحابه صرحوا بأن أطفال المسلمين في الجنة وأطفال الكفار خاصة في المشيئة، والحجة فيه حديث: «الله أعلم بما كانوا عاملين»[1].

وهذا القول حكاه أبو الحسن الأشعري عن أهل السنة والجماعة[2]، وهو اختيار شيخ الإسلام، فقد اختار أن أطفال المشركين في مشيئة الله، وأنهم يمتحنون في يوم القيامة، وعزا القول بذلك إلى أبي الحسن الأشعري والإمام أحمد، قال شيخ الإسلام: «والصواب أن يقال فيهم: الله أعلم بما كانوا عاملين، ولا يحكم لمعين منهم بجنة ولا نار، وقد جاء في عدة أحاديث أنهم يوم القيامة يمتحنون في عرصات القيامة يؤمرون وينهون، فمن أطاع دخل الجنة، ومن عصى دخل النار، وهذا هو الذي

(١) فتح الباري: (٣/ ٢٤٦).

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: (٤/ ٢٨١-٤٠٤)، (٢٤/ ٣٧٢).

ذكره أبو الحسن الأشعري عن أهل السنة والجماعة[1].

وقال في موضع آخر: «أطفال المشركين الذين لم يُكلّفوا في الدنيا يكلفون في الآخرة، كما وردت بذلك أحاديث متعددة، وهو القول الذي حكاه أبو الحسن الأشعري في أطفال المشركين، كما ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه سئل عنهم فقال: «الله أعلم بما كانوا عاملين»[2].

وقد ذكر ابن حجر أنهم يمتحنون في الآخرة بأن ترفع لهم نار، فمن دخلها كانت عليه برداً وسلاماً، ومن أبى عُذِّب، أخرجه البزار من حديث أنس وأبي سعيد، وأخرجه الطبراني من حديث معاذ بن جبل، وقد صحت مسألة الامتحان في حق المجنون، ومن في الفترة من طرق صحيحة، وحكى البيهقي في «كتاب الاعتقاد» أنه المذهب الصحيح[3].

ويدل لصحة هذا القول ما ورد في محكم القرآن في قصة العبد الصالح الذي رَحَلَ نبيُّ الله موسى إلى لقائه في مجمع البحرين، فإنه قال مبيناً السر في قتله الغلام: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ [الكهف: ٨٠]، وفي صحيح مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ في الغلام الذي قتله الخضر: «طُبع يوم طُبع كافراً، ولو ترك لأرهق أبويه طغياناً وكفراً» قال ابن تيمية مُعقباً على الحديث: «يعني طبعه الله في أم الكتاب، أي أثبته وكتبه كافراً، أي أنه إن عاش كفر بالفعل».

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: (٢٤/ ٣٧٢)، (٤/ ٣٠٣).

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: (٤/ ٢٨١).

(٣) فتح الباري: (٣/ ٢٤٦).

وقد ضعَّف القرطبي هذا المذهب محتجاً بأن الآخرة دار جزاء لا ابتلاء، ففي «التذكرة» قال المؤلف (يعني نفسه): «ويضعفه (القول بامتحانهم في عرصات القيامة) من جهة المعنى أن الآخرة ليست بدار تكليف، وإنما هي دار جزاء: ثواب وعقاب، وقال الحليمي: وهذا الحديث ليس بثابت، وهو مخالف لأصول المسلمين، لأن الآخرة ليست بدار امتحان، فإن المعرفة بالله تعالى فيها تكون ضرورة، ولا محنة مع الضرورة»[1].

وهذا الذي اعترض به من أن التكليف ينقطع بالموت غير صحيح، وقد رد على هذا شيخ الإسلام ابن تيمية، قال: «التكليف إنما ينقطع بدخول دار الجزاء وهي الجنة والنار، وأما عرصات القيامة فيمتحنون فيها كما يمتحنون في البرزخ، فيقال لأحدهم: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم: ٤٢]، وقد ثبت في الصحيح من غير وجه عن النبي ﷺ أنه قال: «يتجلى الله لعباده في الموقف، إذا قيل ليتبع كل قوم ما كانوا يعبدون، فيتبع المشركون آلهتهم، ويبقى المؤمنون، فيتجلى لهم الرب الحق في غير الصورة التي كانوا يعرفون، فينكرونه، ثم يتجلى لهم في الصورة التي يعرفون، فيسجد له المؤمنون، وتبقى ظهور المنافقين كقرون البقر، فيريدون أن يسجدوا فلا يستطيعون، وذلك لقوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ [القلم: ٤٢]»[2].

---

(١) التذكرة: ص ٥١٤.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: (٢٤/ ٣٧٢)، وانظر: (١٧/ ٣٠٩).

فالمحنة لا تتوقف إلا بدخول الجنة والنار، وما ذكره القرطبي من أن المعرفة بالله في ذلك اليوم ضرورية صحيح، إلا أن المحنة تكون بالأمر والنهي كما ورد في بعض النصوص أن الله يكلفهم في ذلك اليوم بالدخول في النار، فالذي يطيع يكون من أهل السعادة، والذي يعصي يكون من أهل الشقاء.

المبحث السابع
مقدار ما يدخل الجنة من هذه الأمة

يدخل من هذه الأمة الجنة جموع كثيرة الله أعلم بعددهم، ففي صحيح البخاري عن سعيد بن جبير قال: حدثني ابن عباس، قال: قال النبي ﷺ: «عرضت عليَّ الأمم، فأخذ النبيُّ يمرُّ معه الأمّة، والنبيُّ يمرُّ معه النفر، والنبيُّ يمرُّ معه العشرة، والنبي يمرُّ معه الخمسة، والنبيُّ يمرُّ وحده، فنظرت فإذا سواد كثير، قلت: يا جبريل هؤلاء أمتي؟ قال: لا، ولكن انظر إلى الأفق، فنظرت فإذا سواد كثير، قال: هؤلاء أمتك، وهؤلاء سبعون ألفاً قدامهم لا حساب عليهم ولا عذاب»[1].

والسواد الأول الذي ظنه الرسول ﷺ أمته هم بنو إسرائيل، كما في بعض الروايات في الصحيح «فرجوت أن تكون أمتي فقيل: هذا موسى وقومه»[2].

ولا شك أن أمة محمد ﷺ أكثر من بني إسرائيل، ففي الحديث: «فإذا سواد كثير» قال ابن حجر «في رواية سعيد بن منصور «عظيم» وزاد «فقيل لي: انظر إلى الأفق، فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي: انظر إلى الأفق الآخر مثله»، وفي رواية ابن فضيل: «فإذا سواد قد ملأ الأفق، فقيل لي: انظر هاهنا، وهاهنا في آفاق السماء» وفي حديث ابن مسعود: «فإذا الأفق

---

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفاً، فتح الباري: (١١/٤٠٦).

(٢) فتح الباري: (١١/٤٠٧).

قد سُدَّ بوجوه الرجال»، وفي لفظ لأحمد: «فرأيت أمتي قد ملؤوا السهل والجبل، فأعجبني كثرتهم وهيئتهم»، فقيل: أرضيت يا محمد؟ قلت: نعم يا رب»[1].

وقد ورد في بعض الأحاديث أن مع كل ألف من السبعين ألفاً سبعين ألفاً، وثلاث حثيات من حثيات الله، ففي مسند أحمد، وسنن الترمذي وابن ماجة عن أبي أمامة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفاً لا حساب عليهم، ولا عذاب، مع كل ألف سبعون ألفاً، وثلاث حثيات من حثيات ربي»[2]، ولا شك أن الثلاث حثيات تدخل الجنة خلقاً كثيراً.

وقد كان رسولنا ﷺ يرجو أن تكون هذه الأمة نصف أهل الجنة، ففي الحديث المتفق عليه عن أبي سعيد الخدري عن الرسول ﷺ في ذكر بعث النار، قال صلوات الله وسلامه عليه في آخره: «والذي نفسي بيده إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة» فكبرنا. فقال: «أرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة»، فكبرنا. فقال: «أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة» فكبرنا. قال: «ما أنتم في الناس إلا كالشعرة السوداء في جلد ثور أبيض، أو كشعرة بيضاء في جلد ثور أسود»[3].

بل ورد في بعض الأحاديث أن هذه الأمة تبلغ ثلثي أهل الجنة، ففي سنن الترمذي بإسناد حسن، وسنن الدارمي، و «البعث والنشور» للبيهقي عن بريدة، قال: قال رسول الله ﷺ: «أهل الجنة عشرون ومائة صف،

---

(١) فتح الباري: (١١/٤٠٨).

(٢) مشكاة المصابيح: (٣/٦٤)، ورقمه: ٥٥٥٦، وقد حسنه الترمذي وصحح الشيخ ناصر إسناده.

(٣) مشكاة المصابيح: (٣/٥٨)، ورقم الحديث: ٥٥٤١.

ثمانون منها من هذه الأمة، وأربعون من سائر الأمم»[1].

وفي صحيح مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول شفيع في الجنة لم يصدّق نبي من الأنبياء ما صدقت، وإن من الأنبياء نبيّاً ما صدقه من أمته إلا رجل واحد»[2].

والسر في كثرة من آمن من هذه الأمة أن معجزة الرسول ﷺ الكبرى كانت وحياً متلواً يخاطب العقول والقلوب، وهي معجزة باقية محفوظة إلى قيام الساعة، ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من الأنبياء من نبيّ إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحى الله إليَّ، وأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»[3].

---

(١) مشكاة المصابيح: (٣/ ٩٢)، ورقم الحديث: ٥٦٤٤.

(٢) مشكاة المصابيح: (٣/ ١٢٤)، ورقم الحديث: ٥٧٤٤.

(٣) مشكاة المصابيح: (٣/ ١٢٤)، ورقم الحديث: ٥٧٤٦.

المبحث الثامن
سادة أهل الجنة

المطلب الأول

سيدا كهول أهل الجنة

روى جمع من الصحابة منهم علي بن أبي طالب، وأنس بن مالك، وأبو جحيفة، وجابر بن عبد الله، وأبو سعيد الخدري أن الرسول ﷺ قال: «أبو بكر وعمر سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين».

وقد ذكر الشيخ ناصر الدين الألباني طرقه في كتب السنة، وقال في خاتمة تخريجه للحديث: «وجملة القول أن الحديث بمجموع طرقه صحيح بلا ريب، لأن بعض طرقه حسن لذاته، وبعضه يُستشهد به..»[1].

المطلب الثاني

سيدا شباب أهل الجنة

أخبرنا الرسول ﷺ أن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، ثبت ذلك من طرق كثيرة تبلغ درجة التواتر، وقد جمع الشيخ ناصر الدين الألباني

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة: (١٢/ ٤٨٧)، ورقمه: ٨٢٤.

طرق الحديث في كتابه القيم: «سلسلة الأحاديث الصحيحة».

فقد رواه الترمذي والحاكم والطبراني وأحمد وغيرهم عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة».

ورواه الترمذي وابن حبان وأحمد والطبراني وغيرهم عن حذيفة رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ، فصليت معه المغرب، ثم قام يصلي حتى العشاء، ثم خرج، فاتبعته، فقال: «عرض لي ملك استأذن ربه أن يسلم عليَّ ويبشرني في أن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة».

وأخرجه الحاكم وابن عساكر عن عبد الله بن عمر أن الرسول ﷺ قال: «ابناي هذان سيدا شباب أهل الجنة»[1].

المطلب الثالث

سيدات نساء أهل الجنة

السيد الحق هو الذي يُثني عليه ربه ويشهد له، والسيدة الفاضلة هي التي يرضى عنها ربها، ويتقبلها بقبول حسن، وأفضل النساء هن اللواتي يَحُزن جنات النعيم، ونساء أهل الجنة يتفاضلن، وسيدات نساء أهل الجنة: خديجة، وفاطمة، ومريم وآسية، ففي مسند أحمد، ومشكل الآثار للطحاوي، ومستدرك الحاكم، بإسناد صحيح عن ابن عباس قال: خط

(١) وإن أحببت أن تقف على رواته، ومخرجيه من كتب السنة، فارجع إلى سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٢/٤٣٨)، ورقم الحديث: ٧٩٧.

رسول الله ﷺ في الأرض أربعة أخطط، ثم قال: «تدرون ما هذا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم ابنة عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون»[1].

ومريم وخديجة أفضل الأربع، ففي صحيح البخاري عن علي بن أبي طالب عن النبي ﷺ قال: «خير نسائها مريم، وخير نسائها خديجة»[2].

ومريم هي سيدة النساء الأولى وأفضل النساء على الإطلاق، فقد روى الطبراني بإسناد صحيح على شرط مسلم عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ «سيدات نساء أهل الجنة بعد مريم ابنة عمران: فاطمة، وخديجة، وآسية امرأة فرعون»[3]. وكونها أفضل النساء على الإطلاق صرح به القرآن: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢]، وكيف لا تكون كذلك وقد صرح الحق بأنه تقبلها ﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧].

وهؤلاء الأربع نماذج رائعة للنساء الكاملات الصالحات، فمريم ابنة عمران أثنى عليها ربها في قوله: ﴿أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢].

وخديجة الصديقة التي آمنت بالرسول ﷺ من غير تردد، وثبتته، واسته بنفسها ومالها، وقد بشرها ربها في حياتها بقصر في الجنة من قصب لا

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٤/ ١٣)، ورقمه: ١٥٠٨.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها، فتح الباري: (٧/ ١٣٣).

(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٣/ ٤١٠)، ورقمه: ١٤٢٤.

صخب فيه ولا نصب، فقد روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «أتى جبريل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب»[1].

وآسية امرأة فرعون هان عليها ملك الدنيا ونعيمها، فكفرت بفرعون وألوهيته، فعذبها زوجها فصبرت حتى خرجت روحها إلى بارئها ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [التحريم: ١١].

وفاطمة الزهراء ابنة الرسول ﷺ الصابرة المحتسبة التقية الورعة فرع الشجرة الطاهرة، وتربية معلم البشرية.

---

(١) رواه البخاري في كتاب المناقب، باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها، فتح الباري: (٧/ ١٣٣) والحديث مروى في هذا الباب من طرق أخرى عن عائشة وعبد الله بن أبي أوفى.

المبحث التاسع
العشرة المبشرون بالجنة

نصَّ الرسول ﷺ نصّاً صريحاً على أن عشرة من أصحابه من أهل الجنة، ففي مسند أحمد عن سعيد بن زيد، وسنن الترمذي عن عبد الرحمن بن عوف عن النبي ﷺ قال: «أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وسعد بن أبي وقاص في الجنة، وسعيد بن زيد في الجنة، وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة». وإسناده صحيح[1].

وروى الحديث الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجة والضياء في المختارة عن سعيد بن زيد بلفظ فيه شيء من الاختلاف عن سابقه، ولفظه: «عشرة في الجنة: النبي في الجنة، وأبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير بن العوام في الجنة، وسعد بن مالك في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وسعيد بن زيد في الجنة» وإسناده صحيح[2].

وتذكر لنا كتب السنة أن الرسول ﷺ كان يوماً جالساً على بئر أريس وأبو موسى الأشعري بواب له، فجاء أبو بكر الصديق فاستأذن، فقال له

---

(١) صحيح الجامع الصغير: (١/ ٧٠)، ورقمه: ٥٠.

(٢) صحيح الجامع الصغير: (٤/ ٣٤)، ورقمه: ٣٩٠٥.

الرسول ﷺ: «ائذن له وبشره بالجنة» ثم جاء عمر فقال: «ائذن له، ويشره بالجنة» ثم جاء عثمان، فقال: «ائذن له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه»[1].

وروى ابن عساكر بإسناد صحيح عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «القائم بعدي في الجنة، والذي يقوم بعده في الجنة، والثالث والرابع في الجنة»[2]. ومراده بالقائم بعده: الذي يلي الحكم بعد موته، وهؤلاء الأربعة هم أبو بكر وعمر وعثمان وعليٌّ رضي الله عنهم جميعاً.

وروى الترمذي والحاكم بإسناد صحيح عن عائشة رضي الله عنها أن الرسول ﷺ قال لأبي بكر: «أنت عتيق من النار»[3].

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي، جامع الأصول: (٨/٥٦٢)، ورقمه: ٦٣٧٢. والحديث طويل، وقد اقتصرنا منه على موضع الشاهد فحسب.

(٢) صحيح الجامع الصغير: (٤/١٤٩)، ورقمه: ٤٣١١.

(٣) صحيح الجامع الصغير: (٢/٢٤)، ورقمه: ١٤٩٤.

المبحث العاشر
بعض من نص على أنهم في الجنة غير من ذكر

١-٢- جعفر بن أبي طالب، وحمزة بن عبد المطلب:

من الذين أخبر الرسول ﷺ أنهم في الجنة جعفر وحمزة، ففي سنن الترمذي، ومسند أبي يعلى، ومستدرك الحاكم وغيرهم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «رأيت جعفر بن أبي طالب ملكاً يطير في الجنة بجناحين»(١).

وروى الطبراني، وابن عدي، والحاكم عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «دخلت الجنة البارحة، فنظرت فيها، فإذا جعفر يطير مع الملائكة، وإذا حمزة متكىء على سرير». وإسناده صحيح(٢).

وقد صح أن الرسول قال: «سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب»(٣).

٣- عبد الله بن سلام:

روى أحمد والطبراني والحاكم بإسناد صحيح عن معاذ قال: قال

---

(١) قال الشيخ ناصر في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣/٢٢٦)، حديث رقم: ١٢٢٦: (حديث صحيح جاء من طرق عن أبي هريرة، وابن عباس، وعلي بن أبي طالب، وأبي عامر والبراء) وقد ساق طرقه.

(٢) صحيح الجامع: (٣/ ١٤٠)، ورقمه: ٣٣٥٨.

(٣) صحيح الجامع: (٣/ ١٢٩)، ورقمه: ٣٥٦٩.

رسول الله ﷺ: «عبد الله بن سلام عاشر عشرة في الجنة»[1].

٤- زيد بن حارثة:

روى الروياني والضياء عن بريدة أن النبي ﷺ قال: «دخلت الجنة، فاستقبلتني جارية شابة، فقلت: لمن أنت؟ قالت: لزيد بن حارثة»[2].

٥- زيد بن عمرو بن نفيل:

روى ابن عساكر بإسناد حسن عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «دخلت الجنة، فرأيت لزيد بن عمرو بن نفيل درجتين»[3].

وزيد هذا كان يدعو إلى التوحيد في الجاهلية، وكان على الحنيفية ملة إبراهيم.

٦- حارثة بن النعمان:

وروى الترمذي والحاكم عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «دخلت الجنة، فسمعت فيها قراءة، فقلت: من هذا؟ قالوا: حارثة بن النعمان، كذلكم البر، كذلكم البر»[4].

---

(١) صحيح الجامع الصغير: (٤/ ٢٥)، ورقمه: ٣٨٧٠

(٢) صحيح الجامع الصغير: (٣/ ١٤١)، ورقمه: ٣٣٦١.

(٣) صحيح الجامع الصغير: (٣/ ١٤١)، ورقمه: ٣٣٦٢.

(٤) صحيح الجامع الصغير: (٣/ ١٤١)، ورقمه: ٣٣٦٦.

٧- بلال بن رباح:

روى الطبراني وابن عدي بإسناد صحيح عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: «دخلت الجنة، فسمعت خَشْفة بين يدي، قلت: ما هذه الخشفة؟ فقيل: هذا بلال يمشي أمامك»[١].

وفي المسند بإسناد صحيح عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «دخلت الجنة ليلة أسري بي، فسمعت من جانبها وجساً، فقلت: يا جبريل ما هذا؟ قال: بلال المؤذن»[٢].

٨- أبو الدحداح:

روى مسلم في صحيحه وأبو داود والترمذي وأحمد عن جابر بن سَمُرة أن رسول الله ﷺ قال: «كم من عذق معلّق لأبي الدحداح في الجنة»[٣].

وأبو الدحداح هذا هو الذي تصدق ببساته: بيرحاء، أفضل بساتين المدينة عندما سمع الله يقول: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ ۖ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

٩- ورقة بن نوفل:

روى الحاكم بإسناد صحيح عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ

---

(١) صحيح الجامع الصغير: (٣/ ١٤١)، ورقمه: ٣٣٦٤.
(٢) صحيح الجامع الصغير: (٣/ ١٤١)، ورقمه: ٣٣٦٧.
(٣) صحيح الجامع الصغير: (٤/ ١٨٥)، ورقمه: ٤٤٥٠.

قال: «لا تسبوا ورقة بن نوفل، فإني قد رأيت له جنة أو جنتين»[1].

وورقة آمن بالرسول ﷺ عندما جاءته خديجة بالرسول ﷺ في أول مرة، وتمنى على الله أن يدرك ظهور أمر الرسول ﷺ لينصره.

---

(١) صحيح الجامع الصغير: (٦/ ١٥٣)، ورقمه: ٧١٩٧.

المبحث الحادي عشر

الجنة ليست ثمناً للعمل

الجنة شيء عظيم، لا يمكن أن يناله المرء بأعماله التي عملها، وإنما تُنال برحمة الله وفضله، روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لن يُدخِل أحد منكم عمله الجنة» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه بفضل ورحمة»[1].

وقد يشكل على هذا النصوص التي تُشعر بأن الجنة ثمن للعمل، كقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧]، وقوله: ﴿ تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٣].

ولا تعارض بين الآيات وما دلَّ عليه الحديث، فإن الآيات تدل على أن الأعمال سبب لدخول الجنة، وليست ثمناً لها. والحديث نفى أن تكون الأعمال ثمناً للجنة. وقد ضل في هذا فرقتان: الجبرية التي استدلت بالحديث على أن الجزاء غير مرتب على الأعمال، لأنه لا صنع للعبد في عمله، والقدرية استدلوا بالآيات، وقالوا: إنها تدل على أن الجنة ثمن للعمل، وأن العبد مستحق دخول الجنة على ربه بعمله.

---

(١) صحيح مسلم: (٤/ ٢١٧٠). ورقم الحديث: ٢٨١٦.

يقول شارح الطحاوية في هذه المسألة:

«وأما ترتب الجزاء على الأعمال، فقد ضل فيه الجبرية والقدرية، وهدى الله أهل السنة، وله الحمد والمنة، فإن الباء التي في النفي غير الباء التي في الإثبات. فالمنفى في قوله ﷺ: «لن يدخل الجنة أحد بعمله» -باء العوض، وهو أن يكون العمل كالثمن لدخول الرجل إلى الجنة، كما زعمت المعتزلة أن العامل مستحق دخول الجنة على ربه بعمله، بل ذلك برحمة الله وفضله. والباء التي في قوله: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧] وغيرها باء السبب، أي بسبب عملكم، والله تعالى هو خالق الأسباب والمسببات، فرجع الكل إلى محض فضل الله ورحمته»[1].

---

(١) شرح الطحاوية: ٤٩٥.

الفصل الخامس

صفة أهل الجنة ونعيمهم فيها

يدخل أهل الجنة الجنة على أكمل صورة وأجملها، على صورة أبيهم آدم عليه السلام، فلا أكمل ولا أتم من تلك الصورة والخلقة التي خلق الله عليها أبا البشر آدم، فقد خلقه الله تعالى بيده فأتم خلقه، وأحسن تصويره، وكل من يدخل الجنة على صورة آدم وخلقته، وقد خلقه الله طوالاً كالنخلة السحوق، طوله في السماء ستون ذراعاً، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «خلق الله عز وجل آدم على صورته، طوله ستون ذراعاً. فكل من يدخل الجنة على صورة آدم، وطوله ستون ذراعاً، فلم يزلِ الخلق ينقص بعده»[1].

وإذا كان خلقهم الظاهري متفق، فكذلك خلقهم في باطنهم واحد، نفوسهم صافية، وأرواحهم طاهرة زكية، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة في الحديث الذي يصف فيه الرسول ﷺ دخول أهل الجنة ومنهم الزمرة الذين يدخلون الجنة نورهم كالبدر قال: «أخلاقهم على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً في السماء»[2].

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الجنة، باب يدخل الجنة أقواما أفئدتهم مثل أفئدة الطير، (٤/ ٢١٨٣)، ورقمه: ٢٨٤١.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الجنة، باب أول زمرة يدخلون الجنة، (٤/ ٢١٧٩) ورقم الحديث: ٢٨٣٤.

ومن جمال صورتهم أنهم يكونون جرداً مرداً كأنهم مكحلون، وكلهم يدخل الجنة في عمر القوة والفتوة والشباب أبناء ثلاث وثلاثين، ففي مسند أحمد وسنن الترمذي عن معاذ بن جبل عن رسول الله ﷺ قال: «يدخل أهل الجنة جرداً مرداً، كأنهم مكحلون، أبناء ثلاث وثلاثين»[1].

وأهل الجنة -كما جاء في حديث أبي هريرة في الصحيحين- «لا يبصقون، ولا يمتخطون، ولا يتغوطون»[2].

وأهل الجنة لا ينامون، فقد جاء في حديث جابر بن عبد الله، وعبد الله ابن أبي أوفى أن رسول الله ﷺ قال: «النوم أخو الموت، ولا ينام أهل الجنة»[3].

---

(١) صحيح الجامع: (٦/ ٣٣٧)، ورقمه: ٧٩٢٨، وقال الشيخ ناصر فيه: صحيح.

(٢) هذا جزء من حديث طويل سقناه بكامله في (دخول الجنة).

(٣) أورد الشيخ ناصر الدين الألباني هذا الحديث في «سلسلة الأحاديث الصحيحة»: (٣/ ٧٤) ورقمه: ١٠٨٧، وقد ذكر هناك أنه أخرجه كثير من كتب الحديث منها الكامل لابن عدي، والحلية لأبي نعيم، تاريخ أصبهان له، وقد جمع الشيخ ناصر طرق الحديث، وختم الكلام على الحديث قائلاً: «وبالجملة فالحديث صحيح من بعض طرقه عن جابر».

الفصل السادس

نعيم أهل الجنة

المبحث الأول

فضل نعيم الجنة على متاع الدنيا

متاع الدنيا واقع مشهود، ونعيم الجنة غيب موعود، والناس يتأثرون بما يرون ويشاهدون، ويثقل على قلوبهم ترك ما بين أيديهم إلى شيء ينالونه في الزمن الآتي، فكيف إذا كان الموعود ينال بعد الموت؟ من أجل ذلك قارن الحق تبارك وتعالى بين متاع الدنيا ونعيم الجنة، وبيّن أن نعيم الجنة خير من الدنيا وأفضل، وأطال في ذم الدنيا وبيان فضل الآخرة، وما ذلك إلا ليجتهد العباد في طلب الآخرة ونيل نعيمها.

وتجد ذم الدنيا ومدح نعيم الآخرة، وتفضيل ما عند الله على متاع الدنيا القريب العاجل في مواضع كثيرة، كقوله تعالى: ﴿ لَكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٨]، وقوله: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه: ١٣١].

وقال في موضع ثالث: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ

ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٤-١٥].

ولو ذهبنا نبحث في سِرِّ أفضلية نعيم الآخرة على متاع الدنيا لوجدناه من وجوه متعددة:

أولاً: متاع الدنيا قليل، قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧].

وقد صور لنا الرسول ﷺ قلة متاع الدنيا بالنسبة إلى نعيم الآخرة بمثال ضربه فقال: «والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه -وأشار بالسبابة- في اليم، فلينظر بم ترجع»[1]. ما الذي تأخذه الإصبع إذا غمست في البحر الخضم، إنها لا تأخذ منه قطرة. هذا هو نسبة الدنيا إلى الآخرة.

ولما كان متاع الدنيا قليلاً، فقد عاتب الله المؤثرين لمتاع الدنيا على نعيم الآخرة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

وقد ذكرنا في كتابنا هذا النصوص الدالة على كثرة نعيم الجنة وعدم نفاده وانقطاعه.

الثاني: هو أفضل من حيث النوع، فثياب أهل الجنة وطعامهم وشرابهم وحليهم وقصورهم -أفضل مما في الدنيا، بل لا وجه للمقارنة، فإن

(١) صحيح مسلم: (٤/٢١٩٣). ورقم الحديث: ٢٨٥٨.

موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها، ففي صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها»[1]. وفي الحديث الآخر الذي يرويه البخاري ومسلم أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ولقاب قوس أحدكم من الجنة خير مما طلعت عليه الشمس»[2]. وقارن نساء أهل الجنة بنساء الدنيا لتعلم فضل ما في الجنة على ما في الدنيا، ففي صحيح البخاري عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت على الأرض لأضاءت ما بينهما، ولملأت ما بينهما ريحاً، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها»[3].

وإذا شئت أن تطلع على المزيد من النصوص المبينة لفضل نعيم الجنة على متاع الدنيا فاقرأ الفصل المخصص لنعيم الجنة في كتابنا هذا.

الثالث: الجنة خالية من شوائب الدنيا وكدرها، فطعام أهل الدنيا وشرابهم يلزم منه الغائط والبول، والروائح الكريهة، وإذا شرب المرء خمر الدنيا فقد عقله، ونساء الدنيا يحضن ويلدن، والمحيض أذى، والجنة خالية من ذلك كله، فأهلها لا يبولون ولا يتغوطون، ولا يبصقون ولا يتفلون، وخمر الجنة كما وصفها خالقها ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ * لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٦-٤٧] وماء الجنة لا يأسن، ولبنها لا يتغير طعمه ﴿أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ [محمد: ١٥]، ونساء أهل الجنة مطهرات من الحيض والنفاس وكل قاذورات نساء الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥].

---

(١) مشكاة المصابيح: (٣/ ٨٥). ورقم الحديث: ٥٦١٣.

(٢) مشكاة المصابيح: (٣/ ٨٥). ورقم الحديث: ٥٦١٥ والقدر: الموضع والمقدار.

(٣) مشكاة المصابيح: (٣/ ٨٥). ورقم الحديث: ٥٦١٤ والنصيف: الخمار.

وقلوب أهل الجنة صافية، وأقوالهم طيبة، وأعمالهم صالحة، فلا تسمع في الجنة كلمة نابية تكدر الخاطر، وتعكر المزاج، وتستثير الأعصاب، فالجنة خالية من باطل الأقوال والأعمال، ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ [الطور: ٢٣]، ولا يطرق المسامع إلا الكلمة الصادقة الطيبة السالمة من عيوب كلام أهل الدنيا ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا﴾ [النبأ: ٣٥]، ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا﴾ [مريم: ٦٢]، ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾ [الغاشية: ١١]، إنها دار الطهر والنقاء والصفاء الخالية من الأوشاب والأكدار، إنها دار السلام والتسليم ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة: ٢٥-٢٦].

ولذلك فإن أهل الجنة إذا خلصوا من النار حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار، ثم يهذبون وينقون بأن يقتص لبعضهم من بعض، فيدخلون الجنة وقد صفت منهم القلوب، وزال ما في نفوسهم من تباغض وحسد ونحو ذلك مما كان في الدنيا، وفي الصحيحين في صفة أهل الجنة عند دخول الجنة «لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم قلب واحد، يُسبِّحون الله بكرة وعشياً»[1]. وصدق الله إذ يقول: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

والغل: الحقد، وقد نقل عن ابن عباس وعلي بن أبي طالب أن أهل الجنة عندما يدخلون الجنة يشربون من عين فيُذهب الله ما في قلوبهم من غل، ويشربون من عين أخرى فتشرق ألوانهم وتصفو وجوههم[2] ولعلهم

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة، فتح الباري: (٦/٣١٨).

(٢) التذكرة، للقرطبي: ص ٤٩٩.

استفادوا هذا من قوله تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١].

الرابع: نعيم الدنيا زائل، ونعيم الآخرة باق دائم، ولذلك سمى الحق تبارك وتعالى ما زين للناس من زهرة الدنيا متاعاً، لأنه يتمتع به ثمَّ يزول، أما نعيم الآخرة فهو باق، ليس له نفاد، ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ﴾ [ص: ٥٤]، ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥]، وقد ضرب الله الأمثال لسرعة زوال الدنيا وانقضائها ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا * ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٥-٤٦]. فقد ضرب الله مثلاً لسرعة زوال الدنيا وانقضائها بالماء النازل من السماء الذي يخالط نبات الأرض فيخضر ويزهر ويثمر، وما هي إلا فترة وجيزة حتى تزول بهجته، فيذوى ويصفر، ثم تعصف به الرياح في كل مكان، وكذلك زينة الدنيا من الشباب والمال والأبناء والحرث والزرع ... كلها تتلاشى وتنقضي، فالشباب يذوى ويذهب، والصحة والعافية تبدل هرماً ومرضاً، والأموال والأولاد قد يذهبون، وقد ينتزع الإنسان من أهله وماله، أمّا الآخرة فلا رحيل، ولا فناء، ولا زوال ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ * جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [النحل: ٣٠-٣١].

الخامس: العمل لمتاع الدنيا ونسيان الآخرة يعقبه الحسرة والندامة ودخول النيران، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

المبحث الثاني
طعام أهل الجنة وشرابهم

سبق أن تحدثنا عن أشجار الجنة وثمارها، وقطوفها الدانية المذللة تذليلاً، واختيار أهل الجنة من ثمارها ما يريدون ويشتهون، وفي الجنة ما تشتهيه الأنفس من المآكل والمشارب، ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة: ٢٠-٢١]، ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١]، وقد أباح الله لهم أن يتناولوا من خيراتها وألوان طعامها وشرابها ما يشتهون ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤].

وذكرنا أيضاً فيما سبق أن في الجنة بحر الماء، وبحر الخمر، وبحر اللبن، وبحر العسل، وأنّ أنهار الجنة تنشق من هذه البحار. وفي الجنة عيون كثيرة، وأهل الجنة يشربون من تلك البحار والأنهار والعيون.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٥-٦].

وقال: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا * عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ [الإنسان: ١٧-١٨]، وقال: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢٧-٢٨].

المطلب الأول

خمر أهل الجنة

من الشراب الذي يتفضل الله به على أهل الجنة الخمر، وخمر الجنة خالي من العيوب والآفات التي تتصف بها خمر الدنيا، فخمر الدنيا تُذهب العقول، وتصدع الرؤوس، وتوجع البطون، وتُمرض الأبدان، وتجلب الأسقام، وقد تكون معيبة في صنعها أو لونها أو غير ذلك، أمّا خمر الجنة فإنها خالية من ذلك كله، جميلة صافية رائقة، ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ * لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ [الصافات: ٤٥-٤٧].

لقد وصف الله جمال لونها (بيضاء) ثم بين أنها تَلذُّ شاربها من غير اغتيال لعقله، كما قال: ﴿ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴾ [محمد: ١٨]، ثم إن شاربها لا يمل من شربها ﴿ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ [الصافات: ٤٧]، وقال في موضع آخر يصف خمر الجنة: ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴾ [الواقعة: ١٧-١٩].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآيات: «لا تصدع رؤوسهم، ولا تنزف عقولهم، بل هي ثابتة مع الشدة المطربة واللذة الحاصلة، وروى الضحاك عن ابن عباس أنه قال: في الخمر أربع خصال: السكر، والصداع، والقيء، والبول، فذكر الله خمر الجنة، ونزهها عن هذه الخصال»[1].

وقال الحق في موضع ثالث: ﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَامُهُ مِسْكٌ ﴾ [المطففين: ٢٥-٢٦]، والرحيق الخمر، ووصف هذا الخمر بوصفين:

---

(١) تفسير ابن كثير: ٦/ ٥١٤.

الأول أنه مختوم، أي موضوع عليه خاتم. الأمر الثاني: أنهم إذا شربوه وجدوا في ختام شربهم له رائحة المسك.

المطلب الثاني

أول طعام أهل الجنة

أول طعام يُتحِف اللهُ به أهل الجنة زيادة كبد الحوت، فقد روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة، يتكفّؤها الجبار بيده، كما يتكفأ أحدكم خبزته في السفر نزلاً لأهل الجنة» فأتى رجل من اليهود، فقال: بارك الرحمن عليك يا أبا القاسم، ألا أخبرك بنُزل أهل الجنة يوم القيامة؟ قال: «بلى». قال: تكون الأرض خبزة واحدة كما قال النبي ﷺ فنظر النبي ﷺ إلينا، ثم ضحك حتى بدت نواجذه ثم قال: «ألا أخبرك بإدامهم؟ بالام والنون. قالوا: وما هذا؟ قال: ثور ونون، يأكل من زائدة كبدهما سبعون ألفاً»[1].

قال النووي في شرح الحديث ما ملخصه: «النُّـزل: ما يُعد للضيف عند نزوله، ويتكفأها بيده، أي: يميلها من يد إلى يد حتى تجتمع وتستوي، لأنها ليست منبسطة كالرقاقة ونحوها، ومعنى الحديث: أن الله تعالى يجعل الأرض كالرغيف العظيم، ويكون طعاماً ونزلاً لأهل الجنة، والنون: الثور، والـ (بلام): لفظة عبرانية، معناها: ثور، وزائدة كبد

(١) مشكاة المصابيح: (٣/٥٦).

الحوت: هي القطعة المنفردة المتعلقة في الكبد، وهي أطيبها»[1].

وفي صحيح البخاري أن عبد الله بن سلام سأل النبي ﷺ أول قدومه المدينة أسئِلةً منها: «ما أول شيء يأكله أهل الجنة؟ فقال: زيادة كبد الحوت»[2].

وفي صحيح مسلم عن ثوبان أن يهودياً سأل الرسول ﷺ قال: «فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ «قال: زيادة كبد الحوت».

قال: «فما غذاؤهم على إثرها؟ قال: ينحر لهم ثور الجنة الذي يأكل من أطرافها».

قال: «فما شرابهم عليه؟» قال: «من عين تسمى سلسبيلاً» قال: صدقت[3].

المطلب الثالث

طعام أهل الجنة وشرابهم لا دنس معه

قد يتبادر إلى الذهن أن الطعام والشراب في الجنة ينتج عنه ما ينتج عن طعام أهل الدنيا وشرابهم من البول والغائط والمخاط والبزاق ونحو ذلك، والأمر ليس كذلك، فالجنة دار خالصة من الأذى، وأهلها مطهرون من أوشاب أهل الدنيا، ففي الحديث الذي يرويه صاحبا الصحيحين عن أبي

(١) شرح النووي على مسلم: (١٧/ ١٣٦).
(٢) النهاية لابن كثير: (٢/ ٢٧٠).
(٣) النهاية لابن كثير: (٢/ ٢٧٠).

هريرة عن النبي ﷺ قال نافياً هذا الظن: «أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون فيها، ولا يمتخطون، ولا يتغوطون فيها»[1].

وليس هذا خاص بأول زمرة تدخل الجنة، وإنما هو عام في كل من يدخل الجنة، ففي رواية عند مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة تدخل الجنة من أمتي على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أشدّ نجم في السماء إضاءة، ثم هم بعد ذلك منازل، لا يتغوطون، ولا يتبولون، ولا يمتخطون، ولا يبزقون»[2].

فالذي يتفاوت فيه أهل الجنة مما نص عليه في الحديث قوة نور كل منهم، أمّا خلوصهم من الأذى فإنهم يشتركون فيه جميعاً، فهم لا يتغوطون ولا يتبولون، ولا يتفلون، ولا يبزقون، ولا يمتخطون.

وقد يقال: فأين تذهب فضلات الطعام والشراب، وقد وجه هذا السؤال إلى الرسول ﷺ من قبل أصحابه، فأفاد أن بقايا الطعام والشراب تتحول إلى رشح كرشح المسك يفيض من أجسادهم، كما يتحول بعض منه أيضاً إلى جشاء، ولكنه جشاء تنبعث منه روائح طيبة عبقة عطرة، ففي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون، ولا يتفلون، ولا يتبولون، ولا يتغوطون، ولا يمتخطون»، قالوا: فما بال الطعام؟ قال: جشاء كجشاء المسك»[3].

---

(١) رواه البخاري، كتاب بد الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة، فتح الباري: (٦/ ٣١٧)، ورواه مسلم في كتاب الجنة، باب أول زمرة تدخل الجنة، (٤/ ٢١٧٨)، حديث رقم: ٢٨٣٤.

(٢) رواه مسلم، كتاب الجنة، باب أول زمرة تدخل الجنة، (٤/ ٢١٨٨)، ورقم الحديث: ٢٨٣٤.

(٣) رواه مسلم في صحيحه: (٤/ ٢١٨٠). ورقم الحديث: ٢٨٣٥.

المطلب الرابع

لماذا يأكل أهل الجنة ويشربون ويمتشطون

إذا كان أهل الجنة فيها خالدون، وكانت خالية من الآلام والأوجاع والأمراض، لا جوع فيها ولا عطش، ولا قاذورات ولا أوساخ، فلماذا يأكل أهل الجنة فيها ويشربون، ولماذا يتطيبون ويمتشطون؟

أجاب القرطبي في التذكرة عن هذا السؤال قائلاً[1]: «نعيم أهل الجنة وكسوتهم ليس عن دفع ألم اعتراهم، فليس أكلهم عن جوع، ولا شربهم عن ظمأ، ولا تطيبهم عن نتن، وإنما هي لذات متوالية، ونعم متتابعة، ألا ترى قوله تعالى لآدم: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه:١١٨-١١٩]. وحكمة ذلك أن الله تعالى عرفهم في الجنة بنوع ما كانوا يتنعمون به في الدنيا، وزادهم على ذلك ما لا يعلمه إلا الله عزَّ وجلَّ».

المطلب الخامس

آنية طعام أهل الجنة وشرابهم

آنية طعام أهل الجنة، التي يأكلون ويشربون بها من الذهب والفضة، قال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ [الزخرف: ٧١]، أي وأكواب من ذهب، وقال: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ

(١) التذكرة للقرطبي: ص ٤٧٥، وانظر فتح الباري: (٦/ ٣٢٥).

﴿قَوَارِيرَاْ ۞ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ [الإنسان: ١٥-١٦]، أي اجتمع فيها صفاء القوارير وبياض الفضة.

وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة.. وجنتان من فضة، آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما»[1].

ومن الآنية التي يشربون بها الأكواب والأباريق والكؤوس ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۞ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ [الواقعة: ١٧]، والكوب: ما لا أذن له ولا عروة ولا خرطوم، والأباريق: ذوات الآذان والعرا، والكأس القدح الذي فيه الشراب.

---

(١) أي: وللمؤمن جنتان.

المبحث الثالث
لباس أهل الجنة وحليهم ومباخرهم

أهل الجنة يلبسون فيها الفاخر من اللباس، ويتزينون فيها بأنواع الحلي من الذهب والفضة واللؤلؤ، فمن لباسهم الحرير، ومن حلاهم أساور الذهب والفضة واللؤلؤ: قال تعالى: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٢]، ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣]، ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [فاطر: ٣٣]، ﴿وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١].

وملابسهم ذات ألوان، ومن ألوان الثياب التي يلبسون الخضر من السندس والإستبرق ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣١]، ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: ٢١].

ولباسهم أرقى من أي ثياب صنعها الإنسان، فقد روى البخاري في صحيحه عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: «أتى الرسول ﷺ بثوب من حرير، فجعلوا يعجبون من حسنه ولينه، فقال رسول الله ﷺ: «لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أفضل من هذا»[1].

(١) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة والنار، فتح الباري: (٦/ ٣١٩).

وقد أخبرنا الرسول ﷺ أن لأهل الجنة أمشاطاً من الذهب والفضة، وأنهم يتبخرون بعود الطيب، مع أن روائح المسك تفوح من أبدانهم الزاكية، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن الرسول ﷺ في صفة الذين يدخلون الجنة: «آنيتهم الذهب والفضة، وأمشاطهم الذهب، ووقود مجامرهم الألوة -قال أبو اليمان: عود الطيب- ورشحهم المسك»[1].

ومن حليهم التيجان، ففي سنن الترمذي وابن ماجة عن المقدام بن معدي كرب عن رسول الله ﷺ في ذكر الخصال التي يُعطاها الشهيد: «ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها»[2].

وثياب أهل الجنة وحليهم لا تبلى ولا تفنى، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «من يدخل الجنة ينعم لا يبأس، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه»[3].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) مشكاة المصابيح: (٣/٣٥٨)، ورقمه: ٣٨٣٤، وصحح الشيخ ناصر إسناده.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الجنة، باب في دوام نعيم الجنة، (٤/ ٢١٨١)، ورقم الحديث: ٢٨٣٦.

المبحث الرابع
فرش أهل الجنة

أُعدت قصور الجنة، وأماكن الجلوس في حدائقها وبساتينها بألوان فاخرة رائعة من الفرش للجلوس والاتكاء ونحو ذلك، فالسرر كثيرة راقية والفرش عظيمة القدر بطائنها من الإستبرق، فما بالك بظاهرها، وهناك ترى النمارق مصفوفة على نحو يسر الخاطر، ويبهج النفس، والزرابي مبثوثة على شكل منسق متكامل، قال تعالى: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ [الغاشية: ١٣-١٦]، ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ [الرحمن: ٥٤]، ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الطور: ٢٠]، ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ * عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ * مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾ [الواقعة: ١٣-١٦].

واتكاؤهم عليها على هذا النحو نوع من النعيم الذي يتمتع به أهل الجنة حين يجتمعون كما أخبر الله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]، وقال: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ [الرحمن: ٧٦]، ﴿مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ [الكهف: ٣١]. والمراد بالنمارق: المخاد، والوسائد: المساند، والزرابي: البُسط، والعبقري: البسط الجياد. والرفرف: رياض الجنة. وقيل: نوع من الثياب، والأرائك: السرر.

المبحث الخامس
خدم أهل الجنة

يخدم أهل الجنة ولدان ينشئهم الله لخدمتهم، يكونون في غاية الجمال والكمال، كما قال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ [الواقعة: ١٧-١٨]، وقال في موضع آخر: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ [الإنسان: ١٩].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «يطوف على أهل الجنة للخدمة ولدان من ولدان أهل الجنة (مخلدون) أي: على حالة واحدة مخلدون عليها، لا يتغيرون عنها، لا تزيد أعمارهم عن تلك السن، ومن فسرهم بأنهم مخرصون، في آذانهم الأقرطة، فإنما عبر عن المعنى، لأن الصغير هو الذي يليق له ذلك دون الكبير. وقوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ [الإنسان: ١٩]، أي إذا رأيتهم في انتشارهم في قضاء حوائج السادة وكثرتهم وصباحة وجوههم وحسن ألوانهم وثيابهم وحليهم، حسبتهم لؤلؤاً منثوراً، ولا يكون في التشبيه أحسن من هذا، ولا في المنظر أحسن من اللؤلؤ المنثور على المكان الحسن»[1].

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن هؤلاء الولدان هم الذين يموتون صغاراً من أبناء المؤمنين أو المشركين، وقد رد العلامة ابن تيمية رحمه الله تعالى هذا القول، وبين أن الولدان المخلدون هم خلق من خلق الجنة

---

(١) تفسير ابن كثير: (٧/ ١٨٤).

قال: «والولدان الذين يطوفون على أهل الجنة: خلق من خلق الجنة ليسوا من أبناء الدنيا، بل أبناء أهل الدنيا إذا دخلوا الجنة كمل خلقهم كأهل الجنة، على صورة أبيهم آدم»[1].

(١) مجموع الفتاوى: (٤/ ٢٧٩)، وانظر: (٤/ ٣١١).

المبحث السادس
سوق أهل الجنة

روى مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة لسوقاً، يأتونها كل جمعة، فتهب ريح الشمال، فتحثو في وجوههم وثيابهم، فيزدادون حسناً وجمالاً، فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسناً وجمالاً، فيقول لهم أهلوهم: والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً، فيقولون: وأنتم، والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً»[1].

قال النووي في شرحه لهذا الحديث: «المراد بالسوق مجمع لهم يجتمعون كما يجتمع الناس في الدنيا في السوق، ومعنى يأتونها كل جمعة، أي في مقدار كل جمعة، أي أسبوع، وليس هناك حقيقة أسبوع، لفقد الشمس والليل والنهار، . . . وخص ريح الجنة بالشمال، لأنها ريح المطر عند العرب، كانت تهب من جهة الشام، وبها يأتي سحاب المطر، وكانوا يرجون السحابة الشامية، وجاءَت في الحديث تسمية هذه الريح المثيرة، أي المحركة، لأنها تثير في وجوههم ما تثيره من مسك أرض الجنة وغيره من نعيمها»[2].

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الجنة، باب في سوق الجنة، (٤/ ٢١٧٨)، ورقمه: ٢٨٣٣.

(٢) النووي على مسلم: (١٧/ ١٧٠).

المَبحَث السَّابِع
اجتماع أهل الجنَّة وأحاديثهم

أهل الجنة يزور بعضهم بعضاً، ويجتمعون في مجالس طيبة يتحدثون، ويذكرون ما كان منهم في الدنيا، وما منَّ الله به عليهم من دخول الجنان، قال تعالى في وصف اجتماع أهل الجنة: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]، وأخبرنا الله بلون من ألوان الأحاديث التي يتحدثون بها في مجتمعاتهم ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ * إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٥-٢٨].

ومن ذلك تذكرهم أهل الشر الذين كانوا يشككون أهل الإيمان، ويدعونهم إلى الكفران، ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ * أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ * قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ * فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ * قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ * وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ * أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصافات: ٥٠-٦١].

المبحث الثامن
أماني أهل الجنة

يتمنى بعض أهل الجنة فيها أماني تتحقق على نحو عجيب، لا تشبه حال ما يحدث في الدنيا، وقد حدثنا الرسول ﷺ عن بعض هذه الأماني وكيفية تحققها.

فهذا واحد من أهل الجنة يستأذن ربه في الزرع، فيأذن له، فما يكاد يلقي البذر، حتى يضرب بجذوره في الأرض، ثم ينمو، ويكتمل، وينضج في نفس الوقت، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يتحدث -وعنده رجل من أهل البادية-: «إن رجلاً من أهل الجنة استأذن ربّه في الزرع، فقال له: ألست فيما شئت؟[1] قال: بلى، ولكن أحب الزرع، فبذر، فبادر الطرف نباته[2] واستواؤه، واستحصاده، فكان أمثال الجبال، فيقول الله تعالى: دونك يا ابن آدم، فإنه لا يشبعك شيء» فقال الأعرابي: «والله لا تجده إلا قرشياً أو أنصارياً، فإنهم أصحاب الزرع، وأمّا نحن فلسنا بأصحاب زرع، فضحك رسول الله ﷺ»[3].

---

(١) أي فيما شئت من أنواع النعيم وألوان الطعام والشراب.

(٢) سابق النظر.

(٣) مشكاة المصابيح: (٣/ ٩٥)، ورقم الحديث: ٥٦٥٣.

وهذا آخر يتمنى الولد، فيحقق الله له أمنيته في ساعة واحدة، حيث تحمل وتضع في ساعة واحدة.

وروى الترمذي في سننه، وأحمد في مسنده، وابن حبان في صحيحه بإسناد صحيح عن أبي سعيد أن النبي ﷺ قال: «المؤمن إذا اشتهى الولد في الجنة، كان حمله ووضعه وسنه في ساعة واحدة كما يشتهي»[1].

(١) صحيح الجامع: (٦/ ٥)، ورقم الحديث: ٦٥٢٥.

المبحث التاسع
نساء أهل الجنة

المطلب الأول

زوجة المؤمن في الدنيا زوجته في الآخرة إذا كانت مؤمنة

إذا دخل المؤمن الجنة، فإن كانت زوجته صالحة، فإنها تكون زوجته في الجنة أيضاً: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ [الرعد: ٢٣]، وهم في الجنات منعمون مع الأزواج، يتكئون في ظلال الجنة مسرورين فرحين ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ [يس: ٥٦]، ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ [الزخرف: ٧٠].

المطلب الثاني

المرأة لآخر أزواجها

روى أبو علي الحراني في «تاريخ الرقة» عن ميمون بن مهران قال: خطب معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه أم الدرداء، فأبت أن تتزوجه، وقالت: سمعت أن أبا الدرداء يقول: قال رسول الله ﷺ: «المرأة في آخر أزواجها، أو قال: لآخر أزواجها» ورجال هذا الإسناد موثقون غير

العباس بن صالح فليس له ترجمة، ورواه أبو الشيخ في التاريخ بإسناد صحيح مقتصراً منه على المرفوع، ورواه الطبراني في معجمه الأوسط بإسناد ضعيف، ولكنه بمجموع الطريقين قوي، والمرفوع منه صحيح، وله شاهدان موقوفان: الأول يرويه ابن عساكر عن عكرمة «أن أسماء بنت أبي بكر كانت تحت الزبير بن العوام، وكان شديداً عليها، فأتت أباها، فشكت ذلك إليه، فقال: يا بنية اصبري، فإن المرأة إذا كان لها زوج صالح، ثم مات عنها، فلم تزوج بعده جمع بينهما في الجنة».

ورجاله ثقات إلا أن فيه إرسالاً لأن عكرمة لم يدرك أبا بكر إلا أن يكون تلقاه عن أسماء.

والآخر أخرجه البيهقي في السنن أن حذيفة قال لزوجته: «إن شئت أن تكوني زوجتي في الجنة، فلا تزوجي بعدي، فإن المرأة في الجنة لآخر أزواجها في الدنيا»[1]، فلذلك حرّم الله على أزواج النبي ﷺ أن ينكحن من بعده، لأنهن أزواجه في الآخرة.

المطلب الثالث

الحور العين

يزوج الله المؤمنين في الجنة بزوجات جميلات غير زوجاتهم اللواتي في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الدخان: ٥٤]. والحور: جمع حوراء، وهي التي يكون بياض عينها شديد البياض،

(١) هذا التحقيق أخذناه بشيء من الاختصار من (سلسلة الأحاديث الصحيحة) للشيخ ناصر: (٣/ ٢٧٥) ورقم الحديث: ١٢٨١.

وسواده شديد السواد. والعين: جمع عيناء، والعيناء هي واسعة العين.

وقد وصف القرآن الحور العين بأنهن كواعب أتراب، قال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا * وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ [النبأ: ٣١-٣٣]. والكاعب: المرأة الجميلة التي برز ثدياها، والأتراب المتقاربات في السن. والحور العين من خلق الله في الجنة، أنشأهن الله إنشاءً فجعلهنَّ أبكاراً، عرباً أتراباً ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً * فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ [الواقعة: ٣٥-٣٧] وكونهن أبكاراً يقضي أنه لم ينكحهن قبلهم أحد، كما قال تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٥٦]، وهذا ينفي قول من قال: إن المراد بالزوجات اللواتي ينشئهن الله في الجنة زوجاتهم في الدنيا إذ يعيدهنّ شباباً بعد الكهولة والهرم، وهذا المعنى صحيح، فالله يدخل المؤمنات الجنة في سن الشباب، ولكنهن لَسْنَ الحور العين اللواتي ينشئهن الله إنشاءً.

والمراد بالْعُرُب: الغنجات المتحببات لأزواجهنّ.

وقد حدثنا القرآن عن جمال نساء الجنة فقال: ﴿وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة: ٢٢-٢٣]، والمراد بالمكنون: المخفى المصان، الذي لم يغير صفاء لونه ضوء الشمس، ولا عبث الأيدي، وشبههن في موضع آخر بالياقوت والمرجان ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٥٦-٥٨]، والياقوت والمرجان حجران كريمان فيهما جمال، ولهما منظر حسن بديع، وقد وصف الحور العين بأنهنّ قاصرات الطرف، وهن اللواتي قصرن بصرهن على أزواجهن، فلم تطمح أنظارهن لغير أزواجهنَّ، وقد شهد الله لحور الجنة بالحسن والجمال، وحسبك أنَّ الله

شهد بهذا ليكون قد بلغ غاية الحسن والجمال ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ [الرحمن: ٧٠-٧٢].

ونساء الجنة لسن كنساء الدنيا، فإنهن مطهرات من الحيض والنفاس، والبصاق والمخاط والبول والغائط، وهذا مقتضى قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥].

وقد حدثنا الرسول ﷺ عن جمال نساء أهل الجنة، ففي الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون، ولا يمتخطون، ولا يتغوطون، آنيتهم فيها الذهب، أمشاطهم من الذهب والفضة، ومجامرهم الألوة، ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان، يرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحسن»[(١)].

وانظر إلى هذا الجمال الذي يُحدِّث عنه الرسول ﷺ هل تجد له نظيراً مما تعرف؟ «ولو أن امرأة من أهل الجنة اطلعت إلى أهل الأرض لأضاءت ما بينهما، ولملأته ريحاً، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها» رواه البخاري[(٢)].

وتحديد عدد زوجات كل شخص في الجنة باثنين يبدو أنه أقل عدد، فقد ورد أن الشهيد يزوج باثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ففي

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة، فتح الباري: (٦/ ٣١٨)، ورواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيم أهلها، باب أول زمرة تدخل الجنة: (٤/ ٢١٧٨) ورقمه: ٢٨٣٤.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد، باب وزوجناهم بحور عين، فتح الباري: (٦/ ١٥)، والنصيف: الخمار.

سنن الترمذي وسنن ابن ماجة. بإسناد صحيح عن المقدام بن معدي كرب قال: قال رسول الله ﷺ: «للشهيد عند الله ثلاث خصال: يغفر له في أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين من أقربائه»[1].

غناء الحور العين

وقد أخبرنا الرسول ﷺ أن الحور العين في الجنان يغنين بأصوات جميلة عذبة، ففي معجم «الطبراني الأوسط» بإسناد صحيح عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «إن أزواج أهل الجنة ليغنين أزواجهنَّ بأحسن أصوات ما سمعها أحد قط. إن مما يغنين: نحن الخيِّرات الحسان، أزواج قوم كرام، ينظرن بقرة أعيان. وإن مما يغنين به: نحن الخالدات فلا يَمُتْنه، نحن الآمنات فلا يخفنه، نحن المقيمات فلا يظعنَّه»[2].

وروى سمويه في «فوائده» عن أنس، عن رسول الله ﷺ: «إن الحور العين لتغنين في الجنة، يقلن: نحن الحور الحسان، خبئنا لأزواج كرام»[3].

---

(١) مشكاة المصابيح: (٣/٣٥٨)، ورقمه: ٣٨٣٤.

(٢) صحيح الجامع الصغير: (٢/٤٨)، ورقم الحديث: ١٥٥٧، وعزاه الشيخ ناصر أيضاً إلى الطبراني في الأوسط، والى أبي نعيم، والضياء في صفة الجنة.

(٣) صحيح الجامع: (٢/٥٨)، ورقمه: ١٥٩٨.

غيرة الحور العين على أزواجهنَّ في الدنيا:

أخبرنا الرسول ﷺ أن الحور العين يغرن على أزواجهن في الدنيا إذا آذى الواحدَ زوجتُه في الدنيا، ففي مسند أحمد، وسنن الترمذي بإسناد صحيح عن معاذ عن رسول الله ﷺ قال: «لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا، إلا قالت زوجته من الحور العين: لا تؤذيه قاتلك الله، فإنما هو دخيل عندك، يوشك أن يفارقك إلينا»[1].

المطلب الرابع

يُعطى المؤمن في الجنة قوة مائة رجل

عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «يُعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا من الجماع». قيل: يا رسول الله، أو يطيق ذلك؟ قال: «يعطى قوة مائة رجل» رواه الترمذي[2].

---

(١) صحيح الجامع الصغير: (٦/ ١٢٥)، ورقم الحديث: ٧٠٦٩.

(٢) مشكاة المصابيح: (٣/ ٩٠)، ورقمه: ٥٦٣٦، وقال محقق المشكاة: (قال الترمذي: حديث صحيح غريب) قلت (المحقق): وإسناده حسن، بل هو صحيح، لأنه له شواهد منها عن زيد بن أرقم عند الدارمي بسند صحيح).

المبحث العاشر

ضحك أهل الجنة من أهل النار

بعد أن يدخل الله أهل الجنة الجنة ينادون خصومهم من الكفار أهل النار مبكتين ومؤنبين ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤].

لقد كان الكفار في الدنيا يخاصمون المؤمنين، ويسخرون منهم، ويهزؤون بهم، وفي ذلك اليوم ينتصر المؤمنون، فإذا بهم وهم في النعيم المقيم، ينظرون إلى المجرمين، فيسخرون منهم، ويهزؤون بهم، ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ * تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ * وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ * وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ * فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ * هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين: ٢٢-٣٦].

نعم، والله لقد جوزي الكفار بمثل ما كانوا يفعلون، والجزاء من جنس العمل، ويتذكر المؤمن في جنات النعيم ذلك القرين أو الصديق الذي كان يزين له الكفر في الدنيا، وكان يدعوه إلى تلك المبادىء الضالة التي تجعله

في صف الكافرين أعداء الله، فيحدّث إخوانه عن ذلك القرين، ويدعوهم للنظر إليه في مقره الذي يعذب فيه، فعندما يرى ما يعاينه من العذاب -يعلم مدى نعمة الله عليه، وكيف خلصه من حاله، ثم يتوجه إليه باللوم والتأنيب ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ * قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ * أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ * قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ * فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ * قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ * وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ * أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الصافات: ٥٠-٦٠].

المبحث الحادي عشر

التسبيح والتكبير من نعيم أهل الجنة

الجنة دار جزاء وإنعام، لا دار تكليف واختبار، وقد يشكل على هذا ما رواه البخاري وغيره عن أبي هريرة عن الرسول ﷺ في صفة أول زمرة تدخل الجنة، قال في آخره: «يسبحون الله بكرة وعشياً»[1]، ولا إشكال في ذلك إن شاء الله تعالى، لأن هذا ليس من باب التكليف، قال ابن حجر في شرحه للحديث: «قال القرطبي: هذا التسبيح ليس عن تكليف وإلزام!، وقد فسره جابر في حديثه عند مسلم بقوله: «يُلهمون التسبيح والتكبير كما تلهمون النفس»، ووجه التشبيه أن تنفس الإنسان لا كلفة عليه فيه، ولا بدَّ منه، فجعل تنفسهم تسبيحاً، وسببه أن قلوبهم تنورت بمعرفة الرب سبحانه، وامتلأت بحبه، ومن أحب شيئاً أكثر من ذكره»[2].

وقد قرر شيخ الإسلام أن هذا التسبيح والتكبير لون من ألوان النعيم الذي يتمتع به أهل الجنة، قال: «هذا ليس من عمل التكليف الذي يطلب له ثواب منفصل، بل نفس هذا العمل من النعيم الذي تتنعم به الأنفس وتتلذذ به»[3].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة، فتح الباري: (٦/ ٣١٨).

(٢) فتح الباري: (٦/ ٣٢٦).

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: (٤/ ٣٣٠).

المبحث الثاني عشر

أفضل ما يعطاه أهل الجنة رضوان الله والنظر إلى وجهه الكريم

عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير كله في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً»، متفق عليه[1].

وأعظم النعيم النظر إلى وجه الله الكريم في جنات النعيم، يقول ابن الأثير: «رؤية الله هي الغاية القصوى في نعيم الآخرة، والدرجة العليا من عطايا الله الفاخرة، بلّغنا الله منها ما نرجو»[2].

وقد صرح الحق تبارك وتعالى برؤية العباد لربهم في جنات النعيم ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، والكفار والمشركون يحرمون من هذا النعيم العظيم، والتكرمة الباهرة: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، وقد روى مسلم في صحيحه والترمذي في

---

(١) مشكاة المصابيح: (٣/ ٨٨).

(٢) جامع الأصول: (١٠/ ٥٥٧).

سننه عن صهيب الرومي -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، يقول تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيِّض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة، وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى»، زاد في رواية: «ثم تلا هذه الآية: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]»[1].

وفي صحيحي البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة مجوفة، عرضها -وفي رواية طولها- ستون ميلاً، في كل زاوية منها أهل، ما يرون الآخرين، يطوف عليهم المؤمن، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»[2].

والنظر إلى وجه الله تعالى هو من المزيد الذي وعد الله به المحسنين ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥]، ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، وقد فسرت الحسنى بالجنة، والزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم، ويشير إلى هذا الحديث الذي رواه مسلم وذكرناه في صدر هذا الفصل.

ورؤية الله رؤية حقيقية، لا كما تزعم بعض الفِرق التي نفت رؤية الله تعالى بمقاييس عقلية باطلة، وتحريفات لفظية جائرة، وقد سُئل الإمام

---

(١) جامع الأصول: (١٠/ ٥٦٠).

(٢) مشكاة المصابيح: (١٠/ ٨٦)، ورقمه: ٥٦١٦

مالك بن أنس إمام دار الهجرة عن قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٣]، فقيل: إن قوماً يقولون: إلى ثوابه. فقال مالك: كذبوا، فأين هم عن قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥]؟ قال مالك: الناس ينظرون إلى الله يوم القيامة بأعينهم، وقال: لو لم ير المؤمنون ربهم يوم القيامة، لم يعبر الله عن الكفار بالحجاب، فقال: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥]، رواه في «شرح السنة»[1].

ومن الذين نصوا على رؤية المؤمنين ربهم في الجنات الطحاوي في العقيدة المشهورة باسم «العقيدة الطحاوية»، قال: «والرؤية حق لأهل الجنة، بغير إحاطة ولا كيفية، كما نطق به كتاب ربنا: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾) [القيامة:٢٢-٢٣]، وتفسيره على ما أراد الله تعالى وعلمه، وكل ما جاء في ذلك الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ فهو كما قال، ومعناه على ما أراد، لا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا، فإنه ما سَلِم في دينه إلا من سلَّم لله عز وجل ولرسوله ﷺ. وردَّ علم ما اشتبه عليه إلى عالمه»[2].

وقال شارح الطحاوية مبيناً مذاهب الفرق الضالة في هذه المسألة ومذهب أهل الحق:

«المخالف في الرؤية الجهمية والمعتزلة ومن تبعهم من الخوارج والإمامية. وقولهم باطل مردود بالكتاب والسنة، وقد قال بثبوت الرؤية

---

(١) مشكاة المصابيح: (٣/ ١٠٠)، ورقمه: ٥٦٦٣.

(٢) شرح الطحاوية: ٢٠٣.

الصحابة والتابعون، وأئمة الإسلام المعروفون بالإمامة في الدين، وأهل الحديث، وسائر طوائف أهل الكلام المنسوبون إلى السنة والجماعة».

ثم بين أهمية هذه المسألة فقال:

«وهذه المسألة من أشرف مسائل أصول الدين وأجلِّها، وهي الغاية التي شمَّر إليها المشمِّرون، وتنافس المتنافسون، وحُرِمَها الذين هم عن ربهم محجوبون، وعن بابه مردودن».

ثم بين أن قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]. من أظهر الأدلة على هذه المسألة، وأمّا الذين أَبَوْا إلا تحريفها بما يسمونه تأويلاً: فتأويل نصوص المعاد والجنة والنار والحساب، أسهل من تأويلها على أرباب التأويل. ولا يشاء مبطل أن يتأول النصوص ويحرفها عن مواضعها إلا وجد إلى ذلك من السبيل ما وجده متأول هذه النصوص.

وبين خطورة التأويل: «وهذا الذي أفسد الدنيا والدين. وهكذا فعلت اليهود والنصارى في نصوص التوراة والإنجيل، وحذرنا الله أن نفعل مثلهم. وأبى المبطلون إلا سلوك سبيلهم، وكم جنى التأويل الفاسد على الدين وأهله من جناية. فهل قُتِلَ عثمان رضي الله عنه إلا بالتأويل الفاسد؟ وكذا ما جرى في يوم الجمل، وصفين، ومقتل الحسين، والحرة؟ وهل خرجت الخوارج، واعتزلت المعتزلة، ورفضت الروافض، وافترقت الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، إلا بالتأويل الفاسد» !؟.

ثم بين أن دلالة الآية على الرؤية من جانبين: الأول فقه النص. والثاني: فقه علماء السلف لهذا النص. ففي الأول قال:

«وإضافة النظر إلى الوجه، الذي هو محله، في هذه الآية، وتعديته بأداة «إلى» الصريحة في نظر العين، وإخلاء الكلام من قرينة تدل على خلافه -حقيقة موضوعة صريحة في أن الله أراد بذلك نظر العين التي في الوجه إلى الرب جل جلاله.

فإن النظر له عدة استعمالات، بحسب صلاته وتعديه بنفسه: فإن عدي بنفسه فمعناه: التوقف والانتظار: ﴿ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ﴾ [الحديد: ١٣]. وإن عدي بـ «في» فمعناه: التفكر والاعتبار، كقوله: ﴿ أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥]. وإن عدي بـ «إلى» فمعناه: المعاينة بالأبصار، كقوله تعالى: ﴿ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ ﴾ [الأنعام: ٩٩]. فكيف إذا أضيف إلى الوجه الذي هو محل البصر؟

وساق في الثاني عدة نصوص عن السلف تبين فقههم للآية، فعن «الحسن قال: نَظَرتْ إلى ربها فنضرت بنوره، وقال أبو صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما، ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٣]. قال: تنظر إلى وجه ربها عز وجل. وقال عكرمة: ﴿ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٞ﴾ [القيامة: ٢٢]. قال: من النعيم، ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾ [القيامة: ٢٣]، قال: تنظر إلى ربها نظراً، ثم حكى عن ابن عباس مثله. وهذا قول المفسرين من أهل السنة والحديث. وقال تعالى: ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾ [ق: ٣٥]. قال الطبري: قال علي بن أبي طالب وأنس بن مالك: هو النظر إلى وجه الله عز وجل.

ثم ذكر معنى الزيادة في قوله تعالى: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾ [يونس: ٢٦]، وأنها النظر إلى وجه الله الكريم وساق في ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن صهيب، قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ

﴿ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، نادى مناد: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، فيقولون: ما هو؟ ألم يُثقل موازيننا ويبيِّض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويُجرنا من النار؟ فيكشف الحجاب، فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه، وهي الزيادة».

ورواه غيره بأسانيد متعددة وألفاظ أخر، معناها أن الزيادة النظر إلى وجه الله عز وجل. وكذلك فسرها الصحابة رضي الله عنهم. روى ابن جرير ذلك عن جماعة، منهم: أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وحذيفة، وأبو موسى الأشعري، وابن عباس، رضي الله عنهم.

ومن الأدلة على هذه المسألة قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥].

وذكر المصنف أن الشافعي -رحمه الله- وغيره من الأئمة احتجوا بهذه الآية على الرؤية لأهل الجنة، ذكر ذلك الطبري وغيره عن المزني عن الشافعي، وقال الحاكم: حدثنا الأصم حدثنا الربيع بن سليمان قال: حضرت محمد بن إدريس الشافعي، وقد جاءته رقعة من الصعيد فيها: ما تقول في قول الله عز وجل: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥]. فقال الشافعي: لما أن حُجب هؤلاء في السخط، كان في هذا دليل على أن أولياءه يرونه في الرضا.

ثم تعرض لاستدلال المعتزلة بقوله تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف:١٤٣]. وبقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام:١٠٣]، وذكر أن الآيتين دليل عليهم، فالآية الأولى: تدل على ثبوت رؤيته من وجوه:

أحدها: أنه لا يظن بكليم الله ورسوله الكريم وأعلم الناس بربه في وقته أن يسأل ما لا يجوز عليه، بل هو عندهم من أعظم المحال.

الثاني: أن الله لم ينكر عليه سؤاله، ولما سأل نوح ربه نجاة ابنه أنكر سؤاله، وقال: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦].

الثالث: أنه تعالى قال: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾، ولم يقل: إني لا أُرى، أو لا تجوز رؤيتي، أو لست بمرئي. والفرق بين الجوابين ظاهر. ألا ترى أن من كان في كمه حجر فظنه رجل طعاماً صح أن يقال: إنك لن تأكله. وهذا يدل على أنه سبحانه مرئي، ولكن موسى لا تحتمل قواه رؤيته في هذه الدار، لضعف قوى البشر فيها عن رؤيته تعالى.

الرابع: يوضح الوجه الثالث قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]. فأعلمه أن الجبل مع قوته وصلابته لا يثبت للتجلي في هذه الدار، فكيف بالبشر الذي خُلق من ضعف؟

الخامس: أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يجعل الجبل مستقراً، وذلك ممكن، وقد علق به الرؤية، ولو كانت محالاً لكان نظير أن يقول: إن استقر الجبل فسوف آكل وأشرب وأنام. والكل عندهم سواء.

السادس: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فإذا جاز أن يتجلى للجبل، الذي هو جماد لا ثواب له ولا عقاب، فكيف يمتنع أن يتجلى لرسوله وأوليائه في دار كرامته؟ ولكن الله أعلم موسى أن الجبل إذا لم يثبت لرؤيته في هذه الدار، فالبشر أضعف.

السابع: أن الله كلم موسى، وناداه وناجاه، ومن جاز عليه التكلم والتكليم وأن يسمع مخاطبة كلامه بغير واسطة، فرؤيته أولى بالجواز. ولهذا لا يتم إنكار رؤيته بإنكار كلامه، وقد جمعوا بينهما.

ثم أجاب على دعواهم أن «لن» تفيد التأبيد وتدل على نفس الرؤية في الآخرة، وبيَّن الشيخ أنها لو قيدت بالتأبيد فلا تدل على دوام النفي في الآخرة، فكيف إذا أطلقت؟ ولهذا نظائر في القرآن، قال تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ [البقرة: ٩٥]، مع قوله: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧]. ولأنها لو كانت للتأبيد المطلق لما جاز تحديد الفعل بعدها، وقد جاء ذلك، قال تعالى: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ﴾ [يوسف: ٨٠].

فثبت أن (لن) لا تقتضي النفي المؤبد.

قال الشيخ جمال الدين بن مالك رحمه الله:

ومن رأى النفي بلن مؤبداً فقوله اردد وسواه فاعضدا

وأما الآية الثانية: فالاستدلال بها على الرؤية من وجه حسن لطيف، وهو: أن الله تعالى إنما ذكرها في سياق التمدح، ومعلوم أن المدح إنما يكون بالصفات الثبوتية، أما العدم المحض فليس بكمال فلا يمدح به، وإنما يمدح الرب تعالى بالنفي إذا تضمن أمراً وجودياً، كمدحه بنفي السِّنة والنوم، المتضمن كمال القيُّومية، وفي الموت المتضمن كمال الحياة، ونفي اللغوب والإعياء، المتضمن كمال القدرة، ونفي الشريك والصاحبة والولد والظهير، المتضمن كمال صمديته وغناه، ونفي الظلم، المتضمن كمال عدله وعلمه وغناه، ونفي النسيان وعزوب شيء عن علمه،

المتضمن كمال علمه وإحاطته، ونفي المثل، المتضمن لكمال ذاته وصفاته.

ولهذا لم يتمدح بعدم محض لم يتضمن أمراً ثبوتياً، فإن المعدم يشارك الموصوف في ذلك العدم، ولا يوصف الكامل بأمر يشترك هو والمعدوم فيه، فإن المعنى: إنه يُرى ولا يُدرك ولا يحاط به، فقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام:١٠٣] يدل على كمال عظمته، وأنه أكبر من كل شيء، وأنه لكمال عظمته لا يدرك بحيث يحاط به، فإن «الإدراك» هو الإحاطة بالشيء، وهو قدر زائد على الرؤية، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّآ﴾ [الشعراء:٦١-٦٢]. فلم ينف موسى الرؤية، وإنما نفى الإدراك، فالرؤية والإدراك كل منهما يوجد مع الآخر وبدونه، فالرب تعالى يُرى ولا يُدرك، كما يعلم ولا يحاط به علماً، وهذا هو الذي فهمه الصحابة والأئمة من الآية، كما ذكرت أقوالهم في تفسير الآية. بل هذه الشمس المخلوقة لا يتمكن رائيها من إدراكها على ما هي عليه.

ثم ذكر الشيخ أن «الأحاديث عن النبي ﷺ وأصحابه، الدالة على الرؤية متواترة، رواها أصحاب الصحاح والمسانيد والسنن. فمنها: حديث أبي هريرة: «أنا ناساً قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: هل تُضَارُّون في رؤية القمر ليلة البدر؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: هل تُضَارُّون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا، قال فإنكم ترونه كذلك»، الحديث، أخرجاه في «الصحيحين» بطوله.

وحديث أبي سعيد الخدري أيضاً في «الصحيحين» نظيره. وحديث

جرير بن عبد الله البجلي، قال: «كنا جلوساً مع النبي ﷺ، فنظر إلى القمر ليلة أربع عشرة، فقال: إنكم سترون ربكم عياناً، كما ترون هذا، لا تضامون في رؤيته». الحديث أخرجاه في «الصحيحين».

وحديث صهيب المتقدم، رواه مسلم وغيره. وحديث أبي موسى عن النبي ﷺ، قال: «وجنتان من فضة، آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب، آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن يروا ربهم تبارك وتعالى إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»، أخرجاه في «الصحيحين». ومن حديث عدي بن حاتم: «ولَيَلْقَينّ اللهَ أحدُكم يوم يلقاه، وليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان يترجم له، فيقول: ألم أبعث إليك رسولاً فيبلغك؟ فيقول: بلى يا رب، فيقول: ألم أعطك مالاً وأفضل عليك؟ فيقول: بلى يا رب»[1]. أخرجه البخاري في «صحيحه».

---

(١) راجع شرح الطحاوية: ٢٠٤ - ٢١٠.

المبحث الثالث عشر

الفوز بنعيم الجنة لا يستلزم ترك متاع الدنيا

ظن الرهبان وكثير من عُبَّاد هذه الأمة أن نعيم الآخرة لا يمكن أن يُنال إلا إذا رفض العبد طيبات الدنيا وملاذها، ولذلك ترى هؤلاء يُعذِّبون أجسادهم، ويَشُقُّون على أنفسهم فيديمون الصيام والقيام، وقد يحرِّم بعضهم الطيبات من الطعام والشراب واللباس، وقد يتركون العمل والزواج وهذه فكرة خاطئة، فإن الله خلق الطيبات للمؤمنين، وذم من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

والدنيا تذم إذا كانت شاغلاً عن الآخرة، أمّا إذا جعلها العبد معبراً ومدخلاً لنيل الآخرة، فالأمر ليس كما يظن بعض الناس.

المبحث الرابع عشر

آخر دعواهم

يمر المؤمنون في الموقف العظيم بأهوال عظام، ثم يمرون على الصراط فيشاهدون هولاً ورعباً، ثم يدخلهم الله جنات النعيم بعد أن أذهب عنهم الحزن، فيرون ما أعد الله لهم فيها من خيرات عظام، فترتفع ألسنتهم تسبح ربهم وتقدسه، فقد أذهب عنهم الحزن، وصدقهم وعده، وأورثهم الجنة ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٤-٣٥]. ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].

وآخر دعواهم في جنات النعيم: الحمد لله رب العالمين ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

المبحث الخامس عشر

أصحاب الأعراف

أخبرنا ربنا تبارك وتعالى عن قوم يكونون في يوم القيامة على الأعراف، والأعراف هو السور الحاجز بين الجنة والنار.

وعلى هذا السور يحبس أقوام بين الجنة والنار، ومنه يشرفون على أهل الجنّة وعلى أهل النار.

وأصحاب الأعراف -كما يقول ابن كثير- قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، ذلك أن الله أخبرنا أن من ثقلت موازينه، فهو من أهل الجنة المفلحين، ومن خفت موازينه، فهو من أهل النار الخاسرين ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢-١٠٣] وسكت النص عمن استوت حسناته وسيئاته.

وفي أصحاب الأعراف يقول رب العزة: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْٓا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ * ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ * أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٦-٤٩].

والتمعن في هذه الآيات يدل على مايأتي:

١- أنَّ أهل الأعراف ليسوا بكفار قطعاً، لأن الكفار يدخلون النار لا شك في ذلك، إذ مصير الكفار النار.

٢- أنهم يطمعون في دخول الجنّة، وهم يدعون ربهم أن لا يجعلهم مع القوم الظالمين أهل النار.

٣- أنهم ينادون أصحاب الجنّة مسلّمين عليهم طامعين في صحبتهم، ومنادين أهل النار مبكتيهم ذاميهم.

٤- أن الموقع الذي هم فيه موقع مشرف، يشرفون منه على أهل الجنة وأهل النار، ومن هنا سمي الموضع الذي هم فيه بالأعراف، فالأعراف جمع خرف، والعرب تسمي كل مرتفع من الأرض عرفاً، ومنه قيل لعرف الديك عرفاً لارتفاعه.

٥- أهل الأعراف أحسن حالاً من بعض المؤمنين الذين خفت موازينهم، فأدخلوا النار بذنوبهم، ثمَّ يخرجهم الله من النار بإيمانهم وتوحيدهم، فأهل الأعراف لا يدخلون النار، وإن تأخر دخولهم الجنّة.

الفصل السابع

المحاجة بين الجنة والنار

أخبرنا رسولنا ﷺ أن الجنة والنار تحاجتا عند ربهما، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تحاجت الجنة والنار، فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: فمالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم؟ -زاد في رواية: وغرتهم- فقال الله عز وجل للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي، أعذب بك من أشاء من عبادي، ولكل واحدة منهما ملؤها، فأما النار: فلا تمتلىء حتى يضع رجله -وفي رواية: حتى يضع الله تبارك وتعالى رجله- فتقول: قط قط قط، فهنالك تمتلىء، ويزوى بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله من خلقه أحداً، وأما الجنة فإن الله يُنشىء لها خلقاً» أخرجه البخاري ومسلم.

وللبخاري قال: «اختصمت الجنة والنار (إلى ربهما)، فقالت الجنة: يا رب مالها لا يدخلها إلا ضعفاء الناس وسقطهم؟ وقالت النار[1]، فقال (الله) للجنة: أنت رحمتي، وقال للنار: أنت عذابي أصيب بك من أشاء، ولكل واحدة منهما ملؤها، فأما الجنة، فإن الله لا يظلم من خلقه أحداً،

---

(١) قال محقق جامع الأصول: كذا في الأصول المخطوطة. وفي النسخ المطبوعة: يعني: أوثرت بالمتكبرين، قال الحافظ في (الفتح): كذا وقع هنا مختصراً، قال ابن بطال: سقط قول النار هنا من جميع النسخ، وهو محفوظ في الحديث وانظر (الفتح) (١٣/ ٤٣٤).

وإنه ينشىء للنار[1] من يشاء، فيلقون فيها، فتقول: هل من مزيد؟ ويلقون فيها، فتقول هل من مزيد؟ حتى يضع قدمه فيها، فتمتلىء، ويزوى بعضها إلى بعض، فتقول: قط قط قط».

وله في أخرى: -وكان كثيراً ما يقفه أبو سفيان الحميري، أحد رواته، قال: «يقال لجهنم، هل امتلأت؟ وتقول: هل من مزيد؟ فيضع الرب قدمه عليها، فتقول: قط قط».

ولمسلم بنحو الأولى، وانتهى عند قوله: «ولكل واحدة منهما ملؤها».

وقال في رواية: «فما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم[2] وغرتهم؟» وفي آخره: «فأما النار، فلا تمتلىء حتى يضع قدمه عليها، فهنالك تمتلىء، ويزوى بعضها إلى بعض» وأخرجه الترمذي نحو الأولى[3][4].

---

(١) جزم غير واحد من أهل العلم أن هذا خطأ من بعض الرواة، وصوابه ينشىء للجنة.

(٢) السُّقّط: المزدرى به، ومنه السَّقط: لرديء المتاع. وغرتهم: الغرّ الذي لم يجرب الأمور، فهو قليل الشر منقاد.

(٣) رواه البخاري (٨/ ٤٥٨) في تفسير سورة (ق)، باب قوله تعالى: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠]، وفي التوحيد، باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، ومسلم رقم (٢٨٤٦) في الجنة، باب النار ويدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، والترمذي رقم (٢٥٦٤) في صفة الجنة، باب ما جاء في احتجاج الجنة والنار.

(٤) جامع الأصول: (١٠/ ٥٤٤-٥٤٧).

المراجع

مرتبة على حروف المعجم

١- التخويف من النار والتعريف بدار أهل البوار. للحافظ أبي الفرج ابن الجوزي. المكتبة العلمية. بيروت.

٢- التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة للقرطبي. طبعة المكتبة السلفية. المدينة المنورة.

٣- الترغيب والترهيب للمنذري. طبعة المكتبة التجارية. القاهرة. الأولى.

٤- تفسير ابن كثير. طبعة دار الأندلس. بيروت. الطبعة الأولى. ١٣٨٥-١٩٦٦.

٥- تفسير ابن جرير الطبري. الطبعة الثانية ١٣٧٣ - ١٩٥٤. طبعة مصطفى البابي الحلبي.

٦- تقريب التهذيب، لابن حجر العسقلاني. طبعة المكتبة العلمية. المدينة المنورة.

٧- جامع الأصول في أحاديث الرسول، لابن الأثير. تحقيق عبد القادر الأرناؤوط. نشر مكتبة الحلواني ومكتبة الملاح. الطبعة الأولى ١٣٩٢ - ١٩٧٢.

٨- رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار. للصنعاني. تحقيق الشيخ ناصر الدين الألباني. طبعة المكتب الإسلامي. بيروت.

٩- سنن ابن ماجة. طبعة دار إحياء الكتب العربية. القاهرة ١٣٧٢ - ١٩٥٢.

١٠- سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ ناصر الدين الألباني، نشر المكتب الإسلامي، بيروت. الطبعة الأولى.

١١- شرح العقيدة الطحاوية، لمحمد بن محمد بن أبي العز الحنفي. نشر المكتب الإسلامي. بيروت. الطبعة الرابعة. ١٣٩١ هـ.

١٢- شرح النووي على مسلم للنووي. طبعة المكتبة العصرية. القاهرة.

١٣- صحيح البخاري. اعتمدنا على متن فتح الباري. طبعة السلفية . القاهرة. الطبعة الأولى.

١٤- صحيح الجامع الصغير. للسيوطي تحقيق محمد ناصر الدين الألباني. نشر المكتب الإسلامي. بيروت. الطبعة الأولى ١٣٨٨هـ- ١٩٦٩.

١٥- صحيح مسلم. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. طبعة دار إحياء الكتب العربية. بيروت. الطبعة الثانية ١٩٧٢.

١٦- فتح الباري. لابن حجر العسقلاني. طبعة المكتبة السلفية. القاهرة. الطبعة الأولى.

١٧- لوامع الأنوار البهية للسفاريني طبعة دولة قطر. الطبعة الأولى.

١٨- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية. جمع ابن قاسم. طبعة دولة المملكة العربية السعودية. الطبعة الأولى.

١٩- مراتب الإجماع لابن حزم. طبعة المكتبة العلمية. بيروت.

٢٠- مشكاة المصابيح للخطيب التبريزي. طبعة المكتب الإسلامي. دمشق. الطبعة الأولى. ١٣٨١ - ١٩٦١.

٢١- نهاية البداية والنهاية لابن كثير. نشر مكتبة النهضة الحديثة. الرياض. الطبعة الأولى. ١٩٦٨.

٢٢- يقظة أولي الاعتبار مما ورد في ذكر الجنة والنار، لصديق حسن خان، طبعة دار الأنصار. القاهرة. الطبعة الأولى. ١٣٩٨هـ- ١٩٧١م.

٢٣- اليوم الآخر في ظلال القرآن جمع وإعداد أحمد فائز. طبعة مؤسسة الرسالة. دمشق. الطبعة السابعة. ١٤٠٥ - ١٩٨٤.

الفهرس

مقدمة ٥

الباب الأول: النار ٩

تمهيد: تعريف وبيان ١١

الفصل الأول: الجنَّة والنار مخلوقتان ١٣

شبهة من قال النار لم تخلق بعد ١٧

الفصل الثاني: خَزنة النار ١٩

الفصل الثالث: صفة النار ٢١

المبحث الأول: مكان النار ٢١

المبحث الثاني: سِعَة النار وبُعد قَعرِها ٢٢

المبحث الثالث: دركاتُ النار ٢٥

المبحث الرابع: أبوابُ النار ٢٧

المبحث الخامس: وقود النار ٢٩

المبحث السادس: شدة حرّها وعِظَم دخانها وشرارهَا ٣١

المبحث السابع: النار تتكلم وتبصر ٣٤

المبحث الثامن: رؤيا ابن عمرَ للنار ٣٥

المبحث التاسع: هل يَرى أحد النار قبل يَوم القيامة عَياناً ٣٦

المبحث العاشر: تأثير النار على الدنيا وأهلها ٣٨

الفصل الرابع: النار خالدة لا تبيد ٣٩
الفصل الخامس: أهل النيران وجرائمهم ٤٧
المبحث الأول: أهلها المخلّدون فيها ٤٧
المطلب الأول: التعريف بهم ٤٧
المطلب الثاني: النار مسكن الكفرة المشركين ٤٩
المطلب الثالث: الدُّعاة إلى النار ٥٠
المطلب الرابع: أعظم جرائم الخالدين في النار ٥١
المطلب الخامس: جملة الجرائم التي تدخل النار ٥٥
المطلب السادس: أشخاص بأعيانهم في النار ٥٦
المطلب السابع: كفرة الجنِّ في النَّار ٥٧
المبحث الثاني: الذين لا يخلّدون في النار ٥٨
المطلب الأول: التعريف بهم ٥٨
المطلب الثاني: الذنوب المُتَوَعَّد عليها بالنار ٥٨
١- الفرق المخالفة للسنة ٥٨
٢- الممتنعون من الهجرة ٦١
٣- الجائرون في الحكم ٦٢
٤- الكذب على الرسول ﷺ ٦٢
٥- الكبر ٦٣
٦- قاتل النفس بغير حق ٦٣
٧- أكلة الربا ٦٥

٨- الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ٦٥
٩- المصورون ٦٦
١٠- الركون إلى الظالمين ٦٧
١١- الكاسيات العاريات والذين يجلدون ظهور الناس ٦٧
١٢- الذين يعذبون الحيوان ٦٨
١٣- عدم الإخلاص في طلب العلم ٦٨
١٤- الذين يشربون في آنية الذهب والفضة ٦٩
١٥- الذي يقطع السدر الذي يظل الناس ٦٩
١٦- جزاء الانتحار ٧٠
الفصل السادس: كثرة أهل النار ٧١
المبحث الأول: النصُوص الدالة على ذلك ٧١
المبحث الثاني: السرُّ في كثرة أهل النار ٧٥
المبحث الثالث: أكثر من يَدخل النار النساء ٧٨
الفصل السابع: عِظَم خلق أهل النار ٨١
الفصل الثامن: طعام أهل النار وشرابهم ولبَاسهم ٨٣
الفصل التاسع: عذابُ أهل النار ٨٩
المبحث الأول: شدَّة ما يكابده أهلُ النار من عذاب ٨٩
المبحث الثاني: صورٌ من عذابهم ٩١
المطلب الأول: تفاوت عذاب أهل النار ٩١

المطلب الثاني: إنضاج الجلود ٩٣
المطلب الثالث: الصهر ٩٤
المطلب الرابع: اللفح ٩٥
المطلب الخامس: السحب ٩٦
المطلب السادس: تسويد الوجوه ٩٦
المطلب السابع: إحاطة النار بالكفار ٩٧
المطلب الثامن: اطلاع النار على الأفئدة ٩٨
المطلب التاسع: اندلاق الأمعاء في النار ٩٩
المطلب العاشر: قيود أهل النار وأغلالهم وسلاسلهم ومطارقهم ١٠٠
المطلب الحادي عشر: قرن معبوداتهم وشياطينهم بهم في النار ١٠١
المطلب الثاني عشر: حسرتهم وندمهم ودعاؤهم ١٠٢
الفصل العاشر: كيف يتقي الإنسان نار الله ١٠٧

الباب الثاني: الجنة ١١١
تمهيد: تعريف وبيان ١١٣
الفصل الأول: دخول الجنَّة ١١٥
المبحث الأول: الشفاعة في دخول الجنّة ١١٦
المبحث الثاني: تهذيب المؤمنين وتنقيتهم قبل الدخول ١١٧
المبحث الثالث: الأوائل في دخول الجنة ١١٨
المبحث الرابع: الذين يدخلون الجنة بغير حساب ١٢٠

المبحث الخامس: الفقراء يسبقون الأغنياء إلى الجنَّة ١٢٢
المبحث السادس: أول ثلاثة يدخلون الجنة ١٢٤
المبحث السابع: دخول عصاة المؤمنين الجنة ١٢٥
المطلب الأول: إخراجهم من النار وإدخالهم الجنة بالشفاعة ١٢٥
المطلب الثاني: موقف الفرق من الشفاعة ١٢٨
المبحث الثامن: آخر من يدخل الجنة ١٣١
المبحث التاسع: الذين دخلوا الجنة قبل يوم القيامة ١٣٤
الفصل الثاني: الجنة خالدة وأهلها خالدون ١٣٧
المبحث الأول: النصوص الدالة على ذلك ١٣٧
المبحث الثاني: القائلون بفناء الجنة ١٣٩
الفصل الثالث: صفة الجنَّة ١٤١
المبحث الأول: الجنَّة لا مثل لها ١٤١
المبحث الثاني: أبواب الجنة ١٤٣
المبحث الثالث: درجات الجنة ١٤٧
المطلب الأول: الأدلة على أن الجنة درجات ١٤٧
المطلب الثاني: أعلى أهل الجنة منزلة وأدناهم ١٥٣
المطلب الثالث: المنزلة العليا في الجنة ١٥٤
المطلب الرابع: الذين ينزلون الدرجات العاليات ١٥٥
المبحث الرابع: تربة الجنَّة ١٥٧
المبحث الخامس: أنهار الجنَّة ١٥٨

المبحث السادس: عيون الجنة ١٦٢
المبحث السابع: قصور الجنَّة وخيامها ١٦٣
المبحث الثامن: نور الجنَّة ١٦٦
المبحث التاسع: ريح الجنة ١٦٧
المبحث العاشر: أشجار الجنَّة وثمارها ١٦٨
المطلب الأول: أشجارها وثمارها كثيرة متنوعة دائمة ١٦٨
المطلب الثاني: وصف بعض شجر الجنة ١٧٠
١- الشجرة التي يسير الراكب في ظلها مائة عام ١٧٠
٢- سدرة المنتهى ١٧١
٣- شجرة طوبى ١٧٢
المطلب الثالث: سيد ريحان الجنة ١٧٣
المطلب الرابع: سيقان أشجار الجنة من ذهب ١٧٣
المطلب الخامس: كيف يكثر المؤمن حظه من أشجار الجنة ١٧٤
المبحث الحادي عشر: دواب الجنة وطُيورها ١٧٥
الفصل الرابع: أصحاب الجنَّة ١٧٧
المبحث الأول: الأعمال التي استحقوا بها الجنَّة ١٧٧
المبحث الثاني: طريق الجنَّة شاق ١٨١
المبحث الثالث: أهل الجنّة يرثون نصيب أهل النار في الجنَّة ١٨٣
المبحث الرابع: الضعفاء أكثر أهل الجنة ١٨٥
المبحث الخامس: هل الرجال أكثر في الجنة أم النساء؟ ١٨٦

المبحث السادس: الذين توفوا قبل التكليف ١٨٨
المطلب الأول: أطفال المؤمنين ١٨٨
المطلب الثاني: أطفال المشركين ١٩١
المبحث السابع: مقدار ما يدخل الجنة من هذه الأمة ١٩٨
المبحث الثامن: سادة أهل الجنَّة ٢٠١
المطلب الأول: سيدا كهول أهل الجنة ٢٠١
المطلب الثاني: سيدا شباب أهل الجنة ٢٠١
المطلب الثالث: سيدات نساء أهل الجنة ٢٠٢
المبحث التاسع: العشرة المبشرون بالجنّة ٢٠٥
المبحث العاشر: بعضُ من نصَّ على أنهم في الجنة غير من ذكر ٢٠٧
١، ٢- جعفر وحمزة ٢٠٧
٣- عبد الله بن سلام ٢٠٧
٤- زيد بن حارثة ٢٠٨
٥- زيد بن عمرو بن نفيل ٢٠٨
٦- حارثة بن النعمان ٢٠٨
٧- بلال بن رباح ٢٠٩
٨- أبو الدحداح ٢٠٩
٩- ورقة بن نوفل ٢٠٩
المبحث الحادي عشر: الجنَّة ليست ثمناً للعمل ٢١١
الفصل الخامس: صفة أهل الجنَّة ونعيمهم فيها ٢١٣

الفصل السادس: نعيم أهل الجنة ٢١٥
المبحث الأول: فضل نعيم الجنَّة على متاع الدنيا ٢١٥
المبحث الثاني: طعامُ أهل الجنَّة وشرابُهم ٢٢٠
المطلب الأول: خمر أهل الجنة ٢٢١
المطلب الثاني: أول طعام أهل الجنة ٢٢٢
المطلب الثالث: طعام أهل الجنة وشرابهم لا دنس معه ٢٢٣
المطلب الرابع: لماذا يأكل أهل الجنة ويشربون ويمتشطون ٢٢٥
المطلب الخامس: آنية طعام أهل الجنة وشرابهم ٢٢٥
المبحث الثالث: لباس أهل الجنَّة وحُليهم ومباخرهم ٢٢٧
المبحث الرابع: فرش أهل الجنة ٢٢٩
المبحث الخامس: خدم أهل الجنة ٢٣٠
المبحث السادس: سوق أهل الجنة ٢٣٢
المبحث السابع: اجتماع أهل الجنة وأحاديثهم ٢٣٣
المبحث الثامن: أماني أهل الجنة ٢٣٤
المبحث التاسع: نساء أهل الجنة ٢٣٦
المطلب الأول: زوجة المؤمن في الدنيا زوجته في الآخرة إذا كانت مؤمنة ... ٢٣٦
المطلب الثاني: المرأة لآخر أزواجها ٢٣٦
المطلب الثالث: الحور العين ٢٣٧
المطلب الرابع: يعطى المؤمن في الجنة قوة مائة رجل ٢٤١
المبحث العاشر: ضحك أهل الجنة من أهل النار ٢٤٢

المبحث الحادي عشر: التسبيح والتكبير من نعيم أهل الجنة ٢٤٤
المبحث الثاني عشر: أفضل ما يعطاه أهل الجنة ٢٤٥
المبحث الثالث عشر: الفوز بنعيم الجنَّة لا يستلزم ترك متاع الدنيا ٢٥٥
المبحث الرابع عشر: آخر دعواهم ٢٥٦
المبحث الخامس عشر: أصحاب الأعراف ٢٥٧
الفصل السابع: المحاجّة بين الجنَّة والنار ٢٥٩
المراجع ٢٦١

رقم الإيداع

2005/5859

الترقيم الدولي I.S.B.N

977 - 342 - 277 - 1

القضاء والقدر

حُقُوق الطّبْع مَحْفُوظَة

لدار النفائس

للنشر والتوزيع - الأردن

طبعة خاصة بمصر
والمغرب العربي واليمن

(يمنع تداولها في دول الخليج العربي)

١٤٣٢هـ / ٢٠١١ م

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث ثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م هي عشر الجائزة تتويجًا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية
الإدارة : القاهرة : ٤٠ شارع أحمد أبو العلا - المتفرع من شارع نور الدين بهجت - السوازي لامتداد شارع مكرم عبيد - مدينة نصر
هاتف : ٢٢٨٧٣٢٤٦ - ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +) فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)
فاكس : ٢٢٦٣٩٨٦١ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين
هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)
بريديًا : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

دار النفائس
للنشر والتوزيع الأردن

العبدلي - مقابل عمارة جوهرة القدس
ص.ب : ٩٢٧٥١١ عمّان ١١١٩٠ الأردن
هاتف : ٥٦٩٣٩٤٠ - فاكس : ٥٦٩٣٩٤١
بريد إلكتروني : ALNAFAES@HOTMAIL.COM

العقيدة في ضوء الكتاب والسنة ٨

القضاء والقدر

أ.د. عمر سليمان عبدالله الأشقر

دار النفائس
للنشر والتوزيع - الأردن

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي هدانا إليه صراطاً مستقيماً، وجعلنا من أهل طاعته، وأكرمنا بالإسلام، وهدانا للإيمان، وأصلي على خاتم رسله وأنبيائه، الذي بلَّغ الرسالة وأدى الأمانة، ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده، حتى أتاه اليقين من ربّه، فصلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله الأخيار، وأصحابه الأبرار، وبعد:

فهٰذا هو الكتاب الأخير في السلسلة التي ابتدأتها منذ أكثر من عشر سنوات، وإنني أحمد الله على أن وفقني لإتمام هٰذا العمل، وإني لأرجو من الله القبول، وأن يجعل نيتي خالصة لوجهه، وأن يثيبني على عملي هٰذا في يوم لقياه، كما أعانني على إتمامه في هٰذه الحياة.

لقد أكرمني ربي بأن لاقت هٰذه السلسلة قبولاً حسناً عند عباد الله، وإني لأرجو ربي أن يتقبلها مني، ويرضى عن عملي بفضله وكرمه وإحسانه، وأن يغفر لي ما وقعت فيه من زلل وتقصير في العمل، وإني لأرجو من قراء هٰذه السلسلة الدعاء لكاتبها بأن يتجاوز الله عن زلاته، ويصفح عن آثامه، لعلّ الله يرحمني ببركة دعوة صالحة من عبد صالح.

وقد طال انتظار القراء لهٰذا الجزء، وحال دون إخراجه أعمال تلاحقت، ومشاغل لم أستطع منها فكاكاً، حتى شاء الله أن أجد فسحة من الوقت، فقدّرني ربي على كتابته وإتمامه، وكنت قبل هٰذا الوقت حاولت أن أكتب فيه، ولكن كان يضيق صدري بعد أن أبدأ الكتابة، فقد كنت

متخوفاً من الكتابة في موضوع زلّت فيه أقلام كثير من الناس، وضلَّ فيه كثير من الذين أُعْطُوا ذكاءً وفطنة.

لقد كان هٰذا الباب ولا يزال من أعوص الأبواب التي خاض فيها الخائضون، وكثير من أهل الضلال أتُوا من الانحراف في باب القدر، وكم من خائض فيه يظن نفسه محسناً، وهو قد تاه وحار، وتنكب الطريق.

يقول العلامة ابن القيم مقدماً لكتابه «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل»: «سلك جماهير العقلاء في هٰذا الباب في كل واد، وأخذوا في كل طريق، وتولجوا كل مضيق، وركبوا كل صعب وذلول، وقصدوا الوصول إلى معرفته، والوقوف على حقيقته وتكلَمتْ فيه الأمم قديماً وحديثاً، وساروا للوصول إلى مغزاه سيراً حثيثاً، وخاضت فيه الفرق على تباينها واختلافها، وصنّف فيه المصنفون الكتب على تنوع أصنافها، فلا أحد إلا وهو يحدث نفسه بهٰذا الشأن، ويطلب الوصول فيه إليه حقيقة العرفان، فتراه متردداً فيه مع نفسه، أو مناظراً لبني جنسه، وكلٌّ قد اختار لنفسه قولاً لا يعتقد الصواب في سواه، ولا يرتضي إلا إياه.

وكلهم إلا من تمسك بالوحي عن طريق الصواب مردود، وباب الهدى في وجهه مسدود، تحسى على غير طائل، وارتوى من ماء آجن، قد طاف على باب الأفكار، ففاز بأخس الآراء والمطالب، فرح بما عنده من العلم الذي لا يُسمن ولا يغني من جوع، وقدم آراء من أحسن به الظن على الوحي المنزل المشروع، والنصِّ المرفوع، حيران يأتم بكل حيران، يحسب كل شراب ماء فهو طول عمره ظمآن، يُنادَى إلى الصواب من مكان بعيد، أقبل إلى الهدى فلا يستجيب إلى يوم الوعيد، لقد فرح بما

عنده من الضلال، وقنع بأنواع الباطل وأصناف المحال، منعه الكفر الذي اعتقده هدى، وما هو ببالغه عن الهداة المهتدين، ولسان حاله أو قاله يقول: أهؤلاء الذين منَّ الله عليهم من بيننا، أليس الله بأعلم بالشاكرين»[1].

لقد رأيت مصداق ما قاله ابن القيم في كلامه الذي نقلناه عنه فيما اطلعت عليه من كلام الخائضين في القدر قديماً وحديثاً، فكنت أخشى على نفسي من الخوض في هٰذا الموضوع والكتابة فيه، وكان يدفعني إلى الكتابة فيه الرغبة في إتمام هٰذه السلسلة، وسؤال كثير من طلبة العلم عن أوان صدور هٰذا الكتاب.

فاستعنت بالله، وأوغلت في هٰذا الباب برفق، متأسياً بمنهج أهل العلم ممن شُهِدَ له بالاستقامة والإمامة في الدين والعلم، ولذلك فقد أكثرت من النقول فيما كتبت في هٰذا الكتاب، وأكثرت من أقوال أهل التقى والصلاح من سلفنا الصالح اتباعاً لسبيل المؤمنين، أملاً في أن لا ينحرف بي المسار، ولا أضل في منحنيات الطريق. ولقد كانت آيات الكتاب وأحاديث الرسول ﷺ هي الأنوار التي أستضيء بها في المسار الذي سلكته، والعلم الذي دونته، والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وإني لأرجو من أهل العلم تسديد ما زلَّ فيه القلم، وتعثر فيه الفكر، وشرد به القول.

وقد جاء هٰذ الكتاب بعد هٰذه الفاتحة في سبعة فصول:

بينت في الفصل الأول وجوب الإيمان بالقدر، وقررت أن الإيمان به

---

(١) شفاء العيل: ص١٤.

أصل من أصول الإيمان.

وألقيت في الفصل الثاني نظرة عجلى على تاريخ القول بالقدر.

والفصل الثالث مخصص لتعريف القدر وبيان أركانه.

وقد عقدت فيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: مخصص للتعريف بالقدر.

وفي المبحث الثاني: عرّفت القضاء مبيناً الصلة بينه وبين القدر.

وذكرت في المبحث الثالث أركان الإيمان بالقدر التي لا يتم إيمان أحد به مالم يؤمن بها.

والمبحث الرابع: معقود للتدليل على أن أفعال العباد مقدَّرة مقضية مخلوقة لله عز وجل، وقد أوردت كثيراً من النصوص الدالة على ذلك من الكتاب والسنة.

والفصل الرابع جعلته لبيان حدود نظر العقل في القدر، وبيان ما يمكنه إدراكه وما لا يمكنه في هٰذا الباب.

والفصل الخامس معقود لبيان المذاهب في القدر وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: ذكرت فيه مذهب المكذبين بالقدر، وأوردت فيه مذهبهم، كما بينت ضلالهم، ومحاورات العلماء لهٰذا الفريق، كما أوردت ما يظنونه أدلة تؤيد مذهبهم، وهي في الواقع شبهات لا تكاد تسلط عليها أضواء الحق حتى تتلاشى وتزول لمن هداه الله وشرح صدره للإيمان.

والمبحث الثاني: مخصص لبيان المذهب الذي أضل الأمّة وعطل عقول أبنائها وشل إرادتهم وحركتهم، وعطّل طاقاتهم وجَيّر أعمالهم

لأعداء الإسلام، ألا وهو مذهب القدرية المجبرة الذين تركوا العمل، احتجاجاً بالقدر.

وقد بينت أنهم ضلوا من سبعة أوجه.

والمبحث الثالث: خصصته لبيان مذهب أهل السنة والجماعة، وقد عقدت له ثلاثة مطالب، سُقت في كل مطلب منها عقيدةً دوَّنها عالم من علماء أهل السنة في باب القدر.

والفصل السادس: جعلته لبيان السبب في ضلال العباد في باب القدر.

وذكرت في الفصل السابع والأخير بعض الثمار الطيبة للإيمان بالقدر.

أسأل الله تعالى أن أكون قد وُفِّقت في تجلية هٰذا الأصل، كما أسأله أن ينفع به عباده، إنه نعم المولى ونعم النصير، وهو حسبي ونعم الوكيل.

د. عمر سليمان الأشقر

٢٥ من رجب ١٤١٠ هـ

١٩٩٠/٢/٢١

الفصل الأول

الإيمان بالقدر من أصول الإيمان

الإيمان بالقدر من أصول الإيمان التي لا يتم إيمان العبد إلا بها، ففي صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب في سؤال جبريل عليه السلام الرسول ﷺ عن الإيمان قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، وتؤمن بالقدر خيره وشرّه. قال (أي جبريل عليه السلام): صدقت»[1].

والنصوص المخبرة عن قدر الله أو الآمرة بالإيمان بالقدر كثيرة، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]. وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]، وقوله: ﴿وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢]. وقال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]. وقال: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى: ١-٣].

وروى مسلم في صحيحه عن طاووس قال: «أدركت ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: كل شيء بقدر. قال وسمعت عبد الله بن عمر يقول: كل شيء بقدر حتى العجزُ والكَيْس[2]، أو الكَيْس والعَجْز»[3].

وروى مسلم أيضاً عن أبي هريرة قال: «جاء مشركو قريش يخاصمون

---

(١) شرح النووي على مسلم: ١/ ١٥٧.

(٢) الكَيْس ضد العجز.

(٣) رواه مسلم: ٤/ ٢٠٤٥ ورقمه: ٢٦٥٥.

رسول الله ﷺ في القدر، فنزلت: ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ * إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: ٤٨-٤٩][1].

والنصوص في ذلك كثيرة جداً فإنّ النصوص الدالة على علم الله وقدرته ومشيئته وخلقه تدل على قدره تبارك وتعالى، فالقدر يتضمن الإيمان بعلم الله ومشيئته وخلقه، كما سيأتي بيانه، وذكر النصوص الواردة في ذلك.

والقدر يدل بوضعه -كما يقول الراغب الأصفهاني فيما نقله عنه ابن حجر العسقلاني- على القدرة وعلى المقدور الكائن بالعلم[2].

فلله تعالى القدرة المطلقة، وقدرته لا يعجزها شيء، ومن أسمائه -تبارك وتعالى- القادر والقدير والمقتدر، والقدرة صفة من صفاته.

فالقادر اسم فاعل من قدر يقدر.

والقدير فعيل منه، وهو للمبالغة، ومعنى (القدير) الفاعل لما يشاء، على قدر ما تقتضيه الحكمة لا زائداً عليه، ولا ناقصاً عنه، ولذلك لا يصح أن يوصف به إلا الله عز وجل. قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

و(المقتدر) مفتعل من اقتدر، وهو أبلغ من (قدير) ومنه قوله: ﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴾ [القمر: ٥٥].

وقد سئل الإمام أحمد -رحمه الله تعالى- عن القدر: فقال: «القدر قدرة الله»[3].

---

(١) رواه مسلم: ٤/٢٠٤٦. ورقمه: ٢٦٥٦، ورواه الترمذي: انظر صحيح سنن الترمذي: ٣/٢٢٩.

(٢) فتح الباري: ١١/٤٧٧.

(٣) مجموع فتاوي شيخ الإسلام: ٨/٣٠٨.

قال ابن القيم: «وقال الإمام أحمد: القدرُ قدرة الله. واستحسن ابن عقيل هٰذا الكلام جداً، وقال: هٰذا يدل على دقة أحمد وتبحره في معرفة أصول الدين، وهو كما قال أبو الوفا، فإن إنكاره إنكار لقدرة الرب على خلق أفعال العباد وكتابتها وتقديرها» وقد صاغ ابن القيم هٰذا المعنى شعراً فقال:

فحقيقة القدر الذي حار الورى ... في شأنه هو قدرة الرحمٰن

واستحسن ابن عقيل ذا من أحمد ... لما حكاه عن الرضا الربان

له قال الإمام شفى القلوب بلفظةٍ ... ذات اختصار وهي ذات بيان

ولذا فإن الذين يكذبون بالقدر لا يثبتون قدرة الله تعالى، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «مَنْ لم يقل بقول السلف فإنه لا يُثبِت لله قدرة، ولا يثبته قادراً كالجهمية ومن اتبعهم، والمعتزلة المجبرة والنافية: حقيقة قولهم أنه ليس قادراً، وليس له الملك، فإن المُلْك إما أن يكون هو القدرة، أو المقدور، أو كلاهما، وعلى كل تقدير فلا بدَّ من القدرة، فمن لم يثبت له قدرة حقيقية لم يثبت له ملكاً»[1].

والذين كذبوا بالقدر لم يوحدوا الله عز وجل، فإن نفاة القدر «يقولون: خالق الخير غير خالق الشر، ويقول من كان منهم في ملتنا: إن الذنوب الواقعة ليست واقعة بمشيئة الله تعالى، وربما قالوا: ولا يعلمها أيضاً، ويقولون: إن جميع أفعال الحيوان واقعة بغير قدرته ولا صنعه، فيجحدون مشيئته النافذة، وقدرته الشاملة، ولهٰذا قال ابن عباس: القدر نظام التوحيد، فمن وحَّد الله وآمن بالقدر تمَّ توحيده، ومن وَحَّدَ الله وكذَّب

(١) شفاء العليل: ٤٩.

بالقدر نقض تكذيبُه توحيدَه»[1].

وقد تقاطر أهل العلم على تقرير القدر والنصِّ على وجوب الإيمان به، وما من عالم من علماء أهل السنة الذين هم أعلام الهدى وأنوار الدجا إلا وقد نصَّ على وجوب الإيمان به، وبدَّع وسفَّه من أنكره وردَّه.

يقول النووي رحمه الله تعالى في شرحه لأحاديث القدر من صحيح مسلم: «وفي هٰذه الأحاديث كلها دلالات ظاهرة لمذهب أهل السنة في إثبات القدر، وأن جميع الواقعات بقضاء الله وقدره خيرها وشرها نفعها وضرها»[2].

وقال في موضع آخر: «تظاهرت الأدلة القطعيات من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأهل الحل والعقد من السلف والخلف على إثبات قدر الله سبحانه وتعالى»[3].

ويقول ابن حجر رحمه الله تعالى: «مذهب السلف قاطبة أن الأمور كلَّها بتقدير الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١][4].

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ٢٥٨.

(٢) شرح النووي على مسلم: ١٦/ ١٩٦.

(٣) شرح النووي على مسلم ٢/ ١٥٥.

(٤) فتح الباري: ١١/ ٤٧٨.

الفصل الثاني
نظرة في تاريخ القدر

الإيمان بالقدر أحد أصول الإيمان، وقد بيَّن الكتاب والسنة مفهوم القدر، وبين الرسول ﷺ أن العمل والأخذ بالأسباب هو من القدر، ولا ينافيه ولا يناقضه، وحذر أمته من الذين يكذبون بالقدر، أو يعارضون به الشرع.

وغضب الرسول ﷺ غضباً شديداً عندما خرج على أصحابه يوماً وهم يتنازعون في القدر، حتى احمرَّ وجهه، حتى كأنما فُقِيء في وجنتيه الرمان، فقال: «أبهٰذا أمرتم، أم بهٰذا أرسلت إليكم؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هٰذا الأمر، عزمت عليكم ألا تنازعوا فيه»[1].

واستجاب الصحابة رضوان الله عليهم لعزيمة نبيهم وتوجيهه، فلم يُعرف عن واحد منهم أنه نازع في القدر في حياة الرسول ﷺ أو بعد وفاته.

ولم يَرِدْ إلينا أن واحداً من المسلمين نازع في القدر في عهد الخلفاء الراشدين أبي بكر وعمر وعثمان، وكل ما ورد إلينا أن أبا عبيدة عامر بن الجراح اعترض على رجوع عمر بالناس عن دخول الشام عندما انتشر بها الطاعون، وقال لعمر بن الخطاب: «يا أمير المؤمنين أفراراً من قدر الله»؟

---

(١) صحيح سنن الترمذي: ٢/ ٢٢٣.

فقال عمر: «لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم نفرُّ من قدر الله إلى قدر الله. أرأيت إن كان لك إبل هبطت وادياً له عدوتان: إحداهما خصيبة، والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله»[1].

وروى اللالكائي أن عمر بن الخطاب خطب الناس بالجابية (من أرض الشام) فقال في خطبته: «من يضلل الله فلا هادي له». وكان الجثاليق[2] بين يديه، فقال: إن الله لا يضل أحداً، وعندما كررها عمر بن الخطاب: نفض الجثاليق ثوبه ينكر قول عمر.

فقال له عمر بعد أن تُرجم له كلامه: «كذبت يا عدو الله، بل الله خلقك، والله يضلك، ثم يميتك، فيدخلك النار إن شاء الله... إن الله خلق الخلق، وقال: حين خُلق آدم نثر ذريته في يده، وكتب أهل الجنّة وماهم عاملون، وكتب أهل النار وما هم عاملون، ثم قال: «هٰؤلاء لهٰذه، وهٰؤلاء لهٰذه». فتفرق الناس وما يختلف في القدر اثنان»[3].

وأول من تكلم بالقدر رجل من أهل البصرة كان يعمل بقالاً يقال له سَنْسَويه، قال الأوزاعي: «أول من نطق في القدر رجل من العراق يقال له: سوسن، كان نصرانياً فأسلم، ثم تنصَّر، فأخذ عنه معبد الجهني، وأخذ غيلان عن معبد»[4].

وقال يونس بن عبيد: «أدركت البصرة وما بها قدري إلا سَنْسَويه ومعبد

---

(١) صحيح البخاري: انظر فتح الباري ١٠/ ١٧٩، ورقم الحديث: ٥٧٢٩.

(٢) جثاليق النصارى: رأسهم ومقدمهم.

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي: ٣/ ٦٥٩.

(٤) شرح أصول الاعتقاد: ٣/ ٧٥٠ وانظر الشريعة للآجري: ص٢٤٢.

الجهني، وآخر ملعون في بني عوافة»[1].

وروى مسلم في صحيحه عن بُرَيْدة بن يحيى بن يعمر قال: «كان أول من قال بالقدر بالبصرة معبد الجهني» وذكر بريدة في حديثه أن معبداً ومن معه يزعمون «أن لا قدر، وأن الأمر أنف»[2].

وقد أثار الصحابة الأحياء في ذلك الوقت كعبد الله بن عمر وابن عباس وواثلة بن الأصقع، وجابر بن عبد الله، وأبي هريرة، وأنس بن مالك حرباً على أصحاب هٰذه المقالة[3]. ثم أخذ هٰذا المذهب عن معبدٍ رؤوسُ الاعتزال وأئمته كواصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، وغيلان الدمشقي.

فأما واصل بن عطاء رأس الاعتزال، فقد زعم أن الشر لا يجوز إضافته إلى الله، لأن الله حكيم، ولا يجوز أن يريد من العباد خلاف ما يأمر، ويحتم عليهم شيئاً، ثمَّ يجازيهم عليه.

وقرر في مقالته: أن العبد هو الفاعل للخير والشر، والإيمان والكفر، والطاعة والمعصية، وهو المجازى على فعله، والربُّ تعالى أقدره على ذلك كله[4].

وذهب النظام من المعتزلة إلى أن الله لا يوصف بالقدرة على الشرور والمعاصي، وليست هي مقدورة لله[5].

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة: ٣/ ٧٤٩.
(٢) شرح النووي على مسلم: ١/ ١٥٠.
(٣) راجع: الفرق بين الفرق: ص١٩.
(٤) الملل والنحل للشهرستاني: ١/ ٤٧.
(٥) الملل والنحل: ١/ ٥٤.

وهٰذه الفرقة هي التي أطلق عليها علماؤنا: اسم القدرية. «وسموا بذلك لأنهم أثبتوا للعبد قدرة توجد الفعل بانفرادها واستقلالها دون الله تعالى، ونفوا أن تكون الأشياء بقدر الله وقضائه، وهٰؤلاء مع ضلالتهم يضيفون هٰذا الاسم إلى مخالفيهم من أهل الهدى، فيقولون: أنتم القدرية حين تجعلون الأشياء جارية بقدر من الله، وإنكم أولى بهٰذا الاسم منا»[1].

وقد ذكر النووي في شرحه على صحيح مسلم: «أن بعض القدرية قال: لسنا بقدرية، بل أنتم القدرية، لاعتقادكم إثبات القدر.

قال ابن قتيبة والإمام (يريد الإمام الجويني): «هٰذا تمويه من هٰؤلاء الجهلة ومباهته وتواقح، فإن أهل الحق يفوضون أمورهم إلى الله سبحانه وتعالى، ويضيفون القدر والأفعال إلى الله سبحانه وتعالى، وهٰؤلاء الجهلة يضيفونه إلى أنفسهم، ومُدَّعي الشيء لنفسه، ومضيفه إليها أولى بأن ينسب إليه ممن يعتقده لغيره، وينفيه عن نفسه»[2].

وقد صح أن الرسول ﷺ سمّى القدرية مجوس هٰذه الأمة، والحديث أخرجه أبو داود في سننه والحاكم في مستدركه على الصحيحين، وقال: صحيح على شرط الشيخين إن صح سماع أبي حازم من ابن عمر[3].

والسبب في تسمية هٰذه الفرقة بمجوس هٰذه الأمة «مضاهاة مذهبهم المجوس في قولهم بالأصلين: النور والظلمة، يزعمون أن الخير من فعل النور، والشر من فعل الظلمة، فصاروا ثَـنَوِيَّـة، وكذلك القدرية يضيفون

---

(١) جامع الأصول لابن الأثير: ١٠/ ١٢٨.

(٢) شرح النووي على مسلم: ١/ ١٥٤.

(٣) شرح النووي على مسلم: ١/ ١٥٤.

الخير إلى الله تعالى، والشر إلى غيره، والله -سبحانه وتعالى- خالق الخير والشر جميعاً، لا يكون شيء منهما إلا بمشيئته، فهما مضافان إليه -سبحانه وتعالى- خلقاً وإيجاداً، وإلى الفاعلين لهما من عباده فعلاً واكتساباً»[1][2].

ونشأ في آخر عهد بني أمية أقوام يزعمون أن العبد مجبور على فعله، ليس له خيار فيما يأخذ أو يدع، وبعضهم يثبت للعبد قدرة غير مؤثرة، وأول من ظهر عنه هٰذا القول هو الجهم بن صفوان، وتفرع عن هٰذه البدعة أقوال شنيعة، وضلال كبير[3].

وقد انتشر هٰذا القول في الأمّة الإسلامية وتقلّده كثير من العباد والزهاد والمتصوفة، وإذا كان الفريق الأول أشبه المجوس فإن هٰذا الفريق أشبه المشركين الذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

وهٰذا الفريق شرٌّ من الفريق الأول، لأن الأولين عظموا الأمر والنهي، وأخرجوا أفعال العباد عن أن تكون خلقاً لله، وهٰذا الفريق أثبت القدر، واحتج به على إبطال الأمر والنهي[4][5].

---

(١) نقل هٰذا الكلام النووي في شرحه على مسلم: ١/ ١٥٤ عن الخطابي. وانظر جامع الأصول: ١٠/ ١٢٨.

(٢) سيأتي مزيد بيان لهٰذه الفرقة ومعتقداتها وبيان ضلالها عندما نتكلم على الذين ضلوا في باب القدر.

(٣) راجع مجموع فتاوي شيخ الإسلام: ٨/ ٤٦٠، والملل والنحل للشهرستاني: ١/ ٨٥.

(٤) عقيدة السفاريني: ١/ ٣٠٦.

(٥) سيأتي مزيد بحث عن أصحاب هٰذا التوجه.

الفصل الثالث
التعريف بالقضاء والقدر

المبحث الأول
التعريف بالقدر

«القدر مصدر، تقول: قَدَرت الشيء بتخفيف الدال وفتحها أقْدِره بالكسر والفتح قَدْراً وقَدَراً، إذا أحطت بمقداره»[1].

والقدر في اللغة «القضاء والحكم ومبلغ الشيء، والتقدير التروية والتفكر في تسوية الأمر»[2].

والقدر في الاصطلاح: «ما سبق به العلم، وجرى به القلم مما هو كائن إلى الأبد، وأنه -عزّ وجلَّ- قدَّر مقادير الخلائق، وما يكون من الأشياء قبل أن تكون في الأزل، وعلم سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده تعالى، وعلى صفات مخصوصة، فهي تقع على حسب ما قدرها»[3].

وقال ابن حجر في تعريفه: «المراد أنّ الله -تعالى- علم مقادير الأشياء

---

(١) فتح الباري لابن حجر العسقلاني: ١/ ١١٨.

(٢) القاموس المحيط للفيروزآبادي: ص٥٩١.

(٣) عقيدة السفاريني: ١/ ٣٤٨.

وأزمانها قبل إيجادها، ثمّ أوجد ما سبق في علمه أنه يوجد، فكل محدث صادر عن علمه وقدرته وإرادته»[1].

ونقل السفاريني عن الأشعرية أن «القدر إيجاد الله -تعالى- الأشياء على قدر مخصوص، وتقدير معين في ذواتها وأحوالها طبق ما سبق به العلم وجرى به القلم»[2].

وهٰذه التعريفات متقاربة فيما بينها، وهي تفيد أن القدر يشمل أمرين:

الأول: علم الله الأزلي الذي حكم فيه بوجود ما شاء أن يوجده، وحدد صفات المخلوقات التي يريد إيجادها، وقد كتب كل ذلك في اللوح المحفوظ بكلماته، فالأرض والسماء أحجامهما وأبعادهما وطريقة تكوينهما وما بينهما وما فيهما كل ذلك مدون علمه في اللوح المحفوظ تدويناً دقيقاً وافياً.

والثاني: إيجاد ما قدر الله إيجاده على النحو الذي سبق علمه وجرى به قلمه، فيأتي الواقع المشهود مطابقاً للعلم السابق المكتوب.

والقدر يطلق ويراد به التقدير السابق لما في علم الله، ويطلق ويراد ما خلقه وأوجده على النحو الذي علمه.

وسئل الإمام الشافعي -رحمه الله تعالى- عن القدر فأجاب شعراً قائلاً:

فما شئتَ كان وإن لم أشأ ... وما شئتُ إن لم تشأ لم يكنْ

خلقتَ العباد على ما علمتَ ... ففي العلم يجري الفتى والمُسِنْ

---

(١) فتح الباري: ١/ ١١٨.

(٢) عقيدة السفاريني: ١/ ٣٤٥.

على ذا منتَ وهٰذا خذلتَ وهٰذا أعنتَ وهٰذا لم تُعِنْ
فمنهم شقي ومنهم سعيد ومنهم قبيح ومنهم حَسَنْ[1]

(١) الاعتقاد للبيهقي: ص١٦٢ . شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي: ١/ ٧٠٢.

المبحث الثاني
تعريف بالقضاء

«القضاء: الفصل والحكم. وقد تكرر في أحاديث الرسول ﷺ ذكر (القضاء) وأصله القطع والفصل. يُقال: قضى يقضي قضاء فهو قاضٍ، إذا حكم وفصل. وقضاء الشيء إحكامه وإمضاؤه والفراغ منه، فيكون بمعنى الخلق.

وقال الزهري: القضاء في اللغة على وجوه، مرجعها إلى انقضاء الشيء وتمامه، وكل ما أُحكم عمله، أو أُتمَّ، أو أُدِّي، أو أُوجب، أو عُلم، أو نُفِّذ، أو أُمضي، فقد قضي، وقد جاءت هٰذه الوجوه كلها في الأحاديث[1].

وللعلماء في التفرقة بين القضاء والقدر قولان:

الأول: القضاء هو العلم السابق الذي حكم الله به في الأزل، والقدر وقوع الخلق على وزن الأمر المقضي السابق. يقول ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى: «قال العلماء القضاء هو الحكم الكلي الإجمالي في الأزل، والقدر جزئيات ذلك الحكم وتفاصيله»[2]. وقال في موضع آخر: «القضاء الحكم بالكليات على سبيل الإجمال في الأزل، والقدر الحكم بوقوع الجزئيات التي لتلك الكليات على سبيل التفصيل»[3].

---

(١) النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: ٤/ ٧٨.

(٢) فتح الباري: ١١/ ٤٧٧.

(٣) فتح الباري: ١١/ ١٤٩.

الثاني: عكس القول السابق، فالقدر هو الحكم السابق، والقضاء هو الخلق.

قال ابن بطال: «القضاء هو المقضي»[1] ومراده بالمقضي المخلوق، وهٰذا هو قول الخطابي، فقد قال في معالم السنن: «القدر اسم لما صار مُقدَّراً عن فعل القادر، كالهدم والنشر والقبض: أسماء لما صدر من فِعل الهادم والناشر والقابض.

والقضاء في هٰذا معناه الخلق، كقوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢] أي خلقهن»[2].

وبناء على هٰذا القول يكون «القضاء من الله تعالى أخص من القدر، لأنّه الفصل بين التقديرين، فالقدر هو التقدير، والقضاء هو الفصل والقطع»[3].

ويدل لصحة هٰذا القول نصوص كثيرة من كتاب الله، قال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٢١]، وقال: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١]. وقال: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧].

فالقضاء والقدر - بناء على هٰذا القول- أمران متلازمان، لا ينفك أحدهما عن الآخر، لأن أحدهما بمنزلة الأساس وهو القدر، والآخر بمنزلة البناء وهو القضاء، فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه»[4].

---

(١) فتح الباري: ١١/ ١٤٩.

(٢) معالم السنن للخطابي: ٧/ ٧٠.

(٣) المفردات للراغب الأصفهاني: ص٤٠٦.

(٤) النهاية في غريب الحديث لابن الأثير: ٤/ ٧٨. وانظر جامع الأصول: ١٠/ ١٠٤.

المبحث الثالث

أركان الإيمان بالقدر

الإيمان بالقدر يقوم على أربعة أركان، من أقرَّ بها جميعاً فإن إيمانه بالقدر يكون مكتملاً، ومن انتقص واحداً منها أو أكثر فقد اختل إيمانه بالقدر، وهٰذه الأركان الأربعة هي:

الأول: الإيمان بعلم الله الشامل المحيط.

الثاني: الإيمان بكتابة الله في اللوح المحفوظ لكل ما هو كائن إلى يوم القيامة.

الثالث: الإيمان بمشيئة الله النافذة وقدرته التامة، فما شاء كان ومالم يشأ لم يكن.

الرابع: خلقه تبارك وتعالى لكل موجود، لا شريك لله في خلقه.

وسنتناول هٰذه الأصول الأربعة بشيء من التفصيل.

الركن الأول

الإيمان بعلم الله الشامل

وقد كثر في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ تقرير هٰذا الأصل العظيم، فعلم الله محيط بكل شيء، يعلم ما كان، وما سيكون، ومالم يكن لو كان كيف

يكون، ويعلم الموجود والمعدوم، والممكن والمستحيل.

وهو عالم بالعباد وآجالهم وأرزاقهم وأحوالهم وحركاتهم وسكناتهم وشقاوتهم وسعادتهم، ومن منهم من أهل الجنة، ومن منهم من أهل النار من قبل أن يخلقهم، ويخلق السمٰوات والأرض.

وكل ذلك مقتضى اتصافه -تبارك وتعالى- بالعلم، ومقتضى كونه -تبارك وتعالى- هو العليم الخبير السميع البصير.

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ ﴾ [الحشر: ٢٢]. وقال: ﴿ لِّتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق: ١٢]. وقال: ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ ﴾ [سبأ: ٣]. وقال: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥]. وقال: ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ ﴾ [النجم: ٣٢].

وقال الحق مقرراً علمه بما لم يكن لو كان كيف سيكون ﴿ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ ﴾ [الأنعام: ٢٨]، فالله يعلم أن هٰؤلاء المكذبين الذين يتمنون في يوم القيامة الرجعة إلى الدنيا أنهم لو عادوا إليها لرجعوا إلى تكذيبهم وضلالهم.

وقال في الكفار الذين لا يطيقون سماع الهدى: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٣].

ومن علمه تبارك وتعالى بما هو كائن علمه بما كان الأطفال الذين توفوا صغاراً عاملين لو أنهم كبروا قبل مماتهم.

روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال: «سئل النبي ﷺ عن أولاد المشركين، فقال: الله أعلم بما كانوا عاملين»[1].

وروى مسلم عن عائشة أم المؤمنين قالت: توفي صبي، فقلت: طوبى له، عصفور من عصافير الجنة.

فقال رسول الله ﷺ: «أولا تدرين أن الله خلق الجنة والنار، فخلق لهٰذه أهلاً ولهٰذه أهلاً».

وفي رواية عند مسلم أيضاً عن عائشة قالت: «دُعي رسول الله ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار، فقلت: يا رسول الله طوبى لهٰذا، عصفور من عصافير الجنّة، لم يعمل السوء ولم يدركه.

قال: أو غير ذلك يا عائشة، إن الله خلق للجنّة أهلاً، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلاً، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم»[2].

وهٰذه الأحاديث تتحدث عن علم الله في من مات صغيراً، لا أن هٰؤلاء يدخلهم الله النار بعلمه فيهم من غير أن يعملوا.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في قوله ﷺ في أبناء المشركين: «الله أعلم بما كانوا عاملين» «أي يعلم من يؤمن منهم ومن يكفر لو بلغوا، ثم إنه جاء في حديثٍ إسناده مقارب عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة فإن الله يمتحنهم، ويبعث إليهم رسولاً في عرصة القيامة، فمن أجابه أدخله الجنة، ومن عصاه أدخله

---

(١) انظر فتح الباري: ١١/ ٤٩٣ ورواه مسلم بلفظه عن أبي هريرة: ٤/ ٢٠٤٩ ورقمه: ٢٦٥٩.

(٢) صحيح مسلم: ٤/ ٢٠٥٠ ورقمه: ٢٦٦٢.

النار» فهنالك يظهر فيهم ما علمه الله سبحانه، ويجزيهم على ما ظهر من العلم، وهو إيمانهم وكفرهم، لا على مجرد العلم»[1].

الأدلة العقلية على أن الله علم مقادير الخلائق قبل خلقهم:

والحق أن وجود هٰذا الكون، ووجود كل مخلوق فيه يدلُّ دلالة واضحة على أن الله علم به قبل خلقه، «فإنه يستحيل إيجاده الأشياء مع الجهل، لأن إيجاده الأشياء بإرادته، والإرادة تستلزم تصور المراد، وتصور المراد هو العلم بالمراد، فكان الإيجاد مستلزماً للإرادة، والإرادة مستلزمة للعلم، فالإيجاد مستلزم للعلم»[2].

وأيضاً فإن «المخلوقات فيها من الإحكام والإتقان ما يستلزم علم الفاعل لها، لأن الفعل المحكم المتقن يمتنع صدوره عن غير علم»[3].

واستدل العلماء على علمه تبارك وتعالى بقياس الأولى: «فالمخلوقات فيها ما هو عالم، والعلم صفة كمال، ويمتنع أن لا يكون الخالق عالماً». والاستدلال بهٰذا الدليل له صيغتان:

أحدهما: أن يقال: نحن نعلم بالضرورة أن الخالق أكمل من المخلوق، وأن الواجب أكمل من الممكن، ونعلم ضرورة أنا لو فرضنا شيئين:

أحدهما عالم والآخر غير عالم، كان العالم أكمل، فلو لم يكن الخالق عالماً لزم أن يكون الممكن أكمل منه، وهو ممتنع.

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٤/ ٢٤٦.

(٢) شرح الطحاوية: ص١٤٨.

(٣) شرح الطحاوية: ص١٤٨.

الثاني: كل علم في المخلوقات فهو من الله تبارك وتعالى، ومن الممتنع أن يكون فاعل الكمال ومبدعه عارياً منه، بل هو أحق به، ذلك أن كل ما ثبت للمخلوق من كمال فالخالق أحق به، وكلُّ نقص تنزه عنه مخلوق ما، فتنزه الخالق عنه أولى»[1].

وكل هٰذه الأدلة يمكنك أن تلمحها في قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

ويستدل على علمه -تبارك وتعالى- بإخباره بالأشياء والأحداث قبل وقوعها وحدوثها، فقد أخبر الحق في كتبه السابقة عن بعثه رسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه، وصفاته وأخلاقه وعلاماته، كما أخبر عن الكثير من صفات أمته، وأخبر في محكم كتابه أن الروم سينتصرون في بضع سنين على الفُرس المجوس، ووقع الأمر كما أخبر، والإخبار عن المغيبات المستقبلة كثير في الكتاب والسنة.

الركن الثاني

الإيمان بأن الله كتب في اللوح المحفوظ كل شيء

دلت النصوص من الكتاب والسنة على أن الله كتب في اللوح المحفوظ كل شيء، ففي الحديث الذي يرويه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السمٰوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال:

---

(١) شرح الطحاوية: ص١٤٨.

وعرشه على الماء»[1].

ورواه الترمذي بلفظ: «قدَّر الله المقادير قبل أن يخلق السمٰوات والأرض بخمسين ألف سنة»[2].

وفي سنن الترمذي أيضاً عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما خلق الله القلم فقال: اكتب، قال: ما أكتب؟ قال: اكتب القدر ما كان، وما هو كائن إلى الأبد».

قال أبو عيسى الترمذي: وهٰذا حديث غريب من هٰذا الوجه[3].

واللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه مقادير الخلائق سماه القرآن بالكتاب، وبالكتاب المبين، وبالإمام المبين وبأم الكتاب، والكتاب المسطور. قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١-٢٢]. وقال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ [الحج: ٧٠] وقال: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]. وقال: ﴿وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ [الطور: ١-٣]. وقال: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه: ٤/ ٢٠٤٤. ورقم الحديث: ٢٦٥٣.

(٢) سنن الترمذي: (٤/ ٤٥٨) ورقمه ٢١٥٦. وقال فيه: حديث حسن صحيح.

(٣) سنن الترمذي: ٤/ ٤٥٨. ورقمه: ٢٠٥٥. والحديث صحيح. فالغرابة إنما هي في الوجه الذي أورده الترمذي في باب القدر، وإلا فإنه قد أورده في كتاب التفسير، وقال فيه: حديث حسن غريب. وقد أورده الشيخ ناصر الدين الألباني في صحيح سنن الترمذي: (٢/ ٢٢٨) وذكر أنه خرجه في سلسلة الأحاديث الصحيحة وغيرها.

الركن الثالث

الإيمان بمشيئة الله الشاملة وقدرته النافذة

وهٰذا الأصل يقضي بالإيمان بمشيئة الله النافذة، وقدرته الشاملة، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا حركة ولا سكون في السمٰوات ولا في الأرض إلا بمشيئته، فلا يكون في ملكه إلا ما يريد.

والنصوص المصرحة بهٰذا الأصل المقررة له كثيرة وافرة، قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [التكوير: ٢٩]، وقال: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١]، وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقال: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٣٦]، وقال: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩].

ومشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة يجتمعان فيما كان وما سيكون، ويفترقان فيما لم يكن ولا هو كائن.

فما شاء الله تعالى كونه فهو كائن بقدرته لا محاله، وما لم يشأ الله تعالى إياه لا يكن لعدم مشيئة الله تعالى ليس لعدم قدرته عليه، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٣٥]، وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ [الأنعام: ١٠٧]، وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ

جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ [الفرقان: ٤٥]، والآيات في هٰذا كثيرة تدل على عدم وجود مالم يشأ وجوده لعدم مشيئته ذلك، لا لعدم قدرته عليه، فإنه على كل شيء قدير تبارك وتعالى.

الركن الرابع

الإيمان بأن الله خالق كلّ شيء

قررت النصوص أن الله خالق كل شيء، فهو الذي خلق الخلق وكوّنهم وأوجدهم، فهو الخالق وما سواه مربوب مخلوق ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، ﴿بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١]، ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣]، والنصوص في هٰذا كثيرة طيبة.

المبحث الرابع

أفعال العباد مخلوقة مقدرة

لا يخرج العباد وأفعالهم عن غيرها من المخلوقات، فقد علم الله ما سيخلقه من عباده، وعلم ما هم فاعلون، وكتب كل ذلك في اللوح المحفوظ، وخلقهم الله كما شاء، ومضى قدر الله فيهم، فعملوا على النحو الذي شاءه فيهم، وهدى مَن كتب الله له السعادة، وأضل مَن كتب عليه الشقاوة، وعلم أهلَ الجنة ويسرهم لعمل أهلها، وعلم أهلَ النار ويسرهم لعمل أهلها.

والنصوص التي سقناها فيما سبق تكفي في الدلالة على هٰذا الذي قررناه هنا، ومع ذلك فهناك نصوص كثيرة أخرى أصرح في الدلالة في هٰذه المسألة.

قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، وقال: ﴿وكل شيء فعلوه في الزبر﴾ [الصافات: ٥٢]، وقال: ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١]. وقال: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٨]، وقال: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

وجاءت أحاديث كثيرة تواتر معناها على أن رب العباد علم ما العباد عاملون، وقدّر ذلك وقضاه وفرغ منه، وعلم ما سيصير إليه العباد من

السعادة والشقاء، وأخبرت مع ذلك كله أن القدر لا يمنع من العمل، «اعملوا فكل ميسر لما خلق له».

وسنورد هنا بعض النصوص الدالة على ذلك.

النصوص الدالة على تقدير الله أفعال العباد

١- الأحاديث الدالة على أن أعمال العباد جفَّت بها الأقلام وجرت بها المقادير:

روى مسلم في صحيحه عن جابر قال: جاء سراقة بن مالك بن جُعْشم قال: يا رسول الله، بيّن لنا ديننا كأنّا خلقنا الآن، فيما العمل اليوم؟ أفيما جَفَّت به الأقلام، وجرت به المقادير، أم فيما يستقبل؟ قال: «لا، بل فيما جفَّت به الأقلام وجرت به المقادير».

قال: ففيم العمل؟

فقال: «اعملوا فكلٌّ ميسر» وفي رواية: «كل عامل ميسَّر لعمله»[1].

وروى الترمذي في سننه أن عمر بن الخطاب قال للرسول ﷺ: «يا رسول الله أرأيت ما نعمل فيه، أمر مبتدع أو مبتدأ، أو فيما فرغ منه؟

فقال: فيما فرغ منه يا ابن الخطاب، وكلٌّ ميسَّر، أمّا من كان من أهل السعادة فإنّه يعمل للسعادة، وأمّا من كان من أهل الشقاء فإنّه يعمل للشقاء».

---

(١) صحيح مسلم: ٤/ ٢٠٤٠ ورقم الحديث: ٢٦٤٨.

قال الترمذي: هٰذا حديث حسن صحيح[1].

٢- علم الله بأهل الجنة وأهل النار:

وروى البخاري عن عمران بن حصين قال: قال رجل: يا رسول الله، «أيُعْرف أهل الجنّة من أهل النار؟

فقال: نعم.

قال: فلم يعملون؟ قال: كلٌّ يعمل لما خلق له، أو يسر له».

وروى مسلم في صحيحه عن عليّ قال: «كنا في جنازة في بقيع الغرقد[2]. فأتانا رسول الله ﷺ، فقعد وقعدنا حوله، ومعه مِخْصَرة[3]. فنكّس[4]، فجعل ينكث بمخصرته[5]، ثم قال: «ما منكم من أحد، ما من نفس منفوسة، إلا وقد كتب الله مكانها من الجنّة أو النار، وإلاّ قد كتبت شقيّة أو سعيدة».

قال: فقال رجل: يا رسول الله، أفلا نمكث على كتابنا، وندع العمل؟ فقال: من كان من أهل السعادة، فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة». فقال[6]: «اعملوا فكل ميسر، أمّا أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأمّا أهل

---

(١) رواه الترمذي: ٤/ ٤٤٥. ورقم الحديث: ٢١٣٥.

(٢) بقيع الغرقد: مقبرة أهل المدينة.

(٣) المخصرة: عصا صغيرة.

(٤) نكس رأسه: خفضه.

(٥) أي يخط بمخصرته في التراب.

(٦) هكذا في الحديث كرر «فقال».

الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة». ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-١٠]»[1].

٣- استخراج ذرية آدم من ظهره بعد خلقه وقسمهم إلى فريقين: أهل الجنة وأهل النار:

وأخبرنا رسولنا ﷺ أن الله مسح ظهر آدم بعد خلقه له، واستخرج ذريته من ظهره أمثال الذر، واستخرج منهم أهل الجنة وأهل النار.

روى مالك والترمذي وأبو داود عن مسلم بن يسار قال: سئل عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) عن هٰذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

قال عمر: سمعت رسول الله ﷺ يُسأل عنها فقال: «إن الله خلق آدم، ثم مسح ظهره بيمينه، فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هٰؤلاء للجنّة، وبعمل أهل الجنّة يعملون، ثم مسح ظهره، فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هٰؤلاء للنار، وبعمل أهل النار يعملون».

فقال رجل: ففيم العمل يا رسول الله؟

فقال رسول الله ﷺ: «إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنّة، حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنّة، فيدخله الله الجنّة.

---

(١) رواه مسلم: ٤/٢٠٣٩. ورقم الحديث: ٢٦٤٧. والحديث رواه البخاري في غير موضع في صحيحه ورواه الترمذي وأبو داود. واللفظ الذي سقناه هنا لمسلم.

وإذا خلق العبد للنار، استعمله بعمل أهل النار، حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار، فيدخله الله النار»[1].

وروى الإمام أحمد في مسنده بإسناد صحيح إلى ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان -يعني عرفه- فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها، فنثرهم بين يديه كالذر، ثم كلمهم قُبُلاً قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢-١٧٣][2].

وروى أحمد في مسنده بإسناد صحيح عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «خلق الله آدم حين خلقه، فضرب كتفه اليمنى، فأخرج ذرية بيضاء كأنهم الذر، وضرب كتفه اليسرى، فأخرج ذرية سوداء كأنهم الحمم، فقال للذي في يمينه: إلى الجنّة ولا أبالي، وقال للذي في كَفِّه اليسرى: إلى النار ولا أبالي»[3].

وبين الرسول ﷺ في حديث آخر «أنَّ الله -عز وجل- خلق خلقه في ظلمة، فألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضل» فلذلك أقول جفَّ القلم على علم الله.

رواه الترمذي عن عبد الله بن عمرو وقال فيه: هذا حديث حسن[4].

---

(١) مشكاة المصابيح: ١/ ٣٤ ورقم الحديث: ٩٥ وقال محقق المشكاة الشيخ ناصر الدين الألباني فيه: رجال إسناده ثقات رجال الشيخين، غير أنه منقطع بين مسلم بن يسار وعمر، لكن له شواهد كثيرة.

(٢) مشكاة المصابيح: ١/ ٤٣.

(٣) مشكاة المصابيح: ١/ ٤٢.

(٤) سنن الترمذي: ٥/ ٢٦. ورقم الحديث (٢٦٤٢).

٤- كتابة الله لأهل الجنة وأهل النار:

وروى الترمذي في سننه عن عبد الله بن عمرو بن العاصي قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان: فقال: أتدرون ما هٰذان الكتابان؟ فقلنا: لا يا رسول الله، إلاّ أن تخبرنا.

فقال للذي في يده اليمنى: هٰذا كتاب من رب العالمين، فيه أسماء أهل الجنة، وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثمَّ أُجمل على آخرهم، فلا يزاد فيهم، ولا ينقص منهم أبداً.

ثمَّ قال للذي في شماله: هٰذا كتاب من ربِّ العالمين، فيه أسماء أهل النار، وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثمَّ أُجمل على آخرهم[١]، فلا يزاد فيهم، ولا ينقص منهم أبداً.

فقال أصحابه: ففيم العمل يا رسول الله إن كان أمر قد فرغ منه؟

فقال: سدِّدوا وقاربوا[٢]، فإن صاحب الجنَّة يختم له بعمل أهل الجنَّة، وإن عمل أيّ عمل. وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار وإن عمل أي عمل.

ثم قال رسول الله ﷺ بيديه فنبذهما. ثمَّ قال: فرغ ربكم من العباد، فريق في الجنَّة وفريق في السعير».

قال الترمذي: هٰذا حديث حسن غريب صحيح[٣].

---

(١) أجمل على آخرهم، أي: جمعوا أهل الجنة وأهل النار عن آخرهم، وعُقدت جملتهم، فلا يتطرق إليها زيادة ولا نقصان.

(٢) السداد: الصواب في القول والعمل. والمقاربة: القصد فيهما.

(٣) سنن الترمذي: ٤/ ٤٥٠. ورقم الحديث ٢١٤١ وهو في صحيح سنن الترمذي للشيخ ناصر: ٢/ ٢٢٥.

٥- التقدير في ليلة القدر والتقدير اليومي:

بينا من قبل أن الله قدَّر مقادير عباده قبل أن يخلق السمٰوات والأرض بخمسين ألف سنة، ودلّ الكتاب والسنة على أن هناك تقديران تقدير حولي وتقدير يومي، فأما التقدير الحولي ففي ليلة القدر، ففيها يكتب من أم الكتاب ما يكون في السنة من موت وحياة ورزق ومطر، وما يقوم به العباد من أعمال ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ *أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ [الدخان: ٣-٥].

أما التقدير اليومي فهو سوق المقادير إلى المواقيت التي قدرت لها فيما سبق، قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ [الرحمٰن: ٢٩].

روى ابن جرير عن منيب بن عبد الله عن أبيه قال: تلا رسول الله ﷺ هٰذه الآية، فقلنا: يا رسول الله، وما ذاك الشأن؟ قال: أن يغفر ذنباً، ويفرج كرباً، ويرفع قوماً، ويضع آخرين.

وجملة أقوال المفسرين في الآية «أن الله من شأنه في كل يوم أن يحيي ويميت، ويخلق ويرزق، ويعز قوماً ويذل قوماً، ويشفي مريضاً، ويفك عانياً، ويفرج مكروباً، ويجيب داعياً، ويعطي سائلاً، ويغفر ذنباً، إلى مالا يحصى من أفعاله وإحداثه في خلقه»[1].

---

(١) ذكره صاحب معارج القبول: ١/ ٣٤٦ عن البغوي المفسر.

٦- كتابة ما قدر للإنسان وهو جنين في رحم أمّه:

ورد في الأحاديث أن الله يرسل ملكاً للجنين في رحم أمه فيكتب رزقه وأجله وشقاءَه وسعادته، ففي صحيحي البخاري ومسلم عن عبد الله (هو ابن مسعود) قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق قال: «إن أحدكم يُجمع في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك ثمّ يرسل الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد.

فوالذي لا إلٰه غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنّة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار، فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنّة، فيدخلها»[(١)].

وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: «وكّل الله بالرحم ملكاً، فيقول: أي رب نطفة، أي رب علقة، أي رب مضغة. فإذا أراد الله أن يقضي خلقها قال: أي رب ذكر أم أنثى، أشقي أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل، فيكتب كل ذلك في بطن أمه»[(٢)].

وروى الترمذي في سننه عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بعبد خيراً استعمله فقيل: كيف يستعمله يا رسول الله؟

---

(١) رواه البخاري، انظر فتح الباري: ١١/ ٤٧٧. ورواه مسلم: ٤/ ٢٠٣٦. ورقم الحديث: ٢٦٤٣. والسياق لمسلم. ورواه أبو داود والترمذي أيضاً.

(٢) رواه البخاري، فتح الباري: ١١/ ٤٧٧. ورواه مسلم: ٤/ ٢٠٣٨. ورقمه ٢٦٤٦. والسياق للبخاري.

قال: يوفقه لعمل صالح قبل أن يموت».

قال الترمذي: هٰذا حديث حسن صحيح[1].

وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة، ثم يختم له عمله بعمل أهل النار، وإن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل النار، ثم يختم له بعمل أهل الجنة»[2].

وعن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله ﷺ قال: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنّة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة»[3].

ومما يحسن أن يساق في هٰذا الباب لما فيه من العبرة، قصة الذي أخبر الرسول ﷺ أنه من أهل النار، ففي صحيح البخاري عن أبي حازم عن سهل بن سعد أن رجلاً من أعظم المسلمين غناءً في غزوة غزاها مع النبي ﷺ، فنظر النبي ﷺ فقال: من أحب أن ينظر إلى رجل من أهل النار، فلينظر إلى هٰذا.

فاتبعه رجل من القوم وهو على تلك الحال من أشدِّ الناس على المشركين، حتى جُرح فاستعجل الموت، فجعل ذبابة سيفه بين ثدييه، حتى خرج من بين كتفيه.

فأقبل الرجل إلى الرسول مسرعاً: فقال: أشهد أنك رسول الله.

---

(١) سنن الترمذي: ٤/ ٤٥٠. ورقمه: ٢١٤٢.

(٢) رواه مسلم: ٤/ ٢٠٤٢ ورقم الحديث: ٢٦٥١.

(٣) رواه مسلم: ٤/ ٢٠٤٢.

فقال: وما ذاك؟

قال: قلت لفلان من أحب أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إليه، وكان من أعظمنا غناءً عن المسلمين، فعرفت أنه لا يموت على ذلك، فلما جرح استعجل الموت فقتل نفسه.

فقال النبي ﷺ عند ذلك: «إن العبد ليعمل عمل أهل النار، وإنه من أهل الجنّة. ويعمل عمل أهل الجنّة، وإنه من أهل النار، وإنما الأعمال بالخواتيم»[1].

---

(١) فتح الباري: ١١/ ٤٩٩ ورقم الحديث: ٦٦٠٧.

الفصل الرابع

حدود نظر العقل في القدر

يقول أبو المُظَفَّر السمْعَاني فيما حكاه عنه ابن حجر العسقلاني: «سبيل المعرفة في هٰذا الباب التوقيف من الكتاب والسنة دون محض القياس والعقل، فمن عدل عن التوقيف فيه ضلَّ وتاه في بحار الحيرة، ولم يبلغ شفاء العين، ولا ما يطمئن به القلب، لأن القدر سِرٌّ من أسرار الله تعالى، اختص العليم الخبير به، وضرب دونه الأستار، وحجبه عن عقول الخلق ومعارفهم لما علمه من الحكمة، فلم يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب»[1].

ويقول الطحاوي رحمه الله تعالى: «وأصل القدر سرّ الله تعالى في خلقه، لم يطلع على ذلك ملك مقرب، ولا نبي مرسل، والتعمق في ذلك ذريعة الخذلان، وسلم الحرمان، ودرجة الطغيان، فالحذر الحذر من ذلك نظراً وفكراً ووسوسة، فإن الله طوى علم القدر عن أنامه، ونهاهم عن مرامه، كما قال تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]»[2].

وقال الآجُرِّيُّ: «لا يحسن بالمسلمين التنقير والبحث في القدر، لأن القدر سر من أسرار الله عز وجل، بل الإيمان بما جرت به المقادير من

---

(١) فتح الباري: ١١/ ٤٧٧. وراجع شرح النووي على مسلم: ١٦/ ١٩٦.

(٢) شرح الطحاوية: ص٢٧٦.

خير أو شر واجب على العباد أن يؤمنوا به، ثمَّ لا يأمن العبد أن يبحث عن القدر فيكذب بمقادير الله الجارية على العباد، فيضل عن طريق الحق»[1].

وقال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: «من السنة اللازمة: الإيمان بالقدر خيره وشرّه، والتصديق بالأحاديث فيه، والإيمان بها، لا يقال: لِمَ؟ ولا كيف؟ إنما هو التصديق بها والإيمان بها.

ومن لم يعرف تفسير الحديث، ولم يبلغه عقله، فقد كفى ذلك، وأحكم له، فعليه الإيمان به، والتسليم له، مثل حديث الصادق المصدوق، وما كان مثله في القدر»[2].

وقال علي بن المديني مثل قول الإمام أحمد في القدر[3].

وهٰذا الذي قرره أهل العلم في القدر يضع لنا عدَّة قواعد في غاية الأهمية:

الأولى: وجوب الإيمان بالقدر.

الثانية: الاعتماد في معرفة القدر وحدوده وأبعاده على الكتاب والسنة، وترك الاعتماد في ذلك على نظر العقول ومحض القياس. فالعقل الإنساني لا يستطيع بنفسه أن يضع المعالم والركائز التي تنقذه في هٰذا الباب من الانحراف والضلال، والذين خاضوا في هٰذه المسألة بعقولهم ضلوا وتاهوا فمنهم من كذَّب بالقدر، ومنهم من ظن أن الإيمان بالقدر يُلْزم القول

---

(١) الشريعة للآجري: ص١٤٩.

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة: ص١٥٧.

(٣) المرجع السابق: ص١٦٥.

بالجبر، ومنهم من ناقض الشرع بالقدر، وكل انحراف من هٰذه الانحرافات سبب مشكلات في واقع البشر وحياتهم ومجتمعاتهم، فالانحراف العقائدي يسبب انحرافاً في السلوك وواقع الحياة.

الثالثة: ترك التعمق في البحث في القدر، فبعض جوانبه لا يمكن للعقل الإنساني مهما كان نبوغه أن يستوعبها، وبعضها الآخر لا يستوعبها إلا بصعوبة كبيرة.

قد يقال: أليس في هٰذا النهج حجر على العقل الإنساني؟ والجواب أن هٰذا ليس بحجر على الفكر الإنساني، بل هو صيانة لهٰذا العقل من أن تتبدد قواه في غير المجال الذي تحسن التفكير فيه، إنه صيانة للعقل الإنساني من العمل في غير المجال الذي يحسنه ويبدع فيه.

إن الإسلام وضع بين يدي الإنسان معالم الإيمان بالقدر، فالإيمان بالقدر يقوم على أن الله علم كلَّ ما هو كائن وكتبه وشاءَه وخلقه، واستيعاب العقل الإنساني لهٰذه الحقائق سهل ميسور، ليس فيه صعوبة، ولا غموض وتعقيد.

أما البحث في سرّ القدر والغوص في أعماقه فإنه يبدد الطاقة العقلية ويهدرها، إنّ البحث في كيفية العلم والكتابة والمشيئة والخلق، بحث في كيفية صفات الله، وكيف تعمل هٰذه الصفات، وهٰذا أمر محجوب علمه عن البشر، وهو غيب يجب الإيمان به، ولا يجوز السؤال عن كنهه، والباحث فيه كالباحث عن كيفية استواء الله على عرشه، يقال له: هٰذه الصفات التي يقوم عليها القدر معناها معلوم، وكيفيتها مجهولة، والإيمان بها واجب، والسؤال عن كيفيتها بدعة.

إن السؤال عن الكيفية هو الذي أتعب الباحثين في القدر، وجعل البحث فيه من أعقد الأمور وأصعبها، وأظهر أن الإيمان به صعب المنال، وهو سبب الحيرة التي وقع فيها كثير من الباحثين.

ولذا فقد نصَّ جمع من أهل العلم على المساحة المحذورة التي لا يجوز دخولها في باب القدر، وقد سقنا قريباً مقالة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى التي يقول فيها: «من السَّنة اللازمة الإيمان بالقدر خيره وشرّه والتصديق بالأحاديث فيه، والإيمان بها، لا يقال: لِمَ؟ ولا كيف؟»[1].

لقد خاض الباحثون في القدر في كيفية خلق الله لأفعال العباد مع كون هٰذه الأفعال صادرة عن الإنسان حقيقة، وبحثوا عن كيفية علم الله بما العباد عاملون، وكيف يكلف عباده بالعمل مع أنه يعلم ما سيعملون، ويعلم مصيرهم إلى الجنّة أو النار.

وضرب الباحثون في هٰذا كتاب الله بعضه ببعض، وتاهوا وحاروا ولم يصلوا إلى شاطىء السلامة، وقد حذر الرسول ﷺ أمته من أن تسلك هٰذا المسار وتضرب في هٰذه البيداء، ففي سنن الترمذي بإسناد حسن عن أبي هريرة قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع في القدر، فغضب حتى احمرَّ وجهه، حتى كأنما فقىء في وجنتيه الرمان، فقال: أبهٰذا أمرتم، أم بهٰذا أرسلت إليكم؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هٰذا الأمر، عزمت عليكم ألا تنازعوا فيه»[2].

---

(١) شرح اعتقاد أهل السنة للالكائي: ١/ ١٥٧.

(٢) صحيح سنن الترمذي: ٢/ ٢٢٣.

مدى إدراك العقل للعلل والأوامر والأفعال وما فيها من حسن وقبح:

ذهب جمهور أهل العلم من السلف والخلف إلى أن لأوامر الله ومخلوقاته عللاً وحِكماً، فإنه لا يأمر إلا لحكمة، ولا يخلق إلا لحكمة.

وبعض هٰذه الحِكم تعود إلى العباد، وبعضها يعود إلى الله تعالى، فما يعود إلى العباد هو ما فيه خيرهم وصلاحهم في العاجل والآجل، وما يعود إلى الله تعالى هو محبته أن يُعبد ويطاع ويتاب إليه ويُرجى ويُخاف منه ويتوكل عليه ويُجاهد في سبيله، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦] وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

والنصوص الدالة على أن لله حِكماً في خلقه وأمره كثيرة وافرة، يصعب حصرها، والعقول البشرية تستطيع أن تدرك شيئاً من هٰذه الحكم.

وذهب جمهور أهل العلم أيضاً إلى أن العقل يستطيع أن يدرك ما في الأفعال من حسن وقبح، فالعقول تدرك أن الظلم والكذب والسرقة وقتل النفوس قبيح، وأن العدل والصدق وإصلاح ذات البين وإنقاذ الغرقى حسن وجميل.

والحكم الحاصلة من الشرائع ثلاثة أنواع:

الأول: أن يكون الفعل مشتملاً على مصلحة أو مفسدة، ولو لم يَرِدْ الشرع بذلك، كما يعلم أن العدل مشتمل على مصلحة العالم، والظلم

يشتمل على فسادهم، فهٰذا النوع حسن وقبيح، وقد يعلم بالعقل والشرع حسن ذلك وقبحه، لكن لا يلزم في العقول أن الإنسان معاقب على فعل القبيح من هٰذا النوع في الآخرة إن لم يرد الشرع بذلك، ومن ادعى أن الله يمكن أن يعاقب العباد على أفعالهم القبيحة من الشرك والكفر ونحو ذلك من غير إرسال رسول فقد أخطأ.

الثاني: إذا أمر الشارع بشيء صار حسناً، وإذا نهى عن شيء صار قبيحاً، واكتسب الفعل صفة الحسن والقبح بخطاب الشرع.

الثالث: أن يأمر الشارع بشيء امتحاناً واختباراً كما أمر الله إبراهيم بأن يذبح ولده إسماعيل. فالشارع ليس له قصد في ذبح الابن، ولكنه الابتلاء والاختبار.

والمعتزلة أقرت بالنوع الأول دون الثاني والثالث. والأشعرية ذهبت إلى أن جميع الأوامر والنواهي الشرعية هي من قسم الامتحان، والأفعال ليست لها صفة لا قبل الشرع ولا بالشرع، وأما الحكماء وجمهور أهل العلم فأثبتوا الأقسام الثلاثة[1].

وهٰذا الذي عليه جمهور أهل السنة من أن أفعال الله معللة وأن العقل بإمكانه أن يدرك ما في الأفعال من حسن وقبح، يفتح الباب أمام العقول الإنسانية لتبحث في الحِكَم الباهرة التي خلق الله من أجلها المخلوقات، وشرع من أجلها ما شرعه من أحكام، وهو باب كبير، يحصل العباد منه على علم عظيم، يثبت الإيمان، ويزيد اليقين، ويُعرِّف العباد بإبداع الخالق

---

(١) راجع في تعليل أفعال الله ومسألة التحسين والتقبيح العقلي: مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ١٢٢، ٣٠٨، ٤٢٨.

العظيم ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ ﴾ [السجدة: ٧]، وكيف لا يكون الأمر كذلك وقد وعد الحق تبارك وتعالى أن يُرِي عباده من آياته العظيمة ما يظهر صدق ما جاء به الرسول، وأنزله في الكتاب ﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلۡأَفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ ﴾ [فصلت: ٥٣].

وقد جاءت النصوص آمرة بالتدبر والتأمل والنظر في آياته المنزلة، وآياته المخلوقة المبدعة ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴾ [محمد: ٢٤] ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ [يونس: ١٠١] ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴾ [الغاشية: ١٧] ﴿ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ * أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا * ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ﴾ [عبس: ٢٤-٢٦].

الفصل الخامس

المذاهب في القدر

صار المسلمون في القدر عدة مذاهب نبينها في المباحث التالية:

المبحث الأول

مذهب المكذبين بالقدر

ذهب بعض الضالين في هٰذا الباب إلى نفي القدر، وزعموا أن الله -تعالى عمَّا يقولون- لا يعلم بالأشياء قبل حصولها، ولم يتقدم علمه بها، وقالوا: إنما يعلم الله بالموجودات بعد خلقها وإيجادها.

وزعم هٰؤلاء كذباً وزوراً أن الله إذا أمر العباد ونهاهم لا يعلم من يطيعه منهم ممن يعصيه، ولا يعلم من يدخل الجنّة ممن يدخل النار، حتى إذا استجاب العباد لشرعه أو رفضوا- علم السعداء منهم والأشقياء، ويرفض هٰؤلاء الضلال الإيمان بعلم الله المتقدم، كما يكذبون بأن الله كتب مقادير الخلائق قبل خلق السمٰوات والأرض، كما ثبت في الكتاب والسنة.

وقد نشأ القول بهٰذا في آخر عهد الصحابة، فأول من قال به معبد الجهني، ثمَّ تقلد عنه هٰذا المذهب الفاسد رؤوس المعتزلة وأئمتهم كواصل بن عطاء الغزال، وعمرو بن عبيد، ورويت عنهم في هٰذا أقوال

شنيعة فيها تكذيب لله ولرسوله في أن الله علم الأشياء وكتبها قبل خلقها[1].

وقد خشي الرسول ﷺ على أمته هٰذا الضلال الذي وقعت فيه هٰذه الفرقة، ففي الحديث الصحيح الذي يرويه ابن عساكر عن أبي محجن وابن عبد البر في «الجامع» أن رسول الله ﷺ قال: «أخاف على أمتي من بعدي ثلاثاً: حيف الأئمة، وإيماناً بالنجوم، وتكذيباً بالقدر»[2].

وروى أبو يعلى في مسنده والخطيب في التاريخ وابن عَدِيّ في الكامل بإسناد صحيح عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أخاف على أمتي من بعدي خصلتين: تكذيباً بالقدر، وتصديقاً بالنجوم»[3].

وحذر الرسول ﷺ أمته من هٰذا الضلال، ففي الحديث الذي يرويه الطبراني في معجمه الأوسط، والحاكم في مستدركه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «أُخِّر الكلام في القدر لشرار أمتي»[4].

وروى الطبراني في معجمه الكبير عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ «إنَّ أمر هٰذه الأمة لا يزال مقارباً حتى يتكلموا في الولدان وفي القدر»[5].

وسمى الرسول ﷺ هٰذا الفريق بمجوس هٰذه الأمة، لأن المجوس يقولون بوجود خالقين اثنين: النور والظلمة، وهٰذا الفريق يقولون بوجود خَالِقين، بل يزعمون أن كلَّ واحد خالق من دون الله، وقد أمر الرسول ﷺ بهجران هٰذا الفريق، فلا يزارون ولا يعادون، ففي الحديث الذي

---

(١) راجع: عقيدة السفاريني: ١/ ٣٠٠، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ٥٩.

(٢) صحيح الجامع الصغير: ١/ ١٢٠. ورقم الحديث: ٢١٢.

(٣) صحيح الجامع الصغير: ١/ ١٢٠. ورقم الحديث: ١٢٠.

(٤) صحيح الجامع الصغير: ١/ ١٢٣. ورقم الحديث: ٢٢٤.

(٥) صحيح الجامع الصغير: ٣/ ٧٢. ورقم الحديث: ٣٠٦٠.

يرويه أحمد في مسنده بإسناد حسن عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «لكل أمة مجوس، ومجوس أمتي الذين يقولون لا قدر، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم»[1].

وفي حديث آخر يرويه أحمد وأبو داود عن ابن عمر أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «القدرية مجوس هٰذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم»[2].

وقد صاح الصحابة بأصحاب هٰذه الضلالة من كل ناحية، وأنكروا عليهم ما جاؤوا به من الضلال والباطل، ونهوا الناس عن مخالطة هٰؤلاء ومجالستهم، وأوردوا عليهم النصوص الفاضحة لباطلهم، المقررة للحق في باب القدر.

ففي سنن الترمذي عن نافع أنَّ ابن عمر جاءَه رجل فقال: إنَّ فلاناً يقرأ عليك السلام، فقال له: إنه بلغني أنّه قد أحدث، فإن كان قد أحدث فلا تقرئه مني السلام، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون في هٰذه الأمة أو في أمتي خسف أو مسخ أو قذف في أهل القدر».

قال الترمذي: هٰذا حديث حسن صحيح غريب.

وفي الترمذي عن ابن عمر أيضاً يرفعه: «يكون في أمتي خسف ومسخ وذلك في المكذبين في القدر»[3].

---

(١) صحيح الجامع الصغير: ٥/ ٣٧. ورقم الحديث: ٥٠٣٩.

(٢) مشكاة المصابيح: ١/ ٣٨ ورقم الحديث: ١٠٧ والذي حققه الشيخ ناصر في تعليقه على المشكاة أن الحديث حسن الإسناد.

(٣) سنن الترمذي: ٤/ ٤٥٦. حديث رقم ٢١٥٢، ٢١٥٣.

وفي سنن الترمذي أيضاً عن عبد الواحد بن سليم قال: قدمت مكة فلقيت عطاء بن أبي رباح فقلت له: يا أبا محمد، إن أهل البصرة يقولون: لا قدر. قال: يا بني، أتقرأ القرآن؟

قلت: نعم.

قال: فاقرأ الزخرف.

قل: فقرأت: ﴿حمٓ * وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ١-٤].

قال: أتدري ما أم الكتاب؟

قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: فإنه كتاب كتبه قبل أن يخلق السمٰوات والأرض، فيه أن فرعون من أهل النار، وفيه ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١].

قال عطاء: فلقيت الوليد بن عبادة بن الصامت صاحب رسول الله ﷺ فسألته ما كانت وصية أبيك عند الموت؟

قال: دعاني أبي فقال لي: يا بني، اتق الله، واعلم أنك لن تتقي الله حتى تؤمن بالله، وتؤمن بالقدر كله خيره وشره، فإن مت على غير هٰذا أدخلت النار، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم قال: اكتب. فقال: ما أكتب؟ قال: اكتب ما كان، وما هو كائن إلى الأبد».

قال الترمذي: هٰذا حديث غريب من هٰذا الوجه[1].

---

(١) سنن الترمذي: ٤/٤٥٧ ورقمه: ٢١٥٥. وانظر صحيح سنن الترمذي للشيخ ناصر الدين الألباني: ٢/٢٢٨.

وقد نصّ الأئمة على كفر هٰذه الطائفة التي لم تقر بعلم الله، وممن نص على كفرهم الأئمة مالك والشافعي وأحمد[1].

وقد تلاشت هٰذه الطائفة التي تكذب بعلم الله السابق أو كادت، يقول السفاريني: «قال العلماء: المنكرون لهٰذا انقرضوا، وهم الذين كفرهم عليه الإمام مالك والإمام الشافعي والإمام أحمد وغيرهم من الأئمة»[2].

«وقال القرطبي: قد انقرض هٰذا المذهب، فلا نعرف أحداً ينسب إليه من المتأخرين. وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني: القدرية اليوم مطبقون على أن الله عالم بأفعال العباد قبل وقوعها، وإنما خالفوا السلف في زعمهم بأن أفعال العباد مقدورة لهم، وواقعة منهم على وجه الاستقلال، وهو مع كونه مذهباً باطلاً أخف من المذهب الأول. قال: والمتأخرون منهم أنكروا تعلق الإرادة بأفعال العباد فراراً من تعلق القديم بالمحدث»[3].

وقال النووي: «قال أصحاب المقالات من المتكلمين: انقرضت القدرية القائلون بهٰذا القول الشنيع الباطل، ولم يبق أحد من أهل القبلة عليه، وصارت القدرية في الأزمان المتأخرة تعتقد إثبات القدر، ولكن يقولون: الخير من الله، والشر من غيره تعالى الله عن قولهم»[4].

«والقدرية يعترفون بأن الله خلق الإنسان مريداً، لكن يجعلونه مريداً بالقوة والقبول، أي قابلاً لأن يريد هٰذا ويريد هٰذا، وأمّا كونه مريداً لهٰذا

---

(١) راجع مجموع فتاوي شيخ الإسلام: ٨/ ٢٨٨.
(٢) عقيدة السفاريني: ١/ ٣٠١.
(٣) عقيدة السفاريني: ١/ ٣٠١.
(٤) شرح النووي على مسلم: ١٥/ ١٥٤.

المُعَيَّنِ، وهٰذا المُعَيَّنِ، فهٰذا عندهم ليس مخلوقاً»[1].

«فهٰؤلاء في الحقيقة مجوس ثَـنَـوِيَّـة، بل أعظم منهم، فإن الثَنَويَةَ أثبتوا خالِقَين للكون كله، وهٰؤلاء أثبتوا خالِقين لكل فرد من الأفراد، ولكل فعل من الأفعال، بل جعلوا المخلوقين كلهم خالقين، ولولا تناقضهم لكانوا أكفر من المجوس.

وطرد قولهم ولازمه وحاصله هو إخراج أفعال العباد عن خلق الله -عز وجل- وملكه، وأنها ليست داخلة في ربوبيته عزَّ وجل، وأنه يكون في ملكه ما لا يريد، ويريد ما لا يكون، وأنهم أغنياء عن الله عز وجل، فلا يستعينون على طاعته ولا ترك معصيته، ولا يعوذون بالله من شرور أنفسهم ولا سيئات أعمالهم ولا يستهدونه الصراط المستقيم»[2].

والقدرية بزعمهم أرادوا تنزيه الله وتقديسه عندما زعموا أن الله شاء الإيمان من الكافر، ولكنَّ الكافر هو الذي شاء الكفر، وحجتهم في ذلك أن هٰذا يؤدي إلى الظلم، إذ كيف يشاء الله الكفر من الكافر ثم يعذبه عليه.

ولكنهم -كما يقول شارح الطحاوية- «صاروا كالمستجير من الرمضاء بالنار، فإنهم هربوا من شيء فوقعوا فيما هو شرٌّ منه، فإنه يلزم أن مشيئة الكافر غلبت مشيئة الله تعالى، فإن الله قد شاء الإيمان منه -على قولهم- والكافر شاء الكفر، فوقعت مشيئة الكافر دون مشيئة الله تعالى، وهٰذا من أقبح الاعتقاد، وهو قول لا دليل عليه، بل هو مخالف للدليل»[3].

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ٢٠٦.
(٢) معارج القبول: ٢/ ٢٥٣.
(٣) شرح الطحاوية: ص ٢٧٧.

ومشيئة الله الكفر من الكافر ليس ظلماً له كما يدعي أهل الظلم من القدرية؛ فلله الحجة البالغة، وله في عباده من الحِكَمِ مالا يعلمه إلا هو تبارك وتعالى.

ففي صحيح مسلم عن أبي الأسود الدِّيلي، قال: قال لي عمران بن الحصين: «أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه، أشيء قضي عليهم ومضى عليهم من قدر ما سبق؟ أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم، وثبتت الحجّة عليهم؟

فقلت: بل شيء قضي عليهم، ومضى عليهم.

قال: فقال: أفلا يكون ظلماً؟

قال: ففزعت فزعاً شديداً. وقلت: كل شيء خَلْق الله ومِلْك يده فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

فقال لي: يرحمك الله، إني لم أرد بما سألتك إلا لأحزر عقلك.

إن رجلين من مزينة أتيا رسول الله ﷺ فقالا: يا رسول الله، أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه، أشيء قضي عليهم ومضى فيهم من قدر قد سبق، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم، وثبتت الحجّة عليهم؟

فقال: «لا، بل شيء قضي عليهم ومضى فيهم، وتصديق ذلك في كتاب الله ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧-٨]»[1].

وفي سنن أبي داود عن ابن الديلمي قال: أتيت أُبي بن كعب، فقلت له: وقع في نفسي شيء من القدر، فحدثني بشيء لعل الله أن يذهبه من

(١) صحيح مسلم: ٤/ ٢٠٤١، ورقم الحديث: ٢٦٥٠.

قلبي، قال: لو أن الله عذَّب أهل سمواته وأهل أرضه عذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم، ولو أنفقت مثل أحد ذهباً في سبيل الله، ما تقبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مت على غير هٰذا لدخلت النار.

قال: ثم أتيت عبد الله بن مسعود، فقال مثل ذلك، ثم أتيت حذيفة بن اليمان فقال مثل ذلك، ثم أتيت زيد بن ثابت فقال مثل ذلك[1].

والقدرية بمسلكهم هٰذا جعلوا لأهل الضلال سبيلاً عليهم، فقد ذكر عمر بن الهيثم قال: خرجنا في سفينة، وصحبنا فيها قدري ومجوسي، فقال القدري للمجوسي: أسلم.

فقال المجوسي: حتى يريد الله.

فقال القدري: إن الله يريد، ولكنّ الشيطان لا يريد.

قال المجوسي: أراد الله وأراد الشيطان، فكان ما أراد الشيطان، هٰذا شيطان قوي. وفي رواية أنه قال: فأنا مع أقواهما[2].

محاورة أهل السنة للقدرية

ولم يستطع منطق المعتزلة أن يقف في مجال الحجاج مع عوام أهل السنة فضلاً عن علمائهم وأهل الرأي فيهم.

يذكر أهل العلم أن أعرابياً أتى عمرو بن عبيد، فقال له: إن ناقتي

---

(١) سنن أبي داود: ٤/ ٣١٠. ورقم الحديث: ٣٦٩٩.

(٢) شرح الطحاوية: ٢٧٨.

سُرقت، فادع الله أن يردها عليَّ.

قال عمرو بن عبيد: اللهم إن ناقة هٰذا الفقير سُرقت، ولم تُرِدْ سرقتها، اللهمّ اردها عليه.

فقال الأعرابي: الآن ذهبت ناقتي، وأيست منها.

قال: وكيف؟

قال: لأنه إذا أراد أن لا تُسرق فسرِقت، لم آمن أن يريد رجوعها فلا ترجع، ونهض من عنده منصرفاً[1].

إجابة أبو عصام القسطلاني لقدري

وقال رجل لأبي عصام القسطلاني: أرأيت إن منعني الهدى، وأوردني الضلال ثم عذبني أيكون منصفاً؟

فقال له أبو عصام: إن يكن الهدى شيئاً هو له، فله أن يعطيه من يشاء ويمنعه من يشاء[2].

محاورة عبد الجبار الهمداني وأبي إسحاق الإسفراييني

ودخل عبد الجبار الهمداني أحد شيوخ المعتزلة -على الصاحب ابن عباد، وعنده أبو إسحاق الإسفراييني أحد أئمة السنة، فلما رأى الأستاذ قال: سبحان من تنزه عن الفحشاء.

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة: ص٧٤٠.

(٢) شرح الطحاوية: ص٢٧٨.

فقال الأستاذ فوراً: سبحان من لا يقع في ملكه إلا ما يشاء.

فقال القاضي: أيشاء ربنا أن يُعْصَى؟

فقال الأستاذ: أيُعْصَى ربنا قهراً؟

فقال القاضي: أرأيت إن منعني الهدى، وقضى عَليَّ بالردى، أحسن إليّ أم أساء؟

فقال الأستاذ: إن منعك ما هو لك فقد أساء، وإن منعك ما هو له فهو يختص برحمته من يشاء. فبهت القاضي.

وفي تاريخ الطبري أن غيلان قال لميمون بن مهران بحضرة هشام بن عبد الملك الذي أتى به ليناقشه:

أشاء الله أن يُعصى؟

فقال له ميمون: أفَعُصيَ كارهاً؟»[1].

بيْنَ عمر بن عبد العزيز وغَيْلان الدمشقي

وحاور عمر بن عبد العزيز غيلان الدمشقي أحد رؤوس الاعتزال، فقال له عمر: يا غيلان بلغني أنك تتكلم في القدر.

فقال: يَكْذِبون عليَّ يا أمير المؤمنين.

قال: اقرأ عليَّ سورة «يس».

قال: فقرأ عليه: ﴿يسٓ * وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * عَلَىٰ صِرَٰطٍ

(١) انظر هاتين القصتين في تعليق محقق شرح الطحاوية ص٢٧٨ وانظر فتح الباري: ١٣/ ٤٥١.

مُّسْتَقِيمٍ * تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَـٰفِلُونَ * لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا فَهِىَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَـٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ١-٩].

قال غيلان: لا والله لكأني يا أمير المؤمنين لم أقرأها قط إلا اليوم. أشهد يا أمير المؤمنين أني تائب من قولي بالقدر.

فقال عمر: اللهم إن كان صادقاً فتب عليه، وإن كان كاذباً فاجعله آية للمؤمنين[1].

قال معاذ بن معاذ: حدثني صاحب لي قال:

«مرَّ التيمي بمنزل ابن عون فحدثه بهٰذا الحديث، قال ابن عون: أنا رأيته مصلوباً بدمشق»[2].

وقال أبو جعفر الخطمي:

«شهدت عمر بن عبد العزيز وقد دعا غيلان لشيء بلغه في القدر فقال له: ويحك يا غيلان ما هٰذا الذي بلغني عنك؟

قال: يُكْذَبُ عليَّ يا أمير المؤمنين، ويقال عليَّ ما لا أقول.

قال: ما تقول في العلم؟

---

(١) قال محقق كتاب شرح أصول اعتقاد أهل السنة: هٰذه الرواية رواها الآجري في الشريعة ص٢٢٩ وابن بطة في الإبانة (٢: ٣٢٦ - ٣٢٧).

(٢) قال محقق كتاب شرح أصول اعتقاد أهل السنة: رواه عبد الله بن أحمد -بدون واسطة بين معاذ وابن عون- في السنة ص١٢٨ وابن بطة -وفيه أن القائل: أنا رأيته ... هو ابن عوف. الإبانة ٢/ ٣٢٧ قال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله ثقات. مجمع الزوائد ٧/ ٢٠٧.

قال: نفذ العلم.

قال: أنت مخصوم، اذهب الآن فقل ما شئت.

يا غيلان، إنك إن أقررت بالعلم خصمت، وإن جحدته كفرت، وإنك إن تقر به فتخصم، خير لك من أن تجحد فتكفر.

ثم قال له: أتقرأ (يس)؟

فقال: نعم.

قال: اقرأ.

قال: فقرأ ﴿يسٓ * وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ . . .﴾ إلى قوله: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ١-٧].

قال: قف. كيف ترى؟

قال: كأني لم أقرأ هٰذه الآية يا أمير المؤمنين.

قال: زد.

فقرأ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ [يس: ٨-٩].

فقال له عمر: قل ﴿سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ * وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ٩-١٠].

قال: كيف ترى؟

قال: كأني لم أقرأ هٰذه الآيات قط، وإني أعاهد الله أن لا أتكلم في شيء مما كنت أتكلم فيه أبداً.

قال: اذهب. فلما ولَّى قال: اللهم إن كان كاذباً بما قال فأذقه حر السلاح.

قال: فلم يتكلم زمن عمر، فلما كان يزيد بن عبد الملك كان رجلاً لا يهتم بهٰذا ولا ينظر فيه.

قال: فتكلم غيلان.

فلما ولي هشام أرسل إليه فقال له: أليس قد كنت عاهدت الله لعمر لا تتكلم في شيء من هٰذا أبداً؟

قال: أقلني، فوالله لا أعود.

قال: لا أقالني الله إن أقلتك، هل تقرأ فاتحة الكتاب؟

قال: نعم.

قال: اقرأ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

فقرأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٢-٥].

قال: قف. على ما استعنته؟ على أمر بيده لا تستطيعه، أو على أمر في يدك أو بيدك؟

اذهبا فاقطعا يديه ورجليه واضربا عنقه واصلباه[1][2].

والقدرية النفاة حُرموا الاستعانة بالله الواحد الأحد، لأنهم زعموا أن الله

---

(١) قال محقق كتاب شرح أصول اعتقاد أهل السنة: رواه عبد الله بن أحمد -المذكور في السند- في السنة ص١٢٧-١٢٨.

(٢) شرح اعتقاد أصول أهل السنة: ٧١٣ - ٧١٥.

لا يقدر على أفعال العباد، وأن العبد هو الخالق لفعله، فكيف يستعينون بالله على مالا يقدر عليه.

وهؤلاء يعتمدون فيما يفعلون على حولهم وقوتهم وعملهم، وهم يطلبون الجزاء والأجر من الله كما يطلب الأجير أجره من مستأجره، والله ليس محتاجاً إلى العباد وأعمالهم، بل نفع ذلك عائد إلى العباد أنفسهم، ومع كون العباد هم المحتاجين إلى الأعمال، فلا غنى لهم عن الاستعانة بالله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]. ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

شبهات وأجوبتها

١- معنى المحو والإثبات في الصحف، وزيادة الأجل ونقصانه:

قد يشكل على بعض الناس مواضع في كتاب الله وأحاديث رسول الله ﷺ، فيقول بعضهم: إذا كان الله علم كل ما هو كائن، وكتب ذلك كله عنده في كتاب فما معنى قوله: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد: ٣٩].

وإذا كانت الأرزاق والأعمال والآجال مكتوبة لا تزيد ولا تنقص فما توجيهكم لقوله ﷺ: «من سرّه أن يُبسط له في رزقه، ويُنسأ له في أثره فليصل رحمه».

وكيف تفسرون قول نوح لقومه: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [نوح: ٣-٤].

وما قولكم في الحديث الذي فيه أن الله جعل عمر داود عليه السلام مائة سنة بعد أن كان أربعين سنة.

والجواب أن الأرزاق والأعمار نوعان:

نوع جرى به القدر وكتب في أم الكتاب، فهٰذا لا يتغير ولا يتبدل، ونوع أعلم الله به ملائكته فهٰذا هو الذي يزيد وينقص، ولذلك قال الله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩]. وأم الكتاب هو اللوح المحفوظ الذي قدر الله فيه الأمور على ما هي عليه.

ففي كتب الملائكة يزيد العمر وينقص، وكذلك الرزق بحسب الأسباب، فإن الملائكة يكتبون له رزقاً وأجلاً، فإذا وصل رحمه زيد له في الرزق والأجل، وإلا فإنه ينقص له منهما[١].

«والأجل أجلان: أجل مطلق يعلمه الله، وأجل مقيد، فإن الله يأمر الملك أن يكتب لعبده أجلاً، فإن وصل رحمه، فيأمره بأن يزيده في أجله ورزقه. والملك لا يعلم أيزاد له في ذلك أم لا، لكن الله يعلم ما يستقر عليه الأمر، فإذا جاء الأجل لم يتقدم ولم يتأخر»[٢].

يقول ابن حجر العسقلاني: «الذي سبق في علم الله لا يتغير ولا يتبدل، والذي يجوز عليه التغيير والتبديل ما يبدو للناس من عمل العامل، ولا يبعد أن يتعلق ذلك بما في علم الحفظة والموكلين بالآدمي، فيقع فيه المحو والإثبات، كالزيادة في العمر والنقص، وأما ما في علم الله فلا محو فيه ولا إثبات والعلم عند الله»[٣].

---

(١) راجع مجموع فتاوي شيخ الإسلام: ٨/ ٥٤٠.
(٢) راجع المصدر السابق: ٨/ ٥١٧.
(٣) فتح الباري: ١١/ ٤٨٨.

٢- التوفيق بين تقدير الأقدار وبين «كل مولود يولد على الفطرة»:

وقد يقول بعض الناس كيف يكون الله قدر كل شيء مع أنه صح عن رسولنا أن كل مولود يولد على الفطرة؟

فالجواب أنه لا تناقض ولا تعارض بين النصوص المبينة أن كل شيء بقدر، والنصوص المخبرة بأن كل مولود يولد على الفطرة.

فالله فطر عباده على السلامة من الاعتقادات الباطلة كما فطرهم على قبول العقائد الصحيحة، ثمَّ إذا ولدوا أحاطت بهم شياطين الإنس والجن، فأفسدت فطرهم وغيَّرتها، وثبَّت الله من شاء هدايته على الحق.

والله يعلم من يثبت على الفطرة السويّة السليمة، ومن تتغير فطرته، علم ذلك في الأزل وكتبه، فلا منافاة بين هٰذه النصوص ولا تعارض بينها، ففي الحديث الذي يرويه مسلم في صحيحه عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن الله: «إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين، وحرَّمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي مالم أنزل به سلطاناً».

والله يعلم من الذي تجتالُه الشياطين وتغرر به، ويعلم من يثبت على الحق، ويهدى للصواب.

وإذا عرفت هٰذا الذي بيناه علمت كيف تُوَجَّه قوله ﷺ: «خلق الله يحيى بن زكريا في بطن أمّه مؤمناً، وخلق فرعون في بطن أمه كافراً». رواه ابن عدي في الكامل، والطبراني في الأوسط[1].

---

(١) صحيح الجامع الصغير: ٣/ ١١٣ ورقم الحديث: ٣٢٣٢.

٣- إذا كانت الأمور مقدرة فما معنى قوله: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾:

وقد يحتج بعض الناس للقدرية النفاة بقوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، ويظنون أن المراد بالحسنات والسيئات في هٰذه الآية الطاعات والمعاصي.

وهٰؤلاء أخطؤوا الفهم، فالمراد بالحسنات هنا النعم، والمراد بالسيئات المصائب، يدلنا على صحة هٰذا الفقه سياق النص. قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا * مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٨-٧٩].

فالله يحكي عن المنافقين أنهم كانوا إذا أصابتهم حسنة مثل الرزق والنصر والعافية، قالوا: هٰذه من الله، وإذا أصابتهم سيئة -مثل ضَرْبٍ ومرض وخوف من عدو- قالوا: هٰذه من عندك يا محمد. أنت الذي جئت بهٰذا الدين الذي عادانا الناس لأجله، وابتلينا لأجله بهٰذه المصائب.

فالحسنات هنا النعم، والسيئات المصائب، وهٰذه كقوله تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠]، وقوله: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

ثم قرر الحق أن المصائب والنعم لا تخرج عن قدر الله ومشيئته ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

ثم بين الحق تبارك وتعالى أن السيئات التي هي المصائب ليس لها سبب إذا أذنب العبد إلا من نفسه، وأما ما يصيب العبد من الخير فلا تنحصر أسبابه، لأنه من فضل الله، يحصل بعمل العبد وبغير عمله من إنعام الله عليه، فالواجب على العباد أن يشكروا ربهم ويحمدوه على ما أنعم به عليهم، كما يجب أن يكثروا من التوبة والأوبة والاستغفار مما اقترفوه من ذنوب سببت لهم المصائب والبلايا.

وإذا أنت تأملت في قوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ . . .﴾ ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ﴾ علمت أن الحسنة والسيئة هي فعل الله بالعباد التي هي المصائب والنعم، أما قوله ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾ أي بسبب ذنوب العبد وخطاياه، وهٰذا وإن كان مقدراً إلا أن الله قدر أن تكون المصيبة بسبب الذنب.

أما الحسنات والسيئات التي هي أفعال العباد فلا يقال فيها: ﴿مَّآ أَصَابَكَ﴾ وإنما يقول: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [القصص: ٨٤]. وإنما قال هنا: ﴿جَآءَ﴾ لأن الحسنة فعل الجائي، ولذلك صرح بهٰذا في جانب الذنوب والمعاصي: ﴿فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [القصص: ٨٤][1].

٤- كيف يخلق الله الشرَّ ويقدره؟

وقد يشاغب بعض القدرية فيقولون: إنَّ الله مقدس عن فعل الشر، وإن الواجب على العباد أن ينزهوا ربهم عن الشر وفعله، وهٰؤلاء خلطوا حقاً

(١) راجع في هٰذا المبحث: مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ١١٠، ٢٢٤.

بباطل فالتبست عليهم الأمور.

وجواب هٰذه الشبهة أن الله تعالى لا يخلق الشرَّ المحض الذي لا خير فيه، ولا منفعة فيه لأحد، وليس له فيه حِكْمَة ولا رحمة، ولا يعذب الناس بلا ذنب، وقد بين العلماء أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وغيرهما ما في خلق إبليس والحشرات والكواسر من الحكمة والرحمة.

فالشيء الواحد يكون خلقه باعتبار خيراً، وباعتبار آخر شراً، فالله خلق إبليس يبتلي به عباده، فمنهم من يمقته، ويحاربه ويحارب منهجه، ويعاديه ويعادي أولياءَه، ويوالي الرحمٰن ويخضع له، ومنهم من يواليه ويتبع خطواته.

المبحث الثاني

التاركون للعمل اتكالاً على القدر

ضل فريق آخر في باب القدر فقالوا: إذا كان الله عالماً بكل شيء نفعله، وعالماً بمصيرنا إلى الجنة أو النار، وكان هو الخالق لأفعالنا، فلماذا نعمل وننصب؟ ولماذا لا نترك الأقدار تجري في أَعِنَّتِهَا، وسيأتينا ما قدر لنا شئنا أم أبينا.

وقد تَعمَّقَتْ هٰذه الضلالة عند طوائف من العُبَّاد والزهاد وأهل التصوف، ولم تقله طائفة واحدة بعينها من طوائف أهل المقالات، وكان ولا يزال هٰذا القول على ألسنة كثير من جهال المسلمين وأهل الزيغ والزندقة[1].

وهٰذا الفريق يؤمن بالقدر، وأن الله عالم بكل شيء، وخالق لكل شيء، ومريد لجميع الكائنات، ولكنهم زعموا أن كل ما خلقه الله وشاءه فقد رضيه وأحبّه، وزعموا أنه لا حاجة بالعباد إلى العمل والأخذ بالأسباب، فما قُدِّر لهم سيأتيهم، وزعموا أن العباد مجبورون على أفعالهم، فالإنسان عندهم ليس له قدرة تؤثر في الفعل، بل هو مع القدر كالريشة في مهب الريح، وكالساقط من قمة جبل شامخ إلى واد بعيد غورُه، سحيق قَعرُه، لا يملك وهو يتردى فيه من أمره شيئاً.

لقد ترك هٰؤلاء العمل احتجاجاً بالقدر قبل وقوعه، واحتجوا بالقدر

---

(١) راجع مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ٥٩، ٩٩، ٢٥٦.

على ما يقع منهم من أعمال مخالفة للشرع، ووصل بهم الحال إلى عدم التفريق بين الكفر والإيمان، وأهل الهدى والضلال، لأن جميع ذلك خلق الله، فلم التفريق؟

إن هٰذه العقيدة المنحرفة أضلت عقولاً كثيرة وانحرف مسارها عن جادة الحق والصواب، فاضطربت عندها موازين العدل والحق، وعطلت هٰذه العقيدة المنحرفة طاقات هائلة في العالم الإسلامي، أقعدتها عن العمل، بل جيَّرت أعمالها لمصلحة أعداء الإسلام في بعض الأحيان.

لقد كان من آثار هٰذه العقيدة الزعم بأن الله أحب الكفر والشرك والقتل والزنا والسرقة وعقوق الوالدين وغير ذلك من الذنوب والمعاصي، لأنهم يزعمون أن كل شيء خلقه الله وأوجده فهو يحبه ويرضاه.

ومن آثارها أن أصحابها تركوا الأعمال الصالحة الخيرة التي توصلهم إلى الجنَّة وتنجيهم من النار، وارتكبوا كثيراً من الموبقات بدعوى أن القدر آت آت، وكل ما قدر للعبد سيصيبه، فلماذا العمل والتعب والنصب.

لقد ترك هٰؤلاء الأخذ بالأسباب، فتركوا الصلاة والصيام، كما تركوا الدعاء والاستعانة بالله والتوكل عليه، لأنه لا فائدة منها، فالذي يريده الله ماض قادم لا ينفع معه دعاء ولا عمل.

ورضي كثير من هٰؤلاء بظلم الظالمين وإفساد المفسدين، لأن ما يفعلونه قدر الله وإرادته.

وتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولم يهتموا بإقامة الحدود والقصاص، لأن ما وقع من المفاسد والجرائم مقدر لا بدَّ منه.

وقد عرض شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- لهٰذا الفريق ومعتقده

وحاله في مواضع من كتبه، فقال: «الذين اعترفوا بالقضاء والقدر، وزعموا أن ذلك يوافق الأمر والنهي، فهؤلاء يؤول أمرهم إلى تعطيل الشرائع والأمر والنهي، مع الاعتراف بالربوبية العامة لكل مخلوق، وأنه ما من دابة إلا ربي آخذ بناصيتها، وهٰذا هو الذي يُبتلى به كثيراً -إمّا اعتقاداً وإما حالاً- طوائف من الصوفية والفقراء، حتى يخرج من يخرج منهم إلى الإباحة للمحرمات، وإسقاط الواجبات، ورفع العقوبات»[1].

وقال أيضاً فيهم: «هٰؤلاء رأوا أن الله خالق المخلوقات كلها، فهو خالق أفعال العباد، ومريد الكائنات، ولم يميزوا بعد ذلك بين إيمان وكفر، ولا عرفان ولا نكر، ولا حق ولا باطل، ولا مهتدي ولا ضال، ولا راشد ولا غوي، ولا نبي ولا متنبىء، ولا ولي لله ولا عدو، ولا مرضي لله ولا مسخوط، ولا محبوب لله ولا ممقوت، ولا بين العدل والظلم، ولا بين البر والعقوق، ولا بين أعمال أهل الجنّة وأعمال أهل النار، ولا بين الأبرار والفجار، حيث شهدوا ما تجتمع فيه الكائنات من القضاء السابق والمشيئة النافذة والقدرة الشاملة والخلق العام، فشهدوا المشترك بين المخلوقات، وعموا عن الفارق بينهما»[2].

«وقد يغلو أصحاب هٰذا الطريق حتى يجعلوا عين الموجودات هي الله، ويمسكون بموافقة الإرادة القدرية في السيئات الواقعة منهم، كقول الحريري: أنا كافر برب يعصى، وقول ابن إسرائيل:

أصبحت منفعلاً لما يختاره ... مني ففعلي كلـه طاعات

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ٢٥٦.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ٦٠.

وقد يسمون هٰذا حقيقة باعتبار أنه حقيقة الربوبية»[1].

وعرض ابن القيم لهٰذه الفرقة وضلالاتها في كتابه القيم «شفاء العليل» فقال: «ثمَّ نبغت طائفة أخرى زعمت أن حركة الإنسان الاختيارية -ولا اختيار- كحركة الأشجار عند هبوب الرياح، وكحركات الأمواج، وأنه على الطاعة مجبور، وأنه غير ميسر لما خلق له، بل هو عليه مجبور ومقصور.

ثم تلاهم أتباعهم على آثارهم مقتدين، ولمنهاجهم مقتفين، فقرروا هٰذا المذهب وانتموا إليه، وحققوه، وزادوا عليه أن تكاليف الرب تعالى لعباده كلها تكليف مالا يطاق، وأنها في الحقيقة كتكليف المقعد أن يرقى إلى السبع الطباق، فالتكليف بالإيمان وشرائعه تكليف بما ليس من فعل العبد، ولا هو بمقدوره، وإنما هو تكليف بفعل من هو منفرد بالخلق، وهو على كل شيء قدير، فكلف عباده بأفعاله، وليسوا عليها قادرين، ثم عاقبهم عليها، وليسوا في الحقيقة لها فاعلين.

ثمَّ تلاهم على آثارهم محققوهم من العُبَّاد، فقالوا: ليس في الكون معصية البتَّة، إذ الفاعل مطيع للإرادة موافق للمراد، كما قيل:

أصبحت منفعلاً لما يختاره مني ففعلي كله طاعات

ولاموا بعض هٰؤلاء على فعله فقال: إن كنت عصيت أمره، فقد أطعت إرادته، ومطيع الإرادة غير ملوم، وهو في الحقيقة غير مذموم، وقرر محققوهم من المتكلمين في هٰذا المذهب بأن الإرادة والمشيئة والمحبة في حق الرب سبحانه هي واحدة، فمحبته هي نفس مشيئته، وكل ما في

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ٢٥٧.

الكون فقد أراده وشاءه، وكل ما شاءه فقد أحبه.

. . . ولقد ظنت هٰذه الفرقة بالله أسوأ الظنون، ونسبته إلى أقبح الظلم، وقالوا: إن أوامر الرب ونواهيه كتكليف العبد أن يرقى فوق السمٰوات، وكتكليف الميت إحياء الأموات، والله يعذب عباده أشدَّ التعذيب على فعل مالا يقدرون على تركه، وعلى ترك مالا يقدرون على فعله، بل يعاقبهم على نفس فعله الذي هو لهم غير مقدور، وليس أحد ميسر له، بل هو عليه مقهور، ونرى العارف منهم ينشد مترنماً، ومن ربّه متشكياً ومتظلماً:

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء»[1]

وقد تنبه ابن القيم إلى أن هٰذا الصنف من البشر قصدوا «تحميل ذنوبهم على الأقدار، وتبريئها من الذنوب والأوزار، وقالوا إنها في الحقيقة فعل الخلاق العليم»[2].

وتنبه المقدم لكتاب «الشفاء» إلى أن هٰذا السبب هو الذي جعل «الاتجاه السائد في كل العصور هو الجبر» فقال: «عقيدة الجبر تحمل عن الإنسان تبعاته، وتضع عنه أوزار ما اقترف من الإثم، وتلقي التبعة على القوة التي حركت إرادة الإنسان، ودفعت رغبته وقادته في تصرفاته، فكاد السواد الأعظم من الناس يدين بالجبر، فمن كان وثنياً اعتقد بأن أمره بيد الآلهة التي يعبدها، يلقي التبعة على الدهر، ويعتقد أن المرء طوع تقلب الحدثان.

---

(١) شفاء العليل لابن القيم: ص١٥، ١٦.

(٢) شفاء العليل: ص١٦.

ومن يقول أنه مؤمن بالله يعتقد أن الأقدار تُسيِّره كيف تشاء، وأنه مسلوب الإرادة عديم الاختيار، حتى اتخذ هٰذا البحث مظهراً جديداً في العصور الحديثة، حيث قال المجبرة منهم: إن إرادة الإنسان مقيدة بالغرائز والوراثة والبيئة، وليس للإنسان يد في إحداث هٰذه الأمور، وإذن فليس له اختيار فيما يقترف من ذنب وإثم، لأن الإرادة لا أثر لها في البواعث النفسية، بل هي ثمرة هٰذه البواعث، وهي خاضعة لمؤثرات نفسية أو خارجية خضوعاً لا محيص عنه.

ولما انتشرت فكرة الجبر بين المسلمين في العصور المتأخرة عن طريق الطرق الزائغة والمتصوفة أضرَّت ضرراً عظيماً، سيما مع ترك الأسباب. قال بعضهم:

جرى قلم القضاء بما يكون فسيان التحرك والسكون

جنون منك أن تسعى لرزق ويرزق في غيابته الجنين[1]»

ومقالة هٰذا الفريق تؤدي إلى الكفر بالله، والتكذيب بما جاء في كتبه، وأخبرت به رسله، يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى:

«فمن أثبت القدر واحتج به على إبطال الأمر والنهي فهو شر ممن أثبت الأمر والنهي، ولم يثبت القدر، وهٰذا متفق عليه بين المسلمين وغيرهم من أهل الملل بين جميع الخلق، فإن من احتج بالقدر وشهود الربوبية العامة لجميع المخلوقات، ولم يفرق بين المأمور والمحظور والمؤمنين والكفار، وأهل الطاعة وأهل المعصية لم يؤمن بأحد من الرسل، ولا بشيء من الكتب، وكان عنده آدم وإبليس سواء، ونوح وقومه سواء،

(١) شفاء العليل: ص ٥.

وموسى وفرعون سواء، والسابقون الأولون والكفار سواء»[1].

وقال فيهم أيضاً: «من يقر بتقدم علم الله وكتابه، ولكن يزعم أن ذلك يغني عن الأمر والنهي والعمل، وأنه لا يحتاج إلى العمل، بل من قضى بالسعادة دخل الجنة، بلا عمل أصلاً، ومن قضى بالشقاوة شقي بلا عمل، فهؤلاء أكفر من أولئك (يعني المكذبين بالقدر) وأضل سبيلاً، ومضمون قول هؤلاء تعطيل الأمر والنهي، والحلال والحرام، والوعد والوعيد، وهؤلاء أكفر من اليهود والنصارى بكثير»[2].

وقال أيضاً: «هؤلاء القوم إذا أصروا على هذا الاعتقاد كانوا أكفر من اليهود والنصارى، فإن اليهود والنصارى يؤمنون بالأمر والنهي، والوعد والوعيد، والثواب والعقاب، لكن حرفوا وبدلوا وآمنوا ببعض وكفروا ببعض»[3].

الرد على القدرية الجبرية

والرد على ضلال هذه الفرقة من وجوه:

الأول: خطؤهم في إطلاق اسم الجبر على ما يؤديه الإنسان من أفعال:

استعمل هؤلاء لفظاً لم يرد به الكتاب والسنة، والواجب على العباد أن يستخدموا الألفاظ التي جاءت بها النصوص، روى اللالكائي بإسناده إلى

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ١٠٠.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ٢٨٨.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ٢٦٢.

بقية قال: سألت الأوزاعي والزبيدي عن الجبر؟

فقال الزبيدي: أمر الله أعظم وقدرته أعظم من أن يجبر ويقهر، ولكن يقضي ويقدر ويخلق ويجبل عبده على ما أحب.

وقال الأوزاعي: ما أعرف للجبر أصلاً من القرآن والسنة فأهاب أن أقول ذلك، ولكن القضاء والقدر والخلق والجبل، فهٰذا يعرف في القرآن والحديث عن رسول الله ﷺ»[1].

وورد مثل هٰذه الأقوال عن جمع من علماء السلف مثل سفيان الثوري وأبي إسحاق الفزاري وغيرهم[2].

وإنما أنكروا إطلاق القول بأن الإنسان مجبر على فعله، لأن لفظ (الجبر) مجمل، فقد يراد بالإجبار معنى الإكراه كقولك: أجبر الأب ابنته على النكاح، وجبر الحاكم الرجل على بيع ماله لوفاء دينه، ومعنى الإجبار هنا الإكراه، فيكون معنى قولهم: أجبر الله العباد، أي: أكرههم، لا أنه جعلهم مريدين لأفعالهم مختارين لها عن حبٍّ ورضا.

وإطلاق هٰذا على الله -تبارك وتعالى- خطأ بين، «فإن الله أعلى وأجل من أن يجبر أحداً، وإنما يجبر غيره العاجز عن أن يجعله مريداً للفعل مختاراً له محباً له راضياً به، والله سبحانه قادر على ذلك، فهو الذي جعل المريد للفعل المحب له الراضي به مريداً له محباً له راضياً به، فكيف يقال أجبره وأكرهه، كما يجبر المخلوق المخلوق[3].

---

(١) شرح اعتقاد أصول أهل السنة: ص٧٠٠ مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ١٠٥.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٨/ ١٣٢، ٢٩٤، ٤٦١.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ٤٦٣.

وأما إطلاق الجبر مراداً به أن الله جعل العباد مريدين لما يشاء منهم مختارين له من غير إكراه فهٰذا صحيح، وقال بعض السلف في معنى الجبار: هو الذي جبر العباد على ما أراد[1].

ولما كان لفظ الجبر لفظ مجمل يطلق على هٰذا وهٰذا منع السلف من إطلاقه نفياً أو إثباتاً.

ذكر شيخ الإسلام عن أبي بكر الخلال في كتابه (السنة) أن المروذي قال للإمام أحمد: يا أبا عبد الله، رجل يقول إن الله أجبر العباد، فقال: هٰكذا لا نقول، وأنكر ذلك، وقال: يُضلُّ الله من يشاء ويهدي من يشاء.

وذكر عن المروذي أن رجلاً قال: إن الله لم يجبر العباد على المعاصي، فرد عليه آخر، فقال: إن الله جبر العباد، أراد بذلك إثبات القدر، فسألوا عن ذلك أحمد بن حنبل، فأنكر عليهما جميعاً على الذي قال جَبَر، وعلى الذي قال لم يجبر حتى تاب، وأمره أن يقول: يضل من يشاء ويهدي من يشاء.

وذكر عن أبي إسحاق الفزاري قال: جاءني الأوزاعي فقال: أتاني رجلان فسألاني عن القدر، فأحببت أن آتيك بهما تسمع كلامهما وتجيبهما.

قلت: رحمك الله، أنت أولى بالجواب.

قال: فأتاني الأوزاعي ومعه الرجلان، فقال: تكلما.

فقالا: قدم علينا ناس من أهل القدر، فنازعونا في القدر ونازعناهم

---

(١) راجع: مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ٤٦٤.

فيه، حتى بلغ بنا وبهم إلى أن قلنا: إن الله جبرنا على ما نهانا عنه، وحال بيننا وبين ما أمرنا به، ورزقنا ما حرَّم علينا.

فقلت: يا هٰؤلاء، إن الذين أتوكم بما أتوكم به قد ابتدعوا بدعة، وأحدثوا حدثاً، وإني أراكم قد خرجتم من البدعة إلى مثل ما خرجوا إليه.

فقال الأوزاعي: أصبت وأحسنت يا أبا إسحاق»[1].

الثاني: إنكار الاختيار في أفعال العباد نقص في العقل:

الذين يزعمون أن الإنسان ليس له إرادة يفعل بها ألغوا عقولهم، فضلوا وأضلوا، وإلاّ فإننا نعلم من أنفسنا أن حركتنا ليست كحركة الجماد، الذي لا يملك شيئاً لذاته في تحركه وسكونه.

بل إننا نفرق بين الحركات غير الإرادية التي تجري في أجسادنا وبين الحركات الإرادية، فحركة القلب، وحركة الرئتين، وجريان الدم في دورته في عروق الإنسان، وآلاف العمليات المعقدة التي تجري في أجسادنا - من غير أن نعرفها ونعلم بها - ليس لنا فيها خيار، بل هي حركات اضطرارية ليس للإنسان إرادة في إيجادها وتحقيقها، ومثل ذلك حركة المرعوش الذي لا يملك إيقاف اهتزاز يده.

أما أكل الإنسان وشربه وركوبه، وبيعه وشراؤه، وقعوده وقيامه، وزواجه وطلاقه، ونحو ذلك فهو يتم بإرادة وقدرة ومشيئة، والذين يسلبون الإنسان هٰذه القدرة ضلت عقولهم، واختلفت عندهم الموازين.

والقرآن مليء بإسناد الأفعال إلى من قاموا بها كقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنَ

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ١٠٣.

أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾ [يـــس: ٢٠] ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴾ [الصافات: ١٠٣] ﴿ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥] ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ [القصص: ٧٩] والنصوص في هٰذا كثيرة يصعب إحصاؤها تسند الأفعال إلى من قاموا بها.

الوجه الثالث: زعمهم أن كل شيء قدره الله وخلقه فقد رضيه وأحبه:

وهٰذا زعم باطل، فالله شاء وجود الكفر والشرك والذنوب والمعاصي من الزنا والسرقة وعقوق الوالدين والكذب وقول الزور، وأكل مال الناس بالباطل، ولكنه كرهها وأبغضها ونهى عباده عنها.

قال ابن القيم: «أخبرني شيخ الإسلام -قدس الله روحه- أنه لام بعض هٰذه الطائفة على محبة ما يبغض الله ورسوله.

فقال له الملوم: المحبة نار تحرق من القلب ما سوى مراد المحبوب، وجميع ما في الكون مراده، فأي شيء أُبغضُ منه؟

فقال له الشيخ: إذا كان الله قد سخط على أقوام ولعنهم وغضب عليهم وذمهم، فواليتهم أنت وأحببت أفعالهم ورضيتها، تكون موالياً له أو معادياً له؟

قال: فبهت الجبري ولم ينطق بكلمة»[1].

وسيأتي مزيد بحث في هٰذه المسألة عند الحديث عن الإرادة الكونية والإرادة الشرعية.

---

(١) شفاء العليل: ص١٦.

الوجه الرابع: زعمهم أن الإيمان بالقدر يقضي بترك الأعمال وإهمال الأسباب:

لقد أخطأ هٰذا الفريق في دعواه أن الإيمان بالقدر لا يحتاج العبد معه إلى العمل، وذهل هٰؤلاء عن حقيقة القدر، فالله قدَّر النتائج وأسبابها، ولم يقدر المسببات من غير أسباب، فمن زعم أن الله قدر النتائج والمسببات من غير مقدماتها وأسبابها فقد أعظم على الله الفرية.

فالله إذا قدَّر أن يرزق فلاناً رزقاً فقد جعل لذلك الرزق أسباباً ينال بها، فمن ادعى أن لا حاجة به إلى السعي في طلب الرزق وأنَّ ما قدر له من رزق سوف يأتيه سعى أو لم يسع لم يفقه قدر الله في عباده.

وإذا قدر الله أن يرزق فلاناً ولداً، فإنه يكون قدر له أن يتزوج ويعاشر زوجه، فالأسباب هي من الأقدار.

والله يقدر أن فلاناً يدخل الجنة، ويقدر مع ذلك أن هٰذا الإنسان يؤمن ويعمل الصالحات، ويستقيم على أمر الله، ويقدر أن فلاناً يكون من أهل النار، ويقدر أسباب ذلك من تركه الإيمان والأعمال الصالحة.

ويقدر أن فلاناً يمرض فيتناول الدواء فيشفى، فالله قدر المرض، وقدر السبب الذي يزيل المرض ويحقق الشفاء.

والله يقدر أن فلاناً يدعوه ويستغيث به، فيجيب دعاءَه ويقبل رجاءَه، ويقدر أن فلاناً لا يدعوه ولا يرجوه، فيكله إلى نفسه، ويبقيه في تعسه، فالله قدر المسببات وقدر أسبابها، ومن زعم أن المسبب يقع من غير سبب فإنه لم يفقه دين الله، ولم يعرف قدر الله، وهو كمن يزعم أن الولد يأتي

من غير سبب، وأن الزرع يحصل من غير ماء ولا تراب، وأن الشبع يحدث من غير طعام، والري يكون من غير تناول شراب.

والنصوص الدالة على هٰذا الذي شرحناه وبيناه كثيرة وافرة.

ونصوص الكتاب والسنة حافلة بالأمر باتخاذ الأسباب المشروعة في مختلف شؤون الحياة، فقد أمرت بالعمل والسعي في طلب الرزق، واتخاذ العدة لمواجهة الأعداء، والتزود للأسفار.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠] وقال: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥] وقال: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠] وأمر المسافرين للحج بالتزود ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧] وأمر بالدعاء والاستعانة ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وأمر باتخاذ الأسباب الشرعية التي تؤدي إلى رضوانه وجنته كالصلاة والصيام والزكاة والحج.

وحياة الرسول ﷺ وأصحابه، بل حياة المرسلين جميعاً والسائرين على نهجهم كلها شاهدة على أخذهم بالأسباب، والجد والاجتهاد في الأعمال.

إن الأخذ بالأسباب هو من قدر الله تبارك وتعالى، وليس مناقضاً للقدر ولا منافياً له.

وقد فقَّه الرسول ﷺ أصحابه بمعنى القدر، وأنه لا يُوجبُ ترك العمل،

بل يوجب الجد والاجتهاد فيه لبلوغ ما يطمح الإنسان في نيله وتحقيقه، فقد سأل الصحابة الرسول ﷺ عن فائدة العمل إذا كانت الأعمال مقدرة مقضية جفَّ بها القلم، وفرغ منها رب العالمين، فقال: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له» وقرأ عليه السلام: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ [الليل: ٥-١٠].

وقال بعض الصحابة الذين فقهوا عن الله ورسوله مراده لما سمع أحاديث القدر: «ما كنت بأشدّ اجتهاداً مني الآن».

إن الذي يفقه عن الله مراده في القدر يعلم أن القدر السابق لا يمنع العمل، ولا يوجب الاتكال، بل يدفع إلى الجد والاجتهاد والحرص على تحصيل ما ينفعه في الدنيا والآخرة.

إلا أنه يجب التنبه إلى أن العبد وإن أخَذَ بالأسباب فإنه لا يجوز أن يعتمد عليها، ويتوكل عليها، بل يجب أن يتوكل على خالقها ومنشئها.

وقد قال علماؤنا: «الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع، وإنما التوكل والرجاء معنى يتألف من موجب التوحيد والعقل والشرع.

وبيان ذلك: أن الالتفات إلى السبب هو اعتماد القلب عليه ورجاؤه والاستناد إليه، وليس في المخلوقات ما يستحق هٰذا، لأنه ليس مستقلاً، ولا بدَّ له من شركاء وأضداد، ومع هٰذا كله فإن لم يسخره مسبب الأسباب لم يسخر، وهٰذا مما يبين أن الله ربُّ كل شيء ومليكه، وأن

السمٰوات والأرض وما بينهما والأفلاك وما حوته لها خالق مدبر غيرها، وذلك أن كل ما يصدر عن فلك أو كوكب أو ملك أو غير ذلك، فإنك تجده ليس مستقلاً بإحداث شيء من الحوادث، بل لا بدَّ له من مشارك ومعاون، وهو مع ذلك له معارضات وممانعات»[1].

«فكل سبب له شريك وله ضد، فإن لم يعاونه شريكه، ولم يُصرف عنه ضده لم يحصل سببه، فالمطر وحده لا ينبت إلا بما ينضم إليه من الهواء والتراب وغير ذلك، ثمَّ الزرع لا يتمُّ حتى تصرف عنه الآفات المفسدة له، والطعام والشراب لا يغذي إلا بما جعل في البدن من الأعضاء والقوى ومجموع ذلك لا يفيد إن لم تصرف المفسدات»[2].

والعقلاء من البشر يعلمون أنهم لا يستقلون بفعل ما يريدون، فكثير منهم تتهيأ له الأسباب، ثم يحال بينه وبين ما يشتهي وما يريد ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤].

يذكر اللالكائي أن رجلاً طلب من جاريته أن تسقيه، فجاءته بقدح من زجاج، فصبت له ماء، فوضعه على راحته، ثم رفعه إلى فيه، ثم قال: يزعم ناس أني لا أستطيع أن أشرب هٰذا، ثم قال: هي حرة إن لم أشربه (يعني جاريته التي صبت الماء).

فما كان من الجارية إلا أن ضربت القَدَح برِدْن قميصه، فوقع القدَح وانكسر وأهراق الماء[3].

---

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام: ٨/ ١٧٠.

(٢) مجموع فتاوي شيخ الإسلام: ٨/ ١٦٧.

(٣) شرح أصول أهل السنة: ٧٢٧.

وهٰكذا أثبتت هٰذه الجارية لهٰذا المسكين أنه لا يقدر على كل ما يريد مالم يقدره الله، فلقنته درساً، وحررت نفسها من رق العبودية.

وكم من ثري أو قوي أو مُقدّم قوم ظن أن الدنيا خضعت له وأعطته زمامها، وجد نفسه عاجزاً لا يستطيع أن يفعل شيئاً، قد يقعده عن فعل ما يشتهي عدو طاغ، أو مرضٌ مُقْعِدٌ، أو خيانة صديق. أو طمع محب ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤].

الوجه الخامس: احتجاجهم بالقدر:

وهٰؤلاء يحتجون بالقدر على ترك العمل، فتجد الواحد عندما يدعى إلى الصلاة والصيام وقراءة القرآن يقول: لو شاء الله لي أن أعمل هٰذا عملته، كما يحتجون به على ما يوقعونه بالناس من الظلم والفساد، أو ما يقع من ظلم وفساد، فيقولون في المظالم والمناكر والمفاسد التي تقع: هٰذه إرادة الله ومشيئته وليس لنا حيلة في ذلك، وقد أدى هٰذا بهم إلى ترك الباطل يستشري في ديار الإسلام.

وترى هٰذا الصنف من البشر خاضعين للظلمة، بل إن بعضاً منهم يصبح أعواناً للظلمة، وتراهم يخاطبون الناس قائلين: ليس لكم إلا أن تصبروا على مشيئة الله وقدره فيكم. وترى بعض هٰؤلاء يفعلون الموبقات ويرتكبون المنكرات من الزنا والفسوق والعصيان ويحتجون لأفعالهم بالقدر.

وهٰؤلاء إن اعتقدوا أن كل شيء واقع فهو حجّة أضحكوا العقلاء منهم، وأوقعوا أنفسهم في مأزق لا يجدون منه خلاصاً، وابن القيم يذكر وقائع

من هٰؤلاء تزري بأصحاب العقول، وتجعل أصحابها في مرتبة أقل من البهائم، يذكر عن واحد من هٰؤلاء أنه رأى غلامه يفجر بجاريته، فلما أراد معاقبتهما، وكان غلامه يعرف مذهبه في القدر، فقال له: إن القضاء والقدر لم يدعانا حتى فعلنا ذلك.

فقال له ذلك الجاهل: لَعِلْمُكَ بالقضاء والقدر أحب إليَّ من كلّ شيء، أنت حرّ لوجه الله.

ورأى آخر رجلاً يفجر بزوجته، فأقبل يضربها وهي تقول: القضاء والقدر، فقال: يا عدوة الله أتزنين وتعتذرين بمثل هٰذا؟

فقالت: أوَّه تركت السنّة، وأخذت بمذهب ابن عباس.

فتنبه، ورمى بالسوط من يده، واعتذر إليها، وقال: لولا أنت لضللت.

ورأى آخر رجلاً يفجر بامرأته، فقال: ما هٰذا؟

فقالت: هٰذا قضاء الله وقدره.

فقال: الخيرة فيما قضى الله. فلقب بالخيرة فيما قضى الله[1].

ولو كان الاحتجاج بالقدر صحيحاً لأمكن لكل واحد أن يقتل ويفسد ويأخذ الأموال ويظلم العباد، فإذا سئل عن أفعاله احتج بالقدر، وكل العقلاء يعلمون بأن هٰذه الحجة مرفوضة غير مرضية، وإلا فإن الحياة تفسد.

وكثير من الذين يحتجون بالقدر لظلمهم وفسقهم وضلالهم يثورون إذا ما وقع عليهم الظلم، ولا يرضون من غيرهم أن يحتج على ظلمه لهم بالقدر.

---

(١) نقل عن ابن القيم هٰذه الوقائع وغيرها صاحب معارج القبول: ٢/ ٢٥٥.

إن المنهج الذي فقهه علماؤنا عن ربنا ونبينا أنه يجب علينا أن نؤمن بالقدر، ولكن لا يجوز لنا أن نحتج به على ترك العمل، كما لا يجوز لنا أن نحتج به على مخالفتنا للشرع، وإنما يحتج بالقدر على المصائب دون المعايب.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: «العبد له في المقدور حالان: حال قبل القدر وحال بعده.

فعليه قبل المقدور أن يستعين بالله ويتوكل عليه ويدعوه، فإذا قدر المقدور بغير فعله فعليه أن يصبر عليه أو يرضى به، وإن كان بفعله وهو نعمة حمد الله على ذلك، وإن كان ذنباً استغفر إليه من ذلك.

وله في المأمور حالان:

حال قبل الفعل، وهو العزم على الامتثال والاستعانة بالله على ذلك، وحال بعد الفعل وهو الاستغفار من التقصير وشكر الله على ما أنعم به من الخير. قال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ [غافر: ٥٥] أمره أن يصبر على المصائب المقدرة، ويستغفر من الذنب.

وقال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٦]. وقال يوسف: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

فذكر الصبر على المصائب والتقوى بترك المعائب، وقال النبي ﷺ: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو

تفتح عمل الشيطان»[1][2].

إن العبد المؤمن الحصيف لا يترك العمل بدعوى أنَّ قدر الله ماض فيه، بل الواجب عليه أن يأخذ الأمر بقوة، يعلم ما يطلبه الله، ويفكر فيما يفيده وينفعه، ثمَّ يبذل قصارى جهده في القيام بأمر الله، وبالأخذ بالأسباب للأمور التي يظن أن فيها نفعه وصلاحه، فإذا لم يوفق فلا يقضي وقته بالتحسر والتأسف، وإنما يقول في هٰذا الموضع قدر الله وما شاء فعل.

إن الإيمان بالقدر والاحتجاج به يأتي لمعالجة المشكل النفسي الذي يذهب الطاقة الإنسانية ويبددها في حال الفشل والإخفاق، ولا يكون مانعاً من العمل والإبداع في مقبل الزمان.

استدلالهم بحديث احتجاج آدم بالقدر:

وقد يستدل من قلَّ علمه بحديث احتجاج آدم وموسى على الاحتجاج بالقدر في المعايب، وهو حديث صحيح روته كتب الصحاح والسنن.

روى أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «احتج آدم وموسى عليهما السلام عند ربهما، فحج آدم موسى.

قال موسى: أنت آدم الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وأسكنك في جنته، ثمَّ أُهبط الناس بخطياتك إلى الأرض؟

---

(١) الحديث رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة: ٤/ ٢٠٥٢. ورقم الحديث: ٢٦٦٤.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ٧٦.

فقال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء، وقربك نجياً، فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق؟

قال موسى: بأربعين عاماً.

قال آدم: فهل وجدت فيها: وعصى آدم ربّه فغوى؟

قال: نعم.

قال: أفتلومني على أن عملت عملاً كتبه الله عليّ أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟

قال رسول الله ﷺ: «فحج آدم موسى»[1].

وليس في هٰذا الحديث حجة للذين يحتجون بالقدر على القبائح والمعايب، فآدم عليه السلام لم يحتج بالقضاء والقدر على الذنب، وموسى عليه السلام لم يلم أباه آدم على ذنب تاب منه، وتاب الله عليه منه واجتباه وهداه، وإنما وقع اللوم من موسى على المصيبة التي أخرجت آدم وأولاده من الجنّة.

فاحتج آدم بالقدر على المصيبة، لا على الخطيئة، فإن القدر يحتج به عند المصائب لا عند المعايب[2].

---

(١) رواه مسلم: ٤/٢٠٤٣ ورقم الحديث ٢٦٥٢. وللحديث عند مسلم عدة روايات، وقد رواه البخاري أيضاً في مواضع من كتابه. ورواه أبو داود والترمذي في سننهما. انظر روايات الحديث في جامع الأصول: (١٠/ ١٢٤).

(٢) شرح الطحاوية: ص١٥٤. وأجاب بهٰذا الجواب شيخ الإسلام أيضاً: انظر شفاء العليل: ص ٣٥.

فعلى العبد أن يستسلم للقدر إذا أصابته مصيبة ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٦]، أما المذنبون فليس لهم الاحتجاج بالقدر، بل الواجب عليهم أن يتوبوا ويستغفروا ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ [غافر:٥٥] فأرشد إلى الصبر في المصائب والاستغفار من الذنوب والمعايب.

والله ذم إبليس لا لاعترافه بالمقدر في قوله: ﴿ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى ﴾ [الحجر:٣٩]، وإنما على احتجاجه بالقدر.

وأجاب ابن القيم عن الإشكال الذي وقع في حديث احتجاج آدم بالقدر بجواب آخر فقال: «الاحتجاج بالقدر على الذنب ينفع في موضع، ويضر في موضع، فينفع إذا احتج به بعد وقوعه والتوبة منه، وترك معاودته، كما فعل آدم، فيكون في ذكر القدر إذ ذاك من التوحيد ومعرفة أسماء الرب وصفاته وذكرها ما ينتفع به الذاكر والسامع، لأنّه لا يدفع بالقدر أمراً ولا نهياً، ولا يبطل به شريعة، بل يخبر بالحق المحض على وجه التوحيد والبراءة من الحول والقوة.

يوضحه أن آدم قال لموسى: أتلومني على أن عملت عملاً كان مكتوباً عليّ قبل أن أخلق؟ فإذا أذنب الرجل ذنباً ثمَّ تاب منه توبة، وزال أمره حتى كأن لم يكن، فأنَّبهُ مؤنب عليه ولامه، حسن منه أن يحتج بالقدر بعد ذلك ويقول: هٰذا أمر كان قد قدر علي قبل أن أخلق، فإنه لم يدفع بالقدر حقاً، ولا ذكره حجّة له على باطل ولا محذور في الاحتجاج به.

وأما الموضع الذي يضر الاحتجاج به، ففي حال المستقبل بأن يرتكب فعلاً محرماً أو يترك واجباً، فيلومه عليه لائم، فيحتج بالقدر على إقامته

عليه، وإصراره، فيبطل به حقاً، ويرتكب به باطلاً، كما احتج به المصرون على شركهم وعبادتهم غير الله»[1].

هل الرضا بالمقدور واجب؟

إذا كانت المعاصي بقضاء الله فكيف لنا أن نكره قضاءَه ونبغضه، والجواب: «أنه لا يوجد في كتاب الله، ولا في سنة رسوله ﷺ آية ولا حديث يأمر العباد بأن يرضوا بكل مقدر من أفعال العباد حسنها وسيئها، ولكن الواجب على الناس أن يرضوا بما أمر الله به، فليس لأحد أن يسخط ما أمر الله به. قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وينبغي للعبد أن يرضى بما يقدره الله عليه من المصائب التي ليست ذنوباً، مثل أن يبتليه بفقر أو مرض أو ذل وأذى الخلق له، فإن الصبر على المصائب واجب، وأما الرضا بها فهو مشروع، ولكن هل هو واجب أو مستحب؟ على قولين لأصحاب أحمد وغيرهم: أصحهما أنه مستحب ليس بواجب»[2].

الوجه السادس: الزعم بأن تكليف العباد غير ما فعلوا هو من باب التكليف بما لا يطاق:

وزعم من ذهب هٰذا المذهب أن فاعلي المعاصي والذنوب لا

---

(١) شفاء العليل: ص٣٥.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ١٩٠.

يستطيعون غير ما فعلوا، وتكليفهم بخلاف ما فعلوا تكليف بما لا يطاق، وتكليف مالا يطاق جاءت الشريعة بنفيه في قوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق: ٧]، واحتجوا بمثل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: ١٠١]، وقوله: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠]، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩].

قالوا: فهٰذه الآيات مصرحة بأنهم لم يكونوا يستطيعون الفعل، وهٰؤلاء ضربوا كتاب الله بعضه ببعض، وزعموا أنه متناقض، وحاشاه أن يكون كذلك.

والجواب عما شغبوا به «أن الاستطاعة المنفية في الآيات التي احتجوا بها ليست هي الاستطاعة المشروطة في الأمر والنهي، فإن تلك إذا انتفت انتفى الأمر والنهي، والوعد والوعيد، والحمد والذم، والثواب والعقاب. ومعلوم أن العباد في هٰذه الحال مأمورون منهيون موعودون متوعدون، فعلم أن المنفية ليست هي المشروطة في الأمر والنهي»[1].

فالاستطاعة المنفية في الآيات التي احتجوا بها ليست بسبب استحالة الفعل أو عجزهم عنه، وإنما هي بسبب تركهم له والاشتغال بضده، كالكافر كلفه الله الإيمان في حال كفره، لأنه غير عاجز عنه ولا مستحيل فعله، فهو كالذي لا يقدر على العلم لاشتغاله بالمعيشة[2].

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ٢٩١.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ٢٩٦.

أما الاستطاعة التي هي مناط التكليف، فهي المذكورة في مثل قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقوله: ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ﴾ [المجادلة: ٤]، ومثل قوله ﷺ: «صلِّ قائماً فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب».

ومعلوم أن الله لا يكلف مالا يطاق لوجود ضده من العجز، فلا يكلف المقعد بأن يصلي قائماً، ولا يكلف المريض بالصيام، ولا يكلف الأعمى بالجهاد والقتال، لخروج ذلك عن المقدور.

وقد اتفق أهل العلم أن العبد إذا عجز عن بعض الواجبات سقط عنه ما عجز عنه، فمن قطعت منه رجله سقط عنه غسلها، ومن لم يستطع اغتسال الجنابة أو القيام أو الركوع ونحو ذلك سقط عنه ما عجز عنه. وبذلك يظهر لك أن عدم الاستطاعة المذكورة في الآيات التي احتج بها هٰذا الفريق غير مشروطة في شيء من الأمر والنهي والتكليف باتفاق المسلمين، والاستطاعة الشرعية الي هي مناط الأمر والنهي في الآيات التي سقناها هي التي لم يكلف الله أحداً شيئاً بدونها[1].

الوجه السابع: يلزم من قولهم التسوية بين المُخْتَلِفَيْن:

لقد أدى هٰذا المذهب بأصحابه والقائلين به إلى التسوية بين الأخيار والفجار، والأبرار والأشرار، وأهل الجنة وأهل النار، وقد فرق بينهم العليم الخبير ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ

(١) راجع مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ١٣٠.

نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٧-٢٨]، وقال: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ [الجاثية: ٢١]، وقال: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥-٣٦].

المبحث الثالث

مذهب أهل السنة والجماعة في القدر

بينا لك مذاهب الذين ضلوا في القدر، وأحب هنا أن أذكر مذهب أهل السنة والجماعة في هٰذا الباب، وقد دون مذهبهم كثير من أهل العلم، وأنا أسوق هنا ما دوّنه ثلاثة من أعلامهم.

المطلب الأول

شيخ الإسلام ابن تيمية يلخص مذهبهم

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وأجزل له المثوبة: «مذهب أهل السنة والجماعة في هٰذا الباب ما دلَّ عليه الكتاب والسنة، وكان عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان: وهو أنَّ الله خالق كلّ شيء ومليكه، وقد دخل في ذلك جميع الأعيان القائمة بأنفسها وصفاتها القائمة بها من أفعال العباد وغير أفعال العباد.

وأنّه سبحانه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فلا يكون شيء إلا بمشيئته وقدرته، لا يمتنع عليه شيء شاءَه، بل هو القادر على كل شيء، ولا يشاء شيئاً إلا وهو قادر عليه.

وأنه سبحانه يعلم ما كان وما يكون، ومالم يكن لو كان كيف يكون،

وقد دخل في ذلك أفعال العباد وغيرها، وقد قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم: قدر آجالهم وأرزاقهم وأعمالهم وكتب ذلك، وكتب ما يصيرون إليه من سعادة وشقاوة.

فهم يؤمنون بخلقه لكل شيء، وقدرته على كل شيء، ومشيئته لكل ما كان، وعلمه بالأشياء قبل أن تكون، وتقديره لها، وكتابته إياها قبل أن تكون»[1].

«وسلف الأمّة وأئمتها متفقون على أن العباد مأمورون بما أمرهم الله به، منهيون عما نهاهم الله عنه، ومتفقون على الإيمان بوعده ووعيده الذي نطق به الكتاب والسنة.

ومتفقون على أنه لا حجّة لأحد على الله في واجب تركه، ولا محرّم فعله، بل لله الحجّة البالغة على عباده»[2].

«ومما اتفق عليه سلف الأمّة وأئمتها مع إيمانهم بالقضاء والقدر وأن الله خالق كل شيء، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء، وأن العباد لهم مشيئة وقدرة، يفعلون بقدرتهم ومشيئتهم ما أقدرهم الله عليه مع قولهم: إن العباد لا يشاؤون إلا أن يشاء الله»[3].

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ٤٤٩.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ٤٥٢.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ٤٥٩.

المطلب الثاني

عقيدة الإمام أبي بكر محمد الحسين الآجُرِّي في القدر

قال رحمه الله: «مذهبنا في القدر أن نقول: إن الله عز وجل خلق الجنة وخلق النار، ولكل واحدة منهما أهل، وأقسم بعزته أنه يملأ جهنم من الجِنَّة والناس أجمعين.

ثم خلق آدم عليه السلام، واستخرج من ظهره كل ذرية هو خالقها إلى يوم القيامة. ثم جعلهم فريقين: فريق في الجنة وفريق في السعير.

وخلق إبليس، وأمره بالسجود لآدم عليه السلام، وقد علم أنه لا يسجد للمقدور، الذي قد جرى عليه من الشقوة التي سبقت في العلم من الله عز وجل، لا معارض لله الكريم في حكمه، يفعل في خلقه ما يريد، عدلاً من ربنا قضاؤه وقدره.

وخلق آدم وحواء عليهما السلام، للأرض خلقهما، أسكنهما الجنة، وأمرهما أن يأكلا منها رغداً ما شاءا، ونهاهما عن شجرة واحدة أن لا يقرباها، وقد جرى مقدوره أنهما سيعصيانه بأكلهما من الشجرة. فهو تبارك وتعالى في الظاهر ينهاهما، وفي الباطن من علمه: قد قدر عليهما أنهما يأكلان منها ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]. لم يكن لهما بُدٌّ من أكلهما، سبباً للمعصية، وسبباً لخروجهما من الجنة، إذ كانا للأرض خلقا، وأنه سيغفر لهما بعد المعصية، كل ذلك سابق في علمه، لا يجوز أن يكون شيء يحدث في جميع خلقه، إلا وقد جرى مقدوره به، وأحاط به علماً قبل كونه أنه سيكون.

خلق الخلق، كما شاء لما شاء، فجعلهم شقياً وسعيداً قبل أن يخرجهم إلى الدنيا، وهم في بطون أمهاتهم، وكتب آجالهم، وكتب أرزاقهم، وكتب أعمالهم، ثم أخرجهم إلى الدنيا، وكل إنسان يسعى فيما كُتِبَ له وعليه.

ثم بعث رسله، وأنزل عليهم وحيه، وأمرهم بالبلاغ لخلقه، فبلغوا رسالات ربهم، ونصحوا قومهم، فمن جرى في مقدور الله عز وجل أن يؤمن آمن، ومن جرى في مقدوره أن يكفر كفر، قال الله عز وجل: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [التغابن: ٢] أحب من أراد من عباده، فشرح صدره للإيمان والإسلام، ومقت آخرين، فختم على قلوبهم، وعلى سمعهم وعلى أبصارهم فلن يهتدوا أبداً، يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

الخلق كلهم له، يفعل في خلقه ما يريد، غير ظالم لهم، جل ذكره عن أن ينسب ربنا إلى الظلم، إنما يظلم من يأخذ ما ليس له بملك، وأما ربنا عز وجل فله ما في السمٰوات وما في الأرض وما بينهما، وما تحت الثَّرى، وله الدنيا والآخرة، جل ذكره، وتقدست أسماؤه، أحب الطاعة من عباده، وأمر بها، فجرت ممن أطاعه بتوفيقه لهم، ونهى عن المعاصي، وأراد كونها من غير محبته منه لها، ولا للأمر بها، تعالى الله عز وجل أن يأمر بالفحشاء، أو يحبها، وجل ربنا وعز أن يجري في ملكه مالم يرد أن يجري، أو شيء لم يحط به علمه قبل كونه، قد علم ما الخلق عاملون قبل أن يخلقهم، وبعد أن يخلقهم، قبل أن يعملوا قضاء وقدراً.

قد جرى القلم بأمره عز وجل في اللوح المحفوظ بما يكون، من برّ أو فجور، يثني على من عمل بطاعته من عبيده، ويضيف العمل إلى العباد، ويعدهم عليه الجزاء العظيم، ولولا توفيقه لهم ما عملوا ما استوجبوا به منه الجزاء ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١] وكذا ذم قوماً عملوا بمعصيته، وتوعدهم على العمل بها، وأضاف العمل إليهم بما عملوا، وذلك بمقدور جرى عليهم، يضل من يشاء، ويهدي من يشاء.

قال محمد بن الحسين رحمه الله تعالى: هٰذا مذهبنا في القدر»[1].

المطلب الثالث

عقيدة الطحاوي في القدر

يقول الطحاوي رحمه الله في القدر: «خلق الخلق بعلمه، وقدر لهم أقداراً وضرب لهم آجالاً، ولم يخف عليه شيء قبل أن يخلقهم، وعلم ما هم عاملون قبل أن يخلقهم، وأمرهم بطاعته، ونهاهم عن معصيته.

وكل شيء يجري بتقديره ومشيئته، ومشيئته تنفذ، لا مشيئة للعباد، إلا ما شاء الله لهم، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

يهدي من يشاء، ويعصم ويعافي فضلاً، ويضل من يشاء، ويخذل ويبتلي عدلاً.

---

(١) الشريعة للآجري: ١٥٠-١٥٢.

وكلهم متقلبون في مشيئته بين فضله وعدله.

وهو متعال عن الأضداد والأنداد، لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، ولا غالب لأمره.

آمنا بذلك كله، وأيقنا أن كلاًّ من عنده»[1].

«وقد علم الله تعالى فيما لم يزل عدد من يدخل الجنّة، وعدد من يدخل النار، جملة واحدة، فلا يزاد في ذلك العدد، ولا ينقص منه.

وكذلك أفعالهم فيما علم منهم أن يفعلوه، وكل ميسر لما خلق له، والأعمال بالخواتيم، والسعيد من سعد بقضاء الله، والشقي من شقي بقضاء الله.

وأصل القدر سرّ الله تعالى في خلقه، لم يطلع على ذلك ملك مقرب ولا نبي مرسل، والتعمق في ذلك ذريعة الخذلان، وسلم الحرمان، ودرجة الطغيان، فالحذر كل الحذر من ذلك نظراً وفكراً ووسوسة، فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه، ونهاهم عن مرامه، كما قال تعالى: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

فمن سأل: لِمَ فعل؟ فقد رد حكم الكتاب، ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين.

فهٰذا جملة ما يحتاج إليه من هو منوّرٌ قلبه من أولياء الله تعالى، وهي درجة الراسخين في العلم، لأن العلم علمان: علم في الخلق موجود، وعلم في الخلق مفقود، فإنكار العلم الموجود كفر، وادعاء العلم المفقود

(١) العقيدة الطحاوية شرح وتعليق الشيخ ناصر الدين الألباني: ص٢١.

كفر، ولا يثبت الإيمان إلا بقبول العلم الموجود، وترك العلم المفقود.

ونؤمن باللوح والقلم، وبجميع ما فيه قد قدر، فلو اجتمع الخلق كلهم على شيء كتبه الله تعالى في أنه كائن، ليجعلوه غير كائن، لم يقدروا عليه، ولو اجتمعوا كلهم على شيء لم يكتبه الله تعالى فيه ليجعلوه كائناً لم يقدروا عليه، جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة، وما أخطأ العبدَ لم يكن ليصيبه وما أصابه لم يكن ليخطئه.

وعلى العبد أن يعلم أن الله قد سبق علمه في كل كائن من خلقه، فقدر ذلك تقديراً محكماً مبرماً، ليس فيه ناقض، ولا معقب، ولا مزيل ولا مغير، ولا ناقص ولا زائد من خلقه في سمٰواته وأرضه، وذلك من عقد الإيمان، وأصول المعرفة، والاعتراف بتوحيد الله وربوبيته، كما قال تعالى في كتابه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]. وقال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]، فويل لمن صار في القدر لله خصيماً، وأحضر للنظر فيه قلباً سقيماً، لقد التمس بوهمه في فحص الغيب سراً كتيماً، وعاد بما قال فيه أفاكاً أثيماً»[1].

---

(١) العقيدة الطحاوية: ٣١.

الفصل السادس

أسباب الضلال في القدر

والسبب في ضلال كل من القدرية النفاة والقدرية المجبرة في هٰذا الباب أن كل واحد من الفريقين رأى جزءاً من الحقيقة وعمي عن جزء منها، فكان مثله مثل الأعور الذي يرى أحد جانبي الشيء، ولا يرى الجانب الآخر، فالقدرية النفاة الذين نفوا القدر قالوا: إن الله لا يريد الكفر والذنوب والمعاصي ولا يحبها ولا يرضاها، فيكف نقول إنه خلق أفعال العباد وفيها الكفر والذنوب والمعاصي.

والقدرية المجبرة آمنوا بأن الله خالق كل شيء، وزعموا أن كل شيء خلقه وأوجده فقد أحبَّه ورضيه.

وأهل السنة والجماعة أبصروا الحقيقة كلها، فآمنوا بالحق الذي عند كل واحد من الفريقين، ونفوا الباطل الذي تلبس به كل واحد منها.

فهم يقولون: «إن الله وإن كان يريد المعاصي قدراً، فهو لا يحبها، ولا يرضاها ولا يأمر بها، بل يبغضها وينهى عنها».

وهٰذا قول السلف قاطبة، فيقولون: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولهٰذا اتفق الفقهاء على أن الحالف لو قال: والله لأفعلن كذا إن شاء الله لم يحنث إذا لم يفعله، وإن كان واجباً أو مستحباً.

ولو قال: إن أحب الله، حنث إن كان واجباً أو مستحباً.

والمحققون من أهل السنة يقولون: الإرادة في كتاب الله نوعان:

إرادة قدرية خلقية، وإرادة دينية شرعية.

فالإرادة الشرعية هي المتضمنة المحبة والرضا، والكونية هي المشيئة الشاملة لجميع الموجودات.

فالإرادة الشرعية كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقوله: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٦] ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا * يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٦-٢٨]. وقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

فهٰذا النوع من الإرادة لا تستلزم وقوع المراد، إلا إذا تعلق به النوع الثاني من الإرادة، وهٰذه الإرادة تدل دلالة واضحة على أنه لا يحب الذنوب والمعاصي والضلال والكفر، ولا يأمر بها ولا يرضاها، وإن كان شاءَها خلقاً وإيجاداً.

وأنه يحب ما يتعلق بالأمور الدينية ويرضاها ويثيب عليها أصحابها، ويدخلهم الجنة، وينصرهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وينصر بها العباد من أوليائه المتقين وحزبه المفلحين وعباده الصالحين[1].

وهٰذه الإرادة تتناول جميع الطاعات حدثت أو لم تحدث[2].

---

(١) راجع شرح الطحاوية: ص١١٦. ومجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ١٨٨، ٥٨.

(٢) راجع مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٨/ ١٩٨.

والإرادة الكونية القدرية هي الإرادة الشاملة لجميع الموجودات، التي يقال فيها: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وهٰذه الإرادة مثل قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥]. وقوله: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤]. وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. وقوله: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩].

وهٰذه الإرادة إرادة شاملة لا يخرج عنها أحد من الكائنات، فكل الحوادث الكونية داخلة في مراد الله ومشيئته هٰذه، وهٰذه يشترك فيها المؤمن والكافر والبر والفاجر، وأهل الجنّة وأهل النار، وأولياء الله وأعداؤه، وأهل طاعته الذين يحبهم ويحبونه، ويصلي عليهم هو وملائكته، وأهل معصيته الذين يبغضهم ويمقتهم ويلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون[1].

وهٰذه الإرادة تتناول ما حدث من الطاعات والمعاصي دون مالم يحدث منها[2].

والمخلوقات مع كل من الإرادتين أربعة أقسام:

الأول: ما تعلقت به الإرادتان، وهو ما وقع في الوجود من الأعمال الصالحة، فإن الله أراده إرادة دين وشرع، فأمره وأحبه ورضيه، وأراده إرادة كون فوقع، ولولا ذلك ما كان.

والثاني: ما تعلقت به الإرادة الدينية فقط، وهو ما أمر الله به من

---

(١) راجع: شرح الطحاوية: ص ١١٦ ومجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ١٩٨، ٥٨.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ١٩٨.

الأعمال الصالحة، فعصى ذلك الكفار والفجار، فتلك كلها إرادة دين، وهو يحبها ويرضاها وقعت أو لم تقع.

والثالث: ما تعلقت به الإرادة الكونية فقط، وهو ما قدره الله وشاءه من الحوادث التي لم يأمر بها كالمباحات والمعاصي، فإنه لم يأمر بها، ولم يرضها، ولم يحبها، إذ هو لا يأمر بالفحشاء ولا يرضى لعباده الكفر، ولولا مشيئته وقدرته وخلقه لها لما كانت ولما وجدت، فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

والرابع: ما لم تتعلق به هٰذه الإرادة ولا هٰذه، فهٰذا مالم يقع ولم يوجد من أنواع المباحات والمعاصي[1].

والسعيد من عباد الله من أراد الله منه تقديراً ما أراد به تشريعاً، والعبد الشقي من أراد به تقديراً مالم يرد به تشريعاً، وأهل السنة والجماعة الذين فقهوا دين الله حق الفقه، ولم يضربوا كتاب الله بعضه ببعض، علموا أنَّ أحكام الله في خلقه تجري على وفق هاتين الإرادتين، فمن نظر إلى الأعمال الصادرة عن العباد بهاتين العينين كان بصيراً، ومن نظر إلى الشرع دون القدر، أو نظر إلى القدر دون الشرع كان أعور، مثل قريش الذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام:١٤٨]، قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام:١٤٨][2].

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ١٨٩.

(٢) راجع مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ١٩٨.

الفصل السابع

ثمار الإيمان بالقدر

بينا من قبل أن عقيدة القدر التي جاء بها الإسلام مبرأة من التخاذل والكسل والخمول الذي أصاب قطاعاً كبيراً من الأمّة الإسلامية عبر العصور باسم الإيمان بالقدر، والمسؤول عن ذلك هو انحراف المسلمين في باب القدر حيث لم يفقهوه على وجهه.

ومن تأمل في عقيدة القدر التي جاء بها الإسلام وجد لها ثماراً كثيرة طيبة، كانت ولا زالت سبباً في صلاح الفرد والأمّة.

وسنحاول أن نجلي بعض ثماره التي ظهرت خلال هٰذه الدراسة.

١- الإيمان بالقدر طريق الخلاص من الشرك:

لقد زعم كثير من الفلاسفة أن الخير من الله، وأن الشر من صنع آلهة من دونه، وإنما قالوا هٰذا القول فراراً من نسبة الشر إلى الله تعالى[1].

والمجوس زعموا أن النور خالق الخير، والظلمة خالقة الشر.

والذين زعموا من هٰذه الأمّة أن الله لم يخلق أفعال العباد، أو لم يخلق الضال منها أثبتوا خالقين من دون الله.

ولا يتم توحيد الله إلا لمن أقرَّ أن الله وحده الخالق لكل شيء

---

(١) شفاء العليل: ص١٤.

في الكون، وأن إرادته ماضية في خلقه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فكل المكذبين بالقدر لم يوحدوا ربهم، ولم يعرفوه حق معرفته، والإيمان بالقدر مفرق طريق بين التوحيد والشرك. فالمؤمن بالقدر يُقرُّ بأن هٰذا الكون وما فيه صادر عن إله واحد ومعبود واحد، ومن لم يؤمن هٰذا الإيمان فإنه يجعل من دون الله آلهة وأرباباً.

٢- الاستقامة على منهج سواء في السراء والضراء:

العباد بما فيهم من قصور وضعف لا يستقيمون على منهج سواء، قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴾ [المعارج: ١٩-٢٢].

والإيمان بالقدر يجعل الإنسان يمضي في حياته على منهج سواء، لا تبطره النعمة، ولا تيئسه المصيبة، فهو يعلم أن كل ما أصابه من نعم وحسنات من الله، لا بذكائه وحسن تدبيره ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣]. ولا يكون حاله حال قارون الذي بغى على قومه، واستطال عليهم بما أعطاه الله من كنوز وأموال: ﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ * وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ * قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القصص: ٧٦-٧٨].

فإذا أصاب العبد الضراء والبلاء علم أن هٰذا بتقدير الله ابتلاء منه، فلا يجزع ولا ييأس، بل يحتسب ويصبر، فيسكب هٰذا الإيمان في قلب العبد

المؤمن الرضا والطمأنينة ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ * لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣].

وقد امتدح الله عباده: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦-١٥٧].

٣- المؤمن بالقدر دائماً على حذر:

المؤمنون بالقدر دائماً على حذر ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩] فقلوب العباد دائمة التقلب والتغير، والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمٰن يقلبها كيف يشاء، والفتن التي توجه سهامها إلى القلوب كثيرة، والمؤمن يحذر دائماً أن يأتيه ما يضله كما يخشى أن يختم له بخاتمة سيئة، وهٰذا لا يدفعه إلى التكاسل والخمول، بل يدفعه إلى المجاهدة الدائبة للاستقامة، والإكثار من الصالحات، ومجانبة المعاصي والموبقات.

كما يبقى قلب العبد معلقاً بخالقه، يدعوه ويرجوه ويستعينه، ويسأله الثبات على الحق، كما يسأله الرشد والسداد.

٤- مواجهة الصعاب والأخطار بقلب ثابت:

إذا آمن العبد بأنَّ كل ما يصيبه مكتوب، وآمن أن الأرزاق والآجال بيد الله، فإنه يقتحم الصعاب والأهوال بقلب ثابت وهامة مرفوعة، وقد كان

هٰذا الإيمان من أعظم ما دفع المجاهدين إلى الإقدام في ميدان النزال غير هيابين ولا وجلين، وكان الواحد منهم يطلب الموت في مظانه، ويرمي بنفسه في مضائق يظن فيها هلكته، ثمَّ تراه يموت على فراشه، فيبكي أن لم يسقط في ميدان النزال شهيداً، وهو الذي كان يقتحم الأخطار والأهوال.

وكان هٰذا الإيمان من أعظم ما ثبَّت قلوب الصالحين في مواجهة الظلمة والطغاة، لا يخافون في الله لومة لائم، لأنهم يعلمون أن الأمر بيد الله، وما قدر لهم سيأتيهم.

وكانوا لا يخافون من قول كلمة الحق خشية انقطاع الرزق، فالرزق بيد الله، وما كتبه الله لعبده من رزق لا يستطيع أحد منعه، وما منعه الله لعبد من عبيدة لا يستطيع أحد إيصاله إليه.

المراجع

١- الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد. دار الآفاق الجديدة - بيروت. الأولى ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

٢- جامع الأصول لابن الأثير. تحقيق عبد القادر الأرناؤوط. مكتبة الحلواني وآخرون. ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.

٣- سنن أبي داود. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. المكتبة التجارية - القاهرة.

٤- سنن الترمذي. دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٥- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة. لأبي القاسم هبة الله بن الحسين الطبري اللالكائي. دار طيبة - الرياض.

٦- شرح العقيدة الطحاوية. المكتب الإسلامي - بيروت. الرابعة ١٣٩١هـ.

٧- شرح النووي على صحيح مسلم. المطبعة المصرية ومكتبتها. القاهرة.

٨- الشريعة للآجري. دار الكتب العلمية - بيروت. الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٩- شفاء العليل لابن القيم. دار الكتاب العربي - مصر.

١٠- صحيح البخاري. اعتمدت على متن فتح الباري. طبعة السلفية.

١١- صحيح الجامع الصغير. تحقيق محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي - بيروت.

١٢- صحيح سنن الترمذي للشيخ ناصر الدين الألباني. مكتب التربية العربي. الرياض. الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

١٣- صحيح مسلم. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء التراث - بيروت الثانية ١٩٧٢م.

١٤- العقيدة الطحاوية. شرح وتعليق الشيخ ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي - بيروت الأولى. ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

١٥- فتح الباري لابن حجر. طبعة السلفية - القاهرة.

١٦- الفرق بين الفرق لعبد القاهر بن طاهر الإسفراييني. دار المعرفة - بيروت.

١٧- القاموس المحيط للفيروزآبادي. مؤسسة الرسالة - بيروت. الأولى. ١٤٠٦هـ.

١٨- لوامع الأنوار البهية. للسفاريني. دولة قطر.

١٩- النهاية في غريب الحديث لابن الأثير. المكتبة العلمية - بيروت.

٢٠- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية. جمع ابن قاسم. طبع دولة المملكة العربية السعودية.

٢١- مشكاة المصابيح. للخطيب التبريزي. بتحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي. بيروت ١٣٨٣هـ - ١٩٦٢م.

٢٢- معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد لأحمد حافظ حكمي. مطبوعات الرئاسة العلمية لإدارات البحوث - الرياض.

٢٣- معالم السنن للخطابي على مختصر سنن أبي داود للمنذري. مطبعة السنة المحمدية. ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م.

٢٤- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني. تحقيق محمد سيد كيلاني. شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر. ١٣٨١هـ - ١٩٦١م.

٢٥- الملل والنحل للشهرستاني. دار المعرفة - بيروت. الثانية. ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

الفهرس

مقدمة الكتاب ٥

الفصل الأول: الإيمان بالقدر من أصول الإيمان ١١

الفصل الثاني: نظرة في تاريخ القدر ١٥

الفصل الثالث: التعريف بالقضاء والقدر ٢١

المبحث الأول: التعريف بالقدر ٢١

المبحث الثاني: التعريف بالقضاء ٢٤

المبحث الثالث: أركان الإيمان بالقدر ٢٦

الركن الأول: الإيمان بعلم الله الشامل ٢٦

الركن الثاني: الإيمان بأن الله كتب في اللوح المحفوظ كل شيء ٣٠

الركن الثالث: الإيمان بمشيئة الله الشاملة وقدرته النافذة ٣٢

الركن الرابع: الإيمان بأن الله خالق كل شيء ٣٣

المبحث الرابع: أفعال العباد مخلوقة مقدرة ٣٤

النصوص الدالة على تقدير الله أفعال العباد ٣٥

١- الأحاديث الدالة على أن أفعال العباد جفت بها الأقلام ٣٥

٢- علم الله بأهل الجنة وأهل النار ٣٦

٣- استخراج ذرية آدم من ظهره بعد خلقه وقسمهم قسمين ٣٧

٤- كتابة الله لأهل الجنة وأهل النار ٣٩
٥- التقدير في ليلة القدر ٤٠
٦- كتب ما قدر للإنسان وهو جنين في رحم أمه ٤١
الفصل الرابع: حدود نظر العقل في القدر ٤٥
مدى إدراك العقل لعلل الأوامر والأفعال ٤٩
الفصل الخامس: المذاهب في القدر ٥٣
المبحث الأول: مذهب المكذبين بالقدر ٥٣
محاورة علماء أهل السنة للقدرية ٦٠
أعرابي يخصم عمرو بن عبيد ويسكته ٦٠
إجابة أبي عصام القسطلاني للقدرية ٦١
محاورة عبد الجبار الهمداني وأبي إسحاق الإسفراييني ٦١
بين عمر بن عبد العزيز وغيلان الدمشقي ٦٢
شبهات وجوابها: ٦٦
١- معنى المحو والإثبات في الصحف وزيادة الأجل ونقصانه ٦٦
٢- التوفيق بين تقدير الأقدار وبين حديث «كل مولود يولد على الفطرة» ... ٦٨
٣- معنى قوله: ﴿وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾ ٦٩
٤- كيف يخلق الله الشر ويقدره ٧٠
المبحث الثاني: التاركون للعمل اتكالاً على القدر ٧٢

الرد على القدرية الجبرية من وجوه: ٧٨
الأول: خطؤهم في إطلاق اسم الجبر على الإنسان في فعله..... ٧٨
الثاني: إنكار الاختيار في أفعال العباد نقص في العقل ٨١
الثالث: زعمهم أن كل شيء قدره الله وخلقه فقد رضيه وأحبه ٨٢
الرابع: الزعم بأن الإيمان بالقدر يقضي بترك العمل وإهمال الأسباب ٨٣
الخامس: احتجاجهم بالقدر ٨٧
السادس: الزعم بأن تكليف العباد غير ما فعلوا من التكليف بما لا يطاق ... ٩٣
السابع: يلزم من قولهم التسوية بين المختلفين ٩٥
المبحث الثالث: مذهب أهل السنة والجماعة في القدر ٩٧
المطلب الأول: ابن تيمية يلخص مذهبهم ٩٧
المطلب الثاني: عقيدة الآجري في القدر ٩٩
المطلب الثالث: عقيدة الطحاوي في القدر ١٠١
الفصل السادس: أسباب الضلال في القدر ١٠٥
الفصل السابع: ثمار الإيمان بالقدر ١٠٩
المراجع ١١٣
الفهارس ١١٦

رقم الإيداع
2005/5860
الترقيم الدولي I.S.B.N
977 - 342 - 278 - x

أسماء الله وصفاته

في معتقد أهل السنة والجماعة

تأليف
الدكتور عمر سليمان الأشقر



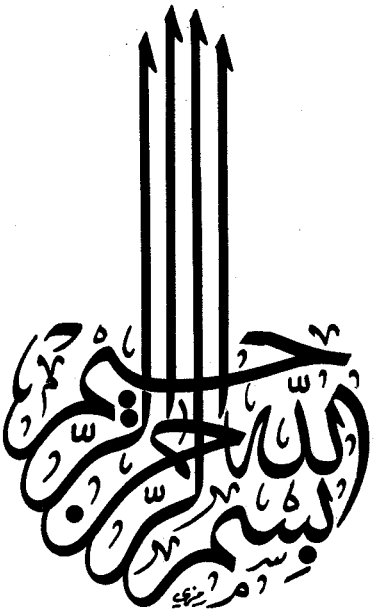
دار النفائس

أسماء الله وصفاته

في معتقد أهل السنة والجماعة

تأليف
الدكتور عمر سليمان الأشقر

دار النفائس
عمان ـ الاردن


بسم الله الرحمن الرحيم

أسماء الله وصفاته

في معتقد أهل السنة والجماعة

الطبعة الثانية
١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤م

حقوق الطبع محفوظة



دار النفائس ـ للنشر والتوزيع

الاردن ـ عمان ـ العبدلي ـ مقابل جوهرة القدس

هاتف : ٤٠ ٣٩ ٦٩ ـ فاكس : ٤١ ٣٩ ٦٩ ـ ص .ب : ٢١١٥١١

إن دار النفائس للنشر والتوزيع ـ الأردن هي صاحبة الحق وحدها في طباعة مؤلفات الدكتور عمر سليمان الأشقر ولا صحة لما تزعمه بعض دور النشر من حصولها على إذن من المؤلف بطباعة مؤلفاته ، وعليه فلا يجوز لأي جهة أن تتطبع أو تترجم أو تصور كتب المؤلف المذكور أو جزءاً منها ، وسوف نقوم بالإجراءات القانونية المتبعة للحفاظ على حقوقنا .



﴿هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ، هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون ، هو الله الخالق البارئ المصور له الاسماء الحسنى ، يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾

سورة الحشر : ٢٢ ـ ٢٤

كلمة الافتتاح

الحمد لله الذي هدانا إليه صراطا مستقيما ، وأحيا قلوبنا بمعرفته والإيمان به ، وأنار نفوسنا بما أنزله في كتابه من أنوار الهداية ، والصلاة والسلام على الرسول المجتبى ، والنبي المصطفى ، الذي كشف الله به الغمّة ، وأقام به الملّة ، وجعله حجّة وبرهانا على الخلق ، من سلك سبيله نجا ، ومن تنكّب طريقه هلك ، وعلى صحابته الأعلام ، وآله الكرام الذين ساروا سيرته ، واهتدوا بهداه ، فامتلأت قلوبهم بالإيمان والعلم والحكمة ، فرضي الله عنهم ورَضُوا عنه ، وعلى من سار مسارهم ، وسلك سبيلهم إلى يوم الدين وبعد :

فإنّ مباحث أسماء الله وصفاته من أهم مباحث الاعتقاد ، وقد سَلَكَتْ فيها الفرق الإسلامية مذاهب شتى ، ونشأ عن الضلال فيها معتقدات باطلة ، وتصورات خاطئة، وهدى الله سلفنا الصالح من الصحابة وتابعيهم على إثرهم إلى الحق فيما اختلف فيه.

وقدْ أحببت أن أدون في هذا الموضوع مؤلفا أوضح فيه مذهب أهل السنة والجماعة، مبينا الأسس التي يقوم عليها مذهبهم ، والخصائص التي تميزهم عن غيرهم، وتُجَلِّي في الوقت نفسه معالمَ المنهج القرآني الإيماني النبوي في هذا الموضوع ، وهو المنهج الذي سلكه سلفنا الصالح واعتمدوه .

واتّباع هذا المنهج هو السفينة التي ينجو من ركبها ، ويغرق من تركها ، فقد شهد الله لصحابة نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أكرم شهادة ، وأخبر برضاه عنهم :

﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ [1].

فمن سلك سبيلهم فإنه ينال مثل ما نالوه من الإكرام والرضوان كما قال تعالى: ﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم﴾ [2].

وكان من دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿فمن تبعني فإنّه مني﴾ [3] ولذلك فإن ﴿أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا﴾ [4].

ومخالفة القوم وسلوك طريق غير طريقهم تباعد بين الفريقين والحزبين ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا﴾ [5].

وقد حكمت النصوص على من تولى قوما في هديهم وطريقتهم بأنّه منهم ﴿يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض، ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾ [6].

والذي كان يتبع في الدنيا قادة الضلال، وأهل الزيغ والتحريف، فإنه يحشر معهم، فقوم فرعون الذين تابعوه في الدنيا على ضلاله يوردهم يوم القيامة النار ﴿فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد، يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار﴾ [7].

وجاء في الأحاديث أن الله يُمَثِّلُ في يوم القيامة لكل أمة ما كانوا يعبدونه في

---

(١) سورة التوبة: ١٠٠

(٢) سورة الطور: ٢١

(٣) سورة ابراهيم: ٣٦

(٤) سورة آل عمران: ٦٨

(٥) سورة النساء: ١١٥

(٦) سورة المائدة: ٥١

(٧) سورة هود: ٩٧ ـ ٩٨

الدنيا من حجر أو شجر أو بشر أو قمر أو غير ذلك ، فيتابعونها حتى تهوي بهم في النار ، إلا الذين أخلصوا دينهم لله الواحد المعبود .

وكذلك كل من اتبع في الدنيا إماما في سنَّة أو بدعة ، أو خير أو شرّ ، كان معه في الآخرة ، فمن أحب أن يكون مع السلف الصالح في الآخرة ، وأن يصاحبهم في المحشر والجنات فعليه أن يسلك سبيلهم ، وينهج نهجهم .

و الذي عظم الرغبة في تدوين هذا المؤلف أنني لم أجد كتابا منهجيا وافيا بالغرض يصلح مرجعا لمن يدرسون هذا العلم ، والمأمول أن يحقق هذا الكتاب الهدف الذي ألف من أجله ، والله المستعان .

وقد تمت هذه الدراسة في مقدمة وخمسة فصول وخاتمة .

وقد جاءت المقدمة في أربعة مباحث .

حَدَّد المبحث الأول موضوع هذه الدراسة وغايتها .

والمبحث الثاني أوضح الطريق إلى معرفة أسماء الله وصفاته .

والمبحث الثالث ألقى أضواء على أهمية العلم بأسماء الله وصفاته .

وأما المبحث الرابع فإنه يتحدث عن فوائد مزعومة لمعرفة الأسماء والصفات .

والفصل الأول مخصص للبحث في الأسماء الحسنى ، وقد بلغت مباحثه خمسة مباحث .

حَقَّقتُ في المبحث الأول منه القول في عدد أسماء الله الحسنى .

وخصصت المبحث الثاني لتعيين هذه الأسماء .

وبينت في المبحث الثالث الضوابط والقواعد التي اعتمدتها في تحديد ما هو من أسماء الباري مما ليس من أسمائه ، وقد بلغت هذه القواعد والضوابط أربعة عشر ضابطا ، عَقَدْتُ للحديث عنها وبيانها أربعة عشر مطلبا .

والمبحث الرابع عقدته لتحديد أسماء الله الحسنى في ضوء الضوابط والقواعد التي تحدثت عنها في المبحث السابق .

والمبحث الخامس ـ من هذا الفصل ـ بيّنتُ فيه أقسام أسماء الله وصفاته ودلالاتها.

وفي هذا المبحث بيان لعدّة قضايا منها تحقيق القول في تفاضل أسماء الباري ، والبحث في النصوص المتحدثة عن اسم الله الأعظم ، وعلاقة صفات الله بذاته ، والحقيقة والمجاز في أسماء الله تعالى .

وعرّفت في المبحث الأول والثاني من الفصل الثاني أهل السنة والجماعة ، كما توسعت بتعريف معتقدهم في أسماء الله وصفاته ، وقد بينت الأسس التي يقوم عليها معتقدُهم في هذا الباب ، وقد بلغت تسعة أسس ، وتجد تحت كلّ أساس من هذه الأسس مباحث كثيرة لها علاقة بهذه الأسس .

ثم عقدت في هذا الفصل مبحثين آخرين ، أولهما : للتدليل على أن ما ذكرناه يمثل مذهب السلف الصالح ، والثاني : لإبراز الخصائص التي يتصف بها المنهج السلفي .

والفصل الثالث بمباحثه الأربعة مخصص للتعرف على الذين انحرف بهم المسار في باب الأسماء والصفات على اختلاف توجهاتهم ، وبيان الشبهات التي سببت لهم تلك الانحرافات ، وإيراد الأدلة التي تكشف عوار مذاهبهم ، وتزيل اللبس الذي خالط أدلتهم .

وبينت في الفصل الرابع الأسباب التي أدت إلى الاختلاف في باب الأسماء والصفات.

والفصل الخامس والأخير يتحدث عن مذهب السلف في معترك الصراع ، وفي المبحث الأول منه بينت مدى مزاحمة المناهج الباطلة لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتوسّعت في المبحث الثاني في إيراد الأدلة الدالة على أنّ مذهب

السلف هو الأسلم والأحكم ، وأوردت في هذا المبحث نقولا كثيرة تدلّ على مدى تناقض علماء الكلام وتضارب أقوالهم وحيرتهم في أمرهم .

والمبحث الثالث بينت فيه موقف علماء السلف من مخالفيهم .

والمبحث الرابع بينت فيه عدّة أنماط قصد بها أصحابها تشويه مذهب السلف الصالح .

ودعوت في الخاتمة إلى المحافظة على منهج أهل السنة والجماعة متميزا عن غيره ، كي يبقى منارة تهدي السالكين ، وتنير الدرب الذي دلّ عليه ربُّ العالمين .

آمل أن أكون قد وفقت في عرض هذا الموضوع الذي هو في غاية الأهمية ، وفق طريقة منهجية مرتبة مبوبة مفصلة ، ومن الله تعالى أسأل المثوبة ، وإليه أتوجه بطلب المغفرة عما وقعت فيه من تقصير ، فالقصور من طبيعة البشر ، وعذري أني بذلت جهدي وفق قواعد البحث التي اعتمدها علماؤنا ، والحمد لله رب العالمين .

د.عمر سليمان عبد الله الأشقر

كلية الشريعة ـ الجامعة الأردنية

عمان

المقدمة

المبحث الأول
موضوع هذه الدراسة وغايتها

تهدف هذه الدراسة إلى تجلية أصل العقيدة الإسلامية ولبها ، ألا وهو التعريف بالله وصفاته وأسمائه عبر نصوص الكتاب والسنّة ، كما تهدف إلى كشف الزيف الذي تلبّست به مباحث الأسماء والصفات في كثير من مدوّنات العقيدة .

كما تهدف إلى تجلية القواعد الضّابطة في باب الأسماء والصفات الموضوعة حماية للعقول والقلوب من الانحراف في مبحث من أهمّ مباحث الاعتقاد .

وتكشف هذه الدراسة عن المنهج الحقّ في هذا الباب الذي كان عليه الرعيل الأوّل من هذه الأمة ، وما سار عليه أتباعهم بإحسان من بعدهم .

وتسلّط هذه الدراسة الأضواء على الانحرافات التي شطّ أصحابها عن منهج أهل السنة والجماعة ، كما تكشف عن الجماعات التي صدرت عنها تلك الانحرافات .

والأصل الذي تقوم عليه هذه الدراسة هو الوحي السماويّ الذي جاء معرّفا للعباد بربّ العباد ، وقد أرشدنا الحقّ – تبارك وتعالى – إلى خط سير مثل هذه الدراسة بقوله : ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه ﴾[1] .

فالآية تقرّر ثلاثة خطوط :

---

(١) سورة الأعراف : ١٨٠

الأول : إثبات ما أثبته الحقّ من أسمائه الحسنى ، وما دلّت عليه الأسماء من صفات .

الثاني : ثمرة هذا العلم ، وهو دعاء الله بأسمائه الحسنى .

الثالث : معرفة خطأ الانحراف الذي يتمثل في الإلحاد في أسمائه ، ثم اجتنابه واجتناب أهله .

وقد تحدَّث شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – مبينا موضوع البحث في هذا الباب وأبعاده فقال : الأصل في باب الصفات أن يوصف اللّه بما وصف به نفسه ، وبما وصفته به رسله نفيا وإثباتا ، فيثبت لله ما أثبته لنفسه ، وينفى عنه ما نفاه عن نفسه، وقد علم أنَّ طريقة سلف الأمة وأئمتها إثبات ما أثبته من الصفات ، من غير تكييف ولا تمثيل ، ومن غير تحريف ولا تعطيل .

وكذلك ينفون عنه ما نفاه عن نفسه ، مع إثبات ما أثبته من الصفات من غير إلحاد، لا في أسمائه ولا في آياته ، فإنَّ اللّه ذمَّ الذين يلحدون في أسمائه وآياته ، كما قال تعالى: ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون ﴾ [1]. وقال تعالى : ﴿ إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا ﴾ [2][3].

---

(١) سورة الأعراف : ١٨٠

(٢) سورة فصلت : ٤٠

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام :٣/٣

المبحث الثاني
الطريق إلى معرفة أسماء الله وصفاته

لم يتوقف البشر عن البحث عن الله ربهم وخالقهم لحظة ، فهناك شوق عظيم فوّار مركوز في أعماق النفوس البشرية يدفعها إلى معرفة الله والعلم به ، وقد استخدم كثير من الباحثين عقولهم للتعرف على أسماء الله وصفاته ، وتوصّلوا من خلال النظر في الكون إلى بعض العلم ، فقد هداهم النظر في الكون المحكم الصنع ، البديع التكوين ، الواسع الأبعاد ، الهائل الخلق ، إلى أنّ خالقه لا بدّ أن يكون عليما حكيما ، قديرا قويا ، ولكن أنىّ للعقول أن تصل إلى القدر الذي يشبع نهمها في معرفة أسماء الله وصفاته ، فما غاب عنها من الأسماء والصفات التي تعرّف بالله أكثر بكثير مما عرفوه ، وما عرفوه لم يقرّوا فيه على قرار ، بل كان في كثير من الأحيان مجال أخذ وردّ ، والعلم بالله إن لم يقم على يقين ثابت لا يعطي ثماره الطيبة .

لقد تشكّك الباحثون بالعقل المجرد في إحاطة علم الله بكل شيء ، وقالوا : إنّ الله يعلم الكلّيات ، ولا يعلم الجزئيات ، وسمّوه ـ تبارك و تعالى ـ بواجب الوجود، كما سمّوه بالعقل الفعّال .

أضف إلى هذا أنّ بعضا من صفاته وأسمائه لا يمكن أن يدركه الناس بعقولهم ، وطريق العلم به السمع مثل نزوله – تبارك وتعالى – في ثلث الليل الآخر إلى السماء الدنيا ، واستوائه على العرش ، وإثبات السمع والبصر واليدين والوجه له .

إنّ التّعرُّف على أسماء الله وصفاته عن طريق العقل وحده طريق دحض مزلّة ، وما يتوصل إليه الإنسان من حقّ قد لا يصفو لصاحبه ، وقسم عظيم من هذا الباب لا

تستطيع العقول البشرية إدراكه بعيدا عن العلم السماويَ .

يقول ابن بدزان :« إن صفاته تعالى لاتخلو من أنها إمّا أن تعلم بطريق العقل أو بطريق النقل الصادق.

فإن قلنا بالأوّل وقفناموقف الحائر ، لأننا نرى العقلاء قد اضطربوا اضطرابا شديدا في إثبات الصفات له تعالى ، فبعضهم ادعى الإثنينية ،وآخرون ادعوا التثليث ، وقوم ادعوا الحلول ، وكل هذا من أوصاف المخلوق ، ولايليق بواحد منها أن يكون من أوصاف الخالق .

وكذلك القول في الكلام والسمع والبصر ، فإن العقل ربما ينكراتصاف الخالق بهذه الصفات كما جرى للمعطلة ، وإما أن يثبتها على وفق ما هي للمخلوق كما حصل للمجسمة ، وإما أن يتردد بين النفي والإثبات ، فيبقي حائرا لا يدري إلى أي طريق يذهب »[1]

إن اللّه – تبارك وتعالى – غيب لم نشاهده ، ولم نره ، وقد أمرنا بالإيمان به ، وخشيته بالغيب ، وطريقة معرفة الغيب الخبر الصادق عن الله تعالى وتقدّس .

ولا يجوز أن نتحدّث عن الغيب بغير دليل ولابرهان ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ﴾ [2]، وقد ذم الله قوما زعموا أن الملائكة إناثا ، وجعل هذه المقالة منهم شهادة سيسألهم عنها عندما يوقفهم بين يديه : ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون ﴾ [3].

فإذا كان القول بغير علم في الملائكة هذا شأنه ، فكيف بالقول على الله بغير علم ، إنّ القول على الله بغير علم جريمة توضع في مصاف الجرائم الكبرى في

---

(١) العقود الياقوتية بشئ من الاختصار : ص ٥٥

(٢) سورة الإسراء : ٣٦

(٣) سورة الزخرف : ١٩

ميزان الحقّ وشرعه : ﴿ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم والبغي بغير الحق ، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وأن تقولوا على الله مالاتعلمون﴾[1].

إنَّ الطريق الآمن الذي يقودنا إلى معرفة الباري – جل وعلا – هو طريق الوحي الذي جلَّى لنا هذا العلم أعظم تجلية ، وهذا السبيل سبيل نيِّر مأمون العواقب ، لأنَّ مصدره العليم الخبير ورسوله الكريم .

ولا يوجد أحد أعلم باللَّه من اللَّه ، كما لا يوجد في خلق اللَّه أحد أعلم بالله من رسوله صلى اللَّه عليه وسلم .

ولذا فإنَّ مجال بحثنا في هذا الموضوع النصوص القرآنيَّة ، والأحاديث النبويَّة ، ونستعين على فهم هذه النصوص بما تركه لنا أهل العلم من تفسير وتوضيح .

---

(١) سورة الأعراف : ٣٣

المبحث الثالث
أهمية العلم بأسماء الله وصفاته

أنى لقلم العبد العاجز الضعيف أن يبرز الفوائد العظيمة والمنافع الهائلة التي تعود على الإنسان من وراء هذه الدراسة .

لقد تحدَّث العارفون بالله والعالمون بجلاله وكماله عن الخير الكبير الذي عاد عليهم من وراء العلم باللّه وصفاته وأسمائه ، وعلى الرغم مما بهروا به العقول ببيانهم ، فإنَّ علمهم الذي أناروا به القلوب ، وهدوا به العقول يبقى قطرة من بحر ، وشربة من نهر ، ووراء النصوص من الأسرار والأنوار ما يبهر العقول ، ويضيء النفوس .

وحسبك أنَّ أعرف الخلق بربِّه ، الذي هو أخشاهم للّه وأتقاهم له قرَّر فيما أخبرنا به أنَّه لايستطيع أن يحصي المحامد والمدائح التي يستحقُّها ربُّ العباد ، فقد قال في خطابه لربِّه :(لا أحصي ثناء عليك) .

ونحن في هذه الدراسة ، نستعين بالنصوص وأقوال العلماء للكشف عن منافع هذه الدراسة وفوائدها ، وسنعقد في هذا المبحث ثمانية مطالب لبيان الثَّمرات والمنافع التي تعود على العباد من وراء علمهم بأسماء الله وصفاته .

المطلب الأوّل
العلم بأسماء الله وصفاته هو الطريق إلى معرفة الله

إذا شاء العباد أن يعرفوا ربهم ويزدادوا به علما فليس أمامهم من طريق إلا التعرف إليه عبر النصوص الواصفة له ، والمصرحه بأفعاله وأسمائه ، لأنَّ الله غيب لايُرى في الحياة الدنيا .

انظر إلى قوله تعالى معَرفا بنفسه : ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولانوم له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا باذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ [1].

وانظر إلى قوله تعالى :﴿ هو الله الذي لا إله إلاهو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ، هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر.. ﴾ [2] .

وانظر إلى حديث الله عن فعله في كونه ﴿ أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون ، وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون ، وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون ، وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون ﴾ [3].

وعندما سأل فرعون موسى ـ عليه السلام ـ عن ربه الذي أرسله عرفه بأسمائه وصفاته وأفعاله : ﴿ قال فرعون وما رب العالمين . قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين . قال لمن حوله ألا تستمعون . قال ربكم ورب أبائكم الأولين . قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون . قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ﴾ [4] .

والنصوص الواردة في هذا كثير ، بل القرآن كلُّه حديث عن الله تبارك وتعالى ، وقد أوجز القرآن خلاصة الرسالات السماوية في آية واحدة من كتابه هي قوله تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ [5].

---

(١) سورة البقره : ٢٥٥

(٢) سورة الحشر : ٢٢ - ٢٣

(٣) سورة الأنبياء : ٣٠ - ٣٣

(٤) سورة الشعراء : ٢٣ - ٢٨

(٥) سورة الأنبياء : ٢٩ - ٣٣

وقال موجزا خلاصة ما أوحاه الله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ قل إنما يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون ﴾ [1] .

ولايستطيع العباد إدراك حقيقية العبودية وتحقيقها قولا وعملا إذا لم يعرفوا صفات الباري جلَّ وعلا .

ومن هنا ندرك عظم جناية الذين ينفون عن الله صفاته وأسماءه وأفعاله أو شيئا منها ، لأنَّهم بذلك يغلقون باب المعرفة باللَّه تبارك وتعالى ، فالموجود إذا جهلت صفاته وأسماؤه وأفعاله ، أصبح فكرة مجردة ، لا يكاد صاحبها ينتفع بها.

والذين انحرف بهم المسار فنفوا عن الله صفاته أغلقوا من باب المعرفة الإلهية بمقدار ما نفوه من الأسماء والصفات ، فإنَّه يمتنع – كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية– معرفة ذات الله بدون معرفة شيء من أسمائه وصفاته الثبوتية و السلبية ، ولو قدَّر ذلك أو فرض العبد في نفسه ذاتا مجرَّدة عن جميع القيود السلبية والثبوتية فليس ذلك معرفة بالله ألبتَّة ، وقد أخطأ خطأ عظيما من ظنَّ أنَّ ربَّ العالمين ذات مجردة عن كلِّ أمر سلبي أو ثبوتي ، ولهذا لم يتجه هذا الاتجاه ، أعني السلب الكلي لما هو ثبوتي أو عدمي إلا القرامطة الباطنية ويقرِّرون فيما يقررونه من باطل عدم جواز إطلاق الوجود أو العدم على الله ، وكذلك يأبون أن يطلق على الله كونه عالما أو ليس بعالم ، أو قادرا أو ليس بقادر [2] .

العلم بالأسماء والصفات أحد ركني التوحيد

يدلّنا على أهمية العلم بأسماء الله وصفاته ، أنَّ المعرفة بهما أحد ركنيِّ التوحيد ، والتوحيد هوالأمر الأعظم الذي جاءت الرسل لتقرِّره .

فالتوحيد الذي جاءت به الرسل نوعان : نوع في العلم والاعتقاد ، ونوع في

---

(١) سورة الأنبياء : ١٠٨

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ١٧/١٠٥

الإرادة والقصد ، ويسمّى الأول : التوحيد العلمي ، والثاني : التوحيد القصديّ الإراديُّ لتعلّق الأول بالإخبار والمعرفة ، والثاني : بالقصد والإرادة . ومدار النوع الأول من التوحيد على إثبات صفات الكمال للّه ربِّ العالمين ، وعلى نفي التشبيه والمثال عنه ، وتنزيهه عن العيوب والنقائص [1] .

المطلب الثاني
تزكية النفوس وإقامتها على منهج العبودية للواحد الأحد

إنّ الشريعة المنزلة من عند الله تهدف إلى إصلاح الإنسان ، وطريق الصلاح هو إقامة العبادعلى منهج العبودية الحقَّة للّه الواحد الأحد ، ولقد كان المفتاح الذي فتح به الرسل قلوب العباد هو آيات الله التي تحدِّثهم عن ربهم ، وتربط قلوبهم به ، وبذلك تتّجه قلوبهم ووجوههم إلى الواحد الأحد .

لقد كان المحور الذي يدور حوله القرآن كلُّه هو الحديث عن اللّه ـ تبارك وتعالى ـ وصفاته وفعله في الكون وبيان عظمته وجلاله ، والدَّعوة إلى الاستجابة لشرعة ، والابتعاد عن مقته وغضبه ، وبيان فعله بأهل طاعته وأهل معصيته .

ولقد كان هذا الحديث على هذا النحو ـ ولا يزال ـ هو الذي يهزُّ النفوس ، ويحرِّك القلوب ، ويزيل الأدران والأرجاس التي تحبس الإنسان عن الخير ، استمع إلى قوله تعالى يحدِّثنا عن تأثير النصوص المنزلة في نفوس الأخيارمن هذه الأمة : ﴿الله نزّل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني ، تقشعر منه جلد الذين يخشون ربهم، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾ [2] .

إنَّ العلم بأسماء الله وصفاته هوالعاصم من الزلل ، والمقيل من العثرة ، والفاتح لباب الأمل ، والمعين على الصبر ، والواقي من الخمول والكسل .

---

(١) التفسير القيم لابن القيم : ص ٢٤

(٢) سورة الزمر : ٢٣

إنّ النفوس قد تهفوا إلى مقارفة الفواحش والذنوب ، فتذكر أنّ الله يراها ويبصرها ، وتذكر وقوفها بين يديّ الله فترعوي ، وتجانب المعصية .

ويقع الإنسان في الذنب والمعصية ، ثم يذكر سعة رحمة الله ، فلا يتمادى في الخطيئة ، ولا يوغل في طريق الهاوية ، بل يعود إلى الله ربه التواب الرحيم قارعا بابه فيجد الله توابا رحيما .

وتتناوش العبد المصائب والمكاره ، فلا يجزع ولا يهلع ، ويلجأ إلى الحصن الحصين ، والركن الركين ، ويقابل المكاره بنفس راضية .

ويقارع الأشرار فيجدّون في منع الرزق عنه ، وقصم العمر منه ، ويعلم الفارس في مجال الصراع أنّ الأرزاق والأعمار بيد الله .

وقد تحدّث ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ عن الآثار التي يورثها الإيمان بأسماء الله وصفاته ، وذكر أنّ لكلّ صفة من صفات الله عبودية خاصّة هي من موجباتها ومقتضياتها.

فعلم العبد بتفرُّد الربّ تعالى بالضّرر والنفع ، والعطاء والمنع ، والخلق والرزق ، والإحياء والإماتة ، يثمر له عبوديّة التوكّل عليه باطنا ، ولوازم التوكل وثمراته ظاهرا.

وعلمنا بسمعه وبصره وعلمه يقضي بأنّه لا يخفى عليه مثقال ذرّة في السموات ولا في الأرض ، وأنّه يعلم السّر وأخفى ، ويعلم خائنة الأعين ، وما تخفي الصدور يثمر للعبد حفظ لسانه وجوارحه وخطرات قلبه عن كلّ ما لا يرضي الله ، ويجعل تعليق هذه الأعضاء بما يحبه الله ويرضاه ، فيثمر له ذلك الحياء باطنا ، ويثمر له الحياء اجتناب المحرمات والقبائح .

ومعرفة العبد بغنى الربّ وجوده وكرمه وبرّه وإحسانه ورحمته توجب له سعة الرجاء ، وتثمر له ذلك من أنواع العبودية الظاهرة والباطنة بحسب معرفته وعلمه .

ومعرفة العبد بجلال الله وعظمته وعزّته تثمر له الخضوع والإستكانة والمحبّة ، وتثمر له تلك الأحوال الباطنة أنواعا من العبوديّة الظاهرة هي موجباتها .

وكذلك علمه بكماله وجماله وصفاته العلى يوجب له محبّة خاصّة ، بمنزلة أنواع العبوديّة ، فرجعت العبودية كلُّها إلى مقتضى الأسماء والصفات [1].

وتحدَّث ابن القيِّم في موضع آخر عن تأثير العلم بأسماء الله وصفاته وأوامره وأفعاله في نفوس العباد فقال : « إنَّ أحد أسرار القرآن العظام هو تحديثه عن ربِّ العباد حديثا يجلِّي فيه القرآن الربَّ لعباده عبر صفاته ، فتارة يتجلَّى الربُّ عبر آيات الكتاب في جلباب الهيبة والعظمة والجلال ، فتخضع الأعناق ، وتنكسر النفوس ، وتخشع الأصوات ، ويذوب الكبر ، كما يذوب الملح في الماء .

وتارة يتجلَّى في صفات الجمال والكمال ، وهو كمال الأسماء ، وجمال الصفات ، وجمال الأفعال الدالِّ على كمال الذات ، فيستنفذ حبُّه من قلب العبد قوة الحبِّ كلها ، بحسب ماعرفه من صفات جماله ، ونعوت كماله ، فيصبح فؤاد العبد فارغا إلاَّ من محبته ، فإذا أراد منه الغير أن يعلِّق تلك المحبة به أبى قلبه وأحشاؤه ذلك كلَّ الإباء كما قيل :

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل

فتبقى المحبة طباعا لا تكلفا .

وإذا تجلَّى بصفات الرحمة والبرِّ واللُّطف والإحسان انبعثت قوَّة الرجاء من العبد، وانبسط أمله ، وقوي طمعه ، وسار إلى ربِّه وحادى الرجاء يحدو ركاب سيره ، وكلما قوي الرجاء جدَّ في العمل كما أنَّ الباذر كلَّما قوي طمعه في المغلِّ غَلَّقَ أرضه بالبذر ، وإذا ضعف رجاؤه قصَّر في البذر .

وإذا تجلى بصفات العدل والانتقام والغضب والسَّخط والعقوبة انقمعت النفس الأمَّارة، وبطلت أوضعفت قواها من الشَّهوة والغضب واللهو واللعب ، والحرص على المحرَّمات ، وانقبضت أعنَّة رعونتها ، فأحضرت المطيَّة حظَّها من الخوف والخشية والحذر .

---

(١) مفتاح دار السعادة : ٢/ ٩٠

وإذا تجلّى بصفات الأمر والنهي ، والعهد والوصيّة ، وإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وشرع الشرائع ، انبعثت منها قوة الامتثال والتنفيذ لأوامره ، والتبليغ لها ، والتواصي بها ، وذكرها وتذكيرها ، والتصديق بالخبر ، والامتثال للطلب ، والاجتناب للنهي .

وإذا تجلّى بصفات السمع والبصر والعلم انبعثت من العبد قوة الحياء ، فيستحي من ربّه أن يراه على ما يكره ، أو يسمع منه ما يكره ، أو يخفي في سريرته ما يمقته عليه ، فتبقى حركاته وأقواله وخواطره موزونة بميزان الشرع غير مهملة ولا مرسلة تحت حكم الطبيعة والهوى .

وإذا تجلّى بصفات الكفاية والحبّ والقيام بمصالح العباد ، وسوق أرزاقهم إليهم ، ودفع المصائب عنهم ، ونصره لأوليائه وحمايته لهم ومعيته الخاصة لهم ، انبعثت من العبد قوّة التوكّل عليه والتفويض إليه ، والرضا به ، وبكلّ ما يُجْريه على عبده ويقيمه فيه مما يرضى به هو سبحانه .

والتوكّل معنى يلتئم من علم العبد بكفاية الله وحسن اختياره لعبده ، وثقته به ، ورضاه بما يفعله به ، ويختاره له .

وإذا تجلّى بصفات العزّ والكبرياء أعطت نفسه المطمئنة ما وصلت إليه من الذل لعظمته ، والانكسار لعزته ، والخضوع لكبريائه ، وخشوع القلب والجوارح له ، فتعلوه السكينة والوقار في قلبه ولسانه وجوارحه وسمته ، ويذهب طيشه وقوّته وحدّته .

وَجِمَاع ذلك : أنّه سبحانه يتعرّف إلى العبد بصفات إلاهيته تارة ، وبصفات ربوبيته تارة ، فيوجب له شهود صفات الإلهية المحبّة الخاصّة ، والشوق إلى لقائه ، والأنس والفرح به ، والسرور بخدمته ، والمنافسة في قربه ، والتودد إلى خلقه ، واللهج بذكره ، والفرار من الخلق إليه ، ويصير هو وحده همّه دون ما سواه ، ويوجب له شهود صفات الربوبية التوكّل عليه ، والافتقار إليه ، والاستعانة به ، والذّل

والخضوع والانكسار له.

وكمال ذلك أن يشهد ربوبيته في ألوهيته، وألوهيته في ربوبيته، وحمده في ملكه، وعزه في عفوه، وحكمته في قضائه وقدره، ونعمته في بلائه، وعطاءه في منعه، وبره ولطفه وإحسانه ورحمته في قيوميته، وعدله في انتقامه، وجوده وكرمه في مغفرته وستره وتجاوزه.

ويشهد حكمته ونعمته في أمره ونهيه، وعزه في رضاه وغضبه، وحلمه في إمهاله، وكرمه في إقباله، وغناه في إعراضه.

وأنت إذا تدبرت القرآن وأجرته من التحريف، وأن تقضي عليه بآراء المتكلمين، وأفكار المتكلفين، أشهدك مَلِكًا قيوما فوق سماواته على عرشه يدبر أمر عباده، يأمر وينهى، ويرسل الرسل، وينزل الكتب، ويرضى ويغضب، ويثيب ويعاقب، ويعطي ويمنع، ويعز ويذل، ويخفض ويرفع، يرى من فوق سبع ويسمع، ويعلم السر والعلانية، فعال لما يريد، موصوف بكل كمال، منزه عن كل عيب، لا تتحرك ذرة فما فوقها إلا بإذنه، ولاتسقط ورقة إلا بعلمه، ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، ليس لعباده دونه ولي ولا شفيع [1]».

المطلب الثالث

العلم بأسماء الله وصفاته أشرف العلوم

أولع الناس قديما وحديثا بالعلم والمعرفة، فتراهم ينقبون في الخرائب والكهوف ليتعرفوا على أخبار الماضين وأحوالهم، ويدرسون نبوءات الذين يتحدثون عن الغيب، ليعرفوا الأحداث الآتية، ويخترعون المراصد ليتعرفوا على النجوم والشموس والأقمار، بل أرسلوا المراكب الفضائية التي تنطلق في الفضاء تحمل رجالا، أو آلات تكشف الكون، وتبين الخافي من أموره وأحواله.

---

(١) الفوائد: ص ٨٠

وبحث البشر في الأرض : جبالها وسهولها وطبقاتها ، وغاصوا في البحار ليعرفوا ما فيها من حيوانات وأسرار ، ودرسوا أحوال الإنسان والنَّبات والحيوان ، ووضعوا المؤلفات التي تدوِّن العلوم التي عرفوها ، فدوَّنوا علم التاريخ والجغرافيا، والفلك والكيمياء والفيزياء ، والطب والنبات وغيرها من العلوم في شتى أنواع المعرفة .

وإذا كان شرف العلم بشرف المعلوم ، فإنَّ العلوم التي تعرِّفنا بربِّنا أشرف العلوم، فالعالم بالله أفضل من العالم بالديدان و الحيتان وطبقات الأرض والحيوانات والنجوم والإنسان.

يقول ابن العربيِّ رحمه الله تعالى : « شرف العلم بشرف المعلوم ، والباري أشرف المعلومات ، فالعلم بأسمائه أشرف العلوم » [1] .

إن الإسلام يدعو أتباعه إلى العلم والنَّظر وارتياد الكون والبحث في أسراره ، ولكنَّه يذمُّ الذين يقف علمهم عند حدود الحياة ، ولا يتعداه إلى العلم بخالق الحياة وفقه الغرض الذي أوجد اللّه من أجله الحياة والأحياء ﴿ يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ [2].

وإذا كانت علوم الدين أفضل العلوم ، فإنَّ العلم الذي يعرفنا بالله أفضل من غيره من العلوم ، ولذلك كانت النُّصوص المعرِّفة بالله وأسمائه وصفاته أفضل نصوص القرآن ، فآية الكرسيِّ كما صحَّ في الأحاديث أفضل آية في كتاب الله و ﴿ قل هو الله أحد ﴾ [3] تعدل ثلث القرآن .

وما عظمت هذه النصوص إلا بحديثها عن الإله الواحد المعبود .

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي : ٢/٩٩٣

(٢) سورة الروم : ٧

(٣) سورة الإخلاص : ١

المطلب الرابع

العلم بأسماء الله وصفاته أصل للعلم بكل ما سواه

العلم بأسماء الله الحسنى وصفاته العليا أصل للعلم بكل معلوم ، فإنَّ المعلومات غير الله ـ تبارك وتعالى ـ قسمان :

الأوَّل : المخلوقات التي أنشأها الله – تبارك وتعالى – وكوَّنها وأوجدها .

والثاني : الأوامر التي أمر بها ، وهي قسمان : الأمر الكوني الذي خلق به الخلق، والأمر الشرعي الديني .

والله ـ تبارك وتعالى ـ هو صاحب الخلق والأمر ﴿ ألا له الخلق والأمر﴾ [1] .

ومصدر الخلق والأمر عن أسمائه الحسنى ، وهما مرتبطان بالأسماء الحسنى ارتباط المقتضى بمقتضيه ، فالأمر كلُّه مصدره عن أسمائه الحسنى ، وهذا كلُّه حسن لا يخرج عن مصالح العباد والرأفة والرحمة بهم ، والإحسان إليهم بتكميلهم بما أمرهم به ، ونهاهم عنه ، فأمره كلُّه مصلحة وحكمة ورحمة ولطف وإحسان ، إذ مصدره أسماؤه الحسنى .

وفعل الله لا يخرج عن العدل والحكمة والمصلحة والرحمة ، إذ مصدره أسماؤه الحسنى ، فلا تفاوت في خلقه ولا عبث ، ولم يخلق خلقه باطلا ولا سدى ولا عبثا .

وكما أنَّ كلَّ موجود سواه فبإيجاده ، فوجود سواه تابع لوجوده ، تبع المفعول المخلوق لخالقه ، فكذلك العلم به أصل للعلم بكلِّ ما سواه ، فالعلم بأسمائه وإحصاؤها أصل لسائر العلوم ، فمن أحصى أسماءه كما ينبغي للمخلوق أحصى جميع العلوم ، إذ إحصاء أسمائه أصل لإحصاء كلِّ معلوم ، لأنَّ المعلومات هي من مقتضاها ومرتبطة بها ، وتأمَّل صدور الخلق و الأمر عن علمه وحكمته تعالى ، ولهذا لا تجد فيها خللا ولا تفاوتا ، لأنَّ الخلل الواقع فيما يأمر به العبد أو يفعله ، إمَّا أن يكون

---

(١) سورة الأعراف : ٥٤

لجهل به ، أو لعدم حكمته ، وأمّا الربّ تعالى فهو العليم الحكيم ، فلا يلحق فعله ولا أمره خلل ولا تفاوت ولا تناقض [1].

المطلب الخامس
زيادة الإيمان

الإيمان يزيد بالعلم والعمل ، فكلّما علم العبد عن الله وآياته شيئا ازداد إيمانا ، وكذلك إذا استجاب العبد لما أمره الله به ازداد إيمانا ، وينقص الإيمان بنقص العلم والعمل ، قال تعالى : ﴿ وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون ،و أما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون ﴾ [2] .

فالمؤمنون يصدّقون بآيات الله المنزلة وما تضمّنته من علوم وتشريعات مع عزمهم على الامتثال لما دعتهم إليه ، وهذا يزيد إيمانهم ، أمّا المنافقون فإنّها تزيدهم كفرا بسبب تكذيبهم واستكبارهم عن الاستجابة لله .

ولا شكّ أنّ من أعظم ما جاءت به النصوص وبينته : أسماء الله وصفاته ، فمن آمن بها وفقه معناها ، وعمل بمقتضاها ، فإن إيمانه يزداد زيادة عظيمة .

إنّ العلم بأسماء الله وصفاته والفقه لمعناها والعمل بمقتضاها وسؤال الله بها يوجد في قلوب العابدين تعظيم الباري ، وتقديسه ومحبّته ، ورجاءه ، وخوفه ، والتوكّل عليه ، والإنابة إليه ، بحيث يصبح الباري في قلوبهم المثل الأعلى الذي لا شريك له في ذاته ، ولا في صفاته ، وليس لأحد مثل هذه المكانة التي في قلوبهم ، وبذلك يحقق العبد التوحيد القلبيّ ، وتتحقق العبوديّة للّه ، وتخضع القلوب لجلاله ، وتسكن النفوس لعظمته .

---

(١) راجع بدائع الفوائد : ١/١٦٣

(٢) سورة التوبة : ١٢٤

المطلب السادس

عظم ثواب من أحصى أسماء الله

ينال الحافظ لأسماء الله ـ تبارك وتعالى ـ العارف بمعناها ، العامل بمقتضاها ، من الأجر مالا يعلمه إلا الله ، روى البخاريُّ في صحيحه عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « إنَّ لله تسعة وتسعين اسما ، مائه إلا واحدا ، من أحصاها دخل الجنَّة »[1].

تحقيق القول في المراد بالإحصاء المذكور في الحديث

اختلف اهل العلم في المراد بالإحصاء المذكور في الحديث ، فقيل : المراد به الإحاطة بمعانيها ، وقيل : العمل بمقتضاها مع فقه معناها ، والصواب من القول : أن المراد بالإحصاء هو عدُّها حتى يستوفيها حفظا ، فإنَّ هذا هو معنى الإحصاء في اللغة، يقول ابن منظور : « الإحصاء :العدد والحفظ ، وأحصى الشيء أحاط به . وفي التنزيل : ﴿ وأحصى كل شيء عددا ﴾[2]. قال الأزهريُّ : أي أحاط علمه سبحانه باستيفاء عدد كلِّ شيء ، وأحصيت الشيء : عددته . وقال الفراء فى قوله تعالى : ﴿ علم أن لن تحصوه فتاب عليكم ﴾[3] عَلِمَ أن لن تحفظوا مواقيت الليل[4]. وقال الفيروزآبادي : « أخذ من لفظ (الحصى) الإحصاء ، وهو التحصيل بالعدد .

يقال : أحصيت كذا ، واستعمال ذلك فيه من حيث أنهم كانوا يعتمدونه بالعدد كاعتمادنا فيه على الأصابع[5].

---

(١) صحيح البخاري.

(٢) سورة الجن : ٢٨

(٣) سورة المزمل : ٢٠

(٤) لسان العرب : ١/٦٥٦

(٥) بصائر ذوي التمييز : ٢/٤٧٣

وقال ابن الأثير : « في أسماء الله المحصي » ، وهو الذي أحصى كل شيء بعلمه، وأحاط به ، فلا يفوته دقيق منها ولا جليل ، والإحصاء العدُّ والحفظ .

ومنه الحديث : « لا أحصي ثناء عليك » ، أي لا أحصي نعمك، والثناء بها عليك ، ولا أبلغ الواجب فيه .

والحديث الآخر : « أكلَّ القرآن أحصيت؟ » أي حفظت [1].

وقال الزجاج : « يقال : حصيت الحصى ، إذا عددته ، وأحصيته ، إذا ميَّزته بعضه من بعض » [2].

وقد فسَّر البخاريُّ الإحصاء بالحفظ ، فقال بعد روايته للحديث : « أحصيناه : حفظناه » [3] .

ويدلُّ على صحَّة هذا القول أنَّه وردت رواية في صحيح البخاريِّ عن أبي هريرة بلفظ « للَّه تسعة وتسعون اسما ، مائة إلاَّ واحدا ، لا يحفظها أحد إلا دخل الجنَّة ، وهو وتر يحبُّ الوتر » [4]. قال ابن حجر العسقلانيُّ : « قال النووي: قال البخاري وغيره من المحققين : معنى أحصاها حفظها ، وهذا هو الأظهر لثبوته نصًّا في الخبر.

وقال في الأذكار ، هو قول الأكثرين .

وقال ابن الجوزيُّ : لما ثبت في بعض طرق الحديث : « من حفظها » بدل : « من أحصاها » اخترنا أنَّ المراد العدُّ ، أي من عدَّها ليستوفيها حفظا [5]

هذا هو الصواب من القول – إن شاء الله تعالى – فإن حفظ هذه الأسماء

---

(١) تفسير أسماء الله الحسنى للزجاج : ص ٢٢

(٢) صحيح البخاري . فتح الباري : ١٣/٣٧٧

(٣) صحيح البخاري . فتح الباري : ١١/٢١٤

(٤) فتح الباري : ١١/٢٢٦

(٥) فتح الباري : ١١/٢٢٦

المباركة يبارك النفس ويزكيها ، ويملؤها بالأسماء الفاضلة الطيبة ، ولا ينافي هذا ما ذكره العلماء من أنَّ الحافظ لها ينبغي له التفقه في معانيها ، ودعاء الله بها ، يقول ابن عطية فيما ذكره عنه ابن حجر العسقلانيُّ : « معنى أحصاها : عدها وحفظها ، ويتضمن ذلك الإيمان بها ، والتعظيم لها ، والرغبة فيها ، والاعتبار بمعانيها»[1].

ورتبه الفقيه بمعاني هذه الأسماء الحافظ لها فوق رتبة الذي أحصاها ولم يحط بمعناها ، وفوق هذين الحافظ لها الفقيه بمعناها الذي يدعو اللَّه ويمجده بها .

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى : **مراتب إحصاء أسماء الله ثلاث :**

الأولى : إحصاء ألفاظها وعددها .

الثانية : فهم معانيها ومدلولها .

الثالثة : دعاؤه به كما قال تعالى : ﴿و لله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾[2][3].

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن المراد بالإحصاء هنا الإيمان و الفقه لمعناها ، أو حفظ كتاب الله المتضمن لها ، أو العمل بمقتضاها .

قال ابن حجر العسقلانيُّ في قوله : « من أحصاها » أربعة أقوال :

أحدها : حفظها .

ثانيها : من عرف معانيها وآمن بها .

ثالثها : من أطاقها بحسن الرعاية لها ، وتخلَّق بما يمكنه من العمل بمعانيها .

رابعها : أن يقرأ القرآن حتى يختمه ، فإنَّه يستوفي هذه الأسماء في أضعاف التلاوة .

واختار هذا المذهب أبو عبد الله الزبيري .

قال النووي : **الأول** هو المعتمد .

قلت : ويحتمل أن يراد مَنْ تتبعها من القرآن ، ولعله مراد الزبيري[4].

---

(١) المصدر السابق

(٢) سورة الأعراف : ١٨٠

(٣) بدائع الفوائد : ١/ ١٦٤

(٤) تلخيص الحبير : ٤/ ١٧٤

المطلب السابع
تعظيم الله وتمجيده ودعاؤه بأسمائه وصفاته

أسماء الله وصفاته تدلُّ على عظمته تبارك وتعالى ، ومن هنا كثرت أسماؤه وصفاته ، وقد قيل : « العظيم من كثرت صفات كماله »[1] .

وإذا كانت صفات الله وأسماؤه تدل العباد على عظمة الباري – جلَّ وعلا – وكماله وسؤدده ، فإنَّها أعظم سبيل يستطيع العباد سلوكه لتعظيم الله وتقديسه وتمجيده ودعائه .

وقد أمرنا الحقُّ بدعائه بأسمائه الحسنى فقال : ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾[2] . « والدعاء في اللغة والحقيقة هو الطلب . أي اطلبوا منه بأسمائه »[3] .

ودعاء الله بأسمائه الحسنى **مرتبتان** كما أشار إلى ذلك ابن القيم رحمه الله تعالى[4]:

الأولى : دعاء ثناء وعبادة : وقد أمرنا الله ـ تبارك و تعالى ـ أن نمجده ونثني عليه فقال : ﴿ يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا﴾[5] .

وفي الحديث الذي يرويه البخاري في صحيحه عن عبد الله بن مسعود عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال : « ما من أحد أحب إليه المدح من الله »[6]، وقدّ وعد الله بذكر من يذكره ، قال تعالى : ﴿ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا

---

(١) راجع بدائع الفوائد : ١/ ١٦٠

(٢) سورة الأعراف : ١٨٠

(٣) أحكام القرآن لابن العربي : ٢/ ٨٠٥

(٤) بدائع الفوائد : ١/ ١٦٤

(٥) سورة الأحزاب : ٤١- ٤٢

(٦) رواه البخاري . فتح الباري : ١٣/ ٣٨٣

تكفرون ﴾[1] . وفي الحديث الذي يرويه البخاريّ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النَّبيُّ صلى اللَّه عليه وسلَّم : « يقول اللَّه تعالى : أنا عند ظنّ عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم»[2] .وأخبرنا الحقُّ أن الذاكر للّه يطمئنُّ قلبه ، وتهدأ نفسه ﴿ ألا بذكر الله تطمئنُّ القلوب ﴾[3].

الثانية : دعاء طلب ومسألة :وقد أمرنا ـ تبارك و تعالى ـ بدعائه والطلب منه ووعدنا بالإجابة ﴿ وقال ربكم ادعوني استجب لكم ﴾[4].

ودعاء الله وسؤاله لا ينبغي أن يكون إلاَّ بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، فلا يقال: يا موجود ، أو يا شيء ، اغفر لي وارحمني .

وقد نبَّه علماؤنا إلى أن السائل ينبغي أن يتخيَّر في كلِّ سؤال الأسماء المناسبة للطلب الذي يطلبه ، يقول ابن القيم : « يسأل في كلِّ مطلوب باسم يكون مقتضيا لذلك المطلوب ، فيكون السائل متوسلا إليه بذلك الاسم ، ومن تأمَّل أدعية الرسل وجدها مطابقة لهذا »[5]. ويقول : يأتي السائل بالاسم الذي يقتضيه المطلوب ، كما تقول: اغفر لي وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم، ولايحسن أن تقول : إنَّك أنت السميع البصير[6] .

ويقول ابن العربي :« يطلب بكلِّ اسم ما يليق به ، تقول : يارحيم ارحمني ، ياحكيم احكم لي ، يا رزَّاق ارزقني ، يا هادي اهدني »[7]، ونبَّه ابن العربي إلى أنَّ بعض أسمائه ـ تبارك وتعالى ـ أسماء عامَّة تصلح لأن يدعى بها في كلِّ موضع ،

---

(١) سورة البقرة : ١٥٢

(٢) صحيح البخاري . فتح الباري : ١٣/ ٣٨٤

(٣) سورة الرعد : ٢٨

(٤) سورة غافر : ٦٠

(٥) بدائع الفوائد : ١/ ١٦٤

(٦) بدائع الفوائد : ١/ ١٦٠

(٧) أحكام القرآن لابن العربي : ٢/ ٨٠٥

وفي كلّ الأمور ، مثل : اللّه ، الربّ .

نماذج من تمجيد الله ودعائه بأسمائه وصفاته

جاء في الكتاب والسنّة نصوص كثيرة ، فيها تمجيد وثناء على الله وتعظيم له بأسمائه وصفاته ، كما فيها دعاء وسؤال له .

فمن النصوص الممجّدة للّه ربّ العالمين قوله : ﴿ الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ﴾ (١).

وقوله : ﴿ وهو الله الذي لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون ﴾ (٢) .

وقوله : ﴿ الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء ﴾ (٣) . وقوله : ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ، وله الحمد في السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون ﴾ (٤). وقوله : ﴿ يسبح لله ما في السموات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم ﴾ (٥). وقوله : ﴿ تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير ، الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور ، الذي خلق سبع سموات طباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ... ﴾ (٦).

ومن دعاء العبادة في الأحاديث ما جاء في دعائه صلى الله عليه وسلم :« اللّهمّ أنت السلام ومنك السّلام ، تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام ». رواه أبوداود

---

(١) سورة الأنعام : ١

(٢) سورة القصص : ٧٠

(٣) سورة فاطر : ١

(٤) سورة الروم : ١٧

(٥) سورة الجمعة: ١

(٦) سورة الملك : ١ ـ ٣

والنسائي [1]. ومنه دعاؤه ـ صلى الله عله وسلم ـ في تهجده في الليل الذي يقول فيه مثنيا على ربه ممجدا له : « اللَّهمَّ لك الحمد ، أنت نور السَّموات والأرض ومن فيهنَّ ، ولك الحمد أنت قيِّم السَّموات والأرض ومن فيهنَّ ، ولك الحمد ، أنت الحقُّ، ووعدك حقٌّ ». رواه البخاري ومسلم [2].

وكان دعاء الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند الكرب : « لا إله إلاَّ اللَّه العظيم الحليم ، لا إله إلاَّ الله ربُّ السَّموات والأرض ، وربُّ العرش العظيم »[3]. وفي سنن النسائي أنَّ الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقول في ركوعه « سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة»[4].

وروى البخاري في صحيحه عن شدَّاد بن أوس ـ رضي الله عنه ـ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « سيِّد الاستغفار أن يقول : اللَّهمَّ أنت ربِّي لا إله إلاَّ أنت، خلقتني وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شرِّ ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك عليَّ ، وأبوء لك بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذُّنوب إلا أنت . قال : من قالها من النهار موقنا بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنَّة ، ومن قالها من الليل وهو موقن بها، فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنَّة»[5].

وعندما اشتكى المقلُّون ذهاب أهل الدثور بالأجر لما يفعلونه من الخيرات بأموالهم ، قال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم : « أفلا أخبركم بأمر تدركون من كان قبلكم، وتسبقون من جاء بعدكم ، ولا يأتي أحد بمثل ما جئتم به إلا من جاء بمثله : تسبحون في دبر كل صلاة عشرا ، وتحمدون عشرا ، وتكبرون عشرا »[6].

---

(١) جامع الأصول : ٤/٢١٧

(٢) صحيح البخاري . انظر فتح الباري : ١١/١١٦

(٣) صحيح البخاري . انظر فتح الباري : ١١/١٤٥

(٤) جامع الأصول : ٤/١٩٨

(٥) صحيح البخاري . فتح الباري : ١١/٩٧

(٦) صحيح البخاري . فتح الباري : ١١/١٣٢

ومن دعاء المسألة قوله تعالى : ﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحمِّلنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا و ارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ [1].

وقوله : ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ، ربنا إنك جامع الناس ليوم لاريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد ﴾ [2].

وقوله : ﴿ رب اشرح لي صدري ، ويسر لي أمري ، واحلل عقدة من لساني ، يفقهوا قولي ﴾ [3]. وقوله : ﴿ ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما﴾ [4].

وقد جمعت سورة الفاتحة ـ وهي أفضل سورة في القرآن ، بل في الكتب السماويَّة كلِّها ـ بين دعاء العبادة ودعاء المسألة ، ففي الحديث الذي يرويه أبو هريرة عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « قال اللّه عز وجلَّ : قسمت الصَّلاة بيني وبين عبدي نصفين ، ولعبدي ما سأل ، فإذا قال العبد : ﴿الحمد للّه ربِّ العالمين ﴾. قال اللّه : حمدني عبدي . فإذا قال :﴿ الرَّحمن الرَّحيم .﴾ قال : أثنى عليَّ عبدي.فإذا قال :﴿ مالك يوم الدِّين﴾. قال : مجَّدني عبدي . وقال مرَّة : فوَّض إليَّ عبدي . وإذا قال :﴿ إياك نعبد وإيَّاك نستعين﴾ . قال : هذا بيني وبين عبدي ، ولعبدي ما سأل . فإذا قال : ﴿ اهدنا الصِّراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضَّالِّين ﴾[5]. قال : هذا لعبدي ولعبدي ما سأل » رواه الجماعة إلا البخاريَّ وابن ماجة[6] .

---

(١) سورة البقره : ٢٨٦

(٢) سورة آل عمران : ٨

(٣) سورة طه : ٢٥ ـ ٢٨

(٤) سورة الفرقان : ٧٤

(٥) سورة الفاتحة

(٦) نيل الأوطار : ٢/ ٢١٤

المطلب الثامن

العلم بالله وفق المنهج القرآني النبوي سبب للتمكين في الأرض، والضلال عنه سبب للهزيمة والخذلان

العلم بالله تبارك و تعالى ، وفق المنهج القرآنيّ النبويّ يرسّخ العقيدة الحقّة والمعرفة الصادقة بالله تعالى ، ويجعل العباد سائرين علىٰ الصراط المستقيم ، وهذا يقرّب العباد من ربّهم ، فيحل الله بهم رضوانه ، وينزل عليهم بركاته ، ويكون هذا سببا للنّصر والتأييد ، والتمكين للمسلمين في الأرض تحقيقا لموعود الله ، ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ﴾[1] .

فإذا حاد العباد عن الدّين الذي ارتضاه لهم ، فإنّ ذلك يكون سببا لانقراض ملكهم وسلطانهم ، وإدالة عدوّهم عليهم .

وقد تحدّث شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمة الله تعالى ـ عن الآثار المدمّرة التي نشأت عن هذه الانحرافات وأمثالها في المجتمع الإسلامي فقال : هذا الجعد بن درهم الذي ينسب إليه مروان بن محمد الجعدي آخر خلفاء بني أمية ، كان شؤما عليه حتى زالت الدولة ، فإنّه إذا ظهرت البدع التي تخالف دين الرسل انتقم الله ممن خالف الرسل وانتصر لهم ، ولهذا لما ظهرت الملاحدة الباطنيه وملكوا الشام وغيرها ظهر فيها النفاق والزندقة الذي هو باطن أمرهم ، وهو حقيقة قول فرعون « إنكار الصانع وإنكار عبادته » وخيار ما كانوا يتظاهرون به الرفض ، فكان خيارهم وأقربهم إلى الإسلام : الرافضة ، وظهر بسببهم الرفض والإلحاد ، حتى كان من ينزل الشام مثل بني حمدان والغالية ونحوهم متشيّعين ، وكذلك من كان من بني بويه في المشرق .

وكان ابن سينا وأهل بيته من أهل دعوتهم ، قال : وبسبب ذلك اشتغلت

---

(١) سورة النور : ٥٥

بالفلسفة .

وكان مبدأ ظهورهم من حين تولّي المقتدر ، ولم يكن بلغ بعد ، وهو مبدأ انحلال الدولة العباسية ، ولهذا سمّي حينئذ بأمير المؤمنين الأمويّ الذي كان بالأندلس ، وكان قبل ذلك لايسمّى بهذا الاسم ، ويقول : لا يكون للمسلمين خليفتان ، فلمّا ولي المقتدر ، قال : هذا صبيٌّ لا تصحّ ولايته ، فسمّي بهذا الاسم .

وتحدّث شيخ الإسلام عن بني عبيد الله القداح ، وأنّهم كانوا في الباطن ملاحدة زنادقة منافقين ، وكان نسبهم الذي ادّعوه باطلا كدينهم ، بخلاف الأموي والعباسي، فإنّ نسبهما صحيح ، وهم مسلمون كأمثالهم من خلفاء المسلمين .

وبين شيخ الإسلام كيف كان ظهور النفاق والبدع والفجور المخالف لدين الرسل سببا في تسليط الأعداء على المسلمين ، فخرجت الروم النصارى إلى الشام والجزيرة مرّة بعد مرّة ، وأخذوا الثغور الشاميّة شيئا بعد شيء إلى أن أخذوا بيت المقدس في أواخر المائة الرابعة ، وبعد هذا بمدة حاصروا دمشق ، وكان أهل الشام بأسوأ حال بين الكفار النصارى والمنافقين الملاحدة .

وبين شيخ الإسلام كيف أن الله أظهر دينه وأعز أتباع هذا الدين عندما تولى نور الدين الشهيد ، وقام بأمر الإسلام ، وأظهر الإسلام ، وجاهد في سبيل الله ، وكيف قضى صلاح الدّين الأيوبي على العبيديين ، فأظهر الله به الإسلام وقمع به المرتدين ، والفاسدين .

وقد أطال شيخ الإسلام الحديث عن تأثير البدع والانحرافات وظهور الضلالات في مجتمع المسلمين ، وكيف أن ظهورها يكون سببا في ذلّ المسلمين ، وتسليط عدوهم عليهم ، وأن استقامة المسلمين على أمر الله يكون سببا في عزّة الإسلام وأهله إلى أن قال :« والمقصود هنا أنّ دولة بني أميّة كان انقراضها بسبب هذا الجعد المعطل وغيره من الأسباب التي أوجبت إدبارها »[1].

---

(١) راجع مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ١٣/ ١٧٧ - ١٩٢

المبحث الرابع
فوائد مزعومة

يذكر بعض الباحثين في أسماء الله وصفاته فوائد ومنافع لم يدلَّ عليها عقل أو نقل ، وسنأتي على بعض ما يذكرونه في هذا الباب ، حتى يكون المسلمون على بيِّنة من أمرهم فيما يأتون وفيما يتركون ، والله والمستعان .

المطلب الأوّل
الزعم بأن للأسماء خواصّا وأسرارًا خفيّة [1]

يدَّعي هؤلاء بأنَّ لكلِّ اسم من أسماء الله الحسنى خواصًا وأسرارا تتعلق به على إفاضة فيها أو إيجاز ، وقد يغلو بعض الناس فيتجاوز هذا القدر إلى الزعم بأن لكلِّ اسم خادما روحانيا يخدم من يواظب على الذكر به ، ويذكر بعض الذين ساروا في هذا الاتجاه أنَّهم يكشفون بأسماء الله أسرار المغيبات ، والخافي من المكنونات ، ويزعم بعض هؤلاء أنَّ اسم الله الأعظم سرٌّ من الأسرار ، يمنح لبعض الأفراد ، فيفتحون به المغلقات ، ويخرقون به العادات ، ويكون لهم به من الخواص ما ليس لغيرهم من الناس .

وهؤلاء الذين قالوا هذه المقالة لم يأتوا بنصّ من كتاب ربِّنا ولا حديث من صحيح سنة نبيِّنا ، وكلُّ ما اعتمدوا عليه لا تقوم به حجة ، ولا ينهض به دليل ، وما كان كذلك فلا اعتبار له ، وحسبنا في ردِّه قوله صلى الله عليه وسلم : « كلُّ عمل

---

(١) راجع في هذه المسألة : أبجد العلوم لصديق حسن خان . الجزء الثاني . القسم الأول ص ٨١ ، ٢٨٨ .
ومجموع الرسائل للشيخ حسن البنا : ص ٤٤٤ .
وإن شئت التوسع في الإطلاع على هذا الموضوع فارجع إلى مقدمة ابن خلدون فقد أطال في عرض هذه المسألة .

ليس عليه أمرنا فهو ردّ».

وقد فتحت هذه المقولة باب الخرافة ، ودخل السّحرة والمشعوذون من هذا الباب ، فترى عبّاد الشيطان يمكرون بالنّاس ، ويكيدونهم بالسّحر ، ويزعمون أنّهم يسخّرون غيرهم ، ويؤثّرون فيهم ، ويعلمون المستور من الأخبار بما اطلّعوا عليه وعرفوه من أسماء الله الحسنى وصفاته العليا .

ولا يزال لهذا النّوع من النّاس وجود في ديار المسلمين ، وبعض البسطاء من الناس يثقون بهم ، ويتابعونهم على ضلالهم ، فعلى العلماء وطلبة العلم أن يحذّروا من هذا الصنف وكيده ، نصيحة لله ورسوله والمؤمنين .

المطلب الثاني
المطالبة بالتشبه بصفات الله تبارك وتعالى

يرى بعض الباحثين أنّ من فوائد معرفة صفات الباري التّشبه بأخلاق الله ، أو التّخلق بأخلاق الله ، وهذه العبارة مأخوذه من قول الفلاسفة : الفلسفة التشبه بالله على قدر الطاقة .

وهذا المنحى غير سديد لأمور :

الأوّل : أن صفات الله لا يجوز أن يقال فيها : أخلاق الله ، بل الأخلاق للإنسان ، أمّا فيما يتعلق بالله فيقال : صفاته .

الثاني : أنّ الفلاسفة متناقضون ، فتحقيق مذاهبهم نفي الصفات عن الله عز وجل ، فكيف يدعون إلى التشبه بصفات الله وهم ينفونها عن الله .

الثالث : وعلى فرض أنّ من قال هذه المقالة يثبت صفات الباري ، فإنّ من صفاته ماجاءت النصوص مانعة من إطلاقه على العباد ، فقد نهانا الحق عن الاتصاف بالكبر والعظمة ، فالله وحده المتكبر العظيم .

والصواب أن يقال : إن علينا أن نتخلق بالأخلاق التي أمرنا الله ورسوله بالتخلق بها ، ونبتعد عن الأخلاق التي نهينا عن التخلق بها ، فقد أمرنا الله بالتخلق بصفة الرحمة والصدق والعلم ، والله متصف بهذه الصفات ، ونهينا عن التخلق بأخلاق الكبر والعظمة ، وهذه من صفات الله ، كما نهينا عن التخلق بالكذب والغيبة والنميمة ، وهذه ليست من صفات الله .

الفصل الأوّل
أسماء الله الحسنى

المبحث الأوّل
تحقيق القول في عدد أسماء الله

ذهبت طائفة من أهل العلم إلى أنَّ أسماء الله الحسنى محصورة في تسعة وتسعين اسما لا تزيد ، واستدلُّوا على ذلك بالحديث الذي نص فيه الرَّسول صلى الله عليه وسلم على هذا العدد .

يقول ابن حزم رحمه الله تعالى : « إنَّ له ـ عزَّ وجلَّ ـ تسعة وتسعين اسما ، مائة غير واحد ، وهي أسماؤه الحسنى ، من زاد شيئا من عند نفسه فقد ألحد في أسمائه ، وهي الأسماء المذكورة في القرآن والسنَّة »[1] .

وساق بإسناده الحديث : « إنَّ للّه تسعة وتسعين اسما ، مائة إلاَّ واحدا ، من أحصاها دخل الجنَّة » . زاد همام ـ احد رواة الحديث ـ : « إنَّه وتر يحبُّ الوتر » ، ثم قال ابن حزم : « وقد صحَّ أنَّها تسعة وتسعون اسما فقط ، ولا يحلُّ لأحد أن يجيز أن يكون له اسم زائد ، لأنَّه عليه السلام قال : « مائة غير واحد »[2] .

ولم يرتض جمهور أهل العلم حصر أسماء الله الحسنى في هذا العدد ، والذي

---

(١) المحلى لابن حزم : ١/ ٣٠

(٢) المصدر السابق

ألجأهم إلى هذا وجود نصوص تدل على أنّ العدد أكثر من هذا ، يقول ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى : « ذهب جمهور أهل العلم إلى أنَّ أسماء الله الحسنى لا تنحصر في هذه العِدَّة ، وأنّها أكثر من ذلك ، ونقل النوويُّ اتفاق العلماء عليه ، ... ويؤيده قوله صلى الله عليه وسلم في حديث ابن مسعود الذي أخرجه أحمد وصحّحه ابن حبان : « أسألك بكلِّ اسم هو لك ، سمَّيت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علَّمته أحدا من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك » ، وعند مالك عن كعب الأحبار في الدعاء : « وأسألك بأسمائك الحسنى ما علمت منها وما لم أعلم ». أورده الطبري عن قتادة نحوه.[1] وجاء في الحديث أيضا : « لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » ، وفي حديث الشفاعة : « فيفتح عليَّ من محامده بما لا أحسنه الآن » .

فحديث ابن مسعود جعل أسماء الله ثلا ثة أقسام :

القسم الاول : ما أنزله الله في كتابه ، فمن علم الكتاب، وتتبَّع آياته، فإنه قادر على استخراج الأسماء المنزلة فيه .

القسم الثاني : ماعلَّمه الله بعض خلقه دون بعض ، فقد يكون خص به بعض الملائكة، أو خص به الملائكة دون بني آدم ، أو خص به بعض أوليائه .

والقسم الثالث : ما استأثر به في علم الغيب عنده ، فلم يطلع عليه ملكا ولا نبيًّا، ولا أحدا من خلقه .

وبهذا نتبين أنَّ العدد أكثر من تسعة وتسعين لوجود أسماء لا يستطيع البشر إحصاءها لأن الله استأثر بعلمها ، أو علَّمها بعض خلقه ، ولم ينزلها في كتابه .

ولذلك قال العلماء : إنَّ الرسول صلى الله عليه لم يرد بقوله : « إنَّ للَّه تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنَّة » حصر أسماء الله في هذا العدد ، وإنما مقصود الحديث أنَّ هذه الأسماء من أحصاها دخل الجنَّة ، فالمراد دخول الجنَّة بإحصائها ، لا

---

(١) فتح الباري : ١١/ ٢٢٠

الإخبار بحصر الأسماء[1].

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى : « الأسماء الحسنى لا تدخل تحت حصر، ولا تحدّ بعدد ، فإنَّ للّه تعالى أسماء وصفات استأثر بها في علم الغيب عنده ، لا يعلمها ملك مقرب ولا نبيٌّ مرسل »[2].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في : « التقيُّد بالعدد عائد إلى الأسماء الموصوفة بأنها هي هذه الأسماء .

فجملة « من أحصاها دخل الجنّة » صفة للتسعة والتسعين ، ليست جملة مبتدأة ، والتقدير: إن لله أسماء بقدر هذا العدد من أحصاها دخل الجنَّة ، كما يقول القائل : لي مائة غلام أعددتهم للعتق ، وألف درهم أعددتها للحجّ ، فالتقييد بالعدد هو الموصوف بهذه الصفة ، لافي استحقاقه لذلك العدد، فإنَّه لم يقل : إنَّ أسماء الله تسعةوتسعون»[3].

ويقول ابن القيم : قوله : « إنَّ للّه تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنَّة ». الكلام جملة واحدة . وقوله : « من أحصاها دخل الجنَّة » ، صفة لا خبرا مستقلاً ، والمعنى : له أسماء متعددة من شأنها من أحصاها دخل الجنَّة

وهذا لا ينفي أنَّ له أسماء غيرها ، كما تقول : لفلان مائة مملوك قد أعدهم للجهاد ، فلا ينفي هذا أنَّ يكون له مماليك سواهم معدون لغير الجهاد ، وهذا لا خلاف فيه بين العلماء »[4].

فإن قيل : فإذا كانت أسماء الله كثيرة لا تدخل تحت حصر ، فما معنى قصر الإحصاء على تسعة وتسعين ؟

---

(١) فتح الباري : ١١/ ٢٢٠

(٢) بدائع الفوئد : ١/ ٦٦

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ٦/ ٣٨١

(٤) بدائع الفوائد : ١/ ١٦٧

قلنا للعلماء الذين قالوا هي أكثر من التسعة والتسعين قولان :

الأول : أنَّ الأسماء التي يدخل الجنَّة من أحصاها أسماء معينة محدَّدة مبثوثة في أسمائه الكثيرة ، وبما أنَّ الرسول ـ صلَّى الله عليه وسلم ـ لم يحدِّد هذه الأسماء ، ولم يصحَّ عنه حديث بذلك ، فإنَّ الإنسان لا ينال هذا الثواب العظيم حتى يحفظ جميع الأسماء الحسنى التي وردت في الكتاب والسنَّة ، ليتأكد أنَّه جاء بالأسماء التسعة والتسعين التي ينال العبد دخول الجنَّة بحفظها .

يقول ابن العربيِّ : « أخفيت هذه الأسماء المتعددة في جملة الأسماء الكلية ، لندعوه بجميعها ، فنصيب العدد الموعود به فيها »[1] .

ويرى ابن العربي أن أسماء الله التسعة و التسعين التي يدخل محصيها الجنة مخبوءة في الكتاب و السنة ، كما خبئت ساعة الإجابة في يوم الجمعة ، وليلة القدرفي رمضان ، يقول ابن العربي في هذا : «والذي أدلكم عليه أن تطلبوها في القرآن والسنة ،فإنها مخبوءة فيهما ، كما خبئت ساعة الجمعة في اليوم ، وليلة القدر في الشهر رغبة ، والكبائر من الذنوب رهبة ، لتعم العبادات اليوم بجميعه ، والشهر كله وليقع الاجتناب لجميع الذنوب ، وكذلك أخفيت هذه الأسماء الكلية لندعوه بجميعها فنصيب العدد الموعود به فيها .وقال مثل ذلك الفخر الرازي فيما نقله عنه ابن حجر العسقلاني :« المراد من عدم تفسيرها أن يستمروا على المواظبة بالدعاء بجميع ما ورد من الأسماء رجاء أن يقعوا على تلك الأسماء المخصوصة ، كما أبهمت ساعة الجمعة ، وليلة القدر ، والصلاة الوسطى » .

ولذا فإنَّ ابن العربيِّ بلغ بها عندما عدَّها في كتابه القيم (أحكام القرآن) مائة وستة وأربعين اسما ، وذكر أنَّه بقي من أسمائه ـ تبارك وتعالى ـ ثلاثين اسما ضمنها كتاب (الأمد) [2] .

---

(١) أحكام القرآن : ٢/ ٧٩٤

(٢) أحكام القرآن : ٢/ ٨٠٥

وقال ابن حجر : «حكى القاضي أبو بكر بن العربيَ عن بعضهم أنّ لله ألف اسم. قال ابن العربيِّ : هذا قليل فيها»[1].

الثاني : أنَّ المراد بالعدد المذكور هو إحصاء تسعة وتسعين اسما من جملة أسمائه، فكلُّ من حفظ هذا العدد من أسمائه استحقَّ هذا الأجر ، فهي تسعة وتسعون غير معيَّنة، ولا محددة .

يقول شيخ الإسلام مبينا هذين التوجهين عند أهل العلم : « الذين جمعوا أسماء الله اعتقدوا هم وغيرهم أنَّ الأسماء الحسنى التي من أحصاها دخل الجنَّة ليست شيئا معينا ، بل من أحصى تسعة وتسعين اسما من اسماء الله دخل الجنة ، أو أنها وإن كانت معينة ، فالاسمان اللذان يتفق معناهما ، يقوم أحدهما مقام صاحبه ، كالأحد والواحد ، والمعطي والمغني »[2].

أقول هذا الذي ذكره شيخ الإسلام آخراً توجيه **ثالث** في المسألة .

---

(١) فتح الباري : ١١/ ٢٢٠

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ٦/ ٣٨٠

المبحث الثاني
تعيين أسماء الله الحسنى

هيج الرسول صلى الله عليه وسلم النفوس المؤمنة بوعده محصيها بالجنّة إلى إحصائها وطلبها رجاء أنّ يفوزوا بموعود رسول الله صلى الله عليه وسلم .

اسماء الله الحسنى في رواية الترمذي

وقد ورد في تعيينها حديث رواه الترمذي وابن ماجه ، ففي سنن الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن لله تعالى تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة ، هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارىء ، المصور ، الغفار ، القهار ، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح ، العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعز ، المذل ، السميع ، البصير ، الحكم ، العدل ، اللطيف ، الخبير ، الحليم ، العظيم ، الغفور ، الشكور ، العلي ، الكبير ، الحفيظ ، المقيت ، الحسيب ، الجليل ، الكريم ، الرقيب ، المجيب ، الواسع ، الحكيم ، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل ، القوي ، المتين ، الولى ، الحميد ، المحصي ، المبدي ، المعيد ، المحي ، المميت ، الحي ، القيوم ، الواجد ، الماجد ، الواحد ، الصمد القادر ، المقتدر ، المقدم ، المؤخر ، الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ،الوالي ، المتعالى ، البر ، التواب ، المنتقم ، العفو ، الرءوف ، مالك الملك ، ذو الجلال والإكرام ، المقسط ، الجامع ، الغني ، المغني ، المانع ، الضار ، النافع ، النور ، الهادى ، البديع ، الباقي ، الوارث ، الرشيد ، الصبور »[1] .

---

(١) سنن الترمذي : ٥/ ٥٣٠ ، ورقم الحديث : ٣٥٠٧

مدى صحة الأحاديث المصرّحة بأسماء الله

لو كانت الأحاديث المصرّحة بذكر الأسماء الحسنى صحيحة الإسناد لكان فيها غنية لمن أراد أنّ يحصي أسماء الباري تبارك وتعالى ، ولكنّ نقاد الحديث وحفّاظه حكموا على هذه الأحاديث بالضعف ، ونقدوها سندا ومتنا .

أما السند فضعيف بضعف رواته ، وأما المتن ففيه اضطراب واختلاف ، قال الترمذيّ بعد سياقه للحديث الذي رويناه عنه فيما سبق : « هذا حديث غريب ، حدثنا به غير واحد عن صفوان بن صالح ، ولا نعرفه إلا من حديث صفوان بن صالح ، وهو ثقة عند أهل الحديث .

وقد روي هذا الحديث من غير وجه عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ولانعلم في كثير شيء من الروايات له إسناد صحيح ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث »[1] .

وقال الحافظ ابن حجر في تخريجه : « له طرق ، رواه ابن خزيمة وابن حبان والترمذيّ والحاكم من حديث الوليد عن شعيب عن أبي الزّناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، وسرد الأسماء ، وذكر آدم بن أبي إياس هذا الحديث بإسناد آخر عن أبي هريرة ، وذكر فيه الأسماء ، وليس له إسناد صحيح » .

قال ابن حجر : « ورواه ابن ماجه من طريق زهير بن محمد ، عن موسى بن عقبة عن الأعرج ، وساق الأسماء ، وخالف سياق الترمذي في الترتيبب ، والزيادة والنقص .

فأمّا الزيادة فهي : البارُّ ، الرّاشد ، البرهان ، الشّديد ، الواقي ، القائم ، الحافظ ، الفاطر ، السّامع ، المعطي ، الأبد ، المنير ، التامُّ ، والطريق التي أشار إليها الترمذيُّ رواها الحاكم في المستدرك من طريق عبد العزيز بن الحصين ، عن أيوب ، وعن هشام بن حسّان جميعا ، عن محمد بن سيرين ، عن أبي هريرة ، وفيها أيضا زيادة

---

(١) سنن الترمذي : ٥/ ٥٣٠ ، ورقم الحديث : ٣٥٠٧

ونقصان.

وقال: المحفوظ عن أيوب وهشام بدون ذكر الأسامي.

قال الحاكم: وعبد العزيز ثقه. قلت: بل متفق على ضعفه، وهّاه البخاريٌّ ومسلم وابن معين، وقال البيهقيٌّ: ضعيف عند أهل النقل، قال البيهقيٌّ: ويحتمل أن يكون التفسير وقع من بعض الرواة، ولهذا الاحتمال ترك الشيخان إخراج حديث الوليد في الصحيح.

وقال القاضي أبوبكر بن العربيٌّ: لا نعلم هل تفسير هذه الأسامي في الحديث أو من قول الراوي.

قال ابن حجر: والدَّليل على ذلك اختلافها، وإن كان حديث الوليد أرجحها من حيث الإسناد.

وقال أبو محمد بن حزم: جاء في إحصائها احاديث مضطَّربة، لا يصح منها شيء.

وقال ابن عطية: حديث الترمذيٌّ ليس بالمتواتر، وفي بعض الأسماء التي فيه شذوذ، وورد في دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم: يا حنان، يامَّنان، وليس في حديث الترمذيٍّ واحد منهما»[1].

وقد توسَّع الحافظ ابن حجر في تخريج الحديث أكثر من هذا في «فتح الباري»، فبيَّن طرقه في كتب السنَّة، وبيَّن ما فيه من ضعف، ثمَّ قال: «ليست العلة عند الشيخين تفرد الوليد فقط، بل الاختلاف فيه، والاضطراب، وتدليسه، واحتمال الإدراج»[2].

ومن الذين جزموا بضعف الأحاديث التي عينت التسعة والتسعين اسما ابن تيمية رحمه الله فإنه قال: «إنَّ التسعة والتسعين اسما لم يرد في تعيينها حديث صحيح عن

---

(١) تلخيص الحبير: ٤/١٧٢

(٢) فتح الباري: ١١/٢١٥

النبيّ صلى الله عليه وسلم » .[1]

ورجّح مارجحه غيره من حفّاظ الحديث أنّ ذكر الأسماء في حديث الترمذي ممّا جمعه أحد رواة الحديث ، وهو الوليد بن مسلم عن شيوخه من أهل الحديث .[2].

ومما يدل على عدم صحة هذا الحديث أنّه خلا من عدّة أسماء منصوص عليها في الكتاب والسنّة مثل الربّ ، الخلاّق ، القدير ، القريب ، وفي مقابل ذلك يورد عدّة من الأسماء التي لم ينصّ عليها في الكتاب ولا في السنة مثل : الصَبور ، المحصي، الرّشيد ، الباقي .

سبب الاختلاف في تعيين أسماء الله تبارك وتعالى

لما كانت النصوص الجامعة لأسماء الله الحسنى غير صحيحة ، فإنّ أهل العلم اجتهدوا في التّعرف على هذه الأسماء وسياقها ، وقد توسّع بعضهم في عدّها حتى جاوز بها المائة والخمسين ، وقصّر آخرون حتى لم يستطيعوا أن يصلوا بها إلى التسعة والتسعين.

فابن حزم عدّها فبلغ بها واحدا وثمانين اسما ، لأنّه اقتصر على ماورد في القرآن بصيغة الاسم كما ادعى، والحقّ أنّ ما أورده غير مقصور على القرآن ، بل تجاوزه إلى ما ورد في الأحاديث [3].

وعدّها ابن العربيّ في كتابه «أحكام القرآن » فبلغ بها (١٤٦) اسما ، وذكر أنّه بلغ بها في كتابه « الأمد » (١٧٦) اسما [4] .

وعدّها ابن الوزير فبلغ بها (١٧٣) اسما، وإن قال في إحصائه لها

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ٢٢/٤٨٢

(٢) المصدر السابق

(٣) راجع سبل السلام : ٤/١٤٣

(٤) أحكام القرآن : ٢/٨٠٥

إنها(١٥٧)[1].

وحكى ابن حجر انَّ ابن العربيِّ نقل عن بعضهم أنَّ لله ألف اسم . قال ابن العربيِّ بعد حكايته لهذا القول : وهذا قليل فيها .

ونقل ابن حجر عن الفخر الرازي أنَّه نقل عن بعضهم أنَّ لله أربعة آلاف اسم.وهذه الأعداد دعوى تحتاج إلى دليل كما يقول ابن حجر [2].

جملة ما عده أهل العلم في أسماء الباري تبارك وتعالى

جملة ما عده أهل العلم في أسماء الباري تبارك وتعالى- مما اطلعت عليه - (٢٩٠) اسما أسوقها في هذا المواضع لتعلم :اللّه ، الآخذ، الإله ، الأول ، الآخر ، الأكرم ، الأعلى ، الأكبر ، الأعظم الأعزُّ ،الأعلم، الأحكم ، الأقوى ، الأقرب ، الأبد ، الأمد،الأحد ، أرحم الرَّاحمين ، أحكم الحاكمين ، أسرع الحاسبين أحسن الخالقين،أهل التقوى ، أهل المغفرة .

البارئ ، البديع ، البر ،الباطن ، الباسط، الباعث ، الباقي ، البرهان ، البالغ أمره البالي ، البصير، البادي .

التَّواب ،الثابت ، الجبَّار ، الجامع ، الجليل ، الجاعل ، الجواد ، الجميل ، الحليم ، الحكيم ، الحيُّ ، الحسيب ، الحفيظ ، الحميد ، الحقُّ ، الحكم ، الحافظ ، الحفيُّ ، الحاسب ، الحنَّان ، الحاكم .

الخالق ، الخَّلاق ، الخبير ، الخافض ، خير الماكرين ، خير الرَّازقين ، خيرالنَّاصرين ، خير الفاصلين ، خير الوارثين ، خيرالمنزلين ،خير الرَّاحمين ،خير الحافظين ، خير الغافرين ، خير وأبقى .

الدائم ، الدَّهر ، الدَّاعي ، الدافع ، الديان، الدَّارئ .

---

(١) سبل السلام : ٤/١٤٣

(٢) فتح الباري : ١١/ ٢٢٠

ذوالجلال والإكرام ، ذو الطول ،ذو القوّة ، ذوالفضل ، ذو الرّحمة ، ذو العرش ، ذوالعقاب ، ذو المعارج ، ذو الجبروت ، ذو الملكوت ، ذو الكبرياء ، ذو العظمة .

الرحمن ، الرحيم ، الرّزاق ، القريب ، الرؤوف ، الربُّ ، الرّافع ، الرّشيد ، الرّضا ، الرّاشد ، رابع الثّلاثة ، الرّفيق ، الرّفيع ،رفيع الدّرجات ، الزّارع ،السّلام .

السّميع ، السابق ،سريع العقاب ، سريع الحساب ، السالم ، السخط ، السيّد، السبّوح ، سادس الخمسة ، الشّكور ، الشّاكر.

الشّهيد ، الشفيع ، الشافي ، شديد العقاب ، شديد المحال ، شيء .

الصّمد ، الصّبور ، الصّادق ، الضّارّ .

الطّيب، الطبيب ، الطّاهر ، الظاهر ، العزيز .

العالم ، العليم ، العلاّم ، العليُّ ، العظيم ، العدل ، العادل ، العفوُّ ، عدوُّ الكافرين ،عين ، الغفور ، الغفّار ، الغافر ، الغالب، الغنيُّ ، الغيور .

الفاطر ، فالق الحبّ والنوى ، فالق الإصباح ،الفعّال لما يريد ، الفاعل ، الفاتن ، الفرد ، الفاتح، الفتّاح .

القائم ، القيّم، القيّام ، القهّار، القاهر، القدّوس، القريب ، القيوم،القادر،القدير، قابل التوب ، القاضي، القويُّ ، القديم ، القاسم ، القاصم ، القابض.

الكبير ، المستغاث ، الكريم ، الكفيل ، الكافي، الكائن ، الكاتب ، كاشف الضرّ ، كثير العفو ، اللّطيف.

المالك ، المليك ، المستعاذ ، الملك ، المؤمن ، المعاذ ،المهيمن ، المتكبر ، المصوّر،المستجار ، المحيط ، المولى ، المجيب ، المقيت ، المجيد ، الماحي ،

المبين،المتين،المقتدر ، المستعان ، المحيي ، المثبت ، المميت ، المتعالي ، المقدر ، المستمع، المعطي ، المؤيِّد ، المغيث ، المنيب ، المدبر ، المنعم ، المتفضل ،المدافع،المنير، المنَّان ، الموئل ، الماهد ،المسعِّر، المجيد ، المحسن ، المحسان ، المتكلم ،المملي ، المبقي، المزكِّي ، الموجد ، المبدع ، الموجود ، المعزُّ ، المذل ، الموفق ، المحصي ، المبدي، المعيد ، الماجد ، المقدم ، المصرِّف ، المؤخِّر ، المقسط ، المغني ، المانع ، المكرم ، الممكن ، المبرم ، المنذر ، المرسل ، الموسع ، المنشي، المخشي ، المريد ، المحبُّ ، المبغض ، المبتلي ، المبلي ، المرهوب، الممتحن ، المثيب ، المستجيب ، المنتقم ، المطعم ، الملجأ ، المسقي ، المذكور ، المعبود ، متمُّ نوره، مقلِّب القلوب ، المنجا مخزي الكافرين مخرج الحيِّ من الميت مخرج الميت من الحي المنجي.

النَّاصر ،النصير، النُّور ، النفس ، الهادي .

الوهَّاب ، الواسع ،الوكيل ،الودود، الوارث، الوليُّ ، الواحد، الواجد ، الوالي ، الوقيُّ، الواقي، الوتر .

المبحث الثالث
الضوابط والقواعد التي تحدّد في ضوئها أسماء الباري جلّ وعلا

أمام هذا العدد الضخم الذي أورده أهل العلم في أسماء الباري – تبارك وتعالى– لابدَّ للباحثين من أنَّ يضعوا القواعد والضوابط التي يتحدَّد في ضوئها ما هو من أسمائه مما ليس منها .

ولم أجد من أهل العلم من جمع هذه الضوابط ، اوعني بجمعها ، لذا فقد أجهدت نفسي في التعّرف على هذه الضوابط وتقعيدها ، لتكون معلما وحكما يفرّق بهابين ما هو من أسماء الله تبارك وتعالى مما ليس منها .

وسنعقد في هذا المبحث ثلاثة عشر مطلبا لبيان هذه الضوابط وتوضيحها .

المطلب الأوّل
الاقتصار في عدّها على الكتاب والسّنّة

الناظر المدقّق في الأسماء التي أوردتها يجد فيها جملة من الأسماء ليس لها ذكر في الكتاب والسنة مثل : الأبد ، الأمد ، البرهان ، البالي ، البارُّ ، الثابت ، الدائم ، الرشيد ، السالم ، الشفيع ، القديم ، الكائن ، المنير ، البادي ، المذكور .

قد يقال : إنَّ بعض هذه الأسماء وردت في السنَّة مثل البرهان ، الباري ، الرشيد.والجواب أنَّ النصوص التي وردت فيها هذه الأسماء غير صحيحة مثل حديث الترمذي وحديث ابن ماجه التي ساقت أسماء الله تبارك وتعالى .

والسرُّ في الاقتصار على الأسماء التي وردت في الكتاب والسنَّة أن أسماء الله

توقيفية ، فلا يجوز أن يسمّى الحقّ باسم لم يسمَ الله به نفسه ، أو لم يخبر الرسول صلى الله عليه وسلم عن ربّه أنّه تسمى به .

وإذا كنّا لا نوافق على تجاوز الكتاب والسنّة في هذا الباب ، فإنّنا لا نوافق من اقتصر على القرآن وحده ، فإنّ ما جاء به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ حق كالذي أنزل في القرآن ، فليس لمن اقتصر على نصوص القرآن دون الحديث حجّة ، فقد جاء في الأحاديث عدّة أسماء لم ترد في القرآن مثل : الحنّان ، المنّان ، السبّوح ، الشافي ، ، المحسن .

وإذا كنا ندعو للاقتصار على الكتاب والسنّة فإنّنا نعني بالسنّة ما صحّ من الأحاديث ، دون الأحاديث الضعيفة والموضوعة ، فقد جاء في الأحاديث الضعيفة جملة من أسماء الله التي لم يصح فيها حديث مثل : الأبد ، الرشيد ، الصبور .

المطلب الثاني
ليس كل ما أخبرت به النصوص فهو من أسمائه تبارك وتعالى

والسرُّ في ذلك أنّ الأخبار يتوسع فيها ما لايتوسع في الأسماء ، فالله أخبر عن نفسه تبارك وتعالى أنّه كثير العفو ، قابل التوب ، فالق الإصباح ، فالق الحبِّ والنوى ، محبُّ المؤمنين ، مبغض الكافرين ، فعال لما يريد ، عدُّو الكافرين ، منعم ، متفضل ، مكرم ، مقلّب القلوب ، ونحو ذلك ، فجعلها بعض أهل العلم من أسمائه .

والعلماء يتوسّعون في الأخبار ، فيجيزون إطلاق اسم : الموجود ، والشّيء،والثّابت على الله من باب الإخبار ، وإن لم ترد في الكتاب والسنة .

يقول ابن القيّم : « ما يدخل في باب الإخبار عنه تعالى أوسع مما يدخل في باب أسمائه وصفاته كالشّيء والموجود والقائم بنفسه ، فإنّه يخبر به عنه ، ولا يدخل في

أسمائه الحسنى ، وصفاته العليا »[1].

وكثير مما عدَّه أهل العلم من أسمائه الحسنى ممَّا ورد في الكتاب والسنَّة وممَّا لم يرد فيهما هو من باب الأخبار لا من باب الأسماء ، وهنا أمر مهم نبَّه عليه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ، فقد أفاد أنه لايجوز الإخبار عن الله تعالى باسم سيءٍ ، يقول رحمه الله تعالى : « يفرَّق بين دعائه والإخبار عنه ، فلا يدعى إلا بالأسماء الحسنى ، وأما الإخبار عنه ، فلا يكون باسم سيء ، لكن قد يكون باسم حسن ، أو باسم ليس بسيءٍ ، وإن لم يحكم بحسنه ، مثل اسم شيء ، وذات ، وموجود »[2].

المطلب الثالث
لايجوز أن يشتق لله أسماء من صفاته وأفعاله

وهذا الضابط من معنى التوقيف في أسماء الله ، فلا يجوز أن نشتقَّ لله أسماء من أفعاله التي وردت في الكتاب والسنَّة ، فلا يقال من أسمائه : الجائي ، المطعم ، المسقي ، الكاتب ، القاضي ، المؤيد ، المبتلي ، ونحو ذلك أخذا من قوله تعالى : ﴿وجاء ربك والملك صفاصفا﴾[3] وقوله : ﴿والذي هو يطعمني ويسقين﴾[4] وقوله : ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾[5] وقوله : ﴿والله يقضي بالحق﴾[6] وقوله : ﴿هو الذي أيَّدك بنصره﴾[7] وقوله : ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾[8].

---

(١) بدائع الفوائد : ١/ ١٦١

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام

(٣) سورة الفجر : ٢٢

(٤) سورة الشعراء : ٧٩

(٥) سورة الأنعام : ٥٤

(٦) سورة غافر : ٢٠

(٧) سورة الأنفال : ٦٢

(٨) سورة الأنبياء : ٣٥

ومن هذا الباب غير ما سبق : الباعث ، الباقي ، القاضي ، الصبور ، العدل ، العادل ، الفاتح ، القيام .

يقول ابن القيم : « لا يلزم من الإخبار عنه بالفعل مقيَّدا أن يشتقَّ له منه اسم مطلق، كما غلط بعض المتأخرين ، فجعل من أسمائه الحسنى المضلّ الفاتن الماكر ، تعالى الله عن قوله ، فإنَّ هذه الأسماء لم يطلق عليه منها إلا أفعال مخصوصة معيَّنة ، فلا يجوز أن يسمَّى بأسمائه المطلقة »[1].

وخالف هذا النهج ابن العربيِّ حيث ذهب إلى أنَّ المشتق يدخل في أسمائه تبارك وتعالى ، وادَّعى أنَّ الصحابة والعلماء عدُّو المشتقَّ من أسمائه تبارك وتعالى[2]، ولكنَّه لم يأت بدليل يدلُّ على صحة مقاله .

المطلب الرابع
لا يجوز أن يسمّى الحقّ ـ تبارك وتعالى ـ بالأسماء المذمومة أو التي تشعر بالذم

فلا يجوز أن يسمىَّ الربُّ ـ تبارك وتعالى ـ بالأسماء المذمومة كالعاجز والخائن والفقير ، وكذلك الصفات التي تشعر بالذم كالمخادع ، والماكر ، والفاتن ، والسَّخط، والمنتقم ، أو الأسماء المنقسمة إلى كمال ونقص كالزَّراع والماهد والآتي والمريد ، والمتكلم ، والفاعل ، والفعال ، والمبرم ، ونحو ذلك .

قال ابن حجر رحمه الله : « اتفقوا على أنَّه لا يجوز أن يطلق على الله تعالى اسم أو صفه توهم نقصا ، فلا يقال : ماهد ولا زارع ولا فالق ، وإن جاء في القرآن

---

(١) بدائع الفوائد : ١/١٦٢

(٢) أحكام القرآن : ٢/٧٩٣

فنعم الماهدون ، ونحن الزارعون »[1] وسيأتي مزيد بحث لهذه المسألة في الأساس الثاني من الأسس التي يقوم عليها مذهب أهل السنة والجماعة في أسماء الله وصفاته.

المطلب الخامس

لا يجوز أن تنقص عدة أسمائه عن تسعة وتسعين إسمًا

والسبب في ذلك أنَّ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخبر أن لله تسعة وتسعين اسما، من أحصاها دخل الجنة ، والله أخبرنا أنَّ له الأسماء الحسنى ، وأمرنا بدعائه بها ، فإذا كانت هذه الأسماء غير موجودة في الكتاب والسنَّة ، ولا يمكن معرفتها ، فكيف نتمكن من دعائه بها ، وكيف نستطيع إحصاءها ؟

إذا ادعى مدَّع هذه الدعوى فيؤول الأمر إلى تكذيب الأخبار الصحيحة الثابتة عن الله ورسوله .

والسبب في تقصير من عد أسماء الله عدَّة أقل من المنصوص عليه هو ضعف التتبع والاستقراء لنصوص الكتاب والسنَّة .

المطلب السادس

كل إسم لا يقبل أن يدعى به فإنه ليس من أسماء الله

أسماء الله الحسنى التي تسمَّى بها الباري تقبل أن يدعى بها الحقُّ سبحانه وتعالى، لأنَّه أمرنا سبحانه بدعائه بأسمائه الحسنى ، فإذا كان الاسم غير قابل للدُّعاء به ، فإنَّه لا يجوز أن يجعل هذا الاسم من أسمائه .

وعلى ذلك فلا يجوز أن يعدَّ من أسمائه : الدَّهر ، والأبد ، والأمد ، والبرهان ، والداعي ، والدارئ ، والزارع ، والرضا ، والسَّخط ، والشيء ، والقاضي ،

---

(١) فتح الباري : ١١/٢٢٣ . وانظر سبل السلام : ٤/١٤٣

والمستمع ، والمملي ، والمتكلم ، والماهد ، والثابث ، والجاعل ، والسريع ، والعين ، والغيور ، والكامن ، والفاعل ، والفعال ، والقاتل ، والكائن ، والكاتب ، والكاشف ، والمبرم ، والمتمُّ نوره ، والنّفس .

فإنه لا يصح أن يدعى فيقال : يا دهر ، ياأمد ، يابرهان ، ياداعي ، يادارئ...الخ.

ولا يجوز لطالب العلم أنَّ يظن أن دعاءه ـ تبارك وتعالى ـ مقصور على أسمائه الحسنى دون صفاته وأفعاله ، فكما يدعى ـ تبارك وتعالى ـ بأسمائه الحسنى فإنَّه يدعى كذلك بصفاته الحسنى وأفعاله ، فيقال : ياداحي الأرض ، ورافع السماء ، ومنزل الغيث ، ومنجي المؤمنين ، ومهلك الظالمين ، ومجير المظلومين ، ومعلي شأن المجاهدين ، وهذا كثير في السنَّة .

وجواز دعاء الله بصفاته وأفعاله لا يلغي الضابط الذي قرَّرناه هنا ، فالضابط أنَّ كلَّ ما لا يقبل الدعاء به فإنه ليس من أسماء الباري تبارك وتعالى ، وهذا لا يعني أنَّه لا يجوز دعاء الله ـ تبارك وتعالى ـ بصفاته و أفعاله .

ومن هنا يعلم مجانبة الزجَّاج للصواب فيما قرَّره بقوله : « الضابط أنَّ كلَّ ما أذن الشَّرع أن يدعى به سواء كان مشتقا أو غير مشتقّ فهو من أسمائه ، وكلُّ ما جاز أن ينسب إليه سواء كان مما يدخله التأويل أو لا فهو من صفاته ، ويطلق عليه اسم أيضا»[1] .

فإنَّ الشارع لم يقصر دعاء الله على أسمائه فحسب ، ولكن كلَّ اسم لا يدعى الله به فلا يكون من أسمائه ، والفارق بين الضابطين واضح بيّن .

وقد حمل ابن العربي حملة شديدة على « الذين يخترعون أدعية يسمون فيها الباري بغير أسمائه ، ويذكرونه بما لم يذكره من أفعاله »[2] .وعدَّ هذا من الإلحاد في

---

(١) نقله عنه في فتح الباري : ١١/٢٢٣

(٢) أحكام القرآن : ٢/٨٠٥

أسماء الله الذي حذّر الله منه في قوله : ﴿ وذروا الذين يلحدون في أسمائه ﴾ [1].

ولكنه تناقض تناقضا بيّنا ، فقد عدَّ في أسمائه ـ تبارك وتعالى ـ مالم يرد في الكتاب والسنة .

المطلب السابع
لايدخل في أسماء الله تعالى ما كان من صفات أفعاله

وذلك مثل شديد العقاب ، وسريع العقاب ، وسريع الحساب ، وشديد المحال ، ورفيع الدرجات ، لانَّ الشديد والسريع من صفات أفعاله ، فلا فرق في المعنى بين قوله : إن الله شديد العقاب ، وسريع العقاب ، وشديد المحال ، وسريع الحساب ، وبين قولنا : إنَّ عقاب الله شديد ، وعقابه سريع ، ومحاله شديد ، وحسابه سريع ، ودرجاته رفيعه . [2]

المطلب الثامن
لايخرج من أسماء الله ما اتفق معناه وتغاير لفظه

لا يجوز أن نخرج من دائرة أسماء الله الحسنى مما ورد في الكتاب والسنة ما اتفق معناه وتغاير لفظه بدعوى أنه من باب التكرار ، فالرحمن الرحيم اسمان وليسا اسما واحدا ، والقادر والمقتدر والقدير ثلاثة أسماء ، وكلٌّ واحد منها اسم مستقل بذاته مادام قد ورد في الكتاب والسنَّة كذلك .

وينبغي أن ننبّه هنا إلى أنَّ هذا ليس تكرارا من كلِّ وجه ، فالاسم الذي يرى مكرَّرا يفيد معنى خاصًّا لا يفيده الاسم الآخر ، وإن شاركه في أصل المعنى .

---

(١) سورة الأعراف : ١٨٠

(٢) إيثار الحق : ص ١٦٠

يقول ابن حجر العسقلاني : « الاسماء المشتقة من صفة واحدة لا يمنع ذلك من عدّها، فإن فيها التغاير في الجملة ، فإنّ بعضها يزيد بخصوصيّة على الآخر ليست فيه»[1].

ونقل ابن حجر عن أبي العباس بن معد قوله : « ليس في أسماء الله شيء مترادف ، إذ لكل اسم خصوصية ، وإن اتفق بعضها مع بعض في أصل المعنى »[2].

وفي مقابل الذين جعلوا الأسماء التي وردت في المعنى الواحد اسما واحدا ، ذهب فريق آخر مذهبا مغايرا لهذا المذهب ، فقد جعلوا الأسماء المكرّرة بألفاظها أسماء مختلفة باعتبار إضافتها وقطعها عن الإضافة ، فقد جعلوا الربّ ، وربّ المشرقين ، وربّ المغربين ، وربّ الملائكة والروح ، وربّ الناس ، وربّنا ورب كل شيء ، أسماء متعددة ، والحقّ أنّ هذه كلها اسم واحد وهو الربّ ، ومما جعلوه متعددا وهو اسم واحد : واسع المغفرة الواسع ، بديع السموات والأرض البديع ، النّور نور السموات والأرض ، الوكيل نعم الوكيل ،القادر نعم القادر ،الناصر نعم الناصر .

المطلب التاسع

لايجوز استثناء الأسماء المضافة من دائرة أسماء الله الحسنى إذا وردت في الكتاب والسنّة

فلا يقرّ من أخرج من أسمائه ـ تبارك وتعالى ـ عالم الغيب والشهاده ، ومالك الملك، وبديع السموات والأرض ، ونور السموات والأرض ، وغافر الذنب ، وعلاّم الغيوب ، وفاطر السموات والأرض ، إذلاحجة لهؤلاء إلاّ أنّ هذه الأسماء مضافة ، وهذه ليست بحجة ، فما الإشكال في أن تكون أسماء الله مضافة ؟ وحسبنا أن نعلم أن اسما من أعظم أسماء البارى: ـ تبارك وتعالى ـ لم يرد في القرآن إلامضافا ، وهو

---

(١) فتح الباري : ١١/٢١٩

(٢) فتح الباري : ١١/٢٢٣

الربّ على الرغم من أنّ أكثر الدعاء والتوسل والاستغاثه وردت في القرآن به ، وأكثر دعاء البشر إنما هو باسم الرب .

المطلب العاشر

صحّة تعبيد أسماء العباد بأسماء الله

لا يصحُّ أن يعبَّد العباد بغير أسماء الباري تبارك وتعالى ، فإذا كان الاسم مما لا يصحُّ أن يعبَّد العباد له ، فإنه ليس من أسمائه .

فلا يجوز أن يسمى العباد بعبد الزارع ، وعبد عدو الكافرين ، وعبد المرسل ، وعبد رابع ثلاثه ، وعبد السَّخط ، وعبد القاضي ، وعبد المبغض ، وعبد المتكلم ، وعبد القائم ، وعبد البالغ ، وعبد الغيور، وعبد المنزل ، وعبد الماهد ، فدلَّ ذلك على أن هذه الأسماء وما أشبهها ليست من أسماء الباري جلَّ وعلا .

المطلب الحادي عشر

الأسماء الجامدة ليست من أسمائه

ليس من أسماء الباري ـ تبارك وتعالى ـ الأسماء الجامدة التي لا تتضمن معنى يلحقها بالأسماء الحسنى ، لأنَّ أسماء الله أعلام وأوصاف .

وعلى ذلك فلا يكون من أسمائه : الدهر ،والأبد ، والأمد ، والشيء ، والعين ؛ فالدهر والأبد والأمد أسماء للزمن ، قال تعالى فيما حكاه عن منكري البعث : ﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر﴾ [1] .

قد يقال : ورد في صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لاتقولوا ياخيبة الدَّهر ، فإنَّ اللّه هو الدهر »[2] .

---

(١) سورة الجاثية : ٢٤

(٢) مشكاة المصابيح : ٢/٥٦٧. ورقم الحديث : ٤٧٦٣

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يسبُّ أحدكم الدهر ، فإن الله هو الدَّهر »[1].

وجاء في الحديث القدسي الذي يرويه الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن ربِّه : « يؤذيني ابن آدم يسبُّ الدَّهر ، وأنا الدَّهر ، أقلِّب الليل والنَّهار » فالمراد أن العباد يسبون من يوقع بهم البلاء ، ويصيبهم بالمصائب والأحزان ، وينسبون ما يصيبهم ويقع بهم إلى الدهر ، وحقيقة الأمر أنَّ الذي يوقع بهم كلَّ ذلك هو الله الذي يصرِّف أمورهم وأمورالكون ، يخفض ويرفع ، ويعطي ويمنع ، ويعزُّ ويذل ، ويضحك ويبكي ، ويميت ويحيي ، ويقلب الليل على النهار، والنهار على الليل ، فإذا سبوا الذي يفعل ذلك فقد سبوا الله تبارك وتعالى ، وإن سموه دهرا ، لأن الفاعل هو الله ، وقد أخطأوا في نسبة هذه الأفعال إلى الدهر .

المطلب الثاني عشر

لا يدخل في أسمائه ما بدئ بذو

الوارد في الكتاب والسنة من الأسماء المبدوأة (بذو) المضافة إلى صفة من صفات الله ، أو فعل من أفعاله ، أوخلق من مخلوقاته من أعظم ما يمدح به ربُّ العزة ويدعى به ، ولكنَّها لا تدخل في أسمائه الحسنى التسعة والتسعين على الأرجح ، لأن معنى ذي القوة وذي الرحمة وذي الكبرياء : صاحب القوة والرحمة والكبرياء ، فذو في اللغة بمعنى صاحب ، وهذه الأسماء ثلاثة أقسام :

الأول : ما أضيف منها إلى صفة من صفات الباري ، وهذا نوعان :

النوع الأول : أن تكون لهذه الصفات أسماء تدلُّ عليها صرِّحت بها النصوص،وهي : ذو الرحمة ، ذو القوة ، ذو الجبروت ، ذو الملكوت ، ذو الكبرياء، ذو العظمة .

والأسماء التي تضمنت هذه الصفات هي : الرحمن ، الرحيم ، القويُّ ، الجبَّار ،

---

(١) مشكاة المصابيح : ٢/٥٦٧. ورقم الحديث : ٤٧٦٤

الملك، الكبير ، العظيم .

والنوع الثاني : صفات ليس لها أسماء تدلُّ عليها في الكتاب والسنة .

وهي : ذو الطول ، ذو الفضل ، ذو الجلال والإكرام ، فإن هذه الصفات أضيفت « ذو » إلى كل منها ، ليس لايّ منها اسم مصرَّح به في النصوص .

القسم الثاني : ما أضيف إلى فعل من أفعال الباري تبارك وتعالى ، وهو اسم واحد هو : ذو عقاب أليم .

القسم الثالث : ما أضيف إلى بعض مخلوقاته ، وهو اسم واحد وهو :ذوالعرش.

المطلب الثالث عشر
ما جاء على صيغة أفعل التفضيل

ما جاء منصوصا عليه من أسمائه على صيغة أفعل التفضيل من غير إضافة ، فإنَّه من أسمائه مثل : الأعلى ، الأكرم .

أما ما جاء على صيغة أفعل التفضيل مضافا فهو وإن كان من أعظم المادح التي يمدح بها ربُّ العزة ، ويثنى عليه بها ، ويدعى بها إلا أنها ليست من أسمائه على الأرجح ، مثل : أرحم الراحمين ، وأحكم الحاكمين ، وأسرع الحاسبين ، وأحسن الخالقين ، وخير الفاصلين ، وخيرالرازقين ، وخيرالناصرين ، وخيرالوارثين ، وخيرالمنزلين ، وخيرالراحمين ، وخيرالحافظين ، وخيرالغافرين ، وخيرالماكرين .

وهذه الأسماء على هذه الصيغة جاءت للدَّلالة على كمال الربِّ تبارك وتعالى ، فكلُّ كمال اتصف به المخلوق من غير نقص بوجه من الوجوه فللربِّ منه أكمله .

وللدلالة على هذا المعنى يصحُّ أن يصاغ من الصفات الثابتة للربِّ تبارك وتعالى أسماء على صيغة أفعل التفضيل ، وإن لم ترد في الكتاب والسنة مثل : الأعظم ، الأقوى ، الأعلم ، الأقرب ، الأكبر .

المبحث الرابع
تحديد أسماء الله في ضوء الضوابط السابقة

بينا في المبحث السابق عدة ضوابط حددت بوضوح أن بعض ما عده أهل العلم في أسمائه غير داخل في دائرة الأسماء ، وبعض ما أخرجوه غير خارج من دائرة أسمائه .

وفي هذا المبحث سننظر في الأسماء التي وردت في الكتاب والسنة مراعين في ذلك الضوابط التي أشرنا إليها في المبحث السابق ، موردين من أدلة الكتاب والسنة ما يكفي لإثبات نسبة هذه الأسماء إلى ـ الله تبارك ـ وتعالى من غير استقصاء للأدلَّة في هذا الباب ، لأنَّ الهدف إثبات هذه الأسماء دون استقصاء النصوص في ذلك .

والأسماء الواردة في النصوص **قسمان** :

الأول: ما ورد في القرآن. **والثاني** : ما ورد في السنة .

والواردة في القرآن **نوعان** : **الأول** : ما ورد فيه مفردا ، أعني غير مضاف .

والثاني : ما ورد فيه مضافا .

النوع الأول : ما ورد في القرآن مفردا .

(١-١٥) ـ ورد منها خمسة عشر اسما هي : الله ، الرحمن ، الرحيم ، الملك، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارىء ، المصور ، الحكيم في قوله تعالى : ﴿ هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ، هو الله الذي لا إله إلا هوالملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون ، هو الله الخالق البارئ

المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾[1] .

(١٦-١٩) ـ وورد الأول ، والآخر ، والظاهر ، والباطن ، في قوله تعالى : ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم﴾ [2] .

(٢٠-٢٣) ـ وورد في آية الكرسي أربعة أسماء هي الحي ، القيوم ، العلي ، العظيم ، ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم﴾ [3] .

(٢٤-٢٥) ـ وورد الأحد الصمد في قوله تعالى : ﴿ قل هو الله أحد الله الصمد﴾[4] .

(٢٦-٣٨) ـ وورد ثلاثة عشر اسما هي : العليم ، الحليم ، العفو ، الغفور ، السميع ، البصير ، الحق ، الكبير ، اللطيف ، الخبير ، الغني ، الحميد ، الرؤوف في قوله تعالى : ﴿ ليدخلنهم مدخلا يرضونه وإن الله لعليم حليم ، ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثمَّ بغي عليه لينصرنه الله إن الله لعفوغفور ، ذلك بأن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وأن الله سميع بصير ، ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير ، الم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير ، له ما في السموات وما في الأرض وإن الله لهو الغني الحميد ، ألم تر أن الله سخر لكم مافي الأرض والفلك تجري في البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس

---

(١) سورة الحشر : ٢٢ - ٢٤

(٢) سورة الحديد : ٣

(٣) سورة البقرة : ٢٥٥

(٤) سورة الإخلاص: ١،٢

لرؤوف رحيم ﴾ [1] .

(٣٩-٤١) - وورد ثلاثة أسماء هي : الواحد القهار الغفار في قوله تعالى : ﴿لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق مايشاء سبحانه هو الله الواحد القهار ، خلق السموات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر ، كل يجري لأجل مسمى ألاهو العزيز الغفار ﴾ [2].

(٤٢) - وورد اسم المتعالي في قوله تعالى : ﴿ عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال﴾ [3] .

(٤٣) - وورد اسم التواب في قوله تعالى : ﴿ إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم ﴾ [4] .

(٤٤) - وورد اسم الوهاب في قوله تعالى : ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ﴾ [5] .

(٤٥) - وجاء اسم الولي في قوله تعالى : ﴿ وهو الولي الحميد ﴾ [6] .

(٤٦) - وجاء اسم البرّ في قوله تعالى : ﴿ إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البرالرحيم ﴾ [7].

(٤٧) - وجاء اسم الودود في قوله تعالى : ﴿ وهو الغفور الودود ﴾ [8].

---

(١) سورة الحج : ٥٩ - ٦٥

(٢) سورة الزمر : ٤ - ٥

(٣) سورة الرعد : ٩

(٤) سورة البقرة : ١٦٠

(٥) سورة آل عمران : ٨

(٦) سورة الشورى : ٢٨

(٧) سورة الطور : ٢٨

(٨) سورة البروج : ١٤

(٤٨) ـ وورد اسم الخلاق في قوله تعالى : ﴿ إن ربك هو الخلاق العليم ﴾[١].

(٤٩ـ٥٠) وورد اسم الرزاق والمتين في قوله تعالى ﴿ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾[٢].

(٥١) ـ وورد اسم الفتاح في قوله تعالى : ﴿ قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم ﴾[٣].

(٥٢) ـ وورد اسم القدير في قوله تعالى : ﴿ والله قدير والله غفور رحيم ﴾[٤].

(٥٣) ـ وورد اسم الواسع في قوله تعالى : ﴿ والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم ﴾[٥].

(٥٤) ـ وجاء اسم الكريم في قوله تعالى : ﴿ يأيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ﴾[٦].

(٥٥ـ٥٦) ـ وورد اسم القريب والمجيب في قوله تعالى : ﴿ إن ربي قريب مجيب ﴾[٧].

(٥٧ـ٥٨) ـ وجاء اسم المليك والمقتدر في قوله تعالى : ﴿ إن المتقين في جنات ونهر، في مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾[٨].

(٥٩) ـ وجاء اسم الحكم في قوله تعالى : ﴿ أفغير الله ابتغي حكما وهو الذي

---

(١) سورة الحجر : ٨٦

(٢) سورة الذاريات : ٥٨

(٣) سورة سبأ : ٢٦

(٤) سورة الممتحنة : ٧

(٥) سورة البقرة : ٢٦٨

(٦) سورة الانفطار : ٦

(٧) سورة هود : ٦١

(٨) سورة القمر : ٥٤ـ٥٥

أنزل إليكم الكتاب مفصلا ﴾ [1] .

وجاء في السنن لأبي داود والنسائي وابن حبان ومستدرك الحاكم عن هانئ بن يزيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله هو الحكم ، وإليه الحكم» [2].

(٦٠) ـ وجاء اسم المجيد في قوله تعالى : ﴿ إنه حميد مجيد ﴾ [3] .

(٦١) ـ وجاء اسم الشاكرفي قوله تعالى : ﴿ ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم ﴾ [4] .

(٦٢) ـ وورد اسم الشكور في قوله تعالى : ﴿ ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا إن الله غفور شكور ﴾ [5] .

(٦٣) ـ وورد اسم الإله في قوله تعالى : ﴿ وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله ﴾ [6] .

(٦٤) ـ وورد اسم القوي في قوله تعالى : ﴿ إن الله قوي شديد العقاب ﴾ [7].

(٦٥) ـ وورد اسم الأعلى في قوله تعالى : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ [8] .

(٦٦) ـ وورد اسم القادر في قوله تعالى : ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم ﴾ [9] . وقوله : ﴿ إنه على رجعه لقادر ﴾ [10] .

---

(١) سورة الأنعام : ١١٤

(٢) صحيح الجامع : ٢/ ١٣٥ورقم الحديث : ١٨٤١

(٣) سورة هود : ٧٣

(٤) سورة البقرة : ١٥٨

(٥) سورة الشورى : ٢٣

(٦) سورة الزخرف : ٨٤

(٧) سورة الأنفال : ٥٢

(٨) سورة الأعلى : ١

(٩) سورة الأنعام : ٦٥

(٦٧) ـ وورد اسم الأكرم في قوله تعالى : ﴿ اقرأ وربك الأكرم ﴾ [١].

(٦٨) ـ وورد اسم الكفيل في قوله تعالى : ﴿ وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ﴾ [٢].

(٦٩) ـ وورد اسم النصير في قوله تعالى : ﴿ وكفى بالله نصيرا ﴾ [٣].

(٧٠) ـ وورد اسم الحفي في قوله تعالى : ﴿ إنه كان بي حفيا ﴾ [٤].

(٧١) ـ وورد اسم الحفيظ في قوله تعالى : ﴿ إن ربي على كل شيء حفيظ ﴾ [٥]. وقوله : ﴿ وربك على كل شيء حفيظ ﴾ [٦].

(٧٢) ـ وورد اسم المقيت في موضع واحد من كتاب الله تعالى : ﴿ وكان الله على كل شيء مقيتا ﴾ [٧].

(٧٣) ـ وجاء اسم الرقيب في قوله تعالى : ﴿ إن الله كان على كل شيء رقيبا ﴾ [٨]. وقوله : ﴿ وكان الله على كل شيء رقيبا ﴾ [٩].

(٧٤) ـ وجاء اسم الهادي في قوله تعالى : ﴿ وكفى بربك هاديا ونصيرا ﴾ [١٠].

(٧٥) ـ وورد اسم الحسيب في قوله تعالى : ﴿ وكفى بالله حسيبا ﴾ [١١].

---

(١٠) سورة الطارق : ٨

(١) سورة العلق : ٣

(٢) سورة النحل : ٩١

(٣) سورة النساء : ٤٥

(٤) سورة مريم : ٤٧

(٥) سورة هود : ٥٧

(٦) سورة سبأ : ٢١

(٧) سورة النساء : ٨٥

(٨) سورة النساء : ١

(٩) سورة الأحزاب : ٥٢

(١٠) سورة الفرقان : ٣١

(١١) سورة النساء : ٦

(٧٦) ـ وورد اسم الصادق في قوله تعالى : ﴿ ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون ﴾[١] . وقوله : ﴿ وأتيناك بالحق وإنا لصادقون ﴾[٢] .

(٧٧) ـ وورد اسم الوارث في قوله تعالى : ﴿ وإنا لنحن نحي ونميت ونحن الوارثون ﴾[٣] وقوله : ﴿ وكنا نحن الوارثين ﴾[٤] .

ولا يمنع ورود الاسم بصيغة الجمع « الصادقون ، الوارثون » أن يكون اسما لله تبارك وتعالى . فقوله في هذه النصوص « نحن » المراد بها الباري دون غيره ، وهذا جاء على طريقة العرب في كلامها ، فالمعظم نفسه يقول : نحن ، وإن كان فردا .

والخبر يجب أن يطابق المبتدأ ، ولذا جاء بصيغة الجمع .

(٧٨) ـ وورد اسم المستعان في قوله : ﴿ وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون ﴾[٥] .وقوله : ﴿ والله المستعان على ما تصفون ﴾[٦] .

النوع الثاني : الأسماء المضافه في كتاب الله

الأسماء التي سبق ذكرها هي الواردة في كتاب الله بصيغة الاسم غير مضافة .

وورد في القرآن عدة من أسمائه مضافة ، وهي داخلة في أسمائه الحسنى ، كيف لا ومنها اسم الرب الذي لم يرد في القرآن إلا مضافا .

(٧٩ـ٨٠) ـ ورد منها في سورة الفاتحة اسمان هما الرب ، والمالك ، في قوله تعالى : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾[٧] ، وقوله : ﴿ مالك يوم الدين ﴾[٨] . وقال

---

(١) سورة الأنعام : ١٤٦

(٢) سورة الحجر : ٦٤

(٣) سورة الحجر : ٢٣

(٤) سورة القصص : ٥٨

(٥) سورة الأنبياء : ١١٢

(٦) سورة يوسف : ١٨

(٧) سورة الفاتحة : ٢

(٨) سورة الفاتحة : ٤

تعالى : ﴿ قل اللهم مالك الملك ﴾ [1] .

(٨١) وورد اسم النور في قوله تبارك وتعالى : ﴿ الله نور السموات والأرض﴾ [2].

(٨٢) ـ وورد اسم غافر في قوله تعالى : ﴿ غافر الذنب وقابل التوب ﴾ [3] .

(٨٣) ـ وورد اسم المحيي في قوله تعالى : ﴿ إن الذي أحياها لمحي الموتى ﴾ [4]. وقوله : ﴿ إن ذلك لمحي الموتى وهو على كل شيء قدير ﴾ [5] .

(٨٤) ـ ومنها العالم ، ورد في قوله تبارك وتعالى : ﴿ إن الله عالم غيب السموات والأرض إنه عليم بذات الصدور ﴾ [6] . وقوله : ﴿ ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة ﴾ [7] .

(٨٥) ـ ومنها علاَّم ، ورد في قوله تعالى : ﴿ قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب﴾ [8] . وقوله : ﴿ قل إن ربي يقذف بالحق علام الغيوب ﴾ [9] .

(٨٦) ـ ومنها بديع ، فإنه جاء في القرآن مضافا إلى السموات والأرض في موضعين : **الأول** : في البقرة ﴿ بديع السموات والأرض وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ﴾ [10] . وفي سورة الأنعام في قوله : ﴿ بديع السموات والأرض أني

---

(١) سورة آل عمران : ٢٦

(٢) سورة النور : ٣٥

(٣) سورة غافر : ٣

(٤) سورة فصلت : ٣٩

(٥) سورة الروم : ٥٠

(٦) سورة فاطر : ٣٨

(٧) سورة التوبة : ٩٤

(٨) سورة المائدة : ١٠٩

(٩) سورة سبأ : ٤٨

(١٠) سورة البقرة : ١١٧

يكون له ولد ﴾ [1] .

(٨٧) ـ ومن أسمائه ـ تبارك وتعالى ـ المضافة اسم فاطر ، قال تعالى : ﴿ الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا ﴾ [2] .

(٨٨) ـ ومنها اسم الجامع ، قال تعالى : ﴿ إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا ﴾ [3] .وقال تعالى ﴿ ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه﴾ [4]

القسم الثاني : ما ورد في السنة

(٨٩-٩٠) ـ دلت الأحاديث على أنَّ الله ـ تبارك وتعالى ـ الحنَّان المنَّان ، ففي مسند أحمد عن أنس قال : كنت جالسا مع رسول الله في الحلقة ، ورجل قائم يصلي ، فلمَّا ركع وسجد جلس ، وتشهد ، ثم دعا فقال : اللهم إني أسألك بأنَّ لك الحمد ، لاإله إلا أنت الحنان ، بديع السموات والأرض ، ذا الجلال والإكرام ، ياحي ياقيوم ، إني أسألك .. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أتدرون بما دعا ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : « والذي نفسي بيده لقد دعا باسمه العظيم ، الذي إذا دعي به أجاب ، وإذا سئل به أعطى »[5] .

وفي رواية الترمذي وأبي داود والنسائي أنه قال في دعائه : المنَّان[6] .

وروى أحمد أيضا في مسنده عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:« إن عبدا في جهنم لينادي ألف سنة ، ياحنَّان ، يامنَّان .

---

(١) سورة الأنعام : ١٠١

(٢) سورة فاطر : ١

(٣) سورة النساء : ١٤٠

(٤) سورة آل عمران : ٩

(٥) مسند الإمام احمد : ٣/١٥٨

(٦) جامع الاصول : ٤/١٧١

قال : فيقول الله ـ عزّ وجل ـ لجبريل عليه السلام : اذهب فائتني بعبدي هذا .

فينطلق جبريل ، فيجد أهل النار مكبين يبكون ، فيرجع إلى ربه فيخبره .

فيقول : ائتني به ، فإنّه في مكان كذا وكذا ، فيجيء به ، فيوقفه على ربّه عزّ وجلّ .

فيقول : يا عبدي ، كيف وجدت مكانك ومقيلك ؟

فيقول : أي ربِّ ، شرّ مكان ، وشر مقيل .

فيقول : ردوا عبدي .

فيقول : ياربِّ ماكنت أرجو إذ أخرجتني منها أن تردّني فيها .

فيقول : دعوا عبدي »[1] .

(٩١) ـ وورد في الحديث أن من أسمائه السُّبوح ، ففي صحيح مسلم عن عائشة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول في ركوعه وسجوده : « سبُّوح قدُّوس رب الملائكة والروح »[2] .

قال النووي : « قال ابن فارس والزبيدي وغيرهما : سبُّوح هو الله عزّ وجلّ ، فالمراد بالسبُّوح القدوس المسبَّح المقدَّس .

ومعنى سبُّوح المبرأ من النقائص والشريك ، وكل مالا يليق بالإلهية »[3] .

(٩٢) ـ ومن أسمائه الشافي ، ففي صحيح البخاري ومسلم عن عائشة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو للمريض بقوله : « اللهمّ ربّ الناس ، أذهب الباس ، اشف ، أنت الشافي ، لاشفاء إلاشفاؤك ، شفاءً لايغادر سقما »[4] .

---

(١) مسند أحمد : ٣/ ٢٣٠

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي : ٤/ ٢٠٤

(٣) شرح النووي على مسلم : ٤/ ٢٠٤

(٤) صحيح الجامع الصغير : ٣/ ١٣١

(٩٣ ـ ٩٤) ـ ومن أسمائه الحيي الستير ، ففي مسند أحمد وسنن أبي داود والنَّسائي عن يعلى بن أمية أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « إنَّ الله ـ تعالى ـ حيي ستير ، يحب الحياء والستر ، فإذا اغتسل أحدكم فليستتر »[١] .

وفي سنن الترمذي عن سلمان الفارسي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «إن الله حيي كريم ، يستحي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردَّهما صفرا خائبتين »[٢].

(٩٥ ـ ٩٨) ـ ومن أسمائه التي وردت في الأحاديث : الجواد ، النظيف ، الطيب ، الماجد ، ففي سنن الترمذي عن صالح بن أبي حسان قال : سمعت سعيد بن المسيب يقول : « إنَّ الله طيب يحبُّ الطيب ، نظيف يحب النظافة ، كريم يحب الكرم ، جواد يحب الجود ، فنظفوا أفنيتكم ، ولا تشبهوا باليهود » .

قال : فذكر ذلك لمهاجربن مسمار ، فقال : حدثنيه عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم مثله ، إلا أنه قال :« نظِّفوا أفنيتكم» .

قال الترمذي ، هذا حديث غريب ، وخالد بن إلياس يُضعف[٣] .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إنَّ الله طيِّب لا يقبل إلا طيِّبا »[٤] .

وجاء في الحديث القدسّي الذي يرويه الترمذيُّ عن أبي ذر : « ذلك بأنِّي جواد ماجد أفعل ما أريد » . قال الترمذي : هذا حديث حسن[٥] .

(٩٩) ـ ومما ورد في الأحاديث من أسمائه المحسن ، ففي الكامل لابن عدي عن

---

(١) صحيح الجامع الصغير : ٢/١٠٨ ورقم الحديث : ١٧٥٢

(٢) صحيح سنن الترمذي : ٣/١٧٩ ، والسنن لابن ماجة : ٢/ ١٢٧١ ، وانظر صحيح سنن ابن ماجة : حديث رقم: ٣٨٦٥

(٣) سنن الترمذي : ٥/١١٢ ، وحكم عليه الشيخ ناصر الدين الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح : ٢/٥٠٢ حديث رقم : ٤٤٨٧ بالحسن.

(٤) مشكاة المصابيح : ٢/٧٣ حديث رقم : ٢٧٦١ .

(٥) سنن الترمذي : ٤/٦٥٧ ورقم الحديث : ٢٤٩٥

سمرة بإسناد صحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله تعالى محسن فأحسنوا »[1] .

وفي معجم الطبراني الكبير عن شداد بن أوس بإسناد صحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إنَّ الله محسن يحب الإحسان ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتل ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح ، وليحدَّ أحدكم شفرته ، ثم ليرح ذبيحته »[2] .

(١٠٠) ـ ومن اسمائه الوتر، فقد ورد في الحديث : « لله تسعة وتسعون اسما ، من حفظها دخل الجنة، وإن الله وتر يحب الوتر »[3] .

وفي سنن الترمذي عن عليّ أنَّ الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله وتر يحب الوتر ، فأوتروا ياأهل القرآن » . وفي مسند أبي يعلى عن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إنَّ الله وتر يحبُّ الوتر ، فإذا استجمرت فأوتر .

(١٠١) ـ و من أسمائه الجميل لقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « لايدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» .

قال رجل : إنَّ الرجل يحبُّ أن يكون ثوبه حسنا ، ونعله حسنا .

قال : إنَّ الله جميل يحبُّ الجمال ، الكبر بطر الحق وغمط الناس»[4].

(١٠٢ ـ ١٠٣)ـ ومن اسمائه المقدم والمؤخر احتجاجا بما رواه البخاريُّ ومسلم في صحيحهما عن أبي موسى الأشعري أنَّ الرسول صلى الله عليه وسلم كان يدعو بهذا الدعاء : « ربِّ اغفر لي خطاياي وعمدي وجهلي وحدّي ، وكل ذلك عندي ، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت المقدم ، وأنت المؤخر ، وأنت على كل شيء قدير »[5] .

---

(١) صحيح الجامع الصغير : ٢/ ١٢٩ ورقم الحديث : ١٨١٩

(٢) صحيح الجامع الصغير : ٢/ ١٢٩ ورقم الحديث : ١٨٢٠

(٣) صحيح مسلم : ٤/ ٢٠٦٢ حديث رقم : ٢٦٧٧

(٤) صحيح مسلم ، انظر مسلم بشرح النووي : ٢/ ٨٩

(٥) صحيح البخاري : فتح الباري : ١١/ ١٩٦ كتاب الدعوات ، ومسلم رقم : ٢٧١٩ في كتاب الذكر والدعاء :

(١٠٤-١٠٩) ـ ومن أسمائه الرفيق والمسعر والسيد والقابض والباسط ففي سنن ابن ماجه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف»[١] .

وعن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إنَّ الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله »[٢]

وروى مسلم عن عائشة أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : «إن الله تعالى رفيق يحب الرفق ، ويعطي على الرفق مالايعطي على العنف ، ومالايعطي على ما سواه »[٣]

ووردفي سنن ابن ماجة عن أنس بن مالك ، قال : غلا السعر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يارسول الله ، قد غلا السعر ، فسعِّر لنا.

فقال : « إن الله هو المسعِّر القابض الباسط الرازق ، إني لأرجو أن ألقى ربي ، وليس أحد يطلبني بمظلمة في دم ولا مال »[٤] .

(١٠٩) ـ ومن أسمائه السيد ، ففي مسند الإمام أحمد عن عبد الله بن الشخير قال : « جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : أنت سيد قريش .

فقال : النبي صلى الله عليه وسلم :السيد الله .

فقال : أنت أفضلها فيها قولا ، وأعظمها فيها طولا .

٤/ ٢٠٨٧ ، واللفظ للبخاري

(١) صحيح سنن ابن ماجة : ٢/ ٢٩٩ ورقم الحديث : ٢٩٧٤ ، وانظر مخرجيه في كتب السنة في صحيح الجامع : ١١٣/٢

(٢) صحيح سنن ابن ماجة : ٢/ ٢٩٩ ورقم الحديث : ٢٩٧٥

(٣) مشكاة المصابيح : ٢/ ٦٢٨ ورقم الحديث : ٥٠٦٨

(٤) صحيح سنن الترمذي : ٢/ ٣٢ ورقم الحديث: ١٠٥٩

صحيح سنن ابن ماجة : ٢/ ١٤ ورقم الحديث: ١٧٨٧ ، وعزاه في صحيح الجامع : رقم ١٨٤٢ إلى احمد في مسنده ، وأبي داود ، والترمذي ، وابن ماجة ، وابن حبان ، والبهيقي في السنن ، وحكم عليه بالصحة في تعليقه على المشكاة : ١٠٦/٢

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليقل أحدكم بقوله ، لا يستجره الشيطان»[1]

(١١٠) ـ ومما ثبت في الأحاديث الديان ففي صحيح البخاري : « أن الله ينادي يوم القيامة أنا الملك ، أنا الديان » .[2]

المسألة تحتاج الي مزيد من الاستقصاء والتحقيق

هذا الذي سقنا أدلته من الكتاب والسنة من أسماء الله ـ تبارك وتعالى ـ قسم كبير متفق عليه بين أهل العلم ، وبعضه موضع خلاف ، لاحتمال أن يكون ورد في النصوص على سبيل الإخبار لا على انه اسم ، مثل المسعر ، النظيف ، السيد وقد يوجد في السنة عند التتبع والاستقصاء أكثر مما أوردناه ، فالمسألة تحتاج إلى مزيد من التحقيق ، ولعلنا نقوم بذلك في طبعة قادمة بحول الله وقوته.

---

(١) مسند الامام احمد : ٤/٢٤

(٢) صحيح البحاري، كتاب التوحيد .وانظر مسند احمد :٣/٤٩٥

المبحث الخامس
أقسام أسماء الله وصفاته ودلالتها

المطلب الأول
أقسام الأسماء والصفات

تقسم أسماء الله ـ تبارك وتعالى ـ بحسب معانيها التي تبدو منها ، والصفات التي تضمنتها إلى أربعة أقسام :

الأول : الاسم العلم ، وهو الله ، وحريٌّ بأهل العلم أن يجعلوه قسما قائما بنفسه من بين أسمائه تبارك وتعالى ، لأنَّه متضمن لجميع معاني الأسماء الحسنى ، ولهذا تأتي الأسماء جميعها صفات له كقوله تعالى : ﴿ هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هوالرحمن الرحيم ، هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبرسبحان الله عما يشركون ، هو الله الخالق البارىءالمصور..﴾[1] .

الثاني : الأسماء الدالَّة على الصفات الثابتة لذات الحقِّ تبارك وتعالى ، كالسميع والبصير ، والعليم والقدير والحكيم ، والرَّحمن والرحيم والودود وبعض أهل العلم يسمى هذه الصفات وأمثالها بالصفات المعنويَّة .

ويدخل في صفات الذات ما أخبرنا الله ورسوله صلى الله عليه وسلم أنَّ الله يتصف به ، كإثبات اليدين والوجه والعينين والساق والأصابع والقدم لله تبارك وتعالى، وهي التي تسمَّى بالصفات الخبريَّة .

---

(١) سورة الحشر : ٢٢ - ٢٤

الثالث : الأسماء الدالّة على صفات الأفعال مثل الخالق الرازق المحيي المميت ، ويدخل في صفات الأفعال كلُّ ما أثبته الكتاب والسنة من أفعال الله مثل استواء الله على عرشه ، ونزوله تبارك وتعالى في ثلث الليل الآخر ، ومجيئه لمحاسبة عباده يوم القيامه ، وقبضه للسَّموات بيمينه ، وقبض الأرض بيده الأخرى في يوم القيامه ، وتكليمه عباده في الدُّنيا والآخرة .

والفرق بين صفات الذات وصفات الأفعال أنَّ صفات الذات لازمة لله تبارك وتعالى أزلا وأبدا ، فهو لم يزل ولا يزال متصفا بها .

والفعلية هي التي تتعلق بمشيئة الله إن شاء فعلها ، وإن شاء لم يفعلها ، كالاستواء والنزول والكلام .

الرابع : الأسماء الدالَّة على صفات التنزيه والتقديس السالبه عن الحقِّ صفات النقص، مثل : القُّدوس ، السَّلام ، العليُّ ، ونحوها[1] .

وقد أضاف العلاَّمه ابن القيم إلى هذه الأقسام الأربعة قسمين آخرين :

الأول : الأوصاف الجامعة التي يدل كلُّ واحد منها على أوصاف عديدة ، لا تختص بصفة معينة ، بل هو دال على معناه لا على معنى مُفرد ، نحو المجيد العظيم الصَّمد ، فإن المجيد من اتصف بصفات متعدِّدة من صفات الكمال ، ولفظه يدلُّ على هذا ، فإنَّه موضوع للسَّعة والكثرة والزيادة .

والعظيم : من اتَّصف بصفات كثيرة من صفات الكمال ، وكذلك الصمد ، فهو السَّيد الذي كمل في سؤدده كما قال ابن عباس ، وقال غيره : هو السَّيد الذي انتهى سؤدده ، وقال ابن الأنباريِّ : لا خلاف بين أهل اللغة أنَّ الصَّمد السَّيد الذي ليس فوقه أحد ، الذي يصمد إليه النَّاس في حوائجهم وأمورهم .

والثاني : صفة تحصل من اقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر ، وذلك قدر زائد على مفرديهما ، نحوالغنيُّ الحميد ، العفوُّ القدير ، الحميد المجيد . وهكذا عامة

---

(١) راجع سبل السلام : ٤/١٤٨ ،وبدائع الفوائد : ١/ ١٦٠

الصفات المقترنة والأسماء المزدوجة في القرآن ، فإنّ الغنى صفة كمال ، والحمد كذلك ، واجتماع الغنى مع الحمد كمال آخر ، فله ثناء من غناه ، وثناء من حمده ، وثناء من اجتماعهما ، وكذلك العفو القدير ، والحميد المجيد ، والعزيز الحكيم[1] .

وقد نحا الحليمي فيما نقله عنه ابن حجر العسقلاني منحى آخر في تقسيمه لأسماء الله تبارك وتعالى ، فقد قسَّمها إلى خمسة أقسام كل قسم منها ينحو إلى جانب من جوانب الاعتقاد :

القسم الأول : الذي ينحو إلى تقرير إثبات الباري ردًّا على الجاحدين المعطِّلين ، ويندرج تحت هذا القسم اسم الحي الباقي الوارث وما في معناها .

الثاني : الأسماء التي تقرِّر توحيده ردا على من أشرك به في عبادته غيره ، مثل الكافي والعليِّ والقديرونحوها .

الثالث : الأسماء التي تقرِّر تنزيهه ـ تبارك وتعالى ـ ردًّا على المشبهة ، مثل القدُّوس والمجيد والمحيط ونحوها .

الرابع : الأسماء التي تدلُّ على أنَّ كلَّ موجود فإنَّه من خلقه واختراعه ، ردًّا على القائلين بالعلَّة ، والمعلول كالخالق والبارىء والمصوِّر والقويِّ ونحوها .

الخامس : الأسماء التي تقرِّر أنَّه مدبِّر لما اخترع ومصرِّفه على ماشاء ، وهو القيُّوم والعليم والحكيم ونحوها[2] .

وقسَّم علماء الكلام الصفات الواجبة في حقِّ الله ـ تبارك وتعالى ـ إلى أربعة أقسام:

القسم الأول : الصفات النفسيَّة ، وهي صفة واحدة هي الوجود .

القسم الثاني : صفات المعاني ، وهم لا يثبتون منها إلا سبع صفات ، وينكرون ما عداها ، وهي : القدرة والإرادة والعلم والحياة والسمع والبصر والكلام .

---

(١) راجع بدائع الفوائد : ١/ ١٦٠

(٢) فتح الباري : ١١/ ٢٢٣

وضابط صفات المعاني عندهم أنّها الصفات التي تدل على معنى وجوديّ قائم بذات الله تعالى .

القسم الثالث : الصفات المعنويَّة ، وهي سبع صفات ، وهي ملازمة للسبع المذكورة في القسم السابق ، وهي كونه مريدا قادرا عالما حيًّا سميعا بصيرا متكلما ، وهي عندهم في كيفية اتصافه بهذه الصفات .

والذين ذكروها من علماء الكلام ذكروها بناء على ثبوت ما يسمُّونه بالحال المعنويَّة التي يزعمون أنَّها واسطة ثبوتيّة ، لا معدومة ولا موجودة ، والصحيح أنَّ هذا الذي ذكروه خرافة وخيال ، فالعقل الصحيح لا يجعل بين الشيء ونقيضه واسطة ألبتَّة ، فكلُّ ما ليس بموجود فهو معدوم قطعا ، وكلُّ ما ليس بمعدوم فهو موجود قطعا ، ولا واسطة ألبتَّة .

القسم الرابع : الصفات السلبيّة ، وهي عندهم خمس : القدم ، والبقاء ، والمخالفة للخلق ، والوحدانية ، والغنى المطلق ، الذي يسمونه القيام بالنفس الذي يعنون به الاستغناء عن الحيِّز والمحلِّ[1] .

هذه هي الصفات الواجبه في حقِّه ـ تبارك وتعالى ـ عند علماء الكلام . ويستحيل في حقِّه ـ تبارك وتعالى ـ عشرون صفة ، وهي أضداد الصفات الواجبة في حقه ، والجائز في حقه عندهم كلُّ ممكن وتركه .

المطلب الثاني
دلالة أسماء الله تعالى على ذاته وصفاته

أسماء الله الحسنى تدلُّ على ذات الله بالمطابقة ، وعلى الصفات المشتقة منها بالتضمن ، وعلى غيرها من الصفات بالالتزام .

فاسمه الرحمن الرحيم يدلُّ على ذات المسمَّى وهو الله ـ عزَّ وجلَّ ـ مطابقة ،

(١) انظر ام البارهين في العقائد : ص ٣ من كتاب مجموع مهمات المتون .

وعلى الصفات المشتقة منها وهي الرحمة تضمنا ، وعلى غيرها من الصفات التي لم تشتق منها كالحياة والقدرة والعلم التزاما ، وهكذا باقي أسمائه .

وهذا بخلاف أسماء المخلوقين ، فقد يسمَّى المرء قديرا وهو عاجز، وأمينا وهو خائن ، وعزيزا وهو ذليل ، وسعيدا وهو شقي .

المطلب الثالث
أسماء الله الحسنى أعلام مترادفة وأوصاف متباينة

أسماء الله الحسنى أعلام وأوصاف ، فهي أعلام يدلُّ كلُّ واحد منها على الواحد الأحد ، ينادى به ويناجى ويستغاث ، وهي من هذه الحيثيّة مترادفة ، لأنَّها أعلام لذات الله تبارك وتعالى ، وكُل اسم من أسمائه فإنَّه دال على ذاته .

وهي أوصاف يدلُّ كلُّ واحد منها على صفة من صفات الربِّ ـ تبارك وتعالى ـ اللائقة بكماله وجلاله ، وهي من هذه الحيثية متباينة ، فالرحمن الرحيم من حيث دلالتهما على الرحمة مباينان لاسم القدير الدالِّ على القدرة ، واسم السَّميع الدالِّ على السَّمع ، واسم البصير الدال على البصر، وقد يشترك أكثر من اسم من أسماء الله ـ تبارك وتعالى ـ في الدِّلالة على صفة واحدة ، مثل الرحمن الرحيم ، فإنهما دالان على الرحمة ، ومثل القادر والقدير والمقتدر فإنها دالّة على قدرة الله .

والوصف بأسماء الله ـ تبارك وتعالى ـ لاينافي علميَّتها بخلاف أوصاف العباد ، فإنَّ الوصف بها ينافي علميَّتها لأمرين :

الأول : أنَّ أوصافهم مشتركة ، واشتراكها يمنع من العلميَّة المختصة ، بخلاف صفاته تبارك وتعالى .

والثاني : أنَّ العبد قد يسمَّى بالأمين والقوي والمؤمن ، ولا يكون متصفا بمادلَّ عليه الاسم من صفة .

العطف بين أسماء الله

أكثر ما ترد أسماء الله في كتاب الله من غير عطف فيما بينها كقوله تعالى : ﴿هو الله الذي لاإله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر﴾[1] . وقوله : ﴿ الله لا إله إلا هو الحيُّ القيوم ﴾[2] . وقد جاء العطف في قوله تعالى : ﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن ﴾[3] . وفي بعض الصفات الواردة بالاسم الموصول كقوله : ﴿ الذي خلق فسوى ، والذي قدر فهدى ﴾[4] .

أما ترك العطف فلأنَّه الأصل ، لأنَّ الشيء لا يعطف على نفسه ، وأسماء ـ الله تبارك ـ وتعالى أعلام على ذاته المقدَّسه .

وأما العطف فلاعتبارات منها : أن ينظر إلى الأوصاف التي تضمنتها الصفات ، والأسماء بهذا الاعتبار متباينة .

ومنها : عدم التناسب بين الصفات التي تضمنتها الأسماء المعطوفة ، كالأول ، والآخر، والظاهر ، والباطن .

وإن أردت التَّوسع في دراسة هذا الموضوع فارجع إلى « بدائع الفوائد » لابن القيم[5] .

---

(١) سورة الحشر : ٢٣

(٢) سورة البقرة : ٢٥٥

(٣) سورة الحديد : ٣

(٤) سورة الأعلى : ٢ـ٣

(٥) بدائع الفوائد : ١/ ١٨٩

المطلب الرابع
أسماؤه تبارك وتعالى متفاضلة

أسماء الله كلُّها حسنى ، وصفاته كامله عليا ، وأسماؤه ـ تبارك وتعالى ـ متضمِّنة لصفاته ، وبعض أسماء الله أفضل من بعض ، وبعض صفاته أفضل من بعض.

وقد صحَّ في الحديث أنَّ للّه اسما أعظم إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى ، وصحَّ أيضا أنَّ الله كتب في كتاب موضوع عنده فوق العرش أنَّ رَحمته تغلب غضبه ، وفي رواية تسبق غضبه .

وقد لاحظ ابن تيميه أنَّ الصِّفة الواحدة قد تتفاضل ، فرضى الله عن النَّبيين أعظم من رضاه عن غيرهم ، ورحمته لهم أكمل من رحمته لغيرهم ، وتكليم الله لبعض عباده أكمل من تكليمه لبعض ، وكذلك سائر هذا الباب[1]

اسم الله الأعظم

ومما يدلُّ على تفاضل أسمائه تبارك وتعالى أنَّ له ـ تبارك وتعالى ـ من أسمائه الكثيرة الطيبة اسما هو أعظمها وأجلُّها ، وقد صحَّت بذلك نصوص كثيرة منها :

١- روى الترمذيُّ وأبوداود وابن حبَّان والحاكم بإسناد صحيح عن بريدة الأسلمي أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يدعو وهو يقول : « اللهمَّ إنِّي أسألك بأنِّي أشهد أنَّك أنت الله ، لا إله إلا أنت الأحد الصَّمد الذي لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد .

فقال : والذي نفسي بيده لقد سأل اللّه باسمه الأعظم ، الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى » .

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ١٧/٢١٢

وروى الترمذيّ والنسائيّ وأبوداود وابن حبّان والحاكم بإسناد صحيح من حديث أنس أنّه كان مع النبيّ صلى الله عليه وسلم جالسا ، ورجل يصلي ، ثم دعا : « اللهمّ إنّي أسألك بأنّ لك الحمد ، لاإله إلا أنت ، المنّان ، بديع السموات والأرض ، ياذا الجلال والإكرام ، ياحيّ ياقيوم .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لقد دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب ، وإذا سئل به أعطى » .

٣- وفي سنن ابن ماجة ومستدرك الحاكم ومعجم الطبرانيّ الكبير بإسناد صحيح عن أبي أمامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اسم الله الأعظم الذي إذا دعى به أجاب في ثلاث سور من القرآن : في البقرة ، وآل عمران ، وطه » .

٤- وقد ورد تحديد آيتي البقرة وآل عمران اللتين ورد فيهما اسم الله الأعظم ، فقد روى الترمذيّ وأبو داود وابن ماجة والدارمي بإسناد صحيح عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها ، أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : « اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين : ﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ﴾ [1] . وفاتحة آل عمران : ﴿ الم ، الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾ [2][3] .

وقد أنكر بعض أهل العلم تفضيل بعض الأسماء على بعض ، منهم أبوجعفر الطبري وأبوالحسن الأشعري وأبوحاتم ابن حبّان والقاضي أبوبكر الباقلاني ، ونسبه بعض أهل العلم إلى الإمام مالك رحمه الله تعالى .

وحجّة هؤلاء أنّ هذا التفضيل قد يجعل السامع يظن أنّ المفضول ناقص عن الأفضل[4] ، ولا يجوز أن يلتفت إلى مثل هذا القول بعد أن صحّت الأحايث عن

---

(١) سورة البقرة : ١٦٣

(٢) سورة آل عمران : ١-٢

(٣) انظر هذه الأحاديث في مشكاة المصابيح : ١/ ٧٠٤ ، وصحيح الجامع : ١/ ٣٢٩ ،والوابل الطيب : ص ١٦١ ، وانظر جامع الأصول : ٤/ ١٦٩ .

(٤) فتح الباري : ١١/ ٢٢٤

الرسول صلى الله عليه وسلم بإثبات الاسم الأعظم لله تبارك وتعالى ، وهذا المحذور الذي نفوا لأجله التفاضل في أسماء الله ـ تبارك وتعالى ـ يزول بالبيان من أهل العلم لمن عرضت له مثل هذه الشبهة ، لابنفي الحقيقة التي جاءت بها النصوص ، وفي ظنّي أنَّ عوام المسلمين لا يعرض لهم مثل هذا العارض ، فضلا عن علماء المسلمين ، لأنَّ المسلم البصير بدينه إذا سمع أسماء الله وصفاته فإنه لايخطر بباله إلا الكمال والتعظيم ، ولا يخطر في نفسه النقص والقصور بحال .

ويرى الذين رفضوا القول بالتفاضل في أسمائه أنَّ الأعظمية الواردة في الأحاديث هي لجميع أسمائه تبارك وتعالى ، أي أنَّ كلَّ اسم من اسمائه يستحقُّ هذا الوصف ، وهذا بعيد ، لأنَّ النصوص تدلُّ على أنَّ أسماءه كلَّها عظمى ، وأن واحدا اختص من بينها بالأعظمية .

وقال بعضهم : إنَّ المراد بالأعظمية هو الثواب العظيم الذي يناله الداعي بالاسم الذي يدعو به .

وقال آخرون : المراد بالأعظمية هو الاستغراق في الدُّعاء بحيث لا يكون الداعي في فكره حالة الدعاء غير الباري تبارك وتعالى ، فالدَّاعي على هذه الحال يستجاب له ، ويعطى سؤله[1] .

والذين ذهبوا إلى أن لله اسما بعينه هو أعظم أسمائه ، وهم جمهور أهل العلم اختلفوا ، فقال بعضهم : استأثر الله بعلم هذا الاسم ، ولم يطلع عليه أحدا من خلقه.

وينفي هذا القول أنَّ الرسول صلى الله عليه وسلم أخبر في أكثر من حديث أنَّه محصور في عدة أسماءٍ دعا بها واحد من أصحابه ، أو تضمنها بعض نصوص الكتاب .

والذين قالوا هو معلوم معروف اختلفوا ، فقال بعضهم : هو الله ، أو الرحمن ،و من جعل الاسم الأعظم مكونا من عدة أسماء قال بعضهم هو : الله الرحمن الرحيم،

---

(١) فتح الباري : ١١/ ٢٢٤

وقال آخرون : هو الحيّ القيوم ، وقال فريق ثالث : هو الحنّان المنّان بديع السموات والأرض ذو الجلال والإكرام الحيّ القيوم .

وقيل هو : ذو الجلال والإكرام . وقيل : الله لا إله إلا هو الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد . وقيل أقوال أخرى[1] .

والذي رجّحه شيخ الإسلام أنّ اسم الله الأعظم هو : الحيّ ، فالحيّ مستلزم لجميع الصفات وهو أصلها ، ولهذا كان أعظم آية في كتاب الله ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾ [2] ، وما من حيّ إلا وهو شاعر مريد ، فاستلزم جميع الصفات ، فلو اكتفى بالتلازم لاكتفى بالحيّ[3] .

والذي نرجّحه أنّ اسم الله الأعظم هو « الله » لأمور :

الأوّل : دلالة الأحاديث الواردة في تعيين هذا الاسم ، فعندما نظرنا في الأسماء التي وردت في الأحاديث التي أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم أن اسم الله الأعظم موجود فيها ، وجدنا هذا الاسم هو الاسم الوحيد الموجود فيها جميعا .

الثاني : أنّ هذا الاسم تكرر في كتاب الله عددا يفوق كثيرا أيّ اسم آخر ، فقد تكرّر في كتاب الله (٢٦٠٢) مرّة ، منها (٩٨٠) مرّة مرفوعا ، و (٥٩٢) مرّة منصوبا ، و (١١٢٥) مرّة مجرورا ، وخمس مرات بلفظ ﴿ اللهم ﴾ [4] .

بينما ورد اسم الرحمن في كتاب الله (٥٧) مرة[5] .

وورد اسم الرحيم مطلقا على الله في كتاب الله (١١٤) مرة .

وورد اسم الحي مطلقا على الربّ ـ تبارك وتعالى ـ في خمس آيات من كتاب

---

(١) انظر هذه الأقوال في فتح الباري ١١/ ٢٢٤

(٢) سورة البقرة : ٥٥

(٣) راجع مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ١٨/ ٣١١

(٤) هذا حسب إحصاء المعجم المفهرس لألفاظ القرآن.

(٥) حذفنا من إحصاء المعجم المفهرس آية ورد فيها رحيم مطلقا على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ

الله فحسب .

الثالث : أنَّ هذا الاسم أكبر أسماء الله وأجمعها ، وكلُّ الأسماء ترجع إليه ، ويضاف إلى تفسيره كلُّ معنى ، وحقيقة اسم الله : المنفرد في ذاته وصفاته وأفعاله عن نظير ، وهذه هي حقيقة الألوهية ، ومن كان كذلك فهو الله[1] .

الرابع : أنَّ هذا الاسم لم يطلق على غير الله تبارك وتعالى بحال ، ولا يتجرأ أحد على ادعائه إلا ما كان من قادة الضلال الكبار أمثال فرعون الذين هم أرذل الناس وأضلهم[2] .

يقول الشيخ أحمد الشرباصي : « الله هو الاسم الذي تفرد به الحقُّ سبحانه ، وخص به نفسه ، وجعله أول أسمائه ، وأضافها كلَّها إليه ، ولم يضفه إلى اسم منها ، فكلُّ ما يرد بعده يكون نعتا له وصفة .

وهو اسم يدلُّ دلالة الْعَلَمَ على الإله الحقّ ، وهو يدلُّ عليه دلالة جامعة لجميع الأسماء الحسنى الإلهية الأحدية .

ويقال : الأسماء الحسنى من أسماء الله ، ولا يقال : الأسماء الحسنى من أسماء الرحيم أو الغفور »[3] .

المطلب الخامس
الحقيقة والمجاز في أسماء الباري تبارك وتعالى

ذهب أهل السنة و الجماعة إلى أن الأسماء التي تطلق على الله وعلى العباد كالحيّ والسميع والبصير والعليم ، والقدير والملك حقيقة في الرب تبارك وتعالى ، وحقيقة في العبد .

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي : ٢/٧٩٨

(٢) فتح الباري : ١١/٢٢٥

(٣) موسوعة الأسماء الحسنى : ١/١٥

واختلاف الحقيقتين لا يخرجهما عن كون كل واحد حقيقة ، فحياة الرب وقدرته وسمعه وبصره يليق بجلاله وكماله وصفاته ، وصفات العبد تليق بعجزه ونقصه.

المطلب السادس

علاقة صفات الله بذاته

خاض علماء الكلام بعقولهم المجردة في مباحث دقيقة في صفات الله جعلتهم يؤصّلون أصولا ، ويقعدون قواعد تخالف الحقَّ الذي أنزله تبارك وتعالى .

فأهل السنة والجماعة لا يقولون : إن صفات الله هي عين ذات الله ، ولا هي غيره ، ذلك أن جزء الشيء اللازم وصفته اللازمة ليست غيره ، ولا يقال أيضا هذه الصفات هي عين الذات .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية فيما نقله عنه السفاريني ملخّصا له : « الذي عليه سلف الأمّة وأئمتها إذا قيل لهم : علم الله وكلام الله هل هو غير الله أم لا ؟ لم يطلقوا النفي ولا الإثبات ، فإنّه إذا قيل : هو غيره أوهم أنّه مباين له ، وإذا قيل : ليس غيره أوهم أنّه هو .

ويرى شيخ الإسلام أن المسؤول هنا يستفصل ، فإن أراد بقوله : « غيره » أنه مباين له ، منفصل عنه ، فصفات الموصوف لا تكون مباينة له ، منفصلة عنه ، وإن كان الموصوف مخلوقا ، فكيف بصفات الخالق ؟

وإن أراد « بغيرها » أنّها ليست هي هو ، فليست الصفة هي الموصوف ، فهي غيره بهذا الاعتبار ، واسم الرب إذا أطلق يتناول الذات المقدسة بما تستحقه من صفات الكمال ، فيمتنع وجود الذات عريّة عن الصفات .

فاسم الله ـ عز وجل ـ يتناول الذات الموصوفة بصفات الكمال ، وهذه الصفات ليست زائدة على المسمَّى ، بل هي داخلة في المسمى . ولكنّها زائدة على

الذات المجردة التي يثبتها نفاة الصفات[1] .

والفلاسفة يرون أنَّ صفات الباري ليست معاني قائمة بذات اللّه ، بل هي ذاته ، فليس عندهم لله صفات زائدة على الذات كالعلم والقدرة والإرادة ، بل علمه وقدرته وإرادته هي ذاته ، وقد أدَّى بهم هذا إلى نفي الصفات نفيا تاما .

والمعتزلة وإن زعموا أنَّ لله صفات يتصف بها ، ولكنَّهم لم يبتعدوا عن مذهب الفلاسفة عندما قرَّروا أنَّ الصفات عين الذات ، فقالوا : إنَّ الله عالم بذاته ، سميع بذاته ، قدير بذاته ، ولم يثبتوا صفات زائدة على الذات .

وقد زعموا أنَّ إثبات الصفات يلزم منه أحد أمرين :

الأول : أن تكون الصفات حادثه ، فيلزم من ذلك قيام الحوادث بذاته ، وخلوه ـ تبارك وتعالى ـ في الأزل عن العلم والقدرة والإرادة والحياة ، وهذا باطل بالاتفاق.

الثاني : أن تكون الصفات قديمة ، فيلزم من ذلك تعدد القدماء ، وهو كفر بإجماع المسلمين .

والجواب عن شبهتهم : أن المحظور هو تعدُّد القدماء المغايرة ، ونحن نمنع تغاير الذات مع الصفات ، والصفات بعضها مع بعض ، فينتفي التعدد ، ولئن سلِّم ما زعموا من تعدد القدماء ، فالممتنع تعدد القدماء إذا كانت ذواتا مستقلة ، لا تعدد ذات وصفاتها.

والقول الحقُّ أن ذات الله أزلية وصفاته أزلية كذلك .

---

(١) عقيدة السفاريني : ١/٢١٨

الفصل الثاني
عقيدة أهل الحق في أسماء الله وصفاته

اختلفت الأمة الإسلامية كما اختلفت الأمم من قبلها في أسماء الله وصفاته ، وقد هدى الله من اصطفاهم واختارهم إلى الحق الذي اختلف فيه ، وسنحاول أن نعرّف بأهل الحقّ الذين عرفوا الحقّ واتبعوه ، ثم نبين الأسس التي قام عليها معتقدهم في هذا الباب .

المبحث الأول
التعريف بأهل الحق أهل السنة والجماعة

أهل الحق من هذه الأمة وجميع الأمم هم الذين هداهم الله إلى صراطه المستقيم ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ [1] ، والذين أنعم الله عليهم هم الذين قال الله فيهم ﴿ و من يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ﴾ [2] .

وهم في هذه الأمَّة الذين فقهوا دين الله ، واستقاموا عليه ، وقد اصطلح على

---

(١) سورة الفاتحة : ٦-٧

(٢) سورة النساء : ٦٩

تسميتهم بأهل السنّة والجماعة ، ويسمّون أيضا بالسلف الصالح .

أمّا إنّهم أهل السنة فلأنهم أتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ، الذين فقهوا عنه العلم الذي جاءَهم به ، وتابعوه عليه .

وأمّا إنهم أهل الجماعة ، فلاجتماعهم على الحقّ الذي جاءهم من عند الله ، وهم في ذلك يتسمّون بما أمرهم الله به وأمرهم به رسوله صلى الله عليه وسلم من اتّباع نبيهم الكريم ، والاجتماع على الحقّ وترك الفرقة والاختلاف .

ولما كان الصحابة الكرام من المهاجرين والأنصار هم خير من مثل الإسلام فقها وعملا ، أصبح مسارهم الطريق الذي يقتدى به ، وينسج على منواله ، فهم السلف الصالح الذين عاصروا التنزيل ، وتربوا على يدي معلم البشرية محمد صلى الله عليه وسلم ، وهم أعلم هذه الأمة بالله وكتابه ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وهم الذين شهد لهم ربّهم ـ تبارك وتعالى ـ بالخيريّة والأفضليّة على من بعدهم ، وتوفّي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو راض عنهم .

وقد أصبح المنهج الذي سلكوه وساروا عليه وتمثلوه عَلَمًا على المنهج القويم الذي يجب أن يستقيم عليه من جاء بعدهم ، وقد سمّي بمذهب السلف الصالح ، وكلّ من سلك هذا المسلك فهو على مذهب السلف الصالح .

يقول ابن بدران معرفا بأهل الحق و مذهبهم : « الفرقة الناجية هي فرقة واحدة ، وهي ما كان على نهج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه الكرام والتابعين لهم بإحسان ، من إمرار آيات الصفات وأحاديثها على ما جاءت من غير تشبيه ولاتمثيل ولا تأويل ولا تعطيل... وإلى هذا أشار الإمام أبو محمد بن حزم في كتابه«الفصل» حيث قال :«وأهل السنة هم أهل الحق ، ومن عداهم فأهل البدعة ، فإنهم الصحابة رضي الله عنهم ، وكل من سلك نهجهم من خيار التابعين رحمة الله عليهم ، ثمّ أصحاب الحديث ومن تبعهم من الفقهاء جيلا فجيلا إلى يومنا هذا ، ومن اقتدى بهم من العوام في شرق الأرض ومغربها»

ويقول السفّاريني ـ رحمه الله تعالى ـ مبينا المراد بمذهب السلف الصالح : «مذهب السلف ماكان عليه الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، وأعيان التابعين لهم بإحسان، وأتباعهم ، وأئمة الدين ممن شهد له بالإمامة ، وعرف عظيم شأنه في الدين، وتلقى الناس كلامهم خلف عن سلف ، دون من رمي ببدعة أو شهر بلقب غير مرضيّ ، مثل : الخوارج ، والروافض ، والقدريَّة ، والمرجئة ، والجبرية ، والجهمية ، والمعتزلة ، والكرامية »[1] فإذا كان السلف الصالح هم الصحابة رضوان الله عليهم، فإنَّ من جاؤوا بعدهم ، سائرين على دربهم ، حاملين منهجهم يحق لهم أن يتسمَّوا بأصحاب المنهج السَّلفي ، لاشتراكهم معهم في المنهج والسبيل .

وقد ورث علم السلف الصالح أئمة أعلام ، عرف الناس لهم فضلهم ، وأقروا لهم بالإمامة ، وأصبح مذهبهم ممثلا لمذاهب أهل العلم من قبلهم .

وقد ذكر شيخ الحرمين أبوالحسن محمد بن عبد الملك الكرجي وكان من أئمة الشافعية في كتابه الذي سمّاه : « الفصول في الأصول عن الأئمة الفحول إلزاما لذوي البدع والفضول » الأئمة وارثي علم السلف ، وهم الشافعي ، ومالك ، والثوريُّ وأحمد بن حنبل والبخاريُّ ـ صاحب الصحيح ـ وسفيان بن عيينه ، وعبدالله بن المبارك ، والأوزاعيُّ ، والليث بن سعد ، وإسحاق بن راهويه ، ونقل عنهم اعتقادهم .

وأئمة السلف أكثر من هذا بكثير ، ولكنَّه اقتصر على الأئمة الذين كانوا قدوة في عصرهم ، ولأنهم أرباب المذاهب في الجملة ، ولهم أهليَّة الاقتداء بهم لحيازتهم شروط الإمامة ، وليس من سواهم في درجتهم ، وإن كانوا أئمة كبراء قد ساروا بسيرهم[2] .

وقد ذكر اللالكائيُّ في شرحه لأصول اعتقاد أهل السنَّة جمعا كبيرا من الأعلام

---

(١) لوامع الأنوار البهية : ١/ ٢١

(٢) راجع هذه الأقوال في مجموع فتاوي شيخ الإسلام : ٤/ ١٧٥ - ١٧٩

الذين ساروا على منهج السّلف[1] .

وأبرز من استوعب منهج السلف وناضل عنه الإمام أحمد بن حنبل الذي حفظ الله به الدين في فتنة القول بخلق القرآن ، ولذا أصبحت متابعته على فقهه ممثّلة المنهج المرتضى المختار .

يقول أبوالحسن الأشعري : « وندين بحبِّ السلَف الذين اختارهم الله لصحبة نبيه عليه السلام ، ونثني عليهم ونتولاهم »[2] .

ويقول : « قولنا الذي نقول به ، وديانتنا التي ندين بها : التمسك بكتاب ربنا ـ عز وجل ـ وسنَّة نبينا عليه السَّلام ، وما روي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ، ونحن بذلك معتصمون ، وبما كان يقول به أبو عبدالله أحمد بن حنبل ـ نضَّر الله وجهه ، ورفع درجته ، وأجزل مثوبته ـ قائلون ، ولما خالف قوله مخالفون ، لأنه الإمام الفاضل والرئيس الكامل ، الذي أبان الله به الحقَّ ، ورفع به الضلال ، وأوضح به المنهاج ، وقمع به بدع المبتدعين ، وزيف الزائفين ، وشكَّ الشاكّين ، فرحمة الله عليه من إمام مقدَّم ، وخليل مفخم معظَّم »[3] .

ويقول السَّفاريني ـ رحمه الله تعالى ـ بعد أن عرَّف مذهب السلف الذي نقلناه عنه في أوَّل هذا المبحث مبينا السبب الذي من أجله نسب مذهب السلف إلى الإمام أحمد رحمه الله تعالى : « لما كان فشوُّ البدع وظهورها بعد المائتين لما عرِّبت الكتب العجمية ، وزاد البلاء ، وأظهر المأمون القول بخلق القرآن ، وظهر مذهب الاعتزال ظهورا لامزيد عليه بسبب انحراف الخلفاء عن مذهب الحقِّ ، وكان الذي قام في نحورهم وردِّ مقالتهم وإبطال مذهبهم وتزييفه ، وذمِّ من ذهب إليه ، أو عوَّل عليه ، أو انتمى إلى ذويه ، أو ناضل عنه ، أو مال إليه ـ الإمام المبجَّل والحبر البحر المفضَّل أبو عبد الله الإمام أحمد بن محمد بن حنبل نسب مذهب السلف إليه ، وعوَّل أهل

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة : ١/٢٩-٤٩ .

(٢) الإبانة : ص ١١

(٣) الإبانة : ص ٩

عصره من أهل الحقَ فمن بعدهم عليه .

وإلا فهو المذهب المأثور ، والحقُّ الثابت المشهور لسائر أئمة الدين وأعيان الأمة المتقدمين »[1] .

المبحث الثاني
الأسس التي تقوم عليها عقيدة أهل السنة والجماعة في أسماء الله وصفاته

مقالة السلف الصالح تقوم على عدَّة أسس وأصول كلُّها دلَّ عليها القرآن الكريم ، ومن نظر في هذه الأسس في هذا الباب اطمأن قلبه إلى أنَّ هذا المذهب هو الحقُّ الذي يجب أن يعض عليه بالنواجذ ، ويترك ما سواه .

الأساس الأول :إثبات ما أثبته الله ورسوله

السلف يثبتون لله ما أثبته الله لنفسه من صفات أو أثبته له رسوله ، وينفون عنه ما نفاه الله عن نفسه أو نفاه عنه رسوله .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : « الأصل في باب الصفات أن يوصف بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسله نفيا وإثباتا ، فيثبت له ماأثبته لنفسه ، وينفى عنه ما نفاه عن نفسه »[2] .

ويقول أبو إسماعيل عبد الرحمن بن إسماعيل الأنصاريُّ : « أصحاب الحديث يعرفون ربهم ـــ عز وجل ـ بصفاته التي نطق بها وحيه وتنزيله ، أو شهد له بها رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما وردت الأخبار به ، ونقلته العدول الثقات عنه ، ويثبتون له جَّل جلاله منها ما أثبته لنفسه في كتابه ، وعلى لسان رسول الله

---

(١) لوامع الأنوار البهية : ١/ ٢١

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ٣/ ٣

صلى الله عليه وسلم »[1] .

وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى : « آمنت بما جاء عن الله ، وبما جاء عن رسوله الله على مراد رسول صلى الله عليه وسلم »[2] .

وقال الشافعيُّ أيضا ناصًا على هذا الأصل : « للّه أسماء وصفات جاء بها كتابه ، وأخبر بها نبيُّه أمَّته ، لا يسع أحد من خلق الله قامت عليه الحجة ردها ، إلى أن قال : نحو إخبار الله سبحانه إيانا أنه سميع بصير ، وأنَّ له يدين لقوله : ﴿ بل يداه مبسوطتان ﴾ [3] . وأن له يمينا لقوله : ﴿ والسموات مطويات بيمينه ﴾ [4] . وأن له وجها لقوله : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ [5] . وقوله : ﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ [6] . وأن له قدما لقوله صلى الله عليه وسلم : « حتى يضع الرب فيها قدمه » . « يعني جهنم »[7] .

وقال شيخ الحرمين أبوالحسن محمد بن عبد الملك الكرجي في كتابه الذي سمَّاه « الفصول في الأصول عن الأئمة الفحول إلزاما لذوي البدع والفضول » الذي ذكر فيه أقوال علماء السلف في أسماء الله وصفاته ملخصا ما قاله الأئمة في هذا الأصل:« نعتقد أنَّ لله أسماء وصفات قديمه غير مخلوقة ، جاء بها كتابه ، وأخبربها الرسول وأصحابه ، فيما رواه الثقات وصححه النقاد الأثبات ، ودلَّ القرآن المبين ، والحديث الصحيح المبين على ثبوتها .

وهي أنَّ الله تعالى أوَّل لم يزل ، وآخر لا يزال ، أحد قديم ، وصمد كريم ، عليم حليم علي عظيم ، رفيع مجيد ، وله بطش شديد ، وهو يبدئ ويعيد ، فعَّال لما يريد ،

---

(١) عقيدة السلف واصحاب الحديث للصابونى : ص ٣

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ٢/٣

(٣) سورة المائدة : ٦٤

(٤) سورة الزمر : ٦٧

(٥) سورة القصص : ٨٨

(٦) سورةالرحمن : ٢٧

(٧) مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ١٨٢/٤

قويّ قدير ، منيع نصير ، ﴿ ليس كمثله شيء وهوالسميع البصير ﴾ [1] إلى سائر أسمائه وصفاته من النفس ، والوجه ، والعين ، والقدم ، واليدين ، والعلم ، والنظر ، والسمع ، والبصر ، والإرادة والمشيئة ، والرضى والغضب ، والمحبّة ، والضحك ، والعجب ، والاستحياء ، والغيرة والكراهة ، والسخط ، والقبض والبسط ، والقرب والدنو ، والفوقية والعلو ، والكلام والسلام ، والقول والنداء ، والتجلي واللقاء ، والنزول والصعود والاستواء ، وأنه تعالى في السماء ، وأنه على عرشه بائن من خلقه» [2] .

ويدلُّ على صحة هذا الأصل أمور :

الأول : أنَّ أسماء الله وصفاته غيب لا يعرف إلا من قبل الوحي الصادق ، وقد أثنى الربُّ ـ تبارك وتعالى ـ على عباده المؤمنين الذين يؤمنون بالغيب الذي أخبربه ﴿ الم ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ﴾ [3] ، كما أثنى على الذين يؤمنون بماجاءهم من عند الله ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ﴾ [4] .

الثاني : أن رد ما أثبته الله لنفسه أو الرسول لربه تكذيب لله ولرسوله ، وكيف يدَّعي مدَّع الإسلام والإيمان وهو يرد على الله خبره فيما أعلمنا به من أسمائه وصفاته ، فيخبر الباري ـ تبارك وتعالى ـ أنه الحي القيوم ، العليم الخبير الحكيم ، الملك القدوس السلام ، المؤمن المهيمن العزيز الجبارالمتكبر ، فيقف جاهل مغرور بين يدي العليم الخبير جبار السموات والأرض نافيا عن الله ما أثبته لنفسه ، فيقول بأنَّ الله ليس حيًا ولا قيُّوما ولا عليما ولا خبيرا .. الخ .

وكيف يدَّعي مدع أنه مصدِّق بما جاءه من عند الله ، وهو ينفي عن الله صفاته

---

(١) سورة الشورى : ١١

(٢) نقله عن الكرجي شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى : ٤/ ١٨١

(٣) سورة البقرة : ١-٣

(٤) سورة البقرة : ٢٨٥

التي وصف بها نفسه من العلم والسمع والبصر والرضا والمحبّة والاستواء على العرش وغيرها ؟!!

الثالث : النصوص الآمرة بالإيمان بأسماء الله وصفاته :

المطالع في آيات الكتاب يجد النصوص التي تتحدث عن أسماء الله وصفاته لا تقف عند حدّ الإخبار بهذه الأسماء والصفات ، ولكنها تأمر بالإيمان بها ، وتلزم به ، أفيكون مسلما من ردَّ على الله أمره ، ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ (١) .

وصدق ربّي ، فقد أصاب كثير من هؤلاء الرادّين للأسماء والصفات الفتن ، كما أصاب كثير منهم العذاب الأليم في الدنيا قبل الآخرة ، كما علم من سيرتهم وأخبارهم .

والنصوص الآمرة بالعلم بالله ، أو العلم بأسمائه وصفاته كثيرة في كتاب الله عزَّوجلَّ،فقدأمرنا الحقُّ ـ تبارك وتعالى ـ بأن نعلم أن ربنا عليم بكلّ شيء ﴿ واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم ﴾ (٢) .

وأمرنا بالعلم بأنَّ الله بصير بأعمالنا ﴿ واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير﴾ (٣) .

وأمرنا بأن نعلم بأن ربنا سميع عليم ، غفور رحيم ، غني حميد ، عزيز حكيم ، ﴿واعلموا أن الله سميع عليم ﴾ (٤) ، ﴿ فاعلموا أن الله غفور رحيم ﴾ (٥) ، ﴿واعلموا أن الله غني حميد ﴾ (٦) ، ﴿ فاعلموا أن الله عزيز حكيم ﴾ (٧) .

---

(١) سورة النور : ٦٣

(٢) سورة البقرة : ٢٣١

(٣) سورة البقرة : ٢٣٣

(٤) سورة البقرة : ٢٤٤

(٥) سورة المائدة ٣٤

(٦) سورة البقرة ٢٦٧

والله يصرف الآيات في خلقه ، ويظهر لهم بديع صنعه كي يعلموا بأنّ اللّه على كل شيء قدير ، وأنه مالك الملك ، ﴿ ألم تعلم أن اللّه على كل شيء قدير ، ألم تعلم أن له ملك السموات والأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ﴾ [1] .

والنصوص الدالة على وجوب التّعرف على صفات ربنا كثيرة ، والحق أن كلّ النصوص على كثرتها التي ذكر الله فيها صفاته تدلّ على وجوب التّعرّف على الله من خلال صفاته ، فإنّ الله أمرنا بالإيمان به والعلم به ، ولا يتم إيمان عبد لم يؤمن بالصفات التي وصف بها نفسه ، أو وصفه بها رسوله صلى الله عليه وسلم .

وإذا لم نعلم معنى صفة من الصفات الواردة في الكتاب والسنّة ، فإنّه يجب الإيمان بها تصديقا لكتاب الله ـ تبارك وتعالى ـ وسنّة رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم .

أما ما يصفه به الواصفون مما لم يرد في الكتاب والسنّة ، فيتوقف إثباته ونفيه على معرفة مراد قائله منه ، فإذا ذكر معنى صحيحا أثبتناه ، وإلا نفيناه ، وسيأتي مزيد بيان لهذا المبحث فيما يأتي إن شاء الله .

الأسماء والصفات الثابتة بالأحاديث الآحاد

الذي عليه أهل العلم إثبات ما أثبته الوحي في المسائل الاعتقادية من غير تفريق بين ما ثبت بالقرآن أو الحديث الصحيح ، ومن غير تفريق بين المتواتر والآحاد إذا كان الحديث صحيحا .

ولذا فإنّ أهل العلم يذكرون في أسمائه تبارك وتعالى : الحنّان ، والمنّان ، والشافي ، والسبّوح ، مما ورد في الأحاديث الصحيحة ، وقد خالف بعض المتأخرين من الفقهاء والأصوليين في إثبات المسائل الاعتقادية بأحاديث الآحاد .

---

(٧) سورة البقرة : ٢٠٩

(١) سورة البقرة : ١٠٦-١٠٧

والصواب صحة ذلك ، وقد حققنا هذه المسألة في كتابنا : « أصل الاعتقاد » .

الأساس الثاني :
اعتقادهم أنَّ أسماء الله كلها حسنى وصفاته كلها كاملة عليا .

فأهل السنَّة والجماعة الذين ساروا على منهج الصحابة والتابعين يعتقدون جازمين بأنَّ الصفات التي وصف الله بها نفسه ، والأسماء التي سمَّى بها نفسه لا نقص فيها بوجه من الوجوه ، وهي أحسن الأسماء وأكمل الصفات .

قال الله ـ تبارك وتعالى ـ مقررا هذه الحقيقة : ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾[1] . وقال : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياما تدعو فله الأسماء الحسنى﴾ [2] . وقال : ﴿ الله لاإله إلا هو له الأسماء الحسنى ﴾ [3] . وقال: ﴿ هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى ﴾ [4] .

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : « الكمال ثابت لله ، بل الثابت له هو أقصى ما يمكن من الأكملية ، بحيث لا يكون وجود كمال لا نقص فيه إلا وهو ثابت للرب ـ تبارك وتعالى ـ يستحقه بنفسه المقدسة »[5] .

ويقول ابن القيم : « صفات الله كلها صفات كمال محض ، فهو موصوف من الصفات بأكملها ، وله من الكمال أكمله . وهكذا أسماؤه الدالة على صفاته هي أحسن الأسماء وأكملها ، فليس في الأسماء أحسن منها ، ولا يقوم غيرها مقامها ، ولا يؤدي معناها »[6] .

---

(١) سورة الأعراف : ١٨٠

(٢) سورة الإسراء : ١١٠

(٣) سورة طه : ٨

(٤) سورة الحشر : ٢٤

(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ٦/٧١

(٦) بدائع الفوائد : ١/١٦٨

« والحسنى جمع الأحسن ، لا جمع الحسن ، وتحت هذا سرّ نفيس ، وذلك أنّ الحسن من صفات الألفاظ ، والأحسن من صفات المعاني ، فكل لفظ له معنيان حسن وأحسن ، فالمراد الأحسن منهما ، حتى يصحّ جمعه على حسنى ، ولا يفسّر بالحسن منهما إلا الأحسن لهذا الوجه »[1] .

إذا تقرر هذا الأصل فكيف يقصد بعض المنتسبين إلى هذا الدِّين إلى الأسماء التي سمّى بها نفسه ، والصفات التي امتدح بها نفسه ، فيزعمون أنه يجب أن تنفى عن الله تبارك وتعالى ، أو تؤوّل ، لأنها تستلزم التشبيه ، وأنّ كمال الباري لا يمكن أن يتحقق إلا بنفيها أو تأويلها ؟

الأدلة على اتصاف البارى جلّ وعلا بصفات الكمال

أولا : دليل الفطرة

إنّ الإقرار بكمال الله في أسمائه وصفاته أمر فطرت عليه النفوس البشرية ، ولو خلا الذين ينفون عن الله صفاته وأسماءه أو بعضا منها عن الشبهات والتخرصات التي أمرضت منهم القلوب ، وأفسدت العقول والنفوس لوجدوا أنفسهم يقرّون بصفات الكمال من غير تردد ولا شكوك ، ولكنها المبادئ الفاسدة تفسد الفطرة الإنسانية وتدسّيها ، ومن نظر في حال الذين ينفون عن الله صفاته وأسماءه يجدهم يغالبون أنفسهم وفطرتهم ويقهرونها ويجاهدون في طمس معالم الحق فيها ، فهي تدعوهم بالسليقة إلى اثبات علو الله ومحبته ورضاه وغير ذلك من صفات الكمال ، ولكنهم يدفعون الحق إعمالا لما تبنوه من نظريات فاسدة .

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية ــ رحمه الله تعالى ــ في الجهمية الذين يقولون في الله الأقوال المتناقضة : « هؤلاء يُكْرِهون فطرهم وعقولهم على قبول المحال المتناقض، فيقولون : هو في العالم ، وليس هو فيه ، أو هو العالم وليس هو إياه »[2] .

---

(١) إبثار الحق : ص ١٦٦

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ٤/ ٦٠

وقال شارح الطحاوية : « أودع الله في الفطرة الإنسانية التي لم تتنجسس بالجحود والتعطيل ، ولا بالتشبيه والتمثيل ، أنه سبحانه الكامل في أسمائه وصفاته ، وأنه الموصوف بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ، وما خفي عن الخلق من كماله أعظم وأعظم مما يعرفونه منه »[1] .

وقد ردد شيخ الإسلام في مؤلفاته قصة الشيخ أبي جعفر الهمداني مع أبي المعالي الجويني في استدلال الهمداني على أبي المعالي بالفطرة على إثبات صفة العلو لله .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « ومن هذا الباب ما ذكره محمد بن طاهر المقدسي في حكايته المعروفة : أن الشيخ أبا جعفر الهمداني حضر مرة والأستاذ أبو المعالي الجويني يذكر على المنبر : « كان الله ولا عرش » ، ونفى الاستواء ، على ما عرف من قوله ، وإن كان في آخر عمره رجع عن هذه العقيدة ، ومات على دين أمة وعجائز نيسابور .

فقال الشيخ أبو جعفر : « يا أستاذ دعنا من ذكر العرش - يعني لأن ذلك إنما جاء في السمع - أخبرنا عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا ، ما قال عارف قط : يا الله إلا وجد من قلبه معنى يطلب العلو ، لا يلتفت يمنه ولا يسره ، فكيف ندفع هذه الضرورة عن قلوبنا ؟

فصرخ أبو المعالي ، ووضع يده على رأسه ، وقال : حيرني الهمداني ، أو كما قال ونزل .

فهذا الشيخ تكلم بلسان جميع بني آدم ، فالإقرار بعلو الله على الخلق أمر فطري ضروري نجده في قلوبنا نحن وجميع من يدعو الله ، فكيف ندفع هذه الضرورة عن أنفسنا .

والجارية التي قال لها الرسول صلى الله عليه وسلم : « أين الله ؟ قالت : في السماء . قال أعتقها ، فإنها مؤمنة ». جارية أعجمية . أرأيت من فقهها وأخبرها بما

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية : ص ٩٥

ذكرته ؟ وإنما أخبرت عن الفطرة التي فطرها الله عليها ، وأقرها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على ذلك وشهد لها بالإيمان[1] .

ثانيا : اتصاف الإله المعبود بصفات الكمال دليل صحة ألوهيته وربوبيته وسلبها عنه دليل بطلان الألوهية والربوبية :

الإله الربُّ المعبود لا بدَّ أن يكون كاملاً ، ونقص المعبود دليل على بطلان ألوهيته وربوبيته ، ولهذا ذم القرآن آلهة الكفار وعابها بسلب أوصاف الكمال عنها ، فقد عابها بأنها لا تسمع ولا تبصر ولا تتكلم ولا تهدي ، ولا تنفع ولا تضر .

قال تعالى حكاية عن خليله إبراهيم في محاجته لأبيه ﴿ يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا ﴾[2] .

وقال الخليل لقومه طاعنا في ألوهية أصنامهم : ﴿ هل يسمعونكم إذ تدعون، أو ينفعونكم أو يضرون ﴾[3] وقال لهم بعد أن حطَّم أصنامهم : ﴿أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم ، أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون﴾[4] .

وقال الحق مبينا وجه بطلان ألوهيَّة العجل الذي عبده بنو إسرائيل : ﴿ واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا ، اتخذوه وكانوا ظالمين ﴾[5] .

فجعل الحق ـ تبارك وتعالى ـ نفي السمع وإجابة الدعاء ، وعدم النفع والضر ، وعدم الكلام والهداية دليلا على بطلان الألوهية . ومن هنا يعلم جناية نفاة الصفات الذين عَطَّلوا الربَّ ـ تبارك وتعالى ـ عن صفاته ، أو أوَّلوا صفاته ، وزعموا أن

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام بشيء من الاختصار : ٤/٦١

(٢) سورة مريم : ٤٢

(٣) سورةالشعراء : ٧٢-٧٣

(٤) سورة الأنبياء : ٦٦-٦٧

(٥) سورة الأعراف : ١٤٨

التوحيد يقتضي نفي الصفات .

إن هؤلاء خالفوا أدلَّة العقول الصحيحة كما خالفوا النصوص الصريحة الدالة على أنَّ الإله الحقَّ المعبود لا بدَّ أن يتصف بصفات الكمال والجلال ، وكلما كثرت صفات الكمال كان الحمد والتعظيم للربِّ أكمل وأعظم ، ولهذا فإنَّ العباد لا يستطيعون أن يحصوا الثناء على الحقِّ ـ تبارك وتعالى ـ لكمال أسمائه وصفاته وكثرتها.

ثالثا : الأدلة العقلية الدالة على اتصاف الباري بصفات الكمال

أرشد القرآن عقول البشر ونبهها إلى الأدلة العقلية التي تدلها على ربها وترشدها إليه، وهي أدلة سهلة قريبة المأخذ ، تقوم على أصول صحيحة لا يخالطها باطل ، كما هو الحال في كثير من أدلة المتكلمين ، ففيها من التناقض والباطل ما يضعف الإيمان ، ويشكِّك في الحق .

وقد أرشد الحق العقول إلى الدليل الذي يدلها على كماله ، وكمال أسمائه وصفاته في قوله : ﴿ للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى ﴾ [1] ويقول﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾[2] ويقول : ﴿ ألا يعلم من خلق ﴾ [3] .

ومثل السوء الذي جعله لأعدائه هو المثل المتضمن للنقائص والعيوب وسلب كمال أعدائه المشركين وأوثانهم .

والمثل الأعلى الذي يستحقه ـ الباري تبارك وتعالى ـ هو المتضمن لإثبات الكمال كلِّه لله تبارك وتعالى ، ولذا فإنَّ الذي يسلب عن الله صفات كماله فإنّه يجعل له مثل السوء ، وينفي عنه ما وصف به نفسه من المثل الأعلى ، وهو الكمال

---

(١) سورة النحل : ٦٠

(٢) سورة الروم : ٢٧

(٣) سورة الملك : ١٤

المطلق ، المتضمن للأمور الوجودية ، والمعاني الثبوتية التي كلما كانت أكثر في الموصوف وأكمل – كان بها أكمل وأعلى من غيره .

ولما كانت صفات الرب ـ سبحانه وتعالى ـ أكثر وأكمل كان له المثل الأعلى ، وكان أحق به من كل ما سواه ، بل يستحيل أن يشترك في المثل الأعلى المطلق إثنان ، لأنهما إن تكافآ من كل وجه لم يكن أحدهما أعلى من الآخر ، وإن لم يتكافآ فالموصوف به أحدهما وحده ، فيستحيل أن يكون لمن له المثل الأعلى مِثْلٌ أو نظير[1] .

هذا ما قرره شارح الطحاوية في استحقاق الباري للمثل الأعلى ، وقد دلَّ قوله تبارك وتعالى : ﴿ ولله المثل الأعلى ﴾[2] العقول على أن الله ـ تبارك وتعالى ـ يستعمل في حقّه قياس الأولى ، وهذا يقضي بأنَّ كلَّ كمال في نفسه ثبت للمخلوق ليس فيه نقص بوجه من الوجوه فإن الخالق أولى به من المخلوق ، وكلُّ نقص تنزه عنه المخلوق ، وليس فيه كمال بوجه من الوجوه فالخالق أولى بأن يتقدس ويتنزه عنه .

فالعلم والحكمة والقدرة والقوة والسمع والبصر صفات يمدح بها العباد ، فالخالق أولى بالاتصاف بها ، والجهل والموت والعمى والصمم صفات يتنزه العباد عنها ، والباري أولى بالتنزه والتقدس عنها[3] .

وقد ورد في النصوص التصريح بأن الله تبارك وتعالى : ﴿ أرحم الراحمين﴾[4] و ﴿ أحكم الحاكمين ﴾[5] و ﴿ أسرع الحاسبين ﴾[6] و ﴿أحسن الخالقين ﴾[7] وأنه الأكبر ، والأعز ، والأعلم ، والأقوى .

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية : ١٤٤

(٢) سورة النحل : ٦٠

(٣) راجع شرح العقيدة الطحاوية : ص ١٢٢ ومجموع فتاوى شيخ الإسلام : ٣/ ٣٠

(٤) سورة الأنبياء : ٨٣

(٥) سورة هود : ٤٥

(٦) سورة الأنعام : ٦٢

(٧) سورة المؤمنون : ١٤

وورد في القرآن بأنّ الرب ـ تبارك وتعالى ـ ﴿ خير الفاصلين ﴾ [1] و ﴿ خير الرازقين ﴾ [2] و﴿ خير الوارثين ﴾ [3] و ﴿خير الناصرين ﴾ [4] و ﴿خير الراحمين ﴾ [5] ، و ﴿ خيرالفاتحين ﴾ [6] ، و﴿ خير الغافرين ﴾ [7] ، ﴿ والله خير وأبقى﴾ [8] .

وكلُّ هذه النصوص تدلّ دلالة واضحة على المنهج القرآني الذي يرشد العقول إلى استعمال قياس الأولى في حقه تبارك وتعالى ، فكلّ كمال لا نقص فيه ثبت للمخلوق فالخالق أولى به . ويمكن أن يجري قياس الأولى بطريق آخر فيقال : كل كمال في المخلوق فإنّه منحة من الخالق ، فكيف يهب الكمال من لا يملكه ولا يتصف به[9] ؟ وقد قيل : فاقد الشيء لا يعطيه .

وقد سلك الفلاسفة وعلماء الكلام في استدلالهم على كمال الله بقياس التمثيل الذي يستوي فيه الأصل والفرع ، وقياس الشمول الذي تستوي أفراده ، فمثلوا الباري بغيره ، وأدخلوه هو وغيره تحت قضايا كلية تستوي أفرادها ، وهذا المنهج أدخل الخلل عليهم ، وقادهم إلى الإضطراب والشك والحيرة بسبب ضعف الأدلة التي اعتمدوها ، بخلاف المنهج القرآني الذي دلَّ على أن الباري يستعمل في حقّه قياس الأولى على النحو الذي بيناه .

---

(١) سورة الأنعام : ٥٧

(٢) سورة المائدة : ١١٤

(٣) سورة الأنبياء : ٨٩

(٤) سورة الأنعام : ١٥٠

(٥) سورة المؤمنون : ١٠٩

(٦) سورة الأعراف : ٨٩

(٧) سورة الأعراف : ١٥٥

(٨) سورة طه : ٧٣

(٩) راجع شرح العقيدة الطحاوية : ص ١٢٢ . ومجموع فتاوى شيخ الإسلام : ٣/ ٣٠

تفسير أهل العلم للمثل الأعلى

الذي يتأمل في عبارات أهل العلم في تفسيرهم للمثل الأعلى الوارد في النص يجدها تدور على **أربعة معاني** :

الأول : ثبوت الصفات العليا لله ربِّ العالمين ، التي هي الكمال المطلق الذي لا نقص فيه بحال من الأحوال ، وهذا لا يتوقف على علم العباد بها ، فالكمال المطلق كلّه للّه، عَلِمه العباد أم جهلوه .

الثاني : المثل الأعلى هو ما في قلوب الذين يعبدون الله ويذكرونه من تعظيم الله وتقديسه ، ومحبته وخشيته والخوف منه ورجائه والاعتماد عليه والتوكل عليه ، وهو الذي في قلوبهم تجاه ربهّم ، لا يشْركه في ذلك غيره أصلا ، ولاينافي هذا ما في قلوب بعض خلقه من الشرك والكفر ، فإنَّ هؤلاء يغالبون الفطرة ويدنسونها ، وعندما ينزاح الركام عن الفطرة يتبين ما في جوهر الإنسان من تعظيم الله وتمجيده وتقديسه ، وأنَّ المكانة التي للربِّ في قلب العبد لا تدانيها مكانة أحد .

الثالث : المثل الأعلى هو إثبات صفات الكمال للواحد الأحد ، وتنزيهها من العيوب والنقائص والتمثيل .

الرابع : المثل الأعلى عبادة الربِّ ـ تبارك وتعالى ـ بواسطة العلم والمعرفة القائمة في نفوس عابديه وذاكريه ، ومن هذه العبادات القلبية مثل الإخلاص والتوكل ومحبة الله والإنابة إليه[1] .

من كمال أسماء الله وصفاته كونه ـ تبارك وتعالى ـ متصفا بها أزلا وأبدا .

ولا يجوز أن يتصور العبد أنَّ الله وُصِفَ بصفةٍ بعد أن لم يكن متصفا بها ، أو أنَّ بعض صفاته تزول عنه ، لأنَّ إتصاف الباري بصفاته كمالٌ ، وَفقدها نقص ، والله لا

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية بتصرف : ص ١٤٤

يمكن أن يحصل له الكمال بعد اتصافه بالنقص ، كما لا يجوز أن يتصف بالكمال ثم يزول عنه .

يقول الطحاوي مقررا هذا المعنى : « ما زال بصفاته قديما قبل خلقه ، لم يزدد بكونهم شيئا لم يكن قبلهم من صفته ، وكما كان بصفاته أزليا ، كذلك لا يزال عليها أبديا ».

يقول شارح الطحاوية مبينا وموضحا :« لم يزل الله سبحانه متصفا بصفات الكمال : صفات الذات وصفات الفعل ، ولا يجوز أن يُعْتَقَدَ أنَّ الله وُصِفُ بصفة بعد أن لم يكن متصفا بها ، لأنَّ صفاته ـ سبحانه ـ صفات كمال ، وفقدها صفة نقص ، ولا يجوز أن يكون قد حصل له الكمال بعد أن كان متصفا بضده ».

ثمَّ بين الشارح رحمه الله أنَّه « لا يَردُ على هذه صفات الفعل والصفات الاختيارية ونحوها كالخلق والتصوير ، والإماتة والإحياء ، والقبض والبسط والطي ، والاستواء و الإتيان والمجيء والنزول ، والغضب والرضى ونحو ذلك مما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ..... ، لأنَّ هذا الحدوث بهذا الاعتبار غير ممتنع ، ولا يطلق عليه أنَّه حدث بعد أن لم يكن ، ألا ترى أنَّ من تكلم اليوم ، وكان متكلما بالأمس لا يقال : إنَّه حدث له الكلام ، ولو كان غير متكلم لآفة كالصغر والخرس ثم تكلم ، يقال : حدث له الكلام ، فالساكت بغير آفة يسمَّى متكلما بالقوة ، بمعنى أنَّه يتكلم إذا شاء ، وفي حال تكلُّمه يسمَّى متكلما بالفعل ، وكذلك الكاتب في حال الكتابة هو كاتب بالفعل ، ولا يخرج عن كونه كاتبا في حال عدم مباشرته الكتابة»[1] .

واتصاف الباري بصفات الكمال أبدا وأزلا يدلّنا على « أن أفعال الربِّ ـ تبارك وتعالى ـ صادرة عن أسمائه وصفاته ، وأسماء المخلوقين صادرة عن أفعالهم ، فالربّ ـ تبارك وتعالى ـ أفعاله عن كماله ، والمخلوق كمالُه عن فعاله ، فاشتقت له الأسماء بعد أن كُمُلَ بالفعل . فالربُّ لم يزل كاملا ، فحصلت أفعاله عن كماله ، لأنه كامل

---

(١) شرح العقيد الطحاوية : ١٢٧-١٢٨ .

بذاته وصفاته ، فأفعاله صادرة عن كماله ، كمَل فَفَعَل ، والمخلوق فعل فكَمَلَ الكمال اللائق به» . [1]

ما يجوز إطلاقه على الباري وما لا يجوز

أولا ـ لا يجوز إطلاق الأسماء المذمومة على الحقّ تبارك وتعالى

الأفعال والأسماء المذمومة مطلقا لا يجوز إطلاقها على الحق ـ تبارك وتعالى ـ بحال ، لا على سبيل المقابلة والجزاء ، ولا في غيرها ، فلا يقال : إنّ الله فقير وعاجز أو خائن ، ومن هنا يعلم خطأ قول من قال من الذين لا يعلمون : خان الله من يخون، وظلم الله من ظلمه ، والله يجور عليك ، فإنّ الله لا يخون ، ولا يظلم ، ولا يجور مطلقا ، ولذلك قال الله في الذين يريدون خيانة الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليم حكيم ﴾ [2] .

ولم يقل فيهم كما قال في المخادعين ﴿ يخادعون الله وهو خادعهم ﴾ [3] لأنّ الخيانة صفة ذمّ بكلّ حال بخلاف الخداع ، فإنّه في حال المقابلة والمجازاة صفة مدح كما في الآية .

ثانيا ـ لا يجوز تسمية الله أو وصفه بما هو شّر :

لما كانت أفعاله صادرة عن أسمائه وصفاته فإنّ أفعاله كلّها خير ، وفي الحديث «والشرّ ليس إليك » ولو جاز أن ننسب الشرّ إلى الله تعالى ، لجاز أن نشتق لله أسماء تدل على ذلك الفعل ، وبذلك لا تكون أسماء الله كلها حسنى ، بل يكون فيها ما ليس بالأحسن ، وهذا باطل ، فالشرّ لا يضاف إلى الله فعلا ولا وصفا ، وإنما يدخل في مفعولاته ، وفرق بين الفعل والمفعول ، فالشرّ قائم بمفعوله المباين له ، لا بفعله الذي هو فعله[4] .

---

(١) بدائع الفوائد : ١/١٦٢

(٢) سورة الأنفال : ٧١

(٣) سورة النساء : ١٤٢

(٤) راجع بدائع الفوائد : ١/١٦٣

وقد قَرَّرَ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى « أنّه لا يجيء في كلام الله وكلام رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إضافة الشر وحده إلى الله ، ولا يذكر الشر إلا على أحد وجوه ثلاثة :

١ـ إمّا أن يدخل في عموم المخلوقات ، فإنَّه إذا دخل في العموم أفاد عموم القدرة والمشيئة والخلق ، وتضمَّن ما اشتمل عليه من حكمة تتعلق بالعموم كقوله تعالى : ﴿ الله خالق كل شيء ﴾ [١] وكل ما أوجده الله من رحمة ونفع ومصلحة فهو من فضله تعالى ، وكلُّ ما كان غير ذلك فهو من عدله ، فكلُّ نعمة منه فضل ، وكل نقمة منه عدل .

٢ـ وإما أن يضاف إلى السبب الفاعل كقوله تعالى : ﴿ قل أعوذ برب الفلق من شرِّ ما خلق ﴾ [٢] ، وقوله : ﴿ ماأصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ [٣] وقوله : ﴿ فأردت أن أعيبها ﴾ [٤] .

٣ـ وإمَّا أن يحذف فاعله كقوله : ﴿ وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا ﴾ [٥][٦] .

وقال ابن القيم : « الشر لا يدخل في صفات الله ، ولا في أفعاله ولا في أسمائه ، وإنما هو في المفعولات ، مع أنه شر بالإضافة والنسبة إلى العبد ، وإلا من حيث إضافته ونسبته إلى الخالق ـ سبحانه ـ فليس بشر من هذه الجهة »[٧] .

---

(١) سورة الزمر : ٦٢

(٢) سورة الفلق : ٢-١

(٣) سورة النساء : ٧٩

(٤) سورة الكهف : ٧٩

(٥) سورة الجن : ١٠

(٦) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : ٨/ ٩٤

(٧) الفوائد : ص ١٤٣

ثالثا ـ لا يجوز تصغير أسماء الباري جلّ وعلا

لما كان التصغير قد يفهم منه التحقير فإنَّ أهل العلم اتفقوا على أنَّه لا يجوز أن تصغَّر صفات الباري تبارك وتعالى ، وقد نقل الإجماع على عدم جواز ذلك إمام الحرمين ، ونقله عنه ابن حجر العسقلاني[1] .

رابعا ـ ما يجوز إطلاقه في حال دون حال ، وهو ما أطلق على الله على سبيل الجزاء والعدل والمقابلة ، فإن قيل : فما قولكم فيما ورد في القرآن من أفعال أو أسماء أطلقها الله علي نفسه مثل قوله تعالى : ﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم﴾[2] ، وقوله : ﴿ ومكروا ومكر الله﴾ [3] ، وقوله ﴿ نسوا الله فنسيهم﴾[4] ، وقوله : ﴿وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزؤن، الله يستهزئ بهم ﴾ [5] . وقوله : ﴿ ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون ﴾ [6] . وقوله : ﴿سخط عليهم ولعنهم ﴾ [7] وقوله : ﴿ إنا من ٱلمُجرِمِينَ منتقمون ﴾ [8] ونحو ذلك.

والجواب : أن هذه الصفات تكون كمالا في حال ونقصا في حال ، « وإذا كانت الصفة كمالا في حال ، ونقصا في حال لم تكن جائزة في حقّ الله ولا ممتنعة على سبيل الإطلاق ، فلا تُثْبت له إثباتا مطلقا ، ولا تنفى عنه نفيا مطلقا ، بل لا بدَّ من التفصيل ، فتجوز في الحال التي تكون كمالا ، وتمنع في الحال التي تكون نقصا ، وذلك كالمكر والكيد والخداع ونحوها ، فهذه صفات تكون كمالا إذا كانت في

---

(١) فتح الباري : ١٣/٣٦٦

(٢) سورة النساء : ١٤٢

(٣) سورة آل عمران : ٥٤

(٤) سورة التوبة : ٦٧

(٥) سورة البقرة : ١٤-١٥

(٦) سورة الدخان : ١٧

(٧) سورة المائدة : ٨٠

(٨) سورة السجدة : ٢٢

مقابلة من يعاملون الفاعل بمثلها ، لأنها حينئذ تدلّ على أن فاعلها قادر على مقابلة عدوّه بمثل فعله أو أشد ، وتكون نقصا في غير هذه الحال ، ولم يذكرها الله تعالى من صفاته على سبيل الإطلاق ، وإنما ذكرها في مقابلة من يعاملونه ورسله بمثلها»[1].

ومن هنا يعلم الخطأ الذي وقع فيه من عدّ في أسماء الله الحسنى اسم الماكر والمخادع والناسي والمستهزئ والفاتن والساخط والمنتقم ونحوها ، وقد حمل ابن القيم حملة شعواء على من ذهب هذا المذهب ، فقد نَقَلَ عنه الشيخ حافظ حكمي قوله : « إن الله تعالى لم يصف نفسه بالكيد والمكروالخداع والاستهزاء مطلقا ، ولا ذلك داخل في أسمائه الحسنى ، ومن ظنّ من الجهال المصنفين في شرح الأسماء الحسنى أن من أسمائه الماكر ، المخادع ، المستهزئ ، الكائد ، فقد فاه بأمر عظيم ، تقشعر منه الجلود ، وتكاد الأسماع تُصَمُّ عند سماعه ، وغرَّ هذا الجاهل أنه ـ سبحانه وتعالى ـ أطلق على نفسه هذه الأفعال ، فاشتق له منها أسماء ، وأسماؤه ـ تعالى ـ كلُّها حسنى ، فأدخلها في الأسماء الحسنى ، وقرنها بالرحيم الودود ، الحكيم الكريم ، وهذا جهل عظيم ، فإنّ هذه الأفعال ليست ممدوحة مطلقا ، بل تمدح في موضع ، وتذمُّ في موضع ، فلا يجوز إطلاق أفعالها على الله تعالى مطلقا ، فلا يقال: « إنه تعالى يمكر ويخادع ويستهزئ ويكيد ، فكذلك بطريق الأولى لا يشتق له منها أسماء يسمى بها »[2] .

ويقول شيخ الإسلام ابن تيميه ما ملخصه : « ليس من الأسماء الحسنى اسم يتضمن الشرَّ ، وإنما يذكر الشرُّ في مفعولاته ، واسم « المنتقم » ليس من أسماء الله الحسنى الثابتة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وإنما جاء في القرآن مقيَّدا كقوله تعالى : ﴿ إنا من المجرمين منتقمون ﴾ [3] ، وقوله تعالى : ﴿ إن الله عزيز ذو

---

(١) القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى للشيخ محمد صالح العثيمين : ص ٢٠

(٢) معارج القبول : ١/٧٦ .

(٣) سورة السجدة : ٢٢

انتقام﴾»[1] [2] .

٥ـ ما لا يجوز إطلاقه على الربِّ ـ تبارك وتعالى ـ لانقسامه إلى مدح وذم

وقريب مما ذكرناه مَنْ جعل من أسمائه المريد والفاعل والصانع والماهد ونحو ذلك ، وهذه ليست من أسمائه ، لأنَّ الإراده والفعل والصنع والمهد منقسمة إلى ما هو كمال وما هو نقص ، ولذا فإنَّ الله لم يطلق على نفسه منها إلا الأكمل فعلا وخبرا ، كقوله : ﴿ تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ﴾ [3] ، وقوله : ﴿والأرض فرشناها فنعم الماهدون ﴾ [4][5] .

وقد عد ابن العربي في أسمائه ـ تبارك وتعالى ـ الفاعل والزارع . والصواب من القول أن هذين وامثالهما إذا أطلقا بدون متعلق ولا سياق يدلُّ على وصف الكمال فيهما فلا يفيدان مدحا ، أما في سياقها من الآيات التي ذكرت فيها فهي صفات كمال ومدح ، قال تعالى : ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين﴾[6] وقال تعالى: ﴿ أفرأيتم ما تحرثون ،أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون﴾[7] كما عدّ من أسمائه الحسنى رابع ثلاثة ، وسادس خمسة ، أخذا من آيات سورة المجادلة ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادهم ﴾[8] وهذا خطأ، فالآية لا تدلُّ على ذلك، ولا تقتضيه لا منطوقا ولا مفهوما،ومعنى النص: الله رابع كل ثلاثة في نجواهم ، وسادس كل خمسة كذلك، يعلم أفعالهم ، ويسمع أقوالهم كما هو مفهوم من صدر الآية ، وهذا هو المعنى المفهوم من سياق النص .

---

(١) سورة إبراهيم : ٤٧

(٢) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : ٨/٩٦

(٣) سورة الأنفال : ٦٧

(٤) سورة الذاريات : ٤٨

(٥) راجع بدائع الفوائد : ١/ ١٦١

(٦) سورة الأنبياء : ١٠٤

(٧) سورة الواقعة : ٦٣ ـ ٦٤

(٨) سورة المجادلة : ٧

٦ـ ما لا يجوز إطلاقه على الحق سبحانه إلا مقترنا بغيره وهو الأسماء المزدوجة[١] .

وقد لاحظ علماؤنا أن بعض أسماء الله ـ تبارك وتعالى ـ لا يفيد الكمال مفردا، بل يجب اقترانه بمقابله حتى يفيد الكمال .

ومن هذه الأسماء التي لا تفيد الكمال بمفردها ، ويجب اقترانها بمقابلها اسم المذلُّ الضارُّ المنتقم المانع ، فلا يجوز أن يُثْنَى على الله بمجرد الإذلال والإضرار والانتقام والمنع ، والصواب أن يقال : المعزُّ المذلُّ ، الضارُّ النافع ، العفو المنتقم ، المعطي المانع ، فالكمال لرب العالمين يتحقق في اقتران كل اسم بما يقابله على النحو الذي ذكرناه ، لأنه يراد به أنه المنفرد بالربوبية وتدبير الخلق والتصرف فيهم إعزازا وإذلالا ، وضرّا ونفعا ، وعفوا وانتقاما ، وإعطاء ومنعا ، وهذه الأسماء المزدوجة تجري الأسماء منها مجرى الاسم الواحد الذي يمتنع فصل بعض حروفه عن بعض ، فهي وإن تعددت جارية مجرى الاسم الواحد ، ولذلك لم تجئ مفردة ، ولم تطلق عليه إلا مقترنة ، فإذا قلت : يا مذلُّ يا ضارُّ يا مانع ، وأخبرت بذلك لم تكن مثنيا عليه ولا حامدا له حتى تذكر مقابلها .

ولاحظ بعض المحققين أن اقتران هذه الأسماء بما يقابلها يفيد العموم ، وقد تقرر أن القرآن يضيف الشر إلى الله بإحدى طرق ثلاث إحداها : دخوله في عموم المخلوقات ، وبذلك يدخل في عموم قدرته ومشيئته وخلقه ، كما سبق بيانه .

وهذه الأسماء المزدوجة قليلة ، والكثير في أسمائه هو ما يجوز إطلاقه على الله منفردا ومقترنا بغيره، ، كالعليم والسميع والبصير والحكيم ، وهذا يجوز دعاؤه به مفردا ومقترنا بغيره ، كما يجوز الثناء عليه به مفردا ومقترنا بغيره[٢] .

---

(١) هذا مبني على إثبات هذه الأسماء لله تبارك وتعالى ، وقد تبين لنا أن أكثر هذه الأسماء لم ترد في الكتاب والسنة.

(٢) راجع بدائع الفوائد : ١/١٦٧

الأساس الثالث :

تنزيه الباري ـ تبارك وتعالى ـ عن التشبيه والتمثيل وكلِّ صفات النقص

وهذا معلم واضح عند السلف الصالح وأتباعهم ، فإنَّ من أعظم مقاصدهم تقديسهم لربِّهم ـ تبارك وتعالى ـ عن كل نقص وعيب .

ولا يقف بهم تنزيه الباري عند حدّ نفي التشبه فحسب ، بل هم ينزهونه تنزيها مطلقا سواءً بنفي التشبيه أو بالإخبار بنفي ما لا يليق به من الصفات ، أو التسبيح ، وبغير ذلك من أنواع التنزيه ، بينما تجد الذين يخالفونهم انصبت كلُّ جهودهم على نفي التشبيه ، وضلُّوا في هذا المسار عندما نفوا الصفات بحجة أنها تؤدي إلى التشبيه .

وهذا المعلم نصت عليه نصوص كثيرة من كتاب الله تعالى كقوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شئ وهو السميع البصير ﴾ [1] . وقوله : ﴿ ولم يكن له كفوا أحد ﴾ [2] ، وقوله : ﴿ هل تعلم له سميّا ﴾ [3]

وقد قَرَّر أهل السنة والجماعة بناء على ما فقهوه من بيان الله تعالى أن الله لا يشبه شيئا من خلقه ، لا في ذاته ولا في صفاته ، يقول شارح الطحاوية رحمه الله تعالى: « اتفق أهل السنة على أن الله ليس كمثله شيء ، لا في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله »[4] .

ويقول الإمام أبو حنيفة في كتاب الفقه الأكبر : « وصفاته كلها خلاف صفات المخلوقين ، يعلم لا كعلمنا ، ويقدر لا كقدرتنا ، ويرى لا كرؤيتنا »[5] ، ويقول نعيم

---

(١) سورة الشورى : ١١

(٢) سورة الإخلاص : ٤

(٣) سورة مريم : ٦٥

(٤) شرح العقيدة الطحاوية : ص ١٢٠

(٥) شرح العقيدة الطحاوية : ص ١٢٠ .
ونعيم هذا أول من جمع المسند في حديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان أعلم الناس بالفرائض ، أقام مدة في العراق يطلب الحديث ثم سكن مصر ، توفي سنة (٢٢٨) هـ .

ابن حماد : « من شبه الله بشيء من خلقه فقد كفر ، ومن أنكر ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه »[1] .

ويقول إسحاق بن راهويه : « من وصف الله فشبهه بصفات أحد من خلق الله فهو كافر بالله العظيم »[2] .

ونقل شيخ الإسلام ابن تيمية « عن الربيع بن سليمان أنه قال : سألت الشافعي ـ رحمه الله ـ عن صفات الله تعالى فقال : « حرام على العقول أن تُمَثِّلَ الله تعالى ، وعلى الأوهام أن تحدّه ، وعلى الظنون أن تقطع ، وعلى النفوس أن تفكر ، وعلى الضمائر أن تعمق ، وعلى الخواطر أن تحيط ، وعلى العقول أن تعقل إلا ما وصف به نفسه ، أو على لسان نبيه عليه الصلاة والسلام »[3] .

ويقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : « الله ـ سبحانه ـ ليس كمثله شيء لا في نفسه المقدّسة المذكورة بأسمائه وصفاته ، ولا في أفعاله ، فكما نتيقن أنّ الله ـ سبحانه ـ له ذات حقيقة ، وله أفعال حقيقة ، فكذلك له صفات حقيقة ، وهو ليس كمثله شيء ، لا في ذاته ولا في صفاته ، ولا في أفعاله ، وكل ما أوجب نقصا أو حدوثا فإنّ الله منزه عنه حقيقة ، فإنه ـ سبحانه و تعالى ـ مستحق للكمال الذي لا غاية فوقه ، ويمتنع عنه الحدوث لامتناع العدم عليه »[4] .

ويقول الشيخ مرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي مبينا هذا الأصل : « الله ـ سبحانه ـ مخالف لجميع الحوادث ، ذاته لا تشبه الذوات ، وصفاته لا تشبه الصفات ، لا يشبه شيئا من خلقه ، ولا يشبه شيئا من الحوادث ، بل هو منفرد عن جميع المخلوقات ، ليس كمثله شيء ، لا في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله ، له

---

(١) المصدر السابق

(٢) شرح العقيدة الطحاوية : ص ١٢٠ إسحاق هذا عالم خرسان في عصره ، اجتمع له الفقه والحديث والحفظ والورع ، روى عنه البخارى ومسلم والترمذي وغيرهم .

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ٦/٤

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ٢٦/٥ ، وانظر : ٢٦٣/٥

الوجود المطلق ، فلا يتقيد بزمان ، ولا يتخصص بمكان ، والوحدة المطلقة لقيامه بنفسه واستقلاله في جميع أفعاله ، وكل ما توهمه قلبك ، أو سنح في مجاري فكرك،أو خطر في بالك من حسن أو بهاء أو شرف أو ضياء أو جمال ، أو شبح مماثل ، أو شخص متمثل فالله ـ تعالى ـ بخلاف ذلك ، واقرأ : ﴿ ليس كمثله شيء﴾[1] ألا ترى أنه لما تجلى للجبل تَدَكْدَكَ لعظيم هيبته ، فكما أنه لا يتجلى لشيء إلا انْدَكَّ ، كذلك لا يتوهمه قلب إلا هلك ، وارض بما رضيه لنفسه ، وقف عند خبره لنفسه ، مسلِّما مستسلما مصدقا »[2] .

الفرق بين تنزيه الرسل وأتباعهم وتنزيه المعطلة

ما من طائفة إلا وتدعي أنها تريد تقديس ربها فيما تصفه به من صفات أو تنفيه عنه .

ولكن ليس كل من ادعى دعوى فقد أصاب فيما ادعاه ، فهؤلاء المعطلة يزعمون أنهم يريدون تنزيه الباري بنفي كلامه واستوائه وعروج الملائكة إليه ، ونفي علوه ووجهه ويده ونزوله ورأفته ورحمته وغضبه ورضاه ونحو ذلك .

وقد أكذبوا الله في قوله ، وتعالموا على قيوم السموات والأرض ، فضلُّوا وأضلُّوا، وهم في ذلك مخالفون للرسل الكرام ، والذين اتبعوهم بإحسان ، فطريقة اتباع الحق هو إثبات الصفات التي وصف الله بها نفسه ، أو وصفه بها رسوله ، معتقدين أنها صفات كمال وجلال ، وإنما نَفَوْا عنه صفات النقص كما نفوا عنه التشبيه .

وقد حاول بعض الباحثين أن يُقَرِّب المسافة بين أهل السنَّة والجماعة ومن انحرف عن مسارهم من نفاة الصفات بدعوى أن كلا الفريقين يريد بالمنهج الذي سلكه

---

(١) سورة الشورى : ١١

(٢) أقاويل الثقات : ص ١٣٤

تقديس الباري وتنزيهه[1] ، وهو بذلك يجد العذر للذين ضلوا في هذا الباب ، ويعدّ منهجهم في مصاف منهج أهل الحق .

إن تهوين خطيئة الذين انحرف بهم المسار فنفوا عن الله ما أثبته لنفسه من صفات خطأ كبير فيه إكْذَابٌ لله في قوله ، وتكذيب لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا يُهَوِّن من خطيئتهم أنهم يريدون الحق ، فكم من مريد للحق لا يدركه ، وهذه المقالة لو كانت صحيحة لَبُرِّرَ بها كل شرك وضلال ، فكل من سار مسارا من أهل الشرك يدعي أنه يريد تقديس معبوده وتعظيمه .

لا يكفي في التنزيه مجرد نفي التشبيه .

هناك أصلان متلازمان : الأول : وصف الله بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والثاني : نفي مشابهة صفات الله لصفات خلقه ، ولا يكفي المثبتين مجرد نفي التشبيه من غير اقتصار على الصفات المنصوص عليها ، إذ لو جاز ذلك لجاز أن يوصف ـ سبحانه ـ من الأعضاء والأفعال بما لايكاد يحصى مما هو ممتنع عليه ـ مع نفي التشبيه ، وأن يوصف بالنقائص التي لا تجوز عليه مع نفي التشبيه ، كأن يقول : إنه يبكي لا كبكاء العباد ، ويحزن لا كحزنهم ، ويجوع لا كجوعهم ، ويعطش لا كعطشهم ، ويشرب لا كشربهم[2] .

فيقال لهذا القائل : لقد أخطأت الطريق ، وانحرفت عن الصراط المستقيم ، ولم تصنع شيئا عندما نسبت إلى الله هذه النقائص والمعايب ، ونفيك المشابهة بين الخالق والمخلوق لا يغني عنك شيئا ، ولست بحاجة في رد هذه الصفات إلى نفي التشبيه ، بل يجب نفيها أصلا ، لأنها صفات نقص .

---

(١) راجع دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية لعرفان عبد الحميد : ص ٢٢٦ ، وتعليق الأستاذ محمد فهر شقفه على كتاب الرد على الزنادقة والجهمية للإمام أحمد بن حنبل : ص ٧٢

(٢) راجع مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ٣/٨٢

الأساس الرابع : إجراء الصفات على ظاهرها

الأساس الرابع الذي يقوم عليه مذهب السلف في أسماء الله وصفاته هو إجراؤها على ظاهرها .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : « حكى الخطابي وأبو بكر بن الخطيب وغيرهما أنَّ مذهب السلف إجراء أحاديث الصفات على ظاهرها »[1] .

ومراد السلف بإجرائها على ظاهرها هو الجزم بأن لها معنى حقيقيا يليق بجلال الله وكماله ، وهو المعنى الذي يظهر من اللفظ وفق ما تفقهه العرب من كلامها .

والمخالفون لمنهج السلف المقرر في هذا الأصل **ثلاث فرق** :

الأولى : الذين يجرون الصفات على ظاهرها ويجعلون ظاهرها من جنس صفات المخلوقين ، فهؤلاء المشبهة ، ومذهبهم باطل ، أنكره السلف وقبحوه ، وشنّوا الغارة عليه وعلى أهله . وخطؤهم أنهم اعتقدوا أن الظاهر من الصفات هو التشبيه ، وكل من يعظم ربَّه ويقدسه يعلم أن ظاهر الصفات التقديس والتنزيه .

الثانية : الذين يزعمون أنه يجب نفي ظاهر الصفات ، لأن ظاهرها يفيد التشبيه ، ومن هؤلاء من ينفي جميع الصفات ، ولا يثبت لله إلا الصفات السلبية أو الإضافية ، أو المركبة من السلب والإضافة ، أما صفات ثبوتيه فلا .

وبعض هؤلاء أثبت بعض الصفات دون بعض ، فيثبت منها سبعا ، أو ثمانيا ، أو خمس عشرة ، أو يثبتون الأحوال دون الصفات ، وبعضهم يُقِرُّ بالصفات الخبرية الواردة في القرآن دون ما ورد في الحديث .

وهؤلاء قسمان : قسم يتأولونها ، ويُعيِّنون المراد مثل قولهم : استوى بمعنى استولى ، أو بمعنى علو المكانة والقدر ، أو بمعنى ظهور نوره للعرش ، أو بمعنى انتهاء الخلق إليه، إلى غير ذلك من معاني المتكلمين . وقسم يقولون الله أعلم بمراده منها ، ولكنا نعلم أنه لم يرد إثبات صفة خارجة عما علمناه .

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ٣٣/١٧٧

والفرقة الثالثة : القائلون بالوقف وهؤلاء **قسمان** :

الأول : الذين يقولون : يجوز أن يكون ظاهرها هو المراد اللائق بجلال الله ، ويجوز أن لا يكون صفة لله ، وهذه طريقة كثير من الفقهاء والمتكلمين وغيرهم .

والثاني : الذين يمسكون عن هذا كله ، ولا يزيدون على تلاوة القرآن وقراءة الحديث ، معرضين بقلوبهم وألسنتهم عن هذه التقديرات[1] .

وخلاصة القول في مذهب السلف في هذا الأصل : « أنهم يجرون أسماء الله وصفاته على ظاهرها ، موقنين أن المعنى الظاهر من هذه الأسماء والصفات هو معنى حقيقي يليق بجلال الله وكماله ، ولا يمكن أن يشابه هذا المعنى صفات المخلوقين ، ولسنا بحاجة إلى تأويل صفات الله بحال من الأحوال . »

وقد جلَّى شيخ الإسلام مذهب السلف في هذا فقال : « مذهب السلف إجراء أحاديث الصفات وآيات الصفات على ظاهرها ، مع نفي الكيفية والتشبيه عنها ، فلا نقول : إن معنى اليد القدرة ، ولا أن معنى السمع العلم ، وذلك أن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات ، يُحتَذى فيه حذوه ، ويتبع فيه مثاله ، فإذا كان إثبات الذات إثبات وجود لا كيفية ، فكذلك إثبات الصفات إثبات وجود لا كيفية»[2] .

ويقول الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله تعالى : « مذهب أهل السنة والجماعة الإيمان بما ثبت في الكتاب والسنة من أسماء الله وصفاته لفظا ومعنى ، واعتقاد أن هذه الأسماء والصفات على الحقيقة لا على المجاز ، وأن لها معاني حقيقية تليق بجلال الله وعظمته ، وأدلة ذلك أكثر من أن تحصر .

ومعاني هذه الصفات ظاهرة معروفة من القرآن كغيرها لا لَبْسَ فيها ولا إشكال ولا غموض ، فقد أخذ أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عنه القرآن ،

---

(١) راجع مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ٥/١١٣

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ٣٣/١٧٧

ونقلوا عنه الأحاديث ، لم يستشكلوا شيئا من معاني هذه الآيات والأحاديث لأنها واضحة صريحة ، وكذلك من بعدهم من القرون الفاضلة »[1] .

الرد على المفوضة

الذين يجرون الصفات على ظاهرها ، ويقولون علم معانيها إلى الله تبارك وتعالى ، ونحن لا نعرف معاني هذه الأسماء يسمون بالمفوضة .

ويَدَّعِي كثير من الباحثين في هذا الموضوع أنَّ مذهب المفوضة هو مذهب السلف الصالح .

والتحقيق أنَّ السلف لا يفوضون معاني الأسماء والصفات ، وإنما يفوضون في كيفية الصفات ، أمّا المعاني فإنها معلومة من لغة العرب .

والرد على المفوضة من وجوه :

١ـ أنَّ السلف الصالح ثبت عنهم تفسير معاني أسماء الله وصفاته وفق ما تفقهه العرب من كلامها ، ولم يثبت عنهم خلاف ذلك .

يدلك على صحة هذا أنَّ الإمام مالك قال في الإجابة عندما سئل عن كيفية الاستواء: الاستواء معلوم ، والكيف مجهول . والمراد بالمعلوم ، أي معلوم معناه .

٢ـ لو كانت الأسماء ألفاظا لا معاني لها لم تكن حسنى كما أخبر الحق تبارك وتعالى، ولا كانت دالة على مدح وكمال ، لأن حسنها باعتبار معانيها ، فأي حسن فيها إن لم يكن لها معاني[2] .

٣ـ ولو كانت ألفاظا لا معنى لها لساغ وقوع أسماء الغضب والانتقام في مقام الرحمة والإحسان وبالعكس ، فيقال : اللهم إني ظلمت نفسي فاغفر لي ، إنك أنت الجبار المنتقم ، اللهم اعطني إنك أنت الضار المانع القابض .

---

(١) فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن إبراهيم : ١/٢٢٣ ـ قسم العقائد . مطبعة الحكومة بمكة المكرمة ١٣٩٩ هـ

(٢) التفسير القيم لابن القيم : ٢٨

٤ـ ولأنها لو كانت كما يقول النفاة لم يَجُزْ أن يخبر عن الصفة بمصدرها ، ويوصف بها كقوله تعالى : ﴿ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ [١] فالقويُّ من أسماء الله، ومعناه الموصوف بالقوة .

وكذلك قوله : ﴿ فلله العزة جميعا ﴾ [٢] . فالعزيز من له العزة ، فلولا ثبوت القوة والعزة له لم يسم قويًا ولا عزيزا .

٥ـ ولو لم تكن أسماؤه مشتملة على معان وصفات لم يسغ أن يخبر عنها بأفعالها.

فلا يقال : يسمع ويرى ويعلم ويقدر ويريد ، فإنَّ ثبوت أحكام الصفات فرع ثبوتها ، فإنَّ انتفى أصل الصفة استحال ثبوت حكمها .

٦ـ ولو لم تكن أسماؤه ـ تبارك وتعالى ـ ذوات معاني وأوصاف لكانت جامدة كالأعلام المحضة ، التي لم توضع لمسماها باعتبار معنى قام به ، فكانت كلها سواء ، ولم يكن فرق بين مدلولاتها وهذه مكابرة صريحة ، وبُهْتٌ بيِّنٌ ، فإن من جعل اسم « القدير » هو معنى اسم « السميع البصير » . ومعنى اسم « التواب » هو معنى اسم « المنتقم » ومعنى اسم « المعطي » هو معنى اسم «المانع» فقد كابر العقل واللغة والفطرة[٣] .

الأساس الخامس : الإجمال في النفي والتفصيل في الإثبات

ودلالة الكتاب والسنة على هذا الأصل الذي فقهه فقهاؤنا من سلفنا الصالح في غاية الوضوح ، ونظرة سريعة في كتاب الله تدلُّ دلالة بينة على صحة هذا المعلم .

فقد وصف الله نفسه في كتابه بأنه بكل شيء عليم ، وأنه على كل شيء قدير ، وأنه حي قيوم ، وأنه عزيزحكيم ، وأنه غفور رحيم ، وأنه سميع بصير ، وأنه يحبُّ

---

(١) سورة الذاريات : ٥٨

(٢) سورة فاطر : ١٠ .

(٣) التفسير القيم : ٢٩

المتقين والمحسنين والصابرين ، وأنه لا يحب الفساد ، ولا يرضى لعباده الكفر ، وأنه رضي عن المؤمنين ورضوا عنه ، وأنه يغضب على الكفار ويلعنهم ، وأنه يصعد إليه الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه ، وأنه كلَّم موسى تكليما .

هذا في الإثبات أما في النفي فإنَّه يجمل فيه ، كقوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء﴾ [1] وقوله : ﴿ فلا تجعلوا لله أندادا ﴾ [2] وقوله : ﴿ هل تعلم له سميا ﴾[3] وقوله: ﴿ ولم يكن له كفوا أحد ﴾ [4] .

فبين في هذه الآيات أنَّ الله لا كفو له ، ولا ندَّ له ، ولا مثل له ، ولا سمَّي له .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « إنَّ الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ جاؤوا بنفي مجمل وإثبات مفصَّل ، ولهذا قال سبحانه وتعالى : ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ﴾ [5] فسبَّح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل ، وسلَّم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب ، وطريقة الرسل هي ما جاء به القرآن ، والله تعالى في القرآن يثبت الصفات على وجه التفصيل ، وينفي عنه على طريق الإجمال التشبيه والتمثيل »[6] .

والسر في الإثبات المفصَّل والنفي المجمل ، أنَّ النفي المحض الذي لا يستلزم إثباتا ليس بمدح ولا ثناء لأنه عدم ، والذي يكون به المدح والثناء والتمجيد والتعظيم هو صفات الإثبات ، فلا يثبت الله لنفسه صفة سلب إلا إذا كانت متضمنه لِثُبوتٍ كالأحد ، فإن هذه الصفة متضمنة لانفراده بالربوبية والألوهية ، وصفة السلام المتضمنة لبراءته من كلِّ نقص يضاد كماله .

---

(١) سورة الشورى : ١١

(٢) سورة البقرة : ٢٢

(٣) سورة مريم : ٦٥

(٤) سورة الإخلاص : ٤

(٥) سورة الصافات : ١٨٠ ـ ١٨٢

(٦) مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ٣٧/٦

وكذلك الإخبار عنه بالسلوب ، يَرِد لتضمن هذه السلوب ثبوتا ، فإنّ عامة ما وصف الله به نفسه من النفي متضمن لإثبات المدح ، فَنَفَى الحق ـ تبارك وتعالى ـ عن نفسه السِّنَةَ والنوم في قوله : ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم﴾ (٧) دليل على كمال حياته وقيوميته،وقد ورد في الحديث : « إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام » .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ ولا يؤده حفظهما ﴾ (٢) مستلزم لكمال قدرته وتمامها ، بخلاف المخلوق القادر إذا كان يقدر على الشيء بنوع كلفة ومشقة ، فإن هذا نقص في قدرته وعيب في قوته .

وكذلك قوله : ﴿ لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ﴾ (٣) فإن نفي العزوب مستلزم لعلمه بكل ذرة في السموات والأرض . وكذلك نفي اللغوب وهو التعب في قوله : ﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب ﴾ (٤) مستلزم لكمال القدرة ونهاية القوة ، بخلاف المخلوق الذي يلحقه من التعب والكلال ما يلحقه .

هذا منهج القرآن في النفي ، فإذا كان النفي لا يستلزم ثبوتا فإنّ الله لا ينفيه عن نفسه بمثل هذا التفصيل ، وإنما يدخل في النفي العام المجمل ، كقوله : ﴿ ليس كمثله شيء﴾ (٥) .

وهذا النهج وهو الإكثار من نفي الصفات « مع كونه لا مدح فيه ، فيه إساءة أدب ، فإنك لو قلت للسلطان أنت لست بزبال ولا كسّاح ولا حجّام ولا حائك ، لأدبك على هذا الوصف ، وإن كنت صادقا ، وإنما تكون مادحا إذا أجملت النفي ،

---

(١) سورة البقرة : ٢٥٥

(٢) سورة البقرة : ٢٥٥

(٣) سورة سبأ : ٣

(٤) سورة ق : ٣٨

(٥) سورة الشورى : ١١

فقلت : أنت لست مثل أحد من رعيتك ، أنت أعلى منهم وأشرف وأجل ، فإذا أجملت في النفي أجملت في الأدب » [1] .

هذا هو المنهج الذي فقهه علماؤنا في النفي والإثبات في صفات الله ـ تعالى ـ إجمال في النفي وتفصيل في الإثبات ، أما أصحاب المنهج الفلسفي الكلامي فقد أُغْرِموا بالنفي المفصل ، والإجمال في الإثبات فتراهم يقولون في الله : « ليس بجسم، ولا شبح ، ولا جثة ، ولا صورة ، ولا لحم ، ولا دم ، ولا شخص ، ولا جوهر ، ولا عرض ، ولا بذي لون ولا رائحة ولا طعم ، ولا بذي حرارة ولا برودة ولا رطوبة ولا يبوسة ، ولا طول ولا عرض ولا عمق ، ولااجتماع ولا افتراق ، ولا يتحرك ولا يسكن ولا يتبعض ، وليس بذي أبعاض وأجزاء وجوارح وأعضاء ، وليس بذي جهات ، ولا يمين ولا شمال وأمام وخلف وفوق وتحت ، ولا يحيط به مكان ولا يجري عليه زمان ، ولا يجوز عليه المماسة ، ولا العزلة ، ولا الحلول في الأماكن ، ولا يوصف بشيء من صفات الخلق الدالة على حدوثهم ، ولا يوصف بأنّه متناه ، ولا يوصف بمساحة ولا ذهاب في الجهات وليس بمحدود ، ولا والد ولا مولود ، ولا تحيط به الأقدار ، ولا تحجبه الأستار ، إلى آخر ما نقله أبوالحسن الأشعري ـ رحمه الله عن ـ المعتزلة » [2] .

وقد تنبه علماؤنا إلى أن الذين يصفونه بالصفات السلبية على جهة التفصيل لا يثبتون لله إلا وجودا مطلقا لا حقيقة له عند التحري والتدقيق ، وإنما يرجع إلى وجود في الأذهان ، يمتنع تحقيقيه في الأعيان .

فإذا قيل في الأحاجي : ما الشيء الذي ليس بجسم ولا شبح ولا جثة ولا صورة ولا لحم ولا يصعد ولا ينزل ولا يتكلم ... الخ لقيل هو المعدوم .

وبذلك فرَّ هؤلاء بهذا المنهج الذي سلكوه من تشبيه الباري بالموجودات إلى

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية :ص ١٠٩ ، وراجع :مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ٣/ ٣٥ ،وبدائع الفوائد ، لابن القيم : ١/ ١٦١

(٢) شرح العقيدة الطحاوية : ١٠٩

تشبيهه بالمعدومات ، والذين سلبوا عنه النقيضين شبهوه بالممتنعات .

ولو التزموا بالمنهج القرآني النبوي في إثبات أسمائه وصفاته على الوجه اللائق به ـ تبارك وتعالى ـ إثباتا من غير تمثيل ، لما وصلوا إلى هذا الدرك الهابط من التفكير .

يقول شيخ الإسلام : « قد علم بصريح المعقول أن المطلق بشرط الإطلاق لا يوجد إلا في الأذهان ، لا في الأعيان ، وأن المطلق لا بشرط لا يوجد في الخارج مطلقا ، لا يوجدإلا معينا ، ولا يكون الرب عندهم حقيقية مغايرة للمخلوقات ، بل إما أن يعطلوه أو يجعلون وجوده وجود المخلوقات أو جزءها أو وصفها والألفاظ المجملة يكفون عن معناها »[1].

الأساس السادس : الوقف في أسماء الله وصفاته

أحد المعالم البارزة في باب أسماء الله وصفاته عدم تسمية الله بما لم يسم به نفسه، أو يسمِّه به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يصفونه إلا بما وصفته به النصوص ، وهذا عائد لأمور :

الأول : أن مخالفة هذا المنهج قول على الله بغير علم ، ورجم بالغيب ، وقد حرَّم الله هذا ، وعده من الجرائم العظام ، وإذا كان البشر لا يرضون أن يسَمّوا بغير أسمائهم فكيف يجوز هذا في حق خالق البشر .

الثاني : أن مخالفة هذا النهج تقديم بين يدي الله ورسوله ، وقد نهينا عن التقديم بين يدي الله ورسوله ، وكيف يجيب العبد إذا حاسبه ربّه يوم القيامة عن وصفه ـ تبارك وتعالى ـ بما لم يصف به نفسه .

الثالث : أن أسماء الله ـ تبارك وتعالى ـ حسنى ، ومهما اجتهد العبد فإنه قد لا يوفق للتعرف على الاسم الأحسن الذي يستحقه الربُّ تبارك وتعالى .

يقول ابن القيم رحمه تعالى : « لله من صفة الإدراكات العليم الخبير دون العاقل الفقيه ، والسميع البصير دون السامع والباصر، ومن صفات الإحسان : البر الرحيم

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الاسلام : ٣٨/٦

الودود ، دون الرفيق والشفيق ونحوها ، وكذلك العلي العظيم دون الرفيع والشريف ، وكذلك الكريم دون السخي ، والخالق الباري المصور دون الفاعل الصانع المشكل، والغفور العفو دون الصفوح الساتر»[1] .

وأكثر من هذا قد يتوهم بعض الفطناء أسماء حسنة يجوز اطلاقها على الله وهي ليست كذلك ، مثل العارف والعاقل والفطن . يقول ابن بدران : «لا يجوز تسميته بالعارف ، لأن المعرفة قد يراد بها علم تسبقه الغفلة ،كما لا يجوز اتصافه بالعقل ، لأن العقل علم مانع عن الإقدام على مالا ينبغي ، مأخوذ من العقال ، وإنما يتصور هذا المعنى فيمن يدعوه الداعي إلى مالا ينبغي .

ولا يجوز اتصافه تعالى بالفطن ، لأن الفطنة سرعة إدراك ما يراد تعريضه على السامع ، فتكون مسبوقة بالجهل .

لقد فقه علماء أهل السنة والجماعة هذه القضية ، فقالوا : إن أسماء الله وصفاته توقيفية ، يقول ابن القيم رحمه الله تعالى : « ما يطلق على الله في باب الأسماء والصفات توقيفي »[2] .

وقال ابن حجر العسقلاني : « قال الفخر : المشهور عن أصحابنا أنها توقيفية...، وقال أبو القاسم القُشيْرِي : الأسماء تؤخذ توقيفا من الكتاب والسنة والإجماع»[3] ، وقال السفاريني في منظومته « الدرة البَهية » :

لكنها في الحق توقيفية لنا بذا أدلـة وفـية .

وقال في شرحه لدرته البهية : « الجمهور منعوا إطلاق ما لم يأذن به الشرع مطلقا، وجوّزه المعتزلة مطلقا ، ومال إليه بعض الأشاعرة كالقاضي أبي بكر الباقلاني، وتوقف إمام الحرمين الجويني ..، واحْتَجَّ للقول المعتمد بأنها توقيفية بأنه لا

---

(١) بدائع الفوائد : ١/١٦٨

(٢) بدائع الفوائد : ١/١٦٢

(٣) فتح الباري : ١١/٢٢٣

يجوز أن يسمى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما ليس من أسمائه ، فالباري أولى»[1] .

وقال عبد القاهر البغدادي : « مأخذ أسماء الله تعالى التوقيف عليها ، إما بالقرآن وإمّا بالسنة الصحيحة ، وإما بإجماع الأمة عليه ، ولا يجوز إطلاق اسم عليه من طريق القياس .

وهذا خلاف قول المعتزلة البصرية في إجازتها إطلاق الأسماء عليه بالقياس .

وقد أفرط الجبائي في هذا الباب حتى سمى الله مطيعا لعبده إذا أعطاه مراده ، وسماه مُحْبِلا للنساء إذا خلق فيهنّ الحَبَل ، وضللته الأمة في هذا الجسارة التي تورث الخسارة»[2] .

وذكر ابن حجر العسقلاني أن المعتزلة والكرامية خالفوا أهل السنة فقالوا : « إذا دلَّ العقل أن معنى اللفظ ثابت في حق الله جاز إطلاقه على الله ، وقال القاضي أبو بكر والغزالي : الأسماء والصفات توقيفية »[3] .

والمراد بالتوقيف في أسماء الله وصفاته :

١ـ أن يُقْتَصَر في هذا الباب على ما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله ، وكذلك في باب الأسماء ، ويُنْفَى عنه كل ما نفاه عن نفسه أو نفاه عنه رسوله صلى الله عليه وسلم.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : « القول الشامل في جميع باب أسماء الله وصفاته أن يوصف الله بما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله، وبما وصفه به السابقون الأولون لا يتجاوز القرآن والحديث .

قال الإمام أحمد رضي الله عنه : لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه ، أو

---

(١) لوامع الأنوار البهية للسفاريني : ١/ ١٢٤

(٢) الفرق بين الفرق : ص ٣٣٧

(٣) فتح الباري : ١١/ ٢٢٣

وصفه به رسوله لا يتجاوز القرآن والحديث »[1] .

٢ ـ لا يجوز أن نشتق لربنا أسماء مما أخبرنا الله به عن نفسه ، فلا يقال : إن من أسماء الله : المفتي والزارع والماكر والماهد والفالق أخذا من قوله تعالى : ﴿ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن﴾[2] ، وقوله : ﴿ أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ﴾[3] ، وقوله : ﴿ ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾[4] ، وقوله : ﴿ والأرض فرشناها فنعم الماهدون ﴾[5] ، وقوله : ﴿ إن الله فالق الحب والنوى ﴾[6] .

يقول الصنعاني : « اختلف العلماء هل هي توقيفية ، يعني أنه لا يجوز لأحد أن يشتق من الأفعال الثابتة لله تعالى اسماً ، بل لا يطلق عليه إلا ما ورد به نص الكتاب والسنة»[7] .

ولا ينافي التوقيف اشتقاق المصدر والفعل من الأسماء الثابتة لله تعالى ، فالأسماء الثابتة للباري ـ تبارك وتعالى ـ كالسميع والبصير والقدير يطلق عليه منها السمع والقدرة ، ويخبر عنه بالأفعال من ذلك نحو قوله تعالى : ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير﴾[8] ، وقوله : ﴿ فقدرنا فنعم القادرون ﴾[9] .

وينبغي أن نعلم أن الإخبار عن الباري بالأفعال مما يثبت له من أسماء مقصور على

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية : ٥/٢٦

(٢) سورة النساء ١٢٧

(٣) سورة الواقعة : ٦٣ ـ ٦٤

(٤) سورة الإنفال : ٣٠

(٥) سورة الذاريات : ٤٨

(٦) سورة الأنعام : ٩٥

(٧) سبل السلام : ٣/١٤٣

(٨) سورة المجادلة : ١

(٩) سورة المرسلات : ٢٣

الأفعال المتعدية فحسب ، فإن كان الفعل لازما لم يخبر عنه به ، نحو الحي يطلق على الباري منه الاسم والمصدر دون الفعل[1] .

٣ـ عدم جواز دعاء الله بغير أسمائه وصفاته الثابته بالكتاب والسنة ، يقول الزَّجَّاج فيما نقله عنه ابن العربي : « لا يجوز دعاء الله بما لم يصف به نفسه » .

وقد جعل ابن العربي الزيادة في أسماء الله من الالحاد المنهي عنه في قوله : ﴿وذروا الذين يلحدون في أسمائه﴾ [2] . فقال : « والإلحاد يكون بالزيادة فيها ، والنقصان منها ، كما يفعله الجهال الذين يخترعون أدعية يسمون فيها الباري بغير أسمائه ، ويذكرونه بما لم يذكره من أفعاله ، إلى غير ذلك مما لا يليق به ، فحذار منها»[3] .

٤ـ اعتصامهم بألفاظ النصوص من الكتاب والسنة في باب أسماء الله وصفاته ، فلا يطلقون عليه ألفاظا محدثة مبتدعة ، كما فعل المبتدعة في هذا الباب .

يقول شارح الطحاوية رحمه الله تعالى : « التعبير عن الحق بالألفاظ الشرعية النبوية الإلهية هو سبيل أهل السنة والجماعة ، والمعطلة يعرضون عما قاله الشارع من الأسماء والصفات ، ولا يتدبرون معانيها ، ويجعلون ما ابتدعوه من المعاني والألفاظ هو المحكم الذي يجب اعتقاده واعتماده ، وأمّا أهل الحق والسنة والإيمان فيجعلون ما قاله الله ورسوله هو الحق الذي يجب اعتقاده واعتماده »[4] .

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية في هذا الموضوع : « لم يدخل السلف والأئمة مع الطوائف فيما ابتدعوه من نفي وإثبات ، بل اعتصموا بالكتاب والسنة ، ورأوْا ذلك هو الموافق لصريح العقل ، فجعلوا كل لفظ جاء به الكتاب والسنة من أسمائه وصفاته حقًا يجب الإيمان به ، وإن لم تُعْرَفْ حقيقة معناه ، وكل لفظ أحدثه الناس

---

(١) راجع عقيدة السفاريني : ١/١٢٦

(٢) سورة الأعراف : ١٨٠

(٣) احكام القرآن لابن العربي : ٢/٨٠٥

(٤) شرح العقيدة الطحاوية : ١٠٩

فأثبته قوم ونفاه آخرون فليس علينا أن نطلق إثباته ولا نفيه ، حتى نفهم مراد المتكلم ، فإن كان مراده حقا قبلناه ، وإن كان باطلا مخالفا لما جاء به الكتاب والسنة من نفي أو إثبات منعنا القول به »[1] .

فالسلف الصالح يُحكّمون كتاب الله وسنة رسوله فيما أطلقته الفرق المنحرفة من أسماء وصفات على الله ، فلا يبادرون بقبوله ولا ردّه حتى يعلموا مراد قائله منه، فإذا ذكر معنى خطأ ردُّوه على صاحبه ، لمخالفته الكتاب والسنة ، وإن ذكر معنى حسناً قبلوه وأقرُّوه ، وقالوا لقائله : مرادك صحيح ، ولكن لا تستعمل هذه الألفاظ المبتدعة الموهمة .

فإن قيل : ما قولكم في من قال لنا : هل الله شيء أو ليس بشيء ؟ وهل الله موجود أو معدوم ؟ وهل الله قديم أومحدث ؟ وهل الله قائم بنفسه أو محتاج إلى غيره ؟ فهل يجوز أن نقول : إن الله شيء ، وموجود وقديم ، وقائم بنفسه ؟ فإن قلتم : نعم، خالفتم قاعدتكم ، وإن قلتم : لا ، قلتم قولا عظيما .

والجواب : أن قولنا بأنَّ الله شيء ، وقديم ، وموجود ، وقائم بالنفس هو من باب الإخبار ، لا من باب الصفات ، فباب الاخبار يتوسع فيه ، أما باب الصفات فيقتصر فيه على ما ورد ، يقول ابن القيم : « ما يطلق عليه في باب الأسماء والصفات توقيفي، وما يطلق عليه من الأخبار لا يجب أن يكون توقيفيا ، كالقديم والشيء والموجود والقائم بنفسه . فهذا فصل الخطاب في مسألة أسمائه ، هل هي توقيفية أو يجوز أن يطلق عليه منها بعض ما لم يرد به السمع »[2] .

أقول والأفضل في باب الاخبار أن يصار إلى اللفظ الوارد في الكتاب والسنة عند وجود مثل هذا اللفظ ، فنقول : الأول بدل القديم . ونقول : القيوم بدل القيام بالنفس ، ونقول : الآخر بدل الأزلي والأبدي، فالتعبير بالمنصوص أولى وأحرى .

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ٦/٣٦ ، ٣/٤١

(٢) بدائع الفوائد : ١/١٦٢

وهنا أمر آخر نبّه عليه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ، وهو أنه لا يجوز أن يخبر عن الله ـ تبارك وتعالى ـ باسم سيء ، يقول رحمه الله تعالى : « ويفرق بين دعائه والاخبار عنه ، فلا يُدْعَى إلا باسم حسن ، أو باسم ليس بسيء ، وإن لم يُحْكَمْ مثل : اسم ، شيء ، وذات ، وموجود إذا أريد به الثابت ، وأما إذا أريد به الموجود عند الشدائد فهو من أسمائه الحسنى ، وكذلك المريد والمتكلم ، فإن الإرادة والكلام تنقسم إلى محمود ومذموم ، فليس ذلك من الأسماء الحسنى بخلاف الحكيم ، والرحيم ، والصادق ، ونحو ذلك فإن ذلك لا يكون إلا محمودا »[1] .

وقد يقال : تواتر النقل عن أهل العلم من المحدثين والمفسِّرين والفقهاء وغيرهم تفسيراتهم لأسماء الله وصفاته ، فكيف يستقيم القول بأنها توقيفية مع كثرة التفسيرات ؟

والجواب : كما يقول ابن القيم رحمه الله : « أنَّ أسماءه لا يقوم غيرها مقامها ، ولا يؤدي معناها ، وتفسيرها بغيرها ليس تفسيرا بمرادف محض ، بل هو على سبيل التقريب والتفهيم »[2] .

إطلاق لفظ الصفات على الله لا ينافي التوقيف . :

زعم بعض أهل العلم أن إطلاق لفظ « الصفات » على الله ـ تبارك وتعالى ـ ينافي التوقيف الذي جعله أهل السنة أحد الأسس الذي يقوم عليه معتقدهم في هذا الباب ، وقد ظنّ القائلون بهذا القول أن هذا الإطلاق مما جاء به المبتدعة ، ولم يأت به كتاب ولا سنة ، ولا نطق به سلف الأمّة .

وليس الأمر كما يقولون ، فقد جاء في كتاب الله قوله تعالى : ﴿ سبحان الله عما يصفون إلا عباد الله المخلصين ﴾[3] .

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ٦/١٤٢

(٢) بدائع الفوائد : ١/١٦٨

(٣) سورة الصافات : ١٥٩

فقد نزه نفسه عما وصفه به المشركون والضالون من صفات النقص والعيب ، واستثنى من ذلك ما وصفه به عباده المخلصون من صفات الجمال والجلال والكمال .

وفي صحيح البخاري عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث رجلا على سريّة ، وكان يقرأ لأصحابه في صلاته ، فيختم بقل هو الله أحد ، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي صلي الله عليه وسلم ، فقال :« سلوه ، لأيّ شيء يصنع ذلك ؟ فسألوه فقال : لأنها صفة الرحمن ، وأنا أحب أن أقرأ بها ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أخبروه أن الله يحبه»[1] .

والشاهد في الحديث أنَّ الصحابي قال : لأنها صفة الرحمن ، وأقرّه الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم ينكر عليه ، فلو كان هذا الإطلاق مما لا يجوز لأنكره عليه الرسول صلى الله عليه و سلم .

وجاء في شرح ابن حجر للحديث السابق الذي أورده البخاري ما نصه : « في الحديث حجة لمن أثبت أن لله صفة ، وهو قول الجمهور »، وشذَّ ابن حزم فقال: «هذه لفظة اصطلح عليها أهل الكلام من المعتزلة ومن تبعهم ، ولم تَثْبُتْ عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا عن أحد من أصحابه ، فإن اعترضوا بحديث الباب فهو من أفراد سعيد بن أبي هلال ، وفيه ضعف ، وعلى تقدير صحته(فقل هو الله أحد) صفة الرحمن كما جاء في الحديث ، ولا يزاد عليه ، بخلاف الصفة التي يطلقونها ، فإنها في لغة العرب لا تطلق إلا على جوهر أو عرض »[2] .

وعقَّب ابن حجر في رده على ابن حزم قائلا :سعيد متفق على الاحتجاج به ، فلا يلتفت إليه في تضعيفه . وكلامه الأخير مردود باتفاق الجميع على إثبات الأسماء الحسنى . قال الله تعالى : ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾[3] .

والأسماء المذكورة فيها بلغة العرب صفات ، ففي إثبات أسمائه إثبات صفاته ،

---

(١) انظر فتح الباري : ١٣/٣٤٨

(٢) فتح الباري : ١٣ / ٣٥٦

(٣) سورة الأعراف : ١٨٠

لأنه إذا أثبت أنه حي مثلا فقد وصفه بصفة زائدة على الذات وهي صفة الحياة ، ولولا ذلك لوجب الاقتصار على ما ينبئ عن وجود الذات فقط[1] .

الأساس السابع
ترك البحث في حقيقة الذات الإلهية والصفات التي تستحقها

إنَّ ذات الله ـ تبارك وتعالى ـ ليس كمثلها شيء ، وكذلك صفاته تبارك وتعالى ، فالكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات ، وإذا كانت الذات لا يعلم كنهها وحقيقتها فكذلك الصفات لا يعلم كنهها وحقيقتها ، ومصداق ذلك في كتاب الله قوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾[2] .

ومن هنا منع الذين فقهوا المنهج القرآني السؤال عن الله وصفاته بكيف ، لأن حقيقة الذات والصفات لا يمكن أن تعلم ، فلا يقال : كيف الله ؟ ولا كيف استوى ؟ ولا كيف علمه وسمعه وبصره ؟

وهذا لا يقضي نفي الصفة وقد أشار الحق إلى هذه الحقيقة بقوله : ﴿ ولا يحيطون به علما ﴾[3] ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه ﴾[4] فرؤية الله في الآخرة ممكنة، ولكن الإحاطة بالله منفية ، وإدراك معنى العلم ممكن ، ولكن الإحاطة بعلم الله غير ممكنة .

وقد نهى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن التفكر في ذات الله ، وأمر بالتفكر في خلق الله ، ففي الحديث : « تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله»[5]، وفي الحديث الآخر : « تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله »[6] .

---

(١) فتح الباري : ١٣/٣٥٧

(٢) سورة الشوري : ١١

(٣) سورة طه : ١١٠

(٤) سورة البقرة : ٢٥٥

(٥) صحيح الجامع الصغير : ٣/٩

وهو بذلك يريح الفكر الإنساني من الخوض في مجال لا يحسنه ، ولا يستطيع أن يدركه . وسئل سهل بن عبد الله التستري عن ذات الله فقال : « ذات الله موصوفة بالعلم ، غير مدركة بالإحاطة ، ولا مرئية بالأبصار في دار الدنيا ، وهي موجودة بحقائق الإيمان ، من غير حدّ ولا إحاطة ولا حول ، وتراه العيون في العقبى، ظاهرا في مُلْكِه وقدرته ، وقد حجب الخلق عن معرفة كنه ذاته ، ودلهم عليه بآياته ، فالقلوب تعرفه ، والعيون لا تدركه ، ينظر إليه المؤمن بالأبصار ، من غير إحاطة ولا إدراك نهاية»[1] .

وقال أبو جعفر الطحاوي في العقيدة التي تنسب إليه : « لا تبلغه الأوهام ، ولا تدركه الأفهام ، ولا يشبه الأنام » .

وقال أيضا : « والرؤية حقٌّ لأهل الجنة بلا إحاطة ولا كيفية ، كما نطق به كتاب ربنا ﴿ وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة ﴾ »[2] [3] .

الأساس الثامن :

عدم الإلحاد في أسماء الله وصفاته

الابتعاد عن الالحاد في أسماء الله وصفاته معلم بارز من معالم أهل السنة والجماعة في هذا الباب ، واتباع هذا السبيل هو تحقيق لما حذَّر الله منه في قوله : ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه ﴾ [4] وقوله : ﴿ إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا ﴾ [5] .

---

(٦) صحيح الجامع الصغير : ٩/٣

(١) شرح العقيدة الطحاوية : ص ١٧

(٢) سورة القيامة : ٢٢-٢٣

(٣) العقيدة الطحاوية : ص ٢٦

(٤) سورة الأعراف : ١٨٠

(٥) سورة فصلت : ٤٠

« والإلحاد في أسمائه هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها ، وهو مأخوذ من الميل ، كما تدل عليه مادته : (ل ح د) . فمنه اللحد ، وهو الشق في جانب القبر ، الذي قد مال عن الوسط ، ومنه الملحد في الدين المائل عن الحق إلى الباطل . قال ابن السُّكَّيْتِ : الملحد المائل عن الحق ، المدخل فيه ما ليس فيه ، ومنه المُلْتَحَد ، وهو مفتعل من ذلك . وقوله تعالى : ﴿ ولن تجد من دونه ملتحدا﴾[1] . أي من تعدل إليه ، وتهرب إليه ، وتلجأ إليه ، وتبتهل إليه ، فتميل إليه عن غيره ، تقول العرب : التحد فلان إلى فلان إذا عَدَلَ إليه »[2] .

أنواع الإلحاد في أسماء الله وصفاته

الإلحاد في أسماء الله وصفاته ثلاثة أنواع :

الأول : التكذيب بأسماء الله أو ببعض هذه الأسماء كتكذيب المشركين باسم الرحمن ، قال تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن ، قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا ﴾[3] .

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية : « أي لا نعرف الرحمن ، وكانوا ينكرون أن يسمى الله باسمه الرحمن، كما أنكروا ذلك يوم الحديبية حين قال النبي صلى الله عليه وسلم للكاتب : اكتب « باسم الله الرحمن الرحيم » . فقالوا : لا نعرف الرحمن ولا الرحيم ، ولكن اكتب كما كنت تكتب : باسمك اللهمَّ ، ولهذا أنزل تعالى : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾[4].

وقال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : « قل يا محمد لهؤلاء المشركين المنكرين

---

(١) سورة الكهف : ٢٧

(٢) بدائع الفوائد : ١/١٦٨ ، وراجع تفسير الطبري : ٩/ ١٣٤ وتفسير ابن كثير : ٣/ ٢٥٨

(٣) سورة الفرقان : ٦٠

(٤)سورة الاسراء : ١١٠

صفة الرحمة لله ـ عز وجل ـ المانعين من تسميته بالرحمن ﴿ ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ [1] أي لا فرق بين دعائكم له باسم الله أو باسم الرحمن ، فإنه ذو الأسماء الحسنى »[2] .

ومن هذا النوع من الإلحاد إلحاد الجهمية الذين نفوا عن الله أسماءه كما نفوا عنه صفاته ، ومنهم الذين عطلوا أسماء الله وصفاته عن معانيها وجحدوا حقائقها ، فقالوا: إن أسماء الله وصفاته ألفاظ مجردة لا تتضمن أية معاني ، فيقولون هو حي بلا حياة، وسميع بلا سمع ، وبصير بلا بصر ، ورحمن بلا رحمة .

الثاني : وصف الخالق بصفات الخلق ، فمن ذلك :

١ـ وصف الله بما يتعالى عنه ويتقدس من النقائص ، كقول خبثاء اليهود: ﴿ إن الله فقير ونحن أغنياء ﴾[3] ، وقولهم : ﴿ يد الله مغلولة ﴾[4] ، وقولهم : إن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام ، فتعب ، واستراح في اليوم السابع ، فأكذبهم الله في قوله : ﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب ﴾[5] .

٢ـ تسمية الله ـ تبارك وتعالى ـ بأسماء الخلق ، كتسمية النصارى له أبا ، وتسمية الفلاسفة له موجبا بذاته ، أو العلة الفاعلة ، أو العقل الفعال .

٣ـ تشبيه صفات الله بصفات خلقه ، فالمشبهة يزعمون أن لله وجها كوجهنا ، ويدا كأيدينا ، واستواءً كاستوائنا .

الثالث : منازعة الباري في أسمائه وصفاته ، ووصف المخلوقات بما يختص به الخالق .

---

(١) سورة الاسراء : ١١٠

(٢) تفسير ابن كثير : ٥/ ١٦١

(٣) سورة آل عمران : ١٨١

(٤) سورة المائدة : ٦٤

(٥) سورة ق : ٣٨

فمن ذلك دعوى الألوهية والربوبية ، كقول فرعون طاغية مصر لقومه ﴿ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ [1] ودعواه بأنه ربهم الأعلى في قوله : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ [2] .

ومن ذلك تسمية المشركين أصنامهم بأسماء الله تعالى ، فقد ذكر ابن عباس وابن جُرَيج ومجاهد أن المشركين عدلوا بأسماء الله تعالى عما هي عليه ، فسموا بها أوثانهم ، فزادوا ونقصوا ، فاشتقوا اللات من الله ، والعزى من العزيز ، ومناة من المنان .

ومن هذا تسمية بعض المسلمين أبناءهم بأسماء الله تبارك وتعالى ، فيسمونهم باسم عزيز ، وجبار ، وقد يشتقون لهم أسماء من أسماء الله ، مثل عزات ، فإنه مشتق من العزيز .

---

(١) سورة القصص : ٣٨

(٢) سورة النازعات : ٢٤

المبحث الثالث
الأدلة على أن ما ذكرناه في المبحث السابق هو معتقد السلف

قد ينازع بعض الذين ينسبون إلى الإسلام في أنَّ الذي نقلناه عن الأئمة الأعلام هو معتقد السلف في أسماء الله وصفاته ، ويقولون : ما دليلكم على ما قررتموه؟

ويمكننا أن نستدل على إجماعهم واجتماعهم على هذا المعتقد بأدلة منها :

الأول : نَقْلُ السلف لنصوص الأسماء والصفات من غير تكذيب بها كما فعل قوم ، ومن غير تشبيه لصفات الخالق بصفات المخلوق ، كما فعل آخرون ، ومن غير تحريف وتأويل لها كما فعل فريق ثالث .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية موضحا هذا الاستدلال : « والدليل على أن هذا مذهب السلف أنهم نقلوا إلينا القرآن العظيم ، وأخبار رسول الله ـ صلى الله عيله وسلم ـ نقل مصدق لها ، مؤمن بها ، قابل لها ، غير مرتاب فيها ، ولا شاك في صدق قائلها ، ولم يفسروا ما يتعلق بالصفات منها ، ولا تأولوه ، ولا شبهوه بصفات المخلوقين، إذ لو فعلوا شيئا من ذلك لنقل عنهم ، ولم يجز أن يكتم بالكلية ، إذ لا يجوز التواطؤ على كتمان ما يحتاج إلى نقله ومعرفته ، لجريان ذلك في القبح مجرى التواطؤ على نقل الكذب وفعل ما لا يحل .

بل بلغ من مبالغتهم في السكوت عن هذا : « أنهم كانوا إذا رأوا من يسأل عن المتشابه بالغوا في كفه ، تارة بالقول العنيف ، وتارة بالضرب ، وتارة بالإعراض الدالِ على شدّة الكراهة لمسألته »[1] .

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ٣/٤

الثاني : استدلالهم بالنصوص على صحة الأصول التي قام عليها هذا المعتقد ، وقد مرَّ معنا كثير من هذه الاستدلالات .

الثالث : نقل نصوص كلامهم المتفقة في معانيها على النصّ على الأصول التي ذكرناها ، وقد نقلنا جملة من كلام السلف في هذا ، وإن شئت أن تطلع على المزيد من أقوالهم فارجع إلى المدونات التي نقلت هذه الأقوال .

الرابع : إخبار الثقات العارفين بأقوال السلف والعالمين بأقوال الغابرين من المستقيمين والمنحرفين على أنَّ هذا هو معتقد السلف لا يختلفون عليه .

يقول محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة : « اتفق الفقهاء كُلهم من الشرق والغرب، على الإيمان بالقرآن والأحاديث التي جاء بها الثقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في صفات الرب ـ عزّ وجل ـ من غير تفسير ، ولا وصف ولا تشبيه، فمن فسر شيئا من ذلك فقد خرج مما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم ، وفارق الجماعة ، فإنهم لم يصفوا ، ولم يفسِّروا ، ولكن آمنوا بما في الكتاب والسنة ، فمن قال بقول جَهْم فقد فارق الجماعة»[1] .

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية بعد أن حكى مذهب السلف في أسماء الله وصفاته :« على هذا مضى السلف كلهم ، ولو ذهبنا نذكر ما اطلعنا عليه من كلام السلف في ذلك لخرجنا عن المقصود في هذا الجواب . وقد ثبت ما ادعيناه من مذهب السلف رضوان الله عليهم بما نقلناه عنهم جملة وتفصيلا ، واعتراف العلماء من أهل النقل كلهم بذلك ، ولم أعلم عن أحد منهم خلافا في هذه المسألة »[2] .

وقد بين شيخ الإسلام أنه لم ير بعد التحري التام ، ومطالعة ما أمكن من كلام السلف أحدا منهم يدلّ كلامه لا نصًا ولا ظاهرا على نفي الصفات الخبرية في نفس الأمر، وما رأى أحدا نفاها ، وإنما ينفون التشبيه ، وينكرون على المشبهة الذين

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ٤/٧

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ٥/١١١-١١٤

يشبهون الله بخلقه ، وينكرون على من ينفي الصفات ، كقول نعيم بن حماد ـ شيخ البخاري :« مَنْ شبَّه الله بخلقه كفر ، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيها »[1]

وقال ابو عمر : « أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلّها في القرآن والسنة والإيمان بها ، وحملها على الحقيقة ، لا على المجاز ، إلا أنهم لا يكيفون شيئا من ذلك ، ولا يجحدون فيه صفة محصورة .

وأما أهل البدع من الجهمية والمعتزلة والخوارج فكلهم ينكرها ، ولا يحمل شيئا منها على الحقيقة ، ويزعمون أنَّ من أقرَّ بها مشبه ، وهم عند من أثبتها نافون للمعبود، والحق فيما قاله القائلون بما نطق به كتاب الله وسنة رسوله ، وهم أئمة الجماعة والحمد لله »[2] .

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ٣٣/١٧٧

(٢) التمهيد لابن عبد البر : ٧/١٤٥

المبحث الرابع
خصائص المنهج السلفي

للمنهج السلفي الذي كان عليه الصحابة فمن بعدهم من أئمة الهدى خصائص تميزه عن غيره من المناهج والطرائق ، وإدراك هذه الخصائص ينير الطريق أمام الباحثين عن الحق في هذا الباب . وسنسوق في هذا المبحث أهم هذه الخصائص التي ظهرت لنا من خلال هذه الدراسة :

أولا : مذهب السلف هو المذهب الأكمل والأعلم والأسلم

مذهب السلف يمثل الفقه الأصيل لما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه فهو الحق الذي لا ريب فيه ، والنور الهادي إلى سواء السبيل ، وهو المنقذ من ظلمات الباطل ، وغياهب الشرك . وقد نازعهم أهل الانحراف عن الصراط المستقيم زاعمين أنهم أهل الهداية والاستقامة ، وسيأتي مزيد بحث في أحقية السلف بالمنهج الأمثل ، وتقرير أن مسارهم هو الأعلم والأسلم في خاتمة هذا البحث تحت عنوان : « منهج السلف في معترك الصراع » .

ثانيا : التوسط والاعتدال

السلف الصالح أهل التوسط والاعتدال في الأمور كلها ، وأعظمها باب الاعتقاد، فهم وسط بين المذاهب الجافية والمذاهب الغالية ، وهم في باب الأسماء والصفات وسط بين أهل التمثيل الذين شبهوا الله بخلقه وبين النفاة أهل التعطيل الذين عطلوا الباري عن صفاته .

يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى :« قولنا هو الوسط في فرق الأمة ، كما أن الأمة هي الوسط في الأمم ، فهم وسط في باب صفات الله بين أهل التعطيل الجهمية وأهل

التمثيل المشبهة »[1] .

ويقول السفاريني : « مذهب السلف من الفرقة الناجية بين التعطيل وبين التمثيل ، فلا يمثلون صفات الله تعالى بصفات خلقه ، كما لا يمثلون ذاته بذوات خلقه ، ولا ينفون ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم ، فيعطلون أسماءه الحسنى ، وصفاته العليا ، ويحرفون الكلم عن مواضعه »[2] .

والسر في هذه الوسطية أنَّ السلف استمسكوا بالحق الذي أنزل إليهم من ربهم ، والحق دائما وسط بين الافراط والتفريط وبين الغلو والتقصير .

أما الفرق الضالة عن الحق فهي دائمة التطرف ، وإذا تطرف فريق ظهر فريق آخر يقابله في الطرف الآخر ، فالجهمية بالغوا في نفي صفات الله تبارك وتعالى ، حتى أصبح وجود الباري عندهم ليس له حقيقة ، وإنما هو وجود ذهني فرضته عقولهم ، فجاء مقاتل بن سليمان وبالغ في إثبات الصفات حتى جسّم ، يقول الذهبي : « وظهر بخراسان الجهم ابن صفوان ، ودعا إلى تعطيل الرب عزَّ وجلَّ ، وخَلْقِ القرآن ، وظهر بخراسان في قبالته مقاتل بن سليمان المفسر ، وبالغ في إثبات الصفات حتى جسّم»[3] .

وزعمت الجهمية أن القرآن مخلوق ، فجاء ابن كلاَّب وتطرف في رده على المعتزلة ، وظنَّ أنه لا يستطيع دفع باطلهم إلا باعتقاد أن كلام الله تعالى معنى واحد قائم بذاته.

ثالثا : الاعتصام بالكتاب والسنة

أخص خصائص أتباع المنهج القرآني النبوي الذي اعتمده أهل السنة والجماعة هو الاعتصام بالكتاب والسنة استجابة لأمر الله ـ تبارك وتعالى ـ في

---

(١) العقيدة الواسطة لشيخ الإسلام : ص ٣٢ المكتبة السلفية – القاهرة ، الطبعة التاسعة ١٣٩٩ هـ

(٢) لوامع الأنوار البهية للسفاريني : ١/١١٦ .وراجع مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ٥/٢٧

(٣) تذكرة الحفاظ ١٥٩ – ١٦٠ .واشار إلى هذا المعنى شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى : ٦/٣٥

قوله: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا﴾[1] .

ولا شك أنَّ في الاعتماد على الكتاب والسنة عصمة للعقول من الضلال ، والنفوس من الزيغ ، والقلوب من الانحراف ، ولهذا كان علماؤنا يقولون : الاعتصام بالسنة نجاة ، قال مالك رحمه الله : « السنة مثل سفينة نوح ، من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها هلك »[2] .

فأهل الحق فقهوا معاني ما جاءهم من عند الله ، واعتمدوا على ما دلَّت عليه النصوص أو على ما استنبطوه منها ، لا على خيال فلسفي ، أو رأي أو قياس ، أو ذوق وجداني ، فأقامهم هذا المنهج على الصراط المستقيم الذي أمرنا الله باتباعه ﴿وأنَّ هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾[3] ، وَحكَمَ على الآخذين بما جاءهم من عند الله بالاهتداء إليه ، ومن يؤمن بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم .

رابعا : الطمانينة والسكينة التي يسكبها هذا المنهج في قلوب أصحابه

وهذه خاصية يعلمها من خالط القوم ، ونظر في علومهم ومؤلفاتهم وسيرهم ، فإن الناظر في ذلك كله يدرك ذلك الإيمان الراسخ والمعرفة الواضحة التي يمتاز بها علماء السلف الصالح .

والسر وراء ذلك أنَّ السلف الصالح هم أتباع المنهج القرآني النبوي ، ونصوص القرآن والسنة تقود أتباعها إلى اليقين والطمأنينة والسكينة ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾[4] .

إن النفوس لا تثق بأقوال البشر ، وتبقى هذه الأقوال محل نظر وبحث ، فإذا كان الذي يقرر لها الحقائق الغيبية والعلوم الشرعية هو ربها ومعبودها وخالقها فإن

---

(١) سورة آل عمران : ١٠٣

(٢) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : ٤/١٣٧

(٣) سورة الأنعام : ١٥٣

(٤) سورة الرعد : ٢٨

النفوس تخضع لقوله ، وتسكن للهدى الذي جاءها من عنده .

أضف إلى هذا أنَّ الباري ـ تبارك وتعالى ـ عليم بمداخل النفوس البشرية ، ولذا فإن القرآن إذا أقبل عليه العبد يورد على النفوس من البراهين والحقائق والمؤثرات ما يجعل النفوس توقن بصدق ما جاءها من عند الله .

ومن هنا نعلم أن دعوى الرازي وأمثاله من أن أدلة الكتاب والسنة لا تفيد اليقين ، ولا تفيد العلم دعوى باطلة ، تناقض ما يقرِّره الحق في كتابه والرسول صلى ـ الله عليه وسلم ـ في سنته[1] .

يحكي ابن تيمية أن أبا عبدالله الرازي وآخر من متكلمي المعتزلة دخلا على نجم الدين الكُبْرِي فقالا له : يا شيخ ، بَلَغَنَا أنك تعلم علم اليقين !

فقال : نعم ، أنا أعلم علم اليقين .

فقالا : كيف يمكن ذلك ، ونحن من أول النهار إلى الساعة نتناظر فلم يقدر أحدنا أن يقيم على الآخر دليلا ؟

فقال : ما أدري ما تقولان ، ولكن أنا أعلم علم اليقين .

فقالا له : صف لنا علم اليقين .

فقال : علم اليقين ـ عندنا ـ واردات ترد على النفوس ، تعجز النفوس عن ردها، فجعلا يقولان : واردات ترد على النفوس تعجز النفوس عن ردها ، ويستحسنان هذا الجواب[2] .

ولا شك أنَّ هذه الواردات التي ترد على النفوس تأتي عبر النظر في كلام الله وكلام رسوله ، والفقه عن الله وعن الرسول مرادهما ، وتأتي من خلال العمل بتوجيهات القرآن في عبادة الله وخوفه وتعظيمه .

---

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : ٤/١٠٤

(٢) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : ٤/٤٣

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « كل من كان بالله أعرف ، وله أعبد ، ودعاؤه له أكثر ، وقلبه له أكثر ، كان علمه الضروري بذلك أقوى وأكمل »[1] .

ويقول : « ما أوتيه علماء أهل الحديث وخواصهم من اليقين والمعرفة والهدى أمر يجل عن الوصف ، بل عند عوامهم من اليقين والعلم النافع ما لم يحصل منه شيء لأئمة المتفلسفة المتكلمين[2] .

ومما يدلك على صحة ما نقول أنَّ السلف الصالح وأتباعهم أعظم الناس صبرا عند المحن والبلاء والشدائد ، فلا يرجع الواحد عن معتقده مهما حلّ البلاء بساحه ، وهذا حال الرسل ، وأتباع الرسل ، وكيف يرجعون عن الإيمان الذي منحهم الله إياه، بعد أن خالطت بشاشته القلوب ، وذاقت حلاوته النفوس ، بل كثير منهم يجدون في البلاء من الحلاوة والرضا والطمأنينة أضعاف أضعاف ما يجدونه عند الرخاء . وهذا حالهم أيضا عندما ترد عليهم الشبهات ، فإنهم يدفعونها باليقين والنور الذي تلقوه من الكتاب والسنة .

خامسا : التوافق والانسجام لا التناقض والاختلاف

ما أنزل من عند الله لا اختلاف فيه بحال من الأحوال ، ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾[3] .

والمؤمنون بالمنهج القرآني النبوي في باب أسماء الله وصفاته منهجهم يصدق بعضه بعضا ، فلا اختلاف ولا تناقض بين ما يُقَعِّدونه من قواعد ، وما يأصلونه من أصول ، وما يأتون به من تفاصيل ، بخلاف أصحاب المنهج الفلسفي الكلامي ، فإنهم متناقضون مضطربون فيما يقعدونه ويفصلون فيه ، ويتبين ذلك بعدة أمور :

١ــ دعواهم أنهم بنفيهم الأسماء والصفات ، أو نفي الصفات دون الأسماء

---

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : ٤/٤٥

(٢) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : ٤/٢٩

(٣) سورة النساء : ٨٢

يريدون تنزيه الباري جلّ وعلا ، فهم يّدعون أن إثبات الأسماء والصفات ، أو إثبات الصفات يستلزم التشبيه والتمثيل ، ولم ينتبهوا إلى أنهم إذا نفوا عن الله ما وصف به نفسه من صفات شبهوه بالمعدومات ، ولما تنبه فريق من هؤلاء إلى الضلال الذي وقعوا فيه ، نفوا عنه النقيضين ، فقالوا : لا نقول إنه داخل العالم ولا خارجه ، ولا أنه عالم ولا جاهل الخ ، ولم يتنبهوا إلى أنهم شبهوه بالممتنعات ، وهكذا كل من حاد عن المنهج القرآني لا بدَّ أن يقع في التناقض والاختلاف .

٢ـ أصل الفلسفة عند أصحابها هو التشبه بالإله على قدر الطاقة ، ويجعلون هذا غاية الحكمة ونهاية الكمال الإنساني ، ويؤيدون هذا بما ينسبونه للرسول صلى الله عليه وسلم من قوله : « تخلقوا بأخلاق الله » وهذا باطل رواية ودراية ، أما رواية فليس لهذا الحديث أصل في كتب السنة ، وأمّا دراية فإن صفات الله لا تسمى أخلاقا ، ثم إنَّ بعض الصفات لا يجوز الاتصاف بها كالجبروت والعظمة والكبرياء[1] فكيف يدعو الفلاسفة إلى التشبه بصفات الباري ، وهم الذين يجتهدون كل الاجتهاد في نفى صفاته عنه ، أليس في هذا تناقض ؟ !!

٣ـ عمدة نفاة الصفات دعواهم أنّ العقل يحيل إثبات ما نفوه من الصفات ، فمن أنكر رؤية الله في الآخرة يزعم أن العقل يحيل رؤيته ، ولذا فإنَّه مضطر لتأويل النصوص الدالَّة على رؤية الله ، ومن يحيل أن لله علما وقدرة ، وأن كلامه غير مخلوق يَدَّعي الدعوى نفسها في إحالة العقل ذلك ، واضطراره إلى التأويل ، بل إنَّ الفلاسفة الذين أنكروا حشر الأجساد والأكل والشرب الحقيقي في الجنة يزعمون أن العقل أحال ذلك ، وأنه مضطر إلى التأويل .

وهؤلاء الذين اعتمدوا على إحالة العقل ليس لهم قاعدة مستمرة فيما يحيله العقل ، فإنَّ بعضهم يزعم إحالة العقل فيما يدعي غيره إيجاب العقل إثباته .

وعند التحقيق والنظر يظهر فساد قول هؤلاء فيما زعموا أنَّ العقل أحاله ، وما

---

(١) راجع شرح العقيدة الطحاوية : ص ٢٣ ،

زعموا وجوب تأويله أخطؤوا في حكمهم ، فالنصوص التي أوّلوها لا تحتمل التأويل، والعقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح بحال .

٤ـ إن أصحاب الكلام أكثر الناس انتقالا من قول إلى قول ، وجزما بالقول في موضع ، وجزما بنقيضه وتكفير قائله في موضع آخر ، وهذا دليل عدم اليقين ، ولذا فإن أصحاب الكلام كثيرو النزاع والاختلاف ، والفلاسفة أكثر منهم اختلافا ونزاعا.

وبسبب كثرة تناقضهم واختلافهم تراهم يكفّر بعضهم بعضا ، ويتبرأ بعضهم من بعض بخلاف أهل السنة .

يقول عبد القاهر البغدادي : « أهل السنة لا يكفر بعضهم بعضا ، وليس بينهم خلاف يوجب التبري والتكفير ، فهم إذن أهل الجماعة القائمون بالحق ، والله تعالى يحفظ الحق وأهله ، فلا يقعون في تناقض وتنابذ .

وليس فريق من فرق المخالفين إلا وفيهم تكفير بعضهم لبعض ، وتبري بعضهم من بعض كالخوارج ، والروافض ، والقدرية ، حتى إذا ما اجتمع سبعة منهم في مجلس واحد افترقوا عن تكفير بعضهم بعضا ، وكانوا بمنزلة اليهود والنصارى حين كَفَّرَ بعضهم بعضا »[1] .

سادسا : منهج ميسر في أسلوبه ومعانيه

الذي يطالع كتب الفلسفة وكتب علم الكلام التي تتحدث عن الله وأسمائه وصفاته يجد الأسلوب الذي صيغت به يتصف بالتعقيد والتخليط والجفاف ، وتكثر فيها المصطلحات الغريبة على الفكر الإسلامي ، وهذا النمط من الأساليب عندما تُعْرَضُ به العقيدة الإسلامية فإنَّه يُذهب بهاءها ، ويُطفئ ضياءَها ، ولا يستطيع هذا الأسلوب أن يحمل المعاني التي جاءت بها نصوص الكتاب والسنة .

إنَّ الأسلوب القرآني يمتاز بالسهولة واليسر والبساطة والوضوح ، وهذا يجعل

---

(١) الفرق بين الفرق : ص ٣٦١

إدراك العقيدة سهلا ميسّراً لا للعلماء فحسب ، بل لكافة المستويات من الناس على اختلاف مداركهم وفطرهم ، يأخذ كلٌّ حسب طاقته من التفكير والإقناع ، بخلاف تلك الأساليب الفلسفيّة والكلاميّة المعقّدة المليئة بالمصطلحات ، إذ لا يدرك محتوياتها إلا القليل من الناس .

أضف إلى هذا أنَّ المضمون الذي تعرضه نصوص القرآن والحديث يخلو من التناقضات والمعارضات التي يوردها المتكلمون ، والتي يحطم بعضها بعضا ، ويزلزل اللاحق ما قرَّره السابق ، وعند ذلك تضلّ العقول ، وتختل الموازين ، فلا تستطيع إدراك الحق من خلال سيول الشبه والمناقضات والمعارضات ، فيخرج دارسي هذا العلم من وراء دراستهم بالشبه والحيرة .

وقد أدرك الرازي هذا المعلم الذي يتصف به المنهج القرآني ، والذي خلا منه المنهج الكلامي ، فقال في وصيته التي أملاها على تلاميذه في مرض وفاته : « لقد اختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية ، فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن العظيم ، لأنّه يسعى في تسليم العظمة والجلال بالكلية لله تعالى ، ويمنع من التعمق في إيراد المعارضات والمناقضات، وما ذاك إلا للعلم بأن العقول البشرية تتلاشى وتضمحل في تلك المضايق العميقة والمناهج الخفية .

ولهذا أقول : كلّما ثبت بالدلائل الظاهرة من وجوب وجوده ووحدته وبراءته من الشركاء في القدم والأزلية والفاعلية ، فذلك هو الذي أقول به وألقى الله تعالى عليه»[1] .

ومن هنا نصَّ العلماء على أنّه : « لا يجوز مخاصمة أهل الحق بإلقاء شبهات أهل الأهواء عليهم ، لأن في ذلك دعاء إلى الباطل ، وتلبيس الحقّ ، وإفساد دين الإسلام»[2] .

---

(١) هذا النقل مثبت عن الرازي في مقدمة محرر كتاب الرازي : اعتقادات فرق المسلمين : ص ٢٤

(٢) شرح العقيدة الطحاوية : ٣٥١

الفصل الثالث
المخالفون لمذهب السلف في باب أسماء الله وصفاته

ضلّ عن الصراط المستقيم في باب أسماء الله وصفاته الذي كان عليه السابقون الأولون من الصحابة والتابعين ، والذين سلكوا طريقهم من بعدهم أقوام انحرف بهم المسار ، وإن تفاوت ضلال هؤلاء ، فبعضهم ضلّ ضلالا كلّيا ، وكان ضلال فريق آخر جزئيا .

وسنتناول في المباحث التالية أنماط هذه الانحرافات ، ونلقي عليها أضواء كاشفة تعصم مَنْ طالعها بمشيئة الله من التردّي في الهاوية .

المبحث الأوّل
الذين يصفون الباري بصفات النقص

وهؤلاء هم الأراذل في هذه الأمة ، الذين يسبون الخالق ، ويصفونه بصفات النقص التي يتنزه عنها العباد المخلوقون المربوبون ، وهؤلاء هم زنادقة هذه الأمّة وضلالها ، وهم في هذه الأمّة كسابقيهم من بني إسرائيل الذين زعموا أن ﴿ يد الله مغلولة ، غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء ﴾. [1]

وقال قدوة هؤلاء من ضالّي بني إسرائيل : ﴿ إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب

---

(١) سورة المائدة : ٦٤

ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب السعير ﴾ .[1]

وزعم ضُلاّ ل بني إسرائيل أن الله تعب بعد خلقه للسموات والأرض في ستة أيام فاستراح في اليوم السابع فأكذبهم الله في مقالتهم عليه ﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب ﴾[2] .

وزعم بعض أهل الجاهلية أنَّ الله لا يعلم حديث السرِّ والنجوى ﴿ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون ، وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين﴾ [3] . وقال في هذا الصنف : ﴿ أم يحسبون أنا لانعلم سرهم ونجواهم﴾[4].

ومن صفات النقص التي وصف الضالون ربَّهم بها أنَّ الملائكة بنات الله ، وان عيسى ابن الله ، وأن الله اتخذ صاحبة ، وقد نزه الله ـ تبارك وتعالى ـ نفسه عن هذا الافتراء العظيم في مثل قوله : ﴿ قل هو الله أحد، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد ﴾ .[5]

وقوله : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ، لقد جئتم شيئا إدا تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا أن دعوا للرحمن ولدا ، وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا ﴾ .[6]

---

(١) سورة آل عمران : ١٨١

(٢) سورة ق : ٣٨

(٣) سورة فصلت : ٢٢ ـ ٢٣

(٤) سورة الزخرف : ٨٠

(٥) سورة الاخلاص

(٦) سورة مريم : ٨٨ ـ ٩٢

المبحث الثاني
الذين يشبّهون الله بخلقه

زعم بعض الذين يُنْسَبُون إلى الإسلام ممن ضلّ في باب الاعتقاد ضلالا عظيما أنّ صفات الله كصفات البشر ، وذاته كذوات المخلوقات ، تعالى الله عمّا يقول الظالمون علوّا كبيرا .

وما كان للمسلم أن يحكي مقالة هؤلاء لولا أن المقام مقام بيان لباطل هؤلاء وتحذير منه . والذين قالوا هذه المقالة أكثرهم من الفرق الضالة المبتدعة ، فقد زعم هذا الزعم وتوجه هذا الاتجاه غلاة الشيعة ، ووصل هذا المرض إلى بعض أهل الحديث وبعض أتباع الأئمة : أبي حنيفة ، وأحمد، والشافعي ، ومالك .

يقول الشهرستاني رحمه الله تعالى : « الذين صرحوا بالتشبيه جماعة من الشيعة الغالية ، و جماعة من أهل الحديث الحَشَوية ، مثل الهشامين من الشيعة ، ومثل مضر وكَهْمَس وأحمد الهجيمي ، وغيرهم من الحَشَوية »[1] .

وقال الرازي : « كان بُدوُّ التشبيه في الإسلام من الروافض مثل بنان بن سمعان الذي كان يثبت لله تعالى الأعضاء والجوارح ، وهشام بن الحكم بن سالم الجواليقي ، ويونس بن عبد الرحمن القُمّي ، وأبو جعفر الأحْوَل الذي كان يُدْعى شيطان الطاق، وهؤلاء رؤساء علماء الروافض ، ثمّ تهافت في ذلك المحدِّثون الذين لم يكن لهم نصيب من المعقولات »[2] .

وفرق الشيعة الغالية التي قالت بالتشبيه وذكرها الرازي هي : الحَكَمِية أصحاب هشام بن الحكم ، والجَوَاليقية أتباع هشام بن سالم الجَوَاليقي الرافضي ، واليُونسية أتباع يونس بن عبد الرحمن القُمّي ، والشيطانية أتباع شيطان الطاق ، والحواريّة

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني : ١/١٠٥

(٢) اعتقاد فرق المسلمين والمشركين : ص: ٦٣

أصحاب داود الحواري[1] . وهناك فرقة ثالثة قالت بالتشبيه وهم الكرامية أتباع أبي عبدالله محمد بن كرّام من زهاد سجستان[2] .

ويقول ابن تيمية : « المشبهة والمجسِّمة في غير أصحاب أحمد أكثر منهم فيهم ، فهؤلاء أصناف الأكراد كلهم شافعية ، وفيهم من التشبيه والتجسيم ما لا يوجد في صنف آخر ، وأهل جيلان فيهم شافعية وحنبلية ، وأما الحنبلية المحضة فليس فيهم من ذلك ما في غيرهم ، والكراميَّة المجسمة كلهم حنفية »[3] .

وقد أطال أبو الحسن الأشعري في بيان مقالة هؤلاء فمما قاله فيهم ، ونقله عنهم: «قال هشام بن الحكم : الله جسم محدود عريض عميق طويل ، طوله مثل عرضه ، وعرضه مثل عمقه ، نور ساطع له قدر من الأقدار بمعنى أن له مقدارا في طوله وعرضه وعمقه لا يتجاوزه في مكان دون مكان ، كالسبيكة الصافية يتلألأ كاللؤلؤة المستديرة من جميع جوانبها ، ذو لون وطعم ورائحة ، ومِجَسّة ، لونه هو طعمه ، وهو رائحته ، وهو مجسّة ، وهو نفسه لون ، ولم يثبت لونا غيره ، وأنه يتحرك ويسكن ويقوم ويقعد ». وحكى عنه أبو الهذيل : أنه أجابه إلى أن جبل أبي قبيس أعظم من معبوده .

وحكى عنه ابن الراوندي : أنه زعم أن الله ـ سبحانه ـ يشبه الأجسام التي خلقها من جهة من الجهات ، ولولا ذلك ما دلت عليه .

وحكى عن داود الجواربي أنه كان يقول : أجوف مِنْ فيه إلى صدره ، ومُصْمَتٌ ما سوى ذلك ، وكثير من الناس يقولون : هو مُصْمَتٌ ، ويتأوَّلون قوله تعالى : ﴿الصمد﴾ المصمت الذي ليس بأجوف .

وقال هشام بن سالم الجواليقي : « إنَّ الله على صورة الإنسان ، وأنكر أن يكون لحما ودما ، وأنه نور ساطع يتلألأ بياضا ، وأنه ذو حواس خمس كحواس الإنسان ،

---

(١) انظر كلام الرازي عليه في المصدر السابق : ص ٦٤-٦٦

(٢) انظر الكلام عليهم في المصدر السابق ص : ٦٧

(٣) العقيدة الواسطية لابن تيمية : ص ٣٠ . المطبعة السلفية القاهرة ـ الطبعة التاسعة ١٣٩٩ هـ .

سمعه غير بصره ، وكذلك سائر حواسه ، له يد ورجل وأذن وأنف وفم ، وأن له وفرة سوداء .

وممن قال بالصوره من ينكر أن يكون الباري جسما ، وممن قال بالتجسيم من ينكر أن يكون الباري صورة »[1] .

وقال الشهرستاني : « حكى الأشعري عن محمد بن عيسى أنّه حكى عن مُضَرَ وكَهْمَس وأحمد الهَجِيمِي أنهم أجازوا على ربّهم الملامسة والمصافحة ، وأن المسلمين المخلصين يعانقونه في الدنيا والآخرة ، إذا بلغوا في الرياضة والاجتهاد إلى حدّ الإخلاص والاتحاد المحض .

وحكى الكعبي عن بعضهم أنّه كان يجوز الرؤية في دار الدنيا ، وأن يزوره المؤمنون ويزورهم . وحكى عن داود الجوازبي أنه قال : أعفوني عن الفرج واللحية، وأسألوني عما وراء ذلك »[2] .

---

(١) مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري : ص ٢٠٧- ٢١٠

(٢) الملل والنحل للشهرستاني : ١/ ١٠٤

المبحث الثالث
نفاة الصفات وفرقهم

اللون الثالث من ألوان الانحراف في هذا الباب هو نفي صفات الجلال والكمال عن الله التي امتدح بها نفسه ، أو امتدحه بها رسوله صلى الله عليه وسلم ، واعتقاد أنها صفات نقص يجب أن يُنَزَّه الباري عنها ، وهؤلاء جمعوا في مقالاتهم هذه كثيرا من أصول الضلال ، فإن النفاة يكذِّبون النصوص التي قررت هذه الصفات ، ويقدِّمون عليها ما قررته عقولهم الضعيفة ، ويزعمون أنها صفات نقص ، والله امتدح نفسه بها ، أضِفْ إلى هذا كله أنهم يطعنون في فقه السلف من الصحابة والتابعين وعلماء الإسلام ، ويزعمون أنهم على باطل ، وأنَّ الحق فيما جاؤوا به من الضلال ، والنفاة أنماط منهم المغرق في نفي الصفات ، فنفى أسماء الله وصفاته ، ومنهم من نفى الصفات دون الأسماء ، ومنهم من نفى بعض الصفات دون بعض .

واختلفت الدوافع والبواعث عند النفاة ، فبعضهم اتخذ هذا الطريق سبيلا لهدم عقيدة الإسلام ، والتلبيس على المسلمين ، وبعض النفاة لم تسعفهم عقولهم في معرفة الحق ، فردوا صفات الله ونفوها بشبهات واهية ، وتخرُّصات تأباها الشريعة الغراء ، وتردُّها الفطرة السليمة والعقول المستقيمة .

المطلب الأوّل الفرقة الأولى : الفلاسفة

وهؤلاء ينكرون ماهيّة الرب الزائدة على وجوده ، كما ينكرون صفات كماله ، وأنَّه لا سمع له ولا بصر ، ولا قدرة ولا حياة ، ولا إرادة ولا كلام ، ولا وجه ولا يدين ، وليس فيه معنيان ، يتميز أحدهما عن الآخر ألبتة .

وقد أجمع الذين سُمُّوا بفلاسفة الإسلام أمثال ابن سينا والفارابي وابن رشد وغيرهم على أن صفات الله ليست معاني قائمة بذات الله تعالى زائدة عليها ، بل

هي ذاته ، وقولهم هذا ينتهي إلى إنكار وجود الصفات ونفيها نفيا تاماً.

وقد جعل الفلاسفة الألوهية بمقالتهم هذه : فكرة مجردة لا مضمون لها ، فالذات التي لا صفات لها هي فكرة عقلية ليس لها وجود في الحقيقة ، وهي أشبه بالعدم منه بالوجود ، ولذلك ردَّد علماؤنا كثيرا في مدوناتهم أنَّ المشبِّه يعبد صنما ، والمعطِّل يعبد عدما .

واستدل الفلاسفة على مذهبهم بأن إثبات الصفات لله يقتضي أن يكون الباري مركَّبا ، وأن يكون جسما مؤلفا ، وهذا ينافي إثبات الوحدانية لله . فجعلوا ربَّ العباد من جنس الجوهر الفرد الذي لا يُحِسُّ ولا يرى ، ولا يتميز منه جانب من جانب ، بل الجوهر الفرد يُمكْن وجوده ، وهذا الواحد الذي جعلوه حقيقة رب العالمين مستحيل وجوده، فهو وجود مطلق لا تعيَّن فيه ، والوجود المطلق ليس له حقيقة في الأعيان ، بل هو وجود في الأذهان ، وقد أدَّى هذا المسار بهم إلى نفي واجب الوجود .

والفلاسفة لا يصفون الرب إلا بصفات سلبيّة محضة ، أو إضافيّه محضة ، أو مؤلفة من إضافة وسلب . والسر في ذلك عندهم أنَّ السلوب والإضافات لا توجب تعدُّداً أو كثرة في ذات الله .

فإذا قيل : واحد ، فمعناه سلب الشريك والنظير وسلب الانقسام ، وإذا قيل : قديم ، فمعناه سلب البداية عن وجوده ، وإذا قيل : جواد وكريم وغني ، فمعناه إضافته إلى أفعال صدرت منه .

وكذا يتولد من وَصْفَيِّ الإضافة والسلب للأول أسام كثيرة في ذاتها ، وهؤلاء الذين يُسَمَّون بفلاسفة الإسلام الذين نظروا في كتب فلاسفة اليونان كأرسطو وأفلاطون الإسكندري ، فآمنوا بما فيها من خزعبلات وضلالات ، وقد عظم في نفوس هؤلاء تلك الفلسفة ، وظنُّوها حقائق لا تكذب ، وأنوارا لا تُظْلِمُ ، لأنهم أقاموا بحوثهم على مقتضى البرهان .

وقد عظَم شأن هؤلاء عندما ترجمت كتب الفلاسفة بأمر المأمون بن هارون الرشيد ، فقد أرسل إلى الروم من عَرَّب له كتب الفلسفة ، فانتشرت مذاهب الفلاسفة في الناس ، واشتهرت كتبهم بعامة الأمصار ، وقد انجرَّ على الإسلام وأهله من وراء ذلك شرٌ مستطير ، وبلاء عظيم .

وقد ادعى الذين ساروا على خطى الفلاسفة أنَّهم يريدون التوفيق بين منهج الفلاسفة وبين عقائد المسلمين[1] .

غلاة الفلاسفة والباطنية

وهؤلاء زعموا أنَّ الله لا يوصف بالشيء ولا يوصف بنقيضه ، فلا يقولون عن الله هو موجود ولا غير موجود ، ولا عالم ولا ليس بعالم ، ولا قادر ولا ليس بقادر ، يقول ابن تيمية : « غلاة الفلاسفة يسلبون عنه النقيضين ، فيقولون : لا موجود ولا معدوم ، ولا حي ولا ميت ، ولا عالم ولا جاهل ، لأنهم يزعمون أنهم إذا وصفوه بالإثبات شبهوه بالموجودات ، وإذا وصفوه بالنفي شبهوه بالمعدومات ، فسلبوا النقيضين»[2] .

وهؤلاء الضالون شبهوه بالممتنعات فإن الذي يمتنع وصفه بالشيء ونقيضه هو الممتنع الوجود .

المطلب الثاني
الفرقة الثانية : الجهمية

الجهمية أول من ذهب مذهب النفي في الإسلام ، وزعماء هذه الفرقة هم الجعد

---

(١) راجع في هذا المبحث : الدين الخالص لصديق حسن خان : ٩٦/١ ، والتوحيد للهراس : ص ٢٧٢ ، ودراسات في الفرق للدكتور عرفان عبد الحميد : ص ٢٤٤ ومقاصد الفلاسفة للغزالي : ٢٢٣ وتهافت الفلاسفة للغزالي : ص ١٥٣ ونهاية الإقدام للشهر ستاني : ١٨١

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ٧/٣٠

ابن درهم ، وهو أول من جاء بهذه البدعة ، والجهم بن صفوان و هو الذي نشرها وبثها بعد أن أخذها عن شيخه الجعد بن درهم ، ولذا نُسِبتْ إليه ، وبشر المِريسي الذي قَعَّد هذا المذهب وأصَّله وناظر عليه .

يقول ابن كثير : « أخذ الجهم بن صفوان عن الجعد بن درهم ، وأخذ بشر المريسي عن الجهم ، وأخذ أحمد بن أبي دؤاد عن بشر »[1] .

ويقول ابن تيمية : « أخذ هذا المذهب عن الجعد الجهم بن صفوان فأظهره وناظر عليه ، وإليه أضيف قول الجهمية »[2] . وقال : « لما كان في حدود المائة الثالثة انتشرت هذه المقالة التي كان السلف يسمونها مقالة الجهمية بسبب بِشْرِ بن غياثٍ المرِّيسي وطبقته »[3] .

ولا شك أنَّ أصحاب هذه المَقالة الَضالة فتحوا باب شرّ على الأمّة الإسلامية ، وأفسدوا بمقالتهم هذه كثيرا من النفوس والقلوب ، وقد شكَّك كثير من أهل العلم في ولاء أصحاب هذه المقالات للإسلام وأهله ، وأشاروا إشارات واضحة إلى أنَّ مقصد هؤلاء كان إفساد هذا الدين ، يقول الطبري ـ رحمه الله تعالى ـ في الجعد ابن درهم : « الجعد بن درهم الزنديق الذي كان أول من ابتدع القول بخلق القرآن»[4] .

وقال فيه الذهبي : « الجعد بن درهم ، عِدَاده في التابعين ، مبتدع ضال ، زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ، ولم يكلم موسى ، فَقُتِلَ على ذلك بالعراق يوم النحر، والقصة مشهورة »[5] .

---

(١) البداية والنهاية : ٩/ ٣٥٠

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ٦٧/١٠

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ٢٢/٥

(٤) تاريخ الطبري ، انظر حوادث سنه ١٢٨ هـ

(٥) ميزان الاعتدال للذهبي : ٣٩٩/١ ، ورقم الترجمة : ١٤٨٢ طبعة عيسي البابي الحلبي – القاهرة ، الأولى ١٣٨٢ هـ ١٩٦٣م

وقال السَفاريني : « قال الجلال السيوطي في كتاب « الأوائل » : أوّل من تفوه بكلمة خبيثه في الاعتقاد الجعد بن درهم مؤدب مروان الحِمَار آخر ملوك بني أمية ، فقال بأن الله تعالى لا يتكلم»[1] .

ويقول ابن نباتة : « كان الجعد بن درهم أول من تكلم بخلق القرآن من أمة محمد بدمشق ثم طلب فهرب ، ثم نزل الكوفة ، فتعلم منه الجهم بن صفوان »[2] .

ويقول المقريزي : « كان الجهم أول من قال بنفي الصفات في الإسلام ببلاد المشرق ، وأنه ظهر بعد عصر الراشدين ، قبل نهاية المائة الأولى من الهجرة »[3] .

وقال الذهبي في الجهم بن صفوان تلميذ الجعد : « جهم بن صفوان أبو محرز السمرقندي الضال المبتدع رأس الجهمية ، هلك في زمن صغار التابعين »[4] .

ويقول الذهبي في بشر المريسي : « مبتدع ضال ، جَرَّد القول بخلق القرآن وناظر عليه ، ولم يدرك الجهم بن صفوان ، وإنّما أخذ مقالته ، واحتج لها ودعا إليها»[5] .

أصل الجعد بن درهم من خراسان ، ويقال : إنه من موالي بني مروان ، كان مُؤَدِّباً لمروان بن محمد آخر ملوك بني أمية الذي كان يُدْعَى مروان الحمار ، ولذلك يُدْعَى مروان الجعدي نسبة إلى شيخه الجعد بن درهم[6] .

كان الجعد أول من عُرف عنه القول بنفي الصفات وخلق القرآن ، وقد لاحظ عليه شيخه وهب بن مُنبِّه مسلكه المنحرف ، فكان يردعه وينبهه فلم يرتدع ولم

---

(١) لوامع الأنوار البهية للسفاريني : ١/٢٣

(٢) سرح العيون ، لابن نباتة : ص ١٨٦

(٣) الخطط للمقريزي : ٤/ ١٨٤

(٤) ميزان الاعتدال : ١/ ٤٢٦

(٥) ميزان الاعتدال : ١/ ٣٢٢ ورقم الترجمة : ١٢١٤

(٦) راجع البداية والنهاية : ٩/ ٣٥٠

يتنبه[1] .

يقول ابن كثير : « ذكر ابن عساكر في التاريخ أن الجعد كان يتردد إلى وهب بن مُنَبِّه ، وكان يسأل وهبا عن صفات الله عز وجل ، فقال له وهب يوما : ويلك يا جعد، أَقْصِرْ المسألة عن ذلك ، إني لإظنك من الهالكين ، لو لم يخبرنا الله في كتابه أنَّ له يدا ما قلنا ذلك ، وأنَّ له عينا ما قلنا ذلك ، وأنَّ له نفسا ما قلنا ذلك ، وأنَّ له سمعا ما قلنا ذلك ، وذكر الصفات من العلم والكلام وغير ذلك »[2] .

وقد صَدَقَ ظن وهب بن منبه ، فإن الجعد هلك بضلاله ، وأهلك خلقا كثيرا ، ولا يزال الضلال الذي افتراه وأخذه عمن قبله من الأمم المنحرفه يعمل عمله في إضلال العباد ، وقد خُتِمَ للجعد بخاتمة سوء .

يذكر ابن كثير في تاريخه «أنَّ خالد بن عبدالله القسري قَتَلَ الجعد يوم عيد الأضحي بالكوفة ، فقد خطب الناس ، وقال في خطبته تلك : أيها الناس ضَحُّوا تقبل الله ضحاياكم ، فإني مُضَحٍّ بالجعد بن درهم ، إنّه زعم أنّ الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ، ولم يكلم موسى تكليما ، تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيرا ، ثم نزل فذبحه في أصل المنبر » .

يقول ابن كثير بعد روايته لهذه الحادثة : « وقد ذكر هذا غير واحد من الحفاظ ، ، منهم البخاريُّ وابن أبي حاتم ، والبيهقي ، وعبدالله بن أحمد ، وذكره ابن عساكر»[3] .

وكان مقتله في سنة (١٢٤هـ) .

أما الجهم بن صفوان فهو أبو مُحْرِز السمرقندي ، وقيل الخزري ، وقيل الترمذي،

---

(١) البداية والنهاية : ٩/ ٣٥٠

(٢) البداية والنهاية : ٩/ ٣٥٠

(٣) البداية والنهاية : ٩/ ٣٥٠ ، وانظر هذه الحادثة في مجموع فتاوي شيخ الإسلام : ١٠/٦٦، ٨/٢٨٨ ، ١٣/ ١٧٧

مولى بني راسب[1] .

والمطلع على سيرة الجهم يعلم أنه كان خارجا على السلطان ، يقاتل في صفّ الخارجين عليه ، وقد خرج مع الحارث بن سُريج ، وكان كاتبه ومدبر عسكره ومتولي أمره ، وقتل معه في سنة (١٢٨هـ) .

وكان الذي قتله طَعَنَه في فمه ، فكان قتله على هذه الصورة جزاء وفاقا ، لأنه ادعى أن كلام الله مخلوق .

وقيل إن الجهم أُسر ، أسره سالم بن أَحْوَز صاحب شرطة نصر بن سيار ، فقتله ، ولم ينخدع بزخرف قوله ، وقال له : لو ملأت هذه كواكب ، وأنزلت عيسى بن مريم ، ما نجوتَ ، ولو كنت في بطني لشققت بطني حتي أقتلك ، ثم ضرب عنقه[2] .

أما الرجل الثالث من رجالات هذه الفرقة فهو بشر المريسي ، وقد ورث هذا الضلال عن الجهم بن صفوان وإن لم يلقه ، وهو بشر بن غياث بن أبي كريمة أبو عبد الرحمن المريسي ، من أهل مدينة بغداد ، يقول فيه الذهبي : « مبتدع ضال ، لا ينبغي أن يروى عنه ولا كرامة ، تفقه على أبي يوسف ، فبرع وأتقن علم الكلام ، ثُم جَرَّد القول بخلق القرآن ، وناظر عليه ، ولم يدرك الجهم بن صفوان ، إنما أخذ مقالته واحتج لها ، ودعا إليها .

وقال أبو النضر هاشم بن القاسم : كان والد بشر المريسي يهوديّا قَصَّابا صباغا في سويقة نصر بن مالك .

قلت : وقد كان بشر أُخذ في دولة الرشيد ، وأُوذي لأجل مقالته .

وقال المروزي : سمعت أبا عبد الله ذكر بشرا ، فقال : كان أبوه يهوديا ، وكان بشر يشغب في مجلس أبي يوسف ، فقال له أبويوسف : لا تنتهي أو تصعد خشبة ،

---

(١) راجع : ميزان الاعتدال : ١/ ٤٦٢ ورقم الترجمة : ١٥٨٤ ، والبداية والنهاية : ٩/ ٣٥٠

(٢) هامش مقالات الإسلاميين : ص ٦٢٦ ، والبداية والنهاية لابن كثير : ١٠/ ٢٧

يعني تصلب .

قال الخطيب : حُكي عنه أقوال شنيعة ، أساء أهل العلم قولهم فيه ، وكفره أكثرهم لأجلها ، مات سنة ثماني عشرة ومائتين »[1] .

وقد أطال الخطيب البغدادي المقال في ترجمته ، وذكر أقواله وأقوال أهل العلم فيه ، وذكر أنه كان معاصرا للإمام الشافعي ، وأن الشافعي ـ رحمه الله ـ جادله وخاصمه فأفحمه .

ونقل الخطيب أيضا عن أبي يعقوب إسحاق بن إبراهيم أنه قال :

مررت في الطريق فإذا بشر المريسي والناس عليه مجتمعون ، فمرَّ يهودي ، فأنا سمعته يقول : ليفسدن عليكم كتابكم كما أفسد علينا أبوه التوراة ، يعني أن أباه كان يهوديا،ونقل عن أحمد بن عبدالله العجلي قال : « رأيت بشر المريسي ـ لعنه الله ـ مرة واحدة ، شيخا قصيرا ذميم المنظر وسخ الثياب ، وافر الشعر ، أشبه شيء باليهود ، وكان أبوه يهوديًا صباغا بالكوفة في سوق المراضع ، ثم قال : لا يرحمه الله كان فاسقا » .

مذهب الجهمية في صفات الله

الذي ينظر في مقالة الجهمية يجد أن كثيرا من أصول الضلال والانحراف يرجع إلى ما جاءت به وافترته ، يقول أبو الحسن الأشعري في كتابه « مقالات الإسلاميين : ذهب جهم إلى القول بأن الجنة والنار تفنيان وتبيدان ، ويفنى أهلهما حتى يكون الله موجودا لا شيء معه ، وأنَّه لا يجوز أن يُخلّد الله أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار[2] .

---

(١) ميزان الاعتدال للذهبي : ١/ ٣٢٢ ورمقم الترجمة : ١٢١٤

(٢) مقالات الإسلاميين : ص ١٤٦ ، ٢٧٩

وزعم أن العبد مجبور على فعله ، وأنّه لا فعل لأحد حقيقة إلا الله وحده ، والفعل ينسب إلى العبد على المجاز ، كما يقال تحركت الشجرة ، ودار الفلك ، وزالت الشمس ، والفارق بين الإنسان وغيره أن الله فعل للإنسان قوة كان بها الفعل كما خلق له طولا وعرضا[1] .

وكان ينفي أن يكون الله شيئا ، لأنَّ ذلك تشبيه له بالأشياء ، وزعم الجهم أن الإنسان إذا أتى بالمعرفة ، ثم جحد بلسانه فإنه لا يكفر بجحده ، وأن الإيمان لا يتبعض ولا يتفاضل أهله فيه ، وأن الإيمان والكفر لا يكونان إلا في القلب دون غيره من الجوارح[2] ، والكفر عند الجهم هو الجهل بالله فقط ، ولا يكفر بالله إلا الجاهل به[3] .

والذي يعنينا بيانه في هذا المؤلف هو مذهبهم في أسماء الله وصفاته ، ومذهبهم قائم على خلاف المنهج القرآني النبوي الذي عليه السلف الصالح ، فإن الجهمية يصفون الله بالصفات السلبية على وجه التفصيل ، ولا يثبتون له إلا وجودا مطلقا لا حقيقة له عند التحصيل ، وإنما يرجع إلى وجود في الأذهان ، يمتنع تحقيقه في الأعيان، وهم بذلك يعطِّلون الباري عن صفاته وأسمائه تعطيلا يستلزم نفي الذات .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « كان جهم ينكر أسماء الله تعالى ، فلا يسميه شيئا ولا حيّا ولا غير ذلك إلا على سبيل المجاز . قال : لأنه إذا سمي باسم تسمى به المخلوق كان تشبيها »[4] .

وقال في موضع آخر : « جهم لا يثبت شيئا من الصفات ، لا الإرادة ، ولاغيرها، فإذا قال : إن الله يحب الطاعات ويبغض المعاصي ، فمعناه الثواب والعقاب »[5] .

---

(١) مقالات الإسلاميين : ص ٢٧٩

(٢) مقالات الإسلاميين : ص ١٣٢

(٣) مقالات الإسلاميين : ص ١٥٢ ، وراجع في التعرف على بدع الجهم بن صفوان : الملل والنحل للشهرستاني : ٨٦/١

(٤) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : ٣١١/١٢ ، وانظر : ٨/ ٤٦٠ من مجموع الفتاوي.

(٥) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : ٨/ ٢٣٠

ويقول شيخ الإسلام أيضا : « أول من حفظ عنه أنه قال هذه المقالة ، أعني أن الله ليس على العرش حقيقة وأن معنى استوى بمعنى استولى، ونحو ذلك ، هو الجعد بن درهم ، وأخذها عنه الجهم بن صفوان ، فنسبت مقالة الجهمية إليه »[1] .

وقال عبدالقاهر البغدادي : « امتنع الجهم من وصف الله تعالى بأنّه شيء أو حي أو عالم أو مريد ، وقال : لا أصفه بوصف يجوز إطلاقه على غيره كشيء وموجود وحي وعالم ومريد ونحو ذلك ، ووصفه بأنّه قادر وموجد وفاعل وخالق ومحيي ومميت ، لأن هذه الأوصاف مختصة به وحده ، وقال بحدوث كلام الله كما قالته القدرية ، ولم يسم الله تعالى متكلما به »[2] .

تأثير الجهمية فيمن جاء بعدهم

قد يظن بعض أهل العلم أنَّ مقالة الجهمية في نفي الصفات قد غاضت وزالت بزوال قائلها ودعاتها ، ولكنّ العالم بالْفِرق ومقالاتهم يعلم أنَّ كثيرا من الأصول التي أصَّلها الجهمية والتأويلات التي ابتدعوها لم يزل لها وجود على مّر التاريخ الإسلامي ، وقد تبناها وذهب إليها من يدعي أنه من أهل الحق ، وحسبنا أن نعلم أن المعتزلة كانت امتدادا للجهمية وفرعا من فروعها .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « هذه التأويلات الموجودة ـ اليوم ـ مثل التأويلات التي ذكرها أبو بكر بن فورك في كتاب التأويلات ، وذكرها أبو عبدالله محمد بن عمر الرازي في كتابه الذي سماه : « تأسيس التقديس » ، ويوجد كثير منها في كلام خلق كثير غير هؤلاء ، مثل أبي على الجبَّائي ، وعبدالجبار بن أحمد الهمداني ، وأبي الحسين البصري ، وأبي الوفاء بن عقيل ، وأبي حامد الغزالي وغيرهم ، هي بعينها تأويلات بشر المريسي ، التي ذكرها في كتابه ، وإن كان قد يوجد في كلام بعض هؤلاء رد التأويل وإبطاله أيضا ، ولهم كلام حسن في أشياء .

---

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : ٥/ ٢٠

(٢) الفرق بين الفرق : ص ٢١١ ، وانظر الملل والنحل للشهرستاني : ١/ ٨٦

فإنما بينت أن عين تأويلاتهم هي عين تأويلات بشر المريسي ، ويدلّ على ذلك كتاب الرد الذي صنفه عثمان بن سعيد الدارمي ، أحد الأئمة المشاهير زمان البخاري ، صنف كتاب سماه : « ردّ عثمان بن سعيد على الكاذب العنيد فيما افترى على الله في التوحيد » حكىٰ فيه هذه التأويلات بأعيانها عن بشر المريسي ، بكلام يقتضي أن المريسي أقعد بها ، وأعلم بالمنقول والمعقول من هؤلاء المتأخرين الذين اتصلت إليهم من جهته وجهة غيره»[1] .

ويقول في موضع آخر : « أخذ هذا المذهب عن الجعد بن درهم الجهم بن صفوان فأظهره ، وناظر عليه ، ثمّ انتقل ذلك إلى المعتزلة أتباع عمرو بن عبيد ، وظهر قولهم أثناء خلافة المأمون »[2] .

وقد يظهر بعض الذين ساروا على درب الجهمية وأخذوا منهجهم مخالفتهم لهم، وموافقة أهل السنة ، ولكن إذا حققت مقالتهم وجد أنهم خالفوا الجهمية شكلا ووافقوهم حقيقة ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « ثمّ إن المعتزلة الذين اتبعوا عمرو بن عبيد على قوله في القدر والوعيد دخلوا في مذهب جهم ، فأثبتوا أسماء الله تعالى ، ولم يثبتوا صفاته ، وقالوا : « نقول إنّ الله متكلم حقيقة ، وقد يذكرون إجماع المسلمين على أن الله متكلم حقيقة ، لئلا يضاف إليهم أنهم يقولون إنه غير متكلم ، لكن معنى كونه ـ سبحانه ـ متكلما عندهم أنه خلق الكلام في غيره ، فمذهبهم ومذهب الجهمية فى المعنى سواء ، لكن هؤلاء يقولون : هو متكلم حقيقة، وأولئك ينفون أن يكون متكلما حقيقة ، وحقيقة قول الطائفتين أنه غير متكلم ، فإنّه لا يعقل متكلم إلا من قام به الكلام ، ولا مريد إلا من قامت به الإرادة ، ولا محب ولا مبغض ولا رحيم إلا من قامت به الإرادة والمحبة والرضى والبغض والرحمة »[3].

ويقول شيخ الإسلام مبينا تأثير الجهم في غيره من الطوائف : « غلا جهم في

---

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية : ٢٣/٥

(٢) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : ٦٧/١٠

(٣) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : ٣١٢/١٢

النفي ، ووافقه على ذلك الباطنية والفلاسفه ونحوهم ، والمعتزلة في الصفات دون الأسماء ، والكلابيه ومن وافقهم من الفقهاء وأهل الحديث في نفي الصفات الاختيارية ، والكرامية ونحوهم وافقوه على أصل ذلك ، وهو امتناع دوام ما لا يتناهى ، وأنه يمتنع أن يكون لم يزل متكلما إذا شاء ، وفعّالا إذا يشاء ، لامتناع حوادث لا أول لها، وعن هذا الأصل نفى وجود ما لا يتناهى في المستقبل ، وقال بفناء الجنة والنار ، ووافقه أبو الهذيل إمام المعتزلة على هذا ، لكن قال بتناهي الحركات »[1] .

ويقول جمال الدين القاسمي في بيان أثر الجهمية في من بعدهم : « قد يُظَنُّ أن الجهمية أمْسَت أثرا بعد عين ، مع أن المعتزلة فرع منها ، وهي في الكثرة تعدُّ بالملايين على أن المتكلمين المتأخرين المنسوبين للأشعري يَرْجعُ كثير من مسائلهم إلى مذهب الجهمينة كما يدريه المتبحر في فن الكلام »[2] .

المطلب الثالث
الفرقة الثالثة : المعتزلة

وهذه الفرقة أثبتت لله أسماءه الحسنى ، ونفت ما دلت عليه هذه الأسماء من صفات، وهؤلاء هم أتباع واصل بن عطاء الغزّال ، الذي اعتزل مجلس إمام أهل السنة في عصره : الحسن البصري ، واعتزل باعتزاله مذهب أهل السنة .

ولد واصل بن عطاء بالمدينة في عام (٨٠ هـ) ونشأ بالبصرة ، ولقي أبا هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية ، ولازم مجلس الحسن بن الحسين البصري ، وأكثر من الجلوس بسوق الغزال ليعرف المتعففات ، فيصرف إليهن صدقته ، فقيل له الغَزّال من أجل ذلك .

---

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : ٨/ ٢٢٧ وانظر : ١٤/ ٣٤٨ من مجموع فتاوي شيخ الإسلام .

(٢) تاريخ الجهمية والمعتزلة : ص ٩

وكان واصل بن عطاء فصيحا جدّا ، ومن فصاحته إنه كان يلثغ بالراء ، فكان يتجنب الراء في كلامه ، واجتناب الكلمات التي فيها حرف الراء ليس سهلا ، لكثرة استعمالها ، توفي في سنة (٢٣١ هـ)

وله كتاب المنزلة بين المنزلتين ، وكتاب الفتيا ، وكتاب التوحيد .

والمعتزلة كلهم على اختلاف فرقهم متفقون على مبادئ أساسية لا يكون معتزليا عندهم إلا من أخذ بها ، وهي : العدل والتوحيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والوعد والوعيد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

والذي يهمنا من هذه المبادئ المبدأ الأول ، وهو التوحيد ، فإنَّ هؤلاء المعتزلة قد فهموا التوحيد بأنه وحدة الذات ، بأن لا يكون لها صفات قديمة زائدة عليها ، وعلّلوا ذلك بأن أخص صفات الألوهية هو القدم ، فلو كانت للذات صفات قديمة معها للزم أن تكون آلهة ، فيتعدد الإله .

ومصاب المعتزلة أنهم بالغوا في تقديس العقل ، واعتباره المصدر الأول للاعتقاد . وهم لا يتردّدُون في تأويل ما يرونه من النصوص متعارضا مع حكم العقل ، لأن حكم العقل قطعي في زعمهم ، وأمّا النصوص فدلالتها ظنية[1] .

وقد زعم المعتزلة أن « من قال لله علما وقدره فقد زعم أنه جسم مركب ، وهو مُشَبِّه ، لأن هذه الصفات أعراض ، والعرض لا يقوم إلا بجوهر متحيز ، وكل متحيز مركب أو جوهر فَرْدٌ ، ومن قال بذلك فهو مُشبه ، لأن الأجسام متماثلة »[2] .

قال صاحب الطحاوية مبينا مذهبهم الباطل : « هدم المعتزلة بأصولهم الخمسة كثيراً من الدين .

فإنهم بَنَوا أصل دينهم على الجسم والعرض ، الذي هو الموصوف والصفة

---

(١) راجع خبيئة الأكوان في افتراق الأمم على الأديان ، لمحمد صديق خان ص : ١٥ ، دار الكتب العلمية ، بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ ١٩٨٤ م ، وكتاب دعوة التوحيد ، للدكتور محمد خليل الهراس : ص ٢٧٠ مكتبة طنطا ، مصر.

(٢) مجموع فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية : ٥/ ١١١/ ١١٢

عندهم ، واحتجوا بالصفات التي هي الأعراض على حدوث الموصوف الذي هو الجسم ، وتكلموا بالتوحيد على هذا الأصل . فنفوا عن الله كل صفة ، تشبيها بالصفات الموجودة في الموصوفات التي هي الأجسام »[1] .

والمعتزلة تقول : « إنَّ الله عليم بذاته ، بصير بذاته ، سميع بذاته ، لا بعلم وسمع وبصر ، وهكذا بقية الصفات ، فقد أثبتوا الأسماء ونَفَوا الصفات التي تدلُّ عليها ، وتشتق منها ، ولكنهم أثبتوا لازمها مع نفيهم إياها ، والذي دعاهم إلى هذا أنَّهم زعموا أن إثبات هذه الصفات يؤدي إلى تعدد القدماء ، وهذا ينافي التوحيد ، وقالوا: هذه الصفات أعراض ، والعرض لا يقوم إلا بجوهرمتحيز ، وكل متحيز فجسم مركب أو جوهر فرد ، ومن قال بذلك فهو مشبِّه ، لأنَّ الأجسام متماثلة»[2] .

وهؤلاء خالفوا بدائه العقول ، فالعقول لا تعقل وجود ذات عالمة بغير علم ، وذات سامعة بغير سمع ، وذات قادرة بغير قدرة .

وخالفوا النصوص التي أثبتت له الصفات صراحة ، كقوله تعالى : ﴿ أنزله بعلمه﴾[3] وقوله : ﴿ وما تحمل من أنثى ولاتضع إلا بعلمه ﴾[4] ، وقوله : ﴿ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾[5] .

وفي الحديث : « اللهُمَّ إني استخيرك بعلمك واستقدرك بقدرتك »[6]

فأثبت لنفسه ـ بصريح العبارة ـ العلم والقوة والقدرة والنصوص الدالة على ذلك كثيرة .

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية : ص ٣٣٤

(٢) راجع : أقاويل الثقات في تأويل الاسماء والصفات : ص٦٩

(٣) سورة النساء : ١٦٦

(٤) سورة فاطر : ١١

(٥) سورة الذاريات : ٥٨

(٦) اخرجه البخاري: ١١٦٢ ، و ٦٣٨٨ ، والترمذي : ٤٨٠ ،وابن ماجة : ١٣٨٣، وأبو داود : ١٥٣٨، والنسائي : ٦/ ٨٠ ، واحمد: ٦/ ٨٠، ٨١

تأثير المعتزلة في من جاء بعدهم

قد يظن بعض أهل العلم أن المعتزلة قد انقرضوا وبادوا ، وهذا خطأ ،فإنه قد حمل آراءهم ومعتقداتهم كثير من الذين جاؤوا من بعدهم .

يقول جمال الدين القاسمي رحمه الله تعالى : « شيعة العراق على الإطلاق معتزلة ، وكذلك شيعة الأقطار الهندية والشامية والبلاد الفارسية ، ومثلهم الزيدية في اليمن ، فإنهم على مذهب المعتزلة في الأصول كما قاله العلامة المقبلي في « العِلْمِ الشامخ ».

وبهذا يعلم أن الجهمية المعتزلة ليسوا في قلة ، فضلا عن أن يظن أنهم انقرضوا ، وأن لا فائدة للمناظرة معهم ، وقائل ذلك جاهل بعلم تقويم البلدان ومذاهب أهلها»[1] .

---

(١) تاريخ الجهمية والمعتزلة : ص ٥٦

المبحث الرابع
الشبه التي اعتمد عليها نفاة الصفات والرد عليها

المطلب الأول
شبه نفاة الصفات

زعم نفاة الصفات أنهم يريدون تنزيه الباري بنفيهم صفاته ، وادَّعَوا أن إثبات هذه الصفات يعني تشبيه الباري بخلقه ، ورَمَوْا أهل السنة الذين يثبتون ما أثبته الله ورسوله في هذا الباب بالمشبهة ، وحملوا عليهم حملة منكرة يلمزونهم ويهمزونهم ويضللونهم ، زاعمين أن مذهب النفي هو المذهب الحق الذي يؤدي إلى توحيد الباري وتنزيهه .

وزعموا أن إثبات الصفات يؤدي إلى خلع الصفات البشرية على الذات الإلهية ، فهو يؤدي عندهم إلى التجسيم والتركيب والتحيز وغير ذلك من الألفاظ التي أطلقوها في هذا الباب مُنفرين من المنهج القرآني النبوي السلفي .

وقد صاغوا من هذا الانحراف ألوانا كثيرة من الشبهات زعموا أنها أدلة عقلية تدلُّ على نفي الصفات ، والحق أنها ظنون وتخرُّصات ، وليست من الأدلة في شيء.

وقد أجمل شيخ الإسلام هذه التخرُّصات التي زعموها أدلة فقال : « قالت الجهمية نفاة الصفات : إثبات الصفات يستلزم التشبيه والتجسيم لله ، والله سبحانه وتعالى منزه عن ذلك ، لأنَّ الصفات التي هي العلم والقدرة والإرادة ونحو ذلك أعراض ومعان تقوم بغيرها ، والعرض لا يقوم إلا بجسم ، والله تعالى ليس بجسم ،

لأن الأجسام لا تخلو من الأعراض الحادثة ، وما لا يخلو من الحوادث فهو حادث .

وقالوا بهذا استدللنا على حدوث الأجسام ، فإن بطل هذا بطل الاستدلال على حدوث العالم ، فيبطل الدليل على إثبات الصانع .

وقالوا : إذا كانت الأعراض التي هي الصفات لا تقوم إلا بجسم ، والجسم مركب من أجزائه ، والمركب مفتقر إلى غيره ، ولا يكون غنياً عن غيره واجب الوجود بنفسه ، والله تعالى غني عن غيره ، واجب الوجود بنفسه .

وقالوا : الجسم محدود متناهي ، فلو كان لله صفات لكان محدودا متناهيا ، وذلك لا بد أن يكون له مخصص خصَّصه بقدر دون قدر ، وما افتقر إلى مخصص لم يكن غنيا قديما واجب الوجود بنفسه .

قالوا : ولأنه لو قامت به الصفات لكان جسما ، ولو كان جسما لكان مماثلا لسائر الأجسام ، فيجوز عليه ما يجوز عليها ، ويمتنع عليه ما يمتنع عليها ، وذلك ممتنع على الله تعالى »[1] .

وقالوا : إنَّ إثبات الصفات القديمة للباري يعني أننا جعلنا لله ندا ومثلا، والله نهانا عن ذلك وعدَّ هذا شركا ، ووجه ما قالوه أنَّ أخص صفات الله عندهم القدم ، فمن أثبت لله صفة قديمة كالسمع والبصر والقدرة والعلم فقد أثبت لله مثلا وندّا قديما ، ويسمونه مُمَثِّلا بهذا الاعتبار[2] .

ونفى هؤلاء كلام الله كما نَفَوا رؤيته في الآخرة بدعوى أن الذي يُدْرَك بالحواس الخمس هو المخلوق ، فإذا كان المخلوق يُدْرَكُ بالحواس فإن الباري لا يدرك بهذه الحواس وإلاّ لزم تشبيه الخالق بالمخلوق[3] .

وقال نفاة الصفات الاختيارية كالخلق والتصوير والإماتة والإحياء والقبض

---

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : ٦/ ٣٤

(٢) انظر مجموع فتاوي شيخ الإسلام : ٣/ ٧٠

(٣) راجع : شرح العقيدة الطحاوية : ص١٢٨

والبسط والاستواء والاتيان والمجيء والنزول والغضب والرضا ونحو ذلك : إن إثبات هذه الصفات يقتضي حلول الحوادث بالله تبارك وتعالى[1] .

المطلب الثاني
الرد على شبه هؤلاء

أولا : ليس لنفاة الصفات دليل من الكتاب والسنة ولا من سلف الأمة :

يعلم هذا الناظر في أدلتهم ، ولو كان قولهم صوابا لوجدنا نصوص القرآن والسنة تؤيده وتأمر به ، فإن القضية الكبرى التي جاءنا بها الوحي الإلهي الرباني هي تعريف العباد بربهم ، فكيف يكون طريق معرفة الله وتوحيده هو نفي الصفات ، ثم لا يأمرنا الله به ، لا أمر إيجاب ، ولا أمر استحباب .

بل إننا نجد القرآن يخالف نهجهم كما سلف أن بينا ، فهو يخبر بصفات الباري مقرراً لها ، بل ويأمر بالإيمان والعلم بها . وكيف يكون هذا هو الطريق الحق في معرفة الله ، ثم لا يعلمه الرعيل الأول من هذه الأمّة إلى أن نبتت هذه النابتة التي ادعت أنها تعلم ما لم يعلمه الصحابة والتابعون لهم بإحسان والأئمة الأعلام .

ثانيا : إثبات الصفات ليس تشبيها :

قد يزعم نفاة الصفات أن دليلهم من القرآن هو قوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾[2]، فيقولون : إنه يلزم من إثبات الصفات للباري كالسمع والبصر والاستواء واليد والوجه مشابهة الخالق بالمخلوق ، لأن البشر يتصفون بهذه الصفات ، والله يقول: ﴿ ليس كمثله شيء ﴾[3] .

واستدلالهم هذا تحريف للكلم عن مواضعه ، فالنص الذي استدلوا به أثبت

---

(١) انظر رد الدرامي على بشر المريسي : ص ٦٠٥

(٢) سورة الشورى : ١١

(٣) سورة الشورى : ١١

صفتي السمع والبصر لله ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾[1] .

فلو كان إثبات الصفات تشبيها لما ختم الله هذا النص بذكر هاتين الصفتين العظيمتين للباري تبارك وتعالى .

إن خاتمة النص الذي استدلوا به واضحة الدلالة في الرد عليهم ، فكأن النص يقول للعباد: لا تنفوا عني صفاتي بدعوى أن إثبات الصفات يقتضي التشبيه ، والذي عليه الأئمة الأعلام فى معنى النص أن الله لا يشبهه شيء ، لا في ذاته ولا في أسمائه وصفاته .

والمحقق المنصف يدرك بأدنى تأمل بطلان مقالة الذين ينفون صفات الباري بدعوى أن إثباتها يقضي تشبيه الخالق بالمخلوق ، فإنَّ وجود الباري يخصه ، وكذلك أسماؤه وصفاته خاصة به دون خلقه ، ولا يقتضي الاتفاق في الاسم العام عند الإطلاق تماثل صفات الخالق والمخلوق في مسمى ذلك الاسم عند إضافته إلى الباري أو تخصيصه وتقييده به .

وهذا النهج لا يرتضيه العقلاء في الأسماء المشتركة فيما بين المخلوقات ، فإذا قيل: إنَّ العرش موجود ، والقمر موجود ، والفيل موجود ، والبعوض والنمل والذباب كلُّها موجودة ، فهل يجوز لأحد أن يقول : إن وجود هذه المخلوقات متساوي ، وأنه شيء واحد ؟ فإذا كان هذا مرفوضا ، فإن التباين الذي بين الخالق والمخلوق أعظم من التباين الذي بين المخلوق والمخلوق .

وإذا قيل : إن للملائكة أجنحة ، وللطائرات أجنحة ، وللطيور أجنحة ، وللبعوض أجنحة ، فهل يلزم من ذلك أنَّ تكون هذه الأجنحة متماثلة ؟ إنَّ كلَّ العقلاء يعلمون بطلان هذا القول .

لقد أخبرنا الله عمّا في الجنة من المطاعم والمشارب والمناكح والملابس ، ونحن نعلم بما أعلمنا ربنا أن ما في الجنة من الماء واللبن والخمر والعسل ، وكل ما فيها لا

---

(١) سورة الشورى : ١١

يشبه شيئا مما في الدنيا ، وإن اشتركا في الأسماء التي تسمى بها المسميات في الدنيا وفي الجنة ، فمن ذلك أن خمر الجنة ـ كما أعلمنا ربنا ليس فيه غول ، ولا ينزفون عنها ، وأن ماءها لا يَأْسَنُ ، وأن أهلها لا يذوي شبابهم ، ولا تنقضي مسراتهم ، ولا تبلى ثيابهم إلى غير ذلك من الأوصاف الدالة على مباينة ما في الجنة لما في الدنيا .

وهذه الأرواح التي تسكن أجسادنا ، أخبرنا ربنا أنها تنفخ في الجسد وتقبض منه، وتصعد وتنزل ، وهي حيَّة عالمة قادرة سميعة بصيرة ، ومع اتصافها بهذه الصفات فإنها لا تماثل ما نشاهده من المخلوقات ، فالخالق أولى بمباينة مخلوقاته مع اتصافه بما يستحقه من أسمائه وصفاته .

فإذا وجد من ينفي صفات الروح بدعوى أن إثبات هذه الصفات يقضي بمشابهتها لبقية المخلوقات فإنه يكون غالطا مخطئا .

ومن نظر في الكتاب العزيز يجد أنَّ الله سمى نفسه بأسماء ووصفها بصفات ، وسمى بعض عباده بتلك الأسماء ، فقد سمى نفسه حيًّا سميعا بصيرا عليما حليما رؤوفا رحيما عزيزا جبارا متكبرا ونحو ذلك من الصفات ، كقوله تعالى : ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾[1] وقوله : ﴿ إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا﴾[2] . وقوله : ﴿ وإن الله لعليم حليم ﴾[3] وقوله : ﴿ إن الله بالناس لرؤوف رحيم ﴾[4] وقوله : ﴿ هو الله الذي لا إله إلا هوالملك القدوس السلام ، المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ﴾[5] .

وسمى بعض عباده بهذه الأسماء كقوله : ﴿ يخرج الحيّ من الميت ﴾[6] ،

---

(١) سورة البقرة : ٢٥٥

(٢) سورة النساء : ٥٨

(٣) سورة الحج : ٥٩

(٤) سورة الحج : ٦٥

(٥) سورة الحشر : ٢٣

(٦) سورة الروم : ١٩

وقوله : ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا ﴾[1] وقوله: ﴿وبشروه بغلام عليم ﴾[2] ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾[3] وقوله : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾[4] وقوله : ﴿ كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾[5][6].

وما سمى الله به نفسه ووصفها به فإنه خاص بالله دون خلقه ، يناسب عظمته وجلاله وكماله ، وما وصف به العباد من تلك الصفات فإنه حق ، ولكنه مناسب لضعفهم وافتقارهم وعجزهم .

ثالثا : نفي الصفات ليس تمجيدا ولا تعظيما لرب العالمين

مقالة نفاة الصفات من أعظم التلبيس الذي كادوا به الإسلام وأهله ، فقد زعموا أنهم بنفيهم للصفات يريدون تعظيم الباري وتقديسه وتنزيهه ، وجردوا بهذه الطريقة الرب ـ تبارك وتعالى ـ عما مدح به نفسه من صفاته وأسمائه ، وبذلك أغلقوا باب معرفة الله تبارك وتعالى ، وقطعوا الخلق عن ربهم ، وبمثل هذا تظلم العقول والقلوب، وتُشْغلُ بسفاسف الأمور، وتفسد حياة البشر .

إن كلَّ الفرق الضالة تدَّعي أنها تريد تمجيد معبودها وتقديسه ، حتى الذين يعبدون البقر والبشر والشجر والحجر يَدَّعون هذه الدعوى ، لكنهم لا يسلكون السبيل الصحيح للتنزيه والتقديس ، فقد تكون طريقة التقديس عندهم هي النقص والذم بِعَينِه ، وقد يصوغ زعماء الباطل طرق الضلال في ظلال الأهداف الخيرة ، فيروج باطلهم على أصحاب العقول الضعيفة ، وهذا من التلبيس الذي قد لا يدركه

---

(١) سورة الانسان : ٢

(٢) سورة الذاريات : ٢٨

(٣) سورة الصافات : ١٠١

(٤) سورة التوبة : ١٢٨

(٥) سورة غافر : ٣٥

(٦) راجع مجموع فتاوي شيخ الإسلام : ٣/ ١٤ فانه توسع في إيراد النصوص في هذا الباب .

إلا أصحاب البصائر والعقول النيرة .

رابعا : أدلة العقول توافق أدلة الرسول

الأدلة العقلية الصحيحة لا يمكن أن تناقض ما جاءنا من عند الله تبارك وتعالى ، فإن جاءت العقول بما يناقض النصوص فلا بدَّ من أحد أمرين :-

الأول : أن يكون النص غير صحيح ، كالأحاديث الباطلة والمكذوبة ، أو يكون الفهم للنص مختلا ، بحيث يفقه الناظر في النص معنى خطأ ، لم يرده الله ولا رسوله صلى الله عليه وسلم .

الثاني : أن يكون العقل قد أخطأ فيما وصل إليه من نتائج ناقض بها النصوص .

أما أن يناقض العقل السويُّ الحكم الصحيح الذي تُوصِلُ إليه النصوص الثابتة عن الله ورسوله فهذا لم يكن ولن يكون ، فالنصوص التي جاءت من عند الله العليم الخبير لا يمكن أن تناقضها الحقائق والثوابت .

وهؤلاء الذين يَدَّعون أنَّهم جاؤوا بالأدلَّة العقلية القطعية الدالة على نفي صفات الباري ليس لهم قاعدة ثابتة مستمرة فيما يزعمون أن العقل يوجبه أو يحكم باستحالته ، وبرهاننا على ذلك تناقضهم فيما بينهم ، فما يزعم بعضهم أن العقل يُوجِبُه يدعي آخر أنَّ العقل يحكم باستحالته .

فإذا كانت العقول تتفاوت فيما بينها بل تتنافض ، فإنَّها لا تصلح حَكَمَا في إثبات الحقائق الغيبية فضلا عن تحكمها فيما تنازع الناس فيه .

إن القرآن جاء ليخرجنا من الحيرة والمتاهة في باب الاعتقاد وباب التشريع ، وهؤلاء يريدون إعادتنا إلى الهُوَّة التى أنقذنا الإسلام منها .

وقد جاءنا القرآن بالأدلة العقلية السويَّة التي تدل دلالة واضحة على وجود الله ووحدانيته وصفاته وكماله ، وقد عرضنا في غير هذا الموضع شيئا منها .

وقد قرر علماؤنا أن العقل السويّ لا يمكن أن يناقض في أحكامه ما قرره الحق ـ

تبارك وتعالى ـ فيما أنزله إلينا ، قد تأتي الشريعة بِمَحَارات العقول ، وقد تعجز العقول عن إدراك تفاصيل ما جاءت به النصوص ، ولكنها لا تأتي بما يناقض العقول ، ولذا قالوا : إنَّ العقل الصحيح لا بدَّ أن يوافق النقل الصريح .

خامسا : تناقض نفاة الصفات واختلافهم

المنهج القرآني النبوي لا تناقض فيه ولا اختلاف ، وما جاء من عند غير الله لا يَسْلَمُ من التناقض والاختلاف ، والمحقق في منهج نفاة الصفات يرى هذا الاختلاف والتناقض عندهم واضحا جليا ، ويتبدى اختلافهم وتناقضهم في عدة أمور :

١ـ حكمهم على الشيء الواحد بأحكام مختلفة :

كل ما حدثنا به ربنا أو حدثنا به رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن صفاته فإنَّه يجب أن يُعْطى حكما واحدا ، لأنه باب واحد ، فلا يجوز الإيمان ببعضه والكفر ببعضه .

فالذي يؤمن بعلم الله وسمعه وبصره وحياته وقدرته ويجعل هذه الصفات صفات حقيقية للباري يكون متناقضا إذا نفى عن الله غضبه وكراهته واستواءه ومحبته ورضاه ويجعل ذلك مجازا مؤولا بشتى أنواع التأويل ، لأنه لا فرق بين الصفات التي أثبتها والصفات التي نفاها .

فإذا قال الذاهب هذا المذهب : إن علم الله وحياته وسمعه وبصره وكلامه لا يشبه شيئا من صفات المخلوقين ، بل هي صفات تليق بجلال الله وكماله ، قيل له : وكذلك بقية الصفات التي أنكرتها أو أولتها مثل اليد والوجه والمحبة والرضا والغضب صفات تليق بكمال الله وجلاله لا تشبه شيئا من صفات المخلوق .

فإن زعم أنَّ هذه الصفات التي نفاها يلزم منها تمثيل الله بخلقه ، فإنه يقال له : وكذلك ما أثبته من صفات يلزم منها اللازم نفسه .

فإذا قال : إن العقل دلَّ على الصفات التي أثبتها ، فنقول له : أقصى ما يمكن أن يقال : إنَّ العقل إذا كان لا يثبت الصفات التي نفيتها فإنه لا يدل على نفيها ، ولكنه

سكت عن ذلك ، فلا يجوز أن تزعم أن العقل ينفيها مع مجيء الشرع بإثباتها .

والحق أن أغلب الصفات يمكن إثباتها عقلا بمثل ما احتجوا به على ما أثبتوه من الصفات .

ويُرَدُّ بهذا الذي قررناه على الذين أثبتوا الأسماء ونفوا الصفات أيضا ، لأنه لا فرق بين إثبات الصفات وإثبات الأسماء ، فإذا كان إثبات الحياة والعلم والقدرة ونحو ذلك يقتضي التشبيه والتجسيم ، لأنّه لا نجد في الْمُشَاهَدَ أنه يتصف بهذه الصفات إلا ما كان جسما ، فكذلك يقال في الأسماء كالحي والعليم والقدير إنه لا نشاهد من يسمى بهذه الأسماء إلا ما هو جسم .

والذين ينفون الأسماء والصفات بدعوى أنه يلزم من ذلك تشبيه الباري بالأجسام والمخلوقات ، فإنه يقال له : لقد شبهتم الله بالمعدومات ، وذلك أقبح من التشبيه بالموجودات .

والذين نَفَوْا الإثبات والنفي كالذين يقولون : ليس الله داخل العالم ولا خارجه ، ولا فوق ولا تحت ، ولا عليما ولا جاهلا ونحو ذلك ، نقول لهم : لقد شبهتم الباري بالممتنعات ، فإن الشيء يمتنع أن يكون موجوداً معدوماً ، أو لا موجودا أو لا معدوما، ويمتنع أن يوصف الشيء بالحياة والموت ، والعلم والجهل .

٢ـ تناقضهم في الحكم على الفرع بخلاف ما حكموا به على الأصل :

فالنفاة يثبتون لله ذاتا حقيقية لا تشبه ذوات المخلوقين ، ولكنهم ينفون عن الله صفاته وأفعاله أو بعضا منها بدعوى مشابهتها لصفات الخلق ، فإذا كان لله ذات حقيقية لا تماثل الذوات ، فكذلك له صفات وأفعال حقيقية لا تماثل صفات المخلوقات وأفعالهم ، فإذا ادعى مدع أنه ينفي يد الله ووجهه واستواءه ، لأننا لا نعلم كيفية هذه الصفات ، فنقول : يلزمكم أن تنفوا ذات الله ووجوده ، لأنكم لا تعلمون كيف هو تبارك وتعالى ، فإن قلتم : وجوده يخصه ولا يشركه فيه غيره ، قلنا : وكذلك صفاته واسماؤه وأفعاله ، لأن العلم بكيفية الصفة يستلزم العلم بكيفية الموصوف ،

فإذا كنا لا نعلم كيفية ذاته ، فكذلك يجب أن نقول في كيفية صفاته ، فالكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات .

٣ـ وقوع النفاة في مثل ما فروا منه :

نفاة الصفات تناقضوا من حيث لا يدرون ، فهم في نفيهم للصفات بحجة تنزيه الباري عن التشبيه ، وقعوا في المحذور الذي منه فروا .

وقد استغلَّ مخالفوهم هذا التناقض عندهم فألجؤوهم إلى طريق دَحْض مَزَلَّة أوصل بعضهم إلى جحد الخالق ونفيه .

فالذين يثبتون بعض الصفات وينفون بعضها بحجة أن إثباتها يقتضي التشبيه يقول لهم الخصوم: انفوا الصفات التي اثبتموها ، فإنها تؤدي إلى التشبيه ، والذين ينفون الصفات كلها يقول لهم خصومهم : انفوا أسماء الله أيضا كما نفيتم صفاته ، فإن اثبات الأسماء يقتضي التشبيه ، والذين ينفون الأسماء والصفات يقول لهم خصومهم: إذا نفيتم الأسماء والصفات خشية التشبيه فإنكم بذلك تكونون شبهتم الله بالمعدومات ، فوقعتم في أمر أعظم من الذي فررتم منه ، فأوغل آخرون وقالوا : نحن لا نقول : إن الله عالم ولا ليس بعالم ، ولا داخل العالم ولا خارجه ، ولا فوق ولا تحت ، وهكذا في صفاته كلِّها ، فقال لهم محاوروهم : لقد شبهتم الخالق ـ تبارك وتعالى ـ بقولكم هذا بالممتنعات . وقال لهم محاوروهم أيضا : إذا كان إثبات الأسماء والصفات يقتضي التشبيه ، فانفوا ذات الله ـ تبارك وتعالى ـ لأن إثبات ذات لله بناء على منهجكم هذا يفضي إلى التشبيه والتمثيل .

أرأيت هذه المزالق الخطرة الوعرة التي قاد إليها هذا التناقض الذي برأ الله منه كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

وكما أخطأ نفاة الصفات في نفيهم للصفات بدعوى أنَّ إثباتها يلزم منه التشبيه والتمثيل ، أخطؤوا أيضا في ادعائهم بأن أهل السنة والجماعة المثبتون للصفات مشبهة ومجسمة ، وحاشاهم أن يكونوا كذلك .

سادسا : الرد على دعواهم أنّ الله لا يدرك بالحواس :

نفى هؤلاء رؤية الله وكلامه بدعوى أن الله لا يدرك بالحواس ، لأنَّ المخلوقات هي التي تدرك بالحواس ، وقد أكذبوا بدعواهم هذه النصوص القرآنية والحديثية المصرحة بسماع العباد لكلام الله ، والمقرِّرة رؤية العباد لربهم في يوم القيامة .

فموسى عليه السلام كلمه ربّه ﴿ وكلم الله موسى تكليما ﴾[1] ﴿ فلما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربّه ﴾[2] ، وكذلك نبينا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ عرج به إلى السموات العلا وكلمه ربّه .

والنصوص من الكتاب والسنة المخبرة بتكليم الله لعباده وتكليمهم إياه في يوم القيامة كثيرة طيبة .

وكذلك النصوص المصرِّحة برؤية المؤمنين ربهم في الدار الآخرة كثيرة كقوله تعالى: ﴿ وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة ﴾[3] ، والأحاديث المثبتة لذلك تبلغ درجة المتواتر ، فكيف تُرَدُّ هذه النصوص القرآنية والأحاديث النبوية بأدلة موهومة وشبهات لا تثبت في ميدان الحجاج والنزاع ؟

ودعواهم أن القرآن نفى رؤية العباد لربهم في قوله تعالى : ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾[4] ، دعوى مردودة ، فالذي نفته الآية هو إحاطة الأبصار به ، لا نفي رؤيته ، فالمؤمنون يرونه ، ولكنهم لا يحيطون به كما أن العباد يعرفون ربهم ، ولكنهم لا يحيطون به علما ، كما قال تعالى : ﴿ ولا يحيطون به علما ﴾[5] فهذه كتلك .

يقول العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى :« حَمِدَ الرب نفسه بأنه لا تدركه

---

(١) سورة النساء : ١٦٤

(٢) سورة الأعراف : ١٤٣

(٣) سورة القيامة: ٢٢-٢٣

(٤) سورة الأنعام : ١٠٣

(٥) سورة طه : ١١٠

الأبصار لكمال عظمته ، يرى ولا يدرك ، كما أنه يعلم ولا يحاط به علما ، وإلا فمجرد نفي الرؤية ليس بكمال ألبتة ، وإنما الكمال في كونه لا يحاط به رؤية ولا إدراكا لعظمته في نفسه، وتعاليه عن إدراك المخلوقين ، وكذلك حمد نفسه بعدم الغفلة والنسيان لكمال علمه»[1] .

سابعا : بيان اللبس الذي في المصطلحات التي استخدموها :

زعم نفاة الصفات أنَّ إثبات صفات الباري يلزم منه أن يكون الباري جسما ، وأن يكون مركبا ، وأن يكون متحيزا ، وأن يكون في جهة ، وأن يكون محلا للحوادث والأعراض ، وأن يكون له أعضاء وأركان وأدوات ولا نسلِّم لنفات الصفاة هذه الإطلاقات في باب الأسماء والصفات التي نَفَوْا بها ما أثبته الله لنفسه ، وأثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم .

وقد تنبه الحذاق من علمائنا إلى أن هذه الألفاظ ألفاظ مجملة مبهمة يراد بها حق ويراد بها باطل ، فوقفوا منها موقف الفاحص المدقق ، وطالبوا الذين أطلقوها أن يبينوا مرادهم منها ، وحكَّموا كتاب الله وسنة رسوله فيما بينه هؤلاء المطلقون ، فإن ذكروا من معانيها حقّا قبلوه ، وإن ذكروا باطلا ردوه ، مع نصحهم لهؤلاء بترك هذه الإطلاقات التي لم ترد في الكتاب والسنة والالتزام بألفاظ النصوص .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « ما تنازع فيه المتأخرون نفيا وإثباتا فليس على أحد، بل ولا له أن يوافق أحداً على إثبات لفظه أو نفيه ، حتى يعرف مراده ، فإن كان حقا قُبِل ، وإن كان باطلا رُدَّ ، وإن اشتمل كلامه على حق وباطل لم يقبل مطلقا ، ولم يرد جميع معناه ، بل يوقف ويفسر المعنى ، كما تنازع الناس في الجهة والتحيز وغير ذلك »[2] .

ويقول شارح الطحاوية في الألفاظ التي أطلقها علماء الكلام نافين صفات

---

(١) راجع التفسير القيم : ٢٧

(٢) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : ٣/ ٤١ وانظر : ٦/ ٣٦

الباري : « الناس في إطلاق مثل هذه الألفاظ ثلاثة أقوال : طائفة تنفيها ، وطائفة تثبتها، وطائفة تُفصّل ، وهم المتبعون للسلف فلا يطلقون نفيها ولا إثباتها إلا إذا تبين ، فما أثبت بها فهو ثابت ، وما نفي بها فهو منفي ، لأن المتأخرين قد صارت هذه الألفاظ في الاصطلاح فيها إجمال وإيهام كغيرها من الألفاظ الاصطلاحية ، فليس كلهم يستعملها في معناها اللغوي .

ولهذا كان نفاة الصفات ينفون بها حقّا وباطلا ، ويذكرون عن مثبتيها ما لا يقولون به ، وبعض المثبتين لها يُدْخِل لها معنى باطلا مخالفا لقول السلف ولما دلَّ عليه الكتاب والميزان .

ولم يرد نص من الكتاب ولا من السنة بنفيها ولا إثباتها ، وليس لنا أن نصف الله تعالى بما لم يصف به نفسه ، ولا وصفه به رسوله نفيا ولا إثباتا ، وإنما نحن متَّبعون لا مبتدعون .

فالواجب أن يُنْظَر في هذا الباب ، أعني باب الصفات ، فما أثبته الله ورسوله أثبتناه ، وما نفاه الله ورسوله نفيناه ، والألفاظ التي وَرَدَ بها النص يُعْتَصَمُ بها في الإثبات والنفي ، وأما الألفاظ التي لم يرد نفيها ولا إثباتها ، فلا تطلق حتى ينظر في مقصود قائلها ، فإن كان معنى صحيحا قُبِل ، لكن ينبغي التعبير عنه بألفاظ النصوص، دون الألفاظ المجملة إلا عند الحاجة ، مع قرائن تبين المراد والحاجة ، مثل أن يكون الخطاب مع من لا يتم المقصود معه إن لم يخاطب بها »[1] .

وقد تعرض أهل العلم لبيان اللبس الذي في المصطلحات الكلامية التي نَفَوْا بها صفات الباري ، وسنورد في بحثنا هذا أهم هذه المصطلحات مبينين اللبس الذي وقع فيها.

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية : ص ٢٣٩

١ ـ بيان اللبس الذي في اصطلاح التركيب :

يقول شارح الطحاوية : « التركيب له معاني : **أحدها:** التركيب من متباينين فأكثر ، ويسمى تركيب مزج كتركيب الحيوان من الطبائع الأربع والأعضاء ونحو ذلك ، هذا المعنى منفي عن الله سبحانه وتعالى ، ولا يلزم من وصف الله بالعلو ونحوه من صفات الكمال أن يكون مركبا بالمعنى المذكور .

والثاني : تركيب الجوار ، كمصراعي الباب ونحو ذلك ، ولا يلزم أيضا من ثبوت صفاته العليا إثبات هذا التركيب .

والثالث : التركيب من الأجزاء المتماثلة ، وتسمى الجواهر المفردة .

الرابع : التركيب من الهيولي والصورة كالخاتم مثلا ، هيولاه : الفضة وصورته معروفة.

وأهل الكلام قالوا : إن الجسم يكون مركبا من الجواهر المفردة، وليس هذا التركيب لازما لثبوت صفاته تعالى وعلوه على خلقه ، والحق أن الجسم غير مركب من هذه الأشياء ، وإنما قولهم مجرد دعوى .

الخامس : التركيب من الذات والصفات ، هم سموه تركيبا لينفوا به صفات الرب تبارك وتعالى ، وهذا اصطلاح منهم لا يعرف في اللغة ، ولا في استعمال الشارع ، فلسنا نوافقهم على هذه التسمية ، ولا كرامة .

ولئن سموا إثبات الصفات تركيبا ، فنقول لهم : العبرة للمعاني لا للألفاظ ، سمُّوه ما شئتم ، ولا يترتب على التسمية بدون المعنى حكم ، فلو اصطلح على تسمية اللبن خمرا لم يحرم بهذه التسمية .

السادس : التركيب من الماهية ووجودها ، وهذا يفرضه الذهن أنهما غيران ، وأما في الخارج ، هل يمكن ذات مجردة عن وجودها ، ووجودها عنها ؟ هذا محال.

فترى أهل الكلام يقولون : هل ذات الرب وجوده أم غير وجوده ؟ ولهم في ذلك خبط كثير ، وأمثلهم طريقة رأي الوقف والشك في ذلك ، وكم يزول بالاستفسار والتفصيل كثير من الأضاليل »[1] .

٢ـ بيان اللبس الذي في لفظي : الجهة والتحيز :

ومن هذه الألفاظ لفظ الجهة والتحيز اللذين نفوا بهما علو الله على خلقه ورؤيته في الآخرة ، يقول شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : « فلفظ الجهة قد يراد به شيء موجود غير الله فيكون مخلوقا ، كما إذا أريد بالجهة نفس العرش ، أو نفس السموات ، وقد يراد به ما ليس بموجود غير الله تعالى ، كما إذا أريد بالجهة ما فوق العالم .

ومعلوم أنه ليس في النص إثبات لفظ الجهة ولا نفيه ، كما فيه إثبات العلو والاستواء ، والفوقية والعروج إليه ونحو ذلك ، وقد علم أن ما ثم موجود إلا الخالق والمخلوق ، والخالق مباين للمخلوق ،والله ـ سبحانه وتعالى ـ ليس في مخلوقاته شيء من ذاته ، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته .

فيقال لمن نفى الجهة : أتريد بالجهة أنها شيء موجود ومخلوق ؟ فالله ليس داخلا في المخلوقات ، أم تريد بالجهة ما وراء العالم ؟ فلا ريب أن الله فوق العالم مباين للمخلوقات .

وكذلك يقال لمن قال الله في جهة : أتريد بذلك أن الله فوق العالم ، أو تريد أنَّ الله داخل في شيء من المخلوقات ؟ فإن أردت الأول فهو حق ، وإن أردت الثاني فهو باطل[2] .« وكذلك لفظ التحيز : إن أراد به أن الله تحوزه المخلوقات ، فإن الله أعظم وأكبر ، بل قد وسع كرسيه السموات والأرض ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية : ص ٢٢٥

(٢) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : ٣/ ٤١ ، وانظر شرح العقيدة الطحاوية : ص ٢٤٢

بيمينه﴾[1]

وقد ثبت في الصحاح عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : « يقبض الله الأرض ويطوي السموات بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك ، أين ملوك الأرض » ؟ وفي حديث آخر : « وإنه ليدحوها كما يدحو الصبيان بالكرة » ، وفي حديث ابن عباس: « ما السموات السبع والأرضون السبع وما فيهن في يد الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم » .

وإن أراد أنه منحاز عن المخلوقات ، أي مباين لها منفصل عنها ليس حالاً فيها ، فهو سبحانه كما قال أئمة السنة : فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه»[2] .

٣ـ بيان اللبس الذي في حلول الحوادث :

يقول شارح الطحاوية :« حلول الحوادث بالرب تعالى ، المنفي في علم الكلام المذموم لم يَرِد نفيه ولا إثباته في الكتاب ولا في السنة ، وفيه إجمال ، فإن أريد بالنفي أنه لا يحلُّ في ذاته المقدسة شيء من مخلوقاته المحدثة ، أو لا يحدث له وصف متجدد لم يكن ـ فهذا نفي صحيح .

وإن أريد به نفي الصفات الاختيارية ، من أنه لا يفعل ما يريد ، ولا يتكلم بما شاء، ولا أنه يغضب ويرضى لا كأحد من الورى ، ولا يوصف بما وصف به نفسه من النزول والاستواء والاتيان كما يليق بجلاله وعظمته ـ فهذا نفي باطل .

وأهل الكلام المذموم يطلقون نفي حلول الحوادث ، فيسلِّم السنِّي للمتكلم ذلك، على أنّه نفى عنه ـ سبحانه ـ ما لا يليق بجلاله ، فإذا سلم له هذا النفي ألزمه نفي الصفات الاختيارية وصفات الفعل ، وهو غير لازم له ، وإنما أتي هذا السني من تسليم هذا النفي المجمل ، وإلا فلو استفسر واستفصل لم ينقطع معه »[3] .

---

(١) سورة الزمر : ٦٧

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ٣/٤٢

(٣) شرح العقيدة الطحاوية : ص ١٢٩

ورد شيخ الإسلام على من نفى صفات الله الاختيارية بدعوى أن إثباتها يستلزم قيام الحوادث بالله تبارك وتعالى ، كما ردّ على الذين ينفون صفاته بدعوى أن إثباتها يستلزم قيام الأعراض به ، فقال : « لفظ الأعراض والحوادث لفظان مجملان ، فإن أريد بذلك ما يعقله أهل اللغة من أن هذه الأعراض والحوادث هي الأمراض والآفات، كما يقال : فلان عَرَضَ له مرض شديد ، وفلان قد أحدث حدثا عظيما ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة » .

وقال : « لعن الله من أحدث حدثا أو آوى محدثا » .

ويقال : فلان به عارض من الجن ، وفلان حدث له مرض ، فهذه من النقائص التي ينزه الله عنها[1] .

ثم بين أنه إذا أريد بنفي الأعراض والحوادث نفي صفات الله ـ تبارك وتعالى ـ التي أثبتها الباري لنفسه فإن هذا غير صحيح ، فَجَعْلُ هذه الصفات أعراض وأحداث اصطلاح أحدثه علماء الكلام ، والعلماء باللغة وبكتاب الله لا يفقهون من هذه الألفاظ هذا المعنى الذي اصطلحوا عليه ، ونَفَوْا به صفات كماله وجلاله[2] .

ولا يلزم من إثبات الصفات الاختيارية لله كالإماتة والإحياء والخلق والتصوير والغضب والرضا ونحو ذلك مما وصف الله به نفسه حلول الحوادث بالله تبارك وتعالى ، لأن الله عندما يخلق أو يتكلم أو يغضب أو يرضى لا يكون الكلام قد حدث له بعد أن كان ممتنعا عليه ، فالله ـ تعالى ـ كما يقول الطحاوي رحمه الله تعالى : « ما زال بصفاته قديما قبل خلقه ، لم يزدد بكونهم شيئا لم يكن قبلهم من صفته ، وكما كان بصفاته أزليا ، كذلك لا يزال عليهم أبديا »[3] .

ومعنى كلامه كما يقول شارح الطحاوية :« أن الله لم يزل متصفا بصفات

---

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : ٦/٩٠

(٢) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : ٦/٩١

(٣) شرح العقيدة الطحاوية : ص ١٢٧

الكمال : صفات الذات ، وصفات الفعل . ولا يجوز أن يعتقد أن الله وصف بصفة بعد أن لم يكن متصفا بها ، لأن صفاته ـ سبحانه ـ صفات كمال ، وفقدها صفة نقص ، ولا يجوز أن يكون قد حصل له الكمال بعد أن كان متصفا بضده »[1] .

ويقول موضحا عدم لزوم حلول الحوادث في الله بإثبات هذه الصفات :

«حدوث الكلام والخلق والتصوير في وقت دون وقت غير ممتنع ، ولا يطلق عليه أنه حدث بعد أن لم يكن ، ألا ترى أن من تكلم اليوم ، وكان متكلما بالأمس لا يقال : إنه حدث له الكلام ، ولو كان غير متكلم لآفة كالصغر والخرس ، ثم تكلم يقال : حدث له الكلام ، فالساكت بغير آفة يسمى متكلما بالقوة ، بمعنى أنه يتكلم إذا شاء ، وفي حال تكلمه يسمى متكلما بالفعل ، وكذلك الكاتب في حال الكتابة يسمى كاتبا بالفعل ، ولا يخرج عن كونه كاتبا بالفعل في حال عدم مباشرة الكتابة »[2] .

٤ـ بيان اللبس الذي في لفظ الأعضاء والأركان والأدوات :

استدل الجهمية والمعتزلة على نفي صفات الله من اليد والوجه والقدم بأن إثباتها يلزم منه إثبات الأعضاء والأركان والأدوات لله .

وهم بهذا يردُّون النصوص الكثيرة المثبتة لهذه الصفات ، والمخالفون لهم من أهل السنة والجماعة يقولون : « لا يقال لهذه الصفات إنها أعضاء ، أو جوارح أو أدوات ، أو أركان ، لأن الركن جزء الماهية، والله تعالى هو الأحد الصمد ، لا يتجزأ ، والأعضاء فيها معنى التفريق والتَّعْضِيَةُ ، والجوارح فيها معنى الاكتساب والانتفاع ، وكذلك الأدوات هي الآلات التي ينتفع بها في جلب المنفعة ودفع المضرة ، وكل هذه المعاني منتفية عن الله ، ولهذا لم يَرِدْ ذكرها في صفات الله تعالى»[3] .

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية : ص ١٢٧

(٢) شرح العقيدة الطحاوية : ص ١٢٨

(٣) شرح العقيدة الطحاوية : ص ٢٣٨-٢٤٢

ثامنا : بطلان دعواهم أن إثبات صفات الباري يبطل الدليل على وجوده :

أما دعواهم أن إثبات الصفات للباري يؤدي إلى بطلان الدليل الدال على وجوده فإن هذا أصل ضلالهم وسبب بلائهم .

فقد قَرَّروا في إثباتهم لحدوث العالم أنَّ كل الأجسام مُحْدَثة ، واستدلوا على حدوثها بأنها لا تخلو من الحوادث ، ولم تسبقها ، وما لم يخل من الحوادث ولم يسبقها فهو محدث .

ولما تقرر عندهم أن الأجسام محدثة ودليل حدوثها عدم خلوها من الحوادث كالحركة والسكون والمجيء والنزول والكلام ، قالوا يجب نفي الصفات عن الله ، فإن مقتضى إثباتها قيام الحوادث به ، وقالوا : لا يمكن تحقيق التوحيد إلا بنفي الصفات.

وقد ذكر شيخ الإسلام دليلهم وبين وجه الرد عليه فقال : « قالت نفاة الصفات : إنما نفينا الصفات لأن دليلنا على حدوث العالم وإثبات الصانع أثبتناه بحدوث العالم ، وحدوث العالم إنما أثبتناه بحدوث الأجسام ، والأجسام إنما أثبتنا حدوثها بحدوث الصفات التي هي الأعراض . أو قالوا : إنما أثبتنا حدوثها بحدوث الأفعال التي هي الحركات ، وأن القابل لها لا يخلو منها ، وما لا يخلو من الحوادث فهو حادث ، أو أنَّ ما قبل المجيء والإتيان والنزول كان موصوفا بالحركة ، وما اتصف بالحركة لم يخل منها أو من السكون الذي هو ضدها ، وما لا يخلو من الحوادث فهو حادث .

فإذا ثبت حدوث الأجسام قلنا : إن المُحدَث لا بدَّ له من مُحْدث ، فأثبتنا الصانع بهذا، فلو وصفنا ربنا بالصفات أو بالأفعال القائمة به لجاز أن تقوم الأفعال والصفات بالقديم ، وحينئذ فلا يكون دليلا على حدوث الأجسام ، فيبطل دليل إثبات الصانع»[1] .

وشبيه بهذا الاستدلال ما قرره ابن سينا مستدلا على إثبات الواجب ، فإنه استدل

---

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : ٤٩/٦ .وراجع : ١٤٧/١٣ .من مجموع الفتاوي.

بالممكن على إثبات الواجب ، وقرر في هذا الاستدلال أن كل موجود فهو ممكن ، وليس هناك موجود واجب الوجود بنفسه ، فكان هذا دليلا على نفي واجب الوجود لأنّ الله ـ بناء على قوله ـ يكون ممكن الوجود[1] .

وقد رد عليهم شيخ الإسلام من ثلاثة أوجه :

الأول : أن بطلان هذا الدليل المعين لا يستلزم بطلان جميع الأدلة ، وإثبات الصانع له طرق كثيرة غير هذا الدليل .

الثاني : أن هذا الدليل لم يستدل به أحد من الصحابة والتابعين ولا أئمة المسلمين ، فلو كانت معرفة الرب ـ عزّ وجلّ ـ والإيمان به موقوفة عليه للزم أنهم كانوا غير عارفين بالله ولا مؤمنين به ، وهذا من أعظم الكفر باتفاق المسلمين .

الثالث : أن الأنبياء والمرسلين لم يأمروا أحدا بسلوك هذا السبيل ، فلو كانت المعرفة موقوفة عليه وهي واجبة لكان واجبا ، وإن كانت مستحبة كان مستحبا ، ولو كان واجبا أو مستحبا لشرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو كان مشروعا لنقلته الصحابة[2] .

تاسعا ـ تغييرهم معاني المصطلحات الشرعية

ومن تحريفهم الكلم عن مواضعه تغييرهم لمعاني المصطلحات الشرعية ، فإنهم يسمون تجريد الخالق عن صفاته التي مدح بها نفسه توحيدا ، ويزعمون أن من أثبت صفات ـ الباري ـ فإنه يكون مشركا ناسبا لله الذم والنقص ، لأن من أثبت الصفات ـ في زعمهم ـ فقد ادعى لله ندا قديما ، وجعل الله أجزاء وأبعاضا .

وكل هذا من الضلال الذي كاد به إبليس هذه الطائفة ، وبهذا غيروا معنى التوحيد الذي جاءت به نصوص الكتاب والسنة ، وهو أن الله واحد في ذاته وفي ألوهيته وفي أسمائه وصفاته ، وجاؤوا للتوحيد بمعنى يضاد معنى التوحيد الذي عرفنا

---

(١) راجع مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ٦/٥٠

(٢) راجع مجموع الفتاوى : ١٣/١٤٩

به الوحي ، فزعموا أن التوحيد لا يتم إلا بنفي صفات الباري التي امتدح بها نفسه .

والناظر المدقق في مقالتهم يعلم أنهم إنما أثبتوا للخالق وجودا مطلقا ليس له وجود حقيقي في واقع الأمر ، وليس له إلا وجود خيالي في الأذهان[1] .

فالذي لا صفات له ولا أسماء هو عدم محض غير موجود ، فهؤلاء نَفَوْا التوحيد من حيث زعموا أنهم بلغوا قمة التوحيد ، فسبحان الذي حجب عن هؤلاء الهدى ، وأوردهم الردى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ولقد شابه هؤلاء في مسارهم واستدلالهم قول الذين ضلوا من قبل ، فقد زعم قوم من قبلهم أنّ الله أعظم من أن يُنْزِلَ كتابا ويرسل رسولا ﴿ وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾[2] .

والمجوس والمشركون اتخذوا من دونه أولياء بدعوى أن الله أعظم من أن يعبده العابدون من غير واسطة ، فعبدوا من هم أقرب إلى الله منا ، لقد عبدوا الشمس والقمر والنجوم والملائكة وصالحي البشر ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾[3] .

---

(١) راجع مجموع فتاوي شيخ الإسلام : ٣٨/٦

(٢) سورة الأنعام : ٩١

(٣) سورة الزمر : ٣

الفصل الرابع
أسباب الاختلاف في باب الأسماء والصفات

الكلام في صفات الباري وأسمائه طالت ذُيوله ،و تشعبت أطرافه ، وتناسبت فيه المذاهب ، وتخالفت فيه النحل ، والعالم بالمذاهب والنحل والفرق يعلم أن ذلك يعود لأسباب كثيرة سنأتي في هذا المبحث على ذكر أهمها .

أولا : الإعراض عن الكتاب والسنة وتحكيم العقل في مسائل الشرع

لقد ضلت الأمم من قبلنا في أسماء الله وصفاته كما ضلت في أمور كثيرة ، وأنزل الله وحيه على عبده ورسوله ـ محمد صلى الله عليه وسلم ـ ليخرج الناس من الضلال الذي هم فيه إلى النور ، وجاءهم الوحي بالخبر الصادق والعلم النافع ، وعرَّفهم بربِّهم أحكم تعريف وأقومه ، وفيما جاءهم الوحي به الهداية والكفاية .

ولكن بعض المنتسبين إلى العلم ـ كما يقول الشوكاني ـ لم يقفوا حيث أوقفهم الله، ودخلوا في أبواب لم يأذن الله بدخولها ، فطلبوا علما استأثر الله به دونهم ، وبذلك تفرقوا وتشعبوا شعبا وصاروا أحزابا[1] .

وقد أضّل كثير من الضاربين في بيداء الفكر الإنساني بغير دليل أصولا ظنوها حقا ، دفعوا بها في صدر النصوص من الكتاب والسنة وجعلوها أعلى حكما من النصوص، وفي الحقيقة لم يكن الذي قعدوه أصولا ، وإنما هي شبه وخيالات وقد أفضى هذا المسار ببعض سالكيه إلى نفي صفات الله وأسمائه ، وبعضهم لجأ إلى التأويل ، و فريق وقع في التشبيه ، وفريق هام في آخر أمره على وجهه لا يدري أين

---

(١) التحف في مذاهب السلف للشوكاني . (مجموعة الرسائل المنيرية: ٢/٨٥)

الحق ، وماذا يأخذ وماذا يرفض .

وقد تكلم ابن القيم على هذا النوع من الآراء التي عطلت أسماء الرب وصفاته وأفعاله بالمقاييس الباطلة التي وضعها أهل البدع والضلال من الجهمية والمعتزلة والقدرية ، ومن ضاهاهم حيث استعمل أهله قياساتهم الفاسدة وآراءهم الباطلة ، وشبههم الداحضه في رد « النصوص الصحيحة الصريحة ، فردوا لأجلها النصوص التي وجدوا السبيل إلى تكذيب رواتها ، وتخطئتهم في معاني النصوص التي لم يجدوا إلى رد ألفاظها سبيلا ، فقابلوا النوع الأول بالتكذيب ، والنوع الثاني بالتحريف والتأويل ، فأنكروا لذلك رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة ، وأنكروا كلامه وتكليمه لعباده ، وأنكروا مباينته للعالم ، واستواءه على عرشه ، وعلوه على مخلوقاته ، وعموم قدرته على كل شيء .

وكل من له مسكة من عقل يعلم أن فساد العالم وخرابه إنما نشأ من تقديم الرأي على الوحي ، والهوى على العقل»[1] .

ثانيا : رد المحكم واتباع المتشابه

المنحرفون عن الصراط السوي يعارضون السنن بظاهر القرآن ، ويستمسكون بالمتشابه في رد المحكم ، فإن لم يجدوا لفظا متشابهاغير المحكم يردونه به ، استخرجوا من المحكم وصفا متشابها وردوه به .

فلهم طريقان في رد السنن :

أحدهما : ردها بالمتشابه من القرآن أو من السنن .

الثاني : جعلهم المحكم متشابها ليعطلوا دلالته .

ومن أمثلة ذلك ردُّ الجهمية النصوص المحكمة غاية الإحكام المبيَّنة بأقصى غاية البيان أن الله موصوف بصفات الكمال من العلم والقدرة والإرادة والحياة والكلام والسمع والبصر والوجه واليدين والغضب والرضا والفرح والضحك والرحمة

(١) أعلام الموقعين : ١/ ٧١

والحكمة ، وبالأفعال كالمجيء والإتيان والنزول إلى السماء الدنيا ، ونحو ذلك بالمتشابه من قوله : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾[1] ، ومن قوله : ﴿ هل تعلم له سميا ﴾[2] ، ومن قوله : ﴿ قل هو الله أحد ﴾[3] .

ثم استخرجوا من هذه النصوص المحكمة المبينة احتمالات وتحريفات جعلوها من قسم المتشابه .

ومن أمثلة ذلك أيضا ردهم المحكم المعلوم بالضرورة أن الرسل جاؤوا بإثبات عُلو الله على خلقه ، واستوائه على عرشه بالمتشابه من قول الله تعالى : ﴿ وهو معكم أين ما كنتم ﴾[4] ، ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾[5] ونحو ذلك ، ثم تحيَّلوا وتمحَّلوا ، حتى ردوا نصوص العلو والفوقية بالمتشابه[6] .

وطريقة الصحابة والتابعين والأئمة كالشافعي وأحمد ومالك وأبي حنيفة وأبي يوسف والبخاري وإسحاق عكس هذه الطريقة ، فإنهم يردون المتشابه إلى المحكم ، ويأخذون من المحكم ما يفسر لهم المشابه ، ويبينه لهم ، فتتفق دلالته مع دلالة المحكم ، وتوافق النصوص بعضها بعضا ، ويصدِّق بعضها بعضا ، فإنها كلها من عند الله ، وما كان من عند الله ، فلا اختلاف فيه ، ولا تناقض ، وإنما الاختلاف والتناقض فيما كان من عند غيره[7] .

ثالثا : تأثير الفلسفات والعقائد الضالة الوافدة

افتتح المسلمون كثيرا من بقاع الأرض ، وأصبحوا دولة عظمى لوقت غير

---

(١) سورة الشورى : ١١

(٢) سورة مريم : ٦٥

(٣) سورة الإخلاص : ١

(٤) سورة الحديد : ٤

(٥) سورة ق : ١٦

(٦) أعلام الموقعين : ٢/٣٩٦ وقد ذكر ابن القيم امثلة كثيرة لرد المحكم بالمتشابه.

(٧) أعلام الموقعين : ٢/٢٩٦

قصير، وخالط المسلمون أهل الديار التي فتحوها ، وبعض من دخل في الإسلام لم تخلص نفوسهم للإسلام وعقيدة الإسلام ، فجاؤوا ومعهم معتقداتهم أو بعضا منها ، واطلع المسلمون على الكتب المدونة في عقائد اليهودية والنصرانية والفلاسفة على اختلاف طرقهم ، وجرت محاورات ومناقشات بين علماء المسلمين وبين علماء أهل الملل المختلفة ، وكان لذلك آثار طيبة حيث دخل في الإسلام كثير من الناس عن رضى واقتناع ، ولكنَّ بعض المعتقدات الضالة وجدت طريقها إلى نفوس بعض المسلمين وإلى مدوناتهم ، وظن الذين أخذوها أنهم عثروا على كنوز العلم ، فخلطوا هذه المباحث بمباحث العقيدة الإسلامية ، فعكروا صفوها ، وشوهوا وجهها ، ووصل الداء إلى رأس الدولة في بعض الفترات ، فحاول نشر هذه الضلالات بقوة السيف كما فعل المأمون .

ومن البدع الكبار في باب العقائد قول الجهمية في باب أسماء الله وصفاته ، فبهذه المقالة المبتدعة عُطِّل الرب عن صفاته ، وهذه البدعة العظيمة التي كادت أن تنسف العقيدة الإسلامية تمتد أصولها إلى أهل الضلال من المشركين واليهود وغيرهم من الأمم ، فإن من طالع في عقائد الأمم الضالة من قبل وجد هذه الانحرافات مسطورة في كتبهم .

والجعد بن درهم تأثر بالمباحث الفلسفية التي أفرزتها عقول الفلاسفة فإنَّه نشأ في موطن الفلاسفة في بلاد حرَّان من بلاد الشام ، وهذه الديار هي ديار الصابئة وفيها بقاياهم ، وهم أتباع دين نمرود ، وكثير من الذين اتبعوا المنهج الفلسفي استقوا علومهم من أهل هذه الديار .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « أصل هذه المقالة ـ مقالة التعطيل للصفات ـ إنما هو مأخوذ عن تلامذة اليهود والمشركين ، فإنَّ أول من حفظ عنه أنه قال هذه المقالة في الإسلام ـ أعنى أن الله سبحانه وتعالى ليس على العرش حقيقة ، وأن معنى استوى بمعنى استولى ونحو ذلك ـ هو الجعد بن درهم »[1] .

---

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : ٥/٢٠

ويقول أيضا : « وكان الجعد بن درهم هذا ـ فيما قيل ـ من أهل حرّان ، وكان فيهم خلق كثير من الصابئة والفلاسفة ـ بقايا أهل دين نمرود والكنعانين الذين صنف بعض المتأخرين في سحرهم ، ونمرود هو ملك الصابئة الكلدانين المشركين ، وكانت الصابئة إلا قليلا منهم إذ ذلك على الشرك ، وعلماؤهم هم الفلاسفة ، وكثير منهم أو أكثرهم كانوا كفارا أو مشركين ، وكانوا يعبدون الكواكب ويبنون لها الهياكل .

ومذهب النفاة من الصابئة في الرب أنه ليس له إلا صفات سلبية أو إضافية أو مركبة منهما ، وهم الذين بعث إليهم إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم ، فيكون الجعد قد أخذ مقالته من الصابئة الفلاسفة .

وكذلك أبو نصر الفارابي دخل حرّان ، وأخذ عن فلاسفة الصابئين تمام فلسفته ، وأخذها الجهم أيضا فيما ذكره الإمام أحمد وغيره لما ناظر السمنية بعض فلاسفة الهند ، وهم الذين يجحدون من العلوم ما سوى الحسيات ، فهذه أسانيد جهم ترجع إلى اليهود والصابئين والنصارى والمشركين . والفلاسفة الضالون هم إما من الصابئين وإما من المشركين »[1] .

وتابع شيخ الإسلام كلامه قائلا : « ثم لما عربت الكتب الرومية واليونانية في حدود المائة الثانية زاد البلاء مع ما ألقى الشيطان في قلوب الضلال ابتداء من جنس ما ألقاه في قلوب أشباههم »[2] .

وقال في موضع آخر : « أصل قول الجهمية مأخوذ عن المشركين والصابئة والمتفلسفة ومبتدعة أهل الكتاب الذين يزعمون أن الرب ليس له صفة ثبوتية أصلا ، وهؤلاء هم أعداء إبراهيم الخليل عليه السلام ، وهم يعبدون الكواكب ويبنون الهياكل للعقول والنجوم وغيرها ، وهم ينكرون في الحقيقة أن يكون إبراهيم خليلا،

---

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : ٥/٢١-٢٢ بشيء من الاختصار ، وانظر : ١٢/ ٣٥٠ من مجموع فتاوي شيخ الإسلام

(٢) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : ٥/٢٢

وموسى كليما »[1] .

وقد ذكر لنا الإمام أحمد ـ رحمه الله تعالى ـ المناظرة التي جرت بين جهم وبين السمنية ، والتي كانت السبب في حرف مساره وضلاله .

يقول الإمام احمد رحمه الله : « كان مما بلغنا من أمر جهم عدوالله ، أنه كان من أهل خراسان من أهل ترمذ ، وكان صاحب خصومات وكلام ، وكان أكثر كلامه في الله تعالى ، فلقي أناسا من المشركين يقال لهم السمنية ، فعرفوا الجهم ، فقالوا له : نكلمك فإن ظهرت حجتنا عليك دخلت في ديننا ، وإن ظهرت حجتك علينا دخلنا في دينك .

فكان مما كلموا به الجهم أن قالوا له : ألست تزعم أن لك إلها ؟ قال الجهم: نعم .

فقالوا له: فهل رأيت إلهك ؟ قال : لا

قالوا : فهل سمعت كلامه ؟ قال : لا

قالوا : فشممت له رائحة ؟ قال : لا

قالوا : فوجدت له حِسًّا ؟ قال : لا

قالوا : فوجدت له مِجَسًّا ؟ قال : لا

قالوا : فما يدريك أنه إله ؟قال فتحير الجهم ، فلم يدر من يعبد أربعين يوما .

ثم استدرك حجة مثل حجة زنادقة النصارى ، وذلك أن زنادقة النصارى يزعمون أن الروح الذي في عيسى هو روح الله من ذات الله ، فإذا أراد أن يحدث أمرا دخل في بعض خلقه ، فتكلم على لسان خلقه ، فيأمر بما يشاء ، وينهى عما يشاء ، وهو روح غائبة عن الأبصار .

فاستدرك الجهم مثل هذه الحجة ، فقال للسمني :

---

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : ٦٧/١٠

ألست تزعم أن فيك روحا ؟ قال : نعم

فقال : هل رأيت روحك ؟ قال : لا .

قال : فسمعت كلامه ؟ قال : لا .

قال : فوجدت له حِسًّا أو مجسًّا ؟ قال : لا .

قال : فكذلك الله لا يُرَى له وجه ، ولا يُسْمَعُ له صوت ، ولا يُشَمُّ له رائحة ، وهو غائب عن الأبصار ، ولا يكون في مكان دون مكان ، ووجد ثلاث آيات من المتشابه قوله : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾[1] ، ﴿ وهو الله في السموات وفي الأرض﴾[2] ، ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ﴾[3] .

فبنى أصله على هذه الآيات ، وتأول القرآن على غير تأويله ، وكذب بأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وزعم أن من وصف الله بشيء مما وصف به نفسه في كتابه أو حدث عنه رسوله كان كافرا ، وكان من المشبهة ، فأضل بكلامه بشرا كثيرا »[4] .

وحجة هؤلاء السمنية الضالين الذين ضل بضلالهم الجهم وامثاله تتلخص في أن الذي لا يدركه الإنسان بحواسه ليس بموجود ، ولا يجوز الإيمان به وإقراره ، فأجابهم الجهم أنه قد يكون في الوجود ما لا يدركه الإنسان بحواسه كالروح .

وحجة الجهمية باطلة فإن العباد يقرون بأمور كثيرة لم يشاهدوها ولم يروها ، والجهم في رده عليهم أقر بأن الخالق لا يرى ولا يشاهد ولا يسمع ، وبالتالي فإنه لا يتكلم ، ومن ثمّ جعل التوحيد لا يتحقق إلا بنفي صفات الخالق[5] .

---

(١) سورة الشورى : ١١

(٢) سورة الأنعام : ٣

(٣) سورة الأنعام : ١٠٣

(٤) الرد على الزنادقة والجهمية : ص ٢٣ ، ٢٤

(٥) راجع : تاريخ المعتزلة والجهمية للقاسمي : ص ٢٣

وإذا كان الجعد تَشَرَّبَ هذه المقالة من الفلاسفة بحكم نشأته في ديارهم فإنه أخذها أيضا من اليهود بحكم مخالطته لهم .

يقول ابن كثير : « قال ابن عساكر وغيره : وقد أخذ الجعد بدعته عن بيان بن سمعان ، وأخذها بيان عن طالوت بن أخت لبيد بن أعصم زوج ابنته ، وأخذها طالوت عن لبيد بن أعصم الساحر الذي سحر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأخذها لبيد عن يهودي باليمن »[1] .

وقد تكلم كثير من أهل العلم عن أسباب الانحراف الاعتقادي في هذا الباب ونَصُّوا على أن الفلسفات والضلالات القديمة كان لها أثر ظاهر في ذلك الانحراف.

يقول الشهرستاني : « كان واصل بن عطاء يَشْرَعُ في نفي الصفات على قول ظاهر ، وإنما شَرَعَتْ أصحابه فيها بعد مطالعة كتب الفلاسفة »[2] .

وقال : « كان أبو الهذيل العَلاَّف شيخ المعتزلة الأكبر وافق الفلاسفة في أن الباري عالم بعلم ، وعلمه ذاته ، وابتدع بدعا في الكلام والإرادة »[3] .

وقال : « غلا إبراهيم بن سيار النظام في أيام المعتصم في تقرير مذهب الفلاسفة وانفرد عن السلف ببدع في القدر والرفض »[4] .

رابعا : الهدم العقائدي المنظم

حاول أعداء الإسلام هدم الإسلام بالقوة فلم يفلحوا ، فاتجهت جهود كثير منهم إلى إفساد عقيدة المسلمين ، وبعض هؤلاء رأَوْا أن هدم الإسلام من داخله أسهل من هدمه من خارجه ، فدخل في الإسلام من يريد هدم عقيدة الإسلام ، وأخذ يبث سمومه في المسلمين ، وأصبحت هذه المفاسد التي نشروها ودَوَّنُوها مباءة خبيثة

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير : ٩/ ٣٥٠، وانظر مجموع فتاوي شيخ الإسلام : ٥/ ٢٠

(٢) الملل والنحل : ١/ ٤٦

(٣) الملل والنحل : ١/ ٣٠

(٤) الملل والنحل : ١/ ٣١

للملحدين والمنافقين والزنادقة .

وقد كان بعض زعماء الضلال يصرحون بمقصدهم وغايتهم ، وأكثرهم يَظْهَرُ مَقْصِدُهُم في فلتات ألسنتهم ، كما تظهره مبادؤهم الكفرية المتناقضة التي شوهت عقيدة الإسلام ، وأبطلت تعاليم القرآن .

جاء على لسان أبي ميمون القداح قوله : « إني أضيق بدين محمد ، وليس عندي جيش أحارب به ، وليس لديَّ مال ، ولكني في الحيلة طويل الباع بحيث إذا لقيت عونا قلبت دين محمد رأسا على عقب »[1] .

ويقول ابن الراوندي : « إن فصاحة أكثم بن صَيْفي تفوق فصاحة القرآن »[2] .

ويقول أيضا : « إن القرآن غير حكيم ، وإن فيه تناقضا وخطأ وكلاما يستحيل»[3] ، ويقول أيضا : « إن الذي يأتي به الرسول لم يخل من أحد أمرين : إما أن يكون معقولا ، وإما أن لا يكون معقولا ، فإن كان معقولا فقد كفانا العقل التام بإدراكه والوصول إليه ، فأيُّ حاجة لنا إلى الرسول ؟ وإن لم يكن معقولا فلا يكون مقبولا ، إذ قبول ما ليس بمعقول خروج عن حد الإنسانية ودخول في حد البهمية»[4] .

وقد سلك هؤلاء الضالون في إفساد عقيدة الإسلام طريقتين :

الأول : طريق الْغُلُوِّ والمبالغة . والثاني : طريق التحريف والتأويل .

وأكثر ما تجد الغلو عند أهل التشيع ، فإنهم يبالغون في تعظيم الأئمة حتى رفعوهم إلى مستوى الألوهية ، وخلعوا عليهم صفاتها .

يقول الشهرستاني : « الغلاة اسم علم على أولئك الذين غَلَوْا في حق أئمتهم

---

(١) بيان الأديان لعبد المعالي الحسني : ص ٤١-٤٢

(٢) تاريخ الإلحاد لعبد الرحمن بدوي : ص ١٢١

(٣) الانتصار للخياط : ص ١٢

(٤) تاريخ الإلحاد في الإسلام لعبد الرحمن بدوي : ص ١٤١

حتى أخرجوهم من حدود الخليقة ، وحكموا فيهم بأحكام الألوهية ، فربما شبهوا واحدا من الأئمة بالإله ، وربما شبهوا الإله بالخلق ، وهم على طرفي الغُلُوّ والتقصير، وإنما نشأت شبهاتهم عن مذاهب الحلولية ومذاهب التناسخية ومذاهب اليهود والنصارى.

واول من توجه هذا التوجه قاصدا هدم الإسلام من داخله بإفساد عقيدته ـ فيما علمنا ـ هو عبدالله بن سبأ اليهودي ، يقول البغدادي : « قال المحققون من أهل السنة إن ابن السوداء ـ أي ابن سبأ ـ كان على هوى دين اليهود ، وأراد أن يفسد على المسلمين دينهم بتأويلاته في عليّ وأولاده ، لكي يعتقدوا فيه ما اعتقده النصارى في عيسى عليه السلام »[1] .

وقد ادعى هذاالمأفون ومن سار مساره في عليّ وأبنائه من بعده دَعَاوى رفعتهم إلى مستوى الآلهة ، وأصبغت عليهم صفات الألوهية ، ولحظ ابن حزم هذا الملحظ في الفرس ، فإنهم لما فشلوا في حرب الإسلام بالسيف ، فكروا في وسيلة أخرى لحربه ، فأظهر قوم منهم الإسلام ، واستمالوا أهل التشيع بإظهار محبة أهل البيت واستشناع ظلم عَلِي ـ رضي الله عنه ـ ثم سلكوا بهم مسالك شتى ، حتى أخرجوهم عن الإسلام[2] .

والذي يدُقَق النظر في مقالة الجهمية يعلم أنها تفضي إلى إنكار الخالق ، ولذا رأى علماء أهل السنة أنَّ الذين ابتدعوا هذه المقالة هم من الزنادقة الذين ينكرون الخالق ويجحدونه ، ولكنهم تستروا وراء فلسفات ونظريات ضالة تُوصِلُ إلى مرادهم ، وتخفي قصودهم على خصومهم .

والذين يجحدون صفات الخالق قولهم كقول فرعون ونمرود الذين يجحدون الخالق لأن الذي لا صفات له لا وجود له ، ولاتُمْكِن معرفته .

---

(١) الفرق بين الفرق : ص ٣٣٥

(٢) الفصل لابن حزم : ٢/ ١١٥ اللالكائي ١/ ٤٠

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « رؤساء الرافضة والجهمية كانوا زنادقة ، وأول من ابتدع الرفض كان منافقا ، وكذلك التَّجَهُّم أصله زندقة ونفاق ، ولهذا كان الزنادقة المنافقون من القرامطة الباطنية المتفلسفة وأمثالهم يميلون إلى الرافضة والجهمية لقربهم منهم »[1] .

ويقول أيضا : « المأثور عن السلف والأئمة إطلاق أقوالٍ بتكفير الجهمية المحضة الذين ينكرون الصفات ، وحقيقة قولهم أن الله لا يُرى ، ولا يتكلم ، ولا يباين الخلق ، ولا قدرة له ، ولا علم ولا بصر ولا حياة ، بل القرآن مخلوق ، وأهل الجنّة لا يرونه كما لا يراه أهل النار ، وأمثال هذه المقالات »[2] .

ويقول أيضا :« حقيقة قول الجهمية المعطلة هو قول فرعون ، وهو جحد الخالق ، وتعطيل كلامه ودينه ، كما كان فرعون يفعل ، فكان يجحد الخالق جلّ جلاله ، ويقول : ﴿ ما علمت لكم من إله غيري ﴾[3] ، ويقول لموسى : ﴿ لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنّك من المسجونين ﴾[4] .

ويقول : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾[5] ، وكان ينكر أن يكون الله كلّم موسى ، أويكون لموسى إله فوق السموات ، ويريد أن يبطل عبادة الله وطاعته ، ويكون هو المعبود المطاع .

فلما كان قول الجهمية المعطلة نفاة الصفات يؤدي إلى قول فرعون كان منتهى قولهم إنكار رب العالمين ، وإنكار عبادته وإنكار كلامه ، حتى ظهر بدعوى التحقيق والتوحيد والعرفان ، فصاروا يقولون العالم هو الله ، والوجود واحد ، والموجود القديم الأزلي الخالق هو الموجود المحدث المخلوق ، والرب هو العبد ، ما ثمَّ رب

---

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية : ٣٥٣

(٢) مجموع فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية : ٣/ ٣٥٢

(٣) سورة القصص : ٣٨

(٤) سورة الشعراء : ٢٩

(٥) سورة النازعات: ٢٤

وعبد، وخالق ومخلوق .

ولهذا صاروا يعيبون على الأنبياء وينتقصونهم ، ويعيبون على نوح وعلى إبراهيم وغيرهما ، ويمدحون فرعون ويجوزون عبادة جميع المخلوقات ، وجميع الأصنام ، ولا يَرْضَوْن بأن تعبد الأصنام حتى يقولوا : إن عُبّاد الأصنام لم يعبدوا إلا الله ، وإن الله نفسه هو العابد وهو المعبود ، وهو الوجود كله ، فجحدوا الرب وأبطلوا دينه ، وأمره ونهيه ، وما أرسل به رسله ، وتكليمه لموسى وغيره ، وقد ضل في هذا جماعة لهم معرفة بالكلام والفلسفة والتصوف المناسب لذلك ، كابن سبعين ، والصدر القُونَوي ، تلميذ ابن عربي ، والبلياني والتلمساني ، وهو من حذاقهم علما ومعرفة ، وكان يظهر المذهب بالفعل ، فيشرب الخمر ويأتي المحرمات »[1] .

ويذكر ابن تيمية أنه حدثه من يثق به أنه قرأ « فصوص الحكم » لابن عربي على التلمساني ، وكان يظنه من كلام أولياء الله العارفين ، فرآه يخالف القرآن ، فقال للتلمساني : هذا الكلام يخالف القرآن . فقال : القرآن كله شرك ، وإنما التوحيد في كلامنا ، وكان يقول : ثَبَتَ في الكشف ما يخالف صريح المعقول .

ويذكر أيضا أنه حدثه من كان معه ، ومعه آخر نظير له ، فمرا على كلب أجرب ميت بالطريق ، فقال له رفيقه : هذا أيضا هو ذات الله ؟

فقال : وهل ثَمَّ شيء خارج عنها ؟ نعم الجميع ذاته .

ويتابع الشيخ كلامه قائلا :« حقيقة قول هؤلاء قول فرعون ، لكن فرعون ما كان يخاف أحدا فينافقه ، فلم يُثْبِتْ الخالق ، وإن كان في الباطن مقرا به ، أما هؤلاء فهم من وجه ينافقون المسلمين ، فلا يمكنهم إظهار جحود الصانع ، ومن وجه هم ضُلّال يحسبون أنهم على حق ، وأن الخالق هو المخلوق ، فكان قولهم هو قول فرعون ، لكن فرعون كان معاندا مظهرا للجحود والعناد ، وهؤلاء إما جهال ضلال ، واما منافقون مبطنون الإلحاد والجحود ، يوافقه ن المسلمين في الظاهر ويذكر الشيخ أن

---

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : ١٣/ ١٨٥

بعض ضَلالهم اعترف أنهم على قول فرعون ونهجه »[1] .

ولقد اتخذ جمع من أهل الضلال التأويل طريقا للإضلال وهدم دين الإسلام ، وهذا هو طريق الباطنية ، يقول محمد بن الحسن الديلمي فيهم : « وُضع مذهب الباطنية في سنة خمسين ومائتين من الهجرة ، وضعه قوم تطابقوا ، وكان في قلوبهم بغض للإسلام ، وبغض للنبي عليه السلام من الفلاسفة والملحدة والمجوس واليهود ليسلخوا الناس عن الإسلام بعد قُوّته ، وبعثوا الدعاة إلى الآفاق والأطراف ليدعوا الناس إلى هذا المذاهب المشؤوم لعلّ الملك يرجع إليهم ، ويَبطل دين النبي العربي .

وكان آخر دعاتهم ميمون القداح الثنوي ، ولما وضعوا هذا ادَّعوا التشيع ومذهب الإمامية ، وأصولهم في الاعتقاد مثل اعتقاد الفلاسفة ، وظاهر مذهبهم الرفض وباطنه الكفر المحض .

وجعل ميمون القدَّاح لكلِّ آية من كتاب الله تفسيرا ، ولكل حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تأويلا ، وزخرف الأقاويل وضرب الأمثال ، وجمع الأعداد والمقابلات ، وقال : إن جميع المفروضات والمسنونات رموز وإشارات وأمثال ممثلات ، وأن الظواهر كلَّها قشور وبواطنها هو اللب المقصود ، وأمر بالاعتصام بالغائب المفقود ، والإعراض عن الحاضر الموجود ، وجعل أصل دعوته لعلي بالتقديم والإمامة ليستر بجلالة الإسلام وبجاه علي وأولاده عليهم السلام ـ كفره العظيم ، وإفكه القديم ، وإلحاده المبين ، والطعن على جميع الصحابة والتابعين، وكان الملعون يعتقد اليهودية ويظهر الإسلام ، وكان حريصا على هدم شريعة الإسلام لما في اليهود من عداوة النبي عليه السلام .

وللباطنية ألقاب عشرة : « الإسماعلية ، والباطنية ، والقرامطة ، والسبعية ، والبابَلية، والمحمرة ، والتعليميةُ ، والقرمطية ، والخرَّمندينية »[2] .

---

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام ١٣/١٨٦

(٢) بيان مذهب الباطنية لمحمد بن الحسن الديلمي :ص ٣ بشيء من التصرف والاختصار ، نشر مكتبة دار ابن قتيبة – الكويت .

وقد ذكر الديلمي كثيرا من تأويلات الباطنية ، فهم يقولون : إن الوحي والملائكة والمعجزات رموز وإشارات وأمثال ممثلات لم يعلمها أهل الظاهر ، فثعبان موسى غلبة موسى فرعون ، وإظلال الغمام أمره عليهم ، ومعنى كون عيسى من غير أب ، أنه لم يأخذ العلم من إمام ، وإنما أخذه من نائب الإمام ، وأولُوا نبع الماء من بين أصابع الرسول صلى الله عليه وسلم بتكثير العلم ، وطلوع الشمس من مغربها بخروج الإمام .

ومعنى القيام من القبور المذكور في الكتاب والسنة عندهم قيام قائم الزمان ، وهو خروج إمامهم ، والمعاد عود كل شيء إلى أصله من الطبائع الأربعة ، ومعنى الغسل المأمور به شرعا تجديد العهد عليه ، ومعنى الجماع مكالمة من لا عهد له بالباطن ، والزنا إلقاء العلم في سمع من لم يعاهده ، والاحتلام سبق اللسان لمذهب أهل الباطن، والطهور التبرؤ من كل مذهب خالف الباطنية ، والتيمم الأخذ للعلم المأذون، والصلاة الدعاء لإمامهم ، والزكاة بث العلوم لمن يتزكى بها ويستحقها ، والصوم كتمان العلم عن أهل الظاهر . والكعبة النبي ، والباب علي ،والصفا النبيُّ ، والمروة عليّ ، والميقات إمامهم ، والتلبية ، إجابة الداعي إلى باطلهم ، والطواف بالبيت سبعا هو تطواف بمحمد إلى تمام الأئمة السبعة ، والنار هي التكاليف بالعبادات، وهي موظفة على الجهال بعلم الباطن ، والجنة علم الباطن .

والطوفان العلم غرق فيه أهل السنة ، والظاهر السفينة حَرْزَه الذي تحصن به المستجيب ، ونار إبراهيم غضب نمرود عليه ، وذبح إسحاق أخذ العهد عليه ، وعصا موسى حجته التي غلب بها عند المناظرة ، وتسبيح الجبال هم رجال شداد منهم ، والجن أصحاب سليمان باطنية ذلك الزمان .

وقد ألف جمع من أهل العلم في بيان مذهب الباطنية وبطلانه ، فمن هذه المؤلفات : فضائح الباطنية للغزالي – نشرته الدار العربية للطباعة والنشر- ١٣٨٣ هـ ١٩٦٤م

وكتاب القرامطة لابن الجوزي – نشره المكتب الإسلامي – بيروت ١٤٠١هـ ١٩٨٨م وهو اختصار لكتاب لغزالي .

وإبليس وآدم : أبوبكر وعلي ، ويأجوج ومأجوج أهل الظاهر[1] .

وقد تنبه العلماء إلى الغرض الذي يرمي إليه هؤلاء الباطنية في دعواهم أن للنصوص ظاهرا وباطنا ، وهو التلاعب بهذا الدين كيف شاؤوا .

يقول ابن الجوزي : « وغرضهم فيما وضعوا من ذلك إبطال الشرائع ، لأنهم إذا حَرَّفُوا العقائد عن موجب الظاهر تحكموا بدعوى الباطن على ما يوجب الانسلاخ من الدين »[2] .

وذكر الديلمي أن الباطنية في زعمها « أن الله لا يوصف بنفي ولا إثبات ، أي لا يقال: إنه موجود ولا معدوم ، ولا قادر ولا غير قادر ، ولا عالم ولا غير عالم ، وكذلك في باقي الصفات مرادهم جحد الصانع ، وإنما تستروا بهذه العبارات عند العامة ، حتى لا يُفَهَّمَ مقصودهم ، فإنه لا نفي أبلغ من القول بأنه ليس بشيء ، ولا موجود ولا معدوم»[3] .

وقال الغزالي بعد ذكره معتقدهم في الله الذي ذكره ابن الجوزي والديلمي : «وكأنهم يتطلعون في الجملة لنفي الصانع ، فإنهم لو قالوا إنه معدوم لم يقبل منهم ، بل منعوا الناس من تسميته موجودا ، وهو عين النفي مع تغير العبارة ، لكنهم تَحَذَّقُوا ،فسموا هذا النفي تنزيها ، وسموا مناقِضَه تشبيها ، حتى تميل القلوب إلى قبوله »[4]

خامسا : الأحاديث الضعيفة والموضوعة :

عملت الأحاديث الباطلة عملها في إفساد عقيدة المسلمين ، فمن هذه الأحاديث المكذوبة أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ سئل فقيل له : مِمَّ ربنا ، فقال : « من ماء مرور لا أرض ولا سماء ، خَلَقَ خيلا فأجراها فَعَرِقَت ، فخلق نفسه

---

(١) انظر هذه التأويلات التي تحكي ترهات وأباطيل هذه الطائفة في المصدر السابق : ص ٥ – ١٠

(٢) القرامطة – لابن الجوزي : ص ٣٧ – المكتب الإسلامي بيروت .الطبعة الخامسة : ١٤٠١هـ ١٩٨١م

(٣) بيان مذهب الباطنية للدلمي : ص ٧٢

(٤) فضائح الباطنية : ص ٢٩

من ذلك العَرَقِ »[1] .

ومن الأحاديث الباطلة المنسوبة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم : « رأيت ربي يوم عرفات بعرفات على جمل أحمر ، عليه إزاران ، وهو يقول : قد سمحت ، قد غفرت إلا المظالم »[2] .

ومنها « رأيت ربي في المنام في أحسن صورة ، شابًا مُوَفَّرا ، رجلا في خَضِرةٍ ، عليه نعلان من ذهب ، على وجهه فراش من ذهب »[3] .

ومنها ما ذكره ابن أبي عاصم في كتابه « السنة » « لما قضى الله خلقه استلقى ، ثم وضع إحدى رجليه على الأخرى »[4] .

وقد علق عليه محققه الشيخ ناصر الدين الألباني قائلا : « إسناده ضعيف ، والمتن منكر ، كأنه من وضع اليهود »[5] .

---

(١) تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعه و الموضوعة : ١/ ١٣٤

(٢) تنزيه الشريعة : ١/ ١٣٩

(٣) تنزيه الشريعة : ١/ ١٤٥

(٤) السنة لابن أبي عاصم حديث رقم : ٥٦٨

(٥) المصدر السابق .

الفصل الخامس
مذهب السلف الصالح في معترك الصراع

المبحث الأول
مزاحمة المناهج الباطلة لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم

إن الذين انحرف بهم المسار عن نهج السلف الصالح في باب الاعتقاد ينازعون السلف ، ويزعمون أن منهجهم هو المنهج الأسلم والأعلم والأحكم ، وقد يدلّس بعضهم عندما يدعي أن منهج السلف أسلم ، ومنهج الخلف أحكم .

وقد غلا بعض المخالفين وتجاوز حدَّه عندما اتهم الصحابة بالسذاجة ، وأنهم لم يفقهوا الحق الذي أنزله تبارك وتعالى .

وجاوز الظالمون حَدَّهَمْ عندما طعنوا في علم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفقهه ، وهؤلاء الأغرار يَدَّعُون أن الرسل لم يعرفوا حقائق العلوم الإلهية والكلية ، ولذا فإن الرسل ـ في زعمهم ـ لا يصلحون لمخاطبة أصحاب العقل والعلم والمعرفة، وإنما يصلحون لمخاطبة عوام الناس ، ويزعم آخرون أن الرسل علمت حقائق العلوم ، ولكنهم لم يبينوها للناس ، بل خاطبوا الناس بما يخيل إليهم ، ونسبوا الرسل ـ بهذا القول ـ إلى التلبيس والضلال .

وزعم آخرون أن الرسل علموها وبينوها ، لكن لا يمكن معرفة الحق من كلامهم، بل يحتاج كلامهم إلى تأويل .

وقد سمى شيخ الإسلام ابن تيمية هؤلاء بأهل التخييل ، وأهل التأويل ، وأهل التجهيل ، وأطال في مؤلفاته الحديث عنهم لمنازعتهم الرسول فيما جاء به ، وتلبيسهم على الناس الباطل والزور الذي جاؤوا به .

« فأهل التخييل هم المتفلسفة ومن سلك سبيلهم من تكلم ومتصوف ومتفقه ، فإنهم يقولون : إن ما ذكره الرسول ـ صلى الله عليه وسلمَ ـ من أمر الإيمان بالله واليوم الآخر إنما هو تخييل للحقائق لينتفع به الجمهور ، لا انه بين به الحق ، ولا هدى به الخلق ، ولا أوضح به الحقائق .

ثم هم على قسمين : منهم من يقول : إن الرسول لم يعلم الحقائق على ما هي عليه ، ويقولون : إن من الفلاسفة الإلهية من علمها ، وكذلك من الأشخاص الذين يسمونهم الأولياء مَنْ علمها ، ويزعمون أن من الفلاسفة والأولياء من هو أعلم بالله واليوم الآخر من المرسلين ، وهذه مقالة الملحدين من الفلاسفة والباطنية : باطنية الشيعة ، وباطنية الصوفية ، وهذا يقوله الفارابي وأمثاله .

ومنهم من يقول بأن الرسول علمها ، وإنما تكلم بما يناقضها ، وأراد من الخلق فَهْم ما يناقضها ، لأن مصلحة الخلق في هذه الاعتقادات التي لا تطابق الحق ، ومن القائلين بهذا القول ابن سينا .

ويقول هؤلاء : يجب على الرسول أن يدعو الناس إلى اعتقاد التجسيم مع أنه باطل ، وإلى اعتقاد معاد الأبدان مع أنه باطل ، ويخبرهم أن أهل الجنّة يأكلون ويشربون مع أن ذلك باطل .

قالوا : لأنه لا يمكن دعوة الخلق إلا بهذه الطريق التي تتضمن الكذب لمصلحة العباد، فهذا قول هؤلاء في نصوص الإيمان بالله واليوم الآخر »[1] .

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ٥/٣٢. وراجع أيضا مجموع الفتاوى : ١٦/٤٤

« وأما أهل التأويل فيقولون إن النصوص الواردة في الصفات لم يقصد بها الرسول أن يعتقد الناس الباطل ، ولكن قصد بها معاني ، ولم يبين لهم تلك المعاني ولا دلَّهم عليها، ولكن أراد أن ينظروا فيعرفوا الحق بعقولهم ، ثم يجتهدوا في صرف تلك النصوص عن مدلولها ، ومقصوده امتحانهم وتكليفهم ، واتعاب أذهانهم وعقولهم في أن يصرفوا كلامه عن مدلوله ومقتضاه ، ويعرفوا الحق من غير جهته ، وهذا قول المتكلمة والجهمية والمعتزلة ، ومن دخل معهم في شيء من ذلك »[1] .

والصنف الثالث : وهم أهل التجهيل ، فهم كثير من المنتسبين إلى السنة واتباع السلف ، يقولون : إن الرسول صلى الله عليه وسلم « لم يعرف معاني ما أنزل إليه من آيات الصفات ولا جبريل يعرف معاني الآيات ، ولا السابقون الأولون عرفوا ذلك .

وكذلك قولهم في أحاديث الصفات إن معناها لا يعلمه إلا الله ، مع أن الرسول تكلم بها ابتداء ، فعلى قولهم تكلم بكلام لا يُعْرَفُ معناه »[2] .

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ٥/٣٣ .وراجع ايضا : ١٦/ ٤٤١

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ٥/٣٤. وراجع : ٦/ ٤٤٢ من مجموع الفتاوى

المبحث الثاني
الأدلة على أن معتقد السلف هو الأعلم والأسلم والأحكم

١ـ « من المحال في العقل والدين أن يكون السراج المنير الذي أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور ، وأنزل معه الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وأمر الناس أن يردوا ما تنازعوا فيه من أمر دينهم إلى ما بعث به من الكتاب والحكمة، وهو يدعو إلى الله وإلى سبيله بإذنه على بصيرة ، وقد أخبر الله بأنه أكمل له ولأمته دينهم ، وأتمّ عليهم نعمته ، فمحَال مع هذا وغيره : أن يكون قد ترك باب الإيمان بالله والعلم به متلبسا مشتبها عليهم ، ولم يميز بين ما يجب لله من الأسماء الحسنى والصفات العليا ، وما يجوز عليه، وما يمتنع عليه .

فإن معرفة هذا هو أصل الدين وأساس الهداية ، وأفضل وأوجب ما اكتسبته القلوب، وحصلته النفوس وأدركته العقول ، فكيف يكون ذلك الكتاب وذلك الرسول وأفضل خلق الله بعد النبين لم يحكموا هذا الباب اعتقادا وعملا[1] ؟

٢ـ شهد الله لأصحاب نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان بأنهم على الحق وأثنى عليهم ، وأخبر برضاه عنهم ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه ، وأعدّ لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم ﴾[2] .

وقال فيهم أيضا :﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ٦/٥

(٢) سورة التوبة : ١٠٠

ما في قلوبهم ، فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا ﴾[1] .

وقد تهدد رب العزة الذين يتبعون غير سبيلهم بالعذاب الأليم ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا ﴾[2] .

ولا شك أن سبيل المؤمنين هو سبيل الصحابة من المهاجرين والأنصار ، وهو السبيل الذي جاء به القرآن ، وبينه خير الأنام ، وقد كان هذا السبيل واضحا معلوما ، والذين يدَّعون أن الصحابة لم يكونوا يعرفون طريق الإيمان والإسلام أعظموا على الله الفريَة .

وثبت في السنة أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ علَّم صحابته كل شيء حتى الخِراءة وقال : « تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك » . وقال فيما صح عنه : « ما بعث الله من نبي إلا كان حقا عليه أن يدلَّ أمته على خير ما يعلمه لهم ، وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم » .

وقال أبو ذر : لقد توفي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علما .

وقال عمر بن الخطاب : « قام فينا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مقاما ، فذكر بدء الخلق ، حتى دخل أهل الجنّة منازلهم ، وأهل النار منازلهم ، حفظ ذلك من حفظه ، ونسيه من نسيه ». رواه البخاري .

ومحال مع تعليمهم كل شيء لهم فيه منفعة في الدين ـ وإن دقت ـ أن يترك تعليمهم مايقولونهبألسنتهم ، ويعتقدونه في قلوبهم في ربهم ومعبودهم رب العالمين ، الذي معرفته غاية المعارف ، وعبادته أشرف المقاصد ، والوصول إليه غاية المطالب ، بل هذا خلاصة الدعوة النبوية ، وزبدة الرسالة الإلهية ، فكيف يتوهم من في قلبه

---

(١) سورة الفتح : ١٨

(٢) سورة النساء : ١١٥

أدنى مسكة من إيمان وحكمة أن لا يكون هذا الباب قد وقع من الرسول على غاية التمام ؟

ثم إذا وقع ذلك منه : فمن المحال أن يكون خير أمته وأفضل قُرونها قَصَّرُوا في هذا الباب ، زائدين فيه أو ناقصين عنه ؟ .

٤ـ الذين يزاحمون صحابة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في المنهج والسبيل هم أفراخ المتفلسفة ، وأتباع الهند واليونان ، وورثة المجوس والمشركين وضلال اليهود والنصارى والصابئين وأشباههم ، فكيف يكون هؤلاء أعلم بالله من ورثة الأنبياء وأهل القرآن ؟

المبحث الثالث

تناقض علماء الكلام وحيرتهم واضطرابهم

ومما يدل على أن مذهب السلف هو المذهب الأحكم والأسلم والأعلم أن كثيراً من الذين بلغوا الغاية في علم الكلام تراجعوا عنه وذموه ، بعضهم تراجع عنه وفي العمر بقية ، وبعضهم أعلن توبته وهو على فراش الموت ، ومنهم من كان يدرك ضلاله وحيرته ، ولكنه لم يكن يعرف سبيل الهداية ، « هذا الرازي ـ وهو أحد هؤلاء ـ يعلن في نهاية المطاف بعد أن أضناه المسير ، وعالج في مسيره كثيرا من العنت أنه لم يصل إلى شيء ، لقد ابتعد عن المنهج القرآني النبوي ، وجرى وراء نتائج العقول الإنسانية ، فلم تقده الأفكار والنظريات والمقالات إلى اليقين الذي يجده الناهل من وحي السماء ، لقد أدرك في نهاية المسار أن روحه لم ترتو من المنهل الذي ورده ، وأن الغاية التي سعى إليها لم تتحقق ، وأن ما اعتمد عليه وجمعه أقوال تتصارع وتتضارب .إني كلما قرأت أبياته التي أوردها في كتابه « أقسام اللذات » اشتمّ منها رائحة النواح الحزين الصاعد من قَلْبٍ مكلوم ، إنه النواح على النفس التي ضيعت المسيرة في غير مسارها الحق ، اسمعه وهو ينوح على نفسه فيقول :

نهاية إقدام العقول عقال ... وأكثر سعي العالمين ضلال

وأرواحنا في وَحْشَةٍ من حسومنا ... وغاية دنيانا أذى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقال

وكم قد رأينا رجالا ودولة ... فبادوا جميعا مسرعين وزالوا

وكم من جبال قد علا شرفاتِها ... رجال ـ فزالوا ـ والجبال جبال[1]

---

(١) الصواعق المرسلة لابن القيم ص ٧ـ مطبعة الامام القاهرة ومقدمة – كتاب اعتقادات فرق المسلمين للرازي ص ٢٣

ووعظ يوما بحضرة السلطان شهاب الدين الغوري فناداه قائلا :« يا سلطان العلماء لا سلطانك يبقى ، ولا تلبيس الرازي يبقى »[1] .

وقال ابن الصَّلاح : « أخبرني القطب الطوغاني مرتين أنه سمع فخر الدين الرازي يقول : يا ليتني لم أشتغل بعلم الكلام ،وبكى »[2]

ويقول في كتابه « أقسام اللذات »« : لقد تأملت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفي عليلا ، ولا تُرْوِي غليلا ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن ، أقرأ في الإثبات : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾[3] ، ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب﴾[4] .

وأقرأ في النفي : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾[5] ، ﴿ ولا يحيطون به علما ﴾.[6] ويختم حديثه قائلا : « ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي »[7] .

ويصور لنا عبدالكريم الشهرستاني ـ وهو العلَم الذي لا يشق له غبار في علم الملل والنحل ـ حال أصحاب الكلام في علوم العقائد في مقدمة كتابه « نهاية الكلام في علم الكلام » فيقول :

لعْمري لقد طفت المعاهد كلَّها وسيرت طرفي بين تلك المعالم

فلم أر إلا واضعا كفَّ حائر على ذقن أو قارعا سنَّ نادم

ولا يجوز أن ننسى في هذا المقام الجويني ، وهو الذي كان يدُعْى بإمام الحرمين ، وهو من هو في علم الكلام والجدل والبحث والنظر ، وقد حضره الموت ، فإذا به

---

(١) مقدمة محرر كتاب اعتقادات فرق المسلمين : ص ٢٣

(٢) مقدمة محرر كتاب اعتقادات فرق المسلمين للرازي : ٢٣

(٣) سورة طه : ٥

(٤) سورة فاطر : ١٠

(٥) سورة الشوري : ١١

(٦) سورة طه : ١١٠

(٧) الفتوى الحموية الكبرى لشيخ الإسلام ابن تيمية : ص ٧

ينظر في مساره في الحياة ، وينظر إلى حصيلته التي حصلها ، فيبكي بكاء الثكلى ، لقد أضاع الكثير من عمره في مسار لم يوصله إلى الشاطئ ، لقد كان يخوض في بحر خضم من الأفكار والعقائد والموازين ، لا يقر قلبُ من خاضها على قرار ، استمع إليه يوصي أصحابه وهو يعالج سكرات الموت فيقول : « لقد خُضْتُ البحر الخضم ، وتركت أهل الإسلام وعلومهم ، وخُضْتُ في الذي نَهَوْنِي عنه ، والآن إن لم يتداركني الله برحمته فالويل لي ، وها أنا ذا أموت على عقيدة أمي »[1] .

وهذا عالم آخر من علماء الكلام يفتش عن حصيلة العمر ، وهو على فراش الموت فلا يجد عنده من الحق شيئا ، فيعلن ذلك لمن حوله ، ويقول : « اشهدوا عليَّ أني أموت وما عرفت إلا أنَّ الممكن مفتقر إلى واجب ، ثمَّ قال : والافتقار أمر عدمي ، فلم أعرف شيئا »[2] .

ويقول آخر من علماء الكلام : « أكثر الناس شكًّا عند الموت أصحاب الكلام »[3] .

وقال شمس الدين الخسروشاهي ، وكان من أجّل تلامذة الفخر الرازي لبعض الفضلاء وقد دخل عليه يوما : ما تعتقد ؟ قال : ما يعتقده المسلمون . فقال : وأنت منشرح الصدر لذلك مستيقن به ؟ قال : نعم .

فقال : اشكر الله على هذه النعمة ، لكني والله ما أدري ما أعتقد ، والله ما أدري ما أعتقد ، وبكى حتى أخضل لحيته[4]

ولابن أبي الحديد من شعره :

فـيك ياأغـلُوطة الفكر حار أمري وانقضى عمـري

---

(١) نهاية الإقدام في علم الكلام للشهرستاني : ص ٣ ـ نشر مكتبة المثنى – بغداد

(٢) الصواعق المرسلة ،لابن القيم : ص ٧

(٣) الصواعق المرسلة ،لابن القيم : ص ٧

(٤) شرح العقيدة الطحاوية : ص ٢٢٨

سافرتَ فيك العقولَ فما ربحت إلا أذى السفر
فَلَحَى الله الألى زعموا أنَّك المعروفُ بالنظر
كذبوا إنَّ الذي ذكروا خارجٌ عن قوة البشر

وقال المرتضى اليماني الشهير بابن الوزير « خالف بعض المتكلمين والمبتدعة أسلوب الأنبياء والأولياء والأئمة والسلف في النظر ، فتكلفوا وتعمقوا وعبَّروا عن المعاني الجليّة بالعبارات الخفية ، ورجعوا بعد السفر البعيد إلى الشكّ والحيرة والتعادي والتكاذب .

وقد اعترف أكثر المتكلمين بالوقوع في الحيرة ، والأمور المشكلة المتعارضة ، فقال ابن أبي الحديد ـ وهو من كبراء المعتزلة ـ بعد عظيم توغله في علم الكلام .

فإذا الذي استكثرت منه هو الـ بعَاني على عَظائم المحنِ
فظللتُ في تيهٍ بلا علَمٍ وغرقتُ في بحر بلا سفنِ

وقال صاحب كتاب الإمام

تجاوزتُ حد الأكثرين إلى العلا وسافرتُ واستبقيتهم في المراكز
وخضت بحارا ليس يُدْرَك قعرها وسيَّرتُ نفسي في فسيح المفاوز
ولججت في الأفكار ثمَّ تراجع اخـ تياري إلى استحسان دين العجائز [1]

ومن المتأخرين الذين خاضوا في علم الكلام ولم يرجعوا منه بفائدة ، ووقعوا في الحيرة الشوكاني ، فإنه حدَّث عن نفسه فقال : « ها أنا أخبرك عن نفسي ، وأوضح لك ما وقعت فيه أمسي ، فإني في أيام الطلب وعُنفُوان الشباب ، شغلت بهذا العلم الذي سموه تارة علم الكلام ، وتارة علم التوحيد ، وتارة علم أصول الدين ،

(١) ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان ،لأبي عبد الله محمد بن المرتضي اليماني المشهور بابن الوزير : ص ٤٤ دار الكتب العلمية بيروت ، ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤م

وأكببتُ على مؤلفات الطوائف المختلفة منهم ، ورمت الرجوع بفائدة والعود بعائدة ، فلم أظفر بغير الخيبة والحيرة ، وكان ذلك من الأسباب التي حببت إلي مذهب السلف ، على أني كنت قبل ذلك عليه ، ولكن أردت أن أزداد منه بصيرة وشغفا ، وقلت عند ذلك في تلك المذاهب :

وغاية ما حصلته من مباحثي ... ومن نظري من بعد طول التدبر

هو الوقف بين الطريقين حيرة ... فما علم من لم يلق غير التحير

على أني قد خضت منه غِمَاره ... وما قَنِعتْ نفسي بغير التبحر[1]

إن الناظر في حيرة علماء الكلام يعلم صدق قول شيخ الإسلام فيهم : « أوتوا ذكاءً و ما أوتوا زكاءً ، وأعطوا فهوما ، وما أعطوا علوما ، وأعطوا سمعا وأبصار وأفئدة ، ﴿ فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾[2][3] .

ويقول شيخ الإسلام مبينا حال علماء الكلام : أهل الكلام أعظم الناس شكا واضطرابا ، وأضعف الناس علما ويقينا ، وهذا أمر يجدونه في أنفسهم ، ويشهده الناس منهم ، ولذا تجدهم أكثر الناس انتقالا من قول إلى قول ، وجزما بالقول في موضع ، وجزما بنقيضه وتكفير قائله في موضع آخر ، وهذا دليل عدم اليقين .

وإنما فضيلة أحدهم باقتداره على الاعتراض والقدح والجدل ، ومن المعلوم : أن الاعتراض والقدح ليس بعلم ، ولا فيه منفعة ، وأحسن أحوال صاحبه أن يكون بمنزلة العامي ، وإنما العلم في جواب السؤال ، ولهذا تجد غالب حججهم تتكافأ ، إذ كل منها يقدح في الآخر .

وقد قيل : إنَّ الأشعري ـ مع أنه أقربهم إلى السنة والحديث وأعلمهم بذلك ـ

---

(١) التحف في مذاهب السلف للشوكاني ، مطبوعة في مجموعة الرسائل المنيرية : ٢/٩٣

(٢) سورة الأحقاف : ٢٦

(٣) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : ٥/١١٩

صنف في آخر عمره كتابا في تكافؤ الأدلة ، يعني أدلة علم الكلام .

وكان ابن واصل الحموي ـ وهو من فضلاء المتأخرين وأبرعهم في الفلسفة والكلام ـ يقول : « أستلقي على قفاي ، وأضع الملحفة على نصف وجهي ، ثم أذكر المقالات ، وحجج هؤلاء وحجج هؤلاء ، واعتراض هؤلاء وهؤلاء حتى يطلع الفجر، ولم يترجح عندي شيء ، ولهذا أنشد الخطابي :

حجج تَهَافَتُ كالزجاج تخالُها حقّاً وكلٌّ كاسر مكسور[1]

والسر وراء هذه الحيرة والشقوة التي تحدَّث عنها أساطين علماء الكلام أن طبيعة المنهج الذي أخذوا به وسلكوه يسقط هيبة الرب من القلوب ، والقلب إذا عَرِيَ من الهيبة عري من الإيمان كما يقول الجنيد رحمه الله تعالى[2] .

إن علم الكلام يتحدث عن الله كما يتحدث عن أي موضوع من الموضوعات أو مخلوق من المخلوقات ، أضف إلى هذا أن أدلة علم الكلام أدلة عقلية من صنع الإنسان فيها مجال واسع للأخذ والرد ، يقول الغزالي رحمه الله تعالى : « الإيمان المستفاد من الدليل الكلامي ضعيف جدّاً مشرف على الزوال بكل شبهة ، بل الإيمان الراسخ إيمان العوام الحاصل بتواتر السماع »[3] .

إيمان السلف ليس بإيمان العجائز

هذا الذي ذكرناه عن الغزالي في آخر المبحث السابق من وصفه الإيمان الراسخ بأنه إيمان العوام ، وقول الآخرين فيه : إيمان العجائز ونحو ذلك ليس هو بإيمان أهل العلم من أتباع المنهج القرآني النبوي ، إن إيمان أهل العلم من أتباع المنهج القرآني النبوي من سلفنا إيمان يقيني مبصر لا يتزلزل ولا يتزعزع ، فالمنهج القرآني يجعلهم لا

---

(١) راجع مجموع فتاوي شيخ الإسلام : ٤/٢٧، ٥

(٢) نقله عنه الشيخ مرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي في كتابه أقاويل الثقات : ص ١١٣

(٣) الجواهر، للغزالي : ص ٩٩

يشكون ولا يحتارون ، لأنهم على بينة من ربهم ، وإذا كان العوام من أهل السنة هذه حالهم ، فكيف بمن تأسوا بهم من أهل العلم والفضل حُفَّاظ كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

إن عوام أهل السنة فضلا عن علمائهم كما يقول المرتضى اليماني : « لو اجتمع عليهم جميع الفلاسفة وشعَّل الذكاء المتقدة من المتقدمين والمتأخرين يُورِدُون عليهم الشبه التي تتحير فيها أفهام الفطناء ، وتدحض في مَزَالِقها أقدام الأذكياء ما أصْغَوْا إلى كلامهم ، ولا مالوا إلى مقالتهم ، ولا قدحت قويات شبههم نار الشك في قلوبهم ، ولاتَرَدَّدوا في الجزم على اعتقادهم .

وهذا ليس بطريقة النظار ، فإن العلوم من أرباب النظر أنهم يجدون الشكوك عند ورود الشبه ، حتى أن بعض علماء الكلام ارتدوا إلى الكفر بعد الإسلام»[1] .

---

(١) البرهان الساطع في إثبات الصانع لمحمد بن إبراهيم الوزير : ص ٥٢ ، المكتبة السلفية - القاهرة - ١٣٤٩ هـ

المبحث الرابع
موقف علماء السلف من مخالفيهم

كان علماء السلف يخشون أن تتغلغل شبهات أهل الضلال في صفوف المسلمين من أهل السنة ، ولذلك فإنهم حرصوا على تحصين أهل السنة ضد الاتجاهات الضالة بأمور عدة منها :

١ـ التحذير من مخالطة أهل البدع ومجالستهم ، روى ابن بطة عن عبدالله بن السري أنه قال : « ليس السنة عندنا أن يُرَدَّ على أهل الأهواء ، ولكن السنة أن لا يُكلَّم أحد منهم »[١] .

وقال الإمام أحمد ـ رحمه الله فيما رواه عنه الذهبي:ـ سمع بشر بن السري البصري من سفيان ألف حديث ، وسمعنا منه ، فذكر حديث : ﴿ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾[٢] ، فقال : ما أدري ما هذا ؟ إيش هذا ؟ فوثب به أهل مكة والْحُمَيْدي فأسمعوه ، فاعتذر بعد ، فلم يُقْبَلْ منه ، وزهد الناس فيه ، فلما قَدِمْتُ مكة المرة الثانية كان يجيء إلينا فلا نكتب عنه ، وجعل يتلطف فلا نكتب عنه[٣] .

٢ـ نشر المعتقد الصحيح وإظهاره ، كما فعل علماؤنا في كل عصر ومصر ، وقد نقل شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ أن إمام الأئمة في عصره أبا إسحاق الأسفرايني كان يأتي في كل يوم جمعة أثناء خروجه إلى الصلاة مكانا يقيم فيه طلبة العلم الذين يأتون بغداد من مختلف الأقطار لتلقّي العلم ، وكان يُدْعَى مثل هذا المكان بالرباط ، فَيُكلِّم من يجده من طلبة العلم ، ويقول لهم : اشهدوا عليَّ بأن القرآن كلام الله غير مخلوق كما قال الإمام أحمد ، لا كما يقول الباقلاني .

---

(١) الإبانة : ٢/ ٣٦٥

(٢) هذه آية وليس حديثا ، ولعله ساق حديثا يفسر الآية ، فقال ما قال .

(٣) ميزان الاعتدال : ١/ ٣١٨

ولما سئل عن سر تكرار مقالته في كل جمعة . قال : حتى تنتشر في الناس وفي أهل البلاد ، ويشيع الخبر في أهل البلاد أني بريء مما عليه الباقلاني وأصحابه[1] .

٣ـ عدم نشر بدعهم والرد عليها خشية انتشارها ، إلا إذا شاعت بين الناس فأمرضت القلوب والعقول ، فإنهم لا يجدون بدّاً في هذه الحال من الرد عليها وبيان عوارها .

روى البغوي عن سفيان الثوري أنه قال : « من سمع بدعة فلا يحكها لجلسائه ، لا يلقها في قلوبهم »[2] .

وقد نصح الإمام أحمد رجلا رغب في الرد على أهل البدع من أهل الكلام وغيرهم بأن لا يفعل[3] .

فالسلف لم يكونوا يخشون أهل البدع ، ولكنهم يكفون أنفسهم عنهم خشية نشر بدعهم وضلالاتهم ، ولكنهم عندما كانوا ينزلون الحلبة يصارعون أهل الباطل، فإنك ترى أنوارا تَبْهَرُ الناظرين وتهزم جيوش الظلام ، وكانت سيوف الحق تقهر شبهات المبطلين .

لقد نازل ابن عباس الخوارج ، فأزاح بحواره الغشاوة عن بصائر ألفين منهم رجعوا عن باطلهم .

وجادل عمر بن عبدالعزيز الخوارج والقدرية فعلا حقُّه باطلَهم ، وعندما واجه الإمام أحمد الجهمية وأفراخهم من المعتزلة دمغ الحقُّ الذي جاء به باطلَهم ، فاستطالوا عليه بالسلطان ، بعد أن أعجزهم قهره بالحجة والبرهان .

وقد بين عَلَمٌ من أعلام أهل السنة وهو عثمان بن سعيد الدرامي المتوفى عام (٢٨٢هـ) في مقدمة كتابه الذي رد فيه على بشر المريسي ـ المنهج الذي سلكه

---

(١) شرح العقيدة الأصفهانية : ص ٣٦

(٢) شرح السنة للبغوي : ١/٢٢٧

(٣) الابانة لابن بطة : ١/٤٤

علماؤنا في الرد على المنحرفين عن الحق في باب أسماء الله وصفاته ، ومما جاء في مقدمته قوله :« لولا ما بدأكم هذا المعارض بإذاعة ضلالات المريسي وبثها فيكم ما اشتغلنا بذكر كلامه ، مخافة أن يعلق بعض كلامه بقلوب الجهال ، فيلقيهم في شك من خالقهم وفي ضلال ، أو أن يدعوهم إلى تأويله المحال ، لأن كل كلامه نقص ووقيعة في الرب ، واستخفاف بجلاله وسب ، وفي التنازع فيه يُتَخَوَّفُ الكفر ويرهب .

ولذلك قال عبدالله بن المبارك : « لأن أحكي كلام اليهود والنصاري أحب إليَّ من أن أحكي كلام الجهمية » فمن أجل ذلك كرهنا الخوض فيه ، وإذاعة نقائصه حتى أذاعها المعارض فيكم وبثها بين أظهركم ، فخشينا أنه لا يسعنا إلا الإنكار على من بثها ، ودعا الناس إليها ، منافحة عن الله ، وتثبيتا لصفاته العليا ، ولأسمائه الحسنى، ودعاءً لطريقته المثلى ، ومحاماة عن ضعفاء الناس وأهل الغفلة من النساء والصبيان أن يضلوا بها ، أو أن يفتتنوا ، إذ بثها فيهم رجل كان يشير إليه بعضهم بشيء من فقه وبصر ، ولا يفطنون لعثراته إن هو غَشَّ ، فيكونوا من أخواتها منه على حذر .

وقد كتب إلي عليٌّ بن خُشرم أنه سمع يونس يقول : « لا تجالسوا الجهمية ، وبينوا للناس أمرهم كي يعرفوهم فيحذروهم »[1] .

والمتأمل في هذا النقل عن الدرامي يفقه منهج السلف من أهل البدع والرد عليهم .

وهناك أمر آخر يحسن التنبيه إليه في منهج السلف في ردهم على أهل البدع ، فهم يجُملون في إيراد الشبه التي يشوش بها أهل البدع على أهل الحق ، ويفصِّلون في الإجابة عليها ، ومنهجهم هذا موافق للمنهج القرآني ، فترى القرآن يُجمِل في أقوال أهل الضلال ، مثل دعوى النصارى أن عيسى ابن الله ، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا ، ولكنه يفصل القول في بيان الحق ورد الباطل .

---

(١) رد الإمام الدارمي عثمان بن سعيد على بشر المريسي العنيد : ص ٤

المبحث الخامس
تشويه مذهب السلف الصالح

دأب المخالفون لأصحاب المنهج الأصيل على تشويه مذهب السلف الصالح ، وسنأتي على أهم الطرائق التي استخدمها هؤلاء لتحقيق هدفهم ومرادهم .

أولا : دعواهم أنهم أصحاب المنهج الأفضل :

وقد أطلنا من قبل في مناقشة هذه الشبهة ، وبينا أن مذهب السلف الصالح هو الأعلم والأسلم خلافا لمن يدعي هذه الدعوى .

ولا يزال الذين يَزوِّرون بالحقائق ويزوِّرونها يزعمون أن المنحرفين عن الصراط المستقيم كالمعتزلة والفلاسفة هم أصحاب المنهج العقلي الأصيل ، وأنهم أحرار الفكر الإسلامي ، فمحقق كتاب « رسائل العدل والتوحيد » للقاضي عبد الجبار المعتزلي وآخرون يرى أن تلك الرسائل « نصوص إسلامية من عيون الفكر العقلاني » ويزعم أن فقه المعتزلة للتوحيد ـ وهو الفقه الذي نفوا به صفات الباري تبارك وتعالى ـ « هو التصور الأرقى الذي بلغه العقل الإنساني » .

وزعم أن كتّاب تلك الرسائل هم « أعلامٌ تألّقوا في عصور تراثنا المتعاقبة » وزعم أيضا « أن المعتزلة والشيعة والإمامية والزيدية وأهل السنة اتفقت مدارسهم وتياراتهم الفكريه في هذه الأصول الفكرية والجوهرية والقضايا الأمهات في العدل والتوحيد، وهما جماع فلسفة الإنسان المسلم وتصوره للذات الإلهية »[1] .

وكل هذا وأمثاله من تزييف الحقائق ، فالمعتزلة لا يمثّلون صفوة هذه الأمة ، وليسوا بأحرار الفكر الإسلامي ، ولا أصحاب المنهج السليم ، لقد كان المعتزلة

---

(١) مقدمة كتاب « رسائل العدل والتوحيد » : ص ٨

أعظم الناس استبدادا وضيقا بالرأي المخالف ، اضطهدوا خصومهم عندما مال السلطان إلى باطلهم ، وفتنوا الأمّة كلها ، وحاولوا إكراه الناس على معتقداتهم ، وضربوا بالنصوص من الكتاب والسنة والأصول العقلية التي جاءت بها النصوص عرض الحائط ، وتعالموا على قيوم السموات والأرض عندما قرروا قواعد وأصولا تخالف ما جاء به الوحي .

وخلاصة ما جاؤوا به نفي الصفات ، ورمي من أثبتها بالشرك والتشبيه ، وهو لا يدل على النضج العقلي أو التفكير الحر ، بل هو انحراف عن المنهج الحق ، وتقصير في فهمه وعلمه .

ثانيا : ادّعاء بعض المخالفين للسلف أنهم على مذهب السلف:

قد يَدّعي بعض المشبهة أو النفاة أن ما هم عليه من أقوال مبتدعة هو مذهب السلف الصالح ، وبذلك يخلطون على الناس الحق بالباطل ، ويلبسون على الناس دينهم .

وجوابنا عن هذه الدعوى أن مذاهب السلف مشهورة منقولة عنهم في مدونات، ولم تكن يوما من الأيام عقائد سريّة خفية مجهولة ، فمن ادعى أن قوله هو قول السلف فعليه أن ينقل عنهم أنهم قالوا بالقول الذي ابتدعه وأحدثه .

وقد ذكرنا فيما مضى جملة من أقوال السلف التي تظهر مذاهبهم ، وتفصح عن أصولهم .

ومن عجب أن يدّعي أمثال هؤلاء أنهم على مذهب السلف ، ثم يخالفونهم فيما أصّلوه وقرروه ، ومن كان على مذهب إنسان فإنّه يشايعه ويتابعه ، ولا يناقضه ويخالفه .

وكيف يكون هؤلاء على مذهب السلف وهم يضللون السلف ويخطئونهم ، بل كثير من مخالفي السلف يكفرون السلف كالخوارج والروافض . والمعتزلة يفسقون كثيرا من الصحابة ، ويحكمون على علماء الأمة بالجهل وقلة العلم بالعلوم

والفنون.

إن أصحاب المناهج المخالفة لمنهج السلف يعلمون أنهم ليسوا على طريقهم ، ولكنه التدليس والتلبيس ، وقد رأيت بعض مَنْ كَتَبَ مدعيا أنه على طريقة السلف ، ولكنه قرر في كتابه خلاف قولهم .

ثالثا : نبْزُ أهل السنة بالألقاب الشنيعة :

من طالع كتب المخالفين لمنهج أهل السنة تراهم يرمون أهل السنة بالألقاب التي تُكَرِّه الناس بهم ، فمن ذلك رميهم بالتجسيم والتشبيه ، وقد حاولوا بهذه التهمة الباطلة ، وهذا التزوير للحقائق أن يدنسوا صفحتهم الناصعة البياض عند المسلمين كي يصرفوا الناس عن المنهج الذي سلكوه ، ولكنْ أنى للباطل أن يكسف شمس الحقيقة، وكيف يستطيع الظلام أن يغطي أضواء الحق الساطعة .

وقد اتهم بهذه التهمة الشنيعة الباطلة شيخ الإسلام ابن تيمية ، رماه بها خصومه في حياته وبعد مماته ، وقد كشف شيخ الإسلام زيف ما رمي به في مؤلفاته ، ودافع عنه محبو الحق والحقيقة بعد وفاته ، ومع ذلك فلا يزال بعض الناس ينسبون إليه هذه التهمة الباطلة حتى اليوم .

ففي المناظرة التي جرت بين شيخ الإسلام وعلماء عصره في كتابة « العقيدة الواسطية » يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « وأخذوا ـ أي المناظرون له ـ يذكرون نفي التشبيه والتجسيم ، ويطنبون في هذا ، ويُعْرِضون بما ينسبه بعض الناس إلينا من ذلك »[1] .

وقد ادعى الرحالة ابن بطوطة أنه سمع ابن تيمية يقول من فوق المنبر : إن الله ينزل إلى السماء الدنيا كنزولي هذا ونزل درجة .

والذين بحثوا في هذه المقولة أثبتوا كذب ابن بطوطة ، ففي العام الذي دخل فيه ابن بطوطة دمشق كان ابن تيمية رهين السجن ، ثمَّ إن شيخ الإسلام دَوَّنَ مذهبه في

---

(١) العقيدة الواسطية : ص ٣٠ المكتبة السلفية . القاهرة

الاعتقاد ، وأوضح قوله في هذه المسألة في عشرات المواضع من كتبه ، وكلها تدل دلالة صريحة على براءته مما نسب إليه .

وقد رُمِيَ أتباع إمام أهل السنة الإمام أحمد/ الذي وقف في وجه المعتزلة الذين أرادوا اغتيال هذا الدين وإطفاء نوره بالتجسيم والتشبيه ، ووصفوا بأنهم حشوية .

وقد رد كثير من المحققين على هذه المقولات وأبطلوها وبينوا عوارها[1] ، ومن هؤلاء الشيخ مرعي بن يوسف الكرمي فإنه قال : « ومن العجب أن أئمتنا الحنابلة يقولون بمذهب السلف ، ويصفون الله بما وصف به نفسه ، وبما وصفه رسوله ، من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، ومع ذلك فتجد من لا يحتاط في دينه ينسبهم إلى التجسيم ، ومذهبهم أن المجسِّم كافر ، بخلاف مذهب الشافعية، فإن المجسم عندهم لا يكفر ، فقوم يكفِّرون المجسمة فكيف يقولون بالتجسيم »[2] .

ولم يقف الأمر بهذا الفريق عند حدّ رمي أتباع الأئمة بهذه الألقاب المقيتة ، بل تعدى بعضهم هذا إلى رمي الأئمة الأعلام بهذه التهم الباطلة ، تنفيرا من مذهبهم .

يقول الرازي رحمه الله تعالى :« اعلم أن جماعة من المعتزلة ينسبون التشبيه إلى الإمام أحمد رحمه الله تعالى ، وإسحاق بن راهويه ، ويحيي بن معين ، وهو خطأ .

فإنهم منزهون في اعتقادهم عن التشبيه والتعطيل . لكنهم كانوا لا يتكلمون في المتشابهات ، بل كانوا يقولون آمنا وصدقنا ، مع أنهم كانوا يجزمون بأن الله تعالى لا شبيه له ، وليس كمثله شيء ، ومعلوم أن هذا الاعتقاد بعيد جدّا عن التشبيه »[3] .

ولم يقف هؤلاء عند رمي الأئمة بالتشبيه ، بل غلا بعضهم وَرَمَوْا الرسل بهذه الألقاب الشنيعة ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « الجهمية والمعتزلة إلى اليوم يُسَمُّون من أثبت شيئا من الصفات مشبها كذبا منهم وافتراء ، حتى إن منهم من غلا ورمى

---

(١) انظر العقيدة الواسطية : ص ٣٤

(٢) اقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات لمرعي بن يوسف الحنبلي : ص ٦٤

(٣) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين للرازي : ص ١٦

الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم بذلك ، حتى قال ثَمَامَةَ بن الأَشْرَس من رؤساء الجهمية : ثلاثة من الأنبياء مشبهة : موسى حيث قال : ﴿ إن هي الا فتنتك ﴾[1] . وعيسى حيث قال : ﴿ تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك ﴾[2] . ومحمد صلى الله عليه وسلم حيث قال :« ينزل ربنا »[3] .

وبذلك يتبين أن كل من أثبت الصفات للواحد الأحد هو في نظر نفاتها مشبهة مجسمة ، إلاّ أن بعضهم يرمي بهذه الألقاب أتباع هذا المنهج ولا يتجرؤون على رمي الأعلام به ، وإن كان في قرارة أنفسهم أنهم مشبهة ، ومنهم من يتجرؤون على رمي الأئمة بذلك ، ومنهم من يتهم الرسل بهذه التهمة ، ولن يستطيع السائر على هذا الدرب أن يتخلص من هذه التهم .

يقول الشيخ محمد بن محمد بن أبي العز الحنفي رحمه الله : « ما من أحد من نفاة شيء من الأسماء والصفات إلا يسمي المثبت لها مشبها ، فمن أنكر أسماء الله بالكلية من غالية الزنادقة : القرامطة والفلاسفة ، وقال : إن الله لا يقال له : عالم ولا قادر ، يزعم أن من سماه بذلك فهو مشبه ، لأن الاشتراك في الاسم يوجب الاشتباه في معناه .

ومن أثبت الاسم وقال : هو مجاز كغالية الجهمية ، يزعم أن من قال : إن الله عالم حقيقة ، قادر حقيقة فهو مشبه .

ومن أنكر الصفات ، وقال : إن الله ليس له علم ، ولا قدرة ولا كلام ولا محبة ولا إرادة ، قال لمن أثبت الصفات : إنّه مشبه ، وإنه مجسم .

وكُتُب نفاة الصفات من الجهمية والمعتزلة والرافضة ونحوهم كلها مشحونة بتسمية مثبتة الصفات مشبهة ومجسمة ، ويقولون في كتبهم : إن من جملة المجسمة قوما يقال لهم : المالكية ، ينسبون إلى رجل يقال له : مالك بن أنس ، وقوما يقال

---

(١) سورة الأعراف : ١٥٥

(٢) سورة المائدة : ١١٦

(٣) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : ٥/ ١١٠

لهم: الشافعية ، ينسبون إلى رجل يقال له محمد بن إدريس ، حتى الذين يفسّرون القرآن منهم ، كعبد الجبار والزمخشري وغيرهما يسمون كل من أثبت شيئا من الصفات وقال برؤية الله في الآخرة مشبها ، وهذا الاستعمال قد غلب عند المتأخرين من غالب الطوائف .

ولكن المشهور من استعمال هذا اللفظ عند علماء السنة المشهورين : أنهم لا يريدون بنفي التشبيه نفي الصفات ، ولا يصفون به كل من أثبت الصفات ، بل مرادهم أنه لا يشبه المخلوق في أسمائه وصفاته وأفعاله ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾[1] فنفى المثل وأثبت الصفة »[2] .

وقد أضحى تلقيب أهل السنة بالتشبيه والتجسيم والوقيعة بأهل الأثر معلما من معالم أهل الضلال ، يعرفهم أهل الحق به .

يقول محمد بن محمد بن أبي العز الحنفي : « قال إسحاق بن رَاهَوَيْه : علامة جَهْمٍ وأصحابه : دعواهم على أهل السنة والجماعة ما أولعوا به من الكذب : أنهم مشبهة ، وكذلك قال خلق كثير من أئمة السلف : علامة الجهمية تسميتهم أهل السنة المشبهة »[3] .

وقال ابن أبي حاتم : « علامة أهل البدع الوقيعة في أهل الأثر ، وعلامة الزنادقة : تسميتهم أهل السنة حَشَوِيّة يريدون إبطال الآثار .وعلامة الجهمية : تسميتهم أهل السنة مشبهة »[4] .

وقد تناقل أهل العلم هذه الأقوال وردّدُوها في مدوناتهم ومحاضراتهم.[5]

إن هؤلاء المنحرفين عن كتاب الله وهدي المصطفى المختار ظنوا أن الحق هو ما

---

(١) سورة الشوري: ١١

(٢) شرح العقيدة الطحاوية : ص ١٢١ ، وراجع مجموع فتاوي شيخ الإسلام : ٦/ ٤٠

(٣) شرح العقيدة الطحاوية : ص ١٢١

(٤) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي : ١٧٩

(٥) راجع المصدر السابق : ١/ ١٨٢ ، وعقيدة السلف للصابوني : ص ١٠١

أنتجته عقولهم الباطلة ، ولذلك حكموا بأن الذين ساروا على المنهج الحق بالخطأ والضلال ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « لا بدَّ للمنحرفين عن سنة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يعتقدوا في أهل السنة نقصا يذمونهم به ، ويسمونهم بأسماء مكذوبة »[1] .

رابعا : رميهم أهل السنة بالشرك والكفران .:

ومن أعظم ما دندنوا به دعواهم أنهم على التوحيد ، وأن أهل السنة الذين أثبتوا الصفات مشركون ، ذلك أن إثبات الصفات في زعمهم يعني إثبات قديم أزلي مع الله تبارك وتعالى ، والتوحيد يقضي نفي صفات الباري حتى يكون واحدا لا شريك له ، وقد بينا عوار هذه الشبهة فيما مضى .

---

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : ٥/ ١١١

الخاتمة

يجب أن يبقى منهج أهل السنة متفردًا لا يختلط بغيره

إن من أعظم النعم التي ينعم بها المسلمون أن المنهج الإيماني القرآني الذي أنزله الرب على عبده ورسوله ـ محمد صلى الله عليه وسلم ـ بقي صافيا واضحا بينا لم يختلط بغيره من العقائد الفاسدة والمذاهب الزائغة ، وكان هذا من حفظ الله لدينه ، الذي تكفل به في محكم كتابه .

وقد سبقت الإسلام أديان ومذاهب ، ونشأت مذاهب أخرى بعد نزوله واستقراره ، وكل هذه المذاهب وتلك الأديان يحاول أصحابها حرف الإسلام عن مساره ، والزعم بأنه يمكن التوفيق بين الإسلام وبين غيره من الأديان المحرفة والمذاهب الباطلة .

لقد أجهد الفلاسفة أنفسهم في التوفيق بين حقائق الإسلام وبين خزعبلات الفلاسفة مدعين دعوى المشركين في ذلك حيث حكى عنهم رب العزة أنهم قالوا : ﴿ إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا ﴾[1] واليوم تثور دعوات مشبوهة تنادي بحرارة وقوة للتوفيق بين الإسلام والنصرانية واليهودية والشيوعية زاعماً أصحابها أنهم يريدون الإحسان والتوفيق .

والفرق الإسلامية التي انحرف مسارها وشكلت منهجا عقائديا أو سلوكيا ينادي بعض أتباعها إلى التقارب مع أصحاب المنهج الحق ، وقد انخدع بكل تلك الدعوات بعض أتباع المنهج الحق ، وظنوا أن في ذلك خيرا للإسلام وأهله .

ونحن نقول : إننا لا نرفض الحوار الهادف الذي تكشف فيه الحقائق ، وتُكشف

---

(١) سورة النساء : ٦٢

به العقائد الزائغة والمنحرفة ، فذلك منهج أصيل دعا إليه ديننا ، ولكننا نرفض أن تُحْرَف حقائق الإسلام كي تلتقي مع أباطيل النصرانية واليهودية والشيوعية وغيرها .

ومن هذا المنطلق فإننا ننكر على الذين يجهدون أنفسهم من أهل المنهج الصحيح كي يعقدوا جسورا مع المناهج الخاطئة في باب الأسماء والصفات وفي غيرها .

إن القيمة الكبرى هو أن يبقى المنهج الحق واضح المعالم لطالبي الحق ، ظاهرةً أنواره ، بارزةً خطوطه ، وأن يبقي الفرق بينه وبين غيره مُستَعْلنا ، كي تقوم حجة الله على خلقه ، وكي يستطيع الباحثون عن الهدى أن يعرفوه ، وقد ذم الله اليهود الذين ألبسوا الحق بالباطل ، وخلطوا دين الله بغيره ، فغيروا معالم دين الله ، بحيث أصبح الباحثون عن دين الله يعتاص عليهم الوصول إليه .

لقد رأيت كثيرا من الباحثين المعاصرين من أفاضل أهل العلم انطلت عليهم الحيلة فأصبحوا دعاة للتقريب بين المناهج المنحرفة والمنهج الحق ، وأخذوا يبررون ضلال أهل الباطل ، ويتلمسون لهم المعاذير ، إن المنهج الذي نختطه هو ما علمنا الله إياه في أمره لرسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾[1] .

وختاما نقول كما علمنا الله أن نقول : ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين ﴾[2] .

---

(١) سورة يوسف : ١٠٨

(٢) سورة الصافات : ١٨٠

أهم مراجع البحث

١ـ الإبانة لأبي الحسن الأشعري ، مطبوعات الجامعة الإسلامية . المدينة المنورة .

٢ـ أبجد العلوم لصديق حسن خان . وزارة الثقافة . سوريا . الأولى . ١٩٨٨ م .

٣ـ أحكام القرآن لابن العربي . مكتبة عيسى البابي الحلبي . ١٣٠٧ هـ =١٩٦٧م .

٤ـ بدائع الفوائد لابن القيم . دار الكتاب العربي . بيروت .

٥ـ أعلام الموقعين .دار الكتب الحديثة . القاهرة . ١٣٨٩هـ = ١٩٦٩ م .

٦ـ ايثار الحق لابن الوزير ، دارالكتب العلمية . بيروت الأولى ١٤٠٣ هـ =١٩٨٣ م .

٧ـ بصائر ذوي التميز للفيروز آبادي . طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية . القاهرة .

٨ ـ البداية والنهاية لابن كثير . مكتبة المعارف ، بيروت . الثانية . ١٣٩٤ هـ =١٩٧٤ م .

٩ـ البرهان الساطع لابن الوزير . المكتبة السلفية القاهرة .

١٠ـ تاريخ المعتزلة والجهمية . لجمال الدين القاسمي . مؤسسة الرسالة ـ بيروت . الأولى ١٣٩٩هـ =١٩٧٩م .

١١ـ التحف في مذاهب السلف للشوكاني . مطبوع ضمن مجموعة الرسائل المنيرية .

١٢ـ ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان لابن الوزير . دار الكتب العلمية . بيروت .

١٣ـ تفسير ابن كثير . طبعة دار الأندلس . بيروت الأولى . ١٣٨٥هـ = ١٩٦٤ م.

١٤ـ تفسير الطبري . مصطفى البابي الحلبي . القاهرة . الثانية . ١٣٧٣ هـ =١٩٥٤ م .

١٥ـ تلخيص الحبير لابن حجر . شركة الطباعة الفنية . القاهرة .

١٦ـ تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة والموضوعة .

١٧ـ جامع الأصول في أحاديث الرسول لابن الأثير . مكتبة الحلواني وآخرون سوريا . ١٣٩١هـ=١٩٧١ م .

١٨ـ خبيئة الأكوان في افتراق الأمم على الأديان لمحمد صديق خان . دار الكتب العلمية . بيروت . الأولى ١٤٠٥ هـ=١٩٨٤ م .

١٩ـ دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية . د. عرفان عبدالحميد ، مؤسسة الرسالة . بيروت . الأولى ١٤٠٤ هـ=١٩٨٤ م .

٢٠ ـ الرسالة المدنية لشيخ الإسلام ابن تيمية . دار طيبة . الرياض . الأولى ١٤٠٨ هـ .

٢١ ـ دعوة التوحيد لمحمد خليل الهراس . مكتبة طنطا . مصر .

٢٢ـ الدين الخالص لصديق خان . مكتبة دارالعروبة القاهرة . ١٣٧٩ هـ١٩٧٩ م .

٢٣ـ الرد على الزنادقة والجهمية للإمام أحمد بن حنبل . المطبعة السلفية .القاهرة ١٣٩٩ هـ .

٢٤ـ رسائل العدل والتوحيد . للقاضي عبدالجبار وآخرون . دار الشروق . القاهرة . الثانية ١٤٠٨ هـ=١٩٨٨ م .

٢٥ ـ سبل السلام شرح بلوغ المرام للصنعاني . دار الفرقان ـ عمان .

٢٦ ـ السنة لابن أبي عاصم . المكتب الإسلامي . بيروت . الأولى ١٤٠٠هـ=١٩٨٠ م .

٢٧ـ سنن ابن ماجة . طبعة دار احياء الكتب العربية . القاهرة تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي . ١٩٧٣ هـ=١٩٥٣ م .

٢٨ـ سنن الترمذي . دار التراث العربي ـ بيروت .

٢٩ـ شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي ، نشر دار طيبة ـ الرياض .

٣٠ ـ شرح العقيدة الأصفهانية لابن تيمية ، دار الكتب الحديثة . القاهرة .

٣١ـ التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد لابن عبدالبر ـ نشر وزارة الأوقاف في المملكة المغربية ١٣٩٩ هـ=١٩٧٩ م .

٣٢ـ شرح العقيدة الطحاوية لمحمد بن محمد ابن أبي العز الحنفي . المكتب الإسلامي . بيروت .

٣٣ـ صحيح البخاري . اعتمدنا على متن فتح الباري . طبعة السلفية . القاهرة . الأولى .

٣٤ـ صحيح الجامع الصغير . المكتب الإسلامي . بيروت ـ الأولى .

٣٥ـ صحيح سنن ابن ماجة . مكتب التربية العربي لدول الخليج . ١٤٠٨ هـ =١٩٨٨م .

٣٦ـ صحيح سنن الترمذي . مكتب التربية العربي لدول الخليج الأولى ١٤٠٨ هـ = ١٩٨٨ م .

٣٧ـ مسند الإمام أحمد . تصوير المكتب الإسلامي . بيروت .

٣٨ـ صحيح مسلم بشرح النووي . المطبعة المصرية ومكتبتها .

٣٩ـ الصواعق المرسلة لابن القيم . مطبعة الإمام القاهرة .

٤٠ ـ العقود الياقوتية لابن بدران ـ مطبعة الصحابة ـ الكويت الأولى ١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م .

٤١ـ العقيدة الواسطية لابن تيمية . المكتبة السلفية . القاهرة . الطبعة التاسعة ١٣٩٩ هـ .

٤٢ـ فتح الباري لابن حجر . المكتبة السلفية . القاهرة الأولى .

٤٣ ـ الفرق بين الفرق لعبدالقاهر البغدادي . دار المعرفة ـ بيروت . تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد .

٤٤ـ فضائح الباطنية للغزالي . الدار العربية للطباعة والنشر . ١٣٨٣ هـ = ١٩٦٤ م .

٤٥ ـ الفوائد لابن القيم . مكتبة صبيح . القاهرة .

٤٦ـ القرامطة لابن الجوزي . نشر المكتب الإسلامي . بيروت . ١٤٠١ هـ =١٩٨ م .

٤٧ ـ لسان العرب . ترتيب يوسف خياط ونديم مرعشلي . دار لسان العرب . بيروت . الأولى .

٤٨ـ لوامع الأنوار البهية . للسفاريني . طبع دولة قطر .

٤٩ـ مجموع فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية . جمع ابن قاسم . نشر المملكة العربية السعودية .

٥٠ـ المحلى لابن حزم . المكتب التجاري . بيروت تحقيق أحمد شاكر .

٥١ـ مذهب الباطنية لمحمد بن الحسن الديلمي . مكتبة دار ابن قتيبة ـ الكويت .

٥٢ـ مشكاة المصابيح . المكتب الإسلامي ـ الأولى .

٥٣ـ معارج القبول للشيخ حافظ بن أحمد الحكمي . مطبوعات دائرة الإفتاء بالمملكة العربية السعودية .

٥٤ـ الملل والنحل للشهرستاني . دار المعرفة للطباعة بيروت . الثانية ١٣٩٥ هـ = ١٩٧٥ م .

٥٥ـ مفتاح دار السعادة لابن القيم . مطبعة صبيح . القاهرة .

٥٦ـ مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري . دار احياء التراث العربي ـ بيروت .

٥٧ـ الملل والنحل للشهرستاني .دار المعرفة للطباعة بيروت . الثانية ١٣٩٥ هـ = ١٩٧٥م .

٥٨ـ موسوعة الأسماء الحسنى للشرباصي . الأولى ١٤٠٢هـ = ١٩٨١ م .

٥٩ـ نهاية الإقدام في علم الكلام للشهرستاني . مكتبة المثنى ـ بغداد .

٦٠ـ نيل الأوطار للشوكاني مصطفى البابي الحلبي . القاهرة .

الفهرس

كلمة الافتتاح ٧

المقدمة

المبحث الأول : موضوع هذه الدراسة وغايتها ١٣

المبحث الثاني : الطريق إلى معرفة أسماء الله وصفاته ١٥

المبحث الثالث : أهمية العلم بأسماء الله وصفاته ١٨

المطلب الأول : العلم بأسماء الله وصفاته هو الطريق إلى
معرفة الله ١٨

المطلب الثاني : تزكية النفوس وإقامتها على منهج
العبودية للواحد الأحد ٢١

المطلب الثالث : العلم بأسماء الله وصفاته أشرف العلوم ٢٥

المطلب الرابع : العلم بأسماء الله وصفاته أصل للعلم
بكل ما سواه ٢٧

المطلب الخامس : زيادة الإيمان ٢٨

المطلب السادس : عظم ثواب من أحصى اسماء الله ٢٩

المطلب السابع : تعظيم الله وتمجيده ودعاؤه
بأسمائه وصفاته ٣٢

المطلب الثامن : العلم بالله وفق المنهج القرآني النبوي ٣٧

المبحث الرابع : فوائد مزعومة ٣٩

المطلب الأول : الزعم بأن للأسماء خواصاً وأسرار خفيه ٣٩
المطلب الثاني : المطالبة بالتشبه بأسماء الله ٤٠

الفصل الأول : أسماء الله الحسنى

المبحث الأول : تحقيق القول في عدد أسماء الله ٤٣
المبحث الثاني : تعين اسماء الله الحسنى ٤٨
المبحث الثالث : الضوابط والقواعد التي تحدد في
ضوئها اسماء الباري عز وجل ٥٥
المطلب الأول : الإقتصار في عددها على الكتاب والسنة ٥٥
المطلب الثاني : ليس كل ما أخبرت به النصوص فهو من أسماء
الله عز وجل ٥٦
المطلب الثالث : لا يجوز أن يشتق لله أسماء من صفاته
وأفعاله ٥٧
المطلب الرابع : لا يجوز أن يسمى الحق بالأسماء المذمومة ٥٨
المطلب الخامس : لا يجوز أن تنقص عدة اسمائه
عن تسعة وتسعين اسماً ٥٩
المطلب السادس : كل اسم لا يقبل أن يدعى به فإنه
ليس من اسماء الله ٥٩
المطلب السابع : لا يدخل في اسماء الله تعالى ما كان من
صفات افعاله أو صفات اسمائه ٦١
المطلب الثامن : لا يخرج من اسماء الله ما اتفق معناه
وتغاير لفظه ٦١

المطلب التاسع : لا يجوز استثناء الأسماء المضافة من دائرة اسماء الله الحسنى إذا وردت في الكتاب والسنة ٦٢
المطلب العاشر : صحة تعبيد اسماء العباد بأسماء الله ٦٣
المطلب الحادي عشر : الأسماء الجامدة ليست من أسمائه ٦٣
المطلب الثاني عشر : لا يدخل في اسمائه ما بدئ بذو ٦٤
المطلب الثالث عشر : ما جاء على صيغة أفعل التفضيل ٦٥
المبحث الرابع : تحديد اسماء الله في ضوء الضوابط السابقة ٦٦
القسم الأول : ما ورد في القرآن ٦٦
القسم الثاني : ما ورد في السنة ٧٤
المبحث الخامس : اقسام اسماء الله وصفاته ٨٠
المطلب الأول : اقسام الأسماء والصفات ٨٠
المطلب الثاني : دلالة اسماء الله تعالى على ذاته وصفاته ٨٣
المطلب الثالث : أسماء الله الحسنى اعلام مترادفة وأوصاف متباينة ٨٤
المطلب الرابع : اسماؤه تبارك وتعالى متفاضلة ٨٦
اسم الله الأعظم ٨٦
المطلب الخامس : الحقيقة والمجاز في اسماء الباري ٩٠
المطلب السادس : علاقة صفات الله بذاته ٩١

الفصل الثاني : عقيدة أهل الحق في أسماء الله وصفاته

المبحث الأول : التعريف بأهل الحق أهل السنة والجماعة ٩٣
المبحث الثاني : الأسس التي تقوم عليها عقيدة أهل السنة والجماعة في أسماء الله وصفاته ٩٧

الأساس الأول : اثبات ما أثبته الله ورسوله ٩٧
الأساس الثاني : اعتقادهم أن اسماء الله كلها حسنى
وصفاته كلها كاملة عليا ١٠٢
- الأدلة على اتصاف الباري جل وعلا بصفات الكمال .. ١٠٣
- من كمال اسماء الله وصفاته كونه - تبارك وتعالى -
متصفاً بها أزل وأبداً ١٠٩
- ما يجوز إطلاقه على الباري وما لا يجوز ١١١
الأساس الثالث : تنزيه الباري عن التشبيه والتمثيل وكل
صفات النقص ١١٧
- الفرق بين تنزيه الرسل وأتباعهم وتنزيه المعطلة ١١٩
الأساس الرابع : اجراء الصفات على ظاهرها ١٢١
الأساس الخامس : الاجمال في النفي والتفصيل في
الإثبات ١٢٤
الأساس السادس : الوقف في اسماء الله وصفاته ١٢٨
الأساس السابع : ترك البحث في صفة الذات الإلهية
والصفات التي تستحقها ١٣٦
الأساس الثامن : عدم الالحاد في اسماء الله وصفاته ١٣٧
انواع الالحاد في اسماء الله وصفاته ١٣٨
المبحث الثالث: الأدلة على ما ذكرناه في المبحث السابق
في معتقد السلف ١٤١
المبحث الرابع : خصائص المنهج السلفي ١٤٤

الفصل الثالث : المخالفون لمذهب السلف في باب اسماء الله وصفاته

المبحث الأول : الذين يصفون الباري بصفات النقص ١٥٣

المبحث الثاني : الذين يشبهون الله في خلقه ١٥٥

المبحث الثالث : نفاة الصفات وفرقهم ١٥٨

المطلب الأول : الفرقة الأولى الفلاسفة ١٥٨

المطلب الثاني : الفرقة الثانية الجهمية ١٦٠

مذهب الجهمية في صفات الله ١٦٥

المطلب الثالث : الفرقة الثالثة المعتزلة ١٦٩

المبحث الرابع : الشبه التي اعتمدها نفاة الصفات والرد عليها ...١٧٣

المطلب الأول : شبه نفاة الصفات ١٧٣

المطلب الثاني : الرد على شبه هؤلاء ١٧٥

الفصل الرابع : اسباب الاختلاف في باب الأسماء والصفات ١٩٤

الفصل الخامس مذهب السلف الصالح في معترك الصراع

المبحث الأول : مزاحمة المناهج الباطلة لما جاء بهالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ٢١٠

المبحث الثاني : الأدلة على أن معتقد السلف هو الأعلم والأسلم والأحكم ٢١٣

المبحث الثالث : تناقض علماء الكلام وحيرتهم واضطربهم

موقف علماء السلف من مخالفيهم ٢١٦

المبحث الخامس : تشويه مذهب السلف الصالح ٢٢٦

الخاتمة : يجب أن يبقى منهج أهل السنة متفرداً لا يختلط بغيره ٢٣٣

المراجع ٢٣٥

هذا الكتاب

هذا الكتاب بيان لمذهب أهل السنة والجماعة في باب أسماء الله وصفاته ، وقد عرض المؤلف فيه الأسس التي يقوم عليها مذهبهم والخصائص التي تميزهم عن غيرهم ، وتجلّي في الوقت نفسه معالم المنهج القرآني النبوي في هذا الموضوع .

وقد عرض المؤلف للمناهج المنحرفة التي تزاحم منهج أهل الحق ، وأبان عوار ما جاءَت به بالحجة والبرهان ، ودعى في خاتمة البحث إلى التزام المذهب الأسلم والأعلم والأحكم مذهب أهل السنة والجماعة .

الناشر

سلسلة العقيدة في ضوء الكتاب والسنة

عمر الأشقر

	الكتاب	الصفحة
1	العقيدة في الله	2
2	عالم الملائكة الأبرار	332
3	عالم الجن والشياطين	444
4	الرسل والرسالات	668
5	القيامة الصغرى	949
6	القيامة الكبرى	1251
7	الجنة والنار	1534
8	القضاء والقدر	1807
+	أسماء الله وصفاته في معتقد أهل السنة والجماعة	1924.

قناة الكتب المدمجة

دمج وفهرسة الكتب ذات الأجزاء المتعددة